حديث الشهر

من رحمة الله بهذه الأمة أن بعث فيها نبي الهدى والرحمة ﷺ كي يخرجها من ظلمات الجهل والشرك والضلالة إلى نور الإيمان والعلم والتوحيد، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

وقد بلّغ ﷺ ما أنزله عليه ربه أتم تبليغ، وربىّ وعلّم وجاهد في سبيل ذلك حتى أتاه اليقين صلوات الله وسلامه عليه.

نماذج من هدي

وقد أمرنا ربنا أن نقتدي به ونستن بهديه وسنته، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ومساهمة مني في الإشارة إلى هديه وسنته ﷺ في التربية والتعليم كتبت هذه النماذج باعتباره ﷺ المعلم الأول لهذه الأمة.

النموذج الأول: التعجيل بالبشرى للمتعلم

قد تدعو الحاجة إلى أن يبشر المُربِّي المتربي بأمر يعود عليه بالنفع والخير، وذلك شحذًا للهمم، ودعوة إلى تحمل المشاق التي تعترضه في طريقه.

فقد روى البخاري من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: بينما أنا عند النبي ﷺ، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه رجل فشكا إليه قطع السبيل، فقال لعدي: «هل رأيت الحيرة؟» قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: فإن طالت بك حياة لترين الظعينة- المرأة في الهودج- ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلى الله». قلت فيما بيني وبين نفسي: فأين دعّارطيء الذين قد سعّروا البلاد؟» ولئن طالت بك حياه لتفتحنّ كنوز كسرى. قلت: كسرى بن هرمز؟ قال: «كسرى بن هرمز، ولئن طالت بك الحياة لترينّ الرجل يخرج ملء كفه من ذهب أو فضة يطلب من يقبله منه فلا يجد أحدًا يقبله منه». الحديث، وفيه قال عدي: فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله، وكنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز، قال: ولئن طالت بكم حياة لترون ما قال النبي ﷺ.

النموذج الثاني: استفتاح الكلام بما سيق له مما يهيئ السامع للاستجابة والقبول

مثاله: حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا به إلى القبر ولمّا يلحد، فجلس رسول الله ﷺ وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه وقال: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» مرتين أو ثلاثًا، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال على الآخرة. الحديث.

وفي هذا الحديث مواقف تربوية هادفة:

- منها: بيان كيفية التأدب والجلوس عند المعلم.
- ومنها: أن نكت الأرض بعود أو نحوه عند التفكر ليس من العبث، لأنه قد يكون أدعى إلى جمع القلب على التفكر.
- ومنها: أن من تمام حسن الكلام ابتداءه بما يشعر به سياق الحديث، وأن قوله ﷺ: «استعيذوا بالله من عذاب القبر» يشعر بما يأتي بعده من كلام مما يتعلق بعذاب القبر فيكمل الإصغاء إلى الحديث.

الرسول ﷺ في التربية

د. عبد الله شاكر

النموذج الثالث: الرفق في القول والعمل:

من هديه ﷺ في التربية الرفق واللين في مخاطبة من يعلّمهم ويدعوهم، وقد قال الله له: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقد استجاب صلوات الله وسلامه عليه لأمر ربه ، فكان المثل الأعلى في الرفق واللين - كما هو شأنه في الصفات الطيبة الحميدة التي ربّاه ربّه عليها، فقد روى البخاري بإسناده عن عائشة رضي الله عنها قالت : دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا : السّام عليكم . قالت عائشة: ففهمتها، فقلت: وعليكم السّام واللعنة، قالت: فقال رسول اللّه ﷺ: «مهلاً يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله».

وعن عائشة عند مسلم : «إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف وما لا يعطي على ما سواه». والمعنى أنه يتأتى معه من الأمور ما لا يتأتى مع ضده وهو العنف، وفي حديث جرير: «من يحرم الرفق يحرم الخير كله».

النموذج الرابع: بث روح المسئولية والشورى

أمر الله نبيه ﷺ بالشورى، وأصبحت بذلك مبدأ من مبادئ العمل الجماعي الإسلامي وهي تحقق المشاركة بين الحاكم والرعية في اتخاذ القرار ، وبذلك تتوزع المسئولية بين الراعي والرعية، كما أنها خير وسيلة للكشف عن الكفاءات والقدرات لدى الأفراد، قال الله لنبيه ﷺ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

ولقد طبقها ﷺ في مجتمعه بين أصحابه ورباهم عليها ، وفي السيرة النبوية الشريفة نماذج متعددة للشورى . منها: ما حصل في غزوة بدر لما نزل رسول اللّه ﷺ عند أدنى ماء من مياه بدر، وهنا قام الحباب بن المنذر رضي الله عنه ، وقال : يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكم الله ليس لنا أن نتقدمه وأن نتأخر عنه ؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأي والحرب والمكيدة. قال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل، فانهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ماء وراءه- أي نخرب - فنهض رسول اللّه ﷺ بالناس، حتى أتى أقرب ماء من العدو فنزل عليه.

وفي غزوة أحد عقد النبي ﷺ مجلسًا استشاريًا مع أصحابه لما علم بوصول جيش المشركين إلى مشارف المدينة، وأخذ برأي مجموعة من الشباب المتحمسين وخرج إلى أعدائه عند أحد، وهكذا كانت حياته ﷺ بين أصحابه تربية وإعدادًا وتعليمًا، والنماذج في هذا الجانب كثيرة، أكتفي هنا بما ذكرت منها.

والحمد لله رب العالمين.

واجب المكلف نحو

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على النبي المصطفى الأمين وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين - وبعد:

فإن توحيد الله وعبادته أهم مقصود بعث به الأنبياء المرسلون، كما جاء ذكر ذلك في كثير من آيات التنزيل، كقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦]، وكقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء:٢٥].

وهكذا كل نبي كان يدعو قومه إلى هذا الأمر العظيم، كما جاء في مواطن قصصهم في القرآن الكريم، ومنه قوله تعالى عن نوح وهود وصالح وشعيب وغيرهم أنهم قالوا لأقوامهم: «اعبدوا الله ما لكم من إله غيره»، ولهذا كان أول واجب على المكلف هو معرفة الله وتوحيده وعبادته، وهذا أول تكليف نزل من عند رب العباد للعباد، وكان النبي ﷺ يدعو إليه ويأخذ البيعة من أصحابه عليه امتثالا لأمر ربه إليه. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لاَ يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلاَ يَسْرِقْنَ وَلاَ يَزْنِينَ وَلاَ يَقْتُلْنَ أَوْلاَدَهُنَّ وَلاَ يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلاَ يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الممتحنة:١٢]، وهذه الآية وإن كانت في بيعة النساء فإن النبي ﷺ كان يبايع الرجال على مضمونها كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه: «بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا ثم ستره الله فهو إلى الله: إن شاء عفا عنه، وإن شاء عاقبه»(١)، وكان ﷺ يتعاهد أصحابه على ما جاء في مضمون هذه البيعة من إفراد الله بالتوحيد ونفي الشريك، لأن هذا هو أول الواجبات على العباد، ففي حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ تسعة أو ثمانية أو سبعة، فقال: ألا تبايعون رسول الله؟ وكنا حديثي عهد ببيعة، فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال: ألا تبايعون رسول الله؟ فقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، ثم قال ألا تبايعون رسول الله؟ قال: فبسطنا أيدينا وقلنا: قد بايعناك يا رسول الله، فعلام نبايعك؟ قال: على أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا، والصلوات الخمس، وتطيعوا (وأسرَّ كلمة خفية)، ولا تسألوا الناس شيئا»، فلقد رأيت بعض أولئك النفر يسقط سوط أحدهم، فما يسأل أحدا يناوله إياه(٢)، كما كان رسول الله ﷺ يرسل دعاته ومعلميه إلى ملوك البلاد يدعونهم فيها إلى عبادة الله وحده دون سواه.

التوحيد أول واجب على العبيد

وقد قال البخاري في أول كتاب التوحيد من صحيحه: «باب ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله تبارك وتعالى»، ثم ساق بسنده حديث ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ لما بعث معاذا نحو أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول

توحيد الله وعبادته

بقلم
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

التوحيد أول دعوة الرسل وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى

التوحيد أول الأمر وآخره فهو أول ما يدخل به المرء في دين الله، وهو آخر ما يخرج به من الدنيا

ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»(٣)، وفي رسالته ﷺ إلى هرقل عظيم الروم ما يؤكد هذه الحقيقة، وقد جاء فيها: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم ـ سلام على من اتبع الهدى ـ أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين، فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين(٤)، ﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران:٦٤]»(٥)، فهذه نصوص صريحة واضحة تثبت أن توحيد العبادة وإفراد الله بالوحدانية هو أول ما جاءت به الرسل ـ عليهم الصلاة والسلام وقد ذهب إلى هذا أهل السنة والجماعة، قال الحافظ البيهقي ـ رحمه الله تعالى ـ: «باب أول ما يجب على العاقل البالغ معرفته والإقرار به. قال الله جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ ﴾، وقال له ولأمته: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلاَكُمْ ﴾، وقال: ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾، وقال: ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ﴾. الآية، فوجب بالآيات قبلها معرفة الله تعالى وعلمه، ووجب بهذه الآية الاعتراف به والشهادة له بما عرفه، ودلت السنة على مثل ما دلَّ عليه الكتاب، ثم ساق بسنده حديث جابر وأبي هريرة رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل»(٦)، وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «التوحيد أول دعوة الرسل، وأول منازل الطريق، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله تعالى. قال تعالى: ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ﴾...، فالتوحيد: أول ما يدخل به في الإسلام، وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال ﷺ: «من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة»، فهو أول واجب وآخر واجب، فالتوحيد: أول الأمر وآخره»(٧).

موقف المتكلمين من أول الواجبات على العبد ورد علماء الإسلام عليهم

ومع وضوح هذه الحقيقة من كتاب ربنا وسنة نبينا ﷺ ودعوة المرسلين من قبله ذهب فريق من علماء الكلام إلى أن أول واجب على

أول واجب على المكلف الإقرار بالشهادتين وليس النظر أو القصد إلى النظر ولا الشك..

المكلف هو النظر، أو أول جزء من النظر، أو القصد إلى النظر، ثم رتبوا على كلامهم هذا فروعا فقالوا: إن قلنا الواجب النظر، فمن أمكنه زمان يسع النظر التام ولم ينظر فهو عاصي، ومن لم يمكنه أصلا فهو كالصبي، ومن أمكنه ما يسع النظر دون تمامه ففيه احتمال والأظهر عصيانه(٨)، كما ذهب فريق من المعتزلة إلى القول بالشك، وأوجبه أبو هاشم وطائفة معه وجعلوه أول الواجبات(٩)، وهذا كلام لا يتفق مع ما سبق ذكره من أدلة، ولا مع دعوة الأنبياء والمرسلين، ولهذا أبطله جمع من العلماء.

قال شيخ الإسلام الإمام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: «ولا ريب أن المؤمنين على عهد رسول الله ﷺ والصحابة والتابعين، لم يكونوا يؤمرون بالنظر الذي ذكره أهل الكلام المحدث، كطريق الأعراض والأجسام»(١٠)، وقال ابن القيم: «... ولهذا كان الصحيح: أن أول واجب على المكلف: شهادة أن لا إله إلا الله. لا النظر، ولا القصد إلى النظر، ولا الشك، كما هي أقوال أرباب الكلام المذموم»(١١)، وعقب شارح الطحاوية على قول ابن القيم فقال: «بل أئمة السلف كلهم متفقون على أن أول ما يؤمر به العبد الشهادتان، ومتفقون على أن من فعل ذلك قبل البلوغ لم يؤمر بتجديد ذلك عقيب بلوغه، بل يؤمر بالطهارة والصلاة إذا بلغ أو ميز عند من يرى ذلك، ولم يوجب أحد منهم على وليه أن يخاطبه حينئذ بتجديد الشهادتين، وإن كان الإقرار بالشهادتين واجبا باتفاق المسلمين ووجوبه يسبق وجوب الصلاة، لكن هو أدى هذا الواجب قبل ذلك»(١٢).

وقال الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي - رحمه الله -:

أول واجب على العبيد
معرفة الرحمن بالتوحيد

ثم شرح ذلك فقال: «أول واجب فرضه الله عز وجل على العبيد هو معرفة الرحمن، أي: معرفتهم إياه بالتوحيد الذي خلقهم له، وأخذ عليهم الميثاق به، ثم فطرهم شاهدين مقرين به، ثم أرسل رسله إليهم، وأنزل به كتبه عليهم»(١٣).

والحمد لله رب العالمين

هوامش:

(١) أخرجه البخاري في مواطن من كتاب الإيمان باب ١١ جـ١/٦٤، وهذا لفظه، ومسلم في كتاب الحدود باب ١٠ وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب ٣٥، وأبو داود والنسائي وابن ماجة وأحمد.

(٣) البخاري مع الفتح جـ١٣/٣٤٧.

(٤) أي الفلاحين.

(٥) أخرجه البخاري. كتاب بدء الوحي باب ٦ جـ١/٣٢.

(٦) الاعتقاد للبيهقي ص٥٢٤.

(٧) مدارج السالكين جـ٣/٤٦٢.

(٨) المواقف في علم الكلام للإيجي ص٣٢، ٣٣.

(٩) شرح المواقف جـ١/٢٧٨، ودرء التعارض جـ٧/٤١٩.

(١٠) درء التعارض جـ٧/٤٠٨.

(١١) مدارج السالكين جـ٣/٤٦٢.

(١٢) شرح الطحاوية جـ١/٢٣.

(١٣) معارج القبول جـ١/٥٣

واجب المكلف نحو

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه وسلم، أما بعد:

فقد بينت في الحلقة السابقة بالأدلة الواضحة أن أول الواجبات على العباد توحيد الله وعبادته وحده دون سواه، عكس ما ذهب إليه علماء الكلام، ووصلاً للحديث حول هذا الموضوع أقول: إن الله قد أخذ العهد والميثاق على جميع بني آدم وهم في ظهره على هذا التوحيد، وقد اعترفوا بذلك وأقروا به كما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «أخذ الله الميثاق من ظهر آدم بنعمان- يعني عرفة - فأخرج من صلبه كل ذرية ذرأها فنثرهم بين يديه كالذر، ثم كلمهم قبلا قال : ألست بربكم ؟ قالوا: بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين، أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم أفتهلكنا بما فعل المبطلون».

[أخرجه أحمد في المسند ج١/٧٢، والحاكم في المستدرك ج٢/٥٤٤ وغيرهما]

وقد تلقى إخراج الذرية من ظهر آدم وإشهادهم على أنفسهم السلف الصالح من الصحابة والتابعين دون اختلاف بينهم، منهم عبد الله بن عمرو، وعبد الله بن مسعود، وناس من الصحابة.

[السلسلة الصحيحة: ج٤/١٥٩]،

وذكر ابن القيم عن ابن الأنباري أنه قال : «مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم في هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وصلب أولاده وهم في صور الذر ، فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون فاعترفوا بذلك وقبلوا...»، كما نقل عن إسحاق بن راهويه قوله: «وأجمع أهل العلم أن الله خلق الأرواح قبل الأجساد، وأنه استنطقهم وأشهدهم». [الروح لابن القيم: ص١٦٣]

وقال الشوكاني رحمه الله في الآية: «والمعنى أن الله سبحانه لما خلق آدم مسح ظهره فاستخرج منه ذريته وأخذ عليهم العهد ، وهؤلاء هم عالم الذر، وهذا هو الحق الذي لا ينبغي العدول عنه ولا المصير إلى غيره لثبوته مرفوعًا إلى النبي ﷺ موقوفًا على غيره من الصحابة ، وإذا جاء نهر الله بطل نهر معقل». [فتح القدير ج٢/٢٦٣]. ومعنى: «كلمهم قبلا» الواردة في الحديث السابق ؛ أي : عيانًا ومقابلة ، لا من وراء حجاب ، ومن غير أن يُولِّي أمره أو كلامه أحدًا من ملائكته [النهاية في غريب الحديث والأثر: ج٤/٨]. والفطرة الإنسانية شاهدة باحتياج الإنسان إلى مدبر، يُسْتغنى به ولا يُستغنى عنه ، ويُتوجه إليه ولا يُعْرَض عنه، ويُفْزَع إليه في الشدائد ، وعلى هذا النهج كانت تعريفات الحق سبحانه كقوله: ﴿ أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [النمل: ٦٢]، وفي الحديث الذي أخرجه مسلم عن عياض بن حمار المجاشعي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته : «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مالٍ نحلته عبدًا حلالٌ ، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم ، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرَّمت عليهم ما أحللت لهم وأمرتهم أن لا يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا». قال النووي رحمه الله: «وإني خلقت عبادي حنفاء» أي : مسلمين، وقيل : طاهرين من

توحيد الله وعبادته

بقلم
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

المعاصي ، وقيل مستقيمن منبين لقبول الهداية، وقيل: المراد حين أخذ عليهم العهد في عالم الذر وقال ألست بربكم قالوا بلى». [شرح النووي على مسلم ج١٧/١٩٧]، ويؤكد هذا ويدل عليه أن خلق عباده على الفطرة كما في حديث الصحيحين من رواية أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه...» [أخرجه البخاري في مواطن منها كتاب الجنائز باب ٧٩، وباب ٩٢، ومسلم في كتاب القدر وغيرها].

والمراد بالفطرة : الإسلام ، وقد جبل الله العباد في عليه في أصل الخلقة .

قال ابن حجر رحمه الله : «وأشهر الأقوال أن المراد بالفطرة الإسلام».

قال ابن عبد البر : وهو المعروف عند عامة السلف ، وأجمع أهل العلم بالتأويل على أن المراد بقوله تعالى : ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ الإسلام». [فتح الباري: ج٣/٢٤٨].

ولهذا لم يسجل لنا القرآن الكريم ولا التاريخ بصورة عامة نبأ كائن أنكر وجود الله لتمكن فطر العباد من هذا الأمر ، حتى العقائد الوثنية التي قالت بإلهين جعللت التقديس والتعظيم لإله واحد ، كما فعل المجوس الذين قالوا بالأصلين ، حيث ذهبوا إلى أن أحدهما أزلي وهو النور والظلمة محدثة. [الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج٢/٧٢].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «... بل جمهور العقلاء مطمئنون إلى الإقرار بالله تعالى ، وهم مفطورون على ذلك ، بل إقرار القلوب به قد لا يحتاج إلى وسط وطريق ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، وأشهر من عرف تجاهله وتظاهره بإنكار الصانع فرعون ، وقد كان مستيقنًا في الباطن كما قال موسى : ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ﴾، وقال تعالى عنه وعن قومه : ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [درء تعارض العقل والنقل ج٨/٣٧، ٣٣٨]، وقال شارح الطحاوية : «وهذا التوحيد لم يذهب إلى نقيضه طائفة معروفة من بني آدم ، بل القلوب مفطورة على الإقرار به أعظم من كونها مفطورة على الإقرار بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل - عليهم السلام - فيما حكى الله عنهم: ﴿قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [شرح الطحاوية ج١/٢٦، ٢٧] »، ولهذا لم تكن رسالة الرسل في دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله وربوبيته، إذ كان هذا مستقرًا في القلوب والفطر، وإنما كانت دعوتهم إلى توحيد الله في إلهيته دون سواه ،

لم تكن رسالة الرسل في دعوة الناس إلى الإيمان بوجود الله وربوبيته، إذ كان هذا مستقرا في القلوب والفطر، وإنما كانت دعوتهم إلى توحيد الله في الهيته دون سواه

وعدم الإشراك به في أي لون من ألوان العبادة، قال الله تعالى لنبيه صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، وقال عن دعوة الرسل عليهم السلام : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء : ٢٥]، ولم يقل: لا رب سواي ، لأن هذا معروف في فطر العباد، ولكنه قال : «لا إله إلا أنا» لتقرير توحيد الإلهية ، ولهذا أمر بعدها مباشرة بالعبادة ، فقال : «فاعبدون» ، وهذه هي الغاية من بعثة جميع الأنبياء والمرسلين بنص التنزيل ، وهو واضح بحمد الله لا يحتاج إلى شك فيه أو نظر ، أو تكلف استدلال ، ولقد قبل النبي ﷺ إيمان من آمن بدين الإسلام بدون المقدمات التي ابتدعها علماء الكلام ، وحكم لهم بحكم الإسلام، وفيهم الراعي والراعية والغلام ، وجرى على هذا المنوال الصحابة الكرام - عليهم من الله الرضوان - ولإمام العقل والنقل شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كلام جيد ومفيد في هذا الموضوع يقول فيه: «والنبي ﷺ لم يَدْعُ أحدًا من الخلق إلى النظر ابتداءً ، ولا إلى مجرد إثبات الصانع ، بل أول ما دعاهم إليه الشهادتان وبذلك أمر أصحابه، وهذا ما اتفق عليه أئمة الدين وعلماء المسلمين، فإنهم مجمعون على ما عُلم بالاضطرار من دين الإسلام أن كل كافر فإنه يدعى إلى الشهادتين سواء كان معطلاً ، أو مشركًا ، أو كتابيًا ، وبذلك يصير الكافر مسلمًا ، ولا يصير مسلمًا بدون ذلك ، قال أبو بكر بن المنذر : أجمع كل من أحفظ عنه من أهل العلم على أن الكافر إذا قال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، وأن كل ما جاء به محمد حق ، وأبرأ إلى الله من كل دين يخالف دين الإسلام- وهو بالغ صحيح يعقل - أنه مسلم ، فإن رجع بعد ذلك فأظهر الكفر كان مرتدًا، يجب عليه ما يجب على المرتد». [درء تعارض العقل والنقل ج٨/٦، ٧].

وقال ابن حجر رحمه الله: «وفي حديث أسامة بن زيد في قصة قتله الذي قال: «لا إله إلا الله» فأنكر عليه النبي ﷺ وحديث المقداد في معناه [حديث المقداد أخرجه البخاري في كتاب الديات وفيه أنه قال : يا رسول الله، إن لقيت كافرًا فاقتتلنا فضرب يدي بالسيف فقطعها، ثم لاذ بشجرة ، وقال : أسلمت لله ، أقتله بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ لا تقتله...» [الحديث . انظر البخاري مع الفتح ج١٢/١٨٧].

وفي كتب النبي ﷺ إلى هرقل وكسرى وغيرهما من الملوك يدعوهم إلى التوحيد ؛ إلى غير ذلك من الأخبار المتواترة التواتر المعنوي الدال على أنه ﷺ لم يزد في دعائه المشركين على أن يؤمنوا بالله وحده ويصدقوه فيما جاء به عنه». [فتح الباري ج١٣/٣٥٣].

وبهذا يظهر لكل متأمل أن الله فطر عباده على التوحيد ، وأنه هو أول واجب على العبيد ، فعلى العبيد تحقيق ما خلقوا من أجله وهو عبادة الله وحده دون سواه. وفق الله أمة الإسلام لما يحبه ويرضاه .

لقد قبل النبي ﷺ إيمان من آمن بدين الإسلام بدون المقدمات التي ابتدعها علماء الكلام، وحكم لهم بحكم الإسلام، وفيهم الراعي والراعية والغلام، وجرى على هذا المنوال الصحابة الكرام، عليهم من الله الرضوان.

بقلم/ د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد رسول الله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين... وبعد:

فمن المعلوم أن المساجد بيوت الله في أرضه، يقوم فيها العابدون لله عز وجل الذين أثنى عليهم في قوله: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلاَ بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾ وهي مكان العبودية الخالصة لله سبحانه: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا﴾، فرسالة المسجد إذًا رسالة توحيد وتربية وإعداد وتهذيب وسمو بالروح ورفعة للأمة إلى أن تكون ربانية تأمر بأمر الله وتنفذ دينه وشرعه، ولهذا كانت للمساجد في الإسلام مكانة عظيمة، ويظهر ذلك بوضوح للمتأمل في الآيات السابقة، وللمساجد الثلاثة بصفة خاصة التي شرع الإسلام شد الرحال إليها مكانة أعلى وأعظم لتضاعف الأجر والثواب فيها على غيرها، وأفضلها على الترتيب: المسجد الحرام، ثم المسجد النبوي، ثم المسجد الاقصى.

وقد اهتمت حكومة المملكة العربية السعودية بالمساجد بصورة عامة وبالحرمين الشريفين بصورة خاصة، فمنذ عهد الملك عبد العزيز- يرحمه الله- إلى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز- يحفظه الله- والمملكة تولي أهمية كبيرة لخدمة الحرمين الشريفين وتوفير كل سبل الراحة لحجاج البيت الحرام، وزائري مسجد الرسول الكريم ﷺ.

وهذه إشارة سريعة إلى بعض جهود المملكة الدالة على عنايتها بالحرمين الشريفين:

ففي عام ١٣٦٨هـ أعلن الملك عبد العزيز- رحمه الله- بيانًا عامًا وجهه للعالم الإسلامي يعلن فيه عزمه على توسعة الحرمين الشريفين، وبدأت الدراسات والاستعدادات للقيام بهذا المشروع، غير أن المنية وافته- رحمه الله- في سنة ١٣٧٣هـ قبل أن يكمل ما أراد، فخلفه عليه نجله الملك سعود- رحمه الله- وبدأ العمل الفعلي في التوسعة الأولى للمسجد الحرام في ربيع الآخر ١٣٧٥هـ، وقد تم في هذه المرحلة بناء المسعى بطابقيه بطول ٣٩٤,٥ مترًا، وعرض ١٢٠ مترًا، وارتفاع الطابق الأول ١٢ مترًا، وجعل للمسعى ممران في اتجاهين مع ممر في اتجاهين للساعين على الكراسي المتحركة، وقد تابعت المملكة العناية والاهتمام بخدمات ومرافق المسجد الحرام، حتى عهد خادم الحرمين الشريفين- يحفظه الله- الذي أمر بالتوسعة السعودية الثانية وتشرف بوضع حجر الأساس لتلك التوسعة في ٩ صفر ١٤٠٩هـ، وتعد هذه التوسعة أكبر توسعة تمت للمسجد الحرام في التاريخ كله، وأصبح المسجد بعدها

من مآثر عاهل السعودية الملك عبد العزيز آل سعود وسجاياه

إعداد/ أمين فتحي عثمان - وكيل الجماعة

جماعة أنصار السنة المحمدية منذ نشأتها الأولى تحب صاحب الجلالة إمام أهل السنة في هذا العصر، الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن الفيصل آل سعود، لما له من أفضال على العلم والعلماء.

يقول الشيخ محمد حامد الفقي: أصدرت مجلة الهدي النبوي عام ١٣٥٦هـ، وهي أخت «الإصلاح» التي كنت أصدرتها زمن الإمام المصلح والملك الراشد المخلص عبد العزيز آل سعود.

-كما قال الشيخ محمد حامد الفقي عن جلالته أيضًا عام ١٣٧١هـ عندما أصدر الشيخ أحمد شاكر «المسند» للإمام أحمد بن حنبل: «ثم كان من توفيق الله وحسن صنيعه (لهذا الكتاب الحجة) أن حضرة صاحب الجلالة وإمام أهل السنة في هذا العصر شمله رعايته السامية الكريمة، حبًا في نشره وتقربًا إلى الله لعموم النفع به، فأصدر أمره العالي بطبعه

يستوعب عددًا كبيرًا من الحجاج والمعتمرين كل عام، كما نال المسجد النبوي الشريف حظه من العناية والاهتمام من لدن هذه الدولة المباركة، حيث بدأت الدراسات اللازمة لتوسعته في عهد الملك عبد العزيز- رحمه الله- وفي بداية عام ١٣٧٣هـ تم هدم الأبنية المحيطة بالمسجد وبدأ الحفر لمشروع التوسعة، وقد تفضل الملك سعود- رحمه الله- بوضع حجر الأساس إيذانًا ببدأ العمل، وذلك في حفل كبير حضره ممثلون عن الدول الإسلامية وسفرائها وجموع كبيرة من المواطنين.

واستمرت المملكة في عنايتها بالمسجد النبوي حتى عهد خادم الحرمين الشريفين الملك فهد بن عبد العزيز- وفقه الله- الذي شهد أعظم وأكبر توسعة له، وقام وضع حجر الأساس لهذا المشروع في صفر ١٤٠٥هـ، وتم في سنوات قليلة إقامة هذا العمل الضخم بعد جهد كبير وعمل متواصل، وأصبح المسجد وما تم حوله من خدمات ومرافق نموذجًا كريمًا على خدمة المملكة الجليلة لهذا المسجد المبارك، فشكر الله للمملكة صنيعها ووفقها لكل خير، وحفظ الله أرضها وشعبها وحكومتها من كل سوء ومكروه، والله ولي التوفيق.

الاعتكاف آداب ومستحبات

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الصادق الأمين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعد:

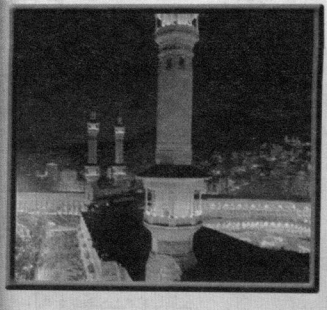

فإن شهر رمضان موسم عظيم للخيرات، حيث تتنوع فيه العبادات، وتتضاعف الحسنات، وتتنزل الرحمات، ومن خصائص هذا الشهر العشر الأواخر منه التي كان النبي ﷺ يجتهد فيها أكثر من غيرها، كما ذكرت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان النبي ﷺ إذا دخل العشر شدَّ مئزره، وأحيا ليله، وأيقظ أهله». [البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب ٥ ج٢٦٩/٤، ومسلم كتاب الاعتكاف باب ٣ ج٨٣٢/٢].

وعنها أيضًا رضي الله عنها «أن النبي ﷺ كان يجتهد في العشر الأواخر ما لا يجتهد في غيره». [مسلم، كتاب الاعتكاف، باب ٨ ج ٨٣٢/٢، وابن ماجه في سننه، كتاب الصيام، باب ٥٧، ج٥٦٢/٢، وأحمد في مسنده ج٨٢/٦، وغيرهم].

ومن اجتهاده ﷺ في هذه العشر الاعتكاف، وهو لزوم المسجد للتفرغ لطاعة الله تعالى، وهو من السنن الثابتة عنه؛ لأنه فعله وداوم عليه تقربًا إلى الله تعالى وطلبًا لثوابه ورضاه، وهو من أعمال البر الفاضلة في رمضان.

فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «كان رسول اللَّه ﷺ يعتكف العشر الأواخر من رمضان». [البخاري، كتاب الاعتكاف، باب ١ ج٤، ٢٧١].

ويقول ابن القيم رحمه الله: «لما كان صلاح القلب واستقامتُه على طريق سيره إلى الله تعالى، متوقفًا على جمعيته على الله، ولَمِّ شعثه بإقباله بالكلية على الله تعالى، فإن شعث القلب لا يَلُمُّه إلا إقباله بالكلية على الله تعالى؛ شرع لهم الاعتكاف الذي مقصودُه وروحه عكوف القلب على الله تعالى، وجمعيتُه عليه، والخلوةُ به، والانقطاع عن الاشتغال بالخلق والاشتغال به وحده سبحانه، بحيث يصير ذكره وحبه والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته، فيستولي عليه بدلها، ويصير الهم كله به، والخطرات كلها بذكره، والتفكر في تحصيل مراضيه وما يقرب منه، فيصير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلق، فيُعَدُّه بذلك لأنسه به يوم الوحشة في القبور حين لا أنيس له، ولا ما يفرح به سواه، فهذا مقصود الاعتكاف الأعظم». [زاد المعاد ج٨٦/٢، ٨٧].

ويظهر بهذا مكانة الاعتكاف وفضله، فعلى العباد الاعتناء بهذه السنة العظيمة التي هجرها وغفل عنها كثير من الناس، وعلى المعتكفين الاقتداء بهدي النبي الأمين ﷺ في اعتكافه، والاجتهاد في هذه العشر بالاشتغال بالعبادة وكثرة النوافل، والأفضل في حق المعتكف أن يشتغل بالعبادات الخاصة، كقراءة القرآن والذكر والصلاة وما أشبه ذلك، والاتجاه بالقلب والجوارح إلى الله عز وجل في ذل وانكسار، وإليكم بعض ما كان يقوم به النبي ﷺ في هذه العشر:

١- أن يجعل له خباء ليتفرغ وحده في أوقات فراغه بعيدًا عن الناس فيكون أجمع لقلبه، وأبعد عن أعين الناس، وعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان النبي ﷺ يعتكف في العشر الأواخر من رمضان، فكنت أضرب له خباءً فيصلي الصبح ثم يدخله». [البخاري كتاب الاعتكاف باب ٦ ج٢٧٥/٤].

والخباء: كالخيمة الصغيرة تصنع من وبر أو شعر أو قماش، والجمع أخبية، ويقوم على عمودين أو ثلاثة، وضربه بناؤه وإقامته. قال ابن القيم رحمه الله: «وكان يأمر بخباء فيضرب له في المسجد يخلو فيه بربه عز وجل، وكان إذا اعتكف دخل قبته وحده، كل هذا تحصيلاً لمقصود الاعتكاف وروحه، عكس ما يفعله الجهال من اتخاذ المعتكف موضع عشرة، ومجلبة للزائرين، وأخذهم بأطراف الحديث بينهم، فهذا لون والاعتكاف النبوي لون آخر». [زاد المعاد ج٨٩/٢- ٩٠].

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: «وبهذا تعرف أن أولئك الذين يعتكفون في المساجد، ثم يأتي إليهم أصحابهم، ويتحدثون بأحاديث لا فائدة منها، فهؤلاء لم يأتوا بروح الاعتكاف؛ لأن روح الاعتكاف أن تمكث في المسجد بطاعة الله عز وجل». [الشرح الممتع ج٦/٥٠٣].

٢- الاهتمام والعناية بقيام الليل: كان صلوات الله وسلامه عليه- يقوم الليل إلا قليلا، كما أخبر عنه ربنا في كتابه، وسنَّ ذلك لأمته في رمضان ورغب فيه ودعا إليه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لرمضان: من قامه إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». [البخاري كتاب صلاة التراويح باب ١ ج٤/٢٥٠، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب ٢٥ ج١/٥٢٣].

ومعنى يقول لرمضان، أي: لفضل رمضان، أو لأجل رمضان، ويحتمل أن تكون اللام بمعنى عن، أي يقول عن رمضان. [فتح الباري: ج٤/٢٥١].

ومعنى إيمانًا واحتسابًا أي: إيمانًا بالله تعالى وبما أعده من الأجر والثواب للقائمين، واحتسابًا لهذا الأجر والثواب من رب العالمين، وقد مدح الله قيام الليل وأثنى على أهله، وجعله من صفات عباد الرحمن، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا (٦٣) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣، ٦٤]، أي: يكون لهم في الليل فضل صلاة وإنابة كما قال تعالى: ﴿كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالْأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الذاريات: ١٧، ١٨]، وقال: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [الزمر: ٩]، وهذه الآيات تبين استحباب قيام الليل والوقوف فيه بين يدي رب العالمين، وهو فرصة للمسلم في رمضان وفي العشر الأخير منه بصورة أخص، لأن النبي ﷺ كان يحيي الليل كله بالصلاة والقيام والذكر ويُحَسِّن صلاته ويطولها، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «ما كان رسول الله ﷺ يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعًا فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثًا». [البخاري كتاب التهجد باب ١٦ ج٣/٣٣، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب ١٧ ج١/٥٠٦]، وكان القارئ يقرأ بالمئين- يعني بمئات الآيات- حتى كنا نعتمد على العصي من طول القيام، قال: وماكنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر. [موطأ مالك مع شرح الزرقاني ج١/٢٣٩]، وهذا خلاف ما عليه كثير من الناس اليوم.

٣- كثرة قراءة القرآن الكريم: شهر رمضان هو شهر نزول القرآن، كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥]، وهو كلام رب العالمين ووحيه إلى الصادق الأمين ﷺ، وقد تكاثرت النصوص في فضل قراءته، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ (٢٩) لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: ٢٩، ٣٠]، وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». [البخاري كتاب فضائل القرآن باب ٢١ ج٩/٧٤].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلا نزلت عليهم السكينة وغشيتهم الرحمة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله

بقلم/أ.د
عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

شعث القلب لا يلمه إلا إقبال بالكلية على الله تعالى بحيث يصير ذكره وحبه محل هموم القلب وخطراته

فيمن عنده، ومن بطأ به عمله لم يسرع به نسبه». [صحيح مسلم، كتاب الذكر والدعاء، باب ١١ ج٤ /٢٠٧٤].

فاغتنم أيها المعتكف فرصة وجودك في بيت الله وأكثر من قراءة القرآن وتدبره لتنال الأجر العظيم والثواب الجليل الذي ذكر في هذا الحديث، وقد كان جبريل يعارض النبي ﷺ في رمضان كل سنة مرة، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه مرتين. قال مسروق عن عائشة رضي الله عنها عن فاطمة رضي الله عنها قالت: «أسرَّ إليَّ النبي ﷺ أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة، وإنه عارضني العام مرتين، ولا أراه إلا حضر أجلي». [البخاري كتاب فضائل القرآن باب ٧ ج٩/٤٣].

قال ابن حجر رحمه الله: «وفي الحديث تعظيم شهر رمضان لاختصاصه بابتداء نزول القرآن فيه ثم معارضته ما نزل فيه، ويلزم من ذلك كثرة نزول جبريل فيه، وفي كثرة نزوله من توارد الخير والبركات ما لا يحصى، وفيه أن مداومة التلاوة توجب زيادة الخير، وأن المقصود من التلاوة الحضور والفهم». [فتح الباري ج٩/٤٥].

وكان السلف الصالح رضي الله عنهم يكثرون من تلاوة القرآن في رمضان في الصلاة وغيرها، وكان مالك رحمه الله إذا دخل رمضان ترك قراءة الحديث ومجالس العلم وأقبل على قراءة القرآن، وكانوا يقرأونه بتدبر وفهم ويتأثرون به ويعقلونه، فتتحرك قلوبهم وتعمل جوارحهم بأحكامه وآدابه.

٤- التماس ليلة القدر: ليلة القدر ليلة شريفة مباركة، وهي أفضل ليالي شهر رمضان، وقد خصها الشارع الحكيم بمزيد عناية وتشريف، وأنزل سورة باسمها في القرآن الكريم، فهي الليلة التي نزل فيها القرآن، وهي خير من ألف شهر، وتتنزل الملائكة فيها بالخير والبركة والرحمة، ومن قامها لله إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه، وكان النبي ﷺ يتحراها في العشر الأواخر من رمضان، ويأمر أصحابه بذلك، فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان رسول الله ﷺ يجاور في العشر الأواخر من رمضان ويقول: تحروا ليلة القدر في العشر الأواخر من رمضان». [البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب ٣ ج٤/٢٥٩]، وهي في الأوتار أقرب من الأشفاع لحديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رجالاً من أصحاب النبي ﷺ أُروا ليلة القدر في المنام في السبع الأواخر، فقال رسول الله ﷺ: «أرى رؤياكم قد تواطأت في السبع الأواخر، فمن كان متحريها فليتحرها في السبع الأواخر». [البخاري كتاب فضل ليلة القدر باب ٢ ج٤/٢٦٥، ومسلم كتاب الصيام باب فضل ليلة القدر ج٢/٨٢٢].

قال ابن حجر- رحمه الله- بعد أن ذكر أكثر من أربعين قولاً في تحديدها: «وأرجحها كلها أنها في وتر من العشر الأخير وأنها تنتقل، وأرجاها أوتار العشر، وأرجاها عند الجمهور ليلة سبع وعشرين، قال العلماء: الحكمة في إخفاء ليلة القدر ليحصل الاجتهاد في التماسها». [فتح الباري ج٤/٢٦٦].

فهنيئًا لك أيها المعتكف يا من خلوت لربك في بيته، وإذا اجتهدت حقًا في هذه العشر فأنت مدركها- إن شاء الله- وعليه أقول للمعتكفين: الزموا الذكر والاستغفار والدعاء والخشية والإنابة والتذلل بين يدي رب العالمين تظفروا بالمطلوب وتنالوا سعادة الدارين، واجتنبوا ما لا يعنيكم من الأقوال والأفعال والجدال والمراء، وكثرة الكلام، لأن من كثر كلامه كثر سقطه، وفي الحديث: «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه». [أخرجه الترمذي في أبواب الزهد، وأحمد في مسنده ج١/٢٠١ وغيرهما].

وفق الله المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها للعمل الصالح الذي يرضيه، وتقبل من الجميع الصيام والقيام وصالح الأعمال.

ليلة القدر ليلة شريفة مباركة خصها الشرع بمزيد عناية وتشريف، فعلى المسلم أن يتحرى تلك الليلة في العشر الأواخر كما فعل النبي ﷺ

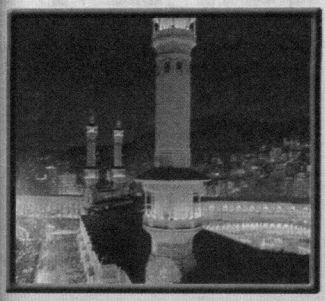

رسالة موجهة إلى المسئولين عن التربية والتعليم

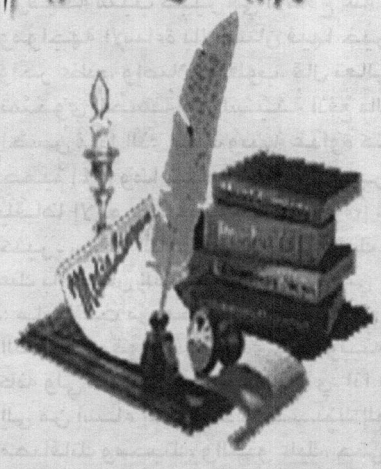

بقلم/أ.د
عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على من لا نبي بعده - وبعد:

فانطلاقا من واجب النصيحة التي دعا إليها الإسلام، أوجه هذه الكلمات اليسيرة لإخواني المعلمين والمعلمات، فأقول للجميع وبالله التوفيق:

إنكم تقلدتم أمانة عظمى وتحملتم مسؤولية كبرى ستسألون عنها إذا وقفتم بين يدي الله عز وجل، تلكم أمانة العلم والعمل والتربية والتعليم والرعاية والعناية للطلاب والطالبات، واعلموا أنه يقع على عاتقكم العبء الأكبر في تربية التلاميذ وتوجيههم والعناية بجميع شؤونهم، حيث إن المعلم والمعلمة عناصر أساسية فعالة في أي نظام تعليمي، ودورهم فيه كبير وعظيم، فهم يعتبرون نائبين عن المجتمع الذي عهد إليهم وسلمهم أبناءهم لتربيتهم وتعليمهم، بل إنهم يقومون بدور الوالدين في تقويم السلوكيات الخاطئة لديهم، وعليه فإني أخاطبهم من خلال هذا المنبر الإعلامي وأوجه إليهم النصائح التالية:

١- **الإعداد الجيد للدرس:** إن الإعداد العلمي والتربوي المناسب للدرس أمارة على نجاح المعلم وتمكنه من مادته العلمية، ويتأتي ذلك للمعلم من خلال القراءة الواسعة، وكثرة الاطلاع، وبخاصة في مادة تخصصه وموضوع درسه، وعليه أن لا يدخر وسعا في التزود من المعرفة والإحاطة بمجال تخصصه، تقوية لإمكاناته المهنية موضوعا وأسلوبا ووسيلة، حتى ينال احترام طلابه، وثقة زملائه، وسائر أفراد مجتمعه.

٢- **حسن التدريس:** بعد أن يخلص المدرس في إعداد درسه، عليه أن يبذل أقصى جهده في تعليمه وتقديمه للطلاب، وعليه أن يكون حريصا على نفعهم وإفادتهم، ويسوي بينهم في عطائه ورقابته وتقويمه لأدائهم، فهو كالقاضي بينهم، فلا يفضل واحدا على غيره لهوى نفسه أو لمصلحته، وليتذكر قول الله تعالى: ﴿وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة:١٠٥]، وحديث النبي ﷺ: «**إن الله كتب الإحسان على كل شيء...**» [أخرجه مسلم في كتاب الصيد باب ١١ جـ٣/١٥٤٨ وغيره]، فإذا درَّس فعليه أن يحسن التدريس، وأن يحسن معاملة الطلاب ويكون رفيقا بهم لقول النبي ﷺ: «إن الله يحب الرفق في

الأمر كله» [أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب ٣٥ جـ١٠/٤٤٩]، والرفق لين الجانب بالقول والفعل، والأخذ بالأسهل وهو ضد العنف، ولهذا يجب أن يتجنب المعلم الاختبارات الشديدة الصعوبة والتعقيد، والتي لا تميز بين الطالب الذي استذكر دروسه وزميله الذي لم يذاكر، ولا يعطي فرصة، أو يسمح بالغش في الاختبارات أو الواجبات، لأنه مناف للعدل والأمانة، وقد حذر منه نبينا ﷺ فقال: «من غشنا فليس منا» [أخرجه مسلم في كتاب الإيمان باب ٤٣ جـ١/٩٩].

٣ـ تثبيت أسس العقيدة الإسلامية في نفوس الطلاب ودرء الشبهات التي يثيرها أعداء الإسلام عنه، فيثبت لطلابه وطالباته استحالة وجود هذا الكون بدون خالق مدبر حكيم، يفعل ما يشاء وهو على كل شيء قدير، وضرورة الإيمان ببعثة خاتم النبيين وإمام المرسلين نبينا محمد ﷺ والإيمان بما جاء به من عند ربه، وأن الإسلام الذي بعث به ﷺ هو التسليم المطلق لأوامر الله، وأنه منهج كامل ينظم الدنيا والآخرة، وأنه الطريق الوحيد إلى العزة والنصر والتمكين والفوز بسعادة الدارين: الدنيا والآخرة، وعلى المعلم أن يربط بين الإسلام والمقررات الدراسية، وأن يعمل على أن تسري روح الإيمان في مادة المنهج، وذلك للمساهمة في تكوين العقلية الإسلامية والشخصية المسلمة، وليس هذا محصورا في مدرس التربية الدينية فحسب، بل يمكن استخدامه في جميع المقررات، فمدرس التاريخ مثلا لا يكتفي بسرد الأحداث التاريخية فقط، وإنما عليه أن يستخلص منها العبر والمواعظ، وأن يعلم طلابه أن لله سننا كونية تسير عليها الأمم والأفراد، وأن تقدم الأمم وتأخرها إنما يتبع هذه السنن، ومنها مثلا قول الله تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١]، وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]، فالكفر بالله وجحود نعمه والتخلي عن الأخلاق الفاضلة يؤدي إلى انهيار الأمم واندثار الحضارات، بينما الإيمان بالله والسير وفق منهجه كما شرع هو طريق النصر والعزة والتمكين، وكذلك مدرس الجغرافيا أو الفلك يثبت لطلابه من خلال المعلومات التي يقدمها لهم أن خالق هذا الكون هو الله ولهذا وجب على الجميع أن يعبدوه وحده دون سواه، فغيره لا يفعل شيئا من ذلك كما قال تعالى: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان:١١] وكذلك يفعل مدرس العلوم الطبيعية من فيزياء، أو كيمياء، أو أحياء، وإذا توصل إلى حقيقة علمية سبق القرآن إليها، أشار إليها من القرآن الكريم وشرحها لطلابه وفق المنهج الصحيح للتفسير بالرجوع إلى بعض كتب التفسير في ذلك دون غلو أو شطط، ويمكنه أن يسأل بعض أهل العلم ممن لهم قدم راسخة فيه، حتى يأمن من الزلل والخطأ في كتاب الله تعالى، وهذا مما يزيد الإيمان في نفوس الطلاب، ويسبب الإقبال عليه، لأنه الدين الحق الموافق للفطرة الإنسانية.

٤ـ استخدام أفضل العبارات في مواجهة أخطاء الطلاب: لا شك أن الخطأ يكثر من حديثي السن وقليلي الخبرة في الحياة، خاصة في هذه الأزمان التي تغير فيها حال كثير من الناس، وإصلاح الخطأ باستخدام العبارات الرقيقة سبب كبير في الإقلاع عنه وتركه، ومواجهة الإساءة بالإحسان فيها خير كبير، وأجر عظيم، وإصلاح للقلوب. قال تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت:٣٤، ٣٥] قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: «أي: من أساء إليك فادفعه عنك بالإحسان إليه، كما قال عمر ـ رضي الله عنه ـ: ما عاقبت من عصى الله فيك بمثل أن تطيع الله فيه، وقوله:(فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم)، وهو الصديق، أي: إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته حسنتك إليه إلى مصافاتك ومحبتك، والحنو عليك، حتى يصير كأنه وَليّ لك حميم، أي قريب إليك من الشفقة عليك والإحسان إليك... وعن ابن عباس في تفسير الآية: أمر الله المؤمنين بالصبر عند الغضب، والحلم عند الجهل، والعفو عند الإساءة، فإذا فعلوا ذلك عصمهم الله من الشيطان، وخضع لهم عدوهم كأنه ولي حميم» [تفسير ابن كثير جـ٥/١٦٩، ١٧٠].

٥ـ أن يكون المعلم والمعلمة قدوة صالحة للطلاب والطالبات: على المعلم أن يكون متمسكا بالقيم الخلقية والمثل العليا، ويدعو إليها ويعمل على نشرها بين الطلاب، وأن يكون أول العاملين

بها، حتى لا يتناقض مع نفسه حينما يدعو إلى شيء ويكون من المخالفين له، وقد وبخ الله هذا الصنف من الناس في كتابه فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]، وليس المراد توبيخهم على نفس الأمر بالبر، فإنه فعل حسن مندوب إليه، ولكنه وبخهم على تركهم العمل بما يدعون إليه من الخير والبر، وقديما قال الشاعر:

لاتنه عن خُلُقٍ وتأتي مثلَهُ
عارٌ عليكَ إذا فعلْتَ عظيمُ(١)

والطلاب خاصة في مراحلهم التعليمية الأولى كثيرا ما ينظرون إلى الأساتذة والمربين بعين الإجلال والتقدير، والتقليد والمحاكاة لما يفعلون، فتنبهوا أيها المعلمون لذلك، والزموا أمر الله واجتنبوا نهيه، واستقيموا على ذلك، حتى تزكو أنفسكم وتتهذب أخلاقكم، وتخرجوا رجالا صالحين وأمناء مخلصين لدينهم وأمتهم، وقد أوجب الله على كل مسلم أن يتعلم الهدى ودين الحق، ثم يعمل به ويدعو إليه ويصبر على ذلك. قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ (١) إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ (٢) إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، وقد أثنى النبي ﷺ على معلمي الناس الخير، وذكر لهم منزلة عظيمة جليلة، وذلك فيما رواه أبو أمامة الباهلي - رضي الله عنه - قال: ذُكِر لرسول الله ﷺ رجلان أحدهما: عابد، والآخر: عالم، فقال رسول الله ﷺ: «فضل العالم على العابد كفضلي على أدناكم»، ثم قال رسول الله ﷺ: «إن الله وملائكته وأهل السموات والأرضين حتى النملة في جحرها، وحتى الحوت ليصلون على معلم الناس الخير» [أخرجه الترمذي في سننه. أبواب العلم، باب في فضل الفقه على العبادة، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح. تحفة الأحوذي ج٧/٤٥٦، ٤٥٧، رواه الترمذي وصححه الألباني]، ثم قال أبو عيسى الترمذي عقب ذكره للحديث: سمعت أبا عمار الحسين بن مُعلِّم يدعى كبيرا في ملكوت السموات». قلت: هذا يدل على أن الفضل الوارد في هذا الحديث لمن تعلم الخير وعمل به ودعا إليه، وهذا ما فهمه الترمذي - رحمه الله - لسياقه قول الفضيل بن عياض عقبه، وهو موقوف عليه - رحمه الله -، كما ورد في السنة وعيد شديد في شأن من يدعو إلى الخير ويخالفه، كما في حديث أسامة بن زيد - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يُجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار، فتندلق أقتابه(٢) في النار، فيدور كما يدور الحمار برَحاه، فيجتمع أهل النار عليه فيقولون أي فلان ما شأنك؟ أليس كنت تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال: كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه، وأنهاكم عن المنكر وآتيه» [أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ١٠ جـ٦/٣٣١، وكتاب الفتن باب ١٧ جـ١٣/٤٨]، وبوب له مسلم في صحيحه فقال: باب عقوبة من يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهي عن المنكر ويفعله. [صحيح مسلم كتاب الزهد باب ٧ جـ٤/٢٢٩٠]، وعليه فإني أقول للمعلمين والمعلمات: عليكم بتقوى الله عز وجل، والمحافظة على الصلوات الخمس في أوقاتها جماعة في المكان الذي تكونون فيه، فهي عماد الدين والصلة برب العالمين، وقوموا وتمسكوا بسائر أركان الدين، وحثوا على الأخلاق الكريمة الفاضلة، وانهوا عن منكرات الأقوال والأخلاق والأفعال، كالفحش في القول وتبرج النساء وسفورهن ومخالطتهن الرجال، وسماع الغناء والموسيقى والتدخين وغير ذلك من الأمور المنكرة.

وختاما: فإني أدعو أيضا جميع الإداريين والمسؤولين في وزارة التربية والتعليم إلى الصدق والإخلاص في الرقي بمستويات التعليم في جميع المراحل، بما يعود على الطالب والأمة كلها بالنفع العاجل والآجل، ومراقبة الله في أعمالهم، وعلى أولياء أمور الطلاب الرعاية والاهتمام بالجوانب التربوية المختلفة لأبنائهم على ما يحب الله ورسوله رضي الله عنهما «ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع وهو مسؤول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسؤول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده وهي مسؤولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسؤول عنه، ألا فكلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» [رواه البخاري في مواطن منها كتاب الجمعة باب ١١ جـ٢/٣٨، ومسلم كتاب الإمارة باب جـ٣/١٤٥٩ واللفظ له].

وفق الله جميع المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها إلى العمل الصالح الذي يرضيه.

والحمد لله رب العالمين.

هوامش:

(١) البيت لأبي الأسود الدؤلي، ونسبه ياقوت في معجم البلدان جـ٧/٣٨٤، وأبو الفرج الأصفهاني في الأغاني جـ١١/٣٩ للمتوكل الكناني.

(٢) الأقتاب: جمع قتب بكسر القاف، وهي الأمعاء، واندلاقها: خروجها بسرعة.

لمحات من حياة الإمام

من العلماء الأعلام الذين ظهروا في اليمن في القرن الثاني عشر الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني - رحمه الله -، وهو إما مجتهد، كان له باع طويل في العلم، وخلَّف تراثا ضخما تجاوز الثلاثمائة مؤلف ما بين كتاب كبير ورسالة صغيرة، وكان له - إلى جانب الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمهما الله تعالى - أثر كبير في النهضة العلمية الإصلاحية في العصر الحاضر، لهذا أحببت أن أضع بين يدي القارئ الكريم لمحات عن حياة هذا العالم تتناول سيرته الذاتية، وجهوده العلمية، وعقيدته ومذهبه، وذلك وفاءً بحق هذا العالم، ودفعًا لما يمكن أن يظن به، بسبب ظهوره في بيئة زيدية، بل إن بعض الباحثين لا يرغب في دراسة تراث أمثال هؤلاء، مع تحررهم من التقليد والتبعية، واتباعهم للكتاب والسنة المحمدية، وقد ذكر ذلك الشوكاني - رحمه الله - فقال: «ولا ريب أن علماء الطوائف لا يكثرون العناية بأهل هذه الديار لاعتقادهم في الزيدية ما لا مقتضى له إلا مجرد التقليد لمن لم يطلع على الأحوال، فإن في ديار الزيدية من أئمة الكتاب والسنة عددا يجاوز الوصف، يتقيدون بالعمل بنصوص الأدلة ويعتمدون على ما صح في الأمهات الحديثية وما يلتحق بها من دوواين الإسلام المشتملة على سنة سيد الأنام ﷺ ولا يرفعون إلى التقليد رأسا، لا يشوبون دينهم بشيء من البدع التي لا يخلو أهل مذهب من المذاهب من شيء منها، بل هم على نمط السلف الصالح في العمل بما يدل عليه كتاب الله وما صح من سنة رسول الله ﷺ، مع اشتغالهم بالعلوم التي هي آلات علم الكتاب والسنة من نحو وصرف وبيان وأصول ولغة...»[1].

وبعد، فهذا أوان الشروع في المقصود بعون الملك المعبود.

أولا: سيرته الذاتية وتشتمل على ما يلي:

١. اسمه ونسبه وكنيته ولقبه:

هو محمد بن إسماعيل بن صلاح بن محمد بن علي، وينتهي نسبه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم -، ويكنى «بأبي إبراهيم» وإبراهيم هو أكبر أولاده، وأمه ابنة السيد هاشم بن يحيى الشامي، وقد تزوجها الصنعاني في شوال عام ١٣١٧هـ[2]، ويلقب «بالمؤيد بالله»، وقد ذكر ذلك صديق خان[3] والزركلي[4]، وهو غير مشهور به بين أهل العلم كلقبه الثاني وهو: «البدر»[5] وقد اشتهر به شهرة واسعة، والبدر: هو القمر إذا امتلأ، ويشبه الرجل به إذا تم وكمل، قال ابن منظور[6]: «وبدر القوم: سيدهم على التشبيه بالبدر».

●● الحلقة الأولى ●●

محمد بن إسماعيل الصنعاني

بقلم/ أ.د
عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

كما اشتهر الصنعاني أيضا «بالأمير»، وهو يطلق عليه وعلى أجداده، كما يطلق على أحفاده، ولكن إطلاقه عليه أشهر، وقد قال الشوكاني(٧) بعد سياقه لنسبه: «المعروف بالأمير»، والأمير نسبة إلى الأمير الشهير: «يحيى بن حمزة بن سليمان ت٦٣٦هـ»[٨] ولهذا يقال للصنعاني: «الأمير»، ويقال أيضا: «ابن الأمير».

وقد لقَّب الشيخ عبد الحي الكناني[٩] - رحمه الله - الصنعاني «بالمتوكل على الله» والصواب أن هذا ليس لقبًا له، وإنما لأبيه كما قال الزركلي[١٠] في ترجمة محمد بن إسماعيل: «... يلقب «المؤيد بالله» ابن «المتوكل على الله».

٢. مولده ونشأته الأولى:

ولد محمد بن إسماعيل ليلة الجمعة نصف جمادى الآخرة عام ١٠٩٩هـ[١١] بمدينة «كحلان»[١٢]، ثم انتقل مع والده إلى مدينة «صنعاء» عام ١١٠٧هـ كما ذكر الشوكاني[١٣]، وقد ذكر المؤرخ زبارة أنه انتقل عام ١١١٠هـ[١٤]، ثم ذكر في ترجمة والد الصنعاني أنه انتقل عام ١١٠٨هـ[١٥]، والذي أميل إليه في ذلك هو رأي الشوكاني - رحمه الله - لقرب عهده بالمترجم له، كما أنه لم يذكر إلا تاريخا واحدا، وقد ذكر المؤرخ زبارة تاريخين مختلفين - كما سبق ذكره -.

وقد أقام الصنعاني - رحمه الله - بصنعاء ومات فيها، ولم يخرج منها إلا لتلقى العلم على يد المشايخ، أو للابتعاد عن السلطة الحاكمة في صنعاء، ولكنه في نهاية الأمر استقر بها حتى وفاته.

وقد أتم الصنعاني حفظ القرآن عن ظهر قلب بعد دخوله صنعاء، ولعل الباعث لهجرة والد الصنعاني من «كحلان» إلى «صنعاء» رغبته في تلقي العلم له ولأولاده على علماء صنعاء، وقد رجح ذلك مؤلفو الكتاب «ابن الأمير وعصره»[١٦].

٣. ورعه وزهده:

عاش الصنعاني - رحمه الله - حياته مكبا على العلم ونشره والدعوة إليه، ولم يطلب جاها أو سلطانا، ولما ولاه المهدي العباس أوقاف صنعاء في رمضان عام ١١٦١هـ باشر أعمال الوقف بصدق وأمانة، واتخذ بيتا صغيرا قريبا من بيته ليسجن فيه من يستحق التأديب فرارا من السجن بقصر صنعاء للتأثم عن زيادة العقوبة، ثم اعتذر عن الوقف وقال: إن ولايته للوقف عقوبة من الله على ذنب يعلمه بعينه، وأوصى بأن يتصدق من تركته بمائة قرش، ومائة قرش لفقراء بني هاشم تورعا من الوقف[١٧].

وقد عرض عليه المتوكل القاسم بن الحسين تولية القضاء في

بندر «المخا»[١٨]، فامتنع، ثم عرض عليه الوزارة فامتنع، ثم القضاء العام والتصدر على الأعلام فامتنع من قبول جميع ذلك، واستقر على عادته في التدريس ونشر الإفادة[١٩].

وكانت العبادة همَّه وذكر الله شغله، وقد قال في قصيدة أرسلها إلى والده عند عزمه للحج في عام ١١٣٢هـ:

ومن كان ذكر الله زاد رحيله
كفاه عن الزاد المجازى وأغناه
ومن كان بيت الله غاية همه
فطوبى له إن نال ما يتمناه[٢٠]

وقد قال فيه صديق خان: «كان إماما في الزهد والورع. حكى بعض أولاده أنه قرأ في صلاة الصبح وهو يصلي بالناس «هل أتاك حديث الغاشية» فبكى وغشي عليه[٢١].

وكان دائما يذكر نفسه بلقاء ربه، فيقول وقد حمل العصا في يده:

ما حملت العصا بضعف ولكني
رأيت الرحيل مني قريبا
فحملت العصا لتذكير نفسي
أنني صرت في الأنام غريبا[٢٢]

ثانياً: سيرته العلمية وتشتمل على ما يلي:

١. نشأته وتحصيله العلمي:

نشأ الصنعاني في بيئة علمية، فجده كان عالما فاضلا[٢٣]، وأبوه كان من العلماء المحققين في معظم الفنون، يقول عنه حفيده إبراهيم: «حقق الفقه والفرائض ودرس ونقل ونظم واشتهر بالعلم والفضل والزهد والورع والتقوى وحسن الخلق، ولطف الطبع والتقشف الباهر ولين الجانب، ومجانبة الدول وأربابها...»[٢٤]، وهكذا ذكر عنه صديق خان[٢٥]، والمؤرخ زبارة[٢٦].

وقد تأثر الصنعاني بالجو العلمي المحيط به، فحفظ القرآن عن ظهر قلب، وبدأ بالطلب وهو صغير السن، فدرس الفقه والنحو والبيان وأصول الدين والحديث وتفوق في ذلك، حتى أعجب به مشايخه، وقد ذكر الشوكاني أنه قرأ الحديث على أكابر علماء مكة والمدينة وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتفرد برئاسة العلم في صنعاء[٢٧].

وقد أحب الصنعاني العلم والبحث وتطلع إليهما فاستهان المشاق في سبيل الطلب، فقد روي عنه أنه كان يكتب «زاد المعاد» لابن القيم، وكتاب «بهجة المحافل» على ضوء القمر لعدم توفر السراج، ولمَّا وصل عالم زبيد الشيخ «عبد الخالق المزجاجي» إلى صنعاء انصرف الصنعاني إليه ليدرس على يديه صحيح البخاري ومسلم وسنن أبي داود، وكان الناس يذهبون إلى البيت الحرام للحج، ولكن الصنعاني كان يذهب للحج والعلم معا[٢٨]، كما سيتضح من رحلاته.

٢. رحلاته في طلب العلم:

للرحلة في طلب العلم مكانة كبيرة بين العلماء والمحققين، وعند علماء الحديث بوجه أخص، وقد نشأت في عصر الصحابة - رضوان الله عليهم - فجابر بن عبد الله رضي الله عنهما - يرحل من المدينة إلى الشام ليقف على حديث واحد[٢٩].

ولقد سار على هذا النهج الأمير الصنعاني، فرحل إلى أرض الحرمين الشريفين ليؤدي نسكه ويلتقي بالعلماء والمحققين ويأخذ العلم عنهم، ولقد حج أربع مرات في كل مرة كان يلتقي بالمشايخ ويستفيد منهم ويلازمهم، وكانت رحلته الأولى في عام ١١٢٤هـ كما ذكر ذلك صاحب كتاب نفحات العنبر، وقد أخذ الصنعاني في هذه الرحلة عن ابن أبي الغيث أوائل الصحيحين وغيرهما وأجازه إجازة عامة، كما أخذ عن الشيخ طاهر بن إبراهيم الكردي، ثم ذهب إلى الحج للمرة الثانية عام ١١٣٢هـ، وزار المدينة النبوية واجتمع فيها بالشيخ الحافظ أبي الحسن ابن عبد الهادي السندي، وكانت بينهما مباحثة ومراسلة علمية، ولم يرجع إلا في ربيع الأول من عام ١١٣٣هـ، ثم حج الحجة الثالثة عام ١١٣٤هـ، واجتمع في الحجاز بالشيخ العلامة

الأشبولي، والشيخ عبد الرحمن بن أسلم وغيرهما، وقرأ على الشيخ العلامة محمد بن أحمد الأسدي شرح عمدة الأحكام لابن دقيق العيد، وشرع في تأليف حاشيته عليه المسماة: «العدة على شرح العمدة» وقرأ في علم التجويد على الشيخ المقرئ الحسن بن حسين شاجور، وأخذ عن الشيخ سالم بن عبد الله البصري في مسند الإمام أحمد بن حنبل، وفي صحيح مسلم وإحياء علوم الدين، ثم رجع إلى صنعاء وأحيا السنن واستمر على التدريس والفتيا والتأليف أما الحجة الرابعة والأخيرة فكانت في عام ١١٣٩هـ، وفيها اجتمع ببعض العلماء المحققين، وأقام مدة في الطائف بعد الحج، ثم رجع عن طريق الحجاز، ولما وصل إلى مدينة «صعدة»[٣٠] بلغه أن أمر الخلافه قد استقر للإمام الناصر «محمد بن إسحاق»، فاجتمع به في «شبام»[٣١]، ومنها عزم إلى «شهارة»[٣٢] في ذي القعدة عام ١١٤٠هـ، ولازم التدريس والإفادة والفتيا بها، وبقى فيها حتى صفر من عام ١١٤٨هـ، ثم رجع إلى صنعاء وعكف فيها على التدريس والتأليف، ولم يذهب إلى مكان آخر خارج القطر اليماني إلا هذه الأماكن المذكورة في رحلاته الأربع.

وقد رحل إلى مدينة «كحلان»، وهي المدينة التي ولد فيها ليتلقى العلم على يد الشيخ: صلاح بن الحسين الكحلاني، وكان ذلك في عام ١١٢٨هـ تقريبا وقرأ عليه هناك في شرح الأزهار(٣٣).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى

---

(١) البدر الطالع (٨٣/٢).
(٢) نشر العرف لنبلاء اليمن بعد الألف للمؤرخ زبارة (٣١/٣)، والإعلام للزركشي (٢٦٣/١).
(٣) أبجد العلوم (١٩١/٣).
(٤) الإعلام (٢٦٣/٦).
(٥) نشر العرف (٢٩/٣)، والروض النضير لإبراهيم بن محمد بن إسماعيل (ص٣٣٢).
(٦) لسان العرب (٤٩/٤).
(٧) البدر الطالع (١٣٣/٢).
(٨) نشر العرف (٢٩/٣).
(٩) فهرس الفهارس (٥١٣/١).
(١٠) الإعلام (٢٦٣/٦).
(١١) البدر الطالع (١٣٣/٢)، ونشر العرف (٢٩/١).
(١٢) كحلان من أشهر مخاليف اليمن وبينها وبين صنعاء أربعة وعشرون فرسخًا، معجم البلدان لياقوت (٤٣٩/٤).
(١٣) البدر الطالع (١٣٣/٢).
(١٤) نشر العرف (٣٠/٣).
(١٥) ملحق البدر الطالع (٦٠/٢).
(١٦) كتاب ابن الأمير وعصره لقاسم غالب ورفاقه (ص١٢٧، ١٢٨).
(١٧) نشر العرف (٤١/٣)، والقرش ريال فرنسي في ذلك الوقت كما أفاد بذلك الدكتور ربيع بن هادي.
(١٨) المخا: مدينة بساحل البحر الأحمر جنوب زبيد وشمال مضيق باب المندب.
(١٩) نشر العرف (٣١/١)، وابن الأمير وعصره (ص١٦٥).
(٢٠) ديوان الأمير الصنعاني (ص٤٣٤).
(٢١) أبجلد العلوم (١٩١/٣).
(٢٢) ديوان الصنعاني (ص٦٠)، ونشر العرف (٦٦/٣).
(٢٣) نشر العرف (٣٨٢/١).
(٢٤) الروض النضير، مخطوط (ص٣٥٣).
(٢٥) أبجد العلوم (١٩١/٣).
(٢٦) نشر العرف (٣٦٢/١، ٣٦٣).
(٢٧) البدر الطالع (١٣٣/٢).
(٢٨) نشر العرف (٣٠/٣)، وابن الأمير وعصره (ص١٣٨).
(٢٩) انظر القصة كاملة في مسند أحمد (٤٩٥/٣)، والأدب المفرد للبخاري حديث رقم (٩٧٠) (ص٣٣٧)، وذكره البخاري تعليقًا في موضعين- كتاب العلم- باب (١٥)، وكتاب التوحيد، باب (٣٢).
(٣٠) بلدة في شمالي صنعاء على مسافة ستين فرسخًا. معجم البلدان (٤٠٦/٣).
(٣١) شبام: جبل عظيم فيه شجر وعيون وهو صعب المرتقى، وبينه وبين صنعاء يوم وليلة. المرجع السابق (٣١٨/٣).
(٣٢) وهي حصن من حصون صنعاء باليمن المرجع السابق (٣٧٤/٣).
(٣٣) نشر العرف (٥٠/٣).

لمحات من حياة الإمام محمد بن إسماعيل الصنعاني

الحلقة الثانية

بقلم/ أ.د
عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

نكمل ما سبق عن حياة العلامة الشيخ/ محمد بن إسماعيل الصنعاني فنقول وبالله التوفيق:

٢.شيوخه وتلاميذه:

أولا: شيوخه: أخذ الصنعاني عن جملة من علماء بلده وخاصة فيما يتعلق بعلم البيان واللغة والفقه والأصول وغير ذلك، وقد ذكر الشوكاني أربعة من شيوخه فقط، ولعل هولاء أشهر مشايخه في بلده، ولكن - كما سبق القول - خرج محمد بن إسماعيل إلى مكة والمدينة والتقى بعلماء هذه الديار وأخذ على أيديهم علم الحديث، ولقد كان تلقي العلم وخاصة علم الحديث من البواعث على السفر إلى أرض الحرمين مع تأدية فريضة الحج، ولقد صرح الصنعاني بذلك فقال:

«ولما ألقى الله وله الحمد الولوع بهذا الشأن - أي دراسة الحديث ومعرفته - وكان علماء الحديث لا جود لهم بهذه الأوطان، وكان مشائخنا - رحمهم الله وأنزلهم غرف الجنان - الذين أخذنا عنهم علوم الآلات من نحو وتصريف وميزان، وأصول فقه ومعان وبيان، ليس لهم إلى هذا الشأن نزوع، وإنما يدرسون فيما تجرد عن الأدلة من الفروع، ووقفت على قول بعض أئمة الحديث شعرا:

إن علم الحديث علم رجال
تركوا الابتداع للاتباع

إلى أن قال: ثم من الله وله الحمد بالبقاء في مكة والاجتماع بأئمة من علماء الحرمين ومصر، وإملاء كثير من الصحيحين وغيرهما، وأخذ الإجازة من عدة علماء والحمد لله»، وبهذا القول يتبين لنا نوعية المادة العلمية التي حصّلها الصنعاني، ولاشك أنها أثّرت في تكوينه العلمي الذي فاق به غيره، ولم يذكر لنا الصنعاني مشايخه هؤلاء، ولكن بالتتبع والبحث وقفت على كثير منهم، وسأذكرهم هنا، مع ذكر ترجمة موجزة عن كل علم مع ذكر العلوم التي أخذها الصنعاني عنهم.

١ - والده إسماعيل بن صلاح الأمير ت١١٤٦هـ بصنعاء، كان آية في الذكاء، وحقق الفقه والفرائض ودرس واشتهر بالعلم، وأخذ عنه ابنه الفقه والنحو البيان.

٢ - الشيخ المقرئ الحسن بن حسين شاجور، قرأ عليه الصنعاني في علم التجويد أثناء تأديته للحج في المرة الثالثة.

٣ - زيد بن محمد الحسن ت١١٢٣هـ. قال عن الشوكاني: «المحقق الكبير شيخ مشايخ صنعاء في عصره في العلوم الآلية بأسرها.

٤ - سالم بن عبد الله بن سالم البصري ت١١٣٤هـ. أحد علماء الحرمين في عصره. أخذ عنه في مسند أحمد وصحيح مسلم وإحياء علوم الدين.

٥ - صلاح بن الحسين الأخفشي ت١١٤٢هـ. قال عنه الشوكاني: «العالم المحقق الزاهد المشهور المتقشف... برع في النحو الصرف والمعاني والبيان وأصول الفقه» أخذ عنه في شرح الأزهار.

٦ - أبو طاهر إبراهيم بن حسن الكردي المدني. أخذ عنه في حجته الأولى.

٧ - عبد الله بن علي الوزير ت١١٤٧هـ. برع في العلوم الآلية والتفسير.

٨ - عبد الرحمن بن أسلم. أحد علماء الحرمين - التقى به الصنعاني أثناء تأدية الحج للمرة الثالثة.

٩ - عبد الرحمن بن أبي الغيث - خطيب المسجد النبوي - أخذ عنه أوائل الصحيحين وغيرهما وأجازه إجازة عامة.

١٠ - عبد الخالق بن زيد المزجاجي ت١١٥٢هـ - بصعناء - وقد تقدم ذكره.

١١ - علي بن محمد العني ت١١٣٩هـ. كان شاعرا بليغا وقاضيا مشهورا، أخذ العلم عن جماعة من أعيان عصره، وقد أخذ الصنعاني عنه في النحو والمنطق والفقه.

١٢ - أبو الحسن الحافظ محمد بن عبد الهادي السندي ت١١٣٨هـ - أحد علماء المدينة المنورة في عصره، وقد التقى به في حجته الثانية، وقد وصفه الصنعاني بأنه شيخ علامة، وحامل لواء السنة في البقاع المقدسة.

١٣ - محمد بن أحمد الأسدي. شيخ علامة، التقى به الصنعاني في حجته الثالثة عام ١١٣٤هـ، وقرأ عليه شرح عمدة الأحكام، وشرع في تأليف حاشيته المسماة «العدة في شرح العمدة».

١٤ - هاشم بن يحيى الشامي ت١١٥٨هـ - أحد العلماء المشاهير الأدباء - برع في جميع العلوم وفاق الأقران، ودرّس للطلبة وانتفع به أهل صنعاء، وقد أخذ الصنعاني عنه علم الجدل.

ثانيا: تلاميذه: لقد كان للصنعاني نشاط بارز وأثر ملموس في نشر العلم وتدريسه وخاصة في صنعاء، ويصف المؤرخ زبارة نشاط الصنعاني في نشر العلم بين أبناء عصره ومدى تأثيره فيهم فيقول: «واستمر البدر الأمير على نشر العلم والسنة والدعاء إلى العمل بها حتى انتشرت كتب الحديث واشتغل الناس بها وتنافسوا فيها...».

وقد ذكر الشوكاني بعضا من تلاميذه ووصفهم بأنهم نبلاء وعلماء مجتهدون وهم كما يلي:

١ - شيخ الشوكاني العلامة عبد القادر الناصر ت١١٩٩هـ. قال عنه الشوكاني: «شيخنا الإمام المحدث الحافظ المسند المجتهد المطلق».

٢ - القاضي العلامة أحمد بن محمد قاطن ت١١٩٩هـ - كان له شغف في العلم وعرفان تام بفنون الاجتهاد، وكانت له عناية كاملة بعلم السنة ويد طولى في حفظها، وهو عامل باجتهاد نفسه لا يقلد أحدا، وقال عنه زبارة: «أخذ عن السيد الحافظ محمد بن إسماعيل الأمير، وحضر دروسه العامة في علم الحديث».

٣ - القاضي العلامة أحمد بن صالح بن أبي الرجال ت١٠٩٢هـ - قال عنه الشوكاني: «برع في كثير من المعارف...، وهو من العلماء المشاركين في فنون عدة، وله أبحاث ورسائل وقفت عليها وهي نفيسة ممتعة، ونظمه ونثره في رتبة متوسطة».

٤ - العلامة الحسن بن إسحاق المهدي ت١١٦٠هـ. فاق في غالب العلوم وصنف التصانيف منها «منظومة الهدي النبوي»، وهي نظم لكتاب الهدي النبوي لابن القيم، ثم شرحها شرحا نفيسا، وله أشعار فائقة منها قصيدة مدح فيها شيخه العلامة محمد بن إسماعيل الأمير، وقد قرأ على الصنعاني في البحر الزخار وضوء النهار وغيرهما.

٥ - العلامة محمد بن إسحاق المحدي ت١١٦٧هـ - كان من أئمة العلم المجمع على جلالتهم ونبالتهم وإحاطتهم بعلوم الاجتهاد.

قلت: ومن تلاميذه أيضا أبناؤه الثلاثة. قال زبارة: «كان يقول بعض الأكابر خلف السيد محمد بن إسماعيل الأمير ثلاثة أولاد وتقسموا فضائله» وهم كما يلي:-

٦ - إبراهيم بن محمد بن إسماعيل ت١٢١٣هـ. قال عنه الشوكاني: «كان من أعيان العلماء وأكابر الفضلاء»، ووصفه زبارة بقوله: «براعة والده وفصاحته وقوة استنباطه للأحكام من الأدلة الشرعية».

٧ - عبد الله بن محمد بن إسماعيل ت١١٤٢هـ. قال عنه الشوكاني: «برع في النحو والصرف والمعاني والبيان والأصول والحديث والتفسير، وهو أحد علماء العصر المفيدين العاملين بالأدلة الراغبين عن التقليد».

٨ - القاسم بن محمد بن إسماعيل ت١٢٤٦هـ. قال عنه الشوكاني: «ابن العلامة الكبير البدر... برع في علوم الاجتهاد وعمل بالأدلة.

وللصنعاني تلاميذ غير هؤلاء كانوا يقصدونه من خارج صنعاء للاستفادة والطلب، ومنهم العلامة أحمد بن صالح الرومي الذي قدم من قسطنطينية لما بلغته أخبار البدر، وعرض على الصنعاني مشكلات عرضت له في مسائل، وكذلك وصل إليه السيد لطف الرومي وقرأ عليه في البخاري.

والحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع:

- البدر الطالع - نشر العرف
- توضيح الأفكار شرح تنقيح الأنظار
- الأنفاس الرحمانية

لمحات من حياة الإمام

محمد بن إسماعيل الصنعاني

• الحلقة الثالثة •

بقلم/ أ.د

عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

بعد أن استعرضنا طرفًا من حياة العلامة الشيخ/ محمد بن إسماعيل الصنعاني وذكرنا نشأته وشيوخه وتلاميذه، نعرض لأهم لمحة من لمحات حياة هذا الإمام العَلَم وهي عقيدته ومذهبه، لنرى كيف كان الإمام رحمه الله على أصول عقيدة أهل السنة والجماعة ومنهجهم في التلقي والاستدلال.

ثالثًا: عقيدته ومذهبه:

أولاً: عقيدته:

قبل أن أحكم على عقيدة الصنعاني أرى لزامًا عليَّ أن أبين موقفه من مسائل العقيدة وهل اتبع فيها عقيدة السلف، أم عقيدة المخالفين، وما رأيه في الفرق المختلفة المخالفة لعقيدة أهل السنة والجماعة.

١- موقفه من توحيد الربوبية والألوهية:

لا شك أن كل مهتم بعقيدة السلف يعرف كتاب «تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد»، وهو كتاب جدير بأن يحتل مكانة عظيمة بين الكتب التي عالجت وفرقت بين مفهوم توحيد الربوبية والألوهية، ويعتبر الصنعاني بهذا الكتاب الذي تحدث فيه عن معنى «لا إله إلا الله» من أبرز من حمل لواء الدعوة إلى إخلاص التوحيد لله ونبذ البدع والضلالات والشرك والخرافات في القرن الثاني عشر، ثم تبعه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في نفس القرن ليجهر ويجاهد ويدافع عن هذا الأمر العظيم(١).

ولما سمع الصنعاني بظهور الشيخ محمد عبد الوهاب، وعرف أنه يدعو إلى الدين الحق والرجوع إليه أرسل بقصيدته الدالية المشهورة في عام ١١٦٣هـ التي مدحه فيها وعبر عن سروره وفرحه بظهور هذه الدعوة المباركة في الوقت الذي كان يظن أنه هو وحده على هذه العقيدة، ولما قال فيها:

لقد سرني ما جاءني من طريقة
وكنت أظن هذه الطريقة لي وحدي(٢)

وهذا يبين لدعاة التوحيد والسنة وغيرهم أن السائرين على منهج السلف تلتقي أفكارهم وتتوحد جهودهم وإن تباعدت ديارهم واختلفت أوطانهم، لاجتماعهم وأخذهم من منبع واحد هو القرآن والسنة(٣).

٢- موقفه من علم الكلام والمتكلمين:

لقد حارب الصنعاني علم الكلام وبين فساد منهج المتكلمين في أكثر من موطن، وقد قال عنهم في كتابه «إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة»: «فإذا نظرت مبادئ كلامهم في علم الكلام وكتب الحكمة في الزمان والمكان، رأيت محارات يظلم منها القلب الحي، ولا يقف منها على شيء، ولكنهم خَفوا عند رؤية كلام الفلاسفة وجعلوه عنوانا لأصول الدين»(٤).

وكان يمتاز بتقديم النقل على العقل واتباع النصوص في مسائل العقائد وغيرها. يقول في ذلك رحمه الله: «اعلم أن المختار عندي والذي أذهب إليه وأدين به في هذه الأبحاث ونحوها، هو ما درج عليه سلف الأمة ولزموه من اتباع السنة والبعد عن الابتداع والخوض فيها إلا لردها على لزوم مناهج الأنبياء، وكيف ترد الأقوى إلى الأضعف»(٥).

٣- مخالفته للمعتزلة والأشاعرة ورميهم بالابتداع:

أعلن الصنعاني مخالفته للمعتزلة والأشاعرة، وإن تأثر بالمعتزلة في خلق أفعال العباد إلا أنه انتقد المعتزلة كثيرًا، وكذلك الأشاعرة ووصفهم بالابتداع، ومن أقواله في ذلك: «إنما قدمت هذا لئلا يظن الناظر أني أذهب إلى قول فريق من الفريقين المعتزلة

والأشاعرة، فإن الكل قد ابتدعوا في هذا الفن الذي خاضوا فيه»(٦).

٤- موقفه من الأسماء والصفات وما يتعلق بالأمور الغيبية:

ينطلق الصنعاني في هذا الباب من منطلق سليم يتفق مع منهج السلف، ومما قال في ذلك: «قد علم من الدين ضرورة أن لله أوصافًا كلها كمال، قال جل جلاله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾، فالإيمان بها واجب على جميع العباد والنكير متعين على من جحدها، أو ادعى أن فيها اسم ذم لله تعالى، ومنها ما ثبت في الأحاديث، فمن عرف صحة الحديث المفيد لذلك وجب عليه الإيمان به»(٧).

كما نقل كلام ابن القيم في شرحه لمنازل السائرين، وأبطل تأويل الصفات من ستة أوجه(٨). وقال في كتابه: «جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت» وهو بصدد الحديث عن سؤال الملكين وما يتعلق بأمور الآخرة «... فيجب قبول ما أخبر به من أمور الدارين وتلقيه بالتصديق وحمله على اللغة العربية من غير تحريف، فإن فهمت المقالة فيا حبذا، وإن لم تفهم فلا تقل نؤوله بكذا ولا بكذا، بل تكل فهمه إلى قائله، وتتهم فهمك القاصر، وتسأل الله أن يعلمك ما لم تعلم فهو على كل شيء قدير، وما أحسن ما قاله ابن القيم رحمه الله: «ينبغي أن يفهم عن رسول الله ﷺ مراده من غير غلو ولا تقصير، فلا يحمل كلامه ما لا يحتمل، ولا يقصر به عن مراده، وما قصد به من الهدى والبيان، وقد حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله»(٩).

ومع هذا فقد وقع من الصنعاني في بعض المواطن ما ينتقد عليه، فقد نقل كلام المقبلي بصوابه وخطئه وسكت عنه، كما لم يحقق موقف ابن تيمية في مسألة الجهة- غفر الله لنا وله-.

٥- حبه لجميع أصحاب رسول الله ﷺ:

قد يظن البعض أن الصنعاني لنشأته في بيئة زيدية يذهب إلى بعض أقوال الروافض، وقد ذهب إلى ذلك الدكتور خليل إبراهيم ملا خاطر حينما نسب الصنعاني إلى التشيع، ووضع قوله إلى جانب قول الروافض، وهذا تحامل شديد على هذا الإمام العالم وهو برئ منه، وقد رد الدكتور أحمد العليمي(١٠) على الدكتور المذكور في ذلك. ولقد عاش الصنعاني محاربًا في بلده ووطنه لمخالفته لما هم عليه من التشيع والرفض حتى أنهم رَمَوه بالنصب(١١). وهو من آل البيت، ويسجل لنا ديوان الصنعاني رسالة أرسلها إلى أحد تلامذته وهو العلامة أحمد بن محمد قاطن، في شأن الرجل الذي دخل صنعاء، وكان من العجم، فسب الصحابة ونال منهم، وحزن الصنعاني لذلك وكتب رسالة إلى تلميذه المذكور ومما جاء فيها: «فاقرة في الدين، قاصمة لظهور المتقين، ومصيبة في الإسلام لم يطمع في وقوعها إبليس اللعين، ومكيدة في الإسلام أسست بآراء جماعة من الأقدام»(١٣). وهي ظهور الرفض وسب العشرة المشهود لهم بالجنة على لسان الرسول الأمين ﷺ وعلى آله الطاهرين حاشا عليا أمير المؤمنين، ويستمر الصنعاني في رسالته فيذكر أنه حصل للعجمي هذا قبولٌ عند الخليفة المنصور، وأمره أن يملي نهج البلاغة وشرحه لابن أبي الحديد على الكرسي في الجامع الكبير إلى أن قال: «ومازال كل ليلة يسرد من هذا حتى ذكر أنه حرف القرآن بعض الصحابة، فسب الصحابة العامة من الناس، ولعنوا أعيان أصحاب رسول الله ﷺ، وحاصله أنه لم يبق مذهب من مذاهب العجم إلا دسه»(١٤).

٦- ثناؤه على أئمة أهل السنة والجماعة:

من المعلوم أن من أمارة أهل البدع الوقيعة في أهل السنة وتنقيصهم ورميهم بما ليس فيهم حقدًا وبغضًا، وهذا شأن المبتدعة في كل زمان ومكان(١٥). وما قاله الكوثري عن أعلام السلف ليس منا ببعيد(١٦). أما أهل الحق والهدى فيعرفون لسلف هذه الأمة والسائرين على منهج الرسول ﷺ فضلهم ومكانتهم، ومن هنا نجد الصنعاني يثني كثيرًا على ابن تيمية وابن القيم، فوصف ابن تيمية بالعلامة شيخ الإسلام، وبتبحره في العلوم وسعة اطلاعه على أقوال السلف والخلف(١٧).

وقال عن ابن القيم: «إنه الذي أتى بنفيسي العلم في كل ما يبدي»، ولما سمع بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فرح كثيرًا بظهوره، وما ذلك إلا أنه لأنه يحب عقيدة السلف ويجاهد لنشرها ويرغب أن يعم خيرها البلاد والعباد، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك.

وكما كان يثني على السلف كان يحذر ويذم أهل البدع والضلال. يقول الأستاذ قاسم غالب ورفقاه عن الأمير: «ولم يكتف ابن الأمير بدارسة الكتب التي تخدم مذهبه ولكنه كان لا يقع على كتاب ينحرف فيه صاحبه عن القصد، حتى يلفت النظر إلى انحرافه، ويدعو مدرسته إلى

الاحتراس منه، قرأ كتاب «الإنسان الكامل» للجيلي فأرسل وراءه قصيدة يقول فيها:

هذا كتاب كله جهل
وخلاف ما جاءت به الرسل
قد ضل أقوام برؤيته
فغدوا وليس لدينهم ظل(١٨)

وبعد: فها هي الأصول والقواعد التي كان عليها الصنعاني ودعا إليها وسار عليها من خلال ما سطره هو في كتبه، فأين نضع الرجل بعد ذلك؟ لا يمكن أن يكون إلا من أهل السنة والجماعة الذين كانوا على عقيدة السلف وساروا عليها، وجاهدوا وحوربوا من أجل التمسك بها في عصر لا يعرف إلا الجهل والخرافة.

وقد يقول قائل: للصنعاني بعض المخالفات للسلف كما سبقت الإشارة إلى ذلك في الصفات وكمسألة خلق أفعال العباد.

أقول: الصنعاني حاول جاهدًا تحرير هذه المسألة، ولكنه لم يتمكن وهو وسط هذا الجو الخانق من معرفة الحق فيها، ومع هذا فهو رجح ما ترجح عنده دون متابعة لفرقة معينة أو مذهب معين، وقد سبق بيان عدم متابعته للمعتزلة والأشاعرة، وأحيانًا تقوم بالعالم شبهات لا يتمكن من التخلص منها، لعدم الموجه الصادق أثناء الطلب، ولعدم توفر كتب السلف والعاملين بها كما في بيئة الصنعاني.

ثانيًا: مذهبه:

مذهب الصنعاني يلتقي مع عقيدته، فليس له مذهب إلا ما جاء في الكتاب والسنة، لذلك تجده يدعو إلى الاجتهاد ونبذ التقليد، ويؤلف كتابًا خاصًا في ذلك ليعالج قضية الاجتهاد والتقليد، ولقد فند في كتابه حجج المانعين للاجتهاد مبينًا أن التعصب للمذهب هو الذي دفعهم إلى ذلك، وعاد إلى تعظيم السنن والانقياد لها وترك الاعتراض عليها، ومن أقواله في ذلك: «وقد منع أئمة الدين معارضة سنة سيد المرسلين ﷺ بأقوال غيره من الأئمة المجتهدين»(١٨).

ونقل عن الشيخ محمد حياة السندي قوله: «فمن تعصب لواحد معين غير الرسول ﷺ ويرى أن قوله هو الصواب الذي يجب اتباعه دون الأئمة الآخرين فهو ضال جاهل، بل قد يكون كافرًا يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، فإنه متى اعتقد أنه يجب على الناس اتباع واحد معين من هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم دون الآخرين، فقد جعله بمنزلة رسول الله ﷺ وذلك كفر»(١٩).

ومن هذا المبدأ انطلق الصنعاني رحمه الله في علومه ومؤلفاته يأخذ ما يؤيده الدليل ويترك ما سواه، ويناقش ويرجح ويجمع ما أمكن بين الأدلة كعالم مجتهد له مكانته ومنزلته، وإن كتابه سبل السلام لخير شاهد على ما أقول وهو معروف ومتداول بين طلبة العلم.

تظهر مكانة الصنعاني في سلوكه لهذا المنهج لمن نظر وتتبع حالة المجتمع الإسلامي وما وصل إليه من خرافة وتقليد في زمنه، فإذا ظهر رجل في وسط هذا المجتمع بهذا الفكر النير، وهذه الدعوة التي ترد كل شيء إلى الكتاب والسنة في الأصول والفروع، كان هذا دليلاً على صحة مذهبه ودعوته، وقد ذكر أبياتًا من الشعر تبين منهجه فقال:

لا يسأل الملكان من حل الثرى
إلا عن المختار من عدنان
لا عن مذهب أحمد أو مالك
والشافعي ومذهب النعمان
كلا ولا زيد ولا عمرو فدع
كلا وتابع واضح البرهان
هذا ووال المسلمين جميعهم
وقل الجميع لأجله إخواني
واستغفر الله العظيم لكلهم
فبذا أتاك الأمر في القرآن(٢٠)

---

(١) ولد الأمير الصنعاني عام ١٠٩٩هـ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب عام ١١١٥هـ.. (٢) ديوان الأمير الصنعاني (ص١٣٠).
(٣) انظر تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد (ص٧، ٨)، لنقف على قول الصنعاني في توحيد الربوبية والألوهية.
(٤) إيقاظ الفكرة (ج١/٢٩٥، ٢٩٦). (٥) الأنفاس الرحمانية اليمنية على الإفاضة المدنية (خ ورقة ١/٢٧).
(٦) المرجع السابق، نفس الورقة. (٧) إيقاظ الفكرة لمراجعة الفكرة (ج١/١٧٦). (٨) المرجع السابق (ج١/١٩٨- ٢٠٣).
(٩) جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت. (١٠) انظر كتابه: «الصنعاني وكتابه توضيح الأفكار» (ص٩٨، ٩٩، ١٠٣، ١٠٦).
(١١) البدر الطالع (ج٢/١٣٥)، والنصب هو إيذاء أهل البيت.
(١٢) القدم من الناس: العمى عن الحجة والكلام، مع ثقل ورخاوة وقلة فهم. لسان العرب (ج١٢/٤٥٠).
(١٣) ديوان الأمير الصنعاني (ص٤٥١- ٤٥٢). (١٤) انظر رسالة السنة للإمام أحمد بن حنبل (ص٨٦، ٨٧).
(١٥) انظر مقدمته على الأسماء والصفات للبيهقي، ومقدمته على تبيين كذب المفترى لابن عساكر وغيرهما.
(١٦) رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار للصنعاني (ص٦٣، ١٢٠). (١٧) انظر كتاب ابن الأمير وعصره (ص١٦٥).
(١٨) إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد (ص١٣٧). (١٩) السابق (ص١٤٥) (٢٠) ديوان الصنعاني (ص٣٨٧).

من أعلام

محمد بن إسماعيل الصنعاني

• الحلقة الرابعة •

بقلم/ أ.د

عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئ

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

نكمل ما ذكرناه من حياة الإمام الصنعاني رحمه الله تعالى، فنقول:

رابعًا: دفاع الصنعاني عن العقيدة ونشر علوم السنة النبوية

لقد أسهم الصنعاني إسهامًا وفيًا في الدفاع عن العقيدة بقلمه ولسانه وتوجيهه الحكام إلى ما فيه الخير والصلاح لدينه وأمته، ويذكر لنا الصنعاني شيئًا من ذلك فيقول: «لما درسنا في الجامع الكبير في التفسير على الكرسي تدريسًا عامًا ممزوجًا بالوعظ والتذكير من سنة ١١٥٤هـ، وانتشر منه خير كثير من تعليم الشرائع وإشاعة السنة النبوية، وكان يحضره أمم من الناس لا يحصون من كبير وصغير، وأقبل الناس على الطاعات، وعمرت بيوت الله بالصلوات في أوقاتها والجماعات، أغاظ إبليس ذلك الخير العام، فألقى في قلوب جماعة بأن يسعوا بنا إلى الإمام المنصور بالله الحسن بن القاسم رحمهما الله، وقالوا له: إنا نحرض على مخالفة مذهب الآل، وفعلوا إليه رسائل، فيها زور وبهتان وجهل وهذيان، وكاد أن يميل إلى أقاويلهم، ووقع بيننا مناظرة، فعصمه الله تعالى وأظهر له الحق، كما ظهر لكل أحد غير من ملئ قلبه بالغل والحسد، ومزق إحدى الرسائل بيده، وأمرني أن أجيب على الأخرى فأجبت عليها برسالة سميتها: «السهم الصائب في نحر القول الكاذب»[1]، واستمر الصنعاني يدافع عن العقيدة الصحيحة وسط هذا الجو والبيئة التي لا تعرف إلا البدع والمنكرات، وقد أرشد المهدي العباسي إلى إزالة أصنام كانت «ببندر المخا»[2] لطائفة «البانيان»[3]، وألف رسالة في ذلك نفيسة، فبادر المهدي إلى الأمر بإزالتها وهدم بيوتها وقبض جميع أموالها، وأحضروا صنمًا إلى الإمام المهدي منها وكان الصنعاني لديه، فأمر الصنعاني بكسره، وكان في صورة أنثى وديس النعال[4]، كما حرَّض المهدي على بعث معلمين للصلاة في جميع القرى والمدن والبوادي وإزالة منكرات المعتقدات من الأشجار والأحجار والقباب على الأموات والإرشاد إلى الطاعات، فأرسل المهدي جماعة من الصالحين وأمر بتعليم الصلاة في مدينة صنعاء وغيرها، وجعل للمعلمين جراية من بيت المال، فسارع الناس إلى الطاعات وأزيلت المنكرات[5].

وفي سنة ١١٧٠هـ كتب إلى المهدي العباسي قصيدة يحذره فيها من تصديق المنجمين ويهنئه بدخول ذلك العام، ومما قال له:

ولا تستمع من عابد لنجومه
تقاويم زور ليس تغنى ولا تجدي
أكاذيب يمليها لكل مغفل
يصدقها من ضل عن طريق الرشد

والله ما عند النجوم دلالة
على نحس يوم في الزمان ولا سعد
ووالله ما غير الإله بعالم
بما في غد مما يسر وما يبدي[٦]

وهكذا استمر الصنعاني في نشر عقيدة التوحيد ومحاربة المنكرات بين العامة والخاصة، وكما جاهد في سبيل ذلك، جاهد في سبيل نشر الحديث وعلوم السنة النبوية في الوقت الذي اندرست فيه السنن والآثار وفي ذلك يقول الصنعاني:

كان الحديث بأرضكم
مستغربًا والله جدا
حتى نشرت فنونه
وجلوت منه ما تصدى
ولدرسه ولأخذه
من بعدنا كل تصدى[٧]

ومن منطلق دعوة الناس إلى العمل بالسنة وترك ما عداها كان لزامًا على الصنعاني أن يبين للناس فساد طرق المخالفين للسنة وضلالهم، وفي هذا يقول:

أي الكتاب كفت دلالتها
صحب الرسول وعابد الوثن
وانقاد كل بالزمام لها
أهل الذكاء والفهم والفطن
لكن طلبت الحق من طرق
معوجة ليست على سنن
قد كان فيها الجبائي سلفا
والأشعري[٨] أيضًا أبو الحسن
والجعد قبلهما وجهم لقد
باعا الهدى جهلا بلا ثمن[٩]

وقد عرف عن الصنعاني تمسكه بالسنة ونشر كتبها وعلومها، فوصفه الشوكاني بعكوفه على كتب الأمهات وسائر كتب الحديث عاملاً بما فيها[١٠]، وقال عنه المؤرخ زبارة: «واستمر البدر الأمير على نشر العلم والسنة والدعاء إلى العمل بها، حتى انتشرت كتب الحديث واشتغل الناس بها وتنافسوا فيها»[١١]، وهكذا ذكر عن الصنعاني كل من ترجموا له[١٢].

والصنعاني كان حريصًا كل الحرص على نشر علوم الكتاب والسنة والتمسك بهما في حياته، وكان يدعو ربه أن يستمر ذلك بعد وفاته، حتى يضم ذلك إلى ميزان حسناته في يوم الدين، يقول رحمه الله في ذلك:

خدمت كتاب الله والسنة التي
أتتنا عن المختار من صحبه الغُرّ
نشرت لواها في دياري ولم يكن
لواها بمنشور وسائل من يدري
وأرجو بأن يبقى الذي قد نشرته
بها دائمًا حتى يدوم إلى الحشر
ليجري لمن قد سَنَّ ذلك أجره
كما صح في الأخبار عند ذوي القدر[١٣]

وقد تم بفضل الله للصنعاني ما أراد، فانتشرت علوم السنة النبوية، وتمسك الناس في الغالب بكتاب ربهم، وقد لاحظت ذلك بنفسي بين الشباب المثقف وأبناء الجامعات في اليمن، وإن النهضة العلمية والمسيرة السلفية الصحيحة التي تغمر العالم الآن لهي من ثمرات دعوة التجديد التي قام بها الشيخان الفاضلان: محمد بن عبد الوهاب، ومحمد بن إسماعيل، ومن قبلهما ابن تيمية وابن القيم وغيرهم من علماء هذه الأمة رحم الله الجميع، وثبتنا على دينه.

خامسًا: دعوته إلى خروج اليهود من اليمن وهدم الكنائس

دعا الصنعاني إلى ضرورة إخراج اليهود من اليمن، لأنها من جزيرة العرب، ويشملها حديث رسول اللّه ﷺ في إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب، وقد تتبع الصنعاني وذكر بعض الأحاديث التي تؤيد ذلك، وأن اليمن من جزيرة العرب[١٤]، وقد ناقش الأقوال في هذه المسألة ورجح خروج اليهود والنصارى من اليمن، ومما قال: «فالحق وجوب إجلائهم من اليمن لوضوح دليله، ولا يخفى أن البانيان هم المجوس، والمجوس حكمهم من حكم أهل الكتاب لحديث: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، فيجب إخراجهم من أرض اليمن، ومن كل محل من

جزيرة العرب، وعلى فرض أنهم ليسوا بمجوس، فالدليل على إخراجهم دخولهم تحت: «لا يجتمع دينان في جزيرة العرب»(١٥)، ولم يكتف الأمير بكتابة ذلك، بل ذهب إلى المتوكل ونصحه وقال له: إنه يجب عليك إخراج اليهود من جزيرة العرب التي منها اليمن كما أوصى به النبي ﷺ، فإن لم يتم إخراجهم فلا أقل من إلزامهم الصغار وخراب ما زادوه من الكنائس مما لم يؤذن فيه، فأمر المتوكل عند ذلك بخراب الكنائس، ولكن المتوكل بعد هذا رجع عن هدم الكنائس لما قال له يوسف بن المتوكل إن الأئمة قد أقرتهم على ذلك، وعلم بذلك الأمير فطلبه للمناظرة فدخل يوسف بن المتوكل على البدر بحضرة المتوكل، وقال للبدر: كيف يصدر منكم هذا؟ فقال البدر: أما خراب الكنائس فأمر سهل، إنما أطلب من الإمام تنفيذ وصية رسول الله ﷺ بإخراج اليهود من جزيرة العرب، فقال يوسف: وأين هذا الحديث؟ فقال البدر: هو في كتب الحديث وغيرها من شرح الأزهار، فأمر المتوكل أحمد بن عبد الرحمن الشافعي أن يحضر شرح الأزهار فجاء به ففتح البدر على الحديث، فقال يوسف بن المتوكل عند ذلك: إن السيد محمد منطيق وأنا على المنطيق لا أطيق»(١٦).

ولهذا لم يسلم البدر الأمير من اليهود وكيدهم، وهم المعروفون بذلك، فكانوا يكذبون عليه، ويقولون عنه ما لم يقله، ويذكر المؤرخ زبارة حادثة توضح ذلك فيقول: «وثب رجل سكران على بعض الصبيان في مطاهير بعض المساجد وأراد منه الفاحشة فأغيث وخلص منه، فرفع الأمر إلى المتوكل فغضب وطلب سالمًا العراقي كبير اليهود وشيخهم، وقال له: قد منعنا اليهود عن بيع الخمر من المسلمين وأنت مرخص لهم في بيعه، فأجاب اليهودي: قد أفتانا السيد محمد الأمير والسيد الحسن بن إسحاق بجواز بيعه منهم، وكأنه لقن هذا الجواب من بعض حُسَّاد البدر، فلما بلغه جواب اليهودي دخل على المتوكل وقال: بلغني أنه قال اليهودي أني أفتيت بحل بيع الخمر من المسلمين وهذا كذب عليَّ، فأحضره الآن لتعرف حقيقة كذبه، وتعرف ما قد فعله اليهود مما ينافي الصغار والذلة وتكثير الكنائس بالعمارات ومزاحمة المسلمين في الطرقات وغير ذلك، فاستدعاه الخليفة وقال له: كم الكنائس في قريتكم؟ فشرع يعددها بأسمائها والمتوكل يكتب الأسماء، فقال البدر: ها رأيتم كم عمروا، فعند ذلك تلكأ اليهودي وغالط، ثم قال البدر لليهودي: أنت قلت أني أفتيتك بجواز بيع الخمر، ففي أي وقت لقيتني وأفيتك أو كتبت لك بخطي فتوى؟ فتردد، ثم قال: قال لنا عالمنا، فظهر للمتوكل كذبه، فأمر به إلى السجن، فقال البدر: ويقيد أيضًا»(١٧).

---

(١) انظر ديوان الصنعاني (ص٣٨١، ٣٨٢)، وقد جمعه ابنه وضمنه معلومات متفرقة عن أبيه كالذي ورد ذكره هنا.
(٢) مدينة باليمن.
(٣) المراد بهم المجوس.
(٤) نشر العرف (ج٣/٤١).
(٥) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.
(٦) ديوان الأمير الصنعاني (ص١٥٧).
(٧) المرجع السابق (ص٩٤)، وانظر الفصل الثاني من كتاب ابن الأمير وعصره (ص١٤٧- ١٩٥).
(٨) هذا ينطبق على الأشعري قبل رجوعه إلى مذهب السلف، لأنه كان معتزليا، وقد أوضحت ذلك في مقدمتي لكتابه رسالة إلى أهل الثغر.
(٩) ديوان الصنعاني (ص٣٨٨).
(١٠) البدر الطالع (٢/١٣٤).
(١١) نشر العرف (ج٣/٣٢).
١٢- انظر مثلاً أبجد العلوم لصديق حسن خان (ج٣/١٩١)، وفهرس الفهارس للكتاني (ج١/٥١٣)، وعنوان المجد لعثمان بن بشر (ج١/٥٣- ٥٦).
(١٣) انظر ديوان الصنعاني (ص٢٠٤)، وهذه الأبيات من قصيدة طويلة قالها الصنعاني قبل وفاته في شهر جمادى الآخرة عام ١١٨٢هـ، وقد سأل فيها الله كثيرًا أن يعفو عنه ويغفر له، ويعتذر عن عدم السفر لمكة بيت الله الحرام لعجزه مع تشوقه إلى بيت ربه.
(١٤) انظر تفصيل ذلك في سبل السلام (٤/١٣٦٦- ١٣٦٩).
(١٥) المرجع السابق (ج٤/١٣٦٨، ١٣٦٩).
(١٦) انظر: نشر العرف (ج٣/٣٦، ٣٧).
(١٧) المرجع السابق (ج٣/٣٦).

لمحات من حياة الإمام

محمد بن إسماعيل الصنعاني

• الحلقة الأخيرة •

بقلم/ أ.د

عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ، وبعد:

نكمل ما ذكرناه من حياة الإمام الصنعاني رحمه الله تعالى فنقول:

بعض المسائل والاجتهادات العلمية التي حققها للصنعاني رحمه الله

كثير من المسائل العلمية التي قام بتحقيقها، وهي تدل على أنه صاحب فكر نيِّر ومفهوم سليم للقضايا الإسلامية المختلفة وملتزم تمام الالتزام بالقواعد الفقهية الصحيحة التي تعتمد على الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، وما كان عليه الصحابة والتابعون.

وسأذكر هنا بعض النماذج لبيان هذه الحقيقة، ولتظهر لنا شخصية الصنعاني العلمية كمجتهد مطلق، لم يتقيد بمذهب.

ولقد ذكر الدكتور أحمد العليمي أهم المسائل العلمية للصنعاني، وختم بحثه بقوله: «والمتتبع لكلام الصنعاني في كتبه كلها: العدة، وسبل السلام، وضوء النهار... إلخ، يرى أنه يناقش المسائل الواردة، ويذكر أقوال العلماء من الصحابة والتابعين وأصحاب المذاهب مع ذكر أدلتهم ودلائلهم، ثم يذكر ما يترجح له منها، مع ذكر دليل الترجيح وسببه غير متعصب ولا متحامل»[1].

والذي يقرأ سبل السلام وغيره من كتب الصنعاني يلمس ذلك ويجده ظاهرًا، فهذه بعض الأمثلة:

١- تحقيقه العلمي القوي لمسألة فناء النار، وقد ألف في هذا كتابًا سماه: «رفع الأستار لإبطال أدلة القائلين بفناء النار»، وقد وصفه لي أستاذي الدكتور علي ناصر فقيهي بقوله: إنه بحث علمي قيم، وقد ناقش فيه الصنعاني الأدلة التي ساقها ابن القيم في بعض كتبه حول هذه المسألة، وقد يظن البعض أن ابن تيمية وتلميذه ابن القيم يقولان بفناء النار والأمر ليس كذلك، وإن ثبت أن واحدًا منهما قال بذلك فيكون يقينًا قد رجع عنه، لأن النصوص التي بين أيدينا من أقوالهما تبين ذلك، وقد سئل ابن تيمية عن حديث أنس بن مالك عن النبي ﷺ أنه قال: سبعة لا تموت ولا تفنى ولا تذوق الفناء: النار وسكانها، واللوح، والقلم، والكرسي والعرش، فهل هذا الحديث صحيح؟ فأجاب رحمه الله بقوله: «هذا الخبر بهذا اللفظ ليس من كلام النبي ﷺ وإنما هو من كلام بعض العلماء، وقد اتفق سلف الأمة وأئمتها وسائر أهل السنة والجماعة على أن من المخلوقات ما لا يعدم ولا يفنى بالكلية كالجنة والنار والعرش وغير ذلك، ولم يقل بفناء جميع المخلوقات إلا طائفة من أهل الكلام المبتدعة»[2].

وابن القيم رحمه الله وإن حشد من الأدلة الكثيرة على فناء النار، ودافع عن ذلك كما يظهر من كلامه[3]؛ إلا أنه توقف في النهاية وقال: «فإن قيل: فإلى أين انتهى قدمكم في هذه المسألة العظيمة الشأن التي هي أكبر من الدنيا بأضعاف مضاعفة؟ قيل إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[4].

وقد صرح في كتابه «الوابل الصيب» بغير هذا، وذكر أن النار

التي تفنى هي نار العصاة، ويعني بذلك خروج الموحدين من النار.

يقول رحمه الله: «ولما كان الناس على ثلاث طبقات: طيب لا يشينه خبيث، وخبيث لا طيب فيه، وآخرون فيهم خبيث وطيب كانت دورهم ثلاثة: دار الطيب المحض، ودار الخبيث المحض، وهاتان الداران لا تفنيان، ودار لمن معه خبيث وطيب، وهي الدار التي تفنى وهي دار العصاة»(٥).

٢- بحثه القيم لمسألة الصلاة على الآل، وقد بحث في هذه المسألة الأقوال ورجح ما يتفق مع النصوص الواردة، وهو بحث جدير بالقراءة والاطلاع(٦).

وبدأ كلامه فيها بقوله: «ولقد أحسن الناظم جلال الدين رحمه الله في صلاته على الآل، لأنه أتى في حديث التعليم في بيان كيفية الصلاة بذكرهم كما سمعته، فلا يتم الامتثال في الإتيان بالصلاة التي علمها ﷺ في التشهد في الصلاة وندبها فيه علىّ آله، إلا بالصلاة عليهم فإنه بدون ذلك يكون تفريقًا بين ذوي الأرحام في الأحكام.

٣- مناقشته للهادوية والإمامية والخوارج في القول بعدم جواز المسح على الخفين، وقد ساق رحمه الله الأدلة على جواز المسح على الخفين، وتوسع في نقل أقوال أهل العلم، وأبطل حجج المخالفين(٧).

٤- إثباته للخيار في المجلس بين المتبايعيْن، وقد استدل في ذلك بحديث ابن عمر المتفق عليه ورجح ذلك، وناقش المذهب المخالف، وهو للهادوية والحنفية ومالك والإمامية(٨).

هذا وقد كان الصنعاني يرجح دائمًا ما ثبت به النص الصحيح، وإذا تعارضت النصوص في الظاهر درسها دراسة جيدة من حيث المتقدم والمتأخر منها، أو الصحيح والضعيف، أو يجمع بين النصوص متى أمكن الجمع، وهذا ظاهر في كتابه سبل السلام وغيره.

وكثيرًا ما كان يرجح أقوال شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم، كما في مسألة طلاق الثلاث(٩)، ورضاع الكبير(١٠)، وتحريم الحشيشة(١١).

وكان في هذه المسائل وغيرها ينقل كلام ابن تيمية وابن القيم بنصه وينصره، وهذا يدل على تحقيقه رحمه الله في المسائل العلمية المختلفة ورجوعه إلى مصادر السلف فيها.

سابعًا: ثناء الناس عليه ووفاته

لقد عرف القاصي والداني وسمع بالأمير محمد بن إسماعيل، وقدَّر له أهل العلم والفضل ما قدمه من خير ونفع وإصلاح للمجتمع الإسلامي.

وما تركه من علم غزير ينتفع به وبعضه يدرس الآن في الجامعات كسبل السلام، جعل العلماء يثنون عليه، وهذه نماذج قليلة مما قاله فيه أهل العلم اكتفيت بها، لأن ما قيل فيه كثير ويطول حصره.

١- قال الإمام الشوكاني رحمه الله: «الإمام الكبير المجتهد المطلق صاحب التصانيف، وبرع في جميع العلوم وفاق الأقران وتفرد برئاسة العلم في صنعاء، وتظهر بالاجتهاد وعمل بالأدلة ونفر عن التقليد، وزيف ما لا دليل عليه من الآراء الفقهية، وجرت له مع أهل عصره خطوب ومحن»(١٢).

٢- وقال العلامة المحقق عثمان بن بشر النجدي رحمه الله: «فريدُ عصره في قطره عالم صنعاء وأديبها الشيخ المحقق محمد بن إسماعيل رحمه الله تعالى وكان ذا معرفة في العلوم الأصلية والفرعية، صنف عدة كتب في الرد على المشركين المعتقدين في الأشجار والأحجار والرد على أهل وحدة الوجود وغير ذلك من الكتب النافعة، والشيخ رحمه الله تعالى شمس فضائله شارقة في الأقطار، عالية مكارمه على كل منار، ومن وقف على مصنفات صاحب هذه الترجمة علم فضله ونور علمه»(١٣).

٣- وقال العلامة صديق حسن خان: «هو الإمام الكبير المحدث الأصولي المتكلم الشهير، قرأ كتب الحديث وبرع فيها، وكان إمامًا في الزهد والورع»(١٤).

٤- وقال الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد: «هو الإمام المتقن والعلامة المتفنن، البارع في غالب العلوم، المحدث، الحافظ، الضابط، أبو إبراهيم محمد بن إسماعيل»(١٥).

٥- وقال الدكتور / إبراهيم هلال: «درس في اليمن وفي مكة المكرمة على طريقة أهل الحديث، وتأصل في علم الحديث، وألم به إلمام الشوامخ، وألف فيه وكتب الكتب التي تعتبر أمهات في بابها، وكان أن قادته هذه الدراسة الحديثية إلى تعظيم مبدأ الاجتهاد والأخذ به، وإلى اتباع طريقة السلف فيما يتصل بالعقيدة والنبوات وصفات الباري سبحانه، ثم إلى مناقضته الصوفية، وقد كان هذا من قبله بالنسبة لابن تيمية، ثم من بعده لابن عبد الوهاب والشوكاني»(١٦).

وفاته:

بعد جهاد حافل- كما سبق بيانه- مات الصنعاني- رحمه الله- في يوم الثلاثاء ثالث شهر شعبان من سنة اثنتين وثمانين ومائة وألف ١١٨٢هـ. ودفن غربي منارة جامع المدرسة بأعلى صنعاء.

قال الشوكاني: «ورثاه شعراء العصر وتأسفوا عليه»(١٧).

وقد أرخ وفاته نظمًا محمد بن هاشم بن يحيى الشامي في أبيات منها:

عَزَّ الأماجدُ من أهلِ المفاخرِ في
طودٍ من المجدِ لا أعني به رجلا
بل طودَ علمٍ ينابيعُ العلومِ بِهِ
تجري بحارًا بلا نهرٍ لِمَنْ سَالا

كما رثاه تلميذه العلامة عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن إبراهيم بن المهدي بقصيدة عامرة منها:

أَحَقًا قَضَى شيخُ الشيوخِ محمدُ
وعطل من بدر الكمال منازلهْ
هو الشمسُ عَمَّ البَرَّ والبحرِ نورُها
وما خَبَرَ ذاكَ النورَ مَنْ هوَ جَاهِلُهْ
فَمَنْ لكتابِ اللهِ والسُّنةِ التي
رأى نشرَها فرضًا فعمَّتْ نَوافِلُهْ
ولم يُثْنِهِ مِنْ نَشْرِها عَذْلُ عاذِلٍ
وقد رَشَقَتْهُ بالسهامِ عَواذِلُهْ
تَدَرَّعَ لامَاتٍ مِنَ الصبرِ دونَها
وسَمَّرَ القَنَا والمرهفاتُ دلائِلُهْ
رماحٌ وأسيافٌ من الحُجَجِ التي
غدت مُفْحِماتٍ كلَّ خَصْمٍ يُجابِلُهْ(١٨)

أسأل الله جل ذكره أن يغفر لنا وله وأن يجمعنا في جنات النعيم وصلَّى الله وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

---

(١) انظر الصنعاني وكتابه توضيح الأفكار ص٨٣ .
(٢) انظر مجموع الفتاوى جـ١٨ / ٣٠٧ .
(٣) انظر هادي الأرواح إلى بلاد الأفراح ص٢٤٨ - ٢٧٤ .
(٤) المرجع السابق ص٢٧٣، ٢٧٤ .
(٥) الوابل الصيب ص٤٩ .
(٦) انظره في جمع الشتيت شرح أبيات التثبيت ص٢١ - ٢٦ .
(٧) انظر سبل السلام جـ١ / ٨٦ - ٨٨، بتحقيق الأستاذ عبد العزيز الخولي.
(٨) المرجع السابق جـ١ / ٨٨ .
(٩) المرجع السابق جـ٣ / ١٠٨٧ .
(١٠) المرجع السابق جـ٣ / ١١٤٥، ١١٥٥ .
(١١) المرجع السابق جـ٤ / ١٣٢١ .
(١٢) البدر الطالع جـ٢ / ١٣٣ .
(١٣) عنوان المجد في تاريخ نجد جـ١ / ٥٣ - ٥٦ .
(١٤) أبجد العلوم جـ٣ / ١٩١ .
(١٥) انظر مقدمة توضيح الأفكار ص٧٣ .
(١٦) انظر كتاب الوجهة السلفية عند الأمير الصناعي ص٣، ٤ .
(١٧) البدر الطالع جـ٢ / ١٣٩ .
(١٨) نشر العرف جـ٣ / ٤٥ .

كلمات للدعاة في الدعوة إلى الله

الحمد لله الذي فقَّه من أراد به خيرًا في الدين، ورفع منازل العلماء فوق العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث هدًى للعالمين وقدوة للعاملين وإمامًا للمتقين، وبعد:

فلقد بعث الله نبيه ومصطفاه ﷺ بالهدى ودين الحق ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأمره ربه بتبليغ رسالته والدعوة إلى دينه، فقال له: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ١]، وكما أمر الرسول ﷺ بتبليغ الرسالة أمر أتباعه بأن ينشروا الرسالة التي نزلت من عند الله، وأن يدعوا الناس إلى الحق الذي شرفوا به، كما قال تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

قال القاسمي رحمه الله: «وفي الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو من أعظم واجبات الشريعة المطهرة وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها»[1].

وقد فهم الصحابة- رضوان الله عليهم- والسلف الصالح هذه المهمة العظيمة، فقاموا بأداء واجب الدعوة إلى الله وإبلاغ الرسالة المحمدية إلى الأفراد والجماعات والأمم والشعوب، وإن الدعوة الإسلامية بحاجة ضرورية إلى رجال أكْفَاء فقهوا التوحيد والسنة ليقدموا الإسلام- وهو الدين الحق- الذي بعث به النبي ﷺ إلى العالم أجمع كما جاء من عند الله، عقيدة وشريعة، علم وعمل وتربية على منهاج النبوة، ويدفعوا عنه كيد الكافرين، وافتراء المكذبين المضللين، أصحاب الدعوات الباطلة، والاتجاهات المنحرفة، والأفكار الدخيلة، والخرافات والبدع، ولهذا يجب على الدعاة إلى الله أن يعدوا أنفسهم إعدادًا جيدًا قبل الدخول في ميدان الدعوة إلى الله التي هي مهمة الأنبياء والمرسلين، وأن يكونوا أصدق الناس قيلاً وأشرفهم طريقًا، لأن الدعوة إلى الله ليس فيها جانب غامض أو غرض مستور، ومساهمة مني في الدعوة إلى إعداد جيل متميز من الدعاة إلى الله، يحمل الحق والخير والنور إلى العالم أجمع أقدم لإخواني هذه الكلمات، وأدعوهم إلى التحلي بهذه الخلال والصفات وهي كما يلي:

١- الدعوة إلى الله على بصيرة وحجة وبرهان: قال تعالى موجهًا الخطاب أولاً للنبي ﷺ: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨].

يقرر ربنا في هذه الآية أن دعوة النبي ﷺ هي إلى سبيل الله وطريقه، وهي دعوة إلى الإيمان والتوحيد، ومعرفة الله بصفات كماله ونعوت جلاله، وتتسم هذه الدعوة بقيامها على الحق الواضح المنزل من عند الله، ولذلك قال: ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ أي حجة واضحة غير عمياء، وكذلك من اتبعه وآمن به يدعو إلى الله أيضًا على بصيرة وهداية، لا عن هوًى وضلال، ثم نزه نبينا ﷺ ربه عن الشرك والند والصاحبة والولد فقال: «وسبحان الله وما أنا من

المشركين»، وقد نقل القاسمي رحمه الله بعض التنبيهات حول هذه الآية جاء فيها: «دل قوله تعالى ﴿عَلَى بَصِيرَةٍ﴾ على مزية هذا الدين الحنيف، ونهجه الذي انفرد به، وهو أنه لم يطلب التسليم به لمجرد حكايته، ولكنه ادعى وبرهن، وحكى مذاهب المخالفين، وكرَّ عليها بالحجة، وخاطب العقل واستنهض الفكر، وكل من ذكر الحجة وأجاب عن الشبهة، فقد دعا بمقدار وسعه إلى الله، وهذا يدل على أن الدعاء إلى الله تعالى إنما يحسن ويجوز مع هذا الشرط، وهو أن يكون على بصيرة مما يقول، وعلى هدى ويقين، فإن لم يكن كذلك فهو محض الغرور». انتهى[٢].

وقد بينت هذه الآية أن الدعوة المستقيمة هي إلى الله وحده دون سواه، وعليه فلا ترفع راية غير راية الكتاب والسنة، لاشتمالهما على الدين الحق الذي جاء من عند الله سبحانه، والداعي إلى غير ذلك داع إلى نفسه، لا إلى ربه، ويستفاد من ذلك ترك الدعوات التي تقوم على غير الحق والهدى، لأنها دعوة إلى ضلالة، وإلى هوى النفس وحظوظها، والبصيرة الواردة في الآية تشمل العلم بالشرع والعلم بالسبيل الموصل إلى المقصود، وهو الحكمة، فيكون بصيرًا بحكم الشرع، وبصيرًا بحال المدعو، وبصيرًا بالطريقة الموصلة لتحقيق الدعوة، لأن الجاهل لا يصلح للدعوة، وليس محمودًا، وليست طريقته طريقة الرسول ﷺ لأن الجاهل يفسد أكثر مما يصلح[٣].

٢- **الصدق:** إن الداعي إلى الله عز وجل يجب أن يكون صادقًا مع ربه، صادقًا مع نفسه، صادقًا مع الناس الذين يدعوهم، وكما هو معلوم فإن الناس لا يلتفتون إلى الأخبار الكاذبة أو الملفقة، وعلى الداعية أن ينزه نفسه عن ذلك- إن كان حقًا يريد حمل رسالة الإسلام والدعوة إليها.

إن الخطبة البليغة، والمحاضرة المنمقة، والكلام البديع، والرسالة الجميلة الرائعة إن لم تكن صادقة وصاحبها كذلك لن تترك أثرًا في السامعين أو القائمين، ولقد دعا الله سبحانه وتعالى المؤمنين إلى الصدق وحث عليه، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وقال تعالى: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

والصدق في القول والعمل طريق قوي للدخول إلى قلوب المدعوين، وسبب كبير في إقبال الناس إلى الداعي والاستماع إليه والأخذ عنه، ولقد استفاد النبي ﷺ من شهرته بين المشركين بالصادق الأمين من إلزام قريش بقبول دعوته والتصديق برسالته، فعن ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: «لما نزلت: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عديّ- لبطون قريش- حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال ﷺ: أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصدقيّ؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا؟ فنزلت: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾[٤]، ولهذا وجب على الناس جميعًا، والدعاة بوجه أخص أن يكونوا صادقين مع الله عز وجل، فلا تغرهم الأماني، ولا الكلمات المعسولة، ولا البريق الزائف، بل يجب عليهم أن يكون لهم خط سليم صحيح صادق، ومنهج مستقيم واضح تطابق فيه أفعالهم ما انطوت عليه قلوبهم.

٣- **الإخلاص في القول والعمل:** الإخلاص روح الدين ولب العبادة، ولابد منه للداعية، إن أي عمل دنيوي يقوم به الإنسان لابد من توفر شرط الإخلاص لنجاحه، فما بالك إذا كان العمل لله، لا شك أنه يكون فريضة آكد وعقدة أوثق وألزم، ولا يرفع عمل عند الله ويقبل ما لم تصحبه نية صالحة، وإرادة وجه الله والدار الآخرة، وقد أمر الله بإخلاص الدين له وحده في أكثر من آية في كتابه فقال سبحانه: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلاَ لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقال عز وجل: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة].

وقد أمر الله نبيه ﷺ في كتابه أن تكون

حياته كلها لله، وأن يتجرد التجرد الكامل لربه ومولاه، فقال: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢].

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «يأمره الله تعالى أن يخبر المشركين الذين يعبدون غير الله ويذبحون لغير اسمه، أنه مخالف لهم في ذلك، فإن صلاته لله ونسكه على اسمه وحده لا شريك له، فإن المشركين كانوا يعبدون الأصنام ويذبحون لها، فأمره تعالى بمخالفتهم والانحراف عما هم فيه، والإقبال بالقصد والنية والعزم على الإخلاص لله تعالى»[٥].

ويوجه الشيخ محمد رشيد رضا- رحمه الله- بعض التوجيهات التربوية اللطيفة التي تفهم من هذه الآية فيقول: «فتذكر أيها المؤمن أن الذي يوطن نفسه على أن تكون حياته لله ومماته لله يتحرى الخير والصلاح والإصلاح في كل عمل من أعماله ويطلب الكمال في ذلك لنفسه؛ ليكون قدوة في الحق والخير في الدنيا، وأهلاً لرضوان ربه الاكبر في الآخرة، ثم يتحرى أن يموت ميتة مرضية لله تعالى، فلا يحرص على الحياة لذاتها»[٦]، ولأهمية الإخلاص في الدين والدعوة والعبادة، جعل النبي ﷺ يسير الرياء شركا، فضلاً عن الرياء الكامل، وخاف على أمته منه، كما جاء عن محمود بن لبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء، يقول الله عز وجل لهم يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤن في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً»[٧]، ولهذا كان ضعف الإخلاص يعود إلى قلة المعرفة بالله، أو إلى سوء الظن به، وكلاهما مرض وداء يجب أن يتخلص منه الدعاة، وعليهم أن ينقبوا في خبايا أنفسهم فلا يجعلوا للهوى إليها سبيلاً، وليجعلوا علائقهم بالناس قائمة على الحب في الله والبغض في الله، فلا يؤثروا شاردًا لقربه، ولا يقصوا صالحًا لوحشة منه وضيق به، فالتجرد التجرد في الدعوة إلى الله يا حماة العقيدة والسنة، ودعاة الحق والشريعة.

إن العمل الخالص الطيب- ولا يقبل الله إلا طيبًا- هو الذي يقوم به صاحبه بدافع اليقين المحض وابتغاء وجه الله ورضاه، دون طمع في مغنم، أو حرص على وظيفة ومهنة، ولعل نظرة واحدة في الحديث التالي تلفت وتوقظ إلى ضرورة إخلاص العمل لله، والسعي لنيل عفوه ورضاه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول الناس يقضى يوم القيامة عليه، رجل استُشهد فأُتي به فعرَّفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل تعلّم العلم وعلّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمتُ العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرَّفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا أنفقتُ فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار»[٨]، نسأل الله الإخلاص في القول والعمل، والله الهادي إلى سواء السبيل، وللحديث صلة إن شاء الله.

---

(١) محاسن التاويل للقاسمي (ج٤/٩٢١).
(٢) المرجع السابق (جـ٩/٣٦١١).
(٣) القول المفيد في كتاب التوحيد للشيخ محمد بن عثيمين (جـ١/١٣٠).
(٤) رواه البخاري في صحيحه كتاب التفسير (تفسير سورة الشعراء) جـ٨ ص٥٠١، وهذا لفظه، ورواه مسلم في صحيحه كتاب الإيمان باب (٨٩ جـ١/١٩٤).
(٥) تفسير ابن كثير (جـ٢/٣٣٧).
(٦) تفسير المنار (جـ٨/٢٤٤).
(٧) اخرجه احمد في مسنده (جـ٥/٤٢٨) وغيره.
(٨) صحيح مسلم كتاب الإمارة باب (٤٣) جـ٣/١٥١٣، ١٥١٤ .

قصة السلام (٢)

الحمد لله مالك الملك مدبر الأمر يرفع ويخفض ويعطي ويمنع يعز من يشاء ويذل من يشاء بيده الخير وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله البشير النذير. أما بعد:

فحديثنا اليوم عن مُلك سليمان عليه السلام وعن مملكته، والحديث عن مملكة سليمان حديث ذو شجون، فهو حديث عن مُلك عريض ومملكة متفردة ومَلِكٌ نبي اجتمع له سلطان الدنيا والدين، واتسع ملكه في الدنيا بما لم يتسع لأحد من بعده نبي كان أو ولي، وسعيد أو شقي.

كانت مملكة سليمان تسع الأرض كلها، وعاصمتها القدس، فالقدس في عهد سليمان عليه السلام كان حضارة الدنيا، ومركز إشعاعها وقيادتها.

وكل ملك في الدنيا له جنود ووزراء وحاشية، ومراكب، ومساكن، وزوجات.

كان لسليمان عليه السلام من ذلك أوفر الحظ وأعلاه.

قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ [النمل:١٧].

كل ملك من ملوك الدنيا جنوده من الإنس، أما سليمان فجنوده من الإنس والجن والطير، وكل ملك من ملوك الدنيا له مراكب تحمله أينما أراد من دواب وسيارات وطائرات، أما سليمان عليه السلام فكانت الريح مسخَّرة له بأمر الله تحمله حيث شاء وكيف شاء، تقطع في ساعات ما تقطعه الريح المعهودة في شهر، ولا تحتاج إلى صيانة أو وقود أو طعام، قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ [الصافات: ١٢]، فانظر كيف جعل الله سبحانه الريح منقادة مذلَّلة لسليمان تحمله هيِّنةً لَيِّنة لا تعصف رغم سرعتها وقوتها وخفتها، فانظر إلى آثار صنع المليك كيف يجعل في الشيء الواحد الهلاك والرحمة كيف يشاء، فهذه الريح التي جعلها صرصرًا على عاد، وعلى غيرهم من ظلمة العباد هي التي جعلها رخاء تحمل سليمان حيث أصاب (أي حيث أراد).

والريح هي التي تحمل القطر فينشره الله على من يشاء ويصرفه عمن يشاء: ﴿وَهُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ الغَيْثَ مِنْ بَعْدِ مَا قَنَطُوا وَيَنشُرُ رَحْمَتَهُ وَهُوَ الوَلِيُّ الحَمِيدُ﴾ [الشورى: ٢٨]، وتحمل الناس اليوم في البحر والجو والبر أو يهلك بها من يشاء فهو على ما يشاء قدير.

وقد بلغت مملكة سليمان مبلغًا عظيمًا من التقدم المادي، فقد هيأ الله مادة الصناعة، وسخَّر له الصنَّاع المهرة من الشياطين: ﴿وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ القِطْرِ وَمِنَ الجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ﴾ [سبأ:١٢]، وقال تعالى: ﴿وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ﴾ [ص: ٣٧]، أي وسخَّر له من الشياطين كل (بناء) يقوم بأعمال البناء في البرّ، و(غواص) يغوص في البحر يستخرج

كلمات للدعاة في الدعوة إلى الله

الحمد لله الذي هدانا إليه صراطًا مستقيمًا، والصلاة والسلام على من بعثه ربه [illegible] ونذيرًا. وبعد:

فلقد تحدثت [illegible] عن بعض الصفات [illegible] عليها الداعية إلى ربه [illegible] وأكمل في هذه الحلقة ما بقي من حديث عن هذه الصفات مستعينًا بربِّ الأرض والسماوات، فأقول وبالله التوفيق:

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

٤- التحلي بالصبر:

طريق الدعوة إلى الله تعالى ليس سهلاً، ولا مفروشًا بالورود والرياحين، وإنما هو طريق محفوف بالمكاره، فعليه أن يتذرع بالصبر ليواجه به- بعد الاستعانة بالله- ما يلاقيه وهو في طريقه إلى الله، والسالكون طريق الأنبياء والمرسلين ينالهم ما نال الأنبياء والمرسلين، لأنهم يؤدون وظيفتهم، وهم أحق الناس باقتباس شمائلهم، والاقتداء بهداهم، وقد قال الله لنبيه ﷺ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلاَ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، فقد بينت هذه الآية أن سائر الأمم عاملوا أنبياءهم بمثل معاملة المشركين للنبي ﷺ من الصد عن الدعوة والتكذيب بالرسالة، وأن أولئك الأنبياء صبروا على التكذيب والإيذاء، حتى أتاهم ما وعدوا به من النصر والتمكين، فعليه ﷺ أن يسلك نفس السبيل.

يقول ابن كثير رحمه الله في هذه الآية: «هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمْر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووَعْدٌ له بالنصر كما نصروا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعدما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة»(١)، وقد صرح القرآن الكريم بوجوب الصبر عليه ﷺ تأسيًا في قوله تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٣٥]، واستقلالاً في مواطن عديدة كقوله: ﴿فَاصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلاً﴾ [المعارج: ٥]، وعليه أقول للدعاة: ليس أمامكم إلا الاعتصام بالله والتحلي بالصبر في مواجهة المشاق التي تعترض طريق الدعوة وهي كثيرة، منها: إعراض الناس عنكم وعدم الاستجابة لكم، وهو أمر صعب على نفس صاحب الدعوة حينما ينادي بأعلى صوته الناس بشيرًا ونذيرًا، فلا يجد إلا آذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا، وقد وقع ذلك للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣) بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لاَ يَسْمَعُونَ (٤) وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ فَاعْمَلْ إِنَّنَا عَامِلُونَ﴾ [فصلت: ٣- ٥].

ومن مشاق الدعوة التي تحتاج إلى صبر كبير: أذى الناس بالقول والفعل للداعية، وليس أشد على نفس الرجل المخلص في دعوته، البريء من الهوى، المحب لخير الناس من أن يمحض لهم النصح، فيتهموه بما ليس فيه، أو يأمرهم بالمعروف فيقابلوه بالمنكر، أو يدلهم على الخير فيقذفوه بالشر والطعن، ومن هنا أمر الله رسوله ﷺ على أن يصبر على أذى قومه، فقال تعالى: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا﴾ [المزمل: ١٠]، كما كان أذى المدعوين ينال الأنبياء السابقين، وقد ذكر الله على لسان بعضهم في القرآن الكريم قولهم لأممهم: ﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [إبراهيم: ١٢٠]، ولما قال رجل في قسمة أعطاها النبي ﷺ لبعض أصحابه لمصلحة راجحة: «ما أريد بهذه القسمة وجه الله». قال النبي ﷺ: «رحم الله موسى، قد أُوذي بأكثر من هذا فصبر»(٢).

٥- العمل بما يدعو الناس إليه:

يجب على الدعاة إلى الله أن توافق أفعالهم أقوالهم، وإلا سينفر الناس منهم، وسينظرون إليهم بعين الازدراء والإهانة، وسير الأنبياء والصالحين تبين أنهم كانوا أسبق الناس فيما يدعون الناس إليه، فلا يقولون قولاً إلا إذا أتوا به، ولا يدعون الناس إلى طريق صحيح ومنهج سليم إلا وقد سلكوه، وهذا شعيب عليه السلام نبي من أنبياء الله يدعو قومه إلى الله ويبلغهم رسالة ربه إليهم، ثم يقول لهم كما ذكر القرآن عنه: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلاَّ بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨]، لا يخالفهم إلى ما ينهاهم عنه، أفعاله تصدق أقواله، وهذا شان المؤمن الصادق، وهكذا يكون الداعي إلى الله وحامل رسالة الأنبياء والمرسلين، وإذا رآه الناس على خلاف ما يقول انصرفوا عنه، وكان صورة سيئةً ونمونجًا غير كريم في دعوة الناس إلى الله تعالى، ومخالفًا لهدي الأنبياء والمرسلين، وهذا نبينا ﷺ كان سيد العابدين وإمام الأتقياء والهداة والصالحين، وأسرع الناس إلى الاستجابة والعمل بما أنزل عليه رب العالمين.

إن من الأمور الغريبة أن ترى نفرًا من الناس يتصدرون الدعوة إلي الله تعالى، ثم تجدهم بعد ذلك يحسبون أن ما يقولونه لغيرهم من علم إنما يخص المخاطبين فحسب، والله قد عاب هذا الصنف من الناس في كتابه فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لاَ تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لاَ تَفْعَلُونَ﴾ [الصف:٢،٣]، قال الشيخ عطية سالم- رحمه الله: «في الآية الأولى إنكار على الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي الآية الثانية بيان شدة غضب الله ومقته على من يكون كذلك»[٣]، ولهذا كان النبي ﷺ يربي أصحابه على القول والعمل، ففي حديث عبد الله بن عامر بن ربيعة رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ في بيتنا وانا صبي، قال: فذهبت أخرج لألعب، فقالت أمي: يا عبد الله، تعال أعطك، فقال رسول الله ﷺ: «وما أردت أن تعطيه؟» قالت: أعطيه تمرًا، فقال رسول الله ﷺ: «أما أنك لو لم تفعلي كتبت عليك كذبة»[٤].

٦- التدرج في الدعوة أو البدء بالأهم فالمهم:

الداعي إلى الله يجب أن يعرف من يخاطب وكيف يخاطب، ومن أين يبدأ، وما هي الموضوعات التي يقدمها لأصناف المدعوين.

واقع بعض الدعاة اليوم مؤلم، لأنهم لا يعرفون أمراض المجتمع، أو يعرفونها لكن يتجاهلونها، وبالتالي لا يعرفون الدواء المناسب الذي يقدمونه، لو رأى الداعي رجلاً ينادي ويسأل غير الله معتقدًا أنه يقدم له نفعًا، أو يدفع عنه ضرًا، ثم رآه بعد ذلك يسرق، أو يشرب الخمر مثلاً، فإلى أي شيء يدعوه ومن أين يبدأ معه؟ يجب عليه أولاً أن يبدأ بإصلاح عقيدته، وإلى إفراد الله بالعبادة والوحدانية، وترك ما عليه أهل الضلال من عبادة غير الله، فإذا أخلص القصد والنية، وصدق القول سهل عليه بعد ذلك أن يدعوه إلى غير ذلك، وسيجد منه القبول والاستجابة والطاعة لأمر الله وأمر رسوله ﷺ.

النبي- عليه الصلاة والسلام- مكث ثلاثة عشر عامًا في مكة يدعو الناس إلى كلمة التوحيد، لم يدعهم إلى ترك الخمر وهم لها مدمنون، ولم يدعهم إلى ترك الربا والابتعاد عنه، وقد كانوا به يتعاملون، وإنما دعاهم إلى كلمة واحدة يدينون بها لله: «قولوا لا إله إلا الله تفلحوا»، ولما أرسل معاذ بن جبل إلى اليمن، بيّن له كيف يدعو الناس إلى الله، وما هو المنطلق الصحيح للدعوة؟ وما هو الأمر المهم الذي يجب عليه أن يبدأ به، قال له ﷺ: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب فليكن أول ما تدعوهم إليه أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فاخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقَّ كرائم أموال الناس»[٥].

الساحة الإسلامية مليئة بكثير من الدعاة، لكن البعض منهم لا ينهج النهج الصحيح ولا يسلك الطريقة المثلى في الدعوة إلى الله من الاهتمام البالغ بعقيدة التوحيد وتعليمها للناس والدعوة إليها كما جاءت من عند الله تعالى نقية صافية، وقد يظن البعض أن مسائل العقيدة قد تفرق الصف أو تضعف الجماعة، وهذا ليس بصحيح، فتجميع الناس على غير كلمة التوحيد غير سديد، ومخالف لمنهج جميع الأنبياء والمرسلين الذين افتتحوا دعوتهم بالتوحيد، قال

الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ ومن هنا أقول لكل داعية: ابدأ بكلمة التوحيد واجمع الناس عليها، فبها تتوحد الكلمة ويستقيم الصف، وعَلِّم الناس الشريعة وأصولها، والأخلاق وأسسها، وغير ذلك من أمور الدين، دون إهمال لجانب من جوانب الرسالة، وعالج نقاط الضعف في البيئة كما تراها من المنظور الإسلامي مقتديًا في ذلك بإمام الدعاة والمرسلين ﷺ، ثم عليك أن ترصد التيارات المنحرفة والأفكار الهدامة، والمبادئ الدخيلة، والدعوات المسمومة الموجهة إلى الإسلام وأهله، وتعرف كيف تتصدى لها بعلم وفقه، وتبين بطلانها، وتدحض الشبه التي يثيرها أصحابها، وتحذر الناس منها.

٧- الرحمة واللين والخلق القويم:

إن الرفق ما كان في شيء إلا زانه، وما نُزع من شيء إلا شانه.

إن الداعية يؤدي وظيفة سبقه النبيون إليها، وإنه أحق الناس باقتباس شمائلهم، والاقتداء بهداهم، وأنجح الناس في أداء هذه الرسالة من تُرى وراثات النبوة في خلقه وسلوكه، وعبادته وتضحياته، وعليه فإني أهمس في أذن الداعي إلى الله قائلاً: يجب عليك أن تكون رحيمًا بعباد الله، فلا تكلمهم من برج عال أو تنظر إليهم على أنهم سفهاء، ولا يفهمون ما تقول، بل عليك أن تكون كريمًا في تعاملك مع أصناف المدعوين، وذا قلب رحيم، وقد وصف الله نبيه ﷺ بذلك في كتابه فقال: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فالدعاة إلى الله رحماء بخلق الله، فهم لا يقتلون ولا يظلمون، ولا يروعون الآمنين، ولا يهيجون الشعوب على حكامهم وولاة أمورهم، ولا يحتدُّون على الناس في خطابهم، بل هم بأهل المعاصي مشفقون، ويحبون لهم الهداية إلى الدين القويم، والرجوع إلى الحق المبين، وسلوك الصراط المستقيم، وقد بيّن القرآن الكريم موقف النبي الأمين ﷺ من المخالفين لرسالته والمكذبين لدعوته فقال: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف: ٦]، قال ابن كثير رحمه الله في الآية: «يقول تعالى مسليًا رسوله ﷺ في حزنه على المشركين، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه، كما قال تعالى: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ﴾، وقال: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ﴾، وقال: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾، وباخع، أي: مهلك نفسك بحزنك عليهم»(٦).

ولما ذهب ﷺ إلى الطائف وقابله أهلها بالتكذيب والإيذاء، قابلهم بالرحمة واللين وطمع في أن تشملهم رحمة رب العالمين، وذلك فيما روته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها- لما قالت للنبي ﷺ-: هل أتى عليك يوم كان أشد عليك من أُحد؟ قال: «لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كُلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي، فإذا أنا بسحابة قد أظلتني فنظرت فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله عز وجل قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك، وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلَّم عليَّ ثم قال: يا محمد، إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال، وقد بعثني ربك إليك لتأمرني بأمرك فما شئت؟ إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين، فقال النبي ﷺ: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئًا»(٧).

فتأمل أيها الداعي هذا الموقف، واسلك سبيل صاحب الخلق العظيم ﷺ، والزم الخلق الكريم، واربأ بنفسك عن مواطن التهم والتقصير، وواجه الناس بالرحمة واللين، حتى تحتل مكانًا في قلوب السامعين. وفق الله الجميع لهداه والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) تفسير ابن كثير (جـ٢/٢٤٧).

(٢) أخرجه البخاري في مواطن منها كتاب المغازي باب ٥٦ جـ٨/٢٥٥ ومسلم في كتاب الزكاة باب ٤٦ جـ٢/٧٣٩ .

(٣) تتمة أضواء البيان للشيخ عطية سالم جـ٨/١٧٢ .

(٤) أخرجه أحمد في مسنده جـ٣/٤٤٧، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الكذب.

(٥) أخرجه البخاري في كتاب التوحيد باب ١ جـ١٣/٣٤٧ .

(٦) تفسير ابن كثير جـ٣/١٣٣ .

(٧) أخرجه البخاري في كتاب بدء الخلق باب ٧ جـ٦/٣١٢، ١٣٣، ومسلم في كتاب الجهاد والسير باب ٣٩ جـ٣/١٤٢٠ .

سد الذرائع في

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. وبعد:

فلما كان التوحيد أعظم مطلوب، كانت العناية والاهتمام به من أوجب الواجبات وهذا واضح في دعوات الأنبياء والمرسلين، فما من نبي بعثه الله إلى قومه إلا وجعل لُبَّ رسالته وأساسَ دعوته التوحيد، وقد مكث النبي ﷺ ثلاثة عشر عاما يركز ويكرر الدعوة إلي التوحيد، ولما هاجر إلى المدينة النبوية ونزلت عليه الأحكام والتشريعات كان يبينها ويدعو من خلالها إلى تثبيت وتأكيد التوحيد في النفوس، ليكون الدين كله لله، ولا يعبد أحد سواه، واقتضى ذلك أن يضع القواعد اللازمة لصيانته، وأن يقضي على كل وسيلة مفضية إلى الإخلال به، وأن يسد كل ذريعة يمكن أن تؤدي إلى شائبة فيه، وهذا من كمال الشريعة ومقاصدها الحميدة.

يقول العلامة ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «لما كانت المقاصد لا يتوصل إليها إلا بأسباب وطرق تفضي إليها كانت طرقها وأسبابها تابعة لها معتبرة بها، فوسائل المحرمات والمعاصي في كراهتها والمنع منها بحسب إفضائها إلى غاياتها وارتباطاتها بها، ووسائل الطاعات والقربات في محبتها والإذن فيها بحسب إفضائها إلى غايتها، وهي مقصودة قصد الوسائل، فإذا حرم الرب تعالى شيئا وله طرق ووسائل تُفضي إليه فإنه يحرمها ويمنع منها، تحقيقا لتحريمه وتثبيتا له، ومنعًا أن يُقرب حماه، ولو أباح الوسائل والذرائع المفضية إليه لكان ذلك نقضا للتحريم، وإغراءً للنفوس به، وحكمته تعالى وعلمه يأبى ذلك كل الإباء»[1].

ولأهمية هذا الموضوع وتجليته؛ وبيان شيء من حماية المصطفى ﷺ للتوحيد استعنت بالله عز وجل في الكتابة حول هذا الموضوع، وجمع ما تفرق من أقوال لعلماء السلف فيه، وقبل الشروع في المقصود أذكر أولا تعريف الذريعة والأدلة على وجوب سَدِّها.

أولا: تعريف الذريعة

الذريعة: هي الوسيلة والسبب إلى الشيء، وأصلها عند العرب: الناقة التي يستتر بها رامي الصيد حتى يصل إلى صيده[2].

قال ابن تيمية: «والذريعة: ما كان وسيلة وطريقًا إلى الشيء، لكن صارت في عرف الفقهاء عبارة عما أفضت إلى فعل محرم، ولو تجردت عن ذلك الإفضاء لم يكن فيها مفسدة، ولهذا قيل: الذريعة: الفعل الذي ظاهره أنه مباح وهو وسيلة إلى فعل المحرم»[3].

وقال الشاطبي: «حقيقة الذريعة: التوسل بما هو مصلحة إلى مفسدة»[4].

والذرائع بذلك تختلف عن الحيل، فسد الذرائع مطلوب، والحيل محرمة لا تجوز، لأن حقيقتها: تقديم عمل ظاهر الجواز لإبطال حكم شرعي وتحويله في الظاهر إلى حكم آخر، كالواهب ماله عند رأس الحول فرارا من الزكاة[5].

قال ابن تيمية: «واعلم أن تجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة، فإن الشارع سد الطريق إلى ذلك المحرم بكل طريق، والمحتال يريد أن يتوصل إليه»[6].

وقال ابن القيم: «وتجويز الحيل يناقض سد الذرائع مناقضة ظاهرة فإن الشارع يسد الطريق إلى المفاسد بكل ممكن، والمحتال يفتح الطريق إليها بحيله، فأين من يمنع من الجائز خشية الوقوع في المحرم إلى من يعمل الحيلة في

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

التوصل إليه»[٧].

ثانيًا: الأدلة على وجوب سد الذرائع

دل القرآن والسنة والإجماع على وجوب سد الذرائع، وإليكم بعض ما جاء من ذلك.

أولا: أدلة القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الأنعام:١٠٨].

ووجه الدلالة من الآية: أن الله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي سب المشركين الله عز وجل، فكان النهي سدًا لهذه الذريعة، وهذا دليل على المنع من الجائز إذا كان يؤدي إلى محرم.

قال القرطبي: «في هذه الآية ضرب من الموادعة، ودليل على وجوب الحكم بسد الذرائع»[٨].

ونقل القاسمي عن بعض العلماء قوله في الآية: «إنه متى خيف من سب الكفار وأصنامهم أن يسبوا الله، أو رسوله، أو القرآن لم يجز أن يُسَبُّوا ولا دينهم، قال: وهي أصل في قاعدة سد الذرائع»[٩].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «وفي هذه الآية الكريمة دليل للقاعدة الشرعية، وهو أن الوسائل تعتبر بالأمور التي توصل إليها، وأن وسائل المحرم، ولو كانت جائزة تكون محرمة إذا كانت تفضي إلى الشر»[١٠].

٢- وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٠٤].

ووجه الدلالة من الآية: أن الله سبحانه وتعالى نهى المؤمنين عن كلمة «راعنا»، ومعناها عندهم راعنا سمعك، أي: اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه ونراجعك فيه، وهذا معنى صحيح، ولكن الله نهاهم عنها سدا للذريعة، لأن اليهود كانوا يقولونها لاوين بها ألسنتهم، لتوافق كلمة شتم عندهم، أو نسبة النبي ﷺ إلى الرعونة.

وسيأتي كلام على هذه الآية - إن شاء الله تعالى - فيما بعد.

ثانيًا: الأدلة من السنة:

١- عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه»[١١].

ووجه الدلالة من هذا الحديث: أن النبي ﷺ جعل الرجل لاعنا لأبويه إذا كان سببا في ذلك، وإن لم يقصده.

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث «فيه دليل على أن من تسبب في شيء جاز أن ينسب إليه ذلك الشيء وإنما جعل هذا عقوقًا لكونه يحصل منه ما يتأذى به الوالد تأذيا ليس بالهين.....، وفيه قطع الذرائع، فيؤخذ منه النهي عن بيع العصير ممن يتخذ الخمر، والسلاح ممن يقطع الطريق ونحو ذلك. والله أعلم»[١٢].

وقال ابن حجر: «قال ابن بطال: هذا الحديث أصل في سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل، وإن لم يقصد إلى ما يحرم، والأصل في هذا الحديث: قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾»[١٣].

٢- قال عبد الله بن أبي بن سلول في غزوة بني المصطلق: «أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فبلغ النبي ﷺ فقام عمر فقال: يا رسول الله: دعني أضرب عنق هذا المنافق، فقال النبي ﷺ «دعه لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه»[١٤].

ووجه الدلالة من قول النبي ﷺ هذا، أنه كان يكف عن قتل المنافقين مع كونه مصلحة، لئلا يكون ذريعة لتنفير الناس عنه وقولهم: إن محمدا يقتل أصحابه.

يقول ابن تيمية في ذلك: «إن النبي ﷺ كان يكف عن قتل المنافقين مع كونه مصلحة لئلا يكون ذريعة إلى قول الناس إن محمدا ﷺ يقتل أصحابه لأن هذا القول يوجب النفور عن الإسلام ممن دخل فيه، وممن لم يدخل فيه، وتنفيرهم هكذا حرام»(١٥).

ثالثا: الإجماع:

أجمع الصحابة على بعض المسائل التي يمكن أن يستدل بها على وجوب سد الذرائع، وقد اعتبرها أهل العلم أدلة على سد الذرائع واحتجوا بها، كما عمل بها كثير من الأئمة، وإليكم بعض الأدلة.

١- إن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ورثوا المطلقة المبتوتة في مرض الموت، حيث يتهم بقصد حرمانها من الميراث بلا تردد، وإن لم يقصد الحرمان، لأن الطلاق ذريعة وأما حيث لا يتهم ففيه خلاف معروف(١٦).

وقد رجح ابن قدامة توريثها فقال: «وإن كان الطلاق في المرض المخوف، ثم مات من مرضه ذلك في عدتها ورثته، ولم يرثها إن ماتت...، وروي عن عتبة بن عبد الله بن الزبير لا ترث مبتوتة...، ولنا: أن عثمان رضي الله عنه وَرَّث تماضر بنت الأصبغ الكلبية من عبد الرحمن بن عوف، وكان طلقها في مرضه فبتها، واشتهر ذلك في الصحابة فلم ينكر فكان إجماعًا»(١٧).

٢- إجماع الصحابة رضي الله عنهم وعامة الفقهاء على قتل الجماعة بالواحد، وإن كان قياس القصاص يمنع ذلك، لئلا يكون عدم القصاص ذريعة إلى التعاون على سفك الدماء، قال ابن قدامة: «... ولأن القصاص لو سقط بالاشتراك أدى إلى التسارع إلى القتل به، فيؤدي إلى إسقاط حكمة الردع والزجر»(١٨).

وقد تتابع كثير من العلماء على اعتبار سد الذرائع، وحكَّمها الإمام مالك في أكثر أبواب الفقه، كما ذكر الشاطبي(١٩)، وقال بعد أن ذكر خلافا بين الإمامين مالك والشافعي: «فقد ظهر أن قاعدة سد الذرائع متفق على اعتبارها في الجملة»(٢٠).

وقال ابن بدران: «سد الذرائع هو مذهب مالك وأصحابنا»(٢١)، يعني الحنابلة.

وقد قال بها ابن تيمية، وذكر لها ثلاثين شاهدا من الشريعة يدل عليها(٢٢)، وتوسع ابن القيم فذكر تسعة وتسعين دليلا عليها، وختم كلامه بقوله: «ولنقتصر على هذا العدد من الأمثلة الموافق لأسماء الله الحسنى التي من أحصاها دخل الجنة...، وباب سد الذرائع أحد أرباع التكليف، فإنه أمر ونهي، والأمر نوعان: أحدهما: مقصود لنفسه، والثاني: وسيلة إلى المقصود، والنهي نوعان: أحدهما: ما يكون المنهي عنه مفسدة في نفسه، والثاني: ما يكون وسيلة إلى المفسدة، فصار سد الذرائع المفضية إلى الحرام أحد أرباع الدين»(٢٣).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين جـ٣/١٤٧.
(٢) لسان العرب جـ٨/٩٦، والقاموس المحيط جـ٣/٢٤.
(٣) مجموعة الفتاوى الكبرى جـ٣/١٣٩.
(٤) الموافقات جـ٣/١٩٩.
(٥) المرجع السابق جـ٣/٢٠١.
(٦) مجموعة الفتاوى الكبرى جـ٣/١٤٥.
(٧) إعلام الموقعين جـ٣/١٧١.
(٨) الجامع لأحكام القرآن جـ٤/٢٤٩٧.
(٩) محاسن التاويل جـ٦/٢٤٦٣.
(١٠) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان جـ٢/٤٥٤، ٥٥٤.
(١١) أخرجه البخاري في كتاب الأدب باب٤ جـ١٠/٤٠٣، ومسلم كتاب الإيمان باب٣٨ ط/٩٢ وأبو داود في كتاب الأدب باب ١٢٩ جـ٥/٣٥٢.
(١٢) شرح النووي على مسلم جـ٢/٨٨.
(١٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ١٠/٤٠٤.
(١٤) أخرجه البخاري في كتاب التفسير جـ٨/٦٤٨، ومسلم في كتاب البر باب ١٦ جـ٤/١٩٩٨.
(١٥) مجموعة الفتاوى الكبرى جـ٣/١٤٠.
(١٦) انظر مجموعة الفتاوى الكبرى لابن تيمية جـ٤/١٤٣.
(١٧) المغني جـ٦/٣٢٩، ٣٣٠.
(١٨) المرجع السابق جـ٧/٦٧٢، ومجموعة الفتاوى الكبرى جـ٤/١٤٣.
(١٩) الموافقات جـ٤/١٩٨.
(٢٠) المرجع السابق جـ٤/٢٠٠، ٢٠١.
(٢١) المدخل إلى مذهب أحمد ١٣٨.
(٢٢) مجموعة الفتاوى الكبرى جـ٣/١٣٨ - ١٤٥.
(٢٣) إعلام الموقعين جـ٣/١٧١.

سد الذرائع المؤدية إلى الشرك بالله

الحلقة الثانية

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

أولاً: تعريف الشرك الأكبر وبيان خطورته

الشرك الأكبر: هو أن يجعل العبد لله شريكًا وندًا في ربوبيته وإلهيته، وأغلب شرك المشركين وقع في توحيد الإلهية كدعاء غير الله، أو صرف أي لون من ألوان العبادة لغير الله كالذبح والنذر والخوف والرجاء والمحبة، وما إلى ذلك.

والشرك بالله أعظم ذنب عصي الله به، فهو أظلم الظلم، وأكبر الكبائر، وما هلكت الأمم الغابرة وأُعِدَّتْ لهم النيران في الآخرة إلا بالشرك، وما أرسل الله الأنبياء والمرسلين وأنزل عليهم الكتب بالحق المبين إلا للتحذير منه وبيان قبحه وشؤمه، ودعوة الناس إلى ضده؛ ألا وهو تحقيق التوحيد لله رب العالمين.

والشرك خطره عظيم وضرره على العبد كبير، وذلك للأسباب التالية:

١- لأنه تشبيه للمخلوق العاجز الضعيف بالواحد الأحد المتفرد بالجلال والكمال، ومن أشرك مع الله أحدًا فقد شبهه به، وهذا أعظم الظلم كما في الصحيحين من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ: أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: «أن تجعل لله ندًا وهو خلقك».

قال النووي: الند: الضد والشبه، وفلان ند فلان ونديده أي: مثله. أما أحكام هذا الحديث، ففيه أن أكبر المعاصي الشرك، وهذا ظاهر لا خفاء فيه. «شرح النووي على مسلم ٢/٨٠، ٨١».

٢- أن الله لا يغفر لمشرك مات على الشرك دون توبة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ «النساء: ٤٨، ١١٧».

٣- أن الله حرم الجنة على كل مشرك، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ «المائدة: ٧٢».

٤- أن الشرك يحبط جميع الأعمال التي يعملها العبد، وتصير هباءً منثورًا في يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الخَاسِرِينَ (٦٥) بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ «الزمر: ٦٥- ٦٦».

ثانيًا: بعض الآيات والأمثلة المتعلقة بسد الذرائع إلى الشرك الأكبر

بعد الوقوف على خطورة الشرك الأكبر ومفاسده وأضراره أتعرض لذكر نماذج يسيرة من القرآن والسنة جاء بها الشرع الحكيم لقطع علائق الشرك كله وما يؤدي إليه، حتى يتبين لنا

كيف أن الإسلام سدَّ الذرائع المؤدية إلى الشرك، وأحكم الحديث في هذا الباب أيما إحكام ليحذر العباد من الشرك ومن الوسائل المفضية إلى حصوله ووقوعه، فمن ذلك:

١- الآيات الدالة على عبودية عيسى- عليه السلام- وأنه بشر رسول مخلوق، ليس بإله، أو فيه جزء من الإله، أو أنه ابن الله- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا- وذلك سدًا لذريعة الشرك، واتخاذه إلهًا من دون الله أو مع الله، ودفعًا لأي شبهة ترد على الطريقة التي خلق بها، قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ «آل عمران: ٥٩».

قال ابن تيمية: «فعنى بقوله: (مثل عيسى) إشارة إلى البشرية المأخوذة من مريم الطاهرة؛ لأنه لم يذكر هنا اسم المسيح، إنما ذكر عيسى فقط، فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشري على الأقسام الممكنة ليبين عموم قدرته، فخلق آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾، وخلق المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى، وكان خلق آدم وحواء أعجب من خلق المسيح، فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا، وهو أصل خلق حواء فلهذا شبهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، وهذا كله يبين به أن المسيح عبدٌ ليس بإله، وأنه مخلوق كما خلق آدم.

وقال ابن كثير: يقول تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللَّهِ﴾ في قدرة الله تعالى حيث خلقه من غير أب (كمثل آدم) فإن الله تعالى خلقه من غير أب ولا أم، بل خلقه من تراب ثم قال له: كن فيكون، والذي خلق آدم قادر على خلق عيسى بطريق الأولى والأحرى، وإن جاز ادِّعاء النبوة في عيسى بكونه مخلوقًا من غير أب، فجواز ذلك في آدم بالطريقة الأولى، ومعلوم بالاتفاق أن ذلك باطل فدعواها في عيسى أشد بطلانًا وأظهر فسادًا، ولكن الرب عز وجل أراد أن يظهر قدرته حين خلق آدم لا من ذكر ولا من أنثى، وخلق حواء من ذكر بلا أنثى، وخلق عيسى من أنثى بلا ذكر، كما خلق البرية من ذكر وأنثى. «تفسير القرآن العظيم لابن كثير ١/ ٤٠».

ويقرر ربنا في آيات أخرى بشرية عيسى وأمه- عليهما السلام- وأنهما من جنس البشر، ويسلكان في الطبيعة البشرية ما يسلكه غيرهم، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلانِ الطَّعَامَ انظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الآيَاتِ ثُمَّ انظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ «المائدة: ٧٩».

يعني أن عيسى رسول من رسل الله تعالى الذين أُرسلوا لهداية البشرية ودعوتها إلى توحيد الله وعبادته، وأمه صديقة من فضليات النساء، وحقيقتهما مساوية لحقيقة غيرهما من أفراد نوعهما وجنسهما بدليل أنهما كانا يأكلان الطعام، وكل من يأكل الطعام فهو مفتقر إلى ما يقيم بنيته ويمد حياته، إلى جانب أن أكل الطعام يستلزم الحاجة إلى دفع الفضلات، وعليه فلا يمكن أن يكون ربًا خالقًا، ولا ينبغي أن يكون ربًا معبودًا.

قال الشوكاني في تفسيره للآية: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، أي: هو مقصور على الرسالة لا يجاوزها كما زعمتم، وجملة ﴿قد خلت من قبله الرسل﴾ صفة لرسول، أي ما هو إلا رسول من جنس الرسل الذين خلوا من قبله، وما وقع منه من المعجزات لا يوجب كونه إلهًا، فقد كان لمن قبله من الرسل مثلها، فإن الله أحيا العصا في يد موسى، وخلق آدم من غير أب، فكيف جعلتم إحياء عيسى للموتى ووجوده من غير أب يوجبان كونه إلهًا، فإن كان كما تزعمون أنه إله لذلك، فمن قبله من الرسل الذين جاءوا بمثل ما جاء به آلهة، وأنتم لا تقولون بذلك، وقوله: ﴿وأمه صديقة﴾

عطف على المسيح، أي: وما أمه إلا صديقة، وذلك لا يستلزم الإلهية لها، بل هي كسائر من يتصف بهذا الوصف من النساء، قوله: ﴿كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ﴾، استئناف يتضمن التقرير لما أشير إليه من أنهما كسائر أفراد البشر: أي من كان يأكل الطعام كسائر المخلوقين فليس برب، بل هو عبد مربوب ولدته النساء، فمتى يصلح لأن يكون ربًا. «فتح القدير: ٦٤/٢».

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في تفسيره: أي هذا غايته ومنتهى أمره، أنه من عباد الله المرسلين، الذين ليس لهم من الأمر، ولا من التشريع إلا ما أرسلهم به الله، وهو من جنس الرسل قبله، لا مزية له عليهم تخرجه عن البشرية إلى مرتبة الربوبية، «وأمه» مريم «صديقة» أي :هذا أيضًا غايتها أن كانت من الصديقين الذين هم أعلى الخلق رتبة بعد الأنبياء، فإذا كان عيسى- عليه السلام- من جنس الأنبياء والرسل من قبله، وأمه صديقة، فلأي شيء اتخذهما النصارى إلهين مع الله؟ وقوله: ﴿كانا يأكلان الطعام﴾ دليل ظاهر على أنهما عبدان فقيران محتاجان كما يحتاج بنو آدم إلى الطعام والشراب، فلو كانا إلهين لاستغنيا عن الطعام والشراب ولم يحتاجا إلى شيء، فإن الإله هو الغني الحميد». «تيسير الكريم الرحمن ٣٢٦/٢- ٣٢٧».

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ «المائدة: ٧٢»، وأن مريم ولدت إلهًا، ولذلك رد الله عليهم هذا البهتان وعليه فكيف يدَّعون الإلهية لمن يعترف على نفسه بأنه عبد مثلهم كما أن دلائل الحدوث ظاهرة عليه. «انظر الدين الخالص لصديق حسن خان ٢٥/١».

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلاَ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ (١١٦) مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ «المائدة: ١١٦، ١١٧».

قال القاسمي في تفسيره: «ذكر الله تعالى أنه يعدد نعمه على عيسى بحضرة الرسل واحدة فواحدة إشعارًا بعبوديته، فإن كل واحدة من تلك النعم المعدودة عليه، تدل على أنه عبد وليس بإله ثم أتبع ذلك باستفهامه لينطق بإقراره- عليه السلام- على رؤوس الأشهاد بالعبودية، وأمره لهم بعبادة الله عز وجل إكذابًا لهم في افترائهم عليه، وتثبيتًا للحجة على قومه، فهذا سر سؤاله تعالى له، مع علمه بأنه لم يقل ذلك، وكل ذلك لتنبيه النصارى الذين كانوا في وقت نزول الآية ومن تأثر بهم على قبح مقالتهم وركاكة مذهبهم واعتقادهم». «محاسن التأويل ٢٢١٩/٦».

ومثل ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا﴾، إلى قوله: ﴿وَإِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾.

قال ابن كثير في تفسيره: ومما أمر عيسى به قومه وهو في مهده: أن أخبرهم إذ ذاك أن الله ربهم وربه وأمرهم بعبادته فقال: ﴿فَاعْبُدُوهُ هَذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ أي: هذا الذي جئتكم به عن الله صراط مستقيم، أي: قويم، فمن اتبعه هدي، ومن خالفه ضل وغوى. «تفسير ابن كثير ٢٢٥/٤».

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه والجنة حق والنار حق أدخله الله الجنة على ما كان من العمل». «أخرجه البخاري ٤٧٤/٦، ومسلم ٥٨/١، ٥٩، وأحمد في مسنده ٣١٣/٥، ٣١٤».

وإلى لقاء إن شاء الله.

سد الذرائع المؤدية الى الشرك بالله

الحلقة الثالثة

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد ذكرنا نماذج مما جاء به الشرع الحكيم لقطع علائق الشرك الأكبر وسد الذرائع المؤدية إليه ليحذر العباد منه، وكان من ذلك ما جاء به الشرع من عبودية عيسى ابن مريم عليه السلام لله عز وجل، وأنه بشر مخلوق وليس بإله ولا بجزء من إله ولا ابن إله؛ وذلك سدًا لذريعة الشرك؛ باتخاذه إلهًا من دون الله.

ونتحدث في هذه الحلقة إن شاء الله تعالى عن عبودية النبي ﷺ لله رب العالمين، وأن دعاء غير الله شرك.

٢- الآيات الدالة على عبودية النبي ﷺ:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل وترشد إلى حقيقة هامة ألا وهي أن النبي ﷺ بشر كسائر البشر، ولكنه فُضل عليهم بالنبوة والرسالة التي توجب محبته وطاعته والانقياد لأمره ﷺ، وقد نهى ﷺ عن الغلو والإطراء في شخصه، وذلك سدًا لذريعة اتخاذه شريكًا مع الله، أو صرف أي لون من ألوان العبادة له ﷺ، قال تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

ولهذا كانت العبودية هي أشرف مقام للنبي ﷺ وقد خاطبه ربه بها في أشرف المناسبات وأعظم المقامات، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء: ١]، وقال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا﴾ [الكهف: ١]، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال تعالى: ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا (١٩) قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلاَ أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا (٢٠) قُلْ إِنِّي لاَ أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلاَ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٩- ٢١].

وإذا كان رسول رب العالمين الذي هو أكمل الخلق وأقربهم إلى الله عز وجل لا يملك ضرًا ولا رشدا بنص كتاب الله الكريم فغيره من سائر الخلق ممن هم دونه ﷺ من باب أَوْلى وأحرى، بل إنه ﷺ ما سبق غيره إلا بكمال عبوديته لربه.

قال ابن القيم رحمه الله: «فأكمل الخلق أكملهم عبودية وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: «أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك».

[أبو داود: ٣٢٦/١١، وأحمد في المسند]

وكان يدعو: «يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك». [الترمذي ٥٠٤/٩، وأحمد]، فهو يعلم ﷺ أن قلبه بيد الرحمن عز وجل لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يُصَرفه كما يشاء، وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلا أَن ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٤]، فضرورته ﷺ إلى ربه وحاجته إليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة وأعظمهم جاهًا وأرفعهم عنده منزلة لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه، وذكره الله سبحانه بسِمَة العبودية في أشرف مقاماته، مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي، وفي حديث الشفاعة: «أن المسيح يقول لهم: اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر». [البخاري: ٣٩٢/١٣، ومسلم ١٨٠/١، ١٨١]. فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله وبكمال مغفرة الله له. [طريق الهجرتين].

وللعلامة الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله كلام جميل على هذا الموضوع يحسن إيراد شيء منه هنا لتتم الفائدة: قال وهو يفسر أوائل سورة الحجرات: «مسألتان: الأولى: اعلم أن عدم احترام النبي ﷺ المشعر بالغض منه، أو تنقيصه ﷺ والاستخفاف به، أو الاستهزاء به ردة عن الإسلام وكفر بالله، وقد قال الله تعالى في الذين استهزءوا بالنبي ﷺ وسخروا منه في غزوة تبوك لما ضلت راحلته: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ (٦٥) لاَ تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٥، ٦٦].

المسألة الثانية: وهي من أهم المسائل: اعلم أنه يجب على كل إنسان أن يميز بين حقوق الله تعالى التي هي من خصائص ربوبيته التي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه كحق النبي ﷺ ليضع كل شيء في موضعه على ضوء ما جاء به النبي ﷺ في هذا القرآن العظيم والسنة الصحيحة.

وإذا عرفت ذلك فاعلم: أن من الحقوق الخاصة بالله التي هي من خصائص ربوبيته التجاء عبده إليه إذا دهمته الكروب التي لا يقدر على كشفها إلا الله، فالتجاء المضطر الذي أحاطت به الكروب ودهمته الدواهي لا يجوز إلا لله وحده؛ لأنه من خصائص الربوبية، فصرف ذلك الحق لله وإخلاصه له هو عين طاعة الله ومرضاته، وطاعة رسوله ﷺ ومرضاته، وهو عين التوقير والتعظيم للنبي ﷺ لأن أعظم أنواع توقيره وتعظيمه هو اتباعه والاقتداء به في إخلاص التوحيد والعبادة لله وحده جل وعلا، وقد بيّن جل وعلا في آيات كثيرة من كتابه أن التجاء المضطر من عباده إليه وحده في أوقات الشدة والكرب من خصائص ربوبيته تعالى، قال تعالى: ﴿قُلِ الحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلاَمٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَى آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [النمل: ٥٩]، ثم بيّن من خصائص ربوبيته الدالة على أنه المعبود وحده، فقال: ﴿أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ﴾ [النمل: ٦٠]، فهذه المذكورات التي هي خلق السماوات

والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق ذات البهجة التي لا يقدر على إنبات شجرها إلا الله من خصائص ربوبية الله، ولذا قال تعالى بعدها: «أإله مع الله» يقدر على خلق السماوات والأرض وإنزال الماء من السماء وإنبات الحدائق به، والجواب: «لا» لأنه لا إله إلا الله وحده».

[أضواء البيان: ٦١٧/٧- ٦٢١]

٣- الآيات الدالة على أن دعاء غير الله واللجوء إليه شرك:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تبين أن الدعاء والاستعاذة والاستغاثة لا تكون إلا بالله وحده لا شريك له، وأن الآلهة الباطلة التي عبدت من دونه لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًا، فكيف يرجو العبد منها شيئًا لا تملكه، وذلك سدًا لذريعة التعلق بها، أو اعتقاد نفع فيها، ويسلك القرآن الكريم في ذلك مسلكًا عظيمًا يضيق المقام عن استقصائه، ولكن تكفى الإشارة إلى بعض من ذلك.

[باختصار وتصرف من كتاب: دعوة التوحيد د/ محمد خليل هراس: ص٣٥- ٤٠]

أ- بيان عجز هذه الآلهة المزعومة وإبراز فقرها وضعفها كقوله تعالى: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً (٥٦) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٦- ٥٧]، وكقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٤) وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللَّهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (٥) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٤- ٦]. فقد بينت هذه الآيات بيانًا شافيًا قاطعًا للعذر أن غير الله لا يُدعى لأنه إلى جانب أنه لا ينفع ولا يضر لم يخلق شيئًا بالاستقلال، كما لم يخلق شيئًا بالشركة، وليس عند المشركين أي دليل على ما يفعلون، ثم بينت الآيات ضلال من يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة، بل نصّت على أن المدعو غافل عن دعاء الداعي، مما يبين عجزه وضعفه وشدة احتياجه إلى ربه وخالقه، وقد ذكر القاسمي- رحمه الله- في تفسير الآيات الأخيرة لطيفة نقلها عن بعض المفسرين السابقين: في قوله: «إلى يوم القيامة»، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة، ومن شأن الغاية انتهاء المُغيَّا عندها لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية، لأنهم في يوم القيامة أيضًا لا يستجيبون لهم، فالوجه- والله أعلم- أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها، وإن وافق ما قبلها، إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعًا واحدًا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة، لا تزيد على عدم الاستجابة، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة والكفر بعبادتهم إياهم، فهو من وادي ما تقدم آنفًا في سورة الزخرف في قوله: ﴿بَلْ مَتَّعْتُ هَؤُلاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى جَاءَهُمُ الحَقُّ وَرَسُولٌ مُّبِينٌ (٢٩) وَلَمَّا جَاءَهُمُ الحَقُّ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كَافِرُونَ﴾ [الزخرف:٢٩، ٣٠].

ومثل هذه الآيات ما جاء في قوله تعالى:

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ (١٣) إِن تَدْعُوهُمْ لاَ يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلاَ يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

فقد أخبر الله فيها عن حال المدعوّين من دونه من الملائكة والأنبياء وغيرهم بما يدل على عجزهم وضعفهم، وأنهم قد انتفت عنهم الأسباب التي تكون في المدعو، وهي الملك، وسماع الدعاء، والقدرة على استجابته، فمتى لم توجد هذه الشروط تامة بطلت دعوته، فكيف إذا عدمت بالكلية.

[انظر فتح المجيد شرح كتاب التوحيد: ١٨٨]

ب- التشنيع بحال العابدين لهذه الآلهة الباطلة ورميهم بالضلال والسفه وعدم التعقل والتفكر، حيث رضوا لأنفسهم أن يعبدوا من لا يستحق العبادة ممن لا يملك لهم ولا لغيرهم نفعًا ولا ضرًا ولا يسمع ولا يبصر، ولا يملك من أمر نفسه شيئًا، وذلك لأن الإله يجب أن يكون متصفًا بصفات الجلال والكمال منزهًا عن صفات العجز والنقص والحدوث والاحتياج، لأن كل ذلك مناف للإلهية، قال تعالى عن إبراهيم- عليه السلام- في خطابه لقومه: ﴿ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ٦٧]، وقال تعالى: ﴿ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لاَ يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلاَلٍ ﴾ [الرعد: ١٤].

جـ- بيان ما سيكون يوم القيامة بين العابدين والمعبودين، وبين الأتباع والمتبوعين من التبرؤ والمعاداة وتنصل المعبودين من جناية هؤلاء العابدين، وإنكارهم أن يكون لهم يد في إضلالهم وشركهم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُم مَّا كُنتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ (٢٨) فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِن كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ (٢٩) هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَّا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٢٨-٣٠].

يقول ابن كثير في هذه الآيات: «وفي هذا تبكيت عظيم للمشركين الذين عبدوا مع الله غيره، ممن لا يسمع ولا يبصر، ولا يغني عنهم شيئًا، ولم يأمرهم بذلك ولا رضي به ولا أراده، بل تبرأ منهم في وقت ما أحوجهم فيه إلى من يغيثهم، وقد تركوا عبادة الحي القيوم السميع البصير، القادر على كل شيء، العليم بكل شيء، وقد أرسل رسله وأنزل كتبه آمرًا بعبادته وحده لا شريك له ناهيًا عن عبادة ما سواه، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلالَةُ ﴾ [النحل:٣٦]، وقال تعالى: ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥]، وقال: ﴿ وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِن دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

والمشركون أنواع وأقسام كثيرون قد ذكرهم الله في كتابه، وبين أحوالهم وأقوالهم ورد عليهم فيما هم فيه أتم رد.

[تفسير ابن كثير ٣/٢٠١، ٢٠٢]

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

سد الذرائع المؤدية إلى الشرك الأكبر

الحلقة الرابعة

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد.. بعث رسول الهدي ﷺ رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، وكان ﷺ حريصًا كل الحرص على رجوع العباد إلى ربهم وعبادتهم إياه وحده، وكان توحيد العبادة على رأس المهمات التي ركز عليها ﷺ، بل هو لُبُّ دعوته ودعوة إخوانه من الأنبياء والمرسلين، ولذلك لا نجد عجبًا حينما نجد كتب السنة قد امتلأت بكثير من الأحاديث التي حذر فيها النبي ﷺ أمته من الشرك، واحتاط ﷺ لهذا الأمر احتياطًا عظيمًا بالغًا، فسد الذرائع وأغلق أي باب يؤدي إلى الشرك، وأكّد ذلك وكرر ونهى وحذر في مواقف مختلفة متعددة، حتى وقع ذلك منه ﷺ وهو على فراش الموت.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد كان النبي ﷺ يحقق هذا التوحيد لأمته، ويحسم عنهم مواد الشرك، إذ هذا تحقيق قولنا «لا إله إلا الله»، فإن الإله هو الذي تالهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام والرجاء والخوف»(١).

وهذه نبذة يسيرة فيما قاله ﷺ في ذلك:

١ ـ نهى عن الغلو فيه ﷺ حتى لا يكون ذلك ذريعة إلى عبادته من دون الله، أو مع الله.

فعن عمر بن الخطاب ـ رضي الله عنه ـ قال: سمعت النبي ﷺ يقول «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله»(٣)، ولذلك نهى عنه النبي ﷺ حتى لا تقع أمته فيه، وتفعل كما فعلت النصارى بعيسى ابن مريم.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ في شرحه للحديث: «أي لا تمدحوني فتغلوا في مدحي كما غلت النصارى في عيسى ـ عليه السلام ـ فادّعوا فيه الإلهية، وإنما أنا عبد الله ورسوله فصفوني بذلك كما وصفني ربي فقولوا عبد الله ورسوله...»(٤).

وقد بين النبي ﷺ أن الغلو بصفة عامة أهلك الأمم السابقة، وكان سببًا في القضاء عليها، ومن هنا حذر أمته منه حتى لا تهلك كهلاكهم، فعن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ «قال: قال لي رسول الله ﷺ غداة جمع(٥) هلُمّ القط لي، فلقطت له حصيات من حصى الخذف(٦)، فلما وضعهن في يده قال: نعم بأمثال هؤلاء، وإياكم والغلو في الدين فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين»(٧).

ولمسلم عن ابن مسعود ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ «هلك المتنطعون» قالها ثلاثا(٨)، والمتنطعون: هم المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم(٩).

وكرر النبي ﷺ هذه الكلمة ثلاث مرات مبالغة في التعليم والإبلاغ، وتحذيرًا من الوقوع فيه لخطره وضرره على العقيدة وحماية لجناب التوحيد.

قال ابن القيم: «فدين الله بين الغالي فيه والجافي عنه، وخير

الناس النمط الأوسط، وقد جعل الله سبحانه هذه الأمة وسطًا، وهي الخيار العدل لتوسطها بين الطرفين المذمومين، والعدل: هو بين طرفي الجور والتفريط والآفات إنما تتطرق إلى الأطراف، والأوساط محمية باطرافها، فخيار الأمور أوساطها».

قال الشاعر:

كانت هي الوسط المحمي فاكتنفت
بها الحوادث حتى أصبحت طرفا(١٠)

وقد كان الغلو سبب عبادة الأصنام وحدوث الشرك في الأرض كما جاء في البخاري عن ابن عباس - رضي الله عنهما - في قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا﴾ [نوح:٢٣] قال: «.... أسماء رجال صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون أنصابا وسموها باسمائهم ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك وتنسخ(١١) العلم عبدت»(١٢).

فهؤلاء كما جاء في الحديث غلوا في هؤلاء الصالحين لمّا صوروا صورهم ونصبوها في مجالسهم، وكان الدافع لهم إلى ذلك - في زعمهم - أن ينشطوا ويجتهدوا في الطاعة والعبادة ويسلكوا سبيلهم، ولكن آل الأمر بعد طول الأمد وغلبة الجهل ووسوسة الشيطان إلى عبادتهم من دون الله عز وجل، وقد ساق ابن جرير الطبري بإسناده إلى محمد بن قيس أنه قال: «كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس فقال: «إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر فعبدوهم»(١٣).

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «فصارت هذه الأصنام بهذا التصوير على صور الصالحين سُلّما إلى عبادتها، وكل ما عبد من دون الله من قبر، أو مشهد، أو صنم، أو طاغوت فالأصل في عبادته هو الغلو كما لا يخفى على ذوي البصائر»(١٤).

وقال الشيخ حافظ الحكمي بعد ذكره لحديث ابن عباس: «فلو جاءهم اللعين وأمرهم من أول مرة بعبادتهم لم يقبلوا ولم يطيعوه، بل أمر الأولين بنصب الصور لتكون ذريعة للصلاة عندها ممن بعدهم، ثم تكون عبادة الله عندها ذريعة إلى عبادتها ممن يخلفهم»(١٥).

وقال الشيخ صديق حسن خان: «ومن أسباب عبادة الأصنام الغلو في المخلوق وإعطاؤه فوق منزلته»(١٦).

٢ - بيان النبي ﷺ أن الاستغاثة بالله وحده فيما لا يقدر عليه إلا الله:

الاستغاثة: هي طلب الغوث وهو إزالة الشدة، يقال: استغاثني فلان فاغثته، ولا تجوز بغير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله، قال تعالى مبينا استغاثة الرسول ﷺ وصحبه الكرام بربهم وحده: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال:٩].

وعن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - قال: «لما كان يوم بدر نظر رسول الله ﷺ إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله ﷺ القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: «اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض»، فمازال يهتف بربه، مادًا يديه مستقبل القبلة حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فاخذ رداءه فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فانزل الله عز وجل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾، فامده الله بالملائكة»(١٧).

والاستغاثة نوعان:

أ - استغاثة لا يقدر عليها إلا الله ولا تطلب إلا منه وحده، وطلبها من غيره شرك، وهي التي تقدم الحديث عنها.

ب - استغاثة بالمخلوق فيما يقدر عليه ويتمكن من فعله والقيام به، فهذه ليست شركا، وذلك كاستغاثة الغريق مثلا بمن ينقذه، ومنه

استغاثة الإسرائيلي بموسى - عليه السلام - كما جاء في قوله ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص:١٥].

٣ - النهي عن اتخاذ القبور مساجد وعبادة الله عندها:

قبل بيان ما ورد في الشرع من ذلك نبين أولا صفة القبور الشرعية، حتى يتبين لنا المخالفات التي وقع فيها من اتخذوا القبور مساجد، ونفهم أيضا أهمية التحذيرات المتكررة من النبي ﷺ ونهيه الشديد عن اتخاذ القبور مساجد.

قال ابن فارس في مادة «قبر»: «القاف والباء والراء أصل صحيح يدل على غموض في شيء وتطامن(١٨)، ومن ذلك القبر قبر الميت، ويقال في اللغة: اطمأنت الأرض وتطامنت: انخفضت».

وهذا يحدد مفهوم كلمة «قبر» في اللغة، وهو ما كان من المواضع منخفضًا غير مرتفع ولا بارز.

وقد بين النبي ﷺ في سنته صفة القبور، وما يجب أن تكون عليه، ومن ذلك ما رواه جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - قال: «نهى رسول الله ﷺ أن يجصص القبر أو يقعد عليه أو يبنى عليه»(١٩).

وعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ: «أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ولا قبرًا مشرفًا إلا سويته»(٢٠).

والآن نذكر بعض الأحاديث الواردة في النهي عن اتخاذ القبور مساجد والصلاة عندها، وبيان ما في ذلك من سد لذرائع الشرك.

١ - عن عائشة وعبد الله بن عباس - رضي الله عنهم - قالا: لما نزل(٢١) برسول الله ﷺ طفق(٢٢) ﷺ يطرح خميصة له على وجهه فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه فقال وهو كذلك: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يحذر ما صنعوا(٢٣).

قال القرطبي في معنى الحديث: «وكل ذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام»، وقال أيضًا: «ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي ﷺ فأعلوا حيطان تربته وسدوا المداخل إليها، وجعلوها محدقة بقبره ﷺ، ثم خافوا أن يتخذ موضع قبره قبلة إذا كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال، حتى لا يمكنوا أحدا من استقبال قبره(٢٤).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «فحرم ﷺ أن تتخذ قبورهم مساجد بقصد الصلوات فيها، كما تقصد المساجد، وإن كان القاصد لذلك إنما يقصد عبادة الله وحده، لأن ذلك ذريعة إلى أن يقصدوا المسجد لأجل صاحب القبر ودعائه، والدعاء به، والدعاء عنده، فنهى رسول الله ﷺ عن اتخاذ هذا المكان لعبادة الله وحده لئلا يتخذ ذريعة إلى الشرك بالله، والفعل إذا كان يفضي إلى مفسدة وليس فيه مصلحة راجحة ينهى عنه، كما نهى عن الصلاة في الأوقات الثلاثة لما في ذلك من المفسدة الراجحة، وهو التشبه بالمشركين الذي يفضي إلى الشرك»(٢٥).

وقال في موطن آخر: «إنه نهى عن بناء المساجد على القبور ولعن من فعل ذلك، ونهى عن تكبير القبور وتشريفها وأمر بتسويتها، ونهى عن الصلاة إليها وعندها، وعن إيقاد المصابيح عليها لئلا يكون ذلك ذريعة إلى اتخاذها أوثانا، وحرم ذلك على من قصد هذا ومن لم يقصده سدًا للذريعة»(٢٦).

٢ - وفي الصحيحين وغيرهما(٢٧) أن أم حبيبة وأم سلمة - رضي الله عنهما - ذكرتا كنيسة رأينها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال ﷺ: «أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجدًا وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله».

قال ابن حجر: «وإنما فعل ذلك أوائلهم ليتأسوا برؤية تلك الصور ويتذكروا أحوالهم الصالحة فيجتهدوا كاجتهادهم، ثم خلف من بعدهم خلوف جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافكم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها فعبدوها، فحذر النبي ﷺ من مثل

ذلك سدًا للذريعة المؤدية إلى ذلك(٢٨).

وقال ابن القيم بعد ذكره لهذا الحديث وغيره من الأحاديث الناهية عن اتخاذ القبور مساجد: «إن فتنة الشرك بالصلاة عند القبور ومشابهة عباد الأوثان أعظم بكثير من مفسدة الصلاة بعد العصر والفجر، فإذا نهى عن ذلك، أي عن الصلاة بعد هذين الوقتين سدًا لذريعة التشبه التي لا تكاد تخطر ببال المصلي، فكيف بهذه الذريعة القريبة التي كثيرا ما تدعو صاحبها إلى الشرك ودعاء الموتى والاستعانة بهم، وطلب الحوائج منهم، واعتقاد أن الصلاة عند قبورهم أفضل منها في المساجد مما هو محادة لله ورسوله ﷺ»(٢٩).

٣ - وعن جندب بن عبد الله البجلي أنه سمع النبي ﷺ قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله تعالى قد اتخذني خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلا، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك»(٣٠).

قال النووي: «قال العلماء: إنما نهى النبي ﷺ عن اتخاذ قبره وقبر غيره مسجدًا خوفًا من المبالغة في تعظيمه والافتتان به، فربما أدى ذلك إلى الكفر، كما جرى لكثير من الأمم الخالية.....»(٣١).

وقد ذكر الصنعاني بعد سياقه لبعض الأحاديث المبينة لصفات القبور الشرعية قوله: «وهذه الأخبار المعبر فيها باللعن والتشبيه بقوله: «لا تجعلوا قبري وثنًا يعبد من دون الله»، تفيد التحريم للعمارة والتزيين والتجصيص، ووضع الصندوق المزخرف، ووضع الستائر على القبر وعلى سمائه، والتمسح بجدار القبر، وأن ذلك قد يفضي مع بعد العهد وفشو الجهل إلى ما كان عليه الأمم السابقة من عبادة الأوثان، فكان في المنع من ذلك بالكلية قطع لهذه الذريعة المفضية إلى الفساد، وهو المناسب للحكمة المعتبرة في شرع الأحكام من جلب المصالح ودفع المفاسد سواء كانت بنفسها أو باعتبار ما تفضي إليه»(٣٢).

٤ - وعن ثابت بن الضحاك - رضي الله عنه - قال: نذر رجل على عهد النبي أن ينحر إبلاً ببوانة(٣٣)، فقال النبي ﷺ هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ قالوا: لا، قال: هل كان فيها عيد من أعيادهم؟ قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: «أوف بنذرك، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم»(٣٤).

وهذا دليل على أنه لا يجوز التقرب إلى الله في مكان يُعبد فيه غير الله. والله أعلم.

وإلى لقاء إن شاء الله.

---

(١) مجموع الفتاوى جـ١٣٦/.
(٢) أخرجه البخاري ٤٧٨.
(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر جـ١٢٣/٣.
(٤) فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ص٢٠٣، ٢٣١.
(٥) يعني مزدلفة.
(٦) أي حصى صغارا. انظر لسان العرب جـ٦١/٩.
(٧) أخرجه أحمد في مسنده جـ٢١٥/١، ٣٤٧.
(٨) صحيح مسلم ٢٠٥٥.
(٩) شرح النووي على مسلم جـ٢٢٠/١٦.
(١٠) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ١٨٢/١.
(١١) يعني تحول وتغير ونسى بسبب ذهاب العلماء.
(١٢) البخاري ٦٦٧.
(١٣) جامع البيان في تفسير القرآن جـ٦٢/٢٩.
(١٤) فتح المجيد (الهامش) ص٢٢٥.
(١٥) معارج القبول جـ٤٢٢/١.
(١٦) الدين الخالص جـ٤٤٥/٢.
(١٧) مسلم ١٧٦٣.
(١٨) لسان العرب جـ٢٦٨/١٣.
(١٩) أخرجه مسلم ٦٦٧.
(٢٠) مسلم ٦٦٦.
(٢١) نُزل ونزل، والمعنى: لما نزل ملك الموت.
(٢٢) طفق: بكسر الفاء وفتحها، أي: جعل.
(٢٣) متفق عليه.
(٢٤) فتح المجيد/٢٣٩.
(٢٥) مجموع الفتاوى جـ١٦٣/٣، ١٦٤.
(٢٦) مجموعة الفتاوى الكبرى جـ١٤١/٣.
(٢٧) متفق عليه.
(٢٨) فتح الباري جـ٥٢٥/١.
(٢٩) إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان جـ١٨٨/١.
(٣٠) أخرجه مسلم ٣٧٧، ٣٧٨.
(٣١) شرح النووي على مسلم جـ١٣/٥.
(٣٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين جـ١٥١/٣.
(٣٣) بوانة: هضبة وراء ينبع قريبة من ساحل البحر. انظر معجم البلدان (جـ٥٠٥/١).
(٣٤) صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود جـ٦٣٧/٢.
(٣٥) صحيح، انظر صحيح سنن أبي داود جـ٦٣٧/٢.

سد الذرائع المؤدية إلى الشرك الأصغر

الحلقة الرابعة

إعداد
د. عبدالله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه، أما بعد:

فالشرك الأصغر: هو النوع الثاني من أنواع الشرك بعد الأكبر، وهو لا يخرج من الملة، ولكنه قد يحبط العمل الذي يصاحبه أو ينقص ثوابه، وفي كلا الحالين فهو إثم يوجب العقوبة إلا أن يعفو الله عز وجل(١)، وقد خاف النبي ﷺ على أمته منه، كما جاء في حديث محمود بن لبيد أن رسول الله ﷺ قال: «إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر». قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: الرياء. «يقول الله عز وجل يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً».

[أحمد في مسنده ٥/٤٢٨، ٤٢٩]

والمراد بالرياء في هذا الحديث هو يسيره، لا النفاق الاعتقادي الأكبر المخرج من الملة، وذلك أن الرياء قد يطلق ويراد به النفاق الأكبر كما جاء في قوله تعالى: ﴿كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ﴾

[البقرة٢٦٤]

قال ابن كثير في تفسيره: «أي: لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى، كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله، وإنما قصده مدحة الناس له، أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس، أو يقال: إنه كريم، ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية، مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ولهذا قال: ولا يؤمن بالله واليوم الآخر». [تفسير ابن كثير ١/٤٧٠]

وطريقة التفريق بين الرياء الذي هو النفاق الأكبر، وبين الرياء الذي سماه النبي ﷺ شركًا أصغر حديث: «إنما الأعمال بالنيات». [البخاري: ١/٩، ومسلم ٣/١٥١٥]

فالنية هي التي تفرق بينهما، وقد وضح ذلك وفصله الشيخ حافظ الحكمي فقال: «فإن كان الباعث على العمل هو إرادة غير الله عز وجل والدار الآخرة فذلك النفاق الأكبر، وإن كان الباعث على العمل هو إرادة الله عز وجل والدار الآخرة، ولكن دخل عليها الرياء في تزيينه وتحسينه فذلك هو الذي سماه النبي ﷺ الشرك الأصغر وفسره بالرياء العملي». [معارج القبول: ١/٤٥٤]

ولخطورة هذا النوع من الشرك أيضًا، ولخفائه أحيانًا، وصيانة لجانب التوحيد، فقد سدَّ الشارع كل الوسائل المفضية إلى الوقوع فيه، وسنبين ذلك من خلال المبحثين التاليين:

المبحث الأول: سد الذرائع في الألفاظ:

لقد تهاون كثير من الناس في هذه المسألة، وأصبحوا

يطلقون كلمات توقعهم في هذا اللون من الشرك، ولكثرة وقوعه وانتشاره كان الحديث عنه، ومن أمثلة سد الذرائع في هذا الباب ما يلي:

أ- النهي عن الحلف بغير الله:

نهى الإسلام عن الحلف بغير الله كما في حديث عمر رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله ﷺ: «إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم». [البخاري ٥٣٠/١١]

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من حلف بغير الله فقد كفر». [الترمذي ١٣٥/٥]، قال الترمذي بعد سياقه: «هذا حديث حسن. وتفسير هذا الحديث عند بعض أهل العلم أن قوله: فقد كفر أو أشرك». على التغليظ، والحجة في ذلك حديث ابن عمر أن النبي ﷺ سمع عمر يقول: وأبي وأبي، فقال: «ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم». وحديث أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال في حلفه: واللات والعزى فليقل: لا إله إلا الله».

وهذا مثل ما روى عن النبي ﷺ أنه قال: «الرياء شرك»، وقد فسر بعض أهل العلم هذه الآية: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً﴾ الآية. قال: لا يرائي». [الترمذي: ١٣٦/٥، ٣١٧]

قال ابن حجر: «والتعبير بقوله: فقد كفر أو أشرك للمبالغة في الزجر والتغليظ في ذلك، وقد تمسك به من قال بتحريم ذلك». [فتح الباري: ٥٣١/١١]

قال أبو جعفر الطحاوي: «ولم يرد به الشرك الذي يخرج من الإسلام حتى يكون به صاحبه خارجًا عن الإسلام، ولكنه أراد أنه لا ينبغي أن يحلف بغير الله تعالى، لأن من حلف بغير الله تعالى فقد جعل ما حلف به محلوفًا به، كما جعل الله تعالى محلوفًا به، وبذلك جعل من حلف به أو ما حلف به شريكًا فيما يحلف به، وذلك أعظم، فجعله شركًا بذلك شركًا غير الشرك الذي يكون به كافرًا بالله تعالى خارجًا عن الإسلام».

قال الشيخ الألباني بعد نقله لهذا الكلام: «يعني- والله أعلم- أنه شرك لفظي وليس شركًا اعتقاديًا، والأولى تخريجه؛ من باب سد الذرائع، والآخر محرم لذاته، وهو كلام وجيه متين». [سلسلة الأحاديث الصحيحة: ٢١٧/١]

ب- النهي عن قول: «ما شاء الله وشئت».

قال البخاري في صحيحه: «باب لا يقول: ما شاء الله وشئت».

وعن حذيفة بن اليمان أن رجلاً من المسلمين رأى في النوم أنه لقي رجلاً من أهل الكتاب فقال: نعم القوم أنتم، لولا أنكم تشركون. تقولون: ما شاء الله وشاء محمد. وذكر ذلك للنبي ﷺ، فقال: «أما والله، إن كنت لأعرفها لكم، قولوا: ما شاء الله ثم شاء محمد». [ابن ماجه ٦٨٥/١]

قال الربيع بن سليمان: قال الشافعي: «المشيئة إرادة الله، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فأعلم الله خلقه أن المشيئة له دون خلقه، وأن مشيئتهم لا تكون إلا أن يشاء، فيقال لرسول الله ﷺ: «ما شاء الله ثم شئت»، ولا يقال: «ما شاء الله وشئت». [شرح السنة للبغوي ٣٦١/١٢]

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن =رجلاً قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت». فقال له النبي ﷺ: «أجعلتني والله عدلاً، بل ما شاء الله وحده». [مسند أحمد ٢١٤/١]

قال ابن القيم: «إنه ﷺ قال: لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، وذم الخطيب الذي قال: من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن عصاهما فقد غوى. سدًا لذريعة التشريك في المعنى بالتشريك في اللفظ، وحسمًا لمادة الشرك حتى في اللفظ، ولهذا قال للذي قال له: «ما شاء الله وشئت»، أجعلتني لله ندًا؟ فحسم مادة الشرك، وسد الذريعة إليه في اللفظ، كما سدها في الفعل والقصد، فصلاة الله وسلامه عليه وعلى آله أكمل صلاة وأتمها وأزكاها وأعمها».

[إعلام الموقعين: ١٥٨/٣، ١٥٩]

وقال الشيخ الألباني بعد ذكره لبعض الأحاديث في هذا الموضوع: «قلت: وفي هذه الأحاديث أن قول الرجل لغيره: ما شاء الله

وشئت يعتبر شركًا في نظر الشارع، وهو من شرك الألفاظ، لأنه يوهم أن مشيئة العبد في درجة مشيئة الرب سبحانه وتعالى، وسببه القرن بين المشيئتين، ومثل ذلك قول بعض العامة وأشباههم ممن يدعي العلم مالي غير الله وأنت، وتوكلنا على الله وعليك، ومثله قول بعض المحاضرين: باسم الله والوطن، أو باسم الله والشعب، ونحو ذلك من الألفاظ الشركية التي يجب الانتهاء عنها والتوبة منها، أدبًا مع الله تبارك وتعالى». [سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢١٧/١]

جـ- النهي عن قول: عبدي وأمتي.

عن همام بن منبه أنه سمع أبا هريرة رضي الله عنه يحدث عن النبي ﷺ أنه قال: «لا يقل أحدكم: أطعم ربك وضئ ربك، وليقل: سيدي، مولاي، ولا يقل أحدكم: عبدي، أمتي، وليقل: فتاي، وفتاتي وغلامي». [البخاري: ١٧٧/٥]

قال البغوي: «قيل: إنما منع من أن يقول: ربي أواسق ربك، لأن الإنسان مربوب متعبد بإخلاص التوحيد، فكره له المضاهاة بالاسم، لئلا يدخل في معنى الشرك، والعبد والحُر، فيه بمنزلة واحدة، فأما ما لا تعبُّد عليه من سائر الحيوان والجماد فلا يمنع منه، كقولك: رب الدار، ورب الدابة والثوب، ولم يمنع العبد أن يقول: سيدي ومولاي، لأن مرجع السيادة إلى معنى الرياسة على من تحت يده، والسياسة له وحسن التدبير لأمره، ولذلك سمي الزوج سيدًا، قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا البَابِ﴾ [يوسف: ٢٥]، ومنع السيد من أن يقول: عبدي، لأن هذا الاسم من باب المضاف ومقتضاه العبودية له، وصاحبه عَبْدُ الله، مُتعبَّد بأمره ونهيه، فإدخاله مملوكه تحت هذا الاسم يوهم التشريك». [شرح السنة ٣٥٠/١٢، ٣٥١]

قال النووي رحمه الله: بيّن النبي ﷺ العلة في ذلك فقال: كلكم عبيد الله، فنهى عن التطاول في اللفظ. [شرح النووي على مسلم ٧/١٥]

وقال ابن القيم: «إن النبي ﷺ نهى الرجل أن يقول لغلامه وجاريته: عبدي وأمتي، ولكن يقول: فتاي وفتاتي، ونهى أن يقول لغلامه: وضئ ربك، أطعم ربك سدًا لذريعة الشرك في اللفظ والمعنى، وإن كان الرب ههنا هو المالك كرب الدار، ورب الإبل، فعدل عن لفظ العبد والأمة إلى لفظ الفتى والفتاة، ومنع من إطلاق لفظ الرب على السيد حماية لجانب التوحيد وسدًا لذريعة الشرك».

[إعلام الموقعين ١٦٢/٣، ١٦٣]

وقال عبد الرحمن بن حسن: «هذه الألفاظ المنهي عنها، وإن كانت تطلق لغة، فالنبي ﷺ نهى عنها تحقيقًا للتوحيد، وسدًا لذرائع الشرك لما فيها من التشريك في اللفظ، لأن الله تعالى هو رب العباد جميعهم، فإذا أطلق على غيره شاركه في الاسم فينهى عنه لذلك، وإن لم يقصد بذلك التشريك في الربوبية التي هي وصف الله تعالى، فالنهي عنه حسمًا لمادة التشريك بين الخالق والمخلوق، وتحقيقًا للتوحيد، وبعدًا عن الشرك حتى في اللفظ، وهذا من أحسن مقاصد الشريعة لما فيه من تعظيم الرب تعالى، وبعده من مشابهة المخلوقين، فأرشدهم ﷺ إلى ما يقوم مقام هذه الألفاظ، وهو قوله: «سيدي ومولاي»، وكذا قوله: «ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي»، لأن العبيد عبيد الله والإماء إماء الله، قال الله تعالى: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، ففي إطلاق هاتين الكلمتين على غير الله تشريك في اللفظ، فنهاهم عن ذلك تعظيمًا لله تعالى وأدبًا وبعدًا عن الشرك وتحقيقًا للتوحيد، وأرشدهم إلى أن يقولوا: «فتاي وفتاتي وغلامي»، وهذا من باب حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، فقد بلغ ﷺ أمته كل ما فيه نفع لهم، ونهاهم عن كل ما فيه نقص في الدين، فلا خير إلا دلهم عليه، خصوصًا في تحقيق التوحيد، ولا شر إلا حذرهم منه خصوصًا ما يقرب من الشرك لفظًا وإن لم يقصد، وبالله التوفيق».

[فتح المجيد شرح كتاب التوحيد ٤٦٧]

والحمد لله رب العالمين

سد الذرائع في الأعمال

الحلقة الخامسة

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فقد نهى الشارع عن الشرك في الألفاظ وسدَّ كل الوسائل المؤدية إليه، كذلك نهى أيضًا وحذر من الوسائل المفضية إلى الشرك في الأعمال، ويظهر ذلك في الصور التالية:

أ- النهي عن التمائم:

التمائم: جمع تميمة، وهي خرزات كان العرب يعلقونها على أولادهم يتقون بها العين في زعمهم، فأبطلها الإسلام.

[النهاية في غريب الحديث ١٩٧/١]

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الرقى والتمائم والتولة شرك».

[أبو داود: ٣٦٧/١٠، وابن ماجه ١١٦٧/٢، وأحمد ٣٨١/١]

وقد اختلف العلماء في التمائم إذا كانت من القرآن الكريم، فأباحها البعض كالرقى الشرعية، ومنعها آخرون سدًا لذريعة الوقوع في الشرك، ومن هؤلاء ابن مسعود وابن عباس وغيرهم.

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب في كتابه «التوحيد»: «التمائم شيء يعلق على الأولاد عن العين، لكن إذا كان المعلق من القرآن فرخص فيه بعض السلف، وبعضهم لم يرخص فيه وجعله من المنهي عنه منهم ابن مسعود رضي الله عنه».

قال شارحه: «هذا هو الصحيح- أي النهي عن تعليق التمائم من القرآن- لوجوه ثلاثة تظهر للمتأمل:

الأول: عموم النهي ولا مخصص للعموم.

الثاني: سد الذريعة، فإنه يفضي إلى تعليق ما ليس كذلك.

الثالث: أنه إذا علق فلابد أن يمتهنه المعلِّق بحمله معه في حال قضاء الحاجة والاستنجاء ونحو ذلك.

[فتح المجيد: ١٣٢، ١٣٣]

وقال الشيخ حافظ الحكمي:

وفي التمائم المعلقات
إن تك آيات مبينات
فالاختلاف واقع بين السلف
فبعضهم أجازها والبعض كف

ثم ذكر بعض أسماء المانعين والمبيحين وعقب بقوله: «ولا شك أن منع ذلك سد لذريعة الاعتقاد والمحظور، لا سيما في زماننا هذا، فإنه إذا كرهه أكثر الصحابة والتابعين في تلك العصور الشريفة، والإيمان في قلوبهم أكبر من الجبال، فلأن يكره في وقتنا هذا - وقت الفتن والمحن - أولى وأجدر بذلك».

[معارج القبول: ٤٦٩/١، ٤٧٠]

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: «واختلف العلماء في التمائم إذا كانت من القرآن أو من الدعوات المباحة، هل هي محرمة أم لا؟ والصواب تحريمها؛ لوجهين:

أحدهما: عموم الأحاديث المذكورة، فإنها تعم التمائم من القرآن وغير القرآن.

والوجه الثاني: سد ذريعة الشرك، فإنها إذا أبيحت التمائم

من القرآن اختلطت بالتمائم الأخرى واشتبه الأمر، وانفتح باب الشرك بتعليق التمائم كلها، ومعلوم أن سد الذريعة المفضية إلى الشرك والمعاصي من أعظم القواعد الشرعية. والله ولي التوفيق.

[فتاوى الشيخ ابن باز ٢٧٩/١]

وعلى ذلك فتعليق التمائم ينهى عنه بإطلاق سدًا للذريعة في ذلك التي منها تعليق ما ليس من القرآن، وتعظيمًا لكلمات الله وآياته من امتهانها أثناء قضاء الحاجة وغير ذلك، خاصة في هذا الزمان الذي كثرت فيه البدع وانتشر أهل الخرافة والدجل والمشعوذون وغلب الجهل على كثيرين.

قال الشيخ الألباني بعد ذكره لتعريف التميمة: «ولا تزال هذه الضلالة فاشية بين البدو والفلاحين وبعض المدنيين، ومثلها الخرزات التي يضعها بعض السائقين أمامهم في السيارة- يعلقونها على المرآة وبعضهم يعلق نعلاً في مقدمة السيارة أو في مؤخرتها، وغيرهم يعلقون نعل فرس في واجهة الدار أو الدكان، كل ذلك لدفع العين زعموا، وغير ذلك مما عم وطم بسبب الجهل بالتوحيد وما ينافيه من الشركيات والوثنيات التي ما بعثت الرسل وأنزلت الكتب إلا من أجل إبطالها والقضاء عليها». [السلسلة الصحيحة ٨١٠/١]

ب- النهي عن انحناء الرجل للرجل أو القيام له:

عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «قال رجل: يا رسول الله، الرجل منا يلقى أخاه، أو صديقه، أينحني له؟ قال: لا، قال: فيلتزمه ويقبله. قال: لا، قال: فيأخذ بيده ويصافحه، قال: نعم».

[الترمذي: ٥١٤/٧، وابن ماجه ١٢٢٠/١٥، وأحمد ١٩٨/٣]

قال ابن القيم: «إن النبي ﷺ نهى الرجل أن ينحني للرجل إذا لقيه كما يفعل كثير من المنتسبين إلى العلم ممن لا علم له بالسنة بل يبالغون إلى أقصى حد الانحناء مبالغة في خلاف السنة جهلاً، حتى يصير أحدهم بصورة الراكع لأخيه، ثم يرفع رأسه من الركوع كما يفعل إخوانهم من السجود بين يدي شيوخهم الأحياء والأموات، فهؤلاء أخذوا من الصلاة سجودها، وأولئك ركوعها، وطائفة ثالثة قيامها، يقوم عليهم الناس وهم قعود كما يقومون في الصلاة، فتقاسمت الفرق الثلاث أجزاء الصلاة، والمقصود أن النبي ﷺ نهى عن انحناء الرجل لأخيه سدًا لذريعة الشرك، كما نهى عن السجود لغير الله».

[إعلام الموقعين ١٦٦/٣، ١٦٧]

تنبيه: جاء في حديث أنس السابق نهى عن الالتزام وهو المعانقة، وقد وردت عن أصحاب النبي ﷺ لقول أنس رضي الله عنه: «كان أصحاب رسول الله ﷺ إذا تلاقوا تصافحوا، وإذا قدموا من سفر تعانقوا».

[ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد ٣٦/٨]

وعانق عبد الله بن أنيس جابر بن عبد الله رضي الله عنهما لما رحل إليه من المدينة إلى الشام ليسأله عن حديث لرسول الله ﷺ.

[البخاري ٤٥٨/٢]

وقد جمع العلماء بين هذه الأحاديث، ودفعوا التعارض الظاهر بينها، ومنهم الإمام البغوي، وفي ذلك يقول: «قال حميد بن زنجويه: قد جاء عن النبي ﷺ أنه نهى عن المعانقة والتقبيل، وجاء أنه عانق جعفر بن أبي طالب وقبله عند قدومه من أرض الحبشة، ولكل وجه عندنا، فأما المكروه من المعانقة والتقبيل، فما كان على وجه الملق والتعظيم وفي الحضر، فأما المأذون فيه، فعند التوديع وعند القدوم من السفر وطول العهد بالصاحب، وشدة الحب في الله ومن قبّل فلا يقبل الفم، ولكن اليد والرأس والجبهة».

[شرح السنة للبغوي ٢٩٢/١٢، ٢٩٣]

وقال الشيخ الألباني عقب ذكره لبعض أحاديث النهي وأحاديث الإباحة: «فيمكن أن يقال: إن المعانقة في السفر مستثنى من النهي لفعل الصحابة ذلك». [سلسلة الأحاديث الصحيحة ٢٥٢/١]

وكما نهى ﷺ عن الانحناء سدًا للذريعة، كره أن يقوم الناس له، وقد ذكر وعيدًا شديدًا لمن يحب أن يتمثل الناس له قيامًا.

فعن أنس رضي الله عنه قال: «ما كان في الدنيا شخص أحب إليهم رؤية من رسول الله ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا إليه، لما يعلمون من كراهيته لذلك». [البخاري ٤١٩/٢، والترمذي ٢٩/٨]

وعن أبي مجلز قال: «خرج معاوية فقام عبد الله بن الزبير وابن صفوان حين رأوه، فقال: اجلسا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار». قال الترمذي: «وفي الباب عن أبي أمامة، وهذا حديث حسن». [سنن الترمذي ٣٠/٨]

ولا يتعارض النهي عن القيام هنا مع قول النبي ﷺ لما قدم سعد بن معاذ إلى بني قريظة ليحكم فيهم: «قوموا إلى سيدكم». [البخاري ٢٩/١١] للفرق بين الحالين، وقد وضح ذلك ابن تيمية رحمه الله وفصله تفصيلاً دقيقًا فقال: «لم تكن عادة السلف على عهد النبي ﷺ وخلفائه

الراشدين أن يعتادوا القيام كلما يرونه كما يفعله كثير من الناس، بل قد قال أنس بن مالك: لم يكن شخص أحب إليهم من النبي ﷺ، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا له، لما يعلمون من كراهيته لذلك، ولكن ربما قاموا للقادم من مغيبه تلقيًا له، كما روى عن النبي ﷺ أنه قام لعكرمة وقال للأنصار لما قدم سعد بن معاذ: قوموا إلى سيدكم، وكان قد قدم ليحكم في بني قريظة، وأما القيام لمن يقدم من سفر ونحو ذلك تلقيًا له فحسن، وإذا كان من عادة الناس إكرام الجائي بالقيام ولو ترك لاعتقد أن ذلك لترك حقه، أو قصد خفضه، ولم يعلم العادة الموافقة للسنة، فالأصلح أن يقام له، لأن ذلك أصلح لذات البين وإزالة التباغض والشحناء، وأما من عرف عادة القوم الموافقة للسنة، فليس في ترك ذلك إيذاء له، وليس هذا القيام المذكور في قوله: «من سره أن يتمثل له الرجال قيامًا فليتبوأ مقعده من النار». فإن ذلك أن يقوموا له وهو قاعد، ليس هو أن يقوموا لمجيئه إذا جاء، ولهذا فرقوا بين أن يقال: قمت إليه وقمت له، والقائم للقادم ساواه في القيام بخلاف القائم للقاعد».

[مجموع فتاوى ابن تيمية ١/٣٧٤، ٣٧٥]

كما جمع بين الأحاديث ابن القيم جمعًا حسنًا، وذكر أن الأحاديث التي ورد فيها القيام كان لعارض، وأنه كان قيامًا إلى الرجل للقائه، لا قيامًا له، ثم قال: «فالمذموم: القيام للرجل، وأما القيام إليه للتلقي إذا قدم: فلا بأس به، وبهذا تجتمع الأحاديث». [عون المعبود: ١٤/١٢٧]

قلت: هذا جمع جيد وحسن بين النصوص الثابتة، وعليه فينهى القيام للشخص للتعظيم مهما كانت منزلته سدًا لذريعة الوقوع في الشرك، بعد الغلو فيه، أو مجاوزة الحد في حبه وتعظيمه وما إلى ذلك كما هو واقع من بعض أتباع الطرق لمشايخهم، وأما القيام لعارض كالقيام للقادم من سفر، أو لغائب على سبيل البر والإكرام فلا بأس به.

وقد نقل أبو عبد الله بن الحاج عن أبي الوليد بن رشد أن القيام يقع على أربعة أوجه:

الأول: محظور، وهو أن يقع لمن يريد أن يقام إليه تكبرًا وتعاظمًا على القائمين إليه.

الثاني: مكروه، وهو أن يقع لمن لا يتكبر ولا يتعاظم على القائمين، ولكن يخشى أن يدخل نفسه بسبب ذلك ما يحذر، ولما فيه من التشبه بالجبابرة.

الثالث: جائز، وهو أن يقع على سبيل البر والإكرام لمن لا يريد ذلك، ويؤمن معه التشبه بالجبابرة.

الرابع: مندوب، وهو أن يقوم لمن قدم من سفر فرحًا بقدومه ليسلم عليه، أو إلى من تجددت له نعمة فيهنئه بحصولها أو مصيبة فيعزيه بسببها.

وقال التوريشتي في شرح المصابيح: معنى «قوموا إلى سيدكم»، أي إلى إعانته وإنزاله من دابته، ولو كان المراد التعظيم لقال: «قوموا لسيدكم».

وقال الألباني في حديث أبي مجلز: «دلنا هذا الحديث على أمرين:

الأول: تحريم حب الداخل على الناس القيام منهم له، وهو صريح الدلالة، بحيث إنه لا يحتاج إلى بيان.

والآخر: كراهة القيام من الجالسين للداخل، ولو كان لا يحب القيام، وذلك من باب التعاون على الخير، وعدم فتح باب الشر، وهذا معنى دقيق دلنا عليه راوي الحديث معاوية رضي الله عنه، وذلك بإنكاره على عبد الله بن الزبير قيامه له، واحتج عليه بالحديث، وذلك من فقهه في الدين، وعلمه بقواعد الشريعة التي منها سد الذرائع. [السلسلة الصحيحة: ١/٦٢٩]

ومن هذا الباب ما جاء في صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «صلى رسول الله ﷺ في بيته وهو شاك، فصلى جالسًا، وصلى وراءه قوم قيامًا، فأشار أن اجلسوا، فلما انصرف قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا». [البخاري ٢/٥٨٤]

قال ابن القيم: «إن النبي ﷺ أمر المأمومين أن يصلوا قعودًا إذا صلى إمامهم قاعدًا، وقد تواتر عنه ذلك، ولم يجيء عنه ما ينسخه، وما ذاك إلا سدًا لذريعة مشابهة الكفار، حيث يقومون على ملوكهم وهم قعود». [إعلام الموقعين ٣/١٥٨]

قلت: تأمل أيها المسلم حرص الإسلام ورسول رب العالمين وسلف الأمة الصالحين على مخالفة الكفار والمشركين، ونهي الشريعة الغراء عن المباح خوفًا من الوقوع في الحرام، كل ذلك صيانة وحماية للعقيدة، وتحقيقًا للتوحيد.

فما بالنا اليوم نجد جرأة كبيرة، حتى من بعض المنتسبين إلى العلم في التساهل في هذا الباب، ويا ليت الأمر- مع خطورته- اقتصر على الجائز المؤدي إلى الحرام، بل وقعوا صراحة فيما نهى عنه الشارع الحكيم، وسقطوا في أعمال الجاهلين. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

سد الذرائع في مسائل العقيدة

الحلقة السابعة

إعداد/ د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

سد الذرائع في توحيد المعرفة والإثبات

توحيد المعرفة والإثبات أحد نوعي التوحيد، وهو التوحيد العلمي الخبري الاعتقادي المتضمن إثبات صفات الجلال والكمال لله عز وجل، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات، فلا رب سوى خالق الأرض والسماء، كما أنه لا يشبهه أحد من خلقه، لا في ذاته، ولا في صفاته وأفعاله، تعالى سبحانه وتقدس عن الشبيه والنظير.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا لما كان وجوب الوجود من خصائص رب العالمين، والغنى عن الغير من خصائص رب العالمين، كان الاستقلال بالفعل من خصائص رب العالمين، وكان التنزه عن شريك في الفعل والمفعول من خصائص رب العالمين، ولهذا لا يستحق غيره أن يسمى خالقًا، ولا ربًا مطلقًا ونحو ذلك، لأن ذلك يقتضي الاستقلال والانفراد بالمفعول المصنوع، وليس ذلك إلا لله وحده».

وقد سدَّ الشارع الذرائع التي يمكن أن تؤدي إلى وقوع محظور في هذا النوع من التوحيد، وبيان ذلك في مبحثين كما يلي:

المبحث الأول: سد الذرائع في مضاهاة أفعال الله تعالى

أفعال الله كثيرة، وهي مبنية على أن الله رب كل شيء ومليكه وخالقه ورازقه، وهو الذي يحييه ويميته ويدبر أمره، وهو أمر تشهد له الفطرة، ويذعن له العقل، وقد ذكر ربنا ذلك في آيات كثيرة من كتابه، كما نفى أن يكون لأحد معه شريك في الخلق والتكوين فقال سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

ويظهر حماية الشرع لهذا النوع من التوحيد بذكر الأمثلة الآتية:

١- النهي عن تصوير ذوات الأرواح:

نهى الإسلام عن تصوير ذوات الأرواح سدًا لذريعة المضاهاة لأفعال الله تعالى، وهي هنا الخلق،

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «قال الله عز وجل: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة».

قال الإمام النووي بعد ذكره لبعض الأحاديث الناهية عن التصوير: «وهذه الأحاديث صريحة في تحريم تصوير الحيوان وأنه غليظ التحريم، وأما الشجر ونحوه مما لا روح فيه، فلا تحرم صنعته ولا التكسب به سواء الشجر المثمر وغيره، وهذا مذهب العلماء كافة إلا مجاهدًا، واحتج مجاهد بقوله تعالى: «ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي»، واحتج الجمهور بقوله ﷺ: «ويقال لهم: أحيوا ما خلقتم» أي: اجعلوه حيوانًا ذا روح كما ضاهيتم.

وقال الشيخ عبد الرحمن بن حسن بعد ذكره للحديث السابق: «وقد ذكر النبي ﷺ العلة وهي المضاهاة بخلق الله، لأن الله تعالى له الخلق والأمر، فهو رب كل شيء ومليكه، وهو خالق كل شيء، وهو الذي صور جميع المخلوقات، وجعل فيها الأرواح التي تحصل بها الحياة».

وقال الشيخ صديق حسن خان: «قال بعض أهل العلم في معنى هذا الحديث: يعني أن المصورين يدعون الإلهية في هذه السترة، لكونهم يريدون أن يصنعوا أشياء مثل ما صنعه الخالق القدير، فهم مسيئو الأدب مع الله عز وجل، ودعواهم هذه كذب صريح وحجة داحضة».

٢- النهي عن قول: «مطرنا بنوء كذا»:

عن زيد بن خالد الجهني أنه قال: «صلى لنا رسول الله ﷺ صلاة الصبح بالحديبية على أثر سماء كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس

فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته فذلك مؤمن بي وكافر بالكواكب، وأما من قال: بنوء كذا وكذا فذلك كافر بي ومؤمن بالكواكب». [البخاري ومسلم]

قال الإمام الشافعي: «من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا على ما كان بعض أهل الشرك يعنون من إضافة المطر إلى أنه أمطره نوء كذا، فذلك كفر، كما قال رسول اللَّه ﷺ؛ لأن النوء وقت، والوقت مخلوق لا يملك لنفسه ولا لغيره شيئًا، ولا يمطر ولا يصنع شيئًا، وأما من قال: مطرنا بنوء كذا، على معنى: مطرنا بوقت كذا، فإنما ذلك كقوله: مطرنا في شهر كذا، ولا يكون هذا كفر، وغيره من الكلام أحب إلى منه».

قال الحافظ ابن حجر عقب نقله لكلام الإمام الشافعي السابق: «يعني حسما للمادة وعلى ذلك يحمل إطلاق الحديث».

وقال الشيخ سليمان بن عبد الله معلقًا على كلام الإمام الشافعي: «إن كلام الشافعي لا يدل على جواز ذلك، وإنما يدل على أنه لا يكون كفر شرك، وغيره من الكلام أحسن منه، أما كونه يجوز إطلاق ذلك أو لا يجوز، فالصحيح أنه لا يجوز، وإن كان القائل لذلك يعتقد أن الله هو المنزل للمطر، فهذا من باب الشرك الخفي في الألفاظ، كقوله: لولا فلان لم يكن كذا».

وقال الإمام النووي: «وأما معنى الحديث، فاختلف العلماء في كفر من قال: مطرنا بنوء كذا على قولين: أحدهما: هو كفر بالله سبحانه وتعالى سالبٌ لأصل الإيمان مخرج عن ملة الإسلام، قالوا: وهذا فيمن قال ذلك معتقدًا أن الكواكب فاعل مدبر منشئ للمطر، كما كان بعض أهل الجاهلية يزعم، ومن اعتقده فلا شك في كفره، وهذا القول الذي ذهب إليه جماهير العلماء والشافعي منهم، وهو ظاهر الحديث، قال: وعلى هذا لو قال: مطرنا بنوء كذا معتقدًا أنه من الله تعالى وبرحمته، وأن النوء ميقات له وعلامة اعتبارًا بالعبادة، فكأنه قال: مطرنا في وقت كذا، فهذا لا يكفر، والأظهر كراهيته، لكنها كراهة تنزيه لا إثم فيها، وسبب الكراهة أنها كلمة مترددة بين الكفر وغيره فيساء الظن بصاحبها».

قلت: الأولى النهي مطلقًا عن قول هذه الكلمة سدًا للذريعة، وقد بين ذلك ووضحه الشيخ سليمان قال: «الاستسقاء بالنجوم نوعان: أحدهما يعتقد أن المنزل للمطر هو النجم، فهذا كفر ظاهر، إذ لا خالق إلا الله، وما كان المشركون هكذا، بل كانوا يعلمون أن الله هو المنزل للمطر، كما قال تعالى: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: ٦٣]، وليس هذا معنى الحديث، فالنبي ﷺ أخبر أن هذا لا يزال في أمته، ومن اعتقد أن النجم ينزل المطر فهو كافر.

الثاني: أن ينسب إنزال المطر إلى النجم، مع اعتقاده أن الله تعالى هو الفاعل لذلك المنزل له، لكن معنى أن الله تعالى أجرى العادة بوجود المطر عند ظهور ذلك النجم، فحكى ابن مفلح خلافًا في مذهب أحمد في تحريمه وكراهته، وصرح أصحاب الشافعي بجوازه والصحيح أنه محرم، لأنه من الشرك الخفي، وهو الذي أراده النبي ﷺ وأخبر أنه من أمر الجاهلية، ونفاه وأبطله، وهو الذي كان يزعم المشركون، ولم يزل موجودًا في هذه الأمة إلى اليوم، وأيضًا فإن هذا من النبي ﷺ حماية لجناب التوحيد، وسد الذريعة الشرك ولو بالعبارات الموهمة التي لا يقصد صاحبها.

المبحث الثاني: سد الذرائع في توحيد الأسماء والصفات

من المعلوم المقرر عند أهل السنة والجماعة أن الله سبحانه وتعالى له وحده الأسماء الحسنى والصفات العلى التي لا يشاركه فيها غيره، وهم يثبتون كل ما جاء في كتاب الله، وما صح به الخبر من سنة رسول اللَّه ﷺ من غير تشبيه وتمثيل، أو تعطيل وتأويل.

ولأهمية السلامة في جانب الاعتقاد- ومنه الأسماء الحسنى- ولأن أسماء الله وصفاته تحمل معنى العظمة والجلال التي لا يشارك فيها الخالق المخلوق، فقد احتاط الشارع لهذا الجانب، وسد كل طريق يؤدي إلى الخلط فيه، وهذه بعض الأمثلة:

١- إثبات علم الغيب لله وحده ونفيه عن الأنبياء والمرسلين فضلاً عن غيرهم:

من الصفات الثابتة الدالة على كمال العلم وسعة القدرة والعظمة انفراد الله عز وجل بعلم الغيب، فلا يشاركه فيه نبي مرسل ولا ملك مقرب، قال تعالى: ﴿قُل لاَّ يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النحل:٦٥].

ولما كان الأنبياء والمرسلون يخبرون عن الله

أمره، ويعلمون الناس شرعه بإعلام الله لهم، ومن ذلك أمور تتصل بعالم الغيب كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾ [الجن: ٢٦- ٢٨]، فقد نفى الله عنهم علم الغيب ونص على بشريتهم وبين منزلتهم، وقرر ذلك في كتابه في أكثر من موطن سدًا لذريعة نسبة علم الغيب إليهم، ويظهر ذلك واضحًا في سياق الآية السابقة، ويظهر أيضًا في قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

قال ابن كثير: «أمره الله تعالى أن يفوض الأمور إليه، وأن يخبر عن نفسه أنه لا يعلم الغيب المستقبل، ولا اطلاع به على شيء من ذلك إلا بما أطلعه الله عليه، كما قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا﴾ الآية، وقوله: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير»، قال عبد الرزاق عن الثوري عن منصور عن مجاهد: لو كنت أعلم متى أموت لعملت صالحًا، وكذا روى ابن أبي نجيح عن مجاهد، وقال مثله ابن جريج، وفيه نظر، لأن عمل رسول الله ﷺ كان ديمة، وفي رواية كان إذا عمل عملاً أثبته، فجميع عمله كان على منوال واحد، كأنه ينظر إلى الله عز وجل في جميع أحواله، اللهم إلا أن يكون المراد أن يرشد غيره إلى الاستعداد لذلك، والله أعلم، والأحسن في هذا ما رواه الضحاك عن ابن عباس: «ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير» أي من المال، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: «وما مسني السوء»، قال: لاجتنبت ما يكون من الشر قبل أن يكون واتقيه، ثم أخبر أنه إنما هو نذير وبشير أي نذير من العذاب وبشير للمؤمنين بالجنان، كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنذِرَ بِهِ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [تفسير ابن كثير: ج٢/٥٢٦، ٥٢٧].

وللشيخ محمد رشيد رضا كلام جميل في هذه الآية بين فيه أن الناس قد افتتنوا بمن اصطفاهم الله من الأنبياء والمرسلين وغلوا فيهم، فكان هذا السياق الكريم بهذه الصورة ردًا عليهم، كما بينت حقيقة أمر النبي ﷺ، وأنه بشر لا يرفع إلى مرتبة الألوهية كما تجب طاعته، لأنه رسول رب العالمين، وفي ذلك يقول: «أي قل أيها الرسول للناس فيما تبلغه من أمر دينهم إنني لا أملك لنفسي- أي ولا لغيري بالأولى- جلب نفع ما في وقت ما، ولا دفع ضرر ما في وقت ما، كما أنه لا يملك شيئًا من علم الغيب الذي هو شأن الخالق دون المخلوق كما يأتي بيانه في تفسير الجملة التالية، والاستثناء على هذا منفصل عما قبله مؤكد لعمومه، أي لكن ما شاء الله تعالى من ذلك كان، فهو كقوله تعالى: ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلاَ تَنسَى (٦) إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ﴾، وهذا الوجه المختار عندنا، لأن الناس قد فتنوا منذ قوم نوح بمن اصطفاهم الله ووفقهم لطاعته وولايته من الأنبياء ومن دون الأنبياء والصالحين، ﴿وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾، والجملة استدلال على نفي علم النبي ﷺ الغيب كأنه يقول: لا أملك لنفسي نفعًا ولا ضرًا ولا أعلم الغيب، ولو كنت أعلم الغيب- وأقربه ما يقع في مستقبل أيامي في الدنيا- لاستكثرت من الخير كالمال وأعمال البر، وفيه وجه آخر: أنه مستأنف غير معطوف على ما قبله، ومعناه: وما مسني الجنون كما زعم الجاهلون، فيكون حاصل معنى الآية: نفي رفعه إلى رتبة الألوهية الذي افتتن بمثله الغلاة، أو نفي وضعه في أدنى مرتبة البشرية الذي زعمته الغواة العتاة وبيان حقيقة أمره». [تفسير المنار ج٩/٥٠٨- ٥١٢].

وقال الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في الآية: «هذا ارتقاء في التبرؤ من معرفة الغيب ومن التصرف في العالم، وزيادة من التعليم للأمة بشيء من حقيقة الرسالة والنبوة، وتمييز ما هو من خصائصها عما ليس منها، والجملة مستأنفة ابتدائية قصد من استيفائها الاهتمام بمضمونها، كي تتوجه الأسماع إليها، ولذلك أعيد الأمر بالقول مع تقدمه مرتين في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي﴾، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ﴾، للاهتمام باستقلال المقول، وأن لا يندرج في جملة المقول المحكي قبله، وخص هذا المقول بالإخبار عن حال الرسول ﷺ نحو معرفة الغيب ليقلع عن عقول المشركين توهم ملازمة معرفة الغيب لصفة النبوة، إعلانًا للمشركين بالتزام أنه لا يعلم الغيب، وأن ذلك ليس بطاعن في نبوته حتى يستيأسوا من تحديه بذلك».

٢- إثبات صفة العلم ومعية الله لخلقه مع استوائه على عرشه.

ذكر ربنا سبحانه وتعالى في كتابه استواءه على عرشه في أكثر من موضع، وهو استواء يليق بجلال الله وكماله، ومعناه عند السلف علو الله على خلقه، وذكر البخاري عن أبي العالية: استوى إلى السماء: ارتفع، وقال مجاهد: استوى علا على العرش.

ودفعا لما يمكن فهمه من علو الله على خلقه أن الله بعيد عن عباده، فلا يعلم ما هم عليه نصَّ سبحانه في كثير من آيات الاستواء على علمه بخلقه، وبتدبير أمر مملكته، وإحاطته بما هم عليه، كما ذكر معيته لهم مع استوائه على عرشه، حتى لا يفهم أحد أن الله حال في مخلوقاته.

وأكتفي هنا بذكر آخر آية في القرآن الكريم أثبتت علو الله على خلقه واستواءه على عرشه، مع إثبات صفتي العلم والمعية معًا، ثم أتبعها بأقوال بعض أهل العلم في معناها.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى العَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤].

قال الطبري في معنى الآية: «يقول تعالى ذكره مخبرًا عن صفته، وأنه لا يخفى عليه خافية من خلقه، يعلم ما يلج في الأرض من خلقه، يعني بقوله: يلج: يدخل، وما يخرج منها، وما ينزل من السماء إلى الأرض من شيء قط، وما يعرج فيها فيصعد إليها من الأرض، وهو معكم أينما كنتم، يقول: وهو شاهد لكم أيها الناس، أينما كنتم يعلم أعمالكم، ومتقلبكم ومثواكم، وهو على عرشه فوق سمواته السبع، والله بما تعملون بصير».

وقال ابن تيمية عن فهم السلف وتفسيرهم لمعنى المعية والقرب: «وأما القسم الرابع: فهم سلف الأمة وأئمتها، أئمة العلم والدين من شيوخ العلم والعبادة، فإنهم أثبتوا وآمنوا بجميع ما جاء به الكتاب والسنة كله من غير تحريف للكلم، أثبتوا أن الله تعالى فوق سماواته، وأنه على عرشه بائن من خلقه، وهم منه بائنون، وهو أيضًا مع العباد عمومًا بعلمه، ومع أنبيائه وأوليائه بالنصر والتأييد والكفاية، وهو أيضًا قريب مجيب، ففي آية النجوى دلالة على أنه عالم بهم، وكان النبي ﷺ يقول: «اللهم أنت الصاحب في السفر والخليفة في الأهل». فهو سبحانه مع المسافر في سفره ومع أهله في وطنه، ولا يلزم من هذا أن تكون ذاته مختلطة بذواتهم».

ومعية الله لخلقه تنقسم إلى قسمين: معية خاصة، وهي الواردة في مثل قول الله تعالى: ﴿لاَ تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]، وفي قوله: ﴿لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: ٤٠]، وهذه المعية تقتضي النصر والتأييد والحفظ والإعانة، وهي للمؤمنين، ومعية عامة تتعلق بالناس جميعًا، وهي الواردة في مثل قول الله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾ [المجادلة: ٧]، وهذه المعية تقتضي علمه واطلاعه ومراقبته لأعمالهم.

وقد ذكر القاسمي عن ابن قدامة أنه قال: «إن ابن عباس والضحاك ومالكًا وسفيان وكثيرًا من العلماء قالوا في قوله: «وهو معكم» أي علمه، وقد ثبت بكتاب الله والمتواتر عن رسول الله ﷺ وإجماع السلف أن الله تعالى في السماء على عرشه، وجاءت هذه اللفظة محفوفة بها دلالة على إرادة العلم منها، وهو قوله: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾، ثم قال في آخرها: ﴿أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المجادلة: ٧]، فبدأها بالعلم وختمها به، ثم سياقها لتخويفهم بعلم الله تعالى بحالهم، وأنه ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ويجازيهم عليه، وهذه قرائن كلها دلالة على إرادة العلم».

وقال عبد الرحمن السعدي: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾، كقوله: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَى ثَلاثَةٍ إِلاَّ هُوَ رَابِعُهُمْ وَلاَ خَمْسَةٍ إِلاَّ هُوَ سَادِسُهُمْ وَلاَ أَدْنَى مِن ذَلِكَ وَلاَ أَكْثَرَ إِلاَّ هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا﴾، وهذه المعية، معية العلم والاطلاع، ولهذا توعد ووعد بالمجازاة بالأعمال بقوله: ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ أي: هو تعالى بصير بما يصدر منكم من الأعمال، وما صدرت عنه تلك الأعمال».

وقال الشيخ محمد بن عثيمين بعد كلام له عن آية سورة الحديد: «فيكون ظاهر الآية أن مقتضى هذه المعية علمه بعباده وبصره بأعمالهم مع علوه عليهم، واستوائه على عرشه، لا أنه سبحانه مختلط بهم، ولا أنه معهم في الأرض، وإلا لكان آخر الآية مناقضًا لأولها الدال على علوه واستوائه على عرشه». والحمد لله رب العالمين

سد الذرائع المتعلقة بالنبوة والرسالة

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

اختص الله سبحانه وتعالى أنبياءه ورسله بآيات بينات وبراهين ساطعات تدل على صدقهم وتوجب اتباعهم ويطلق عليها المعجزات، وإن كان الدليل على صدق الأنبياء لا ينحصر في المعجزات، إلا أنها من الأدلة الصحيحة على ثبوت النبوة، وما أجري على يد الأنبياء من المعجزات لا يقع لغيرهم بحال وذلك سدًا لذريعة تكذيبهم، والاختلاف عليهم والكفر بما أرسلوا به، وحتى يتميزوا عن الكاذبين.

يقول ابن تيمية: «ولهذا يجب في آيات الأنبياء أن لا يعارضها من ليس بنبي، فكل ما عارضها صادرًا ممن ليس من جنس الأنبياء فليس من آياتهم، ولهذا طلب فرعون أن يعارض ما جاء به موسى لما ادَّعى أنه ساحر، فجمع السحرة ليفعلوا مثل ما يفعل موسى، فلا تبقى حجته مختصة بالنبوة، وأمرهم موسى أن يأتوا أولاً بخوارقهم، فلما أتت وابتلعتها العصا التي صارت حية، علم السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم فآمنوا إيمانًا جازمًا». [النبوات: ١٢، ١٣]

ويقول أيضًا: «وخوارق الأنبياء لا يمكن غيرهم أن يعارضها ولا يمكن أحدٌ إبطالها، لا من جنسهم ولا من غير جنسهم، فإن الأنبياء يصدق بعضهم بعضًا، فلا يتصور أن نبيًا يبطل معجزة آخر وإن أتى بنظيرها فإنه يصدقه، ومعجزة كل منهما آية له وللآخر أيضًا، كما أن معجزات أتباعهم آيات لهم بخلاف خوارق السحرة، فإنها تدل على أن صاحبها ساحر، يؤثر آثارًا غريبة مما هو فساد في العالم، ويُسَرُّ بما يفعله من الشرك والكذب والظلم، ويستعين على ذلك بالشياطين، فمقصوده الظلم والفساد، والنبي مقصوده العدل والصلاح، وهذا يستعين بالشياطين، وهذا بالملائكة وهذا يأمر بالتوحيد لله وعبادته وحده لا شريك له، وهذا إنما يستعين بالشرك وعبادة غير الله، وهذا يعظم إبليس وجنوده، وهذا يذم إبليس وجنوده». [المرجع السابق]

والقرآن الكريم هو أعظم معجزات النبي ﷺ وهو المعجزة الباقية إلى يوم الدين، وأهم دليل على ثبوت نبوته ﷺ، وقد تحدى الله به الإنس والجن مجتمعين على أن يأتوا بمثله، فما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

يقول البيهقي: فأما العلم الذي اقترن بدعوته ولم يزل يتزايد أيام حياته، ودام في أمته بعد وفاته، فهو القرآن العظيم، المعجز المبين، وحبل الله المتين، الذي هو كما وصفه من أنزله، فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ (٤١) لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤١، ٤٢]، [دلائل النبوة ١/١٠]

ومع تأييد الله لنبيه بالآيات الكثيرة إلا أنه لم يُجب المشركين إلى ما طلبوه من آيات لم يُرد الله أن تكون لهم، وذلك سدًا لذريعة التكذيب بها، فيهلكهم الله، كما هي سنته في ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلاَّ أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء:٥٩].

قال ابن جرير في تفسيره: «يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا كذبوا رسلهم فلم يصدقوا مع مجيء الآيات فعوجلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنا لو

أرسلنا بها إليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم». ثم ساق روايات كثيرة في سبب نزول هذه الآية منها ما ذكره ابن عباس- رضي الله عنهما- قال: سأل أهل مكة النبي ﷺ أن يجعل لهم الصفا ذهبًا، وأن ينحي عنهم الجبال فيزرعوا، فقيل له: إن شئت أن نستأني بهم، وإن شئت أن نؤتيهم الذي سألوا، فإن كفروا أهلكوا كما أهلك من قبلهم، قال: بل نستأني بهم، فأنزل الله الآية.

[جامع البيان في تفسير القرآن ١٥/٧٤]

ثانيًا: النهي عن المفاضلة بين الأنبياء سدًا لذريعة الانتقاص من أحدهم

دل القرآن الكريم على أن الله فضل بعض النبيين على بعض كما قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ومع هذا وردت أحاديث صحيحة تنهى عن تفضيل بعض النبيين على بعض كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما يهودي يعرض سلعته أعطي بها شيئًا كرهه، فقال: لا والذي اصطفى موسى على البشر، فسمعه رجل من الأنصار فقام فلطم وجهه، وقال: تقول والذي اصطفى موسى على البشر والنبي ﷺ بين أظهرنا؟ فذهب إليه فقال: أبا القاسم، إن لي ذمة وعهدًا، فما بال فلان لطم وجهي؟ فقال: لم لطمت وجهه؟ فذكره، فغضب النبي ﷺ حتى رؤي في وجهه، ثم قال: لا تفضلوا بين أنبياء الله، فإنه يُنفخ في الصور فيُصْعَق من في السماوات ومن في الأرض إلا ما شاء الله، ثم يُنفخ فيه أخرى فأكون أول من بُعِثَ، فإذا موسى آخذ بالعرش، فلا أدري أحوسب بصعقته يوم الطور، أم بعث قبلي». [متفق عليه]

وعن ابن عباس- رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ قال: «ما ينبغي لعبد أن يقول: إني خير من يونس بن متَّى، ونسبه إلى أبيه». [متفق عليه]

وهذه الأحاديث لا تعارض آية التفضيل المذكورة آنفًا، وينبغي أن يحمل النهي الوارد فيها عن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية، سدًا لذريعة الانتقاص من المفضول.

قال النووي: قال العلماء: هذه الأحاديث تحتمل وجهين:

أحدهما: أنه ﷺ قال هذا قبل أن يعلم أنه أفضل من يونس، فلما علم ذلك قال: «أنا سيد ولد آدم». [أبو داود ٥/٣٥٤]

والثاني: أنه ﷺ قال هذا زجرًا عن أن يتخيل أحد من الجاهلين شيئًا من حط مرتبة يونس ﷺ.

[شرح النووي على مسلم ١٥/١٣٢]

وقد ذكر القرطبي أقوالاً كثيرة لأهل العلم في هذه المسألة منها: «إنما نهى عن الخوض في ذلك، لأن الخوض في ذلك ذريعة إلى الجدال، وذلك يؤدي إلى أن يذكر منهم ما لا ينبغي أن يذكر ويقل احترامهم عند المماراة». [الجامع لأحكام القرآن ٢/١٠٧٠]

وقال ابن حجر: قال العلماء: «إنما قال ﷺ ذلك تواضعًا، إن كان قاله بعد أن أُعْلِم أنه أفضل الخلق، وإن كان قاله قبل علمه بذلك فلا إشكال، وقيل: خص يونس بالذكر لما يخشى على من سمع قصته أن يقع في نفسه تنقيص له، فبالغ في ذكر فضله لسد هذه الذريعة». [فتح الباري ٦/١٠٧٠]

وقال شارح الطحاوية بعد أن ذكر حديث أبي هريرة السابق: «فكيف يجمع بين هذا وبين قوله ﷺ: أنا سيد ولد آدم ولا فخر». فالجواب: أن هذا كان له سبب، لأن التفضيل إذا كان على وجه الحمية والعصبية وهوى النفس كان مذمومًا، بل نفس الجهاد إذا قاتل الرجل حمية وعصبية كان مذمومًا، فإن الله حرم الفخر، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ﴾ [الإسراء:٥٥]، وقال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ﴾ [البقرة:٢٥٣]، فعلم أن المذموم إنما هو التفضيل على وجه الفخر، أو على الانتقاص بالمفضول».

وقد جاء في أبحاث اللجنة الدائمة للبحوث العلمية والإفتاء ما يلي: «ومن هذا القبيل تفضيل بعض الأنبياء على بعض، هو نفسه جائز، فقد فضل الله بعضهم على بعض ورفع بعضهم درجات، ولكنه يمنع حينما يجر إلى الفتنة والعصبية، وقد تخاصم مسلم ويهودي في العهد النبوي، ولطم المسلم وجه اليهودي، لأنه أقسم بالذي اصطفى موسى على العالمين، وأقسم المسلم بالذي اصطفى محمدًا على العالمين، فلما بلغت الخصومة خاتم النبيين ﷺ غضب حتى عرف الغضب في وجهه، وقال: «لا تخيروني على موسى». [مسلم ٤/١٨٤٤]، ثم أثنى عليه بما هو أهله، ونهاهم أن يفضلوا بين أنبياء الله سدًا لذريعة الفتن، وحرصًا على وقارهم- صلوات الله وسلامه عليهم- وإذا كانت الدول تشدد في سد الذرائع، وترى ذلك ركنًا من أركان السياسة والأمن والنظام والمعاملات الدنيوية، فإنه في العقائد أخلق وفي مقام النبوة أوجب وأحق». [حكم تمثيل الصحابة ص٤١]

والحمد لله رب العالمين.

سد الذرائع المتعلقة بالنبوة والرسالة

الحلقة الثانية

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

إرسال المرسلين بلسان أقوامهم

أرسل الله أنبياءه ورسله باللسان الذي يتكلم به المرسل إليهم، حتى يعرفوا خطابه ومراده منه، ولئلا يتعللوا بعدم الفهم له، فكان الإرسال بهذه الطريقة سدًا لذريعة تكذيبهم بحجة عدم الفهم عنهم. قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [إبراهيم: ٤].

واختص الله نبينا محمدًا ﷺ بإرساله إلى الناس كافة من العرب والعجم، كما هو مرسل إلى الجن أيضًا، ولا حجة لغير العرب في ذلك، لأن الله قيض لدينه من ينشره إلى غير العرب بلسانهم وأقيمت الحجة عليهم بذلك.

قال القرطبي: «وما أرسلنا من رسول» أي قبلك يا محمد «إلا بلسان قومه» أي بلغتهم، ليبين لهم أمر دينهم، ولا حجة للعجم وغيرهم في هذه الآية، لأن كل من ترجم له ما جاء به النبي ﷺ ترجمة يفهمها لزمته الحجة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ (الجامع لأحكام القرآن ٣٥٦٩/٥).

وقال ابن تيمية: وأما كون القرآن أنزل باللسان العربي وحده فعنه أجوبة: أحدها: أن يقال: والتوراة إنما أنزلت باللسان العبري وحده، وكذلك سائر الكتب لا ينزلها الله إلا بلسان واحد، بلسان الذي أنزلت عليه، ولسان قومه الذين يخاطبهم أولاً، وسائر الأنبياء إنما يخاطبون الناس بلسان قومهم الذي يعرفونه أولاً، ثم بعد ذلك تبلغ الكتب وكلام الأنبياء لسائر الأمم، إما أن يترجم لمن لا يعرف لسان ذلك الكتاب، وإما بأن يتعلم الناس لسان ذلك الكتاب فيعرفون معانيه. [الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ١٨٩/١]

وقال ابن كثير: وهذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلاً منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم، كما قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع، عن عمر بن ذر قال: قال مجاهد: عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لم يبعث الله نبيًا إلا بلغة قومه»، وقد كانت هذه سنة الله في

خلقه: أنه ما بعث نبيًا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس. [تفسير ابن كثير ٢٩٧/٣].

وقال القاسمي في تفسيره: فإن قلت: لم يبعث رسول الله ﷺ إلى العرب وحدهم، وإنما بعث إلى الناس جميعًا، ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨]، بل إلى الثقلين وهم على ألسنة مختلفة. قلت: لا يخلوا إما أن ينزل بجميع الألسنة أو بواحد منها، فلا حاجة إلى نزوله بجميع الألسنة، لأن الترجمة تنوب عن ذلك وتكفي التطويل، فبقي أن ينزل بلسان واحد، فكان أولى الألسنة لسان قوم الرسول ﷺ؛ لأنهم أقرب إليه، فإذا فهموا عنه وتبينوه وتنوقل عنهم وانتشر، قامت التراجم ببيانه وتفهمه، كما ترى الحال وتشاهد من نيابة التراجم في كل أمة من أمم العجم. [محاسن التاويل ٣٧٠٦/١٠، ٣٧٠٧].

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي». وذكر منها: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود».

قال النووي في شرحه: قيل: المراد بالأحمر: البيض من العجم وغيرهم، وقيل: المراد بالأسود: السودان، وبالأحمر: من عداهم من العرب وغيرهم، قيل: الأحمر الإنس، والأسود الجن، والجميع صحيح، فقد بعث إلى جميعهم. [شرح النووي على مسلم ٥/٥].

نهي المؤمنين عن مخاطبة النبي ﷺ بلفظ «راعنا»:

كان المؤمنون يقولون كلمة: «راعنا» للنبي ﷺ ويقصدون بها معنى صحيحًا وهو: راعنا سمعك، أي اسمع لنا ما نريد أن نسأل عنه، ونراجعك فيه القول لنفهمه عنك، ولكن اليهود كانوا يقولونها ويقصدون بها الحط من مقام النبي ﷺ، فكانوا يقولون: «راعنا» من المراعاة، وهي تقتضي المشاركة في الرعاية، أي: ارعنا نرعك، وفي خطاب النبي ﷺ بذلك من سوء الأدب ما هو ظاهر، أو أنهم كانوا يُميلون ألسنتهم في نطق هذه الكلمة لتؤدي معنى آخر مشتقًا من الرعونة فنهاهم الله عز وجل أن يقولوا لنبيه ﷺ هذه الكلمة سدًا لذريعة الانتقاص من قدره ﷺ، وأمرهم أن يتخيروا من الألفاظ أحسنها ومن المعاني أفضلها.

قال ابن تيمية: إنه سبحانه منع المسلمين من أن يقولوا للنبي ﷺ: «راعنا» مع قصدهم الصالح لئلا يتخذه اليهود ذريعة إلى سبه ﷺ، ولئلا يتشبه بهم، ولئلا يخاطب بلفظ يحتمل معنى فاسدًا. [مجموع الفتاوى الكبرى ١٤٤/٣].

وقال ابن كثير: نهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم، وذلك أن اليهود كانوا يُعانون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدونه من التنقص - عليهم لعائن الله -، فإذا أرادوا أن يقولوا: اسمع لنا يقولون: راعنا، يُورُّون بالرعونة، كما قال تعالى: ﴿مِنَ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَاسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَاعِنَا لَيًّا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِي الدِّينِ﴾ [النساء: ٤٦]، وكذلك جاءت الأحاديث بالأخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا إنما يقولون: «السام عليكم» والسام هو: الموت، ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ «وعليكم»، فإنه يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا». [تفسير ابن كثير ٢١٣/١].

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي: «كان المسلمون يقولون حين خطابهم للنبي ﷺ عند تعلمهم أمر الدين: (راعنا)، أي: ارع أحوالنا، فيقصدون بها معنى صحيحًا، وكان اليهود يريدون بها معنى فاسدًا، فانتهزوا الفرصة فصاروا يخاطبون الرسول ﷺ بذلك، ويقصدون المعنى الفاسد، فنهى الله المؤمنين عن هذه الكلمة، سدًا لهذا الباب، ففيه النهي عن الجائز إذا كان وسيلة إلى محرم» [تيسير الكريم الرحمن ١٢٠/١].

وبالله تعالى التوفيق.

سد الذرائع المتعلقة بالإمامة والخروج على الحاكم

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

•• وجوب تنصيب إمام واحد والاجتماع عليه ••

من المعلوم أن الإمامة(١) شرعت لحفظ الدين وسياسة الدنيا به، ومن هنا دعا الإسلام إلى وجود إمام واحد تجتمع عليه القلوب، وتكون به الجماعة، وتعدد الأئمة مدعاة للتفرق والاختلاف، لما يمكن أن يقع بينهم من تناحر وشقاق، لذا كان من شريعة الإسلام الدعوة إلى إمام واحد سدًا لذريعة التفرق والاختلاف، وها هي بعض الأدلة على ذلك من القرآن والسنة.

•• أولا: أدلة القرآن الكريم ••

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

في هاتين الآيتين الكريمتين يأمر الله جماعة المؤمنين بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والاجتماع على كلمته وعدم مخالفته، حتى لا يحدث نزاع بينهم فيقع ما حذرت منه الآيتان.

يقول الشيخ رشيد رضا في شرحه للآية الثانية: «أطيعوا الله في هذه الأوامر المرشدة إلى أسباب الفلاح في القتال وفي غيرها، وأطيعوا رسوله فيما يأمر به وينهى عنه من شئون القتال وغيرها من حيث إنه المبين لكلام الله الذي أنزل إليه على ما يزيده تعالى منه، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم، ومنه ولاية القيادة العامة في القتال، فطاعة القائد العام هي جماع النظام الذي هو ركن من أركان الظفر».

[تفسير المنار ج١٠/٢٤]

وقال القاسمي في تفسيره بعد شرحه للآية: «تنبيه: قال بعض المفسرين في قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَنَازَعُوا﴾ أي: لا تختلفوا فيما أمركم به من الجهاد، بل ليتفق رأيكم، قال: ولقائل أن يقول: استثمر من هذا وجوب نصب أمير على الجيش ليدبر أمرهم ويقطع اختلافهم، فإنه بلزوم طاعته ينقطع الاختلاف وقد فعله ﷺ في السرايا، وقال: اسمعوا وأطيعوا وإن أمر عليكم عبد حبشي». [البخاري ١٣/١٢١]

•• ثانيا: أدلة السنة النبوية ••

١- عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وستكون خلفاء فيكثرون، قالوا فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». [مسلم ٣/١٤٨٠]

قال النووي في شرح الحديث: «ومعنى هذا الحديث: إذا بويع لخليفة بعد خليفة فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة يحرم الوفاء بها، ويحرم عليه طلبها، واتفق العلماء على أنه لا يجوز أن يعقد لخليفتين في عصر واحد، سواء اتسعت دار الإسلام أم لا، وقال إمام الحرمين في كتابه الإرشاد: قال أصحابنا: لا يجوز عقدها لشخصين، قال: وعندي أنه لا يجوز عقدها لاثنين في صُقع واحد (ناحية واحدة)، وهذا مجمع عليه، قال: فإن بعد ما بين الإمامين وتخللت بينهما شسوع فللاحتمال فيه مجال. قال: وهو خارج من القواطع، وحكى المازري هذا القول عن بعض المتأخرين من أهل الأصول وأراد به إمام الحرمين وهو قول فاسد مخالف لما عليه السلف والخلف ولظواهر إطلاق الأحاديث. والله أعلم» [شرح النووي على مسلم جـ١٢ ص٢٣١]

وقال ابن حجر: «فوا» فعل أمر من الوفاء، والمعنى: «أنه إذا بويع لخليفة بعد خليفة، فبيعة الأول صحيحة يجب الوفاء بها، وبيعة الثاني باطلة». [فتح الباري ٦/٤٩٧]

وقال ابن تيمية رحمه الله: «إنه ﷺ سنَّ الاجتماع على إمام واحد في الإمامة الكبرى وفي الجمعة والعيدين والاستسقاء وفي صلاة الخوف وغير ذلك، مع كون إمامين في صلاة الخوف أقرب إلى حصول الصلاة الأصلية، لما في التفريق من خوف تفريق القلوب وتشتت الهمم، ثم إن محافظة الشارع على قاعدة الاعتصام بالجماعة وصلاح ذات

البين وزجره عما قد يفضي إلى ضد ذلك في جميع التصرفات لا يكاد ينضبط، وكل ذلك يشرع لوسائل الألفة وهي من الأفعال، وزجر عن ذرائع الفرقة وهي من الأفعال أيضًا». [مجموعة الفتاوى الكبرى ٣/١٤٤]

وقال ابن القيم: «إن الشارع أمر بالاجتماع على إمام واحد في الإمامة الكبرى، وفي الجمعة والعيدين والاستسقاء وصلاة الخوف، مع كون صلاة الخوف بإمامين أقرب إلى حصول صلاة الأمن، وذلك سدًا لذريعة التفريق والاختلاف والتنازع، وطلبًا لاجتماع القلوب وتالف الكلمة، وهذا من أعظم مقاصد الشرع، وقد سد الذريعة إلى ما يناقضه بكل طريق، حتى في تسوية الصف في الصلاة، لئلا تختلف القلوب، وشواهد ذلك أكثر من أن تذكر». [إعلام الموقعين ٣/١١٨]

ترك الخروج على الحاكم وطاعته في غير معصية الله

يرى أهل السنة والجماعة عدم الخروج على الحاكم المسلم الظالم الجائر، ما لم يصل ظلمه وجوره إلى الكفر البواح، وذلك سدًا لمفسدة الخروج عليه، وما يترتب عليه من إراقة للدماء، وانتشار الفوضى في البلاد وبين العباد والأدلة على ذلك من السنة ما يلي:

١- حديث عبادة بن الصامت - رضي الله عنه- قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في العسر واليسر والمنشط والمكره، وعلى أثرة علينا، وعلى أن لا ننازع الأمر أهله، إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان» [متفق عليه]

٢- عن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: خيار أئمتكم الذين تحبونهم ويحبونكم وتصلون عليهم ويصلون عليكم، وشرار أئمتكم الذين تبغضونهم ويبغضونكم وتلعنونهم ويلعنونكم. قالوا: قلنا: يا رسول الله، أفلا ننابذهم عند ذلك، قال: لا ما أقاموا فيكم الصلاة، ألا من ولي عليه وال فرآه يأتي شيئًا من معصية الله فليكره ما يأتي من معصية الله ولا ينزعن يدًا من طاعة».

[اخرجه مسلم ٣/١٤٨١]

وقد وردت أحاديث كثيرة حول هذا المعنى، وهي تفيد: ترك الخروج على الأئمة، ووجوب الطاعة في المعروف، وعدم طاعته في المعصية مع كراهة ما يأتي منها. وقد ذهب إلى القول والعمل بهذه الأحاديث أهل السنة الجماعة.

قال النووي في شرحه لحديث عبادة السابق ذكره: «ومعنى الحديث لا تنازعوا ولاة الأمور في ولايتهم ولا تعترضوا عليهم إلا أن تروا منهم منكرًا محققًا تعلمونه من قواعد الإسلام، فإذا رأيتم ذلك فأنكروه عليهم، وقولوا بالحق حيث ما كنتم، وأما الخروج عليهم وقتالهم فحرام بإجماع المسلمين، وإن كانوا فسقة ظالمين، وقد تظاهرت الأحاديث بمعنى ما ذكرته.. قال العلماء: وسبب عدم انعزاله وتحريم الخروج عليه ما يترتب على ذلك من الفتن وإراقة الدماء وفساد ذات البين فتكون المفسدة في عزله أكثر منها في بقائه».

[شرح النووي على مسلم ١٢/٢٢٩]

وقال ابن تيمية: «وقد استفاض وتقرر في غير هذا الموضع - ما قد أمر به ﷺ - من طاعة الأمراء في غير معصية الله ومناصحتهم والصبر عليهم في حكمهم وقسمهم، والغزو معهم والصلاة خلفهم ونحو ذلك من متابعتهم في الحسنات التي لا يقوم بها إلا هم، فإنه من باب التعاون على البر والتقوى، وما نهى عنه من تصديقهم بكذبهم وإعانتهم على ظلمهم وطاعتهم في معصية الله ونحو ذلك مما هو من باب التعاون على الإثم والعدوان. ولا يُزَالُ المنكر بما هو أنكر منه، بحيث يخرج عليهم بالسلاح، وتقام الفتن كما هو معروف من أصول أهل السنة والجماعة، وكما دلت عليه النصوص النبوية في ذلك من الفساد الذي يربو على فساد ما يكون من ظلمهم، بل يطاع الله فيهم وفي غيرهم، ويفعل ما أمر به ويترك ما نهي عنه». [مجموع الفتاوى ٣٥، ٢٠، ٢١]

وقال الحافظ ابن حجر: «وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المتغلب والجهاد معه، وأن طاعته خير من الخروج عليه، لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء». [فتح الباري ١٣/٧]

وقال ابن القيم: «نهى النبي ﷺ عن قتال الأمراء والخروج على الأئمة - وإن ظلموا أو جاروا - ما أقاموا الصلاة، سدًا لذريعة الفساد العظيم والشر الكثير بقتالهم كما هو الواقع، فإنه حصل بسبب قتالهم والخروج عليهم أضعاف ما هم عليه، والأمة في بقايا تلك الشرور إلى الآن». [إعلام الموقعين ٣/١٣٠]

وقال عبد الرحمن بن يحيى المعلمي: «وقد جرب المسلمون الخروج فلم يروا منه إلا الشر، خرج الناس على عثمان يرون أنهم يريدون الحق، ثم خرج أهل الجمل يرى رؤساؤهم ومعظمهم أنهم إنما يطلبون الحق فكانت ثمرة ذلك بعد اللتيا والتي أن انقطعت خلافة النبوة، وتأسست دولة بني أمية، ثم اضطر الحسين بن علي إلى ما اضطر إليه فكانت تلك المأساة، ثم خرج أهل المدينة فكانت وقعة الحرة».

[التنكيل لما ورد في تانيب الكوثري من الاباطيل ١/٩٩]

وهكذا سرد المعلمي مفاسد الخروج الكبيرة في فترة من فترات الإسلام العظيمة، مبينًا ثمرات هذا الخروج وآثاره على الأمة الإسلامية، لهذا جاء الشرع الحكيم بسد الباب، ووضع أئمة أهل السنة ضوابط جليلة لمنع إراقة الدماء وحفاظًا على المسلمين من التمزق والضياع(٢).

---

(١) الإمامة رئاسة عامة في الدين والدنيا خلافة عن النبي ﷺ، انظر الموسوعة الفقهية (٦/٢١٦).

(٢) يراجع للفائدة كتاب الإمامة العظمى عند أهل السنة والجماعة للدكتور عبد الله بن عمر الدميجي (ص٤٩٠-٥٤٨).

خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فإن اللَّه بعث نبيه وحبيبه ومصطفاه محمد بن عبد اللَّه ﷺ - رحمة للعالمين وهداية للناس أجمعين، فقبل بعض العباد هذه الرحمة ورفضها آخرون.

قال اللَّه عز وجل موجهًا الخطاب للنبي ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾.

وعليه فإن بعثة النبي ﷺ رحمة في الدين والدنيا.

الرسول ﷺ رحمة في الدين

أما في الدين فلأنه بُعث والناس في جاهلية وضلالة، فجزيرة العرب كانت تعج بركام من المعتقدات الباطلة كعبادة الأصنام، وكانت الكعبة التي بنيت لعبادة اللَّه الواحد الأحد تحتوي على ثلاثمائة وستين صنمًا، وانحطت عبادة الأصنام فيهم حتى كانوا يعبدون جنس الحجر، كما أخرج البخاري عن أبي رجاء العطاردي، قال: كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجرًا هو أخير منه ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجرًا جمعنا جُثْوة[1] من تراب، ثم جئنا بالشاة فحلبنا عليه، ثم طفنا به...» وكانوا يجعلون لآلهتهم نصيبًا من ثمار الزروع والأنعام وعبدوا هذه الآلهة من دون اللَّه فكانوا بهذا يعتدون على حق اللَّه فيها الذي وضعوه هم بأنفسهم ويقدمونه لآلهتهم كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦]، كما زعموا أن الملائكة بنات اللَّه - مع كراهيتهم هم للبنات - إلى جانب انتشار الكهانة والعرافة وغير ذلك من المعتقدات الباطلة، وذكر ذلك يطول، ولم يكن أهل الكتاب أحسن حالاً من هؤلاء، بل كانوا في حيرة من أمر دينهم لوقوع الاختلاف في كتبهم، وطول مكثهم مع انقطاع تواتر الوحي عندهم، وما كان لدين أن يستمر ويستقيم بعد أن لعبت به أيادي التحريف والتبديل، وتدخل فيه الرجال بالزيادة والنقصان، وتعددت كتبه وتفرق أهله، حتى دخلت الوثنية والشرك والتطاول على أنبياء اللَّه ورسله في الديانتين اليهودية والنصرانية، وكان المجوس يعبدون النار ويستحلون نكاح المحارم، وهكذا كان العالم كله يعيش في ظلمات بعضها فوق بعض، وصدق في هؤلاء جميعًا قول الحق تبارك وتعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١]، ويصور لنا

كان العالم قبل الإسلام يعج

النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالت

رحمةٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ

إعداد/ د. عبد الله شاكر الجنيدي - نائب الرئيس العام

النبي ﷺ الوضع المزري للبشرية قبل بعثته - عليه الصلاة والسلام - وذلك في حديث عياض بن حمار المجاشعي - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ - قال ذات يوم في خطبته: «ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كلُّ مالٍ نحلتُه عبدًا حلال[٣]، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرَّمَتْ عليهم ما أحللتُ لهم وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا، وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[٤] عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك[٥]، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء[٦]...»[٧].

ولما وصل العالم بأسره إلى هذه المرحلة من الضلال بعث الله خاتم النبيين رحمة للعالمين، فدعا إلى الحق وإلى عبادة الله وحده دون سواه، وبين سبيل الرشاد وأنزل الله عليه الكتاب، فيه تشريع للأحكام، وتمييز بين الحلال والحرام، ففتح الله به أعينًا عميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا، وهدى به من الضلالة، وأنقذ به من الجهالة، وانتفع بهذه الرحمة من كانت همته طلب الحق وكان التوفيق قرينًا له، وردّها ولم ينتفع بها من عاند واستكبر ولم يُسْلِم، كما قال تعالى: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُوْلَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٤].

في ظلمات الجاهلية وآصار الوثنية

ولت وتم ذلك بإرسال سيد البشر ﷺ

الرسول ﷺ رحمة في الدنيا

وأما كونه ﷺ رحمة في الدنيا، فلأنهم تخلصوا ببعثته من كثير من الذل والهوان والقتال والحروب، وتنزلت عليهم البركات من رب الأرض والسماوات، كما نُصروا ببركة دينه واتباعه ﷺ حتى فتحت لهم الدنيا، ويذكر علامة الشام محمد جمال الدين القاسمي - رحمه الله - حال البشرية قبل بعثة خير البرية ﷺ بكلمات دقيقة وعبارات فائقة يقول فيها: «كل من لحظ بعين الحكمة والاعتبار، ونفذت بصيرته إلى مكنون الأسرار، علم حاجة البشر كافة إلى رسالة خاتم النبيين، وأكبَر منة الله به على العالمين، فقد بعث صلوات الله وسلامه عليه على حين فترة من الرسل، وإخافة للسبل، وانتشار من الأهواء، وتفرق من الملل، ما بين مشبه لله بخلقه، وملحد في اسمه، ومشير إلى غيره، كفر بواح، وشرك صراح، وفساد عام، وانتهاب للأموال والأرواح، واغتصاب للحقوق، وشن للغارات، ووأد للبنات، وأكل للدماء والميتات، وقطع للأرحام، وإعلان بالسفاح، وتحريف للكتب المنزلة، واعتقاد لأضاليل المتكهنة، وتاليه للأحبار والرهبان، وسيطرة من جبابرة الجور وزعماء الفتن وقادة الغرور، ظلمات بعضها فوق بعض، وطامّات طبقت أكناف الأرض، استمرت الأمم على هذه الحال الأجيال الطوال، حتى دعا داعي الفلاح، وأذن الله تعالى بالإصلاح، فأحدث بعد ذلك أمرًا، فإن النوائب إذا تناهت انتهت، وإذا توالت تولّت، وذلك أن الله تعالى أرسل إلى البشر رسولاً ليعتقهم من أسر الأوثان، ويخرجهم من ظلمة

الكفر وعمى التقليد إلى نور الإيمان، وينقذهم من النار والعار، ويرفع عنهم الآصار، ويطهرهم من مساوئ الأخلاق والأعمال، ويرشدهم إلى صراط الحق، قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾(٨).

وكونه ﷺ رحمة للعالمين بنص التنزيل يدل على عموم بعثته إلى الناس أجمعين كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، فقوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خطاب لجميع البشر يعم الأحمر والأسود، والعربي والعجمي، وقوله: ﴿إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ أي لجميعكم، وهذا من شرفه وعظمته وعلو قدره ومكانته ﷺ أنه خاتم النبيين وأنه مبعوث إلى الناس كافة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا القُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، وقال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ وَيَتْلُوهُ شَاهِدٌ مِّنْهُ وَمِن قَبْلِهِ كِتَابُ مُوسَى إِمَامًا وَرَحْمَةً أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ فَلاَ تَكُ فِي مِرْيَةٍ مِّنْهُ إِنَّهُ الحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ [هود: ١٧]، كما أن الأحاديث في هذا أكثر من أن تحصر، وهو معلوم من دين الإسلام ضرورة أنه صلوات الله وسلامه عليه رسول إلى الناس كافة(٩)، وقد أخرج البخاري في صحيحه من حديث أبي إدريس الخولاني قال: سمعت أبا الدرداء رضي الله عنه يقول: كانت بين أبي بكر وعمر محاورة، فأغضب أبو بكر عمر، فانصرف عمر عنه مُغْضبًا، فاتَّبعه أبو بكر يسأله أن يستغفر له، فلم يفعل، حتى أغلق بابه في وجهه، فأقبل أبو بكر إلى رسول الله ﷺ، فقال أبو الدرداء ونحن عنده - فقال رسول الله ﷺ: «أما صاحبكم فقد غامر»(١٠)، قال: وندم عمر على ما كان منه، فأقبل حتى سلم وجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقصَّ على رسول الله ﷺ الخبر، قال أبو الدرداء: وغضب رسول الله ﷺ وجعل أبو بكر يقول: والله يا رسول الله، لأنا كنت أظلم. فقال رسول الله ﷺ: «هل أنتم تاركو لي صاحبي، هل أنتم تاركو لي صاحبي ؟ إني قلت: يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا فقلتم: كذبت، وقال أبو بكر: صدقت»(١١)، والشاهد من الحديث قوله ﷺ: «إني رسول الله إليكم جميعًا».

وللحديث صلة - إن شاء الله -.

---

(١) جُثْوة: بضم الجيم وسكون الثاء: القطعة من التراب.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي باب (٧٠ جـ٨/٩٠).

(٣) يعني كل مال أعطيته عبدًا من عبادي فهو حلال، والمراد إنكار ما حرموا على أنفسهم من السائبة والوصيلة، والبحيرة غير ذلك، وأنها لم تصر حرامًا بتحريمهم، وكل مال ملكه العبد فهو حلال حتى يتعلق به حق.

(٤) المقت: أشد البغض.

(٥) يعني: لأمتحنك بما يظهر منك من قيامك بما أمرتك به من تبليغ الرسالة، وأبتلي بك من أرسلتك إليهم، فمنهم من يؤمن ومنهم من يكفر.

(٦) يعني: محفوظ في الصدور لا يتطرق إليه الذهاب، بل يبقى على مر الزمان.

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه. كتاب الجنة وصفة نعيمها باب (١٦ جـ٤/٢١٩٧).

(٨) انظر تفسير القاسمي (جـ١١/٤٣١٤)، والآية المذكورة من سورة آل عمران رقم: (١٦٤).

(٩) راجع تفسير ابن كثير (ج٢/٤٨٨) طبعة الشعب.

(١٠) أي خاصم غيره، ومعناه: دخل في غمرة الخصومة، وهي معظمها، وقال البخاري عقب الحديث: غامر أي سبق بالخير.

(١١) البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الأعراف باب ٣ (ج٨/٣٠٣).

خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن حالة العالم قبل بعثة النبي ﷺ، وبينت أن بعثته كانت خيرًا للبشرية في الدين والدنيا، وذكرت بعض الأدلة على عموم بعثته - عليه الصلاة والسلام - وأواصل الحديث حول هذا الموضوع فأقول:

عن جابر بن عبد اللَّه رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»(١)، وفي رواية لمسلم: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»، وفي رواية أبي هريرة في مسلم أيضًا: «وأرسلت إلى الخلق كافة».

قال ابن حجر - رحمه اللَّه -: «وظاهر الحديث يقتضي أن كل واحدة من الخمس المذكورات لم تكن لأحد قبله ﷺ، وهو كذلك، ولا يعترض بأن نوحًا عليه السلام كان مبعوثًا إلى أهل الأرض بعد الطوفان، لأنه لم يبق إلا من كان مؤمنًا معه وقد كان مرسلاً إليهم، لأن هذا العموم لم يكن في أصل بعثته وإنما اتفق بالحادث الذي وقع وهو انحصار الخلق في الموجودين بعد هلاك سائر الناس، وأما نبينا ﷺ فعموم رسالته من أصل البعثة فثبت اختصاصه بذلك، وأما قول أهل الموقف لنوح - عليه السلام - كما صح في حديث الشفاعة: «أنت أول رسول إلى أهل الأرض»، فليس المراد به عموم بعثته، بل إثبات أولية إرساله، وعلى تقدير أن يكون مرادًا فهو مخصوص بتنصيصه سبحانه وتعالى في عدة آيات على أن إرسال نوح كان إلى قومه ولم يذكر أنه أرسل إلى غيرهم»(٢)، وقال النووي في شرحه لرواية مسلم: «وبعثت إلى كل أحمر وأسود»: «قيل المراد بالأحمر: البيض من العجم وغيرهم، وبالأسود العرب لغلبة السمرة فيهم وغيرهم من السودان، وقيل: المراد بالأسود السودان، وبالأحمر من عداهم من العرب وغيرهم، وقيل: الأحمر: الإنس، والأسود: الجن، والجميع صحيح فقد بعث إلى جميعهم»(٣).

وقال الطحاوي - رحمه اللَّه -: «وهو المبعوث إلى عامة الجن وكافة الورى، بالحق والهدى وبالنور والضياء». قال ابن أبي العز - رحمه اللَّه -: «أما كونه مبعوثًا إلى عامة الجن فقد قال تعالى حكاية عن قول الجن: ﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾، وكذا سورة الجن تدل على أنه أرسل إليهم أيضًا، وأما كونه مبعوثًا إلى كافة الورى فقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾، وكونه ﷺ مبعوثًا إلى الناس كافة معلوم من دين الإسلام بالضرورة، وأما قول بعض النصارى: إنه رسول إلى العرب خاصة فظاهر البطلان،

رحمةٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ

الحلقة الثانية

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

فإنهم لما صدقوا بالرسالة لزمهم تصديقه في كل ما يخبر به، وقد قال إنه رسول إلى الناس عامة، والرسول لا يكذب، فلزم تصديقه حتمًا، فقد أرسل رسله وبث كتبه في أقطار الأرض إلى كسرى وقيصر والنجاشي والمقوقس، وسائر ملوك الأطراف يدعو إلى الإسلام»[٤].

وقد زعمت العيسوية أيضًا من اليهودية أنه رسول إلى العرب خاصة[٥]، وقد كذبوا في ذلك، كما خاب وخسر من سمع برسالته ولم يؤمن به، كما جاء في صحيح مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ أنه قال: «والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به، إلا كان من أصحاب النار»[٦].

قال النووي - رحمه الله - في شرحه: «فيه نسخ الملل كلها برسالة نبينا ﷺ، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جار على ما تقدم في الأصول أنه لا حكم قبل ورود الشرع على الصحيح، والله أعلم، وقوله ﷺ «لا يسمع بي أحد من هذه الأمة» أي ممن هو موجود في زمني وبعدي إلى يوم القيامة، فكلهم يجب عليه الدخول في طاعته، وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما، وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا فغيرهم ممن لا كتاب له أولى، والله أعلم»[٧].

والمراد بالأمة في هذا الحديث عموم أهل الدعوة، أي: كل من دعاه إلى الإيمان، لأن قوله ﷺ «يهودي ولا نصراني»، بدل بعض من كل، والحديث يدل على عموم الشريعة لكل الأمم في كل زمان ومكان، فكان من تبلغه دعوة الإسلام، ويسمع بالرسول عليه الصلاة والسلام ومات ولم يؤمن بالذي أرسل به فإنه من أصحاب النار، ولو تأمل العقلاء في رسالته وما جاء به وسيرته وما كان عليه لدخلوا في دين الله أفواجًا وآمنوا بالنبي المصطفى المختار - صلوات الله وسلامه عليه، وهذه بعض النماذج اليسيرة من رحمته وحلمه وعفوه وصحفه، ﷺ.

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: بينا رجل يمشي فاشتد عليه العطش، فنزل بئرًا فشرب منها، ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يكاد يأكل الثرى من العطش، فقال: لقد بلغ هذا مثل الذي بلغ بي، فملأ خفه ثم أمسكه بفيه، ثم رقى فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له، قالوا: يا رسول الله، وإن لنا في البهائم لأجرًا؟ قال: في كل كبد رطبة أجرٌ»[٨].

فتأمل مدح النبي ﷺ وثناءه على هذا

الرجل لأنه سقى كلبًا، وإخباره بأن الله غفر له لما فعل ذلك، مع أنه ﷺ نهى عن اقتناء الكلاب إلا لحاجة - كما هو معلوم ومنصوص عليه في كتب الفقه -، وإذا كان هذا في الحيوان الذي هذا شأنه، فما بالنا إذًا بغيره وبعموم الناس.

قال الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وفي الحديث الحث على الإحسان إلى الناس، لأنه إذا حصلت المغفرة بسبب سقي الكلب فسقي المسلم أعظم أجرًا»(٩)، وقد حثَّ النبي ﷺ أمته على رحمة الخلق جميعًا من يعقل ومن لا يعقل، وذلك فيما أخرجه الترمذي بسند صحيح عن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ: «الراحمون يرحمهم الرحمن، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء، الرحم شجنة(١٠) من الرحمن فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله»(١١).

قال الشيخ المباركفوري - رحمه الله -: «قوله: «الراحمون» لمن في الأرض من آدمي وحيوان محترم بنحو شفقة وإحسان: «يرحمهم الرحمن» أي: يحسن إليهم وينفضل عليهم، والرحمة مقيدة باتباع الكتاب والسنة، فإقامة الحدود والانتقام لحرمة الله لا ينافي كل منهما الرحمة. «ارحموا من في الأرض».

قال الطيبي: أتى بصيغة العموم ليشمل جميع أصناف الخلق فيرحم البر والفاجر، والناطق والبُهْم، والوحوش والطير»(١٢)، ومعنى قوله: «الرحم شجنة من الرحمن» أي: قرابة مشتبكة كاشتباك العروق.

تنبيه: حرف «في» الوارد في الحديث: «ارحموا من في الأرض» بمعنى «على» كما في قوله تعالى: ﴿فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ﴾ يعني على الأرض، وهي بمعنى «على» أيضًا في قوله: «من في السماء»، وعليه فالحديث من الأدلة الكثيرة على أن الله تعالى فوق المخلوقات كلها كما هو معتقد السلف الصالح.

وقد كان ﷺ يعطف على الصبية الصغار ويقبلهم ويعد ذلك من الرحمة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن الأقرع بن حابس أبصر النبي ﷺ يقبل الحسن، فقال: إن لي عشرة من الولد ما قبلت واحدًا منهم، فقال رسول الله ﷺ: «إنه من لا يَرحم لا يُرحم». وهذا عام يشمل الأطفال وغيرهم، وهكذا كان رسول الله ﷺ مع عموم الناس، فهو بحق رحمة للعالمين، والحمد لله رب العالمين.

وللحديث صلة - إن شاء الله تعالى -.

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب ١ ج١/٤٣٥، ومسلم في كتاب المساجد باب ٥ جـ١/٣٧٠، والدارمي في سننه كتاب الصلاة باب (١١١ ج١/٣٧٤).
(٢) فتح الباري (ج١/٤٣٦).
(٣) شرح النووي على مسلم (ج٥/).
(٤) شرح العقيدة الطحاوية (ج١/١٦٧- ١٧٠).
(٥) تفسير المنار (ج٩/٣٠٠).
(٦) مسلم كتاب الإيمان باب (٧٠ ج١/١٣٤).
(٧) شرح النووي على مسلم (ج٢/١٨٨).
(٨) أخرجه البخاري كتاب المساقاة باب ٩ جـ٥/٤٠، ومسلم كتاب السلام باب ٤١ (جـ٤/١٧٦١).
(٩) فتح الباري ج٥/,٤٢
(١٠) الشجنة: بالكسر والضم: شعبة في غصن من غصون الشجرة. انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢/,٤٤٧
(١١) انظر سنن الترمذي، أبواب البر والصلة ج٦/٥١ من كتاب تحفة الأحوذي، كما أخرجه أبو داود في كتاب الأدب باب ٦٦ ج٥/,٢٣١
(١٢) تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي (ج٦/٥١).
(١٣) أخرجه مسلم في كتاب الفضائل باب ١٥ ج٤/,١٨٠٨

خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن عموم بعثة النبي ﷺ وشيء من عفوه ورحمته، وأواصل في هذا اللقاء الحديث حول هذا الموضوع فأقول:

أخرج البخاري في صحيحه عن أنس بن مالك - رضي اللَّه عنه - قال: «كنت أمشي مع رسول الله ﷺ وعليه بُرْدٌ نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي فجبذه بردائه جبذة شديدة، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ - قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته، ثم قال: يا محمد، مُرْ لي من مال اللَّه الذي عندك، فالتفت إليه رسول الله ﷺ ثم ضحك، ثم أمر له بعطاء»، فهو هنا - ﷺ - لم يقابل جفاء الأعرابي وشدته وقسوته عليه بما فعل، بل التفت إليه وضحك، وزاد على ذلك أن أعطاه شيئًا من المال.

وفي صحيح البخاري ومسلم عن جابر بن عبد اللَّه - رضي الله عنهما - قال: غزونا مع رسول الله ﷺ غزوة قِبَلَ نجد، فأَرْكنا رسول الله ﷺ في وادٍ كثير العَضَاة[1]، فنزل رسول الله ﷺ تحت شجرة فعلق سيفه بغصن من أغصانها. قال: وتفرق الناس في الوادي يستظلون بالشجر. قال: فقال رسول اللَّه ﷺ: «إن رجلاً أتاني وأنا نائم فأخذ السيف فاستيقظت وهو قائم على رأسي فلم أشعر إلا والسيف صَلْتًا[3] في يده، فقال لي: من يمنعك مني ؟ قال: قلت: اللَّه، ثم قال في الثانية: من يمنعك مني ؟ قال: قلت: اللَّه. قال: فشام السيف[4]، فها هو جالس»، ثم لم يعرض له رسول الله ﷺ[5]، ومع هذا العفو والصفح كان من أشجع الناس، بل إنه قد بلغ فيها مكانة عظيمة لم يصل إليها أفذاذ الأبطال كخالد بن الوليد وعلي بن أبي طالب وغيرهما ممن عرفوا بالبطولات والشجاعات النادرة، ففي صحيح مسلم عن أبي إسحاق قال: جاء رجل إلى البراء فقال: أكنتم وليتم يوم حنين يا أبا عمارة ؟ فقال: أشهد على نبي اللَّه ﷺ ما ولىَّ، ولكنه انطلق أَخِفَّاءُ من الناس وحُسَّرٌ[6] من هذا الحي من هوازن وهم قوم رماة، فرموهم بِرَشْق من نبل، كأنها رِجْلٌ من جراد[7] فانكشفوا، فأقبل القوم إلى رسول الله ﷺ وأبو سفيان بن الحارث يقود به بغلته، فنزل ودعا واستنصر وهو يقول:

رحمةٌ مِنْ رَبِّ العَالَمِينَ

الحلقة الثالثة

إعداد

د. عبد الله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

«أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب. اللهم نَزِّلْ نصرك». قال البراء: كنا والله إذا احمر البأس نتقي به، وإن الشجاع منا للذي يُحَاذِي به، يعني النبي ﷺ، وهذا الجواب الذي أجاب به البراء - رضي اللَّه عنه - من بديع الأدب، لأن تقدير الكلام: أفررتم كلكم؟ فيقتضي أن النبي ﷺ وافقهم في ذلك، فقال البراء: لا والله ما فر رسول الله ﷺ، ولكن جماعة من الصحابة جرى لهم كذا وكذا[٨]، وقول النبي ﷺ - في الحديث عن نفسه: أنا ابن عبد المطلب، ونسب نفسه إلى جده دون أبيه؛ لأن شهرته بجده أكثر، وقد توفى عبد اللَّه شابًا في حياة أبيه عبد المطلب، وكان عبد المطلب مشهورًا شهرة ظاهرة شائعة، فإن قيل: كيف يقول النبي ﷺ: «أنا ابن عبد المطلب» مع أنه لا يجوز أن يضاف عبدٌ إلا اللَّه عز وجل ؟ فالجواب: إن هذا ليس إنشاءً، بل هو خبر، فاسمه عبد المطلب ولم يسمه النبي ﷺ، ولا يعد هذا إقرارًا ولكنه خبر عن أمر واقع، والحديث يفيد أن النبي ﷺ ثبت في الميدان شجاعًا قويًا، حتى ثاب إليه أصحابه، وقاتل بهم حتى انتصر نصرًا ساحقًا على أعدائه، وأمسوا في قبضته، ولهذا الموقف نظيره في أحد أيضًا، ومثل هذه المواقف تدعو أصحاب البصائر إلى وجوب الإيمان برسالته واتباع دينه توخيًا للحق، وطلبًا للنجاة من العذاب، وفوزًا بالنعيم المقيم الذي أعده رب العالمين لمن آمن وصدَّق واتبع خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، ولقد أخذ اللَّه العهد الميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين أن يؤمنوا بالنبي ﷺ إذا بعث فيهم، وأن هذا شرع شرعه وأوجبه على جميع من مضى من الأنبياء والأمم. قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١]. قال القاسمي رحمه اللَّه: «اعلم أن المقصود من هذه الآيات تعديد تقرير الأشياء المعروفة عند أهل الكتاب مما يدل على نبوة محمد ﷺ قطعًا لعذرهم وإظهارًا لعنادهم، ومن جملتها ما ذكره اللَّه تعالى في هذه الآية، وهو أنه تعالى أخذ الميثاق من الأنبياء الذين آتاهم الكتاب والحكمة بأنهم كلما جاءهم رسول مصدق لما معهم، وإن كان ناسخًا لبعض

أحكامهم بما دلت الحكمة على اقتضاء الزمان ذلك، آمنوا به ونصروه أيضًا، ولا يمنعهم ما هم فيه من العلم والنبوة من اتباع شرعه ونصره، وأخبر أنهم قبلوا ذلك، وحكم بأن من رجع عن ذلك كان من الفاسقين...، وقد روى عن علي بن أبي طالب وابن عباس - رضي اللَّه عنهما :-ما بعث اللَّه نبيًا من الأنبياء إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث اللَّه محمدًا وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه، ومن أثر علي هذا فهم بعض العلماء اختصاص هذا الميثاق نبينا ﷺ كما نقل القاضي عياض في الشفاء عن أبي الحسن القابسي قال: اختص اللَّه تعالى محمدًا ﷺ بفضل لم يؤته غيره أبانه به، وهو ما ذكره في هذه الآية»[٩].

وقد غضب النبي ﷺ حينما رأى في يد عمر بن الخطاب رضي الله عنه أوراقًا من التوراة وأخبر أنه لو اتبع أحد موسى - عليه السلام - بعد بعثته ﷺ لكان من الضالين. ففي مسند أحمد عن عبد اللَّه بن ثابت رضي الله عنه قال: جاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول اللَّه، إني مررت بأخ لي من بني قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك ؟ قال: فتغير وجه رسول الله ﷺ، قال عبد اللَّه - يعني ابن ثابت - فقلت: ألا ترى ما بوجه رسول الله ﷺ ؟ فقال عمر: رضينا بالله تعالى ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً. قال: فسرى عن النبي ﷺ وقال: «والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسى ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين»[١٠].

فالرسول ﷺ إذًا هو النبي الخاتم الذي لو وجد في أي عصر لكان هو الواجب الطاعة والاتباع المقدم على غيره من جميع الأنبياء والمرسلين، وكان إمامهم لما اجتمعوا ببيت المقدس ليلة الإسراء، وقد أخبر اللَّه في كتابه أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاء به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده ولكنهم يكتمون الحق مع وضوحه، قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقد شهد بعض علماء أهل الكتابين بالنبوة والرسالة لرسول الهدى والرحمة ﷺ واتبعوه ودخلوا في دينه، وأكتفي هنا بذكر شهادة بعضهم، ففي البخاري عن أنس بن مالك رضي اللَّه عنه قال: بلغ عبد اللَّه بن سلام مقدم النبي ﷺ - فأتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي، قال: ما أول أشراط الساعة ؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة ؟ ومن أي شيء ينزع الولد إلى أبيه ومن أي شيء ينزع إلى أخواله ؟ فقال رسول الله ﷺ: «خبرني بهن جبريل آنفًا». فقال عبد اللَّه: ذاك عدو اليهود من الملائكة، فقال رسول الله ﷺ: «أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها». قال: أشهد أنك رسول اللَّه، ثم قال: يا رسول اللَّه، إن اليهود قوم بهت إن علموا بإسلامي قبل أن تسألهم بهتوني

عندك، فجاءت اليهود ودخل عبد الله البيت، فقال رسول الله ﷺ: أي رجل فيكم عبد الله بن سلام ؟ قالوا: أعلمنا وابن أعلمنا وأخيرنا وابن أخيرنا، فقال رسول الله ﷺ: أفرأيتم إن أسلم عبد الله ؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، فخرج عبد الله إليهم، فقال: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله ﷺ، فقالوا: شرنا وابن شرنا ووقعوا فيه(١١).

وشهادة عبد الله بن سلام وهو من أعلام اليهود قبل إسلامه لمن أعظم الشهادات لنبينا ﷺ بالنبوة والرسالة، وقد بينت هذه الشهادة أن اليهود قوم بهت وأصحاب ضلالات وانحرافات استحقوا بها غضب الله عليهم، نعوذ بالله من الخذلان. وللحديث صلة إن شاء الله.

---

(١) البخاري كتاب اللباس (ج١٠/٢٧٥).
(٢) هي كل شجرة ذات شوك.
(٣) صلتا: بفتح الصاد وضمها، أي: مسلولاً.
(٤) فشام السيف يعني: غمده ورده في غمده.
(٥) أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب ٨٤ جـ٦/٩٦، ومسلم في كتاب الفضائل باب ٤ (ج٥/١٧٨٦) واللفظ له.
(٦) أخفاء من الناس وحسر: فسر في رواية أخرى بأنهم شباب خرجوا مستعجلين ليس عليهم سلاح ولا معهم دروع، وقد واجهوا قومًا رماة من المشركين.
(٧) يعني كأنها قطعة من جراد. قال في النهاية: الرجل بالكسر: الجراد الكثير.
(٨) انظر شرح النووي على مسلم جـ١٢/١١٧ .
(٩) محاسن التأويل جـ٤ /٨٧٥ - ٨٧٦ .
(١٠) مسند أحمد جـ٤/٢٦٥، ٢٦٦ .
(١١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب أحاديث الأنبياء باب ١ جـ٦/٣٦٢ .

دعوة للمشاركة

صدقة جارية.. علم ينتفع به

بادر أخي المسلم وأختي المسلمة

بالمشاركة بجزء من مالك ومن الزكوات أو الصدقات لنشر التوحيد عبر مجلة التوحيد من خلال المشاركة في الأعمال التالية:

- طباعة كتيب يوزع مع مجلة التوحيد مجانًا تتكلف النسخة خمسة وسبعين قرشا يطبع من كل كتيب مائة وخمسون ألف نسخة.
- نشر تراث الجماعة من خلال طبع المجلة وتجليدها بجمع أعداد السنة في مجلد واحد وذلك لعمل كرتونة كاملة ٣٤ سنة من المجلة. دعم مشروع المليون نسخة من مجلة التوحيد.
- نسخة من المجلة لكل خطيب من خطباء الأوقاف والأزهر تصله على عنوانه.

كما يمكنك المشاركة ودعم ذلك بعمل حوالة أو شيك مصرفي على بنك فيصل الإسلامي فرع القاهرة حساب رقم ١٩١٥٩٠ باسم مجلة التوحيد

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

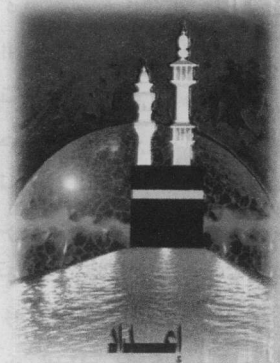

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد :

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن شهادة عبد الله بن سلام وهو حبر من أحبار اليهود للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة، وأواصل الحديث في هذا اللقاء عن بعض شهادات غيره بالنبوة والرسالة لسيد الورى ﷺ ، فأقول :

لقد شهد كثير من علماء النصارى للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة، ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة، وقد آمن بالله ودخل في الإسلام، وقد نعاه جبريل عليه السلام يوم وفاته للنبي ﷺ ، وصلى عليه هو وأصحابه صلاة الغائب، كما شهد هرقل عظيم الروم للنبي ﷺ بالنبوة والرسالة، وقد قال لأبي سفيان - رضي الله عنه - بعد أن سأله أسئلة متعددة عن النبي ﷺ ، جاء فيها : «سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول؟ فذكرت أن لا، فقلت: لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يأتي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك؟ فذكرت أن لا، قلت : فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم؟ فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه، وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون؟ فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سَخْطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بم يأمركم؟ فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما تقول حقًا فسيملك موضع قدميَّ هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظن أنه منكم، فلو أني أعلم أني أَخْلُصُ إليه لتجشَّمْتُ لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت قدمه»[1].

وهذه شهادة عظيمة وكلمات دقيقة في صدق بعثة نبينا ﷺ، خرجت من هذا الرجل المشرك المعتقد بأن الله ثالث ثلاثة، وإنني أدعو عموم النصارى في العالم اليوم لقراءتها وتدبرها، واعتقاد ما جاء فيها، ثم الإيمان والتصديق بالهادي البشير ﷺ.

وقد وبخ الله العرب الكافرين لعدم إيمانهم بالنبي ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم له بأنه نبي من عند الله كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧].

قال الإمام ابن كثير - رحمه الله -: «أي: أوليس يكفيهم من الشاهد الصادق على ذلك: أن العلماء من بني إسرائيل يجدون ذكر هذا القرآن في كتبهم التي يدرسونها؟ والمراد العدول منهم، الذين يعترفون بما في أيديهم من صفة محمد ﷺ ومبعثه وأمته، كما أخبر بذلك من آمن منهم كعبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، عمن أدركه منهم ومن شاكلهم، وقال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنْجِيلِ﴾[٢].

وفوق هذه الشهادات كلها لنبينا ﷺ بالنبوة والرسالة شهادة رب العالمين وملائكة الله المقربين، قال تعالى: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا (١٦٥) لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلاَئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٦٥، ١٦٦]، ومعنى شهادة الله بما أنزل إليه: إثباته لصحته، بإظهار المعجزات، كما تثبت الدعاوى بالبينات، إذ الحكيم لا يؤيد الكاذب بالمعجزة، ومعنى أنزله بعلمه. أي: وهو عالم به، رقيب عليه، وكفى بالله شهيدًا على صحة ثبوته، وإن لم يشهد غيره له، وفي هذا تسلية للنبي ﷺ، وقال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسيره: «... لكن الله يشهد بتنزيله إليك ما أنزله من كتابه ووحيه أنزل ذلك إليك بعلم منه بأنك خيرته من خلقه، فإنه إذا شهد لك بالصدق ربك لم يضرك تكذيب من كذبك وخلاف من خالفك، وكفى بالله شهيدًا، يقول: وحسبك بالله شاهدًا على صدقك دون ما سواه من خلقه، فإنه إذا شهد لك بالصدق ربك لم يضرك تكذيب من كذبك»[٣]، وشهادة الله تعالى لنبيه ﷺ بالنبوة والرسالة تنقسم إلى قسمين: شهادة إخبار، وشهادة معجزات، فشهادة الإخبار هي: ما أخبر به تعالى في كتابه عن وحيه لرسوله واصطفائه له، ووجوب طاعته ونصرته، وذلك في آيات كثيرة من كتابه كقوله: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾، ويلاحظ في هذه الآية أن الله قدَّم النبي ﷺ في الذكر فقال: أوحينا إليك، رغم أن إرساله مُتَأَخِّرٌ عن غيره من الأنبياء والمرسلين، إلا أنه مقدم عليهم في الفضل والذكر والرتبة

وبخ الله العرب الكافرين لعدم إيمانهم بالنبي ﷺ مع وجود آية عظيمة تدل على صدق نبوته، وثبوت رسالته، وهي معرفة علماء بني إسرائيل وشهادتهم لهم بأنه نبي من عند الله

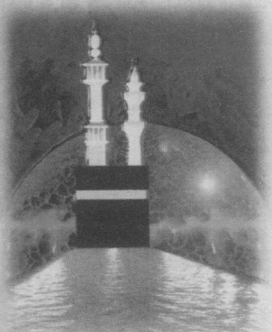

ﷺ، وهذا كقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ﴾ [الأحزاب: ٧]، وقال تعالى في شهادته لنبيه ﷺ بالنبوة والرسالة: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، وقد أخبر سبحانه في كتابه أن عيسى ابن مريم - عليه السلام - قد بشر بنبينا ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ (٦) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الإِسْلاَمِ وَاللَّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف: ٦، ٧].

وقد ذكر العلماء قديمًا وحديثًا ما جاء في الإنجيل من البشارة بالنبي ﷺ، وإن كانوا هم يحرفونه ويكتمونه، وقد بشرت به ﷺ جميع الأنبياء، ومنهم موسى عليه السلام، ومما يشير إلى أن موسى مُبَشِّرٌ به قول عيسى - عليه السلام - في هذه الآية: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾، والذي بين يديه هي التوراة أنزلت على موسى(٤)، وقد جاء صريحًا التعريف به ﷺ، وبالذي معه في التوراة في قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ﴾، كما جاء وصفهم في الإنجيل في نفس السياق في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِي الإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ﴾ [الفتح: ٢٩].

وقد ذكرت جريدة «المؤيد» عدد (٣٢٨٤) صفحة (٢) تحت عنوان: «لا يعدم الإسلام منصفًا قول «مارسيه» وكان في مدرسة اللغات الشرقية قوله: إن محمدًا ﷺ هو مؤسس الدين الإسلامي(٥)، واسم محمد جاء من مادة «حمد»، ومن غريب الاتفاق أن نصارى العرب كانوا يستعملون أسماء من نفس المادة يقرب في المعنى من «محمد»، وهو «أحمد»، ومعنى أحمد صاحب الحمد، وهذا ما دعا علماء الدين الإسلامي أن يثبتوا بأن كتب المسيحيين قد بشرت بمجيء النبي محمد ﷺ(٦)، وقد أشار القرآن نفسه إلى هذا بقوله عن المسيح: ﴿وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾(٧).

وأقول بعد هذا: «والفضل ما شهدت به الأعداء».

فائدة:

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله - في جلاء الأفهام: «الفرق بين محمد وأحمد من وجهين: أحدهما: أن محمدًا هو المحمود حمدًا بعد حمد، فهو دال على كثرة الحامدين له، وذلك يستلزم كثرة موجبات الحمد فيه، وأحمد أفعل تفضيل من الحمد، يدل على أن الحمد الذي يستحقه أفضل مما يستحقه غيره، فمحمد زيادة حمد في الكمية، وأحمد زيادة في الكيفية، فيحمد أكثر حمد، وأفضل حمد حمده البشر، والوجه الثاني: أن محمدًا هو المحمود حمدًا متكررًا كما تقدم، وأحمد هو الذي حمده لربه أفضل من حمد الحامدين غيره، فدل أحد الاسمين - وهو محمد - على كونه محمودًا، ودل الاسم الثاني وهو أحمد على كونه أحمد الحامدين لربه، وهذا هو القياس، إلى أن قال: وأيضًا فإن الاسمين إنما اشتقا من أخلاقه وخصاله المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمدًا وأحمد، فهو الذي يحمده أهل الدنيا وأهل الآخرة، ويحمده أهل السموات والأرض، فلكثرة خصاله التي تفوق عدّ العادين سمي باسمين من أسماء الحمد، يقتضيان التفضيل والزيادة في القدر والصفة».

وللحديث صلة - إن شاء الله - والسلام عليكم ورحمة الله.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه كتاب بدء الوحي باب جـ١ /٣١، ٣٢، ومسلم في صحيحه كتاب الجهاد والسير باب ٢٦ جـ٣ / ١٣٩٣ - ١٣٩٧.

(٢) تفسير ابن كثير (ج٤/١٧٣). (٣) تفسير ابن جرير (جـ٦/٢٢). (٤) راجع تتمة أضواء البيان (جـ٨/١٨٠).

(٥) هكذا قال، والصواب أن يقال: بعث بالدين الإسلامي؛ لأن الله أوحى به إليه، وحتى لا يتوهم متوهم أنه جاء به من عند نفسه.

(٦) الكاتب وهو نصراني لم يذكر الصلاة والسلام على النبي ﷺ وأثبتها لوجوبها على المسلم عند ذكر اسمه ﷺ.

(٧) انظر محاسن التأويل للقاسمي (ج١٦/٥٧٨٨).

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

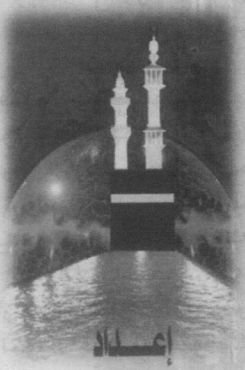

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله ولي الصالحين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين، وبعد:

فقد ذكرت فيما مضى شهادة رب العالمين للنبي الأمين ﷺ بالنبوة والرسالة، وذلك فيما أخبر عنه ربنا في كتابه، كما شهد له بعض علماء بني إسرائيل، وقد أشرت إلى ذلك من قبل، وهذه البشارات كانت شائعة ومنتشرة قبل بعثته ﷺ، وكان أهل الكتاب يعرفونها ولا يكتمونها، ويتحدثون بها في ذلك الوقت زاعمين أنهم سيتابعون صاحبها عندما يبعث، ومما جاء في وصف رسول الله ﷺ في التوراة ما أخرجه البخاري في صحيحه عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص - رضي الله عنهما -

قلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفتح بها أعينٌ عمي وآذان صم وقلوب غلف»(١).

قال ابن تيمية - رحمه الله - بعد سياقه لهذا الحديث: فقوله: أخبرني بصفة رسول الله ﷺ في التوراة؛ قد يراد بها نفس الكتب المتقدمة، كلها، وكلها تسمى توراة، ويكون هذا في بعضها، وقد يراد به التوراة المعينة، وعلى هذا فيكون هذا في نسخة لم تنسخ منها هذه النسخ؛ فإن النسخ الموجودة بالتوراة التي وقفنا عليها ليس هذا فيها»(٢).

قلت: لا شك أن اليهود والنصارى حرفوا وغيروا وبدلوا فيما أوحاه الله إليهم، وقد شهد القرآن بهذا، وأكبر دليل على ذلك تعدد نسخ الكتب التي بين أيديهم والاختلاف والضلال الواقعان فيهما، وقد ذكر ابن تيمية أنه جاء في نبوة أشعياء في وصف النبي ﷺ: «ولا يسمع صوته في الأسواق، يفتح العيون العور، والآذان الصم، ويحيي القلوب الغلف، يحمد الله حمدًا جديدًا، يأتي من أقصى الأرض، وتفرح البرية وسكانها، يهللون الله على كل شرف، ويكبرونه على كل رابية»(٣).

وهذه صفات منطبقة على نبينا ﷺ وأمته، وهي من أجل بشارات الأنبياء المتقدمين، وقد تواتر الخبر عند الأنصار أن جيرانهم من أهل الكتاب كانوا يخبرون بمبعث النبي ﷺ وأنه رسول الله، وأنه موجود عندهم في كتبهم، وكانوا ينتظرونه، وكان هذا من أعظم ما دعا الأنصار إلى الإيمان به لمَّا دعاهم إلى الإسلام، حتى آمن الأنصار به

وبايعوه ﷺ، وقد أخبر الله بذلك في كتابه عن أهل الكتاب، فقال: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ (٨٩) بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَنْ يُنَزِّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ» [البقرة: ٨٩، ٩٠]، ومعنى قول الله تعالى: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» أي: وقد كانوا من قبل مجيء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم؛ يقولون: إنه سيبعث نبي في آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم[٤]، وجملة: «وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا» حالية مفيدة لكمال مكابرتهم وعنادهم، مع أنهم كانوا مستذلين في جزيرة العرب، وكانوا يحالفون بعض القبائل تعززًا بهم، وقد ذكر ابن إسحاق عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر بن البراء بن معرور أخو بني سلمة: يا معشر اليهود، اتقوا الله وأسلموا، فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك، وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه لنا بصفته، فقال سَلامَ بن مِشْكَمْ أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، وما هو بالذي كنا نذكر لكم فأنزل الله من ذلك في قولهم: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ»[٥].

وعن ابن وهب قال: سألت ابن زيد عن قول الله عز وجل: «وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا» قال: كانت يهود يستفتحون على كفار العرب يقولون: أما والله لو قد جاء النبي الذي بشر به موسى وعيسى أحمد لكان لنا عليكم، وكانوا يظنون أنه منهم والعرب حولهم، وكانوا يستفتحون عليهم ويستنصرون به فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به وحسدوه، واقرأ قول الله جل ثناؤه: «وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ»، قال: قد تبين لهم أنه رسول، فمن هنالك نفع الله الأوس والخزرج بما كانوا يسمعون منهم أن نبينا خارج»[٦]، وكان الأولى أن يسارع اليهود إلى الإيمان به لمعرفتهم له ولظفرهم بأمنيتهم حينئذ، وهي انتصارهم على المشركين وحصول العزة لهم مع المؤمنين، ولكنهم امتنعوا عن الإيمان حسدًا وبغيًا وخوفًا من زوال رياستهم وأموالهم، وأصروا على الإنكار مع علمهم بحقيقة نبوته ﷺ، وقد قال لهم عبد الله بن سلام رضي الله عنه كما جاء في قصة إسلامه: يا معشر اليهود اتقوا الله، فوالله الذي لا إله إلا هو إنكم لتعلمون أنه رسول الله وأنه جاء بحق[٧]، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن غلامًا يهوديًا كان يخدم النبي ﷺ فمرض، فأتاه رسول الله ﷺ فوجد أباه عند رأسه يقرأ التوراة، فقال له رسول الله ﷺ: «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى، هل تجد في التوراة صفتي ومخرجي ؟» قال: لا. قال الفتى: بلى والله يا رسول الله إنا نجد في التوراة نعتك ومخرجك، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله. فقال النبي ﷺ: «أقيموا هذا من عند رأسه وَلُّوا أخاكم». قال ابن تيمية: رواه البيهقي بسند صحيح[٨].

وقد جاءت بشارات متعددة في التوراة ببعثة النبي ﷺ وأنه مرسل من عند الله، ولكن اليهود قوم بهت كفرة فجرة لا يسمعون ولا يعقلون، فقد جاء

لا شك أن اليهود والنصارى حرفوا وغيروا وبدلوا فيما أوحاه الله إليهم، وقد شهد القرآن بهذا، وأكبر دليل على ذلك تعدد نسخ الكتب التي بين أيديهم والاختلاف والضلال الواقعان فيهما

في سفر التكوين: «إن الله تعالى قال لإبراهيم: إن في هذا العام يولد لك ولد اسمه إسحاق، فقال إبراهيم: ليت إسماعيل هذا يحيى بين يديك يمجدك، فقال الله تعالى: قد استجبت لك في إسماعيل وإني أباركه وأُيَمِّئُه وأعظمه جدًا جدًا بما قد استجبت فيه وأُصَيِّرُه لأمة كبيرة، وأعطيه شعبًا جليلاً وسيلد اثنى عشر عظيمًا». وقد وردت هذه البشارة في كثير من المراجع، فقد ذكرها المهتدي إلى الإسلام علي الطبري في كتابه «الدين والدولة» (ص١٣١)، والمهتدي السموأل المغربي في كتابه «إفحام اليهودي» (ص١١٥) والقرطبي في كتابه: «الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام» (ص٢٦٥) وغيرهم كثير.

قال الإمام القاضي أبو البقاء صالح بن الحسين الهاشمي بعد سياقه هذه البشارة: «قد علم الموافق والمخالف، والموافق والمفارق أنه لم يكن في ذرية إسماعيل من ظهرت بركته ونمت أمته وأُعطي الشعب الجليل سوى محمد ﷺ، فلقد ملئوا الأرض برحبها، وطبقوا من شرق الدنيا إلى غربها، ودوخوا الآفاق وأربوا في العدد على أولاد إسحاق، وهم والحمد لله لا يزدادون على مر الأيام إلا نماءً وكثرة، وهذا بالغ في شرف إسماعيل، إذ فخر الولد يكسب الوالد فخرًا، ويرفعه دنيا وآخرى، وناهيك بمن يصفه الله بالعظمة والبركة واليمن والجلالة، وبأقل من هذه الوعود يثبت الفضل على سائر المخلوقات، إذ اليسير من الله عظيم، والعظيم منه فلا شيء أعظم منه»(٩).

وقد انتشر وظهر دين النبي ﷺ في مشارق الأرض ومغاربها وفي وسط المعمورة وظهرت أمته على اليهود والنصارى في أفضل الأرض وأجلها عندهم، كأرض الشام ومصر والجزيرة العربية وغيرها، وحفظه الله تبارك وتعالى على مر العصور والأزمان من التغيير والتبديل، ومن كذب به استحق من الله اللعنة والغضب كما صرحت بذلك الآيات، ومنها قوله تعالى: «فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ» أي: رجعوا لأجل ذلك بغضب في حسدهم لهذا النبي ﷺ وكفرهم به، وكانوا قد استحقوا قبل ذلك غضبًا من الله من أجل تحريفهم الكلم عن مواضعه، وتضييعهم لأحكام التوراة، وقتلهم للأنبياء والمرسلين، وكفرهم بعيسى - عليه السلام، ومايزال اليهود إلى اليوم تمتلئ قلوبهم حقدًا وحسدًا على رسول الإسلام ﷺ وعلى المسلمين، وما يزالون يَرْوُون أحقادهم التي لا تنطفئ بالحروب التي يثيرونها بين الحين والآخر، والذي دفعهم إلى ذلك كله حسدهم لرسول الله ﷺ، أن يختاره الله للرسالة التي انتظروها فيهم، وحقدهم لأن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده، وكان هذا منهم بغيًا وظلمًا استحقوا به الطرد واللعنة والغضب، ولهم في الآخرة عذاب مهين، جزاء الاستكبار والحسد والبغي الذميم.

وللحديث صلة - إن شاء الله تعالى -.

وكان الأولى أن يسارع اليهود إلى الإيمان بالنبي ﷺ لمعرفتهم له ولظفرهم بأمنيتهم حينئذ، وهو انتصارهم على المشركين، وحصول العزة لهم مع المؤمنين، ولكنهم امتنعوا عن الإيمان حسدًا وبغيًا وخوفًا من زوال رياستهم وأموالهم

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه في كتاب البيوع باب ٥٠ (٣٤٣/٤)، وكتاب التفسير تفسير سورة ٤٨ (٥٨٥/٨).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢٨١/٣).

(٣) المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

(٤) تفسير ابن كثير (١٧٨/١).

(٥) انظر تفسير الطبري (٣٢٥/١).

(٦) المرجع السابق (٣٢٧/١).

(٧) تفسير القاسمي (١٨٨/٢)

(٨) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٢٨٧/٣).

(٩) انظر كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٦٥١/٢، ٦٥٢)، بتحقيق د/ محمود قدح.

خَاتَمُ الأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ

هدي النبي ﷺ وصحابته الأخيار في قيام الليل في رمضان

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي هدانا للإيمان، ووفقنا للاقتداء بالمبعوث من ولد عدنان، وفضلنا بشهر الصيام والقيام، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله- عليه الصلاة والسلام. وبعد:

فبمناسبة قدوم الشهر الكريم وهلاله المنير أود أخي الكريم أن أقف معك في هذا اللقاء مع شيء من حال النبي ﷺ وأصحابه في شهر الصوم والغفران، فأقول وبالله التوفيق والسداد.

كان النبي ﷺ يفرح بقدوم شهر رمضان ويبشر به أصحابه رغبة في استباق الخيرات، والمنافسة في الطاعات، وتقربًا إلى الله في شهر من أعظم الشهور عند الله سبحانه وتعالى، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ يبشر أصحابه: «قد جاءكم شهر رمضان، شهر مبارك، افترض الله عليكم صيامه، يفتح فيه أبواب الجنة، ويغلق فيه أبواب الجحيم، وتغل فيه الشياطين، فيه ليلة خير من ألف شهر، من حُرم خيرها فقد حُرم»(١).

قال السيوطي: «قال القاضي عياض: وتغل فيه مردة الشياطين، يحتمل أن الحديث على ظاهره وحقيقته، وأن ذلك كله علامة للملائكة لدخول الشهر وتعظيم حرمته، وكمنع الشياطين من أذى المؤمنين، ويحتمل أن يكون إشارة إلى كثرة الثواب والعفو، وأن الشياطين يقل إغواؤهم فيصيرون كالمصفدين. قال: ويؤيد هذا الاحتمال الثاني قوله في الحديث عن عرفجة قال: كنت في بيت فيه عقبة بن فرقد، فأردت أن أحدث بحديث، وكان رجل من أصحاب النبي ﷺ كأنه أولى بالحديث مني، فحدث الرجل عن النبي ﷺ، قال في رمضان: «تُفْتَحُ فيه أبواب السماء، وتُغْلَقُ فيه أبواب النار، ويُصَفَّدُ فيه كل شيطان مريد، وينادي منادٍ كل ليلة: يا طالب الخير هلم، ويا طالب الشر أمسك»(٢).

ولما كان لشهر رمضان هذا الفضل وهذه المكانة كان النبي ﷺ وصحابته الأخيار الأطهار يجتهدون فيه بالطاعة والعبادة ويخصونه بكثير من أعمال الخير والبر.

قال ابن القيم: «وكان يخص - يعني النبي ﷺ - رمضان من العبادة بما لا يخص غيره من الشهور، حتى إنه كان ليواصل فيه أحيانًا ليوفر ساعات ليله ونهاره على العبادة، وكان ينهى أصحابه عن الوصال، فيقولون له: إنك تواصل، فيقول: لست كهيئتكم إني أبيت - وفي رواية: إني أَظَلُّ - عند ربي يطعمني ويسقيني»(٣).

ومن الأمور العظيمة التي كان يجتهد فيها ﷺ ومعه صحابته رضوان الله عليهم قيام الليل، وكان للنبي ﷺ شأن عظيم وكبير في قيام الليل، فكان يقومه

رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ

حتى تتورم من هذا القيام قدماه، ولم لا يقوم وقد أمره ربه به فقال: ﴿قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً (٢) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ [المزمل: ٢، ٣].

قال الإمام البغوي رحمه الله: «قم الليل» أي للصلاة، «إلا قليلا»، وكان قيام الليل فريضة في الابتداء، ثم بين قدره فقال: ﴿نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً﴾ إلى الثلث، ﴿أَوْ زِدْ عَلَيْهِ﴾ على النصف إلى الثلثين، خيرَّه بين هذه المنازل، فكان النبي ﷺ وأصحابه يقومون على هذه المقادير، وكان الرجل لا يدري متى ثلث الليل ومتى النصف ومتى الثلثان، فكان يقوم حتى يصبح مخافة أن لا يحفظ القدر الواجب»[٤].

وقال الحافظ ابن كثير - رحمه الله-: «كان رسول الله ﷺ ممتثلاً ما أمره الله تعالى به من قيام الليل، وقد كان واجبًا عليه وحده، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، وقد كان قيام الليل دأب النبي ﷺ، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «لا تدع قيام الليل؛ فإن رسول الله ﷺ كان لا يدعه، وكان إذا مرض أو كسل صلى قاعدًا»[٥].

وحث ﷺ أمته على قيام رمضان، وبيّن لهم أن له مزية خاصة وفضيلة على غيره، وذلك فيما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»[٦].

ومعنى قوله «إيمانًا» أي تصديقًا بأنه حق معتقدًا فضيلته وبما أعده الرب الكريم للقائمين من الثواب والنعيم المقيم، ومعنى «احتسابًا»، أي: يريد بقيامه وجه الله تعالى وحده وثوابه، لا يقصد رؤية الناس ولا غير ذلك مما يخالف الإخلاص، وكان ﷺ يطيل الصلاة في الليل جدا .

يقول حذيفة - رضي الله عنه: «صليت مع النبي ﷺ ذات ليلة، فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها، يقرأ مترسلاً، إذا مرَّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مرَّ بسؤال سأل، وإذا مرَّ بتعوذ تعوذ، ثم ركع فجعل يقول: سبحان ربي العظيم، فكان ركوعه نحوًا من قيامه، ثم قال: «سمع الله لمن حمده»، ثم قام طويلاً قريبًا مما ركع، ثم سجد فقال: «سبحان ربي الأعلى»، فكان سجوده قريبًا من قيامه»[٧].

وهذه القراءة والركوع والسجود بما وصف لا يحصل إلا في وقت طويل، بل ربما يستغرق الليل كله، هذا مع أعماله الأخرى الكثيرة في الدعوة والجهاد وتربية الصحابة وتعليمهم، ورعاية أهله وشئون بيته، فصلى الله عليك يا رسول الله وسلم تسليمًا كثيرًا .

وكان الصحابة رضوان الله عليهم يقومون لله في الليل بالصلاة حتى صاروا ممن قال الله تعالى فيهم: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ٢٦]، وعن زيد بن أسلم عن أبيه أن

لرمضان منزلة عظمى، جعلت النبي ﷺ وصحابته الأخيار يخصونه عن غيره من الشهور بكثير من أعمال الخير والبر، فحري بنا أن نري ربنا من أنفسنا خيرا بحسن القول والعمل

عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان يصلي من الليل ما شاء، حتى إذا كان من آخر الليل أيقظ أهله للصلاة، يقول لهم: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى﴾ [طه: ١٣٢](٨).

وعن عبد الله بن أبي بكر رضي الله عنهما قال: سمعت أبي يقول: كنا ننصرف في رمضان فنستعجل الخدم في الطعام مخافة الفجر. وقد ذكر ابن أبي حاتم أن ابن عمر قرأ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾، ثم قال: «ذاك عثمان بن عفان - رضي الله عنه - قال ابن كثير - رحمه الله-: «وإنما قال ابن عمر ذلك لكثرة صلاة أمير المؤمنين عثمان بالليل وقراءته»(٩)، وهذه الآية دلت على استحباب قيام الليل، قال ابن عباس: آناء الليل: جوف الليل، وقال الحسن: ساعاته أوله ووسطه وآخره، وفي قوله تعالى: ﴿يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ ردٌّ على من ذمَّ العبادة خوفًا من النار أو رجاء الجنة، وزعم أن ذلك غرض ينزه العابدون عنه، وقولهم هذا باطل مصادم للقرآن وصحيح سنة سيد المرسلين ﷺ.

وعن السائب بن يزيد أنه قال: أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه أُبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قالوا: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين، حتى كنا نعتمد على العصيِّ من طول القيام وما كنا ننصرف إلا في بزوغ الفجر(١٠)، وقد ذكر الأعرج أن القارئ كان يقرأ سورة البقرة في ثمان ركعات، فإذا قام بها في اثنتي عشرة ركعة رأى الناس أنه قد خفف(١١).

وهذا الفعل من الصحابة والسلف الصالح يخالف كثيرًا مما عليه بعض الناس اليوم من التخفيف الواضح في صلاة الليل والتراويح في رمضان، حيث يصلون بسرعة عظيمة، ويخلون بركن كبير من أركان الصلاة، ألا وهو الطمأنينة في جميع أفعال الصلاة، فعلى الأئمة الحذر من التخفيف المفرط الذي اعتاده كثير من الناس، وعلى المأمومين أن يساعدوهم في ذلك، وأن يحافظوا على صلاة التراويح في رمضان؛ لينالوا ثوابها وأجرها، وأول من سنَّ صلاة التراويح في المسجد هو النبي ﷺ، ثم تركها خوفًا من أن تفرض على أمته، ومما يحسن التنبيه عليه هنا: أن لا ينصرف المأموم قبل أن يكمل التراويح ومنها الوتر مع الإمام حتى يكتب في القائمين ويحصل له أجر قيام الليل كله لقوله ﷺ: «من قام مع الإمام حتى ينصرف كتب الله له قيام ليلة»(١٢).

ويجوز للنساء حضور صلاة التراويح في المساجد إذا أُمنت الفتنة منهن وبهن لقول النبي ﷺ: «لا تمنعوا إماء الله مساجد الله»(١٣).

لكن يجب عليها أن تأتي متسترة متحجبة غير متبرجة ولا متطيبة، ولا رافعة صوتًا ولا مبدية زينة، والسنة للنساء أن يتأخرن عن الرجال؛ لقول رسول الله ﷺ: «خير صفوف الرجال أولُها، وشرُّها آخرها، وخير صفوف النساء آخرُها وشرها أولُها»(١٤).

وكان من هديه ﷺ الاعتكاف في العشر الأواخر من رمضان، ليفرغ نفسه الشريفة لمناجاة الله وتلاوة كتابه والقيام بين يديه آناء الليل راكعًا وساجدًا، وتحريًا لليلة القدر التي نزل فيها القرآن، وهي ليلة شريفة عظيمة لها مزية خاصة على غيرها من ليالي هذا الشهر الكريم.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١٥).

فعلى المسلمين أن يُرُوا ربهم من أنفسهم خيرًا في هذا الشهر الكريم بحسن الصيام والقيام والخضوع التام لرب العالمين، حتى يفوزوا برحمة الرب الكريم، وفق الله الجميع لما يحبه ويرضاه، وتقبل من المسلمين صومهم وصلاتهم وجميع أعمالهم. والحمد لله رب العالمين.

---

(١) مسند أحمد (ج٢/٢٣٠، ٣٨٥)، وسنن النسائي كتاب الصيام (ج٤/١٠٤).
(٢) انظر سنن النسائي ومعها زهر الربى على المجتبى (ج٤/١٠٤، ١٠٥).
(٣) أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب ٤٩ (ج٤/٢٠٥)، ومسلم في كتاب الصيام باب ١١ (جـ٢/٧٧٤). (٤) معالم التنزيل (ج٤/٤٠٦).
(٥) انظر سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب قيام الليل ج٢/٧٣، ومسند أحمد (ج٦/٢٤٩).
(٦) أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح باب ١ ج٤/٢٥٠، ومسلم في كتاب صلاة المسافرين باب ٢٥ ج١/٥٢٣.
(٧) أخرجه مسلم في كتاب صلاة المسافرين باب ٢٧ ج١/٥٣٦، وأحمد في مسنده (ج٥/٣٨٤، ٣٩٧).
(٨) رواه مالك في الموطأ (ص٦١). (٩) تفسير ابن كثير (ج٥/٧٩). (١٠) موطأ مالك (ص٦٠). (١١) المرجع السابق نفس الصفحة.
(١٢) سنن النسائي، باب قيام شهر رمضان (ج٣/١٦٥).
(١٣) أخرجه البخاري في كتاب الجمعة باب ١٣ ج٢/٣٨٢، ومسلم في كتاب الصلاة باب ٣٠ (ج١/٣٢٧)، وغيرهما.
(١٤) رواه مسلم في كتاب الصلاة باب ٢٩ (ج١/٣٢٦).
(١٥) أخرجه البخاري في كتاب فضل ليلة القدر باب ١ (ج٤/٢٥٥).

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي رضي لنا الإسلام دينًا، وجعل السبيل إلى معرفته واعتقاده حقًا يقينًا، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده المصطفى ورسوله المجتبى، ﷺ تسليمًا كثيرًا، وبعد:

فاواصل الحديث بفضل الله تعالى عن إثبات نبوة النبي محمد ﷺ من خلال الشهادات الكثيرة الدالة على صحة نبوته وبعثته ﷺ، فاقول وبالله التوفيق والسداد: قد جاء في التوراة أيضًا في الفصل العشرين من السفر الخامس: «قال موسى: أقبل الله من سينا، وتجلى من ساعير، وظهر من جبال فاران، معه ربوات الأطهار عن يمينه»[1]، «فسيناء» هو الجبل الذي كلم الله فيه موسى - عليه السلام-، و«ساعير» هو جبل الخليل بالشام، وكان المسيح - عليه السلام - يتحنث فيه ويتعبد، و«فاران»[2] جبل بني هاشم الذي كان رسول الله ﷺ يتحنث فيه ويتعبد، وقد خصت التوراة نبينا محمدًا ﷺ بزيادة على موسى وعيسى فقالت: «معه ربوات الأطهار عن يمينه، وذلك كناية عن أصحاب رسول الله ﷺ؛ لأن معنى الربوات الجماعات من الأكابر والمعظمين في الدين، قال أبو البقاء صالح الهاشمي: «ويحتمل أن يكون أراد بالربوات جماعة الملائكة وهو الأقرب، لأن الربوات واحدها ربوة، قال داود في المزمور الثالث: «الرب ناصري لا أخاف من ربوات الشعوب المحيطين بي»، فيكون ذلك كناية عن تاييد الله نبيه محمدًا ﷺ بالملائكة في حروبه وغزواته وترددهم إليه بالوحي والتنزيل، وفي التوراة أن إسماعيل سكن برية فاران ونشا بها وتعلم الرمي، وذلك كله بمكة، وإذا كان ذلك كذلك فلم يات من جبال فاران من دعا إلى الله وأظهر أحكامه ونشر أعلامه وشرع الدين القويم ونهج للأمة الطريق المستقيم... سوى محمد رسول الله ﷺ[3].

وقد قال كثير من أهل العلم: إن مجيء الله من طور سينا معناه إنزاله التوراة على موسى من طور سينا، كالذي هو عند أهل الكتاب وعندنا، وكذلك يجب أن يكون إشراقه من ساعير معناه إنزاله الإنجيل على المسيح، وكان المسيح من ساعير أرض الخليل بقرية تدعى «ناصرة»، وباسمها سمي من اتبعه نصارى، وكما وجب أن يكون إشراقه من ساعير بالمسيح، فكذلك يجب أن يكون استعلانه من جبال فاران، أي: إنزاله القرآن على محمد ﷺ، وجبال فاران هي جبال مكة، وليس بين المسلمين وأهل الكتاب خلاف في أن فاران هي مكة، فإن ادعوا أنها غير مكة، فهذا من التحريف والإفك الذي اصطنعوه، وفي التوراة أن إبراهيم أسكن هاجر وإسماعيل فاران، ومنها استعلن وظهر دين النبي - عليه الصلاة والسلام-.

قال ابن تيمية - رحمه الله-: «وعلى هذا فيكون ذكر الجبال الثلاثة حقًا، جبل حراء الذي ليس حول مكة جبل أعلى منه، وفيه كان نزول الوحي على النبي ﷺ، وحوله من الجبال جبال كثيرة حتى قيل: إن بمكة اثنى عشر ألف جبل وذلك المكان يسمى فاران إلى هذا اليوم، وفيه كان ابتداء نزول القرآن، والبرية التي بين مكة وطور سينا تسمى برية فاران، ولا يمكن أحدًا أن يدعي أنه - بعد المسيح - نزل كتاب في شيء من تلك الأرض ولا بعث نبي، وكان مجيء التوراة مثل طلوع الفجر، أو ما هو أظهر من ذلك، ونزول الإنجيل مثل إشراق الشمس ازداد به النور والهدى، وأما نزول القرآن، فهو بمنزلة ظهور الشمس في السماء، ولهذا قال: واستعلن من جبال فاران، فإن النبي ﷺ ظهر به نور الله وهداه في مشرق الأرض ومغربها أعظم مما ظهر بالكتابين المتقدمين كما يظهر نور الشمس إذا استعلنت في مشارق الأرض ومغاربها، ولهذا سماه الله سراجًا منيرًا، وسمى الشمس سراجًا وهاجًا، والخلق محتاجون إلى السراج المنير أعظم من حاجتهم إلى السراج الوهاج، وقد قال النبي ﷺ: «زويت لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وسيبلغ ملك أمتي ما زوى لي منها»[٤].

وهذه الأماكن أقسم الله بها في القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ﴾ [التين: ١- ٣]، فأقسم بالتين والزيتون وهو الأرض المقدسة التي ينبت فيها ذلك ومنها بعث المسيح، وأنزل عليه فيه الإنجيل، وأقسم بطور سيناء، وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، وناداه من واديه الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة، وأقسم بالبلد الأمين، وهي مكة، وهو الذي جعله الله حرمًا آمنًا ويتخطف الناس من حولهم، وجعله آمنًا خلقًا وأمرًا، قدرًا وشرعًا، فإن إبراهيم حرمه ودعا لأهله فقال: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، ومن البشارات

اليهود قوم بهت كذبوا على الله وعلى أنبيائه ورسله، ونسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله وكماله، ومازالوا إلى اليوم يفسدون في الأرض بأشد أنواع الظلم والفساد

المؤيدة لصحة بعثة نبينا ﷺ ما ذكره دانيال النبي - عليه السلام - حين سأله بختنصر عن تأويل رؤيا رآها ثم نسيها فقال: «رأيت أيها الملك صنمًا عظيمًا قائمًا بين يديك رأسه من ذهب، وساعداه من الفضة، وبطنه وفخذاه من النحاس، وساقاه من حديد، ورجلاه من خزف، ورأيت حجرًا لم يقطعه يد إنسان قد جاء وصك ذلك الصنم فتفتت وتلاشى وعاد رفاتًا، ثم نسفته الرياح فذهب وتحول ذلك الحجر فصار جبلاً عظيمًا حتى ملأ الأرض كلها - هذا ما رأيت أيها الملك، فقال بختنصر: صدقت، فما تأويلها؟ قال دانيال: أنت الرأس الذي رأيته من الذهب، ويقوم بعدك ولداك اللذان رأيت من الفضة وهما دونك، ويقوم بعدهما مملكة أخرى وهي دونهما وهي التي تشبه النحاس، والمملكة الرابعة تكون قوية مثل الحديد الذي يدق كل شيء، وأما الرجلان اللتان رأيت من خزف فمملكة ضعيفة وكلمتها متشتتة، وأما الحجر الذي رأيت قد صك ذلك الصنم العظيم ففتته، فهو نبي يقيمه الله إله السماء والأرض من قبيلة شريفة قوية فيدق جميع ملوك الأرض وأممها حتى تمتلئ منه الأرض ومن أمته، ويدوم سلطان ذلك النبي إلى انقضاء الدنيا، فهذا تعبير رؤياك أيها الملك»[٥].

فقد أخبر دانيال عن الله تعالى أن نبينا ﷺ هو خاتم الأنبياء ودولته خاتمة الدول. وقد وضّح

هذه الأماكن أقسم الله بها في القرآن الكريم فأقسم بالتين والزيتون وهي الأرض المقدسة التي نبت فيها ومنها المسيح، وأنزل عليه فيه الإنجيل، وأقسم بطور سيناء وهو الجبل الذي كلم الله فيه موسى، وأقسم بالبلد الأمين وهي مكة التي جعلها الله حرمًا آمنًا

الأستاذ إبراهيم خليل - الذي كان قسيسًا فأسلم في القرن الماضي - تَحقق هذه النبوءة التي أخبر بها دانيال على النحو التالي:

١- سنة ٧٠١ ق.م مملكة بابل، ويرمز لها بالرأس من الذهب في عهد بختنصر.

٢- سنة ٦١٢ ق.م مملكة الكلدانيين في عهد ميداس ويرمز لها بالفضة.

٣- سنة ٣٢٦ ق.م المملكة الإغريقية في عهد الإسكندر المقدوني ويرمز لها بالنحاس.

٤- سنة ٥٣ ق.م الإمبراطورية الرومانية في عهد بومباي، ويرمز لها بالحديد.

٥- سنة ٦١٢م الإمبراطورية البيزنطية في الغرب، والإمبراطورية الساسانية في الشرق.

٦- سنة ٦٣٧م الإسلام، وكتب الرسول ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام وتقويض الإمبراطورية البيزنطية والفارسية.

ويعقب ابن تيمية - رحمه الله - على كلام دانيال هذا بعد أن ساقه فيقول: «قلت: فهذا بعث محمد ﷺ لا بعث المسيح، فهو الذي بعث بشريعة قوية دون جميع ملوك الأرض وأممها، حتى امتلأت الأرض منه ومن أمته، في مشارق الأرض ومغاربها، وسلطانهم قائم لا يقدر أحد أن يزيله، كما زال ملك اليهود، وزال ملك النصارى عن خيار الأرض وسلطانها»[٦].

وما قاله - رحمه الله - حق واضح لمن تأمله، فكلام دنيال منطبق على نبي هذه الأمة محمد بن عبد الله ﷺ تمام الانطباق، لا على المسيح ولا على نبي سواه، ولكن اليهود قوم بهت كذبوا على الله وعلى أنبياء الله ورسله، ونسبوا إلى الله ما لا يليق بجلاله وكماله، كما حدثنا القرآن الكريم عن ذلك، وكذلك فعلوا مع الأنبياء والمرسلين، وما يزالون إلى اليوم يفسدون في الأرض بأشد أنواع الظلم والفساد، ويستخدمون أساليب القتل والتدمير والإرهاب، والدعوات الإلحادية التي ظهرت في العالم كان وراءها هؤلاء المجرمون، فحسبنا الله ونعم الوكيل.

ونحن حينما نذكر ما في كتبهم الآن إنما نريد إقامة الحجة عليهم بما سطرته أيديهم لعلهم يرجعون ويفقهون، أو يستمرون في العناد والتكذيب فيهلكون، وستكون - إن شاء الله - الدولة والعاقبة للمتقين، والحمد لله رب العالمين.

---

(١) وردت هذه البشارة في كثير من الكتب مثل: أعلام النبوة للماوردي ص١٩٩، وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل لصالح الهاشمي ج٢/٦٥٤، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ج٣/٣٠٠، وهداية الحيارى لابن القيم ص٥٣، وغير ذلك.

(٢) فاران كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء مكة، وقيل اسم لجبال مكة. انظر معجم البلدان لياقوت الحموي ج٦/٤٠٧ .

(٣) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل ج٢/٦٥٥، ٦٥٦ .

(٤) أخرجه مسلم في كتاب الفتن، باب هلاك هذه الأمة بعضهم ببعض جـ٤/٢٢١٥ .

(٥) انظر هذه البشارة في سفر دانيال، الإصحاح الثاني من ٣١- ٤٥، وتخجيل من حرف التوراة والإنجيل جـ٢/٦٩٧، ٦٩٨، والجواب الصحيح لابن تيمية جـ٤/٣، ٤، وهداية الحيارى لابن القيم ص٨٢ .

(٦) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح جـ٤/٤ .

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

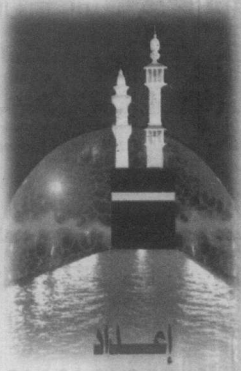

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون، والصلاة والسلام على من رفع الله ذكره وأعلى شأنه في العالمين، وعلى آله وأصحابه الأخيار الأبرار إلى يوم الدين، وبعد:

فحملات التكذيب والإنكار والنيل من نبي الإسلام ﷺ لم تقف عند حد عباد الصليب ومن تبعهم في ذلك، ولقد سبق أن دعوت هؤلاء جميعًا إلى التسليم بصحة صدق ما جاء به النبي ﷺ، وفي اللقاء السابق أقمت الحجة على اليهود من كتبهم وبينت بهتهم وكذبهم على الله ورسوله ﷺ.

وفي هذا اللقاء أوجه الخطاب إلى النصارى فأقول: إن بعض المتقدمين منكم والكبراء فيكم على مدار التاريخ قديمًا وحديثًا قد عرفوا صدق النبي ﷺ، ودخلوا في دينه واتبعوا شريعته استجابة لنداء الحق تبارك وتعالى، واتباعًا صادقًا لما جاء به عيسى ابن مريم - عليه الصلاة والسلام-، ومن هؤلاء النجاشي ملك الحبشة، والسيد المطاع في قومه «عدي بن حاتم»، رضي الله عنه، وكان من رؤساء النصارى الذين دخلوا في الإسلام لما تبين له أنه الحق، وقد ذكر هو قصته ولقاءه برسول الله ﷺ وإسلامه، فقال: «أتيت رسول الله ﷺ - وهو جالس في المسجد فقال القوم: هذا عدي بن حاتم، وجئت بغير أمان ولا كتاب، فلما دُفعتُ إليه أخذ بيدي، وقد كان قال قبل ذلك: «إني لأرجو أن يجعل الله يده في يدي». قال: فقام بي فلقيته امرأة وصبي معها، فقالا: إن لنا إليك حاجة، فقام معها حتى قضى حاجتها، ثم أخذ بيدي حتى أتى بي داره، فألقت له الوليدة وسادة فجلس عليها، وجلست بين يديه، فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «ما يُفِرُّك[1] أن تقول: لا إله إلا الله، فهل تعلم من إله سوى الله؟» قال: قلت: لا، ثم تكلم ساعة، ثم قال: «إنما تفر أن تقول الله أكبر، وتعلمُ شيئًا أكبرَ من الله؟» قال: قلت: لا، قال: «فإن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال»[2]، وقد كان «سلمان الفارسي» رضي الله عنه من أعلم النصارى بدينهم، وكان قد تيقن خروج النبي ﷺ فقدم المدينة قبل مبعثه، فلما رآه عرف أنه النبي ﷺ الذي بشر به المسيح - عليه السلام - فآمن به واتبعه، وكان السبب الذي دفعه إلى الإتيان إلى المدينة خبر أحد علماء النصارى له بقرب

مبعث النبي ﷺ، وأنه سيهاجر إلى أرض ذات حرتين، بينهما نخل، وأنه يأكل الهدية ولا يأكل الصدقة، بين كتفيه خاتم النبوة، وقصة سلمان طويلة مشهورة في كتب السير والتاريخ(٣)، وهي تدل بوضوح على أن علماء النصارى المتقدمين كانوا يعرفون صفة النبي ﷺ وصدقه، وأنه رسول رب العالمين حقًا، كما أعلمهم بذلك نبيهم ورسولهم عيسى ابن مريم - عليه السلام، ولذلك كانوا يوصون أتباعهم باتباعه، وممن عرف صدق رسول الله ﷺ حقًا «هرقل»، وقد عزم على الدخول في الإسلام، ولكن أبى عليه عباد الصليب فخافهم على نفسه وضنَّ بملكه، وغير هؤلاء كثير كالمقوقس صاحب مصر، وابن صوريا، وابن أخطب وأخوه، وقد ذكر القاضي أبو البقاء صالح بن الحسين قصة إسلام سلمان الفارسي وعقب عليها بقوله: «ولا جرم أن طائفة من النصارى عند مبعثه- ﷺ - ابتدرت إلى الإيمان به كنصارى نجران، وغيرهم ممن دخلوا في دين محمد ﷺ من النصارى واليهود فهم أكثر من الخارجين منه، فما يحصى من أسلم منهم من علمائهم وصنفوا الكتب في معائب ما كانوا عليه ومحاسن ما صاروا إليه، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم، وحَقَّ القولُ على آخرين فلم يستنيروا بنور الهدى، وصدف بهم عن وصايا المسيح ما حق عليهم من الارتكاس في مهاوي الردى، فهم المرادون بقول الله عز وجل: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ﴾(٤)، وما يزال كثير من النصارى اليوم وبعضهم قد بلغ مكانة عالية في دينهم - يدخلون في الإسلام، بل إنه كلما زاد اعتداء أكابرهم وسفهائهم على الدين الإسلامي ونبيه ﷺ ازداد إقبال كثير منهم إلى الإسلام وتابعوا النبي - عليه الصلاة والسلام-، وإنني أدعو منهم العلماء والعوام إلى الرجوع إلى الأناجيل التي بين أيديهم يؤمنون بها، وسيجدون فيها إشارات متعددة إلى النبي ﷺ، ونحن نؤمن بما جاء في القرآن الكريم من أن نبي الله وعبده عيسى ابن مريم - عليه السلام - قد بشر بالنبي ﷺ كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [الصف: ٦]، وقد جاء في إنجيل يوحنا(٥) أن المسيح - عليه السلام- قال: «إن خيرًا لكم أن أنطلق، لأني إن لم أذهب لم يأتكم «الفارقليط»(٦)، فإذا انطلقت أرسلته إليكم، فإذا جاء فهو يوبخ العالم على الخطيئة، وإن لي كلامًا كثيرًا أريد قوله ولكنكم لا تستطيعون حمله، لكن إذا جاء روح الحق ذاك الذي يرشدكم إلى جميع الحق، لأنه ليس ينطق من عنده، بل يتكلم بما يسمع، ويخبركم بكل ما يأتي، ويعرفكم جميع ما للأب». وهذه البشارة فيها عدة معانٍ يعرفها العاقل اللبيب، منها:

أن المسيح - عليه السلام - اعترف بأن هذا «الفارقليط» الآتي أفضل منه إذ قال: «إن الخيرة لهم في انطلاقه ومجيء الفارقليط»، ومنها قوله: «فإذا انطلقت أرسلته»، وهذا صحيح المعنى من حيث إن مجيء المصطفى- ﷺ - موقوف على ذهاب المسيح، ومنها: أنه أخبر أن هذا الآتي هو الذي يوبخ العالم على الخطيئة»، وقد فعل ذلك رسول الله ﷺ، ولم يوجد أحد وبخ العالم على الخطيئة إلا محمدًا ﷺ، فإنه أنذر جميع العالمين من أصناف الناس ووبخهم على الخطيئة من الكفر والفسوق والعصيان، ووبخ جميع المشركين من العرب والهند والترك وغيرهم ووبخ المجوس، وكانت مملكتهم أعظم الممالك،

ووبخ أهل الكتابين اليهود والنصارى، وقال في الحديث الصحيح عنه: «إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب»(٧)، ولم يقتصر على مجرد الأمر والنهي، بل وبخهم وقرعهم وتهددهم، ومنها: أن المسيح أخبر أن الفارقليط الآخر الآتي (وهو الذي يخبرنا بكل ما يأتي، ويعرفنا كل شيء للأب)، وهذا هو محمد ﷺ، الذي أرشد الناس إلى جميع الحق، حتى أكمل الله له الدين، وأتم به النعمة، وقد أخبر بكل ما يأتي من أشراط الساعة والقيامة والحساب والصراط ووزن الأعمال، والجنة وأنواع نعيمها، والنار وأنواع عذابها، وذكر أمورًا كثيرة، لا توجد لا في التوراة ولا في الإنجيل، وذلك تصديق قول المسيح: إنه يخبر بكل ما يأتي، وقد أخبر ﷺ بأمور كثيرة تأتي في المستقبل بما لم يخبر به نبي من الأنبياء، ولم لا؟ وقد بعثه الله بين يدي الساعة، كما أخبر هو- ﷺ - في حديثه، كما أفادت البشارة السابقة أن كل ما يتكلم به النبي ﷺ فهو وحي من عند الله يسمعه ولم يتعلمه من الناس، أو استنبطه بعقله وفهمه، وقد أيده ربه تأييدًا لم يؤيده لأحد غيره، وعصمه من الناس كما قال الله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، ولهذا أرشد الناس إلى جميع الحق، وألقى إليهم ما لم يمكن لأحد إلقاؤه(٨)، وقد أمره ربه بإقامة الحجة على الكافرين بطريق الجدال، وشرع ذلك في السور المكية والمدنية، كما قال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، وأمره بعد إقامة الحجة على النصارى بالمجادلة أن يدعوهم إلى الملاعنة والمباهلة فقال تعالى: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١].

وللحديث صلة- إن شاء الله-.

---

(١) ما يُفرك: بضم الياء وكسر الفاء، أي: ما يحملك على الفرار، وكثير من المحدثين يقولونه بفتح الياء وضم الفاء، والصحيح الأول. انظر لسان العرب (ج٥/٦٠).

(٢) الحديث أخرجه الترمذي في سننه بسند صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي (ج١٩/٢)، كما أخرجه أحمد في مسنده والحاكم في مستدركه، وشاهد قول النبي ﷺ إن اليهود مغضوب عليهم وإن النصارى ضلال من القرآن الكريم، قول الله تعالى في اليهود: ﴿فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ﴾، وفي النصارى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾.

(٣) انظر مثلاً سيرة ابن هشام (ج٢١٤/١).

(٤) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (جـ٧٠٩/٢، ٧١٠).

(٥) إنجيل يوحنا (١٦/٧- ١٦).

(٦) «فارقليط» معربة من كلمة (بيركليتوس) اليونانية التي تعني اسم «أحمد»، وهو من أسماء النبي ﷺ كما هو معلوم.

(٧) الحديث أخرجه مسلم في ص٩حيحه كتاب الجنة باب (١٦ج٢١٩٧/٤)، وأحمد في مسنده (ج١٦٢/٤).

(٨) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (ج١٢/٤، ١٣).

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

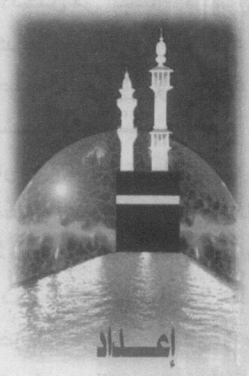

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي جعل الإسلام دينًا للعالمين، والصلاة والسلام عل
أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:
فأواصل الحديث - بفضل الله تعالى - مع النصارى في إثبا
نبوة النبي ﷺ، من خلال ما سطروه هم في كتبهم، فأقول وبالل
التوفيق:

جاء في إنجيل يوحنا: «إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي، وأنا أطل
من الأب فيعطيكم «فارقليط» آخر ليمكث معكم إلى الأبد، روح الحق الذي ل
يطق العالم أن يقبلوه لأنهم لم يعرفوه، ولست أدعكم أيتامًا لأني ساتيكم ع
قريب»[1].

وهذه بشارة واضحة وصريحة بالنبي ﷺ؛ لأن قوله: «فارقليط آخر» يدا
على أنه ثان لأول يكون قبله، ولم يكن معهم في حياة المسيح إلا هو، فعلم أ
الذي يأتي بعده نظير له، ليس أمرًا معتادًا يأتي الناس، وأيضًا فإنه قال
«يمكث معكم إلى الأبد»، وهذا إنما يكون لمن يدوم ويبقى معهم إلى آخ
الدهر، وهذا يبين أن الثاني صاحب شرع لا ينسخ بخلاف الأول، وهذ
شريعة نبينا ﷺ باقية ظاهرة على أسٍّ قويم ومنهج من الحق مستقيم،
تنقضي بوفاته ولا تنقرض، ولا يتخللها نقص ولا يتريها خلل ولا يعترض
وذلك نظير قول الله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقول رسول الله ﷺ: «كانت بنو إسرائيل
تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي»[2].

فالنصارى في ذلك بين أمرين: إما أن يقولوا: إنه محمد ﷺ، وإما أن
يقولوا: إن المسيح أخلف قوله ولم يفِ بوعده وتركهم أيتامًا بغير نبي يتكفل
بأمورهم ولم يأتهم عن قريب كما وعد، وقوله: «بأنه لم يطق العالم أن يقبلوه
لأنهم لم يعرفوه» يريد أنه يأتي في زمن الغالب على أهله عبادة الأوثان
وتعظيم الصلبان، وكان هذا هو الواقع عند بعثة النبي ﷺ، ولما جاء
بالتوحيد الذي لم يعرفوه تمسكوا بما كان عليه آباؤهم وأجدادهم من عبادة
غير الله تعالى، وقالوا كما حكى القرآن عنهم: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص: ٥]، وقد أطلق عيسى عليه السلام كلمة روح الحق
هنا على النبي ﷺ، ومعناه المبلغ عن الله الحق الذي أنزل عليه، كلما أطلق
الله على جبريل عليه السلام روح القدس في قوله تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾
[النحل: ١٠٢]

ومعناه: الطاهر من كل ما لا يليق[3]، وهذا يفيد أن القرآن ليس مفترى،
وإنما هو من عند الله نزل به الروح الأمين على رسول الله ﷺ، كما قال

تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٩٢) نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢- ١٩٥].

تنبيه: الطبعات الحديثة للأناجيل الموضوعة لا توجد فيها كلمة «فارقليط»، وأبدلت بألفاظ أخرى مثل: «المعزى»، «المحامي»، «المعين»، «المخلص»، وفي النسخة التي عندي كتب فيها «المعزى» بدلاً من «الفارقليط»، علمًا بأن كلمة «الفارقليط» كانت موجودة في الترجمة العربية المطبوعة في لندن سنة ١٨٢١، ١٨٣١، وقد ذكر الدكتور محمود قدح في تعليقه على كتاب أبي البقاء القاضي أنه وقف على مخطوطة لترجمة التوراة والزبور والإنجيل في اسطنبول بمكتبة عاطف أفندي تحت رقم (٧)، وفيها ذكرت كلمة «الفارقليط»[٤].

ومن المعلوم لدينا أن اليهود والنصارى يسعون بشدة إلى إخفاء البشارات بالنبي ﷺ مع أنهم يعرفون صحة نبوته وصدقه وصدق ما جاء به، قال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٤٦]، كما وبخهم رب العالمين على تحريفهم وكتمانهم للحق المنزل من عنده سبحانه، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]، قال القاسمي - رحمه الله - في تفسيره للآية: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أي: تسترون الحق المنزل بتمويهاتكم الباطلة، «وتكتمون الحق» أي: الذي لا يقبل تمويهًا، ولا تحريفًا، «وأنتم تعلمون»، أي: عالمين بما تكتمونه من حقيته، وقد كانوا يعلمون ما في التوراة والإنجيل من البشارة برسول الله ﷺ ونبوته، ويلبسون على الناس في ذاك، كدأبهم في غيره، وفي الآية دلالة على قبح كتمان الحق، فيدخل في ذلك أصول الدين وفروعه والفتيا والشهادة، وعلى قبح التلبيس، فيجب حل الشبهة وإبطالها»[٥].

وقد توعد الله هؤلاء بالنار وبئس القرار على هذا الكتمان فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ وَلاَ يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١٧٤]، وكتمان أهل الكتاب للحق الذي جاء من عند الله سجية لهم معروفة لا تنكر، وقد دفع ذلك بعض الكافرين إلى إنكار أن يكون الله قد أنزل على بشر شيئًا، فكذبوا وأنكروا برسالات جميع الأنبياء والمرسلين كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾ [الأنعام: ٩١].

قال ابن كثير - رحمه الله -: يقول تعالى: «وما عظموه حق تعظيمه، إذ

عُلِمَ من الإنجيل أن عيسى ﷺ بشّر بالنبي محمد ﷺ وأنه نظير له يمكث مع قومه إلى الأبد، لأنها الشريعة الخاتمة

كذبوا رسله إليهم، قال ابن عباس ومجاهد وعبد الله بن كثير: نزلت في قريش. واختاره ابن جرير، وقيل: نزلت في طائفة من اليهود»(٦).

ولَيُّ اللسان بالكتاب لنحسبه من الكتاب عادة مرذولة عند هؤلاء، وقد وصف القرآن الكريم بها هؤلاء المشركين فقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧٨]، وفي قول المسيح في البشارة السابقة: «ولست أدعكم أيتامًا لأني سآتيكم عن قريب»، ما يفيد أن عيسى - عليه السلام - سيرجع في نهاية الزمان، وهذا يطابق تمامًا ما أخبر به الصادق المصدوق ﷺ في الحديث الذي رواه أبو هريرة - رضي الله عنه-: «والذي نفسي بيده ليوشكن أن ينزل فيكم ابن مريم حكمًا عدلاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويفيض المال حتى لا يقبله أحد، حتى تكون السجدة الواحدة خيرًا من الدنيا وما فيها». ثم يقول أبو هريرة رضي الله عنه: اقرأوا إن شئتم: ﴿وَإِنْ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ إِلاَّ لَيُؤْمِنَنَّ بِهِ قَبْلَ مَوْتِهِ﴾(٧).

قال العلماء: الحكمة في نزول عيسى دون غيره من الأنبياء الرد على اليهود في زعمهم أنهم قتلوه، فبين الله كذبهم وأنه الذي يقتلهم، أو نزوله لدنو أجله ليدفن في الأرض، إذ ليس لمخلوق من التراب أن يموت في غيرها، وقيل: إنه دعا الله تعالى لما رأى صفة محمد ﷺ وأمته أن يجعله منهم فاستجاب الله دعاءه وأبقاه حتى ينزل في آخر الزمان مجددًا لأمر الإسلام، فيوافق خروج الدجال فيقتله، قال ابن حجر بعد ذكره لهذه الأقوال: «والأول أوجه»(٨).

وأمة النبي ﷺ تؤمن بذلك وتصدق به وتعلم أن عيسى ابن مريم عليه السلام رسول من عند رب العالمين، ومن أولي العزم من الرسل، وأنه لم يقتل ولم يصلب كما زعم اليهود والنصارى، وأنه سينزل من السماء في آخر الزمان ويتابع النبي محمدًا - عليه الصلاة والسلام-، وهذا يوجب على أمته أن تسلك سبيله إن كانوا مؤمنين به ويدخلوا في دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده، ويشهدوا لله بالوحدانية ولنبيه ﷺ بالرسالة، ولا شك أن النصارى لو كانوا متبعين لعيسى عليه السلام لاتبعوا محمدًا ﷺ.

والله الهادي إلى سواء السبيل. وللحديث صلة إن شاء الله.

---

(١) إنجيل يوحنا (١٤/١٥، ١٦).
(٢) أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب (٥٠ جـ٦/٤٩٥)، ومسلم في كتاب الإمارة باب (١٠ جـ٣/١٤٧١).
(٣) انظر جامع البيان في تفسير القرآن للطبري جـ١٤/١٨٨، وأضواء البيان للشنقيطي (جـ٣/٣٦٩).
(٤) انظر تعليقه على كتاب تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (جـ٢/٧٠٣).
(٥) محاسن التأويل لجمال الدين القاسمي (جـ٤/٨٦٥).
(٦) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (جـ٢/٢٩٣).
(٧) أخرجه البخاري في كتاب المظالم باب (٣١جـ٥/١٢١)، وكتاب أحاديث الأنبياء باب (٤٩ جـ٦/٤٩١)، ومسلم في كتاب الإيمان باب (٧١جـ١/١٣٥).
(٨) فتح الباري شرح صحيح البخاري (جـ٦/٤٩٣).

ذكر القرآن والسنة
عودة المسيح في آخر
الزمان، وقال المسيح
كما في الإنجيل
لقومه: ولست أدعكم
أيتامًا لأني سآتيكم من
قريب فهل يؤمن
النصارى؟

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

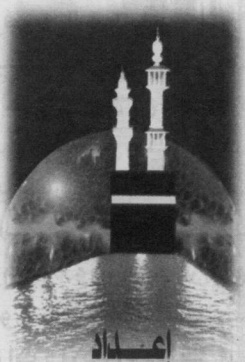

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي خلق الخلق ليعبدوه، وأرسل إليهم رسله ليعرفوه، ويوحدوه، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، المبعوث بالهدى إلى كافة الورى، وبعد:

فلقد ذكرت في الحلقة الماضية شيئًا مما جاء في إنجيل النصارى مما يتعلق بالنبي الخاتم- ﷺ - وناقشتهم فيه، وأواصل الكلام حول هذا البيان فأقول:

جاء في إنجيل يوحنا أن المسيح - عليه السلام - قال: «إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء»[1]، وقد حُرِّفت هذه البشارة وبُدِّلت في النسخ الحديثة للأناجيل كعادة هؤلاء في تحريف الكتاب، وقد جاءت في طبعاتهم الحديثة هكذا: «لا أتكلم أيضًا معكم لأن رئيس العالم يأتي وليس له فيَّ شيء»[2]، وهذا التبديل والتحريف لا يتعارض مع ما سبق ذكره مما هو منقول في الكتب عن الإنجيل لأن معنى «أركون العالم» عظيم القدر وسيد العالم وكبير العالم، وكلها بمعنى «رئيس العالم» الواردة في الطبعة الحديثة، وإذا آمنوا بما بين أيديهم وصدقوا به فنقول لهم: هل أتى بعد عيسى ابن مريم عليه السلام من ساد العالم وأطاعه أمة عظيمة من البشر غير محمد - عليه الصلاة والسلام- ولهذا عددناها من البشارات العظيمة للنبي - عليه الصلاة والسلام - وفي قول عيسى: «سيأتي وليس لي شيء» شاهد على نبوته ونبوة محمد ﷺ معًا، وقد سُئل - عليه الصلاة والسلام-: ما كان أول أمرك ؟ فقال: «دعوة أبي إبراهيم، وبشرى عيسى، ورأت أمي أنه يخرج منها نور أضاءت منه قصور الشام»[3]، وقد علمنا وعلمتم أنه لم يأت بعد المسيح - عليه السلام - من ساد العالم باطنًا وظاهرًا وأطيع في السر والعلانية في محياه وبعد مماته في جميع الأعصار وأفضل الأقاليم شرقًا وغربًا سوى رسول الله محمد ﷺ، وقد أظهر توحيد الرسل قبله وصدقهم ونوَّه بذكرهم وتعظيمهم، وقد صَدَّق المسيح في إخباره بأنه أركون العالم، فقال كما في حديث أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه-: «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر، وبيدي لواء الحمد ولا فخر، وما من نبي يومئذ آدم فمن سواه إلا تحت لوائي، وأنا أول من تنشق عنه الأرض ولا فخر»[4].

كما أن قول المسيح: «إن أركون العالم سيأتي وليس لي شيء» يتضمن إثبات الرسول محمد ﷺ وإثبات التوحيد وأن الأمر كله لله، وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، وهذا يعني تنزيه عيسى مما نسب إليه من الربوبية أو الألوهية، وهذا يشترك فيه جميع الخلق، قال تعالى لمحمد ﷺ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقال تعالى: ﴿قُلْ لاَ أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلاَ أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلاَ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلاَ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأنعام: ٥٠]، وكل هذا يدل على أن رسالات جميع الأنبياء واحدة في أصل الدين وأساسه، وهو أن لا يعبد إلا الله، ولا يعبد إلا بما شرع، لا يعبد بالأهواء الباطلة، ولا بمخالفة الحق الذي جاء من

عنده، ثم ليعلم الجميع أنه لو لم يظهر محمد بن عبد الله ﷺ لبطلت نبوة سائر الأنبياء، فظهور نبوته تصديق لنبواتهم وشهادة لها بالصدق، فإرساله من آيات الأنبياء قبله، وقد أشار سبحانه إلى هذا المعنى بعينه في قوله: ﴿بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَّقَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ٣٧]، فإن المرسلين بشروا به وأخبروا بمجيئه، فمجيئه هو نفس صدق خبرهم، وقد ذكر ابن جرير عن قتادة أنه قال في تفسير الآية: «بل جاء بالحق» بالقرآن، «وصدق المرسلين» أي صدَّق من كان قبله من المرسلين[٥]، ولهذا أحسن الإمام ابن القيم[٦] حين ذكر أنه يستحيل الإيمان بنبي من الأنبياء مع جحد نبوة محمد بن عبد الله ﷺ، وأن من جحد نبوته فهو لنبوة غيره من الأنبياء أشد جحدًا، وهذا يتبين بوجوه:

أحدها: أن الأنبياء المتقدمين بشروا بنبوته وأمروا أممهم بالإيمان به، فمن جحد نبوته فقد كذب الأنبياء قبله فيما أخبروا به وخالفهم فيما أمروا وأوصوا به من الإيمان به، والتصديق به لازم من لوازم التصديق بهم، وإذا انتفى اللازم انتفى ملزومه قطعًا.

الثاني: أن دعوة محمد بن عبد الله ﷺ هي دعوة جميع المرسلين قبله من أولهم إلى آخرهم، فالمكذب بدعوته مكذب بدعوة إخوانه كلهم، فإن جميع الرسل جاؤوا بما جاء به.

الثالث: أن الآيات والبراهين التي دلت على صحة نبوته وصدقه أضعاف أضعاف آيات من قبله من الرسل، فليس لنبي من الأنبياء آية توجب الإيمان به إلا ولمحمد ﷺ مثلها، أو ما هو في الدلالة مثلها وإن لم تكن من جنسها، فآيات نبوته أعظم وأكبر وأبهر وأدل، والعلم بنقلها قطعي لقرب العهد وكثرة النقلة، واختلاف أمصارهم وأعصارهم، واستحالة تواطئهم على الكذب، فالعلم بآيات نبوته كالعلم بنفس وجوده وظهوره وبلده، بحيث لا تمكن المكابرة في ذلك، والمكابر فيه في غاية الوقاحة والبهت والضلال، ولذلك أقول للنصارى: إن خيرًا لكم أن تسلموا وتؤمنوا بمحمد ﷺ وتحققوا لأنفسكم المقاصد العظيمة التي كانت وراء تبشير عيسى عليه السلام وإخوانه من المرسلين برسول الله ﷺ، وقد حصر الإمام أبو البقاء صالح بن الحسن الهاشمي(٧) المناقب الجليلة التي يفوز بها من دخل في دين النبي محمد ﷺ في ثلاثة أمور: أحدها: القيام بما وجب لله تعالى من حقه في تعظيم من عظَّم من أهل صفوته، فقد قال الله تعالى في التوراة لإبراهيم: «إنني سأعظمه جدًا جدًا»[٨]، وقال سبحانه: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران: ٨١].

والثاني: أن يحصلوا لأممهم أجرين: أجر الإيمان بنبي حاضر ونبي كريم مرتقب، ودليله قوله ﷺ: «ثلاثة لهم أجران: رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بمحمد ﷺ، والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، ورجل كانت عنده أمة فأدبها فأحسن تأديبها، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها فله أجران»[٩].

قال ابن حجر: «لفظ الكتاب عام، ومعناه خاص، أي المنزل من عند الله، والمراد به التوراة والإنجيل كما تظاهرت به نصوص الكتاب والسنة حيث يطلق أهل الكتاب، وقد ثبت أن الآية الموافقة لهذا الحديث وهي قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ﴾ نزلت في طائفة منهم كعبد الله بن سلام وغيره»[١٠].

والثالث: دفع الشكوك عن ضعفاء أتباع هذا النبي فإنه إذا اتصل بهم أن الأنبياء من المتقدمين قد تنبؤا عليه وذكروه باسمه ووصفوا بلده وأرضه وقومه وميزاته زالت عنهم عوارض الشكوك، قال الله تعالى في محكم كتابه: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ [الأعراف:١٥٧]، وقال سبحانه: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦]

والحمد لله رب العالمين.

---

(١) انظر هذه البشارة في تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/٧١٤)، والجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح (٤/١٧).

(٢) إنجيل يوحنا (١٤/٣٠). (٣) مسند أحمد (٥/٢٦٢).

(٤) حديث صحيح أخرجه الترمذي في سننه كتاب المناقب باب ٣، وأحمد في مسنده (١/٢٨١، ٢٩٥)، وابن ماجه في سننه وبعضه عند مسلم.

(٦) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى (ص١٨٤). (٧) تخجيل من حرف التوراة والإنجيل (٢/٧٠٧). (٨) سفر التكوين (١٧/١٧).

(٩) الحديث أخرجه البخاري في كتاب العلم باب ٣١ (١/١٩٠)، ومسلم كتاب الإيمان باب (٧٠) (١/١٣٤، ١٣٥) وغيرهما.

(١٠) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١/١٩٠، ١٩١).

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

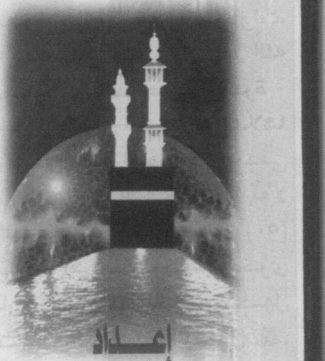

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله ذي الجلال والإكرام، والصلاة والسلام على خير الأنام، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

فقد بدأت هذه السلسلة المباركة بالحديث عن وجوب نصرة النبي ﷺ، وتعظيمه وتوقيره، وذكرت شيئًا من خلاله الجميلة وآدابه العالية الرفيعة، ثم تعرضت لتكريم الله له بأخذ العهد والميثاق على جميع الأنبياء والمرسلين بالدخول في دينه ومتابعته إذا بعث وأحدهم موجود، كما أشرت إلى بعض البشارات الناطقة بنبوته من كتب اليهود والنصارى، وبعض من آمن من هؤلاء بنبوته ورسالته، وأنتقل الآن لأذكر آيات أخرى عظيمة تدل على صدق نبوته وعظمة رسالته ﷺ، وهي آيات كثيرة ومتنوعة، وقد أوتي منها أكثر وأعظم من آيات غيره من الأنبياء، ولقد سمى الله تبارك وتعالى في كتابه ما يجريه على يد أنبيائه ورسله بالآيات كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَسْئَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا﴾ [الإسراء: ١٠١]، وقال سبحانه في حق النبي ﷺ: ﴿وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلاَّ كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [الأنعام: ٤، ٥]، وقد اصطلح العلماء على تسمية الآيات التي يجريها الله على يد أنبيائه بالمعجزات؛ لأن لفظ المعجز يدل على أنه أعجز غيره[١]، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الأَرْضِ وَلاَ فِي السَّمَاءِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾ [العنكبوت: ٢٢]، والمعجزة في اللغة اسم فاعل من الإعجاز، والإعجاز مصدر للفعل «أعجز» يقال: عجز فلان عن الأمر وأعجزه الأمر إذا حاوله فلم يستطعه ولم تتسع له مقدرته وجهده[٢]، والمعجزة في الشرع: «أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي سالم عن المعارضة»[٣]، فالمعجزة إذًا أفعال يعجز البشر بأنفسهم عن مثلها، ومن هنا سميت معجزة، - هي - إما أن تكون حسية تجابه الحواس، وأغلب المعجزات التي وقعت للأنبياء السابقين كانت من هذا النوع، وإما أن تكون المعجزة عقلية، تواجه العقل وتخاطب ما فيه من إدراك واستبصار، وكانت أعظم معجزات النبي ﷺ من هذا النوع. يقول السيوطي - رحمه الله -: «وأكثر معجزات بني إسرائيل كانت حسية لبلادتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية لفرط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ليراها ذوو البصائر»[٤].

تأييد الله لرسله بالآيات

ومن المعروف في تاريخ الأديان أن الله تعالى كان يؤيد كل رسول أرسله بآيات عظيمة باهرة تدل على صدقه، وتدفع إلى قبول قوله، ويتحدى بها قومه بصورة لم يسبقه أحد إليها، ولم ينكشف للناس شيء من وجهها قبل أن تطلع عليهم، بل إن بعض الأنبياء كان يحمل إلى قومه أكثر من معجزة، فموسى عليه السلام - أيده الله بكثير من المعجزات أشار القرآن إليها في قوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُجْرِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٣٣]، وفوق هذه المعجزات معجزة العصا التي كان يلقيها من يده فتنقلب حية تسعى، ويضرب بها البحر فينفلق، ويضرب بها الحجر فينفجر منه الماء، وعيسى -

عليه السلام - كان يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله، كما كان يبريء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى بإذن الله، وقد ذكر الله ذلك في قوله: ﴿وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٩].

اختلاف المعجزات في أجيال الناس

واختلاف المعجزات في أجيال الناس مما اقتضته دواعي الحكمة التي جاءت المعجزة من أجلها، ذلك أن الناس يختلفون باختلاف أزمنتهم وأمكنتهم، وإذا كانت غاية المعجزة أن يُرى فيها صدق الرسول وقيام الدليل على صحة دعواه، فكان لابد أن تكون هذه المعجزة جارية مع تفكير من تلقاهم وتتحداهم، ولهذا كانت المعجزة لازمة للرسول المرسَل من قبل الله، لأنه يحمل رسالة فريدة من الله إلى الناس، يدعوهم فيها إلى أمور تتغير بها معالم حياتهم الروحية والعقلية، بل والمادية، فهو يدعوهم إلى عبادة الله وحده وإخلاص الدين له، وترك جميع المعبودات الباطلة التي لا تملك لنفسها شيئًا دونه، فكيف تملك لغيرها، كما يدعوهم إلى الالتزام بشريعة ربانية بها تستقيم حياتهم ويسعد عيشهم، ومع أن معجزات الأنبياء كانت قاهرة باهرة إلا أن كثيرًا من الناس قابلوها بالتكذيب والارتياب والعناد، فاليهود كذبوا بمعجزات موسى مع كثرتها، وقالوا لنبيهم كما ذكر القرآن عنهم: ﴿لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً﴾ [البقرة: ٥٥]، كما لم يقتنعوا بمعجزات عيسى التي أحيت الأموات. ومشركو العرب لم يسلموا للقرآن مع أنه أخذ بمجامع قلوبهم واستولى على عقولهم وطلبوا غيره من المعجزات كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنْبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠]، وقد قابل هؤلاء المكذبين فريقٌ اطمأنت قلوبهم وانشرحت صدورهم لآيات الأنبياء، فسلموا بها وخضعوا لرب الأرض والسماوات، وكانت المعجزة الكبرى التي أيدَ الله بها نبيه ومصطفاه محمد بن عبد الله ﷺ «القرآن الكريم»، وهو وإن أجرى الله على يديه معجزات حسية كثيرة - سيأتي الإشارة إلى بعضها - إن شاء الله - إلا أن القرآن الكريم هو أعلاها وأشرفها، فهو المعجزة الباقية الخالدة، وكفى به من معجزة، وما كان ينبغي للكافرين أن يبحثوا عن معجزة أخرى معه، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥١)﴾ [العنكبوت: ٥٠، ٥١]، فهاتان الآيتان بينتا كثرة جهل المشركين وسخافة عقولهم، حيث طلبوا آيات تدل على صدق الرسول ﷺ، وقد جاءهم بالقرآن الذي هو أعظم من كل معجزة، وهو وحده آية وعلامة من أعلام نبوته ﷺ، ويغني عن معجزات غيره وآيات سواه من الأنبياء - صلوات الله عليهم - قال ابن كثير - رحمه الله - في تفسيره للآية: «أي: أولم يكفهم آية أنا أنزلنا عليك هذا الكتاب العظيم الذي فيه خبر ما قبلهم، ونبأ ما بعدهم، وحكم ما بينهم، وأنت رجل أمي لا تقرأ ولا تكتب، ولم تخالط أحدًا من أهل الكتاب، وجئتهم بأخبار ما في الصحف الأولى، وبيان الصواب مما اختلفوا فيه وبالحق الواضح البين الجلي كما قال تعالى:

إن الخوارق في العادة تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ﷺ ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو نفسه الوحي المدّعي، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي

﴿أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ١٩٧] وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوَلَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [طه: ١٣٣](٥)؟

دلالة القرآن دلالة عامة عمت الثقلين

ويقول القاضي محمد بن الطيب الباقلاني - رحمه الله-: «الذي يوجب الاهتمام التام بمعرفة إعجاز القرآن أن نبوة نبينا محمد ﷺ بُنيت على هذه المعجزة «القرآن الكريم»، وإن كان قد أُيِّد بعد ذلك بمعجزات كثيرة إلا أن تلك المعجزات قامت في أوقات خاصة، وأحوال خاصة، وعلى أشخاص خاصة، فأما دلالة القرآن فهي معجزة عامة عمت الثقلين، وبقيت بقاء العصرين ولزوم الحجة بها من أول وقت ورودها إلى يوم القيامة على حد سواء» (٦)، وكلام الباقلاني - رحمه الله - دقيق وجميل، وفيه إشارة لطيفة إلى أن القرآن متجدد على الدوام يخاطب جميع العقول في كل العصور، ويقيم الحجة على العباد بما اشتمل عليه من آيات. ويقول ابن خلدون: «اعلم أن أعظم المعجزات وأشرفها وأوضحها دلالةً «القرآن الكريم» المنزل على نبينا محمد ﷺ، فإن الخوارق في الغالب تقع مغايرة للوحي الذي يتلقاه النبي ﷺ، ويأتي بالمعجزة شاهدة بصدقه، والقرآن هو نفسه الوحي المدَّعي، وهو الخارق المعجز، فشاهده في عينه، ولا يفتقر إلى دليل مغاير له كسائر المعجزات مع الوحي، فهو واضح الدلالة لاتحاد الدليل والمدلول فيه، وهذا معنى قوله ﷺ: «ما من نبي من الأنبياء إلا أُوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحي إليَّ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(٧)، وهو يشير إلى أن المعجزة متى كانت بهذه المثابة في الوضوح وقوة الدلالة، وهو كونها نَفْسَ الوحي كان الصدق لها أكثر لوضوحها، فكثر المصدق المؤمن وهو التابع والأمة»(٨)، والرسول ﷺ في حديثه السابق يبين عظمة المعجزة القرآنية التي هي وحي يوحى، أي شيء يدرك بعين البصيرة، فيهتدي إليه العقل ويصلح به القلب، وتستقيم به الدنيا والدين.

إنه لا توجد آية في كتاب الله إلا وفيها دلالة واضحة على أن القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه، ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة، إذ هي رسالة كل إنسان، ووحي إلى كل عقل، لا يحصرها زمان ولا يحدها مكان، ونحن نسمع ونشاهد بين الحين والآخر أفرادًا وجماعات يدخلون في دين الإسلام بسبب نور هذا القرآن، وسأتناول في اللقاء القادم - إن شاء الله - بعض أوجه الإعجاز في كتاب الله.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

لا توجد آية في كتاب الله إلا وفيها دلالة واضحة على أن القرآن الكريم هو كتاب الله وكلامه، ومن هنا يكثر أتباع هذه الرسالة، إذ هي رسالة كل إنسان ووحي إلى كل عقل لا يحصرها زمان ولا يحدها مكان

---

(١) انظر الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية ج٤/٦٩ .

(٢) إعجاز القرآن لعبد الكريم الخطيب ص٧١ .

(٣) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢/١٤٨ .

(٤) المرجع السابق ج٢/١٤٨، ١٤٩ .

(٥) تفسير ابن كثير ج٤/٢٩٧ .

(٦) إعجاز القرآن على هامش الإتقان ج١/١١، ١٢ .

(٧) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب فضائل القرآن ج٩/٣، ومسلم في كتاب الإيمان وغيرها.

(٨) مقدمة ابن خلدون ص٩٥ .

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

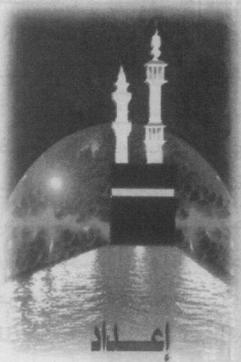

إعداد
د. عبد الله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على من أنزل عليه القرآن هدًى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وعلى آله وأصحابه البررة الأخيار، وبعد:

فإن القرآن الكريم هو أعظم معجزة للنبي الأمين ﷺ، ومعجزته في كلماته التي نزل بها، وقد جاءت في زمانها ومكانها، ونزلت في أهلها الذين بلغوا قمة الفصاحة والبيان، وهو كلمات وألفاظ من جنس ما يدور على ألسنة العرب من خطب وحكم وقصيد، قال تعالى: ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ [يوسف: ٢]، وقال سبحانه: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣- ٢٩٥].

تحدي القرآن للعرب

ومن هنا قام التحدي بالقرآن للعرب، لأنه من جنس حديثهم الذي به يتحدثون وكلامهم الذي ينطقون، وقد وقع التحدي بالقرآن على وجوه متعددة: أحدها: الإتيان بمثله، يعني بالقرآن كله كما جاء في قوله تعالى: ﴿ قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالجَنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء: ٨٨] وهذا يدل على شرف القرآن العظيم، لأن الله أخبر أن الإنس والجن كلهم لو اجتمعوا واتفقوا على أن يأتوا بمثل ما أنزل الله على الرسول ﷺ، لما أطاقوا ذلك ولما استطاعوه، ولو تعاونوا وتساعدوا، لأنه لا نظير له، ولا مثال له، ولا عديل له، ولمَّا عجزوا تحداهم أن يأتوا بعشر سور منه كما في قوله تعالى: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [هود: ١٣]، كما تحداهم بالسورة الواحدة منه فقال: ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس: ٣٨]، ويلاحظ أنه فتح لهم المجال ليستعينوا بمن شاءوا فظهر ضعفهم وعجزهم جميعًا عن معارضته، أو الإتيان بمثله.

الاتفاق والالتئام بين الآيات

ويذهب بعض الباحثين[1] إلى أن الله تحداهم مرة أخرى أن يأتوا بشيء يشبه القرآن أو يقاربه فما استطاعوا أيضًا، ويدل على ذلك ما جاء في قول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [البقرة: ٢٣]، فالآية هنا طلبت منهم أن يأتوا بسورة من مثله بخلاف الآية السابقة التي طلبت منهم أن يأتوا بسورة مثله، وهذا معنى وجيه كما ترى، وقد قصرت قوى الدنيا كلها أن تأتي بشيء من مثل القرآن، وهذا يدل على أنه لا يمكن أن يصدر من بشر، بل هو كلام خالق البشر، عالم الغيب والشهادة: ﴿ أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا ﴾ [النساء: ٨٢]، أي لو كان من عند محمد بن عبد الله ﷺ لا من عند الله الذي أرسله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، لعدم استطاعته واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في بيان الحق والباطل والحلال والحرام وسائر

الأحكام بنظام لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منه، ولا في حكايته عن الماضي الذي لم يشاهده النبي ﷺ ولم يقف على تاريخه، ولا في إخباره عن الآتي في مسائل كثيرة وقعت كما أنبأ بها، ولا في بيانه لخفايا الحاضر، حتى حديث الأنفس ومخبآت القلوب، ولعدم استطاعته واستطاعة غيره أن يأتي بمثل ما جاء به من فنون القول وألوان العبر في أنواع المخلوقات، في الأرض والسماوات، وفوق ذلك كله ما فيه من العلم الإلهي والخبر عن عالم الغيب والدار الآخرة وما فيها من الحساب على الأعمال، والجزاء الوفاق، وكون ذلك موافقًا لفطرة الإنسان، فالاتفاق والالتئام بين الآيات الكثيرة في هذا الباب هو غاية الغايات عند من أوتي الحكمة وفصل الخطاب، وإذا عجز العرب عن الإتيان بمثل هذا القرآن فغيرهم أعجز، ذلك أن العرب الذين أنزل فيهم القرآن هم ملوك الفصاحة والبيان، وقد أذعنوا للقرآن وأقروا بإعجازه، وشهدوا على أنفسهم بالعجز عن مطاولته في أقصر سورة من سوره، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدَّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه، بل عدلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا سحر، وتارة قالوا شعر، وتارة قالوا أساطير الأولين[2]، وقد أخرج الحاكم في مستدركه عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الوليد بن المغيرة جاء إلى الرسول ﷺ فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عم إن قومك يرون أن يجمعوا لك مالاً، قال: لم ؟ قال: ليعطوكه. قال: قد علمت قريش أني أكثرها مالاً، قال: فقل فيه قولاً يبلغ قومك أنك منكر له، قال: وماذا أقول ؟ فوالله ما منكم رجل أعرف بالأشعار مني ولا أعلم برجزه ولا بقصيده مني، والله ما يشبه الذي يقول شيئًا من هذا، ووالله إن لقوله الذي يقوله حلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله، وإنه ليعلو ولا يعلى، وإنه ليحطم ما تحته، قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه: قال: قف مني حتى أفكر فيه، فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر، فنزلت: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا﴾[3].

إن العرب الذين أنزل فيهم القرآن هم ملوك الفصاحة أنفسهم بالعجز عن مطاولته في أقصر سورة من سوره، ولم إن القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته، وقد ثبت التاريخ كله، وقد تعهد ربنا بحفظه فقال: ﴿ إنَّا

جهل المشركين وسفاهة قولهم

قلت: قد أخبر الله في القرآن الكريم عن جهل المشركين وقلة عقولهم وسفاهة قولهم، فقال: ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾ [الانبياء: ٥]، فحاروا ماذا يقولون فيه، وكل ما قالوه فيه فهو باطل، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٩]، وقد فرض القرآن الكريم إعجازه على كل من سمعه مع تفاوت مراتبهم في البلاغة، وقد تحير المشركون - كما أشرت - في وصفه بعد أن عجزوا عن معارضته، يقول الباقلاني[4] - رحمه الله-: «الذي يدل على أنهم كانوا عاجزين عن الإتيان بمثل القرآن أنه تحداهم حتى طال التحدي وجعله دلالة على صدقه وثبوته، وتضمن أحكامه استباحة دمائهم وأموالهم وسبي ذريتهم، فلو كانوا يقدرون على تكذيبه لفعلوا، وتوصلوا إلى تخليص أنفسهم وأهليهم وأموالهم من حكمه بأمر قريب هو عادتهم في لسانهم، ومألوف من خطابهم، وكان ذلك يغنيهم عن تكلف القتال، وإكثار المراء والجدال، وعن الجلاء عن الأوطان، وعن تسليم الأهل والذرية للسبي، فلما لم يحصل هناك معارضة منهم عُلم أنهم عاجزون عنها، وقد بذلوا له السيف، وخاطروا بنفوسهم وأموالهم، فكيف يجوز أن لا يتوصلوا إلى الرد عليه وإلى تكذيبه بأهون سعيهم ومألوف أمرهم، وما يمكن تناوله من غير أن يعرق فيه جبين أو يشتغل به خاطر، وهو لسانهم الذي يتخاطبون به، مع بلوغهم في الفصاحة النهاية التي ليس وراءها مطلع، والرتبة التي ليس وراءها منزع، ومعلوم أنهم لو عارضوه بما تحداهم إليه لكان فيه توهين أمره، وتكذيب قوله، وتفريق جمعه، وتشتيت أسبابه، وكان من صدق به يرجع على أعقابه، فلما لم يفعلوا شيئًا من ذلك مع طول المدة ووقع الفسحة، وكان أمره يتزايد حالاً فحالاً، ويعلو شيئًا فشيئًا، وهم على العجز عن القدح في آيته والطعن في دلالته، عُلِم مما بينا أنهم كانوا لا يقدرون على معارضته، ولا على توهين حجته، وقد أخبر الله تعالى عنهم أنهم قوم خصمون، فقال: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَاهُ بِلِسَانِكَ لِتُبَشِّرَ بِهِ الْمُتَّقِينَ وَتُنْذِرَ بِهِ قَوْمًا لُدًّا﴾ [مريم: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٤]، وعُلم أيضًا أن ما

والبيان، وقد أذعنوا للقرآن وأقروا بإعجازه، وشهدوا على ينقل عن أحد منهم أنه حدَّث نفسه بشيء من ذلك ولا رامه تاريخيًا أنه أصدق وأدق كتاب حفظ على مدى ﴿نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

كانوا يقولونه من وجوه اعتراضهم على القرآن مما ذكره الله عنهم من قوله: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَذَا إِنْ هَذَا إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣١]، وكقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ فَقَدْ جَاءُوا ظُلْمًا وَزُورًا (٤) وَقَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ اكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفرقان: ٤، ٥] إلخ الآيات وهي كثيرة في نحو هذا تدل على أنهم كانوا متحيرين في أمرهم متعجبين لعجزهم.

التحدي بالقرآن باقٍ إلى يوم القيامة

ولكن من المستطيع ومن الذي يقدر على المواجهة ؟ إن القرآن الكريم كتاب أحكمت آياته، وقد ثبت تاريخيًا أنه أصدق وأدق كتاب حفظ على وجه التاريخ كله، وقد تعهد ربنا بحفظه فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، وقد تضافرت جميع صور الحفظ له من كتابة في المصحف، وحفظ في الصدور، وتلاوة آياته ليلاً ونهارًا في الصلاة والتعبد به، ومراجعة لآياته في معرفة أحكام الشريعة، إن القرآن الكريم قد عجز الإنس والجن أن يأتوا بمثله، هذه حقيقة لا يجادل فيها أحد، ولا ينكرها أحد من خصوم الإسلام، بل وأشدهم عداوة له؛ إذ كانت أكبر من أن تنكر، وقد حاول الكفار على مدار التاريخ أن يقعوا فيه على سقطة، أو يعثروا على عثرة، فلم يجدوا - وحاشاه - وباؤوا بعد ذلك بالنكال والخسران. وبعد أن بينت عجز العرب وغيرهم عن معارضة القرآن أود أن أشير إلى شيء من وجه الإعجاز فيه، فمن ذلك أنه تضمن الإخبار عن الغيوب، وعلم الغيب لله وحده: ﴿قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]، فلا سبيل لأحد من الخلق إلى معرفة ما استأثر الله بعلمه، وقد ظهر صدق ما أخبر به في حينه، ومن ذلك ما وعد الله به نبيه ﷺ من إظهار دينه على الأديان، وقد تم ذلك بحمد الله، وكان أبو بكر - رضي الله عنه - يُعَرِّفُ جيوشَهُ التي يرسلها ما وعد الله به من إظهار دينه وعلو كلمته حتى يثقوا بالنصر الموعود، وكان عمر - رضي الله عنه - يفعل ذلك في أيامه، وقال الله عز وجل في أهل بدر: ﴿وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ﴾ [الأنفال: ٧]، وقد وفى سبحانه لهم بما وعد.

من أوجه الإعجاز نزول القرآن على النبي الأمي

ومن أوجه إعجاز القرآن الكريم أيضًا أن الله أنزله على النبي الأمي ﷺ ومعلوم حاله ﷺ أنه كان أميًا لا يكتب، وكذلك كان معروفًا في حاله أنه لم يكن يعرف شيئًا من كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم، ثم أتى بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الأمور ومهمات السير من حين خلق الله آدم - عليه السلام - إلى حين مبعثه، وإذا كان معروفًا أنه لم يكن ملابسًا لأهل الآثار وحملة الأخبار، ولا مترددًا إليهم ليتعلم منهم، ولا كان ممن يقرأ فيجوز أن يقع إليه كتاب فيأخذ منه، علم أنه لا يصل إلى علم ذلك إلا بتأييد من جهة الوحي، ولذلك قال عز وجل: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لاَرْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨]، وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلِيَقُولُوا دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٠٥]، ولا شك أن من كان يختلف إلى تعلم علم ويشتغل بملابسة أهل صنعة لم يخف على الناس أمره، ولم يختلف عندهم مذهبه، ومن أوجه الإعجاز أيضًا ما اشتمل عليه من بديع النظم وعجيب التأليف ومنتهى البلاغة، وهذا الوجه يحتاج إلى شيء من التفصيل والبيان، أوضحه- إن شاء الله - في اللقاء القادم.

---

(١) هو الدكتور عبد الله دراز - رحمه الله - في كتابه القيم «النبأ العظيم».

(٢) انظر الإتقان في علوم القرآن للسيوطي ج٢/١٤٩.

(٣) أخرجه الحاكم في المستدرك ٥٠٦/٢، وقال: صحيح على شرط البخاري ولم يخرجاه، وأقره الذهبي، ورواه البيهقي في دلائل النبوة ١٩٨/٢، وقد ذكر القاسمي أن المفسرين اتفقوا على أن هذه الآية نزلت في الوليد بن المغيرة، انظر تفسيره ٥٩٧٧/١٦، وقد ذكر الشيخ مقبل بن هادي الوداعي - رحمه الله - أن الظاهر عنده أنه مرسل، والله أعلم.

(٤) إعجاز القرآن للباقلاني على هامش الإتقان للسيوطي ٣٢/١

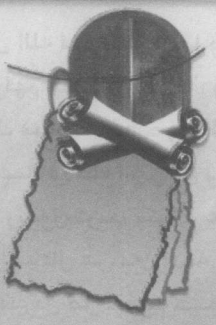

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

إعداد

د. عبدالله شاكر

نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد أشرت في اللقاء السابق إلى أن نظم القرآن معجز بديع، ووعدت أن أذكر بعض الوجوه التي توضح ذلك(١).

من إعجاز القرآن الكريم تميز كلامه عن سائر الكلام بإطلاق وذلك ثابت من وجوه كثيرة:

فمنها: ما يرجع إلى جملة القرآن، وذلك أن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلامهم، ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم، وله أسلوب يختص به ويتميز في تصرفه عن أساليب الكلام المعتاد.

ومنها: أنه ليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع، والمعاني اللطيفة، والفوائد الغزيرة، والحكم الكثيرة، والتناسب في البلاغة، والتشابه في البراعة، والقرآن مع كثرته وطوله متناسب في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به في قوله: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [الزمر: ٢٣]، وهذا مدح من الله لكتابه ولما اشتمل عليه من أحسن الحديث في لفظه ومعناه، فهو ليس من جنس الشعر، ولا من جنس الخطب، ولا من جنس الرسائل، بل هو نوع يخالف الكل، مع أن كل ذي طبع سليم يستطيبه ويستلذه. قال القاسمي - رحمه الله - في تفسيره للآية: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ أي: يشبه بعضه بعضًا في الصحة والإحكام والبناء على الحق والصدق ومنفعة الخلق، ووجوه الإعجاز، «مثاني» جمع «مُثْنًى» بمعنى مردَّد ومكرر، لما ثنى من قصصه وأنبائه وأحكامه وأوامره، ونواهيه، ووعده ووعيده ومواعظه»(٢).

التناسب في الفصاحة على طول القرآن من إعجازه:

ومن الوجوه التي يتبين بها بديع نظم القرآن وإعجازه: التشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة وألفاظ قليلة، وإلى شاعرهم قصائد محصورة، والقرآن على كثرته وطوله متناسبٌ في الفصاحة، ليس فيه تفاوت أو اختلاف كما قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢]، أي: لو كان من عند النبي ﷺ أو غيره لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا، لعدم استطاعته واستطاعة أي مخلوق أن يأتي بمثل هذا القرآن في تبيين الحق بصورته كما هي لا يختلف ولا يتفاوت في شيء منها، بخلاف كلام البشر فإنه إن امتد وقع فيه التفاوت وظهر عليه الاختلال. قال ابن كثير في الآية: يقول تعالى آمرًا عباده بتدبر القرآن وناهيًا لهم عن الإعراض عنه، وعن تفهم معانيه

المحكمة، وألفاظه البليغة، ومخبرًا لهم أنه لا اختلاف فيه ولا اضطراب، ولا تضاد ولا تعارض، لأنه تنزيل من حكيم حميد، فهو حق، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَلاَ يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾، ثم قال: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ﴾ أي: لو كان مفتعلاً مختلقًا، كما يقوله من يقوله من جهلة المشركين والمنافقين في بواطنهم ﴿لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلاَفًا كَثِيرًا﴾، وهذا سالم من الاختلاف فهو من عند الله(٣)، وقد شهد له رسول الله ﷺ بذلك، وغضب عندما وقع جدال بين بعض الصحابة في بعض آياته، كما في حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: خرج رسول الله ﷺ - ذات يوم والناس يتكلمون في القدر قال: فكأنما تفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، قال: فقال لهم: «ما لكم تضربون كتاب الله بعضه ببعض؟ بهذا هلك من كان قبلكم»، وفي رواية لابن ماجه: قال عبد الله بن عمرو عقب هذا الحديث: «ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله ﷺ ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه»(٤)، والناظر في كتاب الله الكريم يرى وجوهًا كثيرة من وجوه الإعجاز، وقد ذكر القاضي عياض إعجاز القرآن في أربعة أوجه(٥):

حسن التأليف:

الوجه الأول: حسن تأليفه والتئام كلمه وفصاحته، ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب، وذلك أنهم كانوا أرباب هذا الشأن وفرسان هذا الكلام، قد خُصُّوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم، وأوتوا من ذرابة اللسان(٦) ما لم يؤت إنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، جعل الله لهم ذلك طبعًا وخلقة، وفيهم غريزة وقوة، ولهم الحجة البالغة، والقوة الدامغة، والبلاغة ملك قيادهم، قد حووا فنونها واستنبطوا عيونها، ودخلوا من كل باب من أبوابها، فما راعهم إلا رسول كريم، بكتاب عزيز، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، أحكمت آياته، وفصلت كلماته، وبهرت بلاغته العقول، وظهرت فصاحته على كل مقول، وحوت كل البيان جوامعه وبدائعه، واعتدل على إيجازه حسن نظمه، وانطبق على كثرة فوائده مختار لفظه، وهم - أي العرب - أفصح ما كانوا في هذا الباب مجالاً، وأشهر في الخطابة حالاً، وأكثر في السجع والشعر ارتجالاً، وأوسع في الغريب واللغة مقالاً، ولم يزل يقرعهم ﷺ أشد التقريع، ويوبخهم غاية التوبيخ، ويسفه أحلامهم، ويحط أعلامهم، ويشتت نظامهم، ويذم آلهتهم، ويستبيح أرضهم وديارهم وأموالهم، وهم في كل هذا ناكصون عن معارضته، يخادعون أنفسهم بالتشغيب والتكذيب والإغراء والافتراء، ولهذا وجدناهم مرة يقولون: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [المدثر: ٢٤]، ومرة: ﴿إِنْ هَذَا إِلاَّ إِفْكٌ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ﴾ [الفرقان: ٤]، ومرة ينهون الناس عن الاستماع إليه: ﴿لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٣٦]، وهذه حيلة العاجز عن المواجهة، القاصر عن المنازلة، وهذا هو فعل الكافرين والمشركين اليوم، الذين يحاولون صرف الناس عن القرآن وإشغالهم باللهو الباطل، والغناء الماجن، وهم يعلمون - كأسلافهم في الماضي - أنه لا حيلة لهم أمام إعجاز القرآن

كان العرب أصحاب بلاغة وأرباب فصاحة، جعل الله لهم ذلك طبعًا، فما راعهم إلا رسول كريم ﷺ فصاحة بكتاب عزيز لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد

وبلاغته إلا بالافتراء عليه ومحاولة صرف الناس عنه.

والوجه الثاني من وجوه إعجاز القرآن: صورة نظمه العجيب، والأسلوب القريب المخالف لأساليب العرب، ومناهج نظمها ونثرها الذي جاء عليه، ووقفت مقاطع آيه وانتهت فواصل كلماته إليه، ولم يوجد قبله نظير له، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه، بل حارت فيه عقولهم، ولم يهتدوا إلى مثله في جنس كلامهم من نثر أو نظم، أو سجع، أو رجز، أو شعر.

الإخبار بالمغيبات من وجوه إعجاز القرآن الكريم:

وهذا أسلوب انفرد به القرآن، وجاء فيه على صورة من النظم لم تقع للعرب.

والوجه الثالث من وجوه الإعجاز: هو ما انطوى عليه القرآن من الإخبار بالمغيبات، وما لم يكن، وما لم يقع، فوُجد كما ورد على الوجه الذي أخبر، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ [الفتح: ٢٧]، وكقوله تعالى: ﴿غُلِبَتِ الرُّومُ (٢) فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ (٣) فِي بِضْعِ سِنِينَ﴾ [الروم: ٢-٤]، وكقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النور: ٥٥]، وكقوله: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾، فكان جميع هذا كما قال، فغلبت الروم فارس في بضع سنين، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، فما مات النبي ﷺ وفي جزيرة العرب كلها موضع لم يدخله الإسلام، واستخلف الله المؤمنين في الأرض، ومكّن لهم فيها دينهم، وملكهم إياها من أقصى المشارق إلى أقصى المغارب، وصدق الله وعده بإظهار دين نبيه ﷺ، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٩].

من الوجوه التي يتبين بها نظم القرآن وإعجازه التشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر، والقرآن على القدر وطوله متناسب في الفصاحة، ليس فيه تفاوت أو اختلاف؛ أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا.

والوجه الرابع: ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة، والأمم البائدة، والشرائع الدائرة، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أهل الكتاب، فيورده النبي ﷺ على وجهه، ويأتي به على نصه، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولا اشتغل بمجالسة أو مدارسه، وهذه الوجوه كلها تبرز أن القرآن آية فريدة بين آيات الرسل أُيِّدَ بها سيِّد البشر ﷺ.

ونواصل الحديث في اللقاء القادم - إن شاء الله-.

الهوامش:

١- يراجع في هذا إعجاز القرآن للباقلاني ج١/٦٣

٢- انظر تفسيره محاسن التاويل ج٤/٥١٣٦

٣- تفسير ابن كثير ج٢/٣٢٠

٤- الحديث أخرجه أحمد في مسنده ج٢/١٧٨، وابن ماجه في مقدمة سننه ج١/٣٣، وقال الألباني: حسن صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجه ج١/٢١

٥- باختصار وتصرف من كتاب الشفا في التعريف بحقوق المصطفى ﷺ ج١/٢١٧ - ٢٢٠

٦- يعني حدة اللسان. لسان العرب ج١/٣٨٥

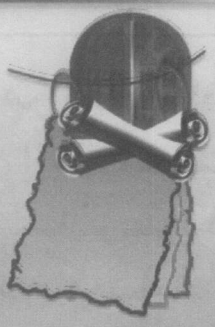

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

إعداد
د. عبدالله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه أجمعين ومن اتبعه إلى يوم الدين... وبعد

فقد تحدثت في بعض اللقاءات السابقة عن جوانب من أوجه الإعجاز في القرآن الكريم، وأود في هذا اللقاء أن أشير إلى أوجه أخرى من إعجازه فأقول وبالله التوفيق:

إن الهيبة العظيمة التي تأخذ قارئ القرآن وسامعه - وذلك لقوة حاله وعلو قدره - من الأدلة التي يثبت بها إعجازه وأنه كلام رب العالمين، وقد ذكر البخاري في الصحيح حديث جبير بن مطعم - رضي الله عنه - وفيه يقول: «سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بَلْ لاَ يُوقِنُونَ﴾ كاد قلبي أن يطير» (١).

قال الخطابي - رحمه الله-: «كأنه انزعج عند سماع هذه الآية لفهمه معناها، ومعرفته بما تضمنته، ففهم الحجة فاستدركها بلطيف طبعه»(٢)، وفي صحيح مسلم في فضائل أبي ذر - رضي الله عنه - أن أخاه أنيسًا لما ذهب إلى مكة سمع القرآن، فسأله أبو ذر بعد عودته إليه، ماذا يقول الناس ؟ قال: يقولون: شاعر، كاهن، ساحر، وكان أنيس أحد الشعراء، ثم قال أنيس: «لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، ولقد وضعت كلامه على أقراء الشعر(٣)، فلما يلتئم على لسان أحدٍ بعدي أنه شعر، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون»(٤)، فالروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعه، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته هي من مناط إعجازه، وصدق الله إذ يقول: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وهذه الروعة والهيبة قائمة باقية لدى كل سامع وقارئ مستجيب لربه، منشرح بالإيمان قلبه إلى يوم الدين، ولقد سمى الله الوحي الذي أنزله على نبيه ﷺ روحًا فقال: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، وما سماه الله روحًا إلا لتأثيره العظيم في القلوب والأرواح، ولأن به حياتهما، كما أن الغذاء به حياة الأجسام، فالوحي هو الروح الحقيقي الذي ينجو به العبد من الجهل والغفلة، ويشرق به العقل، وتسمو به النفس، ويزيد به الإيمان، ألا ترى كيف حوّل الوحي الرباني أولئك العرب الذين لبثوا ألوفًا من السنين على الشرك والضلالة، وألوان كثيرة من الجهل والخرافة إلى رجال صادقين، أوفياء صالحين، حملوا دين رب العالمين، وجاهدوا في سبيله حتى أتاهم اليقين، واستحقوا بذلك الثناء الكبير من الرب الكريم.

إن القرآن الكريم هو كتاب البيان والهداية الذي يملك القلوب والأسماع، كما يستولي على العقول والأرواح، ولم

يقف إعجازه عند هذا الحد البياني والروحي، بل تجاوزه ليكون معجزة على مر العصور والأزمان من خلال إعجازه العلمي المتجدد على الدوام، لأن القرآن رسالة مفتوحة إلى الأمم كلها فناسب أن تكون معجزته لكل أمة ولكل جيل، فالإعجاز البياني في القرآن الكريم كفى لأن يكون حجة داحضة ودليلاً رائعًا على أرباب الفصاحة والبيان، وبقي وجه الإعجاز العلمي مخبوءًا فيه إلى أن ظهرت الاكتشافات العلمية، والعلوم التجريبية، فظهر في الأفق للعالمين ما اشتمل عليه القرآن الكريم من إعجاز علمي سبق كل الاكتشافات، وظهر أنه حقًا كتاب رب العالمين، كما أدرك ذلك السابقون، وما ذاك إلا لأن حقائقه العلمية ثابتة مستقرة، لم يعتورها زيف أو تغيير، وأنا أود بحديثي عن الإعجاز العلمي في القرآن الكريم أن ألفت نظر المكذبين في العصر الحاضر إلى أن ما وصلوا إليه من علوم ومخترعات كونية وعلمية صحيحة أشار إلى بعضها القرآن قبل أكثر من أربعة عشر قرنًا من الزمان، وهذا بلا شك يدفع دفعًا إلى الإيمان والدخول في الإسلام، ومتابعة النبي - عليه الصلاة والسلام - والنفوس الإنسانية يجب عليها أن تخضع خضوعًا عظيمًا عندما تعلم أسرارًا مذهلة لم يكن للبشر سابق علم بها، خاصة إذا جاءت عن نبي أمي لا صلة له بهذه العلوم، ولم يتعلم على يد معلم من بني آدم؛ تحدث عن تلك الحقائق أو أشار إلى شيء من هذه العلوم، فلو لم يكن هذا القرآن وحيًا من رب العالمين، لما استطاع النبي ﷺ أن يقرر هذه الحقائق المجهولة، والأسرار الخفية التي لم يعرفها أحد من البشر قبل هذا العصر.

يقول الدكتور الأشقر: «العجيب في أمر هذا القرآن أن إعجازه متجدد على مر الزمان، فكل قوم يصل إليهم هذا القرآن وينظرون فيه نظر معتبر متبصر، فإنهم يجدون فيه من الآيات والدلائل ما يؤكد لهم أنه من عند الله، ونحن اليوم في هذا العصر نبغنا في العلوم التي كشفت عن شيء من أسرار الكون، فتطلعنا نبحث في مواقع النجوم

إن كثيراً من الحقائق التي توصل إليها العلماء بعد دراسات طويلة وجهود مضنية قد تحدث عنها هذا القرآن العظيم أو أشار إليها إشارات واضحة.

ومساراتها وأحجامها، وأجوائها، كما بحث العلماء في تكوين الخلية وأسرار المخلوقات، فبحثوا في الذرة والخلية، وغاصوا في أعماق الأرض وقيعان البحار، وإذا بنا نفاجأ بأن كثيرًا من الحقائق التي توصل إليها العلماء بعد دراسات طويلة وجهود مضنية قد تحدث عنها هذا القرآن العظيم، أو أشار إليها إشارات واضحة، وكل هذا مما يزيد في الإيمان ويعمقه، ويدل على أن هذا القرآن العظيم منزل من عند الله العليم الحكيم الخبير، فهذا القرآن قول الله وأمره، والخلق صنعه وخلقه، فإذا تحدث الخالق عن الخلق، وذكر شيئًا من حقائق الخلق فلا بد أن يتطابق الخبر القولي مع الخلق الكوني، فالقول قوله، والخلق خلقه: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾(٥).

إن القرآن الكريم قد تحدث عن الآيات الكونية التي بثها الله في الآفاق هنا وهناك، وهي تشير إلى وجوده ووحدانيته، وتقيم أدلة ملموسة وبراهين محسوسة على وجوب إفراد الله بالعبادة، كما أنها تحرك الأذهان إلى تلمس المزيد والبحث والتنقيب في أسرار هذا الكون، حتى يرى المكذبون الجاحدون بعض وجوه الإعجاز فيه، ويوقنوا أن ما جاء به النبي ﷺ هو الحق، وصدق الله إذ يقول: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ [فصلت: ٥٣]، والآفاق جمع أفق، وهو الناحية، والمعنى: سنريهم دلالات

صدق القرآن وعلامات كونه من عند الله في الآفاق وفي أنفسهم، قال عطاء: «في الآفاق: يعني أقطار السماوات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار، والرياح والأمطار، والرعد والبرق، والصواعق والنبات، والأشجار والجبال والبحار، وغير ذلك، وفي أنفسهم من لطيف الصنعة، وبديع الحكمة، كما في قوله: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ﴾(٦).

وقد بين الله في كتابه كثيرًا من غرائب صنعه وعجائبه في نواحي سماواته وأرضه ما يتبين به لكل عاقل أن الله هو الرب المعبود وحده، وقد جاء الحث في القرآن الكريم على النظر في هذه الآيات الكونية للاستفادة منها، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾(٧)، ونحن بهذا أيضًا نرد على العلمانيين الملحدين الذين يزعمون أن القرآن حجر عثرة في سبيل العلم والتقنية الحديثة المعاصرة، وهم بهذا مفترون على الله وكتابه ورسوله ﷺ؛ لأن الإسلام يدعو إلى العلم النافع المفيد، ويتبنى العلم منهجًا لمعرفة الله سبحانه ومعرفة رسوله ﷺ وآياته تدل على ذلك بجلاء ووضوح، غير أني أحذر من التعسف في فهم الآيات، وبترها عن سياقها لتخدم معاني بعيدة عن أغراضها، أو تأويلها تأويلاً يتناسب مع شيء من النظريات، ويخالف ما جاء عن الرسول ﷺ وأئمة التفسير في فهم الآيات وشرحها، وهذا في الحقيقة عدوان على القرآن، وقول على الله بغير علم ولا برهان، وسأضرب مثالاً يكشف عن بعض أوجه الإعجاز العلمي في كتاب الله، قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ (٣) بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ [القيامة: ٣، ٤]، ففي هذه الآية الأخيرة صورة من صور الإعجاز العلمي في القرآن الكريم، ذلك أنه قد أضحى من المسلمات القطعية: أن بصمات أصابع أي إنسان لا تتشابه مع بصمات أي إنسان آخر من هذه «الملايين»

نحن نرد على العلمانيين الملحدين الذين يزعمون أن القرآن حجر عثرة في سبيل العلم والتقنية الحديثة المعاصرة وهم بهذا مفترون على الله وكتابه ورسوله.

التي عاشت أو تعيش، أو ستحيا على هذه الأرض، حتى أصبحت هذه البصمات دليلاً لا يرقى إليه الشك في كثير من المعاملات الرسمية، فتوقيع إنسان ما على صك مالي أو وثيقة بيع قد يداخله التزييف والتزوير بخلاف البصمة، ولهذه الأسرار في البصمة الإنسانية جاء قوله تعالى: ﴿بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾(٨)، ولهذا فإننا في حاجة دائمة لأن نردد قول الله تعالى: ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾، والحمد لله رب العالمين.

الهوامش:

١- البخاري مع الفتح جـ٨/ ٦٠٣.

٢- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

٣- يعني طرقه وأنواعه.

٤- صحيح مسلم كتاب الفضائل باب ٢٨ جـ٤/ ١٩٢٠.

٥- نحو ثقافة إسلامية أصيلة ص ١٢٥

٦- فتح القدير للشوكاني جـ٤/ ٥٢٣.

٧- انظر النص القرآني بين التفسير والتأويل د/ عبد الفتاح سلامة جـ٢/ ٥٩٧.

٨- المرجع السابق جـ٢/ ٥٩٣.

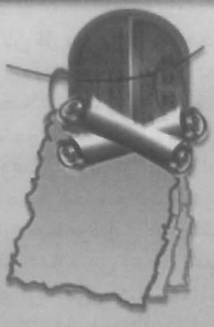

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

إعداد
د. عبدالله شاكر

الحمد لله الذي أيد نبيه ﷺ بالآيات الباهرات، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعباد، وعلى آله وصحبه وسلم، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاءات السابقة عن إثبات نبوة نبينا محمد ﷺ من وجوه كثيرة، وناقشت المكذبين برسالته، داعيًا إياهم إلى الدخول في دينه واتباع رسالته، وقد ذكرت - فيما مضى - معجزته الكبرى الباقية إلى يوم الدين، ألا وهي القرآن الكريم، وتتمة للكلام حول هذا الموضوع أذكر هنا بعض معجزاته الحسية التي أيده ربه بها فأقول وبالله التوفيق:

إن الله أكرم نبيه وحبيبه ومصطفاه بألوان متعددة من المعجزات الحسية التي أجراها الله على يديه تأييدًا لرسالته، ودفعًا لمن شاهدها إلى التصديق بنبوته، وهي من الآيات الباهرة والدلالات الواضحة - على صدقه ﷺ لأن الله لا يؤيد الكاذبين، قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ «الحاقة: ٤٤- ٤٧». ولذا باء بالخزي والخسران وافتضح أمره من ادعى النبوة وهو كاذب كمسيلمة الكذاب، والأسود العنسي، والمختار بن أبي عبيد الثقفي، وميراز غلام أحمد القادياني وغيرهم، ومن أعظم الافتئات على الله دعوى النبوة والرسالة كذبًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ «الأنعام: ٩٣».

وهذا القول من رب العالمين يشمل جميع أصناف الذين يعارضون رسله الصادقين.

والمعجزة في اللغة: اسم فاعل من العجز الذي هو زوال القدرة عن الإتيان بالشيء من عمل أو رأي أو تدبر(١)، وعرفها ابن حمدان في الاصطلاح بأنها جهة التحدي ابتداء بحيث لا يقدر أحد عليها، ولا على مثلها، ولا على ما يقاربها»(٢).

وهذا حق، فآيات الأنبياء لا يمكن لأحد أن يعارضها، أو يأتي بمثلها، ولهذا لما طلب فرعون من سحرته أن يعارضوا ما جاء به موسى عليه السلام ظنًا منه أنه من باب السحر، وجمع السحرة لذلك، وكانوا سحرة مهرة، ولما حضروا طلب منهم موسى عليه السلام أن يأتوا بخوارقهم، فلما أتوا بها ابتلعتها العصا التي صارت حية، عندئذ أدرك السحرة أن هذا ليس من جنس مقدورهم، فآمنوا إيمانًا جازمًا، ودل ما وقع على صدق دعوى موسى - عليه السلام-، والناظر في الآيات المبصرات لنبينا عليه الصلاة والسلام تدله على أنها شهادة صادقة من الله لرسوله ﷺ، وقد عدها بعض العلماء فنافت على ألف معجزة.

قال البيهقي - رحمه الله: «ودلائل النبوة كثيرة، والأخبار بظهور المعجزات ناطقة، وهي وإن كانت في آحاد أعيانها غير متواترة، ففي جنسها متواترة متظاهرة من طريق المعنى، لأن كل شيء منها مُشَاكِل لصاحبه في أنه أمر معجز للخواطر ناقض للعادات»(٣).

وآياته ﷺ قد استوعبت جميع أنواع الآيات الفعلية والخبرية، فإخباره عن الغيب الماضي والحاضر والمستقبل بأمور باهرة، لا يوجد مثلها لأحد من النبيين قبله، فضلاً عن غير النبيين، ففي القرآن من إخباره عن الغيوب الشيء الكثير، وكذلك في الأحاديث الصحيحة مما أخبر بوقوعه، فكان كما أخبر(٤).

ففي البخاري وغيره عن حذيفة رضي الله عنه قال: «لقد خطبنا رسول الله ﷺ خطبة ما ترك فيها شيئًا إلى قيام الساعة إلا ذكره، علمه من علمه، وجهله من جهله، إن كنت لأرى الشيء قد نسيته، فأعرفه كما يعرف الرجلُ الرجلَ إذا غاب عنه فرآه فعرفه»(٥).

وهذه المعجزات تزيد المؤمن إيمانًا، والمكذب بها يزداد حيرة وضلالاً، كما قال تعالى في المكذبين: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ «الحجر: ١٤، ١٥»، وعموم المؤمنين يصدقون بآيات الأنبياء والمرسلين، غير أن قومًا لعبت بهم الأهواء، فقدموا

عقولهم وآراءهم على الثابت في الكتاب، وفي سنة خير العباد ﷺ، وزعموا أنه لا توجد معجزات حسية ثابتة للنبي ﷺ، وفي هذا يقول أحدهم: «المعجزات السابقة كانت مناسبة لظروف النبي وقومه، أي كانت حسية محلية تنتهي بنهاية القوم الذين يطلبونها من الرسول ثم يصاحبها إهلاك القوم ومجيء رسول آخر تتجدد معه نفس القصة إلى أن ختمت النبوة بالرسول الخاتم عليه الصلاة والسلام، ولأن الرسول بشر كجميع البشر محكوم عليه بالموت، ولأن رسالته يجب أن تبقى فلابد أن تكون معجزته على نفس المستوى، أي معجزة عقلية عالمية مستمرة إلى قيام الساعة، وهكذا فعالم الخوارق والمعجزات الحسية قد انتهى بإنزال القرآن كمعجزة عقلية يتحدى بها الله تعالى كل عصر بخصائصه، تحدى به العرب بالفصاحة، ويتحدى به القرن العشرين بعلمه ومكتشفاته، وفي النهاية فإن المعجزات قد انتهى عصرها بالنبي الخاتم حيث دخلت البشرية في عهد جديد ارتقى فيه العقل البشري».

وقد استدل هؤلاء بقول الله تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ (الإسراء: ٥٩)، وليس في الآية حجة على نفي المعجزات الحسية، ولم يقل بذلك أحد من أهل العلم أصلاً، والناظر في كتب التفسير يعرف ذلك.

يقول ابن جرير - رحمه الله - في تفسيرها: «يقول تعالى ذكره: وما منعنا يا محمد أن نرسل بالآيات التي سألها قومك إلا أن من كان قبلهم من الأمم المكذبة سألوا ذلك مثل سؤالهم، فلما أتاهم ما سألوا عنه كذبوا رسلهم، فلم يصدقوا مع مجيء الآيات، فعوجلوا، فلم نرسل إلى قومك بالآيات، لأنا لو أرسلنا بها إليهم فكذبوا بها سلكنا في تعجيل العذاب لهم مسلك الأمم قبلهم»(٦). ثم ساق بسنده إلى ابن عباس وغيره ما يؤيد ذلك.

وقال الشوكاني في تفسيرها: «والمعنى: وما منعنا من إرسال الآيات التي سألوها إلا تكذيب الأولين، فإن أرسلناها وكذب بها هؤلاء عوجلوا ولم يمهلوا كما هو سنة الله سبحانه في عباده، والحاصل أن المانع من إرسال الآيات التي اقترحوها هو أن الاقتراح مع التكذيب موجب للهلاك الكلي وهو الاستئصال، وقد عزمنا على أن نؤخر أمر من بعث إليهم محمد ﷺ إلى يوم القيامة»(٧).

كما استدلوا بحديث الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»(٨).

ومعنى قول النبي ﷺ: «وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ» أي: أن معجزتي التي تحديت بها الوحي الذي أنزل عليَّ وهو القرآن الكريم لما اشتمل عليه من الإعجاز، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره، لأن كل نبي أعطى معجزة خاصة وإنما هو كلام معجز لا يقدر أحد أن يأتي بما يتخيل منه التشبيه به، بخلاف غيره، فإنه قد يقع في معجزاتهم ما يقدر الساحر أن يخيل شبهه فيحتاج من يميز بينهما إلى نظر، وقيل: المراد أن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدوها إلا من حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة(٩).

وفي الحديث علم من أعلام النبوة، وذلك في قوله ﷺ: «فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة»؛ لأن النبي ﷺ أخبر بهذا في زمن قلة المسلمين، ثم منَّ الله تعالى وفتح على المسلمين البلاد وبارك فيهم، حتى انتهى الأمر واتسع الإسلام في المسلمين إلى هذه الغاية المعروفة(١٠).

والحمد لله فقد عم الإسلام أرجاء المعمورة، ولله مزيد الحمد والفضل، ولم يبق قطر في العالم إلا ودخله الإسلام، وأود أن أنبه هنا إلى أن ما كان عليه ﷺ من الأخلاق الكريمة، والصفات النبيلة من الشواهد على صدقه، وقد عدها بعض أهل العلم من أعظم معجزاته ﷺ.

فهو لم يسمع منه كذب قط، لا في أمور الدين، ولا في أمور الدنيا، وما فعل قبيحًا منفرًا لا قبل النبوة ولا بعدها، ولم يفر أمام أحد من أعدائه وإن عظم الخوف واشتد الأمر مثل يوم أُحد والأحزاب، وكان عظيم الشفقة والرحمة على أمته، وكان في أعظم الدرجات في الكرم والسخاء، حتى أن الله تعالى علمه التوسط في ذلك حيث قال له: ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا﴾ (الإسراء: ٢٩)، وكان على طريقة مرضية من أول عمره إلى آخره، والمخادع لا يمكنه ذلك، وما كان للدنيا في قلبه وقع، ولذلك كان مع أهل الغنى والثروة في غاية البعد عن المطامع والترفع عنها، ومع الفقراء والمساكين في غاية القرب منهم والتواضع لهم واللطف بهم، ولا تتفق هذه الخلال الطيبة الجميلة لأحد من الخلق غير أهل العصمة من الله تعالى.

وفي اللقاء القادم - بإذن الله - أذكر بعضًا من معجزاته الحسية ﷺ.

الهوامش

١- بصائر ذوي التمييز للفيروزآبادي (١/٦٥).
٢- لوامع الأنوار البهية للسفاريني (٢/٢٩٠).
٣- الاعتقاد للبيهقي (ص١٢٧).
٤- الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح لابن تيمية (٤/١٣٣).
٥- متفق عليه، واللفظ للبخاري.
٦- تفسير ابن جرير (١٥/٧٤).
٧- فتح القدير للشوكاني (٣/٢٣٧، ٢٣٨).
٨- متفق عليه.
٩- انظر فتح الباري (٩/٦، ٧).
١٠- شرح النووي على مسلم (٢/١٨٨).

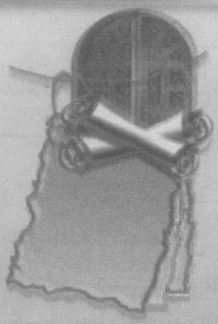

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

إعداد
د. عبد الله شاكر

الحمد لله على عطائه العظيم، والشكر له على آلائه وفضله العميم، والصلاة والسلام على خاتم المرسلين، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن ثبوت المعجزات الحسية لخير البرية ﷺ، ورفعتُ الشبهات التي استدل بها أهل الأهواء على نفي المعجزات، وقد ذكر جمع من العلماء المعجزات الحسية بعد معجزة القرآن الكريم، وذلك لإبراز تكريم الله لنبيه ﷺ، وبينوا أن كثرة هذه المعجزات لإقامة الحجة على العباد.

يقول الإمام البيهقي بعد حديثه عن القرآن الكريم ودلالته على النبوة: «ثم إن لنبينا ﷺ وراء القرآن من الآيات الباهرات والمعجزات ما لا يخفى وأكثر من أن يحصى».

ثم أشار إلى البشارات به ثم الإرهاصات، ثم قال: «ثم إن له وراء هذه الآيات المعجزات: انشقاق القمر، وحنين الجذع، وخروج الماء من بين أصابعه، حتى توضأ منه ناس كثير، وتسبيح الطعام، وإجابة الشجرة إياه حين دعاها، وتكليم الذراع المسمومة إياه، وشهادة الذئب والضب والرضيع والميت له بالرسالة، وازدياد الطعام والماء بدعائه حتى أصاب منه ناس كثير، وما كان من حلبه الشاة التي لم يَدُرْ عليها الفجل، ونزول اللبن منها، وما كان من إخباره عن الكوائن، فوجد تصديقه في زمانه وبعده، وغير ذلك مما قد ذُكر ودون في الكتب، غير أن الله تعالى لما جمع له بين أمرين: أحدهما: بعثه إلى الجن والإنس عامة، والآخر: ختمه النبوة به، ظاهر له من الحجج حتى إن شذَّت واحدة عن فريق بلغتهم أخرى، وإن لم تنجع واحدة نجعت أخرى، وإن درستْ على الأيام واحدة بقيت أخرى، وفيه في كل حال الحجة البالغة، وله الحمد على نظره لخلقه، ورحمته لهم كما يستحقه» (١).

كما أشار الحافظ ابن حجر إلى بعض المعجزات بعد حديثه عن معجزة القرآن الكريم فقال: «وأما ما عدا القرآن من نبع الماء من بين أصابعه، وتكثير الطعام، وانشقاق القمر، ونطق الجماد، فمنه ما وقع التحدي به، ومنه ما وقع دالاً على صدقه من غير سبق تحد، ومجموع ذلك يفيد القطع بأنه ظهر على يده ﷺ من خوارق العادات شيء كثير (٢).

إخبار الذراع المسمومة إياه ﷺ

ولنذكر هنا بعض المعجزات الثابتة بسند صحيح للنبي ﷺ: قال البخاري في صحيحه: باب الشاة التي سُمَّت للنبي ﷺ، رواه عروة عن عائشة عن النبي ﷺ، ثم ساق بسنده حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: «لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله ﷺ شاة فيها سم» (٣).

وفي صحيح مسلم عن أنس رضي الله عنه أن امرأة يهودية أتت رسول الله ﷺ بشاة مسمومة، فأكل منها، فجيء بها إلى رسول الله ﷺ فسألها عن ذلك ؟ فقالت: أردت لأقتلك. قال: «ما كان الله ليسلطك على ذاك». قال: أو قال: «عليّ». قالوا: ألا نقتلها ؟ قال: «لا»، قال: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ» (٤).

وكلمة «لهوات»: العلامة، كأنه بقي للسم علامة أو أثر من سواد أو غيره، قال النووي في شرحه لمسلم: «وقوله ﷺ: «ما

من معجزات النبي ﷺ شهادة الذئب له برسالة، ونبع الماء من أصابعه، والشاة التي سُمَّت للنبي ﷺ.

كان الله ليسلطك على ذاك أو عليَّ»: فيه بيان عصمته ﷺ من الناس كلهم كما قال الله: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، وهي معجزة لرسول الله ﷺ في سلامته من السم المهلك لغيره، وفي إعلام الله تعالى له بأنها مسمومة، وكلام عضو منه، فقد جاء في غير مسلم أنه ﷺ قال: «إن الذراع تخبرني أنها مسمومة»(٥).

قال ابن القيم - رحمه الله-: «وفي هذه الغزاة - يعني غزوة خيبر - سم رسول الله ﷺ أهدت له زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سلام بن مشكم شاة مشوية قد سمتها، وسألت أي اللحم أحب إليه؟ فقالوا: الذراع، فأكثرت من السم في الذراع، فلما انتهش من ذراعها أخبرته الذراع أنها مسمومة، فلفظ «الأكلة». ثم قال: وقد اختلف: هل أكل النبي ﷺ منها أو لم يأكل، وأكثر الروايات أنه أكل منها، وبقي بعد ذلك ثلاث سنين حتى قال في وجعه الذي مات فيه: «مازلت أجد من الأكلة التي أكلت من الشاة يوم خيبر، فهذا أوان انقطاع الأبهر(٦) مني»(٧).

قال الزهري: فتوفي رسول الله ﷺ شهيدًا(٨).

شهادة الذئب برسالته ﷺ

ومن معجزات النبي ﷺ شهادة الذئب له بالرسلة، وذلك فيما رواه أحمد وغيره عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: عدا الذئب على شاة، فأخذها، فطلبه الراعي فانتزعها منه، فأقعى الذئب على ذنبه، قال: ألا تتقي الله تنزع مني رزقًا ساقه الله إليَّ. فقال: يا عجبى، ذئب مقع على ذنبه يكلمني كلام الإنس، فقال الذئب: ألا أخبرك بأعجب من ذلك محمد ﷺ بيثرب يخبر الناس بأنباء ما قد سبق!! قال: فأقبل الراعي يسوق غنمه حتى دخل المدينة فزواها إلى زاوية من زواياها، ثم أتى رسول الله ﷺ فأخبره، فأمر رسول الله ﷺ فنودي الصلاة جامعة، ثم خرج، فقال للراعي: أخبرهم فأخبرهم، فقال رسول الله ﷺ: صدق، والذي نفسي بيده لا تقوم الساعة حتى يكلم السباع الإنس، ويكلم الرجل عذبةُ سوطه وشراك نعله، وتخبره فخذه بما أحدث أهله بعده»(٩).

معنى «عذبة سوطه» يعني: طرفه.

(اللسان ١/٥٨٥).

ومعنى «شراك نعله»: سيور النعل التي تكون على وجهها. (النهاية ٢/٤٦٧، ٤٦٨).

وقد ساق هذه القصة البيهقي في الدلائل وبوب لها بقوله: «باب ما في كلام الذئب وشهادته لنبينا ﷺ بالرسالة وما ظهر في ذلك من دلالات النبوة، ثم ساق حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه وقال عقبه: «وهذا إسناد صحيح وله شاهد من وجه آخر عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه »(١٠).

وقد ساق هذا الحديث الشيخ الألباني في الصحيحة وقال عقبه: «هذا سند صحيح رجاله ثقات رجال مسلم، غير القاسم وهو ثقة اتفاقًا، وأخرج له مسلم في المقدمة، والحديث أخرجه ابن حبان، والحاكم مفرقًا، وقال: «صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي»، وأخرج الترمذي منه قوله: «والذي نفسي بيده...». وقال: حديث حسن، لا نعرفه إلا من حديث القاسم بن الفضل وهو ثقة مأمون»(١١).

نبع الماء من بين أصابعه ﷺ

ومن معجزاته ﷺ نبع الماء من أصابعه ﷺ، ففي البخاري ومسلم وغيرهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «خرج النبي ﷺ في بعض مخارجه ومعه ناس من أصحابه، فانطلقوا يسيرون، فحضرت الصلاة فلم يجدوا ماءً يتوضئون، فانطلق رجل من القوم فجاء بقدح من ماءٍ يسير، فأخذه النبي ﷺ فتوضأ، ثم مدَّ أصابعه الأربع على القدح، ثم قال: قوموا فتوضئوا، فتوضأ القوم حتى بلغوا فيما يريدون من الوضوء، وكانوا سبعين أو نحوه»(١٢).

إن لنبينا ﷺ وراء القرآن من الآيات الباهرات والمعجزات ما لا يخفى وأكثر من أن يحصى.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «عطش الناس يوم الحديبية والنبي ﷺ بين ركوة، فتوضأ فجهش[١٣] الناس نحوه، فقال: ما لكم ؟ قالوا: ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب إلا ما بين يديك، فوضع يده في الرَّكوة[١٤]، فجعل الماء يثور من بين أصابعه كأمثال العيون، فشربنا وتوضأنا. قلت: كم كنتم ؟ قال: لو كنا مائة ألف لكفانا، كنا خمس عشرة مائة»[١٥].

قال القاضي عياض في شأن هذه المعجزة: «هذه القصة رواها الثقات من العدد الكثير عن الجم الغفير عن الكافة متصلة بالصحابة، وكان ذلك في مواطن اجتماع الكثير منهم في المجافل ومجمع العساكر، ولم يرد عن أحد منهم إنكار على راوي ذلك، فهذا النوع ملحق بالقطعي من معجزاته».

وقال القرطبي: «قضية عظيمة، وردت من طرق كثيرة يفيد مجموعها العلم القطعي المستفاد من التواتر المعنوي، ولم يسمع بهذه المعجزة لغير نبينا ﷺ، حيث نبع الماء من بين عظمه وعصبه ولحمه ودمه». وقد نقل ابن عبد البر عن المزني أنه قال: «نبع الماء من بين أصابعه ﷺ أبلغ في المعجزة من نبع الماء من الحجر، حيث ضربه موسى، فتفجرت منه المياه، لأن خروج الماء معهود، بخلاف خروج الماء من بين اللحم والدم».

وظاهر كلامه أن الماء نبع من نفس اللحم الكائن في الأصابع، ويؤيده ما جاء في حديث جابر: «فرأيت الماء يخرج من بين أصابعه»[١٦].

انشقاق القمر فلقتين من معجزاته ﷺ

ومن المعجزات الكبيرة التي أيد الله بها نبيه ﷺ ونطق بها القرآن الكريم معجزة انشقاق القمر إلى نصفين، قال تعالى: ﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ ﴾ (القمر: ١)، وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يريهم آية، فأراهم القمر شقتين حتى رأوا حراء بينهما، وقال شيبان عن قتادة: فأراهم انشقاق القمر مرتين[١٧]، وقد ذكر السعدي - رحمه الله - أن النبي ﷺ أشار إلى القمر، فانشق - بإذن الله تعالى - فلقتين، فلقة على جبل أبي قبيس، وفلقة على جبل قعيقان، والمشركون وغيرهم يشاهدون هذه الآية الكبرى الكائنة وفي العالم العلوي، التي لا يقدر الخلق على التمويه بها والتخييل، فشاهدوا أمرًا ما رأوا مثله، بل لم يسمعوا أنه جرى لأحد من المرسلين قبله نظيره، فانبهروا لذلك[١٨].

وهكذا كانت معجزات نبينا ﷺ آية كبيرة في العظمة والإعجاز ونال من ذلك ما لم ينله غيره ﷺ.

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

الهوامش

١- دلائل النبوة للبيهقي ١٨/١، ١٩ .

٢- فتح الباري ٥٨٢/٦ .

٣- البخاري مع الفتح كتاب المغازي باب ٤١، ٤٩٧/٧ .

٥- شرح النووي على مسلم ١٧٩/١٤ .

٦- قال أهل اللغة: الأبْهر عرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إذا انقطع مات صاحبه، وقال الخطابي: يقال: إن القلب متصل به. فتح الباري ١٣١/٨ .

٧- البخاري كتاب المغازي باب ٨٣، ١٣١/٨ .

٨- زاد المعاد في هدي خير العباد ٣٣٥/٣، ٣٣٦ .

٩- أخرجه أحمد في مسنده ٨٣/٣، ٨٤، كما رواه في مسند أبي هريرة ٣٠٦/٢ .

١٠- دلائل النبوة للبيهقي ٤١/٦، ٤٢ .

١١- السلسلة الصحيحة حديث رقم ١٢٢، ١٩٠/١، ١٩١ .

١٢- أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب ٢٥، ج٥٨١/٦، ومسلم في كتاب الفضائل، باب ٣، ١٧٨٣/٤ .

١٣- الجهش: أن يفزع الإنسان إلى غيره، وهو مع ذلك كأنه يريد البطاء، وهذا يفيد أنهم عطشوا عطشًا شديدًا، ولهذا أسرعوا لأخذ الماء.

١٤- الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء، والجمع ركَوات بالتحريك. لسان العرب ٣٣٣/١٤ .

١٥- أخرجه البخاري في مواطن منها كتاب المناقب ٢٥، ٥٨١/٦ .

١٦- نقل هذه الأقوال ابن حجر في فتح الباري ٥٨٤/٦، ٥٨٥ .

١٧- معالم التنزيل للبغوي، والحديث أخرجه مسلم برقم ٢٨٠٢، وأحمد في مسنده ٢٠٧/٣ وغيرهما.

١٨- تفسير السعدي ص٧٨٨.

خاتم الأنبياء والمرسلين

رحمة من رب العالمين

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على مَن أيده الله بالحق برهانًا وحججًا، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلقد ذكرت- في اللقاء الماضي- طرفًا يسيرًا من معجزاته ﷺ، ووعدت بمواصلة دراسة هذا الموضوع، لأن دراسة دلائل النبوة تزيد المؤمن إيمانًا، وقد تكون سببًا في إسلام من يريد الله به خيرًا، وأما من عاند وكذب فإنه لا يزداد إلا عمى، كما قال تعالى عنهم: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر: ١٤، ١٥].

إعداد/
د. عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

ومن آياته التي أيده الله بها أنه كان يرى من خلفه كما يرى من أمامه ﷺ؛ ففي البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «هل ترون قبلتي هاهنا؟ والله ما يخفى عليَّ ركوعكم ولا خشوعكم، وإني لأراكم من وراء ظهري»(١).

وفيهما عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أقيموا الركوع والسجود، فوالله إني لأراكم من بعدي - وربما قال - من بعد ظهري إذا ركعتم وسجدتم»(٢).

قال النووي: «قال العلماء: معناه أن الله تعالى خلق له ﷺ إدراكًا في قفاه يبصر به من وراءه، وقد انخرقت العادة له ﷺ بأكثر من هذا، وليس يمنع من هذا عقل ولا شرع، بل ورد الشرع بظاهره، فوجب القول به.

قال القاضي عياض: قال أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى-، وجمهور العلماء: على أن هذه الرؤية بالعين حقيقة»(٣).

ومن دلائل نبوته ﷺ: خطاب الأشجار والأحجار والحيوان وانقيادها له ﷺ، ففي البخاري عن مَعْنِ بن عبد الرحمن قال: سمعت أبي قال: «سألت مسروقًا من آذن النبي ﷺ بالجن ليلة استمعوا للقرآن؟ فقال: حدثني أبوك - يعني عبد الله بن مسعود- أنه آذنت بهم شجرة»(٤).

وفي سنن ابن ماجه عن أنس رضي الله عنه قال: جاء جبريل عليه السلام ذات يوم إلى رسول الله ﷺ وهو جالس حزين، قد خُضِبَ بالدماء، قد ضربه بعض أهل مكة، فقال: ما لك؟ فقال: «فعل بي هؤلاء وفعلوا». قال: أتحب أن أريك آية. قال: «نعم أرني»، فنظر إلى شجرة من وراء الوادي. قال: ادع تلك الشجرة. فدعاها، فجاءت تمشي حتى قامت بين يديه. قال: قل لها فلترجع. فقال لها فرجعت، حتى عادت إلى مكانها. فقال رسول الله ﷺ: «حسبي»(٥).

وفي صحيح مسلم عن جابر بن سمرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني لأعرف حجرًا بمكة، كان يسلم عليَّ قبل أن أبعث، إني لأعرف مكانه الآن»(٦).

قال النووي: «فيه معجزة له ﷺ، وفي هذا إثبات التمييز في بعض الجمادات، وهو موافق لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾، وقوله تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾، وفي هذه الآية خلاف مشهور، والصحيح أنه يسبح حقيقة، ويجعل الله تعالى فيه تمييزًا بحسبه كما ذكرنا، ومنه الحجر الذي فر بثوب موسى ﷺ، وكلام الذراع المسمومة، ومشي إحدى الشجرتين إلى الأخرى حين دعاهما النبي ﷺ، وأشباه ذلك(٧).

وعن عبد الله بن جعفر قال: «ركب رسول الله ﷺ بغلته وأردفني خلفه، وكان رسول الله ﷺ إذا تبرز كان أحب ما تبرز فيه هدف يستتر به أو حائش نخل(٨)، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا فيه ناضح(٩) له، فلما رأى النبي ﷺ حنَّ وذرفت عيناه، فنزل رسول الله ﷺ فمسح ذِفْراه(١٠) وسَراته(١١) فسكن. فقال: من رب هذا الجمل؟ فجاء شاب من الأنصار فقال: أنا. فقال: ألا تتقي الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها؟ فإنه شكاك إليَّ وزعم أنك تجيعه وتُدئبه، ثم ذهب رسول الله ﷺ في الحائط فقضى حاجته ثم توضأ، ثم جاء والماء يقطر من لحيته على صدره، فأسرَّ إليَّ شيئًا لا أحدث به أحدًا، فحرجنا عليه أن يحدثنا، فقال: لا أفشي على رسول الله ﷺ سره حتى ألقى الله»(١٢). وهذا حديثٌ صحيحٌ على شرط مسلم، وقد أخرج بعضه(١٣).

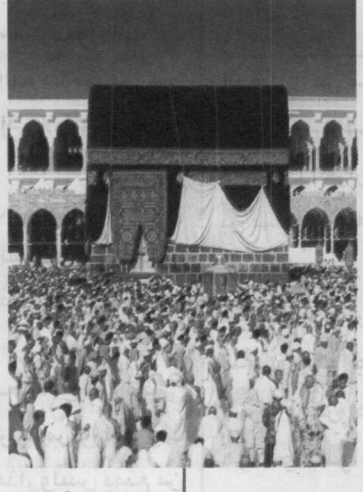

ومن دلائل نبوته ﷺ تأييد الله تعالى له بالخوارق عند تكذيب قومه له، وذلك لإقامة الحجة عليهم ودفع كذبهم وافترائهم عليه، ومن ذلك رفع بيت المقدس له إلى مكة حتى يراه ويصفه، ففي البخاري عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لما كذبني قريش قمت في الحجر فجلَّى الله لي بيت المقدس، فطفقت أخبرهم عن آياته، وأنا أنظر إليه»(١٤).

وفي مسند أحمد عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: قال رسول الله ﷺ لما كان ليلة أسري بي وأصبحت بمكة فظعت بأمري(١٥) وعرفت أن الناس مكذبيَّ، فقعدتُّ معتزلاً حزينًا، قال: فمر عدو الله أبو جهل، فجاء حتى جلس إليه، فقال له كالمستهزئ: هل كان من شيء ؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. قال: إنه أُسري بي الليلة، قال: إلى أين؟ قال: إلى بيت المقدس. قال: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فلم ير أنه يكذبه مخافة أن يجحد الحديث إذا دعا قومه إليه. قال: أرأيت إن دعوت قومك تحدثهم ما حدثتني؟ فقال رسول الله ﷺ: نعم. فقال: هيا معشر بني كعب بن لؤي، حتى قال: فانتفضت إليه المجالس، وجاءوا حتى جلسوا إليهما. قال: حدِّث قومك بما حدثتني. فقال رسول الله ﷺ: إني أسري بي الليلة. قالوا: إلى أين ؟ قلت: إلى بيت المقدس. قالوا: ثم أصبحت بين ظهرانينا؟ قال: نعم. قال: فمن بين مصفق، ومن بين واضع يده على رأسه متعجبًا للكذب زعم. قالوا: وهل تستطيع أن تنعت لنا المسجد؟- وفي القوم من قد سافر إلى ذلك البلد ورأى المسجد-، فقال رسول الله ﷺ: فذهبت أنعت، فما زلت أنعت حتى التبس عليَّ بعض النعت. قال: فجيء بالمسجد وأنا أنظر حتى وضع دون دار عقال أو عقيل فنعته وأنا أنظر إليه. قال: وكان مع هذا نعت لم أحفظه. قال: فقال القوم: أما النعت فوالله لقد أصابه»(١٦).

ومن معجزاته ﷺ: إخباره عن أمور مستقبلة فوقعت كما أخبر ﷺ، وكان ذلك بإعلام الله له، ومن ذلك الإشارة إلى خلافة الشيخين أبي بكر وعمر -

رضي الله عنهما-؛ فعن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال: «أتت امرأةُ النبي ﷺ فأمرها أن ترجع إليه. قالت: أرأيت إن جئتُ ولم أجدْك- كأنها تقول الموت- قال ﷺ: إن لم تجديني فأتي أبا بكر»(١٧).

وفي هذا الحديث ردٌّ على الروافض الذين يزعمون أن أبا بكر رضي الله عنه قد اغتصب الخلافة، وأن النبي ﷺ قد نص على علي والعباس، وذلك لأن قول النبي ﷺ للمرأة: ائتي أبا بكر؛ إشارة إلى أنه المرجع إليه بعد النبي ﷺ.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيتني على قليب عليها دلو، فنزعت منها ما شاء الله، ثم أخذها ابن أبي قحافة فنزع بها ذنوبًا أو ذنوبين، وفي نزعه ضعف، والله يغفر له ضعفه، ثم استحالت غربا فأخذها ابن الخطاب، فلم أر عبقريًا من الناس ينزع نزع عمر، حتى ضرب الناس بعطن»(١٨).

والحديث يدل على خلافة أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه بعد أبي بكر، وهو الحق الذي عليه جمهور المسلمين، عدا من خالف من الروافض، ومعنى قوله ﷺ: «وفي نزعه ضعف». أي أنه كان على مهل ورفق، وقد ذكر ابن حجر عن الشافعي أنه قال في تفسير الحديث: «وفي نزعه ضعف». قصر مدته وعجلة موته وشغله بالحرب لأهل الردة عن الافتتاح والازدياد الذي بلغه عمر في طول مدته(١٩).

ومن معجزاته ﷺ: إخباره عن وقوع الفتن بعده وشرب الخمر وظهور الزنا وغير ذلك، وإليكم بعض ما صح في هذا:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: ذكر رسول الله ﷺ فتنة فقال: «يقتل هذا فيها مظلومًا؛ لعثمان بن عفان رضي الله عنه»(٢٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم، وتكثر الزلازل، ويتقارب الزمان، وتظهر الفتن، ويكثر الهرج - وهو القتلُ القتلُ - حتى يكثر فيكم المال فيفيض»(٢١).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لأحدثنكم حديثًا لا يحدثكم أحد بعدي، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من أشراط الساعة أن يقل العلم ويظهر الجهل، ويظهر الزنا، وتكثر النساء، ويقل الرجال، حتى يكون لخمسين امرأةً القيِّمُ الواحد»(٢٢).

وقد وقع كثيرٌ مما أخبر به النبي ﷺ، وكان آية صادقة وعلامة صحيحة على صدقه ونبوته ﷺ، وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

الهوامش

١- البخاري كتاب الأذان باب ٨٨ ج٢/٢٢٥، ومسلم كتاب الصلاة باب ٢٤جـ١/٣١٩،

٢- المرجعان السابقان، نفس الجزء والصفحة.

٣- -شرح النووي على مسلم جـ٤/١٤٩، ،١٥٠

٤- البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب ٣٢ جـ٧/١٧١ [مسلم: ح٤٥٠ كتاب الصلاة].

٥- سنن ابن ماجه كتاب الفتن باب ٢٣ جـ٢/١٣٣٦، وقال الألباني: صحيح، انظر صحيح سنن ابن ماجه جـ٢/٣٧٣،

٦- صحيح مسلم كتاب الفضائل باب ١ جـ٤/١٧٨٢،

٧- شرح النووي على مسلم جـ١٥/٣٦، ،٣٧

٨- الهدف: ما ارتفع من الأرض، وحائش النخل بستان النخل.

٩- الناضح: البعير أو الثور أو الحمار الذي يُستقى عليه الماء، والأنثى بالهاء، ناضحة. انظر لسان العرب جـ٢/٦١٩،

١٠- ذِفْرَى البعير: أصل أذنه، وهما ذِفريان. النهاية لابن الأثير جـ٢/١٦١،

١١- سراة كل شيء ظهره وأعلاه، المرجع السابق جـ٢/٣٦٤،

١٢- أخرجه أحمد في مسنده جـ١/٢٠٥،

١٣- صحيح مسلم، كتاب الحيض، باب ٢٠ جـ١/٢٦٨، ،٢٦٩

١٤- صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار باب ٤١ جـ٧/١٩٦،

١٥- أي اشتد على وهبته. انظر: النهاية في غريب الحديث جـ٣/٤٥٩،

١٦- أخرجه أحمد في مسنده جـ١/٣٠٩، وقال ابن حجر في الفتح: إسناده حسن جـ٧/١٩٩،

١٧- -صحيح البخاري كتاب فضائل الصحابة باب ٥ جـ٧/١٧،

١٨- -صحيح البخاري، كتاب فضائل الصحابة، باب ٥، جـ٧/١٨، ،١٩

١٩- فتح الباري جـ٧/٣٩،

٢٠- أخرجه الترمذي، وقال الألباني: حسن. انظر صحيح سنن الترمذي جـ٣/٢١٠،

٢١- صحيح البخاري كتاب الاستسقاء باب ٢٧ جـ٢/٥٢١،

٢٢- صحيح البخاري كتاب العلم، باب ٢١، جـ١/١٧٨

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، وبعد:

بعض خصائص النبي ووظائفه ﷺ:

في هذا اللقاء - أخي الكريم - سأذكر لك بعض خصائص النبي ﷺ ووظائفه، يظهر لكل ذي عينين فضله ومكانته وحاجة البشرية كلها إلى بعثته ورسالته ﷺ، ومن ذلك ما رواه ابن ماجه وغيره، عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أنا سيد ولد آدم ولا فخر، وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع ولا فخر، ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا فخر»(١).

إعداد/
د. عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

في هذا الحديث إخبار منه ﷺ بما أكرمه الله تعالى به من الفضل والسؤدد، وما خصه الله به من كريم المزايا وعظيم العطايا، وقد ذكر النبي ﷺ ذلك تحدثًا بنعمة الله عليه، وقد ذكر التوربشتي في لواء الحمد المذكور في الحديث بأنه: «لا مقام من مقامات عباد الله الصالحين أرفع وأعلى من مقام الحمد، ودونه تنتهي سائر المقامات، ولما كان نبينا ﷺ سيد المرسلين، أحمد الخلائق في الدنيا والآخرة أعطي لواء الحمد ليأوي إلى لوائه الأولون والآخرون»(٢).

ومن خصائصه أيضًا التي فضل بها على غيره ما أخرجه البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي: نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلّ، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبُعثت إلى الناس عامة»(٣).

فهذه خصائص ذكرت في هذا الحديث، وفي رواية لمسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «فُضلت على الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونُصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجُعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأُرسلت إلى الخلق كافة، وختم بي النبيون»(٤).

ويلاحظ أن هذا الحديث قد ذكر أربعًا من الخمس المذكورة في الحديث السابق، وزاد هنا ثنتين، وسأوضح هذه الخصائص باختصار:

الخصوصية الأولى: ما جاء في قوله: «نُصرت بالرعب مسيرة شهر»، ومعناه: أن الله تعالى كان يقذف الرعب في قلوب أعدائه، وقد جعل الغاية في الحديث شهرًا، لأنه لم يكن بين بلده وبين أحد من أعدائه أكثر منه، قال ابن حجر: وهذه الخصوصية حاصلة له على الإطلاق حتى ولو كان وحده بغير عسكر(٥).

الخصوصية الثانية: جُعلت له الأرض مسجدًا وطهورًا، أي: جعلت الأرض كلها مكان سجود، لا يختص السجود منها بموضع دون غيره، وهذا يفيد أنه يجوز الصلاة في جميع المواضع إلا ما استثناه

الشرع من الصلاة في المقابر وغيرها من المواضع التي فيها النجاسة كالمزبلة والمجزرة، وكذا ما نهى عنه لمعنى آخر كأعطان الإبل والحمام(٦).

وقد أفاد الحديث أيضًا أن التيمم جائز بجميع أجزاء الأرض، وأنه رافع للحدث كالماء عملاً بظاهر الحديث.

الخصوصية الثالثة: ما جاء في قوله: «وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي». والغنائم: جمع غنيمة، وهي المال المأخوذ من أعداء الإسلام عن طريق الحرب والقتال، وتسمى الأنفال لأنها زيادة في أموال المسلمين، قال الزهري: النَفَل والنافلة ما كان زيادة على الأصل، وسميت الغنائم أنفالاً؛ لأن المسلمين فضلوا بها على سائر الأمم الذين لم تحل لهم الغنائم(٧).

وقد أحل الله الغنائم لهذه الأمة دون غيرها، وقد أرشد الله تعالى إلى حلها في قوله: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٩]، وقد أفاد الحديث أنها خاصة بالأمة المسلمة فحسب، وأن الأمم السابقة لم يكن ليحل لها شيء من ذلك. قال الخطابي: «كان من تقدم على ضربين: منهم من لم يؤذن له في الجهاد فلم تكن له مغانم، ومنهم من أذن له فيه، لكن كانوا إذا غنموا شيئًا لم يحل لهم أن يأكلوه وجاءت نار فأحرقته، وقيل: المراد أنه ﷺ خص بالتصرف في الغنيمة يصرفها كيف يشاء، والأول أصوب وهو أن من مضى لم تحل لهم الغنائم أصلاً»(٨).

الخصوصية الرابعة: الشفاعة التي خصه الله تعالى بها، ذلك لأن بعض أنواع الشفاعة يشترك فيها الملائكة والأنبياء والمؤمنون مع النبي ﷺ وعلى رأس الشفاعة التي خُصَّ بها عليه الصلاة والسلام الشفاعة العظمى في إراحة الناس من هول الموقف، وهي التي يتأخر عنها أولو العزم من الرسل، وقد جاءت بها أحاديث صحيحة في الصحيحين وغيرهما، وهي شفاعة تعم أهل الموقف جميعًا، ويحتاج إليها كل الخلق يوم القيامة حتى الفضلاء والمقربون، وهي دليل على مكانته ﷺ ومنزلته عند ربه وحبه له ورضاه عنه، ولذلك عدَّ العلماء هذه الشفاعة المقام المحمود الذي وعده الله به في قوله: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩]، قال ابن جرير: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك المقام المحمود، فقال أكثر أهل العلم: ذلك هو المقام الذي هو يقومه ﷺ يوم القيامة للشفاعة للناس ليريحهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم»، ثم ذكر جمعًا من الصحابة والتابعين ذكروا هذا القول(١).

وهذا القول هو الصحيح، وذلك لما أخرجه أحمد وغيره أن النبي ﷺ فسر المقام المحمود بالشفاعة(٢).

ومن الشفاعة الخاصة به ﷺ شفاعته في عمه أبي طالب، وقد خفف الله عنه العذاب بهذه الشفاعة، ففي البخاري ومسلم وغيرهما أن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: يا رسول الله، هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك(٩) ويغضب لك؟ قال: «نعم، هو في ضحضاح(١٠) من نار، ولولا أنا لكان في الدرك الأسفل»(١١).

ولا يعترض على وقوع هذه الشفاعة بنفي القرآن الكريم الشفاعة في المشركين، وأبو طالب مات مشركًا؛ لأن هذه شفاعة مستثناه من هذا العموم، وهي خاصة به لا تقع لغيره بحال وهي في تخفيف العذاب فقط.

والحديث يرد على طائفة الرافضة الذين يزعمون إسلام أبي طالب، وقد جمعوا بعض الأحاديث في إسلامه، ولا يصح منها شيء.

قال ابن حجر رحمه الله: «في سؤال العباس عن حال أبي طالب ما يدل على ضعف ما أخرجه ابن إسحاق من حديث ابن عباس بسند فيه من لم يسم: أن أبا طالب لما تقارب منه الموت بعد أن عرض عليه النبي ﷺ أن يقول: لا إله إلا الله فأبى، قال: فنظر العباس إليه وهو يحرك شفتيه فأصغى إليه، فقال: يا ابن أخي، والله لقد قال الكلمة التي أمرته أن يقولها». وروى أبو داود والنسائي وابن خزيمة

وابن الجارود من حديث علي قال: لما مات أبو طالب قلت: يا رسول الله، إن عمك الشيخ الضال قد مات، قال: اذهب فوَارِه. قلت: إنه مات مشركًا، فقال: اذهب فواره». وهذا الحديث يدل دلالة قاطعة على وفاة أبي طالب على الشرك، وابنه علي بن أبي طالب رضي الله عنه قد صرح مرتين في هذا الحديث بذلك، وذلك في قوله: إن عمك الضال، وقوله: إنه مات على الشرك.

فائدة: من عجائب الاتفاق أن الذين أدركهم الإسلام من أعمام النبي ﷺ أربعة: لم يسلم منهم اثنان، وأسلم الآخران، وكان اسم من لم يسلم ينافي أسامي المسلمين، وهما أبو طالب واسمه عبد مناف، وأبو لهب واسمه عبد العزى، بخلاف من أسلم وهما: حمزة والعباس.

ومن الشفاعة الخاصة به أيضًا ﷺ شفاعته في أهل الجنة أن يدخلوها، وفي صحيح مسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «آتي باب الجنة يوم القيامة، فأستفتح، فيقول الخازن: من أنت؟ فأقول: محمد، فيقول: بك أمرت لا أفتح لأحد قبلك»(١٣).

وفي مسلم أيضًا عن أنس: «أنا أول شفيع في الجنة»(١٤).

وقد استدل على وقوع هذه الشفاعة بقوله تعالى:﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾ [الزمر: ٧٣]، وذلك أن أهل الجنة إذا عبروا الصراط ووصلوا إلى الجنة وجدوها مغلقة، فيطلبون من يشفع لهم، فيشفع النبي ﷺ في فتح أبواب الجنة لأهلها(١٥).

الخصوصية الخامسة: عموم بعثته ﷺ إلى الإنس والجن، كما جاء في الحديث: وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة.

وفي صحيح مسلم عن جابر بن عبد الله: «كان كل نبي يبعث إلى قومه خاصة، وبعثت إلى كل أحمر وأسود». وقال تعالى:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، وقال تعالى مخبرًا عن إرساله ﷺ إلى الجن:﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٩].

وقال ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى:﴿يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ﴾: «فيه دلالة على أنه تعالى أرسل محمدًا - صلوات الله وسلامه عليه - إلى الثقلين الإنس والجن حيث دعاهم إلى الله، وقرأ عليهم السورة التي فيها خطاب الفريقين، وتكليفهم ووعدهم ووعيدهم، وهي سورة الرحمن، ولهذا قال:﴿أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ﴾»(١٧).

الهوامش

١- أخرجه ابن ماجه في سننه، وصححه الألباني، انظر صحيح سنن ابن ماجه ٢/٤٣٠، وأحمد في مسنده ٣/٢، والترمذي باطول من هذا في سننه، أبواب تفسير القرآن، تفسير سورة بني إسرائيل.

٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ٨/٥٨٥

٣- أخرجه البخاري في كتاب التيمم باب ١ ج١/٤٣٥، ٤٣٦، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ١/٣٧٠

٤- مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة حديث رقم ٥ ج١/٣٧١

٥- فتح الباب شرح صحيح البخاري ١/٤٣٩

٦- انظر شرح النووي على مسلم ٢/٥، ٣

٧- مفاتيح الغيب للرازي ٧/٤٢٩

٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري ١/٤٣٨

١- تفسير الطبري ١٥/٩٧، ٩٨

٢- انظر مسند أحمد ج٢/٤٧٨، وقد صحح الحديث الشيخ الألباني كما في السلسلة الصحيحة ٥/٤٨٤

٩- يحوطك يعني: يصونك ويحفظك ويذب عنك ويقوم على مصالحك.

١٠- الضحضاح: ما رق من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين واستعير في النار.

١١- أخرجه البخاري في كتاب مناقب الأنصار باب ٤٠ ج٧/١٩٣، ومسلم في كتاب الإيمان باب ٩٠ ج١/١٩٤، ١٩٥، واللفظ له.

١٢- فتح الباري شرح صحيح البخاري ج٧/١٩٤، ١٩٥

١٣- صحيح مسلم كتاب الإيمان باب ٨٥ ج١/١٨٨

١٤- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

١٥- انظر القول المفيد على كتاب التوحيد للشيخ محمد ابن عثيمين ج١/٣٣٣

١٦- صحيح مسلم كتاب المساجد ومواضع الصلاة ج١/٣٧٠، ٣٧١

١٧- تفسير ابن كثير، المجلد السابع ص٢٨٦

خاتم الأنبياء والمرسلين
رحمة من رب العالمين

إعداد/
د. عبدالله شاكر الجمنيدي
نائب الرئيس العام

الحمد لله العلي القدير، والصلاة والسلام على الهادي البشير والسراج المنير وعلى آله وأصحابه الغر الميامين، ورضي الله عنهم وعن التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

بعض خصائص النبي ﷺ ووظائفه

تحدثت في اللقاء الماضي عن خمس من خصائصه ﷺ، وأواصل الحديث في مطلع هذا اللقاء بذكر ما بقي من الخصائص الواردة في الحديثين اللذين ذكرتهما - فيما مضى - فأقول وبالله التوفيق:

الخصيصة السادسة: ماجاء في قوله: «أعطيت جوامع الكلم»، وهذا دليل على قوة بلاغته وفصاحته ﷺ، وقد بلغ من ذلك مبلغًا عظيمًا لم يصل إليه أحد قبله، وهذه كلماته ﷺ بين أيدينا تكون قليلة الألفاظ، ولكنها كثيرة المعاني والفوائد، وما يزال أهل العلم وشراح الحديث يشرحون كلماته اليسيرة في الصفحات الكثيرة.

قال النووي - رحمه الله-: «وكلامه ﷺ كان بالجوامع قليل اللفظ كثير المعاني»(١).

ولم يكن النبي ﷺ مشهورًا بين قومه بالفصاحة والبلاغة وإن كان فصيحًا بليغًا، لأن الله تعالى صرفه عن مظهر فصاحتهم وبلاغتهم، وهو الشعر والخطابة، في الأسواق والمجامع لتكون حجته في إعجاز القرآن بالبلاغة أظهر وأبعد عن الشبهة، فلا يقولن قائل: إنه تمرن على الكلام البليغ وزاوله الزمن الطويل حتى ارتقى فيه إلى القمة العُلْيى التي لا يطاول فيها، وقد شهد الله في كتابه للنبي ﷺ بالقدرة على الكلام البليغ، وأمره به وفوض أمر الوعظ إليه فقال: ﴿ أُولَئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُلْ لَهُمْ فِي أَنْفُسِهِمْ قَوْلاً بَلِيغًا ﴾ [النساء: ٦٣].

وفي صحيح مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن ضمادًا قدم مكة، وكان من أزد شنوءة(٢)، وكان يَرْقِي من هذه الريح(٣)، فسمع سفهاء من أهل مكة يقولون: إن محمدًا مجنون، فقال: لو أني رأيت هذا الرجل لعلّ الله يشفيه على يدي، قال: فلقيه فقال: يا محمد إني أرقي من هذه الريح وإن الله يَشْفِي على يدي من يشاء فهل لك(٤)، فقال رسول الله ﷺ: «إن الحمد لله نحمده ونستعينه، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله. أما

بعد». قال: فقال: أعد عليَّ كلماتك هؤلاء، فأعادهن عليه ثلاث مرات، فقال: لقد سمعت قول الكهنة وقول السحرة وقول الشعراء، فما سمعت مثل كلماتك هؤلاء، ولقد بلغن ناعوس البحر (٥). قال: فقال: هات يدك أبايعك على الإسلام، قال: فبايعه، فقال رسول الله ﷺ: «وعلى قومك». قال: وعلى قومي»(٦).

فهذا رجل من المشركين شهد بفصاحة النبي الأمين ﷺ وأفاد أن كلامه - عليه الصلاة والسلام - ليس من جنس كلام السحرة والكهان. قال القاضي عياض في «الشفاء»: «وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل، والموضع الذي لا يجهل؛ سلامة طبع، وبراعة منزع، وإيجاز مقطع، ونصاعة لفظ، وجزالة قول، وصحة معان، وقلة تكلف، أوتي جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم، وعلم ألسنة العرب، يخاطب كل أمة بلسانها، ويحاورها بلغتها، ويباريها في منزع بلاغتها، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه في غير موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله، ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحققه». وقد كان كلام النبي ﷺ يدخل إلى القلوب وتصغي إليه الآذان لما اشتمل عليه من روعة الفصاحة والبيان، وكان يجمع في كلامه بين الترغيب والترهيب، والثواب والعقاب، والكلام إذا اشتمل على ذلك عظم وقعه في القلب.

الخصيصة السابعة: أنه خاتم النبيين والمرسلين ﷺ، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

وقد صرحت هذه الآية بأن النبوة والرسالة ختمت بسيد الخلق ﷺ، وإنما ختمت النبوة به، لأن الله شرع له من الشرائع ما ينطبق على مصالح الناس في كل زمان ومكان، والقرآن الكريم لم يدع شيئًا من أمهات المصالح إلا جلاَّها، ولا مكرمة من أصول الفضائل إلا أحياها، فتمت الرسالات برسالته إلى الناس أجمعين، وظهر مصداق ذلك بخيبة كل من ادعى النبوة بعده إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وعقيدة ختم النبوة بنبينا ﷺ من القضايا العقدية التي قررها القرآن، وبينها خير الأنام ﷺ وأجمع عليها الصحب الكرام ومن تبعهم بإحسان، قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره للآية السابقة: «قال ابن عطية: هذه الألفاظ عند جماعة من علماء الأمة خلفًا وسلفًا متلقاة على العموم التام مقتضية نصًا أنه لا نبي بعده ﷺ»(٧).

وقال الإمام الحافظ ابن كثير: «هذه الآية نص في أنه لا نبي بعده، فلا رسول بطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ من حديث جماعة من الصحابة»(٨).

وقال الخطيب الشربيني: «والحاصل أنه لا يأتي بعده نبي مطلقًا بشرع جديد ولا يتجدد بعده مطلقًا استنباء، وهذه الآية مثبتة لكونه خاتمًا على أبلغ وجه وأعظمه، وذلك أنها في سياق الإنكار بأن يكون بينه وبين أحد من رجالهم بنوة حقيقية، أو مجازية، ولو كانت بعده لأحد لم يكن ذلك إلا لولده، ولأن فائدة إثبات النبي تتميم شيء لم يأت من قبله وقد حصل به ﷺ التمام فلم يبق بعد ذلك مرام»(٩).

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تؤكد أنه خاتم الأنبياء والمرسلين، والمتتبع لها يجد أنها جاءت بصور شتى وألفاظ متعددة، وهي في جملتها تبلغ حد التواتر.

يقول عبد القاهر البغدادي - رحمه الله-: «وقد تواترت الأخبار عنه بقوله: «لا نبي بعدي»(١٠)، ويقول الحافظ ابن كثير - رحمه الله - بعد أن ساق جملة من الأحاديث الدالة على ذلك: «والأحاديث في هذا كثيرة، فمن رحمة الله تعالى بالعباد إرسال محمد صلوات الله وسلامه عليه إليهم، ثم من تشريفه له ختم الأنبياء والمرسلين به، وإكمال الدين الحنيف له، وقد أخبر تعالى في كتابه ورسوله في السنة المتواترة عنه: أنه لا نبي بعده ليعلموا أنَّ من ادعى هذا المقام بعده فهو كذاب أفاك، دجال ضال مضل، ولو تخرق وشعوذ، وأتى بأنواع السحر والطلاسم، فكلها محال وضلال عند أولي الألباب، كما أجرى الله سبحانه وتعالى على يد «الأسود العنسي» باليمن، و«مسيلمة الكذاب» باليمامة من الأحوال الفاسدة والأقوال الباردة، ما علم كل ذي

لب وفهم وحجى أنهما كاذبان ضالان - لعنهما الله-، وكذلك كل مدع لذلك إلى يوم القيامة حتى يختموا بالمسيح الدجال»(١١).

وسأذكر الآن بعض الأحاديث النبوية الدالة على ختم النبوة والرسالة به ﷺ، فمن ذلك ما أخرجه البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أُتي رسول الله ﷺ بلحم، فرفع إليه الذراع - وكانت تعجبه - فنهس منها نهسة ثم قال: «أنا سيد الناس يوم القيامة، وهل تدرون مم ذلك؟» ثم ذكر الشفاعة من بعض الأنبياء واعتذارهم عن القيام بها، حتى يذهب الناس إلى النبي ﷺ ويقولون له: «يا محمد، أنت رسول الله، وخاتم الأنبياء، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، استغفر لنا إلى ربك...»(١٢).

ففي هذا الحديث نص على أن النبي ﷺ هو خاتم الأنبياء، وأن الناس في الموقف يعرفون ذلك ويقولونه، ثم إن عدم إحالة النبي ﷺ الشفاعة إلى أحد بعده كما فعل من قبله من الأنبياء والمرسلين يدل على أنه خاتمهم وليس بعده نبي غيره صلى الله عليه وسلم، وقد صرَّح ﷺ بأنه خاتم النبيين في أحاديث كثيرة، منها ما رواه ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض» أو قال: «إن ربي زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض...» إلى أن قال: «ولا تقوم الساعة حتى تلحق قبائل من أمتي بالمشركين، وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان، وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى يأتي أمر الله»(١٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان تكون بينهما مقتلة عظيمة، دعوتهما واحدة، وحتى يبعث دجالون كذابون قريب من ثلاثين كلهم يزعم أنه رسول الله...»(١٤).

ويلاحظ أنه ذكر في حديث أبي هريرة «قريب من ثلاثين»، وفي حديث ثوبان السابق جزم بثلاثين، وقد جمع بينهما ابن حزم فقال: «إن رواية الثلاثين بالجزم على طريق جبر الكسر، ويحتمل أن يكون الذين يدعون النبوة منهم ما ذكر من الثلاثين أو نحوها، وأن من زاد على العدد المذكور يكون كذابًا فقط لكن يدعو إلى الضلالة كغلاة الرافضة والباطنية وأهل الوحدة والحلولية، وسائر الفرق الدعاة إلى ما يعلم بالضرورة أنه خلاف ما جاء به محمد ﷺ».

وللحديث صلة - إن شاء الله-.

الهوامش:

١- شرح النووي على مسلم ج٥/٥،

٢- قبيلة باليمن. انظر معجم البلدان جـ٥/١٦٠،

٣- المراد بالريح هنا الجنون ومس الجن، وسموا بذلك، لأنهم لا يبصرهم الناس فهم كالروح والريح. انظر شرح النووي على مسلم جـ٦/١٥٧،

٤- أي فهل لك رغبة في رقيتي وتميل إليها.

٥- هكذا وردت الكلمة (ناعوس البحر) في صحيح مسلم، ووردت عند غير مسلم (قاموس البحر)، والمراد بها وسط البحر ولجته، وقيل: قعره الأقصى. شرح النووي على مسلم جـ٦/١٥٧،

٦- صحيح مسلم، كتاب الجنة باب ١٣ جـ٢/٥٩٣،

٧- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي المجلد الثامن ص٥٣٧٨،

٨- تفسير القرآن العظيم لابن كثير المجلد السادس ص٤٢٣،

٩- السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم للخطيب الشربيني جـ٣/٢٣٨،

١٠- أصول الدين للبغدادي ص١٥٨،

١١- تفسير ابن كثير المجلد السادس ص٤٢٥،

١٢- أخرجه البخاري في كتاب التفسير جـ٨/٣٩٥، ومسلم كتاب الإيمان باب ٨٤ جـ١/١٨٤، كما أخرجه أبو داود والترمذي وابن ماجه وأحمد.

١٣- الحديث أخرجه أبو داود في كتاب الفتن، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود جـ٣/٨٠١، كما أخرجه أحمد في مسنده جـ٥/٢٧٨، وابن ماجه جـ٢/١٣٠٤، والترمذي جـ٦/٤٦٦ مع تحفة الأحوذي، وله أصل في مسلم جـ٤/٢٢١٥،

١٤- أخرجه البخاري في كتاب الفتن باب ٢٥ جـ١٣/٨١،

خاتم الأنبياء والمرسلين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم واهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

ذكرت في اللقاء الماضي بعض الأدلة الصحيحة الصريحة الدالة على أن النبوة والرسالة ختمت بإمام الأنبياء والمرسلين ﷺ، وأواصل في هذا اللقاء الكلام حول هذا الموضوع لأهميته في الوقت الراهن، خاصة بعد تأييد الأفاكين لدعوة الكاذب الغلام القادياني في ادعائه النبوة، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين»(١).

وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب خاتم النبيين ﷺ»، كما ترجم مسلم له بقوله: «باب ذكر كونه ﷺ خاتم النبيين»، وفي الحديث ضرب الأمثال للتقريب للأفهام وفضل النبي ﷺ على سائر النبيين، وأن الله ختم به المرسلين، وأكمل به شرائع الدين(٢).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إني عبد الله لخاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته، وسأنبئكم بأول ذلك دعوة أبي إبراهيم، وبشارة عيسى بي، ورؤيا أمي التي رأت، وكذلك أمهات المؤمنين ترين»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاءُ فيكثرون. قالوا: فما تأمرنا؟ قال: فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم»(٤).

ويلاحظ في هذا الحديث أن النبي ﷺ ذكر تعاقب الأنبياء في بني إسرائيل، وأمة النبي ﷺ أفضل من بني إسرائيل، فقد يتوهم إنسان أن النبوة مستمرة في دين النبي ﷺ لأنها ليست بأقل من بني إسرائيل فقطع ﷺ هذه الشبهة، ونبه تنبيهًا واضحًا أنه لا نبي بعده ﷺ، وأنه سيكون في أمته خلفاء يخلفونه- عليه الصلاة والسلام- في رعاية أمته ودينه، كما صرح ﷺ بأنه آخر الأنبياء، وأن مسجده آخر المساجد، وأن أمته آخر الأمم، وذلك فيما أخرجه مسلم في صحيحه عن أبي سلمة بن عبد الرحمن، وأبي عبد الله الأغر مولى الجهنيين (وكان من أصحاب أبي هريرة)، أنهما سمعا أبا هريرة رضي الله عنه يقول: صلاة في مسجد رسول الله ﷺ أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد، إلا المسجد الحرام، فإن رسول الله ﷺ آخر الأنبياء، وإن مسجده آخر المساجد. قال أبو سلمة، وأبو عبد الله: لم نشك أن أبا هريرة كان يقول عن حديث رسول الله ﷺ، فمنعنا ذلك أن نستثبت أبا هريرة عن ذلك الحديث، حتى إذا توفي أبو هريرة تذاكرنا ذلك وتلاومنا(٥) أن لا نكون كلمنا أبا هريرة في ذلك حتى يسنده إلى رسول الله ﷺ إن كان سمعه منه، فبينا

رحمة من رب العالمين

إعداد/
د. عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

نحن على ذلك جَالَسنَا عبد الله بن إبراهيم بن قارظ، فذكرنا ذلك الحديث والذي فرَّطنا فيه من نص أبي هريرة عنه، فقال لنا عبد الله بن إبراهيم: أشهد أني سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله ﷺ: «فإني آخر الأنبياء، وإن مسجدي آخر المساجد»(٦).

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «نحن آخر الأمم وأول من يحاسب. يقال: أين الأمة الأمية ونبيها؟ فنحن الآخرون الأولون»(٧).

كما أخبر ﷺ في أحاديث كثيرة أنه لا يوجد فاصل بينه وبين الساعة، وهذا يفيد أنه ليس بعده نبي، ومن ذلك ما رواه البخاري وغيره عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «بعثت أنا والساعة كهاتين»(٨).

وفي بعض طرق الحديث عند مسلم أن شعبة - وهو أحد رواة الحديث - قرن بين أصبعيه المسبحة والوسطى، وفي البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «بُعثت أنا والساعة كهاتين، يعني أصبعين»(٩). وهذه الأحاديث أفادت التلاصق بين النبوة المحمدية وقيام الساعة، وأنه لا توجد نبوة أخرى تفصل بينهما.

قال ابن التين: «اختلف في معنى قوله: «كهاتين»، فقيل كما بين السبابة والوسطى في الطول، وقيل المعنى: ليس بينه وبينها نبي»(١٠).

وقال القرطبي: «معناه أنا النبي الأخير فلا يليني نبي آخر، وإنما تليني القيامة كما تلي السبابة الوسطى وليس بينهما أصبع أخرى، وهذا لا يوجب أن يكون له علم بالساعة نفسها، وهي مع ذلك كائنة لأن أشراطها متتابعة، وقد ذكر الله الأشراط في القرآن فقال: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: ١٨]،

وأولُها النبي ﷺ، لأنه نبي آخر الزمان، وقد بعث وليس بينه وبين القيامة نبي»(١١).

وقد أخبر النبي ﷺ في أحاديث كثيرة أن دينه سيبقى قائمًا ظاهرًا عاليًا منصورًا إلى قيام الساعة، وأنه لن يظهر دين آخر ينافسه بحال، لأن سلسلة النبوة ختمت به ﷺ، وهذا ما تفيده الأحاديث الواردة في ذلك، ومنها حديث معاوية رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك»(١٢).

وفي رواية لمسلم: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناواهم إلى يوم القيامة»(١٣).

وهذه الرواية أفادت أن دين النبي ﷺ هو الدين القائم إلى يوم القيامة، وهذا يدل على أنه ليس بعده نبي ﷺ، قال النووي - رحمه الله-: «وفي هذا الحديث معجزة ظاهرة، فإن هذا الوصف مازال بحمد الله تعالى من زمن النبي ﷺ إلى الآن، ولا يزال حتى يأتي أمر الله المذكور»(١٣).

كما دلت أسماؤه- ﷺ - على أنه خاتم الأنبياء، ومن ذلك ما رواه محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لي خمسة أسماء: أنا محمد، وأنا أحمد، وأنا الماحي، الذي يمحو الله بي الكفر،

وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي، وأنا العاقب»(١٤).

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، قال: كان رسول الله ﷺ يسمي لنا نفسه أسماء، فقال: «أنا محمد، وأحمد، والمُقفَّى، والحاشر، ونبي التوبة، ونبي الرحمة»(١٥).

وقد جاء في هذين الحديثين ثلاثة أسماء كل واحد منها يدل على ختم النبوة والرسالة به ﷺ، وهذه الأسماء هي: الحاشر، والعاقب، والمقفى، وإليكم معنى كل اسم منها ودلالته على عقيدة ختم النبوة:

فالحاشر وضح النبي ﷺ معناه في حديثه، حيث قال: «وأنا الحاشر الذي يحشر الناس على قدمي»، وقد فسر ابن حجر معناه فقال: «أي على أثري، أي أنه يحشر قبل الناس، وهو موافق لقوله في الرواية الأخرى: «يحشر الناس على عقبي»، ويحتمل أن يكون المراد بالقدم الزمان، أي وقت قيامي على قدمي بظهور علامات الحشر، إشارة إلى أنه ليس بعده نبي ولا شريعة»(١٦).

وأما العاقب فقد فسر بأنه الذي ليس بعده نبي، قال ابن منظور: «والعاقب: الآخر. قال أبو عبيد: العاقب آخر الأنبياء، وفي المحكم آخر الرسل»(١٧).

وقال ابن القيم: «والعاقب: الذي جاء عقب الأنبياء، فليس بعده نبي، فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سمي العاقب على الإطلاق، أي: عقب الأنبياء جاء عقبهم»(١٨).

وأما المقفي فمعناه أيضًا الآخر. قال ابن منظور: «قال شمر: المُقَفَّى نحو العاقب، وهو المُولِّي الذاهب. يقال: قفَّى عليه أي ذهب به، وقد قفَّى يُقفي فهو مُقَفٍّ، فكأن المعنى أنه آخر الأنبياء المُتَّبع لهم، فإذا قفَّى فلا نبي بعده»(١٩).

وقال ابن القيم: «وأما المقفي فكذلك، وهو الذي قفَّى على آثار من تقدمه، فقفى الله به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفي: الذي قفى من قبله من الرسل، فكان خاتمهم وآخرهم»(٢٠).

وقد أجمعت الأمة كلها على أن النبوة ختمت بنبينا ﷺ وقام الصحابة - رضوان الله عليهم - في وجه المتنبئين وقاتلوهم، كما صرحوا في أقوالهم بختم النبوة بنبينا ﷺ، ومن ذلك ما رواه عبد الله بن عتبة قال: سمعت عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «إن أناسًا كانوا يؤخذون بالوحي في عهد رسول الله ﷺ، وإن الوحي قد انقطع، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم». وهذا إخبار عن عمر بما كان عليه الحال في عهد النبي ﷺ وبعده، وأن الوحي قد انقطع، فلا وحي ولا نبوة ولا رسالة بعده عليه الصلاة والسلام، ولذلك أطلق علماء الأمة القول بتكفير من ادعى النبوة.

يقول البغدادي - رحمه الله- وهو في معرض بيان الأصول التي أجمع عليها المسلمون: «وقالوا بتكفير كل متنبئ، سواء كان قبل الإسلام كزَرَادشت ويوراسف وماني ودمصان ومرقيون ومزدك، أو بعده كمسيلمة وسَجَاح والأسود بن يزيد العَنْسي وسائر من كان بعدهم من المتنبئين، ولا يجوز ظهور معجزة التصديق على المتنبي في دعوى النبوة، ويجوز أن يَظْهر عليه معجزة تدل على كذبه كنطق شجرة أو عضو من أعضائه بتكذيبه»(٢١).

كما ذكر القاضي عياض تكفير من ادعى نبوة أحد مع نبينا ﷺ، وذكر إجماع الأمة على ختم النبوة به ﷺ، فقال: «أخبر ﷺ أنه خاتم النبيين لا نبي بعده، وأخبر الله تعالى أنه خاتم النبيين لأنه أرسل كافة للناس، وأجمعت الأمة على حمل هذا الكلام على ظاهره، ومفهومه المراد منه دون تأويل ولا تخصيص»(٢٢).

وقال الطحاوي - رحمه الله-: «وكل دعوى النبوة بعده ففي وهوى». قال شارحه: «لما ثبت أنه

خاتم النبيين، علم أن من ادعى بعده النبوة فهو كاذب، ولا يقال: فلو جاء المدعي للنبوة بالمعجزات الخارقة، والبراهين الصادقة، كيف يقال بتكذيبه؟ لأنا نقول: هذا لا يتصور أن يوجد، وهو من باب فرض المحال، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتم النبيين، فمن المحال أن يأتي مُدَّع يدَّعي النبوة، ولا تظهر أمارة كذبه في دعواه»(٢٣).

وفي القرن الثالث عشر الهجري ظهر كذاب عظيم ومجرم أثيم في إيران يدعى الميرزا علي محمد الشيرازي بنحلة جديدة زعم فيها أنه الباب إلى المهدي المنتظر الغائب المزعوم، ثم ادعى بعد ذلك أنه المهدي المنتظر وأنه سيملأ الأرض عدلاً كما مُلئت جورًا، ثم ادعى أخيرًا أنه نبي يوحى إليه وأنه نسخ الشريعة الإسلامية بكتابه الذي سماه «البيان»، وفي أوائل القرن الرابع عشر الهجري ادَّعى كذاب آخر أنه نبي يوحى إليه، وهو المدعو «غلام أحمد بن غلام مرتضى» المولود في قرية «قاديان» إحدى قرى الهند، وقد كان بليدًا غبيًا، إلى جانب سوء الخلق والبذاءة التي كانت تظهر في ألفاظه، وفي أول أمره أظهر أنه يدافع عن الإسلام، ثم ادعى أنه المهدي، وأنه آدم وعيسى، وإبراهيم، وظِلّ نبينا - عليه الصلاة والسلام - ثم أخيرًا ادعى النبوة والرسالة، وأن الله أرسله بالهدى ودين الحق وتهذيب الأخلاق، وعقيدته في الله تنبئ عن جهل واضح لديه وكفر بالله تبارك وتعالى، وقد ألغى فريضة الجهاد وتعاون مع أعداء الله المحتلين لبلده في ذاك الزمان، وكل هذه الدعوات زائفة وفاسدة باطلة، وعلى المسلمين أن يحذروها، ولا يستمعوا لمروجيها، لأن الوقوف ضد الباطل مطلوب، وبيان زيفه وانحرافه مقصود، وسيبوء كل هؤلاء الظالمين بالوبال والعذاب الأليم من مات منهم على ذلك ولم يتب من كفره هذا، وسيظل دين محمد بن عبد الله ﷺ ظاهرًا على مر العصور، وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون.

وللحديث صلة - بإذن الله-.

الهوامش

١- أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب ١٨ جـ٦/٥٥٨، ومسلم في كتاب الفضائل، باب ٧ جـ٤/١٧٩٠
٢- فتح الباري جـ٦/٥٥٩
٣- أخرجه أحمد في مسنده جـ٤/١٢٧، وصححه ابن حبان والحاكم كما ذكر ابن حجر في الفتح جـ٦/٥٥٩
٤- أخرجه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب ٥٠ جـ٦/٤٩٥، ومسلم في كتاب الإمارة باب ١٠ جـ٣/١٤٧١، وأحمد في مسنده جـ٢/٢٩٧
٥- أي لام بعضنا بعضًا.
٦- صحيح مسلم، كتاب الحج باب ٩٤ جـ٢/١٠١٢، ١٠١٣
٧- سنن ابن ماجه، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن ابن ماجه جـ٢/٤٢٧
٨- أخرجه البخاري في كتاب الرقاق باب ٣٩ جـ١١/٣٤٧، ومسلم في كتاب الفتن، باب ٢٧، جـ٤/٢٢٦٨، كما أخرجه الترمذي في سننه جـ٦/٤٥٩، بشرح تحفة الأحوذي.
٩- البخاري في كتاب الرقاق باب ٣٩ جـ١١/٣٤٧
١٠- فتح الباري جـ١١/٣٤٩
١١- التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة ص٧١١
١٢- أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب ٢٨ جـ٦/٦٣٢، ومسلم في كتاب الإمارة باب ٥٣ جـ٣/١٥٢٤
١٣- شرح النووي على مسلم جـ١٣/٦٧
١٤- أخرجه البخاري في كتاب المناقب باب ١٧ جـ٦/٥٥٤، ومسلم في كتاب الفضائل باب ٣٤ جـ٤/١٨٢٨، وأحمد في مسنده جـ٤/٨٤ وغيرهم.
١٥- صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب ٣٤ جـ٤/١٨٢٨، ١٨٢٩
١٦- فتح الباري جـ٦/٥٥٧
١٧- لسان العرب لابن منظور جـ١/٦١٤
١٨- زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ جـ١/٩٤
١٩- لسان العرب جـ١٥/١٩٤
٢٠- زاد المعاد جـ١/٩٤
٢١- الفرق بين الفرق ص٣٤٣، ٣٤٤
٢٢- الشفاء للقاضي عياض جـ٢/٢٧٠ - ٢٧١
٢٣- شرح العقيدة الطحاوية جـ١/١٦٧

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، وشرح صدورنا بالإيمان، والصلاة والسلام على النبي المجتبى والرسول المصطفى محمد بن عبد الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فلقد تحدثت في اللقاء السابق عن بعض خصائص النبي ﷺ، ورددت على الأفاكين القائلين بأن النبوة لم تختم بسيد المرسلين ﷺ، وفي هذا اللقاء أذكر بعض وظائفه ﷺ، فأقول- وبالله التوفيق-:

إعداد/
د. عبدالله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

أولاً: هداية العالمين إلى الصراط المستقيم

وقد أثبت القرآن ذلك للنبي ﷺ، قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [الشورى: ٥٢]، والمراد بالهداية هنا: هداية الدلالة والإرشاد إلى الحق الذي جاء من عند الله تعالى، وقد ظل ﷺ حياته كلها يدعو إلى الصراط المستقيم الذي أمره ربه باتباعه في قوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام: ١٥٣]، وقد أضاف الله الصراط إلى نفسه وأفرده، لأنه شرعه وطريقه، وهو طريق واحد لا يتعدد.

وفي مسند أحمد وغيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: «هذا سبيل الله مستقيمًا» وخط عن يمينه وشماله خطوطًا، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾(١).

وروى ابن جرير بإسناده أن رجلاً قال لابن مسعود رضي الله عنه: ما الصراط المستقيم؟ قال: تركنا محمد ﷺ في أدناه وطرفه في الجنة وعن يمينه جوادُّ(٢)، وعن يساره جوادُّ، وثم رجال يدعون من مرَّ بهم، فمن أخذ في تلك الجوادِّ انتهت به إلى النار، ومن أخذ على الصراط انتهى به إلى الجنة، ثم قرأ ابن مسعود: «وأن هذا صراطي مستقيمًا...»(٣).

ويلاحظ أن الله أفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله وجمع السبل المخالفة له، لأن الحق واحد، وما خالفه باطل. قال ابن كثير: «إنما وحَّدَ سبيله لأن الحق واحد»(٤).

وقال ابن عطية: «وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات، من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، وهذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد. قال قتادة: اعلموا أن السبيل سبيل واحد؛ جماعة الهدى، ومصيره الجنة، وأن إبليس استبدع سبلاً متفرقة؛ جماعة الضلالة، ومصيرها إلى النار»(٥).

ومن هنا نهى الله تبارك وتعالى في آيات كثيرة

عن التفرق في الدين والانحراف عن السبيل السوي صراط الله المستقيم، وإن من الانحراف عن الصراط المستقيم ما نراه من الطرقية المبتدعين ومن شايعهم من المبدلين المغيرين الذين يتبعون أهواءهم بغير هدى من الله، ويرمون غيرهم بالجهل والضلال، أو الكفر أو الابتداع، والواجب على جميع المسلمين سلوك الصراط المستقيم، ورد الأمر عند التنازع إلى كتاب الله الكريم وسنة النبي الأمين ﷺ، وقد أمرنا الله في كتابه أن ندعوه في كل ركعة من ركعات الصلاة أن يهدينا صراطه المستقيم، فاللهم اهدنا إليه، واجعلنا من الداعين له.

ثانيا: البلاغ والبيان

وقد خاطب الله نبيه ﷺ بذلك وأمره بإبلاغ جميع ما أرسله الله به، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧]، وقد امتثل ﷺ لهذا الأمر وقام به خير قيام، وقد شهدت له أمته بالبلاغ في خطبته يوم حجة الوداع، واستنطقهم بذلك في أعظم المحافل، كما في صحيح مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي ﷺ خطب الناس في عرفات ومما قال: «وأنتم تسألون عني فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «اللهم اشهد، اللهم اشهد» ثلاث مرات(٥).

وفي صحيح البخاري من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ: وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجة التي حج بها وقال: «هذا يوم الحج الأكبر»، فطفق النبي ﷺ يقول: «اللهم اشهد» وودّع الناس، فقالوا: هذه حجة الوداع»(٦).

ومن زعم من الروافض بعد ذلك أن النبي ﷺ خصّ آل البيت بشيء من الرسالة دون غيرهم فقد افترى على الله ورسوله ﷺ، وضل ضلالاً مبينًا. تقول أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «من حدثك أن محمدًا ﷺ كتم شيئًا مما أنزل عليه فقد كذب، والله يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(٧).

وعن أبي جحيفة، قال: قلت لعلي: هل عندكم كتاب؟ قال: لا. إلا كتاب الله، أو فهم أعطيه رجل مسلم، أو ما في هذه الصحيفة. قال: قلت: فما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، ولا يقتل مسلم بكافر».

قال ابن حجر- رحمه الله- في شرحه للحديث: «وإنما سأله أبو جحيفة عن ذلك لأن جماعة من الشيعة كانوا يزعمون أن عند أهل البيت- لاسيما عليًا- أشياء من الوحي خصهم النبي ﷺ بها لم يطلع غيرهم عليها، وقد سأل عليًا عن هذه المسألة أيضًا قيس بن عُباد والأشتر النخعي وحديثهما في سنن النسائي»(٨).

وقال المقريزي: «والحق الذي لا ريب فيه أن دين الله تعالى ظاهر لا باطن فيه، وجوهر لا سر تحته، وهو كله لازم كل أحد لا مسامحة فيه، ولم يكتم رسول الله ﷺ من الشريعة ولا كلمة، ولا أطلع أخص الناس به من زوجة أو وَلَدٍ عَمٍّ على شيء من باطنٍ غيرِ ما دعا الناس كلهم إليه، ولو كتم شيئًا لما بلغ كما أمر، ومن قال هذا فهو كافر بإجماع الأمة»(٩).

ثالثا: التبشير والإنذار

وهو من المهمات الجليلة التي قام بها ﷺ، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦].

وفي الآية ترتيب حسن جميل، وذلك من حيث إن النبي ﷺ أرسل شاهدًا لله بالوحدانية وأنه لا إله غيره، وعليه أن يُرَغِّبَ في ذلك بالبشارة، فإن لم يكف ذلك يُرَهِّبُ بالإنذار، ويستمر في الدعوة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، ومعنى قوله تعالى: ﴿وَسِرَاجًا مُنِيرًا﴾ أي: وأمرك ظاهر فيما جئت به من الحق، كالشمس في إشراقها وإضاءتها، لا يجحدها إلا معاند(١٠).

وفي صحيح البخاري وغيره عن عطاء بن يسار قال: لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص- رضي الله عنهما- فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله ﷺ في التوراة، قال: أجل، والله إنه لموصوف في التوراة ببعض صفته في القرآن: يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا

سخاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ويُفتح به أعين عميٍ وآذان صم وقلوب غلف» (١١).

رابعاً: إقامة الحجة على العباد وبيان أحكام الكتاب:

أما عن إقامة الحجة على العباد فقد قال فيها رب العالمين: ﴿رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥].

وفي صحيح البخاري عن المغيرة أن النبي ﷺ قال: «ولا أحد أحبُّ إليه العذر من الله، ومن أجل ذلك بعث المبشرين والمنذرين»(١٢).

وفي صحيح مسلم من حديث عبد الله بن مسعود أن النبي ﷺ قال: «وليس أحدٌ أحب إليه العذر من الله، من أجل ذلك أنزل الكتاب وأرسل الرسل»(١٣).

والنصوص الدالة على أن الله لا يعذب إلا بعد الرسالة كثيرة، وأما عن بيانه لأحكام الكتاب فقد جاء ذلك صريحًا في كتاب الله، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]،

فالمبين لكل ما أنزله الله تعالى على المكلفين من التكاليف والأحكام هو رسول الله عليه الصلاة والسلام، ولهذا أوجب الله طاعته والانقياد لأمره، وإلى جانب هذه الوظائف كان ﷺ على رأس العابدين لله، وقد وصفه ربه بلفظ العبودية في مواطن كثيرة في كتابه، وأمره ربه بها فقال: ﴿وَاعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ﴾ أي الموت، وقد قام بهذه العبودية لله خير قيام ﷺ، لأنه يعلم أنه مخلوق مكلَّف من قبل ربه، وأنه خلق كغيره لعبادة الله، ولهذا نهى عن الغلو فيه ونصَّ في حديثه أنه عبد الله كما روى البخاري عن عمر رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبده، فقولوا: عبد الله ورسوله»(١٤).

ومع هذا كله فقد ذهب قوم من الناس وبعضهم ينسب نفسه إلى العلم وقالوا: إن الدنيا خلقت من أجل النبي ﷺ، حتى قال شاعرهم:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

هذا- والله- مخالفة صريحة لما جاء من عند الله تعالى، بل خلق الله سبحانه الثقلين الجن والإنس لعبادته وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

نسأل الله تعالى أن يوفقنا لعبادته وحده دون سواه، وأن يتقبل منا صالح الأعمال والأقوال.

وللحديث صلة إن شاء الله.

الهوامش:

١- مسند أحمد ٤٦٥/١، والحاكم في المستدرك جـ٣١٨/٢، وحسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).
٢- جوادّ بالتشديد جمع جادة وهي الطريق.
٣- تفسير ابن جرير جـ٦٥/٨.
٤- تفسير ابن كثير جـ٦٣٢/٢.
٥- تفسير القاسمي جـ٢٥٧١/٦.
٥- صحيح مسلم كتاب الحج باب ١٩ جـ٨٩٠/٢.
٦- صحيح البخاري كتاب الحج باب ١٣٢ جـ٥٧٤/٣.
٧- المرجع السابق، كتاب التفسير جـ٢٧٥/٨.
٨- فتح الباري شرح صحيح البخاري جـ٢٠٤/١.
٩- الخطط للمقريزي جـ١٩٨/٤.
١٠- تفسير ابن كثير.
١١- البخاري كتاب البيوع باب ٥٠ جـ٣٤٢/٤، وتفسير سورة الفتح جـ٥٨٥/٨.
١٢- البخاري كتاب التوحيد باب ٢٠ جـ٣٩٩/١٣.
١٣- مسلم- كتاب التوبة باب ٦ جـ٢١١٤/٤.
١٤- البخاري كتاب أحاديث الأنبياء باب ٤٨ جـ٤٧٨/٦.

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد تحدثت في اللقاء السابق عن بعض وظائف النبي ﷺ، وفي هذا اللقاء أودُّ أن أُذَكِّرَ الأمة بما يجب نحوه ﷺ، فأقول وبالله التوفيق:

إن هناك أمورًا كثيرة واجبة على هذه الأمة تجاه هذا النبي المختار ﷺ منها:

١- وجوب نصرته وتعزيره ﷺ: قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٨) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الفتح: ٨، ٩]،

وقد ذهب بعض أهل العلم إلى أن التعزير والتوقير في الآية للنبي ﷺ، والتسبيح لله تبارك وتعالى(١).

ومعنى التعزير والتوقير: الاحترام والإجلال والإعظام.

قال المبرد: ﴿تعزروه﴾: تبالغوا في تعظيمه، وقال الأخفش: تنصرونه، وقال الطبري: تعينونه(٢).

وذكر ابن تيمية أن التعزير: اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه، والتوقير: اسم جامع لكل ما فيه سكينة وطمأنينة من الإجلال والإكرام، وأن يعامل من التشريف والتكريم والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجه عن الوقار(٣).

وقد أوجب الله تعالى تعزيره وتوقيره، وألزم إكرامه وتعظيمه، ووعد على ذلك الفلاح في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقد دلت الآية على وجوب تعظيم الرسول ﷺ ونصره بالجهاد، ونصرته بنصرة دينه، وهذا لا يختص بعصره، بل هو أمر لازم في كل الأزمان والعصور إلى انقضاء التكليف، وقد تشتد الحاجة إلى ذلك في بعض الأوقات، خاصة حينما ينبري الظالمون بالطعن والازراء بالنبي ﷺ، ومن النصرة العظيمة للنبي الأمين ﷺ الجهاد بالبيان، وإيراد الحجة، ووضع الكتب في ذلك، وحلُّ شبه المخالفين.

وقد دافع الصحابة الأجلاء- رضوان الله عليهم- بكل ما يملكون في سبيل نصرة النبي ﷺ، بل قدموا أنفسهم رخيصة في سبيل ذلك.

قال ابن القيم- رحمه الله- أثناء حديثه عن غزوة أحد: «وقتل مصعب بن عمير بين يديه، فدفع اللواء إلى علي بن أبي طالب، ونشبت حَلَقتان من حلق المغفر(٤) في وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجراح، وعضَّ عليهما حتى سقطت ثنيتاه من شدة غوصهما في وجهه، وامتص مالك بن سنان والد أبي سعيد الخدري الدم من وجنته، وأدركه المشركون يريدون ما الله حائل بينهم وبينه، فحال دونه نفر من المسلمين نحو عشرة حتى قتلوا، ثم جالدهم طلحة حتى أجهدهم عنه، وترَّس أبو دجانة عليه بظهره، والنبل يقع فيه، وهو لا يتحرك، ومر أنس بن النضر بقوم من المسلمين قد ألقوا ما بأيديهم، فقال: ما تنتظرون ؟ فقالوا: قتل رسول الله ﷺ، فقال: ما تصنعون في الحياة بعده؟ قوموا فموتوا على ما مات عليه... وجاء علي إلى رسول الله ﷺ بماء ليشرب منه، فوجده آجنًا(٥)، فرده، وغسل من وجهه الدم، وصبَّ على رأسه، فأراد رسول الله ﷺ أن يعلو صخرة هنالك، فلم يستطع لما به، فجلس طلحة تحته حتى صعدها، وحانت الصلاة فصلى بهم جالسًا،

واجب الأمة نحو نبيها (ﷺ)

إعداد/
د. عبدالله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

وصار رسول الله ﷺ في ذلك اليوم تحت لواء الأنصار(٦).

فتأمل أخي المسلم هذه النماذج الرائعة في نصرة النبي ﷺ، ولقد سار التابعون الأخيار على هذا المنوال وتمنوا صحبة النبي ﷺ ونصرته والدفاع عنه وعن دينه، ولعل الخبر الذي ساقه ابن إسحاق يوضح ذلك، قال ابن إسحاق: حدثني يزيد بن زياد عن محمد بن كعب القرظي، قال: قال رجل من أهل الكوفة لحذيفة بن اليمان: يا أبا عبد الله أرأيتم رسول الله ﷺ وصحبتموه ؟ قال: نعم يابن أخي، قال: فكيف كنتم تصنعون ؟ قال: والله لقد كنا نجهد(٧) في اتباعه(٨)، قال: فقال: والله لو أدركناه ما تركناه يمشي على الأرض ولحملناه على أعناقنا...»(٩).

كما روى مسلم من حديث إبراهيم التيمي عن أبيه قال: كنا عند حذيفة، فقال رجل: لو أدركت رسول الله ﷺ قاتلت معه وأبليت...»(١٠)، والسؤال الذي يطرح نفسه الآن: ماذا قدمنا في العصر الحاضر لنصرة نبينا ﷺ والدفاع عنه، وقد تطاول عليه إخوان القردة والخنازير وعباد الصليب؟ إنه يجب على كل مسلم أن يراجع نفسه قبل أن يسأل بين يدي ربه عن تفريطه وتقصيره، وليكن لنا في سلفنا أسوة في توقير النبي ﷺ وتعظيمه والدفاع عنه، وقد مدح الله من يفعل ذلك، وأخبر أنهم هم الصادقون فقال: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ومما يجب أن يعلمه القاصي والداني أن الله عز وجل تولى نصرة نبيه ﷺ على أعدائه، وقد قال في كتابه: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ﴾ [التوبة]، كما عصمه من أن ينال منه أعداؤه فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧] أي: أن الله حافظك وناصرك ومؤيدك على أعدائك، فلا تخف ولا تحزن، فلن يستطيع أحد منهم أن يصل إليك بسوء، وقد كان النبي ﷺ يحرس قبل نزول هذه الآية، ففي البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: سَهِرَ رسول الله ﷺ مَقْدَمَهُ المدينة ليلة، فقال: «ليت رجلاً صالحًا من أصحابي يحرسني الليلة». قالت: فبينا نحن كذلك سمعنا خشخشة سلاح فقال: «من هذا ؟» قال: سعد بن أبي وقاص، فقال له رسول الله ﷺ: «ما جاء بك؟» قال: وقع في نفسي خوف على رسول الله ﷺ، فجئت أحرسه، فدعا له رسول الله ﷺ، ثم نام»(١١).

وبعد نزول هذه الآية أمر النبي ﷺ حارسيه أن ينصرفوا كما روى الترمذي وغيره عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾، فأخرج رسول الله ﷺ رأسه من القبة، فقال لهم: «يأيها الناس انصرفوا، فقد عصمني ربي»(١٢).

قال ابن كثير: «ومن عصمة الله لرسوله ﷺ حفظهُ له من أهل مكة وصناديدها وحسادها ومعانديها ومترفيها، مع شدة العداوة والبغْضة ونصب المحاربة له ليلاً ونهارًا، بما يخلقه الله من الأسباب العظيمة بقَدَره وحكمته العظيمة، فصانه في ابتداء الرسالة بعمه أبي طالب، إذ كان رئيسًا مطاعًا كبيرًا في قريش، وخلق الله في قلبه محبة طبيعية لرسول الله ﷺ لا شرعية ولو كان أسلم لاجترأ عليه كفارها وكبارها، ولكن لما كان بينه وبينهم قدر مشترك في الكفر هابوه واحترموه، فلما مات أبو طالب نال منه المشركون أذى يسيرًا، ثم

قيض الله له الأنصار فبايعوه على الإسلام، وعلى أن يتحول إلى دارهم- وهي المدينة- فلما صار إليها حَمَوْه من الأحمر والأسود، فكلما همَّ أحد من المشركين وأهل الكتاب بسوء كاده الله ورد كيده عليه، كما كاده اليهود بالسحر حماه الله منهم، وأنزل عليه سورتي المعوذتين دواء لذلك الداء، ولما سمَّ اليهود ذراع تلك الشاة بخيبر، أعلمه الله به، وحماه منه، ولهذا أشباه كثيرة جداً يطول ذكرها»(١٣).

وقبل أن أنتقل من هذه النقطة إلى غيرها أقول لعموم أهل الإيمان: لا ينبغي لكم التقاعس والتخاذل عن نصرة رسول الله ﷺ، وأذكركم بتقريع الله وتوبيخه الشديد لمن تخلف عن نصرة رسول الله ﷺ كما جاء في قوله تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ﴾ [التوبة: ١٢٠]، أي: ما صح ذلك وما استقام.

٢- وجوب النصح لرسول الله ﷺ، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٩١]، ومعنى: «إذا نصحوا لله ورسوله» أي: أخلصوا الإيمان والعمل الصالح، فلم يرجفوا، ولم يثيروا الفتن، وأوصلوا الخيرات للمجاهدين وقاموا بمصالح بيوتهم(١٤).

وعن تميم الداري أن النبي ﷺ قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(١٥).

وهذا حديث عظيم الشأن عميم النفع، قال أبو سليمان الخطابي- رحمه الله-: «النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له، قال: ويقال: هو من وجيز الأسماء ومختصر الكلام، وليس في كلام العرب كلمة أجمع لخير الدنيا والآخرة منه»، وقال النووي- رحمه الله- في المراد بالنصيحة للنبي ﷺ: «وأما النصيحة لرسول الله ﷺ فتصديقه على الرسالة، والإيمان بجميع ما جاء به، وطاعته في أمره ونهيه، ونصرته حيّاً وميتًا، ومعاداة من عاداه، وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته، ونفي التهمة عنها، واستثارة علومها، والتفقه في معانيها، والدعاء إليها، والتلطف في تعلمها وإعظامها وإجلالها، والتأدب عند قراءتها، والإمساك عن الكلام فيها بغير علم، وإجلال أهلها لانتسابهم إليها، والتخلق بأخلاقه، والتأدب بآدابه، ومحبة أهل بيته وأصحابه، ومجانبة من ابتدع في سنته، أو تعرض لأحد من أصحابه ونحو ذلك»(١٦).

نسأل الله عز وجل أن يجعلنا من هؤلاء، والله وحده ولي التوفيق والسداد، وللحديث صلة- بإذن الله-.

الهوامش:

١- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير للشوكاني ٤٧/٥ .
٢- الشفا للقاضي عياض ٣٥/٢ .
٣- الصارم المسلول ص١٤٢ .
٤- المغفر: حلق يتقنع به المتسلح تُسبَغُ على العنق . لسان العرب ٢٦/٥ .
٥- الآجن: هو الماء المتغير الطعم واللون . لسان العرب ٨/١ .
٦- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ١٩٧/٣- ١٩٩ .
٧- هذا الاستفهام لا يراد منه حقيقته، فإن السائل لا يجهل ذلك، وإنما المراد التعجب منه واستعظامه .
٨- أي نبذل غاية جهدنا في طاعته وامتثال أمره .
٩- سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢ .
١٠- يعني: بالغت في نصرته، كأنه أراد الزيادة على نصرة الصحابة، والحديث في مسلم كتاب الجهاد باب ٣٦ جـ٣/ ١٤١٤
١١- أخرجه البخاري في كتاب الجهاد باب ٧٠ جـ٦/ ٨١، ومسلم في كتاب فضائل الصحابة باب ٥ جـ٤/ ١٨٧٥، واللفظ له .
١٢- رواه الترمذي في كتاب التفسير وقال الألباني: حسن . انظر صحيح سنن الترمذي ٤٦/٣، كما أخرجه ابن جرير في تفسيره ١٩٩/٦، والحاكم في المستدرك ٣١٣/٢ .
١٣- تفسير ابن كثير ١٤٥/٢ .
١٤- تفسير القاسمي ٣٢٣١/٨ .
١٥- صحيح مسلم كتاب الإيمان باب ٢٣ جـ١/ ٧٤ .
١٦- شرح النووي على مسلم ٣٨/٢ .

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

واجب الأمة نحو نبيها (ﷺ)

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد تحدثت في اللقاء السابق عن بعض ما يجب للنبي ﷺ، وأواصل في هذا اللقاء الحديث عن ذلك فأقول وبالله التوفيق:

إعداد/
د. عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

٣- وجوب محبته ﷺ:

إن محبة النبي ﷺ أصل عظيم من أصول الإيمان، وقد روى الشيخان وغيرهما عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين»(١).

وهذه المحبة تابعة لمحبة الله تعالى؛ إذ لا يوجد في الوجود من يستحق أن يُحب لذاته من كل وجه سوى الله تعالى، وكل من يحب سواه فمحبته تبع لحبه.

يقول ابن القيم- رحمه الله-: «وكل محبة وتعظيم للبشر فإنما تجوز تبعًا لمحبة الله وتعظيمه، كمحبة رسول الله ﷺ وتعظيمه، فإنها من تمام محبة مُرْسله وتعظيمه سبحانه، فإن أمته يحبونه لحب الله له، ويعظمونه ويجلونه لإجلال الله له، فهي محبة لله في موجبات محبة الله»(٢).

وقد أوجب الله محبته ومحبة رسوله ﷺ، وتقديمها على الأهل والمال، فقال: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

حب الصحابة - رضي الله عنهم - للنبي ﷺ

قال القاضي عياض- رحمه الله- في معنى هذه الآية: «فكفى بهذا حضًا وتنبيهًا ودلالة وحجة على إلزام محبته ﷺ ووجوب فرضها، وعظم خطرها، واستحقاقه لها ﷺ، إذ قرَّع الله من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله، وتوعدهم بقوله تعالى: ﴿فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ﴾، ثم فسقهم بتمام الآية، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله»(٣).

وقد ضرب صحابة النبي ﷺ أروع النماذج في صدق حبهم للنبي ﷺ، وكان الواحد منهم يضع ماله ونفسه بين يدي النبي ﷺ حبًا لله ولرسوله ﷺ، وطمعًا في نيل ثواب الله ورضاه، ومن ذلك ما رواه البخاري عن عبد الله بن هشام رضي الله عنه قال: «كنا مع النبي ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله، لأنت أحبُّ إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي ﷺ: «لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن، والله لأنت أحبُّ إليَّ من نفسي، فقال النبي ﷺ: «الآن يا عمر»(٤).

قال الخطابي في معنى الحديث: «حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد النبي ﷺ حب الاختيار إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جبلت عليه».

وقال ابن حجر معقبًا على كلام الخطابي: «فعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحسب الطبع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي ﷺ أحب إليه من نفسه لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والآخرة، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب بقوله: «الآن يا عمر»، أي: الآن عرفت فنطقت بما يجب»(٥).

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عمرو بن العاص رضي الله عنه أنه قال وهو في سياقة الموت(٦): «وما كان أحدٌ أحبَّ إليَّ من رسول الله ﷺ، ولا أجلَّ في عيني منه، وما كنت أُطيق أن أملأ عيني

منه إجلالاً له، ولو سُئلت أن أصفه ما أطقت لأني لم أكن أملأ عيني منه»(٧).

وقد كان حب أصحاب النبي ﷺ يذهل المشركين، وقد وصف عروة بن مسعود الثقفي حب أصحاب النبي ﷺ له وهو على الشرك قبل أن يسلم، فقال: «فوالله ما تنخم رسول الله ﷺ نُخامة إلا وقعت في كفِّ رجل منهم فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادوا يقتتلون على وضوئه، وإذا تكلم خفضوا أصواتهم عنده، وما يحدون إليه النظر تعظيمًا له»(٨).

وقد ذكر ابن رجب الحنبلي- رحمه الله- أن محبة رسول الله ﷺ على درجتين:

الدرجة الأولى: فرض، وهي المحبة التي تقتضي قبول ما جاء به الرسول ﷺ من عند الله وتلقيه بالمحبة والرضا والتعظيم والتسليم، وعدم طلب الهدى من غير طريقه بالكلية، ثم حسن الاتباع له فيما بلغه عن ربه، من تصديقه في كل ما أخبر به، وطاعته فيما أمر به من الواجبات، والانتهاء عما نهى عنه من المحرمات، ونصرة دينه، والجهاد لمن خالفه بحسب القدرة، فهذا القدر لا بد منه، ولا يتم الإيمان بدونه.

والدرجة الثانية: فضل، وهي المحبة التي تقتضي حسن التأسي به، وتحقيق الاقتداء بسنته، وأخلاقه، وآدابه، ونوافله، وتطوعاته، وأكله وشربه، ولباسه وحسن معاشرته لأزواجه، وغير ذلك من آدابه الكاملة وأخلاقه الطاهرة ﷺ(٩).

٤- وجوب الصلاة والسلام عليه ﷺ :

وقد أمر الله أهل الإيمان بذلك، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]، وهذه الآية مدنية، والمقصود منها أن الله تعالى أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى المؤمنين بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين العلوي والسفلي جميعًا، وهذا التشريف الذي شرف الله تعالى به النبي ﷺ في هذه الآية أتم وأجمع من تشريف آدم عليه السلام بأمر الملائكة له بالسجود، لأن الله تعالى أخبر عن نفسه بالصلاة على النبي ﷺ، ثم أخبر بعد ذلك عن الملائكة وتشريف يصدر عن الله تعالى أبلغ من تشريف يختص به الملائكة من غير أن يكون الله تعالى معهم(١٠).

وقد ذكر البخاري عن أبي العالية أن صلاة الله على نبيه ﷺ هي: ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، وقال ابن عباس رضي الله عنهما: يُصلون يُبركون. هكذا علقه البخاري عنهما(١١).

وقد رواه أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس عن أبي العالية كذلك، وروى مثله عن الربيع أيضًا، وروى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس كما قاله سواء. رواهما ابن أبي حاتم(١٢). ومعنى قول ابن عباس: يُبَرِّكون أي يدعون له بالبركة، وهذا يوافق قول أبي العالية لكنه أخص منه(١٣).

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ فيها أمر بالصلاة عليه وكيفية هذه الصلاة، ومن ذلك ما رواه البخاري عن كعب بن عجرة رضي الله عنه قال: «قيل: يا رسول الله، أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك ؟ قال: قولوا اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم، إنك حميد مجيد»(١٤).

وفي مسلم عن أبي مسعود الأنصاري رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ ونحن في مجلس سعد بن عبادة فقال له بشير بن سعد رضي الله عنه: أمرنا الله تعالى أن نصلي عليك يا رسول الله، فكيف نصلي عليك ؟ قال: فسكت رسول الله ﷺ حتى تمنينا أنه لم يسأله، ثم قال رسول الله ﷺ : قولوا: اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد، كما صليت على آل إبراهيم، وبارك على محمد وعلى آل محمد، كما باركت على آل إبراهيم في العالمين إنك حميد مجيد، والسلام كما قد علمتم»(١٥).

ومعنى: «والسلام كما علمتم» يعني: في قولنا في التشهد: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته، ويطول المقام هنا عن ذكر ما ورد من صيغ كثيرة في الصلاة والسلام على النبي ﷺ ، وعلى العبد المسلم أن يتعلم الصحيح منها ومن أجمعها ما ذكرته آنفًا عن النبي ﷺ لأنه هو الذي علمه لأصحابه لما سألوه عن كيفية الصلاة عليه ﷺ .

فضل الصلاة على النبي ﷺ

وأما عن فضل الصلاة عليه، فقد روى مسلم في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من صلى عليَّ واحدة صلى الله عليه عشرًا»(١٥).

ومن صلى على النبي ﷺ عقب الأذان وسأل الله له الشفاعة وجبت له كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع النبي

ﷺ يقول: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول، ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه بها عشرًا، ثم سلوا الله لي الوسيلة، فإنها منزلة في الجنة لا تنبغي إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون أنا هو، فمن سأل لي الوسيلة حلَّت له الشفاعة»(١٦).

كما أن الصلاة على النبي ﷺ في أول الدعاء من أسباب الإجابة كما في حديث فضالة بن عبيد رضي الله عنه أن النبي ﷺ سمع رجلاً يدعو في الصلاة ولم يذكر الله عز وجل ولم يصلِّ على النبي ﷺ فقال رسول الله ﷺ: «عجل هذا». ثم دعاه فقال له ولغيره: «إذا صلَّى أحدكم فليبدأ بتحميد ربه والثناء عليه، ثم ليصلِّ على النبي ﷺ، ثم ليدع بعد بما شاء»(١٧).

وليحذر المسلم من التقصير والتفريط في الصلاة والسلام على النبي ﷺ عند ذكر اسمه ؛ لما ورد في ذلك من التحذير الشديد عنه ﷺ، ومنه ما أخرجه الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «رَغِمَ أَنْفُ رجل ذُكِرْتَ عنده فلم يصلِّ عليك». قال الترمذي: «ويروى عن بعض أهل العلم قال: إذا صلى الرجل على النبي ﷺ مرة في المجلس أجزأ عنه ما كان في ذلك المجلس»(١٩).

ومعنى: «رغم أنف رجل» أي: لصق أنفه بالتراب كناية عن حصول الذل، وهذا هو الأصل في معنى الكلمة، ثم استعمل في الذل والعجز عن الانتصاف، والانقياد على كره(٢٠).

والفاء في قوله: «فلم يصلِّ عليَّ» ٤قيل بأنها استبعادية، والمعنى: بعيد عن العاقل أن يتمكن من إجراء كلمات معدودة على لسانه فيفوز بها فلم يغتنمه، فحقيق أن يذله الله، وقيل: إنها للتعقيب فتفيد ذم التراخي عن الصلاة عليه عند ذكره ﷺ(٢١).

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «البخيل من ذكرت عنده فلم يصلِّ عليَّ»(٢٢).

ومعنى: «البخيل» أي: الكامل البخل، وذلك لأنه بخل على نفسه حيث حَرَمها صلاة الله عليه عشرًا إذا هو صلى واحدة، وقال القاري: «فمن لم يصل عليه فقد بخل ومنع نفسه من أن يكتال بالمكيال الأوفى، فلا يكون أحد أبخل منه»(٢٣).

وعليه أقول لعموم المسلمين: أكثروا من الصلاة والسلام على النبي ﷺ لتنالوا بذلك الخير العميم والأجر الوفير، والفوائد الجمة العميمة، ومنها شفاعته ﷺ، وإذا جلس المسلم مجلسًا فعليه أن يذكر الله فيه ويصلي على النبي ﷺ ؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ما جلس قوم مجلسًا لم يذكروا الله فيه، ولم يصلوا على نبيهم إلا كان عليهم ترة، فإن شاء عذبهم وإن شاء غفر لهم»(٢٤).

ومعنى كلمة «ترة» الواردة في الحديث: «النقص»، وعلى المسلم أن يلتزم بالنصوص الواردة عنه ﷺ في الصلاة عليه، لأنها عبادة، والعبادات توقيفية، وعليه فلا يُلْتفتُ إلى كتب الأذكار البدعية التي اشتملت على أذكار ليس لها أصل في السنة، وذلك ككتاب «دلائل الخيرات»، وغير ذلك من الكتب التي لا يلتزم فيها أصحابها بالوارد عن النبي ﷺ.

وبناءً على ذلك أقول: إنه لا يجوز إضافة لفظ «سيدنا» في الأذان والتشهد وغير ذلك مما ورد فيه نص عنه ﷺ اتباعًا للفظ المأثور، ووقوفًا عند الخبر الصحيح. وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

الهوامش

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٨ ج١/٥٨، ومسلم في كتاب الإيمان باب ١٦ ج١/٦٧ .
٢- جلاء الأفهام لابن القيم ج١/١٨٧ .
٣- الشفا بتعريف حقوق المصطفى ﷺ ج٢/١٧ .
٤- صحيح البخاري كتاب الأيمان والنذور باب ٣ ج١١/٥٢٣ .
٥- فتح الباري شرح صحيح البخاري ج١١/٥٢٨ .
٦- أي حال حضور الموت .
٧- صحيح مسلم، كتاب الأيمان، باب ٥٤ ج١/١١٢ .
٨- صحيح البخاري، كتاب الشروط، باب ١٥ ج٥/٣٣٠ .
٩- استنشاق نسيم الأنس من نفحات رياض القدس لابن رجب ص٣٤، ٣٥ .
١٠- انظر القول البديع في الصلاة على الحبيب الشفيع ﷺ للسخاوي ص٣٦ .
١١- انظر صحيح البخاري، كتاب التفسير باب ١٠ ج٨/٥٣٢ .
١٢- انظر تفسير ابن كثير ج٥/٤٤٧ .
١٣- انظر فتح الباري ج٨/٥٣٣ .
١٤- صحيح البخاري، كتاب التفسير، باب ١٠ ج٨/٥٣٢
١٥- صحيح مسلم كتاب الصلاة باب ١٧ ج١/٣٠٥ .
١٦- المرجع السابق ج١/٣٠٦، كما رواه أبو داود والترمذي والنسائي .
١٧- صحيح مسلم كتاب الصلاة، باب ٧ ج١/٢٨٨، ٢٨٩
١٨- أخرجه أحمد في مسنده ج٦/١٨، والترمذي في سننه وقال الألباني: صحيح، وانظر صحيح سنن الترمذي ج٣/١٦٤ .
١٩- انظر صحيح سنن الترمذي ج٣/١٧٧ .
٢٠- النهاية في غريب الحديث والأثر ج٢/٢٣٨ .
٢١- انظر تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج٩/٥٣٠
٢٢- صحيح سنن الترمذي ج٣/١٧٧ .
٢٣- انظر تحفة الأحوذي ج٩/٥٣٠ .
٢٤- أخرجه الترمذي، صحيح سنن الترمذي ج٣/١٤٠، والحاكم في المستدرك ج١/٤٩٦ .

الحلقة الأخيرة

خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة من رب العالمين

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على خاتم النبيين، وإمام المتقين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد تحدثت فيما مضى عن بعض ما يجب للنبي ﷺ من حقوق على أمته، وأواصل في هذا اللقاء بعون الله تعالى- الكلام حول ذلك فأقول وبالله التوفيق:

٥- عدم التقديم بين يديه وعدم رفع الصوت عنده- ﷺ- قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ١، ٢].

ففي هاتين الآيتين جملة من الآداب التي أدّب الله بها المؤمنين مع النبي ﷺ، وأولها عدم التقديم بين يديه، أي: لا تسرعوا في الأشياء بين يديه، ولا تقطعوا أمرًا دون الله ورسوله، ولا تعجلوا به، وقد ذكر ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ أي: لا تقولوا خلاف القرآن والسنة.

وعن مجاهد أنه قال فيها: لا تفتاتوا على رسول الله ﷺ بشيء حتى يقضيه الله على لسانه.

وعن سفيان الثوري: لا تقضوا أمرًا دون رسول الله ﷺ(١).

وثانيها: عدم رفع الصوت بين يدي النبي ﷺ، وقد نهى الله عن ذلك كما هو صريح في الآية السابقة، وقد ذكر البخاري أن سبب نزول هذه الآية: أنه لما قدم وفد بني تميم على النبي ﷺ، أشار أبو بكر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم القعقاع بن معبد، وأشار عمر رضي الله عنه أن يؤمر عليهم الأقرع بن حابس، فقال أبو بكر لعمر: ما أردت إلا خلافي، فقال له عمر: ما أردت خلافك، فارتفعت أصواتهما في ذلك، فأنزل الله تعالى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ﴾(٢).

وهذا نهي عام لكل أحد يرفع صوته فوق صوت النبي ﷺ، ويدخل فيه من يرفع ويقدم كلام إمامه وشيخه على كلام رسول الله ﷺ، وقال العلماء: يكره رفع الصوت عند قبره، كما كان يكره في حياته، لأنه محترم حيًا وفي قبره صلوات الله وسلامه عليه(٣).

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي- رحمه الله-: «ومعلوم أن حرمة النبي ﷺ بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره ﷺ وهم في صخب ولغط وأصواتهم مرتفعة ارتفاعًا مزعجًا كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر، وقد شدد عمر رضي الله عنه بالنكير على رجلين رفعا أصواتهما في مسجده ﷺ، وقال: لو كنتما من أهل المدينة لأوجعتكما ضربًا»(٤).

كما نهى الله في الآية عن الجهر له بالقول كما يجهر الرجل لمخاطبه ممن عداه، بل يخاطب بسكينة ووقار واحترام، كما قال تعالى: ﴿لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ

إعداد/
د. عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

واجب الأمة نحو نبيها محمد (ﷺ)

الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ﴾ [النور: ٦٣].

٦- تحريم إيذائه ﷺ:

حرَّم الله على الأمة إيذاءَه ﷺ ببعض ما هو مباح أن يعامل به بعضهم بعضًا، وذلك مثل نكاح أزواجه من بعده، وهذا من خصائص النبي ﷺ، وقد خصه الله بأحكام وشرَّفه بمعالم ومعانٍ لم يشاركه فيها أحد، تمييزًا لشرفه وتنبيها على مرتبته، قال تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ومعنى الآية: أنه لا يصح ولا يستقيم أن تؤذوا رسول الله ﷺ بأي شيء كائنًا ما كان، ومن جملة ذلك زواج زوجاته من بعده، لأنهن أمهات المؤمنين، ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات، وإذا كان يحرم إيذاؤه على هذا الوجه المخصوص، فإيذاؤه بسبه، أو الطعن عليه، أو أي لون من ألوان الإيذاء يكون أشد وأنكى، وقد لعن الله في كتابه من آذى الله ورسوله، فقال سبحانه: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ [الأحزاب: ٥٧]، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله، ومن أبعده الله فهو المحروم، ولا يرجى له خيرٌ أبدًا، والآية قد لعنته في الدنيا والآخرة، ومن أبعد في الآخرة فقد خاب وخسر، لأن الله لم يحصر جزاءه في الإبعاد، بل أوعده بالعذاب فقال: ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا ﴾.

ويا ليت المجرمين المنحرفين بعد ذلك يكفون عن إيذائه، ونحن نسمع بين الحين والآخر من يتعرض بما لا يليق لشخصه ﷺ، ووعيدهم عند الله شديد، ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ ﴾.

٧- وجوب طاعته واقتفاء أثره ﷺ:

إن طاعة الرسول ﷺ واجبة بنص القرآن والسنة وإجماع الأمة، قال تعالى مبينًا وجوب النزول على حكم النبي ﷺ في كل خلاف: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ [النساء ٦٥].

في هذه الآية يقسم رب العالمين بربوبيته لرسوله ﷺ مخاطبًا له في ذلك خطاب التكريم، وقد بينت الآية أن الإيمان لا يكون صحيحًا إلا بثلاثة أمور لا بد من تحقيقها: الأول: تحكيمه ﷺ في كل قضية وقع فيها شجار أو خلاف، والثاني: عدم وجود حرج أو ضيق من حكمه ﷺ، والثالث: التسليم والإذعان والانقياد لحكمه عليه الصلاة والسلام، وهذه الآية تدل على عظمة النبي ﷺ ؛ لأن الله تعالى أوجب الانقياد لحكمه وبالغ في ذلك الإيجاب، وبين أنه لا بد من حصول ذلك الانقياد في الظاهر وفي القلب، وذلك ينفي صدور الخطأ عنه ﷺ.

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «واستدلوا بالآية أيضًا على أن النص لا يعارض ولا يخصص بالقياس، فمن بلغه حديث الرسول ﷺ ورده بمخالفة قياسه له فهو غير مطيع للرسول ﷺ، ولا ممن تصدق عليه الخصال الثلاثة المشروطة في صحة الإيمان بنص الآية، ومخالفة نص القرآن بالقياس أعظم جرمًا وأضل سبيلاً، وتدل الآية بالأولى على بطلان التقليد فمن ظهر له حكم الله أو حكم رسوله ﷺ في شيء وتركه إلى قول الفقهاء الذين يتقلد مذهبهم كان غير مطيع لله ولرسوله كما أمر الله عز وجل، وإذا قلنا: إن للعامي أن يتبع العلماء فليس المعنى أنه يتخذهم شارعين ويقدم أقوالهم على أحكام الله ورسوله ﷺ المنصوصة، وإنما يتبعهم بتلقي هذه النصوص عنهم والاستعانة بهم على فهمها، لا في آرائهم وأقيستهم المعارضة للنص»(٥).

وعليه أقول: إن كل حديث عن رسول الله ﷺ رواه جامعوا الصحاح، أو صححه من يرجع إليه في التصحيح من أئمة الحديث تعيَّن على كل مؤمن بالله ورسوله الأخذ به وقبوله ظاهرًا وباطنًا، وأن لا يلتمس مخارج لرده أو تأويله، ليخرج به عن ظاهره، لمذهب تقلده، أو عصبية نشأ عليها، وقال الإمام الفُلاني في «إيقاظ الهمم»: «إن حكم الحاكم المجتهد إذا خالف نص كتاب الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ

وجب نقضه ومنع نفوذه، ولا يعارض نص الكتاب والسنة بالاحتمالات العقلية والخيالات النفسانية والعصبية الشيطانية، بأن يقال: لعل المجتهد قد اطلع على هذا النص وتركه لعلةٍ ظهرت له، أو أنه اطلع على دليل آخر ونحو هذا، مما لهج به فرق الفقهاء المتعصبين، وأطبق عليه جهلة المقلدين فافهم»(٦).

وقال ابن القيم: «... فالله سبحانه علق سعادة الدارين بمتابعته، وجعل شقاوة الدارين في مخالفته، فلأتباعه الهدى والأمن، والفلاح والعزة والكفاية والنصرة، والولاية والتأييد، وطيب العيش في الدنيا والآخرة، ولمخالفيه الذلة والصغار، والخوف والضلال، والخذلان والشقاء في الدنيا والآخرة، وقد أقسم ﷺ بأن لا يؤمن أحدكم حتى يكون هو أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين»(٧).

وأقسم الله سبحانه بأن لا يؤمن من لا يحكمه في كل ما تنازع فيه هو وغيره، ثم يرضى بحكمه، ولا يجد في نفسه حرجًا مما حكم به ثم يسلم له تسليمًا، وينقاد له انقيادًا، وقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦]، فقطع سبحانه وتعالى التخيير بعد أمره وأمر رسوله ﷺ، فليس لمؤمن أن يختار شيئًا بعد أمره ﷺ، بل إذا أمر فأمره حَتْمٌ، فلا حكم لأحد معه، ولا قول لأحد معه، كما لا تشريع لأحد معه»(٨).

وقد قرن الله عز وجل طاعة الرسول ﷺ بطاعته في آيات كثيرة من القرآن؛ كقوله سبحانه: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٢]، ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣٢]، واعتبر القرآن الكريم طاعة الرسول ﷺ طاعة لله واتباعه حبًا لله، فقال تعالى: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا﴾ [النساء: ٨٠]، وقال سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [آل عمران: ٣٠].

قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسيره للآية: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل من ادَّعى محبة الله وليس هو على الطريقة فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد»(٩). ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم من محبتكم إياه، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء: ليس الشأن أن تُحِبَّ، وإنما الشأن أن تُحَبَّ. وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية»(١٠).

والحديث المذكور آنفًا يفيد وجوب الرجوع إلى حكم السنة، وترك ما خالفها امتثالاً لأمر الله تعالى بإيجاب طاعة رسوله ﷺ، وهذا هو نفس الاعتصام بالسنة وحقيقته، وقد كان صحابة النبي ﷺ يستفيدون أحكام الشرع من القرآن الكريم الذي يتلقونه عن الرسول ﷺ، وكثيرًا ما كانت تنزل آيات القرآن الكريم مجملة أو مطلقة، وكان النبي ﷺ هو الذي يشرحها ويفصلها، وقد كانوا- رضوان الله عليهم- يلتزمون حدود أمره ونهيه، ويتبعونه في أعماله وعباداته ومعاملاته، وقد بلغ من اقتدائهم برسول الله ﷺ، أن كانوا يفعلون كما يفعل ويتركون ما ترك دون أن يعلموا لذلك سببًا، أو يسألوه عن علته وحكمته، فقد أخرج البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «اتخذ النبي ﷺ خاتمًا من ذهب فاتخذ الناس خواتيم من ذهب، فقال النبي ﷺ: إني اتخذت خاتمًا من ذهب فنبذه، وقال: إني لا ألبسه أبدًا، فنبذ الناس خواتيمهم».

وقد بوب البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ»، وعلق الحافظ ابن حجر على هذه الترجمة بقوله: «والأصل فيه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وقد ذهب جمع إلى وجوبه لدخوله في عموم الأمر بقوله تعالى: «وما آتاكم الرسول فخذوه»، وبقوله: «فاتبعوني يحببكم الله»(١١).

ولما أمر الرسول ﷺ أصحابه عام الحديبية بالتحلل تأخروا عن تنفيذ الأمر رجاء أن يأذن لهم في القتال، وأن ينصروا فيكملوا عمرتهم، قام فدخل على أم سلمة رضي الله عنها وذكر لها ما لقي من الناس، فقالت أم سلمة رضي الله عنها: يا رسول الله، أتحب ذلك؟ اخرج ثم لا تكلم أحدًا منهم حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك، فقام، فخرج، فلم يكلم أحدًا منهم، حتى فعل ذلك؛ نحر بُدْنه، ودعا حالقه فحلقه،

فلما رأى الناس ذلك، قاموا فنحروا، وجعل بعضهم يحلق بعضًا، حتى كاد بعضهم يقتل بعضًا غمًّا»(١٢).

فتأمل كيف كانت سرعتهم واستجابتهم لأفعاله ﷺ، وتقديم قوله وفعله على ما يرغبونه دون سؤال أو استفسار، وهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه سمع النبي ﷺ لما استوى على المنبر يوم الجمعة يقول: «اجلسوا»؛ فجلس على باب المسجد، فرآه رسول الله ﷺ فقال: «تعال يا عبد الله بن مسعود»(١٣).

وهكذا كان صحابة النبي ﷺ يعتبرون قوله وفعله وتقريره حكمًا شرعيًا يجب قبوله والعمل به، ولم يخالف في ذلك واحد منهم، بل إنهم كانوا يعتبرون ما جاء به في سنته كالقرآن في العمل به، ويدل على ذلك ما جاء عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «لعن الله الواشمات والمستوشمات والمتنمصات والمتفلجات للحسن، المغيرات خلق الله، فبلغ ذلك امرأة من بني أسد يُقال لها أم يعقوب، فجاءت فقالت: إنه بلغني أنك لعنت كيت وكيت، فقال: وما لي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ، وهو في كتاب الله، فقالت: لقد قرأت ما بين اللوحين فما وجدت فيه ما تقول. قال: لئن كنت قرأتِه لقد وجدتِه، أما قرأتِ ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾؟ قالت: بلى. قال: فإنه قد نهى عنه، قالت: فإني أرى أهلك يفعلونه. قال: فاذهبي فانظري، فذهبت فنظرت فلم تر من حاجتها شيئًا. فقال: لو كانت كذلك ما جامعتها».

والشاهد من الحديث إطلاق ابن مسعود رضي الله عنه لعن من فعل ذلك إلى كتاب الله، وقد فهمت أم يعقوب ذلك، وقررها على هذا الفهم، وبين لها أنه أراد بذلك قول رسول الله ﷺ، وأن كلامه وحي من عند الله كالقرآن، ويؤكد ذلك حديث المقدام بن معد يكرب عن رسول الله ﷺ أنه قال: «ألا أني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه، ألا لا يحل لكم لحم الحمار الأهلي ولا كل ذي ناب من السباع، ولا لقطة معاهد إلا أن يستغني عنها صاحبها، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقرُوه، فإن لم يَقْرُوه فله أن يعقبهم بمثل قِرَاهُ»(١٥).

قال الخطابي: «يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنها رسول الله ﷺ مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض من الفرق الضالة، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب، فتحيروا وضلوا...».

وفي الحديث دليل على أنه لا حاجة بالحديث أن يعرض على الكتاب، وأنه مهما ثبت عن رسول الله ﷺ شيء كان حجة بنفسه، فأما ما رواه بعضهم أنه قال: «إذا جاءكم الحديث فاعرضوه على كتاب الله فإن وافقه فخذوه»، فإنه حديث باطل لا أصل له، وقد حكى زكريا الساجي عن يحيى بن معين أنه قال: هذا حديث وضعه الزنادقة»(١٦).

وقد أخبر الله في كتابه عن مهمة الرسول ﷺ بالنسبة للقرآن، وأنه مبين له، موضح لمراميه وآياته، فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي- رحمه الله-: «وقد ذكر جل وعلا في هذه الآية حكمتين من حكم إنزال القرآن على النبي ﷺ: إحداهما: أن يبين للناس ما نُزِّل إليهم في هذا الكتاب من الأوامر والنواهي، والوعد والوعيد، ونحو ذلك، وقد بين هذه الحكمة في غير هذا الموضع أيضًا كقوله: ﴿وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلاَّ لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾، وقوله: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ﴾، والحكمة الثانية: هي التفكر في آياته والاتعاظ بها كما قال هنا: «ولعلهم يتفكرون»(١٧).

وقد آتاه الله الكتاب والحكمة ليعلم الناس أحكام دينهم ويزكيهم بما أنزل الله عليه فقال سبحانه: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤]، وقد ذهب جمهور العلماء المحققين إلى أن المراد بالحكمة المذكورة في الآية سنة النبي ﷺ.

قال الإمام الشافعي رحمه الله: «فذكر الله وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعت من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة سنة رسول الله ﷺ»(١٨).

وتفسير الحكمة هنا بأنها السنة وجيه، لأن الله تعالى عطفها على الكتاب والعطف يقتضي المغايرة، لأنها في معرض المنة من الله علينا بتعليمنا إياها ولا يَمُنُّ إلا بما هو حق وصواب، فتكون الحكمة واجبة الاتباع كالقرآن، ولم يوجب علينا إلا اتباع القرآن والرسول ﷺ، فتعين أن تكون الحكمة هي ما صدر عن الرسول ﷺ من أفعال وأقوال وتقريرات في

معرض التشريع(١٩).

وقد بوب البخاري في صحيحه لقول الله تعالى: «أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم»، ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني».

قال ابن حجر في شرحه: «والنكتة في إعادة العامل إلى الرسول ﷺ دون أولي الأمر مع أن المطاع في الحقيقة هو الله تعالى كون الذي يعرف به ما يقع من التكليف هما القرآن والسنة، فكان التقدير: أطيعوا الله فيما نص عليكم في القرآن، وأطيعوا الرسول ﷺ فيما بين لكم من القرآن وما ينص عليكم من السنة، أو المعنى: أطيعوا الله فيما يأمركم به من الوحي المتعبد بتلاوته، وأطيعوا الرسول ﷺ فيما يأمركم به من الوحي الذي ليس بقرآن».

قال الطيبي: «أعاد الفعل في قوله: «وأطيعوا الرسول» إشارة إلى استقلال الرسول ﷺ بالطاعة، ولم يعده في أولي الأمر إشارة إلى أنه يوجد فيهم من لا تجب طاعته».

وقد وعد النبي ﷺ من أطاعه بدخول الجنة، ومن عصاه بدخول النار، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى. قالوا: يا رسول الله ومن يأبى ؟ قال: من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(٢١).

وقد جعل الله من لوازم الإيمان ألا يذهب الصحابة حيث يكونون مع النبي ﷺ دون أن يستأذنوه، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِذَا اسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأْذَنْ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمُ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾، قال ابن القيم: «فإذا جعل الله من لوازم الإيمان أنهم لا يذهبون مذهبًا إذا كانوا معه إلا باستئذانه فأولى أن يكون من لوازمه ألا يذهبوا إلى قول ولا مذهب علمي إلا بعد استئذانه، وإذنه يعرف بدلالة ما جاء به على أنه فيه» (٢٢).

واعتبر الله تعالى من علامات النفاق الإعراض عن تحكيم الرسول ﷺ، فقال تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ (٤٧) وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧، ٤٨].

وإذا نفى الله الإيمان عمن تولى وأعرض عن حكم الرسول ﷺ فما بالك بالمكذبين المجرمين المتطاولين على مقامه ﷺ.

ونحن نسمع- وللأسف الشديد- بين الحين والآخر كذابًا أشرًا ينال من النبي ﷺ.

ولقد كتبت هذه الحلقات المباركات دفاعًا ونصرة ومؤازة للنبي ﷺ، وما كنت أظن أنها ستتجاوز العشرة، ولكنها كانت هكذا بتوفيق الله، لذا فإني أتوسل إلى الله تعالى وبحبي لنبيه ﷺ أن يغفر لي ولوالدي، وأن يعفو عني، وأن يجعل ما كتبت زلفى لي بين يديه، وأن يحشرني مع حبيبه ومصطفاه ﷺ مع اعترافي بالعجز والضعف والتقصير، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- تفسير الطبري ج٢٦/٧٤ .
٢- البخاري مع الفتح كتاب التفسير باب ٤٩ ج٨/٥٩٠-٥٩٢
٣- تفسير ابن كثير ج٧/٣٤٧ .
٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٧/٦١٧ .
٥- تفسير القرآن الحكيم المعروف بتفسير المنار ج٥/٢٣٨ .
٦- نقله عنه القاسمي في محاسن التاويل ج٥/١٣٧٥ .
٧- الحديث أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الإيمان باب ٨ ج١/٥٨، ومسلم في الإيمان باب ١٦ ج١/٦٧، وأحمد في مسنده ج٣/٢٠٧ وغيرهم .
٨- زاد المعاد في هدي خير العباد لابن قيم الجوزية ج١/٣٧، ٣٨ .
٩- أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاعتصام، باب ٢٠ ج١٣/٣١٧ .
١٠- تفسير ابن كثير ج٢/ص٢٥ .
١١- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١٣/٢٧٤ .
١٢- زاد المعاد لابن القيم ج٣/٢٩٥ .
١٣- أخرجه أبو داود في سننه، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ج١/٢٠٣ .
١٤- أخرجه البخاري في كتاب التفسير- تفسير سورة الحشر ج٨/٦٣٠، ومسلم في كتاب اللباس باب ٣٣ ج١/١٦٧٨ .
١٥- أخرجه أبو داود في كتاب السنة، والترمذي في كتاب العلم، وابن ماجه في مقدمة سننه.
١٦- عون المعبود شرح سنن أبي داود ج١٢/٣٥٥، ٣٥٦ .
١٧- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن ج٣/٢٧٥ .
١٨- الرسالة للإمام الشافعي ص٧٨ .
١٩- دراسات في التفسير الموضوعي للدكتور/ زاهر الألمعي ص٣١٠ .
٢٠- فتح الباري بشرح صحيح البخاري ج١٣/١١١، ١١٢ .
٢١- صحيح البخاري مع الفتح، كتاب الاعتصام باب٢ ج١٣/٢٤٩ .
٢٢- إعلام الموقعين عن رب العالمين ج١/٥٨ .

الشيعة الرافضة

تاريخ وحقائق

الحلقة الأولى

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

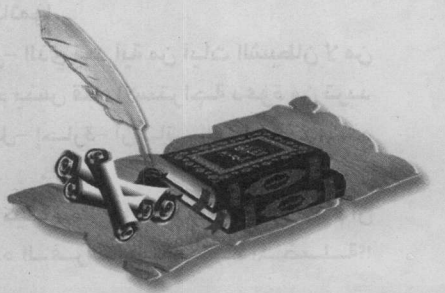

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم عليه وعلى آل بيته الطيبين الطاهرين، وصحابته الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فإن الإسلام دعا إلى الاجتماع والائتلاف، ونهى عن التفرق والاختلاف، قال تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: الآية ١٠٣]، وقد جمع الله قلوب الصحابة على الحق الذي نزل على نبي الهدى ﷺ إلى أن خرجت الخوارج، وظهرت الروافض وغيرهما من الفرق المنحرفة التي فرقت كلمة المسلمين، وأوهنت صفهم، ومن هذه الفرق المنحرفة «الشيعة الرافضة» الذين تظاهروا بحب آل بيت النبي ﷺ، وحقيقة أمرهم بعيدة عن ذلك، فهم جماعة استحوذ عليهم الشيطان ولعب بعقولهم، وأدخل عليهم في العقائد والعبادات ما يخالف الدين الذي نزل من عند رب العالمين، ومن باب النصيحة كتبت هذا البحث الذي بينت فيه أصل دين هؤلاء، كما ذكرت عقيدتهم في بعض المسائل التي خالفوا فيها عقيدة القرآن والسنة، وخرجوا بها عن نهج سلف الأمة، ونهج المسلمين عامة، وقد رأيت أن الحاجة داعية في هذه الأيام لكشف عوار هؤلاء، لأن بعض المسلمين انخدع بالشعارات الكاذبة التي رفعوها، وأحْسَنَ الظن بهم، حتى زعم أنهم هم الذين سيقودون الأمة في هذا الزمان، وأنهم سيعيدون أمجاد تاريخ الإسلام، وإني أقرر هنا أنه لا يمكن لمدعي التحريف في القرآن ولاعني صحابة سيد ولد عدنان ﷺ أن ينصروا دين النبي الأمين ﷺ أو يدافعوا عن عقيدة المسلمين، كيف وهم يخالفونها ؟

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يُونس: الآية ٨١]،

وأترك القارئ الكريم بعد ذلك ليقف بنفسه على ما لدى هؤلاء

من انحراف وضلال من خلال ما سطروه في كتبهم، وأسأل الله للجميع الهداية والتوفيق وسلوك أقوم طريق.

سبب تسميتهم بالرافضة وأصل دينهم

أحببت أن أكتب عنهم تحت هذا الاسم لأكشف زيفهم وسوء معتقدهم وأبين حقيقتهم، ولأدفع التلبيس الذي يوهمون به العامة من أنهم يشايعون أهل البيت ويحبونهم، وكأن أهل السنة ليسوا كذلك، والحق أن أهل السنة يوالون ويحبون آل البيت محبة شرعية، لا إفراط فيها ولا تفريط، بخلاف ما عليه الرافضة أتباع عبد الله بن سبأ، وليسوا من شيعة علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- كما يزعمون.

قال الأشعري: «وإنما سموا رافضة لرفضهم إمامة أبي بكر وعمر»(١)، وذلك لأن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب خرج على هشام بن عبد الملك، فطعن عسكره في أبي بكر فمنعهم من ذلك، فرفضوه، ولم يبق معه إلا مائة فارس، فقال لهم زيد: رفضتموني، قالوا: نعم، فبقي عليهم هذا الاسم(٢).

أما عن أصل دينهم فهو مأخوذ من اليهودي الماكر: عبد الله ابن سبأ من أهل صنعاء. قال عنه عبد القاهر البغدادي: «وكان ابن السوداء في الأصل يهوديًا»(٣).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «وقد ذكر أهل العلم أن مبدأ الرفض إنما كان من الزنديق عبد الله بن سبأ، فإنه أظهر الإسلام وأبطن اليهودية، وطلب أن يفسد الإسلام، كما فعل «بولس» النصراني الذي كان يهوديًا في إفساد دين النصارى»(٤).

وقد يقول قائل: ما علاقة الرافضة بعبد الله بن سبأ هذا ؟ أقول: إن المعتقدات التي نادى بها بعد قدومه إلى المدينة وإظهاره الإسلام هي المعتقدات التي عليها الرافضة، بل إنهم تبنوا أقواله وساروا عليها، ولا أتقول عليهم في شيء من ذلك، فهذه كتبهم طافحة بذكره، ذاكرة معتقداته الفاسدة التي أدخلها على أهل الإسلام وتلقفتها الرافضة، فالحسن بن موسى النوبختي الشيعي الإمامي يقول: «فرقة قالت: إن عليًا لم يقتل، ولم يمت، ولا يموت حتى يسوق العرب بعصاه، ويملأ الأرض عدلاً وقسطًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا...، وهذه الفرقة تسمى السبئية: أصحاب عبد الله بن سبأ، كان ممن أظهر الطعن على أبي بكر وعمر وعثمان والصحابة، وتبرأ منهم، وقال: إن عليًا- عليه السلام- أمره بذلك، فأخذه علي، فسأله عن قوله هذا، فأقر به، فأمر بقتله، فصاح الناس إليه: يا أمير المؤمنين أتقتل رجلاً يدعو إلى حبكم أهل البيت وإلى ولايتك والبراءة من أعدائك(٥) ؟ فسيره علي إلى المدائن.

وحكى جماعة من أهل العلم من أصحاب علي- عليه السلام- أن عبد الله بن سبأ كان يهوديًا فأسلم ووالى عليًا- عليه السلام-، وكان يقول وهو على يهوديته في (يوشع بن نون) بعد موسى- عليه السلام- بهذه المقالة: «يوشع بن نون كان وصي موسى»، فقال في إسلامه بعد وفاة النبي ﷺ - في علي- عليه السلام- بمثل ذلك، وهو أول من شهر القول بفرض إمامة علي- عليه السلام- فأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه، فمن هنا قال من خالف الشيعة: إن أصل الرفض مأخوذ من اليهودية، ولما بلغ عبد الله بن سبأ نعى علي بالمدائن قال للذي نعاه: كذبت، لو جئتنا بدماغه في سبعين صُرَّة، وأقمت على قتله سبعين عدلاً، لعلمنا أنه لم يمت، ولم يُقتل، ولا يموت حتى يملك الأرض»(٦).

وما قاله النوبختي قاله الكشي أيضًا، حيث ذكر عن بعض أهل العلم أن عبد الله بن سبأ كان يهوديًا فأسلم، ووالى عليًا، وكان أول من شَهَر القول بفرض

إمامة علي، وأظهر البراءة من أعدائه، وكاشف مخالفيه وأكفرهم، فمن هاهنا قال من خالف الشيعة: أصل التشيع والرفض مأخوذ من اليهودية(٧).

وقد ذكر أهل السنة هذا عن عبد اللّه بن سبأ، ولكني بدأت بذكر أقوال الرافضة لأثبت لروافض اليوم ما علمه وقاله السابقون منهم عن أصل دينهم، وحتى لا يقولوا بأن أهل السنة يرمونهم بما ليس فيهم، وهذا ذكر شيء يسير مما جاء في كتب أهل السنة عن ابن سبأ ويهوديته:

قال ابن عساكر: «عبد اللّه بن سبأ تنسب إليه الطائفة السبئية، وهم الغلاة من الرافضة، أصله من أهل اليمن، كان يهوديًا من أمة سوداء، فأظهر الإسلام»(٨).

وقال الحافظ ابن حجر: «عبد اللّه بن سبأ من غلاة الزنادقة، ضال مضل...».

ثم ذكر عن سويد بن غفلة أنه دخل على عَلِيٍّ رضي الله عنه في إمارته فقال: «إني مررت بنفر يذكرون أبا بكر وعمر، يرون أنك تضمر لهما مثل ذلك، منهم عبد اللّه بن سبأ، وكان عبد اللّه أول من أظهر ذلك، فقال علي: ما لي ولهذا الخبيث الأسود ؟ ثم قال: معاذ اللّه أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل، ثم أرسل إلى عبد اللّه ابن سبأ فسيره إلى المدائن، وقال: لا يساكنني في بلدة أبدًا...»(٩).

هذه بعض أقوال الشيعة الرافضة والسنة في شخصية عبد اللّه ابن سبأ، وقد تبين من هذه الأقوال خطورة مسألة التشيع وأصل واضعيه، والهدف منه، لأذكر بعد هذا بعض معتقداتهم وضلالاتهم وبيان مخالفتها لدين الإسلام الذي بُعث به محمد بن عبد اللّه ﷺ وموافقتها لدين اليهود وغيرهم من أصحاب الملل المنحرفة الباطلة.

عقيدة الشيعة الرافضة في الإمامة

يذهب أهل السنة إلى أن الإمامة قضية مصلحة تناط باختيار الأمة من أهل الحل والعقد، وينتصب الإمام بنصبهم، كما أنها تصح بعهد من الإمام الميت إذا قصد فيه حسن الاختيار للأمة عند موته، ولم يقصد بذلك هوًى، ولهذا فأهل السنة يرون وجوب نصب إمام يقيم شعائر الدين، وينصف المظلومين من الظالمين.

يقول الماوردي- رحمه اللّه-: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع»(١٠).

ويقول أبو المعالي الجويني: «اتفق المنتمون إلى الإسلام على تفرق المذاهب وتباين المطالب على ثبوت الإمامة»(١١).

هذا هو موقف المسلمين عمومًا من قضية الإمامة، وأنها واجبة، ليسوس الرعية، ويقيم العدل، ويدفع الظلم، إلى غير ذلك من متطلبات الإمامة، والتي لا يمكن تحققها إلا بوجود إمام، أما أمر الإمامة عند الشيعة الرافضة الاثنى عشرية فله شأن آخر ومعتقد جديد يخالف عقائد المسلمين، فهي عندهم أصل من أصول الدين وركن من أركانه، ولا يتم إيمان المرء إلا بهذا الاعتقاد.

يقول الشيعي الرافضي (محمد رضا المظفر): «نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين لا يتم الإيمان إلا باعتقادها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين، مهما عظموا وكبروا، بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة»(١٢).

وقال الرافضي ابن المطهر الحلي في مقدمة كتابه «منهاج الكرامة»: «أما بعد: فهذه رسالة شريفة، ومقالة لطيفة، اشتملت على أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين، وهي مسألة الإمامة، التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة، وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسببه الخلود في

الجنان، والتخلص من غضب الرحمن»(١٣).

بل ذهبوا أبعد من ذلك حين زعموا أن الإمامة أجَلُّ من النبوة، وقد ذكر ذلك «هادي الطهراني» أحد مراجعهم وآياتهم في هذا العصر، حيث قال: «الإمامة أجل من النبوة، فإنها مرتبة ثالثة شرف اللّه تعالى بها إبراهيم بعد النبوة والخلة»(١٤).

وقد بنى الروافض الإمامية معتقدهم هذا على روايات مكذوبة نسبوها كذبًا وزورًا إلى آل البيت- رضي اللّه عنهم- ومن ذلك ما جاء في كتاب «الكافي» للكليني، وهو من الكتب المعتمدة عندهم، يروي الكليني بإسناده عن أبي جعفر قال: «بني الإسلام: على الصلاة والزكاة والصوم، والحج، والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية»(١٥).

ولعلك تلاحظ أيها القارئ الكريم أنهم أسقطوا الشهادتين من أركان الإسلام، ووضعوا مكانهما الولاية، والشهادتان أعظم أركان الإسلام، وبهما بدأ النبي ﷺ حديثه عن أركان الإسلام، وبذلك تعرف مناقضة الشيعة الرافضة لأصل دين الإسلام، ولم يقتصروا على ذلك، بل جعلوا الولاية أفضل من أركان الإسلام الأخرى، فقد روى الكليني بسنده عن أبي جعفر أنه قال: «إن الإسلام بني على خمسة أشياء: على الصلاة والزكاة، والحج، والصوم، والولاية، قال زرارة: فقلت: وأي شيء من ذلك أفضل ؟ فقال: الولاية أفضل، لأنها مفتاحهن، والوالي هو الدليل عليهن، قلت: ثم الذي يلي ذلك في الفضل ؟ قال: الصلاة»(١٦).

ويفند شيخ الإسلام ابن تيمية زعم الروافض في الإمامة وأنها أعظم أركان الدين فيقول: «إن قول القائل: إن مسألة الإمامة أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين، كذب بإجماع المسلمين...، فإن الإيمان باللّه ورسوله ﷺ أهم من مسألة الإمامة وهذا معلوم بالاضطرار من دين الإسلام، فالكافر لا يصير مؤمنًا حتى يشهد أن لا إله إلا اللّه، وأن محمدًا رسول اللّه ﷺ، وهذا هو الذي قاتل عليه الرسول ﷺ الكفار أولاً، كما استفاض عنه في الصحاح وغيرها أنه قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا اللّه وأني رسول اللّه...، وكذلك كان النبي ﷺ يسير في الكفار، فيحقن دماءهم بالتوبة من الكفر، لا يذكر لهم الإمامة بحال، وقد قال تعالى بعدها: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة: الآية ١١]، فجعلهم إخوانًا في الدين بالتوبة، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، ولم يذكر الإمامة بحال، ومن المتواتر أن الكفار على عهد رسول اللّه ﷺ كانوا إذا أسلموا أجرى عليهم أحكام الإسلام ولم يذكر لهم الإمامة بحال، ولا نقل هذا عن رسول اللّه ﷺ أحد من أهل العلم، لا نقلاً خاصًا ولا عامًا، بل نحن نعلم بالاضطرار عن رسول اللّه ﷺ أنه لم يكن يذكر للناس إذا أرادوا الدخول في دينه الإمامة، لا مطلقًا ولا معينًا، فكيف تكون أهم المطالب في أحكام الدين؟»(١٧).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

الهوامش

١- «مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين» (١/٨٩).
٢- المرجع السابق (١/١٣٧).
٣- «الفرق بين الفرق» (ص١٧٨).
٤- «مجموع فتاوى ابن تيمية» (٢٨/٤٨٣).
٥- هكذا يدعي الروافض أن أبا بكر وعمر- رضي الله عنهما- كانا أعداءً لعلي- رضي الله عنه-، وعلي- رضي الله عنه- بريء من كذبهم هذا.
٦- «فرق الشيعة» للنوبختي (ص٢٢، ٢٣).
٧- انظر كتاب «معرفة الناقلين عن الأئمة الصادقين المعروف برجال الكشي» (ص١٠١).
٨- «تهذيب تاريخ دمشق» (٧/٤٣١).
٩- «لسان الميزان» (٣/٣٥٩).
١٠- «الأحكام السلطانية» للماوردي (ص٢٩).
١١- «غياث الأمم في التياث الظلم» (ص٤٢).
١٢- «عقائد الإمامية» (ص٤٩).
١٣- «منهاج السنة النبوية» لابن تيمية (١/٧٣).
١٤- «ودايع النبوة» (ص١١٤).
١٥- «الكافي» للكليني (٢/١٥).
١٦- المرجع السابق (٢/١٦).
١٧- «منهاج السنة النبوية» (١/٧٥- ٧٦)

الشيعة الرافضة

تاريخ وحقائق

الحلقة الثانية

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

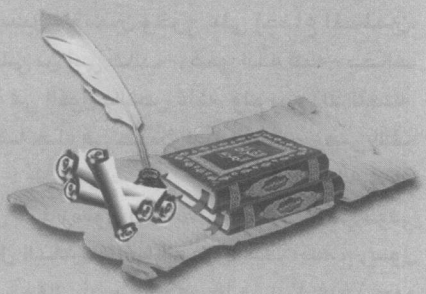

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين، وهداية للناس أجمعين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فلقد تحدثت في اللقاء السابق عن سبب تسمي الرافضة بهذا الاسم، وأواصل في هذا اللقاء الحديث عن أحق الناس بالخلافة بعد رسول الله ﷺ عند الرافضة، فأقول وبالله التوفيق:

أحق الناس بالخلافة بعد النبي ﷺ عند الشيعة الرافضة.

تذهب الشيعة الرافضة إلى القول بوجوب النص على الإمام، وأن النبي ﷺ نصَّ نصًا ظاهرًا وواضحًا على إمامة علي بن أبي طالب- رضي اللَّه عنه- وأن كل واحد من الأئمة كان ينص على من بعده، ويضعون في ذلك روايات مكذوبة منها ما رواه الكليني عن أبي عبد اللَّه جعفر الصادق أنه قال: «إن اللَّه عز وجل أنزل على نبيه ﷺ كتابًا قبل وفاته، فقال: يا محمد، هذه وصيتك إلى النجبة(١) من أهلك، قال: وما النجبة يا جبريل ؟ فقال: علي بن أبي طالب وولده- عليهم السلام-، وكان على الكتاب خواتيم من ذهب، فدفعه النبي ﷺ إلى أمير المؤمنين- عليه السلام-، وأمره أن يفك خاتمًا منه ويعمل بما فيه، ففك أمير المؤمنين- عليه السلام- خاتمًا وعمل بما فيه، ثم دفعه إلى ابنه الحسن- عليه السلام-، وهكذا كل واحد يدفعه لمن بعده...، ثم كذلك إلى قيام المهدي»(٢).

ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يوص لأحد بشيء من أمور الدين ؛ لأنه بلغ رسالته للعالمين كما أمره بذلك ربه في كتابه، وفي «البخاري» وغيره عن أبي جحيفة- رضي اللَّه عنه- قال: قلت لعلي- رضي اللَّه عنه-: هل عندكم شيء من الوحي إلا ما في كتاب اللَّه ؟ قال: لا والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، ما أعلمه إلا فهمًا يعطيه اللَّه رجلًا في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في الصحيفة ؟ قال: العقل، وفكاك الأسير، وأن لا يقتل مسلم بكافر»(٣).

ويذهب آية اللَّه الزنجاني إلى أن الخلافة بالنص من اللَّه تعالى على لسان رسوله، أو لسان الإمام المنصوب بالنص، إذا أراد أن ينص على الإمام من بعده،

وحكمها في ذلك حكم النبوة بلا فرق، فليس للناس أن يتحكموا فيمن يعينه اللَّه هاديًا مرشدًا لعامة البشر، كما ليس لهم حق تعيينه أو ترشيحه أو انتخابه(٤).

وروافض العصر الحاضر يقولون بما يقول به أئمتهم السابقون، فالخميني يقول: «إن النبي ﷺ استخلف بأمر من اللَّه من يقوم من بعده على هذه المهام(٥).

بل يذهب إلى أبعد من هذا حين يذكر أن النبي ﷺ: «لولا تعيينه الخليفة من بعده لكان غير مبلغ رسالة ربه(٦).

وهذه الأقوال التي سقتها ونسبتها لأصحابها من كتبهم مخالفة لما عليه جمهور المسلمين وصحابة النبي الأمين ﷺ. وقد أخرج البخاري وغيره عن ابن عمر- رضي اللَّه عنهما- أنه قيل لعمر- رضي اللَّه عنه-: ألا تستخلف؟ قال: إن أستخلف فقد استخلف من هو خير مني: أبو بكر- رضي اللَّه عنه-، وإن أترك فقد ترك من هو خير مني: رسول اللَّه ﷺ، فأثنوا عليه، فقال: راغب وراهب، وددت أني نجوت منها كفافًا لا لي ولا عليَّ، ولا أتحملها حيًا وميتًا(٧).

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «فيه الرد على من زعم من الروافد(٨) أن النبي ﷺ نصَّ على العباس، وعلى قول الروافض كلها أنه نصَّ على عليٍّ، ووجه الرد عليهم إطباق الصحابة على متابعة أبي بكر، ثم على طاعته في متابعة عمر، ثم العمل بعهد عمر في الشورى، ولم يدَّع العباس ولا علي أنه ﷺ عهد له بالخلافة(٩).

وقال النووي في شرحه للحديث: «وفي هذا الحديث دليل على أن النبي ﷺ لم ينص على خليفة، وهو إجماع أهل السنة وغيرهم، وقالت الشيعة الرافضة: على عَلِيّ- يعني نص على خلافة علي-، وهذه دعاوى باطلة، وجسارة على الافتراء، ووقاحة في مكابرة الحس، وذلك لأن الصحابة- رضي اللَّه عنهم- أجمعوا على اختيار أبي بكر وعلى تنفيذ عهده إلى عمر، وعلى تنفيذ عهد عمر بالشورى، ولم يخالف في هذا أحد، ولم يدَّع علي ولا العباس ولا أبو بكر وصية في وقت من الأوقات، وقد اتفق علي والعباس على جميع هذا من غير ضرورة دافعة لاجتماعهما على الخطأ واستمرارهما عليه، وكيف يحل لأحد من أهل القبلة أن ينسب الصحابة إلى المواطأة على الباطل في كل هذه الأحوال، ولو كان شيء لنقل فإنه من الأمور المهمة(١٠).

قُلْتُ: ذهبت الرافضة إلى ذلك وطعنوا في الصحابة- كما سيأتي إن شاء اللَّه-، وذكروا عنهم أنهم اغتصبوا الخلافة، وأنهم أهل غدر وخيانة وتزوير، وأنهم تآمروا على إقصاء علي- رضي اللَّه عنه- عن الخلافة. وأنا أسأل الشيعة الرافضة فأقول لهم: هل يجوز أن يجمع المهاجرون والأنصار بما فيهم العشرة وأصحاب الشجرة على كتمان النص على عليٍّ؟ وهل ذكر علي- رضي اللَّه عنه- النص عليه بالخلافة لأبي بكر أو لعمر أو لغيرهما من الصحابة؟ سبحانك ربي إن هذا بهتان عظيم!!

وقد ذكر الأشعري أيضًا إجماع أهل السنة على ترتيب الخلفاء الراشدين كما وقع فيقول: «وأجمعوا على أن خير القرون قرن الصحابة، ثم الذين يلونهم على ما قال ﷺ: «خيركم قرني»، وعلى أن خير الصحابة أهل بدر، وخير أهل بدر العشرة، وخير العشرة الأئمة الأربعة: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي- رضوان اللَّه عليهم-، وأن إمامتهم كانت عن رضىً من جماعتهم، وأن اللَّه ألف قلوبهم على ذلك لما أراده من استخلافهم جميعًا بقوله: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾ [النُّور: الآية ٥٥].

فجمع اللَّه قلوب المؤمنين على ترتيبهم في التقديم، من قِبَل أنهم لو قدموا عمر على الجماعة لخرج أبو بكر عما وعده اللَّه به، وكذلك لو قُدِّم عثمان لخرج أبو بكر وعمر؛ لأن اللَّه قد علم أنه يبقى بعدهما، وأنهما يموتان قبله، وكذلك لو قُدِّم عليٌّ على جميعهم لخرجوا من الوعد لعلم اللَّه أنهم يموتون قبله، فرتبهم وألف بينهم قلوب المؤمنين على ذلك، لينالوا جميعًا ما وعدوا به(١١).

وما ذكره الأشعري هو إجماع أهل السنة وعلى رأسهم صحابة النبي ﷺ، وعليه فلا عبرة بمن خالف سبيل المؤمنين وخرج على إجماع المسلمين، بل إن علي بن أبي طالب- رضي اللَّه عنه- يخالف الرافضة في القول بالنص عليه، ولم يدَّع ذلك لنفسه، وذلك كما جاء في حديث ابن عباس- رضي اللَّه عنهما-: «أن علي بن أبي طالب- رضي اللَّه عنه- خرج من عند رسول اللَّه ﷺ في وجعه الذي تُوفِّي فيه، فقال الناس: يا أبا الحسن، كيف أصبح رسول اللَّه ﷺ؟ فقال: أصبح بحمد اللَّه بارئًا، فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال له: أنت واللَّه بعد ثلاث

عبد العصا(١٢)، وإني والله لأرى رسول الله ﷺ سوف يُتوفَّى من وجعه هذا، إني لأعرف وجوه بني عبد المطلب عند الموت، اذهب بنا إلى رسول الله ﷺ فلنسأله فيمن هذا الأمر ؟ إن كان فينا علمنا ذلك، وإن كان في غيرنا علمناه فأوصى بنا، فقال علي: إنا والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس بعده، وإني والله لا أسألها رسول الله ﷺ»(١٣).

فهذا نص واضح وصريح من أمير المؤمنين يبين أنه لا نص عليه، ولو كان عنده نص لوجب عليه أن يبينه ويذكره، كما أنه لم يسأل رسول الله ﷺ ذلك، ويفيد هذا النص أيضًا أن العباس- رضي الله عنه- ليس لديه نص على إمامة علي ولا غيره، وقد ساق الحافظ ابن كثير هذا الحديث وغيره كحديث الصحيحين: «خطبنا علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- فقال: «من زعم أن عندنا شيئًا نقرؤه ليس في كتاب الله وهذه الصحيفة فقد كذب»، ثم قال: «وهذا الحديث الثابت في الصحيحين وغيرهما عن علي- رضي الله عنه- يرد على فرقة الرافضة في زعمهم أن رسول الله ﷺ - أوصى إليه بالخلافة، ولو كان الأمر كما زعموا لما ردَّ ذلك أحد من الصحابة، فإنهم كانوا أطوع الناس لله ولرسوله ﷺ في حياته وبعد وفاته، ومن ظن بالصحابة أن يفتئتوا على رسول الله ﷺ فيقدموا غير من قدمه، ويؤخروا من قدمه بنص، ومن ظن بالصحابة- رضوان الله عليهم- ذلك، فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور، والتواطؤ على معاندة الرسول ﷺ، ومضادتهم في حكمه ونصه، ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه، ثم لو كان مع علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- نصٌّ، فَلِمَ لَمْ يحتج به على الصحابة على إثبات إمارته وإمامته»(١٤).

قول الرافضة بأن الأئمة اثنا عشر إمامًا:

ثم قالت الرافضة بعد ذلك باثني عشر إمامًا من نسل علي بن أبي طالب- رضي الله عنه-، ومن هنا أطلق عليهم لقب «الاثنا عشرية»، ويعرفون أيضًا باسم الإمامية، وقد سموا بهذا الاسم بعد غيبة الإمام الثاني عشر- كما يزعمون-، إذ ليس هناك قبل غيبته ما يستدعي التسمية، وقد صرح بهذا الدكتور / عبد الله فياض وهو شيعي إذ يقول: «إن مصطلح الإمامية لم يصبح علما لفرقة من فرق الشيعة إلا بعد حصول غيبة الإمام الثاني عشر من الأئمة المعصومين»(١٥)، وقد اعتبروا قولهم باثني عشر إمامًا ميزة انفردوا بها عن بقية المسلمين.

يقول محمد الحسين آل كاشف الغطاء: «إن من أهم ما امتازت به الشيعة عن سائر المسلمين هو القول بإمامة الاثني عشر»(١٦).

وتعتقد الشيعة أن النبي ﷺ نص عليهم بأسمائهم، كما نص المتقدم منهم على من بعده، وهم على الترتيب التالي:

١- أبو الحسن علي بن أبي طالب.
٢- الحسن بن علي.
٣- الحسين بن علي.
٤- علي بن الحسين.
٥- محمد بن علي.
٦- جعفر بن محمد الصادق.
٧- موسى بن جعفر الكاظم.
٨- علي بن موسى.
٩- محمد بن علي.
١٠- علي بن محمد.
١١- الحسن بن علي العسكري.
١٢- محمد بن الحسن.

عصمة الأئمة عند الشيعة

عصمة الأئمة من أهم الأمور الدينية عند الشيعة، ولها صلة وثيقة بعقيدتهم، وقد اتفقوا على عصمتهم، وأنه لا تقع المعصية منهم، لأنهم جميعًا حجج الله، ولذلك فهم معصومون من الزلل(١٧)، بل إن الأئمة عند الشيعة الرافضة ليسوا معصومين من الكبائر والصغائر فقط، بل من كل شيء حتى السهو والنسيان.

يقول ابن أبي الحديد: «لا تجوز عليهم الكبائر ولا الصغائر، لا عمدًا ولا خطأ ولا سهوًا، ولا على سبيل التأويل والشبهة مثل الأنبياء»(١٨).

ويقول محمد رضا المظفر: «ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن من سن الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا»(١٩).

وقد أجمع السابقون منهم واللاحقون على هذه العقيدة الباطلة، يقول الخميني: «نحن نعتقد أن المنصب الذي منحه الأئمة- رضي الله عنهم- للفقهاء لا يزال محفوظًا لهم، لأن الأئمة لا يتصور فيهم السهو أو الغفلة، ونعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين»(٢٠).

ويذهب ابن تيمية إلى أن ابن سبأ وراء القول بالعصمة فيقول: «وكذلك أول ما ابتدعت مقالة الغالية في الإسلام من جهة من كان قد دخل في الإسلام وانتحل التشيع، وقيل: أول من أظهر ذلك

عبد اللّه بن سبأ الذي كان يهوديًا فأسلم...، وابتدع القول بأن عليًا إمام منصوص على إمامته، وابتدع أيضًا القول بأنه معصوم أعظم مما يعتقده المؤمنون في عصمة الأنبياء»(٢١).

غلو الشيعة الرافضة في الأئمة

المقصود بالغلو: رفع بعض البشر فوق مرتبته التي خلقه اللّه عليها ؛ وقد يصل إلى إضافة صفة من صفات الألوهية إليه، والغلو بهذا المعنى لم يكن للعرب به عهد، سواء في جاهليتهم قبل الإسلام، أو في إسلامهم بعد ظهور الإسلام، وظل الأمر هكذا، حتى ابتليت أمة الإسلام بكيد اليهود، وتبنى عبد اللّه بن سبأ أيضًا إظهار الغلو في الأئمة ووصفهم بصفات رب البرية، وهذا الغلو نتيجة حتمية للقول بعصمة الأئمة، يقول القمي: «لما بلغ ابن سبأ وأصحابه نعي علي وهو بالمدائن قالوا: إنا نعلم أنه لم يقتل ولا يموت حتى يسوق العرب بسيفه وسوطه، كما قادهم بحجته، وإنه ليسمع النجوى»(٢٢).

ونحن نسأل هؤلاء فنقول لهم: من الذي يعلم السر والنجوى ويحيط بكل شيء علمًا ؟ والجواب: هو اللّه وحده دون سواه عالم الغيب والشهادة، وقد نسب الكليني زورًا وبهتانًا إلى جعفر الصادق أنه قال: «إن الدنيا والآخرة، للإمام يضعها حيث يشاء ويدفعها إلى من يشاء، جائز له ذلك من اللّه»(٢٣).

وحاشا جعفر الصادق أن يقول مثل هذا الكلام الذي يحمل في طياته الشرك باللّه، ويخالف صريح نصوص القرآن كقول اللّه تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولَى﴾ [النَّجْم: الآية ٢٥].

وكقوله سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأعراف: الآية ١٢٨].

وقال رجب البرسي الشيعي الإمامي في بعض وصفه للإمام: «هذا الخليفة الوارث لأسرار النبوة والإمامة والخلافة والولاية والسلطنة والعصمة والحكمة، هذا الخلق من الآيات الباهرات، والنجوم الزهرات، الذين لهم الحكم على الموجودات، والتصرف في الكائنات والاطلاع على الغيوب، والعلم بما في الضمائر والقلوب والإحاطة بالمخلوقات»(٢٤).

ويقول الخميني: «وإن من ضرورات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل...»(٢٥).

ومن المعلوم أن النبي ﷺ أفضل من غيره من الأنبياء والأولياء والأئمة، ومع هذا فقد نهى أمته عن الغلو فيه، فما هذا الغلو الذي ذكرته الرافضة في أئمتهم ؟ وهل يتفق شيء من ذلك مع دين رب العالمين؟

يقول الشيخ إحسان إلهي ظهير: «وقد بالغ القوم في موالاة علي وأولاده، وحبهم ومدحهم مبالغة جاوزوا فيها الحدود، وأسسوا عليها ديانتهم ومذهبهم، حتى صار مذهبًا مستقلاً ودينًا منفصلاً عن الدين الذي جاء به محمد الصادق المصدوق- صلوات اللّه وسلامه عليه- واخترعوا روايات كاذبة، واختلقوا أحاديث موضوعة، وقالوا: لا دين إلا لموالي علي وأولاده»(٢٦).

وللحديث بقية.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

١- يعني الفضلاء.
٢- الكافي للكليني (١/٢٨٠).
٣- رواه البخاري، كتاب الجهاد، باب ١٧١ (١٦/١٦٧).
٤- عقائد الإمامية الاثنى عشرية للزنجاني ص(٢٨١، ٢٨).
٥- الحكومة الإسلامية ص(٢٣).
٦- الحكومة الإسلامية ص(٢٣).
٧- انظر البخاري مع الفتح (١٣/٢٠٥)، ومسلم (٣/١٤٥٤).
٨- الرواندية: نسبة إلى أبي الحسين أحمد بن يحيى الرواندي، توفي في القرن الثالث، كان معتزليًا، ثم فارقهم، وعده الأشعري في المقالات (١/١٢٧).
٩- فتح الباري (١٣/٢٠٨).
١٠- شرح النووي على مسلم (١٢/٢٠٥، ٢٠٦).
١١- رسالة إلى أهل الثغر لأبي الحسن الأشعري، ص(٣١٣- ٣١٦).
١٢- هذا كناية عمن يصير تابعًا لغيره، والمعنى: أنه يموت بعد ثلاث وتصير أنت مأمورًا عليك، وهذا من قوة فراسة العباس رضي الله عنه.
١٣- صحيح البخاري مع الفتح، المغازي، باب ٨٣ (٨/١٤٢).
١٤- البداية والنهاية (٥/٢٢١).
١٥- تاريخ الإمامية وأسلافهم من الشيعة ص(٨٥).
١٦- أصل الشيعة ص(١٢٩).
١٧- مقالات الإسلاميين للأشعري (١/١٢١).
١٨- شرح نهج البلاغة (٧/١٢).
١٩- عقائد الإمامية ص(٥١).
٢٠- الحكومة الإسلامية ص(٩١).
٢١- جامع الرسائل والمسائل ص(٢٦٠- ٢٦٢).
٢٢- المقالات والفرق ص(٢١).
٢٣- أصول الكافي (١/٤٠٩).
٢٤- مشارق أنوار اليقين في أسرار أمير المؤمنين ص(١٠٢).
٢٥- الحكومة الإسلامية ص(٥٢).
٢٦- الشيعة وأهل البيت.

الحلقة الثالثة

الشيعة الرافضة

تاريخ وحقائق

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فقد تحدثت في العدد الماضي عن أحق الناس بالخلافة بعد النبي ﷺ عند الشيعة الرافضة، وعصمة الأئمة عندهم، وفي هذا العدد نتحدث عن:

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

عقيدة الشيعة الرافضة في أصحاب رسول الله ﷺ

أصحاب الحديث يطلقون اسم الصحابي على كل من روى عن النبي ﷺ حديثًا، أو كلمة، ويتوسعون حتى يعدوا من رآه ولو مرة واحدة من الصحابة، وذلك لشرف منزلة النبي ﷺ. وقد اختلف في تعريف الصحابي على أقوال ؛ منها ما قاله البخاري- رحمه الله-: «ومن صحب رسول الله ﷺ، أو رآه فهو من أصحابه»(١).

وقد ذكر ابن حجر أن تعريف البخاري هذا هو أولى التعريفات إلا أنه قيده بقيد وهو: «ومات على ذلك»، حتى يخرج من ارتد، وعليه فقد عرَّف الصحابي بقوله: «وأصح ما وقفت عليه من ذلك أن الصحابي من لقي رسول الله ﷺ مؤمنًا ومات على الإسلام، فيدخل في من لقيه من طالت مجالسته له أو قصرت، ومن لم يره لعارض كالعمى»(٢).

وبهذا يظهر لنا مكانة صحابة النبي ﷺ ومنزلتهم من الدين، فهم قوم اختصهم الله بصحبة نبيه ﷺ، وقد أثنى عليهم وزكاهم وأخبر برضاه عنهم في آيات من كتابه، وذلك كقوله: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ المُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [التوبة: الآية ١٠٠].

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ المُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح: الآية ١٨].

وقال سبحانه: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: الآية ٢٩].

وعن أبي سعيد الخدري- رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، فلو أن أحدكم أنفق مثل أحد ذهبًا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه»(٣).

هذا شيء يسير مما قاله رب العالمين ورسوله الأمين ﷺ في شأن صحابة خاتم الأنبياء والمرسلين ﷺ، وقد ذهب جميع أهل السنة إلى ذلك، فأثنوا على جميع الصحابة خيرًا، وترضوا عنهم، ولم يتكلموا في عرض واحد منهم.

قال إمام أهل السنة أحمد بن حنبل- رحمه الله-: «ومن الحجة الواضحة الثابتة البينة المعروفة ذكر

محاسن أصحاب رسول اللّه ﷺ كلهم أجمعين، والكف عن ذكر مساويهم والخلاف الذي شجر بينهم، فمن سب أصحاب رسول اللّه ﷺ أو أحدًا منهم فهو مبتدع رافضي خبيث، مخالف لا يقبل اللّه منه صرفًا ولا عدلًا، بل حبهم سنة، والدعاء لهم قربة، والاقتداء بهم وسيلة، والأخذ بآثارهم فضيلة»(٤).

وقال ابن حجر العسقلاني: «اتفق أهل السنة على أن جميع الصحابة عدول، ولم يخالف في ذلك إلا شرذمة من المبتدعة»(٥).

وقال ابن حجر الهيثمي: «اعلم أن الذي أجمع عليه أهل السنة والجماعة أنه يجب على كل مسلم تزكية جميع الصحابة بإثبات العدالة لهم، والكف عن الطعن فيهم، والثناء عليهم...، ثم نقل قول أبي زرعة: «إذا رأيت الرجل ينتقص أحدًا من أصحاب رسول اللّه ﷺ فاعلم أنه زنديق، وذلك أن رسول اللّه ﷺ حق، والقرآن حق، وما جاء به حق، وإنما أدّى إلينا ذلك كله الصحابة، فمن جرحهم إنما أراد إبطال الكتاب والسنة، فيكون الجرح به ألصق، والحكم عليه بالزندقة والضلال والكذب والفساد هو الأقوم الأحق»(٦).

وقد ذكر نحو هذا الإجماع من أهل السنة والجماعة أبو الحسن الأشعري(٧)، ومع إجماع المسلمين على ما ذكرته عن الصحابة خالف الروافض في ذلك وطعنوا عليهم طعنًا شديدًا، متبرئين منهم، فخالفوا بذلك إجماع المسلمين، وقالوا بما لم يقله أحد من الأمم السابقة في أتباع أنبيائهم، فكانوا بذلك شرًا من اليهود والنصارى، وقد ذكر ابن تيمية عن الإمام التابعي الجليل أبي عمرو عامر بن شراحيل الشعبي أنه قال: «فضلت اليهود والنصارى على الرافضة بخصلتين: سئلت اليهود: من خير أهل ملتكم ؟ قالوا: أصحاب موسى، وسُئلت النصارى: من خير أهل ملتكم ؟ قالوا: حواري عيسى، وسئلت الرافضة: من شر أهل ملتكم ؟ قالوا: أصحاب محمد ﷺ، أُمروا بالاستغفار لهم فسبوهم، فالسيف عليهم مسلول إلى يوم القيامة، لا تقوم لهم راية، ولا تثبت لهم قدم، ولا تجتمع لهم كلمة، ولا تُجاب لهم دعوة، دعوتهم مدحوضة، وكلمتهم مختلفة، وجمعهم متفرق، كلما أوقدوا نارًا للحرب أطفأها اللّه»(٨).

وبعد هذا العرض والبيان، أود أن أسوق هنا بعض ما قاله الرافضة القدامى والمحدثون في صحابة النبي ﷺ من كتبهم ليقف القارئ على معتقدهم ونظرتهم إلى خير الناس بعد الأنبياء، وليعرف مدى مخالفتهم للمسلمين، وأحب أن أنبه هنا إلى أنه لا يخلو مصنف من مصنفاتهم- فيما وقفت عليه- في مسألة الإمامة ونحوها، إلا وفيه من التكفير والسب واللعن للصحابة الكرام- رضي اللّه عنهم-.

يقول القمي والصافي في تفسيرهما عن الصادق: «لما أقام رسول اللّه ﷺ يوم غدير خم كان بحذائه سبعة نفر من المنافقين وهم: أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة، والمغيرة بن شعبة، قال عمر: أما ترون عينه كأنما عين مجنون(٩)، يعني النبي ﷺ ... الساعة يقوم ويقول قال: لي ربي، فلما قام قال: أيها الناس، من أولى بكم من أنفسكم ؟ قالوا: اللّه ورسوله. قال: اللهم فاشهد، ثم قال: ألا من كنت مولاه فعليٌّ مولاه، وسلموا عليه بإمرة المؤمنين، فنزل جبرائيل وأعلم رسول اللّه ﷺ بمقالة القوم، فدعاهم وسألهم، فأنكروا وحلفوا، فأنزل اللّه: ﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ﴾ [التوبة: الآية ٧٤](١٠)، ولا يجد المسلم أمام هذا الكلام إلا أن يبرأ إلى اللّه منه ومن قائليه، كما لا يحتاج النص السابق إلى التعليق عليه وبيان ما فيه من ضلال، غير أني أقول: إنه في الحقيقة طعن على النبي ﷺ.

يقول الإمام ابن القيم: «وأما الرافضة فقدحهم

وطعنهم في الأصل الثاني وهو شهادة أن محمداً رسول الله ﷺ، وإن كانوا يظهرون موالاة أهل بيت الرسول ﷺ ومحبتهم. قال طائفة من أهل العلم منهم مالك بن أنس وغيره: هؤلاء قوم أرادوا الطعن في رسول الله ﷺ فلم يمكنهم ذلك، فطعنوا في الصحابة ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين»(١١).

وإلى جانب موقف هؤلاء من عموم الصحابة فقد طعنوا أيضًا في بعض آل بيت النبي ﷺ وتناولوهم بالتكفير، كعم النبي ﷺ العباس بن عبد المطلب- رضي الله عنه- حتى قالوا بأنه نزل فيه قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾ [الإسراء: الآية ٧٢](١٢)، بل نفى بعضهم أن يكون للنبي ﷺ بنات سوى فاطمة- رضي الله عنها-.

يقول حسن الأمين الشيعي: «ذكر المؤرخون أن للنبي ﷺ أربع بنات، ولدى التحقيق في النصوص التاريخية لم نجد دليلًا على ثبوت بنوة غير الزهراء (ع) منهن، بل الظاهر أن البنات الأخريات كن بنات خديجة من زوجها الأول قبل محمد ﷺ»(١٣).

وبعد هذا أتساءل فأقول: هل يحب رسول الله ﷺ وآل بيته من يقول هذا الكلام ؟ كلا، ثم كلا، ولذلك أحسن وأجاد الشيخ إحسان إلهي ظهير في قوله: «إن الشيعة لم يكونوا يومًا من الأيام محبين لأهل البيت ومطيعين لهم، بل ثبت ذلك بنصوص الكتب الشيعية أنهم لم ينشأوا ولم يوجدوا من أول يوم إلا لإفساد العقائد الإسلامية الصحيحة ومخالفتها، ولإضرار المسلمين وسبهم وشتمهم، وإهانة أعيانهم وأسلافهم، وعلى رأسهم حامل الشريعة الحنيفية البيضاء، إمام هذه الأمة المجيدة وأصحابه، وتلامذته ونوابه الراشدين، وأهل بيته الطيبين»(١٤).

أفعال منكرة تنبئ عن حقد الرافضة على الخلفاء الثلاثة:

وفي يوم عاشوراء يفعلون أفعالًا منكرة تنبئ عن حقد في قلوبهم على الخلفاء الراشدين، فبعضهم يصنع ثلاثة تماثيل، ويملأ بطونها بالعسل، ويسمي أحدها (أبا بكر)، والثاني (عمر)، والثالث (عثمان)، ثم يبقرون بطونها بسكين، فيسيل منها العسل فيصفقون فرحًا بأخذ الثار لعلي بن أبي طالب- رضي الله عنه- من تماثيل العجين، وتجد آخرين منهم يأتون بسخلة (الذكر أو الأنثى من ولد الضأن والمعْز ساعة يولد) فيسمونها عائشة، ثم يبدأون بنتف شعرها، وينهالون عليها ضربًا بالأحذية حتى تموت، ثم يأتون بكلب فيسمونه عمر، ثم ينهالون عليه ضربًا بالعصى ورجمًا بالحجارة حتى يموت(١٥).

ولم يرجع أحد من الروافض عن هذا المعتقد، وأقوالهم وأفعالهم شاهدة عليهم، فالخميني- مع عمله بمبدأ التقية- يتجاهل حكومة الخلفاء الراشدين الثلاثة الذين سبقوا عليًا، ولا يشير إلا إلى حكم الرسول ﷺ وحكم علي- رضي الله عنه-، وفي ذلك يقول: «لقد ثبت بضرورة الشرع والعقل أن ما كان ضروريًا أيام الرسول ﷺ وفي عهد الإمام أمير المؤمنين من وجود الحكومة لا يزال ضروريًا إلى يومنا هذا»(١٦).

فهم لا يعتبرون ولا يعترفون بخلافة الراشدين السابقين الثلاثة، وكيف يعتبرونها وهم يلعنونهم ويكفرونهم ؟ كما قال الخميني أيضًا عن حكومة معاوية بن أبي سفيان- رضي الله عنه-: «ولم تكن حكومة معاوية تمثل الحكومة الإسلامية، أو تشبهها من قريب ولا بعيد»(١٧).

وإلى اللقاء في العدد القادم بإذن الله تعالى حول عقيدة الشيعة الرافضة في القرآن الكريم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الشيعة الرافضة

تاريخ وحقائق

الحلقة الرابعة

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

نائب الرئيس العام

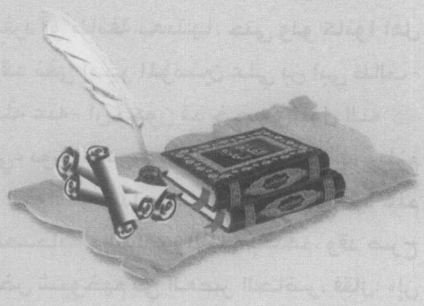

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عقيدة الرافضة في القرآن الكريم

انعقد إجماع المسلمين على أن كتاب اللَّه- عز وجل- محفوظ بحفظ اللَّه تعالى له، قال اللَّه تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: الآية ٩].

وقال سبحانه: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فُصِّلَت: الآية ٤٢].

ومن اعتقد بعد هذا أن في القرآن نقصًا أو تحريفًا فليس من الإسلام في شيء، لتكذيبه لنصوص القرآن الكريم، وقد قال بعض الشيعة بهذا القول وأقروه، وقد نسب الأشعري ذلك لطائفة منهم، وذكر أنهم قالوا: «إن القرآن قد نقص منه، وأما الزيادة فذلك غير جائز أن يكون قد كان، وكذلك لا يجوز أن يكون غير منه شيء عما كان عليه، فأما ذهاب كثير منه فقد ذهب كثير منه، والإمام يحيط علمًا به»(١).

كما أشار البغدادي إلى أن من الرافضة من زعم أن الصحابة غيروا بعض القرآن وحرفوا بعضه، واعتبر البغدادي ذلك من موجبات الحكم بكفرهم وخروجهم عن الإسلام(٢).

أما ابن حزم فقد نسب القول بالتحريف إلى الإمامية كلها، ولم يستثن من أعلام الإمامية إلا ثلاثة نجوا من الوقوع في هذه الهاوية(٣)، وسأنقل هنا بعض أقوال أئمتهم الذاهبين إلى وقوع التحريف في القرآن الكريم:

يقول أحد مشايخهم محمد بن محمد العكبري الملقب بـ «المفيد»: «إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهدى من آل محمد ﷺ باختلاف القرآن، وما أحدث بعض الطاعنين فيه من الحذف والنقصان»(٤).

كما أورد الكليني في كتابه «الكافي» روايات في تحريف القرآن، وهو من الكتب المعتبرة عندهم، ولذلك قال الفيض الكاشاني عنه: «إنه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن»(٥).

وفي القرن الثالث عشر الهجري ألّف شيخهم ومن يحظى بالتعظيم عندهم «حسن النوري الطبرسي» مؤلفًا كبيرًا جمع فيه أقوال المتقدمين منهم في تحريف القرآن وسماه: «فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب»، وقد كشف الطبرسي بهذا الكتاب حقيقة موقف الرافضة ومراجعهم في القرآن الكريم، وأبان عما يحملونه من كيد حاقد، وعداوة مبيتة ضد كتاب اللّه، وقد أشار في مقدمة كتابه إلى سبب تأليفه فقال: «... فيقول العبد المذنب المسيئ حسين بن محمد تقي الدين الطبرسي- جعله اللّه من الواقفين ببابه المتمسكين بكتابه- هذا كتاب لطيف وسفر شريف عملته في إثبات تحريف القرآن، وفضائح أهل الجور والعدوان، وسميته: «فصل الخطاب في تحريف كتاب رب الأرباب»(٦).

ولا شك أن الخميني يذهب إلى ما ذهب إليه غيره من الروافض في القول بوقوع التحريف في القرآن الكريم، وهو وإن لم أقف على تصريح له- من باب التقية- في هذه القضية، إلا أنه يستقي حديثه من كتاب «مستدرك الوسائل»، ويترحّم على صاحبه، وهو صاحب كتاب فصل الخطاب السابق ذكره، كما أنه يستقي معلوماته أيضًا من تفسير الصافي، وهو من القائلين بوقوع التحريف في القرآن الكريم(٧).

وإليك أيها القارئ الكريم بعض النماذج التي ذكرها هؤلاء القوم وزعموا أنها محرفة وناقصة، وذلك من كتبهم هم:

قال القمي: «وأما ما هو محرف فمنه قوله: ﴿لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ﴾ (في علي) ﴿أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ﴾ [النساء: الآية ١٦٦]، وقال في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ (في علي) ﴿وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾ [المائدة: الآية ٦٧](٨)، ويروي الكليني عن الرضا في قول اللّه تعالى: ﴿كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ﴾ بولاية علي ﴿مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ﴾ يا محمد من ولاية علي»(٩).

ويعقب الدكتور / ناصر القفاري على هذه الافتراءات على القرآن الكريم فيقول: «وهذه الإضافات التي تزعم الشيعة نقصها من كتاب اللّه، ألا يلاحظ القارئ العربي أن السياق لا يتقبلها، وأنها مقحمة إقحامًا بلا أدنى مناسبة، ولذلك يكاد النص يلفظها، وأنها من وضع أعجمي لا صلة له بلغة العرب، ولا معرفة له بأساليب العربية، ولا ذوق له في اختيار الألفاظ وإدراك المعاني، إن الكلمات المفتراة التي يقدمها هؤلاء المفترون أمثلة للآيات الساقطة بزعمهم، قد كشفت القناع عن كفرهم، كما أنها فضحت كذبهم، وكشفت افتراءهم، فهي محاولات أشبه بمحاولات مسيلمة الكذاب في تقليد القرآن العظيم»(١٠).

ولم يقف الرافضة عند هذا الحد، بل ذهبوا يؤولون القرآن بما يوافق ما هم عليه من معتقدات باطلة، وقد أول ابن المطهر الحلي الرافضي بعض آيات من القرآن لتتفق مع ضلاله وانحرافه، وقد أتى عليها شيخ الإسلام ابن تيمية كاملة، ورد عليها، وبيّن بطلان الاستدلال بها من وجوه كثيرة، وأطال النفس في هذا بما لا مزيد عليه- رحمه اللّه تعالى(١١)، كما ذهبوا أيضًا إلى أن القرآن الكريم لا يكون حجة إلا بقيم، وأن القيم هو علي بن أبي طالب رضي اللّه عنه. يقول الكليني ما نصه: «إن القرآن لا يكون حجةً إلا بقيم، وأن عليًا كان قيم القرآن، وكانت طاعته مفترضة، وكان الحجة على الناس بعد رسول اللّه ﷺ...»(١٢).

وهذا في الحقيقة فيه تعطيل للعمل بكتاب اللّه وطعن في علم الصحابة الذين تلقوا عن رسول اللّه ﷺ وصحبوه، وتعلموا منه، وجاهدوا معه، ومن المعلوم أن النبي ﷺ لم يخص أحدًا من الصحابة بعلم شيء من الشريعة دون الآخرين، وقد قال اللّه له: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: الآية ٤٤]، فالآية تدل على أن البيان للناس، وليس لفرد أو طائفة بعينها، حتى ولو كانوا أهل بيته، وقد نفى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب- رضي اللّه عنه- أن يكون قد خصه رسول اللّه ﷺ بعلم شيء دون الناس، وهذا هو الحق الثابت، ويلزم من قول الروافض هذا- كما أشرت سابقًا- رد علم جميع الصحابة والسلف والأئمة بعدهم، وقد صرح بهذا بعض شيوخهم في العصر الحاضر، فقال: «إن جميع التفاسير الواردة عن غير أهل البيت لا قيمة

لها ولا يعتد بها»(١٢)، وقد رد ابن تيمية على ابن المطهر الحلي مثل هذا الزعم فقال: «وهذا ابن عباس نقل عنه من التفسير ما شاء الله بالأسانيد الثابتة، ليس في شيء منها ذكر علي، وابن عباس يروي عن غير واحد من الصحابة يروي عن عمر، وأبي هريرة، وعبد الرحمن بن عوف، وعن زيد بن ثابت، وأُبي بن كعب، وأسامة بن زيد، وغير واحد من المهاجرين والأنصار، وروايته عن علي قليلة جدًا، ولم يخرج أصحاب الصحيح شيئًا من حديثه عن علي، وخرجوا حديثه عن عمر وعبد الرحمن بن عوف وأبي هريرة وغيرهم، وأيضًا فالتفسير أخذ عن غير ابن عباس، أخذ عن ابن مسعود وغيره من الصحابة الذين لم يأخذوا عن علي شيئًا، وما يعرف بأيدي المسلمين تفسير ثابت عنه، وهذه كتب الحديث والتفسير مملوءة بالآثار عن الصحابة والتابعين، والذي فيها عن علي قليل جدًا»(١٤).

عقيدة الرافضة في الغيبة

القول بالإمام الغائب من عقائد الشيعة الرافضة، وإن اختلفوا في هذا الغائب، وتعتبر السبئية أول فرقة قالت بها، حيث زعمت أن عليًا لم يُقتل ولم يمت، وأنه سيرجع ويملأ الأرض عدلًا وقسطًا كما مُلئت ظلمًا وجورًا(١٥).

ويطول الحديث هنا عن ذكر حماقات الشيعة في ادعائهم الغيبة لبعض الأئمة، ولذلك سأقتصر في حديثي على ما ذهبت إليه الشيعة الاثنا عشرية القائلون باثني عشر إمامًا، وقد اخترعوا القول بالغيبة، بعد وفاة إمامهم الحادي عشر الحسن العسكري سنة ٢٦٠هـ، وكان عقيمًا ولم يعرف له ولد ظاهر، واقتسم ما ظهر من ميراثه أخوه جعفر وأمه(١٦).

وعندئذ اضطرب أمر الشيعة، لأنهم أصبحوا بلا إمام، ولا دين عندهم بدون إمام، وسينهدم بذلك بنيانهم الذي بنوه وافتروه في نظرية الإمامية، فاخترعوا لذلك مسألة الغيبة، وقالوا بأن الحسن العسكري تزوج بجارية وأنجبت له ولدًا سماه محمدًا، وقد ذكروا في قصة زواجه وحمل زوجته قصصًا واهية نسجوها من صنع خيالهم، وقد وضعوا في ذلك روايات كاذبة كي تستر فضيحتهم، ومنها: «يبعث الله لهذا الأمر غلامًا منا، خفي الولادة والمنشأ»(١٧). ثم ما لبث أن غاب هذا المولود، وكان عمره آنذاك خمس سنوات(١٨).

وكانت هذه بداية الغيبة الصغرى التي امتدت سبعين عامًا من عام ٢٦٠- ٣٢٩هـ(١٩)، كان له فيها وكلاء وسفراء يتصلون به، ولما طال أمد الغيبة ولم يظهر- لأنه معدوم- خشي هؤلاء من سقوط فريتهم وافتضاح أمرهم، فأعلنوا أن الغيبة تحولت من غيبة صغرى إلى غيبة كبرى، ولنا أن نتساءل: لماذا تحولت غيبة المعدوم الصغرى عام ٣٢٩هـ إلى غيبة كبرى استمرت إلى عصرنا الحاضر ولم يظهر بعد ؟ والجواب نتركه للشيعة أنفسهم.

يقول محمد الصدر معللاً إنهاء الغيبة الصغرى ونقلها إلى كبرى بما يلي: «صعوبة الزمان، وازدياد المطاردة والمراقبة من قبل الجهاز الحاكم ومن والاه للقواعد الشعبية الموالية للإمام المهدي، وعدم إمكان المحافظة على السرية الملتزمة في خط السفارة لو طال بها الزمان أكثر من ذلك، وانكشاف أمرها شيئًا فشيئًا...، ولئن استطاع السفراء أن يخفوا سفارتهم لمدة سبعين عامًا، فإنه لن يكون ذلك مستطاعًا إلى الأبد، وسوف ينكشف بحسب طبيعة الأشياء أمر السفير، ومعه يتعذر عليه العمل، إن لم يؤد إلى التنكيل به تحت سياط السلطات»(٢٠).

وهم بقولهم هذا يسيئون إلى أئمتهم وهم لا يشعرون ؛ إذ كيف يكون إمامًا وهو يفر من عبادة المجاهدة وتحمل المشاق في سبيل الله(٢١)، وما الفائدة التي تعود على الأمة الإسلامية من غيبته ؟ ولهذا كان هذا المعتقد مثارًا للسخرية بين الناس.

يقول الإمام ابن القيم: «ولقد أصبح هؤلاء عارًا على بني آدم، وضحكة يسخر منهم كل عاقل»(٢٢).

وهذا حق ؛ لأن الغيبة المزعومة تجاوزت الآن أكثر من ألف ومائة عام، ولم يظهر لهم إمام مع طول انتظارهم.

ويفند الإمام ابن تيمية- رحمه الله- زعمهم الفاسد في الغيبة فيقول: «... سواء قُدِّر وجوده أو عدمه لا ينتفعون به، لا في دين ولا في دنيا، ولا علَّم أحدًا شيئًا، ولا يعرف له صفة من صفات الخير ولا الشر، فلم يحصل به شيء من مقاصد الإمامة، ولا

مصالحها، لا الخاصة ولا العامة، بل إن قُدِّر وجوده فهو ضرر على أهل الأرض بلا نفع أصلاً، فإن المؤمنين به لم ينتفعوا به، ولا حصل لهم به لطف ولا مصلحة...، وإذا قالوا: إن الناس بسبب ظلمهم احتجب عنهم. قيل: أولاً: كان الظلم موجودًا في زمن آبائه ولم يحتجبوا، وقيل: ثانيًا: فالمؤمنون به طبقُوا الأرض فهلا اجتمع بهم في بعض الأوقات، أو أرسل إليهم رسولاً يعلمهم شيئًا من العلم والدين، وقيل: ثالثًا: قد كان يمكن أن يأوي إلى كثير من المواضع التي فيها شيعته...»(٢٣).

ثم زعم الشيعة بعد ذلك أن الفقيه المجتهد ينوب عن الإمام الأسطوري الغائب في كل شيء عدا البدء في الجهاد، وقد كتب الخميني كتابه المشهور «الحكومة الإسلامية» أو «ولاية الفقيه» لتأييد هذا الرأي، واعتبر نفسه نائبًا عن الإمام الغائب(٢٤)، وقد بنوا عقيدتهم في الرجعة على الغيبة المزعومة، فهم يعتقدون أن إمامهم الثاني عشر سيرجع بعد غيبته الكبرى، وهم ينتظرون خروجه حتى الآن، والغرض من الرجعة عند الشيعة هو انتقام الأئمة والشيعة من أعدائهم- وهم سائر المسلمين من غير الشيعة- ما عدا المستضعفين(٢٥).

يقول الشيخ محمد منظور نعماني: «عقيدة الرجعة من العقائد الخاصة بالشيعة، وهي ذاتها فرع من فروع عقيدة الإمامة، وتعني أن الإمام المهدي الغائب حين يظهر ويخرج من الغار في ذلك الوقت يبعث الرسول ﷺ وأمير المؤمنين والسيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين، وجميع الأئمة والخواص المقربين، يبعث هؤلاء أحياءً، فيخرجون من قبورهم ويبايع جميعهم المهدي، ويكون رسول الله ﷺ وأمير المؤمنين علي المرتضى أول من يبايعه، ويبعث أبو بكر وعمر وعائشة ومن والاهم من خواص الكفار والمنافقين أحياء، فيتم عقابهم»(٢٦)، ولا يملك العاقل أمام هذه الأقوال إلا أن يعجب من سذاجة هؤلاء القوم وقلة عقولهم، وخروجهم الواضح الصريح على نصوص القرآن الكريم.

يقول الآلوسي: «مذهب أهل السنة أن الأموات لا رجعة لهم في الدنيا قبل يوم القيامة، وقالت الإمامية قاطبة وبعض الفرق الأخرى من الروافض أيضًا برجعة الأموات...، وهذه العقيدة مخالفة للكتاب، فإن الرجعة قد أبطلت في آيات كثيرة منها قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلاَّ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩، ١٠٠]، ولا يخفى أن مناط التمسك ومحطّه إنما هو قوله: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾(٢٧).

الهوامش

١- مقالات الإسلاميين (١/١١٩).
٢- الفرق بين الفرق (ص٣٢٧).
٣- الفصل في الأهواء والملل (٤/٥).
٤- أوائل المقالات في المذاهب المختارات، (ص٥٤).
٥- انظر تفسير الصافي، المقدمة السادسة (ص٥٢).
٦- فصل الخطاب (ص٢).
٧- وجاء دور المجوس (ص١٦٩).
٨- تفسير القمي (١/١٠).
٩- أصول الكافي (١/٤١٨).
١٠- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية (١/٢٤٣).
١١- انظر كتابه النفيس: منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية (٥/٧- ١٩٧).
١٢- أصول الكافي (١/١٨٨).
١٣- الشيعة والرجعة (ص١٩).
١٤- منهاج السنة النبوية (٤٢/٨، ٤٣).
١٥- فرق الشيعة (ص٢٢).
١٦- فرق الشيعة (ص٩٦).
١٧- أصول الكافي (١/٣٤١، ٣٤٢).
١٨- الغيبة للطوسي (ص١٤٢).
١٩- تاريخ الغيبة الصغرى لمحمد باقر (ص٣٤٥).
٢٠- المرجع السابق (ص٦٣١، ٦٣٣).
٢١- مختصر التحفة الاثنى عشرية (ص١١٨).
٢٢- المنار المنيف (ص١٥٢).
٢٣- منهاج السنة (٤/٨٩، ٩٠).
٢٤- انظر: وجاء دور المجوس (ص١٩٣-١٩٨).
٢٥- أصول مذهب الشيعة الإمامية الاثنى عشرية (٣/٩١٤).
٢٦- الثورة الإيرانية في ميزان الإسلام (ص١٩١).
٢٧- مختصر التحفة (ص٢٠٠، ٢٠١).

الشيعة الرافضة

تاريخ وحقائق

الحلقة الأخيرة

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي
نائب الرئيس العام

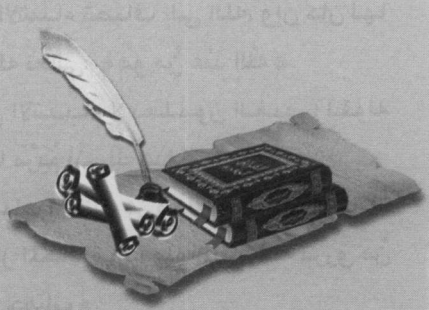

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

عقيدة الشيعة الرافضة في التقية

التقية عند الشيعة ركن من أركان دينهم كالصلاة أو أعظم، قال ابن بابويه القمي: «اعتقادنا في التقية أنها واجبة من تركها بمنزلة من ترك الصلاة»(١)، فهم يرونها فريضة لا يقوم المذهب إلا بها، ويتلقون أصولها سرًا وجهرًا، وقد عَرَّفَ «المفيد» التقية عندهم فقال: «التقية كتمان الحق، وستر الاعتقاد فيه، وكتمان المخالفين، وترك مظاهرتهم بما يعقب ضررًا في الدين أو الدنيا»، فهي عندهم كتمان للاعتقاد خشية الضرر من المخالفين، وهم أهل السنة عندهم(٢)، وهم بهذا يخرجون بالتقية إلى الكذب والنفاق، لأن التقية في الإسلام تكون من الكفار لا من أهل الإيمان، كما قال تعالى: ﴿لاَ يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: الآية ٢٨]، قال ابن جرير في تفسيره للآية: «ومعنى ذلك: لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك فقد بريء من الله، وبريء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر: ﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: الآية ٢٨]، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم ؛ فتظهروا لهم الولاية بالسنتكم، وتضمروا لهم العداوة ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر»(٣).

وأجمع أهل العلم على أن التقية رخصة في حال الضرورة. قال ابن المنذر: «أجمعوا على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل فكفر وقلبه مطمئن بالإيمان أنه لا يحكم عليه بالكفر»(٤).

ويظهر بوضوح من كلام ابن جرير السابق وإجماع أهل العلم المذكور هنا، أن التقية تكون عند الضرورة مع الكافرين، فهي لا تمثل نهجًا عامًا في سلوك المسلم، بل حالة مؤقتة مقرونة بالاضطرار، وتزول بزوال حالة الإكراه، ولكنها عند الرافضة من أصول مذهبهم، وحالة مستمرة وسلوك جماعي دائم.

يقول ابن بابويه: «والتقية واجبة لا يجوز رفعها إلى أن يخرج القائم، فمن تركها قبل خروجه فقد خرج من دين الله تعالى، وعن دين الإمامية، وخالف الله ورسوله والأئمة»(٥).

وهذا النص يبين أن استخدام التقية عندهم يكون مع عموم المسلمين وفي جميع ديارهم، حتى إنهم يسمون دار الإسلام «دار التقية»، ويسمونها دولة الباطل، وقد جاء في رواياتهم: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يتكلم في دولة الباطل إلا بالتقية»(٦).

ويرجع السبب إلى القول بالتقية عند الشيعة الرافضة واعتبارها من أصول الدين إلى عدة أمور، منها:

الأول: أنهم يعتقدون أن خلافة الأئمة الثلاثة قبل علي باطلة، وهم ومن بايعهم في عداد الكفار. مع أن عليًا بايعهم، وصلى خلفهم، وجاهد معهم، وهذا يناقض ما ذهبوا إليه في الخلفاء الثلاثة، فحاولوا الخروج من هذا التناقض بالقول بالتقية، وأن عليًا- وحاشاه- كان يستخدمها.

الثاني: أنهم قالوا بعصمة الأئمة وأنهم لا يسهون ولا يخطئون وغير ذلك، وهذه الدعوى خلاف ما هو معلوم من حالهم، فاخترعوا القول بالتقية لدفع ما يمكن أن يظهر من تناقض أو اختلاف بين ما قالوه ونسبوه للأئمة وبين ما يقع منهم(٧)، ولهذا أصبحت التقية عند هؤلاء هي الكذب والنفاق.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في رده على الرافضي ابن المطهر: «ولهذا رأس مال الرافضة التقية، وهي أن يظهر خلاف ما يبطن كما يفعل المنافق، وقد كان المسلمون في أول الإسلام في غاية الضعف والقلة، وهم يظهرون دينهم لا يكتمونه...، والرافضة حالهم من جنس حال المنافقين، لا من جنس حال المكره الذي أكره على الكفر وقلبه مطمئن بالإيمان، فإن هذا الإكراه لا يكون عامًا من جمهور بني آدم...، وفرق بين الكذب والكتمان، فكتمان ما في النفس يستعمله المؤمن حيث يعذره الله في الاظهار، كمؤمن آل فرعون، وأما الذي يتكلم بالكفر، فلا يعذر إلا إذا أكره، والمنافق الكذاب لا يعذر بحال...، وأما الرافضي فلا يعاشر أحدًا إلا إذا استعمل معه النفاق، فإن دينه الذي في قلبه دين فاسد، يحمله على الكذب والخيانة، وغش الناس، وإرادة السوء بهم، فهو لا يألوهم خبالاً، ولا يترك شرًا يقدر عليه إلا فعله بهم»(٨).

وبعد توضيح عقيدة الرافضة في التقية أقول لأهل السنة: احذروا كذب الرافضة ونفاقهم باسم التقية، وعلى من يتعامل معهم في أي أمر من الأمور، أو يناقشهم في مسألة من المسائل أن يعلم هذا المعتقد عنهم حتى يأمن شرهم وكيدهم، وعلينا أيضًا أن لا ننخدع ببعض مواقفهم وتصرفاتهم، كما انخدع البعض بالخميني المتعصب لمذهب الرافضة، وكما انخدع بعض الناس أيضًا بحسن نصر الذي يدين بالطاعة والولاء لأئمة الرافضة ويسلك مسلكهم، وحزب الشيطان المسمى- زورًا وبهتانًا- حزب الله ينطلق من خلال التقية في تعامله مع المسلمين، ليكسب أنصارًا من السذج والبسطاء.

يقول أحدهم: «فالعامل بالتقية مجاهد علوي، لكنه يجاهد بيقظة وحذر، وبما يتسع له المجال، وليس قاعدًا متخاذلاً، وتاركًا لواجباته ومسئولياته كما يتصور السذج من المؤمنين، وليست التقية عملاً سريًا محضًا تجعل من الشيعة حزبًا أو جمعية سياسية سرية معارضة تعمل في الخفاء، وإنما هي أسلوب للعمل بطريقة حزب الله، وبصورة علنية تتناسب مع الظروف السياسية سعة وضيقًا»(٩).

مخالفة الشيعة الرافضة للمسلمين في مسائل من أصول الدين

الإيمان بالله وتوحيده وإفراده بالعبادة هو أصل الأصول في الدين، بل إن رب العالمين لم يخلق خلقه إلا لعبادته وحده دون سواه، ولكن الرافضة خالفوا في هذا الأصل وغيره من أصول الدين، وبيان ذلك في النقاط التالية:

١- جعل الرافضة النصوص الدالة على إفراد الله بالعبادة في ولاية الأئمة:

ففي قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزُّمر: الآية ٦٥]. قال القمي في تفسيرها: «لئن أمرْتَ أحدًا مع ولاية على من بعدك ليحبطن عملك»(١٠).

والآية كما نرى تهديد ووعيد لمن يشرك مع الله أحدًا، ولا توجد فيها إشارة لا من قريب ولا من بعيد إلى ولاية علي أو غيره، ومثل هذا التأويل الباطل ذكروه في قول الله تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: الآية ١٢]، حيث قالوا في تفسيرها: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ﴾ [غافر: الآية ١٢] بأن لعلي ولاية، ﴿وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ﴾ [غافر: الآية ١٢] من ليست له ولاية، ﴿تُؤْمِنُوا فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ [غافر: الآية ١٢](١١).

وهذه طريقتهم في الآيات الآمرة بتوحيد الله في كتابه والناهية عن الشرك، جعلوها في ولاية علي، وعدم إشراك من ليست له ولاية معه، وهذا تحريف للنصوص، ومخالفة صريحة لظاهر نصوص كتاب الله تعالى، ومن البدهي أن نعلم هنا أن القرآن الكريم أمر في آيات كثيرة منه بإفراد الله بالعبادة، قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [النِّساء: الآية ٣٦].

وقال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسرَاء: الآية ٢٣]، وغير ذلك من الآيات.

وقد جعل الله تعالى التوحيد وإخلاص العبادة له مع متابعة النبي ﷺ شرطًا لقبول الأعمال، ولكن الشيعة الرافضة ذهبوا إلى أن شرط قبول الأعمال هو ولاية أئمتهم الاثني عشر، بل اعتقدوا أن مغفرة

اللّه ورضوانه وجناته تكون لمن اعتقد الإمامة، وإن جاء بقراب الأرض خطايا، وأن الطرد والإبعاد والنار لمن لقي اللّه لا يدين بإمامة الاثني عشر(١٢)، وذكروا روايات كثيرة في هذا الضلال.

يقول ابن بابويه القمي: «إن من أقر بولايتنا ثم مات عليها قبلت منه صلاته وصومه وزكاته وحجه، وإن من لم يقر بولايتنا بين يدي اللّه جل جلاله لم يقبل اللّه عز وجل شيئًا من أعماله»(١٣).

كما زعم أن جبريل- عليه السلام- نزل على النبي ﷺ فقال: يا محمد، السلام يقرئك السلام ويقول: «خلقت السماوات السبع وما فيهن، والأرضين السبع ومن عليهن، وما خلقت موضعًا أعظم من الركن والمقام، ولو أن عبدًا دعاني هناك منذ خلقت السماوات والأرضين، ثم لقيني جاحدًا بولاية علي لأكببته في سقر»(١٤).

٢- اعتقاد الرافضة أن الأئمة هم الواسطة بين اللّه والخلق:

اصطفى اللّه تعالى رسله من بين خلقه ليبلغوا أمره ونهيه إلى العباد، وكانوا بذلك هم الواسطة بين اللّه والناس، وذلك في تبليغ الوحي فقط، أما عبادة العبد ربه فلا تحتاج إلى واسطة مخلوق، فلا حواجز، ولا حجب بين اللّه وخلقه، قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البَقَرَة: الآية ١٨٦].

قال ابن تيمية في جواب على سؤال ورد إليه وهو: هل لابد لنا من واسطة بيننا وبين اللّه، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك ؟ فقال: «إن أردت بذلك أنه لابد من واسطة تبلغنا أمر اللّه فهذا حق، فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه اللّه ويرضاه، وما أمر به وما نهى عنه، وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقه اللّه تعالى من أسمائه الحسنى وصفاته العليا التي تعجز العقول عن معرفتها وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم اللّه إلى عباده...، وإن أراد بالواسطة: أنه لابد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار مثل: أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجونه فيه، فهذا من أعظم الشرك، الذي كفر اللّه به المشركين حيث اتخذوا من دون اللّه أولياء وشفعاء، يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار»

وما ذكره ابن تيمية- رحمه اللّه- هو الحق الذي دلت عليه النصوص، ولكن الشيعة الرافضة يخالفون أيضًا ذلك، حيث يعتقدون أن الأئمة الاثني عشر هم الواسطة بين اللّه وخلقه، وأن اللّه لا يقبل الدعاء إلا بأسماء الأئمة، وقد ذكر «الحر العاملي» في أخباره عن الأئمة: «من دعا اللّه بنا أفلح، ومن دعا بغيرنا هلك واستهلك»

وتبلغ بهم سخافة العقول إلى أن يرووا عن الرضا أنه قال: «لما أشرف نوح- عليه السلام- على الغرق دعا اللّه بحقنا، فدفع اللّه عنه الغرق، ولما رُمي إبراهيم في النار دعا اللّه بحقنا فجعل اللّه النار عليه بردًا وسلامًا، وإن موسى- عليه السلام- لما ضرب طريقًا في البحر دعا اللّه بحقنا فجعله يبسًا، وإن عيسى- عليه السلام- لما أراد اليهود قتله دعا اللّه بحقنا فنُجي من القتل فرفعه اللّه»

وأنا أسأل الشيعة بعد هذه الأقوال: أين أنتم من قول اللّه تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غَافر: الآية ٦٠]، ومن قوله: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ﴾ [الأعرَاف: الآية ١٨٠]، وقوله:﴿فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [غَافر: الآية ١٤] ؟!

وأختم هذه الفقرة بما قاله الدكتور / موسى الموسوي في كلامه عن الغلو العملي عند الرافضة: «إن الغلو العملي يتجسد في طلب الحاجات الدنيوية والأخروية من الأئمة والاستغاثة بهم بصورة مباشرة- كما أن تقبيل الأضرحة هو أمر شائع في مراقد الأئمة والأولياء معًا»(١٢).

٣- اعتقاد الشيعة الرافضة أن الحج إلى المشاهد أعظم من الحج إلى بيت اللّه الحرام:

الحج هو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد جاء الأمر به في كتاب اللّه وسنة نبيه ﷺ، وأجمع المسلمون على ذلك، ولكن الشيعة الرافضة يعتبرون زيارة قبور أئمتهم أفضل من الحج إلى بيت اللّه الحرام، ويروون في ذلك روايات باطلة ينسبونها إلى أئمة أهل البيت كذبًا وزورًا، ومن ذلك: «من أتى قبر الحسين- عليه السلام- عارفًا بحقه كان كمن حج مائة مع رسول اللّه ﷺ»(١٣).

ولم تقتصر رواياتهم على هذا الباطل، بل بالغوا في فضل هذه الزيارة حتى بلغوا بها ألف حجة وعمرة متقبلة وغير ذلك من ألوان العبادات، كما ذكر الحر العاملي عن محمد بن مسلم عن أبي جعفر قال: «لو يعلم الناس ما في زيارة الحسين- عليه السلام- من الفضل لماتوا شوقًا، وتقطعت أنفسهم عليه حسرات، قلت: وما فيه ؟ قال: من زاره تشوقًا إليه كتب اللّه له ألف حجة متقبلة، وألف عمرة مبرورة، وأجر ألف شهيد من شهداء بدر، وأجر ألف صائم، وثواب ألف صدقة مقبولة، وثواب ألف نسمة أريد بها وجه اللّه، ولم يزل محفوظًا سَنَتَهُ من كل آفة أهونها الشيطان، ووكل به ملك كريم يحفظه من بين

يديه ومن خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوق رأسه ومن تحت قدمه، فإن مات سَنَتَهُ حضرته ملائكة الرحمن يحضرون غسله وأكفانه والاستغفار له، ويشيعونه إلى قبره بالاستغفار له، ويفسح له في قبره مد بصره، ويؤمنه الله من ضغطة القبر، ومن منكر ونكير يروعانه، ويفتح له باب إلى الجنة، ويعطى كتابه بيمينه، ويعطى له يوم القيامة نور يضيء لنوره ما بين المشرق والمغرب، وينادي منادٍ: هذا من زار الحسين شوقًا إليه، فلا يبقى أحد يوم القيامة إلا تمنى يومئذ أنه كان من زوار الحسين- عليه السلام-»(١٤).

فانظر أخي المسلم إلى هذا الكذب والافتراء، وتوزيع العطايا والأجور كما يزعمون دون حجة من كتاب أو سنة، وكأن الدين محصور في زيادة القبور والوقوف على الأضرحة.

ومما ينبغي أن يعلم أنهم لم يقتصروا على مجرد الزيارة ذات الأجر المشهور، بل أجازوا الطواف بأضرحة الموتى من الأئمة، والصلاة عند أضرحتهم، والانكباب عليها ووضع الخد عليها، وتقبيل الأعتاب، ومناجاة صاحب القبر حتى ينقطع النفس(١٥)، وهذه دعوة إلى الشرك وعبادة غير الله، وخروج على معتقد جميع المسلمين.

قال ابن تيمية- رحمه الله-: «وقد اتفق المسلمون على أنه لا يشرع الاستلام والتقبيل إلا للركنين اليمانيين، فالحجر الأسود يُستلم ويُقبل، واليماني يُستلم، وقد قيل إنه يُقبل وهو ضعيف، وأما غير ذلك فلا يشرع استلامه ولا تقبيله ؛ كجوانب البيت، والركنين الشاميين، ومقام إبراهيم، والصخرة، والحجرة النبوية، وسائر قبور الأنبياء والصالحين، وفي الصحيحين عن أبي هريرة- رضي الله عنه- عن النبي ﷺ قال: «قاتل الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». وفي رواية لمسلم: «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»(١٦).

وما يزال الشيعة الرافضة إلى اليوم عاكفين على قبور أئمتهم، ومن يراهم ويرى ما يفعلونه هناك يعجب من عقول هؤلاء، وأئمتهم في الضلال يزينون لهم ذلك، فالخميني مثلًا يستحب الصلاة في مشاهد الأئمة وعند قبورهم، فيقول: «وكذا يستحب الصلاة في مشاهد الأئمة- عليهم السلام- خصوصًا مشهد أمير المؤمنين- عليه السلام-، وأبي عبد الله الحسين- عليه السلام-»(١٧).

وهناك معتقدات أخرى باطلة عند هؤلاء، ولكني أكتفي هنا بما ذكرت من باب الإيجاز، وفيما ذكر كفاية.

مهلاً يا دعاة التقريب

بعد العرض الذي ذكرته في نقاط محددة عن الشيعة الرافضة، أوجه الخطاب إلى دعاة التقريب بين السنة والشيعة الرافضة فأقول:

إن الشيعة الرافضة يخالفون جمهور المسلمين في أصول الدين وفروعه، فكيف يمكن الجمع بين هؤلاء وهؤلاء؟! ومن المعلوم ببداهة العقول أن الاجتماع بين طرفين يمكن أن يكون إذا كان بينهما توافق أو وجه شبه قريب، أما أن نقول بأنه يمكن أن يجتمع الليل والنهار، والظل والحرور، فهذا من باب المستحيلات.

إن مصادرنا في أصول الدين وفروعه تختلف عن مصادرهم، ولقد بينت من خلال هذا البحث ومن كتبهم أنهم يعتقدون أن القرآن الموجود بين أيدي المسلمين مُحرف، كما يكفرون سائر الصحابة- رضوان الله عليهم-، ولم ينج من تكفيرهم إلا النزر اليسير، وترتب على ذلك ترك روايتهم، وعدم الاعتماد على نقلهم، وبناءً على ذلك فهم لا يعتمدون على كُتب السنة والأحاديث الصحيحة الموجودة بين أيدي المسلمين اليوم، فكيف يقع اللقاء والاتفاق إذًا يا عقلاء العالم.

إنني أدعو عموم المسلمين أن يتجردوا من كل هوًى وعصبية إلا للحق، وأن يتبينوا مذهب الشيعة الرافضة من كتبهم، حتى لا ينخدعوا بكلمات مُنَمَّقَة، أو مواقف مبتورة، وليعلم الجميع أن هؤلاء الرافضة يستخدمون أسلوب التقية مع المسلمين، وقد أشرت إليها سابقًا، وما ذكرته عنهم من معتقدات باطلة مذكورة في كتبهم تكفي العاقل من أن يعلن براءته من هؤلاء نصحًا لله ولكتابه ولرسوله ﷺ ولعموم المسلمين، كما يجب علينا أن نحذر من المد الشيعي في بلاد المسلمين المؤيد من جهلة المتصوفة.

إننا- معشر أهل السنة- نغضب لله أمام قوم خالفوا كتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ، وطعنوا على خيار هذه الأمة من الصحب الكرام.

إنه- واللـه- لن يكون الخميني، أو حسن نصر يومًا ما أحب إلينا وأقرب إلى قلوبنا من سادات الأولياء أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وغيرهم- رضي الله تعالى عنهم- من سائر أصحاب النبي ﷺ.

وأرى أنه لا عذر- بعد ذلك- لمؤمن يعظم شعائر الله أن يوافق هؤلاء، أو يرضى عنهم، فضلاً عن أن يعتقد معتقدهم، أو يدعو إلى بدعتهم وضلالتهم.

رمضان ١٤٢٩

منزلة الصيام في القرآن الكريم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله إلى يوم الدين. وبعد:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٨٣) أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ وَأَنْ تَصُومُوا خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١٨٤) شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٣-١٨٥].

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

دلت هذه الآيات على أن صوم رمضان فريضة على كل مسلم ومسلمة في كل عام متى ثبت دخول الشهر برؤية الهلال، أو إكمال شهر شعبان. وصوم شهر رمضان أحد الأركان الخمسة التي حددها نبينا ﷺ، كما في الحديث الذي رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله- ﷺ-، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»(١).

والآية الأولى من الآيات السابقة تحدثت عن فريضة الصيام، وأن الله كتبه علينا - يعني فرضه - كما كتبه على الأمم قبلنا، والقرآن بذلك يرغب في الصيام، ويبين أنه فريضة خالدة على المؤمنين في كل دين، والآية الثانية فيها برهان على يسر هذا الدين الحنيف، حيث لم يُفرض الصيام إلا شهرًا واحدًا في كل عام، فليس هو فريضة في كل شهور العام، ولكنه أيام معدودات، وقد فرضه الله على القادرين، ورخص في الإفطار فيه للمريض حتى يصح، والمسافر حتى يقيم، أما من يشق عليهم الصيام بسبب لا يرجى زواله كالشيوخ الهرمين، والمرضى المزمنين فلهم أن يفطروا ويطعموا عن كل يوم مسكينًا.

أما الآية الثالثة فقد حددت وقت الصيام وزمانه ؛ فهي مستأنفة لبيان تلك الأيام المعدودات التي كتبت علينا، وأنها أيام شهر رمضان، وقد فضل الله هذا الشهر بنزول القرآن، ومن المعلوم أن ابتداء نزول القرآن كان في ليلة القدر من شهر رمضان حيث جاء جبريل - عليه السلام - إلى النبي ﷺ وهو يتعبد في غار حراء بالآيات الأولى من القرآن: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾. وبهذا امتاز شهر رمضان على غيره من شهور العام.

والصيام فضلاً عن كونه عبادة روحية عظيمة يهذب النفس ويقوم السلوك، وتتحقق به التقوى جعله الله بابًا من أبواب الكفارات التي ترفع عن المسلم وزر ما وقع فيه في بعض القضايا، أو يتحلل من أمر واجب عليه ولا يستطيع القيام به، وبيان ذلك فيما يلي:

١- جعل الله الصيام فدية لمن حلق رأسه وهو محرم، قال تعالى: ﴿فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك﴾ [البقرة: ١٩٦]، أي: من كان منكم معشر المحرمين مريضًا يتضرر معه بالشعر ويحتاج إلى حلقه - والمحرم يحرم عليه ذلك - فعليه إن حلق فدية من صيام أو صدقة أو نسك، فجعل الله الصوم من الأجناس الثلاثة التي يفتدى بها في هذا الأمر.

وذكر البخاري في كتاب التفسير من صحيحه وغيرُهُ حديث عبد الله بن معقل قال: قعدت إلى كعب ابن عجرة في هذا المسجد - يعني مسجد الكوفة - فسألته عن فدية من صيام، فقال: حملت إلى النبي ﷺ والقمل يتناثر على وجهي، فقال: «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا، أما تجد شاة؟» قلت: لا، قال: «صم ثلاثة أيام، أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام، واحلق رأسك». فنزلت فيَّ خاصة: «وهي لكم عامة»(٢).

وجمهور العلماء والأئمة أنه يخير في هذا المقام، إن شاء صام، وإن شاء تصدق، وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء، أي ذلك فعل أجزأه.

قال ابن كثير: «ولما كان لفظ القرآن في بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل، ولما أمر النبي ﷺ كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل، فقال: انسك شاة، أو أطعم ستة مساكين، أو صم ثلاثة أيام، فكل حسن في مقامه ولله الحمد والمنة»(٣).

٢- جعل الله الصيام بديلاً عن الهدي للمتمتع بالعمرة إلى الحج، قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾ [البقرة: ١٩٦]، وقد دلت السنة النبوية على ما دل عليه القرآن، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما الطويل الذي رواه البخاري وغيره وفيه أن النبي ﷺ قال: «فمن لم يجد هديًا فليصم ثلاثة أيام في الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله»(٤)، والمعنى: أن المتمتع بالعمرة إلى الحج إذا لم يجد الهدي، أو لم يجد ثمنه ينتقل إلى الصوم بنص القرآن والسنة، وعليه أن يصوم بالتفصيل المذكور فيها: ثلاثة أيام في الحج، وسبعة إذا رجع إلى أهله، حتى يأتي بالعشرة كاملة.

قال القاسمي- رحمه الله-: «كاملة» صفة مؤكدة لعشرة تفيد المبالغة في المحافظة على العدد، ففيه زيادة توصية لصيامها، وأن لا يتهاون بها، ولا ينقص من عددها، كأنه قيل: تلك عشرة كاملة، فراعوا كمالها ولا تنقصوها»(٥).

٣- جعل الله الصوم بديلاً عن تحرير الرقبة في قتل الخطأ. قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَأً وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٩٢]، وهذه الآية تتحدث عن قتل الخطأ وتبين أنه وإن عُفي عنه فلا يقتص منه إلا أنه لا يخلو من تقصير في حق الله تعالى، ولا يهدر دم المؤمن بالكلية، ولذلك أوجب عليه عتق رقبة مؤمنة لحق الله تعالى، وقيل في حكمة الاعتاق: إنه لما أخرج نفسًا مؤمنة من جملة الأحياء لزمه أن يدخل نفسًا مثلها في جملة الأحرار؛ لأن إطلاقها من قيد الرق كإحيائها(٦).

كما أوجب عليه أيضًا دية مسلمة إلى أهله وهم ورثة المقتول عوضًا عما فاتهم من قتيلهم، وهم يقتسمونها اقتسام الميراث، إلا أن يتصدق أولياء

المقتول بالدية على القاتل فلا تجب عليه، وإن كان المقتول من قوم محاربين لنا وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة فحسب ولا يعطى المحاربون لنا دية حتى لا يتقووا بها علينا، وإن كان أولياء القتيل أهل ذمة أو هدنة فلهم دية قتيلهم، ويجب على القاتل أيضًا تحرير رقبة مؤمنة، وذلك لأن الإسلام حرم قتل الذميين والمعاهدين كما حرم قتل المؤمنين، وبعد أن بينت الآية هذه الأحكام قال الله تعالى: ﴿فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين توبة من الله﴾ أي: فمن لم يجد رقبة يعتقها كأن انقطع الرقيق، أو لم يجد المال الذي يشتريها به، فعليه صيام شهرين متتابعين، لا إفطار بينهما، فإن أفطر يومًا من غير عذر شرعي استأنف، وذلك توبة من الله، أي أن الله جعل توبة القاتل خطأ إذا لم يجد العتق صيام شهرين متتابعين، وهذا يدل على فضل الصيام حيث جعله عوضًا عن عتق الرقبة عند عدمها، وهو يدل على أن الصيام يطهر النفس ويخلصها من أدران الإثم.

٤- الصيام كفارة في الأيمان:

قال تعالى: لاَ يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا عَقَّدْتُمُ الأَيْمَانَ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاَثَةِ أَيَّامٍ ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ [المائدة: ٨٩]، وهذه الآية بدأ الله فيها الحديث عن لغو اليمين، وهو قول الرجل في الكلام من غير قصد: لا والله، وبلى والله، وقد رجح ذلك الحافظ ابن كثير(٧)، بدليل قوله تعالى: ﴿ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان﴾ أي: بما صممتم عليه من الأيمان وقصدتموها، ثم ذكر سبحانه كفارة اليمين التي صمم عليها الحالف، ثم بين سبحانه أن من عجز عما ذكر في الآية فعليه أن يعدل إلى الصيام وحدده بثلاثة أيام، وذلك كفارة عن اليمين التي وقع فيها، والشاهد أن الصيام جُعل عوضًا عن إطعام عشرة مساكين، أو كسوتهم، أو تحرير رقبة، وهذا يدل على مكانة الصيام ومنزلته لقيامه مقام الكفارات السابقة.

٥- جعل الله الصيام من أنواع الكفارات لمن قتل الصيد وهو محرم. قال تعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمدا فجزاء مثل ما قتل من النعم﴾ [المائدة: ٩٥]، وقد بينت هذه الآية أن المحرم لا يجوز له أن يقتل صيدًا، ومن قتل صيدًا وهو محرم، فكفارته أن يذبح بهيمة من الأنعام من مستوى الصيد الذي قتله وتذبح في الحرم كما قال تعالى: ﴿هديا بالغ الكعبة﴾، على أن يتولى تقدير المثلية عدلان من المسلمين، أو كفارة طعام مساكين بما يعادل ثمن الهدي المقدر، أو صيام بعدد المساكين الذين كان ينالهم الإطعام.

٦- الصيام من كفارات الظهار: قال تعالى: ﴿والذين يظاهرون من نسائهم...﴾ [المجادلة: ٤].

ومنطوق الآيات واضح وصريح في جعل الصيام كفارة في الظهار إذا لم يجد المظاهر رقبة يعتقها، وهذه الآيات نزلت في أوس بن الصامت لما قال لزوجه: «أنت عليَّ كظهر أمي».

وهذا إن دلَّ على شيء فهو يدل على مكانة الصيام في الإسلام.

أسأل الله عز وجل أن يتقبل من الصائمين صومهم وقيامهم وجميع أعمالهم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٢ ج١/٤٩، ومسلم في كتاب الإيمان باب ٥ ج١/٤٥.
٢- البخاري كتاب التفسير باب ٣٢ ج٨/١٨٦.
٣- تفسير ابن كثير ج١/٣٣٨.
٤- البخاري كتاب الحج باب ١٠٤ ج٤/٥٣٩.
٥- محاسن التأويل للقاسمي ج٣/٤٩٠.
٦- انظر المرجع السابق ١٤٤٥.
٧- تفسير ابن كثير ج٢/١٦٣.

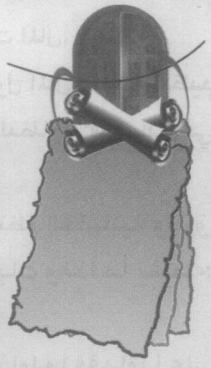

السياسة الشرعية

بين فقه الاستضعاف وفقه التمكين

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على الهادي البشير وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله إلى يوم الدين.

وبعد: فإن الله بعث النبي محمدًا ﷺ بدين الإسلام للناس كافة، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وقال ﷺ: «وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبعثتُ إلى الناس عامة». [البخاري: ٣٣٥، ومسلم: ٥٢١].

ولهذا كان من خصائص هذا الدين أنه دين عالمي في الزمان والمكان؛ فعالمية الزمان تعني أنه صالح إلى قيام الساعة، وعالمية المكان تعني أنه صالح للعمل به في أيّ جزء من أجزاء المعمورة، والأوامر الربانية والتشريعاتُ الإلهية التي نزلت على النبي ﷺ طبقها وصحابته الأخيارُ أتمَّ تطبيق، وكانت شاملةً كافيةً لهم فيما يحتاجون إليه ؛ لأنها من لدن الحكيم الخبير سبحانه، وهو أعلم بخلقه.

ولما انتشر الإسلام في أماكن متفرقة من العالم بعد النبي ﷺ وجَدَ الناسُ أن هذه الشريعة محققةٌ لهم من المصالح ما يحتاجون إليه، مُفضية بهم إلى سعادة الدارين، مع تجدد الحوادث واختلاف الزمان ؛ وذلك لأن الله تعالى قيَّض لهذا الدين رجالاً أكفاء، فقهوا الكتاب والسنة، وأمضوا نفيس أوقاتهم وجُلَّ أعمارهم في التأصيل والتفريع خدمةً لهذا الدين، ومواجهةً لما يحدث من قضايا ونوازل تتعلق بالمسلمين، وذلك بسياسة شرعيَّة سديدة، وفقه راشد بصير.

فأثبتوا أن شريعتنا قادرةٌ على الوفاء بحاجات المجتمعات في أي زمان ومكان، دون خروج على النص أو تبديل لشريعة الله، وهذا ما سأوضحه في هذه الكلمات تحت عنوان:

«السياسة الشرعية بين فقه الاستضعاف وفقه التمكين»

وقد قسمتُ الحديث في هذا الموضوع على الأقسام التالية:

القسم الأول: معنى السياسة الشرعية وموضوعاتها.

القسم الثاني: العقائد والأحكام الشرعية لا تتغيَّر ولا تتبدَّل.

القسم الثالث: صلاحية الشريعة وتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان.

القسم الرابع: فقه التغير في ضوء ما سبق مع مراعاة قاعدة «المصالح، وسُنة التدرج».

القسم الأول: معنى السياسة الشرعية وموضوعاتها

أولاً: تعريف «السياسة» في اللغة:

جاء في «المصباح المنير»: «سَاسَ زيد الأمرَ يسوسه: أي دبَّره وقام بأمره».

وجاء في «لسان العرب»: «السَّوْسُ الرِّياسة.

يقال: ساسوهم سَوْسا.. وساس الأمر سياسةً: قام به، ويقال: سُوِّس فلان أمر بني فلان، أي كُلِّف سياستهم، والسياسة: القيام على الشيء بما يصلحه».

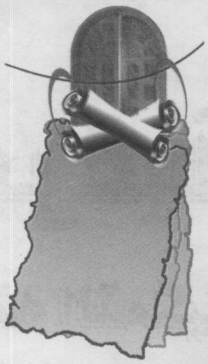

ثانيًا: تعريف السياسة الشرعية اصطلاحًا:

عرَّف أهل العلم السياسة الشرعية بتعريفات متعددة، منها:

١- ما يراه الإمام أو يُصدره من الأحكام والمقررات، زجرًا عن فساد واقع، أو قايةً من فساد مُتوقع، أو علاجًا لوضع خاص.

٢- تدبير شئون الدولة الإسلامية، التي لم يَرد بحكمها نص صريح، أو التي من شأنها أن تتغير وتتبدل بما فيه مصلحة الأمة، ويتفقُ مع أحكام الشريعة وأصولها العامة.

٣- تحقيق الحاكم الذي يسوس أمر الأمة للمصلحة التي تعود على الأفراد والجماعات، وذلك بتطبيق أحكام استنبطت بواسطة أسس سليمة أقرتها الشريعة، مثل: المصالح المرسلة، وسدّ الذرائع والاستحسان، والعرف، والاستصحاب، والإباحة الأصلية، وذلك فيما لم يرد فيه نص.

وإنما وصفت هذه السياسة بالشرعية؛ لأن اجتهاد الحاكم فيما جَدَّ من وقائع وأحداث وما يدخلُ في مجال علم السياسة الشرعية، لم يبن على الهوى والتشهي وإنما بني على مبادئ وقواعد معتبرة شرعًا.

ثانيًا: موضوعات علم السياسة الشرعية:

يدخل ضمن علم السياسة الشرعية الموضوعات التالية:

١- الوقائعُ المتعلقةُ بعلاقة الحاكم بالمحكومين، وبيان حقوقه وواجباته، وحقوق الرعية وواجباتها.

٢- الوقائعُ المتعلقة بعلاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في حالتي الحرب والسلم.

٣- الوقائعُ المتعلقةُ بجباية الأموال، وموارد الدولة ومصارفها، ونظام بيت المال.

٤- الوقائعُ المتعلقةُ بتداول المال وكيفية تنظيم استثماره وهذا ما يشمله النظام الاقتصادي في الإسلام.

٥- الوقائع المتعلقة بالنظم القضائية وطرق القضاء، وبيان وسائل الإثبات وهذا ما يشمله: النظام القضائي في الإسلام.

وهذه الموضوعات قد تناولها فقهاؤنا على اختلاف مذاهبهم ضمن أبواب الفقه العام، كما تناولوها في كتب متخصصة مثل «الأحكام السلطانية» للماوردي الشافعي، و«الأحكام السلطانية» لأبي يعلى الفراء الحنبلي، و«السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية» لابن تيمية، و«الطرق الحكمية» لابن قيم الجوزية، و«الخراج» لأبي يوسف، و«الأموال» لأبي عبيد القاسم بن سلام، ونستلخص مما سبق: أن السياسة الشرعية غايتها الوصول إلى تدبير شئون الدولة الإسلامية بنظم من دينها، والإبانة عن كفاية الإسلام بالسياسة العادلة ورعاية مصالح الناس في مختلف العصور والبلدان، ومسايرة التطورات الاجتماعية في كل حال وزمان على وجه يتفق مع المبادئ العامة الإسلامية.

القسم الثاني: العقائد والأحكام الشرعية لا تتغير ولا تتبدل

من المعلوم أن الله أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، ورضي لنا الإسلام دينًا، قال تعالى: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ [المائدة: ٣]، وإذا كان الدين قد كَمُل فلا يحتاج إلى زيادة أبدًا، كما لا ينبغي أن تحذف أو تغير بعض أحكامه، ولم يقبض رب العباد حبيبه ومصطفاه ﷺ إلا بعد أن بلغ البلاغ المبين، وترك الأمة على المحجة البيضاء ليلها ونهارها سواء.

وبناءً على هذا فإنَّ الأحكام الشرعية لا تتغير ولا تتبدل ؛ لأن الحكم الشرعي هو: «خطاب الشارع المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا أو

وضعًا». [الموسوعة الفقهية: ١٨ / ٦٥].

والمراد بخطاب الشرع هُنا هو الكتاب والسنة، ولا يتغيران بحال بتغير الزمان والمكان، والأدلة على ذلك متوافرة، منها:

١- قول الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

قال القاسمي رحمه الله: «وتمت كلمة ربك» أي: بلغت الغاية أخبارُه وأحكامُه ومواعيدُه، «صدقًا» في الأخبار والمواعيد، «وعدلاً» في الأقضية والأحكام، «لا مبدل لكلماته» أي: لا أحد يبدل شيئًا منها بما هو أصدق وأعدل، أو لا أحد يقدر أن يحرفها شائعًا ذائعًا، كما فُعل بالتوراة، على أن المراد بها القرآن، فيكون ضمانًا لها منه تعالى؛ كقوله: ﴿وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

(تفسير القاسمي: ٦ / ٢٤٧٥، ٢٤٧٦).

٢- قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لاَ يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾ [يونس: ١٥]؛ وإذا كان رسول الله ﷺ لا يملك أن يُغير أو يُبدل من تلقاء نفسه، فغيره من باب أَوْلَى، وهو يدل على ثبات الأحكام الشرعية وبقائها كما جاءت من عند رب البرية.

وقد دلّت السنة النبوية على ما دل عليه القرآن الكريم، كما في حديث عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَن أحدثَ في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌ». (البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨).

قال ابن حجر: «هذا الحديث معدودٌ من أصول الإسلام وقاعدةٌ من قواعده، فإنَّ معناه: مَن اخترع في الدِّين ما لا يشهد له أصل من أصوله فلا يُلتفت إليه». قال النووي: «هذا الحديث مما ينبغي أن يعتنى بحفظه واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستعمال به كذلك».

[فتح الباري: ٥ / ٣٠٢، ٣٠٣].

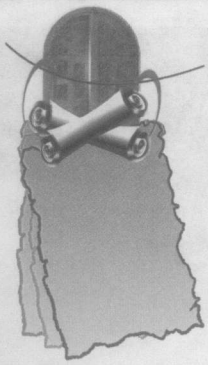

قُلْتُ: وجه الاستدلال بالحديث هو: أنَّ تغيير الأحكام الشرعية إحداث في الدِّين وخروج على الكتاب والسنة، فهو مردود لا يقبل ولا يجوز، وكل ذلك يدل على ثبات الأحكام الشرعية وعدم تغييرها.

يقول الشاطبي في بيان ثبات الأحكام الشرعية: «فلذلك لا تجد فيها بعد كمالها نسخًا، ولا تخصيصًا لعمومها، ولا تقييدًا لإطلاقها، ولا رفعًا لحكم من أحكامها، لا بحسب عموم المكلفين، ولا بحسب خصوص بعضهم، ولا بحسب زمان دون زمان، ولا حال دون حال، بل ما أثبت سببًا فهو سبب أبدًا لا يرتفع، وما كان شرطًا فهو أبدًا شرط، وما كان واجبًا فهو واجب أبدًا، أو مندوبًا فهو مندوب.. وهكذا جميع الأحكام فلا زوال لها ولا تبدُّل، ولو فرض بقاء التكليف إلى غير نهاية لكانت أحكامها كذلك». [الموافقات في أصول الشريعة، للشاطبي: ١ / ٧٨، ٧٩].

ولا شكَّ أن القول بتغيير الشريعة وتبديلها يترتب عليه مفاسد كثيرة، منها:

١- اتخاذ الشركاء الذين يشرعون من دونه، والتشريع حق لله وحده دون سواه ؛ قال تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلا كَلِمَةُ الفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١]، فقد نعى الله تعالى على الذين لا يتبعون ما شرع الله لنبيه ﷺ من الدين القيم، ويلجأون إلى غيره، وفي الآية إشارة ظاهرة إلى أن التحليل والتحريم بغير سلطان من الله ؛ إشراكٌ بالله.

٢- ومنها القول أو الاعتقاد بقصور الشريعة وعدم كمالها وعدم صلاحية أحكامها لعموم الزمان والمكان. وللحديث بقية إن شاء الله.

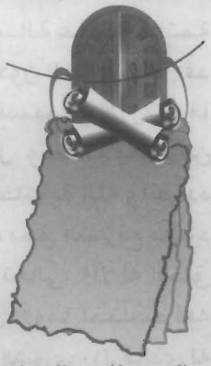

السياسة الشرعية

بين فقه الاستضعاف وفقه التمكين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه، وبعد:

فما يزال حديثنا موصولاً حول السياسة الشرعية بين فقه الاستضعاف وفقه التمكين، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

المحور الثالث: صلاحية الشريعة وتغير الفتوى بتغير الزمان والمكان:

إن من الحقائق المعلومة من دين الإسلام بالضرورة أن الله تبارك وتعالى لم يبعث نبيه محمدًا ﷺ ليكون نذيرًا لطائفة من الناس دون سائرهم، ولا ليكون رسولاً لأمة من البشر دون سائر الأمم، وإنما بعثه ليكون بشيرًا ونذيرًا للعالمين أجمعين، بعثه برسالة الإسلام الخالدة إلى جميع الخلق إنسهم وجنهم، قاصيهم ودانيهم، أحمرهم وأسودهم، عربيهم وأعجميهم، شرقيهم وغربيهم، ذلك منذ أن بعثه الله بالحق وإلى قيام الساعة.

وعلى ذلك فمن أنكر هذه الحقيقة وجحدها كان على غير الملة ؛ لأن القرآن الكريم صرّح بها تصريحًا لا يقبل التأويل، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾ [الأعراف: ١٥٨]، ففي هذه الآية الكريمة بيان عموم رسالته ﷺ، وهي عامّة للثقلين كما نطقت به النصوص، حتى صرّحوا بكفر منكره». [روح المعاني للألوسي ٩ / ٨٢].

ومع أن الآية الكريمة خاطبت الناس جميعًا برسالته ﷺ، إلا أنها أكّدت بوصف «جميعًا» الدال نصًا على العموم لرفع احتمال التخصيص. [التحرير والتنوير ٥ / ٤٨٤].

يقول الله عز وجل: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبا: ٢٨]، أي: «وما أرسلناك يا محمد إلى هؤلاء المشركين بالله من قومك خاصة، ولكنّا أرسلناك كافة للناس أجمعين؛ العرب منهم والعجم، والأحمر والأسود، بشيرًا لمن أطاعك، ونذيرًا لمن كذبك». [تفسير الطبري ١٠ / ٣٧٧].

وقال عز وجل: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩]، أي: «لأنذركم بالقرآن أيها المشركون وأنذر مَن بلغه القرآن من الناس كلهم». [الطبري ٥ / ١٦١].

وقال عن القرآن الكريم نفسه: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١]، وقال: ﴿وَمَا هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾ [القلم: ٥٢]، أي: «وما محمد إلا ذكر ذكّر الله به العالمين الثقلين الجن والإنس». [الطبري ٢٢ / ٢٠٤].

أو: «وما القرآن الكريم إلا ذكر للعالمين، ومعناه: شرف. كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ﴾ [الزخرف: ٤٤]». [القرطبي ١٨ / ٢٢٣].

وهذه الحقيقة التي صرّح بها القرآن الكريم أكدتها السنة المطهرة، فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما، قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يعطهن أحد قبلي؛ نُصرت بالرعب مسيرة شهر، وجُعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصلِّ، وأُحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة». [البخاري: ٣٣٥، ومسلم: ٥٢١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن

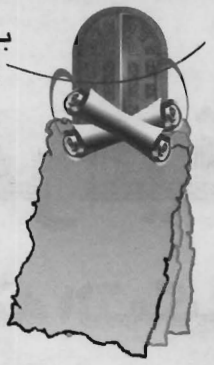

بالذي أرسلت به إلا دخل النار». [مسلم: ١٥٣].

والمراد بالأمة في هذا الحديث عموم أهل الدَّعوة سواء من دخل فيهم في أمة محمد ﷺ بالمعنى الخاص فصار مسلمًا، أو من بقي منهم على كفره فكان من أمته بالمعنى العام أي: من عموم من بعث إليهم وأمر بدعوتهم وهم الناس جميعًا بعد بعثته ﷺ، وذلك بدليل ذكره لليهود والنصارى.

وإلى جانب هذه الحقيقة الراسية الراسخة حقيقة أخرى لا تقل عنها رسوًا ورسوخًا، وهي أن رسول الله محمدًا ﷺ خاتم النبيين والمرسلين، فلا نبي بعده، ولا رسول، وأن رسالته خالدة باقية إلى يوم الدِّين، فلا نسخ لها ولا زوال.

وهي أيضًا حقيقة معلومة من دين الله بالضرورة، لا ينكرها إلا من كفر بالرحمن وكُتب عليه الخذلان، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، أي: «وخاتم النبيين الذي ختم النبوة فطبع عليها، فلا تفتح لأحد بعده إلى قيام الساعة». [تفسير الطبري ١٠ / ٣٠٥].

فهذه الآية الكريمة «نص في أنه لا نبي بعده، وإذا كان لا نبي بعده فلا رسول بعده بالطريق الأولى والأحرى، لأن مقام الرسالة أخص من مقام النبوة، فإن كل رسول نبي ولا ينعكس، وبذلك وردت الأحاديث المتواترة عن رسول الله ﷺ». [تفسير ابن كثير ٣ / ٦٥٠].

من هذه الأحاديث ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: «إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنةٍ من زاوية فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه اللبنة، قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين». [البخاري: ٣٥٣٥، ومسلم ٢٢٨٦].

هاتان الحقيقتان الراسيتان الراسختان مقدمتان لحقيقة كبرى وهي: «صلاحية الشريعة الإسلامية لكل زمان ومكان» ؛ لأننا لو لم نقل بذلك - مع كون رسالة الإسلام رسالة عالمية خاتمة للرسالات - للزم منه أن يكون الله عز وجل قد أجاز للبشر أن يشرعوا لأنفسهم في كل زمان ما يصلح لهم، وهذا أبطل الباطل، وبطلانه معلوم من دين الله بالضرورة، كما أن حاكمية الله وانفراده بالسلطان على عباده وتفرده بحق التشريع معلوم من دين الله بالضرورة، قال تعالى: ﴿أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤]، وقال: ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ﴾ [الشورى: ١٠]. فالذي له الخلق هو وحده الذي يملك الأمر والنهي والتحليل والتحريم والتشريع والحكم، فما من شيء في حياة البشر مهما كان صغيرًا إلا ولله فيه حُكم، فيجب عليهم أن يردوا كل أمر يختلفون فيه إلى حكم الله وحده، وهذا أمر لا يخالف فيه إلا من لا حظ له من الإسلام.

فـ «الشريعة الإسلامية» صالحة لكل زمان ومكان، ومُصلحة لكل زمان ومكان، بل لا يكفي أن نقول هذا حتى نرفع احتمال المشاركة بأن نقول: إنها هي وحدها الصَّالحَةَ والمُصْلِحَةُ لكل زمان ومكان، وكل ما سبق أن قررناه من مقدمات وحقائق راسخة يدل على هذا دلالة قاطعة.

وهذا الوصف للشريعة الإسلامية يضم أوصافًا تعد من مفرداته ومن ضروراته، هذه الأوصاف هي:

١- العموم: بمعنى كونها عامة للناس أجمعين، وهذا الوصف مُستفاد من النصوص الدَّالة على عموم رسالة النبي محمد ﷺ، وقد سبق إيرادها.

٢- البقاء: بمعنى أنها لا تأتي بعدها شريعة إلهية تنسخها، وهذا الوصف مستفاد من النصوص الدالة على أن محمدًا ﷺ خاتم النبيين، وأن رسالته خاتمة الرسالات، وقد سقناها من قبل.

٣- الحفظ: بمعنى أن الله عز وجل تولى حفظ أصولها من التحريف والتبديل، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]، أي: «وإنَّا للقرآن الكريم لحافظون مِن أن يُزاد فيه ما ليس منه أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه». [تفسير الطبري ٤ / ٤٩٣].

وقال عز وجل: ﴿لاَ يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ﴾ [فصلت: ٤٢]، قال الزجاج: «معناه أنه

محفوظ من أن ينقص منه فيأتيه الباطل من بين يديه أو يزداد فيه فيأتيه الباطل من خلفه». [تفسير البغوي ١ / ١٧٦].

وما ينطبق على القرآن الكريم ينطبق على السنة؛ لأنها بيان للقرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فحفظ القرآن الكريم يستلزم حفظ السنة، بل وحفظ اللسان العربي أيضًا، يقول المعلمي: «فأما السنة فقد تكفل الله بحفظها أيضًا ؛ لأن تكفله بحفظ القرآن يستلزم تكفله بحفظ بيانه وهو السنة، وحفظ لسانه وهو العربية، إذ المقصود بقاء الحجة قائمة والهداية باقية، بحيث ينالها من يطلبها ؛ لأن محمدًا خاتم الأنبياء، وشريعته خاتمة الشرائع، بل دلّ على ذلك قوله: ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة: ١٩]، فحفظ الله السنة في قلوب الصحابة والتابعين حتى دوّنت». [الأنوار الكاشفة لما في كتاب (أضواء على السنة) من الزلل والتضليل والمجازفة ص٣٣].

٤- الشمول: وهو غير العموم، فهو بمعنى أن أحكام الشريعة شاملة ومستغرقة ومستوعبة لكل أحوال البشر، وحاكمة على كل ما يستجد في حياتهم إلى يوم الدين، قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩]. أي: «تبيانًا لكل ما بالناس إليه حاجة من معرفة الحلال والحرام والثواب والعقاب». [تفسير الطبري ٧ / ٦٣٣].

وهذا التبيان قد يكون بالتفصيل وقد يكون بالإجمال، وقد يكون بالإحالة على السنة، كقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ [الحشر: ٧]، وقد يكون بإثارة القياس وتعدية حكم ما ذكر إلى ما لم يذكر كقوله تعالى: ﴿فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الأَبْصَارِ﴾ [الحشر: ٢]، فلا يلزم من بيانه لكل شيء أن يحمل بين دفتيه كل الأحكام بالتفصيل.

يقول الزمخشري في الكشاف: «فإن قلت: كيف كان القرآن الكريم تبيانًا لكل شيء ؟ قلت: المعنى أنه بيّن كل شيء من أمور الدين: حيث كان نصًا على بعضها، وإحالة على السنة.. وحثًا على الإجماع». [الكشاف للزمخشري ١ / ٦٦٥].

وقال تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ٣٨]، أي: «ما تركنا في القرآن الكريم من شيء من أمر الدين إما تفصيلاً أو إجمالاً». وقال عز وجل: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

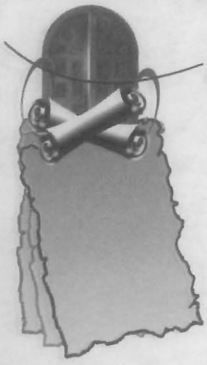

٥- المرونة والاتساع: ومعناها قدرة الشريعة الإسلامية على مواجهة كل ما يستجد في حياة الناس وما ينزل في دنياهم، وعلى الاستجابة لكل ما يتغير في أمورهم وأحوالهم بتغير أزمانهم، وعلى تلبية كل احتياجاتهم مهما تبدلت بتبدل ظروفهم، وذلك كله دون أن تتبدل أصولها أو تنسخ أحكامها أو تزيف مبادئها أو تزعزع ثوابتها أو يُرجع على شيء منها بالإبطال أو التعطيل.

وهذه الصفة الأخيرة «المرونة والاتساع» لها آليات عدة، تضمن تحقيقها وتطبيقها والانتفاع بثمراتها دون الرجوع على النصوص المحكمة بالتعطيل أو على الأصول والثوابت الراسية بالتبديل، أو الأحكام الثابتة بالنسخ أو التأويل.

من هذه الآليات: «تغير الفتوى بتغير الزمان والمكان». وهي التي عبر عنها العلماء - على سبيل التسهيل في الاصطلاح - بقولهم: «لا يُنكر تغير الأحكام بتغير الأزمان».

التغير لغة: التبدل والتحول والانتقال، نقول: تغير الشيء: أي تحوّل، وغيّره: جعله غير ما كان، وغيّره: حوله وبدله، وغيرت الشيء: بدلته، وغيرت دابتي وثيابي: أي: جعلتها على غير ما كان، وغيرت داري: بنيتها بناء غير الذي كان. [المعجم الوسيط ص٦٦٨].

ومعنى تغير الفتوى في الاصطلاح الشرعي لا يبعد عن المعنى اللغوي السابق، فهو: التحول والانتقال - عند الإفتاء في مسألة - من حكم سابق كان مناسبًا لها في وقت أو حال إلى حكم آخر لتبدل الوقت أو الحال.

والأفضل ألا يعبر عنه بلفظ: «تغيير» ؛ لأن كلمة «تغيير» تستعمل كثيرًا بمعنى الإزالة والرفع، و«تغير الفتيا» ليس فيه إزالة ولا رفع، بل هو مجرد انتقال وتحول من حُكم إلى حُكم، مع بقاء الحكم ذاته.

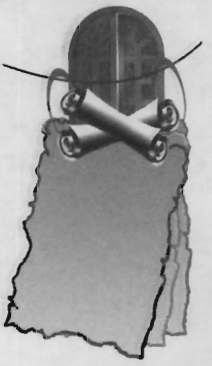

وكذلك التعبير عنه بمصطلح «تغير الأحكام» أو بقاعدة: «لا ينكر تغير الأحكام بتغير الأزمان» فيه - أيضًا - قدر من المسامحة ؛ لأن الذي يتغير هو الفُتيا، أما الأحكام فلا تتغير ولا تتبدل، فالحكم الشرعي - كما سبق - هو خطاب الله تعالى المتعلق بأفعال المكلفين اقتضاءً أو تخييرًا أو وضعًا، والقول بإمكانية تغير الحكم الشرعي مكافئ للقول بإمكانية تغيير خطاب الله تعالى، وقد تُوعِّد المبدلون لأحكام الله المغيِّرون لشرعه بالإبعاد والهلاك يوم القيامة، ففي الحديث الصحيح: «ألا ليُذادنَّ رجالٌ عن حوضي كما يُذاد البعير الضال، أناديهم ألا هَلُمَّ، فيُقال: إنهم قد بدَّلوا بعدَك، فأقول: سُحقًا سُحقًا». [البخاري ٢٣٦٧، ومسلم ٢٤٩، وهذا لفظه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه].

تغير الفتوى في الواقع المعاصر

بعد فترة طويلة من الجمود الفكري والفقهي، ومن غلق باب الاجتهاد بدأ البعث يدب من جديد في الحياة الفقهية المعاصرة، وذلك بعد ظهور حركات تجديدية ودعوات إصلاحية؛ أدت إلى فتح باب الاجتهاد ونبذ التعصب للمذاهب وإحياء الفقه المقارن، وكان من أعظم ما وصل إليه الفقه المعاصر مؤسسات الاجتهاد الجماعي، مثل: «مجمع البحوث الإسلامية» بالقاهرة، و«مجمع الفقه الإسلامي» المنبثق عن منظمة المؤتمر الإسلامي ومقره الرئيسي جدة، و«المجمع الفقهي لرابطة العالم الإسلامي» بمكة المكرمة.

ومع انطلاقة الاجتهاد والتجديد بدأت من جديد تظهر ظاهرة تغير الفتوى، وكان لها أمثلة كثيرة في واقع الأمة الإسلامية.

المثال الأول: الحقوق المالية للتأليف والتصنيف، فقد اتجه الفقه المعاصر إلى اعتبار المؤلف هو الأحق بطبعه ونشره، وهو الذي يملك أن يبيع هذا الحق وأن يجني ثمرته المالية، ولم يكن هذا موجودًا من قبل، بل كان الاحتساب هو السائد، ولكن ظهر للفقهاء المعاصرين وللمجامع والمؤسسات الفقهية أن المصلحة تقتضي الاعتراف بالحقوق المالية للتأليف وحفظها بالأحكام الشرعية.

المثال الثاني: ترجح القول بوجوب إخراج الزكاة في الخضر والفاكهة، وقد كان المذهب الراجح فيما مضى هو أن الخضر والفاكهة وما شابهها لا زكاة فيها، ولكن تغير الحال في الزمن الحاضر أدى إلى تغير الفُتيا، فإن الخضر والفاكهة لم تكن في الماضي تمثل مصدر إنتاج وتنمية واستثمار، أما في العصر الحاضر فصارت من أكبر مشاريع التنمية والاستثمار في كثير من البلدان، فقد يزرع المستثمر آلاف أو مئات الأفدنة خضروات وفواكه ويربح من ورائها أموالاً طائلة، فهل يعفى من زكاة الزرع أو يكتفي في حقه بإخراج زكاة المال (٢,٥٪) على الحول الكامل، بينما صاحب المساحات الزراعية الصغيرة من المحاصيل التي تقتات وتدخر كالقمح يخرج (٥٪) عند كل حصاد؟!

ثُم إن القول بذلك يفضي في الواقع المعاصر إلى التهرب من زكاة الزرع والثمر بترك الزروع التي تجب فيها الزكاة وتوسيع الأنشطة فيما ليس فيه زكاة؛ مما يترتب عليه ضياع حقوق الفقراء والمساكين، واختلال الموازين الإنتاجية وفساد الأخلاق.

لذلك عمد كثير من الفقهاء المعاصرين إلى تغيير الفتوى في هذه المسألة، ورجحوا القول بوجوب زكاة الزرع في الخضر والفاكهة ؛ سدًا لذريعة التهرب من الزكاة، وحفاظًا على حقوق الفقراء والمساكين.

المثال الثالث: إفتاء العلماء المعاصرين بجواز توزيع لحوم الهدي خارج مكة، بل خارج الجزيرة العربية كلها، وذلك لظهور المصلحة في ذلك ؛ حيث إن أهل مكة لا يأكلون هذه الذبائح، وهي تزيد عن حاجة الحجيج، فيؤدي القول بعدم إخراجها من مكة إلى فسادها وتعفنها وحدوث مفاسد التلوث مع ضياع مصلحة انتفاع المسلمين بها، وهذا تغير للفُتيا في ضوء تغير المصلحة.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

السياسة الشرعية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعد:

فما زال حديثنا متصلاً حول فقه الاستضعاف وفقه التمكين، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

تغير الفتوى وتجديد الخطاب الديني

لم يختلف علماء الأمة الإسلامية في أن الثبات من خصائص هذه الشريعة الغراء - في عمومها - فهي شريعة لا تقبل التطويع للأغراض والأهواء وتقلبات الأمزجة واختلاط الآراء، ولا تقبل كذلك الذوبان في شرائع أخرى ولا معها، ولا يملك أحد أن يُبدلها ولا أن يغيرها بحجة تغير الظروف والأحوال، قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ﴾ [الأنعام: ١١٥]، أي: صدقًا فيما أخبر، فما أخبر به هو الحق، وعدلاً فيما حكم فما أمر به هو العدل، وما نهى عنه فهو الباطل، ولا معقب لحكمه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يملك أحد أن يغيرها ولا أن يبدلها ولا أن يخرج عن شيء من أحكامها، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]. والتغيير فيما قد كمل وتم اتهام بالنقص، بل هو عين النقص.

وقال عز وجل: ﴿وَأَنِ احْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَا أَنزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٤٩]، فلا يجوز الخروج عن شريعة الله ولا عن شيء من أحكامها، ولا يجوز التبديل ولا التغيير فيها، وقال عز وجل: ﴿اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلاَ تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ٣].

وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ [الجاثية: ١٨]، وقال عز من قائل: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ العِقَابِ﴾[البقرة: ٢١١]، وقال ﷺ: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ». [البخاري: ٢٦٩٧، ومسلم: ١٧١٨].

وقال ﷺ: «تركت فيكم ما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبدًا: كتاب الله، وسُنة نبيه». [الحاكم في المستدرك: ١ / ١٧١، والبيهقي في الكبرى ١٠ / ١١٤].

فالشريعة الإسلامية ثابتة، تستعصي على التحريف والتبديل، وتتأبى على التطويع والتعطيل، ومن رماها بشيء من ذلك رمته بالكفر والتضليل.

ولقد حاول كثير من دُعاة العصرانية أن ينفذوا إلى غرضهم في تبديل الشريعة وتذويب أحكامها وتطويع مبادئها للأهواء، وذلك من خلال ما اشتهر في كتب العلم من تغير الأحكام بتغير الأزمان، ولا يمكنهم ذلك؛ لأن ما عناه العلماء بهذه المقولة شيء وما أردوه شيء مختلف تمام الاختلاف، فتغير الأحكام بتغير الأزمان ليس فيه تبديل للشرع المحكم، ولا تغيير للشريعة الثابتة، بل هو خاصية في الشريعة نفسها تكسبها صفة البقاء والخلود وتزيدها ثباتًا وإحكامًا بقدرتها على تلبية كل متغير في حياة الناس.

يقول فضيلة الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد - بعدما حمَلَ على القائلين بتغير الأحكام -: «والعصرانيون دخلوا من هذا التقعيد الصوري إلى أوسع الأبواب، فأخضعوا النصوص ذات الدلالة القطعية كآيات الحدود في: السرقة والزنا ونحوهما بإيقاف إقامة الحدود ؛ لتغير الزمان، وهكذا، مما نهايته انسلاخ من الشرع تحت سرادق موهوم». [التعالم وأثره على الفكر والكتاب، د. بكر أبو زيد، ص٥٥].

وكذلك الشيخ محمد بن شاكر الشريف يُحذِّر من طائفتين: إحداهما استغلت هذه المقولة لتحقيق بغيتها في نفث سمومها والسعي في إطفاء نور الله وتحريف دينه باسم «تجديد الخطاب الديني»، والثانية: وجدت في هذه المقولة وسيلة للتوفيق بين الفكر الغربي المعاصر وبين أحكام الشريعة.

وقد عقَد الإمام ابن القيم رحمه الله فصلاً نافعًا في كتابه «إعلام الموقعين» عن هذا الموضوع قال فيه: «هذا فصل عظيم النفع جدًا، وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب من الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه ما يُعلَم أنَّ الشريعة الباهرة التي في أعلى رتب المصالح لا تأتي به، فإنَّ الشريعة مبناها وأساسها على الحكم ومصالح العباد في المعاش والمعاد، وهي عدل كلها، ورحمة كلها، ومصالح كلها، وحكمة كلها، فكل مسألة خرجت عن العدل إلى الجور، وعن الرحمة

بين فقه الاستضعاف وفقه التمكين

إعداد: د/ عبدالله شاكر الجنيدي

إلى ضدها، وعن المصلحة إلى المفسدة، وعن الحكمة إلى العبث، فليست من الشريعة وإن أُدخلت فيها بالتاويل، فالشريعة عدل الله بين عباده، ورحمته بين خلْقه، وظله في أرضه، وحكمته الدالّة عليه وعلى صدق رسوله ﷺ أتم دلالة وأصدقها، وهي نوره الذي به أبصر المبصرون وهُداه الذي به اهتدى المهتدون، وشفاؤه التام الذي به دواء كل عليل، وطريقه المستقيم الذي مَن استقام عليه فقد استقام على سواء السبيل... إلى أن قال: فالشريعة التي بعث الله بها رسوله ﷺ هي عمود العالم وقُطب الفلاح والسعادة في الدنيا والآخرة». [إعلام الموقعين ٣ / ١٤].

ولا يتناقض هذا المحور المُهم مع القول بثبات الشريعة؛ ذلك أنّ الفتوى هي: «جواب المفتي»، أو «ما يصدر عن المفتي»، ومن البين أنّ الفتوى قد تدخل فيها أو ترتبط بها عدة عوامل تكون مرتّبة عليها، وبالتالي يلحق بالفتوى التغيير بضوابط مهمة، ذكرها أهل العلم - وستاتي الإشارة إليها - مع التاكيد على أن ما يقع فيه التغيير إنّما هو بحسب اجتهاد المجتهد، وبحسب تحقيق مناط الحكم وتحقيق المصلحة، ومراعاة العُرف، إذا كان ممّا يلحظ فيه ذلك.

ومن أمثلة هذا النوع: تنظيم جمع الزكاة وصرفها في مصارفها الشرعية، وكالأحكام التي علّقها الشارع على العُرف ولم يقيدها بوصف سوى الحكم العام، كالتراضي في البيوع، وألفاظ القذف، واليمين، كمَن حلف لا يأكل لحمًا، والعُرف يخصصه في حكم الغنم والبقر والجمل دون لحم السمك وغيره، فلو أكل لحم السمك لا يُعد حانثًا وممّا تجدر الإشارة إليه هنا: أن تغيير الفتوى بهذا المعنى، إنّما هو إعمال لما أمرتْ به الشريعة، وراعته في أصولها الكلية وجزئياتها الفرعية، إذ من الفُتيا ما يكون من حيثيات الحكم فيها مراعاة العُرف والمصلحة فإذا تغير العُرف أو تخلفت المصلحة تغيرت الحيثية، فتتغير - لذلك - الفُتيا، أما الأحكام الأساسية فهي ثابتة لا تتغيّر ولا تتبدّل.

يقول الأستاذ مصطفى الزرقا: «قد اتفقت كلمة فقهاء المذاهب على أنّ الأحكام التي تتبدّل بتبدُّل الزمان وأخلاق الناس هي الأحكام الاجتهادية من قياسية ومصلحية - أي التي قررها الاجتهاد بناءً على القياس أو على دواعي المصلحة، وهي المقصودة بالقاعدة: «لا يُنكر تغير الأحكام بتغيُّر الأزمان».

وقال أيضاً: «أمّا الأحكام الأساسية التي جاءت الشريعة لتاسيسها وتوحيدها بنصوصها الأصلية الآمرة الناهية، كحُرمة المحرّمات المُطلقة، وكوجوب التراضي في العقود، والتزام الإنسان بعقده، وضمان الضرر الذي يلحق بغيره، وسريان إقراره على نفسه دون غيره، ووجوب منع الأذى وقمع الإجرام وسدّ الذرائع إلى الفساد وحماية الحقوق المكتسبة، ومسئولية كل مكلف عن عمله وتقصيره، وعدم مؤاخذة بريء بذنب غيره. إلى غير ذلك من الأحكام والمبادئ الشرعية الثابتة التي جاءت الشريعة لتاسيسها ومقاومة خلافها، فهذه لا تتبدل باختلاف الأزمنة المحدثة». [المدخل الفقهي العام ٢ / ٩٢٤-٩٢٥].

ولهذا أقول: يجب أن يراعى عند تغير الفتوى الضوابط التي وضعها أهل العلم في ذلك، وهي - باختصار - كما يلي:

١- اختلاف العوائد والأعراف

من الأمور التي تتغيّر بسببها الفتوى تغيُّر العوائد والأعراف التي تبنى عليها الفتوى.

يقول القرافي: «فمهما تجدَّد العرف اعتبره، ومهما سقط أسقطه، ولا تجمدْ على المسطور في الكتب طول عمرك، بل إذا جاءك رجل من غير أهل إقليمك يستفتيك فلا تُجْرِه على عُرف بلدك، واسألْهُ عن عُرف بلده، وأفْتِه به دون عُرف بلدك، والمقرَّر في كُتبك «الفروق ١ / ١٧٦».

وقال ابن القيم: «فصل في تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعوائد». [إعلام الموقعين: ٣ / ١٤].

وقد بوّب البخاري في جامعه الصحيح بابًا قال فيه: «باب مَن أجرى أمر الأمصار على ما يتعارفون بينهم في البيوع والإجارة والمكيال والوزن وسننهم على نياتهم ومذاهبهم المشهورة، وقال شريح للغزّالين: سُنَّتكم بينكم، وقال النبي ﷺ لهند: «خُذي ما يكفيك

وولدك بالمعروف»، وقال تعالى: «وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ»».

وقال ابن حجر: «قال ابن المنير وغيره: مقصودُهُ بهذه الترجمة إثبات الاعتماد على العُرف وأنه يُقضى به على ظواهر الألفاظ، وذكر القاضي حسين من الشافعية أنَّ الرجوع إلى العُرف أحد القواعد الخمسة التي يبنى عليها الفقه». [فتح الباري: ٤ / ٤٠٥، ٤٠٦].

وقد ضرب العلماء أمثلة كثيرة لذلك، منها: ما يخرج في صدقة الفطر، فإنَّ الحديث جاء بإخراج صاع من تمر أو شعير أو زبيب أو أقط، فرأى العلماء أنَّ هذه الأقوات كانت هي غالب القوت عندما قال الرسول ﷺ ذلك الحديث في ذلك الزمان، وعلى ذلك أفتى العلماء بجواز إخراج صاع من الأرز والذرة... ونحوه إذا كان هذا هو غالب قوت البلد في زمنهم. [إعلام الموقعين ٣/ ٢٣، ٢٤].

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا أنَّ العوائد قسمان:

أحدهما: العوائد الشرعية التي أقرها الدليل الشرعي أو نفاها، بمعنى أنه أمر بها إيجابًا أو ندبًا، أو نهى عنها كراهةً أو تحريمًا، أو أذن فيها فعلاً وتركًا.

الثاني: العوائد الجارية بين الخلق بما ليس في نفيه ولا إثباته دليلٌ شرعي.

أما الأول: وهي العوائد الشرعية، فهذه ثابتة أبدًا لا يُمكن أن تتغيَّر فيها الفتوى إلا بدليل شرعي يخصص عموم الأول أو يُقيده، لأنها نصٌّ عليها الشارع بخصوصها، وأثبت لها حكمًا شرعيًا، فَتُغَيِّرُ عادةُ النَّاس فيها من استقباح إلى استحسان لا يغير حُكم الشرع فيها، فلا يصح أن ينقلب الحَسن فيها قبيحًا، ولا القبيح حسنًا، حتى يقال مثلاً: إنَّ كشف العورة الآن، ليس بعيب ولا قبيح فلْنُجزه؛ إذ لو صح مثل هذا لكان الآن نسخًا للأحكام المستقرة، والنسخ بعد موت النبي ﷺ باطل، فرفْع العوائد الشرعية باطل.

أما الثاني: وهي العوائد الجارية بين الخلق بما ليس في نفيه ولا إثباته دليل شرعي، فهذا الذي يُمكن أن تتغيَّر فيه الفتوى، وهو الذي عناه العلماء بقولهم: إن الأحكام المبنية على العُرف والعادة تتغيَّر تبعًا لتغير العُرف والعادة، ومن هنا قال الفقهاء: كل ما ورد به الشرع مطلقًا ولا ضابط له فيه، ولا في اللغة يرجع فيه إلى العُرف ومثلوه بالحرز في السرقة والتفرق في البيع «تغير الفتوى: مفهومه وضوابطه ٥٠ -٥١».

٢- وجود السبب وتحقق الشرط وانتفاء المانع:

وذلك كالأحكام المرتبة على وجود سببها، فإذا وُجد سبب الحكم وتحقق شرطه وانتفى مانعه، انطبق الحكم على الواقع، فإذا تخلف أحد الشروط أو وجد أحد الموانع انطبق حكم آخر على الواقع.

ومثال ذلك: لو أنَّ رجلاً مَلَك نصاب الزكاة، ثم استفتى أهل العلم عن وجوب إخراج الزكاة، فإنَّ المفتى يسأله؛ هل مرَّ على النِّصاب الحول؟ فلو قال: نعم، وسأله هل عليك دين؟ فقال: لا، هنا يجيبه المفتي بقوله: نعم تجب عليك الزكاة.

ولو عاد هذا السائل بعد فترة، وسأل المفتي: هل عليَّ زكاة؟ فإذا سأله المفتي هل عليك دين؟ وقال: نعم، عليَّ دين يستوعب أكثر مالي حتى لا يبقى منه قدر النِّصاب. هنا يقول المفتي: ليس عليك زكاة.

فالحالة الأولى وُجد السبب وتحقق الشرط وانتفى المانع، وأما الحالة الثانية فقد وجد المانع وهو الدَّيْن، فتغير الحكم تبعًا لذلك، لأنَّ الحكم إذا كان واردًا على سبب خاص فيجب الإفتاء فيه بما يخصه، ولا يَعُمّ.

٣- الضرورة الملجئة

هناك حالات اضطرار يقع فيها المسلم ممَّا يكون معه مضطرًا لفعل ما حرم الله عليه، فالميتة مثلاً محرمة، ولكن إذا اضطر الإنسان إليها أُبيحت له؛ قال تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلاَّ مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَن تَسْتَقْسِمُوا بِالأَزْلاَمِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا من دِينِكُمْ فَلاَ تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا فَمَنِ اضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لإِثْمٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٣].

ومن ذلك إسقاط عمر رضي الله عنه إقامة حد السرقة عام المجاعة، لأنه غلب على الناس الحاجة والضرورة، فلا يكاد يسلم السارق من ضرورة تدعوه إلى ما يسد به رمقه.

قال ابن القيم رحمه الله: «وعام المجاعة يكثر فيه المحاويج والمضطرون، ولا يتميز المستغني منهم والسارق لغير حاجة من غيره، فاشتبه مَن يجبُ عليه الحد بمَن لا يجب، فدُرئ، نعم إذا بان أنَّ السارق لا حاجة به وهو مستغن عن السرقة قطع». [إعلام الموقعين ٣ / ٢٣].

٣- الوصف أو الاسم

هناك أحكام رُتِّبت على أوصاف أو أسماء، فإذا تغيَّرت تلك الأوصاف أو الأسماء تغيَّر الحُكم تبعًا لذلك.

ومثال ذلك ما فعله أمير المؤمنين رضي الله عنه في سهم المؤلفة قلوبهم، وهم مَن يُعطون من الصدقات لأجل تألف قلوبهم على الإسلام، أو لأجل ضعف المسلمين حتى يأمن المسلمون شرّهم، فهو حكم مُعلَّق على وصف وليس على أشخاص بأعيانهم، فإذا تحقق هذا الوصف في شخص أو أشخاص أعطيناهم من سهم المؤلفة قلوبهم، وإذا فقدوا الوصف ؛ كأنْ حسُن إسلامهم، أو قوي المسلمون فلم يعد بهم ضعف منعنا سهم المؤلفةُ قلوبهم، وليس في هذا خروج عن دائرة النص ؛ لأن الله تعالى لما قال: ﴿وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ﴾ أثبت لفريق من الناس نصيبًا من الزكاة بوصف معين هو مناط الاستحقاق، فإذا انتفى هذا الوصف انتفى الاستحقاق، لأن الحكم المعلل، يدور مع علته وجودًا وعدمًا.

٤- تدافع المأمورات والمنهيات:

قد يكون هناك أمران مطلوب تحصيلهما ولكن لا يُمكن تحصيل أحدهما إلا بتفويت الآخر، فهُما على ذلك متدافعان، كما أنه قد يكون هناك أمران مطلوب اجتنابهما ولا يمكن اجتناب أحدهما إلا بفعل الآخر، فهنا تحصل أعظم المصلحتين، وتدفع أقبح المفسدتين، فمثلاً: الشهادة يُطْلَب فيها العُدُول، فإذا لم نجد العدول صرنا بين أمرين: إما ضياع الحقوق، وإما شهادة غير العدول، وقد أفتى أهل العلم في مثل ذلك أن لكل قوم عُدولهم، وعلى القاضي أن يتوسَّم فيهم ويقبل أكثرهم صلاحًا وأقلهم فجورًا، وواضح أنه إذا وجد العُدول في هذا المكان لم تقبل شهادة غيرهم.

ويمكننا أن نلاحظ مما تقدم أن عملية تغير الفتوى هو تغير خاصٌ من حيث الزمان والمكان والشخص، حيث تتغير فقط بالنسبة للزمان أو المكان أو الشخص الذي تغيَّرت في حقه مُسوِّغات الفتوى، وهذا معناه أن الأمور تكون باقية على ما نُصَّ عليه في بقية الأماكن والأزمان والأشخاص.

ومَرَدّ هذا التغيير إلى:

١- سعة الشريعة ومرونتها.

٢- التيسير ورفع الحرج عن المكلفين.

٣- احتواء المسلمين جميعًا على اختلاف بُلدانهم وأزمانهم، والوفاء بحاجاتهم.

٤- تحقيق مصالح العباد في العاجل والآجل، ودرء المفاسد عنهم.

٥- التوسعة والرحمة.

٦- إعمال الرخص والاعتبار بالأعذار المبيحة لها، ومُبررات تخفيف الأحكام؛ مِن مرض، وسفر، وخطأ، ونسيان.

ومن هنا جاءت القواعد الفقهية لتقرر أن: «المشقة تجلب التيسير»، و«الضرورات تبيح المحظورات».

٧- فساد الزمان وانحراف أهله عن الجادة، وتغيُّر العادات وتبدُّل الأعراف، وهذا منتزعٌ من قواعد فقهية مثل: «درء المفاسد مقدم على جلب المنافع»، و«لا ينكر تغير الأحكام بتغير الزمان»، و«الضرر يزال»، و«الضرر لا يُزال بمثله».

على أن الوصول إلى هذه الدرجة لا يكون إلاَّ من عالم باختلاف العلماء، موسوم بالإنصاف، يَعرف الحق، ويرحم الخلق، واسع العلم، بصير بالدين، حسن الفَهم والقصد، صاحب صلة بالحياة وما يدور فيها، له دراية بحوائج الناس وهي لا تنتهي، وأعرافهم وهي متعددة، وبيئاتهم وهي متنوعة، والأصل في ذلك أنَّ النبي ﷺ كان يجيب عن السؤال الواحد بأكثر من إجابة، مراعاة لحال مَن سأله واستفتاه، ولقرائن الأحوال التي تَحفّ به، والظروف التي يحياها، وحالات الكمال والنقص عنده، وآية ذلك ما رواه أبو هريرة وأبو ذر وابن مسعود رضي الله عنهم في سؤال النبي ﷺ عن أفضل الأعمال وأحبها إلى الله ؟ فمرة قال: «إيمان بالله وجهاد في سبيله وحج مرور»، ومرة قال: «الصلاة لوقتها، وبر الوالدين والجهاد في سبيله».

وقد أجاب العلماء على هذه الأحاديث وما يشبهها بأجوبة متعددة منها ما ذكره الحافظ في «الفتح» حيث قال: «ومحصَّل ما أجاب به العلماء عن هذا الحديث وغيره مما اختلفت فيه الأجوبة بأنه أفضل الأعمال، أنَّ الجواب اختلف لاختلاف أحوال السائلين، بأن أعلم كل قوم بما يحتاجون إليه، أو بما لهم فيه رغبة، أو بما هو لائق بهم، أو: كان الاختلاف باختلاف الأوقات بأن يكون العمل في ذلك الوقت أفضل منه في غيره». [فتح الباري ٢ / ٩].

وعلى هذا: فيجب أن تصدر الفتوى في ضوء المصالح والظروف، والالتفات إلى تعليل الأحكام، ومراعاة القرائن وشواهد الحال، وهي أمور يجب ألا تُهمل، وإلاَّ وقع الناس في خطأ كبير، فلكل حال مُقتضاه، ولكل عصر قضاياه، ومِن ثَمَّ وجب الحذر من إنزال قضايا عصر على عصر آخر، أو إنزال قضايا بلد على بلد آخر.

ولهذا أوجب العلماء على من يفتي الناس، معرفة عوائدهم، وعللوا الاختلاف بين فتاوى المتقدمين والمتأخرين باختلاف الزمان والمكان.

وللحديث بقية إن شاء الله

فقه التغيير

في ضوء ما سبق من مراعاة قاعدة المصالح وسنة التدرج

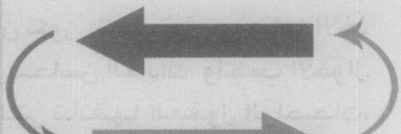

إعداد: د/ عبدالله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى وصحبه ومن تبعه إلى يوم الدين، وبعد:

فمما لا شك فيه أن الأمم تمر بفترات مختلفة، وتكون قوية في حين، وضعيفة في حين آخر، والغيورون على الأمة الإسلامية يسعون دائمًا إلى تغيير الواقع الانهزامي أو الضعيف بالأمة والوصول بها إلى مصاف العزة والقوة والسيادة، وهذا يحتاج إلى فقه سديد ونظر رشيد، وإذا أردنا القيام به فلا بُدَّ أن نبدأبأهم الأمور فنعتني أولاً بتغيير العقائد الباطلة والأفكار المنحرفة والتصورات الخاطئة ؛ لتحل محل ذلك العقيدة الصحيحة والمفاهيم السليمة المستقيمة، ثم نعتني بعد ذلك بجميع الجوانب التي تتعلق بحياة المسلم وعزته وكرامته، ويجب أن تُراعي قاعدة المصالح الشرعية في ذلك، فتغيير المنكر أمر يحبه الله ورسوله، ولكن إذا كان تغييره سيؤدي إلى منكر أكبر منه وأعظم، فإنه لا يسوغ إنكاره حينئذ، وهذا كالإنكار على المُلوك والولاة، بالخروج عليهم، فإنَّه أساس كل شر وفتنة إلى آخر الدهر، وقد استأذن الصحابة رسول الله ﷺ في قتال الأمراء الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها وقالوا: أفلا نقاتلهم ؟ فقال: «لا ؛ ما أقاموا الصلاة». وقال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية». [متفق عليه].

ومن تأمل ما جرى على الإسلام في الفتن الكبار والصغار رآها من إضاعة هذا الأصل وعدم الصبر على منكر، وقد كان رسول الله ﷺ يرى بمكة أكبر المنكرات ولا يستطيع تغييرها، بل لما فتح الله مكة وصارت دار إسلام، عزم على تغيير البيت وردّه على قواعد إبراهيم ومنعه من ذلك - مع قدرته عليه

- خشية وقوع ما هو أعظم منه من عدم احتمال قريش ذلك ؛ لقرب عهدهم بالإسلام وكونهم حديثي عهد بكفر، ولهذا لم يأذن في الإنكار على الأمراء باليد لما يترتب عليه من وقوع ما هو أعظم. [إعلام الموقعين ٣ / ١٥، ١٦].

قال الإمام النووي رحمه الله - في شرحه للحديث السابق -: «وفي هذا الحديث دليل لقواعد من الأحكام منها: إذا تعارضت المصالح أو تعارضت مصلحة ومفسدة وتعذَّر الجمع بين فعل المصلحة وترك المفسدة بُدئ بالأهم، لأن النبي ﷺ أخبر أن نقض الكعبة وردها إلى ما كانت عليه من قواعد إبراهيم ﷺ مصلحة، ولكن تعارضه مفسدة أعظم، وهي خوف فتنة بعض من أسلم قريبًا، وذلك لما كانوا يعتقدونه من فضل الكعبة فيرون تغييرها عظيمًا فتركها ﷺ، ومنها: تألف قلوب الرَّعية وحسن حياطتهم وألا ينفروا، ولا يتعرض لما يخاف تنفيرهم بسببه، ما لم يكن فيه ترك أمر شرعي - كما سبق -». [شرح مسلم ٩ / ٨٩].

وقال ابن حجر رحمه الله في فوائد هذا الحديث: «ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر عنه فهم بعض الناس، والمراد بالاختيار المستحب، وفيه اجتناب ولي الأمر ما يتسرع إلى إنكاره، وما يُخشى منه تولد الضرر عليهم في دين أو دُنيا، وتألّف قلوبهم بما لا يُترك فيه أمر واجب، وفيه تقديم الأهم فالأهم من دفع المفسدة وجلب المصلحة». [فتح الباري ٣ / ٤٤٨].

وقد ذكر ابن القيم رحمه الله حادثة عن شيخه ابن تيمية رحمه الله تدل على فقهه في تغيير الواقع، فقال: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية - قدس الله روحه ونور ضريحه - يقول: مررت أنا وبعض أصحابي في زمن التتار بقوم منهم يشربون الخمر، فأنكر عليهم مَن كان معي، فأنكرتُ عليه، وقلت: إنما حرم الله الخمر لأنها تصد عن ذكر الله وعن الصلاة، وهؤلاء يصدهم الخمر عن قتل النفوس وسبي الذرية وأخذ الأموال، فدعهم».

فلله دره ما أفقهه وأعلمه.

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم وهم أفقه الناس لهذه الشريعة، أكثر الناس استعمالاً للمصلحة واستنادًا إليها، فهذه المصلحة هي التي جعلت أبا بكر رضي الله عنه يجمع الصحف المفرقة التي كان القرآن مدونًا فيها من قبل في مصحف واحد، وهو أمرٌ لم يفعله النبي ﷺ، وهي التي وجهت عمر رضي الله عنه إلى وضع الخراج وتدوين الدواوين، وهي التي جعلت عثمان رضي الله عنه يجمع المسلمين على مصحف واحد. وهكذا. [ضوابط الخلاف ص٢٠٩]. فالشريعة - إذن - مبنيةٌ على مصالح العباد في العاجل والآجل، وقد حصرها الشاطبي رحمه الله في ثلاثة أقسام:

أحدها: أن تكون «ضرورية»، وهي ما لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا، بحيث إذا فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة، بل على فساد وتهارج وفوت حياة، وفي الآخرة فوت النجاة والنعيم المقيم، والرجوع بالخسران المبين، ومجموع الضروريات خمسة، وهي حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل، وقد قالوا إنها مراعاة في كل ملة.

والثاني: أن تكون «حاجية» ومعناها: أنها مفتقرٌ إليها من حيث التوسعة ورفعُ الضيق المؤدي - في الغالب - إلى الحرج والمشقة اللاحقة بفوت المطلوب، فإذا لم تراعَ دخل على المكلفين - على الجملة - الحرج والمشقة، ولكنه لا يبلغُ مبلغ الفساد العادي المتوقع في المصلحة العامة.

الثالث: أن تكون «تحسينية»، ومعناها الأخذ بما يليق من محاسن العادات، وتجنب الأحوال المدنسات التي تأنفها العقول الراجحات، ويجمعُ ذلك قسم مكارم الأخلاق. [الموافقات، للشاطبي ٢ / ٨-١١].

وبناءً على ما سبق: يجب أن يُراعى في فقه التغيير أحوال البلاد والعباد، والقوة والضعف، وأن تُراعي سُنة التدرج مع الناس كي يقع منهم القبول، وقد تدرَّج الإسلام في فرض الفرائض ؛ كالصلاة والصيام والجهاد، كما تدرَّج بهم في

تحريم المحرمات كالخمر ونحوها، وعند تجدُّد ظروف مماثلة لظروف قيام المجتمع الأول، أو قريبة منها، نستطيع الأخذ بهذه السنة «سنة التدرج»، وهو تدرج في «التنفيذ»، وليس تدرجًا في «التشريع»، فإن التشريع قد تَمَّ واكتمل بإكمال الدِّين، وإتمام النعمة، وانقطاع الوحي، وهذا هو المنهج الذي سلكه النبي ﷺ لتغيير الحياة الجاهلية إلى حياة إسلامية ؛ فقد ظل ثلاثة عشر عامًا في مكة، كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع - فيما بعد - أن يحمل عبء الدعوة وإنشاء الأُمة والدولة، وتكاليف الجهاد لنشرها في الآفاق.

وبعد هجرة النبي ﷺ وتكوين الدولة الإسلامية، تتابعت الأحكام بعد بناء الأساس، وأقبل الناس على الطاعة والتسليم بعد التربية والإعداد.

ومن طريف ما يُذكر: أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز قال لأبيه: «ما لك لا تُنَفِذُ الأمورَ ؟ فوالله ما أبالي لو أن القدور غلت بي وبك. فقال له عمر: لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة، فيدفعوه جملة، ويكون من ذا فتنة». [الموافقات، للشاطبي ٢ / ٩٣، ٩٤].

ويقول الشاطبي رحمه الله - معلقًا على ذلك -: «وهذا معنًى صحيح معتبرٌ في الاستقراء العادي، فكان ما كان أجرى بالمصلحة معتبرٌ في الاستقراء وأجرى على جهة التأنيس، وكان أكثرها على أسباب واقعة، فكانت أوقع في النفوس حين صارت تنزلُ بحسب الوقائع، وكانت أقرب إلى التأنيس حين كانت تنزلُ حُكمًا حُكمًا، وجزئية جزئية، لأنها إذا نزلت كذلك لم ينزل حُكمٌ إلاَّ والذي قبله صار عادة، واستأنست به نفس المكلف، فإذا نزل الثاني كانت النفسُ أقرب للانقياد». [الموافقات ٢ / ٩٤].

أهم النتائج التي نخرج بها من هذا البحث

١- عظمة الفقه الإسلامي ومرونته، وقوة معانيه وألفاظه، حيث تتسع لكل ما يجد ويحدث من نوازل.

٢- الأحكام الشرعية ثابتة لا تتبدل ولا تتغير بمرور الزمان وتبدل المكان، وإنما الذي يتغير هو الفتوى بناء على أصول شرعية، وعلل مرعية، ومصالح جنسها مراد الله تعالى ورسوله ﷺ.

٣- الشريعة الإسلامية صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان وهذه حقيقة ثابتة معلومة من دين الإسلام بالضرورة.

٤- النبي محمد ﷺ خاتم النبيين ورسالته هي الرسالة الخاتمة ورسالته خالدة باقية إلى يوم الدين، فلا نسخ لها ولا زوال.

٥- للشريعة الإسلامية أوصافٌ كثيرة قد جعلتها صالحة لكل زمان ومكان، من هذه الأوصاف: العموم، البقاء، الحفظ، الشمول، المرونة، والاتساع.

٦- الفتوى لا تتغير بحسب الهوى والتشهي واستحسان العباد واستقباحهم، وإنما بضوابط دقيقة أشرت إليها في البحث، ولا يصلح أن يكون تغير الزمان والأحوال سببًا لتغير الفتوى، وإنما يصلح أن يكون هذا سببًا يدعو المجتهد لإعادة النظر في مدارك الأحكام، فإذا تحقق من ضعف المدرك أو زواله، أو ترجيح غيره عليه لمصلحة معتبرة شرعًا غير موهومة نظر في أمر تغيير الفتوى معتمدًا على الدليل الشرعي.

٧- الشريعة قائمة على مراعاة المصالح ودرء المفاسد، ويجب أن يؤخذ هذا في الاعتبار، وعلى المجتهد أن يفهم الواقع وأحوال الأمم وأن يعمل بسنة التدرج.

٨- تغير الفتوى مقصور على طائفة من الناس وهم حملة الشريعة وورثة الأنبياء، أهل الاجتهاد والفتوى، فليس لأحد أن ينازعهم هذا الحق، ولا أن يقول على الله بغير علم.

والله من وراء القصد.

ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون

إعداد: د/ عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن أعداء الإسلام ما يزالون مستمرين في الطعن ومحاولة النيل من النبي ﷺ، وها نحن نلاحظ بين الحين والآخر طاعنًا من هنا ومن هناك، وأود أن أقول لهؤلاء: «وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ» [التوبة: ٣٢]، وكلما بالغ هؤلاء المجرمون في الإساءة إليه كلما انتشر دينه، وظهر ولمع اسمه، وكثر أتباعه، «وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ» [المنافقون: ٨]، وقد بدأت الإساءة إلى النبي ﷺ مع بداية دعوته.

يقول ابن عباس رضي الله عنهما لما نزلت: «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ» صعد النبي ﷺ على الصفا فجعل ينادي: يا بني فهر، يا بني عدي - لبطون قريش - حتى اجتمعوا، فجعل الرجل إذا لم يستطع أن يخرج أرسل رسولاً لينظر ما هو، فجاء أبو لهب وقريش، فقال: أريتكم لو أخبرتكم أن خيلاً بالوادي تريد أن تغير عليكم أكنتم مُصَدقي؟ قالوا: نعم، ما جربنا عليك إلا صدقًا، قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد، فقال أبو لهب: تبًا لك سائر اليوم، ألهذا جمعتنا ؟ فنزلت: «تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ (١) مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ»(١).

كما استخدم مشركو مكة كثيرًا من الأساليب لمحاربته وتشويه دعوته وصرف الناس عنه، ومن هذه الأساليب السخرية والاستهزاء، وإثارة الشبهات حول شخصه الكريم ﷺ كقولهم: إنه ساحر، وما جاء به من كتاب كذلك. قال تعالى: «أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ مُبِينٌ»، والمراد بالساحر عندهم هو رسول الله ﷺ، وقد كذبوا في ذلك، ودلَّ تعجبهم أولاً وكلامهم بما هو باطل عنه ثانيًا على عجزهم وانحرافهم، وقرئ: «لسحر»، وأرادوا بذلك القرآن الكريم، ووصْف الكفار للقرآن بكونه سحرًا يدل على عظم محل القرآن عندهم وكونه معجزًا، وأنه تعذر عليهم فيه المعارضة فقالوا هذا البهتان العظيم.

قال الرازي رحمه الله - معلقًا على هذه الآية: «واعلم أن هذا الكلام لما كان في غاية الفساد لم يذكر

جوابه، وإنما قلنا إنه في غاية الفساد، لأنه ﷺ كان منهم، ونشأ بينهم وما غاب عنهم، وما خالط أحداً سواهم، وما كانت مكة بلدة العلماء والأذكياء حتى يقال إنه تعلم السحر أو تعلم العلوم الكثيرة منهم فقدر على الإتيان بمثل هذا القرآن، وإذا كان الأمر كذلك كان حمل القرآن على السحر كلاماً في غاية الفساد، فلهذا السبب ترك جوابه»(٢).

كما قال المشركون في شخصه ﷺ بأنه كاهن ومجنون، وقد رد الله على فريتهم هذه ونفى كلامهم، فقال: «فَذَكِّرْ فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ» [الطور: ٢٩]، أي: لست بحمد الله بكاهن، والكاهن: الذي يأتيه الرائي من الجان بالكلمة يتلقاها من خبر السماء، والمجنون، وهو الذي يتخبطه الشيطان من المس، وقد حاول المشركون صدَّ الناس وصرفهم عن النبي ﷺ، وعن القرآن الكريم حينما زعموا أن الشياطين هي التي تنزل بالقرآن عليه، وقد تولى الله تعالى الدفاع عن الوحي الذي أنزله وبيَّن ضلال ما ذهب إليه المشركون في ذلك فقال: «وَمَا تَنَزَّلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ (٢١٠) وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ (٢١١) إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ» [الشعراء: ٢١٠-٢١٢]، وكان هذا الرد القويم بعد تحقيق الحق ببيان أنه نزل به الروح الأمين، وأنه يمتنع أن تنزل به الشياطين، وذلك من ثلاثة أوجه، وهي: أنه ما ينبغي لهم، أي: ليس هو من بغيتهم، ولا من طلبتهم ؛ لأن من سجاياهم الفساد وإضلال العباد، وهذا فيه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونور وهدى وبرهان عظيم، فبينه وبين الشياطين منافاة عظيمة، ولهذا قال تعالى: «وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ»، وقوله: «وَمَا يَسْتَطِيعُونَ» أي: ولو انبغى لهم لما استطاعوا ذلك، ثم بين أنه لو انبغى لهم واستطاعوا حمله وتأديته لما وصلوا إلى ذلك، لأنهم بمعزل عن استماع القرآن حال نزوله، لأن السماء ملئت حرساً شديداً وشهباً في مدة إنزال القرآن على رسوله ﷺ، فلم يخلص أحد من الشياطين إلى استماع حرف واحد منه، لئلا يشتبه الأمر، وهذا من رحمة الله بعباده، وحفظه لشرعه، وتأييده لكتابه ولرسوله ﷺ، ولهذا قال تعالى: «إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ لَمَعْزُولُونَ»(٣).

وقد كان المشركون ينزلون العذاب الشديد بالمستضعفين في مكة، كما فعلوا مع آل ياسر حينما كانوا يخرجونهم إلى الأبطح إذا حميت الرمضاء فيعذبونهم بجرِّها، وكان أمية بن خلف يخرج بلالاً إذا حميت الشمس ويقلبه على الرمال الملتهبة، ويأمر بالصخرة الجسيمة فتلقى على صدره ثم يقول: لا تزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد وتعبد اللات والعزى، فما يزيد بلال عن ترديد: أحد، أحد، ولما اشتد العذاب بالمستضعفين ذهب خباب بن الأرت إلى رسول الله ﷺ يستنجد به، ويقول: يا رسول الله، ألا تستنصر لنا، ألا تدعو لنا؟ فقال ﷺ: «قد كان فيمن قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض فيجعل فيها، ثم يؤتى بالمنشار فيوضع على رأسه فيجعل نصفين، ويمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه وعظمه ما يصده ذلك عن دينه، والله ليتمن الله تعالى هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت فلا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون»(٤).

قال ابن التين: كان هؤلاء الذين فعل بهم ذلك أنبياء أو أتباعهم، قال: وكان في الصحابة من لو فعل به ذلك لصبر، إلى أن قال: وما زال خلق من الصحابة وأتباعهم فمن بعدهم يؤذون في الله، ولو أخذوا بالرخصة لساغ لهم، كما قاوم اليهود الإسلام من أول لحظة وبدأت أحقادهم تظهر وألسنتهم تنطق بالعداوة والباطل في اتهام صاحب الدعوة ﷺ، ووقفوا إلى جوار الوثنيين المشركين ضد الإسلام، وأنكروا صحة بعثة النبي ﷺ، وكانوا قبل مبعثه ينتظرون خروجه، كما قال تعالى: «وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٨٩].

وقد ذكر سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه، فلما بعثه الله من العرب كفروا به، وجحدوا ما كانوا يقولون فيه، فقال لهم معاذ بن جبل، وبشر ابن البراء بن معرور، وداود بن سلمة: يا معشر

يهود، اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل الشرك، وتخبروننا بأنه مبعوث، وتصفونه بصفته، فقال سلام بن مشكم أخو بني النضير: ما جاءنا بشيء نعرفه، ما هو بالذي كنا نذكركم، فأنزل الله هذه الآية(٦).

وما يزال الحقد الصهيوني ضد الإسلام والمسلمين قائمًا وبارزًا، وما حربهم اليوم ضد إخواننا في فلسطين إلا نموذجًا لذلك، وتبع النصارى عباد الصليب اليهود في عداوتهم وبغضهم وكراهيتهم للإسلام ولنبيه ﷺ، وبدأ ذلك أيضًا من وقت مبكر، وألفوا الكتب في الطعن والنيل من النبي ﷺ.

ويعتبر بعض المؤرخين أن «يوحنا الدمشقي» ت٧٤٩م أول من ألف كتابًا كاملاً ضد النبي ﷺ، وقد ذكر فيه أن بحيرا الراهب قام بمساعدة الرسول ﷺ في كتابة القرآن، وأن ورقة بن نوفل كان يترجم بعض الأناجيل إلى العربية ويدفع بها إلى النبي ﷺ، كما كتب «مارتن لوثر» في بعض مقالاته: إن محمدًا هو الشيطان، وهو أول أبناء إبليس، وزعم أن الرسول ﷺ كان مصابًا بمرض الصرع، وكانت الأصوات التي يسمعها جزءًا من مرضه، وهو بهذا يريد أن ينكر نزول جبريل على النبي ﷺ، وقد شهد العصر الحاضر إساءات بالغة من هؤلاء المجرمين ضد النبي الأمين ﷺ، وما الرسوم التي ظهرت في الصحف الدنماركية إلا تعبيرٌ عن هذا البغض والحرب ضد الإسلام والمسلمين، بل إن كبيرهم الضال «بنديكت» أظهر حالة الحقد والكره الكامنة في نفوس هؤلاء، ولكن الله غالب على أمره، ولن يضعف الإسلام في وجه هؤلاء، وفي كل يوم يكسب أنصارًا وتأييدًا ويزداد أعداء الإسلام خذلانًا وانحرافًا وصغارًا كما في حديث تميم الداري - رضي الله عنه - وفيه يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ليبلغن هذا الأمر ما بلغ الليل والنهار، ولا يترك الله بيت مدر ولا وبر إلا أدخله الله هذا الدين بعز عزيز أو بذل ذليل، عزًا يعز الله به الإسلام، وذلاً يذل الله به الكفر».

وقد كان تميم الداري يقول: قد عرفت ذلك في أهل بيتي، لقد أصاب من أسلم منهم الخير والشرف والعز، ولقد أصاب من كان منهم كافرًا الذل والصغار والجزية(٧).

وأختم مقالي هذا بكلمات قالها واحد من هؤلاء، ولكنه كان منصفًا وشهد بعالمية وعلو رسالة النبي ﷺ، وهو بورسورث سميث حيث قال: «تعددت جوانب شخصية محمد، فقد كان في وقت واحد مؤسسًا لأمة، ومقيمًا لإمبراطورية، وبانيًا لدين، وهو وإن كان أميًا فقد أتى بكتاب يحوي أدبًا وقانونًا وأخلاقًا وكتبًا مقدسة في كتاب يقدسه إلى يومنا هذا سدس مجموع النوع البشري، لأنه معجزة في دقة الأسلوب وسمو الحكمة، وجلالة الحق، يقول عنه محمد: إنه معجزته الخالدة، ثم يرى رؤياه في الإسلام في غد الإنسانية ومستقبلها، لم يحرص محمد إلى آخر حياته على شيء إلا على ذلك اللقب الذي تلقب به من أول أمره، وهو لقب اعتقد أنه سيأتي يوم ترضى به أرقى فلسفة وتسلم له به. هذا اللقب هو إنه رسول الله. رسول الله حقًا».

وأقول بعد هذا: والحق ما شهدت به الأعداء، فهو رسول الله حقًا وصدقًا وسيبقى دينه عاليًا منتصرًا مع كيد الكائدين، وافتراء الظالمين، وصدق الله: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ».

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش :

١- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب التفسير - تفسير سورة الشعراء باب ٢ ج٨ / ٥٠١، ومسلم في كتاب الإيمان باب ٩٨ جـ١ / ١٩٣، ١٩٤.

٢- التفسير الكبير للفخر الرازي ج٨ / ٢٤٣.

٣- تفسير ابن كثير ج٦ / ١٧٥.

٤- البخاري كتاب المناقب باب ٢٩ ج٧ / ١٦٤، ١٦٥، والحديث أخرجه أحمد وأبو داود والنسائي.

٥- فتح الباري جـ٧ / ١٦٧.

٦- تفسير ابن كثير جـ١ / ١٧٨.

٧- مسند أحمد جـ٤ / ١٠٣.

٨- هكذا ذكر الكاتب اسم النبي ﷺ دون أن يصلي عليه، والواجب الصلاة عليه عند ذكر اسمه، ولكني لم افعل هنا لأني أحببت نقل كلامه حرفيًا.

جمع كلمة الأمة على الكتاب والسنة والتحذير من الخروج على الأئمة

إعداد: د/ عبدالله شاكر
نائب الرئيس العام
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وبعد:

تمر بالمسلمين بين الفينة والأخرى فتنة تزيد من فرقتهم، وتقضي على جماعتهم، وقد حذرنا الله تعالى الفتن في كتابه فقال عز وجل: «وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ» [الأنفال: ٢٥]، وقد بوَّب الإمام البخاري في الصحيح بابًا لهذه الآية(١)، وهذا لأهمية ما اشتملت عليه، وحديث حذيفة في الفتن معروف ومشهور(٢).

وكان من آخر الفتن التي مرت بالمسلمين ما وقع لإخواننا في غزة من قتل وتشريد وهدم وضياع، وقد استغل أرباب الأهواء ودعاة الباطل ما حصل، فروجوا لبدعهم الظالمة، ورموا غيرهم بما ليس فيهم، واستغل الرافضة هذا الحدث استغلالاً عظيمًا، وأرادوا من وراء ذلك أن يكون لهم ظهور ووجود بين عامة أهل السنة، وكأنهم حماة الدين وحراس العقيدة!! والذابون عن بلاد المسلمين، كما أصدرت جهةٌ ما بيانًا كاذبًا زجُّوا فيه باسمي وبأسماء بعض إخواني في أنصار السنة المحمدية، زعموا فيه أنهم يرمون بعض المسلمين وحكامهم بالكفر والردة والخروج من الإسلام، وقد كذبوا فيما ذهبوا إليه، حيث لم أعلم ولم يعلم واحد من إخواني بهذا البيان إلا بعد صدوره، وبادرنا بإنكاره وبيان زيفه في حينه، وإنه لمن الظلم العظيم والضلال المبين، والخيانة للمسلمين والتدليس على شبيبتهم نسبة أقوال الفرق والمبتدعة إلى أحد من أهل السنة، وفاعل ذلك أراد أن يظهر الباطل بلباس الحق ليروج مذهبه وينصر باطله، وأداءً لبعض ما أوجب الله من البلاغ والنصح والإرشاد، وإبراءً للذمة أقول لعموم المسلمين:

إن الله - تعالى - أمرنا في كتابه بالجماعة، ونهانا عن التفرق والاختلاف في كثير من الآيات، ولكن الأمر الوارد بالاجتماع مقيد بالكتاب والسنة، قال تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا» [آل عمران: ١٠٣].

قال ابن جرير - رحمه الله -: «يريد بذلك تعالى ذكره: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به وعهده الذي عهده في كتابه من الألفة والاجتماع على كلمة الحق والتسليم لأمر الله»(٣).

ثم ساق بأسانيده عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال في قوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا» قال الجماعة(٤)، وفي عبارة ابن جرير السابقة بيان للضابط المهم الذي يجب أن يكون الاجتماع عليه وهو قوله: «والاجتماع على كلمة الحق»، وهذا هو الأساس الذي يجب أن يكون الاجتماع عليه، وإلا وقع التفرق والضياع، وحدث الشقاق والخلاف، وكثيرًا ما تطلق كلمة الحق على كلمة التوحيد: «لا إله إلا الله» ولازمتها: «محمد رسول الله، ﷺ»، وهو كلام صحيح، فمن عرف التوحيد والسنة قام بالدين كله، وابن كثير - رحمه الله - ذكر أن المراد بحبل الله الوارد في الآية هو العهد، وقيل: القرآن الكريم، ثم بيَّن أن هذا هو سبيل النجاة وطريق الفوز، فقال: «وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث

الصحيحة المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة، فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة منها فرقة ناجية إلى الجنة ومسلَّمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه»(٥).

قال القرطبي - رحمه الله -: «قال ابن عباس لسمَّاك الحنفي: يا حنفي، الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله عز وجل يقول: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا» إلى أن قال: «فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه ﷺ والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة وانتظام الشتات الذي تتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي حصل لأهل الكتابين، هذا معنى الآية على التمام»(٦).

قُلْتُ: على طالب العلم أن يتأمل الكلمات الدقيقة والعبارات الرائعة المذكورة في كلام القرطبي السابق، والتي نصَّ فيها على أن الاجتماع على الكتاب والسنة اعتقادًا وعملاً، وهذا هو الاجتماع الصحيح، وأصحابه هم الجماعة الحقة، أما الاجتماع على الباطل، أو التلفيق بين المواقف، فهذا ليس من دين الله في شيء، والآيات الدالة في كتاب الله على وجوب الاجتماع على الكتاب والسنة كثيرة، ولكني أكتفي بالآية السابقة فحسب لأذكر شيئًا من كلام النبي ﷺ في ذلك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم»(٧).

قال النووي - رحمه الله - في شرحه للحديث: «وأما الاعتصام بحبل الله فهو التمسك بعهده وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه، والحبل يطلق على العهد وعلى الأمانة، وعلى الوصلة، وعلى السبب، وأصله من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور لاستمساكهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون بها المتفرق، فاستعبر اسم الحبل لهذه الأمور، وأما قوله ﷺ: «ولا تفرقوا»، فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام»(٨).

وخطب عمر بن الخطاب رضي الله عنه بالشام، فقال: قام فينا رسول الله ﷺ مقامي فيكم فقال: «استوصوا بأصحابي خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يُعْجل الرجل بالشهادة قبل أن يُسْألها، وباليمين قبل أن يسألها، فمن أراد بحبوبة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، ومن الاثنين أبعد، فمن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

وقد ذكر الإمام الشافعي - رحمه الله - هذا الحديث في كتابه الرسالة وعقب عليه بقوله: «فما معنى أمر النبي ﷺ بلزوم جماعتهم؟ قلت: لا معنى له إلا واحد، فإن قيل: فكيف لا يحتمل إلا واحدًا؟ قلت: إذا كانت جماعتهم متفرقة في البلدان فلا يقدر أحد أن يلزم جماعة أبدان متفرقين، وقد وجدت الأبدان تكون مجتمعة من المسلمين والكافرين والأتقياء والفجار، فلم يكن في لزوم الأبدان معنى، لأنه لا يمكن، ولأن اجتماع الأبدان لا يصنع شيئًا، فلم يكن للزوم جماعتهم معنى، إلا ما عليه جماعتهم من التحليل والتحريم والطاعة فيهما، ومن قال بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم التي أمر بلزومها»(١٠).

وكلام الشافعي في هذا دقيق جدًا، ومعناه أنه يجب لزوم جماعة المسلمين في التحليل والتحريم، وهذا في الأحكام والمعاملات، كما يجب لزوم ما تقول به الجماعة، وهذا في مسائل الاعتقاد، حتى لا يخرج أحد في كل ذلك عن سبيل المؤمنين ومعتقد السلف الصالح، وقد عصم الله هذه الأمة من أن تجتمع على ضلالة أبدًا، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما - أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله لا يجمع أمتي - أو قال: أمة محمد على ضلالة، ويد الله على الجماعة، ومن شذ شذ إلى النار»(١١).

قال المباركفوري - رحمه الله - في شرحه للحديث: «الحديث يدل على أن اجتماع المسلمين حق، والمراد إجماع العلماء ولا عبرة بإجماع العوام، لأنه لا يكون من علم، «ومن شذ» أي: انفرد عن الجماعة باعتقاد، أو قول، أو فعل لم يكونوا عليه «شذ إلى النار» أي: انفرد فيها، ومعناه: انفرد عن أصحابه الذين هم أهل الجنة وألقي في النار»(١٢).

وعليه فلا بد أن تكون الأمة مجتمعة على الكتاب والسنة، لا تتنازعها الأهواء، ولا تنفذ إليها البدع والضلالات، وهذا الأمر الذي ذكرت أدلته هنا من الأصول الاعتقادية العظيمة عند أهل السنة والجماعة، وقد أدرجه الإمام الطحاوي - رحمه الله - ضمن عقيدة أهل السنة والجماعة، فقال: «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفرقة زيغًا وضلالاً»(١٣).

ويوضح شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - منهج أهل السنة وطريقتهم فيقول: «ثم من طريقة أهل السنة والجماعة اتباع آثار رسول الله ﷺ باطنًا وظاهرًا، واتباع سبيل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، واتباع وصية رسول الله ﷺ حيث قال: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة».

ويعلمون أن أصدق الكلام كلام الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ ويؤثر كلام الله على غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد ﷺ على هدي كل أحد، وبهذا سموا أهل الكتاب والسنة، وسموا أهل الجماعة؛ لأن الجماعة هي الاجتماع وضدها الفرقة، وإن كان لفظ الجماعة قد صار اسمًا لنفس القوم المجتمعين، والإجماع هو الأصل الثالث الذي يعتمد عليه في العلم والدين، وهم يزنون بهذه الأصول الثلاثة جميع ما عليه الناس من أقوال وأعمال باطنة أو ظاهرة مما له تعلق بالدين، والإجماع الذي ينضبط: هو ما كان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشرت الأمة»(١٤).

وكلام شيخ الإسلام في هذا نفيس، وقد بين أن أهل السنة والجماعة هم أهل الحق، وهم الجماعة، وأن المخالفين لهم أهل بدعة وضلالة، كما بين رحمه الله في موطن آخر أن مذهب أهل السنة والجماعة امتداد لما كان عليه النبي ﷺ وصحابته الأخيار رضوان الله عليهم أجمعين، وأنه ليس عندهم كلام محدث، أو مذهب باطل.

يقول رحمه الله: «ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعًا عند أهل السنة والجماعة، فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم، وأحمد بن حنبل، وإن كان قد اشتهر بإمام السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولاً، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة»(١٥).

وعلى ضوء ما قررته سابقًا أقول: إن نسبة مذهب أهل السنة إلى عالم من العلماء إنما هو باعتبار إحيائه للسنة ودعوته إليها والتمسك بها، وتجديد ما اندرس منها في عصر من العصور، لا باعتبار أنهم أتوا بشيء جديد من عند أنفسهم، وما كان لمقتفي السنة والأثر أن يخرج عن الجماعة، ولذلك نجد كلام أهل السنة في مسائل الاعتقاد واحدًا، وإن اختلفت عباراتهم، وتباعدت ديارهم وأزمانهم، فهم أهل الحق والصواب، ومسلكهم هو المسلك الصحيح الموصل إلى جنات النعيم، وقد أصبح اسم «أهل السنة والجماعة» علمًا على الفرقة الناجية والطائفة المنصورة إلى قيام الساعة، وهو اسم قامت عليه الأدلة، فينبغي لنا التمسك به، وقد جعل الإمام الآجري - رحمه الله - علامة الهدى والصلاح اتباع الكتاب والسنة، فقال: «علامة من أراد الله به خيرًا سلوك هذا الطريق، كتاب الله، وسنة رسول الله ﷺ، وسنن أصحابه - رضي الله عنهم - ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد إلى آخر من كان من العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء»(١٦).

وختامًا فإني أحذر عموم المسلمين من الخروج على جماعة المسلمين - أهل السنة والجماعة -، ومن الخوض مع الخائضين، والسير في ركاب الأفاكين، وترويج الكلام الباطل بدون بينة عليه أو يقين، ونصيحتي لجميع من يتكلمون ما قاله رب العالمين في كتابه الكريم: «وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولاً» [الإسراء: ٣٦]. والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- انظر صحيح البخاري مع شرح فتح الباري، كتاب الفتن باب ١ ج١٣/٣.

٢- أخرجه البخاري في صحيحه كتاب الفتن باب ١١ ج١٣/٣٥، ومسلم في كتاب الإمارة باب ١٣ جـ٣/١٤٧٥ وغيرهما.

٣- تفسير الطبري جامع البيان في تفسير القرآن جـ٤/٢١.

٤- المرجع السابق، نفس الجزء والصفحة.

٥- تفسير ابن كثير ج٢/٧٤.

٦- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن جـ٢/١٤٠٦.

٧- صحيح مسلم، كتاب الأقضية، باب ٥ جـ٣/١٣٤٠.

٨- شرح النووي على مسلم جـ١٢/١١.

٩- أخرجه الترمذي باتم من هذا في أبواب الفتن جـ٦/٣٨٣ - ٣٨٥ مع تحفة الأحوذي ومثله الحاكم جـ١/١١٤، وغيرهما.

١٠- الرسالة للشافعي ص٤٧٥، ٤٧٦.

١١- أخرجه الترمذي في أبواب الفتن باب في لزوم الجماعة، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن الترمذي جـ٢/٢٣٢.

١٢- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي جـ٦/٣٨٦.

١٣- شرح العقيدة الطحاوية جـ٢/٧٧٥.

١٤- مجموع فتاوى ابن تيمية جـ٣/١٥٧.

١٥- منهاج السنة النبوية جـ٢/٦٠١، ٦٠٢.

١٦- الشريعة للآجري ج١/٣٠١.

جمع كلمة الأمة على الكتاب والسنة

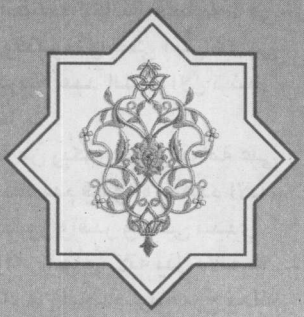

الحلقة الثانية

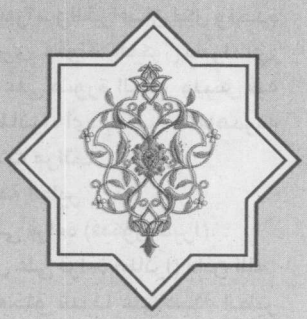

إعداد: د/ عبدالله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تحدثنا في اللقاء السابق عن أهمية جمع كلمة المسلمين على الحق المبين، وهذا المسلك الذي أشرت إليه سابقًا، ولا يزال الحديث حوله متصلاً هو منهج العلماء الربانيين الذين لم تختلف قلوبهم، ولم يتبعوا أهواءهم، ولم تتعدد سبلهم، وقد بيّن الله تعالى في كتابه أن صراطه واحد وأمر باتباعه، ونهى عن الطرق المنحرفة المتعددة، قال تعالى: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» (الأنعام: ١٥٣).

قال القرطبي - رحمه الله - في هذه الآية: «هذه آية عظيمة عطفها على ما تقدم، فإنه لما نهى وأمر، حذر هنا عن اتباع غير سبيله، فأمر فيها باتباع طريقه على ما نبينه بالأحاديث الصحيحة وأقاويل السلف... «ومستقيمًا» نصب على الحال، ومعناه مستويًا قويمًا لا اعوجاج فيه، فأمر باتباع طريقه الذي طَرَّقَه على لسان نبيه محمد ﷺ وشرعه ونهايته الجنة، وتشعبت منه طرق فمن سلك الجادة نجا، ومن خرج إلى تلك الطرق أفضت به إلى النار، وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام،

والنهي عن الخروج على الأئمة

هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد». قاله ابن عطية(١).

وقال ابن كثير: «إنما وحَّد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها كما قال تعالى: «اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ»(٢).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط رسول الله ﷺ خطًا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، قال: ثم خط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»(٣).

وهذه دعوة صريحة إلى وجوب توحيد المنهج وسلوك صراط الله المستقيم الذي لا يتعدد، وترك الأهواء والبدع والضلالات، وقد ذكر الشاطبي رحمه الله عن مجاهد في قوله تعالى: «ولا تتبعوا السبل» قال: البدع والشبهات، وقال عن عبد الرحمن بن مهدي أن مالك بن أنس رضي الله عنه سُئل عن السنة فقال: هي ما لا اسم له غير السنة، وتلا: «وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ»(٤).

وعليه أقول: يجب على عموم الأمة اتباع صراط الله المستقيم، والمنهج القويم الذي كان عليه نبينا ﷺ وتبعه عليه فيه صحابته الأخيار، ويحرسه أهل السنة والجماعة ويدافعون عنه، وهؤلاء هم الذين تبيض وجوههم يوم القيامة، بخلاف من زاغ عن الطريق، أو اختلف أو زاغ عن الكتاب، قال تعالى: «وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (١٠٦) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ» (آل عمران: ١٠٥-١٠٧).

وفي هذه الآيات وعيد شديد لمن خالف الآيات البينات التي جاءت من عند رب البريات، ولذلك فإني أدعو كل صاحب منهج أقامه على غير الكتاب والسنة أن يطرحه وراء ظهره، وأن يُقبل على منهج أهل السنة، ولقد فهم سلفنا الصالح - رحمهم الله - هذا من هذه الآيات.

قال القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية: «فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله، فهو من المطرودين عن الحوض المُبعدين منه، المُسودي الوجوه، وأشدهم طردًا وإبعادًا من خالف جماعة المسلمين وفارق سُبلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، كل يخاف أن يكونوا عنوا بالآية والخبر كما بينا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان»(٥).

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير - رحمه الله - عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال في قول الله تعالى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» يعني: يوم القيامة، حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسودّ وجوه أهل البدعة والفرقة(٦).

وهذا القول المنقول عن ابن عباس - رضي الله عنهما - نُقل مثله عن الإمام مالك، يعني أنه

جعل أهل الأهواء والبدع هم الذين تسود وجوههم يوم القيامة، وهذا موافق لكلام ابن عباس - رضي الله عنهما -: قال ابن وهب: «سمعت مالكًا يقول: ما آية في كتاب الله أشد على أهل الاختلاف من أهل الأهواء من هذه الآية: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» إلى قوله: «بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ»، قال مالك: فأي كلام أبين من هذا؟ فرأيته يتأولها لأهل الأهواء، وفي قول ابن عباس السابق بأن الذين تبيض وجوههم يوم القيامة هم أهل السنة والجماعة دليل على أن هذا الاسم كان معروفًا ومستعملاً منذ زمن الصحابة - رضوان الله عليهم - وأنهم كانوا يستعملونه ويطلقونه على أهل الحق المتمسكين بالكتاب والسنة في مقابل أهل الأهواء والبدع والفرقة والخلاف، وما بعث الله نبيه ﷺ وأنزل عليه شريعته إلا ليسلك الناس طريق الكتاب والسنة، وينتهوا عن الهوى والبدعة.

يقول الشاطبي - رحمه الله -: «إن الشريعة موضوعة لإخراج المكلف عن داعية هواه، حتى يكون عبدًا لله، وهذا أصل قد تقرر في قسم المقاصد من كتاب الموافقات، لكن على وجه كلي يليق بالأصول»(٧).

وقد تتابعت أقوال السلف على هذه الحقيقة وتقريرها، فعن أبي الصلت قال: كتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب: أما بعد، أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره(٨)، واتباع سنة نبيه ﷺ، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك - بإذن الله - عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر قد كُفُّوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم، فما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه بما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مَقْصر(٩)، وما فوقهم من مَحْسر(١٠)، وقد قصَّر قوم دونهم فَجَفَوْا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم»(١١).

قال الشيخ / محمد شمس الحق في شرحه لكلام عمر بن عبد العزيز: «والحاصل أنه أوصاه بأمور أربعة: أن يتقي الله تعالى، وأن يقتصد أي يتوسط بين الإفراط والتفريط في أمر الله، أي: فيما أمره الله تعالى لا يزيد على ذلك ولا ينقص منه، وأن يستقيم فيما أمره الله تعالى لا يرغب عنه إلى اليمين ولا إلى اليسار، وأن يتبع سنة نبيه ﷺ وطريقته، وأن يترك ما ابتدعه المبتدعون بعد ما جرت به سنته وكفوا مؤنته، ومعنى كفوا مؤنته، أي: كفاهم الله تعالى مؤنة ما أحدثوا، أي أغناهم الله تعالى عن أن يحملوا على ظهورهم ثقل الإحداث والابتداع، فإنه تعالى قد أكمل لعباده دينهم، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام دينًا، فلم يترك إليهم حاجة للعباد في أن يحدثوا لهم في دينهم، أي يزيدوا عليه شيئًا أو ينقصوا منه شيئًا، وقد قال ﷺ: شر الأمور محدثاتها»(١٢).

وقال الإمام مالك - رحمه الله -: «قبض رسول الله ﷺ وقد تم هذا الأمر واستكمل، فينبغي أن يتبع آثار رسول الله ﷺ وأصحابه ولا يتبع الرأي، فإنه من اتبع الرأي جاءه رجل آخر أقوى في الرأي منه فاتبعه، فكلما غلبه رجل اتبعه»(١٣).

وهذا الذي ذكرته عن أعلام من السلف هو المنهج الصحيح الذي يجب أن يتبع، وعلى كل داعية ناصح لدينه وأمته أن يسلكه وأن يدعو الناس إليه، وأن يحذر المخالفين الذين قلَّ اعتمادهم على الكتاب والسنة، ولشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - كلام نفيس في هذا

جاء فيه: «إن السلف كان اعتصامهم بالقرآن والإيمان، فلما حدث في الأمة ما حدث من التفرق والاختلاف صار أهل التفرق والاختلاف شيعًا، وصار هؤلاء عمدتهم في الباطن ليست على القرآن والإيمان، ولكن على أصول ابتدعها شيوخهم عليها يعتمدون في التوحيد والصفات والقدر والإيمان بالرسول ﷺ، وغير ذلك، فعلى كل مؤمن ألا يتكلم في شيء من الدين إلا تبعًا لما جاء به الرسول ﷺ، ولا يتقدم بين يديه، بل ينظر ما قاله فيكون قوله تبعًا لقوله، وعلمه تبعًا لعلمه، فهكذا كان الصحابة ومن سلك سبيلهم من التابعين لهم بإحسان وأئمة المسلمين، فلهذا لم يكن أحد منهم يعارض النصوص بمعقوله، ولا يؤسس دينًا غير ما جاء به الرسول ﷺ، وإذا أراد معرفة شيء من الدين والكلام نظر فيما قاله الله والرسول ﷺ، فمنه يتعلم، وبه يتكلم، وفيه ينظر ويتفكر، وبه يستدل، فهذا أصل أهل السنة، وأهل البدع لا يجعلون اعتمادهم في الباطن ونفس الأمر على ما تلقوه عن الرسول ﷺ، بل على ما رأوه أو ذاقوه، ثم إن وجدوا السنة توافقه، وإلا لم يبالوا بذلك، فإذا وجدوها تخالفه أعرضوا عنها تفويضًا أو حرفوها تأويلاً، فهذا هو الفرقان بين أهل الإيمان والسنة، وأهل النفاق والبدعة»(١٤).

والناظر في جماعات المسلمين اليوم يجد كثيراً منهم سلكوا طرق المبتدعة وتركوا منهج أهل السنة، والواجب على الجميع اتباع القرآن والسنة بفهم سلف الأمة، وقد سُئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله السؤال التالي:

بالنظر إلى العالم الإسلامي اليوم نجد أن هناك كثيراً من الجماعات التي تدعو إلى الإسلام، وكل منهم يقول: أنا على منهج السلف ومعي الكتاب والسنة، فما موقفنا نحو هذه الجماعات؟

فأجاب: «الحكم على هذه الجماعات التي تدعي كل طائفة منها أنها على الحق - سهل جداً -، فإنا نسألهم: ما الحق ؟ الحق ما دل عليه الكتاب والسنة، والرجوع إلى الكتاب والسنة يحسم النزاع لمن كان مؤمنًا، أما من اتبع هواه فلا ينفع فيه شيء، قال تعالى: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ» (النساء: ٥٩)، فنقول لهذه الجماعات: اجتمعوا ولينزع كل واحد منكم هواه الذي في نفسه، ولينْو النية الحسنة أنه سيأخذ بما دل عليه القرآن والسنة، مبنيًا على التجرد من الهوى لا مبنيًا على التقليد والتعصب»(١٥).

وإضافة إلا ما قاله الشيخ؛ فإنه إن زعم أهل كل طائفة أنهم على الكتاب والسنة، فيكون الحجة بفهم سلف الأمة؛ لأن كل الفرق الضالة إنما ضلت من تحريف أو تأويل فاسد للكتاب والسنة أيضًا.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع قلوب أهل الإيمان على التسليم لما جاء من عنده جلَّ في علاه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

وللحديث صلة بإذن الله تعالى.

الهوامش

١- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج٤/٢٥٧٣، ٢٥٧٤.

٢- تفسير ابن كثير ج٢/٢٦٣.

٣- مسند أحمد ج١/٤٦٥، والحاكم في المستدرك ج٢/٣١٨، وقال: صحيح الإسناد.

٤- الاعتصام للشاطبي ج١/٤٤.

٥- تفسير القرطبي الجامع لأحكام القرآن ج٢/ ١٤١٠.

٦- انظر تفسير ابن كثير ج١/٥٣٦.

٧- الاعتصام للشاطبي ج٢/٤٩٩.

٨- أراد بالاقتصاد: التوسط بين الإفراط والتفريط.

٩- «مَقْصَر» مصدر ميمي أو اسم ظرف، ومادته من قصر ا لشيء قصرًا، أي حبسه.

١٠- «مَحْسَر» مصدر ميمي أو اسم ظرف، ومادته من حسر الشيء يحسره، أي: كشفه، يقال: حسر كمه من ذراعه، أي: كشفها.

١١- سنن أبي داود، كتاب السنة باب ٧، ج٥/١٨-٢٠.

١٢- عون المعبود شرح سنن أبي داود ج١٢/٣٦٦، ٣٦٧.

١٣- الاعتصام للشاطبي ج٢/ ٣٨٣.

١٤- مجموع فتاوى ابن تيمية ج١٣/ ٥٨، ٦٢، ٦٣.

١٥- من لقاءات الباب المفتوح مع الشيخ ابن عثيمين برقم (٨٧٥).

جمع كلمة الأمة على الكتاب والسنة

والنهي عن الخروج على الأئمة

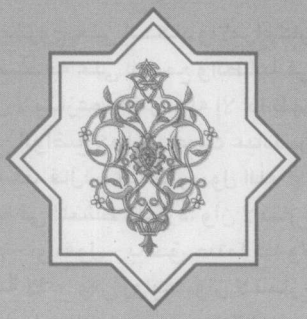

الحلقة الثالثة

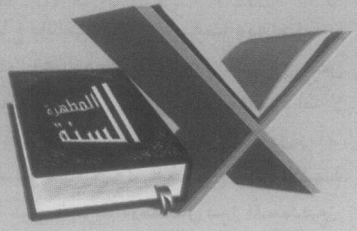

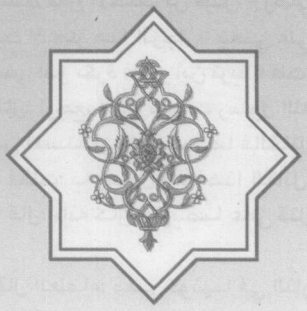

إعداد: د/ عبدالله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فوصلاً لما انقطع من حديثي في اللقاء السابق حول جمع كلمة الأمة أقول وبالله التوفيق:

إن كل من التزم بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة - رضوان الله عليهم - كان من أهل السنة والجماعة، ومن خالف هذه الأصول كان من أهل الضلالة والشقاوة، يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «إن الناس لا يفصل بينهم النزاع إلا كتاب منزل من السماء، وإذا ردوا إلى عقولهم فلكل واحد منهم عقل، ومن هنا يعرف ضلال من ابتدع طريقًا أو اعتقادًا زعم أن الإيمان لا يتم إلا به، مع العلم بأن الرسول ﷺ لم يذكره، وما خالف النصوص فهو بدعة باتفاق المسلمين، وليس لأحد أن ينصب للأمة شخصًا يدعو إلى طريقته، ويوالي ويعادي عليها غير النبي ﷺ، ولا ينصب لهم كلامًا يوالي عليه ويعادي غير كلام الله ورسوله ﷺ، وما اجتمعت عليه الأمة، بل من فعل أهل البدع الذين ينصبون لهم شخصًا أو كلامًا يفرقون به بين الأمة»(١).

وأصحاب هذا المنهج القويم هم الطائفة المنصورة الظاهرة بالحق، المؤيدة بتأييد الله لهم، وهم لا يجمعهم بلد واحد، ولا ينتمون إلى حزب أو فرقة، وليس لهم تخصص معين، بل فيهم المحدثون والفقهاء، والآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، وغير ذلك.

يقول النووي رحمه الله: «هذه الطائفة مفرقة بين أنواع المؤمنين، منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدثون، ومنهم زهاد وآمرون بالمعروف وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن

يكونوا مجتمعين، بل قد يكونوا متفرقين في أقطار الأرض»(٢).

ومن الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة الأمر بالجماعة والائتلاف والسعي في تأليف القلوب وتوحيد الصفوف، وقد أمر الله رسوله ﷺ باجتماع المسلمين في كثير من العبادات، كالحج والأعياد، والجمعة، والجماعة، لما في اجتماعهم من القوة والتعاون، والتواصل والتوادد، كما نهى الإسلام عن الخروج على الحكام، لما في الخروج عليهم من تمزيق للصفوف، وضعف للأمة، وحدوث الهرج والمرج، والتشتت والتفرق.

فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من كره من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج على السلطان شبرًا مات ميتة جاهلية»(٣).

وقد فهم أهل العلم من هذا الحديث وغيره أن الخروج على الحكام فيه مفارقة الجماعة، وقد أدخل الإمام مسلم هذا الحديث تحت باب: «باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة»(٤).

والمراد بجماعة المسلمين هنا: الجماعة التي لها إمام منتصب، فلا كناية عن معصية السلطان ومحاربته، قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير، ولو بأدنى شيء، فكنى عنها بمقدار الشبر، لأن الأخذ في ذلك يؤول إلى سفك الدماء بغير حق، والمراد بالميتة الجاهلية، وهي بكسر الميم حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا، ويحتمل أن يكون التشبيه على ظاهره ومعناه أنه يموت مثل موت الجاهلي وإن لم يكن هو جاهليًا.

قال ابن بطال: وفي الحديث حجة في ترك الخروج على السلطان ولو جار، وقد أجمع الفقهاء على وجوب طاعة السلطان المنقلب والجهاد معه لأن طاعته خير من الخروج عليه لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، وحجتهم هذا الخبر وغيره مما يساعده، ولم يستثنوا من ذلك إلا إذا وقع من السلطان الكفر الصريح، فلا تجوز طاعته في ذلك، بل تجب مجاهدته لمن قدر عليها»(٥). وعن عرفجة بن شريح - رضي الله عنه - قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنه ستكون هناتٌ وهنات(٦)، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة، وهي جميع، فاضربوه بالسيف، كائنًا من كان»، وفي رواية: «من أتاكم وأمركم جميع على رجل واحد، يريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم فاقتلوه»(٧).

قال النووي في شرحه للحديث: «فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام، أو أراد تفريق كلمة المسلمين ونحو ذلك، وينهى عن ذلك، فإن لم ينته قوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقتل كان هدرًا». فقوله ﷺ: «فاضربوه بالسيف»، وفي الرواية الأخرى: «فاقتلوه» معناه: إذا لم يندفع إلا بذلك، وقوله ﷺ: «يريد أن يشق عصاكم» معناه: يفرق جماعتكم كما تفرق العصاة المشقوقة، وهو عبارة عن اختلاف الكلمة وتنافر النفوس(٨).

ولأهمية عدم الخروج على الحكّام والأمراء كان النبي ﷺ يبايع أصحابه على السمع والطاعة في جميع أحوالهم، وأن لا ينازعوا الأمر أهله إلا إذا ظهر منهم الكفر الصريح الواضح كما في حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: «بايعنا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة في المنشط والمكره، وأن لا ننازع الأمر أهله، وأن نقوم - أو نقول - بالحق حيثما كنا ولا نخاف في الله لومة لائم». وفي رواية: «وأن لا ننازع الأمر إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان»(٩).

قال الخطابي: «معنى قوله: «مباحًا» يريد ظاهرًا باديًا من قولهم باح بالشيء يبوح به بوحًا وبواحًا».

وقال ابن حجر: «عندكم من الله فيه برهان، أي نص آية أو خبر صحيح لا يحتمل التأويل، ومقتضاه أنه لا يجوز الخروج عليهم ما دام فعلهم يحتمل التأويل»(١٠).

ومن الأدلة على عدم جواز الخروج على الأئمة الأحاديث الدالة على تحريم الاقتتال بين المسلمين، وهذا يحدث عندما تخرج طائفة عن طاعة إمامها، فيستنجد حينئذ بجنده المسلمين، فيقع الاقتتال بين الطرفين وكلاهما مسلم، فعن الأحنف بن قيس - رضي الله عنه - قال: ذهبت لأنصر هذا الرجل - يعني علي بن أبي طالب -، فلقيني أبو بكرة فقال: أين تريد ؟ قلت: أنصر هذا الرجل. قال: ارجع، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار». فقلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول ؟ قال: «إنه كان حريصًا على قتل صاحبه»(١١).

قال ابن حجر: «قال العلماء: معنى كونهما في النار أنهما يستحقان ذلك، ولكن إلى الله تعالى، إن شاء عاقبهما ثم أخرجهما من النار كسائر الموحدين، وإن شاء عفا عنهما فلم يعاقبهما أصلاً، وقيل: هو محمول على من استحل ذلك، ولا حجة فيه للخوارج ومن قال من المعتزلة بأن أهل المعاصي مخلدون في النار، لأنه لا يلزم من قوله فهما في النار استمرار بقائهما فيها»(١٢).

كما استدل أهل العلم بالأحاديث الواردة في النهي عن القتال في الفتنة على عدم الخروج على الأئمة لأن الخروج عليهم يؤدي إلى الفتنة، ومن الأدلة على عدم الخروج على الأئمة الظلمة موقف الصحابة رضي الله

عنهم الذين توقفوا عن القتال في الفتنة، وكذلك التابعين وعلماء السلف، وكانوا جميعًا ينهون عن الخروج على الأئمة. قال الحسن البصري - رحمه الله - في الحجاج وكان فيه ظلم: «إن الحجاج عذاب الله، فلا تدافعوا عذاب الله بأيديكم، ولكن عليكم الاستكانة والتضرع فإن الله تعالى يقول: «وَلَقَدْ أَخَذْنَاهُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ»(١٣).

قال ابن تيمية رحمه الله: «وكان أفاضل المسلمين ينهون عن الخروج والقتال في الفتنة، كما كان عبد الله بن عمر، وسعيد بن المسيب، وعلي بن الحسين وغيرهم ينهون عام الحرة عن الخروج على يزيد، وكما كان الحسن البصري ومجاهد وغيرهما ينهون عن الخروج في فتنة ابن الأشعث، ولهذا استقر أمر أهل السنة على ترك القتال في الفتنة للأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي ﷺ وصاروا يذكرون هذا في عقائدهم، ويأمرون بالصبر على جور الأئمة وترك قتالهم»(١٤).

وقد تتابعت كلمة أئمة السلف على مقتضى ما ذكرته من الأحاديث السابقة، ولهذا لا تجد كتابًا من كتب أئمة السلف إلا ونص على هذه المسألة ذاتها، وهذه بعض أقوالهم حتى يتبين لطالب العلم أن هذا الأمر ليس هوًى يتبع، أو افتراءً على دين الله.

قال الإمام أحمد - رحمه الله -: «والسمع والطاعة للأئمة وأمير المؤمنين البر والفاجر، ومن وَلِيَ الخلافة، واجتمع الناس عليه ورضُوا به، ومَنْ عَلِيهُمْ(١٥) بالسيف حتى صار خليفة وسُمِّيَ أمير المؤمنين...، ومن خرج على إمام من أئمة المسلمين وقد كان الناس اجتمعوا عليه وأقروا له بالخلافة بأي وجه كان بالرضا أو بالغلبة فقد شق هذا الخارج عصا المسلمين، وخالف الآثار عن رسول الله ﷺ، فإن مات الخارج عليه مات ميتة جاهلية، ولا يحل قتال السلطان ولا الخروج عليه لأحد من الناس، فمن فعل ذلك فهو مبتدع على غير السنة والطريق»(١٦). وقال الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا، وإن جاروا، ولا ندعو عليهم، ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمروا بمعصية، وندعوا لهم بالصلاح والمعافاة»(١٧).

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري: «باب في السمع والطاعة لمن ولي أمر المسلمين والصبر عليهم وإن جاروا وترك الخروج عليهم ما أقاموا الصلاة»، ثم ساق عدة أحاديث في هذا الباب، ثم قال: «من أُمِّرَ عليك من عربي أو غيره، أسود أو أبيض أو أعجمي، فأطعه فيما ليس لله فيه معصية، وإن حرمك حقًا لك، أو ضربك ظلمًا، أو انتهك عرضك، أو أخذ مالك، فلا يحملك ذلك على أن تخرج عليه بسيفك حتى تقاتله، ولا تخرج مع خارجي يقاتله، ولا تحرض غيره علي الخروج عليه، ولكن اصبر عليه»(١٨).

وهذا كلام دقيق للغاية من هؤلاء الأئمة الأعلام، ونفهم كلامهم أن السمع والطاعة في المعروف، فإن أتى بمعصية فلا سمع له ولا طاعة فيها، ومن هنا فيحرم الخروج عليه، وعلى أهل الحل والعقد أن يقدموا إليه النصيحة برفق ولين كما قال ابن الجوزي: «ينبغي لمن وعظ سلطانًا أن يبالغ في التلطف، ولا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة، فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إذلالاً، وهم لا يحتملون ذلك، وإنما ينبغي أن يخرج وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب في رعاية الرعايا»(١٩).

وختامًا لهذا الموضوع العقدي الهام أقول: يجب مراعاة المصالح والمفاسد في الخروج على الولاة، وألا يترك هذا لعامة الناس وعوامهم، بل عليهم أن يرجعوا إلى علماء أهل السنة والجماعة وأئمتهم.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «فإن الله تعالى بعث رسوله ﷺ بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تولى خليفة من الخلفاء كيزيد وعبد الملك والمنصور وغيرهم، فإما أن يقال: يجب منعه من الولاية وقتاله حتى يُولَّى غيره كما يفعله من يرى السيف، فهذا رأي فاسد، فإن مفسدة هذا أعظم من مصلحته، وقل من خرج على إمام ذي سلطان إلا كان ما تولد على فعله من الشر أعظم مما تولد من الخير»(٢٠).

والله ولي التوفيق والسداد.

الهوامش

١- مجموع فتاوى ابن تيمية ج٢٠ / ١٦٢، ١٦٤.
٢- شرح النووي على مسلم جـ١٣ / ٦٧.
٣- أخرجه البخاري ٢ ج١٣ / ٥، ومسلم ١٣ / جـ٣ / ١٤٧٧.
٤- انظر صحيح مسلم كتاب الإمارة جـ٣ / ١٤٧٥.
٥- فتح الباري بشرح صحيح البخاري جـ١٣ / ٦، ٧.
٦- هَنَاتٌ أي: شر وفساد، يقال: في فلان هنات. أي خصال شر، ولا يقال في الخير، وواحدها: هَنَةٌ، وقد تجمع على هنوات. النهاية في غريب الحديث والأثر جـ٥ / ٢٧٩.
٧- أخرجه مسلم في صحيحه كتاب الإمارة باب ١٤ جـ٣ / ١٤٧٩، ١٤٨٠، وأبو داود في كتاب السنة باب ٣٠ جـ٥ / ١٢٠.
٨- شرح النووي على مسلم جـ١٢ / ٢٤١، ٢٤٢.
٩- أخرجه البخاري في كتاب الفتن، باب ٢ ج١٣ / ٥، وكتاب الأحكام باب ٤٣ جـ١٣ / ١٩٢، ومسلم في كتاب الإمارة باب ٨ جـ٣ / ١٤٧٠، ١٤٧١.
١٠- فتح الباري جـ١٣ / ٨.
١١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٢٣ / ٨٤، ٨٥، وكتاب الفتن باب ١٠ جـ١٣ / ٣١، ومسلم، كتاب الفتن، باب ٤ جـ٤ / ٢٢١٣.
١٢- فتح الباري جـ١٣ / ٣٣.
١٣- منهاج السنة النبوية لابن تيمية جـ٤ / ٥٢٩.
١٤- المرجع السابق جـ٤ / ٥٢٩، ٥٣٠.
١٥- يعني غلبهم وقهرهم، انظر لسان العرب جـ١٥ / ٨٣.
١٦- أصول السنة للإمام أحمد بن حنبل ص٦٤-٧١.
١٧- شرح العقيدة الطحاوية جـ٢ / ٥٤٠.
١٨- الشريعة للآجري جـ١ / ٣٧٣ - ٣٨٢.
١٩- صيد الخاطر لابن الجوزي ص٤٥٣.
٢٠- منهاج السنة النبوية لابن تيمية جـ٤ / ٥٢٧، ٨٥٢.

افتتاحية العدد

كلمات مضيئة في العفو والتجاوز

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فالعفو خلق إسلامي أصيل دعا إليه القرآن الكريم، وحث عليه النبي - عليه الصلاة والسلام -، وطبقه تطبيقًا عمليًا في حياته. وأصل العفو: المحو والطمس، ويطلق في اللغة على خالص الشيء وجيده، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه، وعلى السهل الذي لا كلفة فيه، وعلى ما يأتي بدون طلب أو بدون إحفاء ومبالغة في الطلب(١).

وقد عرَّف الكفوي العفو اصطلاحًا فقال: «كف الضرر مع القدرة عليه، وكل من كان له حق في عقوبة فتركها فهذا الترك عفو»(٢).

ومن أسماء الله الحسنى «العَفُوُّ» وهو فعول من العفو وهو التجاوز عن الذنب وترك العقاب عليه، وهو من أبنية المبالغة، يقال: عفا يعفو عفوًا فهو عاف وعفُوٌّ»(٣).

وقد سمَّى الله نفسه بهذا الاسم في مواطن، منها قوله تعالى: «إِنْ تُبْدُوا خَيْرًا أَوْ تُخْفُوهُ أَوْ تَعْفُوا عَنْ سُوءٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا» [النساء: ١٤٩]، والمعنى: إن تظهروا أيها الناس خيرًا، أو أخفيتموه، أو عفوتم عمن أساء إليكم، فإن ذلك مما يقربكم عند الله ويجزل ثوابكم لديه، فإن من صفاته تعالى أن يعفو عن عباده مع قدرته عليهم، ولهذا قال: «فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفُوًّا قَدِيرًا»(٤).

ومن أفضل ما يتوجه به العبد إلى ربه في أكثر ليالي من الخير أن يسأل ربه العفو، فعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قلت: يا رسول الله، أرأيت إن علمت أيُّ ليلة ليلة القدر ما أقول فيها؟ قال: «قولي: اللهم إنك عفو تحب العفو فاعف عني». رواه ابن ماجه والترمذي، وقال: «حديث صحيح»(٥).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله، قال: «سل الله العافية»، فمكثت أيامًا، ثم جئت فقلت: يا رسول الله، علمني شيئًا أسأله الله؟ فقال لي: «يا عباس يا عم رسول الله، سل الله العافية في الدنيا والآخرة». رواه الترمذي وقال: «هذا حديث صحيح»(٦). وقال الشيخ الألباني: صحيح(٧).

قال المباركفوري - رحمه الله -: «في أمره ﷺ للعباس بالدعاء بالعافية بعد تكرير العباس سؤاله بأن يعلمه شيئًا يسأل الله به، دليل جلي بأن الدعاء بالعافية لا يساويه شيء من الأدعية، ولا يقوم مقامه شيء من الكلام الذي يدعى به ذو الجلال والإكرام، وقد تقدم تحقيق معنى العافية أنها دفاع الله عن العبد، فالداعي بها قد سأل ربه دفاعه عنه في كل ما ينوبه، وقد كان ﷺ ينزل عمه العباس منزلة أبيه، ويرى له من الحق ما يرى الولد لوالده، ففي تخصيصه بهذا الدعاء وقصره على مجرد الدعاء بالعافية تحريك لهمم الراغبين على ملازمته، وأن يجعلوه من أعظم ما يتوسلون به إلى ربهم سبحانه وتعالى، ويستدفعون به كل ما

يهمهم، ثم كلمه ﷺ بقوله: «سل الله العافية في الدنيا والآخرة»، فكان هذا الدعاء من هذه الحيثية قد صار عدة لدفع كل ضر وجلب كل خير، والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جدًا. قال الجزري في - «عدة الحصن الحصين»-: لقد تواتر عنه ﷺ دعاؤه بالعافية وورد عنه ﷺ لفظًا ومعنى من نحو خمسين طريقًا»(٨).

وقد أعلم الله تعالى نبيه ﷺ أنه عفا عنه فيما تعلق به اجتهاده حين استأذنه المنافقون - ولم يكن لهم عذر - في التخلف عن غزوة تبوك، قال تعالى: «عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ» [التوبة: ٤٣]، كما أمر الله النبي ﷺ بالعفو والتجاوز، قال تعالى: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ» [آل عمران: ١٥٩].

قال ابن كثير في تفسيره للآية: «يقول تعالى مخاطبًا رسوله ﷺ ممتنًا عليه وعلى المؤمنين فيما ألان به قلبه على أمته، المتبعين لأمره، التاركين لزجره، وأطاب لهم لفظه: «فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ»، أي: أيُّ شيء جعلك الله لهم لينا لولا رحمة الله بك وبهم..، وقال الحسن البصري: هذا خلق محمد ﷺ بعثه الله به»(٩).

وقال بعض المفسرين عن هذه الآية: «ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصًا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف»(١٠).

ومن أجمل الصفات التي كان عليها النبي ﷺ أنه كان لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، وقد ذكر وعرف بذلك في الكتب السابقة، ففي البخاري من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن هذه الآية في القرآن: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا» قال في التوراة: «يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأمين، أنت عبدي ورسولي سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا، وقلوبًا غلفًا»(١١).

وكان النبي ﷺ كثيرًا ما يسأل ربه العفو والعافية ؛ فعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ يدع هؤلاء الدعوات حين يمسي وحين يصبح: «اللهم إني أسألك العافية في الدنيا والآخرة، اللهم إني أسألك العفو والعافية في ديني ودنياي وأهلي ومالي، اللهم استر عوراتي، وآمن روعاتي، اللهم احفظني من بين يدي ومن خلفي، وعن يميني وعن شمالي ومن فوقي، وأعوذ بعظمتك أن أُغتال من تحتي»(١٢).

ومعنى قول الراوي: لم يكن رسول الله ﷺ يدع، أي: يترك، وسؤال الله العافية معناه: السلامة من الآفات، والعفو أي: التجاوز عن السيئات، وفي مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: فقدت رسول الله ﷺ ليلة في الفراش، فالتمسته، فوقعت يدي على بطن قدميه وهو في المسجد وهما منصوبتان، وهو يقول: «اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك لا

من أجمل الصفات التي كان عليها النبي ﷺ أنه كان لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، وقد عُرف وذكر بذلك في الكتب السابقة، والسلامة من الآفات والعفو عن السيئات ويعوذ برضاه من سخطه، وبمعافاته من عقوبته

أحصي ثناءً عليك، أنت كما أثنيت على نفسك»(١٣).

قال الخطابي في معنى هذا الحديث: «في هذا معنى لطيف، وذلك أنه استعاذ بالله تعالى سأل النبي ﷺ ربه أن يجيره من سخطه وبمعافاته من عقوبته، والرضا والسخط متقابلان وكذلك المعافاة والعقوبة، فلما صار إلى ما لا ضد له وهو الله سبحانه استعاذ به منه لا غير، ومعناه: الاستغفار من التقصير في بلوغ الواجب في حق عبادته والثناء عليه»(١٤).

سأل النبي ﷺ ربه أن يجيره برضاه من سخطه وبمعافاته من عقوبته، والرضا والسخط متقابلان وكذلك المعافاة والعقوبة، فلما صار إلى ما لا ضد له وهو الله سبحانه استعاذ به منه لا غير

وكان النبي ﷺ يسأل ربه في صلاة الجنازة أن يعفو عن الميت، فعن عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: صلى رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت من دعائه وهو يقول: اللهم اغفر له وارحمه، وعافه واعف عنه، وأكرم نزله، ووسع مُدْخله، واغسله بالماء والثلج والبرد، ونقه من الخطايا كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله دارًا خيرًا من داره، وأهلاً خيرًا من أهله، وزوجًا خيرًا من زوجه، وأدخله الجنة، وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار»(١٥).

وكما كان رسول الله ﷺ يطلب العفو من ربه كان يحث أصحابه على ذلك أيضًا، كما في مسلم عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قالت أم حبيبة رضي الله عنها: «اللهم متعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية، فقال لها رسول الله ﷺ: «إنك سألت الله لآجال مضروبة، وآثار مَوْطُوءَة، وأرزاق مقسومة، لا يُعَجِّل منها شيئًا قبل حله، ولا يؤخِّر منها شيئًا بعد حله، ولو سألت الله أن يعافيك من عذاب في النار، وعذاب في القبر لكان خيرًا لك»(١٦).

ومن سمات المتقين الموعودين بالغفران من ربهم وجنات النعيم العفو عن الناس، قال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ (١٣٣) الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» [آل عمران: ١٣٣، ١٣٤]، وفي الآية الثانية إشارة إلى أن كظم الغيظ وحده لا يكفي، فقد يكظم الإنسان غيظه ليتحول إلى حقد دفين في قلبه، بل لابد من العفو والتجاوز، وهذا هو شأن المحسنين الذين يحبهم رب العالمين.

قال رشيد رضا في تفسيره للآية: «العفو عن الناس هو التجافي عن ذنب المذنب منهم، وترك مؤاخذته مع القدرة عليها، وتلك مرتبة في ضبط النفس والحكم عليها وكرم المعاملة، قلَّ من يتبوأها، فالعفو مرتبة فوق مرتبة كظم الغيظ، إذ ربما يكظم المرء غيظه على حقد ودفينة»(١٧).

وقد ضرب النبي ﷺ وأصحابه أروع الأمثلة في العفو والتسامح، فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «كأني أنظر إلى النبي ﷺ يحكي نبيًا من الأنبياء ضربه قومه فأدموه، وهو يمسح الدم عن وجهه ويقول: اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

قال ابن حجر في «الفتح»: «يحتمل أن ذلك لما وقع للنبي ﷺ ذكر لأصحابه أنه وقع لنبي آخر قبله، وذلك فيما وقع له يوم أحد لما شج وجهه وجرى الدم منه، فاستحضر في تلك الحالة قصة ذلك النبي

الذي كان قبله، فذكر قصته تطييباً لقلوبهم(١٩).

وعن معاذ بن رفاعة قال: «قام أبو بكر الصديق على المنبر، ثم بكى، فقال: قام رسول الله ﷺ عام الأول على المنبر، ثم بكى فقال: سلوا الله العفو والعافية، فإن أحداً لم يعط بعد اليقين خيراً من العافية(٢٠).

ومعنى قوله في الحديث «عام الأول» يعني الأول من الهجرة، وقيل في تعليل بكائه ﷺ: أنه بكى لما علم وقوع أمته في الفتن والشهوة، والحرص على جمع المال وتحصيل الجاه، فأمرهم ﷺ بطلب العفو والعافية ليعصموا من الفتن، وقد يظن ظان أن العفو فيه مذلة، أو ضعف شخصية ومهانة، والأمر ليس كذلك، بل العفو من شيم الكرام القادرين، وليس من شيم العاجزين. ورب العالمين لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، ومع ذلك فهو يعفو ويصفح. وبوّب البخاري باباً في صحيحه قال فيه: «باب الانتصار من الظالم بقوله جل ذكره: «لاَ يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلاَّ مَنْ ظُلِمَ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا»، ويقول تعالى: «وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ». قال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون أن يُسْتَذَلُّوا، فإذا قدروا عفوا»(٢١).

نسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أهل العفو والفضل، وأن يعفو عنا بمنه وكرمه.

بكى النبي ﷺ لما علم بوقوع أمته في الفتن والشهوة والحرص على جمع المال وتحصيل الجاه، فأمرهم ﷺ بطلب العفو والعافية ليعصموا من الفتن، وقد يظن ظان أن العفو فيه مذلة أو ضعف شخصية ومهانة والأمر ليس كذلك

الهوامش:

١- انظر في ذلك لسان العرب لابن منظور ج١٥ / ٧٢، وتفسير المنار ج٩ / ٥٣٣.
٢- الكليات للكفوي ص٥٣.
٣- النهاية في غريب الحديث والأثر لابن الأثير ج٣ / ٢٦٥.
٤- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج١ / ٧٨٥.
٥- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج١٠ / ٤٩٥.
٦- المرجع السابق ج١٠ / ٤٩٦.
٧- انظر صحيح سنن الترمذي ج٣ / ١٧٠.
٦- المرجع السابق ج١٠ / ٤٩٦.
٧- انظر صحيح سنن الترمذي ج٣ / ١٧٠.
٨- تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي ج١٠ / ٤٩٦.
٩- تفسير القرآن العظيم للحافظ ابن كثير ج١ / ٥٧٥.
١٠- محاسن التأويل للقاسمي ج٤ / ١٠٢٣.
١١- البخاري مع الفتح، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح باب ٣ ج٨ / ٥٨٥.
١٢- رواه أبو داود في سننه في أبواب النوم باب ١١٠، وقال الألباني: صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ج٣ / ٩٥٧، وهو كذلك عند ابن ماجه، كما أخرجه الحاكم في المستدرك ج١ / ٥١٧.
١٣- صحيح مسلم، كتاب الصلاة باب ٤٢ جـ١ / ٣٥٢.
١٤- شرح النووي على مسلم ج٤ / ٢٠٤.
١٥- صحيح مسلم، كتاب الجنائز باب ٢٦ جـ٢ / ٦٦٣.
١٦- صحيح مسلم، كتاب القدر.
١٧- تفسير المنار ج٤ / ١٣٥.
١٨- البخاري مع الفتح كتاب أحاديث الأنبياء باب ٥٤ جـ٦ / ٥١٤.
١٩- فتح الباري جـ٦ / ٥٢١.
٢٠- أخرجه الترمذي وغيره، وقال الألباني: حسن صحيح، انظر صحيح سنن الترمذي ج٣ / ١٨٠.
٢١- البخاري مع الفتح، كتاب المظالم باب ٦ جـ٥ / ٩٩.

افتتاحية العدد

شهر رجب فضائل وأحكام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، خالق السموات والأرضين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين... وبعد:

فقد أخبر الله في كتابه أنه جعل السنة اثني عشر شهرًا، وجعل من هذه الأشهر أربعة حرمًا، قال تعالى: «إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ» [التوبة: ٣٦].

وفي الصحيحين وغيرهما عن أبي بكرة - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ قال: «إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض، والسنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم: ثلاث متواليات: ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب مضر الذي بين جمادى، وشعبان»(١)

والحديث نصٌ في بيان هذه الأشهر الأربعة، وقيل: إنما سميت حرمًا لتحريم القتال فيها، وكان ذلك معروفًا في الجاهلية، وقيل: إنه كان في عهد إبراهيم عليه السلام، وقد شرع الله تعالى في أول الإسلام تحريم القتال في الشهر الحرام، قال تعالى: «يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ» [البقرة: ٢١٧].

وقد اختلف العلماء هل التحريم باقٍ أو نسخ؟ على أقوال ليس هذا مكان بسطها، وسأتحدث - إن شاء الله - في هذا اللقاء عن أحد هذه الأشهر الحرم، وهو شهر رجب، ورجب في اللغة مأخوذ من رَجَبَ الرجل رَجَبًا، ورجَبَه يرجُبُه رَجْبًا ورُجُوبًا، ورجَّبَهُ وترَجَّبَهُ وأَرْجَبَهُ كلَّه: هابه وعظمه فهو مرجوب، وأنشد شمِّر: أحمد ربي فَرَقًا وأَرْجُبُه.

والترجيب: التعظيم، وكان العرب في الجاهلية يعظمون شهر رجب ولا يرون القتال فيه(٢).

وقد ذكر بعض العلماء أن لرجب أربعة عشر اسمًا(٣).

ومنها: رجب مضر، وقد سماه النبي ﷺ بذلك في الحديث السابق، وقيده بقوله: «الذي بين جمادى وشعبان»، وقيل في سبب التسمية: أن مضر كانت تزيد في تعظيمه فنسب إليهم لذلك وقيده النبي ﷺ بهذا التقييد مبالغة في إيضاحه وإزالة اللبس عنه، قالوا: وقد كان بين مضر وربيعة اختلاف في رجب، فكانت مضر تجعل رجبًا هذا الشهر المعروف، وكانت ربيعة تجعله رمضان، فلهذا أضافه النبي ﷺ إلى مضر(٤).

وقيل: لأنهم كانوا يُنْسِئُونَهَ ويؤخرونه من شهر إلى شهر، فيتحول عن موضعه المختَص به، فبين لهم أنه الشهر الذي بين جمادى وشعبان، لا ما كان يسمونه على حساب النسيء(٥).

بعض الأحكام المتعلقة بشهر رجب

أولاً: عتيرة رجب، وهي ذبيحة كانت تذبح في رجب يتقرب بها

أهل الجاهلية، قال أبو عبيد القاسم بن سلام: «إن العرب إذا نذر أحدهم أمرًا نذر لئن ظفر به ليذبحن من غنمه في رجب كذا وكذا، وهي العتائر»(٦).

وقال أبو داود: «والعتيرة في العشر الأول من رجب»(٧).

وقال ابن منظور في معنى العتيرة: «إن الرجل كان يقول في الجاهلية: إن بلغت إبلي مائة عترت عنها عتيرة، فإذا بلغت مائة ضنَّ بالغنم فصاد ظبيًا فذبحه»(٨).

وكان أهل الجاهلية يذبحون ذبيحة في رجب يسمونها: «العتيرة»، والعتر: بمعنى الذبح، وقد اختلف العلماء في حكمها في الإسلام على أقوال، فمنهم من ذهب إلى استحبابها، وذهب آخرون إلى كراهتها، والراجح: أنها باطلة لثبوت نهي النبي ﷺ عنها، فقد أخرج البخاري ومسلم وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا فَرَعَ ولا عتيرة»(٩).

قال البخاري: «الفرع: أول النتاج، كانوا يذبحونه لطواغيتهم، والعتيرة في رجب».

وقال ابن المنذر بعد أن ذكر الأحاديث في عتيرة رجب: «وقد كانت العرب تفعل ذلك في الجاهلية، وفعله بعض أهل الإسلام، فأمر النبي ﷺ بهما، ثم نهى عنهما رسول الله ﷺ فقال: «لا فرع ولا عتيرة»، فانتهى الناس عنهما لنهيه إياهم عنهما، ومعلوم أن النهي لا يكون إلا عن شيء كان يفعل، ولا نعلم أن أحدًا من أهل العلم يقول: إن النبي ﷺ كان نهاهم عنهما ثم أذن فيهما، والدليل على أن الفعل كان قبل النهي قوله في الحديث وقد سئل: «إنا كنا نَعْتِرُ عتيرة في الجاهلية في رجب فما تأمرنا؟ قال: اذبحوا لله في أي شهر كان، وبرُّوا الله عز وجل وأطعموا»(١٠).

وقال الشيخ محمد بن إبراهيم آل الشيخ: «والمراد بقوله ﷺ: «لا فرع ولا عتيرة» نفي كونهما سنة، أي خلافًا لما يراه بعض أهل الجاهلية من أن ذلك سنة، وهذا معنى كلام بعضهم، لكن النفي يفيد البطلان كـ «لا عدوى ولا طيرة»، أفلا يكون «لا فرع ولا عتيرة» إبطالاً لذلك؟ فالأصل سقوط ذلك، ولا حاجة إلى تأويل، بل هو ساقط بالإسقاط النبوي، هذا مع دلالة: «من تشبه بقوم فهو منهم»، مع دلالة أن الرسول ﷺ منع من مشابهة الجاهلية، ثم إن هذا من باب العبادات، والعبادات توقيفية، فلو لم ينفها ﷺ كانت منتفية، فإن أمور الجاهلية كلها منتفية، لا يحتاج إلى أن ينصص على كل واحد منها»(١١).

وقال ابن رجب: «ويشبه الذبح في رجب اتخاذه موسمًا وعيدًا لأكل الحلوى ونحوها، وقد روي عن ابن عباس أنه كان يكره أن يتخذ رجب عيدًا، وأصل هذا أنه لا يشرع أن يتخذ المسلمون عيدًا إلا ما جاءت الشريعة باتخاذه عيدًا، وهو يوم الفطر ويوم الأضحى وأيام التشريق وهي أعياد العام، ويوم الجمعة وهو عيد الأسبوع، وما عدا ذلك فاتخاذه عيدًا وموسمًا بدعة لا أصل له في الشريعة»(١٢).

وليس معنى هذا أنه لا يجوز الذبح عمومًا في شهر رجب، ولكن المراد بالنهي هو ما ينويه الذابح أن هذه الذبيحة هي عتيرة رجب، أو أنه ذبحها تعظيمًا لشهر رجب ونحو ذلك.

ثانيا: تخصيص شهر رجب بالصيام

من البدع التي أحدثها الناس في شهر رجب تخصيصه بالصيام، وقد استند هؤلاء إلى أحاديث ضعيفة وموضوعة، منها حديث: «إن

كان أهل الجاهلية يذبحون في رجب ذبيحة يسمونها العتيرة، ويذبحون أول نتاج البهيمة لطواغيتهم يسمونه: الفرع، وقد أبطل الإسلام كلاً من الفرع والعتيرة

في الجنة نهرًا يقال له رجب ماؤه أشد بياضًا من اللبن وأحلى من العسل، من صام يومًا من رجب سقاه الله من ذلك النهر». قال ابن حجر: ذكره أبو القاسم التيمي في كتابه «الترغيب والترهيب»، وذكره الحافظ الأصبهاني في كتاب «فضل الصيام»، ورواه البيهقي في فضائل الأوقات، وابن شاهين في كتاب الترغيب والترهيب، وقال: قال ابن الجوزي في العلل المتناهية: فيه مجاهيل(١٣).

كما استدلوا بحديث: «من صام ثلاثة أيام من رجب كتب الله له صيام شهر، ومن صام سبعة أيام أغلق عنه سبعة أبواب من النار».

وهو حديث موضوع ذكره ابن الجوزي في الموضوعات وغيره(١٤).

قال ابن قدامة: «ويكره إفراد رجب بالصوم». قال أحمد: وإن صامه رجل أفطر فيه يومًا أو أيامًا بقدر ما لا يصومه كُلَّه، ووجه ذلك ما روى أحمد بإسناده عن خَرَشَةَ بن الْحُرِّ. قال: رأيت عمر يضرب أكُفَّ المترجِّبين، حتى يضعوها في الطعام ويقول: كلوا، فإنما هو شهر كانت تعظمه الجاهلية.

وبإسناده عن ابن عمر أنه كان إذا رأى الناس وما يعدون لرجب، كرهه وقال: صوموا منه وأفطروا»(١٥).

ومعنى ذلك أنه لا يفرد ولا يخص بصوم، قال ابن القيم: «كان ﷺ يصوم حتى يقال: لا يفطر، ويفطر حتى يقال: لا يصوم، وما استكمل صيام شهر غير رمضان، وما كان يصوم في شهر أكثر مما يصوم في شعبان، ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه، ولم يصم الأشهر الثلاثة سردًا كما يفعله بعض الناس اليوم، ولا صام رجبًا قط، ولا استحب صيامه، بل رُوي عنه النهي عن صيامه»(١٦).

وقال ابن رجب: «وأما الصيام فلم يصح في فضل صوم رجب بخصوصه شيء عن النبي ﷺ ولا عن أصحابه»(١٧).

وقال الطرطوشي: «يكره صيام رجب على ثلاثة أوجه: أحدها: إذا خصه المسلمون بالصوم في كل عام، حسب العوام ومن لا معرفة له بالشريعة مع ظهور صيامه أنه فرض كرمضان، الثاني: أو أنه سنة ثابتة خصه رسول الله ﷺ كالسنن الراتبة، الثالث: أو أن الصوم فيه مخصوص بفضل ثواب على سائر الشهور، جاء مجرى صوم عاشوراء وفضل آخر الليل على أوله في الصلاة، فيكون من باب الفضائل لا من باب السنن والفرائض، ولو كان من باب الفضائل لسنه ﷺ أو فعله ولو مرة في العمر كما فعل في صوم يوم عاشوراء، وفي الثلث الغابر من الليل، ولما لم يفعل بطل كونه مخصوصًا بالفضيلة، ولا هو فرض ولا سنة باتفاق، فلم يبق لتخصيصه بالصيام وجه، فكره صيامه والدوام عليه، حذرًا من أن يلحق بالفرائض والسنن الراتبة عند العوام»(١٨).

وبناءً على ما تقدم أقول: إن تخصيص شهر رجب بالصيام بدعة؛ لأن النبي ﷺ لم يأمر به ولم يفعله، ولا خلفاؤه الراشدون وأئمة السلف الصالحون، وما ورد في فضل صيامه من أحاديث دائرة بين الضعف والوضع، وما ثبت في الصحيح يخالفها كحديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما رأيت رسول الله ﷺ يتحرى صيام يوم فضَّله على غيره إلا هذا اليوم يوم عاشوراء، وهذا الشهر - يعني شهر رمضان»(١٩).

تخصيص شهر رجب بأي نوع من الصيام بدعة لأنه لم يرد في ذلك أثر إلا ضعيف أو موضوع والسلف الصالح كانوا على ذلك

ثالثًا: العمرة في رجب

روى البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن رسول

الله ﷺ اعتمر أربع عمرات إحداهن في رجب، فسمعت ذلك أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فقالت: «يرحم الله أبا عبد الرحمن، ما اعتمر عمرة إلا وهو شاهده، وما اعتمر في رجب قط»(٢٠).

وقد استحب البعض الاعتمار في شهر رجب لفعل بعض الصحابة ذلك، ولا دليل فيه ؛ لأن فعلهم ليس بقصد تخصيص شهر رجب بالعمرة، وإنما يفعلون طاعة لله تفعل على مدار العام، ولو كان لتخصيص شهر رجب بالعمرة فضل أو مزية لذكرته عائشة رضي الله عنها عندما أنكرت على ابن عمر قوله في أن النبي ﷺ اعتمر في رجب، وتخصيص رجب بالعمرة مما لا أصل له في السنة.

وأختم هذا المقال بكلام جميل لأبي شامة رحمه الله قال فيه: «ولا ينبغي تخصيص العبادات بأوقات لم يخصها بها الشرع، بل يكون جميع أفعال البر مرسلة في جميع الأزمان ليس لبعضها على بعض فضل، إلا ما فضله الشرع وخصه بنوع من العبادة، فإن كان الشرع اختص بتلك الفضيلة تلك العبادة دون غيرها، كصوم يوم عرفة وعاشوراء، والصلاة في جوف الليل، والعمرة في رمضان، ومن الأزمان ما جعله الشرع مفضلاً فيه جميع أعمال البر كعشر ذي الحجة، وليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، أي العمل فيها أفضل من العمل في ألف شهر ليس فيها ليلة القدر، فمثل ذلك يكون أي عمل من أعمال البر حصل فيها، كان له الفضل على نظيره فيها في زمن آخر»(٢١).

وهذا كلام في غاية النفاسة، ويفيد أنه ليس لأحد أن يخصص زمنًا أو مكانًا لعبادة مًّا لم يأت فيه نص عن الشارع، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

الهوامش:

١- البخاري، كتاب التفسير، سورة براءة، باب ٨ ح٨/٣٢٤، ومسلم كتاب القسامة باب ٩ ح٣/١٣٠٥.
٢- لسان العرب لابن منظور ح١/٤١١.
٣- انظر لطائف المعارف لابن رجب ص١٧١، ١٧٢.
٤- شرح النووي على مسلم ح١١/١٦٨.
٥- النهاية في غريب الحديث والأثر ح٢/١٩٧.
٦- غريب الحديث ١/١٩٥، ١٩٦.
٧- سنن أبي داود، كتاب الضحايا، باب في العتيرة ٨/٣٣ مع عون المعبود.
٨- لسان العرب ٤/٥٣٧.
٩- البخاري كتاب العقيقة باب ٣ ح٩/٥٩٦، ومسلم كتاب الأضاحي، باب ٦/١٥٦٤.
١٠- أخرجه أحمد في مسنده ٥/٧٦، وأبو داود في سننه كتاب الأضاحي، باب ٢٠، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن أبي داود ٢/٥٤٥.
١١- فتاوى ورسائل الشيخ محمد بن إبراهيم ٦/١٦٥، ١٦٦.
١٢- لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف ص١٧٣.
١٣- انظر تبيين العجب بما ورد في شهر رجب لابن حجر ص٩-١١، والعلل المتناهية لابن الجوزي ٢/٦٥.
١٤- انظر الموضوعات لابن الجوزي ٢/٢٠٦، واللآلي المصنوعة للسيوطي ٢/١١٥.
١٥- المغني لابن قدامة ٤/٤٢٩.
١٦- زاد المعاد في هدي خير العباد ٢/٦٤.
١٧- لطائف المعارف ص١٧٤.
١٨- الحوادث والبدع للطرطوشي ص١٣٠، ١٣١.
١٩- أخرجه البخاري في كتاب الصوم باب ٦٩ ج٤/٢٤٥، ومسلم كتاب الصيام ٢/٧٩٧.
٢٠ البخاري كتاب العمرة باب٣، ٣/٥٩٩.
٢١- الباعث على إنكار البدع والحوادث لأبي شامة ص٤٨.

«ردت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها على عبد الله بن عمر رضي الله عنهما في قوله: «إن النبي ﷺ اعتمر أربع عمرات إحداهن في رجب» بقولها يرحم الله أبا عبد الرحمن وما اعتمر النبي ﷺ إلا وهو شاهد وما اعتمر في رجب قط»

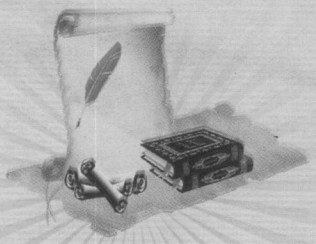

افتتاحية العدد

كل بدعة ضلالة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فمن تمام نعمة الله على أهل الإيمان أن أكمل لهم الدين ورضي لهم الإسلام، قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا» [المائدة: ٣]، وهذه الآية نزلت في يوم عرفة في الحجة التي حجها رسول الله ﷺ، وقد نصّ بعض أهل العلم على أن الله لم ينزل شيئًا من الفرائض، ولا تحليل شيء ولا تحريمه بعد هذه الآية، وأن النبي ﷺ لم يعش بعد نزولها إلا إحدى وثمانين ليلة.

وقد روى ابن جرير أن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال في هذه الآية: «أخبر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أنه أكمل لهم الإيمان فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يسخطه أبدًا»(١).

ويقول ابن حجر في تعليقه على الآية: «وإذا كان قد كمل فلا تكون الزيادة فيه إلا نقصانًا في المعنى مثل زيادة أصبع في اليد، فإنها تنقص قيمة العبد الذي يقع به ذلك»(٢).

ويناقش القاسمي - رحمه الله - الذين يستخدمون الرأي في الدين بعد هذا البيان والكمال فيقول: «جاءت نصوص الكتاب العزيز بإكمال الدين، وبما يفيد هذا المعنى ويصحح دلالته، ويؤيد برهانه، ويكفي في دفع الرأي وأنه ليس من الدين؛ قول الله تعالى هذا، فإنه إذا كان قد أكمل دينه قبل أن يقبض إليه نبيه ﷺ، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه ؟ لأنه إن كان من الدين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه رد للقرآن، وإن لم يكن من الدين فأي فائدة في الاشتغال بما ليس منه؟ وما ليس منه فهو ردّ بنص السنة المطهرة، كما ثبت في الصحيح، وهذه حجة قاهرة ودليل باهر لا يمكن أهل الرأي أن يدفعوه أبدًا، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به آنافهم، وتدحض به حجتهم، فقد أخبرنا الله في كتابه أنه أكمل دينه ولم يمت رسول الله ﷺ إلا بعد أن أخبرنا بهذا الخبر عن الله عز وجل، فمن جاء بشيء من عند نفسه وزعم أنه من ديننا قلنا له: إن الله أصدق منك: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلاً». اذهب لا حاجة لنا في رأيك، وليت المقلدة فهموا هذه الآية حق الفهم حتى يستريحوا ويريحوا»(٣).

ولقد أدرك سلفنا الصالح ومن تبعهم بإحسان هذه الحقيقة فوقفوا عند حدود النصوص ولم يتجاوزوها، بل حذروا من الابتداع في الدين، غير أن أهل الأهواء انحرفوا عن الصراط المستقيم، واستحسنوا بعقولهم أشياء لم يأت بها النبي الأمين ﷺ، وزعموا بذلك أنهم أهدى سبيلاً وأقوم قيلاً، وما أدرك هؤلاء أنهم بهذا يستدركون على الدين ويطعنون في المبعوث رحمة للعالمين ﷺ.

يقول الإمام البربهاري - رحمه الله -: «واعلم أن من قال في دين الله برأيه وقياسه وتأوله من غير حجة من السنة والجماعة، فقد قال على الله ما لا يعلم، ومن قال على الله ما لا يعلم فهو من المتكلفين، والحق ما جاء به رسول الله ﷺ»(٤).

وقال ابن حجر في المناظرة التي جرت بين أبي بكر وعمر - رضي الله عنهما - في قتال مانعي الزكاة: «وفي القصة دليل على

أن السنة قد تخفى على بعض أكابر الصحابة ويطلع عليها آحادهم، ولهذا لا يلتفت إلى الآراء - ولو قويت - مع وجود سنة تخالفها، ولا يقال: كيف خفي ذا على فلان ؟ والله الموفق»(٥).

ويقول الشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله -: «كل من أحدث في التعبد كالذكر والدعاء المقيد ما ليس منه تسننا فقد أثم من جهات أربع: هجر المشروع، والاستدراك على الشرع، واستحباب ما لم يشرع، وإيهام العامة بمشروعيته، فليحذر العبد القانت لربه من إحداث ما لم يشرع، ففي المشروع كل خير، وخيرة الله للعبد خير من اختيار العبد لنفسه»(٦).

ومع كل ذلك نجد أن المبتدعة لا يكفون عن نشر بدعهم والدعوة إليها من حين لآخر، وكلما خبت بدعة جدَّ الشيطان لها أتباعًا، وقد كثر هؤلاء في هذا الزمان، ومن حيلهم أنهم يجندون لنشر بدعهم من لا علم عندهم بأصول وقواعد الشريعة، ويزعمون بعد ذلك خدمة الدين والحرص على المسلمين، ولم يفقهوا أن كل بدعة ضلالة بخبر المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى ﷺ، وراحوا يتلمسون لبدعهم من أقوال أئمة أهل العلم ما يؤيد طريقتهم، وهذا هو التلبيس والتدليس، وأمثال هؤلاء لم يعرفوا منهج العلماء، ولم يميزوا بين الصحيح وغيره، بل لم يعظموا النصوص الشرعية، وقدموا عليها أقوال مشايخهم، والواجب على المسلم أن يقدم كلام الله وكلام رسوله ﷺ على قول كل أحد كائنًا من كان. قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الحجرات: ١].

وعلماء الأمة الربانيون نهوا عن تقليدهم بغير دليل. قال الإمام الحافظ ابن كثير في شرحه لقوله تعالى: «حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى» [البقرة: ٢٣٨]، «وقد ثبتت السنة بأنها العصر، فتعين المصير إليها، وقد روى الإمام أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي - رحمه الله - في كتاب فضائل الشافعي - رحمه الله -: حدثنا أبي، سمعت حرملة بن يحيى التجيبي يقول: قال الشافعي: كل ما قلت فكان عن النبي ﷺ خلاف قولي مما يصح فحديث النبي ﷺ أولى، ولا تقلدوني، وكذا الربيع والزعفراني، وأحمد بن حنبل عن الشافعي.

وقال موسى أبو الوليد بن أبي الجارود عن الشافعي: «إذا صح الحديث وقلت قولاً فأنا راجع عن قولي وقائل بذلك».

ثم عقب ابن كثير على ذلك بقوله: «فهذا من سيادته وأمانته - أي الشافعي -، وهذا نَفَسُ إخوانه من الأئمة - رحمهم الله ورضي الله عنهم جميعًا، ومن هنا قطع الإمام الماوردي بأن مذهب الشافعي - رحمه الله - أن الصلاة الوسطى هي صلاة العصر، وإن كان قد نص في الجديد وغيره أنها الصبح، لصحة الأحاديث أنها في العصر، وقد وافقه على ذلك جماعة من محدثي المذهب ولله الحمد والمنة»(٧).

وقد ذاع واشتهر في أوساط الأمة قول الإمام مالك - رحمه الله - : «كل يؤخذ من قوله ويُرد عليه إلا رسول الله ﷺ».

وقال ابن العربي المالكي: «قال المالكية: ليس ذلك - أي الصلاة على الغائب - إلا لمحمد ﷺ. قلنا: وما عمل به محمد ﷺ عملتْ به أمته، يعني لأن الأصل عدم الخصوصية، قالوا: طويت له الأرض وأحضرت الجنازة بين يديه، قلنا: إن ربنا عليه لقادر، وإن نبينا ﷺ

من أحدث في التعبد كالذكر والدعاء المقيد ما ليس منه تسنناً فقد أثم من جهات أربع: هجر المشروع، والاستدراك على الشرع، واستحباب مالم يشرع، وإيهام العامة بمشروعيته

لأهل لذلك، ولكن لا تقولوا إلا ما رويتم، ولا تخترعوا حديثًا من عند أنفسكم، ولا تحدثوا إلا بالثابتات ودعوا الضعاف، فإنها سبيل إتلاف إلى ما ليس له تلاف»(٨).

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «تجريد المتابعة أن لا تقدم على ما جاء به قول أحد ولا رأيه كائنًا من كان، بل تنظر في صحة الحديث أولاً، فإذا صح لك نظرت في معناه ثانيًا، فإذا تبين لك لم تعدل عنه، ولو خالفك من بين المشرق والمغرب، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبيها ﷺ، بل لا بد أن يكون في الأمة من قال به ولو لم تعلمه، فلا تجعل جهلك بالقائل به حجة على الله ورسوله، بل اذهب إلى النص ولا تضعف، واعلم أنه قد قال به قائل قطعًا ولكن لم يصل إليك، وهذا مع حفظه مراتب العلماء وموالاتهم واعتقاد حرمتهم وأمانتهم واجتهادهم في حفظ الدين وضبطه، فهم دائرون بين الأجر والأجرين والمغفرة، ولكن لا يوجب هذا إهدار النصوص وتقديم قول الواحد منهم عليها..، فمن عرض أقوال العلماء على النصوص ووزنها بها وخالف منها ما خالف النص لم يهدر أقوالهم ولم يهضم جانبهم، بل اقتدى بهم، فإنهم كلهم أمروا بذلك، فمتبعهم حقًا من امتثل ما أوصوا به، لا من خالفهم، فخلافهم في القول الذي جاء به النص أسهل من مخالفتهم في القاعدة الكلية التي أمروا بها ودعوا إليها من تقديم النص على أقوالهم»(٩).

تجريد المتابعة أن لا تقدم على ما جاء به الرسول ﷺ قول أحد ولا رأيه كائناً من كان، ومعاذ الله أن تتفق الأمة على مخالفة ما جاء به نبينا ﷺ

ولكلام ابن القيم ومن سبقه قيمة علمية وميزان دقيق، فهو دعوة إلى احترام أهل العلم والاجتهاد، ولكن لا يتابعون في مخالفة بعضهم للنصوص إذا ثبتت، وعدم متابعتهم عند مخالفتهم للنصوص هو في الحقيقة متابعة لهم في اعتقادهم تقديم كلام الله وكلام رسوله ﷺ على كلامهم، وقد سبق ذكر بعض أقوالهم.

وبعد هذه النقول القيمة عن الأئمة أذكر بعض ما قاله أهل العلم في تعريف البدعة:

مدلول البدعة لغة واصطلاحًا

البدعة في اللغة: يقال: بدَع الشيءَ يَبْدَعُه بَدْعًا وابتدعه: أنشأه وبدأه، والبدعة: الحدث، وما ابتدع من الدين بعد الإكمال، وبدَّعه - بالتشديد - نسبه إلى البدعة، والبديع: المحدث العجيب وأبدعتُ الشيء: اخترعته لا على مثال(١٠).

وقال الخليل بن أحمد: «والبدعة: اسم ما ابتدع من الدين وغيره، وتقول: لقد جئت بأمر بديع، أي: مبتدع عجيب، وابتدعت: جئت بأمر مختلف لم يُعرف»(١١).

ويظهر من هذه التعريفات أن البدعة في اللغة: الشيء المخترع المحدث على غير مثال سابق، أما تعريف البدعة اصطلاحًا، فقد عرفها كثير من أهل العلم، وقد فتحت بعض هذه التعريفات بابًا للمبتدعة القائلين بالبدعة الحسنة والبدعة السيئة، وذلك بسبب سوء فهم منهم للتعريف، وسأشير إلى ذلك في حينه - إن شاء الله تعالى -، وسأبدأ بذكر أجمع تعريف للبدعة وقفت عليه، وهو تعريف الإمام الأصولي المحقق أبي إسحاق الشاطبي - رحمه الله -، وفيه يقول: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه»(١٢).

وقد شرح الشاطبي هذا التعريف بكلام حسن جميل يحسن إيراده هنا: «فالطريقة، والطريق والسبيل والسنة هي بمعنى واحد،

وهو رسم للسلوك عليه، وإنما قيدت بالدين، لأنها فيه تخترع وإليه يضيفها صاحبها، وأيضًا فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسم بدعة كإحداث الصنائع والبلدان التي لا عهد بها فيما تقدم».يعني لا يقال: بدعة حسنة.

ومعنى «تضاهي الشرعية»: يعني أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها من أوجه متعددة:

منها: وضع الحدود كالناذر للصيام قائمًا لا يقعد، ضاحيًا لا يستظل، والاختصاء في الانقطاع للعبادة، والاقتصار من المأكل والملبس على صنف دون صنف من غير علة.

ومنها: التزام الكيفيات والهيئات المعينة، كالذكر بهيئة الاجتماع على صوت واحد، واتخاذ مولد النبي ﷺ عيدًا، وما أشبه ذلك.

ومنها: التزام العبادات المعينة في أوقات معينة لم يوجد لها ذلك التعيين في الشريعة، كالتزام صيام يوم النصف من شعبان وقيام ليلته.

وقوله في التعريف: «يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله تعالى» وهذا القيد هو تمام معنى البدعة ؛ إذ هو المقصود بتشريعها، وذلك أن أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع للعبادة والترغيب في ذلك ؛ لأن الله تعالى يقول: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦]، فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى، ولم يتبين له أن ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كاف(١٣)، وقد تبين بهذا القيد أيضًا أن البدع لا تدخل في العادات إلا إذا كانت هذه العادات متعارضة مع أوامر الشرع، وقد عبَّر عن ذلك الإمام ابن تيمية بقوله: «والأصل في العادات أن لا يحظر منها إلا ما حظره الله»(١٤).

وهذه عبارة دقيقة منه - رحمه الله - تدفع كثيرًا من الإشكالات، وقد ذكر الإمام الشاطبي - رحمه الله - نحو هذا الكلام فقال: «... وأيضًا إن عدوا كل مُحدث العادات بدعة، فليعدوا جميع ما لم يكن فيهم من المآكل والمشارب والملابس والكلام والمسائل النازلة التي لا عهد بها في الزمان الأول بدعًا، وهذا شنيع، فإن من العوائد ما تختلف بحسب الأزمان والأمكنة، نعم: لا بد من المحافظة في العوائد المختلفة على الحدود الشرعية والقوانين الجارية على مقتضى الكلام والسنة»(١٥). وإلى اللقاء في الحلقة القادمة - إن شاء الله - والسلام عليكم ورحمة الله.

البدعة هي: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية يقصد بها بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى

الهوامش:

١- تفسير ابن جرير ج٦ / ٥١.
٢- فتح الباري ج١٣ / ٣٥٢.
٣- محاسن التأويل المعروف بتفسير القاسمي ج٦ / ١٨٣٥، ١٨٣٦.
٤- شرح السنة للبربهاري ص٦٠.
٥- فتح الباري ج١ / ٧٦.
٦- تصحيح الدعاء ص٤٢.
٧- تفسير ابن كثير ج١ / ٤١١.
٨- فتح الباري لابن حجر ج٣ / ١٨٩.
٩- الروح لابن القيم ص٢٦٤.
١٠- لسان العرب لابن منظور ج٨ / ٦.
١١- كتاب العين ج٢ / ٥٤.
١٢- الاعتصام للشاطبي ص٢٨.
١٣- المرجع السابق ص٣٠.
١٤- اقتضاء الصراط المستقيم ج٢ / ٥٨٢.
١٥- الاعتصام للشاطبي ص٣٢٧، ٣٢٨.

افتتاحية العدد

قيام الليل في رمضان من سمات الأبرار

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله ولي المؤمنين، والصلاة والسلام على من بعثه ربه رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيله واقتفى أثره إلى يوم الدين... وبعد:

فإن الرغبة قائمة في أن أواصل حديثي عن البدع، ولكني رأيت أن أتحدث في هذا اللقاء عن أمر يتعلق بهذا الشهر الكريم، على وعد بأن أعود في اللقاء القادم - إن شاء الله - لمواصلة الحديث عن البدعة.

وبداية فإني أهنئ عموم أهل الإيمان بالشهر المبارك الكريم الذي يتفضل الله فيه على عباده بألوان من البر والفضل والخير والإحسان، وعلى المسلم الناصح لنفسه، المحب للقاء ربه أن يسعى للظفر بمطلوبه في هذه الأيام الفاضلة والليالي التي هي بالخير عامرة.

ومن الملاحظ أن كثيرًا من الناس يصومون، والكثير أيضًا عن الصيام يتحدثون، ولكن الذي يغفل عنه البعض أو يستثقله القيام لرب العالمين في ليالي الشهر الكريم، وقيام الليل عمومًا مُرغَّبٌ فيه في القرآن الكريم وسنة النبي الأمين ﷺ، قال تعالى: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (١٦) فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ» [السجدة: ١٦، ١٧]، وقد ذكر الطبري - رحمه الله - بعض الأقوال المسندة في معنى هذه الآية، ثم عقب عليها بقوله: «والصواب من القول في ذلك أن يقال: إن الله وصف هؤلاء القوم بأن جنوبهم تنبو عن مضاجعهم شُغْلاً منهم بدعاء ربهم وعبادته خوفًا وطمعًا وذلك بنُبُوِّ جنوبهم عن المضاجع ليلاً، لأن المعروف من وصف الواصف رجلاً بأن جنبه نبا عن مضجعه، إنما هو وصف منه له بأنه جفا عن النوم في وقت منام الناس المعروف، وذلك الليل دون النهار، وكذلك تصف العرب الرجل إذا وصفته بذلك، يدل على ذلك قول عبد الله بن رواحة الأنصاري - رضي الله عنه - في صفة نبي الله ﷺ:

يبيت يجافي جنبه عن فراشه
إذا استثقلت بالمشركين المضاجع

فإذا كان ذلك كذلك، وكان الله تعالى ذِكْرُهُ لم يخصص في وصفه هؤلاء القوم بالذي وصفهم به من جفاء جنوبهم عن مضاجعهم من أحوال الليل وأوقاته حالاً ووقتًا دون حال ووقت كان واجبًا أن يكون ذلك على كل آناء الليل وأوقاته.. وإن كان كذلك فإن توجيه الكلام إلى أنه مَعْنِيٌّ به قيام الليل أعجب إليَّ، لأن ذلك أظهر معانيه والأغلب على ظاهر الكلام، وبه جاء الخبر عن رسول الله ﷺ، وذلك ما حدثنا به ابن المثنى قال: ثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة عن الحكم قال: سمعت عروة بن الزبير يحدِّث عن معاذ بن جبل رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال له: ألا أدلك على أبواب الخير: الصوم جنة والصدقة تكفر الخطيئة، وقيام العبد في جوف الليل، وتلا هذه الآية: «تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ»(١). اهـ.

وقال تعالى في وصف عباده المتقين: «كَانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ مَا يَهْجَعُونَ (١٧) وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» [الذاريات: ١٧، ١٨]، والهجوع: النوم ليلاً، يقال: هجع يهجع هجوعًا: نام، وقيل: نام بالليل خاصة(٢).

والآية تدل على فضل قيام الليل وفضل القائمين فيه.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: لم تكن تمضي عليهم ليلة إلا يأخذون منها ولو شيئًا، وقال قتادة عن مطرف بن عبد الله: قلَّ ليلة تأتي عليهم لا يصلون فيها لله عز وجل إما من أولها وإما من أوسطها.

وقال الحسن البصري: كابدوا قيام الليل، فلا ينامون من الليل إلا أقله، ونشطوا فمدوا إلى السحر، حتى كان الاستغفار بسحر، وقال كثير من المفسرين في قوله تعالى إخبارًا عن يعقوب أنه قال لبنيه: «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي» قالوا: أخرهم إلى وقت السحر(٣).

وقال القاسمي - رحمه الله -: «في هذه الجملة الكريمة مبالغات في وصف هؤلاء بقلة النوم، وترك الاستراحة، ولذلك ذكر القليل».

وبالجملة ففي الآية استحباب قيام الليل، وذم نومه كله، والأحاديث في ذلك كثيرة شهيرة.

«وَبِالأَسْحَارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» قال القاضي: أي أنهم مع قلة هجوعهم، وكثرة تهجدهم، إذا أسحروا أخذوا في الاستغفار، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم.

قال الرازي: في الآية إشارة إلى أنهم كانوا يتهجدون ويجتهدون، ثم يريدون أن يكون عملهم أكثر من ذلك، وأخلص منه، فيستغفرون من التقصير، وهذا من سيرة الكريم، يأتي بأبلغ وجوه الكرم ويستقله، ويعتذر عن التقصير، واللئيم يأتي بالقليل ويستكثره، ويمن به(٤).

وقد حثَّ النبي ﷺ على قيام الليل وبين فضله في أحاديث كثيرة، وعقد البخاري - رحمه الله - في الصحيح بابًا بعنوان: «باب تحريض النبي ﷺ على قيام الليل والنوافل من غير إيجاب»، ثم ساق حديث أم سلمة أن النبي ﷺ استيقظ ليلة فقال: «سبحان الله، ماذا أنزل الليلة من الفتن، ماذا أنزل من الخزائن، من يوقظ صواحب الحجرات؟ يا ربَّ كاسية في الدنيا عارية في الآخرة»(٥).

وقال الحافظ في الفتح في شرحه للحديث: «قال ابن رشيد: كأن البخاري فهم أن المراد بالإيقاظ الإيقاظ للصلاة لا لمجرد الإخبار بما أنزل، لأنه لو كان لمجرد الإخبار لكان يمكن تأخيره إلى النهار، لأنه لا يفوت».

ثم ذكر أقوالاً أخرى، ولكنه رجح القول الأول فقال: «وما نسبه إلى فهم البخاري أولاً هو المعتمد، فإنه وقع في رواية شعيب عن الزهري عند المصنف في الأدب وغيره في هذا الحديث: «من يوقظ صواحب الحجر» يريد أزواجه حتى يصلين، فظهرت مطابقة الحديث للترجمة، وأن فيه التحريض على صلاة الليل»(٦).

كما ساق البخاري تحت الباب السابق حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه وفيه: «أن رسول الله ﷺ - طرقه وفاطمة بنت النبي - عليه السلام - ليلة فقال: ألا تصليان؟ فقلت: يا رسول الله، أنفسنا بيد الله، فإذا شاء أن يبعثنا بعثنا، فانصرف حين قلت ذلك ولم يرجع إليَّ شيئًا، ثم سمعته وهو مُوَلٍّ يضرب فخذه وهو يقول: «وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلاً»(٧).

قال ابن حجر في شرحه: «قال ابن بطال: فيه فضيلة صلاة الليل وإيقاظ النائمين من الأهل والقرابة لذلك، ووقع في رواية حكيم بن حكيم المذكورة: «ودخل النبي ﷺ عليَّ وعلى فاطمة من الليل فأيقظنا للصلاة، ثم رجع إلى بيته فصلى من الليل فلم يسمع لنا حسًا، فرجع

«قال الطبري: لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون امتثالاً لقوله تعالى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ»»

إلينا فأيقظنا». الحديث.

قال الطبري: «لولا ما علم النبي ﷺ من عظم فضل الصلاة في الليل ما كان يزعج ابنته وابن عمه في وقت جعله الله لخلقه سكنًا، لكنه اختار لهما إحراز تلك الفضيلة على الدعة والسكون امتثالاً لقوله تعالى: «وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ»(٨).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: «كان الرجل في حياة رسول الله ﷺ إذا رأى رؤيا قصها على رسول الله ﷺ، فتمنيت أن أرى رؤيا فأقصها على رسول الله ﷺ، وكنت غلامًا شابًا، وكنت أنام في المسجد على عهد رسول الله ﷺ، فرأيت في النوم كأن ملكين أخذاني فنصباني إلى النار(٩)، فإذا هي مطويَّة كطيِّ البئر، وإذا لها قرنان(١٠)، وإذا فيها أناس قد عرفتهم، فجعلت أقول: أعوذ بالله من النار، قال: فلقينا مَلَكٌ آخر، فقال لي: لم ترع، فقصصتها على حفصة، فقصتها حفصة على رسول الله ﷺ فقال: نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل. فكان لا ينام من الليل إلا قليلاً(١١).

قال الحافظ ابن حجر: «وشاهد الترجمة قوله: «نعم الرجل عبد الله لو كان يصلي من الليل»، ومقتضاه: أن من كان يصلي من الليل يوصف بكونه نعم الرجل، وفي رواية نافع عن ابن عمر في التعبير: «إن عبد الله رجل صالح لو كان يصلي من الليل»، وهو أبين في المقصود.

وقال القرطبي: إنما فسر الشارع من رؤيا عبد الله ما هو ممدوح، لأنه عرض على النار ثم عوفي منها، وقيل له: لا روع عليك وذلك لصلاحه، غير أنه لم يكن يقوم من الليل، فحصل لعبد الله من ذلك تنبيه على أن قيام الليل مما يتقى به النار والدنو منها، فلذلك لم يترك قيام الليل بعد ذلك، وأشار المهلب إلى أن السر في ذلك كون عبد الله كان ينام في المسجد ومن حق المسجد أن يتعبد فيه، فنبه على ذلك بالتخويف بالنار، وفي هذا الحديث أن قيام الليل يدفع العذاب»(١٢).

وعن عبد الله بن سلام - رضي الله عنه - قال: لما قدم رسول الله ﷺ المدينة انجفل(١٣) الناس إليه، وقيل: قدم رسول الله ﷺ فجئت في الناس لأنظر إليه، فلما استبنت وجه رسول الله ﷺ، عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب، فكان أول شيء تكلم به أن قال: «يا أيها الناس: أفشوا السلام، وأطعموا الطعام، وصلوا بالليل والناس نيام، تدخلوا الجنة بسلام»(١٤).

وهذا الحديث موافق لقوله تعالى: «وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»، فإفشاء السلام إشارة إلى قوله: «وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا»، وإطعام الطعام إلى قوله: «وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا»، وصلاة الليل إلى قوله: «وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجُدًا وَقِيَامًا»، وقوله: تدخلوا الجنة موافق لقوله: «أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا»، وكان النبي ﷺ يقوم الليل حتى تورمت قدماه، وقد وجهه ربه إلى ذلك وأشار إلى أنه يرتفع به عند ربه درجات، قال تعالى: «وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَكَ عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَحْمُودًا» [الإسراء: ٧٩]، وإذا كان التهجد والقيام بهذه المثابة، وقد رُغِّب فيه في سائر العام، فهو في رمضان أعظم وثوابه أعلى وأرفع.

فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «سمعت رسول الله ﷺ يقول لرمضان: من قامه إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه»(١٥).

ومعنى قوله: «يقول لرمضان»: أي لفضل رمضان، أو لأجل رمضان، ومعنى: «إيمانًا» أي: تصديقًا بوعد الله بالثواب عليه، «واحتسابًا» أي: طلبًا للأجر، وقوله: «غفر له ما تقدم من ذنبه» ظاهره يتناول الصغائر والكبائر، وبه جزم ابن المنذر، وقال النووي: المعروف أنه يختص بالصغائر، وبه جزم إمام الحرمين، وعزاه عياض لأهل السنة(١٦).

وقد صلى النبي ﷺ صلاة التراويح بأصحابه ثلاث ليال، وقد أخبر عروة أن عائشة - رضي الله عنها - أخبرته أن رسول الله ﷺ خرج ليلة من جوف الليل فصلى في المسجد وصلى رجال بصلاته، فأصبح الناس فتحدثوا، فاجتمع أكثر منهم، فصلى فصلوا معه، فأصبح الناس فتحدثوا فكثر أهل المسجد من الليلة الثالثة، فخرج رسول الله ﷺ، فَصُلِّيَ بصلاته، فلما كانت الليلة الرابعة عجز المسجد عن أهله حتى خرج لصلاة الصبح، فلما قضى الفجر أقبل على الناس فتشهد، ثم قال: أما بعد فإنه لم يخف عليَّ مكانكم ولكني خشيت أن تفرض عليكم فتعجزوا عنها، فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك»(١٧).

والمراد بهذه الصلاة صلاة التراويح في رمضان كما ورد في حديث عائشة عند البخاري من قولها: «وذلك في رمضان»(١٨).

وقد جمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الناس على إمام واحد في رمضان، وقد جاء ذلك في الصحاح والسنن والمسانيد، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: كان رسول الله ﷺ يرغب في قيام رمضان من غير أن يأمرهم فيه بعزيمة فيقول: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه».

فتوفي رسول الله ﷺ والأمر على ذلك، ثم كان الأمر على ذلك في خلافة أبي بكر وصدرًا من خلافة عمر»(١٩).

وفي هذا ترغيب عظيم من النبي ﷺ في القيام بهذه العبادة العظيمة، وبيان أنها سبب في مغفرة الذنوب، وإلى جانب ذلك فإن من قام لله في رمضان كان من الصديقين والشهداء، وقد عقد ابن خزيمة في صحيحه بابًا قال فيه: «باب في فضل قيام رمضان واستحقاق قائمه اسم الصديقين والشهداء إذا جمع مع قيامه رمضان صيام نهاره وكان مقيمًا للصلوات الخمس مؤديًا للزكاة، شاهدًا لله بالوحدانية، مقرًا للنبي ﷺ بالرسالة». ثم ساق بسنده حديث عمرو بن مرة

الجهني وفيه يقول: جاء رسول الله ﷺ رجل من قضاعة، فقال له: يا رسول الله، أرأيت إن شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت الشهر، وقمت رمضان، وآتيت الزكاة، فقال النبي ﷺ: «من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء»(٢٠).

ولذلك أقول لعموم أهل الإيمان: أقبلوا على الله في رمضان وأخلصوا لله الصيام والقيام، وتأسوا في ذلك بسلفكم الصالحين، وأطيلوا القيام والقراءة فيه، فعن السائب بن يزيد أنه قال: أمر عمر بن الخطاب أبي بن كعب وتميماً الداري رضي الله عنهم أن يقوما للناس بإحدى عشرة ركعة، قال: وقد كان القارئ يقرأ بالمئين، حتى كنا نعتمد على العصى من طول القيام، وما كنا ننصرف إلا في فروع الفجر»(٢١).

كما روى مالك عن عبد الله بن أبي بكر قال: سمعت أبي يقول: كنا ننصرف في رمضان فنستعجل الخدم بالطعام مخافة الفجر»(٢٢).

وكان النبي ﷺ يقوم لله في رمضان بإحدى عشرة ركعة كما جاء عن أبي سلمة بن عبد الرحمن أنه سأل عائشة رضي الله عنها: كيف كانت صلاة رسول الله ﷺ في رمضان ؟ فقالت: ما كان يزيد في رمضان ولا في غيره على إحدى عشرة ركعة، يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي أربعاً فلا تسأل عن حسنهن وطولهن، ثم يصلي ثلاثاً، فقلت: يا رسول الله، أتنام قبل أن توتر ؟ قال: يا عائشة، إن عيني تنامان ولا ينام قلبي»(٢٣).

قال القرطبي - رحمه الله -: «وظهر لي أن في عدم الزيادة على إحدى عشرة أن التهجد والوتر مختص بصلاة الليل، وفرائض النهار الظهر وهي أربع، والعصر وهي أربع، والمغرب وهي ثلاث وتر النهار، فناسب أن تكون صلاة الليل كصلاة النهار في العدد جملة وتفصيلاً»(٢٤).

وقد وردت كيفيات متعددة عن النبي ﷺ في صلاة الليل، وقد اشتملت كتب السنن على بيانها. قال ابن القيم - رحمه الله-: «وكان قيامه بالليل ووتره أنواعاً»(٢٥).

ثم ذكر هذه الأنواع، ومنها أنه كان ﷺ يفتتح صلاته بركعتين خفيفتين، ثم يصلي إحدى عشرة ركعة، يسلم من كل ركعتين ويوتر بركعة، ومنها: أنه كان يصلي ثمان ركعات، يسلم من كل ركعتين ثم يوتر بخمس سرداً متوالية، لا يجلس في شيء إلا في آخرهن، إلى غير ذلك مما ذكره، وقد كان كثير من الأئمة يزيدون على ما فعله ﷺ، فكان بعضهم يصلي عشرين ركعة ويوتر بثلاث وبعضهم يزيد على ذلك، قال ابن حجر: «ويحتمل أن ذلك الاختلاف بحسب تطويل القراءة وتخفيفها فحيث يطيل القراءة تقل الركعات وبالعكس، وبذلك جزم الداودي وغيره»(٢٦).

قلت: الأمر في ذلك واسع - إن شاء الله -، وقد ورد مثل ذلك عن الشافعي، غير أن فعل النبي ﷺ والالتزام به أولى وأحب، على أن يكون الاتباع في العدد والكيف.

وختاماً أقول: على المؤمن أن يدرك ربه عليه بشهود رمضان، وأن يقوم لله فيه، وأن يواصل القيام على مدار العام، فهو من أفضل القربات، وإن قام حين يبقى ثلث الليل الآخر فهو حسن، حيث تنزل الرحمات، ويقرب رب العباد.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل منا الصيام والقيام وصالح الأعمال، وأن يجعلنا من الصديقين والشهداء.

والحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- تفسير ابن جرير الطبري ٢١ / ٦٤.
٢- انظر لسان العرب لابن منظور ٨ / ٣٦٧.
٣- انظر تفسير ابن كثير ٢ / ٢٩٩، ٣٠٠.
٤- محاسن التأويل المعروف بتفسير القاسمي ١٥ / ٥٥٢٧.
٥- البخاري مع الفتح ٣ / ٩، ١٠.
٦- فتح الباري شرح صحيح البخاري ٣ / ١٠، ١١.
٧- البخاري مع الفتح ٣ / ١٠.
٨- فتح الباري ٣ / ١١.
٩- هذه الرواية جاءت مفسرة في رواية أخرى لابن عمر في البخاري ونصها: «ورأيت كأن اثنين أتياني أرادا أن يذهبا بي إلى النار». انظر صحيح البخاري كتاب التهجد باب ٢١ ٣ / ٣٩، ٤٠.
١٠- هما الخشبتان اللتان عليهما الخطاف، وهي الحديدة التي في جانب البكرة. انظر شرح النووي على مسلم ١٦ / ٣٨.
١١- أخرجه البخاري في كتاب التهجد باب ٢ ج٢ / ٦.
١٢- فتح الباري ٣ / ٧.
١٣- أي ذهبوا مسرعين نحوه. يقال: جفل وأجفل وانجفل. النهاية في غريب الحديث. ١ / ٢٧٩.
١٤- أخرجه ابن ماجه في كتاب إقامة الصلاة باب ١٧٤ جـ١ / ٤٢٣، والدارمي ١ / ٣٤٠، والحاكم ٣ / ١٣، واحمد ٥ / ٤٥١، وصححه الألباني. انظر الصحيحة ٢ / ١٠٩.
١٥- البخاري كتاب صلاة التراويح باب ١ / ج٤ / ٢٥٠.
١٦- فتح الباري ٣ / ٢٥١.
١٧- البخاري، كتاب صلاة التراويح باب ١ ج٤ / ٢٥٠، ٢٥١.
١٨- انظر البخاري كتاب التهجد باب ٦ جـ٤ / ١٠، ومسلم كتاب صلاة المسافرين باب ٢٥ ج١ / ٥٢٤.
١٩- صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين باب ٢٥ جـ١ / ٥٢٣.
٢٠- صحيح ابن خزيمة ج٣ / ٣٤٠ حديث رقم ٢٢١٢.
٢١- رواه مالك في الموطأ، كتاب الصلاة في رمضان، باب ٢ ج١ / ١١٤.
٢٢- المرجع السابق ج١ / ١١٦.
٢٣- أخرجه البخاري في كتاب صلاة التراويح باب ١ ج٤ / ٢٥١، كما رواه في كتاب التهجد.
٢٤- فتح الباري ٣ / ٢١.
٢٥- زاد المعاد في هدي خير العباد ﷺ ١ / ٣٢٩.
٢٦- فتح الباري ٤ / ٢٥٣.

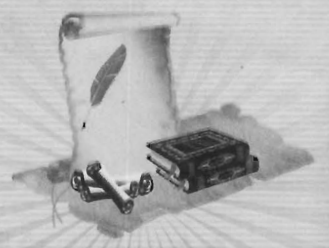

افتتاحية العدد

الدفاع عن أهل الأثر والاتباع

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فلقد تناولت بعض الصحف الكلام عن أنصار السنة ورجالاتها واتهموهم بباطل من القول وزور، وهذا أمر لا يستغرب من أمثال هؤلاء، ولهذا كنت أعرض عن حماقاتهم وافتراءاتهم ممتثلاً قول الكريم الرحمن في أهل الإيمان: «وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ» [القصص: ٥٥]، غير أني رأيت أن أتعرض لهؤلاء عبر صفحات «مجلة التوحيد»؛ لأدرأ عن أهل السنة ما رموهم به من بهتان، وسأقدم بين يدي ذلك نصيحة لكل مسلم أتبعها بتبرئة أنصار السنة مما رماهم به هؤلاء.

فأقول وبالله التوفيق: ذم الله تعالى الكذب في كتابه، كما حذر منه النبي ﷺ في سنته، وهو من صفات اليهود والكافرين وعلامة من علامات المنافقين، قال تعالى: «إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ» [النحل: ١٠٥].

وقال في وصف اليهود: «وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ» [المائدة: ٤١]، وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان»(١).

وقد استدل هرقل عظيم الروم على صحة رسالة النبي ﷺ بأمور منها: أنه لا يكذب، وذلك عندما سأل أبا سفيان قائلاً: هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ فقال أبو سفيان: لا. فقال هرقل: لم يكن يذر الكذب على الناس ويكذب على الله(٢).

والكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار، كما صح بذلك الخبر عن الرسول ﷺ، فعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وما يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا، وإياكم والكذب، فإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور يهدي إلى النار، وما يزال الرجل يكذب ويتحرى الكذب حتى يُكتب عند الله كذابًا»(٣).

فيا أهل العقول السليمة والفطر المستقيمة؛ عليكم بالصدق واحذروا الكذب وكونوا مع من قال الله تعالى فيهم: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ» [التوبة: ١١٩].

ثم أقول لإخواني ممن نسب إليهم شيء من البهتان: تحلوا بالصبر مع بيان الحق بعلم وعدل، وعلى أولي الألباب ألا يصدقوا

هذا البهتان، والواجب على الجميع التحري والتثبت في الأقوال وحسن الظن بإخوانهم.

ومن التهم الملفقة التي ذهب إليها هؤلاء: أن أنصار السنة يتآمرون على الحكام ويكفرونهم، وقد نسبوا ذلك إلى شيخنا العلامة الأصولي المحقق عبد الرزاق عفيفي رحمه الله، الرئيس الأسبق لأنصار السنة، ونائب رئيس اللجنة الدائمة للبحوث والإفتاء بالمملكة العربية السعودية، سابقًا، والشيخ رحمه الله كان من أئمة وعلماء أهل السنة السالكين مسلك السلف الصالح، وليس لمن رماه بذلك حجة أو دليل، وكُتب الشيخ - وهي كثيرة موجودة بين أيدي الناس - ظاهرة لكل طالب علم، وليس فيها شيء من هذا البهتان، وأنصار السنة على مدى تاريخهم الطويل لا يطلقون على مسلم ألفاظ التكفير بما في ذلك الحكام والمسؤولين، وهم يدينون بمعتقد أهل السنة والجماعة، ويرون أن ولي الأمر عليهم طاعة، وفي أعناقهم له بيعة، ولا يخرجون عليهم، ولإقامة الدليل على ذلك سأذكر بعض مواقف علماء أنصار السنة ليعلم الناس من هم أقوم قليلاً وأهدى سبيلاً.

وبداية أشير هنا إلى البيان الصادر من المركز العام للجماعة عقب اغتيال رئيس الجمهورية السابق محمد أنور السادات - رحمه الله تعالى -، وقد جاء في البيان ما يلي: «مع إيماننا الكامل بقضاء الله وقدره، واستهداءً بقيم الإسلام الذي يكفل الأخوة، ويفرض الوحدة ويحقق الأمانة والأمن تستنكر جماعة أنصار السنة المحمدية أشد الاستنكار كل أشكال العنف، وتعلن أن ما ترتب على ذلك من اغتيال الرئيس محمد أنور السادات يمثل خروجًا على أحكام الدين، لأن الله سبحانه أوضح طريق الدعوة إليه وأسلوبها في قوله تعالى: «ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ».

فالإسلام لا يعرف العنف في فرض الرأي، ولا يعرف النزول إلى لغة الرصاص، وإنما يدعو إلى الحوار بالحجة والبرهان المقنع والمواجهة الشريفة، فإذا لم ينته أطراف الخلاف إلى نتيجة فليس لأحد أن يعنف أو يحمل السلاح على الآخر، لقوله ﷺ: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض»(٤).

وإذا ادلهمت الخطوب وزادت الفتن عصم الإسلام الأمة بضرورة التناصح لقوله ﷺ: «الدين النصيحة». قالوا: لمن يا رسول الله ؟ قال: «لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم»(٥).

ولقوله ﷺ: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا: يرضى لكم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله عليكم»(٦).

وجماعة أنصار السنة المحمدية تنصح أن يهتدي الجميع - حكامًا ومحكومين - بهدي القرآن الكريم، وأن يسيروا على نهج رسول الله ﷺ، ولو أخذ الجميع بهذه النصيحة لوقف كل عند حده الذي بينه له الشرع الحنيف، وما كان هناك تجاوز لحدود الله، وقد قال الله تعالى: «وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ»، كما أننا

من عقيدة الفرقة الناجية أنها تؤمن بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحج والجهاد، والجُمع والأعياد مع الأمراء والحكام، أبراراً كانوا أم فجاراً، مع بذل النصيحة، والمحافظة على الجماعة

نناشد الجميع أن يسلكوا مسلك الاعتدال في جميع تصرفاتهم حفاظًا على وحدة الأمة، وجماعة أنصار السنة إذ تعلن هذا تتضرع إلى الله تعالى أن يجنبنا الفتن، وأن يوحد صفوفنا، وأن يسدد خطا الرئيس محمد حسني مبارك، ويوفقه إلى ما فيه خير البلاد والعباد»(٧).

كما ذكر فضيلة الشيخ صفوت الشوادفي - رحمه الله - منهج أنصار السنة في أصول الدين، وبيَّن أن عقيدتهم هي عقيدة الفرقة الناجية والطائفة المنصورة، ومما ذكره في ذلك:

«ونؤمن بوجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحج والجهاد، والجمع والأعياد مع الأمراء والحكام، أبرارًا كانوا أم فجارًا، ونحافظ على الجماعة، ونبذل النصيحة، ونسعى إلى إقامة مجتمع الجسد الواحد الذي أمرت به السنة، ندعو إلى الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، وإلى مكارم الأخلاق ومحاسن الأعمال، ونعتقد أن جماع الدين: عقيدة صحيحة، وعبادة خالصة، وأخلاق فاضلة، ولا نجيز الخروج في الفتنة، ولا الخروج على الأمراء والحكام ما لم يصدر منهم كفر بواح، وهو الصريح الذي لا يقبل التأويل، وعندنا من الله فيه برهان كما هي عقيدة أهل السنة والجماعة»(٨).

وكتابات الدكتور جمال المراكبي في مجلة التوحيد، وما كتبه الدكتور عبد العظيم بدوي عقب تفجيرات شرم الشيخ وإدانته لذلك من أوضح الأدلة على أن أنصار السنة لا تذهب إلى ما نسب إليها من تكفير وإرهاب، وفقد وفقني الله عز وجل وكتبت بحثًا في عام تسعين وتسعمائة وألف بينت فيه بالأدلة الصحيحة الصريحة معتقد أهل السنة في مرتكب الكبيرة، وتناولت فيه الرد على مذهب الخوارج ومن سلك سبيلهم في العصر الحاضر وسميته: «براءة أهل السنة من تكفير عصاة الأمة»، ولما أصدر مجهولون بيانًا زجوا فيه بأسماء بعض علماء أنصار السنة، وكان البيان يحمل منهجًا وأفكارًا نخالفها ولا نعتقدها ؛ كتبت ثلاث مقالات متتابعة في مجلة التوحيد بعنوان: «جمع كلمة الأمة على الكتاب والسنة والنهي عن الخروج على الأئمة»، وقد دافعت فيها عن منهج أهل السنة وبينت موقف أنصار السنة ؛ لأنهم في عصرهم الحاضر كماضيهم السابق لم يخرجوا ولم ينحرفوا عن جادة السنة، وأنهم من أهل الاتباع، وليسوا بخارجين أو مبتدعين، وسلفنا في ذلك الصحابة والتابعون ومن سار على دربهم، وإمامنا الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - كان على منهج السلف القويم، وما سبق أن أشرت إليه من معتقد لأهل السنة تعلمناه منه ومن أمثاله من العلماء الربانيين، وقد بادر نجله الأستاذ محمود عبد الرزاق فنفى عن أبيه ما نسب إليه من تكفير، وكتب ذلك في بعض الجرائد، وأخرج منشورًا بهذا، (والابن من ألصق الناس بأبيه وأعرفهم به).

والشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله - عاش فترة في المملكة العربية السعودية وتوفي هناك، وكانت له بين علمائهم مكانة ومنزلة، وقد درس على يديه أكابر علماء المسلمين اليوم، وتقلد هناك مناصب متعددة، ومآثره ومناقبه منثورة ومنشورة، وكان آخر منصب تقلده هو: نائب رئيس اللجنة الدائمة للإفتاء، وقد صدرت في عهده وبموافقته آلاف الفتاوى وليس فيها خروج أو تكفير.

وأكتفي هنا بذكر فتوى واحدة في ذلك.

ورد إلى دار الإفتاء السؤال التالي: من لم يحكم بما أنزل الله هل هو مسلم أم كافر كفرًا أكبر ولا تقبل منه أعماله؟

فأجابت اللجنة على هذه الفتوى بما يلي: قال تعالى: «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ» [المائدة: ٤٤]، «مَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ» [المائدة: ٤٥]، «وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ» [المائدة: ٤٧].

لكن إن استحل ذلك واعتقده جائزًا فهو كفر أكبر وظلم أكبر وفسق أكبر يخرج من الملة، أما إن فعل ذلك من أجل الرشوة أو مقصد آخر وهو يعتقد تحريم ذلك فإنه آثم يعتبر كافرًا كفرًا أصغر، وظالمًا ظلمًا أصغر، وفاسقًا فسقًا أصغر لا يخرجه من الملة كما أوضح ذلك أهل العلم في تفسير الآيات المذكورة وبالله التوفيق».

وهذه الفتوى الصادرة من دار الإفتاء تتفق تمامًا مع ما عليه أهل السنة وأصحاب المعتقد الصحيح، والشيخ رحمه الله مشارك في هذه الفتوى وموقع عليها، فهل يقال بعد هذا بأنه يكفر حكام المسلمين؟! أو ينسب ذلك إلى أنصار السنة السابقين والمعاصرين.

ومن الكلمات التي يتشدقون بها محاولين الطعن على أنصار السنة كلمة «الوهابية»، وقد زعموا أن أنصار السنة لها جذور وهابية، وذلك لينفروا الناس من دعوة الحق التي نقوم بها، وهم يعلمون تمامًا أننا ننتسب إلى

السنة فحسب معتقدًا وعملاً وسلوكًا، وأنا لا أعرف طائفة - حتى في المملكة العربية السعودية التي نشأ فيها ابن عبد الوهاب تعرف «بالوهابية»- وأهل السنة هناك يعتبرونه أحد دعاة الإسلام، ولا يتجاوزون فيه هذا المقدار، ويرون أن القدوة والمتبع هو النبي المختار ﷺ، ومن الحق والإنصاف أن أقول: إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب لم يكفر أحدًا من المسلمين، كما كان يعذر الجاهلين، ولم يخرج عن أقوال الأئمة المتبوعين، وهذا بعض كلامه في ذلك:

قال رحمه الله في رسالة وجهها إلى عبد الرحمن بن عبد الله: «وأخبرك أني ولله الحمد متبع ولست بمبتدع، عقيدتي ودِيني الذي أدين الله به هو مذهب أهل السنة والجماعة الذي عليه أئمة المسلمين مثل الأئمة الأربعة وأتباعهم إلى يوم القيامة، ولكني بينت للناس إخلاص الدين ونهيتهم عن دعوة الأحياء والأموات من الصالحين وغيرهم، وعن إشراكهم فيما يعبد الله به من الذبح والنذر والتوكل والسجود وغير ذلك مما هو حق الله الذي لا يشركه فيه أحد، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل، وهو الذي دعت إليه الرسل من أولهم إلى آخرهم وهو الذي عليه أهل السنة والجماعة، وأيضًا ألزمت من تحت يدي بإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وغير ذلك من فرائض الله، ونهيتهم عن الربا وشرب المسكر وأنواع المنكرات، فلم يمكن الرؤساء القدح في هذا وعيبه لكونه مستحسنًا عند العوام، فجعلوا قدحهم وعداوتهم فيما أمر به من التوحيد ونهى عنه من الشرك، ولَبَّسوا على العوام أن هذا خلاف ما عليه أكثر الناس ونسبوا إليه أنواع المفتريات، فكبرت الفتنة...

ومنها: ما ذكرتم أني أكفر جميع الناس إلا من اتبعني، وأني أزعم أن أنكحتهم، غير صحيحة، فيا عجبًا كيف يدخل هذا في عقل عاقل ؟ وهل يقول هذا مسلم؟ إني أبرأ إلى الله من هذا القول الذي ما يصدر إلا عن مختل العقل فاقد الإدراك، فقاتل الله أهل الأغراض الباطلة»(١٠).

أما عن موقفنا من الصوفية والطرقية، فهو معلوم للقاصي والداني، فنحن كما ذكرنا مرارًا وأكدنا نتبع ولا نبتدع، ونتصدى للانحرافات العقدية والبدع المحدثة، ونحن أمة واحدة، سمانا الله المسلمين، وأنزل علينا كتابه، وبعث إلينا أفضل رسله صلوات الله وسلامه عليه، وقد مَنَّ الله علينا وشرح صدورنا للحق الذي جاء من عنده، فقمنا بدعوة الأمة أفرادًا وجماعات إلى الله وإلى كتابه وسنة رسوله ﷺ، وواجهنا المخالفين ودعوناهم إلى الرجوع إلى ما كان عليه الصدر الأول من الصحابة والتابعين، وأما ما عليه الصوفية من قبل وإلى الآن من تقديس للأشخاص، وإقامة للموالد بما فيها من مخالفات شرعية ومنكرات، ودعوة إلى دعاء غير الله من الأحياء والأموات، واستحسان بناء المساجد على القبور والطواف بها ودعاء أهلها من دون الله، كل ذلك يتصادم مع مبادئ الإسلام وعقيدته السمحة التي أوجبت على العباد إفراد الله بالتوحيد، ومن ذلك الذبح والنذر والدعاء، والتوكل والخشية والإنابة وغير ذلك من ألوان العبادات، وأعتقد أن هذه الأمور لا يخالفنا فيها رجل عرف قدر ربه ومولاه وما يجب له جل في علاه.

وأنصار السنة بدعوتها إلى هذا المنهج قد قلصت كثيرًا من هذه الانحرافات، وأود أن أسجل هنا أنه لم يحدث أن أثنى أحد من أنصار السنة على الطرق الصوفية المبتدعة، أو مدح أحدًا من مشايخها، وقد شاركت أنا شخصيًا في جمع بعض أقوال أئمتنا من علماء الأزهر الشريف في الأضرحة والقبور والموالد والنذور، وقد طبعت - بحمد الله - هذه الرسالة ؛ لنبين للناس عامة أن هذا المنهج السوي هو منهج الحق الذي جاء من عندالله سبحانه وشرح صدورهم للتمسك به والدعوة إليه.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الهوامش:

١- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٢٤ ج١ / ٨٩، ومسلم كتاب الإيمان باب ٢٥ ج١ / ٧٨.
٢- البخاري، كتاب بدء الوحي باب ٦ ج١ / ٣٢.
٣- البخاري كتاب الأدب باب ٦٩ ج١٠ / ٥٠٧.
٤- أخرجه البخاري في كتاب العلم، باب ٤٣ ج١ / ٢١٧، ومسلم كتاب الإيمان باب ٢٩ ج١ / ٨١، ٨٢.
٥- أخرجه البخاري في كتاب الإيمان باب ٤٢ ج١ / ١٣٧، ومسلم في كتاب الإيمان باب ٢٣ ج١ / ٧٤.
٦- أخرجه أحمد في مسنده ج٢ / ٣٢٧.
٧- مجلة التوحيد، العدد الأول محرم ١٤٠٢هـ، السنة العاشرة.
٨- مجلة التوحيد، العدد السادس، جمادى الآخرة ١٤١٨هـ، السنة السادسة والعشرون.
٩- فتاوى اللجنة الدائمة، فتوى رقم ٥٧٤١.
١٠- الدرر السنية في الأجوبة النجدية، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم ج١ / ٥٤، ٥٥.

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده... وبعد:

فالإسلام أمر بلزوم طريق الاستقامة وحذر من طرق أهل الغواية والضلالة، قال الله تعالى: (فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَمَنْ تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا)، ومعنى قوله: (وَلَا تَطْغَوْا) أي: لا تتجاوزوا ما أمرتم به وحَدَّه الشرع لكم.

قال الإمام ابن كثير رحمه الله: "يأمر تعالى رسوله ﷺ وعباده المؤمنين بالثبات والدوام على الاستقامة، وذلك من أكبر العون على النصر على الأعداء، ومخالفة الأضداد، ونهي عن الطغيان - وهو البغي - فإنه مصرعه، حتى ولو كان على مشرك"(١).

وليعلم المسلم أن للشيطان مدخلين إليه ليضله عن سواء السبيل ويبعده عن الطريق المستقيم.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: "ما أمر الله بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وإضاعة، وإما إلى إفراط وغلو، ودين الله وسط بين الجافي عنه والغالي فيه، كالوادي بين جبلين، والهدى بين ضلالتين، والوسط بين طرفين ذميمين، فكما أن الجافي عن الأمر مضيع له، فالغالي فيه مضيع له، هذا بتقصيره عن الحد وهذا بتجاوزه الحد"(٢).

وقد أمر الله في كتابه بلزوم حدوده، ونهى عن تعديها، قال تعالى: (تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ) [البقرة: ٢٢٩]، وقد ابتليت الأمة الإسلامية منذ القدم بطوائف غلوا في الدين، وانتهكوا حرمات المسلمين، واعتدوا عليهم بالقتل والتفجير، ولعل آخر ما سمعنا به في ذلك ما وقع من الشاب الذي فجر نفسه أمام سمو الأمير محمد بن نايف - حفظه الله - وكان قاصدًا إياه، ولكن الله سلم، ولهذا فإني سأورد هنا بعض ما جاء في تعظيم أمر القتل، وفي حكم من قتل نفسه، لعل هؤلاء يفقهون فيرجعون.

قال تعالى فيما وقع من أحد ابني آدم عليه السلام: (فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ) [المائدة: ٣٠].

قال ابن حجر - رحمه الله -: "فأصبح القاتل أخاه من ابني آدم من حزب الخاسرين، وهم الذين باعوا آخرتهم بدنياهم بإيثارهم إياها، فوكسوا في بيعهم وغبنوا فيه وخابوا في صفقتهم"(٣).

وقد رتب الله تعالى على هذا الفعل المنكر الشنيع أمرًا عظيمًا ووعيدًا شديدًا فقال سبحانه: (مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا) [المائدة: ٣٢]، ومعنى الآية: أنه بسبب الجرم والقتل الذي قام به الناس ظلمًا وعدوانًا وبغير سبب كتب الله

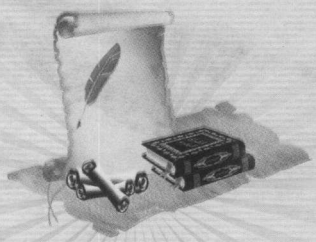

الشباب والإسلام

يا شباب الإسلام.. متى كان التفجير من الإسلام؟!!

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

هذا الوعيد الشديد، وقد ساق ابن كثير في تفسيره هذا الأثر فقال(٤): "وقال الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: دخلت على عثمان يوم الدار فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين. فقال يا أبا هريرة: أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم ؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا، فانصرف مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزور. قال: فانصرفْتُ ولم أقاتل".

قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله - معلقًا على هذا الأثر: "هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مَخْرَجَه، وقد رواه ابن سعد في الطبقات وإسناده صحيح جدًا، وذكره السيوطي في الدر المنثور ولم ينسبه لغير ابن سعد"(٥).

وفي الصحيحين وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "لا تقتل نفس ظلمًا إلا كان على ابن آدم الأول كفل منها، لأنه أول من سَنَّ القتل"(٦).

والكفل هو الجزء والنصيب والمثل(٧).

وقال النووي رحمه الله في شرح هذا الحديث: "هذا الحديث من قواعد الإسلام وهو أن كل من ابتدع شيئًا من الشركيات عليه وزر كل من اقتدى به في ذلك العمل إلى يوم القيامة، ومثله من ابتدع شيئًا من الخير كان له مثل أجر كل من يعمل به إلى يوم القيامة، وهو موافق للحديث الصحيح: "من سن سنة حسنة، ومن سن سنة سيئة". وللحديث الصحيح: "من دل على خير فله مثل أجر فاعله"(٨).

والمراد بمن ابتدع شيئًا من الخير، يعني من فعل شيئًا وأحياه وله أصل صحيح في السنة، لأنه لا يجوز للإنسان أن يخترع شيئًا جديدًا في الشرع من عند نفسه، ويتبين مما سبق تحريم القتل ظلمًا وعدوانًا وأنه جريمة عظيمة، ولا يجوز لأحد أن يستدل بقتل موسى عليه السلام للقبطي لما استغاث به الإسرائيلي، وقد ذكر الله القصة في القرآن في قوله تعالى: (فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ) [القصص: ١٥]، لأن قتل موسى عليه السلام لهذا الرجل وقع من باب الخطأ، وقد تأسف موسى على فعله وندم عليه وتاب منه، وسمى ما فعله ظلمًا.

قال ابن جرير في تفسير الآية: وكان موسى قد أوتي بسطة في الخلق وشدة في البطش، فوكزه موسى وكزة قتله منها وهو لا يريد قتله، فقال: هذا من عمل الشيطان إنه عدو مضل مبين"(٩).

وقال البغوي رحمه الله: "ندم موسى على فعله ولم يكن قصده القتل"(١٠).

وقد صح الخبر عن النبي ﷺ بأن ما وقع فيه موسى كان من باب الخطأ، كما جاء في صحيح مسلم أن سالم بن عبد الله بن عمر قال: يا أهل العراق ما سؤالكم عن الصغيرة وتركككم للكبيرة، سمعت أبي عبد الله بن عمر يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الفتنة تجيء من ههنا"، وأومأ بيده نحو المشرق "من حيث يطلع قرنا الشيطان"، وأنتم يضرب بعضكم رقاب بعض، وإنما قتل

أيها الشباب المسلم: اتقوا الله في أنفسكم واحذروا الوعيد الشديد لقاتل نفسه أو غيره واعلموا أن ما تقومون به من سفك للدماء وقتل للأبرياء ليس من الإسلام في شيء، بل هو من تلبيس الشيطان

موسى الذي قتل من آل فرعون خطأ"(١١).

وقول سالم بن عبد الله: "ما أسألكم عن الصغيرة وأركبكم الكبيرة" يشير بذلك إلى ما جاء عن أبيه في صحيح البخاري عن ابن أبي نُعْم قال: "كنت شاهدًا لابن عمر وسأله رجل عن دم البعوض فقال: ممن أنت؟ قال: من أهل العراق، قال: انظروا إلى هذا يسألني عن دم البعوض، وقد قتلوا ابن النبي ﷺ، وسمعت النبي ﷺ يقول: هما ريحانتاي من الدنيا"(١٢).

ويعني بهما الحسن والحسين رضي الله عنهما، وقد نهى الله تعالى في كتابه عن قتل النفس بغير حق، فقال: (وَلاَ تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ)، وقد وردت في سورتي الأنعام (١٥١)، والإسراء (٣٣)، وذكر الله صفات عباد الرحمن في كتابه ومنها قوله تعالى: (وَالَّذِينَ لاَ يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلاَ يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلاَ يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا) [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: (وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا) [النساء: ٩٣].

قال ابن كثير: "وهذا تهديد ووعيد أكيد لمن تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله، والآيات والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًا فمن ذلك ما ثبت في الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "أول ما يُقْضَى بين الناس يوم القيامة في الدماء"(١٣).

وقد أكد النبي ﷺ حرمة المسلمين وأموالهم وأعراضهم بتشبيهها بحرمة الزمان والمكان، وكان ذلك في حجة الوداع في البلد الحرام، فعن أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: "إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض ؛ السنة اثنا عشر شهرًا، منها أربعة حرم، ثلاثة متواليات: ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب شهر مضر الذي بين جمادى وشعبان"، ثم قال: "أي شهر هذا ؟" قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: "أليس ذا الحجة ؟" قلنا: بلى، قال: "فأي بلد هذا؟". قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، قال: "أليس البلدة؟" قلنا: بلى، قال: "فأي يوم هذا ؟" قلنا: الله ورسوله أعلم. قال: فسكت حتى ظننا أنه سيمسيه بغير اسمه. قال: "أليس يوم النحر؟" قلنا: بلى يا رسول الله، قال: "فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم حرام عليكم كحرمة يومكم هذا، في بلدكم هذا، في شهركم هذا، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم، فلا ترجعوا بعدي كفارًا أو ضلالاً يضرب بعضكم رقاب بعض"(١٤).

وقال النووي في شرحه للحديث: "هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفهيم والتقرير والتنبيه على عظيم مرتبة هذا الشهر والبلد واليوم، وقولهم: الله ورسوله أعلم. هذا من حسن أدبهم وأنهم علموا أنه ﷺ لا يخفى عليه ما يعرفونه من الجواب، فعرفوا أنه ليس المراد مطلق الإخبار بما يعرفونه، والمراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك"(١٥).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: "أول ما يقضى بين الناس في الدماء"(١٦).

قال ابن حجر في شرحه للحديث: "ولا يعارض هذا حديث أبي هريرة رضي الله عنه الذي رفعه: "إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة صلاته". الحديث أخرجه أصحاب السنن، لأن الأول محمول على ما يتعلق بمعاملات الخلق، والثاني فيما يتعلق بعبادة الخالق...، وفي الحديث عظم أمر الدم، فإن البداءة إنما تكون بالأهم، والذنب يعظم بحسب عظم المفسدة وتفويت المصلحة، وإعدام البنية الإنسانية غاية في ذلك، وقد ورد في التغليظ في أمر القتل آيات كثيرة وآثار شهيرة"(١٧).

وقد حرم الإسلام أيضًا قتل الذمي والمعاهد والمستأمن، فعن عبد الله بن عمرو - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ، قال: "من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا"(١٨).

وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: "باب إثم من قتل معاهدًا بغير جرم"، كما ذكره في كتاب الديات تحت باب: "باب إثم من قتل ذميًا بغير جرم"(١٩).

قال ابن حجر - رحمه الله -: "كذا ترجم بالذمي، وأورد الخبر في المعاهد وترجم في الجزية بلفظ: "من قتل معاهدًا"، كما هو ظاهر الخبر، والمراد به من له عهد مع المسلمين سواء كان بعقد جزية أو هدنة من سلطان أو أمان من مسلم، وكأنه أشار بالترجمة هنا إلى رواية مروان بن معاوية فإن لفظه: "من قتل قتيلاً من أهل الذمة"(٢٠).

وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من قتل معاهدًا في غير كُنْهه حرَّم الله عليه الجنة"(٢١).

والمعاهد هو الذي يكون بينك وبينه عهد، وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، ومعنى "في غير كنهه" أي: وقته وقدره، وقيل: غايته، والمراد أنه لا يجوز قتله في غير وقته أو غاية أمره الذي يجوز فيه قتله(٢٢).

وقد أوجب الله تعالى في قتل المعاهد خطأ الدية والكفارة، قال تعالى: (وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلاَّ خَطَأً

وَمَنْ قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَأً فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ إِلاَّ أَنْ يَصَّدَّقُوا فَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٍّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء: ٩٢]، أما من يقتل نفسه بتفجيرها أو غيره ظنًا منه أنه من المجاهدين الصادقين فقد خاب ظنه ووقع في إثم عظيم وهو متوعد بعذاب شديد، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا (٢٩) وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا) [النساء: ٢٩، ٣٠].

وموطن الشاهد من الآية: (وَلاَ تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ)، فلا يباح بحال من الأحوال أن يقتل أحد نفسه حتى ولو اشتدت عليه المصائب، بل عليه بالصبر، والمؤمن في السراء والضراء على خير، وقد ذكر المفسرون وجهين في الآية: الأول: لا تقتلوا من كان من جنسكم من المؤمنين، فإن المؤمنين كلهم كنفس واحدة، والثاني: النهي عن قتل الإنسان نفسه، وهذا الثاني أشبه بالصواب كما ذكر الحافظ ابن كثير(٢٣).

وقد توافرت الأخبار في النهي عن قتل الإنسان نفسه والوعيد عليه، ومن ذلك ما رواه الشيخان وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "من تردَّى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تحسَّى سُمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا"(٢٤).

وقد ذكر ابن حجر في شرح الحديث أنه من أحاديث الوعيد وأولى ما حمل عليه: أن هذا جزاء فاعل ذلك الإنسان إلا أن يتجاوز الله عنه(٢٥).

وختامًا أقول للشباب المسلم ومن يحرض على ذلك: اتقوا الله في أنفسكم واحذروا الوعيد الشديد لقاتل نفسه أو غيره، واعلموا أن ما تقومون به من سفك للدماء وقتل للأبرياء ليس من الإسلام في شيء، بل هو من تلبيس الشيطان، وعلى أصحاب المناهج المنحرفة الذين يربون الشباب على هذه الأفكار الخارجة والبعيدة عن الإسلام أن يرجعوا إلى الحق والصواب، وما ذكرته من آيات وأحاديث وأقوال لأهل العلم فيه كفاية لمن أراد سلوك طريق الصحابة والتابعين، وهو الواجب على جميع المسلمين، وقبل نهاية هذا المقال أذكر بهذين الحديثين:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: "لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا"(٢٦).

وعن أبي سعيد الخدري وأبي هريرة رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: "لو أن أهل السماء وأهل الأرض اشتركوا في دم مؤمن لأكبهم الله في النار"(٢٧).

قُلْتُ: قد ثبت النهي عن قتل البهيمة بغير حق، فكيف بقتل الآدمي، فكيف بقتل المسلم، أسأل الله تعالى أن يوفقنا لما يحبه ويرضاه وأن يعصمنا من الزلل في القول والعمل. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الهوامش

١- تفسير ابن كثير ج٢ / ٦٢٢ .
٢- مدارج السالكين ج٢ / ٥١٧ .
٣- تفسير ابن جرير ج٦ / ١٢٦ .
٤- انظر تفسير ابن كثير ج٢ / ٦٨ .
٥- عمدة التفسير ج٤ / ١٣٠ .
٦- البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء باب ١ ج٦ / ٣٦٤، ومسلم كتاب القسامة باب ٧ ج٣ / ١٣٠٣ .
٧- انظر لسان العرب ج١١ / ٥٩٠ .
٨- شرح النووي على مسلم ج١١ / ١٦٦ .
٩- تفسير ابن جرير ج٢٠ / ٣٠ .
١٠- تفسير البغوي ج٣ / ٤٣٩ .
١١- صحيح مسلم كتاب الفتن وأشراط الساعة باب ١٦ ج٤ / ٢٢٢٩ .
١٢- صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ١٨ ج١٠ / ٤٢٦ .
١٣- تفسير ابن كثير ج١ / ٧٣٦ .
١٤- البخاري، كتاب العلم، باب ٩ ج١ / ١٥٧، وكتاب الحج باب ١٣٢ ج٣ / ٥٧٣، ومسلم كتاب القسامة باب ٩ ج٣ / ١٣٠٥ واللفظ له .
١٥- شرح النووي على مسلم ج١١ / ١٦٩ .
١٦- البخاري كتاب الرقاق باب ٤٨ ج١١ / ٣٩٥، ومسلم كتاب القسامة باب ج٣ / ١٣٠٤، وفيه: «أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» .
١٧- فتح الباري ج١١ / ٣٩٦، ٣٩٧ .
١٨- البخاري، كتاب الجزية، باب ٥ ج٦ / ٢٦٩، ٢٧٠ .
١٩- انظر كتاب الديات، باب ٣٠ ج١٢ / ٢٥٩ .
٢٠- فتح الباري ج١٢ / ٢٥٩ .
٢١- رواه أبو داود في سننه كتاب الجهاد باب ١٦٤، وهو حديث صحيح. انظر صحيح سنن أبي داود ج٢ / ٥٢٨ .
٢٢- انظر عون المعبود شرح سنن أبي داود ج٧ / ٤٤١ .
٢٤- انظر تفسير ابن كثير ج١ / ٦٥٨ .
٢٥- البخاري كتاب الطب باب ٥٦ ج١١ / ٢٤٧، ومسلم كتاب الإيمان باب ٤٧ ج١ / ١٠٣، ١٠٤ .

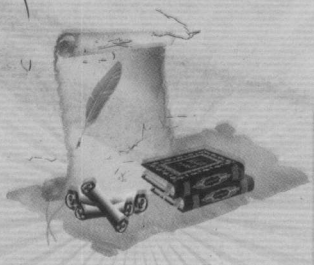

افتتاحية العدد

من أجل التوحيد بني البيت العتيق

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.. وبعد:

الحج فريضة من أجلّ الفرائض، وأعلاها قدرًا عند الله عز وجل، وهو الركن الخامس من أركان الإسلام، وقد فرضه الله في السنة التاسعة من الهجرة.

قال المرداوي - رحمه الله -: «الصحيح أن الحج فُرض سنة تسع من الهجرة». [الإنصاف للمرداوي ج٥/٨ مع المقنع والشرح الكبير].

والحج -بفتح الحاء، ويجوز كسرها- لغة: القصد، وفي اصطلاح الشرع: قصد موضع مخصوص في وقت مخصوص للقيام باعمال مخصوصة. [الموسوعة الفقهية ج٢٣/١٧].

وقد تضافرت النصوص الشرعية على الإشادة بفضله، وعظمة ثوابه وجزيل أجره.

والأصل في وجوبه الكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب فقول الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «هذه آية وجوب الحج عند الجمهور، وقيل: بل هي قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، والأول أظهر». [ابن كثير ج١/٥٢٨].

وسياق الآية نصٌ في إثبات الفرضية؛ لأن صيغة: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ﴾ صيغة إيجاب وإلزام، وذلك دليل الفرضية.

وأما السنة فقول النبي ﷺ كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان». [البخاري ٨، ومسلم ١٧].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: «أيها الناس، قد فرض الله عليكم الحج فحجوا». فقال رجل: أكلّ عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا. فقال رسول الله ﷺ: «لو قلت: نعم لوجبت ولما استطعتم». ثم قال: «ذروني ما تركتكم، فإنما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه». [مسلم ٨٢٧].

كما أجمعت الأمة قاطبة على فرضيته، وعلى أنه يجب على

المستطيع في العمر مرة واحدة. [المغني لابن قدامة ج٥/٦].

وقد حج النبي ﷺ حجة واحدة، وهي حجة الوداع، ولا خلاف أنها كانت سنة عشر. [زاد المعاد لابن القيم ج٢/١٠١].

منافع الحج

وللحج منافع عظيمة وفوائد عديدة، تأتي على رأسها الفوائد الدينية، وأول ما يظهر لنا منها: تحقيق التوحيد لرب العالمين. وإن نظرة سريعة إلى أعمال الحج تفيدنا أن التوحيد -وهو ركن الإسلام الأول- ظاهر غاية الظهور في الحج، وشعائر الحج ومناسكه دالة ومشتملة عليه، فالعبد حين ينوي الدخول في النسك من الميقات ويهلّ بالعمرة أو الحج يقول: لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك، وهذه تلبية رسول الله ﷺ، كما جاء في الصحيحين وغيرهما عن ابن عمر رضي الله عنهما. [البخاري ١٥٤٩، ومسلم ١١٨٥].

ومعنى هذه الكلمات: إخلاص القصد والتوجه ولزوم الطاعة، والإجابة بعد الإجابة لله تعالى، وهي تخالف تلبية المشركين الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى، ومن مظاهر شركهم في التلبية أنهم كانوا يقولون: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، فاقتلع الله هذا الشرك ودعا إلى التوحيد، وشرَع هذه التلبية التي تغمر القلوب باليقين والإخلاص، وتحمل قائلها على التوحيد لله وحده، وعدم قصد سواه، ولا يظن ظانّ أن الكعبة التي يطوف حولها يُتبرك بها وبأحجارها، أو أن البركة تلحق من يلمس هذه الأحجار، وقد أزال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه هذا بقوله: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك». [البخاري ١٥٣٢، ومسلم ٣١٢٦].

فإذا انتهى الطائف من طوافه صلى خلف مقام إبراهيم ركعتين يقرأ في الأولى بسورة الكافرون، وفيها براءة من الكافرين، ويقرأ في الركعة الثانية بسورة الإخلاص، وهي سورة التوحيد، وتعدل ثلث القرآن؛ لاشتمالها عليه، فيكون الطائف بهذا قد جمع بين تحقيق التوحيد والتبرؤ من الكافرين، ثم عليه أن يتوجه بعد ذلك إلى الصفا، فإذا رقي الجبل سُنّ له أن يتوجه إلى الكعبة، ويرفع أكفّ الضراعة مكبِّرًا ومهللاً ومتضرعًا ومتذللاً سائلاً ربه ومولاه، ناطقًا بإفراد الله بالتوحيد جلّ في علاه.

قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في سياق حجة النبي ﷺ: «.. فبدأ بالصفا فرقي عليه، حتى رأى البيت فاستقبل القبلة، فوحَّد الله وكبَّره، وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده»، ثم دعا بين ذلك، قال مثل هذا ثلاث مرات، ثم نزل إلى المروة حتى إذا انصبت قدماه في بطن الوادي سعى، حتى إذا صعدتا مشى حتى أتى المروة، ففعل على المروة كما فعل على الصفا». [مسلم ١٢١٩].

وهذه كلمات ناطقة بالتوحيد، وفيها نسبة الملك والحمد والقدرة لله وحده، فإذا كان يوم عرفة - وهو يوم عظيم تشهده الملائكة - دعا العبد ربه، وتوجه إليه وحده، وهناك تُسكَب العبرات، وتنطق الكلمات بتوحيد رب الأرض والسماوات، فينطق الحاج بـ«لا إله إلا الله»، وهي كلمة الإسلام، وشعار التوحيد، وكلمة التقوى، وأفضل ما قاله النبيون والمرسلون، فإذا نزل المزدلفة ذكر الله، واستشعر عظمة ربه ومولاه، وأيقن أنه لا يوجد من يماثل الله، وأنه سبحانه المتفضل على عباده: ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِنْ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ﴾ [البقرة: ١٩٨]، وعند ذهاب الحاج لرمي الجمرات عليه أن يكبِّر مع كل حصاة. [المغني لابن قدامة ج٥/٢٩١].

ومن وجب عليه هدْي فعليه أن يذبحه لله، لأن الذبح عبادة، ولا يكون إلا لله، قال الله تعالى موجهًا الخطاب إلى النبي ﷺ، وأمته تبع له: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ أي: اجعل صلاتك لربك وحده، وانحر ذبيحتك لله وحده، فإنه مُربِّيك ومسبغ نعمه عليك وعلى جميع الخلق دون سواه، وفي إقامة الحاج بمنى عليه أن يشتغل بالذكر والتكبير، وسائر أنواع الطاعات، وهذه كلها أمور

> على المسلم العابد القاصد بيت الله ألا يلتفت لأحد سوى الله، وأن يتعلم من مشاهد الحج توحيد الله، وعليه أن يتبرأ من الشرك والمشركين، وهو أمر لازم لتحقيق التوحيد؛ لأن الشرك والتوحيد لا يجتمعان في قلب مسلم صادق.

يظهر فيها التوحيد بأسمى معانيه، وهو ما أُقيم البيت لأجله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]، فأمر الله نبيه إبراهيم عليه السلام أن يطهِّر البيت من كل نجس، وعلى رأس ذلك الشرك كبيره وصغيره، قليله وكثيره، حتى يكون البيت خالصًا لمن يعبدون الله وحده، ويطوفون بالبيت العتيق فحسب؛ لأنه لا يجوز للعبد أن يفعل ذلك في أيّ بقعة سواه.

قال ابن كثير رحمه الله: «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبَد غير الله، وأشرك به من قريش في البقعة التي أُسِّست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، فذكر الله تعالى أنه بوَّأ إبراهيم مكان البيت، أي: أرشده إليه وسلَّمه له، وأذن له في بنائه». [تفسير ابن كثير ج٣/٢٩٧].

وعلى المسلم العابد القاصد بيت الله ألا يلتفت لأحد سوى الله، وأن يتعلم من مشاهد الحج توحيد الله، وعليه أن يتبرأ من الشرك والمشركين، وهو أمر لازم لتحقيق التوحيد؛ لأن الشرك والتوحيد لا يجتمعان في قلب مسلم صادق، وقد حثَّ النبي ﷺ وأرشد من قال: «لا إله إلا الله» إلى وجوب الكفر بما يُعبَد من دون الله، كما في حديث مسلم عن أبي مالك عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قال: لا إله إلا الله وكفَر بما يُعبَد من دون الله، حرم ماله ودمه وحسابه على الله». [مسلم ٢٥].

ولما نزلت سورة التوبة ومطلعها براءة من المشركين أمر النبي ﷺ بإعلانها في أول حجة وقعت في الإسلام في العام التاسع من الهجرة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذِّنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان.

قال حميد: ثم أردف النبي ﷺ بعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، فأمره أن يؤذن ببراءة، قال أبو هريرة: فأذَّن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وأن لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان».

والحديث ساقه البخاري رحمه الله في كتاب التفسير من صحيحه تحت باب: «وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله». [البخاري ٤٦٥٥].

وفي الآية إعلام وتصريح بأن البراءة من الله ومن رسوله ﷺ، وهي واقعة على المشركين.

ومن المنافع العظيمة الدينية في الحج: أن الحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة، والحج المبرور هو الذي استكمل مؤهلات القبول من الإخلاص لله، والسير في المناسك، وفعلها على ما تركنا عليه رسول الله ﷺ، والابتعاد عن الذنوب والمعاصي والآثام.

وقد أمر الله في كتابه في سياق الكلام عن الحج أن يبتعد الحاجّ عن كل ما يخدش حجه ويؤثر فيه، قال الله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة: ١٩٧]، وفي هذا تعظيم لهذه الشعيرة العظيمة، وللحرم، وللإثم فيه، ويجب على العبد في أوقات العبادة أن يكون على أكمل الآداب وأفضل الأحوال، فما بالنا إذا كان في أشرف البقاع وعند البيت الذي نسَبه الله تعالى إلى نفسه تكريمًا وتشريفًا له، وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي ﷺ تبين الثواب العظيم والأجر الجزيل لمن حج حجًا مبرورًا، ومن ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل النبي ﷺ: أي الأعمال أفضل؟ قال: «إيمان بالله ورسوله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «جهاد في سبيل الله». قيل: ثم ماذا؟ قال: «حج مبرور». [البخاري ٢٦، ومسلم ٨٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاءٌ إلا الجنة». [البخاري ١٧٧٣، ومسلم ١٣٥١].

قال النووي رحمه الله: «قوله ﷺ: العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما. هذا ظاهر في فضيلة العمرة، وأنها مكفِّرة للخطايا الواقعة بين العمرتين.. والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة. الأصح الأشهر أن المبرور هو الذي لا يخالطه إثم، مأخوذ من البر وهو الطاعة، وقيل: هو المقبول، ومن علامة القبول أن يرجع

كلمات التلبية تفيد إخلاص القصد والتوجه والإجابة بعد الإجابة ومخالفة المشركين الذين أشركوا مع الله آلهة أخرى.

خيرًا مما كان، ولا يعاود المعاصي، وقيل: هو الذي لا رياء فيه، وقيل: الذي لا يعقبه معصية، وهما داخلان فيما قبلهما، ومعنى ليس له جزاء إلا الجنة: أنه لا يُقتصر لصاحبه من الجزاء على تكفير بعض ذنوبه، بل لا بد أن يدخل الجنة، والله أعلم». [شرح النووي على مسلم ج٩/١١٩].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي ﷺ يقول: «من حج لله فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» [البخاري ١٥٢١، ومسلم ١٣٥١].

قال ابن حجر رحمه الله: «أي بغير ذنب، وظاهره غفران الصغائر والكبائر والتَّبِعَات، وهو من أقوى الشواهد لحديث العباس بن مرداس المصرح بذلك، وله شاهد من حديث ابن عمر في تفسير الطبري». [فتح الباري ج٣/٣٨٣].

وعن ابن شماسة المهري قال: حضرنا عمرو بن العاص وهو في سياقة الموت [يعني حال حضور الموت] فبكى طويلاً وحوَّل وجهه إلى الجدار، فجعل ابنه يقول: يا أبتاه، أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ أما بشَّرك رسول الله ﷺ بكذا؟ قال: فأقبل بوجهه، فقال: إن أفضل ما نُعدُّ شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله ﷺ، إني كنت على أطباق ثلاثة [أي على أحوال ثلاث]: لقد رأيتني وما أحدٌ أشدُّ بغضًا لرسول الله ﷺ مني، ولا أحبَّ إليَّ أن أكون قد استمكنت منه فقتلته، فلو متّ على تلك الحال لكنت من أهل النار، فلما جعل الله الإسلام في قلبي أتيت النبي ﷺ فقلت: ابسط يمينك فلأبايعك، فبسط يمينه، قال: فقبضت يدي. قال: «ما لك يا عمرو؟» قال: قلت: أردت أن أشترط. قال: «تشترط بماذا؟» قلت: أن يُغفَر لي. قال: «أما علمتَ أن الإسلام يهدم ما كان قبله؟ وأن الهجرة تهدم ما كان قبلها؟ وأن الحج يهدم ما كان قبله؟»[مسلم: ١٢٣].

والأحاديث الدالة على فضل الحج ومكانته كثيرة، أكتفي بما ذكرت منها، والمقصود أن يأتي المسلم بفريضة الحج كما أرادها الله، حتى يزيد إيمانه بربه ومولاه، وينال شرف القرب من الله، ويتحقق في نفسه وجوارحه العبودية لله بأسمى معانيها، ويندفع اندفاعًا إلى التمسك بالدين في العسر واليسر، والمنشط والمكره، والسر والعلانية، ويحقِّق التوحيد لله تعالى على الدوام، فما شُرع الحج وبُني البيت العتيق إلا لتحقيق التوحيد.

وفي ختام هذا المقال أُذكِّرُ نفسي وإخواني المسلمين بحرمة البيت ومكانته وعظمته، فقد جعله الله مثابة للناس وأمنًا، فقال الله سبحانه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾ [البقرة: ١٢٥]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٦]، وسماه بالبيت العتيق، فقال: ﴿ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ﴾ [الحج: ٢٩]؛ وذلك لأنه أول مسجد وُضع في الأرض، وقيل: لأن الله يعتق فيه رقاب المذنبين من النار، وقد سماه الله بالبيت الحرام، والحرم الآمن، والبلدة المحرمة، وأم القرى، وكل ذلك يفيد التعظيم والتكريم، فليحافظ المسلم على حرمة هذا البلد وعلى أمنه وسلامته، فهو حرام بحرمة الله منذ خلق الله السماوات والأرض، وإلى أن تقوم الساعة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم فتح مكة: «لا هجرة بعد الفتح، ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا، فإن هذا بلد حرَّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة» [البخاري ١٨٣٤].

وتعظيم البيت الحرام دليل على التقوى كما قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢]. وقد أفاد الحديث السابق أن مكة ستبقى دار إسلام، وسيبقى البيت العتيق في الأرض -إلى أن يشاء الله- تتجه إليه القلوب والوجوه، وتطوف به الأبدان خاضعة خاشعة للكبير المتعال، وبذلك يتحقق إسلام الوجه لله.

للحج فوائد عظيمة، جليلة القدر، أعظمها تحقيق التوحيد لرب العالمين وإقامة ذكره سبحانه وتعالى، وإظهار الخضوع والتسليم والعبودية له جل وعلا.

أسأل الله تبارك وتعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلي أن يسلِّم الحجاج والمعتمرين، وأن يتقبل منهم حجهم وسائر أعمالهم، وأن يجعلنا معهم بمنّه وكرمه وفضله، إن ربي وليّ ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

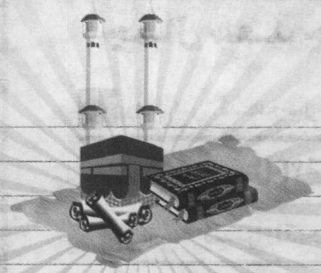

افتتاحية العدد

شهر الله المحرم وما أحدث الناس فيه

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه.. وبعد:

فشهر الله المحرم من الأشهر الفاضلة، وهو من الأشهر الحرم، وقد أضافه النبي ﷺ إلى الله تكريمًا وتشريفًا له، والصيام فيه من أفضل القُرُبات، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أفضلُ الصيام بعدَ رمضان شهرُ الله المحرم، وأفضلُ الصلاة بعد الفريضة صلاةُ الليل». [مسلم: ١١٦٣].

وهذا الحديث صريح في أن أفضل ما تُطوِّع به من الصيام بعد رمضان شهر الله المحرم. قال النووي -رحمه الله-: «فيه تصريح بأنه أفضل الشهور للصوم، وقد سبق الجواب عن إكثار النبي ﷺ من صوم شعبان دون المحرم، وذكرنا فيه جوابين:

أحدهما: لعله إنما علم فضله في آخر حياته. والثاني: لعله كان يعرض فيه أعذار من سفر أو مرض أو غيرهما». [شرح النووي على مسلم: ٨ / ٥٥].

وقال ابن رجب: «ولما كان هذا الشهر مختصًا بإضافته إلى الله، وكان الصيام من بين الأعمال مضافًا إلى الله؛ فإنه له من بين الأعمال، ناسب أن يختص هذا الشهر المضاف إلى الله بالعمل المضاف إليه المختص به، وهو الصيام، وقد قيل في معنى إضافة هذا الشهر إلى الله: إنه إشارة إلى أن تحريمه إلى الله عز وجل، ليس لأحد تبديله كما كانت الجاهلية يُحِلّونه ويحرِّمونه مكان صفر، فأشار إلى أنه شهر الله الذي حرمه، فليس لأحد من خلقه تبديل ذلك وتغييره». [لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، ص٥٥].

وصيام يوم العاشر من هذا الشهر أفضل القربات، وقد وردت في فضله وعظيم أجره أحاديث كثيرة، منها: حديث ابن عباس - رضي الله عنهما- قال: «قدم النبي ﷺ المدينة، فرأى اليهود تصوم يوم عاشوراء، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا يوم صالح، هذا يوم نجَّى الله بني إسرائيل من عدوهم، فصامه موسى، قال: «فأنا أحق بموسى منكم»، فصامه وأمر بصيامه» [البخاري: ٢٠٠٤، ومسلم ١١٣٠].

عزم النبي ﷺ في آخر عمره على أن لا يصوم يوم عاشوراء مفرداً، بل يضم إليه يوماً آخر مخالفة لأهل الكتاب في صيامه

وفي مسلم عن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاث من كل شهر، ورمضان إلى رمضان، فهذا صيام الدهر كله، وصيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يُكفِّر السنة التي قبله والسنة التي بعده، وصيام يوم عاشوراء أحتسب على الله أن يُكفر السنة التي قبله» [مسلم: ١١٦٢].

وكان للنبي ﷺ في صيامه أربعة أحوال:

الحالة الأولى: أنه كان يصومه بمكة، ولا يأمر الناس بالصوم، وقد ورد ذلك عن عائشة كما في الصحيحين وغيرهما.

الحالة الثانية: أنه ﷺ لما قدم المدينة، ورأى اليهود يصومونه ويعظِّمونه؛ أمر بصيامه وحثَّ عليه، وقد سبق ذكر حديث ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

الحالة الثالثة: أنه لما فُرض صيام شهر رمضان ترك النبي ﷺ أَمْر أصحابه بصيامه، كما في حديث ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: «صام النبي ﷺ عاشوراء، وأمر بصيامه، فلما فُرض رمضان ترك» [البخاري: ١٨٩٢، ومسلم ١١٢٦].

الحالة الرابعة: أن النبي ﷺ عزم في آخر عمره على أن لا يصومه مفردًا، بل يضم إليه يومًا آخر؛ مخالفةً لأهل الكتاب في صيامه، كما في حديث ابن عباس -رضي الله عنه- قال: «حين صام رسول الله ﷺ يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظِّمه اليهود والنصارى. فقال رسول الله ﷺ: «فإذا كان العام المقبل -إن شاء الله- صمنا اليوم التاسع». قال: فلم يأتِ العام المقبل حتى توفي رسول الله ﷺ» [مسلم: ١١٣٣].

وبهذا يتبين فضل يوم عاشوراء، وأن حرمته قديمة، وما ذكرته من أحاديث هي بعض ما جاء في فضله، واستحباب كثرة الصيام بصورة عامة في شهر الله المحرم، غير أن طوائف من المبتدعة لم يقفوا عند هذا القدر، بل أحدثوا بدعًا عظيمة منكرة في هذا الشهر:

منها اعتبارهم له عيدًا كالأعياد المرسومة للمسلمين بالتوسعة، واتخاذ الأطعمة الخاصة، وهذا من تلبيس الشيطان على العامة، وهو من عمل اليهود في الأصل، كما روى مسلم عن أبي موسى رضي الله عنه قال: «كان أهل خيبر يصومون يوم عاشوراء، يتخذونه عيدًا ويُلبسون نساءَهم فيه حُليهُم وشارَتهُم [الشارة الهيئة الحسنة، والمعنى: يلبسونهن لباسهم الجميل الحسن]، فقال رسول الله ﷺ: «فصوموه أنتم» [البخاري: ٢٠٠٥، ومسلم: ١١٣١].

وهذا يدل على أن المشروع فيه الصيام فحسب، بنص كلام النبي ﷺ، وقال ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله-: «إنه لم يصحّ عن النبي ﷺ في يوم عاشوراء غير صومه» [الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، ص٢٧١].

كما استحب المبتدعةُ الاكتحالَ والاغتسال في هذا اليوم، وكل هذا لا أصل له.

ومن أعظم البدع المظلمة في هذا اليوم: بدعة الحزن عند الرافضة، وسببها ما حصل للإمام الحسين بن علي -رضي الله عنهما- في هذا اليوم من الشهادة، ولا شك أن مقتل الحسين -رضي الله عنه- كان من المصائب العظيمة التي أُصيب بها المسلمون، ونحن نعتقد أنه قُتل مظلومًا، وقتلُه

نحن نعتقد أن الحسين رضي الله عنه قتل مظلوماً، وقتله شهادة له وكرامة، لكننا لا نرتكب ما يسخط الرب كلما جاءت ذكرى قتله

شهادةٌ له وكرامةٌ؛ لأن الله يرفعه بذلك عنده درجات، ولكن الرافضة يقومون في هذا اليوم بأعمال منكرة من الحزن واللطم، والصراخ والبكاء، والضرب على الرءوس والصدور، وإنشاد المراثي، مما قد علمه القاصي والداني، وهذا كله ليس من دين الله في شيء.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وصار الشيطان بسبب قتل الحسين -رضي الله عنه- يُحدث للناس بدعتين: بدعة الحزن والنوح يوم عاشوراء، من اللطم والصراخ والبكاء والعطش وإنشاد المراثي، وما يُفضي إليه ذلك من سبّ السلف ولعنتهم، وإدخال من لا ذنب له مع ذوي الذنوب، حتى يُسبّ السابقون الأولون، وتُقرأ أخبار مصرعه التي كثير منها كذب، وكان قصد من سنّ ذلك فتحَ باب الفتنة والفُرقة بين الأمة، فإن هذا ليس واجبًا ولا مستحبًا باتفاق المسلمين، بل إحداث الجزع والنياحة للمصائب القديمة من أعظم ما حرمه الله ورسوله ﷺ». [منهاج السنة النبوية ٤ / ٥٥٤].

وما يفعله الروافض في هذا اليوم مما ذكرت بعضه آنفًا مخالف لشرع الله الذي أمر به عند حلول المصائب، والذي أمر الله به ورسوله ﷺ في المصيبة إنما هو الصبر والاحتساب والاسترجاع، كما قال الله تعالى: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ. الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ. أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥ - ١٥٧]، وكان النبي ﷺ يحثّ على ذلك، كما روى مسلم عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما من عبد تصيبه مصيبة، فيقول: إنا لله وإنا إليه راجعون، اللهم أجرني في مصيبتي وأخلف لي خيرًا منها إلا أجره الله في مصيبته، وأخلف له خيرًا منها». قالت: فلما تُوفِّي أبو سلمة قلت كما أمرني رسول الله ﷺ، فأخلف الله لي خيرًا منه؛ رسول الله ﷺ. [مسلم: ٩١٨].

وأما لطم الخدود وشق الجيوب؛ فليس من الإسلام في شيء، وفي الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «ليس منا من لطم الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية». [البخاري: ١٢٩٤، ومسلم: ١٠٣].

وهذا وعيد شديد لمن يفعل ذلك، وقد ذكر ابن حجر أن فائدة إيراد الحديث بهذا اللفظ: المبالغة في الردع عن الوقوع في مثل ذلك. [فتح الباري: ٣ / ١٦٣].

وعن أبي موسى قال: «وَجِع أبو موسى وجعًا فغُشي عليه ورأسه في حجر امرأة من أهله، فصاحت امرأة من أهله، فلم يستطع أن يرد عليها شيئًا، فلما أفاق قال: أنا بريء مما برئ منه رسول الله ﷺ، فإن رسول الله ﷺ برئ من الصالقة [وهي التي ترفع صوتها عند المصيبة]، والحالقة [وهي التي تحلق شعرها عند المصيبة]، والشاقة [وهي التي تشق ثوبها عند المصيبة]» [البخاري ١٢٩٦، ومسلم ١٠٤ واللفظ له].

وهذه الأمور المنهي عنها -وهي من كبائر الذنوب- تفعلها الرافضة في مثل هذا اليوم، وهي من أسباب الطرد والإبعاد من رحمة رب العباد، وبعضها من أمور الجاهلية كما في حديث أبي مالك الأشعري - رضي الله عنه- أن النبي ﷺ قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة» [مسلم: ٩٣٤].

إن الرافضة هم الذين قتلوا الحسين رضي الله عنه وقال له محمد بن علي بن أبي طالب (ابن الحنفية): يا أخي إن أهل الكوفة قد عرفت غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى

ومما أرى ذكره في هذا المقام أن الرافضة هم الذين قتلوا الحسين وغدروا به رضي الله عنه، وقد نصح محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية أخاه الحسين رضي الله عنه قائلاً: يا أخي، إن أهل الكوفة قد عرفتَ غدرهم بأبيك وأخيك، وقد خفت أن يكون حالك كحال من مضى» [نقلاً من كتاب: حقبة من التاريخ لعثمان الخميس، ص٢٤٨].

والموقف الصحيح من قتل الحسين -رضي الله عنه- أنه ينبغي لكل مسلم أن يحزن لقتله، فإنه من سادات المسلمين، وعلماء الصحابة، ولكن قتله ليس بأعظم من قتل الأنبياء، وقد قُتل قبله أبوه، وهو أفضل منه، كما قُتل عمر وعثمان رضي الله عن جميع أصحاب النبي ﷺ [يراجع البداية والنهاية لابن كثير ج٨ / ٢٠٤- ٢٠٥]. ولم يفعل أحد من المسلمين ما تفعله الرافضة إلى اليوم مع واحد من هؤلاء، ولذلك لا يجوز للإنسان إذا تذكر مقتل الحسين رضي الله عنه أن يقوم باللطم والشق والضرب على الرأس حتى يسيل الدم، وما شابه ذلك، فإن هذا كله لا يجوز عند حدوث المصيبة، فكيف مع طول الزمن، ثم ما الفائدة منه؟!

إن من يشاهد الرافضة وفعلهم في هذا اليوم يدرك بداهة فساد ما هم عليه، وضلال معتقدهم، والمسلم الصادق الواعي يربأ بنفسه أن ينخدع بهؤلاء، أو يرى صدقهم فيما يفعلون.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: «وإذا كان الله تعالى قد أمر بالصبر والاحتساب عند حدثان العهد بالمصيبة، فكيف مع طول الزمان، فكان ما زيَّنه الشيطان لأهل الضلال والغي من اتخاذ يوم عاشوراء مأتمًا، وما يصنعون فيه من الندب والنياحة، وإنشاد قصائد الحزن، ورواية الأخبار التي فيها كذب كثير، والصدق فيها ليس فيه إلا تجديد الحزن والتعصب، وإثارة الشحناء والحرب، وإلقاء الفتن بين أهل الإسلام، والتوسل بذلك إلى سبّ السابقين الأولين» [مجموع فتاوى ابن تيمية ج٢٥ / ٣٠٨- ٣٠٩].

وقد ابتدع النواصب [وهم الذين ناصبوا عليَّ بن أبي طالب رضي الله عنه العداء وكفَّروه] بدعةً أخرى في مقابلة بدعة الرافضة، وهي بدعة السرور والفرح في هذا اليوم، واتخاذه عيدًا، تُلبس فيه ثياب الزينة، ويُوسَّع فيه على العيال، وقد رووا أحاديث باطلة في الاكتحال والتوسعة على العيال، منها حديث: «من اكتحل بالإثمد يوم عاشوراء لم ترمد عينه». وقد أورده ابن الجوزي في «الموضوعات»، وجزم السخاوي بوضعه في المقاصد الحسنة، وساق قول الحاكم: «والاكتحال يوم عاشوراء لم يرد عن النبي ﷺ فيه أثر، وهو بدعة ابتدعها قَتَلة الحسين عليه السلام» [المقاصد الحسنة للسخاوي، ص٦٣٣].

وحديث التوسعة على العيال سُئل عنه الإمام أحمد فقال: لا أصل له [الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ، ص٢٧٠]، وذكر الألباني أن شيخ الإسلام ابن تيمية حكم عليه بالوضع. [مشكاة المصابيح ١ / ٦٠١].

وفعل هؤلاء وهؤلاء في هذا اليوم من البدع المظلمة، ولم يثبت في فضل عاشوراء سوى ما جاء في صيامه على التفصيل المذكور آنفًا.

وفق الله المسلمين لاتباع السنة، والله الهادي إلى سواء السبيل.

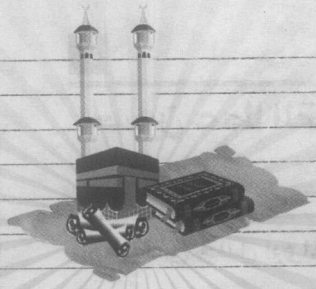

افتتاحية العدد

القدوة الحسنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.. وبعد:

فإن المسلم الحق هو الذي تتمثل فيه مبادئ الإسلام، وتكون واقعًا عمليًا في حياته، وقد ذمَّ الله تعالى قومًا خالفت أفعالُهم أقوالَهم، فقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ. كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣].

ففي الآية الأولى إنكار على الذين يقولون ما لا يفعلون، وفي الثانية الإعلام ببغض الله لمن يكون كذلك، قال ابن سيده: «المقت: أشد الإبغاض» [لسان العرب لابن منظور ٢ / ٩٠].

كما نعى الله على أهل الكتاب أمرَهم الناس بالبر وتركهم له، فقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٤٤].

يقول ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: كيف يليق بكم يا معشر أهل الكتاب، وأنتم تأمرون الناس بالبر، وهو جماع الخير أن تنسوا أنفسكم، فلا تأتمروا بما تأمرون الناس به، وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب، وتعلمون ما فيه على من قصَّر في أوامر الله؟! أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم، فتنتبهوا من رقدتكم، وتتبصروا، وهذا ما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾، قال: كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر، ويخالفون، فعيَّرهم الله عز وجل، وكذلك قال السدي». [تفسير ابن كثير ١/ ١٣٥].

وعلى هذا فيجب على كل مسلم أن تصدِّق أفعالُه أقوالَه، وأن ينأى بنفسه عن صفات قوم ذمَّهم الله في كتابه.

إن التناقض بين القول والفعل من الأمور الخطيرة التي تمس قضية الإيمان، ومن حاول أن يتجمل بما ليس فيه، أو يتظاهر بالصالحات؛ فلا بد أن يتعرى يومًا ما؛ لأنه لا بد أن يظهر المخبوء على طول المعاملة، كما قال الشاعر:

ومهما تكن عند امرئ من خليقة
وإن خالها تخفى على الناس تُعلَم

إن صلاح الداعية أبلغ وسيلة تقود الناس إلى الله تعالى، وأصحاب الأخلاق الفاضلة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم

وإذا كانت القدوة الحسنة مطلوبة من عموم المؤمنين، فإن الأمر بها يتأكد في حق الدعاة إلى الله عز وجل، ويكون بهم ألزم.

إن القدوة الحسنة طريق يجب أن يسلكه جميع الدعاة، وهي التي ستحقق لهم الكثير في دعوتهم، وتختصر لهم الطريق، وتوفر عليهم جهودًا كبيرة.

إن صلاح الداعية أبلغ وسيلة تدعو الناس إلى الله، وأصحاب الأخلاق الفاضلة لهم من شرف السيرة وجلال الشمائل ما يبعث على الإعجاب بهم والإنصات إلى أقوالهم، ولهذا أمر الله النبي ﷺ أن يقتدي بالأنبياء والمرسلين السابقين عليه؛ لأنهم دعاة خير وفضيلة، وأصحاب منهج وحَمَلة رسالة.

قال الله تعالى بعد ذكره لثمانية عشر نبيًا ورسولاً في كتابه موجهًا الخطاب للنبي ﷺ: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهِ﴾ [الأنعام: ٩٠]، وهذا أمر صريح من الله جل وعلا للنبي ﷺ باتباعهم والاقتداء بهم.

قال الإمام ابن جرير - رحمه الله -: «يقول تعالى ذكره: أولئك: هؤلاء القوم الذين وكلنا بآياتنا وليسوا بها بكافرين، هم الذين هداهم الله لدينه الحق، وحفظ ما وُكلوا بحفظه من آيات كتابه، والقيام بحدوده، واتباع حلاله وحرامه، والعمل بما فيه من أمر الله، والانتهاء عما فيه من نهيه، فوفقهم جل ثناؤه لذلك، فبهداهم اقتده، يقول تعالى ذكره: فبالعمل الذي عملوا والمنهاج الذي سلكوا، وبالهدى الذي هديناهم والتوفيق الذي وفقناهم اقتدِه يا محمد ﷺ، أي: فاعمل وخذ به، واسلكه، فإنه عمل لله فيه رضا، ومنهاج من سلكه اهتدى، وهذا التأويل على مذهب من تأول قوله: ﴿فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ﴾ أنهم الأنبياء المُسَمَّوْنَ في الآيات المتقدمة، وهو القول الذي اخترناه في تأويل ذلك». [تفسير ابن جرير ٧ / ١٧٥-١٧٦].

وأول أمر يجب أن يُقتَدى بهم فيه هو توحيد الله تعالى وعبادته وحده دون سواه، ونفي الشريك عنه جل في علاه، ثم الاقتداء بهم في جميع الأخلاق الحميدة والصفات النبيلة الرفيعة.

وقال الشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- في هذه الآية: «أولئك الأنبياء الثمانية عشر الذين ذُكرت أسماؤهم في الآيات، والموصوفون في الآية الأخيرة بإيتاء الله إياهم الكتاب والحكم والنبوة، هم الذين هداهم الله تعالى الهداية الكاملة، فبهداهم اقتد أيها الرسول ﷺ فيما يتناوله كسبك وعملك مما بعثك به من تبليغ الدعوة، وإقامة الحجة، والصبر على التكذيب والجحود، وإيذاء أهل العناد والجمود ومقلدة الآباء والجدود، وإعطاء كل حال حقها من مكارم الأخلاق، وأحاسن الأعمال، كالصبر والشكر، والشجاعة والحلم، والإيثار والزهد، والسخاء والبذل والحكم بالعدل». [باختصار وتصرف من تفسير المنار ٧ / ٥٩٧-٥٩٨].

وقد شهد الله تعالى للنبي ﷺ بأنه جاء بالحق وصدق المرسلين، فعُلم بهذا أنه كان مهتديًا بهداهم جميعًا، وبهذا كانت مناقبه وفضائله أعلى من جميع فضائلهم ومناقبهم؛ لأنه اقتدى بها جميعًا، فاجتمع له من الكمال ما كان متفرقًا في غيره، ولذلك شهد الله تعالى له بما لم يشهد به

قد شهد الله تعالى للنبي ﷺ أنه جاء بالحق وصدق المرسلين، فلذلك اجتمع فيه ﷺ من الكمال ما كان متفرقًا في غيره من الرسل؛ لأنه اقتدى بهم فكانت فضائله ومناقبه أعلى من جميع مناقبهم وفضائلهم، لذا قال الله له: «وإنك لعلى خلق عظيم»

لأحد منهم؛ فقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

ولهذا يجب علينا الاقتداء بالنبي المجتبى والرسول المصطفى ﷺ، فهو إمام المتقين وقائد الغُرّ المحجلين، وهو الذي أمرنا الله في كتابه أن نتأسى به، فقال: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

قال ابن كثير في شرحه للآية: «هذه الآية أصل كبير في التأسي برسول الله ﷺ، في أقواله وأفعاله وأحواله، ولهذا أمر تبارك وتعالى الناس بالتأسي بالنبي ﷺ يوم الأحزاب، في صبره ومصابرته، ومرابطته ومجاهدته، وانتظاره الفرج من ربه عز وجل، صلوات الله وسلامه عليه دائمًا إلى يوم الدين، ولهذا قال تعالى للذين تقلقلوا وتضجروا وتزلزلوا واضطربوا في أمرهم يوم الأحزاب: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، أي: هلا اقتديتم به وتأسيتم بشمائله؟ ولهذا قال تعالى: ﴿لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [تفسير ابن كثير ٣ / ٦٤٢].

وقد عقد الإمام البخاري في الصحيح في كتاب الاعتصام بابين: قال في الأول: «باب الاقتداء بسنن رسول الله ﷺ، وقول الله تعالى: ﴿وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾. قال: أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا». [صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ٢، ج١٣ / ٢٤٨].

وقال في الباب الثاني: «باب الاقتداء بأفعال النبي ﷺ». قال ابن حجر في شرحه: «الأصل فيه قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، وقد ذهب جمع إلى وجوبه؛ لدخوله في عموم الأمر بقوله تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ وبقوله: ﴿فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾. [صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب ٤، ج١٣ / ٢٧٤].

وقد نال نبينا ﷺ هذه المرتبة والمكانة، وأُمرنا بالاقتداء به؛ لما كان عليه من الصفات الجميلة، والأخلاق الفاضلة، وعبوديته الحقة لله رب العالمين، فلقد جاهد في سبيل الله، وقام الليل متضرعًا بين يدي ربه ومولاه، وتحمل سفاهة قومه وإيذاءهم له ممتثلاً أمر ربه له: ﴿وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً﴾ [المزمل: ١٠]، ثم أتبع صبره بالرحمة والعطف والدعاء لهم، فلم يكن ﷺ قاسي الفؤاد، أو فظًا غليظ القلب.

وقد نهج أصحابه المخلصون نهجه، وسلكوا سبيله، فكانوا قدوة حسنة لمن جاء بعدهم، ونشروا الإسلام بعلم وعدل، وفتحوا قلوب العباد قبل بلادهم بسموّ أخلاقهم وحسن سياستهم، وخوفهم من ربهم، وما أكثر الصفات الحسنة التي تحلَّوْا بها حتى سادوا الدنيا في زمانهم، واستحقوا قول أحدهم -وهو عبد الله بن مسعود- فيهم: «من كان منكم مستنًا فليستن بمن قد مات؛ فإن الحي لا تؤمن عليه الفتنة، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا أفضل هذه الأمة، أبرَّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم». [شرح العقيدة الطحاوية ٢ / ٥٤٦].

وعلى المبلغين عن الله والدعاة إليه أن يكونوا على هذا الطريق، ويسلكوا نفس السبيل، وقد

إن الإسلام انتشر في القرون الفاضلة بسبب تمسك الدعاة إليه والحاملين له بدينهم، وبسائر الأخلاق الفاضلة، حتى ضربوا أروع الأمثلة في ذلك

وصف الله المبلغين عنه في كتابه، فقال: ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب: ٣٩]، والآية تبين أنه لا بد من العمل والتطبيق مع الدعوة والعلم حتى تكون الخشية، كما قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]، والفقيه من وَرِعَ عن محارم الله، والعالم من خاف الله. [ورد من كلام الشعبي رحمه الله، أورده عنه أبو نعيم في حلية الأولياء ٤ / ٣١١].

وقال الفضيل بن عياض: «أعلم الناس بالله أخوفهم له». [حلية الأولياء ٨ / ١١١].

ولهذا فإني أنصح نفسي وإخواني، وأذكِّر جميع طلبة العلم والدعاة إلى ضرورة التحلي بالزهد والورع، والتواضع، وإيثار الآخرة على الأولى، والسمت الصالح، والاستزادة من النوافل المشروعة، وأعمال الخير والبر المتعددة، ومن ذلك تلاوة القرآن، وقيام الليل، والذكر والاستغفار، وغير ذلك من الفضائل، وهي أمور متأكدة في حق أهل العلم والفضل، قال الله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴾ [الزمر: ٩].

وقد كان سلفنا الصالح - رضوان الله عليهم أجمعين- على درجات عالية في هذا المجال، وكانوا يتورعون حتى عن بعض المباحات، فقد ذكر ابن القيم -رحمه الله- أن شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- قال له يومًا -وقد سأله عن شيء من المباح-: «هذا ينافي المراتب العالية، وإن لم يكن تركه شرطًا في النجاة، أو نحو هذا من الكلام».[مدارج السالكين لابن القيم ٢ / ٢٧].

إن الإسلام انتشر في القرون الفاضلة بسبب تمسك هؤلاء الدعاة إليه والحاملين له بدينهم، وبسائر الأخلاق الفاضلة، حتى ضربوا أروع النماذج في دنيا الناس، وكانوا سببًا في نشر دين الإسلام ودخول الكثير فيه.

إن أصحاب البلاد المفتوحة نظروا بشيء من الدهشة إلى حَمَلة العقيدة الربانية، وصدقهم في دعوتهم، ورأوا فيهم نماذج خلابة للفضل والعدل، فأقبلوا على الدين، واستسلموا لرب العالمين.

إن صلاح المجتمع المسلم هو من أكبر البواعث على دخول الناس في دين الله أفواجًا، فيا أمة الإسلام ودعاة السنة، الزموا الجادة، وتعلموا أحوال الرسول ﷺ وسيرته، وأحوال الصحابة وأكابر العلماء، وزيِّنوا العلم بالعمل، فالقدوة الحسنة طريق صحيح لنشر الإسلام.

أسأل الله عز وجل يقظةً تفهِّمنا المقصود، وتعرفنا المعبود، وأعوذ بالله من سبيل رعاع يتسمون بالعلماء، لا ينهاهم ما يحملون، ويعلمون ولا يعملون، ويأخذون عرض الأدنى، وقد نُهوا عما يأخذون، وختامًا أعوذ بالله أن أذكِّر به وأنساه.

والحمد لله رب العالمين.

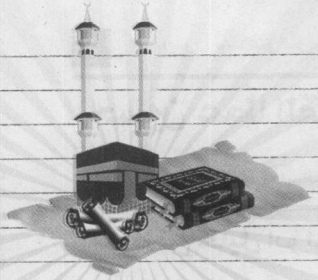

افتتاحية العدد

الموالد بدعة أحدثها العُبيديون

بقلم/ الرئيس العام

د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق، والصلاة والسلام على من تركنا على المحجة البيضاء لا يزيغ عنها إلا هالك، وبعد:

فمن البدع المظلمة المتكررة التي روَّج لها الشيطان بدعةُ الاحتفال بالموالد التي درج عليها بعض الناس واستحسنوها، وقد تأثروا في ذلك بالنصارى المحتفلين في كل عام بما يطلقون عليه «الاحتفال بالعيد المجيد»، ويعنون به عيد ميلاد المسيح - عليه السلام -، وذلك في اليوم السابع من شهر يناير، ومما يؤسف له أن جَهَلة المسلمين يشاركونهم في ذلك.

وفي شهر ربيع الأول وهو الشهر الذي وُلد فيه النبي ﷺ يحتفل كثير من الطُّرُقية بالمولد النبوي؛ زاعمين صدق محبتهم للنبي ﷺ، والأمر ليس كذلك؛ لأن البدع لا يُتَقَرَّب بها إلى الله، وقد مضت القرون المفضلة التي شهد لها بالخيرية نبينا محمد ﷺ وفيهم الصحب الكرام ولم يفعلوا شيئًا من ذلك مع شدة محبتهم واتباعهم للنبي ﷺ، وهم أعلم الناس بالسنة، وأحرصهم على اتباع الحق وسلوك طريق الخير. والموالد بدعة محدثة أحدثها أولاد بني عبيد القداح الذين يسمون أنفسهم بالفاطميين.

قال الشيخ علي محفوظ - رحمه الله -: «الموالد هي الاجتماعات التي تُقام لتكريم الماضين من الأنبياء والأولياء، والأصل فيها أن يُتَحرى الوقت الذي وُلد فيه من يُقصد بعمل المولد، وقيل: أول من أحدثها بالقاهرة الخلفاء الفاطميون في القرن الرابع، فابتدعوا ستة موالد: المولد النبوي، ومولد أمير المؤمنين علي - رضي الله عنه -، ومولد السيدة فاطمة الزهراء - رضي الله عنها -، ومولد الحسن والحسين - رضي الله عنهما -، ومولد الخليفة

الحاضر، وبقيت هذه الموالد على رسومها إلى أن أبطلها الأفضل بن أمير الجيوش، ثم أُعيدت في خلافة الآمر بأحكام الله في سنة أربع وعشرين وخمسمائة بعدما كاد الناس ينسونها، وأول من أحدث المولد النبوي في مدينة إربل الملك المظفر أبو سعيد في القرن السابع، وقد استمر العمل بالموالد إلى يومنا هذا، وتوسع الناس فيها وابتدعوا بكل ما تهواه أنفسهم، وتوحيه إليهم شياطين الإنس والجن» [الإبداع في مضار الابتداع للشيخ علي محفوظ ص٢٥٠، ٢٥١].

والفاطميون يزعمون نسبتهم إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -، وقد كذبوا في ذلك؛ لأن جدهم هو ميمون بن ديصان المعروف بالقداح [سُمي قداحًا؛ لأنه كان كحالاً يقدح العيون إذا نزل فيها الماء، انظر وفيات الأعيان ٣ / ١١٨، ولسان العرب ٢ / ٥٥٦]، وكان مولًى لجعفر بن محمد الصادق، وكان يظهر التشيع ويبطن الزندقة [الأعلام للزركلي ٧ / ٣٤١]، ثم خرج من نسله رجل اسمه «سعيد بن الحسين»، ولكنه غيَّر اسمه ونسبه وقال لأتباعه: أنا عبيد الله بن الحسن بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ولقب نفسه بالمهدي.

قال الذهبي - رحمه الله -: «وعبيد كان اسمه سعيدًا، فغيَّره بعبيد الله لما دخل إلى المغرب، وادَّعى نسبًا ذكر بطلانه جماعة من علماء الأنساب، ثم ترقى، وتملَّك، وبنى المهدية، وكان زنديقًا خبيثًا، ونشأت ذريته على ذلك، وبقي هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها» [سير أعلام النبلاء ١٥ / ٢١٣].

قال ابن خلكان: «وأهل العلم بالأنساب من المحققين ينكرون في دعواه النسب» [وفيات الأعيان ٣ / ١١٧].

وقال محمد بن الحسن الديلمي: «والصحيح أنهم من أولاد عبيد الله بن ميمون القداح الثنوي، وإنما أرادوا أن يؤكدوا خديعتهم للعوام بالقربة إلى العترة عليهم السلام» [بيان مذهب الباطنية وبطلانه ص٢١].

وقال ابن تيمية: وقد عُلم أن جمهور الأمة تطعن في نسبهم، ويذكرون أنهم من أولاد المجوس، أو اليهود. وهذا مشهور من شهادة علماء الطوائف: من الحنفية، والمالكية، والشافعية، والحنابلة، وأهل الحديث، وأهل الكلام، وعلماء النسب، والعامة وغيرهم، وهذا أمر أقره عامة المصنَّفين لأخبار الناس وأيامهم، حتى بعض من يتوقف في أمرهم كابن الأثير الموصلي في تاريخه ونحوه، فإنه ذكر ما كتبه علماء المسلمين بخطوطهم في القدح في نسبهم» [مجموع فتاوى ابن تيمية ٣٥ / ١٢٨].

وهؤلاء القوم المذكورون بهذه الصفات عند أئمة أهل العلم هم الذين أحدثوا هذه الموالد، وأدخلوها على المسلمين؛ حتى جعلوا السَّنَةَ كلها أعياداً ومواسم، واحتفلوا بأعياد المجوس والنصارى، وهذا يدل على فساد معتقدهم وشناعة بدعهم، وقد ذكر المقريزي أعيادهم ومواسمهم على مدار العام، فقال: «وكان للخلفاء الفاطميين في السنة أعياد ومواسم، وهي: موسم رأس السنة، وموسم أول العام، ويوم عاشوراء، ومولد النبي ﷺ، ومولد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، ومولد الحسن، ومولد الحسين، عليهما السلام، ومولد فاطمة الزهراء،

الفاطميون يزعمون نسبهم إلى علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد كذبوا في ذلك، فإن جدهم هو ميمون بن ديصان المعروف بالقداح

عليها السلام، وليلة أول رجب، وليلة نصفه، وليلة أول شعبان، وليلة نصفه، وموسم ليلة رمضان، وغرة رمضان، وسماط رمضان [لعله يقصد السُّمُط التي تُمَدّ ويُوضع عليها الطعام، ويحدث هذا في المناسبات كما يكون في رمضان، ولعله كان عادة عند الفاطميين (العبيديين) في رمضان، انظر القاموس المحيط ٢/ ٣٨٠]،وليلة الختم، وموسم عيد الفطر، وموسم عيد النحر، وعيد الغدير، وكسوة الشتاء، وكسوة الصيف، وموسم فتح الخليج، ويوم النيروز، ويوم الغطاس، ويوم الميلاد، وخميس العدس، وأيام الركوبات» [الخطط المقريزية ٢ / ٤٣٦].

ويلاحظ من هذا السرد كثرة احتفالاتهم التي صرفوا الناس بها عن الحق والهدى والسنة، وشغلوهم بما لم يشرعه الله تعالى، وبعض هذه الأعياد هي مناسبات لغير المسلمين وأعيادهم، وذلك كيوم النيروز، وهو من أعياد الفرس، وكانوا يرشون الماء في ذلك اليوم، ويتيمنون به، وقيل أول من اتخذ النيروز عيدًا أحد ملوك الفرس الأوَل، ويقال في اسمه جمشيد أو جمشاد. [المرجع السابق ٢ / ٤٤٣].

ويوم الغطاس من أعياد النصارى، قال المسعودي في مروج الذهب: «ولليلة الغطاس بمصر شأن عظيم عند أهلها، لا ينام الناس فيها، وهي ليلة إحدى عشرة من طوبة، ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر، وقد حضر النيل في تلك الليلة: مئو ألوف من الناس من المسلمين والنصارى، وهي أحسن ليلة تكون بمصر وأشملها سرورًا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم في النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض ونشرة للداء».

وأما خميس العدس: فهو خميس العهد، والعامة الذين يسمونه بخميس العدس، ويعمله نصارى مصر قبل الفصح بثلاثة أيام ويتهادون فيه، وكان من جملة رسوم الدولة الفاطمية.

والحاصل من ذلك أن العبيديين أحدثوا مواسم وأعيادًا كثيرة، وكانوا يظهرون الفرح والسرور بها، وبعضها - كما أشرت إلى ذلك - من أعياد المجوس والنصارى، وهذا يدل على أنهم كانوا يرغبون من وراء ذلك نشرَ عقائد فاسدة بين المسلمين، وصرفهم عن العبادات المشروعة إلى بدع ومحدثات ما أنزل الله بها من سلطان، ولا سنَّها النبي - عليه الصلاة والسلام-، وإذ قد عرفنا أن بعض هذه الأعياد من شرائع الكفار، ومن شعائر أديانهم الباطلة، فلا يجوز للمسلمين أن يتشبهوا بهم، وأن يسيروا في ركاب باطلهم.

يقول ابن تيمية - رحمه الله -: «ومن المنكرات في هذا الباب: سائر الأعياد والمواسم المبتدعة، فإنها من المنكرات المكروهات، وسواء بلغت الكراهةُ التحريمَ أو لم تبلغه، وذلك أن أعياد أهل الكتاب والأعاجم نُهِيَ عنها لسببين: أحدهما: أن فيها مشابهة الكفار، والثاني: أنها من البدع، فما أُحدث من المواسم والأعياد هو منكر» [اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ٢ / ٥٧٨].

وقد استند القائلون ببدعة المولد النبوي إلى شبهات ظنوا أنها تؤيد عملهم، وأنه المشروع، ومن هذه الشبهة ما ذكره أبو قتادة الأنصاري -رضي الله عنه- أن النبي ﷺ سُئل

في شهر ربيع الأول ولد النبي ﷺ، وفيه توفي، فلماذا يفرحون بميلاده، ولا يحزنون لوفاته؟ فالاحتفال بمولده بدعة منكرة، ولو كان فيه خير فكيف غفل عنه الصحابة والتابعون وتابعوهم وأئمة الهدى؟

عن صيام يوم الاثنين، فقال: «ذلك يوم وُلدت فيه، ويوم بُعثت أو أنزل عليَّ فيه». [أخرجه مسلم في كتاب الصيام باب ٣٦، ٢ / ٨١٩، وأحمد في مسنده ٥ / ٢٩٧ وغيرهما].

والجواب عن هذه الشبهة: أن النبي ﷺ لم يخصّ يوم الاثنين وحده بالصيام، بل كان يتحرى صيام يومي الاثنين والخميس، وذكر العلة في ذلك كما في الحديث أن مولى أسامة ابن زيد انطلق مع أسامة إلى وادي القرى يطلب مالاً له، وكان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس، فقال له مولاه: لِمَ تصوم يوم الاثنين والخميس وأنت شيخ كبير قد رققت؟ قال: إن رسول الله ﷺ كان يصوم يوم الاثنين ويوم الخميس، فسُئل عن ذلك فقال: «إن أعمال الناس تُعرض يوم الاثنين والخميس». وفي رواية: «وأحب أن يُعرض عملي وأنا صائم». [أخرجه أحمد في مسنده ٥ / ٢٠٠، ٢٠١، وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢ / ٤٦٢].

فالحديث دلَّ على استحباب صوم يومي الاثنين والخميس؛ لأنهما يومان تُعرض فيهما الأعمال، فالاستدلال بصوم يوم الاثنين على جواز الاحتفال بالمولد في غاية التكلف والبعد، وخروج عن العلة التي ذكرها الرسول ﷺ نفسه، وكان يصوم الخميس مع الاثنين، ولو أراد الاحتفال بمولده ﷺ لاكتفى بيوم الاثنين فحسب.

وهناك لفتة أخرى مهمة ذكرها الشيخ محمد عبد السلام الشقيري - رحمه الله- قال فيها: «لا يختص هذا الشهر بصلاة، ولا ذكر ولا عبادة، ولا نفقة ولا صدقة، ولا هو موسم من مواسم الإسلام كالجُمَع والأعياد التي رسمها لنا الشارع -صلوات الله وتسليماته عليه وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين-، ففي هذا الشهر وُلد ﷺ، وفيه تُوفي، فلماذا يفرحون بميلاده، ولا يحزنون لوفاته؟ فاتخاذ مولده موسمًا والاحتفال به بدعةٌ منكرة ضلالة لم يرد بها شرع ولا عقل، ولو كان في هذا خير فكيف يغفل عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وسائر الصحابة والتابعون وتابعوهم والأئمة وأتباعهم؟ لا شك أنه ما أحدثه إلا المتصوفون الأكالون أصحاب البدع، وتبع الناس بعضهم بعضًا فيه إلا من عصمه الله ووفقه لفهم حقائق الإسلام». [السنن والمبتدعات، ص١٤٠].

ثم إن النبي ﷺ لم يصم يوم ولادته فقط، وهو اليوم الثاني عشر من ربيع الأول- إن صح أنه الذي وُلد فيه - وإنما صام يوم الاثنين الذي يتكرر مجيئه أربع مرات، وأحيانًا خمس مرات، فلو أراد الاحتفال بمولده لصام اليوم الذي وُلد فيه فقط.

ويضاف إلى هذا أن النبي ﷺ اقتصر على الصيام فحسب، وما عليه أرباب الموالد والطُّرُقية اليوم على نقيض هذا، فهم يتناولون في هذا اليوم أشهى الأطعمة، ويتوسعون في ذلك، بل يطربون ويرقصون من خلال المدائح والأنغام التي يفعلونها، وفيها من الضلال ما فيها، وهذا في غاية البعد عن فعله ﷺ وقصده الذي أراده من وراء صيام الاثنين، فشتان بين الفعلين والغرضين، وهل يمكن أن يكون هذا القياس صحيحًا؟!

وهناك شبهات أخرى للقائلين بالموالد أتعرض لها -إن شاء الله- في العدد القادم، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

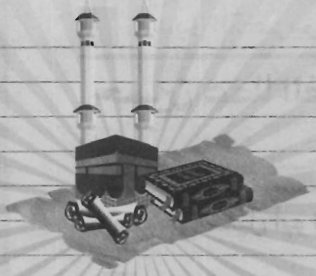

افتتاحية العدد

نقض شبهات القائلين بالمولد

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي منَّ علينا بشرائع الهدى، وبعث فينا نبيه المصطفى صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم..

وبعد:

فقد ذكرت في اللقاء السابق شبهة واحدة من الشُّبَه التي استدل بها القائلون بعمل المولد النبوي، وتناولتها بالرد، وفي هذا اللقاء أتابع الحديث في ذلك بذكر بعض شُبَههم الأخرى وأجيب عنها؛ حتى لا يبقى عند من يتحرى الحق ويقصده شك في بدعة المولد، وسأُتْبِع ذلك - إن شاء الله - بذكر بعض أقوال أئمة أهل العلم في حكم الموالد، فأقول وبالله التوفيق:

الشبهة الثانية

ولقد ذكرها السيوطي - رحمه الله- فقال: «وقد استخرج له - أي المولد - إمام الحفاظ أبو الفضل أحمد بن حجر العسقلاني - أصلاً من السنة، واستخرجت له أصلاً ثانيًا، ثم ساق كلام ابن حجر ونصه: «أصل عمل المولد بدعة لم تُنقل عن أحد من السلف الصالح من القرون الثلاثة، ولكنها مع ذلك قد اشتملت على محاسن وضدها، فمن تحرى في عملها المحاسن وتجنب ضدها كان بدعة حسنة، وإلا فلا، قال: وقد ظهر لي تخريجها على أصل ثابت وهو: ما ثبت في الصحيحين من أن النبي ﷺ قدم المدينة فوجد اليهود يصومون يوم عاشوراء، فسألهم، فقالوا: هو يوم أغرق الله فيه فرعون، ونجى موسى، فنحن نصومه شكرًا لله، [البخاري ٣٣٩٧، ومسلم ٢٧١٢]؛فيستفاد منه فعل الشكر على ما منَّ الله به في يوم معين من إسداء نعمة أو دفع نقمة، ويُعاد ذلك في نظير ذلك اليوم من كل سنة، والشكر لله يحصل بأنواع العبادة كالسجود والصيام، والصدقة والتلاوة، وأي نعمة أعظم من النعمة ببروز هذا النبي نبي الرحمة ﷺ في ذلك اليوم، وعلى هذا فينبغي أن يتحرى اليوم بعينه حتى يطابق قصة موسى عليه السلام في يوم عاشوراء». [الحاوي للفتاوى للسيوطي ١ / ١٩٦].

ويجاب عن هذه الشبهة بالأوجه التالية: أولاً: يُلاحظ من كلام الحافظ ابن حجر السابق أنه صرح

والسابقون الأولون أعرف بقدر النبي ﷺ، وأعظم محبة له، ممن جاء بعدهم، ولو كان في الاحتفال بمولده خير؛ لكانوا أسبق الناس إليه

بأن أصل عمل الموالد بدعة لم تُنقل عن أحد من السلف الصالح من أهل القرون الثلاثة، وهذا الكلام كافٍ جدًا في بدعية الاحتفال بالمولد، وهو نص صريح منه.

ثم أقول: إن أمرًا لم يفعله خير هذه الأمة ولم يستحسنوه، أفيكون حسنًا عند من جاء بعدهم؟!!

والسابقون الأولون أعرفُ بقدْر النبي ﷺ، وأعظم محبة له ممن جاء بعدهم، ولو كان في الاحتفال بمولده خير؛ لكانوا أسبق الناس إليه.

ثانيًا: الاستدلال بحديث صوم يوم عاشوراء في عمل المولد، لا يستقيم مع قوله بأن عمل المولد بدعة؛ لأن النبي ﷺ صام يوم عاشوراء ورغَّب فيه، بخلاف الاحتفال بمولده، فإنه ﷺ، لم يفعله، ولم يرغِّب فيه، ولو كان فيه فضل لذكره لأمته ولحثَّهم عليه، ولعمل به السلف الصالح، فتركهم له يدل على أنه من البدع التي لا يجوز فعلها.

ثالثًا: تخريج بدعة المولد على صيام يوم عاشوراء من التكلف المردود؛ لأن العبادات مبناها على الشرع والاتباع، لا على الرأي والاستحسان والابتداع.

الشبهة الثالثة

وهي للسيوطي - رحمه الله - وقد ذكرها بعد سياقه لكلام ابن حجر السابق ونصها: «وقد ظهر لي تخريجه على أصل آخر، وهو ما أخرجه البيهقي عن أنس - رضي الله عنه - أن النبي ﷺ عقَّ عن نفسه بعد النبوة،[البيهقي في السنن ٩ / ٣٠٠ رقم ١٩٧٥٠، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة (٦ / ٥٠٢ برقم ٢٧٢٦) بلفظ «عق عن نفسه بعدما بُعِثَ نبيًا»] مع أنه قد ورد أن جده عبد المطلب عق عنه في سابع ولادته، والعقيقة لا تُعاد مرة ثانية، فيُحمل ذلك على أن الذي فعله النبي ﷺ إظهار للشكر على إيجاد الله إياه رحمة للعالمين وتشريعًا لأمته، كما كان يصلي على نفسه ﷺ، لذلك فيُستحب لنا أيضًا إظهار الشكر بمولده بالاجتماع وإطعام الطعام، ونحو ذلك من وجوه القربات، وإظهار المسرات». [الحاوي للفتاوى للسيوطي ١ / ١٩٦].

ويجاب عن هذه الشبهة بأن الحديث الذي ذكره السيوطي لم يثبت عن النبي ﷺ، وهذه أقوال أهل العلم فيه:

قال ابن القيم بعد إيراده لهذا الحديث وعزوه إلى عبد الرزاق بن همام الصنعاني في مصنفه، قال عبد الرزاق: «إنما تركوا ابن محرر لهذا الحديث». [تحفة المودود بأحكام المولود ص٩٩].

وقال النووي: «وأما الحديث الذي ذكره في عق النبي ﷺ عن نفسه؛ فرواه البيهقي بإسناده عن عبد الله بن محرر بالحاء المهملة والراء المكررة عن قتادة عن أنس أن النبي ﷺ «عق عن نفسه بعد النبوة»، وهذا حديث باطل. قال البيهقي: هو حديث منكر، وقد روي هذا الحديث من وجه آخر عن قتادة، ومن وجه آخر عن أنس، وليس بشيء؛ فهو حديث باطل، وعبد الله بن محرر ضعيف متفق على ضعفه. قال الحفاظ: هو متروك، والله أعلم». [المجموع شرح المهذب للنووي ٨ / ٤٣١، ٤٣٢].

وقال الحافظ الذهبي في ترجمة عبد الله بن المحرر: «قال أحمد: ترك الناس حديثه، وقال الجوزجاني: هالك، وقال الدارقطني وجماعة: متروك، وقال ابن حبان: كان من خيار عباد الله إلا

أنه كان يكذب ولا يعلم، ويقلب الأخبار ولا يفهم». ثم ذكر أن الحديث المذكور من بلاياه. [ميزان الاعتدال في نقد الرجال ٣ / ٢١٤].

كما ذكر ابن حجر أن هذا الحديث لا يثبت، وقال: «أخرجه البزار وقال: تفرد به عبد الله وهو ضعيف». [فتح الباري ٩ / ٥٩٥].

﴿ الشبهة الرابعة ﴾

قالوا: إن الفرح به ﷺ مطلوب بأمر القرآن من قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا﴾ [يونس: ٥٨]، فالله أمرنا أن نفرح بالرحمة، والنبي ﷺ أعظم الرحمة، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. ويجاب عن هذه الشبهة بما يلي:

أولاً: لا شك أن الفرح به ﷺ مطلوب، ولا شك أنه ﷺ رحمة للعالمين، ولكن الاستدلال بهذه الآية على مشروعية المولد غير صحيح، وهو من قبيل التعسف في فهم النصوص، وحمل لها على ما لم يحمله عليه أحد من الصحابة ولا من سلف هذه الأمة الصالحين، ولم يذكر أحد من أئمة المفسرين أن المقصود بالفرح في الآية هو الاحتفال بمولده ﷺ، وهذه أقوالهم.

قال الإمام الحافظ ابن جرير - رحمه الله -: «يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ قل يا محمد لهؤلاء المشركين بك وبما أُنزل إليك من عند ربك: بفضل الله أيها الناس الذي تفضل به عليكم - وهو الإسلام - فبيَّنه لكم ودعَاكم إليه، وبرحمته التي رحمكم بها؛ فأنزلها إليكم، فعلَّمكم ما لم تكونوا تعلمون من كتابٍ وبصَّركم بها معالمَ دينكم، وذلك القرآن، فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون من حطام الدنيا وأموالها وكنوزها، وبنحو ما قلنا في ذلك قال جماعة من أهل التأويل».

ثم ذكر عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن فضل الله القرآن، ورحمته أن جعلكم من أهله.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما مثله، وعن الضحاك أنه قال: فضل الله القرآن، ورحمته الإسلام. [انظر تفسير الطبري ١١ / ٨٦، ٨٧].

كما ذكر البغوي في تفسيره (٢ / ٣٥٨) عن مجاهد وقتادة أن فضل الله: الإيمان، ورحمته: القرآن، وقال ابن عمر: فضل الله: الإسلام، ورحمته: تزيينه في القلب.

وذهب الحافظ ابن كثير - رحمه الله - إلى أن المراد بفضل الله ورحمته هو: ما جاء من عند الله من دين الحق، وهو أولى ما يفرح به المؤمن. [تفسير ابن كثير ٢ / ٥٧٠].

وهو بهذا يشير إلى الآية السابقة على هذه الآية، وهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]. وقال ابن القيم رحمه الله في تفسير قوله تعالى: ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾: «وقد دارت أقوال السلف على أن فضل الله ورحمته: الإسلام والسنة». [اجتماع الجيوش الإسلامية ص٦].

والذي بُعِثَ بالإسلام وسنَّ السنة هو نبينا - عليه الصلاة والسلام -، وكان سببًا في هداية

إن الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - من أفضل الأعمال، وهي قربة يتقرب بها العبد إلى رب الأرض والسماوات، وينال بها عند ربه أعلى الدرجات

الأمة بدعوته إلى ربه ومولاه، وجهاده في سبيل الله؛ حتى دخل الناس في دين الله أفواجًا، وهذا أمر نسعد به ونفرح، ونشكر الله على ذلك باتباع هديه، والتمسك بسنته، والعضّ عليها بالنواجذ، والبعد عن البدع والمحدثات في الدين، أما أن يذهب البعض إلى أن الفرح به ﷺ معناه أن نُحْدِث في دينه وأمره ما ليس منه، فهذا ليس حبًا ولا فرحًا، بل إنه يستلزم اتهامه ﷺ بالتقصير في تبليغ الرسالة، وأداء الأمانة، والنصح للأمة !!

والقائل باستحباب المولد مُستدركٌ على الشرع، مُدخلٌ فيه ما لم يأذن به الله، والله تعالى يقول: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى: ٢١].

الشبهة الخامسة

قالوا: إن المولد الشريف يبعث على الصلاة والسلام على النبي المطلوبين بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾، وما كان يبعث على المطلوب شرعًا فهو مطلوب شرعًا.

والجواب عن هذه الشبهة بالأوجه التالية:

أولاً: القائل بأن المولد يبعث على الصلاة والسلام على النبي - عليه الصلاة والسلام- ما عرف قدر نبيه ﷺ، وعنده من الجفاء ما عنده؛ وذلك لأنه ينتظر يومًا من أيام العام ليتذكر النبي - عليه الصلاة والسلام - فيقوم بالصلاة عليه!!

إن الصلاة على النبي - عليه الصلاة والسلام - من أفضل الأعمال، وهي قُرْبة يتقرب بها العبد إلى رب الأرض والسماوات، وينال بها عند ربه أعلى الدرجات، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ صَلَّى عَلَيَّ وَاحِدَةً صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ عَشْرًا». [مسلم ٤٠٨].

وعن عبد الله بن أبي طلحة الأنصاري عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال: «أتاني الملك فقال: يا محمد، إن ربك يقول: أما ترضى ما أحد من أمتك صلى عليك إلا صليت عليه عشر صلوات، ولا سلَّم عليك أحد من أمتك إلا رددت عليه عشر مرات، فقال: بلى». [الحاكم (٢ / ٤٥٦ رقم ٣٥٧٥) وصححه ووافقه الذهبي].

فهل يحق لمحب أن يعرض عن هذا الأجر، وينتظر يومًا في العام ليتذكره؟!!

ثانيًا: إن الناظر في الموالد، وما يحدث فيها، وما يقال فيها من مدائح؛ يجزم يقينًا أنها تبعث على إيذاء النبي ﷺ، ولا تبعث على الصلاة عليه؛ لما فيها من غلو وشطط وبدع لا ترضي الله تبارك وتعالى، ولا يرضى عنها نبينا ﷺ، فكيف يقال بعد هذا: إن الموالد تبعث على الصلاة والسلام عليه ﷺ؟!!!

إن هذا من أشنع الظلم وقلب الحقائق، وفيه تمويه على العوام بحجة محبة الرسول - عليه الصلاة والسلام -.

والموضوع يحتاج إلى مزيد من التفصيل، أتركه - إن شاء الله - للحلقة القادمة. والحمد لله رب العالمين.

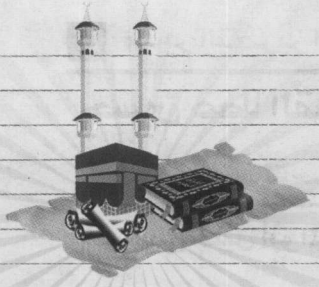

افتتاحية العدد

أقوال أئمة أهل العلم في الموالد

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، ومن نهج نهجهم إلى يوم الدين.. وبعد:

فلقد تكلمت في الحلقتين السابقتين عن بعض الشبهات التي استند إليها القائلون بالمولد، وناقشتهم فيها، وقد بيَّنت من خلال ما ذكرتُ أن الاحتفال بالمولد بدعة محدثة، لم تُؤْثَر عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه - رضوان الله عليهم-، ولا عن التابعين ومن سلك مسلكهم من الأئمة الأعلام المهديين، وإنما أحدثها من أراد صرف الأمة عن الحق، والابتعاد بها عن الوحي الرباني، وطمس معالم السنن والآثار، وقد قيَّض الله لهذا الدين من يرفع لواءه، ويدافع عن سنة نبيه ﷺ، ويتصدى لأهل البدع والضلالات في كل زمان ومكان.

ولهذا آثرت في هذا اللقاء أن أذكر طرفًا يسيرًا من أقوال أئمة العلم المعتبرين في الموالد التي أحدثها المبتدعة؛ وذلك حتى يتبين الحق ويعلم الجميع أننا نسلك سبيل أهل التقى، ولندفع عن أنفسنا ما ذكره البعض من أننا لا نحب النبي ﷺ، وهذا من الكذب والبهتان، نعوذ بالله من الضلال.

ونبدأ بسؤال وُجِّه لشيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عمن يعمل كل سنة ختمة في ليلة مولد النبي ﷺ، وهل ذلك مستحب أم لا؟

فأجاب: «الحمد لله: جمع الناس للطعام في العيدين، وأيام التشريق سُنَّة، وهو من شعائر الإسلام، التي سنَّها رسول الله ﷺ للمسلمين، وإعانة الفقراء بالإطعام في شهر رمضان هو من سنن الإسلام، فقد قال النبي ﷺ: «من فطَّر صائمًا فله مثل أجره» [الترمذي ٨٠٧ وصححه الألباني].

وأما اتخاذ موسم غير المواسم الشرعية كبعض ليالي شهر ربيع الأول التي يُقال: إنها ليلة المولد، أو بعض ليالي رجب، أو ثامن عشر ذي الحجة، أو أول جمعة من رجب، أو ثامن شوال الذي يسميه الجهال: عيد الأبرار؛ فإنها من البدع التي لم يستحبها السلف ولم يفعلوها، والله سبحانه وتعالى أعلم». [مجموع فتاوى ابن تيمية: ٢٥ / ٢٩٨].

وقال ابن الحاج: «فصل في المولد: ومن جملة ما أحدثوه من البدع -مع اعتقادهم أن ذلك من أكبر العبادات وأظهر الشعائر- ما يفعلونه في شهر ربيع الأول من المولد، وقد احتوى على بدع ومحرمات في الجملة، ومن ذلك: استعمالهم المغاني وآلات الطرب من الطر المصرصر والشبابة، وغير ذلك». [«الشبابة»: آلة من

آلات اللهو معروفة. و«الطُّرُّ»: ما صُنع من الوبر، والمصرصر: يعني المشدود. [انظر لسان العرب (٤ / ٤٥١، ٤٩٩)].

فانظر - رحمنا الله وإياك - إلى مخالفة السنة المطهرة ما أشنعها وأقبحها مِن مخالفة!! وكيف تجر إلى المحرمات؟!

ألا ترى أنهم لما خالفوا السنة المطهرة، وفعلوا الموالد لم يقتصروا على فعلها، بل زادوا عليها ما تقدم ذكره من الأباطيل المتعددة، فالسعيد السعيد من شدَّ يده على امتثال الكتاب والسنة، والطريق الموصلة إلى ذلك، وهي اتباع السلف الماضين، رضوان الله عليهم أجمعين؛ لأنهم أعلم بالسنة منا؛ إذ هم أعرف بالمقال، وأفقه بالحال. [المدخل لابن الحاج ٢ / ٢-١٠].

وأقول: ما أحسن هذا الكلام الصادر من عالم فقيه متبع معظِّم للكتاب والسنة، متَّبِع للسلف الصالح الذين لم يعرفوا هذه البدعة.

وقد أشار في كلامه إلى أن المبتدعة أدخلوا أنواعًا من المنكرات في الموالد، وهذا أمر مشاهد حتى اليوم، فهم في هذه الاجتماعات يميلون ويرقصون، ويطربون على أنغام الموسيقى وآلات اللهو المحرمة، مع ذكر كلمات فيها من الغلو ما يأباه الله ورسوله ﷺ.

وقال الشيخ تاج الدين عمر بن علي اللخمي المعروف بابن الفاكهاني: «فإنه قد تكرر سؤال جماعة من المباركين عن الاجتماع الذي يعمله بعض الناس في شهر ربيع الأول، ويسمونه المولد: هل له أصل في الشرع، أو هو بدعة وحدث في الدين؟

وقصدوا الجواب عن ذلك مبيَّنًا، والإيضاح عنه معيَّنًا، فقلت وبالله التوفيق:

لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولم يُنْقَل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها المبطلون، وشهوة نفس اعتنى بها الآكالون، بدليل أنَّا إذا أدرنا عليها الأحكام الخمسة. قلنا: إما أن يكون واجبًا، أو مندوبًا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو محرمًا، وليس هو بواجب إجماعًا، ولا مندوبًا؛ لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشارع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشارع، ولا فعله الصحابة ولا التابعون ولا العلماء المتدينون فيما علمت.

وهذا جوابي عنه بين يدي الله تعالى، إن سُئلت عنه. ولا جائزًا ولا مباحًا؛ لأن الابتداع في الدين ليس مباحًا بإجماع المسلمين، فلم يبق إلا أن يكون مكروهًا أو محرمًا». [الإنصاف فيما قيل في المولد من الغلو والإجحاف، للشيخ أبي بكر الجزائري، ص٥٣- ٥٥].

وقال الشيخ محمد عبد السلام الشقيري: «فصل في شهر ربيع الأول وبدعة المولد فيه: لا يختص هذا الشهر بصلاة ولا ذكر، ولا عبادة، ولا نفقة ولا صدقة، ولا هو موسم من مواسم الإسلام كالجُمَع والأعياد التي رسمها لنا الشارع صلوات الله وتسليماته عليه، وعلى سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين.

ففي هذا الشهر وُلد ﷺ، وفيه توفي، فلماذا يفرحون بميلاده ولا يحزنون لوفاته؟!!

فاتخاذ مولده موسمًا، والاحتفال به بدعة منكرة ضلالة لم يرد بها شرع ولا عقل، ولو كان في هذا خير؛ فكيف يغفل عنه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي، وسائر الصحابة والتابعين وتابعيهم، والأئمة وأتباعهم؟!!

لا شك أنه ما أحدثه إلا المتصوفون الآكالون البطالون أصحاب البدع، وتبع الناس بعضهم بعضًا فيه، إلا من عصمه الله ووفَّقه لفهم حقائق الإسلام، ثم أي فائدة تعود، وأي ثواب في هذه الأموال الباهظة التي تعلق بها هذه التعاليق، وتنصب بها هذه السرادقات، وتضرب بها الصواريخ ؟!!

وأي رضا لله في اجتماع الرقاصين والرقاصات، والطبالين والزمارين، واللصوص والنشالين، ما فائدة هذا كله؟!!

فائدته سخرية الإفرنج بنا وبديننا، وأخذ صور هذه الجماعات لأهل أوروبا؛ فيفهمون أن محمدًا ﷺ - وحاشاه حاشاه - كان كذلك هو وأصحابه، فإنا لله وإنا إليه راجعون». [السنن والمبتدعات ص١٤٠].

وما ذكره الشقيري - رحمه الله - من منكرات تقع في الموالد، وإنفاق المال في عصره يقع مثله في هذه الأيام، وقد تحدث الشيخ محمد عبده - رحمه الله - مع رجل يقوم صديق له بعمل المولد، وسأله: كم ينفق صاحبك في احتفاله بالمولد؟ قال: أربعمائة جنيه. قال له الإمام: لا شك أن هذا في سبيل الشيطان، فلو كلمت صاحبك في أن يجعل ذلك لجماعة من المجاورين في الأزهر يستعينون به على طلب العلم؛ فيكون بذله شرعيًا، وهؤلاء المجاورون سيذكرونه بخير ويدعون له». [تفسير المنار ٢ / ٧٥].

فانظر - رحمك الله - هذا المبلغ الكبير (في ذلك الوقت) الذي يُصرف في المولد في عهد الشيخ محمد عبده!!

ولنا أن نتساءَل: هل هذا في طاعة الرحمن أو في طاعة الهوى والشيطان؟ لا شك أنه في طاعة الشيطان؛ لأنه أمر مُحدَث؛ لا يشهد له كتاب ولا سنة، بل سرى إلينا تقليدًا منا للأمم الضالة من قبلنا، وكان هذا من أهم أسباب تأخر المسلمين وضياعهم.

ومن المنكرات التي تحدث في المولد - إلى جانب ما سبق ذكره - صناعة الحلوى على هيئة فارس يركب حصانًا، أو على هيئة عروس، ومن المعلوم أن النبي ﷺ نهى عن التصوير والتماثيل، بل كانت بعثته للقضاء على ذلك، فكيف نصنعه بعد ذلك في يوم ميلاده؟ لا شك أن فعل هذا محادة لله ولرسوله ﷺ باسم الحب والدين!!

وقد يقول قائل: وما قول علمائنا في الأزهر الشريف في ذلك؟

أقول: سبق أن ذكرت قول الإمام الشيخ محمد عبده، وقد كان مفتيًا للديار المصرية.

ومن المنكرين للموالد من أئمة وعلماء الأزهر شيخ الأزهر الشيخ محمود شلتوت - رحمه الله -، وقد سُئل عن حكم الدين في إقامة الموالد؟

فأجاب: الموالد: هي هذه الحفلات الصاخبة، أو المجتمعات السوقية العامة التي ابتدعها المسلمون في عهودهم المتأخرة باسم تكريم الأولياء، وإعلاء قدرهم ومكانتهم، ومهما قال عشاق الموالد والمتكسبون بها ومروجوها من أن فيها ذكر الله والمواعظ، وفيها الصدقات وإطعام الفقراء، فإن بعض ما تراه فيها ويراه كل الناس من ألوان الفسوق، وأنواع المخازي، وصور التهتك والإسراف في المال، ما يحتِّم على رجال الشئون الاجتماعية، وقادة الإصلاح الخُلُقي والديني المبادرة بالعمل على إبطالها ومنعها، ووضع حد لمخازيها، وتطهير البلاد من وصمتها». [فتاوى هامة، للشيخ فتحي عثمان ص٢٤ - ٢٧].

وقال الشيخ عبد المجيد سليم - رحمه الله - مفتي الديار المصرية في عصره: «عمل الموالد بالصفة التي يعملها العامة الآن لم يفعله أحد من السلف الصالح، ولو كان ذلك من القُرَب لفعلوه». [موقع دار الإفتاء المصرية، فتوى رقم (٥٨٩)].

وفي الحوار الذي أجرته جريدة الأهرام مع وزير الأوقاف في عصره الدكتور محمد حسين الذهبي - رحمه الله - ذكر أن الموالد مليئة بأمور لا تليق بالمسلمين، وفيها الكثير مما لا يقره الإسلام بمثل صور الذِّكر بالطبول والراقصات. [جريدة الأهرام، الجمعة: ١٩ ديسمبر ١٩٧٥م].

وبعد هذا البيان، فهل يجوز لقائل أن يستحسن الموالد، أو أن يشارك في شيء منها؟!

إن واجب علماء الأمة أن يبينوا الحق للناس، وأن يهتدوا بهدي الكتاب والسنة، وأن يتركوا المناهج البدعية التي زاحمت السنة النبوية، ولو كان في إقامة مولد للمصطفى المختار ﷺ خيرٌ لسبقنا إلى ذلك الصحابة وأئمة التابعين، فهم كانوا على الخير أحرص، ومحبتهم للنبي ﷺ أعظم، وقد بذلوا أنفسهم وأموالهم في إقامة الدين الذي بُعث به النبي ﷺ، ومع ذلك فلم يقعوا في لون من ألوان هذه البدع المظلمة التي سلكها المتأخرون. والمحبة الحقيقية الصادقة للنبي ﷺ تظهر وتحصل في طاعته فيما أمر، وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع.

الخلاصة

أن عمل المولد بدعة محدثة، لم تُؤْثَر عن النبي ﷺ، ولا عن أحد من أصحابه - رضوان الله عليهم أجمعين -، ولا عن التابعين، ولا عن أحد من أئمة السلف الصالح.

والبدعة مهما عمل بها الناس، وانتشرت بينهم، ومهما مرَّت عليها الأزمنة والعصور، لن تكون في يوم من الأيام سنةً يُؤجَر على فعلها، بل هي بوصفها بدعة تكون من الضلالات التي يجب أن ينتهي الناس عنها.

ولهذا فإني أوجه نداءً إلى العلماء والمسئولين أدعوهم فيه إلى منع هذه الموالد، واتباع الصراط المستقيم، والتمسك بما كان عليه نبينا ﷺ، وأذكِّر الجميعَ بقول الله تعالى في محكم التنزيل: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

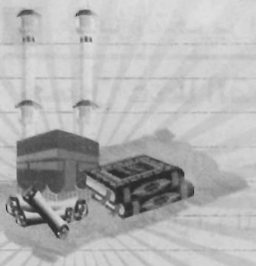

افتتاحية العدد

وسطية الأمة الإسلامية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فإن الله تبارك وتعالى اصطفى هذه الأمة من بين سائر الأمم؛ وذلك لفضلها وخيريتها وتوسطها بين طرفي الإفراط والتفريط، وقد أثبت الله هذه الوسطية لهذه الأمة في كتابه، فقال: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]، ومعنى قوله: «وسطًا» أي: عدولاً خيارًا، وقد فسَّرها بذلك النبي ﷺ؛ كما في حديث أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله ﷺ: «يُجاء بنوح يوم القيامة فيُقال له: هل بلغت؟ فيقول: نعم يا رب، فتُسأل أمته: هل بلغكم؟ فيقولون: ما جاءنا من نذير، فيقول: من شهودك؟ فيقول: محمد وأمته، فتجاء بكم فتشهدون، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]. [البخاري ٧٣٤٩].

والمعنى: أن هذه الأمة أهل توسط بين الأمم، فلم يغلوا غلو النصارى، ولم يجفوا جفاء اليهود. قال الإمام ابن جرير الطبري - رحمه الله - عند تفسيره لهذه الآية: «وأرى أن الله -تعالى ذكره- إنما وصفهم بأنهم وسط لتوسطهم في الدين، فلا هم أهل غلو فيه غلو النصارى الذين غلوا بالترهب، وقيلهم في عيسى ما قالوا فيه، ولا هم أهل تقصير فيه تقصير اليهود الذين بدلوا كتاب الله وقتلوا أنبياءهم، وكذبوا على ربهم وكفروا به، ولكنهم أهل توسط واعتدال فيه، فوصفهم الله بذلك؛ إذ كان أحب الأمور إلى الله أوسطها، وأما التأويل فإنه جاء بأن الوسط: العدل، وذلك معنى الخيار؛ لأن الخيار من الناس عدولهم» [تفسير الطبري ٣/ ١٤٢].

وإن المتأمل في معتقد هذه الأمة وعباداتها ومعاملاتها ليدرك بوضوح أن التوسط والاعتدال أحد الخصائص المهمة التي تميزت بها هذه الأمة، ونالت بسببها شرف الشهادة على غيرها، فهي وسط بين الأمم، آخذة بزمام الاعتدال والتوازن، بعيدة عن طرفي الإفراط والغلو، والتفريط والتقصير؛ إذ كلاهما مذموم غير محمود.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «وقد خص الله تعالى محمدًا ﷺ بخصائص ميزه الله بها على جميع الأنبياء والمرسلين، وجعل له شرعة

التوسط والاعتدال أحد الخصائص المهمة التي تميزت بها هذه الأمة، ونالت بسببها شرف الشهادة على غيرها، فهي وسط بين الأمم

ومنهاجًا، أفضل شرعة وأكمل منهاج مبين، كما جعل أمته خير أمة أخرجت للناس، فهم يوفون سبعين أمة هم خيرها وأكرمها على الله من جميع الأجناس، هداهم الله بكتابه ورسوله ﷺ لما اختلفوا فيه من الحق قبلهم، وجعلهم وسطًا عدلاً خيارًا، فهم وسط في توحيد الله وأسمائه وصفاته، وفي الإيمان برسله وكتبه وشرائع دينه من الأمر والنهي والحلال والحرام». [الجواب الصحيح ١ / ٦٩].

مظاهر وسطية أمة الإسلام

ومن أبرز مظاهر وسطية هذه الأمة بين الأمم:

وسطيتها في توحيد الله وصفاته: فهي وسط بين اليهود والنصارى، فاليهود اتخذوا الأنداد لله وعبدوا الأصنام من دونه، وكان هذا متأصلاً فيهم، فبعد أن نجاهم الله تعالى من عدوهم فرعون وجاوز بهم البحر، وأغرق عدوهم، ومروا على قوم يعكفون على أصنام لهم طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم مثلها، وفي ذلك يقول الحق - تبارك وتعالى -: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٣٨]، وهذا يدل على كفرهم وشركهم بربهم، وقد قالوا ما قالوه بعد أن رأوا شيئًا من عظمة الله وآياته؛ ولما تركهم موسى عليه السلام وذهب يناجي ربه عبدوا العجل من دون الله، قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ وَاعَدْنَا مُوسَى أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ﴾ [البقرة: ٥١]، وقد ذكر الرازي في تفسيره أن هذه الآية تدل على أن هذه الأمة خير من أولئك وأكمل عقلاً وأزكى خاطرًا منهم. [تفسير الرازي ٣ / ٧١].

وذلك لأنهم شاهدوا من الآيات ما يدفعهم إلى التوحيد دفعًا، ولكنهم خالفوا ووقعوا في الشرك، كما تطاول اليهود على ذات الرب تبارك وتعالى، وشبهوا الله الواحد بخلقه، ووصفوه بما لا يليق به - سبحانه - من صفات النقص والعجز والاحتياج، ويضيق المقام هنا عن ذكر مخازيهم في ذلك، وحسبي أن أشير إلى بعضها إشارة، ومن ذلك وصفهم ربهم - تعالى وتقدس - بالفقر، كما ذكر الله ذلك عنهم في قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ [آل عمران: ١٨١]، وقد توعدهم الله سبحانه على هذا القول الباطل بعد أن بيَّن أنه سمعه ولم يَخْفَ عليه؛ فقال: ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾، وهذا وعيد شديد لهم، كما قالوا يد الله مغلولة، ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنْفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ [المائدة: ٦٤]، وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنهم لا يعنون بذلك أن يد الله موثقة، ولكن يقولون بخيل، يعني: أمسك ما عنده، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا، وقد رد الله عليهم ما قالوه، وقابلهم فيما اختلقوه وافتروه وائتفكوه، فقال: ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، وهكذا وقع لهم، فإن عندهم من البخل والحسد والجبن والذلة أمر عظيم.[تفسير ابن كثير ٢ / ٩٤].

كما وصفوا الله تعالى بأنه يحزن ويأسف على أفعاله، وقد جاء في سفر التكوين ما يلي: «ورأى الرب أن شر الإنسان قد كثر في الأرض، وأن كل تصور أفكار قلبه إنما هو شرير كل يوم، فحزن الرب أنه عمل الإنسان في الأرض، وتأسف في قلبه، فقال الرب: أمحو عن وجه الأرض الإنسان الذي خلقته، الإنسان مع بهائم ودبابات وطيور السماء؛ لأني حزنت أن عملتهم». [الإصحاح السادس. فقرة: ٥- ٦].

وهذا كلام كله جهل وضلال، ولا يليق برب الأرض والسماء.

وكم عندهم من طامات كثيرة في ذلك ومنها: المقالة الكفرية العظيمة التي ذكر فيها أن لله ابنًا - تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا - قال الله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة:

ضل النصارى ضلالاً مبيناً في أسماء الله وصفاته: فقد شبهوا المخلوق بالخالق، وذهبوا إلى أن المسيح عليه السلام هو الله !!

٣٠]، وقد جاء في سفر التكوين ما يلي: «وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن حسنات، فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا». [سفر التكوين، إصحاح ٦، فقرة ١، ٢].

كما ضل النصارى ضلالاً مبيناً في أسماء الله وصفاته، فقد شبهوا المخلوق بالخالق، وأضفوا عليه من الصفات والخصائص ما لا يليق إلا بالله عز وجل، وقد ذهبوا إلى أن المسيح عليه السلام هو الله، كما ذكر الله عنهم ذلك في كتابه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وتارة أخرى جعلوا المسيح عليه السلام ابنًا لله، تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا. وقد ذكر الله قولهم في قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]، كما ذهبوا أيضًا إلى أنه شريك لله وجزء من ثلاثة أجزاء يتكون منها الإله، قال الله عنهم: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾ [المائدة: ٧٣]، كما قالوا في مريم كلامًا باطلاً، فزعموا أنها أم الإله.

يقول ابن القيم - رحمه الله -: «وأما قولهم في مريم: فإنهم يقولون: إنها أم المسيح ابن الله ووالدته في الحقيقة..، وأنها على العرش جالسة عن يسار الرب تبارك وتعالى والد ابنها، وابنها عن يمينه، والنصارى يدعونها، ويسالونها سعة الرزق، وصحة البدن، وطول العمر، ومغفرة الذنوب». [هداية الحيارى ص٢٦١].

وهذا طعن في الرب تبارك وتعالى وسبٌ له، يقول ابن القيم عنهم: «إن النصارى ارتكبت محذورين عظيمين، لا يرضى بهما ذو عقل ولا معرفة: أحدهما: الغلو في المخلوق، حتى جعلوه شريك الخالق وجزءًا منه، والثاني: تنقص الخالق وسبّه ورميه بالعظائم؛ حيث زعموا أنه سبحانه وتعالى نزل عن العرش عن كرسي عظمته، ودخل في فرج امرأة، وأقام تسعة أشهر، ثم صار إلى أن لطمت اليهود خديه، وربطوا يديه، وبصقوا في وجهه، ولعمر الله إن هذه مسبة لله سبحانه ما سبه بها أحد من البشر قبلهم ولا بعدهم، ولذلك جاء عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «أهينوهم ولا تظلموهم، فلقد سبّوا الله عز وجل مسبة ما سبّه إياها أحد من البشر». [إغاثة اللهفان ٢ / ٢٨٢- ٢٨٣].

وأما أمة الإسلام، أمة محمد عليه الصلاة والسلام فقد وصفوا الله بصفات الجلال والكمال، ونزّهوه عن صفات النقص كما نزهوه عن أن يماثله شيء من المخلوقات في شيء من الصفات، كما نزهوه عن الأنداد، واتخاذ الصاحبة والأولاد، كما قال تعالى: ﴿مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٤].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «ومن تدبر حال اليهود والنصارى مع المسلمين، وجد اليهود والنصارى متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرف يقابله، والمسلمون هم الوسط، وذلك في التوحيد، والأنبياء، والشرائع، والحلال، والحرام، والأخلاق، وغير ذلك، فاليهود يشبّهون الخالق بالمخلوق في صفات النقص المختصة بالمخلوق التي يجب تنزيه الرب سبحانه عنها، والنصارى يشبهون المخلوق بالخالق في صفات الكمال المختصة بالخالق التي ليس له فيها مثل». [الجواب الصحيح ٣ / ١٠٠].

والحمد لله الذي هدانا للإسلام، ونجانا من أهل الزيغ والانحراف والضلال.

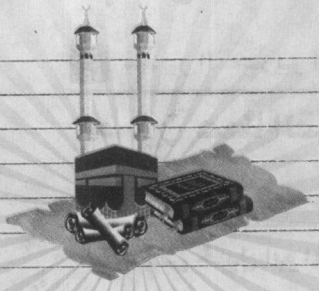

افتتاحية العدد

المرأة بين تكريم الإسلام وإساءة الإعلام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وجعل لكل شيء قدرًا، والصلاة والسلام على نبينا محمد المبعوث بالهدى والرحمة، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعد:

فإن المرأة الصالحة واحدة من الأسباب الأربعة للسعادة، تلك الأسباب التي ذكرها النبي ﷺ؛ فعن سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «أربع من السعادة: المرأة الصالحة، والمسكن الواسع، والجار الصالح، والمركب الهنيء». [ابن حبان في صحيحه (٤٠٣٢)، وصححه الألباني].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «الدنيا متاع، وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة». [مسلم ١٤٦٧].

كما جعلها الله تبارك وتعالى سكنًا للرجل، فقال عز وجل: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الروم: ٢١]، ولما كانت المرأة سكنًا للرجل ولباسًا له، وخير متاع؛ أنصفها الإسلام، ورفع قدرها ومكانتها، قال النبي ﷺ كما في حديث عائشة رضي الله عنها: «إنما النساء شقائق الرجال». [أبو داود ٢٣٦ وصححه الألباني].

ولقد نالت المرأة في الإسلام حظًا كبيرًا لم تنله في أي مجتمع آخر، وأعطاها حقوقها كاملة، ورفع عنها كل إهانة لحقت بها عبر التاريخ، ولا يُستغرب ذلك؛ لأنه تشريع رب العالمين.

قال الشيخ سيد سابق - رحمه الله -: «كانت المرأة قبل الإسلام شبه رقيقة، إن لم تكن رقيقة بالفعل، لم يكن لها حق يُعترف به، لا حق الملك، ولا حق مزاولة أي عمل باسمها، ولا حق اختيار زوجها، بل كانت تُملك ولا تَملك، تُورث ولا تَرث، وتُكره على الزواج بمن تَكرَه». [اهـ. من كتاب إسلامنا، ص٢٠٩].

ولبيان هذه الحقيقة سأذكر بعض ألوان تكريم الإسلام للمرأة، والحقوق المشتركة العامة التي ساوت فيها الرجل، ومنها:

أ- المساواة الكاملة في الإنسانية: فكلاهما من جنس واحد في التناسل البشري، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ومن هنا فإن دماء الجنسين تتكافأ، قال الله تعالى:

﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ [المائدة: ٤٥]، قال ابن كثير في شرحه للآية: «وقد احتج الأئمة كلهم على أن الرجل يُقتل بالمرأة بعموم هذه الآية، وكذا ورد في الحديث: «المسلمون تتكافأ دماؤهم»، وهذا قول جمهور العلماء». [تفسير ابن كثير ج٢ / ٨٩].

ب- المساواة في أغلب التكاليف والأحكام الشرعية: فالمرأة عمومًا مخاطَبة في الجملة بما خُوطب به الرجل، والفروق بينهما يسيرة اقتضتها خصائص التكوين الجسدي والنفسي للمرأة؛ لأنها يعتريها فترات ضعف أثناء الحيض والنفاس، فخفَّف عنها الشارع بعض الأحكام؛ مراعاةً لفطرتها وأنوثتها، وذلك كعدم وجوب حضور صلاة الجماعة، وغير ذلك مما هو مقرر في كُتب الفقه.

جـ- المساواة في الإجارة والذمة: وهذا واضح غاية الوضوح من حديث أم هانئ بنت أبي طالب - رضي الله عنها -، وفيه أنها قالت: يا رسول الله، زعم ابن أبي أنه قاتل رجلاً قد أجرتُه فلان بن هُبيرة. فقال رسول الله ﷺ : «قد أجرنا من أجرت يا أم هانئ». قالت أم هانئ: وذاك ضحى. [البخاري ٦١٥٨].

د- المساواة في أعمال الخير والجزاء في الآخرة: ويظهر هذا في كثير من آيات القرآن الكريم، مثل قوله تعالى: ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: ١٩٥]، وكقوله جل وعلا: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧].

ومن الخير الذي ساوت المرأة فيه الرجل: تعلُّم العلم وتحمُّله وأداؤه. قالت عائشة رضي الله عنها: «نِعْم النساء نساء الأنصار ! لم يكن يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين». [مسلم ٣٣٢].

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قالت النساء للنبي ﷺ : غلبنا عليك الرجال، فاجعل لنا يومًا من نفسك، فوعدهن يومًا لقيهن فيه فوعظهن وأمرهن. [البخاري: ١٠١].

وقد عُدَّت عائشة رضي الله عنها من المكثرين من رواية الحديث، وكان مشيخة أصحاب النبي ﷺ يأتون إليها، ويسألونها في بعض المسائل، وقد ذكر الذهبي قولاً يُعد مفخرةً لكل امرأة روت شيئًا من حديث رسول الله ﷺ ، قال: «وما علمت في النساء مَن اتُّهمت، ولا مَن تركوها».

هـ- رفع الإسلام عنها اللعنة التي ألصقتها بها بعض الديانات السابقة؛ وذلك لما اتهموها بأنها سبب تعاسة البشرية، لأنها أغوت آدم فأكل من الشجرة فأُخرج من الجنة، ولكن القرآن نسب الذنب إليهما معًا، كما قال تعالى: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [البقرة: ٣٦].

و- رفع عنها الظلم الذي وقع عليها في الجاهلية، وذلك مثل وأد البنات، وتعدد الزوجات بلا حساب، وجعله محصورًا في أربع، وفرض لها نصيبًا من الميراث، وجعل لها حق التملك والتصرف في مالها، وأمر الرجل أن يعاشرها بالمعروف، وأن يتولى شئونها والإنفاق عليها وعلى ولدها.

ومن تكريم الإسلام للمرأة أنه أمرها بالحشمة والوقار، والترفع عن كل ما يشين عفتها وكرامتها، ومن ذلك عدم الخروج إلا لحاجة وعدم التبرج، قال الله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [الأحزاب: ٣٣].

قال ابن كثير في تفسيره للآية: «وقوله تعالى: ﴿وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ﴾ أي: الْزَمْن بيوتكن فلا تخرجن لغير حاجة، ومن الحوائج الشرعية: الصلاة في المسجد بشرطه.. وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى﴾. قال مجاهد: كانت المرأة تخرج تمشي بين يدي الرجال، فذلك تبرج الجاهلية». [تفسير ابن كثير ج٣ / ٦٥٢].

وإذا خرجت المرأة من بيتها لزمها الحجاب وستر جميع بدنها؛ صيانةً لها من أذى الفاسقين، وطهارةً للقلوب، وهو علامة شرعية على الحرائر العفيفات، قال الله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب: ٥٩]، ولما أنشد النميري عند الحجاج قوله:

يخمرن أطراف البنان من التقى ... ويخرجن جنح الليل معتجرات

قال الحجاج: «وهكذا المرأة الحرة المسلمة». [حراسة الفضيلة: ٧١].

كما نهى الإسلام المرأة إذا خرجت من بيتها عن وضع الطيب، حتى لا يشم طيبها الرجال الأجانب، وفي الحديث عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أيما امرأة استعطرت فمرت على قوم ليجدوا من ريحها فهي زانية». [النسائي ٥١٢٦ وحسنه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : «أيما امرأة أصابت بخورًا، فلا تشهد معنا العشاء الآخرة» [مسلم ٤٤٤]، أي: لا تحضر صلاتها مع الرجال.

وإذا كان هذا النهي عند خروجها للصلاة في المسجد، فكيف بخروجها - وهي متطيبة - لأمر آخر؟

الشرع حفظ للمرأة كرامتها

والأمور التي جاء بها الشرع لحفظ المرأة وصيانتها وكرامتها كثيرة، بل إن الإسلام هو الذي حرر

المرأة من إهانات وضلالات الجاهليات القديمة والحديثة، واحترم أنوثتها احتراماً ليس له نظير في التاريخ كله، وأعداء الإسلام يحاولون منذ فترة طويلة إفساد المرأة المسلمة بعد أن استطاعوا إفسادها في الغرب والشرق؛ حيث خرجت المرأة هناك على كل خلق فاضل سليم، وتمردت على فطرتها وأنوثتها، وانطلقت إلى الميادين العامة والخاصة مزاحمة للرجال دون خجل أو حياء، وفي حالة من التفسخ والعري القبيح، ويريدون أن تكون المرأة المسلمة كالمرأة عندهم.

دعوات مسمومة تدعو إلى الاختلاط

وواجب المسلمين اليوم الحفاظ على هويتهم الإسلامية، والتمسك بشرع ربهم، والحذر غاية الحذر من متابعة الشيطان والهوى.

وأقول هذا لما نشاهده في بلاد المسلمين اليوم من دعوات مسمومة تدعو إلى الاختلاط بين الرجال والنساء، وقد ظهرت المرأة في بعض المجتمعات كاشفة عن مفاتنها وجسدها بعد أن تطيبت وتزينت، بل إنها خرجت في الوسائل المقروءة والمرئية كذلك، وشاركت الرجال في كثير من الأعمال، وإني أحذر من ذلك اليوم كما حذرت منه بالأمس، فقد كتبت كتاباً في الثقافة الإسلامية منذ عشر سنوات، وهو مقرر على طلاب كليات المعلمين بالسعودية، تعرضت فيه لموضوع المرأة، وتكلمت وقارنت بين تكريم الإسلام لها وإهانة الجاهلية، ثم تعرضت لعمل المرأة، وقلت فيه بالحرف الواحد: «أما عن عمل المرأة فينبغي أن نعلم أن للمرأة مهمة عظيمة وشريفة لا يقدر غيرها أن يقوم بها، ألا وهي تربية الأجيال وصناعة الأبطال.

إن دور المرأة في تنشئة الجيل المسلم على الفضيلة والعلم دور كبير، وعلى الرجل أن يسعى على المرأة وعلى أولادها، وأن يوفر لهم ما يحتاجون إليه. ورغبة النساء في الخروج للعمل دون حاجة ما هو إلا تقليد لأعداء الإسلام، وهروب من المسئولية الكبيرة المنوطة بالمرأة، ألا وهي تربية الأجيال، وإني أحذر غاية الحذر من ترك أطفالنا من البنين والبنات للخادمات كي يقمن بدور الأم في الرعاية والتربية، وقد يكن كافرات فيعظم بذلك الخطب، وقد فقد الأبناء بسبب ذلك عاطفة الآباء، فظهر فيهم العقوق وقطيعة الرحم.

ضوابط خروج المرأة إلى العمل

وإذا احتاجت المرأة إلى العمل، أو احتاج المجتمع إلى عملها فيجوز لها بالضوابط التالية:

١- أن تخرج باللباس الإسلامي الذي أوجبه الله عليها، فالمرأة كلها عورة، وهي فتنة، فلا بد لها أولاً من التستر والحجاب، والالتزام بالآداب الإسلامية العامة.

٢- أن يكون ذلك بموافقة ولي أمرها، أو زوجها إن كانت متزوجة، ولا تخرج من بيتها إلا بإذنه.

٣- أن يكون العمل مناسباً لطبيعة المرأة كأنثى؛ وذلك كالعمل في تدريس النساء وتطبيبهن، أو النشاطات الاجتماعية الأخرى التي تصلح لها المرأة، وتناسب وقارها وحشمتها.

٤- البعد عن الاختلاط بالرجال الأجانب؛ وذلك لأن للاختلاط مفاسد عظيمة، ونحن نشاهد اليوم ما وصلت إليه المجتمعات التي وقع فيها الاختلاط، وكيف انتشرت الرذيلة وشاعت الفاحشة، وانعدمت الفضيلة، وانتكست عن الفطرة.

٥- ألا يؤدي عملها خارج البيت إلى الإخلال بالواجبات الأساسية من القيام بحقوق الزوج ورعاية الأولاد». [من كتاب: محاضرات في الثقافة الإسلامية: د. عبد الله شاكر].

مفاسد الاختلاط في الدراسة

وفي دراسة علمية قامت بها الباحثة «فاطمة محمد رجاء» لنيل درجة الماجستير في إحدى الجامعات الأردنية؛ توصلت إلى نحو ٧٧ في المائة من أفراد عينة البحث ذهبوا إلى أن الاختلاط في الدراسة يُعد مشكلة لها آثارها السلبية أخلاقيًا ونفسيًا واقتصاديًا على الطلاب والطالبات، وقالت: إن الاختلاط له الكثير من السلبيات، ويسبّب مشكلات أخلاقية مثل: إثارة الفتنة، والتصنّع في التصرفات من قِبَل الجنسين، وتعرّض الفتيات لمضايقات الشباب، إضافة إلى ضعف الوازع الديني بسبب تعود الطلبة على الممارسات الخاطئة، واستباحة المنكرات؛ لكثرة تكرارها.

كما ذكر بعض الطلاب ضمن السلبيات: انتشار ظاهرة تبرج الطالبات مما أدى إلى انتشار الجرائم، مثل: الزنا؛ لأن كثرة الاختلاط مع وجود عوامل الفتنة تؤدي إلى ارتكاب الفاحشة، وهذا هو الحق الذي ندين لله به، ولهذا فإني أوجّه نصيحة إلى المسئولين في كل القطاعات بأن يتقوا الله تعالى في المرأة، وأن يحرصوا ويسعوا إلى عودتها إلى حجابها ووقارها وحشمتها، كما يجب على دعاة الفتنة الكفّ عن الأقوال الباطلة، وتزيين الأعمال الخاسرة.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

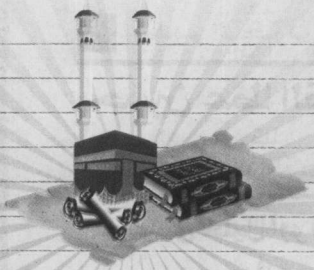

افتتاحية العدد

فضائل الشام في القرآن والسنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي بيده ملكوت كل شيء، والصلاة والسلام على مَن بعثه ربه بالخير وعلى آله وصحبه وسلم أجمعين، أما بعدُ:

فقد أخبر الله في كتابه العزيز عن بركة الشام وبيت المقدس في آيات من كتابه بلغت خمسًا، كما ذكر النبي ﷺ في سنته شيئًا يفيد ذلك، وعليه فبركة الشام والأقصى ثابتة مستقرة لخبر مالك الملك جل في علاه، قال تعالى مخبرًا عما قاله موسى لقومه: ﴿يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الْأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٢١].

وقد قال الإمام ابن جرير - رحمه الله - بعد ذكره لبعض أقوال أهل العلم: «وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال هي الأرض المقدسة كما قال نبي الله موسى ﷺ؛ لأن القول في ذلك بأنها أرض دون أرض، لا تدرك حقيقة صحته إلا بالخبر، ولا خبر بذلك يجوز قطع الشهادة به، غير أنها لن تخرج من أن تكون من الأرض التي ما بين الفرات وعريش مصر؛ لإجماع جميع أهل التأويل والسير والعلماء بالأخبار على ذلك».

[تفسير ابن جرير ج ٦ / ١١٠].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «المقدسة: المطهرة من الوثنية؛ لما بعث الله فيها من الأنبياء دعاة التوحيد. وفسر مجاهد «المقدسة» بالمباركة، ويصدق بالبركة الحسية والمعنوية، وروى ابن عساكر عن معاذ بن جبل: أن الأرض المقدسة ما بين العريش إلى الفرات، وروى عبد الرزاق وعبد بن حميد عن قتادة: أنها الشام، والمعنى واحد». [تفسير المنار ٦ / ٣٢٤ - ٣٢٥].

وقال الله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١]، فقد أخبر الله في هذه الآية

أنه بارك الأرض التي حول المسجد الأقصى، وهي أرض الشام التي تشغلها الآن: سورية، ولبنان، والأردن، وفلسطين. قال ابن الفقيه الهمداني: «أجناد الشام أربعة: حمص، ودمشق، وفلسطين، والأردن». [مختصر كتاب البلدان]، وهذه البركة غير مقيدة، فهي شاملة لكل أنواع البركة، بركة بالثمار والأنهار، والأنبياء؛ فهو مبارك ببركات الدنيا والآخرة.

قال القاسمي - رحمه الله -: «بارك الله بين جوانبه ببركات الدين والدنيا؛ لأن تلك الأرض المقدسة مقر الأنبياء ومهبط وحيهم، ومَنْمَى الزروع والثمار، فاكتنفته البركة الإلهية من نواحيه كلها، بركته إذًا مضاعفة؛ لكونه في أرض مباركة، ولكونه من أعظم مساجد الله تعالى، والمساجد بيوت الله، ولكونه متعبَد الأنبياء ومقامهم ومهبط وحيه عليهم، فبُورك فيه ببركتهم ويمنهم أيضًا». [تفسير القاسمي ١٠ / ٣٨٨٥].

وقال تعالى: ﴿وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٧١].

وقد رجح ابن جرير - رحمه الله - أن هذه الأرض أرض الشام، وذكر سبب ذلك فقال: «وإنما اخترنا ما اخترنا من القول في ذلك؛ لأنه لا خلاف بين جميع أهل العلم أن هجرة إبراهيم من العراق كانت إلى الشام وبها كان مقامه أيام حياته، وإن كان قد قدم مكة، وبنى بها البيت، وأسكنها ابنه إسماعيل مع أمه هاجر، غير أنه لم يقم بها، ولم يتخذها وطنًا لنفسه ولا لوط، والله إنما أخبر عن إبراهيم ولوط أنه أنجاهما إلى الأرض التي بارك فيها للعالمين». [تفسير ابن جرير ١٧ / ٣٦].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله -: «معلوم أن إبراهيم إنما نجاه الله ولوطًا إلى أرض الشام من أرض الجزيرة والعراق». [مناقب الشام وأهله ص٧٦].

فأرض الشام أرض البركة والخير، وقد باركها الله تعالى بكثرة الأنبياء وإنزال الشرائع التي هي طريق السعادتين، وبكثرة النعم والخصب والثمار، وقد نزل إبراهيم عليه السلام بفلسطين، ولوط عليه السلام بسدوم. قال العز بن عبد السلام رحمه الله: «اختلف العلماء في هذه البركة، فقيل: هي بالرسل والأنبياء، وقيل: بما بارك فيها من الثمار والمياه». [ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام ص٢٤].

وأرض الشام أرض صدق كما قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَوَّأْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾ [يونس: ٩٣]، والمبوأ: هو مكان الإقامة الأمين، وأضيف إلى الصدق لدلالته على صدق وعد الله تعالى لهم به، وقد ذكر ابن جرير أن هذا المكان هو الشام وبيت المقدس، وقيل: الشام ومصر، ثم ساق بسنده عن قتادة أنه قال: «بوأهم الله الشام وبيت المقدس». [تفسير ابن جرير ٧ / ١١٤].

وقال العز بن عبد السلام رحمه الله: «قد يكون المبوأ حسنًا؛ لما فيه من البركات الدينية، وذلك موجود وافر بالشام وبيت المقدس». [ترغيب أهل الإسلام ص٢٦].

وقد دعا النبي ﷺ لأهل الشام بطيب العيش والراحة، وأخبر أن الملائكة تحرس الشام وأهله، كما في حديث زيد بن ثابت الأنصاري رضي الله عنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع، فقال رسول الله ﷺ: طوبى للشام. فقلنا: لأي ذلك يا رسول الله؟ قال: لأن ملائكة الرحمن باسطة أجنحتها عليها». [أخرجه الحاكم ج٢ / ٢٢٩ وقال: صحيح على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي والترمذي، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن الترمذي ٣ / ٢٥٤].

وقوله: «نؤلف» من التأليف أي نجمع، والرقاع: ما يُكتب فيه، وطوبى: مصدر من طاب كزلفى وبشرى. قال المناوي: «طوبى: تأنيث أطيب، أي: راحة وطيب عيش حاصل للشام؛ لأن

ملائكة البليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء تحفها وتحوطها بإنزال البركات ودفع المهالك والمؤذيات». [فيض القدير ٤ / ٢٧٤].

قال العز بن عبد السلام: «أشار النبي ﷺ إلى أن الله سبحانه وتعالى وكّل بها الملائكة يحرسونها ويحفظونها، وهذا موافق لحديث عبد الله بن حوالة في أنهم في كفالة الله تعالى ورعايته». [ترغيب أهل الإسلام في سكنى الشام ص٣٤].

وعن عبد الله بن حوالة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «سيصير الأمر إلى أن تكونوا جنوداً مجندة، جند بالشام، وجند باليمن، وجند بالعراق». قال ابن حوالة: خِرْ لي يا رسول الله إن أدركت ذلك، فقال: «عليك بالشام، فإنها خيرة الله من أرضه، يجتبي إليها خيرته من عباده، فأما إن أبيتم فعليكم بيمنكم، واسقوا من غُدركم، فإن الله توكل لي بالشام وأهله». [أخرجه أحمد والحاكم وأبو داود، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن أبي داود ٢ / ٤٧١].

قال العز بن عبد السلام: أخبر ﷺ أن الشام في كفالة الله تعالى، وأن ساكنيه في كفالته وحياطته، ومن حاطه الله تعالى وحفظه لا ضيعة عليه، وذكر عن عطاء الخراساني قوله: «لما هممت بالنُّقْلَة، شاورت من بمكة والمدينة والكوفة والبصرة وخراسان من أهل العلم، فقلت: أين ترون لي أنزل بعيالي؟ فكلهم يقولون: عليك بالشام». [ترغيب أهل الإسلام ص٢٨-٢٩].

ويلاحظ من هذا أن العلماء كانوا يحثون على الإقامة بالشام؛ لفضله، واتباعًا للنبي ﷺ في إشارته لعبد الله بن حوالة بذلك، كما في الحديث السابق، وقد دعا النبي ﷺ للشام واليمن بالبركة كما في حديث نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا». قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، قال: «اللهم بارك لنا في شامنا، اللهم بارك لنا في يمننا». قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: «هناك الزلازل والفتن، وبها يطلع قرن الشيطان». [البخاري: ٧٠٩٤].

والمراد «بنجد»: الوارد في الحديث: العراق. قال الخطابي: نجد من جهة المشرق، ومن كان بالمدينة كان نجده بادية العراق ونواحيها، وهي مشرق أهل المدينة، وأصل النجد ما ارتفع من الأرض». [فتح الباري: ١٣/٤٧].

قال العز بن عبد السلام - رحمه الله -: «لما بدأ بالدعاء للشام بالبركة، وثنّى باليمن، دل على تفضيل الشام على اليمين، مع ما أثنى به على أهل اليمن في غير هذا الحديث، فإن البداية بالأهم فالأهم». [ترغيب أهل الإسلام ص٣٤].

وأرض الشام رباط وثغر إلى يوم القيامة، وهي عقر دار المؤمنين كما جاء في حديث جُبَيْرِ بْنِ نُفَيْرٍ عَنْ سَلَمَةَ بْنِ نُفَيْلٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ: كُنْتُ جَالِسًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؛ فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَذَالَ النَّاسُ الْخَيْلَ، وَوَضَعُوا السِّلَاحَ، وَقَالُوا: لا جِهَادَ، قَدْ وَضَعَتْ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا؛ فَأَقْبَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِوَجْهِهِ، وَقَالَ: «كَذَبُوا الآنَ الآنَ جَاءَ الْقِتَالُ، وَلا يَزَالُ مِنْ أُمَّتِي أُمَّةٌ يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ وَيُزِيغُ اللَّهُ لَهُمْ قُلُوبَ أَقْوَامٍ وَيَرْزُقُهُمْ مِنْهُمْ حَتَّى تَقُومَ السَّاعَةُ، وَحَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ، وَالْخَيْلُ مَعْقُودٌ فِي نَوَاصِيهَا الْخَيْرُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ يُوحَى إِلَيَّ أَنِّي مَقْبُوضٌ غَيْرَ مُلَبَّثٍ، وَأَنْتُمْ تَتَّبِعُونِي أَفْنَادًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ، وَعُقْرُ دَارِ الْمُؤْمِنِينَ الشَّامُ». [أخرجه النسائي في الكبرى ٤٤٠١، وقال الألباني: إسناده صحيح على شرط مسلم، انظر السلسلة الصحيحة ٤/٥٧١]. ومعنى (أذال الناس الخيل) أي: أهانوها، والمعنى أنهم وضعوا أداة الحرب عنها وأرسلوها، والحديث يدل على فضل ديار الشام، وأنها في زمن الفتنة أمانٌ لأهل الإسلام.

أسأل الله تعالى أن يحفظ ديار المؤمنين من عدوان المعتدين، والحمد لله رب العالمين.

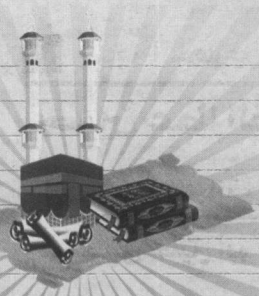

افتتاحية العدد

الأقصى للمسلمين ولو كره أعداء الله الغاصبون

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فلقد أشرت في اللقاء السابق أن الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى كان بمثابة إعلان عام أمام الأنبياء والمرسلين أن المسجد الأقصى للمسلمين، وقد بشَّر النبي ﷺ أمته في حياته بفتح بيت المقدس، كما في البخاري وغيره من حديث عوف بن مالك الأشجعي رضي الله عنه قال: «أتيتُ النبي ﷺ في غزوة تبوك وهو في قبة من أَدَم، فقال: اعْدُدْ ستًا بين يَدَيْ الساعة: مَوْتي، ثم فَتحُ بيت المقدس، ثم مُوْتَانٌ يَأخُذُ فيكُم كَقُعَاصِ الغنمِ، ثم اسْتفَاضَةُ المال حتى يُعطى الرجلُ مائةَ دينارٍ فَيَظَلُّ ساخطًا، ثم فتنةٌ لا يبقى بيتٌ من العرب إلا دخلتهُ، ثم هدنةٌ تكونُ بينكم وبين بني الأصفر؛ فَيَغْدِرُونَ، فيأتونَكُم تحتَ ثَمَانِينَ غايةً [أي راية]، تحتَ كُلِّ غايةٍ اثنا عَشر ألفًا». [البخاري: ح٣١٧٦].

وقد ورد أن عوف بن مالك قال لمعاذ في طاعون عمواس: إن رسول الله ﷺ قال لي: اعدد ستًا بين يدي الساعة، فقد وقع منهن ثلاث؛ يعني موته ﷺ، وفتح بيت المقدس، والطاعون، قال: وبقي ثلاث، فقال له معاذ: إن لهذا أهلاً». [فتح الباري لابن حجر ٦ / ٢٧٩].

وقد اهتم النبي ﷺ بفتح بلاد الشام، وفيها بيت المقدس، في حياته ﷺ، ففي العام الثامن من الهجرة بعث النبي ﷺ جيشًا إلى بلاد الشام قوامه ثلاثة آلاف مقاتل في غزوة عُرفت بغزوة مؤتة، واستعمل على الجيش زيد بن حارثة، وقال: إن أُصيب زيد فجعفر بن أبي طالب على الناس، فإن أصيب جعفر فعبد الله بن رواحة، وقد واجه هؤلاء القادة ومن معهم جيشًا جهَّزه هرقل قوامه مائة ألف، وقد انضم إليهم مائة ألف أخرى من قبائل لخم وجذام وبلقين وغيرهم، وقد دفع ذلك العدد الكبير أن يراجع المسلمين أمرهم، وقالوا: نكتب لرسول الله ﷺ نخبره بعدد عدونا، فإما أن يمدنا بالرجال، ويأمرنا بأمر فنمضي له، غير أن عبد الله بن

الإسراء بالنبي ﷺ إلى المسجد الأقصى كان بمثابة إعلان عام أمام الأنبياء والمرسلين أن المسجد الأقصى للمسلمين، وقد بشر النبي ﷺ أمته في حياته بفتح بيت المقدس

رواحة رضي الله عنه شجّعهم ورغّبهم في خوض المعركة مشيرًا بأنهم على خير في جميع أحوالهم، إما النصر وإما الشهادة، فانطلقوا واستشهد القادة الثلاثة رضي الله عنهم، وآلت القيادة إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه، فانسحب بالجيش انسحابًا موفقًا. [البداية والنهاية لابن كثير ٤ / ٢٤٣].

وفي شهر رجب من العام التاسع للهجرة عزم رسول الله ﷺ على قتال الروم في بلاد الشام وتحت أيديهم المسجد الأقصى، وهم أكبر قوة عسكرية ظهرت على وجه الأرض في ذلك الزمان، وقد تعرضوا للمسلمين بالأذى من غير مبرر، وقتلوا الحارث بن عمير الأزدي سفير رسول الله ﷺ إلى عظيم بصرى، كما كانوا يعدون للقيام بغزوة حاسمة ضد المسلمين، وعندئذٍ قرر النبي ﷺ ملاقاة هذا العدوان الظالم، وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعدّة، بل هو كفاح مرير مع دولة تملك موارد كثيرة من الرجال والأموال، وقد حث النبي ﷺ المسلمين أن يتجهزوا للقتال، وأن يبذلوا الأموال في سبيل الله ففعلوا، وخرجوا في جمع كبير لم يسبق له نظير قط؛ حيث كان عددهم ثلاثين ألف مقاتل، ولما وصل الجيش إلى تبوك لم يجدوا لأعدائهم أثراً؛ لأنهم لما سمعوا بزحف رسول الله ﷺ إليهم أخذهم الرعب، فلم يجترئوا على التقدم واللقاء، بل تفرقوا في البلاد في داخل حدودهم، ورجع الجيش الإسلامي من تبوك في عزة ونصر، وكانت هذه الغزوة آخر غزواته ﷺ.

وبعد أن عاد النبي ﷺ من حجة الوداع أمر المسلمين بالتهيؤ مرة أخرى لغزو معاقل الروم في أرض الشام. وأمَّر على الجيش أسامة بن زيد حِبّه وابن حِبِّه، وانطلق أسامة بالجيش وعسكر في ضواحي المدينة، وتوفي النبي ﷺ والجيش هناك، ولما بويع للصديق - رضي الله عنه - بالخلافة أنفذ بعث أسامة، مع أنه قيل له: توجه هؤلاء إلى الروم وقد ارتدت العرب حول المدينة؟ فقال: والله الذي لا إله غيره لو ظننت أن السباع تخطفني لأنفذت بعث أسامة كما أمر رسول الله ﷺ. [البداية والنهاية ٦ / ٣٠٨ - ٣٠٩].

وكان خروج الجيش في ذلك الوقت من توفيق الله لأبي بكر رضي الله عنه، وكان فيه من المصالح الكثيرة للمسلمين، ويكفي أنهم كانوا لا يمرون بحي من أحياء العرب إلا أرعبوا منهم، وقالوا: ما خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم مَنَعة شديدة، واستمر الصديق رضي الله عنه في بعث الجيوش لبلاد الشام ليستنقذها من أعداء الله؛ اقتداءً في ذلك برسول الله ﷺ الذي جمع المسلمين في حياته لغزو الشام.

قال ابن كثير رحمه الله في حوادث سنة ثلاث عشرة من الهجرة النبوية: «استهلت هذه السنة والصديق عازم على جمع الجنود ليبعثهم إلى الشام، وذلك بعد مرجعه من الحج عملاً بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾، وقد بعث أبو بكر رضي الله عنه عمرو بن العاص ومعه جند آخر إلى فلسطين، ومضى عمرو حتى نزل العرمات من أرض الشام. [البداية والنهاية لابن كثير ٧ / ٣].

وفي سنة خمس عشرة من الهجرة كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى عمرو بن العاص بالمسير إلى إيليا (اسم مدينة بيت المقدس). [معجم البلدان ١ / ٢٣٣]، فسار إليها، وواجه أهلها، ووقعت

مواجهة قوية بين الفريقين، دفعت عمرو بن العاص إلى أن يكتب إلى أمير المؤمنين كتابًا يطلب منه فيه أن يمده بالجيوش، وقال له: «إني أعالج حربًا كؤودًا (شديدة صعبة) صدومًا، وبلادًا ادخرت لك، فرأيك. فلما وصل الكتاب إلى عمر علم أن عمرًا لم يقل ذلك إلا لأمر علمه، فعزم عمر على الدخول إلى الشام لفتح بيت المقدس». [المرجع السابق: ٧ / ٥٦].

كما حاصر أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح فلسطين، وذكر ابن جرير ذلك فقال: إن أبا عبيدة لما فرغ من دمشق كتب إلى أهل إيليا يدعوهم إلى الله وإلى الإسلام، أو يبذلون الجزية أو يؤذنون بحرب، فأبوا أن يجيبوا إلى ما دعاهم إليه، فركب إليهم في جنوده واستخلف على دمشق سعيد بن زيد، ثم حاصر بيت المقدس وضيق عليهم حتى أجابوا إلى الصلح بشرط أن يقدم إليهم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، فكتب إليه أبو عبيدة بذلك فاستشار عمرُ الناس في ذلك، فأشار عثمان بن عفان بأن لا يركب إليهم ليكون أحقر لهم وأرغم لأنوفهم، وأشار علي بن أبي طالب بالمسير إليهم ليكون أخف وطأة على المسلمين في حصارهم بينهم، فهويَ ما قال علي ولم يَهْوَ ما قال عثمان، وسار بالجيوش نحوهم، واستخلف علي بن أبي طالب على المدينة.

ويذكر المؤرخون أن عمر رضي الله عنه ركب من المدينة على فرس ليسرع السير، وفي طريقه مرَّ على الجابية فنزل بها وخطب فيها خطبة طويلة بليغة منها: «أيها الناس، أصلحوا سرائركم تصلح علانيتكم، واعملوا لآخرتكم تكفوا أمر دنياكم، واعلموا أن رجلاً ليس بينه وبين آدم أب حي ولا بينه وبين الله هوادة، فمن أراد لَحْبَ (طريق) وجه الجنة فليلزم الجماعة؛ فإن الشيطان مع الواحد وهو من الاثنين أبعد، ولا يخلون أحدكم بامرأة فإن الشيطان ثالثهما، ومن سرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمن».

ثم سار بعد ذلك متوجهًا إلى بيت المقدس، وصالح النصارى هناك، واشترط عليهم إجلاء الروم إلى ثلاث، ثم دخلها من الباب الذي دخل منه رسول الله ﷺ ليلة الإسراء، ثم صلى تحية المسجد، وصلى بالمسلمين في صلاة الغداة من الغد، فقرأ في الأولى بسورة (ص)، وسجد فيها والمسلمون معه، وفي الثانية بسورة بني إسرائيل، وهكذا فتح الله بيت المقدس للمسلمين على يد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الذي سار إليه في موكب وهو في غاية التواضع لله، وحرر الأقصى من أعداء الله، ومن يومئذ حكم المسلمون هناك.

وشهدت أرض فلسطين كثيرًا من الصحابة ممن أقاموا بها أو ماتوا بأرضها، أو مرّوا بها وهم من أعيان الأمة رضي الله عنهم، ومن هؤلاء: عمر بن الخطاب، وأبو الدرداء، وسعد بن أبي وقاص، وسعيد بن زيد، وعمرو بن العاص وابنه عبد الله، وعبد الله بن سلام، وخالد بن الوليد، ومعاوية بن أبي سفيان، وعبادة بن الصامت الذي مات ودفن بها، وأبو ريحانة مولى رسول الله ﷺ، سكن بيت المقدس، وكان يقضي في المسجد الأقصى، وتميم بن أوس الداري، وكان أميرًا على بيت المقدس، وغير هؤلاء كثير.

وقد سعد ونعم بالفتح العمري لبيت المقدس المسلمون، وأصبحت هذه الديار ديار إسلام يُذكر فيها الله ويُعبد ويُوحد سبحانه وتعالى، إلى أن استحكمت الغفلة بالمسلمين وتملّك أمرهم العبيديون، وكانوا أهل بدع وضلال وخيانة، فاستولى الكفرة على بيت المقدس - القبلة الأولى للمسلمين - وذلك في ضحى يوم الجمعة لسبع بقين من شعبان سنة ثنتين وتسعين وأربعمائة، ثم استعاده المسلمون مرة أخرى بعد أن أفاقوا من غفلتهم على يد صلاح الدين، واليوم تدنسه اليهود ويعبثون فيه، ويذيقون إخواننا في فلسطين ألوانًا متعددة من العذاب، فهل من عودة صادقة إلى الله حتى يعود الأقصى من جديد؟!

إن الأمة الإسلامية اليوم لديها القدرة على استعادة المسجد الأقصى، ولكن بقوة الإيمان واليقين، والاعتماد على الله عز وجل، وبذل النفس والمال في سبيله، ولا بد من جمع الكلمة على التوحيد لتتوحد الصفوف، وصدق الله إذ يقول: ﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

وأرجو من الله جل في علاه وأتوسل إليه أن يوفق الأمة الإسلامية إلى فتح جديد للأقصى المبارك، وعندئذٍ سنفرح بنصر الله، وما ذلك على الله بعزيز. ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].

والحمد لله رب العالمين.

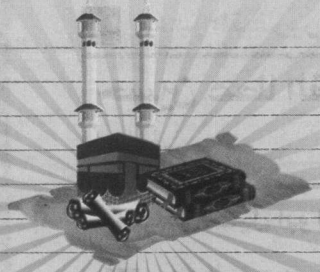

افتتاحية العدد

عائشة أم المؤمنين من آل البيت وأفقه نساء الأمة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. أما بعدُ:

فإن أهل السنة والجماعة يعرفون قدر الصحابة ومنزلتهم، وفضل آل البيت وعلو مكانتهم دون غلو أو جفاء في ذلك، وزوجات النبي ﷺ أمهات المؤمنين من آل بيته، قال الله تعالى:

﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٣٢) وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾

[الأحزاب: ٣٢، ٣٣].

وقد استدل أهل العلم بهذه الآيات على أن أزواج النبي ﷺ من آله وهذا هو الصحيح. قال ابن كثير - رحمه الله -: «وهذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت ههنا؛ لأنهن سبب نزول هذه الآية، وسبب النزول داخل فيه قولاً واحدًا، إما وحده على قول، أو مع غيره على الصحيح».

ثم ذكر عن عكرمة وابن عباس أنهما قالا: نزلت في نساء النبي ﷺ خاصة، إلى أن قال: «ثم الذي لا يشك فيه من تدبر القرآن أن نساء النبي ﷺ داخلات في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾، فإن سياق الكلام معهن، ولهذا قال تعالى بعد هذا كله: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ أي: اعملن بما ينزل الله تبارك وتعالى على رسوله ﷺ في بيوتكن من الكتاب والسنة..

وعائشة الصديقة بنت الصديق - رضي الله عنهما - أولاهن بهذه النعمة وأحظاهن بهذه الغنيمة،

وأخصهن من هذه الرحمة العميمة، فإنه لم ينزل على رسول الله ﷺ الوحيُ في فراش امرأة سواها، كما نص على ذلك صلوات الله وسلامه عليه.

قال بعض العلماء: لأنه لم يتزوج بكراً سواها، ولم ينم معها رجل في فراشها سواه، فناسب أن تخصص بهذه المزية، وأن تفرد بهذه المرتبة العلية». [تفسير ابن كثير جـ٣ / ٦٥٣ - ٦٥٧].

وقال أبو السعود - رحمه الله - في تفسيره: «وهذه كما ترى آية بينة وحجة نيرة على كون نساء النبي ﷺ من أهل بيته، وهي قاضية ببطلان رأي الشيعة في تخصيصهم أهلية البيت بفاطمة وعلي وابنيهما - رضوان الله عليهم -، وأما ما تمسكوا به من حديث الكساء وتلاوته ﷺ الآية بعده، فإنما يدل على كونهم من أهل البيت، لا على أن من عداهم ليسوا كذلك. فزوجاته إذًا ﷺ من آل بيته، ولذلك حرمت عليهن الصدقة، ويدل لذلك ما رواه ابن أبي شيبة بإسناد صحيح عن ابن أبي مليكة: «أن خالد بن سعيد بعث إلى عائشة ببقرة من الصدقة فردتها وقالت: إنا آل محمد لا تحل لنا الصدقة». [المصنف ٣ / ٢١٤].

قال ابن القيم: «وإنما دخل الأزواج في الآل وخصوصاً أزواج النبي ﷺ؛ تشبيهًا لذلك بالنسب، لأن اتصالهن بالنبي ﷺ غير مرتفع، وهن محرمات على غيره في حياته وبعد مماته، وهن زوجاته في الدنيا والآخرة، فالسبب الذي لهن بالنبي ﷺ قائم مقام النسب، وقد نص النبي ﷺ على الصلاة عليهن، ولهذا كان القول الصحيح - وهو منصوص الإمام أحمد رحمه الله، أن الصدقة تحرم عليهن؛ لأنها أوساخ الناس، وقد صان سبحانه ذلك الجناب الرفيع وآله من كل أوساخ بني آدم». [جلاء الأفهام ص٣٣١].

وقد أورد الشيخ الألباني - رحمه الله - في السلسلة الصحيحة تحت رقم (٢٠٣٦) حديث: «كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة إلا سببي ونسبي»، وعزاه إلى ابن عباس وعمر وابن عمر والمسور بن مخرمة - رضي الله عنهم -، وذكر من خرّجه عنهم، وقال: وجملة القول: إن الحديث بمجموع هذه الطرق صحيح، والله أعلم».

ولقد درج المسلمون على تبجيل أمهات المؤمنين ومعرفة قدرهن ومكانتهن، ويعتقدون أنهن أمهات للمؤمنين؛ أخذًا من قوله تعالى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦]، غير أن الرافضة خالفوا كلام الله، وآذوا بعض أزواجه ﷺ، وتناولوهم بالثلب والطعن كما فعلوا مع كثير من الصحابة.

ومن أمهات المؤمنين اللاتي تناولها الرافضة بالتنقص والسبّ أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الصديقة بنت الصديق الأكبر، حبيبة رسول الله ﷺ، والعجب كل العجب من قوم يزعمون محبة النبي ﷺ ثم يطعنون ويقذفون بعضًا من أهله!!

أليس في ذلك طعن وإيذاء للنبي ﷺ؟! جاء عن الحسن بن زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه كان بحضرته رجل فذكر ذلك الرجل عائشة رضي الله عنها بذكر قبيح من الفاحشة، فقال الحسن: يا غلام، اضرب عنقه، فقال له العلويون: هذا رجل من شيعتنا، فقال: معاذ الله، هذا رجل طعن على النبي ﷺ، قال الله تعالى: ﴿الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾، فإن كانت عائشة خبيثة فالنبي خبيث، فهو كافر، فاضربوا عنقه، فضرب عنقه. [الصارم المسلول ص٥٦٦].

قال ابن تيمية - رحمه الله -: «لما كان رَمْي أمهات المؤمنين أذًى للنبي ﷺ؛ لُعِنَ صاحبه في الدنيا والآخرة...، ومما يدل على أن قذفهن أذًى للنبي ﷺ .. ما خرجاه في الصحيحين في حديث الإفك عن عائشة قالت: «فقام رسول الله ﷺ فاستعذر من عبد الله بن أبي بن سلول، وقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل قد بلغني أذاه في أهل بيتي، فوالله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه إلا خيرًا، وما كان يدخل على أهلي إلا معي». [الحديث متفق عليه وانظر مجموع الفتاوى ١٥ / ٣٦٢].

وقال الحافظ ابن كثير في معرض كلامه على حادثة الإفك: «هذه العشر الآيات كلها نزلت في شأن

عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - حين رماها أهل الإفك والبهتان من المنافقين بما قالوه من الكذب البحت، والفرية التي غار الله تعالى لها ولنبيه صلوات الله وسلامه عليه، فأنزل الله براءتها؛ صيانة لعرض رسول الله ﷺ...، وقد أجمع العلماء - رحمهم الله - قاطبة على أن من سبَّها بعد هذا ورماها بما رماها به بعد هذا الذي ذُكر في هذه الآية، وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ الْغَافِلَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ لُعِنُوا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ فإنه كافر؛ لأنه معاند للقرآن». [تفسير ابن كثير ٣ / ٣٦٩ - ٣٧٩].

فيا ويل من سبَّ أو طعن على أم المؤمنين عائشة، وهل يُعَدّ مثل هذا من المؤمنين؟!

وعائشة أم المؤمنين أفقه نساء الأمة على الإطلاق، وهي ممن وُلد في الإسلام، وكان تزويجه بها ﷺ إثر وفاة خديجة، فتزوج بها وبسودة في وقت واحد، ثم دخل بسودة، فتفرد بها ثلاثة أعوام حتى بنى بعائشة في شوال بعد وقعة بدر، وما تزوج بكرًا سواها، وأحبها حبًا شديدًا كان يتظاهر به، بحيث إن عمرو بن العاص رضي الله عنه - وهو ممن أسلم سنة ثمان من الهجرة - سأل النبي ﷺ: أي الناس أحب إليك يا رسول الله؟ قال: عائشة. قال: فمن الرجال؟ قال: أبوها». [البخاري: ٣٦٦٢، مسلم: ٢٣٨٤].

قال الذهبي - رحمه الله - بعد سياقه لهذا الحديث: «وهذا خبر ثابت على رغم أنوف الروافض، وما كان عليه السلام ليحب إلا طيبًا، وقد قال: «ولو كنت متخذًا خليلاً من هذه الأمة؛ لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام أفضل» [متفق عليه]، فأحبَّ أفضل رجل من أمته، وأفضل امرأة من أمته، فمن أبغض حَبِيبيْ رسول الله ﷺ فهو حري أن يكون بغيضًا إلى رسول الله ﷺ». [سير أعلام النبلاء ٢ / ١٤٢].

وقد عقد البخاري - رحمه الله - بابًا في الصحيح قال فيه: «باب من أهدى إلى صاحبه، وتحرى بعض نسائه دون بعض»، ثم ذكر حديث عائشة، وفيه: كان المسلمون قد علموا حب رسول الله ﷺ عائشة، فإذا كانت عند أحدهم هدية يريد أن يهديها إلى رسول الله ﷺ أخَّرها، حتى إذا كان في بيت عائشة بعث صاحب الهدية إلى رسول الله ﷺ في بيت عائشة، فأرسلن بعض زوجاته أم سلمة إليه ﷺ يطلبن منه أن يكلم الناس ليهدوه حيث كان في بيوت نسائه، فقال لها: «لا تؤذيني في عائشة، فإن الوحي لم يأتني وأنا في ثوب امرأة إلا عائشة»، ولما كلمته فاطمة ابنته قال لها: «يا بنية، ألا تحبين ما أحب؟» قالت: بلى، ولما جاءت زينب بنت جحش ورفعت صوتها ونالت من عائشة، حتى نظر رسول الله ﷺ إلى عائشة هل تكلم، فتكلمت عائشة ترد على زينب حتى أسكتتها، فنظر النبي ﷺ إلى عائشة، وقال: «إنها بنت أبي بكر». والحديث بتمامه في الصحيحين وغيرهما.

قال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة أفقه الناس، وأحسن الناس رأيًا في العامة.

وقال الزهري: لو جُمع علم عائشة إلى علم جميع النساء؛ لكان علم عائشة أفضل. [سير أعلام النبلاء للذهبي ٢ / ١٨٠].

وفضلها ومناقبها كثيرة جدًا ذكر بعضها ابن القيم في جلاء الأفهام وملخصه: «أنها كانت أحب الناس إلى رسول الله ﷺ، وأنه لما نزلت عليه آية التخيير بدأ بها فخيرها، فاختارت الله ورسوله، واستن بها بقية أزواجه، وأن الله برأها مما رماها به أهل الإفك، وأنزل في عذرها وبراءتها وحيًا يُتلى في محاريب المسلمين وصلواتهم إلى يوم القيامة، وشهد لها بأنها من الطيبات، ووعدها المغفرة والرزق الكريم، وأن أكابر الصحابة - رضي الله عنهم - كانوا إذا أشكل عليهم الأمر من الدين استفتوها، فيجدون علمه عندها، وأن رسول الله ﷺ تُوفي في بيتها وفي يومها، وبين سَحْرها ونَحْرها، ودفن في بيتها، وأن الملك أرى صورتها للنبي ﷺ قبل أن يتزوجها في سَرَقة حرير، فقال: «إن يكن هذا من عند الله يُمضه». [البخاري ٥٠٧٨].

هذا بعض ما ذكره أهل العلم في فضلها ومكانتها، وإنا نشهد الله على حبها وحب نبينا ﷺ وجميع زوجاته وآل بيته وصحابته وكل مؤمن تقي، وأسأل الله أن يجمعنا بهذا الحب مع هؤلاء الأبرار الأطهار في جنته ودار كرامته. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

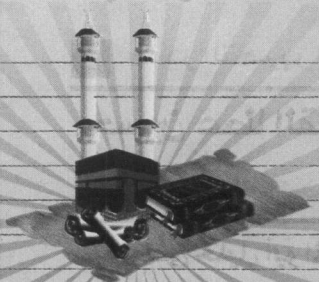

الخطبة الأولى

فضائل يوم عرفة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله، أحمده وأستعينه وأستهديه، وأصلي وأسلم على خاتم أنبيائه ورسله الداعي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم، وبعد:

فيوم عرفة يوم عظيم من أيام الإسلام؛ ففيه يجتمع المسلمون من آفاق الدنيا، ولا يوجد نظير لهذا الجمع في غيره، وهو يُذَكِّر باجتماع الخلائق يوم القيامة بين يدي الله عز وجل. والوقوف بعرفة ركن من أعظم أركان الحج، ففي سنن أبي داود وغيره عن عبد الرحمن بن يعمر الديلي قال: «أتيت النبي ﷺ وهو بعرفة، فجاء ناس أو نفر من أهل نجد، فأمروا رجلاً فنادى رسول الله ﷺ كيف الحج؟ فأمر رجلاً فنادى: الحج. الحج يوم عرفة، من جاء قبل صلاة الصبح من ليلة جَمْعٍ فقد حجه، أيام منى ثلاثة، فمن تعجل في يومين فلا إثم عليه، ومن تأخر فلا إثم عليه، قال: ثم أردف رجلاً خلفه فجعل ينادي بذلك». [أبو داود ١٩٥١ وصححه الألباني].

قال العز بن عبد السلام في قوله ﷺ: «الحج عرفة». تقديره: «إدراك الحج وقوف عرفة، وفي المفاتيح شرح مشكاة المصابيح مرقاة المصابيح: أي ملاك الحج ومعظم أركانه وقوف عرفة؛ لأنه يفوت بفواته». [عون المعبود ٥ / ٤٢٥].

وليوم عرفة فضائل منها: أن الله أكمل فيه الدين للمسلمين، وأتم عليهم نعمته، ورضي لهم الإسلام دينًا، كما ثبت عن طارق بن شهاب قال: جاء يهودي إلى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال: يا أمير المؤمنين، آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت؛ لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أي آية؟ قال: ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا ﴾. قال عمر: «قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة». [متفق عليه].

وهذا يقتضي ألا يعدل المسلم عن الكتاب والسنة، وأن ينقطع الجميع عن البدع والإحداث في الدين؛ لأن الدين قد كمُل بخبر الله تعالى، والكامل لا يحتاج إلى زيادة أبدًا، وإلا كان ناقصًا، وهذا يخالف ما جاء عن الله - تبارك وتعالى -.

يقول الإمام ابن كثير - رحمه الله - في تفسير هذه الآية: «هذه أكبر نعم الله تعالى على هذه الأمة؛ حيث

أكمل تعالى لهم دينهم، فلا يحتاجون إلى دينٍ غيره، ولا إلى نبي غير نبيهم - صلوات الله وسلامه عليه -، ولهذا جعله الله خاتم الأنبياء، وبعثه إلى الإنس والجن، فلا حلال إلا ما أحله، ولا حرام إلا ما حرَّمه، ولا دين إلا ما شرعه، وكل شيء أخبر به؛ فهو حق وصدق، لا كذب فيه، ولا خُلْف، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أي: صدقًا في الأخبار، وعدلاً في الأوامر والنواهي، فارضوه أنتم لأنفسكم؛ فإنه الدين الذي أحبه الله ورضيه، وبعث به أفضل الرسل الكرام، وأنزل به أشرف كتبه». [تفسير ابن كثير: ٢ / ١٩ - ٢٠].

ولهذا كان أهل السنة والجماعة، على مر العصور، يأمرون بالرجوع إلى الكتاب والسنة، وتحكيمهما في المسائل العلمية والعملية، وهذا أصلٌ تميزوا به عن غيرهم؛ مقتدين في ذلك بقول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [الحجرات: ١]، ولهذا نراهم لا يُقِرُّون قولاً ولا يقبلون اجتهادًا إلا بعد عرضه على الكتاب والسنة، وبهذا يُعلم أن الكتاب والسنة هما أصل الاستدلال في الدين، والناس ليسوا في حاجة إلى مصادر أخرى.

قال الإمام الشافعي - رحمه الله -: «فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها». [الرسالة: ٢٠]، ثم ذكر قول الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]، والشافعي بصنيعه هذا يبين أن السنة شارحة وموضحة للكتاب، وفيها غُنية وكفاية بحمد الله.

قال الإمام ابن تيمية - رحمه الله -: «ولا تجد من يقول: إنه محتاج إلى غير آثار الرسول ﷺ إلا من هو ضعيف المعرفة والاتباع لآثاره، وإلا فمن قام بما جاء به الكتاب والسنة أشرف على علم الأولين والآخرين، وأغناه الله بالنور الذي بعث به محمدًا ﷺ عما سواه». [الصفدية: ١ / ٢٦٠].

ومن المقطوع به أن النبي ﷺ بلَّغ ما أنزل الله إليه، وقد استنطق من حضر من أمته معه في حجة الوداع يوم عرفات في خطبته البليغة، وشهدوا له بتبليغ الرسالة، كما جاء في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما في سياق حديثه عن حجة الوداع، وفيها أن النبي ﷺ قال: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟ قالوا: نشهد أنك قد بلَّغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: اللهم اشهد، اللهم اشهد». ثلاث مرات. [صحيح مسلم: ١٢١٨].

ومن فضائل يوم عرفة: أنه يوم مغفرة الذنوب والتجاوز عنها، والعتق من النار والمباهاة بأهل الموقف، قالت عائشة رضي الله عنها: إن رسول الله ﷺ قال: «ما من يوم أكثر من أن يُعتق الله فيه عبدًا من النار من يوم عرفة، وإنه ليدنو ثم يباهي بهم الملائكة، فيقول: ما أراد هؤلاء؟!». [مسلم: ١٣٤٨].

وعن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: «إن الله يباهي ملائكته عشية عرفة بأهل عرفة؛ فيقول: انظروا إلى عبادي أتوني شعثًا غبرًا». [أخرجه أحمد في مسنده، وصححه الألباني في صحيح الترغيب: ١١٥٣].

وأهل التقى في الموقف تستشعر قلوبُهم قربَ ربهم منهم، فيزدادون قوة إلى قوة، وفرحًا وسرورًا ورجاءً لفضل الله تعالى وكرمه، والدعاء في يوم عرفة من أفضل ما يفعله الحاج؛ لأنه من الأوقات الفاضلة التي تُستجاب فيها الدعوات، وتُغفر فيها الزلات وتُكفر الخطيئات، وفي الحديث عن النبي ﷺ أنه قال: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير». [صحيح مشكاة المصابيح ح(٢٥٩٨)].

فينبغي للحاج في هذا اليوم الإكثار من الدعاء، والتوجه إلى الله، والتضرع بين يديه، والإلحاح في الدعاء، وأن يردد كثيرًا كلمة التوحيد، فهي أصل دين الإسلام الذي أكمله الله تعالى في هذا اليوم، وفي مسند أحمد عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: كان أكثر دعاء النبي ﷺ يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد بيده الخير وهو على كل شيء قدير».

وليس للدعاء بعرفة أدعية مخصوصة، بل يدعو ربه بما شاء، وكل واحد من العبيد له مسألته وحاجته، لكن ينبغي أن يكون الدعاء من الأدعية المشروعة، وليس فيه اعتداء، وقد ورد في القرآن

والسنة أدعية كثيرة، وهي من جوامع الكلم، وفيها العصمة من الزلل والخلل، وعلى الداعي أن يكون قلبه حاضرًا موقنًا بالإجابة، مكثرًا من الثناء على الله والصلاة على رسول الله ﷺ، ويكون الدعاء في أي مكان من عرفة مستقبلاً القبلة، ولا حاجة للذهاب إلى ما يُعرف بجبل الرحمة وصعوده؛ لعدم ورود دليل بذلك، ويستحب رفع اليدين في الدعاء.

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتابه الصحيح بابًا في كتاب الدعوات بعنوان: «رفع الأيدي في الدعاء»، وأورد تحته عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أنه قال: «دعا النبي ﷺ، ثم رفع يديه ورأيت بياض إبطيه». قال ابن عمر: «رفع النبي ﷺ يديه، وقال: إني أبرأ إليك مما صنع خالد»، وقال الحافظ في شرحه للأحاديث: «ومن الأحاديث الصحيحة في ذلك ما أخرجه المصنف - أي البخاري - في «جزء رفع اليدين»: «رأيت النبي ﷺ رافعًا يديه يدعو لعثمان»، ولمسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة في قصة الكسوف: «فانتهيت إلى النبي ﷺ وهو رافع يديه يدعو». [فتح الباري ١١ / ١٤٢].

وورد في رفع اليدين في الدعاء بعرفة حديث النسائي عن أسامة بن زيد قال: «كنت رديف النبي ﷺ بعرفات، فرفع يديه يدعو، فمالت به ناقته فسقط خطامها، فتناول الخطام بإحدى يديه وهو رافع يده الأخرى». [النسائي ٣٠١١ وصححه الألباني].

ومن الأحاديث الثابتة في ذلك ما رواه أبو داود والترمذي وغيرهما عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «إن ربكم حَيِيٌّ كريم يستحي من عبده إذا رفع يديه أن يردهما صفرًا» [أبو داود ١٤٩٠ وصححه الألباني].

فهذه الأحاديث وما في معناها تدل على أن من آداب الدعاء رفعَ اليدين إلى الله، وأن ذلك من أسباب إجابة الدعاء وقبوله، وقد عدَّ بعض أهل العلم الأحاديثَ الواردة في رفع اليدين في الدعاء في جملة ما تواتر معناه عن النبي ﷺ، قال السيوطي - رحمه الله - ممثلاً لما تواتر معناه عن النبي ﷺ: «فقد ورد عنه ﷺ نحو مائة حديث فيه رفع يديه في الدعاء، وقد جمعتها في جزء، لكنها في قضايا مختلفة، فكل قضية منها لم تتواتر، والقدر المشترك فيه الرفع عند الدعاء تواتر باعتبار المجموع». [تدريب الراوي ٢ / ١٨٠].

ومن فضائل يوم عرفة أن صيامه يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده، وهو بذلك أفضل يوم يُصام تطوعًا، وفي مسلم وغيره عن أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «صيام يوم عرفة أحتسب على الله أن يكفّر السنة التي قبله والسنة التي بعده». [رواه مسلم: ١١٦٢].

وفيه أيضًا أن النبي ﷺ سُئل عن صوم يوم عرفة. فقال: «يكفر السنة الماضية والباقية»، وهذا أجر عظيم لعمل يسير، والفضل والمنة لله وحده.

وأما الحاج فالأفضل في حقه ألا يصوم، قال ابن القيم رحمه الله: «وكان من هديه ﷺ إفطار يوم عرفة...، وقد ذُكر لفطره ﷺ بعرفة عدة حِكَم، منها: أنه أقوى على الدعاء». [زاد المعاد ٢ / ٧٧].

قلت: وهو الواقع، فالفطر في هذا اليوم يقوّي على الذكر والدعاء، والنبي ﷺ مع حثِّه الناس على صيام يوم عرفة، إلا أنه كان مفطرًا فيه، وهو على عرفات، كما ثبت في الصحيحين من حديث أم الفضل بنت الحارث رضي الله عنها أن ناسًا تماروْا عندها يوم عرفة في صيام رسول الله ﷺ، فقال بعضهم: هو صائم، وقال بعضهم: ليس بصائم، فأرسلتْ إليه بقدح لبن وهو واقف على بعيره؛ فشربه. [البخاري: ١٩٨٨، ومسلم: ١١٢٣]، وقد ذكره مسلم تحت باب: «استحباب الفطر للحاج يوم عرفة».

وبعد أيام سيصعد الحجاج إلى عرفات، فيا فوز من وقف هناك، ونال الرضا والقبول من الرب الغفور، ورجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه، ومن لم يُكتب له الحج؛ فعليه بكثرة الصالحات، والتزود بالطاعات من الصلاة والصيام، والذكر والدعاء، وسائر ألوان البر والصدقات، وعلى الجميع تحقيق التوحيد، وإخلاص العمل لرب العبيد، والتذلل والانكسار بين يدي العزيز الغفار، والاجتهاد في العشر الأُوَل من ذي الحجة، فإن العمل فيها أحب إلى الله تبارك وتعالى، كما صح بذلك الخبرُ عن النبي ﷺ.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يتقبل من الحجاج حجهم، وأن يجعلنا من عتقائه من النار، وأن يشرح صدورنا بالسنة والقرآن، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

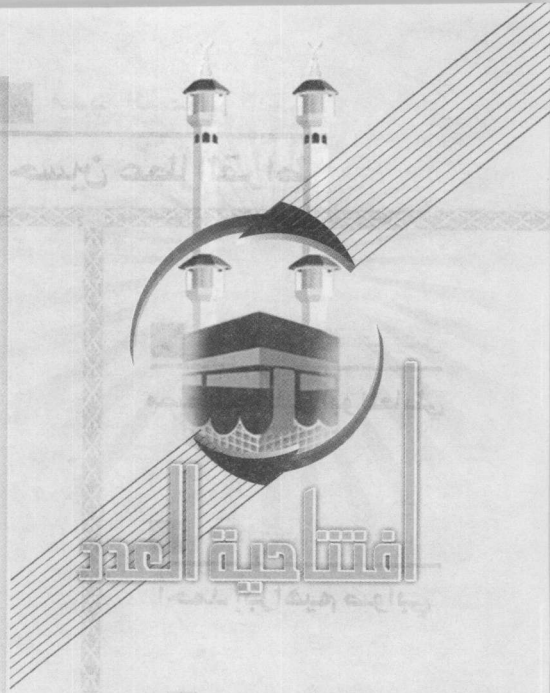

الاحتفال بيوم الغدير بدعة لا أصل لها

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

كثرت الروايات والأقاويل عن حديثٍ في صحيح الإمام مسلم رحمه الله، يشير إليه العلماء بحديث غديرخم. وغديرخم: مكان يقع بين مكة والمدينة بالجحفة، نزل فيه النبي ﷺ مُنْصَرَفَهُ من حجته، وقد ذكر فيه حديثًا احتجت به الرافضة على أن عليًا رضي الله عنه منصوصٌ عليه بالخلافة بعد النبي ﷺ، ولذلك عظّموا هذا اليوم، واتخذوه عيدًا، واهتموا به غاية الاهتمام، حتى إن بعض شيوخهم ألّف كتابًا من ستة عشر مجلدًا حوله سماه: «الغدير في الكتاب والسنة والأدب»، وقد وضعوا أحاديث كثيرة فيه تتفق مع ما ذهبوا إليه.

ومن الثابت أن النبي ﷺ نزل في هذا المكان، وقال فيه هذه الكلمات، وهي من رواية زيد بن أرقم - رضي الله عنه - قال: قام فينا رسول الله ﷺ خطيبًا بماء يُدعى خُمًّا بين مكة والمدينة، فحمد الله وأثنى عليه، ووعظ وذكّر، ثم قال: «أما بعد، ألا أيها الناس، فإنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور؛ فخذوا بكتاب الله، واستمسكوا به». فحثَّ على كتاب الله ورغَّب فيه، ثم قال: «وأهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكّركم الله في أهل بيتي». الحديث رواه مسلم برقم (٢٤٠٨)، كما رواه الإمام أحمد وغيرهما.

وقد وردت أحاديث أخرى زعم الرافضة أن فيها نصًا على خلافة علي رضي الله عنه بعد النبي ﷺ، وهذه الأحاديث لا تصح، والصحيح منها لا يفيد ذلك ألبتة، ومن هذه الأحاديث ما رواه البراء بن عازب رضي الله عنه في غديرخم أن النبي ﷺ أخذ بيد عليّ رضي الله عنه؛ فقال: «ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى. قال: «ألستم تعلمون أني أولى بكل مؤمن من نفسه؟» قالوا: بلى. قال: فأخذ بيد علي فقال: «من كنت مولاه فعليٌ مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه». قال: فلقيه عمر بعد ذلك، فقال له: هنيئًا يا ابن أبي طالب؛ أصبحتَ وأمسيت وليّ كل مؤمن ومؤمنة. وهذا الحديث رواه الإمام أحمد في مسنده، والترمذي مختصراً، وقال: حديث حسن غريب، وابن ماجه في مقدمة سننه، وقال البوصيري في زوائد

ابن ماجه: «هذا إسناد ضعيف؛ لضعف علي بن زيد بن جدعان» [ج١ / ١٩، ٢٠].

وقد حسنه الألباني بمجموع طرقه بل قال في رواية منها صحيح على شرط البخاري، ونقل رواية الترمذي المختصرة وأشار إلى أن الترمذي قال: حديث حسن صحيح، [انظر السلسلة الصحيحة ٤ / ٢٤٩ رقم ١٧٥٠].

وقد وضع الرافضة أحاديث كثيرة حول هذا المعنى ليثبتوا بها إمامة علي بعد النبي ﷺ، وقد رد عليهم أئمة أهل السنة، وبينوا أن الرافضة زادوا في الأحاديث الواردة في غديرخم، وكذبوا على رسول الله ﷺ، وقد احتج ابن المطهر الحلي بمثل هذا الحديث على إمامة علي رضي الله عنه، ولا حجة له ولا لغيره ممن ذهب مذهبه في ذلك؛ لأن الثابت منه لا يدل على قولهم، وما وضعوه على النبي ﷺ لا يفيدهم؛ لأنه من الكذب المفترى، وقد ذكر الربيع بن سليمان أنه سمع الشافعي - رحمه الله - يقول في معنى قول النبي ﷺ لعلي بن أبي طالب - رضي الله عنه-: «من كنت مولاه فعلي مولاه» يعني بذلك ولاء الإسلام، وذلك في قول الله عز وجل: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ﴾ [محمد: ١١].

وأما قول عمر بن الخطاب لعلي: «أصبحت مولى كل مؤمن» يقول: ولي كل مسلم. [انظر الاعتقاد للبيهقي / ١٨٢].

وقال البيهقي - رحمه الله-: «وأما حديث المَوَالاة؛ فليس فيه-إن صح إسناده- نص على ولاية علي بعده، فقد ذكرنا طرقه في كتاب الفضائل ما دل على مقصود النبي ﷺ من ذلك، وهو أنه لما بعثه إلى اليمن كثرت الشكاة عنه، وأظهروا بُغضه، فأراد النبي ﷺ أن يذكر اختصاصه به، ومحبته إياه، ويحثهم بذلك على محبته وموالاته، وترك معاداته... والمراد به: ولاء الإسلام ومودته، وعلى المسلمين أن يوالي بعضهم بعضًا». [المرجع السابق ص١٨١].

وقد سأل رجلٌ الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب عن قول النبي ﷺ: «من كنت مولاه فعلي مولاه»، فقال: والله لو يعني رسول الله ﷺ الإمارة والسلطان لأفصح لهم بذلك؛ فإن رسول الله ﷺ كان أنصح للمسلمين، ولو أراد النبي ﷺ وقصد في كلامه خلافة عليّ بعده لأظهر ذلك جليًا لأمته.

ولذلك أقول: إن الأحاديث الصحيحة الواردة في فضائل علي رضي الله عنه لا تدل على النص عليه بالخلافة بعد النبي ﷺ، ولهذا قال ابن تيمية: «إن لم يكن النبي ﷺ قاله فلا كلام، وإن كان قاله فلم يُرِدْ به قطعًا الخلافةَ بعده؛ إذ ليس في اللفظ ما يدل عليه، ومثل هذا الأمر العظيم يجب أن يبلّغ بلاغًا مبينًا، وليس في الكلام ما يدل دلالة بيّنة على أن المراد به الخلافة، وذلك أن المولى كالولي، والله تعالى قال: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ [المائدة: ٥٥]. وقال: ﴿وَإِنْ تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]. فبين أن الرسول ﷺ ولي المؤمنين، وأنهم مواليه أيضًا، كما بيّن أن الله ولي المؤمنين وأنهم أولياؤه، وأن المؤمنين بعضهم أولياء بعض. [منهاج السنة لابن تيمية جـ٧ / ٣٢٢].

كما ذكر - رحمه الله - في موطن آخر أن حديث: «من كنت مولاه فعلي مولاه» أنه ليس في الصحيح، لكن رواه العلماء، وتنازع الناس في صحته، فنقل عن البخاري وإبراهيم الحربي وطائفة من أهل العلم بالحديث أنهم طعنوا فيه وضعفوه، ونقل عن أحمد بن حنبل أنه حسنه كما حسنه الترمذي، وقد ذكر ابن حزم - رحمه الله - أن سائر الأحاديث التي يتعلق بها الروافض موضوعة، يعرف ذلك من له أدنى علم بالأخبار ونقلها.

وبهذا يظهر أنه لا دليل عند الرافضة فيما ذهبوا إليه، وأن الأمة على اختلاف فِرَقها لم تفهم ما فهموه عن هذا اليوم، ثم إنهم رتّبوا على اعتقادهم النص في هذا اليوم على إمامة علي رضي الله عنه أن اتخذوا هذا اليوم عيدًا، وهو بدعة منكرة، وأول من جعل هذا اليوم عيدًا هو معز الدولة علي بن بويه بالعراق، قال المقريزي: «اعلم أن عيد الغدير لم يكن عيدًا مشروعًا، ولا عمله أحد من سلف هذه الأمة

المقتدَى بهم، وأول ما عُرف في الإسلام بالعراق أيام معز الدولة علي بن بويه، فإنه أحدثه في سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، فاتخذه الشيعة من حينئذٍ عيداً..، ومن سنتهم في هذا العيد أن يحيوا ليله بالصلاة، ويصلوا في صبيحته ركعتين قبل الزوال، ويلبسوا فيه الجديد، ويعتقوا الرقاب، ويكثروا من عمل البر ومن الذبائح» [الخطط للمقريزي جـ٢ / ٢٥٤، ٢٥٥].

وقد ذكر ابن كثير رحمه الله بعضاً مما يفعلونه في هذا اليوم من البدع، فقال في حوادث سنة (٣٥٢) ما يلي: «وفي عشر ذي الحجة منها أمر معز الدولة بن بويه بإظهار الزينة في بغداد، وأن تُفتح الأسواق بالليل كما في الأعياد، وأن تُضرب البوقات، وأن تُشعل النيران في أبواب الأمراء وعند الشُّرَط؛ فرحًا بعيد الغدير - غديرخم - فكان وقتًا عجيبًا مشهورًا، وبدعة شنيعة ظاهرة منكرة». [البداية والنهاية جـ١١ / ٢٥٩].

والعبيديون الذين نزلوا مصر كانوا أيضًا يعتبرون يوم الغدير من الأعياد والمواسم التي كانوا يحتفلون بها، وأول ما أقيم الاحتفال بهذا العيد في مصر كان سنة (٣٦٢هـ)، وقال ابن زولاق: «وفي يوم ثمانية عشر من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وثلاثمائة، وهو يوم الغدير؛ تجمّع خلقٌ من أهل مصر والمغاربة، ومن تبعهم للدعاء؛ لأنه يوم عيد؛ لأن رسول الله ﷺ عهد إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فيه، واستخلفه، فأعجب المعز ذلك من فعلهم، وكان هذا أول ما عمل بمصر». [المرجع السابق جـ٢ / ٢٥٥].

وقد أطال المقريزي في وصف احتفال العبيديين بهذا العيد، واجتماعهم بجامع القاهرة، والإنشاد فيه، وقراءة نص العهد بالخلافة إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، وركوب الخليفة، ولبس الجديد من الثياب، وإعتاق الرقاب والذبح وغير ذلك، وهذه كلها بدع باطلة لا أصل لها، ولا تستند إلى شيء من الشرع، ويكفي ضلالهم في هذا اليوم أنهم يفضّلونه على عيدي الفطر والأضحى، ويسمونه بالعيد الأكبر، ولا شك أن هذا من البدع الظاهرة.

وقد ذكر ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في حديثه عن أنواع الأعياد الزمانية المبتدعة، والتي قد يدخل فيها بعض بدع أعياد المكان والأفعال، فقال: «النوع الثاني: ما جرى فيه حادثةٌ كما كان يجري في غيره، من غير أن يوجب ذلك جَعْله موسمًا، ولا كان السلف يعظّمونه، كثامن عشر ذي الحجة الذي خطب النبي ﷺ فيه بغديرخم مَرْجعه من حجة الوداع، فإنه ﷺ خطب فيه خطبة وصّى فيها باتباع كتاب الله، ووصى فيها بأهل بيته كما روى ذلك مسلم في صحيحه عن زيد بن أرقم- رضي الله عنه - فزاد بعض أهل الأهواء في ذلك؛ حتى زعموا أنه عهد إلى عليّ رضي الله عنه بالخلافة بالنص الجليّ بعد أن فرش له، وأقعده على فراش عالية، وذكروا كلامًا قد عُلم بالاضطرار أنه لم يكن من ذلك شيء، وزعموا أن الصحابة تمالئوا على كتمان النص، وغصبوا الوحي حقه، وفسقوا وكفروا إلا نفرًا قليلاً والعادة التي جبل الله عليها بني آدم، ثم ما كان عليه القوم من الأمانة والديانة، وما أوجبته شريعتهم من بيان الحق؛ يوجب العلم اليقيني بأن مثل هذا ممتنعٌ كتمانه.

وليس الغرض الكلام في مسألة الإمامة، وإنما الغرض أن اتخاذ هذا اليوم عيداً محدث لا أصل له، فلم يكن في السلف، لا من أهل البيت ولا من غيرهم، من اتخذ ذلك اليوم عيداً، حتى يحدث فيه أعمالاً؛ إذ الأعياد شريعةٌ من الشرائع، فيجب فيها الاتباع، لا الابتداع، وللنبي ﷺ خُطب وعهود ووقائع في أيام متعددة: مثل يوم بدر، وحنين، والخندق، وفتح مكة، ووقت هجرته ودخوله المدينة، وخُطَب له متعددة يذكر فيها قواعد الدين، ثم لم يوجب ذلك أن تُتخذ أمثال تلك الأيام أعياداً، وإنما يفعل مثل هذا النصارى أو اليهودُ». [اقتضاء الصراط المستقيم جـ٢ / ٦١٣].

وعلى هذا أقول: إن الاحتفال بهذا اليوم غير مشروع، وهو من البدع، ومن عمل أهل الضلال، فلا يغتر أحد من أهل السنة باحتفال هؤلاء القوم ويتابعهم على أفعالهم.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل. والحمد لله رب العالمين.

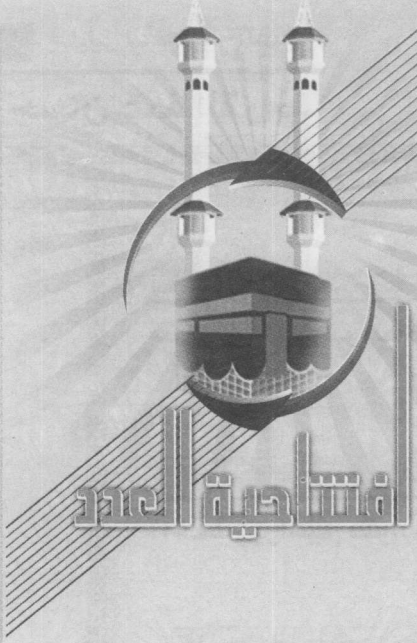

أمة الإسلام أمة مرحومة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي جعلنا من خير أمة أُخرجت للناس، والصلاة والسلام على من رفع الله ذكره، وشرح صدره، وأعلى قدره، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فأمة النبي ﷺ أمةٌ مصطفاة مجتباة، فضَّلها الله وميَّزها على سائر الأمم، كما قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ولكن هذه الخيرية مقيدة بما جاء في الآية نفسها: ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، فبينت الآية أن الأمة خير الأمم بهذا القيد، فإن تركت ذلك فقدت خيريتها، وإن تحققت به استحقت ما ميزها بها رب العالمين سبحانه وتعالى.

وقد ذكر البخاري في صحيحه هذه الآية، ثم ساق كلام أبي هريرة رضي الله عنه ونصه: «قال: خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل في أعناقهم حتى يدخلوا في الإسلام». [ح٤٥٥٧].

وعن بهز بن حكيم عن أبيه عن جده قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إنكم وفيتم سبعين أمة. أنتم خيرها وأكرمها على الله». [سنن ابن ماجه ٤٢٨٨ والدارمي ٢٧٦٠، وحسنه الألباني].

وقال ابن كثير في تفسيره: «وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى الخيرات بنبيها محمد ﷺ، فإنه أشرف خلق الله، وأكرم الرسل على الله، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعْطَه نبيٌّ قبله ولا رسول من الرسل». [تفسير ابن كثير ١ / ٥٣٧].

والله تبارك وتعالى قد رحم هذه الأمة برحمات متعددة، لم تنلها قبلها أمة من الأمم، ففي حديث أبي موسى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «أمتي هذه أمة مرحومةٌ، ليس عليها عذاب في الآخرة، عذابها في الدنيا الفتن والزلازل والقتل». [أخرجه أبو داود وأحمد والحاكم وصححه الألباني كما في الصحيحة: ٩٥٩].

قال الطيبي في معنى الحديث: «الحديث واردٌ في مدح أمته ﷺ، واختصاصهم من بين سائر الأمم بعناية الله تعالى ورحمته عليهم، وأنهم إن أُصيبوا بمصيبة في الدنيا حتى الشوكة يشاكها أنّ الله يكفّر بها في الآخرة ذنبًا من ذنوبهم، وليست هذه الخاصية لسائر الأمم، ويؤيده ذكر هذه وتعقيبها بقوله: «مرحومة»، فإنه يدل على مزية تمييزهم بعناية الله تعالى ورحمته». [عون المعبود ١١ / ٣٥٩].

والمعنى أنهم مجزيُّون بخطاياهم في الدنيا بالمِحَن والأمراض وأنواع البلايا، وقد ورد هذا في قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾ [النساء: ١٢٣]، والمراد بقوله ﷺ: «ليس عليها عذاب في الآخرة» أي: أن عذابهم ليس كعذاب الكفار، كما أن الغالب في حقهم المغفرة.

وعن أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «إن الله عزَّ وجلَّ إذا أراد رحمة أمة من عباده؛ قبض نبيها قبلها، فجعله لها فرطًا وسلفًا بين يديها، وإذا أراد هلكة أمة؛ عذبها ونبيها حيٌّ، فأهلكها وهو ينظر، فأقر عينه بهلَكتها حين كذبوه وعصوا أمره» [مسلم ٢٢٨٨].

وقد أورد الإمام مسلم هذا الحديث تحت باب: «إذا أراد الله تعالى رحمة أمة؛ قبض نبيها قبلها». [صحيح مسلم: ٤ / ١٧٩١]، وتحت باب سعة رحمة الله تعالى، وفداء كل مسلم بكافر ساق الإمام مسلم أحاديث منها:

ما جاء عن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا كان يوم القيامة دفع الله عز وجل إلى كل مسلم يهوديًا أو نصرانيًا، فيقول: هذا فكاكك من النار» [مسلم ٢٧٦٧].

ومنها ما جاء عن أبي بردة يحدث عن أبيه أبي موسى رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «لا يموت رجل مسلم؛ إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًا أو نصرانيًا». [مسلم ٢٧٦٧].

قال النووي رحمه الله في شرحه: «ومعنى هذا الحديث ما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: لكل أحد منزل في الجنة ومنزل في النار، فالمؤمن إذا دخل الجنة؛ خلفه الكافر في النار؛ لاستحقاقه ذلك بكفره، ومعنى «فكاكك من النار» أنك كنت معرّضًا لدخول النار، وهذا فكاكك؛ لأن الله تعالى قدر لها عددًا يملؤها، فإذا دخلها الكفار بكفرهم وذنوبهم؛ صاروا في معنى الفكاك للمسلمين.

وأما رواية: «يجيء يوم القيامة ناس من المسلمين بذنوب»، فمعناه: أن الله تعالى يغفر تلك الذنوب للمسلمين، ويسقطها عنهم، ويضع على اليهود والنصارى مثلها؛ بكفرهم وذنوبهم فيدخلهم النار بأعمالهم لا بذنوب المسلمين، ولا بد من هذا التأويل؛ لقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الأنعام: ١٦٤].

ويحتمل أن يكون المراد آثامًا كان للكفار سببٌ فيها بأن سنّوها؛ فتسقط عن المسلمين بعفو الله تعالى، ويوضع على الكفار مثلها؛ لكونهم سنّوها، ومن سن سنة سيئة؛ كان عليه مثل وزر كل من يعمل بها، والله أعلم». [شرح النووي على مسلم: ج١٧ / ٨٥- ٨٦].

ومن مظاهر رحمة الله بهذه الأمة: أن الله لا يهلكها بعذاب وقحط يشملهم جميعًا ويعمهم، ولله الحمد والشكر على ذلك، ويؤيد هذا ما جاء في حديث ثوبان رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها، وأُعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي أن لا يهلكها بسَنَةٍ عامة، وأن لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال: يا محمد، إني إذا قضيت قضاء؛ فإنه لا يُرَدّ، وإني أعطيتك لأمتك: أن لا أهلكهم بسَنَةٍ عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم ولو اجتمع عليهم من بأقطارها». [مسلم: ٢٨٨٩].

ومن مظاهر رحمة الله بهذه الأمة: أن خيريتها لا تنقطع، فالخير يعمها، وهو باقٍ فيها إلى يوم القيامة من أولها إلى آخرها، كما جاء في حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَل أمتي مَثَل المطر، لا يُدرى أوله خير أم آخره». [الترمذي ٢٨٦٩ وصححه الألباني في الصحيحة (٢٢٨٦).].

ومعنى الحديث: أن الخير شامل لجميع الأمة، وإن كان معلومًا أن القرن الأول خير من الثاني وهكذا، وقد رجّح ابن عبد البر أن الأفضلية المذكورة في حديث: «خير الناس قرني»، إنما هي بالنسبة إلى المجموع لا الأفراد». [انظر فتح الباري ٧ / ٦].

وقال ابن كثير بعد ذكره لهذا الحديث: «فهذا الحديث -بعد الحكم بصحة إسناده- محمول على أن الدين كما هو محتاج إلى أول الأمة في إبلاغه إلى من بعدهم، كذلك هو محتاج إلى القائمين به في أواخرها، وتثبيت الناس على السنة وروايتها وإظهارها، والفضل للمتقدم، وكذلك الزرع هو محتاج إلى المطر الأول، وإلى المطر الثاني، ولكن العمدة الكبرى على الأول، واحتياج الزرع إليه آكد، والغرض: أن هذه الأمة أشرف من سائر الأمم، والمقربون فيها أكثر من غيرها وأعلى منزلة؛ لشرف دينها وعظم نبيها». [تفسير ابن كثير ٤ / ٣٧٣].

وقال الطيبي: «تمثيل هذه الأمة بالمطر إنما يكون بالهدى والعلم، كما أن تمثيله ﷺ الغيث بالهدى والعلم، فتختص هذه الأمة المشبهة بالمطر بالعلماء المكمّلين لغيرهم، فيستدعي هذا التفسير أن يُراد بالخير النفع؛ فلا يلزم من هذه المساواة الأفضلية، وإنما المراد وصف الأمة قاطبة سابقها ولاحقها وأولها وآخرها بالخير، وأنها ملتحمة بعضها مع بعض».

ومن مظاهر رحمة الله بهذه الأمة أنه: يضاعف لها الأجر، فتعمل العمل القليل، وتأخذ عليه الأجر الكبير، كما في حديث عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إنما مثلكم واليهود والنصارى كرجل استعمل عمالاً، فقال: من يعمل لي إلى نصف النهار على قيراط قيراط؟ فعملت اليهود على قيراط قيراط، ثم عملت النصارى على قيراط قيراط، ثم أنتم الذين تعملون من صلاة العصر إلى مغارب الشمس على قيراطين قيراطين، فغضبت اليهود والنصارى، وقالوا: نحن أكثر عملاً وأقل عطاءً؟ قال: هل ظلمتكم من حقكم شيئًا؟ قالوا: لا. قال: فذلك فضلي أوتيه من أشاء». [البخاري: ٢٢٦٩].

قال ابن حجر: «وفي الحديث تفضيل هذه الأمة، وتوفير أجرها مع قلة عملها». [فتح الباري: ٤ / ٤٤٩].

ومن رحمة الله بهذه الأمة وفضله الواسع عليها أن عفا عن حديث النفس والوسوسة، فلا يحاسبهم عليها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه يرفعه إلى النبي ﷺ: «إن الله تجاوز لأمتي عما وسوست أو حدّثت به أنفسها، ما لم تعمل به أو تكلم». [البخاري: ٦٦٦٤].

قال ابن حجر: «وفي الحديث إشارة إلى عظيم قدر الأمة المحمدية؛ لأجل نبيها ﷺ؛ لقوله: (تجاوز لي). وفيه إشعار باختصاصها بذلك، بل صرّح بعضهم بأنه كان حكم الناسي كالعامد في الإثم، وأن ذلك من الإصر الذي كان على من قبلنا». [المرجع السابق ج١١ / ٥٥٢].

ويؤيده الحديث الذي أخرجه الإمام مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿وَإِنْ تُبْدُوا مَا فِي أَنْفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُمْ بِهِ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، قال: دخل قلوبهم منها شيء لم يدخل قلوبهم من قبل، فقال النبي ﷺ: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلَّمْنا». قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾. (قال: قد فعلتُ)، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا﴾، قال: قد فعلتُ، ﴿رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾، قال: قد فعلت، ﴿وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾، قال: قد فعلتُ». [مسلم: ١٢٦].

وهذا فضل عظيم، ومنة كبيرة من الرب الكريم على أمة الإسلام، ولم تنل أيّ أمة ما نالته هذه الأمة من المغفرة والرحمة.

وهذا يدل على عظيم مكانتها، وتقدمها على غيرها، وأن رسالتها هي الرسالة التي تصلح بها البشرية، وقد خوطبت بها منذ بعثة النبي ﷺ.

فاللهم لك الحمد على ذلك، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين. والحمد لله رب العالمين.

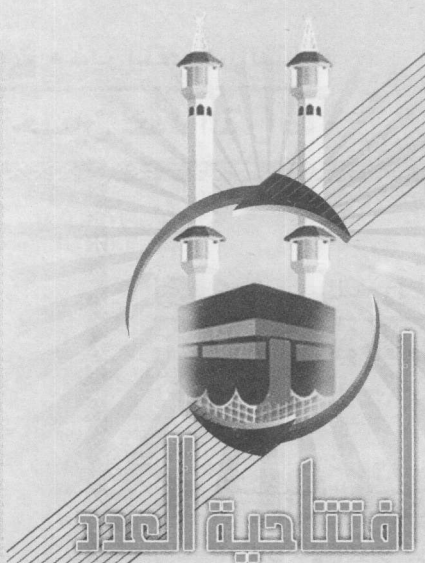

العدل في الإسلام شامل لبني الإنسان

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، ورحمة الله للعالمين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.. وبعدُ:

فإن الوفاء بالعهد، والصدق في القول، والعدل في المعاملة، من القواعد المرعية في الشريعة الإسلامية، وقد جاءت نصوص كثيرة في القرآن والسنة تبيّن ذلك وتحثُّ عليه، وأجمع المسلمون على ذلك. قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [المائدة: ١]، ومعنى «العقود»: العهود، وقد حكى الإمام ابن جرير رحمه الله الإجماع على ذلك. انظر تفسيره (ج٦ / ٣٢)، ومعنى الآية: يا أيها الذين التزمتم بإيمانكم أنواع العقود؛ عليكم بالوفاء بتلك العقود، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام لوفائه؛ فقال: ﴿وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى﴾ [النجم: ٣٧]، كما امتدح المؤمنين الصادقين المفلحين بأنهم لأماناتهم وعهدهم راعون، كما أمر - تبارك وتعالى - بالعدل والإحسان، فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]، والآية تأمر بالعدل، وهو القسط والتسوية في الحقوق، وإيصال الحق إلى أهله، كما تأمر بالإحسان، وهو الفضل ومقابلة الخير بأكثر منه، وتنهى عن الفحشاء والمنكر والبغي.

والآيات الآمرة بالعدل في كتاب الله عامة تشمل العدل مع جميع الناس، وفي جميع القضايا، بل إن الله تعالى أمر بالعدل في معاملة المخالفين، وإن كانوا لنا أعداءً، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ٨].

قال الإمام ابن جرير -رحمه الله- في تفسير الآية:

«يعني بذلك جل ثناؤه: يا أيها الذين آمنوا بالله وبرسوله محمد ﷺ ليكن من أخلاقكم وصفاتكم القيام شهداء بالعدل في أوليائكم وأعدائكم، ولا تجوروا في أحكامكم وأفعالكم؛ فتتجاوزوا ما حدَّدت لكم في أعدائكم لعداوتهم لكم، ولا تقصروا فيما حددتُ لكم من أحكامي وحدودي في أوليائكم لولايتهم لكم، ولكن انتهوا في جميعهم إلى حدي، واعملوا فيه بأمري.

وأما قوله: ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا﴾ فإنه يقول: ولا يحملنكم عداوة قوم على أن لا تعدلوا في حكمكم وسيرتكم بينهم؛ فتجوروا عليهم من أجل ما بينكم وبينهم من العداوة». [تفسير ابن جرير (٦٥ / ٩١)].

وقال الفخر الرازي: «والمعنى: لا يحملنكم بُغْض قوم على أن تجوروا عليهم، وتجاوزوا الحد فيهم، بل اعدلوا فيهم، وإن أساءوا إليكم، وأحسنوا إليهم وإن بالغوا في إيحاشكم، فهذا خطاب عام، ومعناه أمر الله تعالى إلى جميع الخلق بأن لا يعاملوا أحدًا إلا على سبيل العدل والإنصاف، وترك الميل والظلم والاعتساف. [تفسير الرازي ج٥ / ٦٢٠].

والناظر يلمس بوضوح أن أئمة المسلمين وعلماءهم فهموا من الآيات الواردة والآمرة بالعدل في كتاب الله: شمولها للمؤمن وغيره، وعليه: فلا عذر لمؤمن في ترك العدل أبدًا حتى ولو كان في الشهادة لكافر، والله تبارك وتعالى بيَّن ذلك في كتابه، وقال فيه لنبيه وحبيبه ﷺ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلاَ تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيمًا﴾ [النساء: ١٠٥]، والآية تنص على أنه يجب الحكم بالحق والعدل، حتى ولو كان المحكوم عليه من غير المسلمين، فالعدل مع جميع الناس واجب ومطلوب، وهذا من الأسس الأخلاقية الرفيعة التي قررها الإسلام في التعامل بين الناس جميعًا: مؤمنهم وكافرهم، صغيرهم وكبيرهم، فالاختلاف في الدين، بل والعداوة، لا تمنع المسلم من إقامة العدل والإنصاف وتحقيقه، وقد أمر الله -صراحة- المسلمين بالبر والعدل مع المسالمين من غير المسلمين، كما في قوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨]، قال ابن كثير في معنى الآية: «أي: لا ينهاكم عن الإحسان إلى الكَفَرة الذين لا يقاتلونكم في الدين، كالنساء، والضعفة منهم: (أن تبروهم) أي تحسنوا إليهم، (وتقسطوا إليهم) أي: تعدلوا، ثم ساق حديث أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما وهو في الصحيحين، وفيه أنها قالت: «قدمت أمي وهي مشركة في عهد قريش إذ عاهدوا، فأتيت النبي ﷺ، فقلت: يا رسول الله، إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصلها؟ قال: «نعم، صلِّي أمك» [متفق عليه]. [تفسير ابن كثير: جـ٤ / ٤٦٠].

وقال القاسمي - رحمه الله - في معنى الآية: «أي: لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من أهل مكة، ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم، أي تُفْضُوا إليهم بالبر، وهو الإحسان، والقسط وهو العدل، فهذا القدر من الموالاة غير منهي عنه، بل مأمور به في حقهم، والخطاب وإن يكن في مشركي مكة، إلا أن العبرة بعموم لفظه، وقد حاول بعض المفسرين تخصيصه؛ فرد ذلك الإمام ابن جرير بقوله: والصواب قول من قال: عنى بقوله تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّهُ﴾، جميع أصناف الملل والأديان، أن تبروهم وتصلوهم وتقسطوا إليهم، فإن الله عز وجل عمَّ بقوله: ﴿الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ﴾ جميعَ من كان ذلك صفته، فلم يخصص به بعضًا دون بعض». [تفسير القاسمي ج١٦ / ٥٧٦٨].

وقد قرر النبي ﷺ في سنته مبدأ العدل، ودعا إليه، وذكر عاقبة أهله، ففي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حُكْمهم وأهليهم وما وُلُّوا». [مسلم: ١٨٢٧].

قال النووي رحمه الله: «والمقسطون: هم العادلون، وأما قوله ﷺ: الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلُّوا، فمعناه: أن هذا الفضل إنما هو لمن عدل فيما تقلده من خلافة أو إمارة أو قضاء أو حسبة، أو نَظَر على يتيمٍ أو صدقةٍ أو وقفٍ، وفيما يلزمه من حقوق أهله وعياله ونحو ذلك، والله أعلم». [شرح النووي على مسلم ج١٢ / ٢١١، ٢١٢].

وقد تعلم أصحاب النبي ﷺ منه مبادئ العدل والقسط، وطبقوا ذلك في حياتهم حتى مع أعدائهم، ولنتأمل هذه القصة التي وقعت في عهده ﷺ من بعض صحابته، قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما: «أفاء الله عز وجل خيبر على رسول الله ﷺ، فأقرهم رسول الله ﷺ كما كانوا، وجعلها بينه وبينهم، فبعث عبد الله بن رواحة، فخرصها عليهم [الخَرْصُ: تقدير حق المسلمين من تمر خيبر]، ثم قال لهم: يا معشر اليهود، أنتم أبغض الخلق إليَّ، قتلتم أنبياء الله عز وجل، وكذبتم على الله، وليس يحملني بُغضي إياكم على أن أحيف عليكم، قد خرصت عشرين ألف وسق من تمر، فإن شئتم فلكم، وإن أبيتم فلي، فقالوا: بهذا قامت السماوات والأرض قد أخذنا، فاخرجوا عنا». [مسند أحمد ج٣ / ٣٦٧، وقال الشيخ شعيب الأرناءوط: إسناده قوي على شرط مسلم].

وهذه شهادة من اليهود بحكم المسلمين بالعدل، وعبد الله بن رواحة رضي الله عنه مع بُغْضه لليهود؛ تحرى الحق والعدل معهم، وهذا من الإنصاف مع المخالف.

ومن مقتضيات العدل مع المخالفين: ذكر محامد المخالف ومحاسنه، ومن ذلك ما ذكره النبي ﷺ في النجاشي حين أمر أصحابه بالهجرة إلى الحبشة [البيهقي في السنن الكبرى ١٨١٩٠ وصححه الألباني]، وقد ذكر لهم صدقه وعدله وأنه لا يظلم، والنجاشي كان نصرانيًا آنذاك.

ومن مقتضيات العدل والإنصاف أيضًا مع المخالفين: قبول الحق منهم، ومن ذلك ما جاء عن «قتيلة» امرأة من جهينة، أن يهوديًا أتى النبي ﷺ فقال: «إنكم تندِّدون وإنكم تشركون، تقولون: ما شاء الله وشئت، وتقولون: والكعبة، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: ورب الكعبة، ويقولوا ما شاء الله ثم شئت». [أخرجه النسائي في الأيمان والنذور وصححه الألباني برقم (٣٥٣٣)].

وعن عائشة رضي الله عنها أن يهودية دخلت عليها، فذكرت عذاب القبر، فقالت لها: أعاذك الله من عذاب القبر، فسألت عائشة رسول الله ﷺ عن عذاب القبر، فقال: نعم، عذاب القبر، قالت عائشة رضي الله عنها: فما رأيت رسول الله ﷺ بعدُ صلى صلاة إلا تعوذ من عذاب القبر. زاد غندر: «عذاب القبر حق». [البخاري: ١٣٧٢].

ففي الحديثين تأكيد لقبول الحق بغض النظر عمن صدر منه هذا الحق، وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: «والله قد أمرنا ألا نقول عليه إلا الحق، وألا نقول عليه إلا بعلم، وأمرنا بالعدل والقسط، فلا يجوز لنا إذا قال يهودي أو نصراني - فضلاً عن الرافضي - قولاً فيه حق أن نتركه أو نرده كله، بل لا نرد إلا ما فيه من الباطل دون ما فيه من الحق». [منهاج السنة النبوية ج٢ / ٣٤٢].

بل إن النهج النبوي ذهب إلى أبعد من ذلك في قبول الحق من قائله، حتى ولو كان القائل هو الشيطان، كما في البخاري وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آتٍ فجعل يحثو من الطعام فأخذته، فقلت: لأرفعنَّك إلى رسول الله ﷺ... فقص الحديث، فقال: إذا أَوَيْتَ إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي؛ لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح، فقال النبي ﷺ: صدقك وهو كذوب، ذاك شيطان». [البخاري: ٥٠١٠]. فالنبي ﷺ في هذا الحديث بيّن لأبي هريرة رضي الله عنه أن ما ذكره الشيطان له في فضل آية الكرسي حقٌ، على الرغم من كذب الشيطان وفجوره، ولم يمنع النبيّ ﷺ أبا هريرة من قبول كلامه إذ إنه حق وصدق، والحديث بهذا يدل على قبول الحق من المخالفين.

وابن القيم - رحمه الله - يوضح أن هذا من الإنصاف والعدل مع المخالف أيًا كان هذا المخالف، وفي هذا يقول رحمه الله: «والله تعالى يحب الإنصاف، بل هو أفضل حلية تحلى بها الرجل، خصوصًا من نصب نفسه حكمًا بين الأقوال والمذاهب، وقد أمر الله تعالى رسوله ﷺ أن يقول: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥]، فورثة الرسول ﷺ منصبهم العدل بين الطوائف، وألا يميل أحدهم مع قريبه وذوي مذهبه، وطائفته ومتبوعه، بل يكون الحق مطلوبه، يسير بسيره، وينزل بنزوله.

ويقول - رحمه الله - في موطن آخر، وهو يبين منهج أهل السنة في التعامل مع النصوص والمخالفين لهم:

والاختلاف المذموم كثيراً ما يكون مع كل فرقة من أهله بعض الحق؛ فلا يقر له خصمه به، بل يجحده إياه؛ بغياً ومنافسة فيحمله ذلك على تسليط التأويل الباطل على النصوص التي مع خصمه، وهذا شأن جميع المختلفين بخلاف أهل الحق؛ فإنهم يعلمون الحق من كل ما جاء به، فيأخذون حق جميع الطوائف ويردون باطلهم، فهؤلاء الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [البقر: ٢١٣]، فأخبر سبحانه أنه هدى عباده لما اختلف فيه المختلفون». [الصواعق المرسلة ج٢ / ٥١٥، ٥١٦].

وأقوال أهل العلم في ذلك كثيرة، وكلها تبين بوضوح وجلاء عظمة الإسلام وسماحته في علاقته وتعامله مع الناس كافة، وقد تضمنت شريعة الإسلام كمًا هائلاً وعظيمًا من التشريعات التي كان هدفها وغايتها رعاية الحق وإقامة العدل، ودفع الظلم والبغي والعدوان بين أتباع الديانات الأخرى ممن يعيشون في مجتمع المسلمين، وقد تعلم المسلمون من خلال توجيهات القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة أن يعاملوا غيرهم بيسر وسماحة وحسن معاشرة، والإسلام في ميدان الحياة العامة حريص على احترام شخصية المخالف له، ومن ثَم لم يكرهه على الدخول في دين نبي الإسلام ﷺ.

ولذلك لم يقم الإسلام بمصادرة حقوق المخالفين له، أو تحويلهم بقوة جبرية وإكراه عن معتقداتهم، بل نهى عن التعرض لأموالهم وأعراضهم ودمائهم بغير حق، وقد فَقُهَ أئمة المسلمين هذه المعاني على مدار التاريخ كله، فلم يظلموا أحدًا من المخالفين، وسيرتُهم تؤكد ذلك، وهذه بعض أقوالهم في العدل والدعوة إليه:

- يقول ابن حزم - رحمه الله-: «أفضل نعم الله تعالى على المرء: أن يطبعه على العدل وحبه، وعلى الحق وإيثاره». [مداواة النفوس ص٩٠].

- وقال ابن تيمية رحمه الله: «بالصدق في كل الأخبار، والعدل في الإنشاء من الأقوال والأعمال: تصلح جميع الأعمال، وهما قرينان كما قال الله تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥]» [(الحسبة ص٢٢)].

ومن هذا المنطلق فنحن في أنصار السنة المحمدية ندعو الخلق إلى الحق، ونسعى بين جميع العباد بالصدق والعدل، وندين هذه الاعتداءات الآثمة التي وقعت على الأبرياء مؤخرًا في مدينة الإسكندرية، وهذا منهجنا وتلك عقيدتنا، وهي عقيدة جميع أهل السنة والجماعة، فهم أهل الرحمة والعدل والإحسان إلى جميع الخلق.

وأختم هذا المقال بموقف شيخ الإسلام ابن تيمية من النصارى وسعيه في إخراجهم من السجن - يقول - رحمه الله: «وقد عرف النصارى كلهم أني لما خاطبت التتار في إطلاق الأسرى، وأطلقهم «غازان»، و«قطلوشا» وخاطبت مولاي فيهم؛ فسمح بإطلاق المسلمين، قال لي: لكن معنا نصارى أخذناهم من القدس، فهؤلاء لا يُطلقون. فقلت له: بل جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل أمتنا، فإنا نَفْتَكُّهم، ولا ندع أسيراً، لا من أهل الملة، ولا من أهل الذمة، وأطلقنا من النصارى من شاء الله، فهذا عملنا وإحساننا، والجزاء من الله». [مجموع الفتاوى ج٢٨ ص٦١٧].

ونحن على هذا المنهج سائرون، وبديننا متمسكون، وإلى دين ربنا داعون، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل، ونود أن نُعلم إخواننا أن منهجنا ثابت لن يتغير، وأن دعوتنا -بإذن الله- قائمة على الحق، ومنهاج النبوة دون مداهنة أو مجاملة، أو تنازل عن مبدأ صحيح، أو معتقد رباني رشيد، ونسأل الله العون والتوفيق والتأييد، والحمد لله رب العالمين.

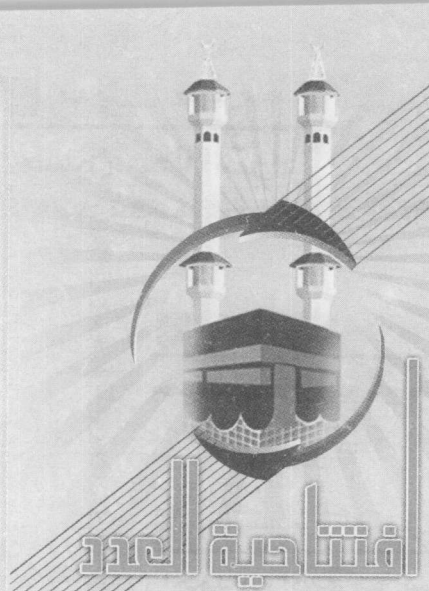

افتتاحية العدد

العلماء والمحافظة على الثوابت

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على الصادق الأمين، وعلى آله وصحبه الأبرار الأطهار إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فالأمة اليوم تمر بمرحلة عصيبة في حياتها، تحتاج فيها إلى جهود العلماء الربانيين الذين يعرفون الداء، وينشرون الدواء، والأمة في أمسّ الحاجة إليهم للنهوض بها، والمحافظة على ثوابتها، وإني نظرت إلى الأحوال الواقعة في الساحة اليوم فوجدت عجبًا، البعض ينادي ويرفع صوته بضرورة تنحية الدين عن حياة الأمة، بل يذكرون أنه لا يصلح لقيادة البشرية، وآخرون ينادون بالعودة إلى الإسلام عقيدة وشريعة، وهذا هو الحق الذي ندعو إليه ويجب أن نلزمه، غير أن الطائفة الأولى توحد صفها وتجمع كلمتها في مواجهة الحق، والآخرون بينهم ضرب من الخلاف أحيانًا في مسائل مهمة، أو ما يمكن أن أطلق عليه «أَوْلِيّات العمل في هذه المرحلة» للانطلاقة بهذا الأمة إلى ما يجب أن تكون عليه من قيادة وريادة، وقيام بالدين كما جاء من عند رب العالمين.

ولهذا سأذكر أهم الثوابت التي يجب أن يدركها الدعاة إلى الله خاصة، والأمة الإسلامية بعامة، ونحن في أمس الحاجة إليها اليوم؛ لتستقيم حياة الأمة وتعلو كلمتها وتنهض من كبوتها، ومن هذه الثوابت:

١- الدعوة إلى إخلاص الدين لله وعبادته وحده دون سواه:

توحيد رب العالمين أصل الأصول في الدين، وتوحيد العبادة أهم ألوان وأنواع التوحيد؛ إذ به تُساس الحياة، وعليه تبنى الشريعة، وما أرسل الله رسولاً إلا وبعثه بمدلوله، قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا

مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥]، وهو حق الله الذي لا يكون لغيره، وهو أول دعوة الرسل أجمعين، قال تعالى: «وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اُعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ» [النحل: ٣٦]، فما من أمة متقدمة أو متأخرة إلا وبعث الله فيها رسولاً، وكلهم متفقون على دعوة واحدة، ودين واحد، وهو: عبادة الله وحده لا شريك له.

قال ابن كثير رحمه الله: «فلم يزل تعالى يرسل الرسل بذلك منذ حدث الشرك في بني آدم، في قوم نوح الذين أرسل إليهم نوحًا، وكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض إلى أن ختمهم بمحمد صلى الله عليه وسلم، الذي طبقت دعوته الإنس والجن في المشارق والمغارب، وكلهم كما قال الله تعالى: «وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنَا أَجَعَلْنَا مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ» [الزخرف:٤٥، تفسير ابن كثير: ٧٦٨/٢].

وقد أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم محمدًا أن يدعو أهل الكتاب إلى التوحيد، فقال تعالى: «قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ» [آل عمران: ٦٤]، والآية قررت وحدانية الألوهية، ووحدانية الربوبية، وكلاهما متفق عليه بين الرسل، كما أن توحيد الألوهية هو أول واجب يُدعى العباد إليه، وأول ما يُخاطب به الناس من أمور؛ وذلك لأن سائر الأعمال لا تُقبل ولا تصح إلا به، فكما لا تُقبل صلاة بلا وضوء، لا تُقبل عبادة بلا توحيد، ولهذا لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذ بن جبل إلى اليمن قال له: «ادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم...». [البخاري ١٣٩٥].

وهذا هو التوحيد الذي يجب البدء به، والشهادتان والإقرار بهما أمارة على ثبوته ووجوده، وهو معقد النجاة في الدنيا؛ إذ به يثبت عقد الإسلام وتُعصم الدماء والأموال إلا بحقها، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أُمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، ويؤمنوا بي وبما جئت به، فإذا فعلوا عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله». [مسلم: ٣٤].

وقد دلَّ الحديث على صيانة مال من أتى بكلمة التوحيد ونفسه، كما أن هذا التوحيد هو معقد النجاة في الآخرة، قال الله تعالى: «وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرًا» [النساء: ١٢٤]، فاشترط لدخول الجنة الإيمان بالله – وهو توحيده – مع العمل الصالح.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يلقى الله بهما عبدٌ، غير شاك فيهما، إلا دخل الجنة». [مسلم: ٤٤].

وفي حديث معاذ رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ: «يا معاذ: أتدري ما حق الله على العباد؟» قال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن يُعبد الله ولا يُشرك

به شيء». قال: «أتدري ما حقهم عليه إذا فعلوا ذلك؟» فقال: الله ورسوله أعلم. قال: «أن لا يعذبهم». [مسلم: ٥٠].

وقد صح الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أن من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة، نسأل الله أن يجعلنا من أهلها، وأن تكون آخر ما ننطق به في دار الدنيا.

ومما يؤسف له أن البعض يعيب على أنصار السنة المحمدية اهتمامها بهذا التوحيد، وسعيها في نشره بين أفراد الأمة، ويعتبر ذلك مذمة ينتقصهم بها، ونحن جميعًا نلاحظ ما يقع فيه البعض من صرف لأنواع العبادة لغير الله، كالدعاء والذبح والنذر والتوسل، وغير ذلك، وهذه صور مشاهَدة وواقعة فيما يُعرف بالموالد التي تُعقد وتقام بين الحين والآخر هنا وهناك. نسأل الله السلامة والعافية.

٢- تعظيم نصوص الكتاب والسنة:

أرسل الله نبيه ومصطفاه محمدًا صلى الله عليه وسلم لهداية الخلق، وأنزل عليه الكتاب والسنة، ونزلا بعلمه سبحانه، قال تعالى: «لَكِنِ اللَّهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ وَالْمَلَائِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا» [النساء: ١٦٦]، وهذا يدل على أن ما بلّغه الرسول صلى الله عليه وسلم كله حق، وعلى كل مسلم أن يقابله بالتصديق الجازم والتسليم المؤكد، والقرآن والسنة هما المصدر الرئيسي للشريعة الإسلامية، وقد اشتملا على أصول الهداية وإسعاد البشرية في الدنيا والآخرة.

ولن يكون للمسلمين شأن ولا عز ونصر وتمكين، ولا فلاح في الدنيا والآخرة إلا بامتثال أوامر الله وطاعته، وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وقد وردت أوامر القرآن والأحاديث النبوية في وجوب العمل والانقياد والتسليم لما جاء عن الله تعالى، أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم، وذلك مثل قوله تعالى: «وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا» [النساء: ٦٩]، كما أمر الله عباده المؤمنين بالتحاكم إلى الكتاب والسنة عند التنازع والخلاف، قال الله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» [النساء: ٥٩]. قال الشيخ عبدالرحمن السعدي – رحمه الله-: «أمر برد ما تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإن فيهما الفصل في جميع المسائل الخلافية، إما بصريحهما، أو عمومهما...؛ لأن كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم عليهما بناء الدين، ولا يستقيم الإيمان إلا بهما، فالرد إليهما شرط في الإيمان، فلهذا قال: «إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ».» [تفسير السعدي ٢/٨٩، ٩٠].

كما جاءت آيات في القرآن الكريم تمدح المؤمنين المعظّمين لحكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم مع البشرى العظيمة لهم وهي الفلاح والفوز. قال الله تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ» [النور: ٥١]، كما نهى الله تبارك وتعالى عباده المؤمنين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بقول أو فعل، فقال تعالى: «يَا

أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الحجرات: ١].

وهذا أدب عظيم أدَّب الله به عباده المؤمنين فيما يتعاملون به مع نصوص القرآن والسنة، وأنه يجب على كل مسلم تعظيم واحترام الوحي الإلهي، وقد ساق الحافظ ابن كثير - رحمه الله - أقوالاً عن السلف في تفسير الآية تبيّن مدى تعظيمهم للنصوص والتسليم لها، ومن ذلك ما جاء عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: لا تقولوا خلاف الكتاب والسنة، وقال مجاهد: لا تفتاتوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشيء، حتى يقضي الله على لسانه، وقال الضحاك: لا تقضوا أمرًا دون الله ورسوله من شرائع دينكم. [انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٢].

وهذا هو حقيقة الأدب الواجب مع نصوص الكتاب والسنة، وهو عنوان سعادة العبد وفلاحه في الدنيا والآخرة، وصدق الله إذ يقول: «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلاَ يَضِلُّ وَلاَ يَشْقَى» [طه: ١٢٣].

كما وردت أحاديث كثيرة تحث على وجوب العمل بالكتاب والسنة والتحاكم إليهما، ومن ذلك ما رواه ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع فقال: «يا أيها الناس، إني قد تركت فيكم ما إن اعتصتم به فلن تضلوا أبدًا، كتاب الله وسنتي». [أخرجه مالك في الموطأ برقم: ١٦١٩].

كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم بوقوع الاختلاف وحصوله في الأمة، كما جاء ذلك في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه، ثم ذكر صلى الله عليه وسلم المخرَج من ذلك والطريق الصحيح الذي يجب أن يكون عليه المسلم، وهو التزام سنته صلى الله عليه وسلم، وقد أوصى أصحابه بذلك، وهم أعمق الأمة إيمانًا، وأكثر الناس تحريًا للحق واتباعًا له.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوني ما تركتم، فإنما أهلك من كان قبلكم سؤالهم واختلافهم في أنبيائهم، فإذا نهيتكم عن شيء فاجتنبوه، وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم». [البخاري: ٧٢٨٨].

والحديث أفاد أنه ينبغي للمسلم أن يلتزم ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم يتشاغل بالعمل به، فإن كان من العلميات صدَّقه واعتقد حقيقته، وعمل بقلبه بمقتضاه، وإن كان من العمليات بذل وسعه في القيام به فعلاً وتركًا، وهذا هو المسلك الصحيح الذي يجب أن تكون عليه تجاه نصوص الوحيين.

قال شارح الطحاوية: «فالواجب كمال التسليم للرسول صلى الله عليه وسلم والانقياد لأمره، وتلقي خبره بالقبول والتصديق، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً، فنوحّده بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان، كما نوحّد المرسِل [الله] بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل، فهما توحيدان، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما: توحيد المرسِل [الله]، وتوحيد متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم، فلا نتحاكم إلى غيره، ولا نرضى بحكم غيره».

وهذا هو منهجنا ودورنا الذي نسأل الله الثبات عليه.

والحمد لله رب العالمين.

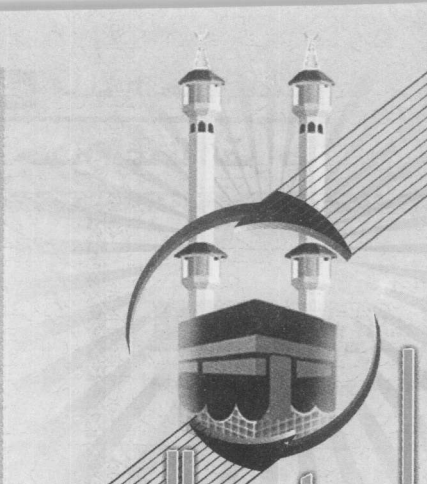

افتتاحية العدد

العلماء والمحافظة على الثوابت

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الكبير المتعال، والصلاة والسلام على المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن بعض الثوابت التي يجب على الأمة أن تعتني بها وأن تدافع عنها، وقد أشرت إلى أن الموضوع يحتاج إلى مزيد بسط وبيان، أذكره بحمد الله تعالى في هذا اللقاء:

٣- إحياء السنن والآثار:

يعيش بعض الناس اليوم في غربة عن السنة النبوية وبُعد عنها، وغاب عنهم أهميتها ومكانتها في دنياهم وأخراهم، بل تطاول البعض على السنة وزعم عدم حجيتها، مع أنها في غاية الأهمية في بنية الإسلام، وقد اتفق المسلمون قديمًا وحديثًا إلا من شذ من الفرق المنحرفة على أن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من قول أو عمل أو تقرير هي من مصادر التشريع الإسلامي الذي لا غنى عن الرجوع إليها في كل مسائل الدين، سواء كانت عقيدة أو عبادة، أو معاملات وسلوك وأخلاق، وقد أدرك الرعيل الأول ذلك وفهموه، فاجتهدوا في العناية بالسنة ونشرها والعمل بأحكامها، وكان الواحد منهم يرحل وينتقل من بلده إلى بلد آخر ليسمع حديثًا واحدًا من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

وقد أخرج البخاري في الأدب المفرد وأحمد والطبراني والبيهقي – واللفظ له – عن جابر بن عبد الله – رضي الله عنهما – قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم لم أسمعه منه، فابتعت بعيرًا فشددت عليه رحلي، ثم سرت إليه شهرًا حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أنيس الأنصاري، فأتيته فقلت له: حديث بلغني عنك أنك سمعته من رسول الله صلى الله عليه وسلم في المظالم لم أسمعه، فخشيت أن أموت أو تموت قبل أن أسمعه، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول. وساق الحديث: «قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَوْ قَالَ الْعِبَادُ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ قُلْنَا وَمَا بُهْمًا قَالَ لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ ثُمَّ يُنَاديهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مِنْ قُرْبٍ أَنَا الْمَلِكُ أَنَا الدَّيَّانُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ أَنْ يَدْخُلَ النَّارَ وَلَهُ عِنْدَ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ وَلِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ عِنْدَهُ حَقٌّ حَتَّى أَقُصَّهُ مِنْهُ حَتَّى اللَّطْمَةُ قَالَ قُلْنَا كَيْفَ وَإِنَّا إِنَّمَا نَأْتِي اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ عُرَاةً غُرْلًا بُهْمًا قَالَ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ». (مسند أحمد ١٦٠٨٥ وقال الأرناؤوط: إسناده حسن).

فانظر إلى هذه الهمة العالية التي دفعته ليسافر شهرًا ليسمع حديثًا واحدًا للنبي صلى الله عليه وسلم، وما ذاك إلا حرص على الحديث وسماعه، ونشره وذيوعه، كما حرص التابعون على أخذ الحديث من صدور الصحابة واستمر ذلك إلى أن دُونت السنن والآثار، وأصبحت ميسورة بين يدي الأمة، والواجب اليوم نشرها وإذاعتها، والعمل بها، وحث الناس على ذلك، وقد وردت كلمات عن أئمتنا – رحمهم الله – تبين ذلك وتحث عليه، ومن ذلك ما قاله عمر بن عبد العزيز – رضي الله عنه –: «سن رسول الله صلى الله عليه وسلم وولاة الأمر بعده سننًا: الأخذ بها تصديق لكتاب الله عز وجل واستكمال لطاعته، وقوة على دين الله، ليس لأحد من الخلق تغييرها ولا تبديلها، ولا النظر في شيء خالفها، من اهتدى بها فهو مهتد، ومن استنصر بها فهو منصور، ومن تركها اتبع غير سبيل المؤمنين وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيرًا». رواه الآجري في الشريعة (١/٤٠٨)، وإسناده صحيح.

وعليه فالواجب على جميع المسلمين أن يتعلموا السنن ويعملوا بها ويبذلوا الغالي والنفيس في إذاعتها ونشرها، وهذا فرض على علماء الأمة ورجالاتها؛ لأن الدين لا يقوم إلا بها.

قال الإمام البربهاري – رحمه الله –: «اعلموا أن الإسلام هو السنة، والسنة هي الإسلام، ولا يقوم أحدهما إلا بالآخر». (شرح السنة: ٥٩).

٤- إماتة البدعة:

من الأصول المقررة عند أهل السنة والجماعة أن كل بدعة ضلالة، وهذا الأصل هو مقتضى قول النبي صلى الله عليه وسلم، كما في حديث العرباض بن سارية: «فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». (أخرجه أبو داود وغيره بسند صحيح).

وعن أم المؤمنين – رضي الله عنها – أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد». (مسلم: ١٧١٨).

والبدع كلها ضلال، وفي العمل بها اتهام للدين بالنقصان وعدم الكمال، وهذا – والعياذ بالله – في غاية الفساد، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة من الابتداع في الدين، كما وردت آثار كثيرة عن سلف الأمة الصالحين فيها حثّ على اتباع السنة، وتحذير من البدع وبيان خطورتها، وهذا طرف منها: قال عبد الله بن عمر رضي الله عنهما: «كل بدعة ضلالة، وإن رآها الناس حسنة».

وكتب رجل إلى عمر بن عبد العزيز يسأله عن القدر، فكتب له هذه الوصية العظيمة ونصها: «أما بعد: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون بعدما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك – بإذن الله- عصمة». رواه أبو داود (٤٦١٢).

وقال الإمام مالك – رحمه الله –: «من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة فقد زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة؛ لأن الله يقول: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلاَمَ دِينًا﴾». (الاعتصام للشاطبي: ج١/٢٨).

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: «أصول السنة عندنا: التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، والاقتداء بهم، وترك البدع، وكل بدعة ضلالة، وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء، وترك المراء والجدل والخصومات في الدين، والسنة عندنا آثار رسول الله صلى الله عليه وسلم، والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن، وليس في السنة قياس ولا تُضرب لها الأمثال ولا تُدرك بالعقول ولا الأهواء، إنما هي الاتباع وترك الهوى». (شرح اعتقاد أهل السنة ج١/١٦).

وبناءً على هذه الأقوال فيجب على كل مسلم ترك البدع والدعوة إلى إماتتها، وتحذير الناس منها؛ لأنها تصد عن السنة والطريق القويم، ويكفي في اجتنابها وأهمية البعد عنها الخبر الصادق: بأن كل بدعة ضلالة، وللإمام محمد بن الحسن الآجري – رحمه الله – كلامًا نفيسًا في أهمية التمسك بالسنة وترك ما خالفها، جاء فيه: «علامة من أراد الله به خيرًا سلوك هذا الطريق: كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء، مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن

أنس، والشافعي، وأحمد ابن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يَذُمُّه هؤلاء العلماء». (الشريعة للآجري ج١/٣٠١).

وأختم هذه الفقرة بهذا الحديث الدال على شناعة البدعة وأثرها على صاحبها، فقد أخرج الطبراني في الأوسط والهروي في ذم الكلام، والبيهقي في شعب الإيمان وغيرهم عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله احتجز التوبة عن صاحب كل بدعة». (وإسناده صحيح، السلسلة الصحيحة للألباني ج٤/١٥٤).

٥- موالاة المؤمنين ومعاداة الكافرين:

من مسلمات الاعتقاد في منهج أهل السنة والجماعة موالاة أهل الإيمان، ومعاداة أهل الكفر والطغيان، وهو ما يُعرف بالولاء والبراء، والواجب على المسلم موالاة أخيه في الإسلام، فيحبه وينصره، ويقف إلى جواره، ويبغض ويتبرأ من الكفر والشرك ومن تلبس بهما، وقد اعتنى الشرع الحكيم بهذه المسألة عناية كبيرة، وجاءت النصوص الكثيرة المبينة والداعية لهذه العقيدة، ومنها قول الله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (التوبة:٧١)، وقال تعالى في عدم مودتهم: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ (المجادلة:٢٢)، والآية تشير إلى ضرورة مباينة الكفار حتى ولو كانوا آباءً وأبناء، وأن الأهل والأقارب تنقطع بينهم وبين المسلم الأخوة الإيمانية، ويصرح القرآن في مواطن بذلك منها قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (التوبة:٢٣)، ومعنى الآية: تحريم موالاة الكفار ولو كانوا أقرباء، وأن ذلك كبيرة عظيمة؛ لأن الله وصف متوليهم بالظلم، قال القرطبي – رحمه الله – في معنى الآية: «ظاهر هذه الآية أنها خطاب لجميع المؤمنين كافة، وهي باقية الحكم إلى يوم القيامة في قطع الولاية بين المؤمنين والكافرين». وخص الله سبحانه الآباء والإخوة؛ إذ لا قرابة أقرب منها». (تفسير القرطبي ج٤/٢٩٣٢).

ومما أرى التنويه به هنا: أن الولاء شيء والمعاملة بالحسنى شيء آخر، فالله تعالى مع أمره ببغض الكافرين أمر بالإحسان إلى من لم يقاتل المسلمين، وهذا الأصل دل عليه قول الله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ (الممتحنة:٨). وأولى الأقوال بالصواب كما ذكر الحافظ ابن حجر: أن الله لا ينهى المؤمن عن البر والصلة والقسط مع جميع أصناف الملل والأديان المسالمين، وقد روى البخاري وغيره عن أسماء بنت أبي بكر – رضي الله عنها – قالت: «قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستفتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: إن أمي قدمت وهي راغبة، أفأصل أمي؟ قال: نعم، صلي أمك». (البخاري: ٢٦٢٠).

قال الخطابي: «فيه أن الرَّحم الكافرة توصل من المال ونحوه كما توصل المسلمة، ويُستنبط منه وجوب نفقة الأب الكافر والأم الكافرة، وإن كان الولد مسلمًا». وقال ابن حجر: «البر والصلة والإحسان لا يستلزم التحابب والتواد المنهي عنه في قوله تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ (فتح الباري: ج٥/٢٣٣).

ومن هنا يتضح أن الموالاة الممثلة في الحب والنصرة شيء، والصلة والإحسان إلى جميع الخلق شيء آخر، وسماحة الإسلام وصفحاته المشرقة في معاملة الأسرى والشيوخ والنساء والأطفال في الحرب دليلٌ واضح على ذلك، ولابن تيمية رحمه الله كلام سديد في هذه المسألة يقول فيه: «وليعلم أن المؤمن تجب موالاته، وإن ظلمك، والكافر تجب معاداته وإن أعطاك وأحسن إليك، فإن الله سبحانه بعث الرسل وأنزل الكتب ليكون الدين كله لله، فيكون الحب لأوليائه والبغض لأعدائه، والإكرام لأوليائه، وإذا اجتمع في الرجل الواحد خير وشر، وفجور وطاعة ومعصية، وسنة وبدعة: استحق من الموالاة والثواب بقدر ما فيه من الخير، واستحق من المعاداة والعقاب بحسب ما فيه من الشر». (مجموع الفتاوى: ج٢٨/٢٠٩).

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق، وأن يجعلنا هداة مهتدين، وأن يرفع راية الإسلام ويعز المسلمين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

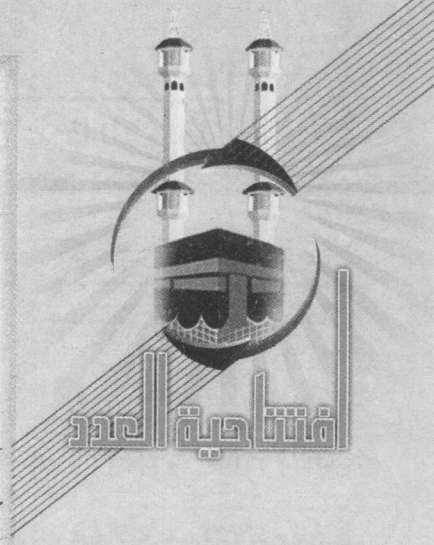

يا دعاة الأمة الزموا السنة على منهاج النبوة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين..

وبعدُ:

فالدعوة إلى الله تعالى طريق الأنبياء والمرسلين الذين أرسلهم ربهم مبشرين ومنذرين، ليعرّفوا الخلق بالله، ويأمروهم بعبادته وحده دون سواه، وقد أمر الله بالدعوة إليه سبحانه في مواطن كثيرة من كتابه، قال تعالى: قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ [يوسف:١٠٨]، *وقال سبحانه:* وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ [فصلت:٣٣].

وقد دعا النبي صلى الله عليه وسلم بنضارة وجه من سمع حديثه ونقله إلى غيره، كما في حديث عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نضر الله امرءًا سمع منا شيئًا فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع». [الترمذي ٢٦٥٧ وصححه الألباني].

وقد دل الحديث على فضل من تشرف بسماع الحديث وحمله إلى غيره ودعا الناس إليه، ولهذا كان الدعاة إلى الله تبارك وتعالى من أرفع الناس قدرًا وأعظمهم أجرًا، لقيامهم بمهمة الأنبياء والمرسلين، وإرشاد الخلق إلى الحق، ومواجهة ألوان الفساد في المجتمعات وإصلاحها، وتعليم الناس ما جهلوا، والأخذ بأيديهم إلى صراط الله المستقيم، وهذه المهمة ليست مسألة اجتهادية، وإنما توقيفية ربانية، وقد أشارت الآيات الآمرة بالدعوة إلى ذلك، منها قوله تعالى: فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ [الشورى:١٥]، غير أن بعض الدعاة خالف في منهجه ومسلكه منهج الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى دين رب العالمين، ودبّ الخلاف بين المسلمين، وتفرقت الأمة إلى مناهج مختلفة، وعقائد متباينة، وفِرَق متناحرة، وقد كانت الأمة في أول عهدها بعيدة عن ذلك.

يقول الشاطبي - رحمه الله -: «ثم استمر تزيُّدُ الإسلام، واستقام طريقه على مدة حياة النبي صلى الله عليه وسلم ومن بعد موته وأكثر قرن الصحابة - رضي الله عنهم - إلى أن نبغت فيهم نوابغ الخروج عن السنة، وأصغوا إلى البدع المضلة كبدعة القدر وبدعة الخوارج، وهي التي نبّه عليها الحديث بقوله: «يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يقرؤون القرآن لا يجاوز تراقيهم» [متفق عليه]، يعني لا يتفقهون فيه، بل يأخذونه على الظاهر...

وكل صاحب مخالفة فمن شأنه أن يدعو غيره إليها، ويحض سواه عليها، إذ التأسي في الأفعال والمذاهب موضوع طلبه في الجبلة، وبسببه تقع في المخالف المخالفة، وتحصل من الموافق المؤالفة، ومنه تنشأ العداوة والبغضاء للمختلفين. [الاعتصام للشاطبي ج١/١٧].

وهذا كلام نفيس من هذا الإمام العالم - رحمه الله -، وقد بيّن فيه منشأ الداء الذي وقع بالأمة، وأن كل فريق يسعى إلى جذب غيره إلى كلامه، وموافقته فيما هو عليه، والواجب على دعاة الأمة وحملة

الرسالة أن يتصدوا للأهواء المضلة، ويجمعوا كلمتهم على الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، وأقوال الأئمة المعتبرين كالإمام مالك، والإمام الشافعي، والإمام أبي حنيفة، والإمام أحمد بن حنبل، والبخاري، وابن خزيمة، وابن منده، والبربهاري، وابن تيمية وغيرهم من علماء السنة - رحمهم الله تعالى - وليعلم جميع الدعاة أن جمع الكلمة لا بد أن يكون على كلمة التوحيد، فهي أساس الملة وقاعدة انطلاق الدعوة، وإفراد الله تعالى بالتوحيد وعبادته وحده دون سواه هو الغاية من خلق الخلق كما قال تعالى: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ [الذاريات:٥٦].

يقول الدكتور صالح السحيمي مبينًا أهمية جانب الاعتقاد في وحدة المجتمع المسلم: «هو العامل الأول، والركيزة الأساسية التي ينبني عليها كيان المجتمع الإسلامي، وتنضوي تحت لوائها صفوف المسلمين، منها يستلهمون طريق وحدتهم، وعلى ضوئها يشقون طريقهم إلى أعلى قمم المجد والعلا، وبهداها ومبادئها القيمة يفتحون القلوب قبل أن يفتحوا الأقطار». [منهج السلف في العقيدة: ص٤].

ويؤكد الدكتور مصطفى حلمي على أن الإسلام الصحيح القائم على الوحي هو أساس وحدة جماعة المسلمين وسبب نهوضهم، فيقول: «وإن كان المسلمون يتلمسون اليوم طريقًا للنهوض، فليس لهم من سبيل إلا وحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، وهذه خلاصة الاتجاه السلفي». [قواعد المنهج السلفي: ١٣].

وقد اجتمع سلفنا الصالح بسبب اتفاقهم على أمور العقيدة مع تباعد ديارهم واختلاف أزمنتهم، وقد أشار إلى ذلك الإمام إسماعيل الأصبهاني - رحمه الله - فقال: «ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة، ونمط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى فيهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم ونقلوه عن سلفهم وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا؟!!!». [الحجة في بيان المحجة: ٢/٢٢٤].

ولهذا وجب على دعاة الأمة الرجوع إلى الكتاب والسنة والالتفاف حول جماعة المسلمين المتمسكين بالحديث والأثر، فهم الفرقة الناجية والطائفة المنصورة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية مبينًا مكانة أهل الحديث المعتصمين بالكتاب والسنة: «وبهذا يتبين أن أحق الناس بأن تكون هي الفرقة الناجية: أهل الحديث والسنة، الذين ليس لهم متبوع يتعصبون له إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم أعلم الناس بأقواله وأحواله، وأعظمهم تمييزًا بين صحيحها وسقيمها، وأئمتهم فقهاء فيها وأهل معرفة بمعانيها، واتباعًا لها: تصديقًا وعملاً وحبًا وموالاة لمن والاها، ومعاداة لمن عاداها». [مجموع الفتاوى: ٣/٣٤٧].

ولا طريق إلى الدين القويم، والصراط المستقيم إلا الطريق الذي سلكه أصحاب الحديث، لأنهم أخذوا دينهم وعقائدهم خلفًا عن سلف، وقرنًا عن قرن، إلى أن انتهوا إلى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين أخذوا منه مباشرة، ولذلك أسلموا في الاعتقاد والعمل بعد سلوكهم طريق النجاة.

قال الإمام مالك رحمه الله: «السُّنّة سفينة نوح، من ركبها نجا، ومن تخلف عنها غرق».

وكان الإمام الزهري رحمه الله يقول: «كان علماؤنا يقولون: الاعتصام بالسنة هو النجاة»، ولذا صار ذهاب أهل السنة هو ذهاب أهل الإسلام، كما قال الأوزاعي - رحمه الله - في بيان معنى حديث الغربة. [انظر «كشف الكربة» لابن رجب

إن كان المسلمون يتلمسون اليوم طريقًا للنهوض، فليس لهم من سبيل إلا وحدة جماعتهم، ووحدة الجماعة ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح، والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، وهذه خلاصة الاتجاه السلفي

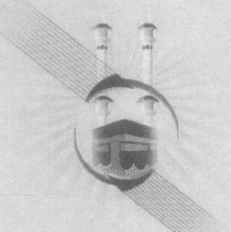

(ص١٠)].

ولذا كان التزام السنة والوقوف عندها هو المتعين على أهل الإسلام، وتشتد الحاجة إلى ذلك أكثر عند وقوع البدع والفتن، وقد تنبّه لهذا أئمتنا - رحمهم الله - فهذا الإمام مالك - رحمه الله - يذكر حديث الاعتصام بالكتاب والسنة في باب النهي عن القدر، والإمام البخاري - رحمه الله - ذكر في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة ما نصه: «قال عبد الله: إن أحسن الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وإن ما تُوعدون لآتٍ وما أنتم بمعجزين». [البخاري ٧٢٧٧].

قال ابن حجر معلقًا على هذا الحديث: «وثبت عن مالك أنه لم يكن في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وعمر شيء من الأهواء - يعني بدع الخوارج والروافض والقدرية -، وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهًا، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتّبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف واجتنب ما أحدثه الخلف». [فتح الباري: ١٣/٢٥٣].

وهذا هو الموقف الصحيح الذي يجب أن يسلكه المسلم تجاه نصوص الكتاب والسنة، ويتعين ذلك على الدعاة بصورة خاصة، وعلى الجميع ألا يخترع ألقابًا أو يرفع رايات سوى راية الإسلام والسنة، وقد اختار الله لنا اسم الإسلام ورضيه لنا دينًا، فلا نحيد عنه، ولا نسمي أنفسنا باسم سواه، قال الله تعالى: وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا [المائدة:٣]، وقال سبحانه: وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ [الحج:٧٨]، وإبراهيم عليه السلام كان قد دعا ربه وسأله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة، كما قال تعالى: رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ [البقرة:١٢٨]، وقد استجاب الله دعاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وجعل في ذريته أمة الإسلام، وبعث فيها النبي الخاتم المختار صلى الله عليه وسلم، وعليه فلا يجوز للمسلم أن يلقب نفسه باسم سواه.

قال الشيخ بكر أبو زيد - رحمه الله -: «أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام، ولا رسم سوى القرآن والسنة، وهذا أصل الملة الحنيفية، التي دعا إليها شيخ الأنبياء أبونا إبراهيم عليه السلام، ومَن بعده من أنبياء الله ورسله إلى خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ [الأنعام:١٦١]، وقد نعى الله على من رغب عن هذا الشعار، فقال تعالى: وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥ ۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ ۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ [البقرة:١٣٠]، وقد قال ابن القيم عند شرحه لقول «الهروي» - رحمه الله -: «ولم يُنسَبُوا إلى اسم» أي: لم يشتهروا باسم يُعرفون به عند الناس من الأسماء التي صارت أعلامًا لأهل الطريق، وأيضا، فإنهم لم يتقيدوا بعمل واحد، يجري عليه اسمه، فيُعرفون به دون غيره من الأعمال، فإن هذا آفة في العبودية، وهي عبودية مقيدة، وأما العبودية المطلقة: فلا يعرف صاحبها باسم معين من معاني أسمائها، فإنه مجيب لداعيها على اختلاف أنواعها، فله

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام، ولا رسم سوى القرآن والسنة، وهذا أصل الملة الحنيفية، التي دعا إليها شيخ الأنبياء أبونا إبراهيم عليه السلام، ومَن بعده من أنبياء الله ورسله إلى خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم

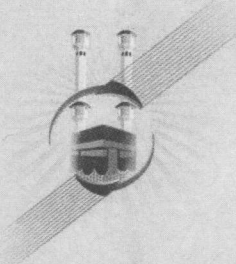

مع كل أهل عبودية نصيب يضرب معهم بسهم، فلا يتقيد برسم ولا إشارة، ولا اسم، ولا بزي، ولا طريق وضعي اصطلاحي، بل إن سُئل عن شيخه؟ قال: الرسول صلى الله عليه وسلم، وعن طريقه؟ قال: الاتباع، وعن خرقته؟ قال: لباس التقوى، وعن مذهبه؟ قال: تحكيم السنة، وعن مقصوده ومطلبه؟ قال: «يريدون وجهه»، وعن رباطه؟ قال: فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ [النور:٣٦]، وعن نسبه؟ قال:

أبي الإسلام لا أب لي سواه

إذا افتخروا بقيس أو تميم

[مدارج السالكين (١٨٢/٣)].

وإذا أراد الدعاة اليوم أن يصلحوا ما اعوج، وأن يساهموا في نهضة الأمة واستقامتها، فلا بد من السير على منهاج النبوة، واتباع الكتاب والسنة، في الشكل والمضمون، والمادة والصورة؛ إذ حقيقة الإصلاح: إرجاع الشرع إلى حالة اعتداله، بإزالة ما طرأ عليه من فساد، وما علق به من شائبة الهوى والاختلاف، وهذا لا يكون إلا بالسير على منهاج النبوة لا غيرُ، وقد أدرك ذلك مؤسسو وعلماء أنصار السنة المحمدية، فدعوا إلى الكتاب والسنة، ولم يعظموا أحدًا من المشايخ، أو يعتقدوا في واحد منهم العصمة، ولهذا نجدهم في كل مكان وزمان يدعون إلى صفاء الاعتقاد، ونشر راية السنة وتعظيمها، والحكم بما أنزل الله، وتحطيم مظاهر الشرك والوثنية والأهواء والبدع، ومناصحة الولاة، وتصحيح مسار الناس إلى ربهم في عباداتهم ومعاملاتهم وأقوالهم تحت سلطان الكتاب والسنة، ونحن ندين الله - عز وجل - بأن الإسلام دين كامل لا يتجزأ، وأن أحكامه بعضها مترابط ببعض، فالزيادة فيه طعن في كماله وتمامه، والنقص منه جحد لأحكامه، وعليه فلا يجوز لمسلم أن يتنازل عن شيء منه، أو يغيّر شيئًا من أحكامه، وقد نعى الله على من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر، فقال: أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ [البقرة:٨٥]، وإني أنصح الدعاة إلى الله عز وجل أن يبذلوا جهدهم في حراسة الدين والدفاع عنه أمام التيارات المنحرفة، والفِرَق الهدامة، والدعوات المسمومة، وعليهم أن يصلحوا مواطن الخلل في الأمة ويسدوا الثغرات التي يدخل منها أهل الباطل لحرب العقيدة والسنة، وتغيير مسار الدعوة كما يحب أهل التغريب والعلمنة، وعلى الفرق والأحزاب والهيئات والمؤسسات والجماعات أن تعرف أخطاءها، وأن تتجرد من شبهاتها، وأن ينضوي الجميع تحت راية الكتاب والسنة إخوة متحابين متناصحين متعاونين لله وفي الله، وهكذا يكون المسلم.

وفي صحيح مسلم من حديث جابر - رضي الله عنه -: «إن الشيطان قد أيس أن يعبده المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم». (مسلم ٢٨١٢).

والمعنى: أن الشيطان يسعى في التحريش بين المسلمين بالخصومات والشحناء والبغضاء والفتن، وعلى جميع المسلمين ضبط النفس في الأقوال والأفعال، والرفق واللين مع الصبر واليقين، والاحتساب في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد صارت بهما الأمة خير أمة كما قال تعالى: كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ [آل عمران:١١٠].

وقال تعالى: وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ [آل عمران:١٠٤].

ورحم الله رجلاً عرف الحق فآثره على الهوى وحظ النفس، وقدمه على الآراء والمشايخ، وكل إنسان مرهون بعمله وقوله، والله يتولى السرائر، ولا تزر وزارة وزر أخرى.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

إذا أراد الدعاة اليوم أن يصلحوا ما اعوج، وأن يساهموا في نهضة الأمة واستقامتها، فلا بد من السير على منهاج النبوة، واتباع الكتاب والسنة، في الشكل والمضمون، والمادة والصورة

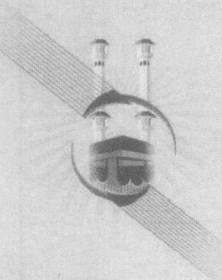

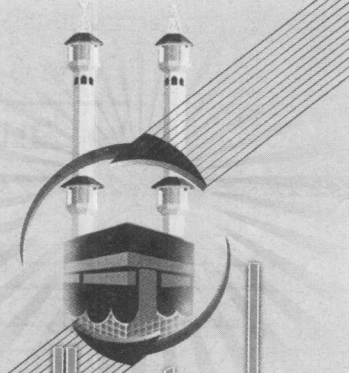

أهل السنة وموقفهم من أخطاء العلماء

«ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا»

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على نبينا الأمين، وعلى آله وصحبه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن من أعظم أسباب التنازع والشقاق: بغي الناس بعضهم على بعض، والتراشق بالعبارات والكلمات، والرمي بالبدعة بمجرد المخالفة في الرأي، ويعظم الخطب عند رمي أحد من أهل السنة بشيء من ذلك، حتى ولو كان مخطئًا؛ لأن العصمة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وغير الرسل لا يسلم من خطأ، فإذا أخطأ العالِم من أهل السنة بُيِّن له خطؤه، ولا يُتابع عليه، ووجب على أهل العلم والفضل أن يردّوه إلى صوابه ورشده، لا أن يُعيَّر بخطئه، أو يُطعن عليه بسببه، وعليه فلا يجوز لأحد أن يحكم على أحد من أهل السنة أو أئمتهم بأنه مبتدع، أو خارج عن الطاعة مفارق للجماعة، بسبب خطأ وقع فيه بعد استفراغ الجهد وبذل الطاقة في الوصول إلى الحق، وقد دلت النصوص على ذلك، قال الله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا» (البقرة:٢٨٦).

وقد ثبت في حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن الله تبارك وتعالى قال: «قد فعلت». (مسلم: كتاب الإيمان (١٢٦)).

وقال تعالى: «وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَآ» (الأعراف:٤٢).

وقد عقّب ابن تيمية على هذه النصوص بقوله: «فدلت هذه النصوص على أنه لا يكلف نفسًا ما تعجز عنه، خلافًا للجهمية المجبرة، ودلت على أنه لا يؤاخذ المخطئ والناسي خلافًا للقدرية والمعتزلة، وهذا فصل الخطاب في هذا الباب، فالمجتهد المستدل من إمام وحاكم وعالم وناظر ومفتٍ وغير ذلك إذا اجتهد واستدل واتقى الله ما استطاع كان هذا هو الذي كلفه الله إياه». (مجموع الفتاوى: ٢١٦/١٩).

ومما يدل على العذر بالجهل والخطأ من السنة حديث الرُّبيِّع بنت معوذ رضي الله عنها، وفيه أن جويريات كن يضربن بالدُّف ويندبن من قُتل يوم بدر، فقالت إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «دعي هذه وقولي بالذي كنت تقولين». (البخاري: ٥١٤٧).

ويلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر عليها نسبة علم الغيب له؛ لأنها صفة تختص بالله وحده، ولم يَزْدْ على ذلك، والناظر في أقوال السلف يعلم أنهم كانوا يعذرون بعضهم في المسائل الاجتهادية، ولم يبدع أو يفسق بعضهم بعضا مع اختلافهم في بعض المسائل، وكان الواحد منهم يستغفر لأخيه ويدعو له ويذكره بجميل الذكر، وقد روى الخلال أن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله سُئل: «ما تقول فيما كان من علي ومعاوية - رحمهما الله؟ فقال: ما أقول فيهما إلا الحسنى

- رحمهم الله أجمعين -». (السنة لأبي بكر الخلال رقم ٧١٣).

وهكذا توالت كلمات أهل العلم من العلماء المحققين المدققين السالكين سبيل المؤمنين المتبعين لمنهج النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، فلم يقع واحد منهم في الآخر، ولابن تيمية، رحمه الله، كلام نفيس رائق في مواجهة خطأ الأئمة المقبولين في الأمة، قال فيه: «وليُعلم أن ليس أحد من الأئمة المقبولين عند الأمة قبولاً عامًا يتعمد مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم في شيء من سُنته، دقيق ولا جليل، فإنهم متفقون اتفاقًا على وجوب اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وعلى أن كل أحد من الناس يؤخذ من قوله ويُترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكن إذا وُجد لواحد منهم قول قد جاء حديثٌ صحيح بخلافه فلا بد له من عذر في تركه، وجميع الأعذار ثلاثة أصناف: أحدها: عدم اعتقاد أن النبي صلى الله عليه وسلم قاله، والثاني: عدم اعتقاد إرادة تلك المسألة بذلك القول، والثالث: اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ». (مجموع الفتاوى: ٢٠/٢٣٢).

ثم بيّن رحمه الله أن هذه الأصناف الثلاثة تتفرع إلى أسباب متعددة، ذكرها مع التمثيل، وفي ذكره - رحمه الله - توجيه لطيف في مواجهة أخطاء العلماء في اجتهاداتهم، والتماس الأعذار لهم فيما أخطأوا فيه مواضع الاجتهاد، وعليه فالتعرض لأحد من العلماء المعروفين بسلامة المنهج والعقيدة والاتباع بشيء من التبديع أو التكفير بمجرد قولٍ أدّاه اجتهاده إليه: قولٌ باطل ولا يجوز، ولا يقع هذا إلا من المبتدعة.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولا ريب أن الخطأ في دقيق العلم مغفور للأمة، وإن كان ذلك في المسائل العلمية، ولولا ذلك لهلك أكثر فضلاء الأمة، وإذا كان الله يغفر لمن جهل تحريم الخمر؛ لكونه نشأ بأرض جهل، مع كونه لم يطلب العلم، فالفاضل المجتهد في طلب العلم بحسب ما أدركه في زمانه ومكانه إذا كان مقصوده متابعةَ الرسول صلى الله عليه وسلم بحسب إمكانه، فهو أحق بأن يتقبل الله حسناته ويثيبه على اجتهاداته ولا يؤاخذ بما أخطأ؛ تحقيقًا لقوله: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا» (البقرة:٢٨٦). (مجموع الفتاوى: ٢٠/١٦٥).

وهذا بالضرورة لا يعني السكوت عن الحق أو عدم بيانه والدعوة إليه أو مجاملة المخطئ من العلماء بعدم مناصحته والتنبيه على ما وقع فيه من خطأ، فهذا حق واجب، بل هو من أعظم الواجبات التي أخذها الله على أهل العلم، قال الله تعالى: «وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ» (آل عمران:١٨٧)، وقد يضل بعض الناس بسبب زلة العالم، ولهذا وجب التنبيه.

يقول الشاطبي - رحمه الله -: «إن زلة العالم لا يجوز اعتمادها من جهة ولا الأخذ بها تقليدًا له؛ وذلك لأنها موضوعة على المخالفة للشرع، ولذلك غدت زلة، وإلا فلو كانت معتدًا بها لم يجعل لها هذه الرتبة، ولا نسب إلى صاحبها الزلل فيها، كما أنه لا ينبغي أن ينسب صاحبها إلى التقصير، ولا أن يشنّع عليه بها، ولا يُنتقص من أجلها، أو يُعتقد فيه الإقدام على المخالفة بحتًا، فإن هذا كله خلاف ما تقتضي رتبته في الدين». (الموافقات ٤/١٧٠، ١٧١).

وهذا كلام نفيس من الإمام الشاطبي رحمه الله، وهو واضح الدلالة في أن العالم من أهل السنة قد يزل ويسقط، فلا يُتابع لمخالفته للشرع، ولا يُنال منه بسبب المخالفة، وهذا إذا عُرف بالعلم وسلامة المعتقد، ولم ينتسب لفرقة أو بدعة.

وقد وقع بعض أئمتنا الأعلام في بعض الأخطاء فنبّه العلماء عليها وعذروهم فيها، بل ترحموا عليهم، وهذه بعض أقوالهم: ذكر الذهبي - رحمه الله - أن أبا حاتم بن حبان قال: «النبوة: العلم والعمل»، ثم ذكر أنه حُكم عليه بالزندقة لهذا القول، وكتب فيه إلى الخليفة فكتب بقتله، ثم عقب الذهبي على هذا فقال: «قلت - أي الذهبي - هذه حكاية غريبة، وابن حبان من كبار الأئمة، ولسنا ندّعي فيه العصمة من الخطأ، لكن هذه الكلمة التي أطلقها قد يطلقها المسلم، ويطلقها الزنديق الفيلسوف، فإطلاق المسلم لها لا ينبغي، لكن يُعتذر عنه، فنقول: لم يرد

العالم من أهل السنة قد يزل ويسقط، فلا يُتابع لمخالفته للشرع، ولا يُنال منه بسبب المخالفة، وهذا إذا عُرف بالعلم وسلامة المعتقد، ولم ينتسب لفرقة أو بدعة

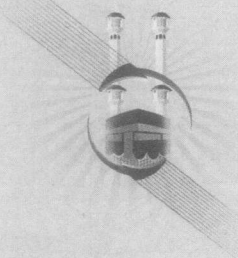

حصر المبتدأ في الخبر، ونظير ذلك قوله - عليه الصلاة والسلام: «الحج عرفة»، ومعلوم أن الحاج لا يصير بمجرد الوقوف بعرفة حاجًا، بل بقي عليه فروض وواجبات، وإنما ذكر مهم الحج، وكذا هذا ذكر مهم النبوة؛ إذ من أكمل صفات النبي كمال العلم والعمل، فلا يكون أحد نبيًا إلا بوجودهما، وليس كل من برَّز فيهما نبيًا؛ لأن النبوة موهبة من الحق تعالى، لا حيلة للعبد في اكتسابها، وأما الفيلسوف فيقول: النبوة مكتسبة ينتجها العلم والعمل، فهذا كفر، ولا يريده أبو حاتم أصلاً، وحاشاه». (سير أعلام النبلاء: ١٦/٩٦، ٩٧).

وقال في ترجمة الإمام ابن خزيمة: «ولابن خزيمة عظمة في النفوس وجلالة في القلوب؛ لعلمه ودينه، واتباعه السنة، وكتابه التوحيد مجلد كبير، وقد تأول في ذلك حديث الصورة، فليُعذر من تأول بعض الصفات، وأما السلف فما خاضوا في التأويل، بل آمنوا وكفوا، وفوَّضُوا علم ذلك إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولو أن كل من أخطأ في اجتهاده - مع صحة إيمانه وتوخيه لاتباع الحق - أهدرناه وبدّعناه، لقل من يسلم من الأئمة معنا، ورحم الله الجميع بمنه وكرمه». (المرجع السابق: ١٤/٣٧٤).

وقال ابن القيم رحمه الله: «من قواعد الشرع والحكمة أيضًا أن من كثرت حسناته وعظمت، وكان له في الإسلام تأثير ظاهر؛ فإنه يحتمل منه ما لا يحتمل من غيره، ويُعفى عنه ما لا يُعفى عن غيره». (مفتاح دار السعادة ص١٦٨).

ومن الكلمات المباركات لشيخي العلامة عبد المحسن بن حمد العباد قوله: «ومن العلماء الذين مضوا وعندهم خلل في مسائل من العقيدة، ولا يستغني العلماء وطلبة العلم عن علمهم، بل إن مؤلفاتهم من المراجع المهمة للمشتغلين في العلم: الأئمة البيهقي والنووي وابن حجر العقسلاني».

ثم ذكر شيئًا من تراجمهم وثناء أهل العلم عليهم، ثم قال: «ومن المعاصرين الشيخ العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني، لا أعلم له نظيرًا في هذا العصر في العناية بالحديث وسعة الاطلاع فيه، لم يسلم من الوقوع في أمور يعتبرها الكثيرون أخطاء منه، مثل قوله في كتاب صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلم: «إن وضع اليدين على الصدر بعد الركوع بدعة ضلالة»، وهي مسألة خلافية، وكذا ما ذكره في «السلسلة الضعيفة» (٢٣٥٥) من أن عدم أخذ ما زاد على القبضة من اللحية من البدع الإضافية، وكذا تحريمه الذهب المحلق على النساء، ومع إنكاري عليه قوله في المسائل فأنا لا أستغني وأرى أنه لا يستغني غيري عن كتبه والإفادة منها، وما أحسن قول الإمام مالك: «كل يُؤخذ من قوله ويُردّ إلا صاحب هذا القبر، ويشير إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم». (رفقًا أهل السنة بأهل السنة ص٤١، ٤٢).

وقال سعيد بن المسيب رحمه الله: «ليس من عالم ولا شريف ولا ذي فضل إلا وفيه عيبٌ، ولكن من كان فضله أكثر من نقصه وُهب نقصه لفضله، كما أنه من غلب عليه نقصانه ذهب فضله». (جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ٢/٤٨).

وأختم هذا المقال بهذا القول للإمام الذهبي رحمه الله: «ثم وإن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحرِّيه للحق، واتسع علمه وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحه وورعه واتباعه: يُغفر له زَلَلُه، ولا نُضلّله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك». (سير أعلام النبلاء ٥/٢٧١).

إن الكبير من أئمة العلم إذا كثر صوابه، وعُلم تحرِّيه للحق، واتسع علمه وظهر ذكاؤه، وعُرف صلاحه وورعه واتباعه: يُغفر له زَلَلُه، ولا نُضلّله ونطرحه وننسى محاسنه، نعم ولا نقتدي به في بدعته وخطئه، ونرجو له التوبة من ذلك

وقال أيضًا: «ولو أنا كلما أخطأ إمام في اجتهاده في آحاد المسائل خطأ مغفورًا له قمنا عليه وبدعناه وهجرناه لما سلم معنا لا ابن نصر ولا ابن منده ولا من هو أكبر منهما، والله هو هادي الخلق إلى الحق، وهو أرحم الراحمين، فنعوذ بالله من الهوى والفظاظة». (السير: ١٤/٣٩، ٤٠).

وختامًا أسأل الله - تبارك وتعالى - أن يفتح علينا بالحق، وأن يهدينا إليه، وأن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

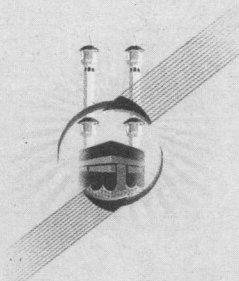

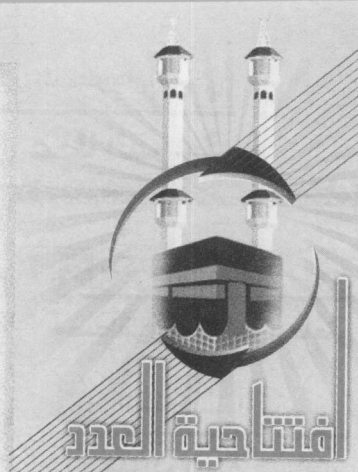

منح الرحمن في شهر القرآن

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، المبعوث رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه الطيبين وآل بيته الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن شهر رمضان من الأشهر التي لها مكانة عظيمة ومنزلة في الإسلام رفيعة، فهو منحة ربانية وعطية إلهية، تُفتح فيه أبواب الجنان، وتُغلَّق فيه أبواب النيران، وتُصفد الشياطين، وهو شهر الخير والمغفرة والتوبة والطاعة، والانتصارات والفتوحات والبركات، وقد فضَّله الله على سائر الشهور، ومنحه من الخير الفضيل ما لم يمنح غيره من الشهور، وقد جعل الله لأهل الإيمان في الدنيا مواطن يغتنم فيها العبد المؤمن الأجر، ويستزيد فيها من فعل الخير، ويحسن له فيها التعرُّض للفضل، وهذا رحمة من الله وفضل؛ إذ لم يدع عبده المؤمن للشهوات والشيطان على مدار العام.

فيا عبد الله، يا من أبقاك الله ومدَّ في عمرك إلى أن دخل عليك هذا الشهر، اغتنم الفرصة والأجر، تنل من الله الخير، وقد أخرج الترمذي في سننه عن أبي بكرة رضي الله عنه: أن رجلاً قال: يا رسول الله، أيُّ الناس خير؟ قال: «من طال عمره وحسن عمله». قال: فأي الناس شر؟ قال: «من طال عمره وساء عمله» [الترمذي ٢٣٣٠ وصححه الألباني].

وفي الترمذي أيضًا بسند صحيح عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ببعض جسدي قال: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل، وعُدّ نفسك من أهل القبور» [الترمذي ٢٣٣٣ وصححه الألباني، وأصل الحديث في البخاري بدون لفظة (وعُدّ نفسك من أهل القبور)].

وقال ابن عمر رضي الله عنهما: «إذا أصبحت فلا تحدث نفسك بالمساء، وإذا أمسيت فلا تحدث نفسك بالصباح، وخذ من صحتك قبل سقمك، ومن حياتك قبل موتك، فإنك لا تدري يا عبد الله ما اسمك غدًا» [الترمذي ٢٣٣٣ وصححه الألباني].

الحذر من سرعة مرور العمر:

ولما كان العمر يمضي سريعًا، كان لزامًا على العبد أن ينتبه لأيامه ولياليه، ويعمل دائبًا على المسارعة إلى الخيرات، والمنافسة في عمل الصالحات، ومن ذلك اغتنام الأجر في شهر الصيام، فقد أخرج ابن ماجه في سننه عن طلحة بن عبد الله أن رجلين من بَلِيٍّ قدما على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان إسلامهما جميعًا، فكان أحدهما أشد اجتهادًا من الآخر، فغزا المجتهد منهما فاستشهد، ثم مكث الآخر

بعده سنة، ثم توفي. قال طلحة: فرأيت في المنام: بينا أنا عند باب الجنة، إذا أنا بها، فخرج خارج من الجنة فأذن للذي تُوفِّي الآخِرَ منهما، ثم خرج، فأذن للذي استشهد، ثم رجع إليَّ فقال: ارجع. فإنك لم تأن لك بعد، فأصبح طلحة يحدث به الناس، فعجبوا لذلك، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وحدَّثوه الحديث. فقال: «من أي ذلك تعجبون؟» فقالوا: يا رسول الله، هذا كان أشدَّ الرجلين اجتهادًا ثم استشهد، ودخل هذا الآخرُ الجنة قبله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أليس قد مكث هذا بعده سنة؟» قالوا: بلى. قال: «وأدرك رمضان فصام وصلى كذا وكذا من سجدة في السنة؟» قالوا: بلى. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فما بينهما أبعد مما بين السماء والأرض». [ابن ماجه ٣٩٢٥ وصححه الألباني في صحيح سنن ابن ماجه (٣٤٥/٢)].

وقد اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يفرض علينا صيام رمضان كما فرضه على من قبلنا، غير أن هذه الأمة لما كانت أقصر الأمم أعمارًا عوضها الله عن ذلك بمضاعفة الأجر على الأعمال رحمةً بها، وإكرامًا لنبيها صلى الله عليه وسلم، وقد حباها في هذا الشهر الكريم بمنح عظيمة تترتب على اغتنام العبد لأيامه ولياليه، ومن هذه المنح ما يلي:

١- تحصيل التقوى التي هي خير زاد، قال الله تعالى:

« يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ » [البقرة:١٨٣]، أي: لعلكم تتقون بصومكم ربكم، وهكذا تبرز الغاية العظمى من الصوم، وهي التقوى، والصوم طريق موصل إليها.

٢- بركات خاصة برمضان:

عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة». [البخاري ١٨٩٨].

وعنه رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا دخل شهر رمضان فُتحت أبواب السماء، وغُلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين». [البخاري ١٨٩٩]، وفي لفظ لمسلم: «فتحت أبواب الرحمة». [مسلم ١٠٧٩].

والحديث يدل على بركات خاصة من الله لهذه الأمة في شهر رمضان، حيث تُفتح فيه أبواب الرحمة، وأبواب الجنة، وأبواب السماء، وتُغلق فيه أبواب النار، وتُسلسل الشياطين، وفي هذا تشجيع للصائمين وحثّ لهم على اغتنام مواسم الخيرات، والحديث الأول يدل على جواز قول: «رمضان» من غير إضافته إلى الشهر، وأما الحديث الذي فيه أنه اسم من أسماء الله تعالى فإنه لا يصح، وأسماء الله توقيفية، وفي الحديث دليل على وجود الجنة والنار، وأنهما مخلوقتان وموجودتان الآن، ومن معتقد أهل السنة والجماعة أنهما لا تبيدان ولا تفنيان، وعلى أن الجنة لها أبواب، وقد دلَّ على ذلك القرآن والسنة.

٣- مِنَح مخصوصة بالصيام:

في الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصيام جُنّة - زاد في رواية مسلم إذا أصبح أحدكم يومًا صائمًا - فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم - مرتين - والذي نفسي بيده لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك، يترك طعامه وشرابه

اقتضت حكمة الله تبارك وتعالى أن يفرض علينا صيام رمضان كما فرضه على من قبلنا، غير أن هذه الأمة لما كانت أقصر الأمم أعمارًا عوضها الله عن ذلك بمضاعفة الأجر على الأعمال رحمةً بها، وإكرامًا لنبيها صلى الله عليه وسلم

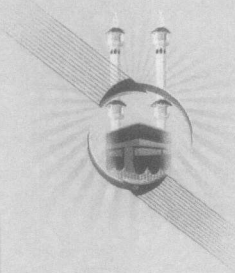

وشهوته من أجلي، الصيام لي وأنا أجزي به، والحسنة بعشر أمثالها». [البخاري ١٨٩٤، ومسلم ١١٥١].

وهذا الحديث قد اشتمل على كثير من المنح الربانية، ومنها: أن الصيام حصن ووقاية من النار. قال ابن العربي: «إنما كان الصوم جُنّة من النار لأنه إمساك عن الشهوات، والنار محفوفة بالشهوات».

وعقّب ابن حجر - رحمه الله - على هذا القول بقوله: «فالحاصل أنه إذا كفّ نفسه عن الشهوات في الدنيا كان ذلك ساترًا له من النار في الدار الآخرة». [فتح الباري ٤/١٠٤].

ومنها: أن على الصائم ألا يتكلم بكلام فاحش، أو يفعل شيئًا من أفعال أهل السفه والجهل كالصيام وغير ذلك، ومنها: أن رائحة فم الصائم المتغيرة بسبب الصيام أحب إلى الله من ريح المسك، وفي هذا ثناءٌ على الصائم ورضا بفعله، ومنها ما جاء في قوله تعالى: «الصيام لي وأنا أجزي به». وفي هذا مزية عظيمة للصيام، وأجر عظيم عليه من الكريم الرحمن.

ومن المعلوم أن الحسنات يضاعف جزاؤها من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فلا يضاعف إلى هذا القدر فحسب، بل ثوابه لا يقدر قدره ولا يحصيه إلا الله تعالى، ولذلك يتولى الله جزاءه بنفسه، وقد نقل ابن حجر - رحمه الله - عن البيضاوي أنه قال: «والسبب في اختصاص الصوم بهذه المزية أمران: أحدهما أن سائر العبادات مما يطلع العباد عليه، والصوم سر بين العبد وبين الله تعالى يفعله خالصًا ويعامله به طالبًا لرضاه، وإلى ذلك الإشارة بقوله: «فإنه لي». والآخر: أن سائر الحسنات راجعة إلى صرف المال أو استعمال البدن، والصوم يتضمن كسر النفس وتعريض البدن للنقصان، وفيه الصبر على مضض الجوع والعطش وترك الشهوات، وإلى ذلك أشار بقوله: «يدع شهوته من أجلي». [فتح الباري: ٤/١١٠]، وعلى الصائم ألا يتضجر من رائحة فمه؛ لأنها أطيب عند الله من ريح المسك، كما عليه أن يصبر على الأذى.

من المعلوم أن الحسنات يضاعف جزاؤها من عشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصوم فلا يضاعف إلى هذا القدر فحسب، بل ثوابه لا يقدر قدره ولا يحصيه إلا الله تعالى، ولذلك يتولى الله جزاءه بنفسه

٤- المباعدة عن النيران:

ففي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من صام يومًا في سبيل الله بعَّدَ الله وجهه عن النار سبعين خريفًا». [البخاري ٢٨٤٠، ومسلم ١١٥٣].

وفي هذا أجر عظيم للصائم وفضل كبير ورحمة من الله له. قال النووي رحمه الله: «فيه فضيلة الصيام...، والخريف السنة، والمراد سبعين سنة». [شرح النووي على مسلم ج٨/٢٣]، وقال ابن حجر رحمه الله: «الخريف زمان معلوم من السنة، والمراد به هنا العام، وتخصيص الخريف بالذكر دون بقية الفصول - الصيف والشتاء والربيع - لأن الخريف أزكى الفصول لكونه يجنى فيه الثمار». [فتح الباري: ٦/٤٨].

٥- الصيام لا مثل له:

ففي سنن النسائي عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله، مرني بأمر ينفعني الله به، قال: «عليك بالصيام فإنه لا مِثْل له». [النسائي ٢٢٢١ وصححه الألباني].

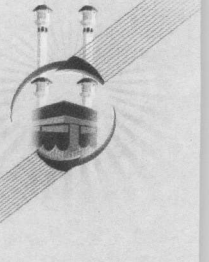

٦- للصائمين باب من أبواب الجنة لا يدخل منه أحد غيرهم:

فعن سهل بن سعد الساعدي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن في الجنة بابًا يقال له الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة لا يدخل منه أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيقومون، لا يدخل منه أحد غيرهم، فإذا دخلوا أغلق، فلم يدخل منه أحد». [البخاري ٨٩٦].

٧- في رمضان ليلة خير من ألف شهر:

من قام فيها لله غفر له ما تقدم من ذنبه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه، ومن صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه». [البخاري ١٩٠١].

٨- رمضان لا ينقص أجره حتى ولو نقص عدده:

ففي الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «شهران لا ينقصان، شهرا عيد: رمضان، وذو الحجة» [البخاري ١٩١٢، ومسلم ١٠٨٩]. والمعنى: لا ينقصان أبدًا في الأجر وثواب العمل، وكان إسحاق بن راهويه يقول: «لا ينقصان في الفضيلة إن كانا تسعة وعشرين أو ثلاثين»، وقال البيهقي: «إنما خصهما بالذكر لتعلق حكم الصوم والحج بهما، وبه جزم النووي، وقال: إنه الصواب المعتمد». وعقب الحافظ ابن حجر على هذا بقوله: «والمعنى أن كل ما ورد عنهما من الفضائل والأحكام حاصل سواء كان رمضان ثلاثين أو تسعًا وعشرين». [فتح الباري: ٤/١٢٥، ١٢٦].

ومنح الله في رمضان لأهل الإيمان كثيرة، منها الجزاء الكبير للعمرة في رمضان، فالعمرة في رمضان تعدل ثواب الحج برفقة النبي صلى الله عليه وسلم كما قال النبي صلى الله علي وسلم: «عُمْرَةً فِي رَمَضَانَ تَقْضِي حَجَّةً أَوْ حَجَّةً مَعِي» [البخاري ٣٦٨١].

وعن عطاء قال سمعت ابن عباس رضي الله عنهما يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لامرأة من الأنصار سماها ابن عباس فنسيت اسمها «ما منعك أن تحجي معنا». قالت كان لنا ناضح فركبه أبو فلان وابنه لزوجها وابنها، وترك ناضحًا ننضح عليه قال: «فإذا كان رمضان اعتمري فيه، فإن عمرة في رمضان حجة» [البخاري ٣٦٨١].

كما أن للجود والإحسان فضلًا عظيمًا في رمضان، فقد كَانَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدَ النَّاسِ، وَأَجْوَدُ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جِبْرِيلُ، وَكَانَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَلْقَاهُ فِي كُلِّ لَيْلَةٍ مِنْ رَمَضَانَ فَيُدَارِسُهُ الْقُرْآنَ؛ فَلَرَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَجْوَدُ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ»[البخاري ٤٥٥٣].

والاعتكاف عمل جليل من أعمال البر في شهر رمضان، وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان سنة الاعتكاف في المساجد، وقد داوم عليها صلى الله عليه وسلم حتى موته، فعن عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله، ثم اعتكف أزواجه بعده. [متفق عليه].

وغير ذلك من الأعمال الصالحة، وعليه فهو شهر يستحق العناية به، والمسارعة والمنافسة في مرضات الله فيه، أسأل الله أن يوفقنا لحسن صيامه وقيامه، وأن يتقبل منا، وصلى الله على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

الاعتكاف عمل جليل من أعمال البر في شهر رمضان، وقد سن لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العشر الأواخر من رمضان سنة الاعتكاف في المساجد، وقد داوم عليها صلى الله عليه وسلم حتى موته

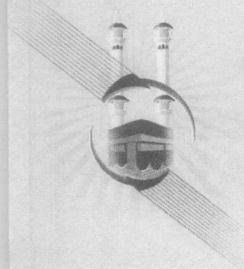

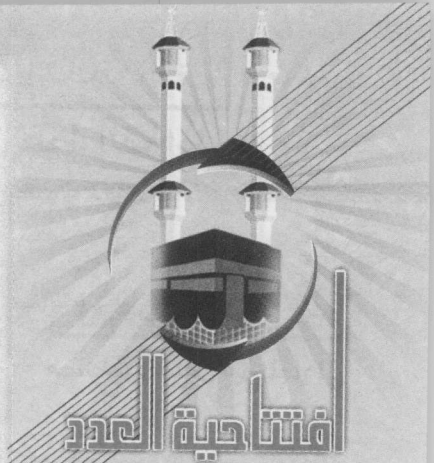

أصول شرعية للخروج من الأزمة الحالية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين، المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين وأصحابه الغر الميامين، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.. وبعدُ:

تمر بلادنا في هذه الأيام بمرحلة خطيرة من نواحٍ مختلفة، يدركها الناظر بأدنى تأمل، وقد يتساءل البعض: ألا يوجد في الإسلام حلول للخروج من هذه الأزمة؟

ولا شك أن الإسلام بعالميته، وفطرية منهجه ورسالته، هو الدين الحق الذي تصلح به الدنيا، ويسعد صاحبه في الأخرى، غير أن أتباعه يجب أن يواجهوا الواقع بضربٍ من السياسة الشرعية ضمن الأصول والقواعد المرعية في الشريعة الإسلامية.

وسأذكر طرفًا من ذلك، لعل الله ينفع به، ويوفّق العاملين في حقل الدعوة، والباحثين عن الحق إلى الأخذ به:

أولاً: التسليم للنصوص وتقديمها على الرأي:

الاستسلام للنصوص الشرعية، والانقياد لها، يكون بالرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو الحق الواجب اتباعه، ولا يجوز خلافه، قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا» [الأحزاب:٣٦].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «وذلك أن الحق الذي لا باطل فيه هو ما جاءت به الرسل عن الله، وذلك في حقنا يُعرَف بالكتاب والسنة والإجماع... فلهذا كانت الحجة الواجبة الاتباع: للكتاب والسنة والإجماع، فإن هذا حق لا باطل فيه، واجب الاتباع، لا يجوز تركه بحال، عامّ الوجوب لا يجوز ترك شيء مما دلت عليه هذه الأصول، وليس لأحدٍ الخروجُ عن شيء مما دلت عليه، وهي مبنية على أصلين:

أحدهما: أن هذا جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم.

والثاني: أن ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم وجب اتباعه. [مجموع الفتاوى ج١٩/٦٢٥].

وقد أقام الله الحجة على خلقه بكتابه وبعثة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان:١]، ونصوص الكتاب والسنة وافية شافية لما يحتاج الناس إليه في أصول الدين وفروعه، قال تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ» [النحل:٨٩].

وعليه، فنصوص الشرع يجب تقديمها على كل رأي وقول، قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُقَدِّمُوا۟ بَيْنَ يَدَىِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» [الحجرات:١]، وتأخير النصوص وعدم الاستجابة لها ضلالٌ وانحراف عن سواء السبيل، قال تعالى: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ

أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [القصص:٥٠].

ولا يعني ذلك إغلاق باب الاجتهاد، وعدم النظر في المستجدات؛ لأن باب الاجتهاد مفتوح بشروطه، غير أنه لا يُصار إليه إلا إذا عُدِم النص، وكل من قامت به مَلَكة الاجتهاد من العلماء الربانيين وجب عليه استعماله عند الحاجة وترك التقليد، وعليه بذل جهده في معرفة الحكم الشرعي، واختيار الراجح، ويكون الاختيار بحسب سببه، وينقسم إلى ثلاثة أنواع:

١- اختيار بالنص؛ لدليل من الكتاب والسنة، يقطع به المجتهد في المسائل الخلافية.

٢- اختيار لسببٍ مقاصدي ينبع من موارد الشريعة، وهو اجتهاد بالمصلحة، ويراعى فيه تحقيق مصالح الناس، وتيسير أمورهم، ورفع الحرج عنهم، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية أن الشريعة جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها. [مجموع الفتاوى ٢٦٥/١].

وعلى المتصدر لذلك أن يتجرد من هواه، وأن يُحسِن قصده، ولا يتابع الناس على أهوائهم، ويحرص على رضاهم على حساب الشرع المنزل، بل عليه أن يأخذ بالأقرب إلى الكتاب والسنة، وعمل الصحابة والسلف الصالح - رضوان الله عليهم -.

٣- اختيار بالرأي، وهو اجتهاد بالرأي على أصلٍ منصوص بقياسٍ غير المنصوص عليه، لاشتراكهما في علة الحكم، وقد يقوم هذا الاختيار على استحسان، أو مصلحة مرسلة، أو فتوى صحابي، أو عرف، أو سدّ ذريعة إلى الحرام، والاختيار المبني على القياس يكون اجتهادًا في إدراك علل الأحكام.

وعلى الفقيه في جميع الأحوال أن يسعى إلى تحقيق مقاصد الشريعة، وإقامة العدل والمساواة بين الناس، واختيار ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد من الفساد.

على الفقيه في جميع الأحوال أن يسعى إلى تحقيق مقاصد الشريعة، وإقامة العدل والمساواة بين الناس، واختيار ما يكون الناس معه أقرب إلى الصلاح، وأبعد من الفساد.

ثانيًا: الترجيح عند التعارض:

ذكرت سابقًا وجوب التسليم للنصوص، وهذا أمر مُجمَع عليه، غير أنه قد يقع تعارض وتقابل بين المصالح، أو بين المفاسد، وعندئذ يجب الترجيح، فإذا تعارضت المصالح قُدّم أولاها على غيره، فالواجب يُقدّم على المندوب عند التعارض، وكذلك الواجب المضيّق يقدم على الواجب الموسّع، وما كان نفعه متعديًا يُقدّم على ما نفعه قاصر إذا كانا من رتبة واحدة، وهكذا أيضًا عند تعارض المفاسد تُدفع أعظمهما فسادًا، فإذا دار الأمر بين مفسدتين، وكانت إحداهما أكثر فسادًا من الأخرى، فدرء العليا منهما أولى من درء غيرها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «لا يجوز دفع الفساد القليل بالفساد الكثير، ولا دفع أخف الضررين بتحصيل أعظم الضررين».

ثم ذكر رحمه الله أن مطلوب الشريعة هو: «ترجيح خير الخيرين إذا لم يمكن أن يجتمعا جميعًا، ودفع شر الشرين إذا لم يندفعا جميعًا». [مجموع الفتاوى 23/ 343].

وقد دلّ القرآن الكريم على هذا، قال تعالى: « يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ

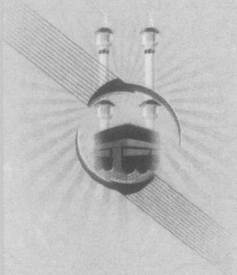

وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ» [البقرة:٢١٧]، وقد بينت الآية أن أعظم الفسادين يندفع بارتكاب أدناهما.

يقول القاسمي - رحمه الله - في شرحه للآية: «إن الله سبحانه حكم بين أوليائه وأعدائه بالعدل والإنصاف، ولم يبرئ أولياءه من ارتكاب الإثم في الشهر الحرام، بل أخبر الله أنه كبير، وأن ما عليه أعداؤه المشركون أكبر وأعظم من مجرد القتال في الشهر الحرام، فهم أحق بالذم والعيب والعقوبة». [تفسير القاسمي ٥٤٦/٣].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قَسْمًا، فقلت: والله يا رسول الله لغير هؤلاء كان أحق به منهم. قال: «إنهم خيّروني أن يسألوني بالفحش أو يبخّلوني، فلست بباخل». [مسلم ح١٠٥٦].

والحديث يدل على أن القوم خيّروه بين أمرين مكروهين لا يتركونه من أحدهما: المسألة الفاحشة، والتبخيل، والتبخيل أشد، فدفع الأشد بإعطائهم. قال النووي في شرح الحديث: «معناه: أنهم ألحوا في المسألة لضعف إيمانهم، وألجأوني بمقتضى حالهم إلى السؤال بالفحش، أو نسبتي إلى البخل، ولا ينبغي احتمال واحد من الأمرين، ففيه مداراة أهل الجهالة والقسوة، وتألفهم إذا كان فيهم مصلحة، وجواز دفع المال إليهم لهذه المصلحة». [شرح النووي على مسلم ١٤٦/٧].

وقد وضع أئمتنا - رحمهم الله - قواعد عظيمة تدور حول هذا المعنى، وتحقق المصالح وتدفع المفاسد، ومن ذلك: «درء المفاسد مقدم على جلب المصالح»، «الضرر الأشد يُزال بالضرر الأخفّ»، «ويحتمل الضرر الخاص لدفع الضرر العام»، وغير ذلك من القواعد.

ثالثًا: تغير الفتوى في الأمور الاجتهادية:

من المعلوم أن الثبات من خصائص هذه الشريعة الغراء، فهي شريعة لا تقبل التطويع للأغراض والأهواء وتقلبات الأمزجة واختلاط الآراء، ومع هذا نجد أن الأحكام الاجتهادية المبنية على أعراف معينة، أو مصالح وعادات قد تتغير بحسب التغير الطارئ على أهل الزمان صلاحًا وفسادًا، وربما اختلفت الفتيا باختلاف المكان، فالجناية في الحرم لا تكون كالجناية في غيره عند الشافعي وأحمد، كما تختلف الفتيا باختلاف أحوال المكلفين، فقد رخّص النبي صلى الله عليه وسلم للشيخ في المباشرة والقُبْلَة وهو صائم، ولم يرخّص للشاب؛ لأن الأول يملك نفسه بخلاف الثاني. وتغيُّر الأحكام بتغير الأزمان ليس فيه تبديل للشرع المنزل، ولا تغيير للشريعة الثابتة، بل هو خاصية في الشريعة بنفسها تُكسبها صفة البقاء والخلود، وتزيدها ثباتًا وإحكامًا بقدرتها على تلبية كل متغير في حياة الناس، ذلك أن الفتوى هي: «جواب المفتي».

ومن البيّن أن الفتوى قد تدخل فيها أو ترتبط بها عدة عوامل تكون مرتبة عليها، وبالتالي يلحق بالفتوى التغير بضوابط مهمة،... مع التأكيد على أن ما يقع فيه التغيير إنما هو بحسب اجتهاد المجتهد، وبحسب تحقيق مناط الحكم، وتحقيق المصلحة، ومراعاة العرف إذا كان مما يُلحظ فيه ذلك، ومن أمثلة ذلك: تنظيم جمع الزكاة، وصرفها في مصارفها الشرعية، وكالأحكام التي علّقها الشارع على العرف، ولم يقيدها بوصفٍ سوى الحكم العام كالتراضي في البيوع، وألفاظ

الثبات من خصائص الشريعة الغراء، فهي شريعة لا تقبل التطويع للأغراض والأهواء وتقلبات الأمزجة واختلاط الآراء، ومع هذا نجد أن الأحكام الاجتهادية المبنية على أعراف معينة، أو مصالح وعادات قد تتغير بحسب التغير الطارئ على أهل الزمان صلاحًا وفسادًا.

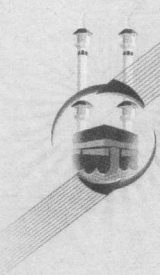

القذف واليمين، كمن حلف لا يأكل لحمًا، والعرف يخصّصه في لحم الغنم والبقر والجمل دون لحم السمك، فلو أكل لحم السمك لا يُعد حانثًا.

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أن تغيّر الفتوى بهذا المعنى، إنما هو إعمال لما أمرت به الشريعة في أصولها الكلية وجزئياتها الفرعية؛ إذ من الفتيا ما يكون من حيثيات الحكم فيها مراعاة العرف والمصلحة، فإذا تغير العرف أو تخلفت المصلحة تغيرت الحيثية، فتتغير لذلك الفتيا، أما الأحكام الأساسية فهي ثابتة لا تتغير. [انظر في ذلك إعلام الموقعين لابن القيم (3 /14)، والمدخل الفقهي العام لمصطفى الزرقا 2 /924، 925].

رابعًا: النظر في مآلات الأفعال:

على الفقيه المجتهد أن يراعي مآلات الأفعال ونتائجها بما يتفق مع مقصد الشارع من تشريع تلك الأفعال والتصرفات.

وإهمال النظر إلى المآلات من حيث إفضاء الأفعال والتصرفات إلى نقيض المقصود الذي شُرعت له يرتّب أنواعًا من الخلل.

يقول الشاطبي - رحمه الله -: «النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا، سواء كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل».

ثم ذكر رحمه الله الأسباب الدافعة إلى النظر في المآلات، وأنه من عمل المجتهدين فقال: «وهو مجال للمجتهد صعب المورد، إلا أنه عذب المذاق، محمود الغِبّ، جارٍ على مقاصد الشريعة». [الموافقات 4 /194، 195].

ويمكن أن يُستدل على ذلك بقوله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ» [الأنعام:١٠٨]، فقد نهى الله تعالى عن هذا الفعل لما كانت عاقبته تؤول إلى عدم تعظيم الله تعالى، وفي القرآن آيات بينت اعتبار المآلات بشكل خاص، كقوله تعالى: «أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا» [الكهف:٧٩].

ووجه الدلالة من الآية: أن إعطاب السفينة أو إلحاق ضرر بها ينبغي منعه ودفعه؛ لكونه مضرة ومفسدة، لكن لمّا لُوحظ مآل هذا الفعل من نجاة السفينة من الملك الظالم، كان هذا الإضرار محمودًا من جهة مآله، ومشروعًا من جهة نتيجته، وفي السنة النبوية والسيرة المحمدية أدلة على ملاحظة مآلات الأفعال، فقد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن قطع بول الأعرابي الذي بال في المسجد، وحديثه في الصحيحين وغيرهما، كما امتنع عن قتل المنافقين؛ لئلا يتحدث الناسُ أن محمدًا -صلى الله عليه وسلم- يقتل أصحابه.

وعن عوف بن مالك رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم نهى عن الخروج على أئمة الجور والظلم ما أقاموا الصلاة. [أخرجه مسلم] مع أن في الخروج عليهم مصلحة تولية العدل، وإشاعة الصلاح، وإزالة الفساد، غير أنه لما كان يؤول إلى استباحة دماء أهل الإسلام، وحصول الفتن في مجتمعات المسلمين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بالصبر على جور الأئمة وعدم الخروج عليهم.

والله ولي التوفيق والسداد، وصلى وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين.

النظر في مآلات الأفعال معتبر مقصود شرعًا، سواء كانت الأفعال موافقة أو مخالفة؛ وذلك أن المجتهد لا يحكم على فعل من الأفعال الصادرة عن المكلفين بالإقدام أو الإحجام إلا بعد نظره إلى ما يؤول إليه ذلك الفعل.

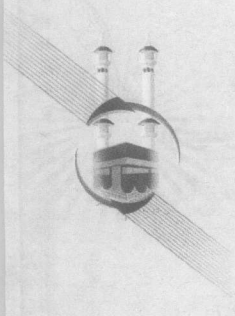

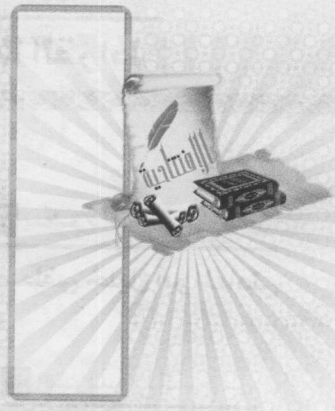

الإسلام أهدى سبيلا وأقوم طريقًا

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وإمام المتقين، نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم إلى يوم الدين... وبعد:

الإسلام هو الدين الحق، والنعمة التامة، والشِّرْعة والمنهاج الذي رضيه الله لخير أمة أخرجت للناس، قال الله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا» [المائدة:٣]، والإسلام رسالة عالمية موجهة إلى البشرية كلها، قال الله تعالى: «تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان:١]، ولفظ العالمين يتناول جميع المكلفين من الإنس والجن، ويفيد أنه رسول للخلق إلى يوم القيامة، يقول ابن كثير رحمه الله: «خص الله النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن ليخصه بالرسالة إلى من يستظل بالخضراء، ويستقل على الغبراء، كما قال صلى الله عليه وسلم: بُعثت إلى الأحمر والأسود». وقال صلى الله عليه وسلم: «أُعطيت خمسًا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي». فذكر منهن: أنه «كان النبي يُبعث إلى قومه خاصة، وبُعثت إلى الناس عامة». [تفسير ابن كثير ج٣/٤٢٤].

ولذلك فإن الله تبارك وتعالى لا يقبل من عبدٍ إلا الإسلام، ومتابعة النبي صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: « وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ » [آل عمران:٨٥]، والآية أفادت أن الدين ليس إلا الإسلام، وأن غيره لا يكون مقبولاً عند الله، وصاحبه من الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ بتأسفه وتحسره على ما فاته في الدنيا من العمل الصالح، وحرمان الثواب، وحصول العقاب في الدار الآخرة.

وقد عقد الإمام مسلم في صحيحه بابًا حول هذا المعنى، قال فيه: «باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم إلى جميع الناس، ونسخ الملل بملته». ثم ساق تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم وفيه: «والذي نفس محمد بيده لا

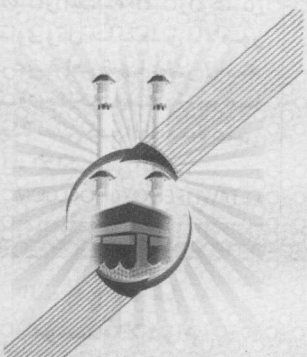

يسمع بي أحدٌ من هذه الأمة: يهودي ولا نصراني، ثم يموت ولم يؤمن بالذي أُرسلت به، إلا كان من أصحاب النار».

والمعنى: أن كل من كان موجودًا في زمنه صلى الله عليه وسلم وبعده إلى يوم القيامة يجب عليه الدخول في طاعته، قال النووي رحمه الله: «وإنما ذكر اليهودي والنصراني تنبيهًا على من سواهما؛ وذلك لأن اليهود والنصارى لهم كتاب، فإذا كان هذا شأنهم مع أن لهم كتابًا، فغيرهم ممن لا كتاب له أولى، والله أعلم». [شرح النووي على مسلم ١٨٨/٢].

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم حريصًا على هداية الخلق إلى الحق، ودعوة جميع الناس إليه، مع الرحمة والشفقة عليهم، وقد أمره الله تعالى بالدعوة إلى هذا الدين، والإعراض عن السفهاء المشركين، قال الله تعالى: « فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡمُشۡرِكِينَ » [الحجر:٩٤]، وقد قام النبي صلى الله عليه وسلم بتلبية أمر ربه خير قيام، رغبةً في إسلام الناس ونجاتهم.

يقول الدكتور أكرم العمري: «وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يحرص على الاستبقاء على حياة قريش، ويأمل في إسلامهم، وإفادة الدعوة منهم، فالناس معادن، خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا، وقريش من أكثر العرب فصاحة وذكاء وخبرة ومكانة، وابتغاؤها للإسلام فيه خير عظيم للدولة والدعوة، كما برهنت الأيام، وها هو الرسول صلى الله عليه وسلم يتحسر عليهم؛ لعناد قريش وفنائها في الحرب مع المسلمين، فيقول: «يا ويح قريش، أكلتهم الحرب، ماذا لو خلوا بيني وبين الناس، فإن أصابوني كان الذي أرادوا، وإن أظهرني الله عليهم دخلوا في الإسلام وهم وافرون، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة، فما تظن قريش؟! والله إني لا أزال أجاهدهم على الذي بعثني الله حتى يُظهره الله، أو تنفرد هذه السالفة». [السيرة النبوية الصحيحة ٤٣٨/٢].

ومع كل هذا الحرص لم يقبل جمع من المشركين هذه الهداية، وأبوا الانصياع لصوت الحق ونداء الفطرة، وأعلنوا حربًا شديدة على التوحيد وأهله، وأوغلوا في إيذاء المؤمنين والتضييق عليهم، وصبوا عليهم ألوانًا من الأذى والضرر.

وتحدثنا كتب التاريخ والسير عن وسائل العنف والتنكيل بالمؤمنين كصهيب وبلال، وياسر، وخباب وغيرهم رضي الله عنهم أجمعين.

كما أكثر مشركو قريش من الطعن في النبي صلى الله عليه وسلم، ووسموه بسمات باطلة؛ كالسحر والجنون، وضربوا عليه وعلى أتباعه حصارًا اقتصاديًا واجتماعيًا، فكانوا لا يبايعونهم ولا ينكاحونهم، واستمر ذلك الحصار ثلاث سنوات كاملة، ومع كل ذلك فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم شديد الحرص على هدايتهم واستنقاذهم من

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

كان النبي ﷺ حريصًا على هداية الخلق إلى الحق، ودعوة جميع الناس إليه، مع الرحمة بهم!!

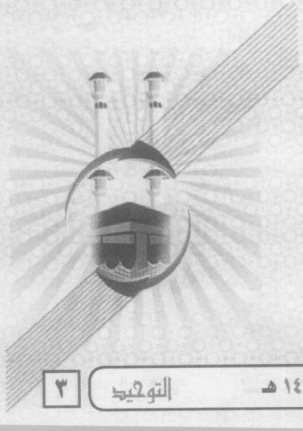

ظلمات الشرك والجاهلية، شديد الأسف على كفرهم وبغيهم، كما قال القرآن عنه: « فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفۡسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمۡ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا » [الكهف:٦]، وقال تعالى له: «فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ» [فاطر:٨]، والمعنى: لا تُهلك نفسك حزنًا على ضلالهم وعدم اتباعهم لك، ودخولهم في دينك الذي أُرسلت به.

ولما لم يرجع المشركون عن غيهم وضلالهم وبغيهم، أذن الله للمؤمنين في القتال؛ وذلك لتعبيد الناس لله وتوحيده سبحانه وحده دون سواه، وإقامة دينه وشرعه، كما قال الله تعالى: « وَقَٰتِلُوهُمۡ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتۡنَةٞ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِۚ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعۡمَلُونَ بَصِيرٞ » [الأنفال:٣٩]، قال الطبري في تفسير الآية: «فقاتلوهم حتى لا يكون مشرك، ولا يُعبد إلا اللهُ وحده لا شريك له، فيرتفع البلاء عن عباد الله من الأرض، وهو الفتنة، ويكون الدين كله لله، وحتى تكون الطاعة والعبادة كلها لله خالصة دون غيره». [تفسير الطبري ١٦٢/٩].

ومن هنا كان من أخص خصائص الجهاد في الإسلام أنه في سبيل الله، فالمؤمن يجاهد لله وفي سبيله، لا يسعى في ذلك لمكسب أو منصب أو مغنم، ولعلنا نلاحظ أن كلمة الجهاد في القرآن الكريم تقترن غالبًا بـ«في سبيل الله»، قال الله تعالى: «وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا » [النساء:٧٥]، وقال تعالى: «وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ» [البقرة:٢١٨]، وأكدت السنة هذا المعنى في أحاديث كثيرة، منها ما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تكفل الله لمن جاهد في سبيله لا يُخرجه إلا الجهادُ في سبيله وتصديق كلماته بأن يُدخله الجنة، أو يُرجعه إلى مسكنه الذي خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة». [البخاري ٧٤٥٧].

وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: الرجل يقاتل حمية، ويقاتل شجاعة، ويقاتل رياءً، فأي ذلك في سبيل الله؟ قال: «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله». [البخاري ٧٤٥٨].

ومع هذا المقصد والهدف السامي للجهاد في الإسلام، كان المسلمون يعرضون الدعوة إلى الإسلام أولاً قبل الشروع في القتال؛ لأنهم يرغبون في هداية البشر وعودتهم إلى الله، وحتى تُقام الحجة على العباد، وسيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلماته شاهدةٌ بذلك، ففي مسند أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم قومًا حتى يدعوهم». [مسند أحمد ٢٣١/١].

وعن سليمان بن بريدة عن أبيه رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمَّر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله، ومن معه من المسلمين خيرًا، ثم قال: «اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تَغُلُّوا، ولا تَغْدروا، ولا

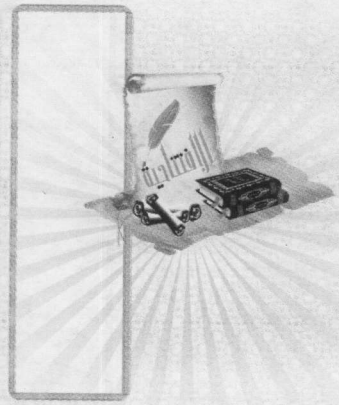

من أخص خصائص الجهاد في الإسلام أنه في سبيل الله، فالمؤمن يجاهد لله وفي سبيله، لا يسعى في ذلك لمكسب أو منصب أو مغنم، ولعلنا نلاحظ أن كلمة الجهاد في القرآن الكريم تقترن غالبًا بـ«في سبيل الله»!!

تمثّلُوا، ولا تقتلوا وليدًا، وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال أو خلال، فأيتهن ما أجابوك، فاقبل منهم وكُفّ عنهم. ثم ادعهم إلى الإسلام، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك، فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها، فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله الذي يجري على المؤمنين، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية، فإن أجابوك فاقبل منهم وكفّ عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم». [مسلم: ١٧٣١].

وهذه الكلمات تبين بجلاء ووضوح أن القتال في الإسلام لا يكون إلا بعد الإعذار والإنذار، وعرض الدعوة على المخالفين رغبةً في الدخول في الدين، وصيانة للأنفس والممتلكات، فإن أبوا إلا الحرب والقتال فيكون ذلك باختيارهم لا باختيارنا، وهم الذين ألجأونا إليه، ثم إذا وقعت الحرب بعد ذلك كانت حربًا رحيمة في التعامل مع المخالفين حتى في ميدان المعركة؛ حيث يُمنع فيها قتل الشيوخ والنساء والأطفال والرهبان، أو التمثيل بقتيل، أو قطع شجر أو حرق زرع، وقد اعترف بعضهم بعظمة الإسلام في ذلك، فقال الدكتور «جوستاف لوبون»: «لم يعرف العالم فاتحًا أعدل ولا أرحم من العرب». [حضارة العرب: ٧٢٠].

وهذه كلمة حق، وشهادة صدق لهذا الدين وأتباعه، ولذلك فإني أوجّه للعالم نداءين في هذا المقام:

الأول: لأمة الإسلام، داعيًا إياهم إلى التمسك بهذا الدين، والاعتزاز بالانتساب إليه، والعمل بأحكامه وشرائعه، والدفاع عنه في وجه أعدائه، ودعوة جميع الناس إليه بالقول والعمل.

والثاني: دعوة صادقة إلى كل من لم يدخل في الإسلام بضرورة الدخول فيه، فهو الدين الحق الذي لا يقبل الله من أحد سواه، وهو الذي يحفظ كرامة الإنسان، ويحقق لأتباعه السعادة في الدارين، وإن شقاء البشرية اليوم لهو بسبب البعد عنه، فلا تخافوا منه، وادخلوا فيه: «وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ » [لقمان:٢٢].

وختامًا أقول: الإسلام أهدى سبيلاً، وأقوم طريقًا، فهلموا إليه أفرادًا وجماعات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

والحمد لله رب العالمين.

إذا وقعت الحرب بعد الإعذار والإنذار بين المسلمين وغيرهم كانت حربًا رحيمة في التعامل مع المخالفين حتى في ميدان المعركة؛ حيث يُمنع فيها قتل الشيوخ والنساء والأطفال والرهبان، أو التمثيل بقتيل، أو قطع شجر أو حرق زرع!!

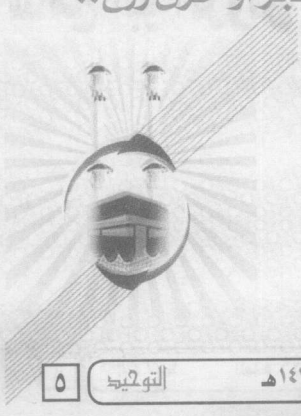

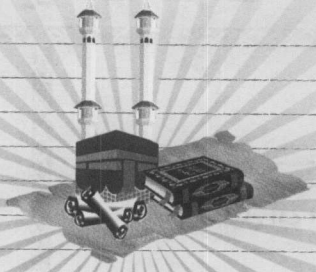

الافتتاحية العدد

ضياع الأمانة أمارة على قرب الساعة

بقلم/ الرئيس العام

د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على النبي الأمين، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.. وبعدُ:

الأمانة من الأسس الأخلاقية التي أمر بها الإسلام، وهي خلق ثابت في النفس يبتعد به الإنسان عما ليس له به حق، وهي ضد الخيانة، وعرفها الكفوي بقوله: «كل ما افترض الله على العباد فهو أمانة كالصلاة والزكاة والصيام وأداء الدين، وأوكدها الودائع». [الكليات: ١٧٦].

وقال القرطبي في تفسير قوله تعالى: «إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾» [الأحزاب:٧٢]، «الأمانة: تعم جميع وظائف الدين على الصحيح من الأقوال، وهو قول الجمهور، وقد اختلف في تفاصيل بعضها على أقوال، فقال ابن مسعود: هي في أمانات الأموال كالودائع وغيرها، وعنه أنها في كل الفرائض، وأشدها أمانة المال». [تفسير القرطبي: ٨/٥٣٣٥].

والمتتبع لأقوال أهل العلم يرى اتفاق كلمتهم على أن التكاليف الشرعية هي الأمانة المشار إليها في الآية، وسرُّ التعبير عنها «بالأمانة» تنبيهًا على أنها حقوق يجب أن تراعى، وأن يحافظ عليها، ويحرم الإخلال بشيء من حقوقها، وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن حبنكة بعض مجالات الأمانة، فقال: «الدِّين، والأعراض، والأموال والأجسام والأرواح والمعارف والعلوم والولاية والوصاية، والشهادة والقضاء، ونقل الحديث والأسرار، والرسالات والسمع والنظر وسائر الحواس». [الأخلاق وأسسها: ١/٦٤٦].

والأمانة من أبرز سمات الأنبياء والمرسلين، وقد أخبرنا الله في كتابه عن غير واحد منهم أنه كان يقول لقومه: «إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» [الشعراء :١٠٧]

كما أخبرنا سبحانه عن نبيه وكليمه موسى عليه السلام أنه قال لفرعون وقومه: «أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٨﴾» [الدخان:١٨]

وقد كان الحظ الأوفى من الأمانة لرسول الله محمد ﷺ، وقد سماه قومه «بالأمين» ﷺ، وقد اشتهر بذلك بينهم قبل البعثة وبعدها، وترتب على ذلك وضع أماناتهم عنده، وقد صدق صلى الله عليه وسلم معهم في كل شيء، ومن ذلك

كان الحظ الأوفى من الأمانة لرسول الله ﷺ وقد سماه قومه بالأمين، واشتهر بذلك قبل البعثة وبعدها

ردّه للودائع والأمانات التي كانت لديه للمشركين في موقف يعجب منه الناظر، حيث تآمروا على قتله ليلة الهجرة، ومع ذلك أبقى ابن عمه عليًا - رضي الله عنه - ليرد الأمانات إلى أهلها وأصحابها، وهذا منه صلى الله عليه وسلم بيان عملي أنه أكثر الناس أمانة وصدقًا.

والوحي الذي نزل إليه من ربه نزل به جبريل الأمين، وقد وصفه بذلك، فقال: «وَإِنَّهُۥ لَتَنزِيلُ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٩٢﴾ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾» [الشعراء:١٩٢-١٩٤]

وقد وصف الله عباده المؤمنين برعاية العهد والأمانة في موضعين من كتابه بلفظ واحد، فقال: «وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٣٢﴾» [المعارج:٣٢]

والآية في الموطن الأول -في أول سورة المؤمنون- سيقت في بيان صفات المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس.

وقد أمر الله بأداء الأمانة وإعطاء الحقوق لمستحقيها في آيات كثيرة منها قول الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾» [النساء:٥٨]

وقد أفادت الآية وجوب تأدية الأمانات إلى أصحابها ومستحقيها، وتسمى الودائع أمانات؛ لأنها لا تؤدي إلا بخُلق الأمانة، وهذه الأمانات تشمل جميع الحقوق المتعلقة بذمم الناس، سواء كانت حقوقًا لله أو حقوقًا لغيره، وقد ذكر القرطبي - رحمه الله - أن هذه الآية من أمهات الأحكام المتضمنة لجميع الدين والشرع، وأنها عامة في جميع الناس تتناول الولاة فيما عهد إليهم من الأمانات في قسمة الأموال، ورد المظالم، والحكم بالعدل، كما تتناول من دونهم من الناس في حفظ الودائع والتحرز في الشهادات، ثم نقل عن البراء بن عازب وابن مسعود وابن عباس وأبي بن كعب رضي الله عنهم أن الأمانة عامة في كل شيء، وقال: هذا إجماع. [تفسير القرطبي: ١٨٢٥/٣].

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى أنه يأمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». [أخرجه أحمد وأبو داود وصححه الألباني].

وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات والزكوات، والصيام، والكفارات والنذور، وغير ذلك، مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض بالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ منه ذلك يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يقاد للشاة الجلحاء من الشاة القرناء» [مسلم ٢٥٨٢]. [انتهى من تفسير ابن كثير ٧٠٨/١].

وفي آية أخرى يأمر الله بأداء الأمانة، حتى ولو لم يكن هناك شهادة

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة» قيل: وكيف إضاعتها؟ قال: «إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».

أو كتابة، قال الله تعالى: «وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» [البقرة:٢٨٣]، ومعنى الآية: لو أن أحدًا منكم ائتمن آخر على شيء، فعلى المؤتمن أن يؤدي الأمانة إلى من ائتمنه، وليتق الله ربه، فلا يخن شيئا منها، وقد حذّر القرآن صراحة من الخيانة، وهي مناقضة للأمانة، قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾» [الأنفال:٢٧]، كما أعلمنا النبي عليه الصلاة والسلام أن الخيانة من صفات المنافقين، فقال كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». [متفق عليه: البخاري ٢٦٨٢، ومسلم ١٠٧].

وفي هذا الحديث تحذير للمؤمنين من هذه الخصال التي قد تُفضي إلى حقيقة النفاق والعياذ بالله تعالى

وضياع الأمانة أمارة على قرب الساعة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بينما النبي صلى الله عليه وسلم في مجلس يحدّث القوم، جاءه أعرابي، فقال: متى الساعة؟ فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يحدّث، فقال بعض القوم: سمع ما قال فكره ما قال، وقال بعضهم: بل لم يسمع، حتى إذا قضى حديثه قال: أين السائل عن الساعة؟ قال: ها أنا يا رسول الله، قال: فإذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إذا وُسِّد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة». [البخاري: ٥٩].

وقد ظهرت ملامح هذا الحديث في دنيا الناس اليوم، والمراد بكلمة «الأمر» الواردة في الحديث: جنس الأمور التي تتعلق بالدين، والخلافة، والإمارة، والقضاء، والفتيا، والصدق في القول والعمل، وما يجري في المعاملات بين الله وبين خلقه، وغير ذلك، وقد ذكر الإمام البخاري هذا الحديث تحت باب عنونه بقوله: «باب رفع الأمانة»، قال ابن حجر رحمه الله: «والمراد برفعها إذهابها بحيث يكون الأمين معدومًا أو شبه المعدوم». [فتح الباري ١١/٣٣٣].

كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الساعة لن تقوم حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن، وهذا من فساد الخلق وذهاب المروءة والحياء بين الناس، وقد أخرج الإمام أحمد بسند صحيح عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:« إن الله يبغض الفحش والتفحش والذي نفس محمد بيده! لا تقوم الساعة حتى يخون الأمين، ويؤتمن الخائن، وحتى يظهر الفحش والتفحش، وقطيعة الأرحام وسوء الجوار والذي نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل القطعة من الذهب نفخ عليها صاحبها فلم تغير ولم تنقص ، والذي نفس محمد بيده إن مثل المؤمن كمثل النخلة أكلت طيبا ووضعت طيبا ووقعت فلم تكسر ولم تفسد». [مسند أحمد: ٢/١٩٩، وصححه الألباني].

وقد بين الحديث أن خيانة الأمانة لا تقع إلا من أصحاب الأخلاق المذمومة، وأن المؤمن نافع حيث وجد وأينما كان،

في الآونة الأخيرة خاضت وسائل الإعلام في أنصار السنة متهمين إياها بالسعي في زعزعة استقرار البلاد. من خلال ما يرد إليها من مساعدات للأيتام والفقراء وبناء المساجد والمستشفيات، وهذا بهتان وخيانة وطعن في الصدق والأمانة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

والخائنون للأمانة هم حثالة الناس، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « كيف بكم وبزمان أو يوشك أن يأتي زمان يُغربل الناس فيه غربلة، تبقى حثالة من الناس، قد مرجت عهودهم وأماناتهم، واختلفوا فكانوا هكذا. وشبك بين أصابعه، فقالوا: كيف بنا يا رسول الله؟ قال: تأخذون ما تعرفون، وتذرون ما تنكرون، وتقبلون على أمر خاصتكم، وتذرون أمر عامتكم». [أبو داود ٤٣٤٢ وصححه الألباني].

ومعنى: «يُغربل الناس فيه غربلة» أي: يذهب خيارهم ويبقى شرارهم وأرذالهم، كما أن الغربال يصفي الدقيق ويبقي الحثالة، والحثالة الرديء من كل شيء، وإذا كان هذا حال ووصف الخائنين للأمانة، فالواجب على كل مسلم رعايتها والقيام بحقها حتى لا يكون مع هؤلاء الخائنين، والأمانات الواجب أداؤها كثيرة، منها: أمانة العبد مع ربه ومولاه، وهي فيما عهد إليه بحفظه، وإتيان ما أمر الله به، والانتهاء عما نهى عنه.

ومنها: أمانة العبد مع الناس، ويدخل فيها رد الودائع، وعدم الغش والكذب، والصدق في القول والعمل، والحكم بين الناس بالحق والعدل، ومنها: أمانة الإنسان مع نفسه، وذلك بأن يختار لنفسه الأنفع والأصلح في الدين والدنيا.

ومن المعلوم أن رفاهية الشعوب وسعادتها وانتظام أمر معيشتها في تحقيق الأمانة، فهي دعامة بقاء الإنسان، ورافع أبنية العز والسلطان، وأي أمة غابت عنها الأمانة أصيبت بالذل والمهانة، نسأل الله العافية والسلامة.

وفي الآونة الأخيرة خاضت بعض وسائل الإعلام في جماعة أنصار السنة المحمدية، متهمين إياها بالسعي في زعزعة استقرار البلاد، وذلك من خلال ما يرد إليها من مساعدات للفقراء والأيتام، وبناء المساجد والمستشفيات، وغير ذلك.

وإن هذا - والله - من البهتان والخيانة، وطعن في الصدق والأمانة، ويا ليت الخائضين وقفوا على الحقيقة، أو رجعوا إلى المسئولين، وهذا واجب عليهم، والله سائلهم يوم الدين، قال تعالى: « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ » [الإسراء:٣٦].

ونحن مما نُسب إلينا - بحمد الله - براء، وعلى القائل البينة والدليل، ونود أن نعلم الجميع أننا جمعية مشهرة نعمل في النور، وتحت مظلة رسمية، وبإشراف من الجهات المعنية، ولنا في ذلك مدة من الزمن لم ينسب إلينا مرة سقطة أو خيانة، أو عُرف عنا مشاركات في مؤامرات تضر بالبلاد والعباد، وتاريخ الجماعة في ذلك معروف. وكنا في المواقف السابقة نصدر بيانات تعبر عن موقف الجماعة وسلوكها في المسائل الحادثة.

نسأل الله تعالى أن يسلّم بلادنا من كل سوء ومكروه، وأن يَمُنّ علينا بالأمن والإيمان والسعادة والإسلام، ونسأله أن يوفق المسئولين في ضبط استقرار البلاد، والله من وراء القصد، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

الرئيس العام في حوار لـ.. التوحيد

●● الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده.. أما بعد..

فإن الفتن والبلايا منبهات وموقظات، تحمل الأمم على العودة إلى نفسها، والقيام بهمة إلى مراجعة مواقفها، ومسيرتها بجدٍ ومصداقية، وصراحة وشفافية.

وإن إحباطات الماضي وخيبات الأمل عند الأمم الحية لا تقضي على إمكانات المستقبل، ولكنها تنبه إليها، بل تؤكدها وتثير فاعليتها، وقد قال الله عز وجل في ابتلاء يوم أُحد: «إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ» [آل عمران: ١٤٠، ١٤١].

وجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر لها تاريخ عريق، مضيء بالعمل في ميدان الدعوة.. هذه الجماعة التي أمضت من عمرها أكثر من تسعين عاماً خرَّجت الآلاف من العلماء والفقهاء، والخطباء والدعاة؛ الذين يدعون إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، كما أن لهذه الجماعة دوراً اجتماعياً إنسانياً نشطاً داخل المجتمع المصري، ولها أيادٍ بيضاء مشرقة في كل ميدان خيري..

لكن الجماعة لم تسلم مؤخراً من بعض الاتهامات التي نُشرت في وسائل الإعلام.. فما هو موقف الجماعة من هذه التُّهَم؟ وما أهم أدوارها التي تقوم بها، وما رؤيتها للأحداث الدائرة حاليًا، هذا ما سنقف عليه من خلال لقاء مع فضيلة الشيخ الدكتور عبد الله بن شاكر الجنيدي الرئيس العام لجماعة أنصار السنة المحمدية بمصر، متحدثًا عن منهج ودور ورسالة الجماعة، وموقفها مما أثير حولها.●●

الصراع قائم بين الحق والباطل

●● فضيلة الدكتور: خلال الثورة التي قامت في مصر كان لجماعة أنصار السنة المحمدية موقف ثابت لم يتغيّر بحسب الظروف والأجواء، ولعل الدور الأبرز للجماعة كان السعي لدرء الفتن عن البلاد، والعمل على استقرار مصر، بعيداً عن الولوج في المنزلقات التي لا يُحمد عقباها، ومع ذلك وجهت للجماعة الاتهامات، فمن وراء هذه الاتهامات التي وُجهت للجماعة والتي ليس لها أساس من الحقيقة؟

■ نحن نُرجع هذه الاتهامات الباطلة المكشوفة لأمرين:

الأمر الأول: هو رغبة البعض في تشويه الأعمال الاجتماعية والخيرية التي تقوم بها الجماعات الإسلامية الخيرية، وفي مقدمتها جماعة أنصار السنة المحمدية التي ترتكز على منهج السلف؛ كأصل من أصولها الذي قامت من أجله، وهناك ناس لا يرغبون أن تقوم هذه المؤسسات الإسلامية الداعية إلى الحق، ولا شك أننا في مجتمع مملوء بتيارات مختلفة، وبعضها مخالف للحق، والصراع قائم بين الحق والباطل إلى أن تقوم الساعة، ولكن الأمر كما قال الله عزَّ وجل: «بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» [الأنبياء: ١٨].

والحمد لله، الحقائق تتضح وتُعلن للناس، والجميع يشهد بذلك، وليس عندنا ما نخفيه، فكل عملنا ظاهر للجميع والمؤسسات في الدولة تعرف من هم أنصار السنة، وماذا يعملون.

- والأمر الثاني هو اتباع الهوى، واتباع الهوى يُضل، ويصرف عن الحق.

أنصار السنة والتمويل الخارجي

●● لماذا الحملة الكبيرة التي يشنها المغرضون في قضية التمويل الخارجي ضد أنصار السنة، مع

■ لن نؤسس حزباً، ولن نشارك في الأحزاب.

■ نحن جماعة دعوة، ولا علاقة لنا بالأحزاب والحزبية، ولن ننصرف عن منهجنا

■ حملات التشويه من العلمانيين ضد أنصار السنة المحمدية والتيارات الإسلامية ستبوء بالفشل !!

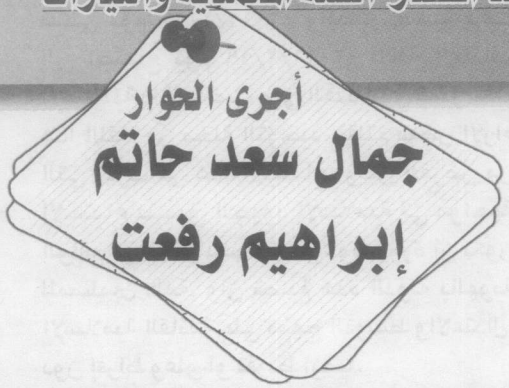

أن الجماعة لها صفحة بيضاء ناصعة على مدار ما يقرب من تسعين عامًا في الدعوة؟!

■ في الحقيقة ليست أنصار السنة وحدها هي التي تُتَّهَم، بل هناك مؤسسات أخرى، وقد لا تدين بدين الإسلام، ومع ذلك اتُّهمت، ومن صدرت منه هذه التصريحات وعد أن يراجع مواقفه، والحمد لله وجدوا البراهين التي تدل على صدقنا في القول والعمل، وأننا لم نخرج عن النظام المتبع في معاملاتنا ومنهجنا بصورة عامة. وأننا ملتزمون بالأنظمة واللوائح، وليس عندنا شيء نخفيه.

التقارير تبرئ أنصار السنة مما نُسب إليها

●● ما هو موقفكم القانوني والإجراءات التي اتخذتموها لدرء الاتهامات التي نُسبت لأنصار السنة حول التمويل الخارجي، وخاصة الصادرة عن وزارة العدل؟ فقد ساق وزير العدل المصري جملة من الاتهامات لبعض المؤسسات؟ ما موقفكم منها؟ وماذا اتخذتم من إجراءات لوقف هذه الاتهامات التي وُجهت لكم؟

■ وزير العدل لم يسمِّ جماعة أنصار السنة ضمن المجموعة المتهمة أبداً، ولم يرد لنا أي ذكر على لسانه، وإنما كان تصريحه واضحًا ومعلنًا ومنشورًا ولم يتهمنا بشيء.. هذا أولاً، ولكن الاتهامات أو التصريحات التي وُجهت لجماعة أنصار السنة المحمدية جاءت من آخرين.. والدولة الآن تتولى المتابعة والتحقيق، وستعلن النتائج، ونحن سعداء بالنتائج؛ لأننا نعرف موقفنا ووضعنا، ونعرف النتائج، فقد وعدوا بإصدار تقارير تبرئ أنصار السنة من كل ذلك. ونحن واجهنا هذا في وسائل الإعلام بالمستندات الرسمية، وما نزال نواجه هؤلاء والحمد لله، والناس اقتنعوا بما ذكرنا لأنهم يعرفون الحقيقة، ونحن لا نعيش في شريعة الغاب، وإنما نحن نعيش في ظل دولة كانت تتابعنا فيها الأنظمة السابقة بدقة بالغة، وهذا أمر معلوم، وكثيرًا ما كانوا يثنون على أعمالنا، ويشكروننا على ما نقدمه من خدمات وإسهام في رفع المعاناة عن المواطنين عن طريق إيصال النفع إليهم، سواء في الجانب المادي، أو الجانب العلمي، والحمد لله على ذلك.

دور أنصار السنة المحمدية في المرحلة القادمة

●● فضيلة الشيخ هذه الاتهامات هل يكون لها تأثير سلبي على مسار الجماعة في المرحلة القادمة أم ستكون بمثابة مصدر قوة؟

■ إن شاء الله نتوقع أن تكون هذه الصدمات والأزمات مصدر قوة، خاصة أنها أظهرتنا أمام العالم، وأننا بريئون من كل تهمة سِيقت، وأن موقفنا مشرِّف بفضل الله تعالى.

أسباب الهجوم على أنصار السنة

●● فضيلة الشيخ: ما أبرز أسباب الهجوم على جماعة أنصار السنة بعينها؟

■ في الحقيقة لم يكن الهجوم على أنصار السنّة فحسب، ولكن كان الهجوم على السلفية ومنهج الحق من فترة طويلة، ولعلكم سمعتم أن بعض الاتهامات الموجهة إليهم أنهم لا يحرصون على أمن وسلامة المجتمع. وهذا يدّعيه بعض التحرريين أو العلمانيين أو غيرهم، وهم فشلوا في محاولة الطعن على السلفية بصورة عامة، فأرادوا أن ينتقلوا إلى الطعن في جماعة أنصار السنة المحمدية.

أنصار السنة والعمل السياسي

●● هل هذه الأزمة ستدفع بأنصار السنة إلى أن يكون لها دور بارز في الأيام القادمة في العمل

السياسي والاجتماعي في مصر؟

■ نحن - والحمد لله - من أسبق الناس في مواجهة الواقع، ولا بد أن أبيّن هذا، وأنتم من خلال متابعاتكم لأعمالنا تعرفون هذا، ومن خلال ما نشرناه في مجلة التوحيد والرئيس السابق تنحى يوم ٢٠١١/٢/١١م وأنصار السنة دعت إلى اجتماع يوم ٢٠١١/٢/١٩م لكافة الأطياف الإسلامية داخل مصر، وفي العدد الذي صدر عقب هذا اللقاء من مجلة التوحيد، نقلتم بعض الآراء التي ذُكرت في هذا الاجتماع، وكان الغرض من الاجتماع تنسيق الجهود الإسلامية في مواجهة الواقع في مصر بعد التنحي، وضرورة أن تكون للمسلمين كلمة، وأن تصبغ هذه الدولة بالهوية الإسلامية القائمة على منهج التوسط والاعتدال، دون إفراط وغلو أو تفريط أيضاً.

والحمد لله نحن في مجلس شورى العلماء نجتمع، ونناقش ما يدور على الساحة، وما يجب أن نفعله خلال المرحلة المقبلة من منظور شرعي إسلامي، وننظر فيه إلى مآلات الأمور، وإلى المصالح المترتبة على القضايا التي تُثار، ونصدر في ذلك بيانات تنشر في حينها، ونوجّه فيه الأمة لكي يعودوا إلى الحق المؤيد بالدليل من كتاب الله وسنة المصطفى صلى الله عليه وسلم.

تحكيم شريعة رب العالمين

●● فضيلة الدكتور عبد الله شاكر: بعد الاجتماع الدعوي الذي عُقد اليوم الأحد ٢٠١١/١٠/٢٣م وحضره فروع أنصار السنة في مصر لتوضيح الموقف من الأحداث الجارية، والانتخابات، وتجربة الأحزاب الإسلامية، هل لكم أن تحدثونا عما حدث في الاجتماع اليوم؟

■ يقول الدكتور: قد تكون الظروف اليوم صالحة لأن نقدم عملاً إيجابيًا نخدم به أمتنا وديننا، ولعلي أدمج حديثي عن الموقف من الانتخابات مع الموقف من الأحزاب؛ لارتباط الأمرين ببعض.

فقد صار من الممكن لكل من أراد أن يؤسس حزبًا أن يفعل، نحن أعلنا وبوضوح وصراحة على موقعنا، وفي مجلة التوحيد بيانًا بهذا الأمر صادرًا من مجلس شوري العلماء، يوضح رؤية الجماعة، ونحن نقول بأن لنا منهجًا نشير إليه وهو أصل أصيل، فنحن جمعية دعوية لم نشارك من قبل في أحزاب، وما دمنا لم نكن نشارك فلنقف جميعًا على هذا الأصل، فنحن لن نؤسس حزبًا، ولن نشارك في أحزاب، ولكن مع كل ذلك الساحة مليئة بمن يقوم بتأسيس أحزاب، فمن يؤسس حزبًا فنحن ندعوه إلى الله عز وجل، وقد كانت هناك أحزاب سابقة موجودة في النظام السابق، أما الذي جدَّ على الساحة أنه قد توسعت قاعدة هذه الأحزاب، وربما دخل فيها بعض الدعوات التي لم تدخل في هذا المجال من قبل، وقد جلسنا مع بعضهم وتناقشنا معهم، ونصحناهم، وأخبرونا بأن هذه ضرورة ملحة الآن؛ لعدم ترك المجال لغيرنا.

فالأحزاب سيتقدم من خلالها المرشحون لمجلس الشعب والشورى، وترك هذا المجال فارغًا ممن يصدع بكلمة الحق غير مستساغ، فإن ترك هذا المجال قد يحدث فجوة تؤدي إلى عدم قيام حياة كريمة شريفة لهذا البلد من خلال تسلط من لا يريدون الإسلام، أو يخافون تطبيق شريعته، أما السلبيات فيمكن التغلب عليها من خلال الحرص على تحري الحق في دقائق الأمور مثل قضية دخول المرأة البرلمان، وغيرها من الأمور.

بيننا وبين إخواننا خيوط تواصل

●● فضيلة الشيخ: هل يعتبر الموقف من قضية الأحزاب موقفًا منهجيًا وعقديًا غير قابل للتغييرات في المرحلة القادمة؟

■ يقول الشيخ: أما بالنسبة لنا فنحن جمعية لها منهجها الأصيل، نتمسك به في الوقت الذي انصرف الناس فيه عن طلب العلم والدعوة إلى الله، فلندعُ، ونقدم النصيحة، وهي واجبة علينا، وبخاصة أن هؤلاء إخواننا، وقد نرتبط ببعضهم ارتباطًا وثيقًا من خلال الكثير من القواسم المشتركة، وربما يكون هناك بعض التفاوت في درجات التطبيق لهذا المنهج، ولكن لا ننكر أن بيننا وبين إخواننا من خيوط التواصل ما لا يمكن أن ينكر أو يحذف أو ينسى خاصة أننا نعيش في مجتمع واحد، ونسعى جميعًا إلى خدمة هذه الأمة، وإلى القيام بالحق.

مؤازرة النافعين والصالحين في الانتخابات

●● فضيلة الشيخ: الأحزاب سوف يكون لها مرشحون في الانتخابات، هل من تنسيق تم الاتفاق عليه بينكم وبين تلك الأحزاب ذات المرجعية الإسلامية؟

■ يقول فضيلة الشيخ: الأحزاب سوف ترشح

رجالاً، ونحن قلنا: الخبرة من يَجدُ في نفسه من أهل الفضل والخير، الخبير في المسائل السياسية أو الاقتصادية أو العلمية، أو الأدبية أو الاجتماعية مثلاً، لا بد من أن يترشح لمجلس الشعب أو الشورى، ووجهنا نداءً أيضًا لإخواننا من الدعاة والعلماء أن يربأوا بأنفسهم عن هذا حتى يتفرغوا لدعوتهم، وقد يرى الواحد منهم أن دخوله نافع ومفيد، فنسأل الله له ذلك، فلا بد أن يكون عندنا مرونة في التعامل مع الأمور، أو في تقييم وجهات نظر الآخرين، فنحن نقف وراء الصالحين، وهذه مسألة إيجابية.

الموقف الإيجابي من الانتخابات

فهذا هو الموقف الإيجابي في الانتخابات، فنحن لا نريد أن يكون هناك شقاق أو نزاع في داخل الصف الإسلامي المتقدم للانتخابات، ومشاركتنا يجب أن تكون إيجابية في تقديم النافعين الصالحين الذين نأمل منهم أن يصبغوا هذه الدولة بالصبغة الإسلامية، أو على الأقل تتاح الفرصة لدعوة الناس إلى الله تبارك وتعالى، بدلاً من التضييق الذي عانت منه الدعوة إلى الله كثيرًا في بلادنا.

نحن عانينا في فترة من الفترات - وما نزال نعاني - من السخرية والاستهزاء عبر وسائل الإعلام المختلفة، التي نالت منا ومن إخواننا الذين ينتسبون إلى السنة، فإذا كانت هناك فرصة في أن يكون هناك رجال يحفظون أعراضنا من أن تمتهن بهذه الطريقة ويأخذون على أيدي السفهاء، فهذا أمر ندعو إليه، ولكن نتحرك من خلال رجال يكون لهم سلطة، ويمكن أن يؤثروا في صناعة القرار.

ودون خلاف فيما بيننا سنختار الصالحين المتقدمين في هذه الانتخابات تحت اسم الإسلام، فليس عندنا عصبية لأحد ولا حزبية ننقاد من ورائها لأحد، وأعلنا هذا للجميع، ولكن لا بد أن نسعى اليوم بنظر صائب إلى مصلحة هذه البلاد، وإلى نفع أهلها، وأن تُظل بمظلة الإسلام.

مخاطر العمل السياسي

●● العمل السياسي له مخاطر جمة، ومن ينغمس في هذا العمل فإنه قد يفقد مصداقيته الدعوية، فهل لكم رؤية معينة في هذا التوجه؟

■ يقول الشيخ: لا شك أن العمل السياسي في هذه الأحوال قد تكتنفه بعض المخاطر، وقد تكون له بعض السلبيات، وعلى كل الأحوال نحن نُغلب النافع - بإذن الله - فالإيجابيات ندعمها، والسلبيات ننهى عنها ونحذر منها، وننصح إخواننا بعدم الوقوع فيها، فأمر بالمعروف بمعروف، ونهي عن المنكر بغير منكر، وبالتي هي أحسن هو سبيل المؤمنين.

التعاون بين أنصار السنة والتيارات الإسلامية!!

●● ما مدى حجم التعاون بينكم وبين التيارات الإسلامية الأخرى، وهل هناك خلاف أو تعاون إيجابي؟

■ الحمد لله التعاون الإيجابي هو السائد؛ فقد استطعنا أن نصل فيه إلى درجة من الوفاق؛ للخروج من الأزمة التي تعيشها الأمة الإسلامية أو الأمة المصرية الآن، مع الاحتفاظ بهويتنا وشخصيتنا ومعتقداتنا، ونحن نتعاون مع الآخرين دون أن يخالف أحدٌ شيئاً من منهجه.

ومن المعلوم أن أهل السنة والجماعة لهم منهج واضح، ومسلك صريح في التعامل مع القضايا الإسلامية، لكننا في المرحلة الأخيرة نتواصل مع التيارات الإسلامية في الحفاظ على هوية البلاد، والاجتماع الذي دعت إليه أنصار السنة جميع التيارات الإسلامية في يوم ٢٠١١/٢/١٩م كان السبب في أن تجتمع كلمة المسلمين على الحق وما نزال ننادي جميع التيارات الإسلامية أن ديننا الإسلام، ومرجعنا هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نرجع عن هذا الأصل، ولن نخالف هذا المنهج، ونحن نتبع ولا نبتدع، ومن خرج عن هذا المنهج، وإن خالفنا، فإنه يجمعنا جميعاً الإسلام.

وإخواننا يكتبون في هذه الموضوعات في مجلة التوحيد، وقد كتبت مقالاً بعنوان (يا علماء الأمة! الزموا الكتاب والسنّة على منهج النبوة).

وغير ذلك من الأمور التي نوجهها للأمة وللعلماء، وإن شاء الله نساهم في أن يرجع الجميع للحق، قال تعالى: «فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ» [النساء: ٥٩].

وما نزال ندعو إلى الاجتماع ونبذ الفرقة والخلاف، ونؤكد على تمسكنا بالكتاب والسنّة.

وانتهى اللقاء بعد أن ألقى الرئيس العام الضوء على كثير مما يشغل بال المسلمين في مصر والعالم الإسلامي، سائلين الله تبارك وتعالى أن يُعلي راية السُنَّة، وينصر من نصرها، ويخذل من خذلها، وأن يصلح الله البلاد والعباد، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

دور العلماء والجمعيات في مصر في نصرة منهج السلف الصالح

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن الإسلام هو الدين الكامل، والنعمة التامة، والمَرْضيُّ من الله لعباده، قال الله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا [المائدة:٣]، وقد بعث الله تعالى نبينا محمدًا صلى الله عليه وسلم بهذا الدين لعموم المكلفين، قال الله تعالى: تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا [الفرقان:١]، والله سبحانه لا يقبل من الناس دينًا سوى الإسلام، قال الله تعالى: وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ [آل عمران:٨٥]، وقد تلقى الصحابة الكرام أحكام هذا الدين وتعاليمه وآدابه بجملته من النبي صلى الله عليه وسلم؛ لأنه لا يقوم بدين الله إلا من حاطه من جميع جوانبه، كما ذكر البغوي في شرح السنة.

عقيدة الصحابة ومنهجهم في الحياة

وقد كان الجيل الأول من الصحابة - رضوان الله عليهم - على عقيدة نقية صافية، ببركة صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وقرب العهد بزمانه، وكانت كلمتهم واحدة في سائر أصول الدين، حتى ظهر نجم التشيع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه، والغلو فيه، وقابل هؤلاء الخوارجُ الذين خرجوا على علي رضي الله عنه وقاتلوه، كما ظهر القول بالقدر، وأن الأمر أُنُف لم يسبق لله علم به؛ تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وقد ذمَّ الصحابة -رضوان الله عليهم- أصحاب هذه المقالات وحذروا منهم، بل ناظروا بعضهم كما ناظر ابن عباس رضي الله عنهما الخوارج، ثم حدث بعد عصر الصحابة مذهب جهم بن صفوان، وواصل بن عطاء، ومحمد بن كرام السجستاني، وغير هؤلاء الذين أدخلوا على العقيدة الإسلامية مناهج باطلة، وقد انبرى علماء الأمة من أتباع السلف بالرد على هؤلاء، وبيّنوا ضلالهم وانحرافهم عن منهج النبوة، ومن هؤلاء: الأئمة الأربعة، والدارمي، والبخاري، وابن خزيمة، واللالكائي، وابن تيمية، وغيرهم، رحم الله الجميع.

الأعلام الذين نصروا منهج السلف في مصر

وقد تبع هؤلاء الأعلام في كل عصر ومصر رجال تصدوا للمنحرفين عن الطريق المستقيم، ونصروا منهج السلف القويم، وكان للعلماء الربانيين والجمعيات الإسلامية التي أُسِّست في مصر دورٌ بارزٌ في ذلك، والمتتبع لتاريخ الدعوة الإسلامية في مصر يرى هذا واضحًا، فالشيخ محمد رشيد رضا -رحمه الله- كان من العلماء القلائل الذين نصروا منهج السلف ودافعوا عنه، وما كتبه في المنار وغيره يدل على ذلك دلالة واضحة، وكذلك الشيخ محب الدين الخطيب - رحمه الله - كان من الناصرين لمنهج السلف الذابين عنه، ومثلهما الشيخ أحمد محمد شاكر، كما ظهرت ثُلة كريمة من علماء الأزهر الشريف من أمثال الشيخ عبد المجيد سليم، والشيخ محمود شلتوت، والشيخ حسن مأمون، وغيرهم، رحم الله الجميع.

دور أنصار السنة في نصرة منهج السلف

كما كان للجمعيات والمؤسسات والهيئات في مصر دور بارز وواضح في الدفاع عن منهج السلف ونصرته، ومن هذه الجمعيات جمعية أنصار السنة المحمدية والتي أسسها الشيخ محمد حامد الفقي رحمه الله في عام خمسة وأربعين وثلاثمائة بعد الألف من الهجرة النبوية الشريفة، وقد بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم، ثم التحق بالأزهر الشريف وتخرج فيه، وعمل في مجال الدعوة إلى الله، ووقف على مذهب السلف وفقهه، واهتم بالقراءة لعلماء السلف من أمثال الدارمي والآجري وابن تيمية وغيرهم، وقد وضع أصولاً وأهدافًا لدعوته نصر بها ومن خلالها منهجَ السلف، ومن أبرز هذه الأصول ما يلي:

١- الدعوة إلى التوحيد الخالص المطهر من جميع أرجاس الشرك وأدرانه وشوائبه:

يقول الشيخ عبد الرزاق عفيفي - رحمه الله -: ونحن إذا رجعنا إلى الوراء إلى اليوم الذي بدئ فيه بإرسال الرسل للناس، لوجدنا أن دعوة أنصار السنة - بأهدافها ومقاصدها - هي دعوة الرسل جميعًا من نوح إلى خاتمهم - محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم أجمعين - فإن دعوة جميع الرسل والأنبياء لم تكن تحمل في أصولها وجوهرها أول الأمر الدعوة إلى عدم تعاطي الخمر، أو لعب الميسر، أو اجتناب الفواحش مثلاً، وإنما كانت تحمل الدعوة إلى توحيد الله تعالى عن طريق تحقيق كلمة التقوى «لا إله إلا الله»، وهي كلمة تأمر الناس بالكفر بالطواغيت والأصنام، وإخلاص العبادة لله وحده، وإفراده بالألوهية الخاصة». [مجلة الهدي النبوي- العدد الخامس- جمادى الآخرة ١٣٨١هـ].

كما اهتمت الجماعة بتوحيد الأسماء والصفات وفق منهج السلف الصالح، فدعوا إلى إثبات جميع ما أثبته الله لنفسه، وما أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم؛ على الوجه اللائق بجلال الله وكماله، ونفوا عنه ما نفاه عن نفسه؛ ممتثلين في ذلك قوله تعالى لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ الشورى:١١].

٢- الأصل الثاني: الدعوة إلى حب رسول الله صلى الله عليه وسلم حبًا صادقًا صحيحًا؛ يحمل على اتخاذه مثلاً أعلى، وأسوة حسنة، والاقتداء به في عباداته ومعاملاته وأخلاقه ومجانبة كل ما لم يكن عليه أمره وأمر أصحابه، وتقديم قوله على كل قول أيًا كان قائله، قال الله تعالى: وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ [الحشر:٧]، والشهادة للنبي صلى الله عليه وسلم بالنبوة والرسالة، وحبه يقتضي طاعته فيما أمر وتصديقه فيما أخبر، واجتناب ما نهى عنه وزجر، وألا يُعبد الله إلا بما شرع، كما يقتضي مخالفة أصحاب الجحيم في جميع النواحي.

٣- الأصل الثالث: الدعوة إلى أخذ الدين من نبعيه الصافيين - القرآن والسنة الصحيحة -؛ لأنه لن يُسعد الخلقَ في الدنيا وينجيهم في الآخرة إلا فهمهما واتباعهما، وما عداهما من أقوال الناس يحتمل الخطأ والصواب، فالصحيح

لقد ظهرت ثلة من علماء الأزهر تصدوا للرد على المنحرفين عن منهج السلف من هذه الثلة الشيخ عبد المجيد سليم والشيخ حسن مأمون وغيرهم، رحم الله الجميع

كان للجميعات الإسلامية درو بارز في نصرة منهج السلف ورد زيغ الزائغين عن المنهج القويم، ومن أبرز هذه الجمعيات أنصار السنة المحمدية، التي أسسها الشيخ محمد حامد الفقي وهو من علماء الأزهر

ما حكما بصحته، والباطل ما حكما ببطلانه أيًا كان قائله، وقد نهى الله أهل الإيمان في كتابه عن التقدم بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ [الحجرات:١].

وتُظهِرُ أهميةُ الدعوةِ والتمسك بهذا الأصل ما وقع فيه بعض المسلمين من تفرّق إلى شِيَع وفِرَق وطوائف متناحرة ومتصارعة، وكل فرقة تنسب إلى شيخ أو مؤسس، وتدعي أنها على الكتاب والسنة، وعند التحقيق نجد أنها بعيدة عن المنهلين الصافيين (الكتاب والسنة)، ولا شك أن من ابتغى الهدى في غيرهما أضله الله، روى الحاكم في مستدركه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إني قد تركت فيكم شيئين لن تضلوا بعدهما: كتاب الله وسنتي، ولن يتفرقا حتى يردا عليَّ الحوض».

وعليه؛ فيجب على أصحاب الحق وحملة الرسالة، ودعاة السنة؛ إرشاد الناس إلى نصوص الكتاب والسنة، لا محيد عنهما ألبتة، وأن من اطمأن قلبه بالإيمان وسعه ما وسع الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وتابعيهم بإحسان، ولو نظرنا إلى الحقبة التي قامت فيها جماعة أنصار السنة المحمدية في مصر لعرفنا أنهم أرادوا بهذا الأصل معالجة عدة موضوعات كانت سائدة في المجتمع منها:

أ- البعد عن منهج السلف في الصفات، وذلك بتعطيل ما أثبته الله لنفسه.

ب- مواجهة الطرق المغالية في التصوف، والتي تعتمد على الوجد والذوق والرؤى وغير ذلك في مسائل الدين، إلى جانب تقديس مشايخهم وأئمتهم، واعتبار أقوالهم بمنزلة الشرع المنزل.

٤- الأصل الرابع: إرشاد الناس إلى أن الحكم بغير ما أنزل الله هلكة في الدنيا وشقوة في الآخرة، فالله تبارك وتعالى هو خالق الخلق، وهو أعلم بمصالح عباده، وقد أنزل لهم شرعًا يحيط بهذه المصالح من جميع جهاتها، فكل مشرِّع غيره في ما لم يأذن به من شئون الحياة فهو معتدٍ عليه سبحانه، منازعٌ إياه في حقوقه التي ينبغي أن تكون له خاصة، وقد سمى ذلك شركًا بقوله بهذا الأسلوب الإنكاري المبين أَمْ لَهُمْ شُرَكَٰٓؤُاْ شَرَعُواْ لَهُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنۢ بِهِ ٱللَّهُ» [الشورى:٢١]، وقوله تعالى: «ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ [سورة التوبة:٣١]؛ وذلك لأنهم عظموهم وقدسوهم، وذلوا لهم لما شرعو ما لم يأذن به الله، ومن زعم لنفسه حق التشريع فقد أعظم الفرية على الله، ونازعه رداء الهيمنة على الخلق، ولقد كانت الدعوة إلى إقامة حكم الله تعالى ضرورة مع الدعوة إلى تصحيح العقائد، خاصة عندما تسلط أعداء الإسلام من اليهود والنصارى، واستعمروا أكثر بلاد الإسلام، وحكموها بالقوانين الوضعية.

٥- الأصل الخامس: الدعوة إلى مجانبة البدع ومحدثات الأمور، والوقوف عند قول الرسول صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [أخرجه مسلم]. فكل ما جاء به في حياته فهو دين إلى قيام الساعة، وما لم يأت به فليس بدين إلى يوم القيامة؛ لقوله تعالى ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِى مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ [المائدة:٣]، ولقوله: ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ الجاثية:١٨]، وقد كان السبب في الدعوة إلى هذا الأصل ما كان سائدًا ومنتشرًا في المجتمع المصري من كثرة البدع كإقامة الموالد للمشايخ، وحلقات الذكر الجماعي، وما يصاحب ذلك من ضرب على الطبول والدفوف، وإحداث أذكار معينة تقال بعد الصلوات بصورة جماعية، إلى غير ذلك من البدع.

يقول الشيخ أبو الوفا درويش متحدثا عن هذا الأصل: «ومن أخص أهداف جماعة أنصار السنة المحمدية: مكافحة البدع ومحدثات الأمور التي فتن بها الشيطان كثيرًا من الناس، وخيل إليهم أنها تزيدهم تعبدًا لله وزلفى لدينه».

وإلى جانب جمعية أنصار السنة المحمدية قامت الدعوة السلفية بالإسكندرية بجهود مشكورة في الدفاع عن منهج السلف؛ من خلال نشر بعض كتب أئمتهم، وكذا معاهد الدعاة التي تخرج فيها الكثير، والمساجد المنتشرة في أنحاء الجمهورية، كما أنشئت هذا العام في مصر الهيئة الشرعية للحقوق والإصلاح، وقد ظهر من خلال ميثاقها منهجها ودعوتها القائمة على منهج السلف الصالح، وقد أظهرت خطوات قوية ومتعددة خلال أشهر محدودة، وقد قامت خلال فترة وجيزة بنشر بعض البحوث العلمية المتعلقة ببعض القضايا المعاصرة.

أسأل الله تعالى للجميع التوفيق والسداد، وأن يعز دينه وينصر أولياءه. والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

إقامة الدولة التي ترعى الحقوق وتقوم بها !!

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

فمن الأمور البدهية أن كل كيان قائم لا بد له من قوة تحميه ودولة ترعاه، ومن هنا دعا الإسلام إلى وجود الدولة التي تطبّق الدين وتنفّذ أحكامه، وقد وعد الله تبارك وتعالى أهل الإيمان في القرآن بالاستخلاف في الأرض والتمكين إن عبدوا الله ووحدوه، واجتنبوا الشرك والفسوق.

قال الله تعالى: «وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾» [الأنبياء:١٠٥]، وقال تعالى: «وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٥٥﴾» [النور:٥٥].

قال الشوكاني - رحمه الله - في شرحه للآية: «والمراد بالتمكين هنا: التثبيت والتقرير، أي: يجعله الله ثابتًا مقررًا، ويوسع لهم في البلاد، ويظهر دينهم على جميع الأديان، والمراد بالدين هنا: الإسلام، كما في قوله: «وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا» [المائدة:٣]»، وذكر سبحانه وتعالى الاستخلاف لهم أولًا، وهو جعلهم ملوكًا، وذكر التمكين ثانيًا.

فأفاد ذلك أن هذا الملك ليس على وجه العروض والطروء، بل على وجه الاستقرار والثبات، بحيث يكون الملك لهم ولعقبهم من بعدهم». [فتح القدير (ج٤/٤٧)].

والناظر في جملة كبيرة من أحكام الشريعة الإسلامية، يجد أنه لا يمكن تطبيقها إلا من خلال دولة قائمة تقوم بها، ولها مؤسساتها وأنظمتها، وذلك كالآيات الواردة في تنظيم المعاملات بين الناس من بيع وإيجار ووصية، ورهن ووكالة وكفالة، وغير ذلك، ومنها: الآيات التي شرعت أحكام الحدود، وهي أحكام وحدود يجب أن تنفّذ من خلال دولة كالقصاص، وحد الزنا والسرقة، والقذف والحرابة، وغيرها، ومنها: الآيات التي نظمت أحوال الأسرة كالزواج والطلاق، والرضاعة والنفقة، والحضانة والرجعة والعدة، وغير ذلك من الأحكام المتعلقة بالأسرة.

ومنها: الآيات الآمرة بإعداد العدة لمواجهة أعداء الدين والمعتدين، كل هذا وغيره لا يمكن القيام به إلا من خلال الحكومات والدول، والشرائع النازلة على الأنبياء والمرسلين من لدن رب العالمين تحتاج إلى دولة ومنعة يمارس من خلالها التطبيق العملي للشرع المنزل، وهذا يمكن أن نفهمه من قوله تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» [الحديد:٢٥].

قال ابن تيمية - رحمه الله - في الآية: «أخبر الله أنه أرسل

الرسل وأنزل الكتاب والميزان لأجل قيام الناس بالقسط وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق، فالكتاب يهدي والسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا». [مجموع الفتاوى: ١٨/١٥٧].

ومن هنا حرص النبي صلى الله عليه وسلم على إقامة الدولة التي ترعى الحق وتقوم به، وقد تحقق له ذلك في المدينة النبوية، وكان صلى الله عليه وسلم يسعى لتحقيق هذا الهدف، ولهذا كان يعرض نفسه على القبائل في المواسم، ويدعوهم لنصرته وحمل رسالة ربه، ويؤكد ذلك أنه بايع الأنصار البيعة الثانية بمكة - شرفها الله تعالى - على السمع والطاعة في العسر واليسر، والمنشط والمكره، كما في حديث جابر رضي الله عنه أن الأنصار لما قدموا عليه قالوا: نبايعك. قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة». قال: فقمنا إليه فبايعناه، وأخذ بيده أسعد بن زرارة وهو من أصغرهم، فقال: رويدًا يا أهل يثرب، فإنا لم نضرب أكباد الإبل إلا ونحن نعلم أنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن إخراجه اليوم مفارقة العرب كافة، وقتل خياركم، وأن تعضكم السيوف، فإما أنتم قوم تصبرون على ذلك وأجركم على الله وإما أنتم قوم تخافون من أنفسكم جبنة فبينوا ذلك، فهو عذر لكم عند الله. قالوا: أمط عنا يا أسعد، فوالله لا ندع هذه البيعة أبدًا، ولا نسليها أبدًا. قال: فقم نا إليه فبايعناه، فأخذ علينا وشرط ويعطينا على ذلك الجنة». [مسند أحمد ٣/٣٢٢، ٣٢٣].

إن الأنصار لما قدموا عليه ﷺ قالوا: نبايعك قال: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم.

وهذه البيعة تعتبر هي النواة الأولى في بناء أول دولة إسلامية، واضحة المعالم والقيادة، وقد تضمنت المعاهدة بنودًا خمسة هي: السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا قدم المدينة، وقد علم المبايعون أبعاد هذه المبايعة وتبعاتها وتحملوها، ويؤكد ذلك ما قاله أبو الهيثم بن التيهان - حليف بني عبد الأشهل - للنبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: يا رسول الله، بيننا وبين الرجال حبالاً وإنا قاطعوها - يعني العهود - فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟ قال: فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم قال: بل الدم الدم، والهدم الهدم، أنا منكم وأنتم مني أحارب من حاربتم، وأسالم من سالتم». [مسند أحمد ٣/٤٦٢].

والمراد بقوله صلى الله عليه وسلم: «بل الدَّم الدم والهَدْم الهدم»: إن طلب دمكم فقد طُلب دمي، وإن أهدر دمكم فقد أهدر دمي، لاستحكام الألفة بيننا، وهو قول معروف للعرب يقولون: دمي دمك وهَدمي هَدْمك، وذلك عند المعاهدة والمناصرة. [انظر النهاية في غريب الحديث ٥/٢٥١].

وبعد انتهاء هذه البيعة بدأ النبي صلى الله عليه وسلم يمارس ترتيب الأمور وتوزيع المسؤوليات، فقال للقوم: «أخرجوا

إليَّ منكم اثني عشر نقيبًا يكونون على قومهم، فأخرجوا منهم اثني عشر نقيبًا منهم تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس، وبعد هذه البيعة التي جاء الإذن بعدها بالهجرة، أصبح فرضًا على كل مسلم قادر أن يسهم في بناء هذا الوطن الجديد، وأن يبذل جهده في تحصينه ورفع شأنه، وأصبح ترك المدينة - بعد الهجرة إليها - نكوصًا عن تكاليف الحق، وعن نصرة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فالحياة بها دين؛ لأن قيام الدين يعتمد على إعزازها، وبهذا كانت الهجرة بداية تحول كبير في تاريخ الإسلام؛ حيث أقاموا الدولة وأصبح لهم وطن يأمنون فيه - بفضل الله - بعد أن كانوا كما وصفهم القرآن: «وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾» [الأنفال:٢٦]، ولم تكن المدينة وطنًا للمسلمين فحسب، بل صارت قاعدة انطلاق للدعوة الإسلامية، تحققت من خلالها عالمية الإسلام؛ حيث أرسل الرسول صلى الله عليه وسلم رسله وكتبه إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام، وبدأت التشريعات الربانية تترى، واستطاع النبي صلى الله عليه وسلم أن يطبقها في دولة المدينة وهو رئيسها.

يقول د/ منير البياني: «أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم جهاز الدولة الإسلامية بنفسه وأتمه في حياته، فقد كان للدولة رئيس، وكان له معاونون وولاة وقضاة وجيش، ومدير دوائر ومجلس يرجع إليه للشورى». [الدولة الإسلامية: ٢١٤].

ويقول الدكتور الدميجي: «إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام أول حكومة إسلامية في المدينة، وصار صلى الله عليه وسلم أول إمام لتلك الدولة، فبعد أن هيَّأ الله لهذا الدين من ينصره ورسوله بدأ صلى الله عليه وسلم في تشييد أركانها، فأصلح ما بين الأوس والخزرج من مشاكل وحروب طاحنة قديمة، ثم آخى بين الأنصار والمهاجرين، ونظم الجيوش المجاهدة لنشر هذا الدين والذود عن حماه، وقد أرسل الرسل والدعوات إلى ملوك الدول المجاورة يدعوهم إلى الإسلام، وعقد الاتفاقات والمعاهدات مع اليهود وغيرهم، وأبان أحكام الأسرى وما يتعلق بهم، وأحكام الحرب وأهل الذمة، وقام بتدبير بيت مال المسلمين وتوزيعه كما أمر الله عز وجل، وعيَّن الأمراء والقضاة لتدبير شئون المسلمين، وأقام الحدود الشرعية والعقوبات، إلى غير ذلك من وظائف الدولة ووظائف الإمامة».

يقول الإمام الشاطبي - رحمه الله -: «ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يحتاج إليه أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف له من أهل السنة». [الإمامة العظمى: ٥٢].

وبهذا يظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم أقام دولة، وكوَّن من المسلمين وحدة، وألف منهم دولة واحدة كان هو إمامها وقائدها صلى الله عليه وسلم، وأن الإسلام بقواعده ومبادئه يحتاج إلى دولة تطبق أحكامه، وقد أدرك هذا المعنى الصحابة الكرام - رضوان الله عليهم - فبادروا إلى حسم موضوع الخلافة قبل أن يُدفن النبي صلى الله عليه وسلم، وما ذاك إلا لمعرفتهم

إن الرسول صلى الله عليه وسلم أقام أول حكومة إسلامية في المدينة، وصار صلى الله عليه وسلم أول إمام لتلك الدولة، فبعد أن هيَّأ الله لهذا الدين من ينصره ورسوله بدأ صلى الله عليه وسلم في تشييد أركانها

بضرورة إقامة الدولة والمحافظة على كيانها من أجل إقامة الدين والمحافظة عليه، ولو كانت إقامة الدولة لا حاجة لها لما سارعوا إلى ذلك.

ومما يؤسف له أن نفرًا من المسلمين تابعوا أعداء الملة والدين، وذهبوا إلى أن الإسلام لا يدعو إلى قيام دولة؛ ليصلوا من وراء ذلك إلى فصل الدين عن الدولة!! وقد صرح بهذا الشيخ/ علي عبد الرازق فقال: «إن محمدًا صلى الله عليه وسلم ما كان إلا رسولاً لدعوة دينية خالصة للدين، لا تشوبها نزعة ملك، ولا دعوة لدولة، وأنه لم يكن للنبي صلى الله عليه وسلم ملك ولا حكومة، وأنه صلى الله عليه وسلم لم يقم بتأسيس مملكة بالمعنى الذي يفهم سياسته من هذه ومرادفاتها، ما كان إلا رسولاً كإخوانه الخالين من الرسل، وما كان ملكًا ولا مؤسس دولة، ولا داعيًا إلى ملك». [الإسلام وأصول الحكم: ١٣٦].

وأقول: حقًا إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكًا ولا داعيًا إلى مُلك، ولكنه أسس دولة عظيمة انطلقت من خلالها دعوة الإسلام، وطبقت شرع الله ودينه، وما ذكره علي عبد الرازق كلام باطل لا يمت إلى حقيقة الإسلام بصلة، ولعل ما ذكرته آنفًا يرد عليه، بل إن بعض المستشرقين يخالفه فيما ذهب إليه، ومن هؤلاء المستشرقين «جب» الذي يقول: «..عندها صار واضحًا أن الإسلام لم يكن مجرد عقائد دينية فردية، وإنما استوجب إقامة مجتمع مستقل له أسلوبه المعين في الحكم وله قوانينه وأنظمته الخاصة به».

وقد حُوكم على عبد الرازق بسبب هذا الكتاب أمام هيئة كبار العلماء، وقد أصدروا في حقه ما يلي: «حكمنا نحن شيخ الجامع الأزهر - وكان إذ ذاك الشيخ / محمد أبو الفضل - بإجماع أربعة وعشرين عالمًا معنا من هيئة كبار العلماء بإخراج/ علي عبد الرازق أحد علماء الجامع الأزهر والقاضي الشرعي بمحكمة المنصورة الابتدائية الشرعية، ومؤلف كتاب «الإسلام وأصول الحكم» من زمرة العلماء».

صدر هذا الحكم بدار الإدارة العامة للمعاهد الدينية في يوم الأربعاء ٢٢ المحرم ١٣٤٤هـ.

وبلدنا اليوم يمر بمرحلة حرجة بعد تنحي الرئيس السابق عن الحكم، وإسناد أمر البلاد إلى المجلس العسكري، وأثناء كتابة هذه السطور تجرى في المحافظات الانتخابات البرلمانية، وستجرى بعدها - إن شاء الله - انتخابات أخرى تنتهي ببناء الهيكل السياسي للدولة - بإذن الله -.

ونحن نحرص على إقامة الدولة الناجحة النافعة التي تقوم بالحق وتنشر العدل، وتطبق الشرع، وتلبي حاجات المجتمع المختلفة في كل القطاعات العلمية والتربوية، والسياسية، والاقتصادية، والإعلامية، وغير ذلك، وعندئذٍ سيسلم الله تعالى البلاد والعباد مما هي فيه من ضنك وشدة، ويعم الأمن والسلم والأمان ربوع البلاد.

نسأل الله التوفيق والسداد.

إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يكن ملكًا ولا داعيًا إلى مُلك، ولكنه أسس دولة عظيمة انطلقت من خلالها دعوة الإسلام، وطبقت شرع الله ودينه

افتتاحية العدد

الوُلاَة المقسطون على منابر من نور

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن أهمية وضرورة قيام الدولة ورعاية مصالح البلاد والعباد، وهذا يتطلب ضرورة وجود إمام أو حاكم، وهذا ما يُعرف بالسلطة التي تقوم بشئون هذه الدولة، وهو محل إجماع.

قال الماوردي: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع، وإن شذ عنهم الأصم».

[الأحكام السلطانية/ ٢٩].

والمقصود بالإجماع هنا: إجماع الصحابة - رضي الله عنهم - وهو أقوى الإجماعات وأصحها، وعليه فلا عبرة بمن شذ أو خالف، قال الغزالي: «السلطان ضروري في نظام الدين ونظام الدنيا، ونظام الدنيا ضروري في نظام الدين، ونظام الدين ضروري للفوز بسعادة الآخرة، وهو مقصود الأنبياء قطعًا، فكان وجوب الإمام من ضروريات الشرع الذي لا سبيل إلى تركه».

[الاقتصاد في الاعتقاد/ ١٩٩].

وقال أبو يعلى الفراء: «نصبة الإمام واجبة، وقد قال أحمد - رضي الله عنه - في رواية محمد بن عوف بن سفيان الحمصي: الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر الناس، والوجه فيه: أن الصحابة لما اختلفوا في السقيفة، فقالت الأنصار: منا أمير ومنكم أمير، ودفعهم أبو بكر وعمر - رضي الله عنهما - وقالوا: إن العرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ورووا في ذلك أخبارًا، فلولا أن الإمامة واجبة لما ساغت تلك المحاورة والمناظرة عليها، ولقال قائل: ليست بواجبة لا في قريش ولا في غيرهم».

[الأحكام السلطانية/ ١٩].

وعليه فقيام السلطة ووجود الإمام الحاكم من الواجبات الشرعية؛ إذ لا قيام للدين إلا بها، ليقيم شعائر الدين، وينصف المظلومين من الظالمين، وإلى جانب هذا فهي ضرورة اجتماعية للإصلاح، فلا قيام لشئون المجتمع إلا بوجود سلطة تنظم أموره وتقيم ترتيباته، ولا تصلح دنياهم وأخراهم إلا بذلك.

قال ابن تيمية: «كل بني آدم لا تتم مصلحتهم لا في الدنيا ولا في الآخرة إلا بالاجتماع والتناصر، ولهذا يقال: الإنسان مدني بطبعه، فإذا اجتمعوا فلا بد لهم من أمور يفعلونها يجتلبون بها المصلحة، وأمور يجتنبونها لما فيها من المفسدة، ويكونون مطيعين للآمر بتلك المقاصد، وللناهي عن تلك المفاسد، فجميع بني آدم لا بد لهم من طاعة آمرٍ وناهٍ».

[الحسبة: ٨].

ولا شك أن الإمامة العظمى منصب شرعي، ومن أعظم واجبات الدين، وهي قربة لمن أخذها بحقها يتقرب بها إلى الله تعالى، وقد أجمع المسلمون على أن الولاية العامة من أشرف الواجبات الشرعية، كما قال العز بن عبد السلام: «وأجمع المسلمون على أن الولايات من أفضل الطاعات، وأن الولاة المقسطين أعظم أجرًا،

وأجل قدرًا من غيرهم؛ لكثرة ما يجري على أيديهم من إقامة الحق ودرء الباطل، فإن أحدهم يقول الكلمة الواحدة، فيُدفعُ بها مائة ألف مظلمة فما دونها.. وعلى الجملة فالعادل من الأئمة والولاة والحكام أعظم أجرًا من جميع الأنام بإجماع أهل الإسلام».
[القواعد الكبرى ١/١٩٨- ١٩٩].

وقال ابن تيمية: «فالواجب اتخاذ الإمارة دينًا وقربة يتقرب بها إلى الله تعالى، فإن التقرب إليه فيها بطاعته وطاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم من أفضل القربات». [الحسبة/ ٩].

أولو الأمر هم الأئمة والسلاطين والقضاة وكل من كانت له ولاية شرعية، والأمر بطاعتهم دليل على وجوب تنصيبهم.

وقد اختلف هذا المفهوم - وللأسف الشديد - في واقعنا المعاصر حيث تهافت الكثير على الإمارة للتسلط والجباية، لا للدين والعدالة، وقد كان الصالحون على مدار التاريخ يجتنبون الولايات خوفًا على أنفسهم وصيانة لها من الوقوع في شيء من المحرمات، ومن قام بها منهم بذل جهده في تحري الحق والحكم بالعدل، وهذا واجب علينا اليوم لتعود الأمة إلى سابق عزها ومكانتها، وقد وردت أدلة كثيرة في القرآن والسنة تدل على ضرورة وجود الإمام، منها ما جاء في قول الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ» [النساء:٥٩]

وقد ذكر علماء التفسير أقوالاً متعددة في أولي الأمر، ورجحوا أن أوْلى الأقوال بالصواب في ذلك من ذهب إلى أن المراد بهم الأمراء والعلماء بحيث تجب طاعتهم فيما هو طاعة لله تعالى.

قال الشوكاني: «وأولو الأمر: هم الأئمة والسلاطين والقضاة، وكل من كانت له ولاية شرعية».[فتح القدير: ١/٤٨١].

ووجه الاستدلال من هذه الآية: أن الله تبارك وتعالى أوجب على المسلمين طاعة أولي الأمر منهم، والأمر بالطاعة دليل على وجوب نصب ولي الأمر حتى يتحقق الامتثال لهذا الأمر، فالأمر بطاعته يقتضي الأمر بإيجاده، وأحكام الشريعة والآيات الآمرة بتطبيقها والعمل بها يتوقف على وجود الدولة والإمام الذي يقوم بتطبيق هذه الأحكام، وذلك كقوله تعالى: « وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ وَٱحۡذَرۡهُمۡ أَن يَفۡتِنُوكَ عَنۢ بَعۡضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيۡكَ » [المائدة:٤٩]، كما وردت أحاديث في السنة النبوية تفيد وجوب نصب الإمام، منها ما رواه عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - عن النبي صلى الله عليه وسلم - قال: «من مات وليس في عنقه بيعة مات ميتة جاهلية». [مسلم: ١٨٥١].

والحديث يفيد وجوب نصب الإمام، لأنه إذا كانت البيعة واجبة في عنق المسلم ولا تكون إلا لإمام، فوجب إذًا وجوده، وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمروا أحدهم». وقال الألباني: حسن صحيح كما في صحيح أبي داود: ٢/٤٩٤.

قال ابن تيمية: «فإذا كان قد أوجب في أقل الجماعات وأقصر الاجتماعات أن يولّى أحدهم، كان هذا تنبيهًا على وجوب ذلك فيما هو أكثر من ذلك». [الحسبة/١١].

وفي مسند أحمد عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لتنقضن عرى الإسلام

عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم، وآخرهن الصلاة».

[مسند أحمد ٥/٢٥١].

والمقصود بالحكم، الحكم على النهج الإسلامي، ويدخل فيه بالضرورة وجود الخليفة الذي يقوم بهذا الحكم، ونقضه يعني التخلي عنه وعدم الالتزام به.

وقد قرنه بنقض الصلاة وهي واجبة، فدل على وجوبه، وقد أمر الله تعالى بأمور ليس في مقدور آحاد الناس القيام بها كإقامة الحدود، وسد الثغور، وحفظ الشريعة وصيانتها والعمل بها، ونشر العدل ودفع الظلم، وغير ذلك من الواجبات التي لا يتمكن أفراد الناس من القيام بها، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وعليه فتعيين الوالي أو الحاكم واجب، وقد ذكر ابن تيمية عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «لا بد للناس من إمارة برَّة كانت أو فاجرة، قالوا: يا أمير المؤمنين: هذه البرة قد عرفناها، فما بال الفاجرة؟ قال: يُقام بها الحدود، وتؤمَّن بها السبل، ويُجاهد بها العدو، ويقسم بها الفيء».

[الحسبة: ١٦٢].

ومن الملاحظ أن الدول التي يسقط حكامها ولو زمنًا يسيرًا تسود فيها الفوضى، وتنتهك فيها الضروريات الخمس التي دعت الشريعة إلى حفظها وهي: (الدين، والنفس، والعرض، والمال، والعقل)، وتكثر الفتن، قال الإمام أحمد بن حنبل: «الفتنة إذا لم يكن إمام يقوم بأمر المسلمين».

[طبقات الحنابلة ١/٣١١]

ورحم الله ابن المبارك القائل:

إن الجماعة حبل الله فاعتصموا
بعروته الوثقى لمن دانا

كم يدفع الله بالسلطان مظلمة
في ديننا رحمة منه ودنيانا

[الحلية لأبي نعيم: ٨/١٦٤]

ومن المسَلَّم به أن الناس في اختلاف دائم؛ لاختلاف طبقاتهم وتشتت أهوائهم، فلو خُلُّوا وشأنهم دون سلطان مطاع لاعتدى بعضهم على بعض ولهلكوا، ولذا أقول: إن الناس بحاجة شديدة إلى من يقوم على أمرهم ويسوسهم بحكم الشرع لتأمين البلاد والعباد، ورسولنا صلى الله عليه وسلم أول من أسس دولة وكان إمامًا لها، والتأسي به في ذلك أمر مطلوب، وبلدنا اليوم تمر بمرحلة خطيرة - بعد أن أسقط رئيسها السابق - وتحتاج إلى القوي الأمين الذي يتقي الله ويقود الأمة بهدي الكتاب والسنة، لا يسعى لمصلحة شخصية، ولا لمنفعة دنيوية، ولا مانع لخلو المنصب الآن من أن يتقدم من يأنس في نفسه القيام بشئون البلاد، ويحتسب أجره على الله بعد العدل والإنصاف، وهو إن فعل ذلك كان مأجورًا، ونرجو أن يشمله قول النبي صلى الله عليه

الناس بحاجة شديدة إلى من يقوم على أمرهم ويسوسهم بحكم الشرع لتأمين البلاد والعباد.

وسلم: «إن المقسطين عند الله على منابر من نور عن يمين الرحمن عز وجل، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وُلوا».

[مسلم: ١٨٢٧].

وطلب الإمارة في هذه الحالة مع صلاح النية والسعي في الإصلاح لا يتعارض مع ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم من النهي عن طلب الإمارة، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن سمرة: «يا عبد الرحمن: لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها عن مسألة وُكلت إليها، وإن أعطيتها عن غير مسألة أُعنت عليها».

[مسلم: ١٦٥٢].

ومعنى وُكلت إليها: أي: أُسلمت إليها ولم يكن معك إعانة، بخلاف ما إذا حصلت بغير مسألة، وفي الصحيحين عن أبي موسى - رضي الله عنه قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم أنا ورجلان من بني عمر، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله، أَمِّرْنا على بعض ما ولاك الله عز وجل، وقال الآخر مثل ذلك، فقال: «إنا والله لا نولي هذا العمل أحدًا سأله، ولا أحدًا حرص عليه».

[البخاري: ٧١٤٩، ومسلم: ١٧٣٣].

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «في التعبير بالحرص إشارة إلى أن من قام بالأمر عند خشية الضياع يكون كمن أُعطي بغير سؤال؛ لفقد الحرص غالبًا عمن هذا شأنه، وقد يغتفر الحرص في حق من تعين عليه؛ لكونه يصير واجبًا عليه».

[فتح الباري: ١٣/١٢٦].

وفي حديث أبي ذر - رضي الله عنه - ربط النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن طلب الإمارة بالضعف كما في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي ذر: «يا أبا ذر، إني أراك ضعيفًا وإني أحب لك ما أحب لنفسي، لا تأَمَّرَنَّ على اثنين ولا تولَيَنَّ مال يتيم».

[مسلم: ١٨٢٦].

قال النووي رحمه الله: «هذا الحديث أصل عظيم في اجتناب الولايات لاسيما لمن كان فيه ضعف عن القيام بوظائف تلك الولاية، وأن الخزي والندامة فهو في حق من لم يكن أهلاً لها، أو كان أهلاً ولم يعدل فيها فيخزيه الله تعالى يوم القيامة ويفضحه ويندم على ما فرط، وأما من كان أهلاً للولاية وعدل فيها فله فضل عظيم تظاهرت به الأحاديث الصحيحة كحديث: سبعة يظلهم الله».

[شرح النووي على مسلم: ١٢/٢١٠، ٢١١].

نسأل الله تعالى أن يهيء لنا من أمرنا رشدًا، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يرزق بلادنا الأمن والاستقرار تحت قيادة حكيمة رشيدة تخشى الله وتتقيه وتقيم شرعه ودينه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

من لم يعدل في ولايته فإن الله يخزيه ويفضحه يوم القيامة، ومن عدل وكان أهلاً لها فله عند الله فضل عظيم.

افتتاحية العدد

الأمة بين بيعات طرقية وبيعات حزبية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مالك الملك، يعطيه من يشاء، ويمنعه من يشاء، والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

البيعة: تطلق ويراد بها الصفقة على إيجاب البيع، وعلى المبايعة والطاعة والمعاهدة، والمراد بها هنا: إعطاء العهد من المبايع على السمع والطاعة للإمام في غير معصية الله، وذلك في العسر واليسر والمنشط والمكره، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه على أمور منها: البيعة على الإسلام وهي أعلى أنواع البيعة وأوجبها، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبايع الناس عليها، ومن أدلة القرآن عليها قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَىٰٓ أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِٱللَّهِ شَيْـًٔا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَٰنٍ يَفْتَرِينَهُۥ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِى مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُنَّ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾» [الممتحنة:١٢].

نكث البيعة على الإسلام كفر!!

ومن أدلة السنة عليها ما جاء عن جابر رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: «بايعني على الإسلام، فبايعه على الإسلام، ثم جاء الغد محمومًا، فقال: أقلني، فأبى، فلما ولى قال: المدينة كالكير تنفي خبثها وتنصع طيبها» [متفق عليه].

وقد دل الحديث على أن نكث البيعة على الإسلام كفر، وقد ترجم البخاري لهذا الحديث بقوله: «باب من نكث بيعة» فتح الباري (جـ١٣/٢٢٠٥).

ومن أنواع البيعة: البيعة على النصرة والمَنَعة، وقد بايع النبي صلى الله عليه وسلم وفد الأنصار عند العقبة عليها، وتعتبر هذه البيعة أول عقد في الدولة الإسلامية قامت على أساسه دولة المدينة النبوية، وقد جاء أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: «تبايعوني على السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في العسر واليسر، وعلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن تقولوا في الله لا تخافون في الله لومة لائم، وعلى أن تنصروني فتمنعوني إذا قدمت عليكم مما تمنعون منه أنفسكم وأزواجكم وأبناءكم ولكم الجنة. قال: فقمنا إليه فبايعناه». [أخرجه أحمد في مسنده ج٣/٣٢٢، والحاكم في المستدرك، وصححه ووافقه الذهبي ج٢/٦٢٤].

البيعة على السمع والطاعة للحاكم المسلم!!

وقد جاء في هذا الحديث إشارة إلى نوع آخر من أنواع البيعة، وهي البيعة على السمع والطاعة للحاكم المسلم في المعروف، وإذا أطلقت كلمة البيعة الآن انصرفت إليها، وهي التي تعنينا هنا؛ لأنه لا إمامة إلا بعد عقد البيعة، ولذلك بادر الصحابة رضي الله عنهم إليها بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وعقدوها لأبي بكر رضي الله عنه في سقيفة بني ساعدة، ثم وقعت من عامة الصحابة بعد ذلك في المسجد، وفي حديث أنس بن مالك رضي الله عنه أنه سمع خطبة عمر رضي الله عنه الآخرة حين جلس على المنبر، وذلك الغد من يوم توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فتشهد وأبو بكر صامت لا يتكلم. قال: كنت أرجو أن يعيش رسول الله صلى الله عليه وسلم - حتى يَدْبُرَنا- يريد بذلك أن يكون آخرهم، فإن يكُ محمد صلى الله عليه وسلم قد مات فإن الله تعالى قد جعل بين أظهركم نورًا تهتدون به بما هدى الله محمدًا صلى الله عليه وسلم، وإن أبا بكر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ثاني اثنين، فإنه أولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوه، وكانت طائفة منهم قد بايعوه قبل ذلك في سقيفة بني ساعدة، وكانت بيعة العامة على المنبر، فلم يزل به حتى صعد المنبر فبايعه الناس عامة. قال ابن حجر: «وكل ذلك في يوم واحد». [فتح الباري جـ١٣/٢٠٨].

وقد ذهب ابن تيمية إلى أن مبايعة أبي بكر رضي الله عنه كانت من جمهور الصحابة، حيث قال: «فالمسلمون اختاروه وبايعوه؛ لعلمهم بأنه خيرهم، كما قال له عمر يوم السقيفة بمحضر المهاجرين والأنصار: أنت سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم ينكر ذلك أحد، وهذا أيضًا في الصحيحين». [منهاج السنة ج٢/٥١].

الخلافة والاستخلاف

وبيعة أبي بكر بالطريقة المذكورة تدل على أن المسلمين رشحوه للخلافة ورضوا به، وهذه طريقة تنعقد بها الإمامة، أما تولية أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه فوقعت بطريق الاستخلاف؛ حيث استخلفه الصديق - رضي الله عنه - وهي طريقة صحيحة إذا كان المستَخْلَفُ مكتمل الشروط، وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه كذلك، فلم يجد أبو بكر رضي الله عنه مثل عمر ليتحمل هذه الأمانة، وهي قيادة الأمة، وقد كان أفضل الصحابة في وقته.

قال ابن عمر - رضي الله عنهما -: «كنا نخير بين الناس في زمن النبي صلى الله عليه وسلم، فنخير أبا بكر، ثم عمر بن الخطاب، ثم عثمان بن عفان رضي الله عنهم». [البخاري ٣٦٥٥].

قال الإمام أحمد: «وخير الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم أبو بكر، وعمر بعد أبي بكر». [رسالة السنة ٨٧].

الأدلة على جواز الاستخلاف

وقد استدل العلماء على جواز استخلاف الإمام لأحد بعده بحديث عائشة رضي الله عنها: قالت: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرضه: «ادعي لي أبا بكر وأخاك حتى أكتب كتابًا، فإني أخاف أن يتمنى متمن ويقول قائل: أنا أولى، ويابى الله والمؤمنون إلا أبا بكر». [مسلم: ٢٣٨٧].

ومن الأدلة على جواز الاستخلاف إجماع الصحابة، فلم تذكر الروايات أحدًا خالف وقال: عهد أبي بكر لعمر لا يجوز، وقد حكى هذا الإجماع الماوردي فقال: «وأما انعقاد الإمامة بعهد مَن قبله فهو مما انعقد الإجماع على جوازه، ووقع الاتفاق على صحته». [الأحكام السلطانية/ ٣٩].

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أبا بكر - رضي الله عنه - استشار أفاضل الصحابة في ترشيح عمر للخلافة، ولم يفرضه عليهم فرضًا، بل اجتهد في النصيحة لهم بعد مشورتهم، وهذا ما تؤكده الروايات التاريخية في ذلك. يقول ابن الأثير: «لما نزل بأبي بكر -رضي الله عنه- الموت دعا عبد الرحمن بن عوف فقال: أخبرني عن عمر، فقال: يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم، عمر أفضل رجل إلا أنه فيه غلظة، فقال أبو بكر: ذلك لأنه يراني رفيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو عليه، وقد رمقته فكنت إذا غضبت على رجل أراني الرضا عنه، وإذا لنت له أراني الشدة عليه، ودعا عثمان بن عفان وقال له: أخبرني عن عمر، فقال: سريرته خير من علانيته وليس فينا مثله». [الكامل ص٢٩١، ٢٩٢].

وهذا يدل على ترشيح أهل الحل والعقد لعمر رضي الله عنه ورضاهم به، وأن خلافته وقعت عن رضًا منهم وبايعوه.

قال ابن كثير وهو يتحدث عن نهاية عهد الصديق ومرضه: «وفي أثناء هذا المرض عهد بالأمر من بعده إلى عمر بن الخطاب، وكان الذي كتب العهد عثمان بن عفان، وقرئ على المسلمين فاقروا به وسمعوا له وأطاعوا». [البداية والنهاية ١٨/٤].

بيعة عثمان بن عفان رضي الله عنه

وأما عن بيعة عثمان رضي الله عنه فقد ساقها البخاري في

من أنواع البيعة: البيعة على النصرة والمنعة، وقد بايع النبي ﷺ وفد الأنصار عند العقبة عليها، وتعتبر هذه البيعة أول عقد في الدولة الإسلامية قامت على أساسه الدولة في المدينة النبوية !!

صحيحه في حديث طويل تحت باب بعنوان: «باب قصة البيعة والاتفاق على عثمان رضي الله عنه، وفيه بعد ذكر طعن عمر رضي الله عنه ودخول كثير من الناس عليه أنهم قالوا له: «أوْصِ يا أمير المؤمنين استخلف. قال: ما أحد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر - أو الرهط - الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض، فسمى عليًا وعثمان والزبير وطلحة وسعدًا وعبد الرحمن، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر، وليس له من الأمر شيء - كهيئة التعزية له -، فإن أصابت الإمرة سعدًا فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمّر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة..»، فلما فرغ من دفن عمر رضي الله عنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبد الرحمن: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، فقال طلحة: قد جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: قد جعلت أمري إلى عبد الرحمن بن عوف، فقال عبد الرحمن: أيكما تبرأ من هذا الأمر فنجعله إليه، والله عليه والإسلامُ لينظرنَّ أفضلهم في نفسه؟ فأسكت الشيخان، فقال عبد الرحمن: أفتجعلونه إليَّ، واللهُ عليَّ لا آلو عن أفضلكم؟ قالا: نعم، فأخذ بيد أحدهما: فقال: لك قرابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لأن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن، ثم خلا بالآخر فقال: مثل ذلك، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك يا عثمان، فبايعه، فبايع له عليّ، وولج أهل الدار فبايعوه. [البخاري: ٣٧٠٠].

وهكذا تمت البيعة لعثمان رضي الله عنه بإجماع الصحابة، قال الإمام أحمد: «لم يجتمعوا على بيعة أحد ما اجتمعوا على بيعة عثمان». وسُئل عن خلافة النبوة فقال: «كل بيعة كانت بالمدينة». وعقب الإمام ابن تيمية على ذلك بقوله: وهو كما قال، فإنهم كانوا في آخر ولاية عمر أعز ما كانوا وأظهر ما كانوا قبل ذلك». [منهاج السنة النبوية ج٦/١٥٤].

جواز العهد دون تعيين المعهود إليه

ويُستفاد من قصة تولية عثمان رضي الله عنه: جواز العهد إلى أشخاص معينين دون تعيين المعهود إليه بعينه، ويرى ابن تيمية أن السبب في عدم التعيين رعاية المصلحة، وشدة ورع عمر رضي الله عنه. [منهاج السنة ج٦/١٤٧].

وبعد استشهاد الخليفة الصابر عثمان رضي الله عنه تولى الخلافة والإمارة علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وقد أتى إليه جمع من المهاجرين والأنصار وفيهم طلحة والزبير، وقالوا له: إنه لا بد للناس من إمام. قال: لا حاجة لي في أمركم، فمن اخترتم رضيت به، فقالوا: ما نختار غيرك وترددوا إليه مرارًا، وقالوا له في آخر ذلك: إنا لا نعلم أحدًا أحق به منك ولا أقدم سابقة ولا أقرب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال: ففي المسجد فإن بيعتي لا تكون خفية، ولا تكون إلا في المسجد. [انظر الكامل لابن الأثير ٣/٩٨].

وقد ذكر الطبري في تاريخه روايات متعددة تفيد أن الصحابة - رضوان الله عليهم - رشحوا عليًا للخلافة وبايعوه عليها. [انظر ج٥/٤٢٧- ٤٨٦].

وخلافته رضي الله عنه خلافة راشدة صحيحة، وهو آخر الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - ويلاحظ من الروايات أن عليًا رضي الله عنه لم يكن حريصًا على الإمارة، وإنما قبلها بعد

البيعة على السمع والطاعة للحاكم المسلم في المعروف، وإنه لا إمامة إلا بعد عقد البيعة، ولذلك بادر الصحابة رضي الله عنهم بعقد البيعة لأبي بكر رضي الله عنه بعد وفاة النبي ﷺ

إلحاح كثير من الصحابة عليه؛ خوفًا من ازدياد الفتن بعد مقتل عثمان رضي الله عنه.

وبعد سردي التاريخي لبيعة الخلفاء الراشدين، وهم أفضل الأمة بإطلاق بعد النبي صلى الله عليه وسلم، يتبين لنا كيف تمت البيعة لهم، وهي دائرة بين ترشيح أهل الحل والعقد بالاختيار، أو الاستخلاف، وفي كل الأحوال كانت تقع البيعة للإمام بموافقة أهل الحل والعقد، كما يظهر لنا أن البيعة بيعة واحدة في الإمامة العظمى لا غيرُ.

بيعة أصحاب الطرق لمشايخهم بيعة باطلة مبتدعة!!

وإن بيعة أصحاب الطرق «لمشايخهم» وما يحدث في بعض الجماعات المعاصرة بيعة باطلة مبتدعة لا أصل لها في الشرع، ومخالفة لهدي النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار - رضوان الله عليهم أجمعين - وعليه فيجب الحذر منها أو الوقوع فيها، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله يحذر منها فيقول: «وليس للمعلمين أن يحزّبوا الناس، ويفعلوا ما يلقي بينهم العداوة والبغضاء، وليس لأحد منهم أن يأخذ على أحد عهدًا بموافقته على كل ما يريده، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، بل من فعل هذا كان من جنس جنكيز خان وأمثاله الذين يجعلون من وافقهم صديقًا مواليًا، ومن خالفهم عدوًا باغيًا، بل عليهم وعلى أتباعهم عهد الله ورسوله بأن يطيعوا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم». [مجموع الفتاوى: ٢٨/١٥، ١٦].

وللشيخ بكر أبي زيد رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا المعنى يقول فيها: «فاعلم أن في الإسلام بيعة واحدة في الإمامة العظمى، هي البيعة الجامعة، تنعقد بموافقة أهل الشوكة والحل والعقد في الأمة، سواء حصلت تلك البيعة بطريق محبوب إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كبيعة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أو بطريق الغلبة، وهذه هي التي يحصل بها للإمام ولي أمر المسلمين مقاصد الولاية: القدرة، والسلطان، والشوكة، والمنعة، فيقيم حكم الإسلام، كإقامة الحدود وقسمة الأموال، ونصب الولاة...، وما زال أمر الأمة على هذا ماضيًا فجرَّت بدعة الطرقية (البيعة الرضائية)، ويقال: (البيعة الاستثنائية)، ويقال: (عهد المشايخ)، ويقال: (عقد الطريق)، ويقال: (ميثاق الطريق)، وهذه بيعة محدثة، لا دليل عليها من كتاب ولا سنة ولا عمل صحابي، وقد أنكرها جماعة من العلماء، وشددوا النكير على فعلتها، وأنه لا أصل لها، ثم انتقلت بمسلاخ آخر إلى بعض الجماعات الإسلامية المعاصرة، حتى بلغ الحال إلى وجود عدة جماعات من ورائها عدد من العهود والبيعات في بلد واحد، وكل واحدة منها تدعو إلى ما هي عليه دون ما عليه الأخرى، فضاع من بينهم الميثاق النبوي لجماعة المسلمين: «ما أنا عليه وأصحابي»، وهكذا تقطع جسم الأمة بين بيعات طرقية في أجواف الزوايا إلى بيعات حزبية في المواجهة، وصار الشباب في حيرة إلى أي حزب ينتمي، ولأي رئيس تنظيم يبايع، والبيعة عهد وعقد يقتضي الولاء والبراء». [حكم الانتماء ١٦١، ١٦٣].

نسأل الله أن يعصمنا من الزلل، وأن يولي أمورنا خيارنا، ولا يولي أمورنا شرارنا، وأن ينجينا من الفتن ما ظهر منها وما بطن.

استدل العلماء على جواز استخلاف الإمام لأحد بعده بحديث عائشة رضي الله عنها، وقد استشار أبو بكر رضي الله عنه أفاضل الصحابة في ترشيح عمر للخلافة، ولم تفرض عليهم فرضا!!

الاستراتيجية العشرون

الحقد النصيري على أهل السنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله الملك القدوس، بيده مقاليد كل شيء وهو على كل شيء قدير، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم عليه وعلى آله وأصحابه.. وبعدُ:

فإن مذهب الباطنية من أخبث المذاهب وأفسدها، وهم أعدى أعداء الأُمة الإسلامية في الماضي والحاضر، ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة، فكم تامروا على المسلمين، وسفكوا دماءهم!! بل مكّنوا لأعدائهم من الاستيلاء على بلادهم، وقد تولى كِبَر الدعوة إلى الباطنية فريقان:

الأول: فريق المنافقين الذين ضعفت نفوسهم عن قبول الإيمان وما استطاعوا الدخول فيه، فأعلنوا في الظاهر إسلامهم، وأخفوا عداوتهم وضلالاتهم له تحت ستار حب آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم.

والفريق الثاني: أعداء الإسلام من اليهود والنصارى الذين غاظهم انتشار الإسلام وسمو دعوته، فوقفوا مع الفريق الأول متآزرين متعاونين للنيل من الإسلام والمسلمين.

وقد ذكر البغدادي - رحمه الله - شدة عداوة فرق الباطنية للإسلام، وبيَّن أن ضررهم أخطر وأعظم من سائر الكفار فقال: «اعلموا - أسعدكم الله - أن ضرر الباطنية على فِرَق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مضرة الدهرية وسائر أصناف الكفرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوة الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدتها على أربعين يومًا، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر». [الفرق بين الفرق: ٢٨٢].

قلتُ: رحم الله البغدادي، ينكر هذا عن ضررهم وقد توفي في القرن الخامس، فماذا يكون حاله وقوله لو رآهم الآن؟! وهم أشد وأعظم ضررًا وفتكًا، ويؤكد ابن تيمية - رحمه الله - على عداوتهم المفرطة للإسلام وأهله، ويبيّن شيئًا من أفعالهم المنكرة فيقول: «ولهم في معاداة الإسلام وأهله وقائع مشهورة وكُتب مصنَّفة، فإذا كانت لهم مُكنَة سفكوا دماء المسلمين، كما قتلوا مَرَّة الحُجَّاج في بئر زمزم، وأخذوا مرة الحجر الأسود وبقي عندهم مدة، وقتلوا من علماء المسلمين ومشايخهم ما لا يحصي عدده إلا الله تعالى، وصنَّف علماء المسلمين كتبًا في كشف أسرارهم وهتك أستارهم، وبينوا فيها ما هم عليه من الكفر والزندقة والإلحاد الذين هم به أكفر من اليهود والنصارى، ومن براهمة الهند الذين يعبدون الأصنام.

ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانقهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ثم إن التتار ما دخلوا بلاد المسلمين وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤازرتهم». [مجموع الفتاوى: ج٣٥/ ١٥٠، ١٥١].

والنصيرية التي أود الحديث عنها هنا هي حركة باطنية غالية ظهرت في القرن الثالث الهجري أتباعها من الشيعة الغلاة الذين يزعمون أن عليًا - رضي الله عنه - فيه جزء إلهي، وأنه يحل في أئمتهم الواحد بعد الآخر، وتنتسب هذه الطائفة إلى رجل يسمى «محمد بن نصير النميري»، وكنيته أبو شعيب، وإليه تنسب تلك النِّحْلَة فيقال: «النصيرية»، وهذا الرجل كان شيعيًا مغاليًا من الاثنى عشرية، وأصله من بلاد فارس، وقد عاصر مؤسسي هذه الفرقة ثلاثة من أئمة الشيعة وهم «علي الهادي» الإمام العاشر، و«الحسن العسكري» الحادي عشر، و«محمد المهدي»

الثاني عشر على حسب زعمهم، وهو إمام موهوم لا وجود له، وقد بدأت ضلالات ابن نصير حين زعم أنه الباب للإمام الغائب الثاني عشر عند الشيعة، ومعناه عندهم: أنه وارث علمه ونائبه، وقد قامت هذه الخرافة عندهم بناءً على معتقدهم الفاسد، وهو أن الزمان لا يخلو من وجود إمام معصوم يتولى تصريف شئون الناس، وإلا لتعطلت الحياة بزعمهم، ولما كان الإمام مختفيًا غير ظاهر، فكان لا بد من باب إليه يكون حلقة الاتصال بين الناس والإمام المزعوم المستور، فكان هو «ابن نصير» ثم زعم هذا الضال النبوة والرسالة لنفسه، قال عنه عبد الحسين العسكري: «وقال ابن نصير: بربوبية أبي الحسن العسكري، وزعم أنه نبي ورسول بعثه أبو الحسن». [العلويون، ص ١٥].

وقد تبنى أفكار ابن نصير من خلفوه على ضلالاته، بل زادوا عليها، ومن أشهر هؤلاء «عبد الله بن محمد الجنبلاني» نسبة إلى بلدة «جنبلا» في العراق، وكان ذا علم وفلسفة وتصوف، فأسس الطريقة الجنبلانية التي سعى فيها إلى إدخال كثير من الناس فيها، وأصبحت صفة «الجنبلانية» تعادل صفة «العلوية»، وقد أصبحت النصيرية في عصره تجمع بين ثلاث عقائد هي: التشيع، والاعتزال، والتصوف، وقد نشأ في مدرسة الجنبلاني «حسين بن حمدان الخصيبي» الذي كان قد التقى بشيخه حين زار مصر، وتعلق به ودخل في طريقته، ورحل في إثره واستقر عنده حتى ذاع صيته، وبعد وفاة شيخه «عبد الله الجنبلاني» تقلد الخصيبي زعامة النصيريين من بعده، وقد كان له تأثير قوي وواضح في الدعوة إلى النصيرية، وقد رحل إلى كثير من البلاد كبغداد وخراسان وديار ربيعة وتغلب، ومن هنا صار ألمع رؤساء النصيرية وأكثرهم أثرًا في تثبيتها، حتى صار يلقب بـ «شيخ الدين»، وقد نظم وسائل الدعاية للمذهب وألف فيه كتبًا كثيرة ملأها بكثير من الضلال، ومن كتبه: «الهداية الكبرى» وأسماء الأئمة، والإخوان». وقد ذكر ابن حجر أنه صنف في مذهب النصيرية واحتج لهم، وكان يقول بالتناسخ والحلول. [لسان الميزان ج٢/٣٤٤].

ولقد تناوب على رئاسة النصيرية بعد الخصيبي عدد من الرؤساء الذين لم يبلغوا شاوه من أمثال: «محمد بن علي الحلبي» و«أبي سعيد الميمون الطبراني» الملقب بشيخ الديانة العلوية، و«حسن المكزون النجاري»، ويعد النجاري هذا من أقوى رؤسائهم، وقد ضعفت النصيرية بعد وفاته.

يقول الدكتور سليمان الحلبي عن النصيريين بعد وفاته: «وبعد وفاة الحسن المكزون تفرق النصيريون إلى عدة مراكز دينية غير مرتبطة ببعضها البعض، يتبوأ كلاً منها مرجع ديني يطلقون عليه لقب الشيخ، واستقل كل شيخ برئاسة مركز صغير إلى أن استطاعوا بالأمس القريب وفي غفلة المسلمين في سوريا وغيرها من السيطرة على نظام الحكم في سوريا، فعادت لهم سطوتهم وقوتهم مرة أخرى يتحكمون بها في رقاب المسلمين». [طائفة النصيرية/٤٢].

وأشهر شخصيات هذه الطائفة في العصر الحديث المدعو «سليمان أفندي الأنني» المولود سنة خمسين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبوية في أنطاكية، وقد تلقى تعاليم هذه الطائفة حتى صار من علمائهم، لكنه اعتنق النصرانية وألف كتاب «الباكورة السليمانية» كشف فيه عقائد وأسرار النصيريين التي لا يُظهرونها لأي أحد، وقد دفعهم ذلك إلى استدراجه إلى اللاذقية بعد أن طمأنوه، ثم وثبوا عليه وقتلوه خنقًا بإحدى الساحات هناك، وهذه الطائفة الباطنية عُرفت عبر تاريخها الطويل باسمها الأصلي وهو «النصيرية» نسبة إلى ابن نصير كما تقدم ذكره، غير أن بعض الباحثين وهو المستشرق «ريسو» ذهب إلى أن تسميتهم بذلك ترجع إلى وجود صلة ومشابهة كبيرة بينهم وبين النصارى في التقاليد والطقوس والأعياد، وتقديس كل منهم للخمر

النصيريون فريق من المنافقين ضعفت نفوسهم عن قبول الإيمان وما استطاعوا الدخول فيه، فأعلنوا في الظاهر إسلامهم، وأخفوا عداوتهم وضلالاتهم تحت شعار حب آل البيت!!

والوقوف إلى جانب بعضهم البعض في الأوقات الحرجة، وما ذكره المستشرق «ريسو» عنهم في سبب تسميتهم بالنصيرية يؤيده ما ذكره الدكتور «حسن إبراهيم» الذي يقول: «وثمة تفسير آخر لا يزال مألوفًا عند السُّنيين الذين يجاورونهم، وهو أن لاسمهم صلة بلفظ «نصراني أو نصارى»، ومما يزكي هذا التفسير أن النصيرية لا يزالون يمارسون بعض طقوس النصارى، كالاحتفال ببعض الأعياد النصرانية مثل: عيد الميلاد، وعيد الفصح، ويعتبرونها من الأعياد الكبرى، كما أن بعضهم يحمل أسماء نصرانية مثل: «متى، ويوحنا، وهيلانة»، وبالإضافة إلى المبادئ التي اقتبسها النصيرية من النصرانية، فإن ديانتهم تحتفظ بقسط وافر من الأسرار، وما تزال تحتفظ بمعالم واضحة تنبئ عن معتقداتهم التي هي مزيج من عناصر غير متجانسة تمامًا، كما تقوم على أساس نظام ديني يتصل بعبادة النجوم والكواكب، وقد اقتبست هذه التعاليم في القرون الأولى للعصر المسيحي بعض المبادئ الروحية عند المسيحيين، ويقوم نظام النصيرية على التجسد، ويدور حول هذه الأسماء الثلاثة التي تكوّن التثليث الشبيه بتثليث النصارى، ويتمتع هؤلاء بالوحدانية والخلود، وهذه الأسماء الثلاثة التي يرمزون إليها في قائمة مذهبهم هي التي تكوّن تثليثًا شبيهًا بالتثليث الكائن في النصرانية، ويرمز إلى هذا التثليث عند النصيرية بحروف (ع. م. س) ويقولون: إن الله حلّ في ثلاثة هم: علي ويرمزون إليه بالمعنى، ومحمد ويرمزون إليه بالاسم، وسلمان الفارسي ويرمزون إليه بالباب». [تاريخ الإسلام السياسي (ج٤/٢٦٥)].

وفي أوائل القرن العشرين تكون في سوريا حزب سياسي اسمه: «حزب الكتلة الوطنية» وكان النصيريون في ذلك الوقت لهم تأثير سياسي في البلاد، فأراد مؤسسو حزب الكتلة الوطنية أن يضموا النصيريين إلى حزبهم ليضمنوا أصواتهم وتأييدهم فأطلقوا عليهم اسم «العلويين» نسبة إلى الإمام علي رضي الله عنه، وقد شاركت فرنسا في إطلاق هذا الاسم عليهم، بل أسسوا لهم دولة أطلقت عليها «دولة العلويين»، وقد أعجب النصيريون بهذا الاسم، وأصبح منذ ذلك الوقت عَلَمًا عليهم، واضحوا يحرصون عليه جدًا، ويرفضون اسمهم الأصلي، وقد تمكنت هذه الطائفة من التسلل إلى الأحزاب السياسية في سوريا، واستطاعوا من خلال بعض التكتلات الحاقدة على الإسلام والمسلمين كالبعثيين والقوميين أن يستولوا على الحكم في سوريا، وما زال نفوذهم وتمكنهم في البلاد حتى الآن، وقد عاثوا في الأرض فسادًا، وتربصوا بأهل السنة الدوائر، فلا تمر فرصة أو مناسبة إلا أوقعوا بهم أشد ألوان الفتك والتعذيب، وقد تحولوا في الفترة الأخيرة إلى وحوش ضارية على المسلمين أصحاب العقيدة الصحيحة في بلادهم، وأقرب مثال إلى ذلك ما يجري الآن من هؤلاء في سوريا، من قتل للأبرياء وسفك للدماء، ونال ذلك الرجال والنساء، بل والأطفال دون رحمة أو لين، وكم ذهب جراء ذلك أنفس كثيرة، وما من فتنة تثور ضد المسلمين من أهل السنة إلا وهؤلاء النصيريون في خندق واحد مع عدو المسلمين ضد المسلمين، وموقف الرافضة في إيران وحزب الله في لبنان دليل واضح على ذلك.

إن الأعمال التي تجري في سوريا اليوم من هؤلاء النصيريين ضد شعبهم الأعزل دون رحمة أو هوادة وجدت استحسانًا وتأييدًا كبيرًا من كل هذه الطوائف الباطنية المنحرفة، وما يقومون به اليوم في سوريا هو ديدنهم على مدار التاريخ، وهذا شيخ الإسلام ابن تيمية الذي عرفهم عن قرب ووقف على كفرهم وضلالهم يذكر ذلك عنهم فيقول: «هؤلاء القوم المسمون بالنصيرية هم وسائر أصناف القرامطة الباطنية أكفر

إن الأعمال التي تجري في سوريا اليوم من هؤلاء النصيريين ضد شعبهم الأعزل دون رحمة أو هوادة وجدت استحساناً وتأييداً من كل الطوائف الباطنية المنحرفة وما يقومون به اليوم في سوريا هو ديدنهم على مدار التاريخ

من اليهود والنصارى، بل وأكفر من كثير من المشركين، وضررهم على أمة محمد صلى الله عليه وسلم أعظم من ضرر الكفار المحاربين، مثل كفار التتار والفرنج وغيرهم، فإن هؤلاء يتظاهرون عند جهال المسلمين بالتشيع وموالاة أهل البيت، وهم في الحقيقة لا يؤمنون بالله، ولا برسوله، ولا بكتابه، ولا بأمر ولا نهي، ولا ثواب ولا عقاب، ولا جنة ولا نار، ولا بأحد من المرسلين قبل محمد صلى الله عليه وسلم، ولا بملة من الملل السالفة، بل يأخذون كلام الله ورسوله المعروف عند علماء المسلمين يتأولونه على أمور يفترونها، يدّعون أنها علم الباطن». [مجموع فتاوى ابن تيمية ج٣٥/١٤٩].

وبعد هذا العرض الموجز اليسير عن هذه الطائفة وبعض أفعالها أوجه نداءً إلى كل مسلم صادق بالوقوف مع إخوانه في سوريا بقدر ما يستطيع وأقله الدعاء لهم والحزن على ما أصابهم، وعلى حكام المسلمين ضرورة بذل مزيد من الجهد والتصدي للحكم الجائر الظالم في سوريا، ونحن نعلم ونوقن أن غيرنا لن يدافع عنا، أو يسعى لحل أزماتنا، فلنستعن بالله تعالى، ولنأخذ بالأسباب المتاحة لنصرة إخواننا، وهذا حق على كل مسلم.

فإن القلب ليحزن وإن العين لتدمع على ما يحدث لإخواننا في بلاد الشام، من قمع ووحشية، تضيف إلى معاناة الشعب السوري في المجالين الاقتصادي والاجتماعي ما يفيض به الكيل، فإن الملايين من أبناء الشعب السوري يعيشون تحت خط الفقر. والبطالة اكتسحت البلاد وخاصة بين الشباب. والركود الاقتصادي أثقل كاهل الناس وخاصة الفقراء وذوي الدخل المحدود وحتى متوسطي الدخل وهم قلة في سورية، وانتشر الفساد لدرجة تفوق الوصف.

وإن المطلع على المقاطع المسربة من قطعان الأمن والشبيحة في سوريا يجد أن الأمن السوري والشبيحة قد أوغلوا في دماء السوريين أيما إيغال، لا فرق بين رجل وامرأة وطفل، سفح دماءهم على مرأى من العالم ومسمع، بل لا يزال يدك المنازل بالمدافع على رؤوس من فيها، ويقتل الرجال صبرًا، ويعذب المسلمين في معتقلاته بأبشع أنواع التعذيب وأقذره، ويحتجز النساء، وينتهك الأعراض، ويسلط شبيحته ورجال أمنه ليعيثوا في الأرض فسادًا، وكل ذلك من أجل البقاء في سدة الحكم، وشعبه قد لفظه، معتمدًا على بطانة سيئة يشرعون له سفك الدماء وقتل الأبرياء.

إن الشعب السوري المسلم الأبي قد رفض القهر والذل والحرمان والعبودية، وتعب من ويلات الغربة والبعد عن الوطن، وشق عليه ما يرى من الصد عن دين الله وتهجير العلماء على مدى أربعة عقود؛ والمتابع لهذه الأزمة يرى مدى حقد النظام على هؤلاء الرجال -من أئمة وخطباء- صدعوا بكلمة الحق فكانت سببًا في اعتقالهم وتعذيبهم بشتى صنوف العذاب التي لا تخطر على قلب بشر ثم قتلهم شر قتلة، خلا بعض الكبار الذين يحسب لهم النظام ألف حساب.

ولقد بلغ من عتو هذا النظام الإجرامي أنه قام بقصف المساجد والمآذن حقدًا على دين الله وكرهًا له، وهي نهايته بإذن الله، فقد قال أعز من قال: « وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ ۚ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾» [البقرة:١١٤].

فاللهم أعز الإسلام والمسلمين، وأذل الشرك والمشركين، ودمر أعداء الدين، وانصر عبادك الموحدين، واجعل اللهم هذا البلد آمنًا مطمئنًا وسائر بلاد المسلمين. أسأل الله تعالى أن يسلم بلاد المسلمين، وأن يقطع دابر المجرمين، والحمد لله رب العالمين.

نوجه النداء لكل المسلمين في العالم بالوقوف الي جانب إخوانهم في سوريا بقدر ما يستطيعون ، وأقله الدعاء لهم والحزن على ما أصابهم ، وعلى حكام المسلمين بذل مزيد من الجهد ، والتصدي للحكم الجائر الظالم في سوريا، ونحن نعلم أن غيرنا لن يدافع عنا !!

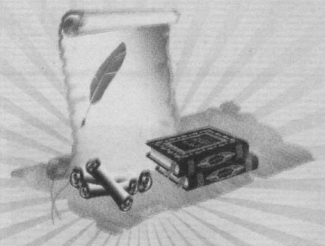

افتتاحية العدد

سعادة الدارين في التمسك بالتوحيد

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، أما بعدُ:

فإن سائر الناس يلهثون وراء السعادة، غير أنهم يختلفون في الطرق الموصلة إليها، فبعضهم يرى أن السعادة في مال يجمعه، أو منصب يتقلده، أو جاه يحصل عليه، أو قصر يشيّده، وما إلى ذلك.

والأمر ليس كذلك؛ لأن السعادة الحقيقية في تقوى رب البرية، وطاعته، وصدق الإيمان به.. والتقوى المرادة: هي التقوى القائمة على التمسك بكتاب الله وهدي رسول الله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم.

وقوامها: التوحيد، والصدق في الأقوال والأعمال، ونتائجها: السعادة في الدارين، وبعض بلاد المسلمين اليوم تمر بأزمات حقيقية لا مخرج منها إلا بعودة صادقة إلى الله تعالى، والتمسك بما جاء من عنده سبحانه، والتضرع والتزلف بين يديه، قال الله تعالى: «فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُواْ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» [الأنعام: ٤٣]. أي: هلا رجعوا إلى الله بالتوبة والإنابة والخشية والتضرع عند نزول البأس والشدة بهم، وصدق الله إذ يقول: «فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ» [طه: ١٢٣].

والمراد من اتباع الهدى هنا: اتباع الكتاب والسنة، ومن اتبعهما سلم من الضلال والشقاء في الدنيا والآخرة قال أبو السعود: «ووضع الظاهر موضع المضمر في قوله: «هداي» مع الإضافة إلى ضميره تعالى، لتشريفه والمبالغة في إيجاب اتباعه».

وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس أنه قال في معنى الآية: «لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة». [تفسير ابن كثير ٣/٢٣٣].

ويذكر ابن الجوزي رحمه الله تغير الزمان والأحوال بالعباد، ويبين أن السلامة من كل ذلك بتقوى الله على كل حال فيقول: «اعلم أن الزمان لا يثبت على حال كما قال عز وجل: «وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ» [آل عمران: ١٤٠]»، فتارة فقر وتارة غنى، وتارة عز وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي.

فالسعيد من لازم أصلاً واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عز وجل، فإن استغنى زانته، وإن افتقر فتحت له باب الصبر، وإن عوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتلي حملته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه أو أشبعه أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأحوال تزول وتتغير، والتقوى أصل للسلامة وحارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويوقف على الحدود، ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم». [صيد الخاطر: ١٦٤، ١٦٥].

وهذا كلام نفيس يصدقه كتاب الله تعالى: «وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٢- ٣]، وهذا المذكور لا يتأتى للعبد إلا إذا حقق التوحيد لله، وبقي على أصل فطرته التي خلقه الله عليها، كما في حديث أبي هريرة، في الصحيحين

أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه، كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء؟» [متفق عليه]، ثم يقول أبو هريرة: اقرءوا إن شئتم: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » [الروم: ٣٠].

ويقرر ابن تيمية أن الأمن والسرور وغيرهما أمور تتحقق بالتوحيد والإخلاص، فيقول: «والعبد إذا أنعم الله عليه بالتوحيد، فشهد أن لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه، والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية بالإجلال والإكرام، والخوف والرجاء، والتوكل عليه، وسؤاله عما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه - حلاه الله بالأمن والسرور والحبور، والرحمة للخلق، والجهاد في سبيل الله، فهو يجاهد ويرحم، له الصبر والرحمة، قال الله تعالى: «وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ» [البلد: ١٧]، وكلما قوي التوحيد في قلب العبد قوي إيمانه وطمأنينته، وتوكله ويقينه». [مجموع الفتاوى جـ٢٨/٣٥].

وقد تناول الإمام ابن القيم رحمه الله في مواطن من كتبه أنواع السعادة والطرق الموصلة إليها وأهلها المستحقين لها، فقال: «أنواع السعادة التي تؤثرها النفوس ثلاثة: سعادة خارجية عن ذات الإنسان، بل هي مستعارة له من غيره تزول باسترداد العارية، وهي سعادة المال والجاه وتوابعها فبينما المرء بها سعيدًا ملحوظا بالعناية مرفوعاً بالأبصار، إذ أصبح في اليوم الواحد أذل من وتد بقاع يشج رأسه، فالسعادة والفرح بهذه كفرح الأقرع بجمة ابن عمه، والجمال بها كجمال المرء بثيابه وزينته. والسعادة الثانية: سعادة في جسمه وبدنه، كصحته واعتدال مزاجه، وتناسب أعضائه، وحسن تركيبه، وصفاء لونه، وقوة أعضائه، فهذه ألصق به من الأولى، ولكن هي في الحقيقة خارجة عن ذاته وحقيقته، فإن الإنسان إنسان بروحه وقلبه لا بجسمه وبدنه، كما قيل:

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته
فأنت بالروح لا بالجسم إنسان

فنسبة هذه إلى روحه وقلبه كنسبة ثيابه ولباسه إلى بدنه، فإن البدن أيضًا عارية للروح وآلة لها ومركب من مراكبها، والسعادة الثالثة: وهي السعادة الحقيقية، وهي سعادة نفسانية روحية قلبية، وهي سعادة العلم النافع ثمرتها، فإنها هي الباقية على تقلب الأحوال، والمصاحبة للعبد في جميع أسفاره وفي دوره الثلاث: دار الدنيا، ودار البرزخ، ودار القرار، وبها يترقى في معارج الفضل ودرجات الكمال. أما الأولى: فإنها تصحبه في البقعة التي فيها ماله وجاهه، والثانية: فعرضة للزوال والتبدل، والثالثة: التي كلما طال عليها الأمد ازدادت قوة وعلوًا، وإذا عدم المال والجاه، فهي مال العبد وجاهه، وتظهر قوتها وأثرها بعد مفارقة الروح البدن إذا انقطعت السعادتان الأوليان، وهذه السعادة لا يعرف قدرها ويبعث على طلبها إلا العلم بها، فعادت السعادة كلها إلى العلم وما يقتضيه، والله

السعادة الحقيقية في تقوى رب البرية وطاعته ، وصدق الإيمان به، والسعيد من لازم أصلاً واحداً على كل حال وهو تقوى الله عز وجل فإن استغنى زانته وإن افتقر فتحت له باب الصبر، وإن عُوفي تمت النعمة عليه، وإن ابتُلي حمته، ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد !!

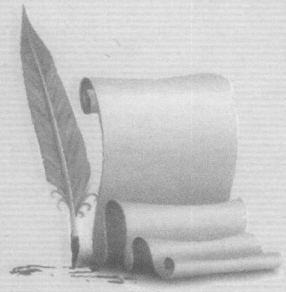

يوفق من يشاء، لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع» [مفتاح دار السعادة ١/١٥٦].

قُلْتُ: وهذا كلام نفيس يبين معنى السعادة الحقة، والطريق الصحيح إلى تحقيق هذه السعادة بعد الإيمان الصحيح هو العمل الصالح والعبودية الحقة لله وحده دون سواه، وقد ربط الله عز وجل بين الإيمان والعمل الصالح في كثير من الإيمان وعلق السعادة بهما. قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [البقرة: ٦٢].

والآية بينت أن ركائز السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إنما تكون بصدق الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح الذي يرضيه، كما أشارت إلى زوال الخوف والحزن عنهم، وقد ذكر ابن كثير فقال في هذه الآية: «لما بيّن تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره، وتعدى في فعل ما لا إذن له فيه وانتهك المحارم، وما أحل بهم من النكال، نبّه تعالى على من أحسن من الأمم السالفة وأطاع، فإن له جزاء الحسنى، وكذلك الأمر إلى قيام الساعة، كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية، ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه، ولا هم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه، كما قال الله تعالى: « أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [يونس: ٦٢]. [تفسير ابن كثير ١/١٥٨].

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن الله تعالى أضاف الحياة الطيبة الحسنة للمؤمن العامل بالصالحات، وذلك في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: « مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ» [النحل: ٩٧]. وقال تعالى: «وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ وَإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» [هود: ٣]، وقد بينت الآيات أن المحسن يجازى بإحسانه والمسيء بإساءته، ولا يظلم ربك أحدًا، والإيمان إذا باشر القلب وخالطه أكسبه سعادة وفرحًا وسرورًا، ولا يشعر بذلك إلا من ذاق حلاوته، قال الله تعالى: « قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ » [يونس: ٥٨].

وقد ذكر ابن جرير أقوالا كثيرة عن الصحابة وغيرهم تفيد أن المراد بالفضل والرحمة القرآن والإسلام، وهدايتنا إلى ذلك، وهذا يبين قيمة مهمة، وهي أن السعادة ليست في متاع دنيوي زائل، وإنما في الإيمان ومقتضياته، وهذا هو الفرح الحقيقي، لا فرح الباطل والغرور بالدنيا ومتاعها، وقد جمع الله للمؤمنين في الآية بين فضله عليهم ورحمته بهم، وهي من أعظم منن الله على عباده، وقد كررها الحق تبارك وتعالى في أكثر من آية في كتابه، كقوله: «وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ

ركائز السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة إنما تكون بصدق الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح الذي يرضيه، فالسعادة ليست في متاع دنيوي زائل، وإنما في الإيمان ومقتضياته، وهذا هو الفرح الحقيقي، لا فرح الباطل والغرور بالدنيا ومتاعها !!

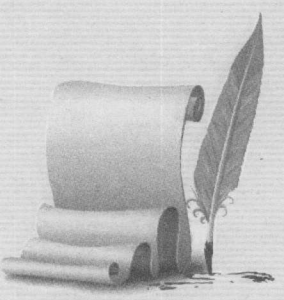

عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ » [النور: ٢١].

ولابن القيم رحمه الله كلام رائع في أسس السعادة والطرق المؤدية إليها، فقد بين أن معرفة الله والاستغناء به عمن سواه، وإيثار ما يحبه ويرضاه أمور مهمة بها تتحقق السعادة، وفي ذلك يقول: «والإيثار المتعلق بالخالق أجلّ من هذا وأفضل، وهو إيثار رضاه على رضا غيره، وإيثار حبه على حب غيره، وإيثار خوفه ورجائه على خوف غيره ورجائه، وإيثار الذي له من الخضوع والاستكانة والضراعة والتملق على بذل ذلك لغيره، وكذلك إيثار الطلب منه والسؤال وإنزال الفاقات به على تعلق ذلك بغيره، وعلامة هذا الإيثار شيئان: أحدهما فعل ما يحب الله إذا كانت النفس تكرهه وتهرب منه، والثاني: ترك ما يكرهه إذا كانت النفس تحبه وتهواه، فبهذين الأمرين يصح مقام الإيثار، ومؤنة هذا الإيثار شديدة لغلبة الأغيار وقوة داعي العادة والطبع، فالمحبة فيه عظيمة والمؤنة فيه شديدة والنفس عنه ضعيفة، ولا يتم فلاح العبد وسعادته إلا به، وإنه ليسير على من يسّره الله عليه.

والذي يسهله على العبد أمور: أحدها: أن تكون طبيعته لينة منقادة سلسة، ليست بجافية ولا قاسية، بل تنقاد معه بسهولة، الثاني: أن يكون إيمانه راسخًا ويقينه قويًا، فإن هذا ثمرة الإيمان ونتيجته. الثالث: قوة صبره وثباته، فبهذه الثلاثة الأمور ينهض إلى هذا المقام ويسهل عليه دركه». [طريق الهجرتين وباب السعادتين: ص٣٠١].

ومن أسس السعادة الحقيقية بعد ذلك: الاتباع والتأسي بالنبي صلى الله عليه وسلم، وهو خير أسوة وقدوة ولا طريق للعبد إلى الرب إلا عن طريق رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: « لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا » [الأحزاب: ٢١].

وقد ارتفعت صيحات اليوم من قوم جهلوا قدر نبيهم صلى الله عليه وسلم، وذهبوا إلى التصدي لمن يلزم هديه ويقتفي أثره، وإننا نحذر هؤلاء من فتن كثيرة تصيبهم في أنفسهم وديارهم إذا لم يرجعوا عن ذلك. وقد حذّر الله في كتابه من مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم لخطورة ذلك، فقال: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [النور: ٦٣].

وبهذه الآية احتج الفقهاء على أن الأمر على الوجوب، ووجه ذلك أن الله حذر من مخالفة أمره، وتوعد بالعقاب عليها، وعليه فيجب امتثال أمر النبي صلى الله عليه وسلم، وقيل: المراد بالفتنة هنا: القتل، وقيل: الزلازل والأهوال، وقيل: سلطان جائر، وقيل: الطبع على القلوب بشؤم مخالفة الرسول صلى الله عليه وسلم.

نسأل الله السلامة والعافية من الفتن ما ظهر منها وما بطن، ونسأله سبحانه أن يهدينا جميعًا لطريق السعادة في الدارين، والحمد لله رب العالمين.

ارتفعت صيحاتُ اليوم من قوم جهلوا قدر نبيهم صلى الله عليه وسلم، وذهبوا إلى التصدي لمن يلزم هديه ويقتفي أثره، وإننا نحذر هؤلاء من فتن كثيرة تصيبهم في أنفسهم وديارهم إذا لم يرجعوا عن ذلك.

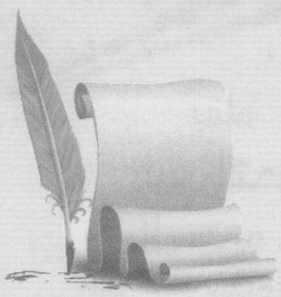

افتتاحية العدد

نظرات في عقائد النصيرية

الحلقة الأولى

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مالك الملك، خالق الكائنات، المتفرد بالجلال والكمال، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا رسول الله صلى الله وسلم عليه وعلى آله الأطهار وصحابته الأخيار، وبعدُ:

فقد تحدثت في لقاء سابق عن النصيرية، مشيرًا إلى طرف يسير من أفعالهم المنكرة، وقد طلب مني البعض أن أذكر أيضا شيئا من عقائدهم وعباداتهم لتعرف الأمة ضلالهم وانحرافهم، وعليه أقول:

إن النصيرية تعتبر مذهبها سرًا من الأسرار التي لا تكشف لغيرهم، ويبالغون في كتمان معتقداتهم، ومن يُظهر شيئًا منها يكون جزاؤه القتل كما فعل مع «سليمان النصيري» الذي كان منهم، ثم تنصر وفضحهم في كتابه «الباكورة السليمانية»، فقتلوه حرقًا في ساحة عامة، وما ذلك إلا لمعرفته بالشرك والوثنية التي هم عليها، ولا يحبون أن يطلع أحد عليها سواهم، وهذا أمر ينكره كل مؤمن صادق في عقيدته، والذي يحترم عقيدته ومنهجه ويرى سلامته وصحته لا يكتمه عن أحد.

ويعرض السيد محمد الطويل سبب كتمانهم لعقيدتهم على لسان أحدهم فيقول: «إنه لما أعلن كمال الإسلام كان لا يزال بعض العقائد مكتومًا وخفيًا، ولذلك بقي إلى هذا اليوم مكتومًا لخصوصيته، وبتعبير أصح: إن بقاء عقيدة العلويين مكتومة هو من كمال الإسلام، وإعلانها مضرّ به؛ لأن الرسول صلى الله عليه وسلم بشّر المؤمنين بولاية عليّ، وبذلك كمل الإسلام، ولكنه بقي حريصًا على كتمان البقية، ولذلك كان كتمان البقية من كمال الإسلام أيضًا». [إسلام بلا مذهب/ ٢٩٤].

أبرز معتقداتهم الفاسدة:

ومن أبرز معتقداتهم الفاسدة: تاليه الأئمة من آل البيت، غير أنهم - كما ذكر الشهرستاني عنهم - خصوا عليًا بالإلهية، لأنه كان مخصوصًا بتأييد من عند الله يتعلق بباطن الأسرار، وأن الله حل فيه، وهو الذي ظهر الإله بصورته وخلق بيده وأمر بلسانه، ومن هنا ذهبوا إلى أن عليًا كان موجودًا قبل خلق السماوات والأرض. [الملل والنحل للشهرستاني على هامش الفصل ج٢/٢٥].

عقيدة النصيرية في علي بن أبي طالب:

وهم يعتقدون أن عليًا هو الذي خلق محمدًا صلى الله عليه وسلم، ومحمدًا خلق سلمان الفارسي، وسلمان خلق الأيتام الخمسة الذين بيدهم مقاليد السماوات والأرض، وهم: المقداد، وهو رب الناس وخالقهم الموكل بالرعود والصواعق، وأبو ذر الغفاري الموكل بدوران الكواكب والنجوم، وعبد الله بن رواحة الموكل بالرياح وقبض أرواح البشر، وعثمان بن مظعون الموكل بالمعدة وحرارة الجسد وأمراض الإنسان، وقنبر بن كادان الموكل بنفخ الأرواح في الأجسام. [انظر طائفة النصيرية ص٤٧].

وعلي عندهم إمام في الظاهر إله في الباطن، لم يلد ولم يولد ولم يمت ولم يُقتل، ولا يأكل أو يشرب، وأنه ما من مؤمن إلا وتحمل روحه إلى الإمام عليّ فينظر فيها، فإذا كان مؤمنًا ممتحنًا صافيًا صعدت الملائكة بروحه إلى السماء فتغمسها في عين على باب الجنة اسمها عين الحياة.

ويستدلون على ألوهية الإمام عليّ بما حصل له من كرامات، كقلع باب خيبر، وشجاعته الحربية، وزعموا أنه كان يكلم الجن.

ويتجلى تاليههم للإمام عليّ في أدعيتهم الركيكة الخالية عن العقل والتي تسمى سورًا عندهم. وقد جاء في السورة الكبيرة ما يلي: «أول معرفتي بالله أشهد شهادة تقية نقية بأن لا إله إلا الله إلا

مولاي ومولاك أمير النَّحل عليّ، ولا حجاب إلا السيد محمد، ولا باب إلا السيد سلمان، وأشهد أن الله عليًا ربي يحيي ويميت، وهو الحي الذي لا يموت، بيده الخير وهو على كل شيء قدير».

ويقصدون بالحي الذي لا يموت: عليًا - رضي الله عنه - ويفسرون موته بخلعه للتقمص البشري الذي تخلص منه على يد «عبد الرحمن بن ملجم» قاتله، ولذلك هم يحبونه ويترضون عليه، ويخطّئون من يلعنه!!

وقد حاك هؤلاء بعض الأساطير حول ألوهية «علي» رضي الله عنه، ومن ذلك أن عليًا أرسل جابر بن يزيد الجعفي في قضاء غرض له، فلما أن وصل إلى الموضع المقصود رأى عليّ بن طالب جالسًا على كرسي من نور والسيد محمد - يعني النبي صلى الله عليه وسلم - عن يمينه، والسيد سلمان الفارسي عن شماله، ثم التفت جابر إلى ورائه فرآه هكذا، ثم نظر عن يمينه فرآه أيضًا، ثم نظر إلى السماء فرآه في السماء والملائكة أمامه يسبحون بحمده ويسجدون له. [الباكورة السليمانية ص٢٨٧].

وقد اختلف النصيريون في مكان عليّ بعد أن تخلص من صورته البشرية فذهب بعضهم إلى أنه حلّ في القمر، بل القمر نفسه هو عليّ، ولذلك يعبدونه، ومنهم من ذهب إلى أنه حلّ في الشمس، بل الشمس نفسها هي عليّ، ولذلك عبدوها أيضًا، ومن هنا قال مدير مدرسة نصيري حينما سمع بوصول رواد الفضاء من الأمريكان وغيرهم إلى سطح القمر: «إن كان ما ذكروه حقًا أن القمر مكون من جمادات فعلى الدين السلام، وغضب لربه، وقال في ذمه لهذه الكشوفات عن القمر: الآن ينتهي مفعول الدين إذا أثبتت هذه الكشوفات كونه مجموعة من التلفيقات». [فرق معاصرة ج١/٤٢٠].

ونظرًا لأن هؤلاء يؤلهون البشر، فلا بأس عندهم من تعدد الآلهة، ولهذا وجدنا رجلاً منهم في القرن الماضي يدّعي الألوهية لنفسه، وهو المدعو «سلمان المرشد»، وله جماعة تسمى «المرشدية»، وكانوا يخرون ساجدين له، وكان الاحتلال الفرنسي للشام وراء هذه الألوهية المزيفة، والمستشار الفرنسي كان يسجد مع الساجدين لسلمان ويخاطبه قائلاً: «يا إلهي»، وقد مثّل سلمان زعمه للألوهية بطريقة شيطانية، حيث كان يلبس ثيابًا فيها أزرار كهربائية ويحمل في جيبه بطارية صغيرة متصلة بالأزرار، فإذا أوصل التيار أضاءت الأنوار من الأزرار فيخر له أنصاره ساجدين. [انظر إسلام بلا مذاهب: ٢٩٧].

كما تلقب سلمان هذا أيضًا بلقب الرب، وأسس حكومة نصيرية بمساعدة الاستعمار الفرنسي ليواجه بها الشعب السني في بلده سورية، وبعد هلاك هذا المتاله ألّه أتباعه ابنه مجيب الأكبر بن سلمان المرشد، وكانوا يقولون عند ذبح أحدهم ذبيحة: باسم «مجيب الأكبر» من يدي لرقبة أبي بكر وعمر. [انظر طائفة النصيرية ٥٤].

يعتقد النصيريون أن عليًا إله!! فيقولون في أورادهم: أشهد أن عليًا ربي يحيي ويُميت، وهو الحي الذي لا يموت!! ويفسرون موته على يد عبد الرحمن ابن ملجم؛ بأنه خلع التقمص البشري وتخلص منه!!

عقيدة النصيرية في الحلول والاتحاد:

ومن المعتقدات الفاسدة لدى هذه الطائفة القول بالحلول وأن الله تجلى للمرة الأخيرة لعليّ، كما تجلي قبل ذلك لهابيل وشيث وسام، واتخذ في كل دور رسولاً ناطقا تمثل على الترتيب في آدم ونوح وإبراهيم وموسى وعيسى، وهذه الطائفة لا تؤمن بيوم القيامة وما يقع فيه من حساب وجزاء، ولذلك قالوا بتناسخ الأرواح، وقد بيّن النوبختي فكرة التناسخ عند القائلين بها فقال: «هم أهل القول بالدور في هذه الدار وإبطال القيامة والبعث والحساب، وزعموا أن لا دار إلا الدنيا، وأن القيامة: إنما هي خروج الروح من بدن ودخوله في بدن آخر غيره إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وأنهم مسرورون في هذه الأبدان أو معذبون فيها».. هكذا أبد الأبد، فهي جنتهم ونارهم، لا

قيامة ولا بعث، ولا جنة ولا نار غير هذا، على قدر أعمالهم وذنوبهم وإنكارهم لأئمتهم ومعصيتهم لهم». [فرق الشيعة: ٥٧].

عقيدة النصيرية في القيامة:

والقيامة عند النصيرية تعني «قيامة الإمام المجتبى صاحب الزمان علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليحكم بين أتباعه ويحق لهم السعادة وحدهم ضد خصومهم من أتباع الخليفتين الأول والثاني - يعنون أبا بكر وعمر رضي الله عنهما - ويقولون: إن ظهور علي بن أبي طالب سيكون من الشمس قابضًا على كل نفس، الأسد من تحته وذو الفقار بيديه، والملائكة من خلفه والسيد سلمان الفارسي بين يديه، والماء ينبع من قدميه، والسيد محمد - يعني الرسول صلى الله عليه وسلم- ينادي: هذا مولاكم علي بن أبي طالب فاعرفوه وسبحوه وعظموه وكبروه، هذا رازقكم وخالقكم فلا تنكروه»!!! تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

وهذا كلام كله شرك وزندقة، وأعتقد أنه لا يختلف اثنان من المسلمين في ذلك، فالتسبيح والتعظيم لله وحده، والكون كله يسبح بحمده تعظيمًا وإجلالاً له سبحانه كما قال تعالى في كتابه: « يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لَهُ الْمُلْكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » [التغابن: ١].

كما أن الخلق خلقه والكون ملكه، والجميع عباده، قال تعالى: « إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا » [مريم: ٩٣- ٩٥]. وقال سبحانه: « قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ » [الرعد: ١٦].

ويقع التناسخ حسب معتقد النصيرية في أربع صور وذلك بحسب قرب الشخص أو بُعده عن الإيمان وطاعة الأئمة أو عصيانهم، وهي كما يلي: نسخ، مسخ، فسخ، رسخ.

أما النسخ: فهو انتقال روح الآدمي إلى جسم آدمي آخر، والمسخ: فهو انتقال روح آدمي إلى جسد حيوان، والفسخ: فهو خروج الروح من جسم آدمي إلى جسد حشرة من حشرات الأرض وهوامها، والرسخ: هو انتقال الروح من جسم آدمي إلى جسم أو حي إلى الشجر والنبات والجماد، وبعضهم يذهب إلى أن المسخ والفسخ والرسخ لا تصيب النصيري، بل هي خاصة بمن عداهم من الناس الذين يطلقون عليهم الكفرة والذين يمرون في تكرار مولدهم بألوان العقاب والجزاء في هذه الدنيا، وقد جاء في الهفت الشريف - وهو من كتبهم - نصوص كثيرة في بيان كيفيات التناسخ، وكيفيات العذاب الذي يحل بالكفار عند انتقال أرواحهم من جسم إلى جسم، ومن ذلك قولهم: «وأنه ليلقاك الرجل في بدنه وأنت تظن أنه آدمي، وإنما هو قرد أو خنزير أو كلب أو دُب».

وقال المفضل: «سألت مولانا الصادق: هل يذل الأعداء من دون الأولياء، والأولياء من دون الأعداء في اصطناع الخير والشر فيما كان من أحدهما إلى الآخر؟ فقال: أما علمت أن المؤمن يكون في الناسوتية والكافر في المسوخية وفي تراكيب شتى، حتى يصنع كل واحد منهما إلى الآخر من الخير والشر، مثلما كان يصنع إليه إن كان خيرًا فخير، وإن كان شرًا فشر».

وقال عن سبب إيذاء الكلب للإنسان: «وإن الرجل حينما يمر بالكلب لا يعرفه ولا يكون قد رآه قبل ذلك اليوم، أو ربما يكون

من عقائد النصيريين أنهم لا يؤمنون بيوم البعث، ولا ما يقع فيه من جزاء ولا حساب، وأن القيامة هي خروج روح من بدن إلى بدن آخر غيره، وأن أصحاب هذه الأبدان مسرورون فيها أو معذبون، فهي جنتهم ونارهم!!

الرجل متزوجًا امرأة هذا الكلب، لأنه كان مركبًا في الإنسانية، وكان مجراه في بادي الأمر مجرى الإنسان، فأهلكه الله بعذاب ذبح أو قتل بما وصل إليه من شقاوته في حالة الدنيا، والرجل يكون قد تزوج امرأته وسكن داره ولبس ثيابه يعرفه الكلب في مِسوخيته، فإذا نظر إليه نبح ووثب عليه أو عضه في وجهه!!

وذكر عن محمد بن سنان أنه قال: «ما من طائر يطير إلا له أم وأب وعم خال، ثم التفت أبو الحسن إلى نجار ينجر بداره، فقال: هذا النجار كان في الدور الأول ديكًا، وهو اليوم نجار». [انظر فرق معاصرة ج١/٤٢٨- ٤٣٠].

وهذه المعتقدات الباطلة تبين سخافة عقولهم وشدة ضلالهم، ولا عجب في ذلك فالقوم أتباع المجوس وعباد أوثان، وعقائدهم في جملتها تناقض دين الإسلام وتضاده وتسعى في هدمه، بل لو تأمل الباحث بشيء يسير من النظر سيجد أنهم لم يتركوا شيئًا من عقائد الإسلام إلا أتوا بما يناقضه، ولم يدعوا حكمًا من أحكام الشريعة إلا عطلوه وجاءوا بما يعارضه، وهذا يكشف عن مدى حقدهم وبغضهم للإسلام والمسلمين.

عقيدة النصيرية في الصحابة:

أما عن عقيدتهم في الصحابة، فيجب أن نعلم أنهم يبغضون الصحابة بغضًا شديدًا ويلعنونهم في الجملة، بل يرون أن من الصحابة من لم يكن مؤمنًا على الحقيقة وأن بعضهم كان يتظاهر بالإسلام ويبطن النفاق خشية من سطوة عليّ، ومن هؤلاء أبو سفيان وابنه معاوية رضي الله عنهما، وقد خصوا الصدّيق خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الأول والذي يليه بالبغض الشديد، فلم يجيزوا حتى مجرد التسمية بأبي بكر وعمر، بل بلغ بهم السفه والحقد عليهما أن عمدوا إلى الحيوانات البريئة وتفننوا في تعذيبها، بزعمهم أن روح أبي بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم جميعًا حلت فيهم عن طريق التناسخ، ومن هنا فهم يأخذون بغلاً أو حمارًا ليذيقوه سوء العذاب، لأنه تقمص روح أبي بكر وعمر، كما أنهم يأخذون غنمة ويعذبونها كذلك تنكيلا بأم المؤمنين عائشة رضي الله عنها!!

ولهم أقوال كثيرة في ذم الصحابة وخاصة في أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه الذي أطفأ الله به نار المجوسية، وأعز الله به التوحيد والسنة، وقد ذكر صاحب كتاب «الهفت الشريف» أن عمر رضي الله عنه كان في زمن الحسين في صورة كبش عن طريق التناسخ، فدى الله به الحسين من الذبح، وذُبح هو - أي عمر - الذي سماه «دلامة» أو أدلم، وهذا ضلال - نعوذ بالله منه-.

وقد يقول قائل: إن ما نذكره اليوم عن النصيرية كان أمرًا قديمًا، ولا يمكن لعاقل أن يكون على هذه المعتقدات إلى اليوم؟

فأقول لهؤلاء: إن أحد علماء الشيعة الاثنى عشرية وهو محمد رضا شمس الدين زار النصيريين في بلده عام ١٣٧٦هـ، للتعرف على أحوالهم، وقد كان موفدًا من قبل المرجع الديني في النجف «عباد الباري الشيرازي»، وقد ذكر الزائر محمد رضا أن النصيرية لا يزالون إلى اليوم يتمسكون بأفكار زعيمهم «محمد بن نصير»، وذكر أنه حينما زارهم رحبوا به أجمل ترحيب، ولكن لاحظ عدم اكتراثهم بفرائض الدين من صلاة وحج وعدم وجود مساجد في منطقتهم، كما لاحظ أن فكرة تناسخ الأرواح لا تزال منتشرة بينهم، وهم يسمونها نقص الأرواح. [انظر كتابه: العلويون في سوريا ص٥٤].

وسأبين - إن شاء الله - في المقال القادم عبادات وأعياد النصيرية المخالفة لدين الإسلام وأعمالهم المشينة اليوم ضد المسلمين. والله الموفق والمستعان.

وعن مدى حقد النصيريين وبغضهم للإسلام والمسلمين أن عقائدهم تناقض دين الإسلام وتسعى في هدمه، فلم يتركوا حكمًا من أحكام الإسلام إلا عطلوه وجاءوا بما يعارضه، فالقوم أتباع المجوس وعُبَّاد أوثان. وهم يبغضون الصحابة بغضًا فوق الوصف!!

افتتاحية العدد

ضلالات النصيرية في العبادات والأعياد

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين... وبعدُ:

فقد ذكرت في المقال السابق شيئًا من معتقدات الطائفة النصيرية الباطلة، وهذا يظهر بأدنى تأمل؛ وتتمة لكشف عوارهم وباطلهم، أشير هنا إلى عباداتهم وأعيادهم وأفعالهم الدنيئة بالمسلمين، فأقول وبالله التوفيق:

إن طائفة النصيرية لا تعبد الله كما شرع سبحانه، بل عباداتهم باطلة كعقيدتهم الفاسدة، ومما تجدر الإشارة إليه هنا قبل أن نذكر بعض عباداتهم أنهم يعتقدون أن للشريعة ظاهرًا وباطنًا، وأنهم وحدهم العالمون ببواطن الشريعة، ومن هنا فقد أوّلوا العبادات المفروضة إلى معانٍ غريبة خرجوا بها عن الشرع الحكيم وهدي النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، فالصلاة عندهم عبارة عن خمسة أسماء هي: علي، وحسن، وحسين، ومحسن، وفاطمة، ومحسن هذا يسمى عند النصيرية بالسر الخفي، وذِكر هذه الأسماء عند النصيرية يجزئ عن الغُسل من الجنابة والوضوء، وهم يصلون في اليوم خمس مرات، لكنها صلاة تختلف في عدد ركعاتها عن صلاة المسلمين. [انظر: الموسوعة الميسرة ج١/٣٩٥].

أركان الإسلام عند النصيرية:

وأول وقت للصلاة عندهم: صلاة الظهر، وتتالف من ثمانية ركعات، ثم صلاة العصر، وتتالف من أربع، ثم المغرب وتتالف من خمس، ثم العشاء وتتالف من أربع، ثم الفجر وتتالف من ركعتين، وقد ورد في كتاب «الباكورة السليمانية» أن الصلوات الخمس عند النصيرية هي كالتالي: الظهر لمحمد صلى الله عليه وسلم، والعصر لفاطمة، والمغرب للحسن، والعشاء للحسين، والصبح لمحسن الخفي، كما أنهم لا يصلون الجمعة ولا يتمسكون بالطهارة كالوضوء ورفع الجنابة قبل أداء الصلاة، وليس لهم مساجد عامة، بل يصلون في بيوتهم، وصلاتهم تكون دائمًا مصحوبة بتلاوة الخرافات، كما أنهم لا يعترفون بالحج، ويقولون بأن الحج إلى مكة إنما هو كفر وعبادة أصنام، والزكاة عندهم معناها شخصية سلمان الفارسي - رضي الله عنه -، وبالتالي فهم لا يعترفون بالزكاة الشرعية المبينة في الكتاب والسنة النبوية، ويدفعون ضريبة إلى مشايخهم زاعمين بأن مقدارها خُمس ما يملكون، وهم بهذا يشتركون مع فِرَق الرافضة، والصيام عندهم هو حفظ السر المتعلق بثلاثين رجلاً وثلاثين امرأة مع الامتناع عن معاشرة النساء طيلة شهر رمضان. وهذه العبادات المذكورة بهذا المعنى لا تمت إلى الإسلام بصلة.

إسقاط التكليف في معتقد النصيرية:

ومع هذا الضلال في العبادات، فهم يُسقطون هذه التكاليف عن مشايخهم الذين يصلون إلى درجة الاصطفاء التي يعتبرونها فوق درجة النبيين، وفوقها درجة أخرى أعلى منها وهي درجة الحجاب، فمن وصل منهم إلى هذه الدرجات كما يزعمون أصبح حرًا وسقطت عنه التكاليف، ويستدلون على هذا بقول الله تعالى: «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ» [النجم: ٤٢]، ويقولون في معنى الآية: إن الرجل إذا عرف ربه فقد انتهى للمطلوب، ولا شيء أبلغ إلى الله من الوحدانية والمعرفة، وإنما وُضعت الأصفاد والأغلال على المقصرين، وأما من قد بلغ وعرف هذه الدرجات فقد عَتَق من الرق، ورُفعت عنه الأغلال والأصفاد. والمراد بالظاهر عندهم سقوط التكاليف الشرعية عن العبد من الصلاة والصيام وغير ذلك.

حكم الخمر عند النصيرية:

وإلى جانب ذلك فهم يرتكبون المحرمات، ولهم ليلة يجتمعون فيها ويختلط فيها الحابل بالنابل كشأن الفِرَق الباطنية، ويعظمون الخمر ويحتسونها، ويعظمون شجرة العنب ويحرمون قلعها أو قطعها؛ لأنها هي أصل الخمر التي يسمونها النور، ويقولون عندما يشتهون الخمر ما نصه: إن هذا عبدك عبد النور شخص النور حللته وكرمته وفضلته لأوليائك

العارفين بك حلالاً مطلقًا، وحرمته على أعدائك الجاحدين - يعني المسلمين - اللهم مولاي - يقصدون علي بن أبي طالب - كما أحللته لنا ارزقنا به الأمن والأمان، والصحة والإنعام، وانف به عنا الهم والأحزان. [انظر ماذا تعرف عن الطائفة النصيرية ص١٢، ١٣].

مشابهة النصيرية للنصارى:

وللنصيرية طقوس وصلوات تشابه ما عند النصارى، ومن قداساتهم: قداس الطيب لكل أخ حبيب، وقداس البخور في روح ما يدور في محل الفرح والسرور، وقداس الأذان وبالله المستعان.

وكل قداس له ذِكر خاص وأدعية يتوسلون فيها ببعض أئمتهم ومشايخهم الذين جعلوهم أربابًا دون الله، ومن أمثلة هذه القداسات: قداس الأذان وهو: «الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر كبيرًا، الحمد لله كثيرًا، وجهت وجهي إلى محمد المحمود كالباسرة المقصود المتقرب بتجلي الصفات وغنى الذات، وفاطر الفطر ذو الجلال، والحسن ذو الكمال، اتبعوا ملة أبيكم إبراهيم الخليل، هو الذي سماكم مسلمين حنيفًا مسلمًا، ولا رب إلا ربي شيخنا وهو شيخنا وسيدنا «الحسين حمدان الخصيبي» سفينة النجاة وعين الحياة، حي على الصلاة، حي على الفلاح، تفلحوا يا مؤمنون، حي على خير العمل بعينه الأجل، الله أكبر، الله أكبر، قد قامت الصلاة على أربابها وثبتت الحجة على أصحابها، الله مولاي يا علي، أسالك أن تقيمها وتديمها ما دامت السموات والأرض، وتجعل السيد محمد خاتمها، والسيد سلمان زكاتها، والمقداد يمينها، وأبا ذر شمالها، نحمد الله بحمد الحامدين، ونشكر الله بشكر الشاكرين، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أسالك اللهم مولاي بحق قداس هذا الأذان، وبحق متى وسمعان، والتواريخ والأعوام، بحق يوسف بن من كان، بحق الأحد عشر كوكبًا الذين رآهم يوسف بالمنام، تحل في دياركم البركة بالتمام، يا مولاي يا علي يا عظيم»، وهذا كلام مليء بالشرك والوثنية وتقديس الكواكب والنجوم.

الأعياد عند النصيرية:

وللنصيرية أعياد كثيرة في أوقات مختلفة يوافقون فيها المجوس والنصارى، ومن أعيادهم: عيد النيروز وهو من أعياد الفرس، ومثله عيد المهرجان، ومن أعيادهم المشابهة لما في النصرانية: عيد الغطاس، وعيد السعف، وعيد العنصرة، وعيد القديسة بربارا، والذي تحتفل به الكنيسة الكاثوليكية والأرثوذكسية، كما أنهم يحتفلون بعيد الغدير، وعيدي الفطر والأضحى وعاشوراء، ويظهر من احتفالهم بهذه الأعياد تأثرهم بالمجوسية والنصرانية والباطنية.

وقد ذكر «عبد الحسن العسكري» عن احتفالهم بعيد النيروز ذلك فقال: «احتفال النصيرية «بعيد النيروز» يدل على الأثر الفارسي في النصيرية، ويشير إلى تمجيدهم للفرس بدعوى حلول الإله وشخوصه في ملوكهم، حتى إنهم جعلوا منهم ثالوثًا نظير ثالوثهم، وهم يدّعون الإسلام؛ حيث زعموا أن ثلاثة منهم توارثوا الحكمة، وتجلى الإله فيهم وهم «شروين، وكروين، وكسرى»، ويقابلهم في الإسلام النصيري «المعنى والاسم والباب» علي ومحمد وسلمان». [انظر فِرَق معاصرة ١/٤٣٨].

جرائم النصيريين قديمًا وحديثًا:

وفي العصر الحاضر استطاع النصيريون الوصول إلى الحكم في سوريا بدعم من الشيوعيين والقوميين والبعثيين، وانتشروا في المدن السورية، ولهم وجود في سهل عطار شمال لبنان وضواحي مدينة طرابلس، وهناك عدد منهم في تركيا وإيران وتركستان الروسية وكردستان، ولم يترك هؤلاء النصيريون فرصة في القديم والحديث إلا واغتنموها في الوقيعة والفتك بأهل السنة والحروب الصليبية شاهدة على ذلك، فمدينة «أنطاكية» ما سقطت في أيدي الصليبيين إلا بفعل الاتفاق الذي تم بين الزعيم النصيري

من معتقدات النصيرية الفاسدة: أن أول وقت للصلاة عندهم صلاة الظهر وتتألف من ثماني ركعات ثم صلاة العصر وتتألف من أربع، ثم المغرب وتتألف من خمس، ثم العشاء وتتألف من أربع، ثم الفجر وتتألف من ركعتين.

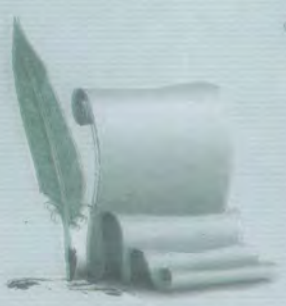

«الفيروز» وبين قائد الحملة الصليبية «بهمذ».

ومن جرائم النصيرية في الماضي ما قام به النصيري «تيمور لنك» في بغداد وحلب والشام عام ٨٢٢هـ، حيث أمعن في القتل والنهب والتعذيب مدة طويلة، ثم أنشأ من رءوس أهل السنة تلة عظيمة، وقد قتل القوات المدافعة عن بغداد من أهل السنة، ثم سافر إلى الشام وأنزل أفظع المصائب، التي لم يُسمع بمثلها، بأهل الشام من أهل السنة، ولم يسلم من إجرام هذا النصيري الحاقد بالشام إلا بعض النصارى الصليبيين.

وقد أشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى شيء من هذا فقال: «ومن المعلوم عندنا أن السواحل الشامية إنما استولى عليها النصارى من جهتهم، وهم دائمًا مع كل عدو للمسلمين، فهم مع النصارى على المسلمين، ومن أعظم المصائب عندهم فتح المسلمين للسواحل وانتهار النصارى، بل ومن أعظم المصائب عندهم انتصار المسلمين على التتار، ومن أعظم أعيادهم إذا استولى - والعياذ بالله تعالى - النصارى على ثغور المسلمين، ثم إن التتار ما دخلوا بلاد الإسلام وقتلوا خليفة بغداد وغيره من ملوك المسلمين إلا بمعاونتهم ومؤزارتهم». [مجموع الفتاوى: ٣٥/١٥٠، ١٥١].

تاريخ النصيرية يقطر حقدًا ودمًا:

وفي عصرنا الحاضر قام النصيريون بأعمال إجرامية ضد أهل السنة العزل الأبرياء، وأذكر هنا هذه الحقائق على سبيل المثال، في عام ١٩٧٦م رتب الجيش النصيري السوري بالتعاون مع الميلشيات الصليبية المارونية الحاقدة حصار واقتحام «تل الزعتر الفلسطيني»، وكان يحتوي على سبعة عشر ألف فلسطيني من أهل السنة، وسلطوا مدافعهم على المخيم حتى دكّوه، وفي الوقت ذاته كانت البحرية الإسرائيلية تحاصره من البحر وتطلق القنابل عليه، وكانت نتيجة هذه الأعمال المشتركة بين النصيريين واليهود سنة آلاف قتيل من أهل السنة وعدة آلاف من الجرحى وتدمير المخيم بالكامل.

وفي فجر اليوم السابع والعشرين من شهر يونيو عام ١٩٨٠م قام حوالي (٢٠٠) عنصر من اللواء (٤٠) واللواء (١٣٨) من سرايا الدفاع التابعة مباشرة للمجرم النصيري «رفعت الأسد» بالانتقال بالطائرات المروحية من دمشق إلى سجن «تدمر» حيث قاموا بإلقاء القنابل على السجناء، وفتح نيران أسلحتهم عليهم وهم في زنزاناتهم؛ حيث ماتوا عن آخرهم خلال نصف ساعة، ثم قامت بعد ذلك شاحنات كبيرة بنقل جثث القتلى ورميها في حُفَر قد أُعدّت مسبقًا لرمي الجثث في شرق بلدة «تدمر»، وقد راح ضحية هذه المجزرة الشنيعة أكثر من سبعمائة شاب مسلم!!

وقد ناقشت لجنة حقوق الإنسان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة وقائع هذه المجزرة في مدينة «جنيف» في دورتها السابعة والثلاثين، وقد عرضت على اللجنة وثيقة حول هذه المجزرة برقم (٤/١٤٦٩) بتاريخ ١٩٨١/٣/٤م.

أما ما وقع في مدينة حماة عام ١٩٨٢م، فقد هز كل مسلم صادق، حيث حاصر النصيريون بقواتهم المختلفة مدينة حماة، وقاموا بعمل حزامين حولها، وقد أدى ذلك إلى عزلها عن بقية المدن السورية، وسد جميع المنافذ والطرق المؤدية إليها، وتم قطع الماء والكهرباء عنها إضافة إلى المؤن الغذائية والإسعافات الأولية، وقد بدأت القوات النصيرية بعد ذلك بقصف المدينة قصفًا مركزًا شديدًا، بينما كانت وحدات المشاة تقوم باقتحام الأحياء السكنية ومداهمة المنازل وقتل من فيها، وقد أدت هذه الأفعال إلى تدمير كثير من المساجد والأسواق التجارية والأحياء السكنية، بل والمقابر، وقد أسفرت هذه الجريمة عن قتل ما يربو عن أربعين ألفًا من أهل السنة، واعتقال «خمسة عشر ألفًا» آخرين، كما نزح الكثير منهم إلى البلاد المجاورة، وقد التقيت ببعضهم في المدينة النبوية، وسمعت أشياء يندى لها الجبين، قام بها هؤلاء المجرمون.

من ضلالات النصيرية الفاسدة: أنهم يسقطون التكاليف عن مشايخهم الذين يصلون إلى درجة الاصطفاء تلك المنزلة التي يعتبرونها فوق درجة النبيين، وفوقها درجة أخرى أعلى منها وهي درجة الحجاب، فمن وصل منهم إلى هذه الدرجات كما يزعمون أصبح حرًا وسقطت عنه التكاليف.

مأساة عظيمة ووضع خطير:

وإن ما يجري على أرض «سوريا» الآن بمرأى ومسمع من المعالم دون خجل أو حياء يدل على مدى عداوة هؤلاء للمسلمين، فهم اليوم يرتكبون أفظع الجرائم ضد الشعب السني المسلم. والأمر لا يحتاج إلى تعليق، غير أنني -وعبر هذه المجلة المباركة- أناشد المسلمين في أقطار الدنيا حكامًا ومحكومين بتقوى الله تعالى، ومناصرة إخواننا هناك، ومد يد العون لهم، ورفع الأكف بالدعاء والضراعة؛ لأن المأساة عظيمة والوضع خطير، وقد شاهدت ذلك بنفسي أثناء زيارتي للأردن في الشهر الماضي، وذهبت إلى بعض معسكرات اللاجئين وسمعت منهم العجب، وقد لمست مواقف مشرفة تسجل للمؤسسات الرسمية الأردنية والجمعيات الخيرية، كما أنني أحيي موقف سماحة العلامة قاضي قضاة الأردن الأستاذ الدكتور «أحمد خليل» الذي قال في هذه الأزمة ما يلي: «إن ما يجري لأهلنا وإخواننا في سوريا هو وصمة عار في جبين الأمة العربية والإسلامية، وهو حرب طائفية بغيضة كشرت عن أنيابها، وإنها جرائم حرب ضد شعب أعزل لا يملك حولًا ولا قوة، أمام فاشية حاقدة طاغية، وزمرة ظالمة باغية، قتلت الشرفاء الأحرار، وروّعت وعذبت الأطفال الأطهار، واغتصبت المؤمنات الحرائر الأبرار، هدّمت المساجد، ودمرت وأحرقت البيوت على أصحابها، هجّرت وشرّدت، كوارث وفواجع تقض المضاجع لتلقي بظلالها مُرَّ المواجع، أمانة في أعناق الأمة كلها، حكامًا ومحكومين، شعوبًا وقيادات أن تبادر بمواقف صادقة مخلصة، عاجلة غير آجلة، دون مماطلة أو إبطاء لوقف هذا الظلم والعدوان من الفئة الباغية التي لا ترقب في مؤمن ولا مؤمنة إلًا ولا ذمة».

وقد أجاب أستاذي العلامة الشيخ عبد المحسن العباد إمام المسجد النبوي عندما سُئل في درسه في المسجد النبوي بتاريخ ١٤٣٣/٤/١٨هـ عن التبرع لأهل سوريا وهل جهادهم في سبيل الله؟ فقال: «يُرجى أن يكون في سبيل الله، يُرجى أن يكون في سبيل الله، والتبرع من أجل الإحسان إليهم، وما يسدون به رمقهم، وما يستفيدون منه لا شك أنه من الأعمال الطيبة، ونسأل الله عز وجل أن يوفقهم لكل خير، وأن يكفيهم كل شر، وأن يوفقهم ليحصلوا على ما يريدون من حصول الاستقامة، والبعد والسلامة من الدول التي ألحقت الضرر بهم، وأن يكون سلامتهم منها على خير في دينهم ودنياهم».

وقد سبق الجميع إلى ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية فقال في فضل جهاد هؤلاء: «ولا ريب أن جهاد هؤلاء، وإقامة الحدود عليهم، من أعظم الطاعات وأكبر الواجبات، وهو أفضل من جهاد من لا يقاتل المسلمين من المشركين وأهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء من جنس جهاد المرتدين، والصدّيق وسائر الصحابة بدءوا بجهاد المرتدين قبل جهاد الكفار من أهل الكتاب، فإن جهاد هؤلاء حفظ لما فُتح من بلاد المسلمين، وأن يدخل فيه من أراد الخروج عنه، وجهاد من لم يقاتلنا من المشركين وأهل الكتاب من زيادة إظهار الدين، وحفظ رأس المال مقدم على الربح، ويجب على كل مسلم أن يقوم في ذلك بحسب ما يقدر عليه من الواجب، فلا يحل لأحد أن يكتم ما يعرفه من أخبارهم، بل يفشيها ويظهرها ليعرف المسلمون حقيقة حالهم، ولا يحل لأحد أن يعاونهم على بقائهم في الجند والمستخدمين، والمعاون على كف شرهم وهدايتهم بحسب الإمكان له من الأجر والثواب ما لا يعلمه إلا الله». [مجموع الفتاوى جـ٣٥/١٥٨، ١٥٩].

وبعدُ؛ فهذه كلمات لهؤلاء الأئمة الأعلام أجدد بها الدعوة إلى نصرة إخواننا على البغاة المعتدين والظلمة الآثمين، أسأل الله عز وجل أن يهلكهم ويقضي عليهم، وعندئذ سنفرح بنصر الله، ونردد قوله تعالى: «فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ» [الأنعام: ٤٥].

وعساه أن يكون قريبًا. والحمد لله رب العالمين.

في عصرنا الحاضر قام النصيريون بأعمال إجرامية ضد أهل السنة العزل الأبرياء؛ فقد قام الجيش السوري منذ السبعينيات بالتعاون مع الميليشيات المارونية الصليبية الحاقدة بحصار واقتحام تل الزعتر الفلسطيني، ومجزرة حماة السورية في ١٩٨٢م، وما يجري اليوم على أرض سوريا يشهد على جرمهم في حق أهل السنة.

افتتاحية العدد

اغتنام الأوقات بالتزود بخير الزاد

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكّر أو أراد شكورًا، والصلاة والسلام على سيد العابدين وأصدق الشاكرين رسول رب العالمين، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين... وبعدُ:

فقبل عام ودعنا شهر رمضان، ثم ها هو يقبل الآن، وربما لم يشعر كثير منا بقيمة الزمن الذي طويت فيه الأيام والشهور، ولهذا أحببت أن أذكّر نفسي وإخواني بأننا مسافرون إلى الله، ولكل عبد نهاية ولا بد.

قال الله تعالى: « وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلْمُنتَهَىٰ» [النجم: ٤٢]. وقد ذكر ابن أبي حاتم عن عمرو بن ميمون الأودي أنه قال: قام فينا معاذ بن جبل رضي الله عنه فقال: «يا بني أوْد، إني رسول رسول الله إليكم، تعلمون أن المعاد إلى الله، إلى الجنة أو إلى النار». [تفسير ابن كثير ج٤/٣٣٥].

ولهذا وجب عليَّ وعليك أن نبحث عن الزاد الذي يقرّبنا إلى رب العباد؛ حيث إن الطريق موحش وطويل، ولا بد فيه من زاد، يقول عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: «إن لكل سفر زادًا لا محالة، فتزودوا من الدنيا للآخرة، وكونوا كمن عاين ما أعد الله تعالى من ثوابه وعقابه، ترغبون وترهبون، ولا يطولن عليكم الأمد فتقسو قلوبكم، وتنقادوا لعدوكم، فإنه والله ما بُسط أمل مَن لا يدري، لعله لا يُصبح بعد مسائه، ولا يمسي بعد صباحه، وربما كانت بين ذلك خطفات المنايا، فكم رأينا ورأيتم من كان بالدنيا مغترًا، وإنما تقر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله، وإنما يفرح مَن أمن مِن أهوال القيامة». [سيرة عمر بن عبد العزيز ص٢٥٨].

زاد التقوى:

وأول وخير زاد يحتاج إليه المسافر إلى ربه ومولاه «التقوى» وبه أوصى ربنا عباده فقال تعالى: «وَتَزَوَّدُوا۟ فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ» [البقرة: ١٩٧]. والآية تشير إلى أن الزاد أنواع، غير أن أفضله وأعلاه «التقوى»، وقد ذكر الرازي - رحمه الله - أن المراد: تزودوا من التقوى، وتحقيق الكلام فيها أن الإنسان له سفران: سفر في الدنيا، وسفر من الدنيا، فالسفر في الدنيا لا بد له من زاد، وهو الطعام والشراب والمركب والمال، والسفر من الدنيا لا بد فيه أيضًا من زاد، وهو معرفة الله ومحبته والإعراض عما سواه، وهذا الزاد خير من الزاد الأول لوجوه:

أحدها: أن زاد الدنيا يخلّصك من عذاب موهوم، وزاد الآخر يخلّصك من عذاب متيقن.

وثانيها: أن زاد الدنيا يخلصك من عذاب منقطع، وزاد الآخرة يخلصك من عذاب دائم.

وثالثها: أن زاد الدنيا يوصلك إلى لذة ممزوجة بالآلام والأسقام والبليات، وزاد الآخرة يوصلك إلى لذات باقية خالصة عن شوائب المضرة، آمنة من الانقطاع والزوال.

ورابعها: أن زاد الدنيا كل ساعة في الإدبار والانقضاء، وزاد الآخرة يوصلك إلى الآخرة، وهي كل ساعة في الإقبال والقرب والوصول. [انظر تفسير الرازي ج٣/١٨٩].

وإذ ثبت أن خير الزاد التقوى، فعلى كل عاقل أن يعمل بسعي وجد لتحصيل هذا الزاد.

وصية الله للأولين والآخرين:

التقوى وصية الله للأولين والآخرين، قال الله تعالى: «وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ» [النساء: ١٣١]. والمعنى: أن مالك السموات والأرض هو الله، وقد أمر الأولين والآخرين بتقواه، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي أصحابه بتقوى الله، كما في وصيته لأبي ذر ومعاذ - رضي الله عنهما - وفيها: «اتق الله حيثما كنت، وأتبع السيئة الحسنة تمحها، وخالق الناس بخُلق حسن». [رواه الترمذي وحسنه الألباني].

أصل التقوى ومعناها:

وأصل التقوى: أن يجعل العبد بينه وبين ما يخافه ويحذره وقاية تقيه منه، قال ابن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: «اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ» [آل عمران: ١٠٢] أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكر فلا يُنسى، ويُشكر فلا يكفر. [انظر تفسير ابن كثير ٥٣٢/١].

والتقوى تارة تضاف إلى اسم الله عز وجل كقوله تعالى: «وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ» [المائدة: ٩٦]. وقال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ» [الحشر: ١٨]. فإذا أضيفت التقوى إليه سبحانه، فالمعنى: اتقوا سخطه وغضبه وهو أعظم ما يُتقى، وعن ذلك ينشأ عقابه الدنيوي والأخروي، قال الله تعالى: «وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ» [آل عمران: ٢٨].

وقال سبحانه: «هُوَ أَهْلُ التَّقْوَىٰ وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ» [المدثر: ٥٦]. فهو سبحانه أهل لأن يُخشى ويُهاب ويُجل ويُعظم في صدور عباده حتى يعبدوه ويطيعوه؛ لما يستحقه سبحانه من الإجلال والإكرام وصفات الكبرياء والعظمة، وقوة البطش وشدة البأس.

وتارة تُضاف التقوى إلى عقاب الله ومكانه النار، أو إلى زمان العقاب كيوم القيامة كما في قوله تعالى: «وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ» [آل عمران: ١٣١]، وقال تعالى: «وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ» [البقرة: ٢٨١].

أعلى درجات التقوى وآثارها:

ويدخل في التقوى الكاملة: فعل الواجبات وترك المحرمات والشبهات، وربما دخل فيها بعد ذلك فعل المندوبات وترك المكروهات، وهي أعلى درجات التقوى، قال الله تعالى: «لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ» [البقرة: ١٧٧].

وقد اشتملت هذه الآية على جمل عظيمة وصفات كريمة من اتصف بها كان محققًا للإيمان، ومن أهل الصدق والتقوى، وقد وردت في القرآن الكريم آيات عديدة بينت منزلة التقوى وآثارها في العاجل والآجل، فمن آثارها العاجل قوله تعالى: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ» [الطلاق: ٢-٣]، وقوله تعالى: «وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا» [الطلاق: ٤]، وقوله: «إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ» [النحل: ١٢٨].

أما في الآجل والآخرة، فإنها تصحب صاحبها ابتداء إلى أبواب الجنة كما في قوله تعالى: «وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ» [الزمر: ٧٣]، فإذا ما دخلوها آخت بينهم وجددت روابطهم فيما بينهم، وآنستهم من كل خوف كما في قوله تعالى: «الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ ۝٦٧ يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنتُمْ تَحْزَنُونَ» [الزخرف: ٦٧- ٦٨]، إلى أن تنتهي بهم التقوى إلى أعلى عليين كما في قوله تعالى: «إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ۝٥٤ فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ

عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ» [القمر: ٥٤ - ٥٥]، ولهذا جعل الشاعر «جرير» التقوى هي سبيل السعادة كما في قوله:

ولست أرى السعادة جمع مال
ولكن التقي هو السعيد
فتقوى الله خير الزاد ذخرًا
وعند الله للأتقى مزيد

والتقوى دائمًا هي الدافع إلى كل خير، الرادع عن كل شر، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُذكِّر بها للإقبال على الصالحات، والاندفاع إلى فعل الخيرات، ويؤكد ذلك ما أخرجه مسلم عن المنذر بن جرير عن أبيه قال: «كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، قال: فجاء قوم حفاة عراة مجتابي النمار أو العباء، متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام فصلى ثم خطب فقال: «اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ» [النساء: ١]. والآية التي في الحشر: «اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ» [الحشر: ١٨]. تصدق رجل من دیناره، من درهمه، من ثوبه، من صاع بُرّه، من صاع تمره، حتى قال ولو بشق تمرة، قال: فجاء رجل من الأنصار بصُرَّة كادت كفه تعجز عنها، بل عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومين من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مُذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سنَّ في الإسلام سنة حسنة فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينتقص من أوزارهم شيء». [مسلم: ١٠١٧].

والشاهد من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قرأ بعض الآيات الآمرة بالتقوى، وكانت هي الدافع إلى سنّ سنة حسنة تهلل لها وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

كما أن التقوى تحول بين العبد وبين الوقوع في الشر، ولهذا نجد القرآن الكريم يُذكر بها في المعاملات بين الناس لدفع الظلم، والوفاء بالقسط والحق، كما قال تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ ۚ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ ۚ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ ۚ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ» [البقرة: ٢٨٢]، ولما خافت مريم على نفسها، وهي طاهرة عفيفة، عند مجيء جبريل - عليه السلام - إليها قالت له كما ذكر القرآن الكريم: «قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا» [مريم: ١٨]. قال البغوي في تفسيره: «فإن قيل: إنما يُستعاذ من الفاجر، فكيف قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيًا؟ قيل: هذا كقول القائل: «إن كنت مؤمنًا فلا تظلمني» أي: ينبغي أن يكون إيمانك مانعًا من الظلم، وكذلك هاهنا معناه: وينبغي أن يكون تقواك مانعًا لك من الفجور». [انظر ج٣/١٩١].

وكما في حديث النفر الثلاثة الذين آواهم المبيت إلى الغار، وفيه قصة الرجل الذي راود امرأة عن نفسها وظل بها حتى قعد بين رجليها، وعندئذ قالت له: «اتق الله، ولا تفض الخاتم إلا بحقه». فقام عنها وتركها وأعطاها المال. [انظر البخاري حديث (٣٤٦٥)]. وهكذا في كل تصرفات العبد كما في قوله تعالى: «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ» [الحج: ٣٢].

صفات المتقين:

وقد وصف الله المتقين في كتابه بأجمل الصفات وكريم الأخلاق، فقال تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ۗ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٥﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاؤُهُم مَّغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ» [آل عمران: ١٣٣- ١٣٦]. فوصف الله المتقين في هذه الآيات بمعاملة الخلق بالإحسان إليهم بالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عنهم، فجمع بين وصفهم ببذل الندى واحتمال الأذى، وهذا هو غاية حسن الخلق الذي وصى به النبي صلى الله عليه وسلم، ثم وصفهم بأنهم إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم، ولم يصروا عليها، وقد وردت نصوص كثيرة في

مغفرة الذنوب وتكفير السيئات للمتقين كقوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ » [الأنفال: ٢٩]، وقوله جل وعلا: « وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يُكَفِّرۡ عَنۡهُ سَيِّـَٔاتِهِۦ وَيُعۡظِمۡ لَهُۥٓ أَجۡرًا » [الطلاق: ٥].

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم - يتواصون بالتقوى، فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه يقول في خطبه: أما بعد، فإني أوصيكم بتقوى الله وأن تثنوا عليه بما هو أهله، وأن تخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته، فقال: « إِنَّهُمۡ كَانُواْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِ وَيَدۡعُونَنَا رَغَبٗا وَرَهَبٗاۖ وَكَانُواْ لَنَا خَٰشِعِينَ » [الأنبياء: ٩٠].

ولما حضرته الوفاة وعهد إلى عمر رضي الله عنهما دعاه فوصاه بوصيته، وأول ما قاله له: اتق الله يا عمر.

وكتب عمر إلى ابنه عبد الله: أما بعد، فإني أوصيك بتقوى الله عز وجل، فإنه من اتقاه وقاه، ومن أقرضه جزاه، ومن شكره زاده، واجعل التقوى نصب عينيك وجلاء قلبك.

واستعمل علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - رجلاً على سرية فقال له: أوصيك بتقوى الله عز وجل الذي لا بد لك من لقائه، ولا منتهى لك دونه، وهو يملك الدنيا والآخرة. [انظر جامع العلوم والحكم ص٢٠٢].

وإني في هذا المقام أذكر نفسي وإخواني بتقوى الله تعالى، واغتنام الأوقات الفاضلات لتحصيل هذا المقصود الذي فيه سعادة الدنيا والآخرة، وعلى العبد الإقبال بهمة عالية على طاعة ربه ومولاه، وصدق اللجأ إليه، والاستعانة به وحده دون سواه، مع ضرورة اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك؛ لأنه هو الإمام الذي أوجب الله طاعته، وحذّر من مخالفته، وهذا يستوجب سلوك طريقه واتباع سنته، وعدم الابتداع في الدين الذي بُعث به.

وهذا يدعو العبد إلى تحصيل العلم الذي به يبصر الطريق، ويكون لعمله القبول، ورحم الله الإمام ابن القيم الذي يقول: «السائر إلى الله والدار الآخرة، بل كل سائر إلى مقصد، لا يتم سيره ولا يصل إلى مقصوده إلا بقوتين: قوة علمية، وقوة عملية، فبالقوة العلمية يبصر منازل الطريق ومواضع السلوك فيقصدها سائرًا فيها، ويجتنب أسباب الهلاك ومواضع العطب وطرق المهالك المنحرفة عن الطريق الموصل، فقوته العلمية كنور عظيم بيده يمشي في ليلة عظيمة مظلمة شديدة الظلمة، فهو يبصر بذلك النور ما يقع الماشي في الظلمة في مثله من الوهاد والمتالف، ويعثر به من الأحجار والشرَك وغيره، ويبصر بذلك النور أيضًا أعلام الطريق وأدلتها المنصوبة عليها فلا يضل عنها، فيكشف له النور عن الأمرين: أعلام الطريق ومعاطبها، وبالقوة العملية يسير حقيقة، فإن السير هو عمل المسافر، وكذلك السائر إلى ربه إذا أبصر الطريق وأعلامها وأبصر الطرق الناكبة عنها فقد حصل له شطر السعادة والفلاح، وبقي عليه الشطر الآخر، وهو أن يضع عصاه على عاتقه ويشمر مسافرًا في الطريق قاطعًا منازلها منزلة بعد منزلة، فكلما قطع مرحلة استعد لقطع الأخرى واستشعر القرب من المنزل فهانت عليه مشقة السفر، وكلما سئمت نفسه من كلال السير ومواصلة الشد والرحيل وعدها قرب التلاقي وبرد العيش عند الوصول، فيُحدث لها ذلك نشاطا وفرحًا وهمة، فهو يقول: يا نفس أبشري فقد قرب المنزل ودنا التلاقي، فلا تنقطعي في الطريق دون الوصول، فيحال بينك وبين منازل الأحبة، فإن صبرت وواصلت المسير وصلت حميدة مسرورة جذلة، وتلقتك الأحبة بأنواع التحف والكرامات، وليس بينك وبين ذلك إلا صبر ساعة، فإن الدنيا كلها كساعة من ساعات الآخرة، وعمرك درجة من درج تلك الساعة، فالله الله لا تنقطعي في المفازة، فهو والله الهلاك والعطب لو كنت تعلمين».. [طريق الهجرتين لابن القيم: ١٨٣].

فيا عبد الله، سر في طريقك إلى الله، واستثمر أوقات الفضل، واغتنم الرحمة في شهر القرآن، وعليك بالعلم والعمل تحقق الأمل، وتصل إلى المطلوب، وهو خير زاد الصالحين: «وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيۡرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقۡوَىٰۚ » [البقرة: ١٩٧].

أسأل الله تعالى أن يجعلني وإياكم من المتقين المقبولين، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

حقوق الراعي والرعية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد عاشت مصر قرابة سنة ونصف في أحداث كبيرة، شهدت سقوط النظام الحاكم، وإجراء انتخابات متعددة، أتت بمجلس الشعب والشورى والرئيس الحاكم، وكنت خلال هذه الفترة أرقب هذه الأحداث وأشاهد التطورات، وقد منَّ الله عليَّ بكتابة مقالات على صفحات مجلة التوحيد المباركة، شاركت من خلالها في تقديم رؤى تصحح ما يكون من خطأ، وتساهم في إرساء دعائم الحق، ومن ذلك ما كتبته في مقالين عن وجوب المحافظة على الثوابت، وذلك بسبب هجوم البعض على دعوة أنصار السنة بسبب تركيزها على دعوة الناس إلى توحيد الله وإفراده بالعبادة وحده دون سواه. وقد غاب عن هؤلاء، أو تجاهلوا أن هذا هو أصل الأصول في الدين، وأنه أساس دعوة الأنبياء والمرسلين.

ولما شاهدت غلوًا من البعض في طرح بعض القضايا، والانصراف إلى الدفاع عن الحزبيات وغيرها على حساب دعوة الحق، وجّهت دعوة لعلماء الأمة بضرورة لزوم السنة والسير على منهاج النبوة، كما قدمت رؤية شرعية للخروج من الأزمة التي تمر بها البلاد، ولم أنس في هذه المرحلة أن أوجه رسالة للرئيس قبل أن أعرف مَن هو، لتكون رسالة موجهة لشخص أعرف ملامحه، وقد وقع اختيار الشعب بالأغلبية على الدكتور محمد مرسي ليكون رئيسًا للبلاد، فمرحبًا به، ونسأل الله له العون والتوفيق والسداد، والله يؤتي ملكه من يشاء، وقد جالسته قبل الرئاسة وبعدها مع بعض إخواني في مجلس شورى العلماء، واستمع إلينا واستمعنا منه، ولمست فيه الرغبة في خدمة دينه ووطنه، وتطبيق شرع ربه ما استطاع، ورفع قدر هذه الأمة والمحافظة عليها، مع إرساء دعائم الحق والعدل مع الجميع دون تفرقة بين الناس، وقد عاهد الله أمامنا على ذلك.

وأود أن أقول له في بداية هذه الكلمة: اعلم أن الولاية النافعة هي لمن اتخذها دينًا يتقرب بها إلى الله، ويفعل فيها الواجب الشرعي قدر الإمكان، ففي الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادل...».

حقوق واجبة على الرعية للحاكم:

ومن باب النصيحة الواجبة على كل مسلم لأخيه أذكر هنا حقوق الراعي والرعية ليعرف كل واحد ما له وما عليه، وقد ذكر ابن جماعة رحمه الله عشرة حقوق واجبة على الرعية للحاكم أبدأ بها هنا، وهذا بيانها:

الحق الأول: بذل الطاعة له ظاهرًا وباطنًا، وهذا يكون لازمًا في المعروف فحسب، فإن أمر بمعصية فلا طاعة له، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «السمع والطاعة على المرء فيما أحب

أو كره، ما لم يُؤمر بمعصية، فإذا أُمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة». [البخاري: ٧١٤٤، ومسلم: ١٨٣٩].

وقال تعالى في كتابه الكريم: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ» [النساء: ٥٩]. وأولو الأمر هم: الأمراء والعلماء، وقد ذكر ابن كثير رحمه الله أقوالاً في ذلك عن الصحابة والتابعين وغيرهم، ثم قال: «والظاهر - والله أعلم - أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء، كما تقدم، وقد قال تعالى: «لَوۡلَا يَنۡهَىٰهُمُ ٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ عَن قَوۡلِهِمُ ٱلۡإِثۡمَ وَأَكۡلِهِمُ ٱلسُّحۡتَۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ» [المائدة: ٦٣]. وقال تعالى: «فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ» [النحل: ٤٣].

وفي الحديث المتفق عليه عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني». [تفسير ابن كثير ٧١٣/١].

الحق الثاني: بذل النصيحة له سرًا وعلانية، كما في حديث تميم الداري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدين النصيحة». قلنا: لمن؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم. [مسلم: ٥٥].

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وهذا حديث عظيم الشأن وعليه مدار الإسلام». ثم ذكر كلام الخطابي في شرح الحديث، ومما ذكر: أن النصيحة لله تنصرف إلى الإيمان به، ونفي الشريك عنه، ووصفه بصفات الجلال والكمال، وأما النصيحة لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتصديقه على الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به وطاعته في أمره ونهيه ونصرته حيًا وميتًا، ومعاداة من عاداه وموالاة من والاه، وإعظام حقه وتوقيره، وإحياء طريقته وسنته، وبث دعوته ونشر شريعته، وأما النصيحة لأئمة المسلمين فمعاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به، وتنبيههم وتذكيرهم برفق ولطف، وإعلامهم بما غفلوا عنه ولم يبلغهم من حقوق المسلمين، وترك الخروج عليهم وتألف قلوب الناس لطاعتهم.

ومن النصيحة لهم: الصلاة خلفهم والجهاد معهم، وأداء الصدقات إليهم، وترك الخروج بالسيف عليهم إذا ظهر منهم حيف أو سوء عشرة، وألا يُغرُّوا بالثناء الكاذب عليهم، وأن يُدعى لهم بالصلاح، وأما نصيحة عامة المسلمين وهم من عدا ولاة الأمر، فإرشادهم لمصالحهم في آخرتهم ودنياهم، وكفّ الأذى عنهم، فيعلمهم ما يجهلونه من دينهم، ويعينهم عليه بالقول والفعل، وستر عوراتهم، وسد خلاتهم، ودفع المضار عنهم، وجلب المنافع لهم. [انظر شرح النووي على مسلم ج٢/٣٧- ٢٣٩].

أسلوب الوعظ للحكام والسلاطين:

ومما تجدر الإشارة إليه هنا: أسلوب الوعظ للحكام والسلاطين، وذلك يكون بالترفق في الخطاب والرفق واللين وتحبيبهم في الخير بأوجز لفظ وأبلغ مقال، يقول سفيان الثوري: «ينبغي لمن وعظ ألا يعنّف، ولمن وُعظ ألا يأنف، ويذكّر

اعلم أن الولاية النافعة هي لمن اتخذها ديناً يتقرب بها إلى الله، ويفعل فيها الواجب الشرعي قدر الإمكان وقد وقع اختيار الشعب المصري على الدكتور محمد مرسي ليكون رئيساً للبلاد. ونسأل الله له العون والتوفيق والسداد!!

من يعظه ويخوّفه بما يناسب الحال، وما يحصل به المقصود، ولا يطيل، ولكل مقام مقال، ولكل فن رجال».

ويذكر ابن الجوزي - رحمه الله - الطريقة المثلى في نصح الحكام فيقول: «ينبغي لمن وعظ سلطانًا أن يبالغ في التلطف، ولا يواجهه بما يقتضي أنه ظالم، فإن السلاطين حظهم التفرد بالقهر والغلبة، فإذا جرى نوع توبيخ لهم كان إذلالاً، وهم لا يحتملون ذلك، وإنما ينبغي أن يخرج وعظه بذكر شرف الولاية، وحصول الثواب في رعاية الرعايا، وذكر سير العادلين من أسلافهم». [صيد الخاطر: ٤٥٣].

على المنصوح قبول النصيحة والاتعاظ بغيره، فالكراسي لا تدوم، وقد كان السلف الصالح يقبلون النصيحة وتؤثر فيهم.

وعلى المنصوح قبول النصيحة والاتعاظ بغيره: والكراسي لا تدوم، وقد كان بعض السابقين يقبلون النصيحة وتؤثر فيهم، وقد ذكر ابن رجب أنَّ ابن الجوزي نصح أمير المؤمنين المستضيء بأمر الله الحسن بن يوسف فقال:

ستنقلك المنايا عن ديارك

ويبدلك الردى دارًا بدارك

وتترك ما عُنيت به زمانًا

وتُنقل من غناك إلى افتقارك

فدود القبر في عينيك يرعى

وترعى عين غيرك في ديارك

فجعل المستضيء يمشي في قصره ويقول: إي والله، وترعى عين غيرك في ديارك، ويكررها ويبكي حتى الليل. [انظر: ذيل طبقات الحنابلة ٤٠٩/١].

ولأهمية النصيحة وضرورة بذلها للحكام، فإني أنصح العلماء والحكماء بذلك، وأنصح من ولاهم الله أمور المسلمين بقبول الوعظ والنصيحة والتواضع لذلك، وعليهم أن يقرّبوا العلماء منهم ويستمعوا إليهم ويشاوروهم، وأن يصدروا عن رأيهم، ففي ذلك الخير لهم ولشعوبهم وأوطانهم.

الحق الثالث: القيام بنصرتهم باطنًا وظاهرًا ببذل المجهود في ذلك؛ لما فيه نصر المسلمين وإقامة حرمة الدين، وكف أيدي المعتدين، والقعود عن نصرة الحاكم يضيِّع هيبة الدولة ويضعفها، وعليه فلو خرجت فئة على الإمام الحق وبغت عليه، أو قام أحد ينازعه الحكم أو الخلافة بعد بيعته، فيجب في هذه الحالة الوقوف ضدهم وصد عدوانهم وبغيهم، وهذا حق من حقوق الإمام على رعيته، وقد روى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء، كلما هلك نبي خلفه نبي، وإنه لا نبي بعدي، وسيكون خلفاء فيكثرون » قالوا: فما تأمرنا؟ قال: « فوا ببيعة الأول فالأول، أعطوهم حقهم، فإن الله سائلهم عما استرعاهم». [البخاري ٣٤٥٥، ومسلم: ١٨٤٢]. قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وفي الحديث تقديم أمر الدين على أمر الدنيا؛ لأنه صلى الله عليه وسلم أمر بتوفية حق السلطان لما فيه من إعلاء كلمة الدين وكف الفتنة والشر». [فتح الباري ٤٩٧/٦].

الحق الرابع: أن يُعرَف له عظيم حقه، وما يجب من تعظيم قدره، فيُعامَل بما يجب له من الاحترام والإكرام، وما جعل الله تعالى له من الإعظام، ولذلك كان العلماء الأعلام من أئمة المسلمين يعظمون حرمتهم، ويلبون دعوتهم مع زهدهم وورعهم وعدم الطمع فيما لديهم، وما يفعله بعض المنتسبين إلى الزهد من نقيض ذلك فليس من السنة.

الحق الخامس: إيقاظه عند غفلته، وإرشاده عند هفوته، شفقةً عليه، وحفظًا لدينه وعرضه.

الحق السادس: تحذيره من عدو يقصده بسوء، وحاسد يرومه بأذى، أو خارجي يخاف عليه منه، ومن كل شيء يخاف عليه على اختلاف أنواع ذلك وأجناسه، فإن ذلك من آكد حقوقه وأوجبها، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يقومون بذلك مع الخلفاء الراشدين، وقد وقع منهم ذلك لعثمان وعلي رضي الله عنهما على الخصوص.

الحق السابع: إعلامه بسيرة عماله، الذين هو مطالب بهم، ومشغول الذمة بسببهم لينظر لنفسه في خلاص ذمته، وللأمة في مصالح ملكه ورعيته، وهذا يدعوه أولاً إلى اختيار الأكفاء الأمناء، وعلى الرعية الصدق والمعروف في الحكم على عمال الوالي وسائر من أسند إليهم شيئًا من الاختصاصات، والإنصاف مطلوب.

الحق الثامن: إعانته على ما تحمله من أعباء الأمة ومساعدته على ذلك بقدر الإمكان، قال الله تعالى: «وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ» [المائدة: ٢]، وأحق من أعين على ذلك ولاة الأمور، والأمر بالتعاون على البر والتقوى واجب على كل فرد إيجابًا دينيًا بنص القرآن الكريم.

وعليه فإني أهيب بعموم الشعب المصري أن يعين بعضهم بعضًا على كل عمل من أعمال البر التي تنفع الناس في دينهم ودنياهم، وتدفع عنهم المضار والمفاسد في دينهم ودنياهم.

الحق التاسع: رد القلوب النافرة عنه إليه، وجمع محبة الناس عليه؛ لما في ذلك من مصالح الأمة وانتظام أمور الملة، وهذا يدعو إلى عدم تهييج الناس عليه، ونهي العامة عن الخوض في عرضه والنيل منه. قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «المؤمن يستر وينصح، والفاجر يهتك ويعير». [جامع العلوم والحكم ص١٠٩].

الحق العاشر: الذبّ عنه بالقول والفعل، وبالمال والنفس والأهل في الظاهر والباطن، والسر والعلن.

وإذا وفت الرعية بهذه الحقوق العشر الواجبة، وأحسنت القيام بمجامعها والمراعاة لموقعها، صفت القلوب، وأخلصت، واجتمعت الكلمة، وانتصرت.

نسأل الله العون والتوفيق، وللحديث صلة بإذن الله عن واجبات الحاكم.

والحمد لله رب العالمين.

لأهمية النصيحة وضرورة بذلها للحكام، فإني أنصح العلماء والحكماء بذلك، وأنصح من ولاهم الله أمور المسلمين بقبول الوعظ والنصيحة والتواضع لذلك، وعليهم أن يقرّبوا العلماء منهم ويستمعوا إليهم ويشاوروهم!!

الخلافة الراشدة

شروط الحاكم وواجباته

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مالك الملك، يعز من يشاء ويذل من يشاء، له الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة والسلام على البشير النذير الداعي إلى الصراط المستقيم، وعلى آله وصحبه الأطهار الطيبين، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي الحقوق الواجبة على الرعية تجاه الحاكم، وفي هذا اللقاء أذكر الشروط الواجب توفرها في الحاكم، وما يجب عليه تجاه رعيته، فأقول وبالله التوفيق:

إن منصب الإمامة والحكم كبير، ولذلك اشترط الفقهاء شروطًا يجب توفرها في الخليفة، وهي باختصار كما يلي:

شروط الحاكم

أولاً: التكليف، وشروط التكليف: الإسلام، والبلوغ، والعقل، فالكافر والصغير والمجنون لا يصلحون لهذا المنصب الذي تُناط به مهمات عظيمة، ولا يتصور أن يكون غير المكلف خليفة للمسلمين.

الشرط الثاني: العدالة، والمراد بها: أن يكون سليمًا في معتقده، معظمًا لشعائر الإسلام وعلى رأسها التوحيد، صادق اللهجة، ظاهر الأمانة، عفيفًا عن المحارم، متوقيًا المآثم، بعيدًا عن الريب، مألوفًا في الرضا والغضب، مستعملاً مروءته.

الشرط الثالث: الذكورة، فالمرأة لا تصلح في الولاية الكبرى، وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أهل فارس قد ملكوا عليهم بنت كسرى قال: «لن يفلح قوم ولوا أمرهم امرأة». [البخاري: ٤٤٢٥].

ولم أعرف في التاريخ أن امرأة تولت أمر المسلمين؛ لأن الحاكم يحتاج إلى أن يخلو بمستشاريه ويقود الجيوش، والمرأة لا تستطيع ذلك، خاصة أنه يعتريها أيضا أمور لا تخفى تمنعها أو تؤثر في القيام بواجبات الخلافة.

الشرط الرابع: العلم بأمور الدين والدنيا ليتمكن من سياسة أمور الأمة، والعلم يكشف لصاحبه الظلمات.

الشرط الخامس: الحرية وسلامة الحواس والأعضاء مما يؤثر في العلم والعمل، وأما عن واجبات الإمارة وما يجب أن يقوم به الحاكم، فهي أمور كثيرة منها ما يتعلق بالعبادة وإقامة شعائر الدين، ومنها ما يتعلق بأمن البلاد والعباد، وقد اهتم الفقهاء بذكر واجبات الحاكم؛ لإدراكهم أهمية منصبه، ولأن في صلاحه صلاحًا للبلاد والعباد، وقد ذكر الماوردي وابن جماعة وغيرهما - رحمهما الله - الحقوق الواجبة على الحاكم وهي عشرة أذكرها وأبينها هنا وهي كالآتي:

الحق الأول: حماية بيضة الإسلام والذبّ عنها، وهذا يكون في جميع أماكن الدولة، ومن حماية بيضة الإسلام: القيام بحراسة العقيدة وصيانتها من أرباب البدع والخرافة الذين يفسدون العقائد الصحيحة، وعلى الحاكم الإنفاق بسخاء في هذا الجانب، وتوظيف أجهزة الدولة في جميع المؤسسات التعليمية ووزارة الأوقاف، ووسائل الإعلام لنشر العقيدة الصحيحة والعناية بها في كل البرامج، ولا يستقيم الحكم في بلد وتستقر أوضاعه إلا برعاية العقيدة وتنفيذ الشريعة، قال الله تعالى:

« وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ » [النور: ٥٥].

وقد تحقق هذا الوعد الكريم للنبي صلى الله عليه وسلم وصحابته؛ وذلك لصدق توحيدهم، فقد أنجز الله لهم وعده، وأظهرهم

على جزيرة العرب، ومزقوا ملك الأكاسرة والقياصرة، وملكوا خزائنهم، وصاروا إلى حال يخافهم كل من عداهم، قال الشنقيطي رحمه الله في تفسيره للآية: «ذكر جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه وعد الذين آمنوا وعملوا الصالحات من هذه الأمة ليستخلفنهم في الأرض: أي ليجعلنهم خلفاء الأرض، الذين لهم السيطرة فيها، ونفوذ الكلمة، والآيات تدل على أن طاعة الله بالإيمان والعمل الصالح سبب للقوة والاستخلاف في الأرض ونفوذ الكلمة كقوله تعالى: «وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ» [الحج: ٤٠]. (أضواء البيان: ٦/٢٤٦).

ومن حماية بيضة الإسلام والذب عنه جهاد المشركين، ودفع المحاربين والباغين، وتدبير الجيوش، وتجنيد الجنود، وتحصين الثغور بالعدة المانعة والعدة الدافعة، والنظر في ترتيب الأجناد في الجهات على حسب الحاجات، وتقدير أرزاقهم وصلاح أحوالهم.

الحق الثاني: حفظ الدين على أصوله المقررة وقواعده المحررة، ورد البدع والمبتدعين؛ لتبقى راية السنة ظاهرة، ويسلم الناس في دينهم لاتباعهم سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، ومن المعلوم أن الابتداع في الدين يهدم سنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ويناقض قول الله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا» [المائدة: ٣]، وما أكمله الله لا يحتاج إلى زيادة أبدًا، وكان النبي صلى الله عليه وسلم في بداية خطبه يعظم هديه وسنته، وينهى عن المحدثات والبدع كما في حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في خطبه: «أما بعدُ: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة». [مسلم: ٨٦٧].

وعليه فيجب على الحاكم المسلم التصدي بحزم وقوة للبدع وأصحابها، ويدخل في حفظ الدين: نشر العلوم الشرعية وإشاعتها بين الناس، وتعظيم العلم وأهله، والعناية بهم، ومساعدتهم في أعمالهم، ومخالطتهم ومشاورتهم في موارد الأحكام، والعلماء الأعلام الربانيون نصحاء لدين الإسلام وأمناء على الأمة، وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا استعمل رجلاً أشهد عليه رهطا من الأنصار وقال له: «لم أستعملك على دماء المسلمين ولا على أعراضهم، ولكني استعملتك عليهم لتقسم بينهم بالعدل، وتقيم فيهم الصلاة، واشترط عليه ألا يأكل نقيًا، ولا يلبس رقيقًا، ولا يركب برذونًا، ولا يغلق بابه دون حوائج الناس». [مصنف ابن أبي شيبة (٣٢٩٢٠)، وانظر مستدرك الحاكم ٤/٤٣٩، ومصنف عبد الرزاق].

الحق الثالث: إقامة شعائر الإسلام كفروض الصلوات، والجُمَع والجماعات، والأذان والإقامة، والخطابة والإمامة، ويلزم من ذلك العناية ببيوت الله وتهيئتها بما يليق بها، ويدفع العابد إلى ارتيادها، ويعتني بالقائمين عليها.

ومن إقامة شعائر الإسلام أيضًا: النظر في أمر الصيام والفطر، وأهلته، وحج بيت الله الحرام وعمرته، وتيسير طرق الحجيج، وتنظيم ذلك للتيسير على قاصدي البيت الحرام، وعليه أن يحمل الناس على طاعة الله والتزام شرعه في جميع مناحي الحياة، فلا يسمح مثلاً بالفطر جهارًا في رمضان، أو ترك المفسدين في الأرض ليشغلوا العباد عن عبادة ربهم بألوان الفساد والمنكرات.

الحق الرابع: فصل القضايا والأحكام، ويكون ذلك بتقليد الولاة والحكام لقطع المنازعات بين الخصوم، وكف المظالم عن المظلوم، ولا

على الحاكم حماية بيضة الإسلام والدفاع عنه، وجهاد المشركين وتدبير الجيوش وتحصين الثغور، وحفظ الدين وردّ البدع والمبتدعين لتبقى راية السُّنَّة ظاهرة.

يولي ذلك إلا لمن يثق في دينه وأمانته من العلماء والصلحاء، وذوي الكفاءة والنصحاء، ولا يدع السؤال عن أخبارهم والبحث عن أحوالهم، ليعلم حال الرواة مع الرعية، فإنه مسئول عنهم، وقد ذكر الماوردي أن المأمون رحمه الله كتب في اختيار وزير له ما يلي: «إني التمست لأموري رجلاً جامعًا لخصال الخير، ذا عفة في خلائقه واستقامة في طرائقه، قد هذبته الآداب وأحكمته التجارب، إن اؤتمن على الأسرار قام بها، وإن قُلد مهمات الأمور نهض فيها، يُسكته الحلم، ويُنطقه العلم، وتكفيه اللحظة، له صولة الأمراء وأناة الحكماء، وتواضع العلماء وفهم الفقهاء، إن أُحسن إليه شكر، وإن ابتُلي بالإساءة صبر، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده، يسترق قلوب الرجال بخلابة لسانه وحُسن بيانه». [الأحكام السلطانية /٦٢].

وإذا توفرت هذه الأوصاف في مسئول فرأيه وتدبيره في حسن وتمام.

الحق الخامس: إقامة فرض الجهاد بنفسه، وبجيوشه أو سراياه، وذلك ليكون الدين لله وحده الله، قال الله تعالى: «وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ» [البقرة: ١٩٣].

ومن أهداف الجهاد في الإسلام: حماية الأمة الإسلامية، وإفساح الطريق للدعوة الإسلامية، وإنقاذ المستضعفين في الأرض، قال الله تعالى: «وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا» [النساء: ٧٥- ٧٦]، ويلزم من ذلك إعداد القوة الحربية المناسبة لكل عصر من إقامة المصانع وتدريب المقاتلين، قال الله تعالى: «وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ» [الأنفال: ٦٠].

الحق السادس: إقامة الحدود الشرعية على الشروط المرعية؛ صيانة لمحارم الله عن التجرؤ عليها، ولحقوق العباد عن التخطي إليها، وقد ذهب العلماء إلى أن الحدود زواجر وجوابر، فإقامتها ضروري لصلاح البلاد والعباد، والدولة هي التي تقوم بها، وعلى كل مسئول في مكانه أن يتقي الله عز وجل في محارمه، ومن يقوم على الحدود عليه أن يسوّي بين القوي والضعيف، والوضيع والشريف، وقد ذكر البخاري في صحيحه بابًا عنون له بقوله: «باب إقامة الحدود على الشريف والوضيع»، ثم ساق حديث عروة عن عائشة أن أسامة كلم النبي صلى الله عليه وسلم في امرأة فقال: «إنما هلك من كان قبلكم أنهم كانوا يقيمون الحد على الوضيع ويتركون الشريف، والذي نفسي بيده لو أن فاطمة فعلت ذلك لقطعت يدها». [البخاري: ٦٨٨٧].

وقد أفاد الحديث ترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه ولو كان ولدًا أو قريبًا أو كبير القدر، فالناس أمام حدود الله سواء، وإقامة الشرع فيهم وتنفيذ الحدود فيه سعادتهم وعزتهم وصيانتهم وأمنهم، قال الله تعالى: «وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [البقرة: ١٧٩].

الحق السابع: جباية الزكوات والجزية من أهلها، وأموال الفيء والخراج عند محلها، وصرف ذلك في مصارفه الشرعية، وجهاته المرضية، وضبط جهات ذلك، وتفويضه إلى الثقات من العمال، وفي وصية النبي صلى الله عليه وسلم لمعاذ لما أرسله إلى اليمن: «إياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب». [البخاري: ١٤٢٥].

من واجبات الإمام: إقامة الحدود الشرعية، وصيانة المحارم، وإفساح الطريق للدعوة الإسلامية، وإنقاذ المستضعفين في الأرض.

قال النووي في شرح هذا الحديث: «وفيه بيان عظم تحريم الظلم، وأن الإمام ينبغي أن يعظ ولاته ويأمرهم بتقوى الله تعالى، ويبالغ في نهيهم عن الظلم ويعرّفهم قبح عاقبته». [١٧٩/١].

والزكاة من أركان الإسلام، وقد أمر الله بها في مواطن في كتابه وقُرنت بالصلاة كثيرًا، كما ذكر القرآن الكريم مصارف الزكاة في سورة التوبة، ولو أخرج المسلمون زكاة أموالهم وهي حق عليهم للفقراء، ما بقي - بفضل الله - محتاج بين المسلمين.

الحق الثامن: النظر في أوقاف البر والقربات، وصرفها فيما هي له من الجهات، وعمارة القناطر وتسهيل سبل الخيرات، والأوقاف من أهم الموارد الاقتصادية للدولة الإسلامية، وهي نظام إسلامي عُمل به منذ الصدر الأول، وقد ذكر ابن حجر عن الواقدي أن أول صدقة موقوفة في الإسلام أراضي مخيريق التي أوصى بها النبي صلى الله عليه وسلم فوقفها النبي صلى الله عليه وسلم، قال الترمذي: لا نعلم بين الصحابة والمتقدمين من أهل العلم خلافًا في جواز وقف الأرضين. [فتح الباري ٤٠٢/٥].

كما ذكر القرطبي إجماع الصحابة على ذلك، وأفاد بأن أبا بكر وعمر وعثمان وعليًا وعائشة وفاطمة وعمرو بن العاص والزبير وجابرًا كلهم وقفوا الأوقاف، وأوقافهم بمكة والمدينة معروفة مشهورة. [تفسير القرطبي ٣٣٩/٦].

وعلى الجهات المعنية اليوم كوزارة الأوقاف العناية بها والرفع بذلك إلى رئيس الدولة، والعمل على توظيفها توظيفًا صحيحًا وتنميتها بما يعود على الأمة بالنفع والخير.

الحق التاسع: النظر في قسم الغنائم وتقسيمها، وصرف أخماسها إلى مستحقيها عملاً بقوله تعالى: «وَاعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَٰمَىٰ وَالْمَسَٰكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ» [الأنفال: ٤١].

الحق العاشر: العدل في سلطانه، وسلوك موارده في جميع شأنه، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَآءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ» [النحل: ٩٠]. وهذا أمر عام بالعدل في كل شيء، وقد تكرر كثيرًا في القرآن كما جاء الأمر بالحكم بين الناس بالعدل، وكان موجهًا إلى داود عليه السلام، قال الله تعالى: «يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ» [ص: ٢٦]، وقال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّواْ الْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ» [النساء: ٥٨]، وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من أمير عشرة، إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولاً، حتى يفكه العدل أو يوبقه الجور». [صحيح الجامع: ٥٦٩٥].

وقد قال الحكماء: عدل الملك حياة الرعية، وروح المملكة، فما بقاء جسد لا روح فيه، وعليه فيجب على مَن حكّمه الله تعالى في عباده، وملّكه شيئًا من بلاده أن يجعل العدل أصل اعتماده، وقاعدة استناده، لما فيه من مصالح العباد، وعمارة البلاد، ولأن نعم الله يجب شكرها، وأن يكون الشكر على قدرها، ونعمة الله على السلطان فوق كل نعمة، فيجب أن يكون شكره أعظم من كل شكر، وأفضل ما يشكر به السلطان لله تعالى: إقامة العدل فيما حكّمه فيه.

أسأل الله تعالى أن يوفق الحاكم والمحكوم لما فيه رضاه، وأن ينعم على البلاد والعباد، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

عدل الملك حياة الرعية؛ وروح المملكة؛ فلا قيمة لجسد بلا روح. فيجب على من حكّمه الله في عباده، وملّكه شيئًا من بلاده، أن يجعل العدل أصل اعتماده، وقاعدة استناده.

مقاصد الحج ومنافعه

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي امتن علينا بأفضل الشرائع والأحكام، وبّين لنا الحلال من الحرام، والصلاة والسلام على المصطفى المختار، وعلى آله وصحبه الطيبين الأبرار، وبعدُ:

فإن الحج ركن عظيم من أركان الإسلام، وفضله ومكانته ظاهرة للعيان، ويكفينا في بيان ذلك ما صح به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم الوارد في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «مَن حج فلم يرفث ولم يفسق رجع كيوم ولدته أمه» [أخرجه البخاري]. قال ابن حجر رحمه الله: «أي بغير ذنب، وظاهره غفران الصغائر والكبائر والتبعات». [فتح الباري: ٣/٣٨٣].

وهذا أول منافع الحج وفوائده؛ حيث يعود الحاجّ كأنه طفل بريء نقي لم يتلوث بالمعاصي والذنوب والسيئات، كما قرن النبي صلى الله عليه وسلم بين الحج والجهاد، مما يدل على فضل الحج ومكانته، ففي البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله، قيل: ثم ماذا؟ قال: جهاد في سبيل الله، قيل: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور. [البخاري: ١٥١٩].

فوائد الحج وفضائله:

ومن أبرز فوائد الحج: تحقيق التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده دون سواه، وهذا ظاهر جدًا في مناسك الحج وأعماله، فالحاج عندما يدخل في النسك يُسن له ترديد شعيرة عظيمة من شعائر الحج، ألا وهي التلبية، وكلماتها ناطقة بالتوحيد، معلنة بإسلام الوجه لله تعالى دون شريك، وفي البخاري عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». [البخاري: ١٥٤٩].

ولما صعد النبي صلى الله عليه وسلم على جبل الصفا نطق لله بالتوحيد، وعظّمه، وأثنى عليه، كما في حديث جابر بن عبد الله في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم لما رقى على الصفا استقبل القبلة، ووحد الله وكبره وقال: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده». [مسلم: ١٢١٨].

وفي هذا محو للشرك وإنهاء له في مكة المكرمة التي كانت قبل قليل تحارب الموحدين، وفي أول موسم للحج الذي كان إمام المسلمين فيه الصديق رضي الله عنه تنزل سورة براءة على النبي صلى الله عليه وسلم لتعلن إنهاء العلاقة بين التوحيد والشرك، ليكون الدين كله لله، قال الله تعالى: « وَأَذَانٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ» [التوبة: ٣]. وفي البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجة في المؤذنين، بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى ألا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان». قال حميد: ثم أردف النبي صلى الله عليه وسلم بعلي بن أبي طالب فأمره أن يؤذن ببراءة. قال أبو هريرة: فأذن معنا عليٌّ في أهل منى يوم النحر ببراءة، وألا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان. [البخاري: ٤٦٥٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «وأول هذه السورة الكريمة نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة تبوك وهمَّ بالحج، ثم ذكر أن المشركين يحضرون عامهم هذا الموسم على عادتهم في ذلك، وأنهم يطوفون بالبيت عراة، فكره مخالطتهم، وبعث أبا بكر الصديق رضي الله عنه أميرًا على الحج تلك السنة؛ ليقيم بالناس مناسكهم، ويعلم المشركين ألا يحجوا بعد عامهم هذا، وأن ينادي في الناس (براءة

من الله ورسوله)، فلما قفل أتبعه بعلي بن أبي طالب ليكون مبلغًا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لكونه عصبة له». [تفسير ابن كثير ٢/٤٥٢].

وإعلان هذه البراءة فيه هدم لجميع قواعد الجاهلية التي بُنيت على الشرك بالله جل في علاه.

منافع الحج:

ومن منافع الحج: إبراز روح الأخوة الإيمانية بين المؤمنين؛ تحقيقًا لقول رب العالمين: «إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» [الحجرات: ١٠]، والعالم اليوم يشهد ألوانًا عديدة من الصراعات تقوم على أساس الجنس أو اللون أو الثروة، والإسلام لا يعرف ذلك، ويظهر هذا في الحج بصورة واضحة، فلا إقليمية، ولا عنصرية، ولا عصبية لجنس أو لون، فالجميع في ثياب واحدة وعلى أرض واحدة، ولو دققت النظرات في أحوالهم لعرفت أن الوزير يقف ويعمل ما يعمله الغفير، والأستاذ الجامعي يشارك الطالب، وهم مع هذا يهتفون هتافًا واحدًا، ويتوجهون إلى رب واحد، وقبلة واحدة، ولا يتمايزون إلا بالتقوى، وقد نفى القرآن الكريم أن يكون اختلاف الناس إلى شعوب وقبائل وما يترتب على ذلك مبررًا للمفاضلة بين الناس، كما ينادى به بعض الناس اليوم، بل ينظر إلى هذا الاختلاف على أنه سبب للتعارف واللقاء، وليس للتخاصم والتنافر، أو البغي والتعاظم، وأشار إلى سبب المفاضلة الحقيقي، فقال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ» [الحجرات: ١٣]، وقد بينت الآية أن الفضل والكرم إنما هو بتقوى الله، لا بغيره من الانتساب إلى القبائل، أو المال والجاه، ورحم الله من قال:

فقد رفع الإسلام سلمان فارس
وقد وضع الكفر الشريف أبا لهب

وفي الآية اعتناء بالأنساب، وأنها شرعت للتعارف، وذم التفاخر بها، وأن التقي غير النسيب مقدم على النسيب غير التقي، قال ابن كثير رحمه الله: «وقد استدل بهذه الآية الكريمة من ذهب من العلماء إلى أن الكفاءة في النكاح لا تُشترط، ولا يُشترط سوى الدين». [تفسير ابن كثير ٤/٢٧٩].

وقال القاسمي رحمه الله في تفسيره: «لا كرامة بالنسب، لتساوي الكل في البشرية المنتسبة إلى ذكر وأنثى، والامتياز بالشعوب والقبائل إنما يكون لأجل التعارف بالانتساب، لا للتفاخر، فإنه من الرذائل، والكرامة لا تكون إلا بالاجتناب عن الرذائل الذي هو أصل التقوى، ثم كلما كانت التقوى أزيد رتبة، كان صاحبها أكرم عند الله وأجل قدرًا». [تفسير القاسمي ١٥/٥٤٦٩].

وقد ورد في معنى هذه الآية أحاديث كثيرة منها ما رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه: «قيل: مَنْ أَكْرَمُ النَّاس؟ قَالَ: أَتْقَاهُمْ، فَقَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَيُوسُفُ نَبِيُّ اللَّهِ ابْنُ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ نَبِيِّ اللَّهِ ابْنِ خَلِيلِ اللَّهِ. قَالُوا لَيْسَ عَنْ هَذَا نَسْأَلُكَ. قَالَ: فَعَنْ مَعَادِنِ الْعَرَبِ تَسْأَلُونِي؟ خِيَارُهُمْ فِي الْجَاهِلِيَّةِ خِيَارُهُمْ فِي الْإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا». [البخاري: ٢٣٥٣]، وفي الحج تظهر هذه المعاني الإيمانية في غاية الوضوح، وصدق من قال وهو يصف موقف الناس في الحج:

أرى الناس أصنافًا ومن كل بقعة
إليك انتهوا من غربة وشتات
تساووا فلا أنساب فيها تفاوت
لديك ولا الأقدار مختلفات

من منافع الحج: إبراز روح الأخوة مع المؤمنين، والعالم اليوم يشهد ألوانًا عديدة من الصراعات تقوم على أساس الجنس أو اللون أو الثروة، والإسلام لا يعرف ذلك، ويظهر هذا في الحج بصورة واضحة، فلا إقليمية، ولا عنصرية، ولا عصبية فالجميع في ثياب واحدة يتوجهون إلى رب واحد وقبلة واحدة ملبين ومهللين.

من ثمرات الحركة العلمية في موسم الحج:

من المنافع الكبيرة التي تحدث في موسم الحج تلك الحركة العلمية القوية التي تتم فيه، سواء كانت في الحرمين الشريفين، أو في مخيمات الحج في منى وعرفات، ومن المعلوم أن مكة - حرسها الله تعالى - تُعتبر من أكبر المراكز العلمية في العالم الإسلامي، حيث يقصدها العلماء وطلبة العلم من كل بقاع الدنيا، وهناك يلتقي العلماء ويتحاورون ويتناقشون، ومع امتداد الحركة العلمية في المملكة العربية السعودية اليوم وانتشار الجامعات بها، والمؤسسات العلمية المختلفة نرى نشاطًا علميًا ملحوظًا في موسم الحج يتمثل في توزيع الكتب والرسائل على الحجاج، وعقد ندوات ولقاءات ومحاضرات في مخيمات أقيمت لهذا الغرض تشرف عليها وتنظمها القطاعات المختلفة المشاركة في الحج كدار الإفتاء، ووزارة الشئون الإسلامية والأوقاف، والجامعات، والحرس الوطني، وغير ذلك، كما عقدت ندوات كبيرة اشترك فيها عدد كبير من العلماء والمثقفين من مشارق الأرض ومغاربها، وكانت تطرح فيها قضايا إسلامية حيوية وتناقش من أهل العلم والتخصص، وأذكر هنا على سبيل المثال عناوين بعضها:

١- «ندوة القدس والمسجد الأقصى في ضمير العالم الإسلامي» وقد عقدت في حج عام ١٣٩٩هـ.

٢- «ندوة العودة إلى الله طريق النجاة» وقد عقدت في حج عام ١٤٠١هـ.

٣- «ندوة الإيمان وأثره في سلوك الحاج» عقدت في عام ١٤٠٢هـ.

وبعض العلماء الذين كانوا يفدون إلى بلاد الحرمين للحج والعمرة كان يمكث فيها، وينتج عن ذلك الإسهام في إثراء الجوانب العلمية المختلفة، وتتلمذ على يد هؤلاء الآلاف من طلاب العلم، وقد تمتع بعض هؤلاء العلماء الأعلام بمكانة اجتماعية كبيرة أوصلت بعضهم إلى وظائف علمية وعملية كبيرة كالتدريس في المعاهد العلمية والجامعات، ومن هؤلاء: الشيخ / محمد الأمين الشنقيطي، والشيخ/ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ / حماد محمد الأنصاري، والشيخ / عطية سالم، رحمهم الله جميعًا، وبعضهم نال شرف الإمامة في الحرم المكي الشريف، ومن هؤلاء: الشيخ / عبد الرزاق حمزة، والشيخ / عبد الظاهر أبو السمح، رحمهما الله تعالى، وكانا من علماء وأئمة أنصار السنة المحمدية.

الحج ومكارم الأخلاق:

من منافع الحج: تعويد الحاج مكارم الأخلاق، وجميل الطباع، والصبر والتحمل والإيثار، وحب الخير للآخرين، ومشاركتهم في أفراحهم وهمومهم، كما يتعود الحاج ضبط اللسان، وكبح النفس الأمارة بالسوء، والنظام والدقة، وحسن ترتيب الأمور، والمحافظة على الوقت وقيمته، والناظر إلى أعمال الحج ومناسكه يدرك ذلك، فكل نسك له وقت محدد لا يسبق غيره، وكل ركن من أركان الحج له وقت معين، وخصوصية معينة، فترتيب المناسك ترتيبًا عمليًا وزمنيًا فيه تعويد حب النظام والترتيب، وحسن الأداء في العمل، وهذا يعطي صورة مشرقة عن الإسلام وأهله أمام أدعياء التقدم والمدينة، ويثبت للجميع أن الإسلام دين الحياة المستقيمة على طريق الهدى والنور، وهو فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومن منافع الحج العظيمة:

«ما يعود على بلاد الحرمين والوافدين إليها للعمل من سعة في الأرزاق؛ من خلال ألوان متعددة من التجارات، وهذا أمر مشروع أباحه رب العباد، قال الله تعالى: « وَأَذِّن فِي ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ

من منافع الحج: تعويد الحاج مكارم الأخلاق، والصبر والتحمل والإيثار، وحب الخير للآخرين، ومشاركتهم في أفراحهم وهمومهم، كما يتعود الحاج ضبط اللسان، وكبح النفس الأمارة بالسوء، والنظام والدقة، وحسن ترتيب الأمور، والمحافظة على الوقت وقيمته.

ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ» [الحج: ٢٧- ٢٨]، وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: كانت عكاظ ومجنة وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية، فتأثموا أن يتجروا في المواسم، فنزلت: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ» [البقرة: ١٩٨]. (البخاري: ٤٥١٩).

وقد أفادت الآية الترخيص لمن حج في التجارة ونحوها من الأعمال التي يُحَصِّل بها شيئًا من الرزق، وهو المراد بالفضل هنا، والمعنى: لا إثم عليكم في أن تبتغوا في مواسم الحج رزقًا ونفعًا، وهو الربح في التجارة مع سفركم لتأدية ما افترضه الله عليكم من الحج.

أسواق مكة وخيراتها:

وقد نالت مكة والمدينة شهرة تجارية واسعة استقطبت كثيرًا من تجار العالم الإسلام، ومكة تتميز عن غيرها في ذلك، ولعل موقعها على طريق القوافل التجارية من اليمن إلى الشام، وكذلك وجود بيت الله الحرام منذ بعيد أعطى لها أهمية تجارية عالمية.

وقد زخرت مكة المكرمة والمدينة النبوية بأسواقها المتعددة التي امتدت حول الحرمين الشريفين، وفي العصر الحاضر انتشرت التجارة فيها انتشارًا واسعًا، وأصبحت فيها أسواق متخصصة لكل ما يحتاجه الناس، وهذه الأسواق تُجلب إليها من بقاع الدنيا، وقد شاهد ابن بطوطة ذلك، وذكر أن سوق مكة كان يغص بالفواكه والخضروات كالتين والعنب والرمان، إلى جانب العسل وقصب السكر والتمور والزبيب الجيد، كما كانت تشتهر مكة بالأنعام القادمة لها من ضواحيها، خاصة في المواسم، فقد كثر بها أنواع اللحوم والألبان، كما اشتهرت مكة بصناعة الحلوى وتجارتها، وقد وصفها ابن جبير بالجودة وحلاوة المذاق، وقد وصفها بقوله: «إنها تفيد الأبصارَ وتستنزل الدرهم والدينار». [الرحلة لابن جبير/ ٩٨].

وأريد أن أشير هنا إلى أن أسواق مكة وخيراتها كانت متصلة عبر القرون، لا تنقطع تجارتها، ولا تقل خيراتها، وقد أمسك المكيون فيها بزمام التجارة، فكانوا يشترون ما يصل إليهم من منتجات مكة وضواحيها، وكذلك ما يصل إليها من مختلف أنحاء المعمورة ليبيعوه من جديد على الحجاج والمعتمرين، ولعل تنوع الأجناس البشرية وحاجياتهم المختلفة جعل للنشاط التجاري رواجًا مزدهرًا في موسم الحج، هذا علاوة على ما يحتاجه سكان الحجاز، وأهل البلاد المجاورة من ضروريات وكماليات، وقد صاحَبَ النشاط التجاري في الحج استخدام كثير من الأساليب التجارية والمالية، كالمكاييل المتنوعة، الشامية، والمصرية، والعراقية وكذلك الموازين.

كما راجت أنواع العملات المختلفة لسائر البلاد، واليوم ومع التقدم السريع والتقنية الحديثة ابتكرت ألوان جديدة من التجارات، تمثلت في وسائل المواصلات والاتصالات، بل الدور والعقارات وغير ذلك، زاد إقبال الناس اليوم بسبب هذه الوسائل بعد فضل الله وتوفيقه حتى أصبح الملايين من المسلمين يغدون على مدار العام إلى أرض الحرمين الشريفين، استجابة لدعاء خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام -: « رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ» [إبراهيم: ٣٧]. وقد سعدت بذلك البلاد والعباد، وتحقق فيهم قول رب الأرباب: « لِّيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ» [الحج: ٢٨].

والله ولي التوفيق والسداد.

من أبرز فوائد الحج: تحقيق التوحيد، وإخلاص العبادة لله وحده دون سواه، وهذا ظاهر جدًّا في مناسك الحج وأعماله، فالحاج عندما يدخل في النسك يُسن له ترديد شعيرة عظيمة من شعائر الحج، ألا وهي التلبية، وكلماتها ناطقة بالتوحيد، معلنة بإسلام الوجه لله تعالى دون شريك.

افتتاحية العدد

إن الله هو الحكم

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

فقد ذكرت في المقال السابق أن الحكم لله وحده، وأنه يجب اتباع شرعه وأمره، وذلك لأنه سبحانه وحده هو الخالق المنزه عما يصيب البشر من صفات العجز والضعف، الحكيم العليم الخبير الذي يعلم أحوال عباده وما يصلحهم ويقيم شأنهم، ومن تمام رحمته وعدله أن شرع لهم ما يحتكمون إليه، حتى في المخاصمات وشئون الحياة ليتحقق لهم العدل والخير والسعادة، والعبد إذا كان مؤمنًا انشرح صدره ورضي بحكم ربه الذي لا محاباة فيه ولا خلل ولا قصور.

وقد تحدث الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله عن صفات من يستحق أن يكون الحكم له، وطلب من كل عاقل أن يتأمل هذه الصفات، ويقابلها مع صفات البشر المشرّعين للقوانين الوضعية وينظر هل تنطبق عليهم صفات من له التشريع سبحانه؟

فإن انطبقت -ولن تكون- فليتبع تشريعهم، وإن ظهر أنهم أحقر وأذل وأصغر من ذلك، فليقف بهم عند حدهم، ولا يجاوزه بهم إلى مقام الربوبية، وكلامه نفيس جدًا أذكر بعضه باختصار في هذا المقام.

صفات من له الحكم والتشريع:

قال رحمه الله: «من الآيات القرآنية التي أوضح بها تعالى صفات من له الحكم والتشريع قوله سبحانه «وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠]، ثم قال مبينًا صفات من له الحكم: «ذَٰلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿١٠﴾ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴿١١﴾ لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [الشورى: ١٠- ١٢].

فهل في المشرعين للنظم الوضعية من يستحق أن يوصف بأنه الرب الذي تفوّض إليه الأمور، ويُتوكل عليه، وأنه فاطر السماوات والأرض، أي خالقهما ومخترعهما على غير مثال سابق، وأنه هو الذي خلق للبشر أزواجًا، وخلق لهم أزواج الأنعام الثمانية المذكورة في قوله تعالى: «ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِّنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ» [الأنعام: ١٤٣]، وأنه «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» [الشورى: ١١]، وأنه «لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ» [الشورى: ١٢]، وأنه «يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ» أي: يضيقه على من يشاء «وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ» [الحديد: ٣].

فعليكم أيها المسلمون أن تتفهموا صفات من يستحق أن يشرّع ويحرّم، ولا تقبلوا تشريعًا من كافر خسيس حقير جاهل، ونظير هذه الآية الكريمة قوله تعالى: «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» [النساء: ٥٩]، فقوله فيها: «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ» [النساء: ٥٩]، كقوله في هذه الآية «فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ» [الشورى: ١٠]، وقد عجب نبيه صلى الله عليه وسلم بعد قوله: «فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ» من الذين يدّعون الإيمان مع أنهم يريدون المحاكمة إلى من لم يتصف بصفات من له الحكم، المعبر عنه في الآية بالطاغوت، وكل من

تحاكم إلى غير شرع الله فقد تحاكم إلى الطاغوت، وذلك في قوله تعالى: « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا » [النساء: ٦٠]، فالكفر بالطاغوت الذي صرح الله بأنه أمرهم به في هذه الآية شرط في الإيمان، كما بينه تعالى في قوله: « فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ » [البقرة: ٢٥٦].

الحكم لله وحده:

فيُفهم منه أن من لم يكفر بالطاغوت لم يتمسك بالعروة الوثقى، ومن لم يستمسك بها فهو مترددٍ مع الهالكين، ومن الآيات الدالة على أن الحكم لله وحده، وأنه يجب الرجوع إلى تشريعه وأمره قوله تعالى: « وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٧٠﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٢﴾ وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » [القصص: ٧٠- ٧٣]. فهل في مشرّعي القوانين الوضعية من يستحق أن يوصف بأن له الحمد في الأولى والآخرة؛ لأنه هو الذي يصرف الليل والنهار مبينًا بذلك كمال قدرته وعظمة إنعامه على خلقه، سبحان خالق السماوات والأرض، جل وعلا أن يكون له شريك في حكمه أو عبادته أو ملكه، ومن الآيات الدالة على ذلك أيضًا ما جاء في قوله تعالى: « أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا » [الأنعام: ١١٤- ١١٥]، فهل في أولئك المذكورين من يستحق أن يوصف بأنه هو الذي أنزل هذا الكتاب مفصلاً، الذي يشهد أهل الكتاب أنه منزل من ربك الحق، وبأنه تمت كلماته صدقًا وعدلاً، أي صدقًا في الأخبار وعدلاً في الأحكام، وأنه لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم؟ سبحانه ربنا ما أعظمه وما أجل شأنه. [ولمزيد من البيان في هذا يراجع أضواء البيان ٧/١٦٣- ١٧٣].

ويستفاد من كل ما سبق أن كل من أطاع غير الله في تشريع مخالف لما شرعه الله، فقد أشرك به مع الله، واعتدى في ذلك على حق الله وحده الذي له الخلق والأمر سبحانه دون سواه، وقد عقد الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله بابًا في كتابه التوحيد بيَّن فيه حكم من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله، أو تحليل ما حرم الله، وأن من فعل ذلك فقد اتخذ هؤلاء أربابًا، وذكر تحته قول ابن عباس رضي الله عنهما: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وتقولون: قال أبو بكر وعمر»!! ثم ذكر تعجب الإمام أحمد من قوم وقفوا على الدليل، ثم يذهبون إلى آراء الرجال، والله يقول: « فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [النور: ٦٣]، ثم استدل بحديث عدي بن حاتم رضي الله عنه، وفيه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ قول الله تعالى: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ » [سورة التوبة: ٣١]، قال له: إنا لسنا نعبدهم. قال: «أليس يحرّمون ما أحل الله فتحرمونه، ويُحلون ما حرم الله فتحلونه؟» فقلت: بلى. قال: «فتلك عبادتهم. [الترمذي ٣٠٩٥ وحسنه الألباني].

> من أطاع غير الله في تشريع يخالف شرع الله فقد أشرك به مع الله غيره، واعتدى في ذلك على حق الله وحده الذي له الخلق والأمر سبحانه دون سواه.

وقد توافر أهل العلم على شرح هذا الباب الذي عقده الشيخ في كتابه التوحيد، وبينوا المراد منه غاية البيان، ومن ذلك ما قاله الشيخ ابن قاسم رحمه الله: «إنما يجب طاعة الأحبار والرهبان إذا أمروا بطاعة الله، فهي تبع لا استقلال، وأما إذا أمروا بمعصية الله فلا سمع لهم ولا طاعة، لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، كما هو معلوم من الكتاب والسنة وإجماع الأمة، ولما كانت هذه الطاعة من أنواع العبادة - بل هي العبادة - فإنها طاعة الله بامتثال ما أمر به على ألسنة رسله، نبَّه المصنف بهذه الترجمة على وجوب اختصاص الرب تعالى بها، وأنه لا يُطاع سواه إلا حيث كانت طاعته مندرجة تحت طاعة الله».

ثم نقل قول شيخ الإسلام ابن تيمية في هذه المسألة ونصه: «هؤلاء الذين اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله؛ حيث أطاعوهم في تحليل ما حرم الله، وعكسه يكونون على وجهين:

أحدهما: أنهم يعلمون أنهم بدلوا دين الله

فيتبعونهم على التبديل، فيعتقدون تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله، اتباعًا لرؤسائهم مع علمهم بأنهم خالفوا دين الرسول صلى الله عليه وسلم فهذا كفر، وقد جعله الله ورسوله شركًا، وإنه لم يكونوا يصلون لهم ويسجدون.

الثاني: أن يكون اعتقادهم وإيمانهم بتحريم الحلال، وتحليل الحرام ثابتًا، لكنهم أطاعوهم في معصية الله، كما يفعل المسلم ما يفعله من المعاصي التي يعتقد أنها معاصٍ، فهؤلاء لهم حكم أمثالهم من أهل الذنوب.

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي في شرحه للباب: «ووجه ما ذكره المصنف ظاهر، فإن الرب والإله هو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي، والحكم الجزئي، وهو الذي يُؤلَه ويُعبَد وحده لا شريك له ويُطاع طاعة مطلقة، فلا يُعصى بحيث تكون الطاعات كل اتباعًا لطاعته، فإذا اتخذ العبد العلماء والأمراء على هذا الوجه، وجعل طاعتهم هي الأصل، وطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم تبعًا لهذا، فقد اتخذهم أربابًا من دون الله يتألههم ويتحاكم إليهم، ويقدم حكمهم على حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا هو الكفر بعينه، فإن الحكم كله لله، كما أن العبادة كلها لله، والواجب على كل أحد ألا يتخذ غير الله حكمًا، وأن يرد ما تنازع فيه الناس إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبذلك يكون دين العبد كله لله، وتوحيده خالصًا لوجهه الله، وكل من حاكم إلى غير حكم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد حاكم إلى الطاغوت، وإن زعم أنه مؤمن فهو كاذب.

فالإيمان لا يصح ولا يتم إلا بتحكيم الله ورسوله في أصول الدين وفروعه وكل الحقوق، فمن تحاكم إلى غير الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فقد اتخذ ذلك ربًا، وقد تحاكم إلى الطاغوت.

التحليل والتحريم حق لله سبحانه وتعالى وحده:

قال الشيخ صالح الفوزان - حفظه الله -: «التحليل والتحريم حق لله سبحانه وتعالى لا يشاركه فيه أحد، فمن حلل أو حرّم من غير دليل من كتاب الله أو سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد جعل نفسه شريكًا لله، ومن أطاعه فقد أشركه مع الله في التشريع، وهذا ما يسمى بشرك الطاعة، لأن العبادة معناها: طاعة الله سبحانه وتعالى بفعل أوامره وترك نواهيه، ومن ذلك مسألة التحليل والتحريم، فهي داخلة في العبادة بدليل قوله تعالى لما ذكر ما يفعله المشركون من استباحة ما حرمه الله من الميتة التي حرمها وهم يستحلونها ويقولون: هي أولى بالأكل من المذكاة؛ لأن المذكاة أنتم ذبحتموها، وأما الميتة فإن الله هو الذي ذبحها، وكانوا قد تلقوا هذه المقالة من المجوس، فأنزل الله تعالى: ﴿فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنعام: ١١٨] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٢١] مع الله في التحليل والتحريم.

> التحليل والتحريم حق لله تعالى وشهادة ألا إله إلا الله تستلزم أن يكون العبد مطيعاً لله جل وعلا فيما أحل وحرّم، ولا يُحكَّم في دينه ودنياه إلا شرع الله.

وقال الشيخ صالح آل الشيخ في شرحه لهذا الباب: «هذا الباب والأبواب بعده في بيان مقتضيات التوحيد، ولوازم تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وأن شهادة أن لا إله إلا الله تقتضي وتستلزم أن يكون العبد مطيعًا لله جل وعلا فيما أحل وحرم، فلا يتحاكم إلا إليه جل وعلا، ولا يُحَكِّم في الدين إلا شرع الله جل وعلا، والعلماء وظيفتهم تبيين معاني ما أنزل الله جل وعلا على رسوله صلى الله عليه وسلم، وليست وظيفتهم التي أذن لهم بها الشرع أن يحللوا ما يشاءون، أو يحرموا ما يشاءون، بل وظيفتهم الاجتهاد في فقه النصوص، وأن يبينوا ما أحل الله وما حرم الله، فهم أدوات ووسائل لفهم نصوص الكتاب والسنة، ولذلك كانت طاعتهم تبعًا لطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما الطاعة الاستقلالية فليست إلا لله جل وعلا، حتى طاعة النبي صلى الله عليه وسلم إنما هي تبع لطاعة الله جل وعلا، فإن الله هو الذي أذن بطاعته، وهو الذي أمر بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا معنى الشهادة له بأنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كما قال جل وعلا: ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، وقال جل وعلا: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [النساء: ٦٤]، فالطاعة الاستقلالية نوع من أنواع العبادة، فيجب إفراد الله جل وعلا بها.

دعوة جماعة أنصار السنة إلى تحكيم الشريعة:

ومما أود التنويه عليه هنا أن جماعة أنصار

السنة المحمدية التي أسست أصالة للدفاع عن التوحيد والسنة، وإفراد الله بجميع أنواع العبودية، وضعت من ضمن أهدافها السعي إلى تحكيم الشريعة الإسلامية، وأن كل مخالف لذلك منازع لله في حكمه، وقد ذكر الشيخ محمد حامد الفقي، مؤسس الجماعة في تحقيقه لكتاب فتح المجيد الشارح لكتاب التوحيد عند ذكره لقول الله تعالى: «أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ» [المائدة: ٥٠]، وبعد ذكر كلام ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية قال: «ومثل هذا وشر منه من اتخذ كلام الفرنجة قوانين يتحاكم إليها في الدماء والفروج والأموال، ويقدمها على ما علم وتبين له من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فهو بلا شك كافر مرتد إذا أصرَّ عليها ولم يرجع إلى الحكم بما أنزل الله، ولا ينفعه أي اسم تسمى به، ولا أي عمل من ظواهر أعمال الصلاة والصيام والحج ونحوها».

وقال رحمه الله عند تفسير قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ» [النساء: ٥١] ما نصه: «الذي يُستخلص من كلام السلف رضي الله عنهم أن الطاغوت كل ما صرف العبد وصده من عبادة الله وإخلاص الدين والطاعة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، سواء في ذلك الشيطان من الجن، والشيطان من الإنس، والأشجار والأحجار وغيرها، ويدخل في ذلك بلا شك الحكم بالقوانين الأجنبية عن الإسلام وشرائعه، وغيرها من كل ما وضعه الإنسان ليحكم به في الدماء والفروج والأموال، وليبطل بها شرائع الله في إقامة الحدود وتحريم الربا والزنا والخمر ونحو ذلك، مما أخذت هذه القوانين تحللها وتحميها بنفوذها ومنفذيها، والقوانين نفسها طواغيت، وواضعوها ومروجوها طواغيت».

وقد قال نحو هذا الكلام العلامة الأصولي الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله وهو الرئيس الثاني لجماعة أنصار السنة المحمدية، والشيخ أحمد محمد شاكر رحمه الله، وهو العلامة المحدث، وغيرهم من علماء الجماعة وأئمتها، وهذا إن دل على شيء فإنه يدل على أهمية التحاكم إلى شريعة الله وتعظيمها، وإن هذا من توحيد رب العالمين، إلى جانب أن الشريعة الإسلامية هي الصالحة والمصلحة للبشرية في كل زمان ومكان؛ لأنها من العليم الخبير سبحانه.

الشريعة الإسلامية هي الصالحة والمصلحة للبشرية في كل زمان ومكان:

وقد أحسن وأجاد الشيخ يوسف الدجوي رحمه الله عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف في بيان مكانة الشريعة، وأنه شتان بينها وبين القوانين الوضعية، وفي ذلك يقول رحمه الله: «تعلم رعاك الله أن الشريعة جاءت بمطالب الروح والبدن جميعًا، وكفى بذلك فرقًا كبيرًا بينهما، إن القانون لا يطلب إلا حفظ النظام العام، ولا يعنيه إلا وحدة الأمة وراحة الحكومة، ولا يهمه شئون الأفراد الروحية، ولا من وظيفته صلاح قلوبهم، وتربية نفوسهم، ومراقبتهم في أخلاقهم، وأما الشريعة فقد تكفلت بإصلاح قلوب الأفراد كما تكفلت بإصلاح الأمم، بل يمكننا أن نقول: إن الشريعة أبلغ فيما يريده القانون أيضًا من منع الناس عن ارتكاب الجرائم والتعديات، فإن الإنسان لا يخاف القانون، ولا يرهب سلطان إلا إذا لم يكن وسيلة إلى الخلاص منه، وما أكثر وسائل الخلاص وأقل بواعث الإخلاص؟!

إن مزايا الشريعة لا تكاد تُحصى، فشتان ما بين قانون يضعه رجال لا يعنيهم إلا مظاهر الحياة المادية، وبين قانون يضعه خالق الكون المدبّر لكل صغيرة وكبيرة، يكفل للناس سعادة الحياتين، تلك القوانين تبيح الزنا وشرب الخمر والتلهي بالميسر، وهي أمهات الشرور كلها، محافظة على مبدأ الحرية الشخصية، وما مثلها عندي إلا كمثل من يريد أن يشرب السم فلا تمنعه، محافظة على حريته فيما يريد، فهل تراك أحسنت إليه؟!».

أسأل الله أن يوفقنا إلى النزول على حكمه، والرضى بشريعته، إن ربي ولي ذلك والقادر عليه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

دعوة الأمة إلى الاعتصام بالكتاب والسنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الواحد القهار، مالك السماوات والأرض وما بينهما العزيز الغفار، والصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار، وآله الطيبين الأطهار، وصحابته البررة الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

ونحن لا نزال في بداية عام هجري جديد أوجّه كلمة صادقة إلى أمتي الإسلامية، داعيًا إياها إلى ضرورة الاجتماع على الكتاب والسنة، ونبذ البدعة والفرقة، والناظر في واقع الأمة يجد فرقًا متعددة، وأحزابًا متنافرة، وطرقًا بدعية، وهذا باب شر مستطير يؤدي إلى ضياع الأمة وهوانها وضعفها، والفرقة تستلزم تدابرًا وانفصامًا في الصف الواحد، وتقاطعًا وتناحرًا في الأمة الواحدة، ولذلك حذر الإسلام الحنيف من الفُرْقة، ودعا أتباعه إلى توحيد الصف وجمع الكلمة؛ لأن التفرق يؤدي إلى التنازع، والتنازع يؤدي إلى الفشل كما قال تعالى: « وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » [الأنفال: ٤٦].

الأمر بالجماعة والائتلاف والنهي عن الفُرقة والخلاف:

إن من الأصول العظيمة التي قام عليها دين الإسلام: الأمرَ بالجماعة والائتلاف والنهيَ عن الفرقة والخلاف، قال الله تعالى: « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » [آل عمران: ١٠٣].

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن جرير رحمه الله بأسانيده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا) قال: الجماعة، كما ذكر أقوالاً أخرى منسوبة إلى السلف في معنى «حبل الله» منها: القرآن، الإخلاص لله وحده، الإسلام. [انظر تفسير الطبري ٤/٢٢١].

وهذه الأقوال المأثورة عن السلف تدل على شيء مهم ألا وهو: أن الاعتصام بالقرآن والإخلاص لله وحده، والتمسك بالإسلام الصحيح الذي جاءنا من عند الله يؤدي إلى تآلف المسلمين واجتماعهم، وترابطهم وتماسك مجتمعهم، وعدم وقوع الفُرقة والخلاف بينهم، وقد فهم ذلك الإمام ابن كثير رحمه الله فقال في معنى قوله: «ولا تفرقوا» أمرهم بالجماعة ونهاهم عن التفرقة، ثم قال: «وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسلمة من عذاب النار، وهم الذين على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه». [تفسير ابن كثير ج١/٥٣٤].

ونفهم من هذا وجوب الاعتصام والاجتماع على القرآن والسنة، وأن الفُرقة والخلاف بسبب البعد عن الجماعة والوقوع في البدعة والضلالة، وقد ذكر القرطبي رحمه الله عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال لسماك الحنفي: يا

حنفي الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله عز وجل يقول: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟» [آل عمران: ١٠٣] إلى أن قال: «فأوجب تعالى علينا التمسك بكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم والرجوع إليهما عند الاختلاف، وأمرنا بالاجتماع على الاعتصام بالكتاب والسنة اعتقادًا وعملاً، وذلك سبب اتفاق الكلمة، وانتظام الشتات الذي يتم به مصالح الدنيا والدين، والسلامة من الاختلاف، وأمر بالاجتماع ونهى عن الافتراق الذي وصل لأهل الكتابين». [تفسير القرطبي ٢/٥٢٧].

القاعدة الأساسية التي يقوم عليها الاجتماع:

وكلام القرطبي رحمه الله هنا في غاية النفاسة؛ حيث ذكر الركيزة والقاعدة الأساسية التي يقوم عليها هذا الاجتماع، ألا وهي: الكتاب والسنة اعتقادًا أو عملاً، وأن ذلك سبب في اتفاق الكلمة وانتظام الشتات، ويظهر للبصير بعد ذلك أن أي قاعدة أخرى لا تراعي ذلك لن تفلح في جمع الكلمة، وعليه فالدعوات إلى اجتماع الكلمة مع بقاء كل طائفة على ما هي عليه من معتقدات باطلة، وبدع ظاهرة لا يجمع كلمة، ولا يقيم شريعة، وهذا واضح غاية الوضوح، من خلال هذه الشريعة الربانية التي أمر الله فيها أن نلتزم صراطه المستقيم فحسب، وأن ندع السبل المخالفة له، قال الله تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣]، وهذه هي الوصية العاشرة التي أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يتلوها على أمته، وقد أفرد الله صراطه، وهو منهج قويم ظاهر الاستقامة لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، وجمع السبل المخالفة له؛ لأن الحق واحد، ومصدره واحد، والباطل متعدد متشعب وهو كثير، فيشمل الأديان الوضعية الباطلة، والمنسوخة المحرفة، والبدع والشبهات والمعاصي، وقد نهى الله تبارك وتعالى عن التفرق في صراطه وسبله فإن التفرق في الدين الواحد، وجعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب سببٌ لإضاعة الدين بترك طلب الحق المنزل فيه، ومدعاة لضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم، واتباع لسنن الأمم المتقدمة عليهم الذين اختلفوا وتفرقوا، ولم يتابعوا أنبياءهم فأهلكهم الله تعالى، قال ابن كثير رحمه الله: «أمر المؤمنين بالجماعة، ونهاهم عن الاختلاف والفُرقة، وأخبرهم أنه هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله، ونحو هذا قاله مجاهد وغير واحد. [تفسير ابن كثير ٢/٢٦١].

ثم ساق ابن كثير حديث عبد الله بن مسعود وفيه: «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا بيده، ثم قال: هذا سبيل الله مستقيمًا، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه، ثم قرأ: (وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ) [الأنعام: ١٥٣]. والحديث حسنه الألباني في ظلال الجنة (١٧).

وقال في قوله تعالى: (فَٱتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ) [الأنعام: ١٥٣] إنما وحّد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها، كما قال تعالى: (ٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ) [البقرة: ٢٥٧]، ثم ساق حديث عبادة بن الصامت وفيه: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيكم يبايعني على هؤلاء الآيات الثلاث؟ ثم تلا: (قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ) [الأنعام: ١٥١]، حتى فرغ من ثلاث آيات، ثم قال: «ومن وفى بهن فأجره على الله، ومن انتقص منهن شيئًا فأدركه الله في الدنيا كانت عقوبته، ومن أخره إلى الآخرة كان أمره إلى الله إن شاء أخذه، وإن شاء عفا عنه». [انظر تفسير ابن كثير ٢/٢٦٣].

وقد ذكر الشوكاني عن ابن عطية أنه قال: «وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية والمجوسية، وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع، وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد». [تفسير الشوكاني ٢/١٧٨].

وقال الكيا الهراسي: «في الآية دليل على منع

> أفرد الله صراطه، وهو منهج قويم ظاهر الاستقامة لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه، وجمع السبل المخالفة له؛ لأن الحق واحد، ومصدره واحد، والباطل متعدد متشعب

النظر والرأي، مع وجود النص»، وقال قتادة: اعلموا أن السبل سبيل واحد، جماعة الهدى، ومصيره الجنة، وأن إبليس ابتدع سبلاً متفرقة، جماعة الضلالة مصيرها إلى النار، كما روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: (أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ) [الشورى: ١٣]، ونحو هذا في القرآن قال: «أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفُرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله». [انظر تفسير القاسمي ٦/٢٥٧١].

دين الله وصراطه واحد لا يختلف ولا يتعدد:

وبهذا يظهر لكل ذي عينين أن دين الله وصراطه واحد لا يختلف ولا يتعدد، وأن منهجه رباني، فعبادة الله وتوحيده، وأصول الاعتقاد التي يجب على كل مسلم أن يعتقدها، والأحكام والآداب والسنن والمستحبات؛ كله منصوص عليه صراحة، أو مستنبط وماخوذ من النصوص، فلا حاجة إلى البدع والخرافات، وإذا نزلت بالمسلمين نازلة أو مشكلة عُولجت وفق هذا المنهج الرباني - الكتاب والسنة - وهذه ميزة عظيمة اختص الله بها الفرقة الناجية دون غيرهم من أتباع الفرق والضلال، وهي: أن انتسابهم وانتماءهم للكتاب والسنة لا غيرُ، وإمامهم ومتبوعهم النبي صلى الله عليه وسلم.

> دين الله تعالى: أن يكون رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو المطاع أمره ونهيه، المتبوع في محبته ومعصيته، ورضاه وسخطه، وعطائه ومنعه، وموالاته ومعاداته، ونصره وخذلانه.

واقع الفرق المنحرفة:

وأما أصحاب الفرقة المنحرفة فرغبوا عن التسميات الشرعية، ومالوا إلى المسميات المحدثة البدعية، ووالوا وعادوا عليها، وهذا خروج عن الصراط المستقيم، وقد أجاد شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في تصويره لواقع هذه الفرق المنحرفة فقال: «وإذا كانت الشهادتان هي أصل الدين وفروعه، وسائر دعائمه وشعبه داخلة فيها، فالعبادة متعلقة بطاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: (وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا) [النساء: ٦٩]، وكذلك علق الأمور بمحبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كقوله: «أحب إليكم من الله ورسوله»، وبرضا الله ورسوله صلى الله عليه وسلم كقوله: «والله ورسوله أحق أن يرضوه»، وتحكيم الله ورسوله كقوله: «وإذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم»، إلى أن قال: «الانتساب إلى جنس معين من أجناس بعض شرائع الدين كالتجند للمجاهدين، والفقه للعلماء، والفقراء والتصوف للعباد، أما الانتساب إلى بعض فرق هذه الطوائف كإمام بعينه، أو شيخ، أو ملك، أو متكلم من رؤوس المتكلمة، أو فعل تتميز به طائفة وشعار هذه الفرقة من اللباس من عمائم أو غيرها، كما يتعصب قوم للخرقة، كل ذلك من أمور الجاهلية المفرقة بين الأمة، وأهلها خارجون عن السنة والجماعة، داخلون في البدع والفرقة، بل دين الله تعالى: أن يكون رسوله محمد صلى الله عليه وسلم هو المطاع أمره ونهيه، المتبوع في محبته ومعصيته، ورضاه وسخطه، وعطائه ومنعه، وموالاته ومعاداته، ونصره وخذلانه». [مجموع الفتاوى ٣٤١-٣٤٣].

ضوابط الانتساب إلى اسم بعينه:

ويجب أن يعلم بعد هذا أن الأسماء التي يسوغ الانتساب إليها، لا يجوز التعصب لها، ولا امتحان الناس بها، ولا الموالاة والمعاداة عليها، وهذا واضح غاية الوضوح في تربية النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه، وأضرب مثالاً على ذلك من توجيه النبي صلى الله عليه وسلم في هذه الحادثة، فقد أخرج البخاري ومسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ ثَابَ مَعَهُ نَاسٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ حَتَّى كَثُرُوا، وَكَانَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلٌ لَعَّابٌ، فَكَسَعَ أَنْصَارِيًّا (أي ضربه برجله)، فَغَضِبَ الْأَنْصَارِيُّ غَضَبًا شَدِيدًا حَتَّى تَدَاعَوْا، وَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَخَرَجَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا بَالُ دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ»، ثُمَّ قَالَ: مَا شَأْنُهُمْ فَأُخْبِرَ بِكَسْعَةِ الْمُهَاجِرِيِّ الْأَنْصَارِيَّ، قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعُوهَا فَإِنَّهَا خَبِيثَةٌ». وقد بوب الإمام البخاري رحمه الله لهذا الحديث

بقوله: «باب ما نُهي عن دعوى الجاهلية» فتح الباري (٥٤٦/٦)، وقال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «تسميته صلى الله عليه وسلم ذلك دعوى الجاهلية هو كراهة منه لذلك، فإنه مما كانت عليه الجاهلية من التعاضد بالقبائل في أمور الدنيا ومتعلقاتها، وكانت الجاهلية تأخذ حقوقها بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك، وفصل القضايا بالأحكام الشرعية» (شرح النووي على مسلم ١٣٧/١٦).

وقد علق شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه على هذه الحادثة تعليقًا جميلاً فقال: «وانتساب الرجل إلى المهاجرين والأنصار انتساب حسن محمود عند الله وعند رسوله صلى الله عليه وسلم، ليس من المباح الذي يُقصد به التعريف فقط، كالانتساب إلى القبائل والأمصار، ولا من المكروه أو المحرم، كالانتساب إلى ما يُفضي إلى بدعة أو معصية أخرى، ثم - مع هذا - لما دعى كل منهما طائفة منتصراً بها، أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وسماها: دعوى الجاهلية، فإذا كان هذا التداعي في هذه الأسماء، وهذا الانتساب الذي يحبه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فكيف بالتعصب مطلقًا، والتداعي للنسب والإضافات التي هي: إما مباحة أو مكروهة؟ وذلك أن الانتساب إلى الاسم الشرعي، أحسن من الانتساب إلى غيره». [اقتضاء الصراط المستقيم ٢١١/١- ٢١٤].

المراد بلزوم الجماعة لزوم ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في التحليل والتحريم.

لزوم جماعة المسلمين من قواعد الإسلام:

ولذلك فنحن في دعوتنا الله وطريقنا إليه، لا ننتسب ولا نتعصب لاسم أو غيره، وإنما ولاؤنا لله وحده ومتابعتنا للنبي صلى الله عليه وسلم دون سواه، ومما يهمنا في هذا الشأن وفي هذه المرحلة من تاريخ أمتنا أن نجتمع وننصر الحق وحده الذي جاءنا من عند الله، وألا نختلف عليه، أو نتفرق فيه، وهذا هو الهدي النبوي الذي دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم، فقد روى عبد الرحمن بن أبان بن عثمان عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نضر الله عبدًا سمع مقالتي هذه فحملها، فرُبَّ حامل الفقه فيه غير فقيه، ورب حامل الفقه إلى من هو أفقه منه، ثلاث خصال لا يغل عليهن صدر مسلم، إخلاص العمل لله عز وجل، ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم» (مسند أحمد ١٨٣/٥ وصححه الألباني)، وهذا الحديث فيه أمر صريح بإخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الأمور، ولزوم جماعة المسلمين.

وقد ذكر الإمام الشافعي رحمه الله أن المراد بلزوم الجماعة لزوم ما جاء عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في التحليل والتحريم. (انظر الرسالة للشافعي/ ٤٧٤).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا ويكره لكم ثلاثًا، فيرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا». قال النووي في شرحه لهذا الحديث: «وأما الاعتصام بحبل الله فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده والتأدب بأدبه، والحبل يُطلق على العهد وعلى الأمان، وعلى الوصلة وعلى سبب، وأصله من استعمال العرب الحبل في مثل هذه الأمور؛ لاستمساكهم بالحبل عند شدائد أمورهم، ويوصلون بها المتفرق، فاستعير الحبل لهذه الأمور، وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تفرقوا» فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين وتالف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام». [شرح النووي على مسلم ١١/١٢].

ويلاحظ أن النووي - رحمه الله - اعتبر لزوم جماعة المسلمين من قواعد الإسلام، وهذه حقيقة واضحة في دين الإسلام، وكان عليها الصحابة الكرام رضوان الله عليهم، وقد خطب ابن مسعود الناس يومًا فقال: «يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنها السبيل في الأصل إلى حبل الله الذي أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة». [رواه اللالكائي في شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١٠٨/١].

نسأل الله أن يجمع بين المسلمين على البر والتقوى، وأن يجنبنا الزلل في القول والعمل.

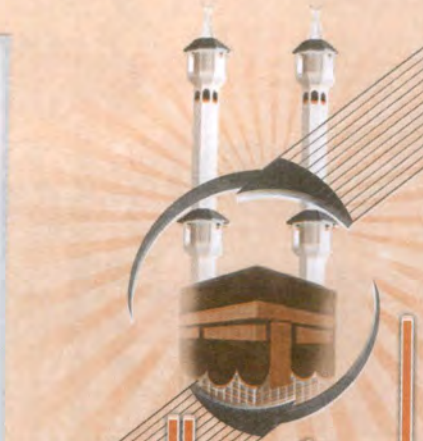

افتتاحية العدد

بين الشورى والديمقراطية.. هل تستوي الظلمات والنور؟!

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله حق حمده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

أما بعدُ:

فالشورى مبدأ أصيل في النظام الإسلامي، ويجب أن تكون واقعًا عمليًا في حياة المسلمين، وأن تشمل أمورهم التي يحتاجون إليها مما لا نص فيه، كاختيار الحاكم، واتخاذ القرارات المتعلقة بالشأن العام من خلال الاجتهاد الجماعي، واستنباط الأحكام الشرعية في ضوء مقاصد التشريع، وأصحاب الشورى هم من أهل الحل والعقد في الأمة.

تعريف أهل الشورى:

وقد عرفهم الإمام النووي، كما في نهاية المنهاج بأنهم «العلماء والرؤساء ووجهاء الناس الذين يتيسر اجتماعهم» (ج٧/ص٤١٠).

وعرفتهم الموسوعة الكويتية بأنهم: «أهل الشوكة من العلماء والرؤساء ووجوه الناس الذين يحصل بهم مقصود الولاية، وهو القدرة والتمكين، وهو مأخوذ من حل الأمور وعقدها». (ج٧/١١٥).

حكم الشورى

حكم الشورى رجّح كثير من العلماء وجوب الشورى كأساس للحكم. قال ابن عطية: «والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، من لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا مما لا خلاف فيه، وقد مدح الله المؤمنين بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ٣٨].

وقال ابن خُويز مَنداد: واجب على الولاة مشاورة العلماء فيما لا يعلمون، وما أشكل عليهم من أمور الدين، ووجوه الجيش فيما يتعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتعلق بالمصالح، ووجوه الكُتاب والوزراء والعمال فيما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها، وكان يقال: ما ندم من استشار، وكان يقال: من أعجب برأيه ضلّ. [تفسير القرطبي].

فضائل الشورى في القرآن الكريم:

وقد سمَّى الله في كتابه سورة باسم الشورى، وأنزل فيها قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]، وهذا فيه ثناء على أصحاب الشورى العاملين بها، وقد ذكر عنهم أنهم كانوا إذا وقعت بينهم واقعة اجتمعوا وتشاوروا فأثنى الله عليهم لذلك، ويلاحظ أن الآية جاءت بعد الأمر بالاستقامة على الدين، وتقرير سيادة الشرع في ظل الائتلاف والجماعة، وقُرنت الشورى في الآية بالاستجابة لله تبارك وتعالى وإقامة الصلاة، مما يبرز مكانة الشورى وأهميتها، قال ابن كثير في الآية: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ﴾ [الشورى: ٣٨] أي: اتبعوا رسله وأطاعوا

أمره، واجتنبوا زجره، «وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ» وهي من أعظم العبادات لله عز وجل، «وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ» أي: لا يبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه، ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب وما جرى مجراها. [تفسير ابن كثير ج٤/١٥١].

وقال تعالى: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ) [آل عمران: ١٥٩]، والآية فيها أمر للنبي صلى الله عليه وسلم أن يشاور أصحابه، والمعنى: دُمْ على المشاورة وواظب عليها، وقد تقرر عند علماء الأصول أن الأمر للوجوب ما لم يصرفه صارف، وقال بعض المفسرين: «ثمرة الآية وجوب التمسك بمكارم الأخلاق وخصوصًا لمن يدعو إلى الله تعالى ويأمر بالمعروف، «فَإِذَا عَزَمْتَ»، أي: بعد المشاورة على أمر واطمأنت به نفسك، «فتوكل على الله» في الإعانة على إمضاء ما عزمت، لا على المشورة وأصحابها، قال الرازي: دلت الآية على أنه ليس التوكل أن يمهل الإنسان نفسه، كما يقول بعض الجهال، وإلا كان الأمر بالمشاورة منافيًا للأمر بالتوكل، بل التوكل هو أن يراعي الإنسان الأسباب الظاهرة، ولكن لا يعوّل قلبه عليها، بل يعول على عصمة الحق: «إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ». انظر تفسير القاسمي ج٤/١٠٢٣].

الشورى في حياة النبي صلى الله عليه وسلم:

ولقد طبق النبي صلى الله عليه وسلم الأمر الرباني الموجه إليه أن يقوم به خير قيام، فحافظ على الشورى، وقد روت لنا كتب السنة والسيرة مواقف عديدة له صلى الله عليه وسلم في العمل بالشورى والأخذ بها، ومن ذلك ما ورد في مشروعية الأذان، قال ابن عمر: كان المسلمون حين قدموا المدينة يجتمعون فيتحينون الصلاة ليس يُنادى لها، فتكلموا يومًا في ذلك، فقال بعضهم: اتخذوا ناقوسًا مثل ناقوس النصارى، وقال بعضهم: بل بوقًا مثل قرن اليهود، فقال عمر: أو لا تبعثون رجلاً ينادي بالصلاة؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بلال، قم فناد بالصلاة. [البخاري: ٦٠٤].

وقد ذكر ابن حجر في الفتح: أن مبدأ الأذان كان عن مشورة أوقعها النبي صلى الله عليه وسلم بين أصحابه. [انظر فتح الباري ج٢/٧٩].

كما استشار النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه في أسارى بدر، وقد ذكر القاسمي في تفسيره لقول الله تعالى: (مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ) [الأنفال: ٦٧] حديث ابن عباس - رضي الله عنهما - وعزاه لمسلم في أفراده:- وفيه: «لما أسروا الأسارى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: ما ترون في هؤلاء الأسارى؟ فقال أبو بكر: يا رسول الله، هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية تكون لنا قوة على الكفار، فعسى الله أن يهديهم إلى الإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ما ترى يا ابن الخطاب؟ قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليًا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبًا لعمر فأضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوي رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت».

روت لنا كتب السنة والسيرة مواقف عديدة له صلى الله عليه وسلم في العمل بالشورى والأخذ بها، ومن ذلك ما ورد في مشروعية الأذان.

والشاهد من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم استشار أبا بكر وعمر رضي الله عنهما في هذه المسألة المهمة التي لم يكن عنده فيها وحي.

وقد ذكر ابن القيم هذا الحديث في الزاد وعقب عليه بقوله: «وقد تكلم الناس في أيّ الرأيين كان أصوب، فرجحت طائفة قول عمر، ورجحت طائفة قول أبي بكر؛ لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم، ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء». [زاد المعاد ٣/١١١].

كما شاور النبي صلى الله عليه وسلم عليًا وأسامة رضي الله عنهما في حادثة الإفك، قالت عائشة رضي الله عنها: «لما قال أهل الإفك ما قالوا، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليّ بن أبي طالب وأسامة بن زيد رضي الله عنهما حين استلبث الوحي يسألهما وهو يستشيرهما في فراق أهله، فأما أسامة فأشار بالذي يعلم من براءة أهله، وأما عليّ فقال: لم يضيّق الله عليك، والنساء سواها كثير، وسل الجارية تصدقك، فقال: هل رأيت من شيء يريبك؟ قالت: ما رأيت أمرًا أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتي الداجن فتأكله، فقام على المنبر، فقال: يا معشر المسلمين، من يعذرني من رجل بلغني أذاه في أهلي، والله ما علمت على أهلي إلا خيرًا، فذكر براءة عائشة». [البخاري: ٧٣٦٩].

وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا عنون له بقوله: «باب قول الله تعالى: وأمرهم شورى بينهم، وشاورهم في الأمر، ثم قال: وأن المشاورة قبل العزم والتبين؛ لقوله: (فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ) [آل عمران: ١٥٩]، فإذا عزم الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن لبشر التقدم على الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وشاور النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يوم أحد في المقام والخروج، فرأوا له الخروج، فلما لبس لأمته وعزم قالوا: أقم، فلم يمل إليهم بعد العزم، وقال: «لا ينبغي لنبي يلبس لأمته فيضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه».

منزلة الشورى عند الخلفاء الراشدين:

وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره؛ اقتداء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ورأى أبو بكر قتال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله». فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرّق بين ما جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم تابعه بعدُ عمر، فلم يلتفت أبو بكر إلى مشورة؛ إذ كان عنده حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الذين فرّقوا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، وقال صلى الله عليه وسلم: «من بدّل دينه فاقتلوه»، وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولًا أو شبابًا، وكان وقّافًا عند كتاب الله تعالى. [انظر فتح الباري ١٣/٣٣٩].

ثمرات الشورى وفوائدها:

وبهذا يتضح أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه واستمر خلفاؤه الراشدون وصحابته الأخيار من بعده على العمل بها، وما ذاك إلا لفائدتها وأهميتها، فالشورى - بفضل الله - تجمع القلوب على الحق والصواب، وتكشف عن المواهب والقدرات، وتنسّق بين الجهود وتوحدها، وينبني على ذلك عزة الأمة ورفعتها وسيادتها.

> كانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأمناء من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بأسهلها، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يتعدوه إلى غيره.

هل الديمقراطية هي الشورى؟!

وقد زعم قوم أن الديمقراطية هي الشورى، وهذا قول باطل، فشتان بينهما، فالشورى تنضبط بالضوابط الشرعية لتصل إلى ما لا يخالف الشرع، أما الديمقراطية فالسيادة والسلطان فيها للشعب، وقد أعطت حق الله للمخلوق العاجز الضعيف! فهي إذن شيء والشورى شيء آخر.

الفرق بين الشورى والديمقراطية:

وبين الشورى في النظام الإسلامي والديمقراطية فروق كثيرة لا بد من الإشارة إلى بعضها هنا، ومنها: أن الديمقراطية تحصر اهتمامها في الحياة الدنيا فحسب، ولا علاقة لها بالآخرة، بخلاف الشورى التي تجعل المصالح الأخروية هي الأصل، ومصالح الدنيا تابعة لها، ومنها: أن الشورى في الإسلام لا تتأثر بالانتماءات الحزبية مثلما يحدث في الديمقراطية،

حيث يكون النائب ناطقًا باسم حزبه، ومتأثرًا بتوجيهه، وقد يكون على غير الإسلام، وهي بهذا لا تعتبر الدين ولا العدالة الشرعية في أصحاب القرار شرطا، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول كما ورد في الترمذي عن أم سلمة وأبي هريرة رضي الله عنهما: «المستشار مؤتمن». [انظر: سنن الترمذي ج٢/٣٦٩].

ومؤتمن اسم مفعول من الأمن أو الأمانة، ومعناه: أن المستشار أمين فيما يسأل عنه من الأمور، ومن كان أمينًا فلا يخون، أو يكتم المصلحة، والنظام الديمقراطي لا يعنيه الدين وما يتفرع عنه من الخلق والأمانة وغير ذلك.

من مفاسد الديمقراطية:

ومن مفاسد الديمقراطية المعلومة للقاصي والداني ما يعرف «بالحرية المطلقة»، وهي من أسس النظام الديمقراطي وثوابته، والحرية عندهم بلا قيد أو ضوابط في كل شأن، ففي الجانب العقدي أعطت الحرية الكاملة للإنسان بأن يدين بأي دين، ولا مانع من تأييد الكفر والزندقة، والردة عن الإسلام عندهم لا حرج فيها باسم الحرية، وهذا يتعارض مع ثوابت الإسلام وقواطعه.

وفي الجانب الأخلاقي أعطت الحرية كاملة لكل إنسان ليفعل ما يشاء دون خجل أو حياء باسم الحرية الشخصية، فأكل أموال الناس بالباطل والتعامل بالربا، وإدمان الخمر، ونشر الفساد في الأرض حرية شخصية عندهم كما يزعمون، وناهيك عن وضع المرأة عندهم التي أصبحت سلعة يتاجر بجسدها وعريها، وغير ذلك مما هو معلوم.

وفي الجانب الاقتصادي أعطت حرية كاملة لكسب المال وإنفاقه دون قيود على طرق الاكتساب، أو الإنفاق، يقول بعض الباحثين في الحرية المطلقة عند الديمقراطيين: «إن الديمقراطية بمعناها الشامل المتضمن انعتاق الحرية عن كل ضابط شرعي أتاحت للطغام من العوام من العلمانيين وأمثالهم أن يتخذوا منها مظلة لانحراف أخلاقهم، وإظهار خلاعتهم، وكشف عوراتهم نساءً ورجالًا باسم الحرية الشخصية، بل أتاحت لهم أن يوظفوا أقلامهم وينفثوا حقدهم الأسود على كل ما يمت للإسلام والمسلمين بصلة، وقد وجد هؤلاء العوام في الديمقراطية ملاذًا في ظله يمارسون المنكر باسم الحب، ويعاقرون الخمر باسم المشروبات الروحية، ويبتلعون أموال الناس ربويًا باسم الفائدة، فلهذا السبب يعبد هؤلاء الطغام الديمقراطية ويكرهون الإسلام.

إن الديمقراطية تتيح لهم فرصة نشر فسادهم في عامة الناس، حتى يصبح ذلك بينهم عادة، ومن يخرج عليه يستحق الإبادة، كما أنه في النظام الديمقراطي تجد الحقوق والحريات حسنها وسيئها، نافعها وضارها مختلطة، بل ممتزجة غير قابلة للفصل، فالأساس الذي يُبْنَى عليه إجازة الحسن الطيب من الحقوق والحريات هو نفس الأساس الذي ينبي عليه إجازة السيئ القبيح من الحريات!!

وهناك مسائل أخرى كثيرة تبين مفارقة الديمقراطية للشورى والشريعة.

> من مفاسد الديمقراطية المعلومة للقاصي والداني ما يعرف «بالحرية المطلقة»، وهي من أسس النظام الديمقراطي وثوابته، والحرية عندهم بلا قيد أو ضوابط في كل شأن.

وعليه فإننا في أنصار السنة المحمدية، ومن باب الدعوة إلى الحق وبيانه، والتحذير من المنكر وفساده، ندعو أعضاء مجلس الشورى المصري إلى أن يتقوا الله في الأمة، وأن يجعلوا السيادة للشرع، وأن يعظموا حرمات الله، فلا يسنّوا تشريعًا يخالف عقائد الإسلام وأحكامه أو آدابه وأخلاقه، والمسئولية عليهم كبيرة، وعلى عموم الشعب العودة إلى الله، والقيام بما أوجب رب العالمين، جل في علاه، واتباع هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وسلوك طريق أهل الإيمان، قال الله تعالى: ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ٣].

والله أسأل عزة هذه الأمة وسلامتها ونجاتها في الدنيا والآخرة.

افتتاحية العدد

كل بدعة ضلالة

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة، والصلاة والسلام على من تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها سواء، وبعدُ:

فإن تكريم النبي صلى الله عليه وسلم وحبّه أمر واجب على كل مسلم لا مناص منه، والمحبة الصادقة تتمثل في اتباع هديه وسلوك طريقته، والسير على منهاجه صلى الله عليه وسلم.

وفي الشهر الماضي لاحظت وبشدة أمورًا كثيرة بعيدة عن الشرع، زعم القائمون بها أنهم يحبون النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك كالاحتفال بيوم مولده، وهو بدعة اخترعها العبيديون (المسمون زورًا الفاطميون)، مع ما يصاحب ذلك من قراءة الأناشيد والقصائد في مدح النبي صلى الله عليه وسلم، التي فيها من الغلو ما نهى عنه صلى الله عليه وسلم، وهم يزعمون بذلك أنهم من أصدق محبيه مع بُعد أعمالهم عن مظاهر الحب الحقيقي المتمثل في الاتباع- كما ذكرت-.

هل في الدين بدعة حسنة؟

وقد لفت نظري فيَ هذا الموضوع: خروج بعض المنتسبين إلى العلم بفتوى أن الدين فيه بدعة حسنة وأخرى سيئة، وأن الموالد من البدعة الحسنة!! وهذا يخالف الصواب مما عليه أهل العلم من أهل السنة والجماعة، أصحاب الأثر والاتباع، وبهذا سأبين الحق في هذا الباب، وأن البدع كلها سيئة وضلال.

تعريف البدعة:

والبدعة كما يقول الشاطبي رحمه الله: «عبارة عن طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يُقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه».

وقال ابن تيمية: «البدعة: ما خالفت الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة من الاعتقادات والعبادات». [مجموع الفتاوى ج٨/ص٣٤٦].

فالبدعة إذن: فعل ما تركه النبي صلى الله عليه وسلم قاصدًا تركه، مع قيام الداعي إلى فعله.

ومن الأمثلة على ذلك: إضافة ألفاظ للأذان، حتى لو كانت أذكارًا مستحبة عمومًا، كإضافة التسبيح والتحميد، أو إضافة الصلاة عليه صلى الله عليه وسلم جهرًا بعد الأذان، فإن النبي صلى الله عليه وسلم ترك ذلك، مع وجود الداعي إلى فعله، والداعي هنا أن هذه الأذكار مستحبة، والنبي صلى الله عليه وسلم أسرع الخلق لما يُرضي الله تبارك وتعالى، فبتركه لذلك علمنا أنه غير تعبدي، وأن فعل ذلك يصدق عليه أنه إحداث في الدين.

ومنها: استحداث أعياد لم يأتِ بها الشرع، فمسألة الأعياد من المسائل الشرعية التعبدية التي لا يجوز الابتداع فيها، ولا الزيادة ولا النقص، فلا يجوز

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

إحداث أعياد غير ما شرعه الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم، سواء سُمِّي عيدًا أو غير ذلك، فإن كل اجتماع يحدثه الناس ويعتادونه في زمان معين أو مكان معين، أو هما معًا - فإنه عيدٌ، ومن ذلك الاحتفال بمولده صلى الله عليه وسلم فإنه تركه مع إمكان فعله في زمنه، وقد تكرر عليه زمان مولده منذ بعثته ثلاثًا وعشرين مرة، في ثلاث وعشرين سنة- مدة رسالته - صلى الله عليه وسلم، ومع هذا لم يحتفل بمولده ولا مرة واحدة، ولم يكن أحد يحب النبي صلى الله عليه وسلم كما يحب الصحابة النبي- عليه الصلاة والسلام-، ومع ذلك لم يشرع لهم الاحتفال بمولده، فدل ذلك على أنه قصد هذا الترك، وأن فعله بدعة، فكما شرع لهم التعبد لله تعالى بتعظيم عيدي الأضحى والفطر ويوم الجمعة، شرع لهم أيضًا ترك التعبد بتعظيم يوم الثاني عشر من ربيع الأول وتخصيصه بشيء من العبادات، فالواجب اتباع هديه في الأمرين، في الفعل والترك، وهذا من تمام التأسي به صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١]. وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

ذم البدع والمحدثات في الدين:

وقد وردت أدلة كثيرة صحيحة بذم البدع مطلقًا، ولم تقسم البدع إلى بدع حسنة مستحبة، وإلى بدع سيئة مكروهة، فذم البدع والمحدثات في الدين عامّ لا يخص محدثة دون محدثة، والأدلة الشرعية تدل على هذا العموم منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم في خطبه: «أما بعدُ: فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثات، وكل بدعة ضلالة». [مسلم: ٨٦٧].

ووجه الاستدلال من هذا الحديث أنه نص على أن البدع كلها ضلالة بلا استثناء، لأن «كل» من أقوى صيغ العموم، ولا يحتمل في هذا الحكم التخصيص فيخرج بعض البدع عن هذا الوصف، وذلك لورود التعميم في أحاديث أخرى، ولم يرد في حديث منها ما يخصص ذلك العموم، قال الحافظ ابن حجر: «قوله: «كل بدعة ضلالة» قاعدة شرعية كلية بمنطوقها ومفهومها، أما منطوقها فكأن يقال: حكم كذا بدعة، وكل بدعة ضلالة، فلا تكون من الشرع؛ لأن الشرع كله هدى، فإن ثبت أن الحكم المذكور بدعة صحت المقدمتان وأنتجتا المطلوب». [فتح الباري ج١٣/٢٦٧- ٢٦٨].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «إن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: (فإن شر الأمور محدثاتها، وإن كل محدثة بدعة، وإن كل بدعة ضلالة): نص من رسول الله صلى الله عليه وسلم، فلا يحل لأحد أن يدفع في دلالته على ذم البدع، ومن نازع في دلالته فهو مراغم».

وقال أيضا: «لا يحل لأحد أن يقابل هذه الكلمة الجامعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم الكلية، وهي قوله: «كل بدعة ضلالة» بسلب عمومها، وهو أن يُقال: ليست كل بدعة ضلالة، فإن هذا إلى مشاقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقرب منه إلى التأويل». [اقتضاء الصراط المستقيم: ٢٧١، ٢٧٤].

وقال ابن رجب: «فقوله صلى الله عليه وسلم: (كل بدعة ضلالة) من جوامع الكلم لا يخرج عنه شيء، وهو أصل عظيم من أصول الدين، وهو شبيه بقوله: (من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد) [متفق عليه]، فكل من أحدث شيئًا ونسبه إلى الدين، ولم يكن له أصل من الدين يرجع إليه فهو ضلالة، والدين بريء منه، وسواء في ذلك مسائل الاعتقادات، أو الأعمال، أو الأقوال الظاهرة والباطنة، وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك في البدع اللغوية». [جامع العلوم والحكم (٢٦٦)].

والحديث الذي أشار إليه الشاطبي في كلامه السابق هو ما جاء في البخاري بلفظ: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه فهو رد». [صحيح البخاري ح٢٦٩٧]. وفي رواية مسلم: «من عمل عملاً ليس

وردت أدلة كثيرة صحيحة بذم البدع مطلقًا، ولم تقسم البدع إلى بدع حسنة مستحبة، وإلى بدع سيئة مكروهة.

عليه أمرنا فهو رد». وقد دل الحديث على أن من أحدث في الدين شيئًا، وليس له أصل في الشرع يدل عليه فهو باطل ومردود على صاحبه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «عملاً» نكرة في سياق الشرط، فتعم أي عمل لم يفعله النبي صلى الله عليه وسلم والبدع التي استحسنها البعض لم يفعلها النبي صلى الله عليه وسلم، وما دام النبي صلى الله عليه وسلم لم يفعلها فهي مردودة على صاحبها غير مقبولة، ففعل هذه البدع عبث وتضييع للوقت فيما لا يفيد، ومن يقول بالتخصيص فليأت بنص صريح صحيح يخرج بعض البدع عن هذا الحكم.

قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام:

قال النووي: «هذا الحديث قاعدة عظيمة من قواعد الإسلام، وهو من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم، فإنه صريح في رد كل البدع والمخترعات، وفي الرواية الثانية زيادة، وهي أنه قد يُعاب على بعض الفاعلين في بدعة سُبق إليها، فإذا احتج عليه بالرواية الأولى يقول: أنا ما أحدثت شيئًا فيُحتج عليه بالثانية التي فيها التصريح برد كل المحدثات، سواء أحدثها الفاعل، أو سُبق بإحداثها، وهذا الحديث مما ينبغي حفظه، واستعماله في إبطال المنكرات وإشاعة الاستدلال به». [شرح النووي على مسلم ج١٢/١٦].

وقال الشاطبي: «هذه الأحاديث جاءت مطلقة عامة على كثرتها، لم يقع فيها استثناء البتة، ولم يأت فيها شيء مما يقتضي أن فيها ما هو هدى، ولا جاء فيها: كل بدعة ضلالة إلا كذا وكذا، ولا شيء من هذه المعاني، فلو كان هناك محدثة يقتضي النظر الشرعي فيها الاستحسان أو أنها لاحقة بالمشروعات، لذكر ذلك في آية أو حديث، فدل على أن تلك الأدلة، بأسرها على حقيقة ظاهرها من الكلية التي لا يتخلف عن مقتضاها فرد من الأفراد». [الاعتصام ج١/١١٠].

لا دين إلا ما شرعه الله:

وعليه فمن ابتدع عبادة من عنده - كائنا من كان- فهي ضلالة ترد عليه؛ لأن الله وحده هو صاحب الحق في إنشاء العبادات التي يتقرب بها إليه، يقول ابن القيم - رحمه الله-: «ومعلوم أنه لا حرام إلا ما حرمه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا تأثيم إلا ما أثم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم به فاعله، كما أنه لا واجب إلا ما أوجبه الله، ولا حرام إلا ما حرمه الله، ولا دين إلا ما شرعه الله». [إعلام الموقعين ١/٣٤٤].

وعلى هذا جرى السلف الصالح من الصحابة والتابعين:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما قبّل الحجر الأسود: «إني لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك». [البخاري ح١٥٩٧].

فمن ابتدع عبادة من عنده - كائنا من كان- فهي ضلالة ترد عليه؛ لأن الله وحده هو صاحب الحق في إنشاء العبادات التي يتقرب بها إليه.

وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: «لو كان الدين بالرأي، لكان أسفل الخف أولى بالمسح من أعلاه، وقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يمسح على ظاهر الخف».

سلاح قوي على المبتدعة:

وعن سعيد بن المسيب رحمه الله: «أنه رأى رجلاً يصلي بعد طلوع الفجر أكثر من ركعتين، يكثر فيهما الركوع والسجود فنهاه، فقال: يا أبا محمد يعذبني الله على الصلاة؟! قال: لا، ولكن يعذبك على خلاف السنة». [السنن الكبرى للبيهقي ج٢/٤٦٦].

قال الألباني رحمه الله معلقا على هذا الحديث: «وهذا من بدائع أجوبة سعيد بن المسيب رحمه الله تعالى، وهو سلاح قوي على المبتدعة الذين يستحسنون كثيرًا من البدع باسم أنها ذكر وصلاة، ثم ينكرون على أهل السنة إنكار ذلك عليهم، ويتهمونهم بأنهم ينكرون الذكر والصلاة، وهم في الحقيقة إنما ينكرون خلافهم للسنة في الذكر والصلاة ونحو ذلك». [إرواء الغليل ٢/٢٣٦].

حجة قاهرة ودليل عظيم:

ونحن ندين لله تعالى بأنه أكمل لنا الدين وأتم علينا النعمة كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]، فالشريعة بعد هذا البيان لا تحتاج إلى زيادة أو نقصان، ولسان حال المبتدع أن الشريعة لم تتم، لأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها في زعمه، ولو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه لم يبتدع ولم يستدرك عليها، واعتقاد هذا ضلال مبين، قال الشوكاني رحمه الله مناقشًا بعض المبتدعين ومحتجًا عليهم بهذه الآية: «فإن كان الله قد أكمل دينه قبل أن يقبض نبيه صلى الله عليه وسلم، فما هذا الرأي الذي أحدثه أهله بعد أن أكمل الله دينه؟ إن كان من الدين في اعتقادهم فهو لم يكمل عندهم إلا برأيهم، وهذا فيه ردّ للقرآن، وإن لم يكن من الدين، فأي فائدة في الاشتغال بما ليس من الدين؟ وهذه حجة قاهرة ودليل عظيم لا يمكن لصاحب الرأي أن يدفعه بدافع أبدًا، فاجعل هذه الآية الشريفة أول ما تصك به وجوه أهل الرأي، وترغم به أنوفهم، وتدحض به حججهم». [القول المفيد: ٢٣٨].

لوازم القول بالبدعة الحسنة:

ويلزم من القول بالبدعة الحسنة لوازم سيئة:

أحدها: أن تكون هذه البدعة المستحبة - حسب زعمهم- من الدين الذي أكمله الله لعباده ورضيه لهم، وهذا معلوم البطلان بالضرورة؛ لأن الله تعالى لم يأمر عباده بتلك البدع، ولم يأمر بها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يفعلها ولا فعلها أحد من الصحابة ولا التابعين، ومن تبعهم بإحسان، وعلى هذا فمن زعم أنه توجد بدع حسنة في الدين فقد قال على الله وعلى كتابه وعلى سنة رسوله صلى الله عليه وسلم بغير علم.

الثاني: أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد تركوا العمل بسنن حسنة مباركة محمودة، وهذا مما ينزّه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه - رضوان الله عليهم-.

الثالث: أن يكون القائمون بالبدع الحسنة المزعومة قد حصل لهم العمل بسنة حسنة مباركة محمودة لم تحصل للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لأصحابه، وهذا لا يقوله من له أدنى مسكة من عقل ودين. قال الشاطبي رحمه الله: «إن تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة وإجراء الأحكام الخمسة عليها، هذا التقسيم أمر مخترع لا يدل عليه دليل شرعي، لا من نصوص الشرع، ولا من قواعده؛ إذ لو كان هناك ما يدل من الشرع على وجوب أو ندب أو إباحة، لما كان ثمَّ بدعة، ولكان العمل داخلاً في عموم الأعمال المأمور بها، أو المخير فيها، فالجمع بين عدّ تلك الأشياء بدعًا وبين كون الأدلة تدل على وجوبها أو ندبها أو إباحتها جمعٌ بين متناقضين». [الاعتصام: ج١/٢٤١].

ما الضابط في تحسين البدع؟ ومن المرجع فيه؟

وختامًا أقول: إن القول بالبدعة الحسنة يفتح باب الابتداع على مصراعيه، ولا يمكن معه رد أيّ بدعة؛ لأن كل صاحب بدعة سيدعي أن بدعته حسنة، فما الضابط في تحسين البدع؟ ومن المرجع فيه؟

إن قيل: الضابط موافقة الشرع. قلنا: ما وافق الشرع ليس ببدعة أصلاً، وإن قيل: المرجع العقل. قلنا: العقول متفاوتة ومختلفة متباينة، فإلى أي عقل نحتكم؟ وأيها المرجع في ذلك؟ وأيها يقبل حكمه؟ وكل صاحب بدعة يزعم أن بدعته حسنة عقلاً، فلا مخرج إذًا إلا في الالتزام بالكتاب والسنة، وترك البدع والتصدي للمبتدعة، وللقائلين بالبدعة الحسنة شبهات يستندون إليها سأناقشهم فيها في العدد القادم - بإذن الله-.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

افتتاحية العدد

شبهات القائلين بالبدعة الحسنة والرد عليها

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على رسوله الصادق الأمين وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن البدعة، وبينتُ من خلال النصوص النبوية وفهم الأئمة أن كل البدع مذمومة، وأنه لا توجد بدعة توصف بأنها حسنة، والدافع لي من وراء ذلك: تعظيم النصوص الشرعية، والوقوف عندها، وعدم تجاوزها، والاعتراف بمكانة النبي صلى الله عليه وسلم، والشهادة له بأنه بلَّغ الرسالة بعد أن أكمل الله له الدين وأتم عليه النعمة.

قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «وثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يمت حتى أتى ببيان جميع ما يُحتاج إليه في أمر الدين والدنيا، وهذا لا مخالف عليه من أهل السنة، فإذا كان كذلك، فالمبتدع إنما محصول قوله بلسان حاله أو مقاله: إن الشريعة لم تتم، وأنه بقي منها أشياء يجب أو يستحب استدراكها؛ لأنه لو كان معتقدًا لكمالها وتمامها من كل وجه، لم يبتدع ولا استدرك عليها، وقائل هذا ضال عن الصراط المستقيم.

قال ابن الماجشون: سمعت مالكًا يقول: من ابتدع في الإسلام بدعة يراها حسنة، فقد زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم خان الرسالة؛ لأن الله يقول: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» [المائدة: ٣]، فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا». [الاعتصام ج١/٣٧].

استناد القائلين بالبدعة الحسنة إلى شبهات:

الشبهة الأولى:

وقد استند القائلون بالبدعة الحسنة إلى شبهات راحت عندهم، وفهموا منها استحسان البدع، وسأناقش- بإذن الله في هذا اللقاء- أشهر ما استندوا إليه في ذلك، ومنها: ما فعله عثمان رضي الله عنه من الأذان الثاني في يوم الجمعة، ولم يكن موجودًا في زمن من قبله، وفي نظر هؤلاء أن عثمان أتى ببدعة حسنة ووافقه الصحابة عليها.

وأقول في الرد على هذه الشبهة:

إن عثمان لم يزد ولم ينقص عما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم يخترع أذانًا زائدًا في المسجد، وإنما أراد إعلام الناس بقرب وقت الصلاة في مكان يسمى «الزوراء»، وهو مكان مجاور للسوق يبعد عن المسجد نحو ألف ذراع، ليسمع أهل السوق الأذان؛ نظرًا لاتساع العمران وكثرة السكان عما كان عليه الحال في عهد النبي صلى الله عليه وسلم.

بالإضافة إلى أن هذا فعل أحد الخلفاء الراشدين الذين أُمرنا أن نقتدي بهم وأن نتبع سنتهم.

الشبهة الثانية:

استدلالهم بالحديث الصحيح الآتي على جواز تقسيم البدع إلى حسنة وسيئة، وهو فهم خاطئ للنصوص، ونص

الحديث: «من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة كان عليها وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء». [مسلم ٢٣١٤].

والجواب عن هذه الشبهة كما يلي:

ليس المراد بالاستنان هنا الاختراع، وإنما المراد العمل بما ثبت في السنة النبوية، أو إحياء أمر مشروع غفل عنه الناس أو تركوه، وذلك لعدة وجوه:

الأول: قوله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة» لا يدل على البدعة، فإن البدع ليست من الإسلام، وقوله: «حسنة» دليل آخر على إخراج البدع، فالبدع ليست بحسنة، وكون السنة حسنة أو سيئة لا يُعرف إلا بموافقة الشرع أو بمخالفته، فما وافق الشرع وأوامره فهو من السنة الحسنة، وما خالف الشرع وأوامره فهو السنة السيئة.

الثاني: أن السبب الذي جاء لأجله الحديث هو الصدقة المشروعة، وعلى هذا يكون قوله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة» منزلا على سبب هذا الحديث، وهو كما في صحيح مسلم من حديث جرير بن عبد الله رضي الله عنهما قال: كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في صدر النهار، قال: فجاءه قوم حفاة عراة مُجتابي النمار أو العباء متقلدي السيوف، عامتهم من مضر، بل كلهم من مضر، فتمعر وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم لما رأى بهم من الفاقة، فدخل ثم خرج، فأمر بلالاً فأذن وأقام، فصلى ثم خطب فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ» [النساء: ١] إلى آخر الآية. «إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا» [النساء: ١]، والآية التي في الحشر: «ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ» [الحشر: ١٨]، تصدق رجل من ديناره، ومن درهمه، من ثوبه، من صاع بره، من صاع تمره، حتى قال: «ولو بشق تمرة» قال: فجاء رجل من الأنصار بصرة كادت كفه تعجز عنها، بل قد عجزت، قال: ثم تتابع الناس حتى رأيت كومة من طعام وثياب، حتى رأيت وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم يتهلل كأنه مذهبة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة حسنة». الحديث.

فتأملوا: متى قال النبي صلى الله عليه وسلم هذا القول؟ وما الذي نفهمه من ذلك؟ نجد أن المراد بهذا الكلام حثّ الناس على القيام بمثل ما قام به الذي أتى بصُرّة كبيرة، والناظر بتأمل أيضًا يجد أن كل ما فعله الأنصاري إنما هو ابتداؤه بالصدقة في تلك الحادثة، والصدقة مشروعة من قبل بنص الشرع.

والسنة الحسنة هنا: وهي إحياء أمر مشروع لم ينشط له بعض الناس، ولا يمكن أن يفهم هذا النص دون النظر إلى مناسبته التي ورد فيها، وهو ما يعرف عند الأصوليين بدلالة السياق، وإلا سيكون كمثل من قرأ قوله تعالى: «فويل للمصلين»، ولم يكمل ما بعدها حتى يتم معناها؛ لأنه يكون بفعله هذا عكس الحقائق، وقلب الموازين؛ لأن الله لم يتوعد المصلين، كيف وهو أمر سبحانه بإقامة الصلاة؟ لكنه جل وعلا توعد صنفًا من المصلين الذين وصفهم بقوله: «ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ» [الماعون: ٥- ٧]. قال ابن دقيق العيد: «فإن السياق طريق إلى بيان المجملات وتعيين المحتملات، وتنزيل الكلام على المقصود منه، وفهم ذلك قاعدة كبيرة من قواعد أصول الفقه». [الإحكام ٨٢/٤].

> قوله صلى الله عليه وسلم: «من سن في الإسلام سنة» لا يدل على البدعة، فإن البدع ليست من الإسلام، وقوله: «حسنة» دليل آخر على إخراج البدع، فالبدع ليست بحسنة.

الثالث: أن قوله صلى الله عليه وسلم: «من سَنَّ في الإسلام سنةً حسنة، ومن سن في الإسلام سنة سيئة» لا يمكن حمله على الاختراع؛ لأن كونها حسنة أو سيئة لا يُعرف إلا من جهة الشرع، إذ كانت العبادات في الجملة توقيفية غير معقولة المعنى، فلا يستقل العقل بإدراك جهة الحسن أو القبح فيها، فلزم أن تكون السنة في الحديث: إما حسنة في الشرع، وإما قبيحة بالشرع، فلا يصدق هنا إلا على مثل الصدقة المذكورة وما أشبهها من السنن المشروعة.

الرابع: لا يمكن أن يكون معنى: «من سن في الإسلام سنة حسنة» أي من ابتدع في الإسلام بدعة حسنة، فإن لازم ذلك أن يكون بين البدعة والسنة ترادف، مما يؤدي إلى لازم أفسد منه، وهو أن يصح حمل قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة» على: كل سنة ضلالة.

الشبهة الثالثة:

استدلوا بقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب

رضي الله عنه حين خرج إلى الناس وهم يصلون بإمامهم في رمضان: «نعمت البدعة هذه» البخاري (٢٠١٠).

والجواب عن هذه الشبهة في النقاط التالية:

أولًا: لو سلمنا جدلًا بصحة دلالته على ما أرادوا من تحسين البدع - مع أن هذا لا يسلم - فإنه لا يجوز أن يعارض كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «كل بدعة ضلالة» بكلام أحد من الناس، كائنًا من كان.

ثانيًا: أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: هذه الكلمة حين جمع الناس على إمام واحد في صلاة التراويح، وصلاة التراويح ليست بدعة في الشريعة، بل هي سُنة بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم وفعله في الجماعة، وقد صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة التراويح بأصحابه في المسجد ثلاث ليالٍ، وقد رغب في القيام مع الإمام، كما بالحديث: «من قام مع الإمام حين ينصرف كتب له قيام ليلة» [سنن الترمذي وصححه الألباني].

وفي هذا ترغيب لقيام رمضان خلف الإمام، وقد فهم ذلك الصحابة رضوان الله عليهم فكانوا يصلون التراويح، وقد دفع ذلك عمر رضي الله عنه إلى أن يجمعهم على إمام واحد، كما في حديث عبد الله بن عبد القاري قال: «خرجت مع عمر بن الخطاب ليلة في رمضان إلى المسجد، فإذا الناس أوزاع متفرقون، يصلي الرجل لنفسه، ويصلي الرجل فيصلي بصلاته الرهط.

فقال عمر: إني أرى لو جمعت هؤلاء على قارئ واحد لكان أمثل، ثم عزم فجمعهم على أبي بن كعب، ثم خرجت معه مرة أخرى والناس يصلون بصلاة قارئهم. فقال عمر: «نعمت البدعة» أخرجه البخاري.

فأصل قيام الليل سنة مشروعة، فانتفى أن تكون بدعة، ولا يمكن أن نقول: إنها بدعة، وقد صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما سماها عمر بدعة؛ لأن الناس قد تركوها، وصاروا لا يصلون جماعة بإمام واحد، فلما جمعهم على إمام واحد، صار اجتماعهم بدعة بالنسبة لما كانوا عليه أولًا من هذا التفرق.

وعليه فمفهوم البدعة الشرعية لا ينطبق على فعل عمر، وينصرف لفظ البدعة في قوله إلى البدعة اللغوية؛ لأن البدعة في الشرع لا تُستخدم إلا في موضع الذم، بخلاف اللغة، فإن كل ما أُحدث على غير مثال سابق بدعة، سواء أكان محمودًا أو مذمومًا، وعلى هذا حمل العلماء قول عمر رضي الله عنه، قال ابن رجب: «وأما ما وقع في كلام السلف من استحسان بعض البدع، فإنما ذلك في البدعة اللغوية». [جامع العلوم والحكم/٣٣٦].

وقال ابن حجر الهيتمي في شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة» [صحيح مسلم]: ويدخل في المبتدعة: كل من أحدث في الإسلام حدثًا لم يشهد الشرع بحسنه، وقول عمر رضي الله عنه في التراويح: «نعمت البدعة» أراد البدعة اللغوية، وهو ما فعل على غير مثال، كما قال تعالى: «قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ» [الأحقاف: ٩]، وليست بدعة شرعًا، فإن البدعة الشرعية ضلالة، كما قال صلى الله عليه وسلم. [الفتاوى الحديثية/٢٨١].

> لا يجوز أن يُعارَض كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم القائل: «كل بدعة ضلالة» بكلام أحد من الناس، كائنًا من كان.

وقال ابن تيمية: «وأما قول عمر رضي الله عنه: نعمت البدعة هذه. فأكثر المحتجين بهذا لو أردنا أن نثبت حكمًا بقول عمر الذي لم يخالف فيه، لقالوا: قول الصاحب ليس بحجة، فكيف يكون حجة لهم في خلاف قول رسول الله صلى الله عليه وسلم؟!

ثم نقول: أكثر ما في هذا تسمية عمر تلك بدعة مع حسنها، وهذه تسمية لغوية، لا تسمية شرعية، وذلك أن البدعة في اللغة تعم كل ما فُعل ابتداءً من غير مثال سابق، وأما البدعة الشرعية فما لم يدل عليه دليل شرعي، فإذا كان نص رسول الله صلى الله عليه وسلم قد دل على استحباب فعل، أو إيجاب بعد موته، أو دل عليه مطلقًا، ولم يُعمل به إلا بعد موته ككتاب الصدقة الذي أخرجه أبو بكر رضي الله عنه فإذا عُمل ذلك العمل بعد موته، صح أن يسمى بدعة في اللغة؛ لأنه عمل مبتدأ، كما أن نفس الدين الذي جاء به النبي صلى الله عليه وسلم يسمى بدعة ويسمى محدثًا في اللغة، كما

قالت رسل قريش للنجاشي عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من المهاجرين إلى الحبشة: «إن هؤلاء خرجوا من دين آبائهم، ولم يدخلوا في دين الملك، وجاءوا بدين محدث لا يُعرف».

ثم ذلك العمل الذي دل عليه الكتاب والسنة ليس بدعة في الشريعة، وإن سُمي بدعة في اللغة، فلفظ البدعة في اللغة أعم من لفظ البدعة في الشريعة، وقد علم أن قول النبي صلى الله عليه وسلم: «كل بدعة ضلالة» [سنن ابن ماجه وصححه الألباني]، لم يرد به كل عمل مبتدأ في دين الإسلام، بل كل دين جاءت به الرسل، فهو عمل مبتدأ، وإنما أراد ما ابتدئ من الأعمال التي لم يشرعها هو صلى الله عليه وسلم. [اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٥٨٩، ٥٩٠].

الشبهة الرابعة:

قالوا فيها: إن بعض الصحابة قد فعلوا أمورًا تعبدية ولم يكن فيها دليل خاص، ومع ذلك أقرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولم ينكر عليهم ذلك، كقصة خبيب بن عدي رضي الله عنه وفيها: أن المشركين لما أرادوا أن يقتلوه طلب منهم أن يتركوه، لكي يصلي ركعتين قبل القتل، فقال أبو هريرة راوي القصة: «فكان خبيب هو الذي سن الركعتين لكل امرئ قتل صبرًا». وقصة بلال عندما كان يصلي ركعتين بعد كل وضوء.

والجواب عن هذه الشبهة فيما يلي:

أولاً: أن الصحابة رضي الله عنهم قد فعلوا أمورًا تعبدية لم يرد فيها دليل خاص، ليس استحسانًا بغير دليل شرعي، ولكن لورود الدليل العام الذي يُثبت هذه العبادة، فالتطوع بالصلاة أو الصيام أمر مفتوح من حيث عدد الركعات أو مدة الصيام وثابت في السنة، وما دام وفق سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم من كيفية، مع اجتناب الأوقات المنهي عن الصلاة فيها، والأيام التي نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن تخصيصها بصيام، والدليل على استحباب النفل المطلق في أي وقت، ما ثبت في حديث عثمان أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من توضأ نحو وضوئي هذا، ثم صلى ركعتين لا يحدث فيهما نفسه غفر له ما تقدم من ذنبه». [البخاري: ١٥٩].

وكذا حديث عقبة بن عامر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يتوضأ فيحسن وضوءه، ثم يقوم فيصلي ركعتين، مقبلاً عليهما بقلبه ووجهه إلا وجبت له الجنة». [مسلم: ٤٧٣].

ومن هذا فَهْم خبيب جواز التنفل بعد وضوئه قبل موته لتتم له المغفرة، ومن هذا أيضا فَهْم بلال التنفل بعد كل طهور في ليل أو نهار، فلم ينشئ عبادة من عنده، وإنما حافظ على ما دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أن فعل الصحابة موقوف على إقرار النبي صلى الله عليه وسلم له، وكان فعلهم له قبل نزول آية كمال الدين وتمام النعمة، وأما بعدها مما ابتدعه الخلف فمن أين لهم أن يعلموا إن كان النبي صلى الله عليه وسلم يقره أو ينهى عنه؟ ومن أين يضمنون إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لما أُحدث بعده، وقد مات صلى الله عليه وسلم؟ وقد أعلمت قبل موته أن كل بدعة ضلالة، ولئن أقر النبي صلى الله عليه وسلم فعل خبيب وبلال في الصلاة بعد كل وضوء، فإنه لم يقر البراء بن عازب على خطئه في الدعاء الذي علمه إياه النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه: «آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت». فقال البراء: فجعلت أستذكرهن: «وبرسولك الذي أرسلت»، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا، ونبيك الذي أرسلت». البخاري (٢٤٧).

النوافل المطلقة ليست بدعة ؛ فخبيب هو الذي سنّ الركعتين لكل امرئ قتل صبرًا ، وبلال كان يصلي ركعتين بعد كل وضوء.

كما لم يقر النبي صلى الله عليه وسلم عثمان بن مظعون على التبتل وسماه رهبانية، ولم يقر الصحابة الذين سألوا عن عبادته فلما أخبروا بها كأنهم تقالوها، وأرادوا التجاوز والغلو في العبادة، فنهاهم صلى الله عليه وسلم وأعلمهم أن هذا ليس من سنته.

وهذا يدل بوضوح على أن ما أحدث بعض الصحابة من أمور تعبدية أصبح سُنة بإقرار النبي صلى الله عليه وسلم لا بمجرد فعل الصحابة، وقد قال القسطلاني بعد ذكره لقصة خبيب: «وإنما صار فعل خبيب سنة، لأنه فعل ذلك في حياة الشارع واستحسنه». [انظر: إرشاد الساري ج٥/١٦٥].

والحمد لله رب العالمين.

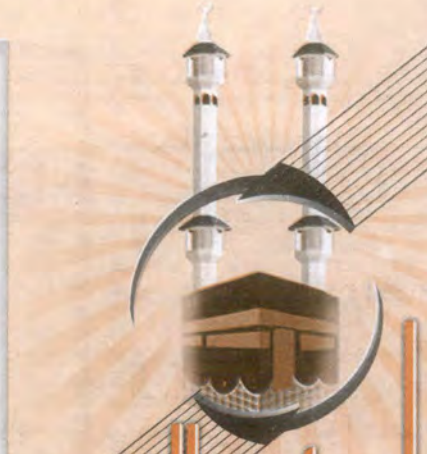

افتتاحية العدد

الإصلاح فريضة شرعية وضرورة حياتية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله، له الحمد في الأولى والآخرة، والصلاة والسلام على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإن السعي في إصلاح البلاد والعباد من مقاصد شريعة الإسلام، وقد أرسى النبي صلى الله عليه وسلم قواعد الإصلاح وضوابطه، وأسّس دولة عظيمة، قامت بالحق ونشرت العدل، وعبدت الرب وحده دون سواه، ولكن تغيرت الأحوال بالناس بعد ذلك، واختلت موازينهم، وظهر فيهم ما أخبر به النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: « يَا مَعْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ! خَمْسُ خِصَالٍ إِذَا ابْتُلِيتم بهن، وأَعُوذُ بِاللهِ أَنْ تُدْرِكُوهُنَّ: لَمْ تَظْهَرِ الْفَاحِشَةُ في قَوْمٍ قَطُّ حَتَّى يُعْلِنُوا إِلاَّ فَشَا فِيهِمُ الطَّاعُونُ وَالْأَوْجَاعُ الَّتِي لَمْ تَكُنْ فَشَتْ فِي أَسْلاَفِهِمْ، وَلَمْ يَنْقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِلاَّ أُخِذُوا بِالسِّنِينَ وَشِدَّةِ الْمَئُونَةِ، وَجَوْرِ السُّلْطَانِ عَلَيْهِمْ، وَمَا مَنَعُوا زَكَاةَ أَمْوَالِهِمْ إِلاَّ مُنِعُوا الْمَطَرَ، وَلَوْلاَ الْبَهَائِمُ لَمْ يُمْطَرُوا، وَلَمْ يَنْقُضُوا عَهْدَ اللهِ، وَعَهْدَ رَسُولِهِ إِلاَّ سَلَّطَ اللهُ عَلَيْهِمْ عَدُوَّهُمْ فَأَخَذُوا بَعْضَ مَا فِي أَيْدِيهِمْ، وَمَا لَمْ يَحْكُمْ أَئِمَّتُهُمْ بِكِتَابِ اللهِ وَيَتَخَيَّرُوا مِمَّا أَنْزَلَ اللهُ إِلاَّ جَعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ».

[أخرجه ابن ماجه (٤٠١٩)، والحاكم (٤/٥٨٣، رقم ٨٦٢٣) وقال: صحيح الإسناد. وحسنه الألباني].

وإني نظرت في أحوال أمتنا، فوجدت ألوانًا من الفساد تحتاج إلى دعوة كبيرة يقوم بها المصلحون وفق منهج الأنبياء والمرسلين، لا كما يزعم البعض اليوم من أنه يريد الإصلاح وهو رأس الفساد والضلال.

وقد زعم فرعون قديمًا أنه يخاف على قومه من كليم الله موسى - عليه السلام - فقال: «إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ» [غافر: ٢٦]. ومارس المنافقون في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ألوان الفساد، وزعموا أنهم هم المصلحون، « وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ» [البقرة: ١١- ١٢].

الإصلاح مشروط بالمنهج الرباني:

ولذلك فإني أوضح هنا أن الإصلاح لا يكون إلا إذا قام على المنهج الرباني. يقول الشيخ/ محمد الخضر حسين (شيخ الأزهر الأسبق): «لما كانت الأنظار تقتصر، والأهواء تتغلب، والعقول تتفاوت وتختلف، اشتدت حاجة الناس إلى مصلح إلهي، يطلق نفوسهم من كيد الأوهام، ويهديهم السبيل إلى ما فيه خيرهم، وينذرهم عاقبة الانهماك في اللذائذ، ويعلمهم كيف يتحامون الفتنة إذا اختلفوا، هذا وجه من حكمة بعثة الأنبياء - عليهم السلام- وصعودهم بالناس إلى مراقي السعادة، وإقامتهم القضاء على

أسس عادلة، فبهذه الدعوة الإلهية لبست النفوس أدبًا صافيًا، وأخذ المجتمع سنة منتظمة، وبصرت العقول بحقائق كانت غامضة». [الدعوة إلى الإصلاح ص٣٢].

الدعوة إلى الإصلاح الشامل:

والله تبارك وتعالى قد أمر بالإصلاح، ونهى عن الفساد، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وأخبر عن شعيب عليه السلام أنه قال لقومه: «وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ» [هود: ٨٨]، ومنه نستفيد أن الإصلاح لا يكون بغير توفيق الله، وأن أي إصلاح أو تغيير مخالف لأمر الله وهدي رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم ليس إصلاحًا على الحقيقة، كما قامت دعوة الأنبياء والمرسلين- عليهم السلام- والصالحين المصلحين من أتباعهم على الدعوة إلى الإصلاح الشامل في كل نواحي الحياة؛ ابتداءً من علاقة العبد بربه، وصدق التوجه إليه، وانتهاء بإصلاح علاقة العبد بالحياة والأحياء عليها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن الله أمر بالإصلاح ونهى عن الفساد، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، وقال موسى لأخيه هارون: «ٱخْلُفْنِى فِى قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ» [الأعراف: ١٤٢]، وقال تعالى: «فَمَنِ ٱتَّقَىٰ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ» [الأعراف: ٣٥]. (مجموع الفتاوى ج٣١/٢٦٦).

كما أوجب الله على موسى الأمر القيام بالإصلاح، وذلك بإقامة شرع الله ودينه، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، قال الله تعالى: «ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ» [الحج: ٤١]، وهذه صفة الأمة المسلمة التي تعمل جميعًا للخير والصلاح، فلا تبقى على منكر وهي قادرة على تغييره، ولا تقعد عن معروف وهي قادرة على تحقيقه، وقد ذكر ابن كثير أن عمر بن عبد العزيز خطب الناس وذكر هذه الآية، ثم قال: «إلا أنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلك أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبزوزة، ولا المستكرهة، ولا المخالف سرها علانيتها». [تفسير ابن كثير ٣/٣٨٣].

وعليه، فكل من مكّن الله تعالى له وولاه أمرًا من أمور المسلمين العامة أو الخاصة، فعليه أن يعمل على ما يصلح دينهم ودنياهم، وأن يأخذ بأيديهم إلى ما ينفعهم في الدارين، وهذه المسؤولية سيسأله الله عنها، كما في حديث عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما- أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، والرجل راع في أهله وهو مسئول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسئولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسئول عن رعيته». [البخاري: ٨٩٣، ومسلم: ١٨٢٩].

إن الله أمر بالإصلاح ونهى عن الفساد، وبعث رسله بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها ٠

ويجب على الراعي السعي الجاد في تحقيق الأصلح والأحسن فيما أُسند إليه على أتم وجه وأفضله. يقول القرافي- رحمه الله-: «اعلم أن كل من ولي ولاية الخلافة فما دونها إلى الوصية، لا يحل له أن يتصرف إلا بجلب مصلحة أو دفع مفسدة؛ لقوله تعالى: «وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ» [الأنعام: ١٥٢]، ولقوله عليه الصلاة والسلام: «من ولي من أمور أمتي شيئًا، ثم لم يجهد لهم ولم ينصح فالجنة عليه حرام». [الفروق ٤/٩٥].

واجب لا ينقطع من هذه الأمة:

وقد أكد النبي صلى الله عليه وسلم على جميع أمته القيام بالإصلاح فقال: «والذي نفسي بيده، لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه، ثم تدعون فلا يُستجاب لكم». [أخرجه الترمذي: ٢١٦٩].

وبين النبي صلى الله عليه وسلم أن هذا الواجب لن ينقطع من هذه الأمة، وأن طائفة منها قائمة به، كما في حديث معاوية: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك». [البخاري: ٣٦٤١،

ومسلم: ١٠٣٧].

كما ضرب النبي صلى الله عليه وسلم مثلاً للمجتمع ومن فيه من مصلحين ومفسدين، فقال كما في حديث النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عَنْ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَمَ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى حُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنْ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا؛ فَإِنْ يَتْرُكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَوْا جَمِيعًا». [البخاري: ٢٣٦١].

المنهج النبوي في الإصلاح:

ويؤخذ مما تقدم: أن الإصلاح والنهي عن المنكر والتصدي للفساد ضرورة شرعية، وتقع مسئولية القيام بذلك على الجميع، كل بحسبه، ولقد اهتم الإسلام بهذا، فوضع له منهج العمل والتنفيذ، حتى تتحول المبادئ والقيم المقروءة والمسموعة إلى واقع عملي يحياه الناس، وقدوتنا في هذا المنهج نبينا صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، وقد أرسى قواعد الإصلاح على أصول ومبادئ، لا بد من معرفتها، والسير عليها، ليتحقق للأمة الإصلاح المنشود، ولتحيى الحياة الكريمة السعيدة في الدنيا والآخرة، ويأتي على رأس المنهج النبوي في الإصلاح - الإخلاص لله تعالى في الاعتقاد والدعوة والعمل- قال الله تعالى: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠].

شروط العمل الصالح:

وقد أفادت الآية أن الذي يريد ثواب الله تعالى وجزاءه الصالح، فلا بد أن يعمل عملاً موافقًا للشرع، وأن يريد به وجه الله تعالى، وهذان ركنا العمل المتقبل عند الله. قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي - رحمه الله-: «العمل لا يكون صالحًا إلا بثلاثة أمور: الأول: أن يكون مطابقًا لما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، فكل عمل مخالف لما جاء به صلوات الله وسلامه عليه، فليس بصالح، بل هو باطل، قال الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟» [الحشر: ٧]، وقال: «مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ» [النساء: ٨٠].

الثاني: أن يكون العامل مخلصًا في عمله لله فيما بينه وبين الله، قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ» [البينة: ٥]، وقال: «قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴿١١﴾ وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٢﴾ قُلْ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٣﴾ قُلِ ٱللَّهَ أَعْبُدُ مُخْلِصًا لَّهُۥ دِينِى ﴿١٤﴾ فَٱعْبُدُوا۟ مَا شِئْتُم مِّن دُونِهِۦ» [الزمر: ١١- ١٥].

الثالث: أن يكون العمل مبنيًا على أساس الإيمان والعقيدة الصحيحة، لأن العمل كالسقف، والعقيدة كالأساس، قال الله تعالى: «وَمَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ» [غافر: ٤٠]، فجعل الإيمان قيدًا في ذلك، وبيَّن مفهوم هذا القيد في آيات كثيرة، كقوله تعالى في أعمال غير المؤمنين: «وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا» [الفرقان: ٢٣]. (أضواء البيان ٤/٨، ٩).

إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه.

وبهذا يظهر أهمية الإخلاص ومكانته، فهو لبّ العبادة، وأصل الدين، وأساس أيّ دعوة إلى الله، وإذا كان الإخلاص شرطًا في أعمال الحياة العادية كي تكون سليمة متقنة، ليس فيها عذر أو خيانة، فما بالك إذا كان العمل لله، كان داعي الإخلاص إليه أشد وأقوى.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إخلاص الدين لله هو الدين الذي لا يقبل الله سواه، وهو الذي بعث به الأولين والآخرين من الرسل، وأنزل به جميع الكتب، واتفق عليه أئمة أهل الإيمان، وهذا هو خلاصة الدعوة النبوية، وهو قطب القرآن الذي تدور عليه رحاه، وقد أخبر سبحانه أن الأولين والآخرين إنما أمروا بذلك في غير موضع، فقال: «وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ» [البينة: ٤- ٥]، وهذا حقيقة لا إله إلا الله، وبذلك بعث جميع الرسل». [مجموع الفتاوى ١٠/٥١].

والمخلصون ليست لهم وجهة، ولا لديهم غاية إلا التوجه إلى الرب الكريم سبحانه وتعالى خالصة قلوبهم إليه، ولذلك أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم ألا يرفع بصره عنهم، قال الله تعالى: «وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا» [الكهف: ٢٨].

أمثل الصحابة إخلاصًا وأعلاهم درجة ومكانة:

وكان من أمثل الصحابة إخلاصًا وأعلاهم درجة ومكانة أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي أخبر الله برضاه عنه، وهو حي يتحرك على الأرض وذلك بسبب إخلاصه وتوجيه عمله لله وحده، قال الله تعالى: «وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ» [الليل: ١٩- ٢١]. قال ابن كثير: «وقد ذكر غير واحد من المفسرين أن هذه الآيات نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه، حتى إن بعضهم حكى الإجماع من المفسرين على ذلك، ولا شك أنه داخل فيها وأولى الأمة بعمومها.. وهو مقدَّم الأمة وسابقهم في جميع هذه الأوصاف وسائر الأوصاف الحميدة، فإنه كان صدِّيقًا نقيًا كريمًا جوادًا باذلًا لأمواله في طاعة مولاه، ونصرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، فكم من دراهم ودنانير بذلها ابتغاء وجه ربه الكريم، ولم يكن لأحد من الناس عنده مِنَّة يحتاج إلى أن يكافئه بها، ولكن كان فضله وإحسانه على السادات والرؤساء من سائر القبائل، ولهذا قال له عروة بن مسعود - وهو سيد ثقيف- يوم صلح الحديبية: أما والله لولا يد لك عندي لم أجزك بها لأجبتك، وكان الصديق قد أغلظ له في المقالة، فإذا كان هذا حاله مع سادات العرب ورؤساء القبائل، فكيف بمن عداهم؟

وفي الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أنفق زوجين في سبيل الله دعته خزنة الجنة: يا عبد الله، هذا خير». فقال أبو بكر: يا رسول الله، ما على من يُدْعَى منها ضرورة، فهل يُدعَى منها كلها أحد؟ قال: «نعم، وأرجو أن تكون منهم». [تفسير ابن كثير ٤/٧٠٧].

ووعد الله للصديق بالرضا من أعلى منازل البشرى، وهذا الوصف بعضه ثابت للنبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: «وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَىٰ (٤) وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَىٰ» [الضحى: ٤- ٥]، فهو وعد مشترك من الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وللصدّيق رضي الله عنه، وكفى بهذا كرامة.

في الإخلاص نجاة:

إن الله تبارك وتعالى ينجّي عباده ويصرف عنهم السوء والفحشاء، بسبب إخلاصهم له وحده، قال تعالى في شأن نبيه يوسف عليه السلام: «وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ ۖ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ» [يوسف: ٢٤]. فتأمل كيف نجى الله عبده ونبيه يوسف عليه السلام بسبب إخلاصه ومراقبته لربه، وقد قرئت كلمة «المخلصين» بفتح اللام وكسرها، والمعنى على الفتح: أن الله اختاره وأحبه، وعلى الكسر: أنه شديد الإخلاص والتوحيد لربه. [انظر لسان العرب ٧/٢٦].

> الزموا طريق الإخلاص في أعمالكم ودعواتكم، واعلموا أن الخروج مما نحن فيه، يحتاج إلى عودة صادقة للكبير المتعال؛ لأن الأمة تُحفظ وتُنصر بإخلاص رجالها لله، وإرادة وجهه الكريم فحسب.

نداء لكل مصلح:

وختامًا أقول لكل مصلح يريد الخير والنجاح والنصر والتأييد، في أمتنا المصرية اليوم الذي تنادي فيها طوائف كثيرة متعددة بضرورة الإصلاح والتغيير، وهي في الوقت ذاته متنافرة متناحرة، أقول: الزموا طريق الإخلاص في أعمالكم ودعواتكم، واعلموا أن الخروج مما نحن فيه، يحتاج إلى عودة صادقة للكبير المتعال؛ لأن الأمة تُحفظ وتُنصَر بإخلاص رجالها لله، وإرادة وجهه الكريم فحسب، وقد وقع في هذا الصحب الكرام رضوان الله عليهم فقال الله لهم: «وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» [الأنفال: ٢٦]، وفي الحديث: «بشر هذه الأمة بالسناء والدين والرفعة والتمكين في الأرض، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا لم يكن له في الآخرة من نصيب». [صحيح الجامع: ٢٨٢٥].

أسأل الله أن يعز دينه وأن ينصر أولياءه، وأن يمكن لعباده، وللحديث بقية إن شاء الله.

افتتاحية العدد

المنهج النبوي في الإصلاح

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فلقد تحدثت في العدد السابق عن أهمية الإصلاح وضرورته، وذكرت أن الإصلاح لا يكون سليمًا ولا يؤتي ثمرته إلا إذا كان على منهج النبوة، وأواصل هذا الحديث عن المنهج النبوي في الإصلاح، وأذكر هنا على رأس ذلك:

اتباع النبي صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى: «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» [آل عمران: ٣١]، لقد جعل الله تعالى اتباع النبي صلى الله عليه وسلم أمارة على محبته، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية حاكمة على كل من ادعى محبة الله، وليس وهو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر، حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» [متفق عليه].

قال: «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ» [آل عمران: ٣١]، أي: يحصل لكم فوق ما طلبتم، وهو محبته إياكم، وهو أعظم من الأول، كما قال بعض العلماء الحكماء: ليس الشأن أن تُحِب، إنما الشأن أن تُحَبّ.

وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله فابتلاهم الله بهذه الآية». [تفسير ابن كثير ٤٩٤/١].

وعليه فيجب على جميع أهل الإيمان -وعلى رأسهم دعاة الإصلاح- السير على أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وطريقته، وعدم مخالفته في كثير أو قليل، وليحذر المخالفون من الفتنة التي تصيب قلوبهم عند مخالفته، وقد تكون شركًا، أو كفرًا، أو نفاقًا، والعياذ بالله، قال الله سبحانه: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «أمر من خالف أمره أن يحذر الفتنة، والفتنة: الردة والكفر، قال سبحانه: «وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ» [البقرة: ١٩٣]، وقال: «وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ» [البقرة: ٢١٧]، قال الإمام أحمد في رواية الفضل بن زياد: نظرت في المصحف فوجدت طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعًا، ثم جعل يتلو: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» [النور: ٦٣]، وجعل يكررها ويقول: وما الفتنة؟ الشرك، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في شيء من الزيغ، فيزيغ قلبه، فيهلكه». [الصارم المسلول: ٤٣].

ومما يدخل في مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقديم آراء الرجال وعقولهم وأذواقهم على سنة النبي صلى الله عليه وسلم ، وبعض الناس يأخذ عهدًا على شيخه وإمامه، أو تقع منه بيعة في محيط جماعته،

فإذا جاء الأمر عن الله أو عن رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم قدم أمر هؤلاء على الكتاب والسنة، وهذا ضلال مبين، وانحراف عن الصراط المستقيم.

وكان السلف الصالح رضوان الله عليهم ينهون من يفعل ذلك، كما جاء عن سفيان بن عيينة أن رجلا قال لمالك: من أين أحرم؟ قال: من حيث أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأعاد عليه مرارًا. قال: فإن زدت على ذلك؟ قال: فلا تفعل، فإني أخاف عليك الفتنة. قال: وما في هذا من الفتنة؟ إنما هي أميال أزيدها. قال: إن الله يقول: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» [النور: ٦٣]، قال: «وأي فتنة في هذا؟» قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك أصبت فضلاً قصر عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو ترى أن اختيارك لنفسك خير من اختيار الله». [ذم الكلام للهروي ص٢٧٤].

طريق الفلاح والصلاح في الدنيا والآخرة:

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم الفرقة الناجية المنصورة الظاهرة على الحق إلى يوم القيامة بأنها: ما كانت على مثل ما عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهذا هو طريق الفلاح والنجاح والصلاح في الدنيا والآخرة، وهذا المنهج والطريق هو الذي يجب على جميع المسلمين سلوكه وعدم الخروج عليه، وقد لزم ذلك أهل السنة والجماعة، يقول فيهم شيخ الإسلام ابن تيمية: «وهم معتصمون بحبل الله يحكّمون الرسول صلى الله عليه وسلم فيما شجر بينهم، لا يتقدمون بين يدي الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فضلاً عن تعمد مخالفة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ». [مجموع الفتاوى ١٣/٦٥].

ولذلك فإني أوجّه دعوة صادقة إلى أهل العلم وجميع الهيئات والمؤسسات الإسلامية إلى وجوب متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ، والعمل الجاد الصادق على إحياء ما اندرس من العمل بالكتاب والسنة، والأمر بمقتضاهما، وإماتة ما ظهر من البدع والمحدثات.

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ويدخل في المنهج النبوي في الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقد ربط الله خيرية هذه الأمة به، فقال تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ» [آل عمران: ١١٠]. قال بعض السلف: هم خير أمة إذا قاموا بهذا الشرط، فمن لم يقم بهذا الشرط فليس من خير أمة، كما أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أخص أخلاق المؤمنين والمؤمنات وصفاتهم الواجبة التي لا يجوز لهم التخلي عنها أو التساهل بها، وقد ذم الله من ترك هذا الواجب من كفار بني إسرائيل ولعنهم على ذلك، قال تعالى: « لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ » [المائدة: ٧٨]، وقد بينت الآيات أن سبب لعن كفار بني إسرائيل وطردهم من رحمة الله هو عصيانهم وبغيهم، وأن من ذلك تركهم النهي عن المنكر فيما يقع بينهم، وأن هذه الأمة لو سلكت طريقهم وتخلقت بأخلاقهم لحقها الوعيد الذي وقع بهؤلاء.

من أسس المنهج النبوي في الإصلاح: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الله تعالى ربط خيرية هذه الأمة بأمرها بالمعروف ونهيها عن المنكر.

قال ابن عطية - رحمه الله- في تفسير الآية: «والإجماع على أن النهي عن المنكر واجب لمن أطاعه». [المحرر الوجيز ٢/٣٢٧]، وعن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رأى منكم منكرًا فليغيّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان». [مسلم: ٩٤].

قال النووي رحمه الله: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم : «فليغيره» فهو أمر إيجاب بإجماع الأمة، وقد تطابق على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الكتابُ والسنة وإجماع الأمة، وهو أيضا من النصيحة التي هي الدين، ولم يخالف في ذلك إلا بعض الرافضة، ولا يعتد بخلافهم كما قال الإمام أبو المعالي إمام الحرمين: لا يُكترث بخلافهم في هذا، فقد أجمع المسلمون عليه قبل أن ينبغ هؤلاء». [شرح النووي على مسلم ج٢/٢٢].

وقد بيّن الله تعالى أن من خصال أهل الإيمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأن هذا من ثمرة الولاية والتعاون فيما بينهم، قال الله تعالى:

« وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [سورة التوبة: ٧١]، وقد ذكر البغوي رحمه الله في تفسيره للآية أن المراد بولاية المؤمن: الولاية في الدين واجتماع الكلمة والعون والنصرة، وأنهم يأمرون بالإيمان والطاعة والخير، وينهون عن الشرك والمعصية وما لا يُعرف في الشرع. [انظر تفسيره ٣١٠/٢].

كما جعل الله سبحانه وتعالى الفلاح في الدنيا والآخرة مرتبطًا بالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقال تعالى: «وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [آل عمران: ١٠٤]. قال القاسمي رحمه الله: «في الآية دليل على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ووجوبه ثابت بالكتاب والسنة، وهو أعظم واجبات الشريعة المطهرة، وأصل عظيم من أصولها، وركن مشيد من أركانها، وبه يكمل نظامها ويرتفع سنامها، ونقل عن الغزالي رحمه الله قوله: في هذه الآية بيان الإيجاب، فإن قوله تعالى: «وَلْتَكُن» [آل عمران: ١٠٤]، أمر، وظاهر الأمر الإيجاب، وفيها بيان أن الفلاح منوط به، إذ حصر وقال: «وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ » [آل عمران: ١٠٤]. (تفسير القاسمي ج٤/٩٢١).

كما أن الأمر بالمعروف والنهي من أسباب التمكين في الأرض، قال تعالى: « الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ » [الحج: ٤١]، وقد ذكر ابن كثير عن أبي العالية: أنهم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وقال الصباح بن سوادة الكندي: سمعت عمر بن عبد العزيز يخطب وهو يقول: « الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ » الآية [الحج: ٤١]، ثم قال: إلا إنها ليست على الوالي وحده، ولكنها على الوالي والمولى عليه، ألا أنبئكم بما لكم على الوالي من ذلكم، وبما للوالي عليكم منه؟ إن لكم على الوالي من ذلكم أن يؤاخذكم بحقوق الله عليكم، وأن يأخذ لبعضكم من بعض، وأن يهديكم للتي هي أقوم ما استطاع، وإن عليكم من ذلك الطاعة غير المبروزة ولا المستكره بها، ولا المخالف سرها وعلانيتها. [تفسير ابن كثير ٣١٣/٣].

مفاسد ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر سبب في إنزال العقاب، وعدم استجابة الدعاء، كما في حديث حذيفة بن اليمان عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، وليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه فتدعونه فلا يستجيب لكم». [صحيح سنن الترمذي ٢٣٣/٢].

ومن أعظم ألوان المعروف توحيد الله وعبادته، ومن أعظم أنواع المنكر الشرك بالله، وذلك لأن الله لا يغفره، وهو محبط للعمل، كما قال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » [النساء: ٤٨]، وقال تعالى: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » [الزمر: ٦٥].

من أعظم ألوان المعروف: توحيد الله تعالى وعبادته. ومن أعظم أنواع المنكر: الشرك بالله؛ وذلك لأن الله لا يغفره، وهو محبط للعمل.

فوائد الأمر بالمعروف:

وقد ذكر الشيخ الشنقيطي رحمه الله ثلاث حكم للأمر بالمعروف وهي:

الأولى: إقامة حجة الله على خلقه، كما قال تعالى: « رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ » [النساء: ١٦٥].

الثانية: خروج الآمر من عهدة التكليف بالأمر بالمعروف، قال الله تعالى: «قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ » الآية [الأعراف: ١٦٤]، وقال تعالى: « فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ » [الذاريات: ٥٤]، فدل على أنه لو لم يخرج من العهدة لكان ملومًا.

الثالثة: رجاء النفع للمأمور، كما قال تعالى: «مَّعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ » [الأعراف: ١٦٤]، وقال تعالى: « وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ » [الذاريات: ٥٥]. (أضواء البيان ١٧٦/٢).

ومما أرى التنبيه عليه هنا: أن بعض الناس يظن أنه إذا كان مستقيمًا في ذاته، فلا يلزمه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومن هؤلاء من يستدل بقول الله تعالى: « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم

مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ » [المائدة: ١٠٥]. ومعنى الآية: أن من أصلح نفسه وبذل جهده في فعل الخير وترك الشر، لا يضره من فسد من الناس بعد ذلك، ولا يعني هذا تركه الأمر والنهي، وقد بيّن أبو بكر الصديق رضي الله عنه فساد من استدل بهذه الآية على ترك الأمر والنهي، وقد قام رضي الله عنه ذات يوم فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهْتَدَيْتُمْ » [المائدة: ١٠٥]، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا المنكر ولا يغيرونه أوشك الله عز وجل أن يعمهم بعقابه». [صحيح سنن الترمذي للألباني (٢٤٤٨)].

وقد فهم السلف هذا الفهم من الآية، فقد روى ابن جرير وابن كثير وغيرهما عن سعيد بن جبير قال: «إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا أهتديت». قال ابن كثير عقب ذكره: «وكذا روى من طريق سفيان الثوري...، وكذا قال غير واحد من السلف». [انظر تفسير ابن كثير ٢/١٥٦].

من أسس المنهج النبوي في الإصلاح: تحريم كسب الأموال من طرق غير مشروعة، كالخداع والكذب في البيع والشراء، أو أكل الربا وأموال الناس بالباطل، وغير ذلك من صور كثيرة.

تحريم كسب الأموال من طرق غير مشروعة:

ومن المنهج النبوي في الإصلاح: تحريم كسب الأموال من طرق غير مشروعة، كالخداع والكذب في البيع والشراء، أو أكل الربا وأموال الناس بالباطل، وغير ذلك من صور كثيرة، وأقتصر هنا على تحريم كسب الأموال عن طريق الوظائف والأعمال التي للمسلمين، وأخص هذا بالذكر لانتشاره وكثرته، وربما لا يجد بعض الناس غضاضة فيه، مما دفعهم إلى الرشوة والمجاملة، وعدم العناية بالكفاءات والقدرات، وخطر هذا على الأمة عظيم، وفي البخاري عن أبي حميد الساعدي قال: «استعمل رسول الله صلى الله عليه وسلم رجلاً على صدقات بني سليم يدعى ابن اللتبية، فلما جاء حاسبه، قال: هذا لكم، وهذا أهدي لنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فهلا جلست في بيت أبيك وأمك حتى تأتيك هديتك إن كنت صادقاً، ثم خطبنا فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: أما بعد، فإني أستعمل الرجل منكم على العمل مما ولاني الله، فيأتي فيقول: هذا لكم وهذا هدية أهديت لي، أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته، والله لا يأخذ أحد منكم شيئًا بغير حقه إلا لقي الله يحمله يوم القيامة». [البخاري: ٦٩٧٩].

وقد عقد البخاري في كتاب الأحكام بابًا عَنْوَنَ له بقوله: «باب هدايا العمال»، وذكر تحته هذا الحديث [انظر فتح الباري (١٣/١٦٦)]، وقد بيّن الحديث أن الهدية وصلت إليه بسبب العمل الذي قام به، وأنه لو جلس في منزله ما وقع له شيء من ذلك، كما ذكر ابن كثير رحمه الله، وهذا الحديث في تفسير قول الله تعالى: « وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ وَمَن يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ » [آل عمران: ١٦١]. وهذا يدل على خطورة المحاباة والمجاملة، وقد شدد الشارع في ذلك ليستقيم المجتمع، ولإغلاق باب الرشوة، وقد لعن النبي صلى الله عليه وسلم الراشي والمرتشي والرائش، وهو الواسطة بينهما.

وعليه أقول: لا يجوز للموظف ومن أسندت إليه أعمال يراجعه الناس فيها أن يقبل منهم الهدية حتى لا يظلم أحدًا، ولأنه سيميل إلى من أهداه دون من لم يهده، كما لا يجوز أن يعين القاضي أو الحاكم من له مصلحة عندهم، حتى يتجرد في الاختيار ويوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وقد شدد في هذا الأئمة الأعلام رحمهم الله.

قال ابن قدامة: «ولا يقبل هدية من لم يكن يهدي إليه قبل ولايته، وذلك لأن الهدية يُقْصَدُ بها في الغالب استمالة قلبه، ليعتني به في الحكم، فتشبه الرشوة...، ولأن حدوث الهدية عند حدوث الولاية يدل على أنها من أجلها، ليتوسل بها إلى ميل الحاكم معه على خصمه، فلم يجز قبولها منه كالرشوة». [المغني ج١٤/٥٨، ٥٩].

وختامًا فإني أذكّر الجميع - حكامًا ومحكومين- بضرورة إصلاح النفس وتقويمها، وأن يفتحوا بابًا للتواصل والتآلف، وأن يتواصى الجميع بالحق والصبر، وأن ينبذوا المصالح الضيقة، والأهواء البغيضة، والمواقف الحزبية، وأن يقدموا المصالح العامة، والقواعد الكلية على المصالح الشخصية.

والحمد لله رب العالمين.

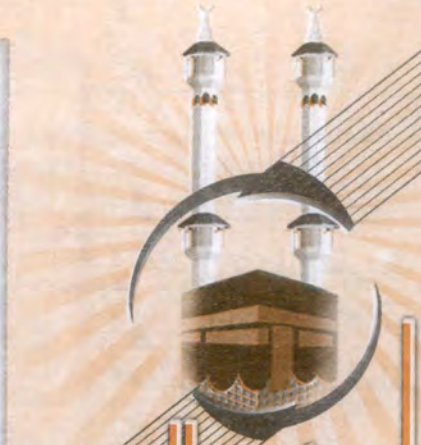

افتتاحية العدد

إرشاد المسلمين إلى كتاب رب العالمين

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، قيمًا لينذر بأسًا شديدًا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرًا حسنًا، والصلاة والسلام على من أنزل الله عليه الكتاب والحكمة وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإن القرآن الكريم أعظم معجزة وكتاب نزل من عند رب العالمين، اشتمل على الهدى المبين، وبيَّن الصراط المستقيم، وفيه غنية وكفاية لمن أراد وجهَ الرب الكريم، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١]، وهذه الآية جاءت ردًا على المشركين الذين طلبوا آيات من النبي صلى الله عليه وسلم تدل على صدقه، فإن الله جهّلهم وكافة عقولهم، وذكر أن القرآن وحده دليل على صدق النبي صلى الله عليه وسلم، ويوجب التسليم لرسالته، ويغني عن غيره من سائر الآيات، فهو كفاية، بل فوق الكفاية.

قال البقاعي رحمه الله في تفسير الآية: «أولم يكفهم» أي: إن كانوا طالبين للحق غير متعنتين آية بينة مغنية عن كل آية: «أنا أنزلنا» بعظمتنا «عليك الكتاب» أي: الجامع لسعادة الدارين؛ بحيث صار خُلقًا لك غالبًا على حركاتك وسكناتك، «يُتلى عليهم» أي تتجدد متابعة قراءته عليهم شيئًا بعد شيء في كل مكان وكل زمان من كل تالٍ مصدقًا لما في الكتب القديمة نعتك وغيره من الآيات الدالة على صدقك، يُتحدون بكل شيء نزل منه مع تحديهم بما قبله من آياته صباح مساء، فأعْظِم به آية باقية! إذ كل آية سواه منقضية ماضية «إن في ذلك» أي: إنزال الكتاب على هذا الوجه البعيد المنال البديع المثال «لرحمة» لهم لصقله صدأ القلوب في كل لحظة وتطهيره خبث النفوس في كل لمحة «وذكرى» عظيمة مستمرًا تذكرها، ولما عم بالقول، خص من حيث النفع فقال: «لقوم يؤمنون» أي: يمكن أن يتجدد لهم إيمان، ليس من همهم التعنت». [نظم الدرر ٥/٥٦٨].

القرآن أعظم آية دالة على صدق النبي صلى الله عليه وسلم:

وقد دلت آيات أخرى في كتاب الله على معنى هذه الآية، منها قول الله تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِّن رَّبِّهِ ۚ أَوَلَمْ تَأْتِهِم بَيِّنَةُ مَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ﴾ [طه: ١٣٣]، وقد دلت الآية أن الكفار طلبوا على عادتهم في التعنت آية على النبوة سوى القرآن، وذلك كالعصا والناقة

وغير ذلك، فأعلمهم الله أن القرآن أعظم آية دالة على صدقه؛ لاشتماله على أخبار السابقين وما اشتملت عليهم كتبهم، والذي نزل عليه القرآن أمي لا يقرأ ولا يكتب، ولم يجلس إلى أحد من أصحاب الكتب السابقة، وكفى بهذا معجزة.

يقول القاسمي رحمه الله في هذه الآية: «أو لم يأتهم آية هي أم الآيات وأعظمها، وهي معجزة القرآن المبينة لما في الكتب الأولى من التوراة والإنجيل والزبور. مع أن الآتي بها أمّيٌّ لم يرها ولم يتعلم ممن علمها. فنقب منها على الصحيح من أنبائها فصدقه، وعلى الباطل المحرف فَفَنَّدَهُ. وفيه إشعار بكفاية التنزيل في الإعجاز والبرهان كما قال تعالى في سورة العنكبوت: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِّن رَّبِّهِ ۖ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠ - ٥١]، ولذلك قال أحد حكماء الإسلام: إن الخارق للعادة الذي يعتمد عليه الإسلام في دعوته إلى التصديق برسالة النبيّ صلى الله عليه وسلم هو الخارق الذي تواتر خبره ولم ينقطع أثره. وهو الدليل وحده. وما عداه مما ورد في الأخبار، سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهي، فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فإذا أورد في مقام الاستدلال، فهو على سبيل التقوية للعقد لمن حصل أصله، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله. ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين، هو القرآن وحده. والدليل على أنه معجزة خارقة للعادة، تدل على أن موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر، هو أنه جاء على لسان أميّ لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم، وقد نزل على وتيرة واحدة هاديًا للضال مقومًا للمعوج كافلًا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الأمم، منقذًا لهم من خسران كانوا فيه. وهلاك كانوا أشرفوا عليه. وهو مع ذلك من بلاغة الأسلوب على ما لم يرتق إليه كلام سواه، حتى لقد دعي الفصحاء والبلغاء، أن يعارضوه بشيء من مثل، فعجزوا ولجأوا إلى المجالدة بالسيوف، وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به، إلى أن ألجأوهم إلى الدفاع عن حقهم، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل وظهور شمس الإسلام». [تفسير القاسمي ١/٤٢٣٨].

كما ورد في السنة النبوية المطهرة ما يدل على أن القرآن الكريم أعظم معجزة أيَّد الله بها النبي الأمين صلى الله عليه وسلم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعًا يوم القيامة». [البخاري: ٤٩٨١].

لقد دُعِيَ البلغاء والفصحاء أن يأتوا بشيء من مثل القرآن الكريم فعجزوا وألجأهم عجزهم إلى مواجهته ومجالدته بالسيوف.

وقد دل الحديث على أنه لا بد بكل نبي من معجزة تدفع إلى صدقه والإيمان برسالته، وكانت معجزات الأنبياء السابقين حسية مُشاهَدة، أما النبي صلى الله عليه وسلم، فأيده الله بالحسية والمعنوية، وكانت أعظم الآيات المعنوية، والمراد بها القرآن الكريم.

قال ابن حجر- رحمه الله- في قوله عليه الصلاة والسلام: «إنما الذي أوتيته وحيًا أوحاه الله إليَّ». أي: أن معجزتي التي تحديت بها هي الوحي الذي أُنزل عليَّ، وهو القرآن الكريم؛ لما اشتمل عليه من الإعجاز الواضح، وليس المراد حصر معجزاته فيه، ولا أنه لم يؤت من المعجزات ما أوتي من تقدمه، بل المراد أنه المعجزة العظمى التي اختص بها دون غيره». [فتح الباري ٦/٩].

ولمكانة القرآن وفضله كان الرجاء من النبي صلى الله عليه وسلم أن يكون أتباعه أكثر من

غيره، ولأن معجزات الأنبياء قبله كانت حسية تشاهد بالأبصار، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة، والذي يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده، بخلاف الذي يشاهد بعين العقل، فهو يبقى مستمرًا، ولقد نزل القرآن الكريم على قلب نبينا صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٣]. والمعنى: أن جبريل الأمين، صاحب المكانة العالمية، نزل بالقرآن من عند الله تعالى على قلب النبي صلى الله عليه وسلم، لينذر به أمته ويدعوهم إلى الله تعالى، وقد نزل القرآن الكريم بلسان العرب الفصيح بيّنًا واضحًا لا لبس فيه ولا غموض.

رمضان شهر القرآن:

وقد اختص الله شهر رمضان دون غيره من الشهور بإنزال القرآن فيه كما قال تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: ١٨٥].

قال ابن كثير رحمه الله: «يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور، بأن اختاره من بينها لإنزال القرآن العظيم، وقد ورد الحديث بأنه الشهر الذي كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء.

قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا أبو سعيد مولى بني هاشم، حدثنا عمران أبو العوام، عن قتادة، عن أبي المليح، عن واثلة بن الأسقع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أنزلت صحف إبراهيم في أول ليلة من رمضان، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان». [تفسير ابن كثير ١/٣٠٤، والحديث حسنه الألباني في الصحيحة برقم (١٥٧٥)].

كما بَيَّن الله تبارك وتعالى أن القرآن نزل في أعظم ليلة في هذا الشهر، وهي ليلة القدر، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ﴾ [القدر: ١- ٣]، وقد أخبر الله بأن هذه الليلة ليلة مباركة، قال الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: ٣].

مكانة القرآن في رمضان:

احتل القرآن الكريم مكانة عالية رفيعة على الدوام، وفي شهر رمضان خاصة، وذلك بكثرة قراءته وتدبره والقيام به لله تعالى في صلاة التراويح، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان النبي صلى الله عليه وسلم أجود الناس بالخير، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان عليه السلام يلقاه في كل ليلة في رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه النبي صلى الله عليه وسلم القرآن، فإذا لقيه جبريل عليه السلام كان أجود بالخير من الريح المرسلة». [البخاري: ١٩٠١، ومسلم: ٢٣٠٨].

كانت معجزات الأنبياء قبل نبينا حسية يؤمن على مثلها البشر ، وتنتهي المعجزة بانتهاء وقتها ، أما معجزة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم فتظل خالدة الدهر لأنها القرآن العظيم.

وقال ابن رجب: «ودل الحديث أيضًا على استحباب مدارسة القرآن في رمضان، والاجتماع على ذلك، وعرض القرآن على مَن هو أحفظ له، وفيه دليل على استحباب الإكثار من تلاوة القرآن في شهر رمضان، وفي حديث فاطمة- رضي الله عنها- عن أبيها صلى الله عليه وسلم أنه أخبرها أن جبريل كان يعارضه القرآن في كل عام مرة، وأنه عارضه في عام وفاته مرتين، وفي حديث ابن عباس أن المدارسة بينه وبين جبريل كان ليلا، فدل على استحباب الإكثار من التلاوة في رمضان ليلاً، فإن الليل تنقطع فيه الشواغل ويجتمع فيه الهم، ويتواطأ فيه القلب واللسان على التدبر كما

قال تعالى: (إِنَّ نَاشِئَةَ ٱلَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا) [المزمل: ٦]. [لطائف المعارف: ٢٤٢].

بيان استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل:

وقد عقد الإمام مسلم في صحيحه بابًا بعنوان: «باب استحباب تطويل القراءة في صلاة الليل»، ثم ساق حديثا حذيفة وابن مسعود، وفي الأول يقول حذيفة: «صليت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة، فمضى، فقلت: يركع بها، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها. يقرأ مترسلاً. إذا مر بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل وإذا مر بتعوذ تعوذ». [مسلم: ٧٧٢].

إقبال السلف على القرآن في رمضان:

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يحرصون على قراءة القرآن ويقومون به لله في الصلاة، وقد أمر عمر رضي الله عنه أبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر، ويظهر من هذا أنهم كانوا يقومون معظم الليل بالقرآن، كما كانوا يجتهدون في قراءة القرآن بالنهار وفي غير رمضان أيضا.

وكان السلف من أهل العلم يكثرون من تلاوة القرآن في شهر رمضان في الصلاة وغيرها، ويصرفون همتهم إلى مدارسة القرآن وتعليمه وتعلمه، قال ابن رجب: «كان الزهري إذا دخل رمضان قال: فإنما هو تلاوة القرآن وإطعام الطعام». قال ابن عبد الحكم: كان مالك إذا دخل رمضان يفر من قراءة الحديث ومجالسة أهل العلم، وأقبل على تلاوة القرآن من المصحف.

قال عبد الرزاق: كان سفيان الثوري إذا دخل رمضان ترك جميع العبادة، وأقبل على قراءة القرآن، ومعناه أنه اهتم بقراءة القرآن وحرص عليه أكثر من نوافل العبادات، وكانت عائشة تقرأ في المصحف أول النهار في شهر رمضان، فإذا طلعت الشمس نامت، وقال سفيان: كان زبيد اليامي إذا حضر رمضان أحضر المصاحف وجمع إليه أصحابه. [لطائف المعارف ٢٤٥].

يا راغبًا في الشفاعة عليك بالقرآن

والصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة، كما في مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الصيام والقيام يشفعان للعبد يوم القيامة. يقول الصيام: أي رب، منعته الطعام والشهوات بالنهار، ويقول القرآن: منعته النوم بالليل فشفعني فيه، فيشفعان». [والحديث صححه الألباني كما في تمام المنة ص٣٩٤].

> كان علماء السلف - رحمهم الله - إذا دخل رمضان صرفوا همتهم إلى تلاوة القرآن ومدارسته وتعليمه، وكانوا يقرؤون به في الليل حتى إنهم يعتمدون على العصيّ من طول القيام.

منحة من الله فلا تفرطوا فيها

ومن صلى القيام خلف الإمام فعليه ألا ينصرف قبل إمامه لما جاء في الحديث الصحيح عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الرجل إذا صلى مع الإمام حتى ينصرف حُسب له قيام الليلة». قال الألباني: «والشاهد من هذا الحديث قوله: من قام مع الإمام... فإنه ظاهر الدلالة على فضيلة قيام رمضان مع الإمام». [مختصر قيام الليل ص٩٤].

فيا أهل الإيمان، ويا من فرطتم في الطاعة قبل رمضان، ها هو رمضان أقبل، فعليكم بالطاعة وحسن العبادة.

أسأل الله تعالى أن يتقبل منا الصيام والقيام وصالح الأعمال، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

افتتاحية العدد

مكانة القرآن وفضله

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه أجمعين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن كتاب الله الكريم لارتباط القرآن بشهر رمضان ونزوله فيه، وفي هذا اللقاء أحببت أن أواصل الحديث عن القرآن الكريم؛ لأبرز جوانب أخرى من مكانته وفضله، ورغبة في أن لا ينقطع المسلم عن القرآن بعد شهر رمضان، فأقول وبالله التوفيق:

اشتمال القرآن الكريم على الهداية للبشر:

اشتمل القرآن الكريم على ألوان وأنواع الهداية للبشر جميعًا في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى: « إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا » [الإسراء: ٩]، وهذا ثناء عظيم من الله تبارك وتعالى على كتابه، ودلت الآية أيضًا على أن الدين دين مستقيم، وهو أقومها، وقد أجاد وأفاد العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله في بيان هدايات القرآن الكثيرة العظيمة، ومما قال: «إن هذا القرآن العظيم الذي هو أعظم الكتب السماوية، وأجمعها لجميع العلوم، وآخرها عهدًا برب العالمين- جل وعلا- يهدي للتي هو أقوم...، وهذه الآية الكريمة أجمل الله جل وعلا فيها جميع ما في القرآن من الهدى إلى خير الطرق وأعدلها وأصوبها». [أضواء البيان ٤٠٩/٣].

ثم أشار رحمه الله إلى شيء منها، ومن ذلك:

توحيد الله سبحانه وإفراده بجميع أنواع العبادة بعد إفراده بالخلق والرزق والتدبير- جل في علاه-، ومنه أيضًا: توحيد الله في أسمائه الحسنى وصفاته العلى فهو وحده المتصف بصفات الجلال والكمال، المنزّه عن كل نقص وعيب، وقد ذكر الله في كتابه كثيرًا من الآيات الدالة على توحيده، وقد تضمنت الآيات الأسماء والصفات، فعلى العباد ضرورة الاهتداء بهدي القرآن في ذلك، والتمسك به، والسير على منوال السلف الصالح الذين أخلصوا العبادة لله، وعظّموا الله بإثبات ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تأويل أو تحريف أو تشبيه.

وإني لأعجب غاية العجب بعد هداية القرآن للأمة من مخالفة أهل البدع لمنهج القرآن، ومما نشاهده اليوم من ألوان الشرك والبدع تتم عند القبور والمشاهد، من الرافضة والمتصوفة وغيرهم- وهم يظنون مع ذلك

أنهم يحسنون صنعًا-، وقد هدى الله أهل السنة والجماعة إلى الحق في أصول الإيمان، فاتبعوا الدليل وعبدوا الرحمن.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم أن جعل للرجل في الميراث ضعف ما للمرأة؛ وذلك لأن الرجل يتحمل من الأعباء ما ليس على المرأة من النفقة، وبذل المهر، والقيام بما يجب عليه من لوازم الحياة للمرأة والأولاد، فاقتضى ذلك التفضيل، قال الله تعالى: «الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنْفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ» [النساء: ٣٤]، وهذا هو الشأن المعهود من الرجل، وهو أن يقوم بالكفاية والرعاية على المرأة، كما أنه يفرض عليه ما لا يفرض عليها من الجهاد، وهذا يتضمن توفير الحماية الكاملة لها ونحوه.

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: ما جاء في التشريعات الربانية والحدود الشرعية ودعا القرآن إلى إقامتها، وذلك ليسلم الناس من البغي والظلم والعدوان، ويعيش الناس في أمن وأمان، وأحب أن أؤكد هنا للجميع أن تشريع الحكيم الخبير اللطيف مشتمل على جميع الحِكَم من درء المفاسد وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات، وهو عام وشامل لكل من اقترف ذنبًا وضع الشارع له عقوبة، دون حصانة لأحد ، فالحدود تقام على الرئيس والمرءوس، والغني والفقير، والقوي والضعيف، فما أعظم هذا القرآن وتشريعه.

القرآن يدعو للتقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا ودين، بآداب الدين وحدوده.

التمسك بالدين لا ينافي التقدم والرقي

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى أن التقدم والرقي، والسعي في الأرض لا ينافيه التمسك بالدين، فما خيَّله أعداء الدين لضعاف العقول ممن ينتمي إلى الإسلام: من أن التقدم لا يمكن إلا بالانسلاخ من دين الإسلام- باطل لا أساس له-، والقرآن يدعو إلى التقدم في جميع الميادين التي لها أهمية في دنيا أو دين، ولكن ذلك التقدم في حدود الدين، والتحلي بآدابه الكريمة، وتعاليمه السماوية، وإليكم مثالاً على ذلك، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلًا يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ» [سبأ: ١٠- ١١]، فقوله: «أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ» [سبأ: ١١] يدل على الاستعداد لمكافحة العدو، وقوله: «وَاعْمَلُوا صَالِحًا» [سبأ: ١١] يدل على أن ذلك الاستعداد لمكافحة العدو في حدود الدين الحنيف، وداود عليه السلام من الأنبياء المذكورين في سورة الأنعام، وقد قال الله تعالى مخاطبًا نبينا صلى الله عليه وسلم بعد أن ذكرهم: «أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» [الأنعام: ٩٠]، وهذا من شمولية الإسلامية وتوازنه الذي يجمع بين الدين والدنيا، ويوفق بينهما دون تعارض أو تباين، ويظهر هذا واضحًا جليًا في دعاء النبي صلى الله عليه وسلم بهذه الكلمات كما جاء في صحيح مسلم عن أبي هريرة قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم يَقُولُ: ((اللَّهُمَّ أَصْلِحْ لِي دِينِيَ الَّذِي هُوَ عِصْمَةُ أَمْرِي وَأَصْلِحْ لِي دُنْيَايَ الَّتِي فِيهَا مَعَاشِي وَأَصْلِحْ لِي آخِرَتِي الَّتِي فِيهَا مَعَادِي، وَاجْعَلِ الْحَيَاةَ زِيَادَةً لِي فِي كُلِّ خَيْرٍ، وَاجْعَلِ الْمَوْتَ رَاحَةً لِي مِنْ كُلِّ شَرٍّ)). [مسلم: ٢٧٢٠]. وهذا الحديث من الأدعية الجامعة للخير في الدين والدنيا والآخرة.

الرابطة الحقيقية هي رابطة الدين:

ومن هدي القرآن الكريم للتي هي أقوم: هديه إلى أن أهم رابطة تربط بين أفراد المجتمع هي دين الإسلام؛ لأنه هو الذي يربط بين أفراد المجتمع حتى يصير بقوة تلك الرابطة جميع المجتمع الإسلامي كأنه جسد واحد، كما جاء في الحديث المتفق عليه عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ بَشِيرٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: (مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ مَثَلُ الْجَسَدِ إِذَا

اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالْحُمَّى). [البخاري: ٦٠١١، ومسلم: ٢٥٨٦].

وقد كثر في القرآن الكريم إطلاق النفس وإرادة الأخ تنبيهًا على أن رابطة الإسلام تجعل أخا المسلم كنفسه، كقوله تعالى: «لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ» [النور: ١٢]. وقد جعلت الآية أهل الإيمان كالنفس الواحدة، فإذا وقع بأحدهم مكروه فكأنه وقع على جميعهم.

ومن الآيات الدالة على أن الرابطة الحقيقية هي الدين، وأن تلك الرابطة تتلاشى معها جميع الروابط النسبية والعصبية ما جاء في قوله تعالى: «لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ» [المجادلة: ٢٢]، والمعنى: لا تجد قومًا جامعين بين الإيمان بالله واليوم الآخر، وبين موادة أعداء الله ورسوله، وقد أكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة منها: ما رواه البخاري عن جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كُنَّا فِي غَزَاةٍ فَكَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَسَمِعَهَا اللَّهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: مَا هَذَا؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ يَا لَلْأَنْصَارِ وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ يَا لَلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ. [البخاري: ٤٩٠٥].

فقول هذا الأنصاري: يا للأنصار، وهذا المهاجري: يا للمهاجرين، هو النداء بالقومية العصبية بعينه، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: (دعوها فإنها منتنة)، يقتضي وجوب ترك النداء بها، وأن النداء بها مخالف لما أمر به النبي صلى الله عليه وسلم وأنها قبيحة خبيثة مستقذرة.

وفي رواية مسلم عن جابر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما سمع الأنصاري والمهاجري يقولان ذلك، قال: «مَا هَذَا دَعْوَى أَهْلِ الْجَاهِلِيَّةِ!». [مسلم: ٢٥٨٤].

وهذا يدل على أن أهل الجاهلية كانوا يأخذون حقوقهم بالعصبات والقبائل، فجاء الإسلام بإبطال ذلك وفصل القضايا بالأحكام الشرعية، فإذا اعتدى إنسان على آخر حكم القاضي بينهما وألزمه مقتضى عداوته كما هو مقرر في قواعد الإسلام. [انظر شرح النووي على مسلم ١٣٧/١٦].

أهل الجاهلية كانوا يأخذون حقوقهم بالعصبات والقبائل، فأبطل الإسلام ذلك بالأحكام الشرعية.

ويفهم من رواية صحيح مسلم أن زعماء ورؤساء الدعاة إلى القومية هم رؤساء الكفرة كأبي جهل وأبي لهب والوليد بن المغيرة وغيرهم، وقد علق العلامة القرآني محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله على الآيات والأحاديث السابقة بكلام نفيس قال فيه: «واعلم أنه لا خلاف بين العلماء في منع النداء برابطة غير الإسلام، كالقوميات والعصبيات النسبية، ولا سيما إذا كان النداء بالقومية يُقصد من ورائه القضاء على رابطة الإسلام وإزالتها بالكلية....

وقد بيّن الله جل وعلا في محكم كتابه: أن الحكمة في جعله بني آدم شعوبًا وقبائل هي التعارف فيما بينهم، وليست هي أن يتعصب كل شعب على غيره، وكل قبيلة على غيرها، ونحن حين نصرح بمنع النداء بالروابط العصبية والأواصر النسبية، ونقيم الأدلة على منع ذلك لا ننكر أن المسلم ربما انتفع بروابط نسبية لا تمت إلى الإسلام بصلة، كما نفع الله نبيه صلى الله عليه وسلم بعمه أبي طالب، وقد قال أبو طالب للنبي صلى الله عليه وسلم:

والله لن يصلوا إليكم بجمعهم
حتى أوسَّد في التراب دفينا

وقد نفع الله بتلك العصبية النسبية شعيبًا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام كما قال تعالى عن قومه: «قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ» [هود: ٩١]، ومما يوضح ذلك أن الرابطة الحقيقية هي دين الإسلام قوله تعالى في أبي لهب عم النبي صلى الله عليه وسلم: «سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ» [المسد: ٣]. ويقابل ذلك بما لسلمان الفارسي من الفضل والمكانة، وبالجملة: فلا خلاف بين المسلمين أن الرابطة التي تربط أفراد أهل الأرض بعضهم ببعض، وتربط بين أهل الأرض والسماء هي رابطة «لا إله إلا الله»، فلا يجوز البتة النداء برابطة غيرها. [انظر أضواء البيان ٣/٤٤١- ٤٤٨].

حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها:

ومن هدي القرآن للتي هي أقوم: هديه إلى حل المشاكل العالمية بأقوم الطرق وأعدلها، ويضيق المقام عن ذكر المشاكل وحلها، ولذلك سأذكر فقط ثلاثًا منها، وكيف قدم القرآن لها الحل النافع المفيد.

المشكلة الأولى:

ضعف المسلمين في العدد والعدة في مواجهة الكافرين، وعلاج القرآن لهذه المشكلة يتمثل في صدق التوجه إلى الله، وقوة الإيمان به والتوكل عليه، واستعمال الوسائل الصحيحة الممكنة، ومن الأدلة المبينة لذلك: أن الكفار لما حاصروا المؤمنين في المدينة حصارًا قويًا ذكره الله في قوله: «إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالًا شَدِيدًا» [الأحزاب: ١٠- ١١]، والعلاج الذي حل هذه المشكلة وواجه هذا الحصار تمثل في قوة الإيمان والتسليم لرب الأرض والسماء، مالك القوى والقدَر، قال الله تعالى: «قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا» [الأحزاب: ٢٢].

المشكلة الثانية:

تسليط الكفار على المؤمنين وإيذاؤهم، مع أن المسلمين على الحق والكفار على الباطل، وقد استشكل الصحابة رضوان الله عليهم ذلك لما نال الكفار منهم في غزوة أحد، فبين القرآن الكريم سبب ذلك ومنه يعرف الحل والعلاج.

قال الله تعالى: «أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» [آل عمران: ١٦٥]، وقوله تعالى: «قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ» [آل عمران: ١٦٥] فيه إجمال بينه بقوله: «وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ» [آل عمران: ١٥٢]، وعليه يجب على المسلم أن يجتنب أسباب الفشل التي أشارت لها الآيات.

استغرب الصحابة ما حدث في هزيمة أحد فبيّن لهم القرآن أن ما أصابهم من مصيبة كان من عند أنفسهم.

المشكلة الثالثة:

اختلاف القلوب الذي هو من أعظم الأسباب في هزيمة الأمة الإسلامية، وقد بيّن الله تعالى أن سبب هذا الداء الذي عمت به البلوى هو ضعف العقل كما يفهم من قوله: «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّىٰ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْقِلُونَ» [الحشر: ١٤]، ولا شك أن ضعف العقل يضعفه عن إدراك الحقائق، وتمييز الحق من الباطل، والنافع عن الضار، وعلاج ذلك الاهتداء بنور الوحي، كما قال الله تعالى: «أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا» [الأنعام: ١٢٢].

نسأل الله أن يهدينا بنور الوحي إلى طريق الحق.

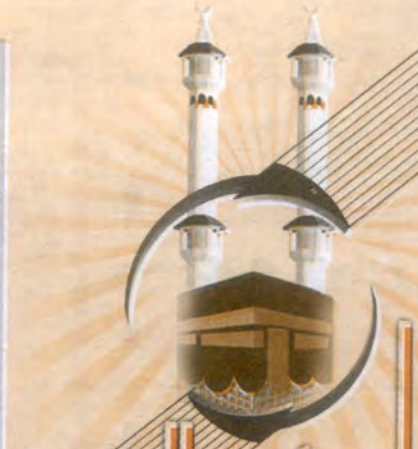

الأمن فريضة شرعية ونعمة ربانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فإن الأمن نعمة ربانية، وسعادة دنيوية وأخروية، وهو من الأسس التي يقوم عليها تقدم الأمم ورقي الشعوب، وللأسف الشديد غاب الأمن في كثير من المجتمعات اليوم- كما هو مشاهد وواقع-، وكأنه الأصل الذي يجب أن تحيا عليه الشعوب، والمتأمل في شريعة الإسلام يدرك أهمية الأمن، ويعلم أنه فريضة شرعية، وضرورة حياتية، وقد ذكر القرآن الكريم دعوة خليل الرحمن إبراهيم- عليه السلام- ربه أن يجعل مكة بلدًا آمنا، فلا يُرعَب أهله، ويكثر خيره ورزقه، حتى يفد الناس إليه ويحصل الاستقرار فينتشر الأمن بسبب ذلك، قال الله تعالى: « وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ » [البقرة: ١٢٦]، وقد أجاب الله دعاءه، قال الله تعالى: «وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا » [آل عمران: ٩٧]، كما أشار سبحانه إلى فضله ونعمته على أهل مكة بالأمن الذي فقده من حولهم، كما قال الله تعالى: « أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ أَفَبِٱلْبَٰطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ ٱللَّهِ يَكْفُرُونَ » [العنكبوت: ٦٧]، قال الشيخ الشنقيطي- رحمه الله- في هذه الآية: «امتن الله جل وعلا في هذه الآية الكريمة على قريش بأنه جعل لهم حرمًا آمنًا، يعني حرم مكة، فهم آمنون فيه على أموالهم ودمائهم والناس الخارجون عن الحرم يتخطفون قتلاً وأسرًا». [أضواء البيان ٤٧١/٦].

وقد وردت أحاديث كثيرة تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السماوات والأرض، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن حمل السلاح فيها، كما في حديث جابر رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح». [مسلم: ١٣٥٦].

كما تفضل الله تبارك وتعالى على الصحب الكرام بنعمة الأمن عند مقابلة الأعداء، فثبت بذلك قلوبهم وأقدامهم، وصرف عنهم الخوف والسهر الذي أرهقهم، كما قال الله تعالى في غزوة بدر: « إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ » [الأنفال: ١١]، وقد فعل الله تعالى لهم ذلك أيضا يوم أحد، كما قال جل ذكره: «ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ »

[آل عمران: ١٥٤]، وقد حرص النبي صلى الله عليه وسلم على أمن المجتمع وسلامته بصور متعددة- سيأتي ذكرها إن شاء الله-، غير أنه جمع متاع الدنيا في ثلاثة أمور على رأسها الأمن كما في حديث سلمة بن عبيد الله بسند حسن أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أصبح منكم معافىً في جسده، آمنًا في سربه، عنده قوت يومه، فكأنما حيزت له الدنيا». [صحيح سنن ابن ماجه: ٣٩٩/٢].

ويفهم من قوله: «آمنًا في سربه» أنه مستريح البال، مطمئن النفس، وهذا من أعظم نعم الله على الإنسان، وقد وعد النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه بالأمن والظهور بعد الاستضعاف، كما في حديث عدي ابن حاتم، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «والذي نفسي بيده ليتمن الله هذا الأمر حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت في غير جوار أحد». [مسند أحمد ٢٥٧/٤].

وقد اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون الأمن الحقيقي والسعادة الكاملة والحياة الطيبة الهادئة في الدنيا والآخرة لمن تمسك بالشرع المطهر، ولزم الهدي الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: « فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ» [طه: ١٢٣، ١٢٤]، قال الصحابي الحبر عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في معنى الآية: «فَلَا يَضِل وَلَا يَشْقَى»: لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي» أي خالف أمري، وما أنزلته على رسول الله صلى الله عليه وسلم- أعرض عنه وتناساه وأخذ من غير هداه، «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» أي: ضنكًا في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعم، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة». [انظر تفسير ابن كثير: ٢٣٣/٣].

> اقتضت حكمة الله سبحانه وتعالى أن يكون الأمن الحقيقي والسعادة الكاملة والحياة الطيبة الهادئة في الدنيا والآخرة لمن تمسك بالشرع المطهر، ولزم الهدي الذي بُعث به النبي صلى الله عليه وسلم.

من أسباب حصول الأمن

أولاً: سلامة المعتقد وسلامة المنهج واستقامة السلوك، ولا يكون ذلك إلا بالتمسك بما كان عليه الصدر الأول من الصحابة ومن تبعهم بإحسان، مع ضرورة البعد كل البعد عن مسالك المخالفين من أصناف المبتدعة المخالفين لمنهج سلف الأمة الصالحين، وقد وعد الله عباده الموحدين بالأمن والتمكين إذا عبدوا الله وحده، قال الله تعالى: « وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا» [النور: ٥٥]، ومعنى الآية: أن الله يورث الأرض ويجعل من صدق في عبادة الله خلفاء في الأرض يتصرفون فيها تصرف الملوك في الممالك، وهذا وعد من الله بالتمكين لأصحاب الصراط المستقيم، ولا يكون هذا بوعد الله إلا للموحدين، والتاريخ الإسلامي شاهد على ذلك، فالصحابة الكرام- رضوان الله عليهم أجمعين- حقق لهم هذا الوعد بسبب تمسكهم بهذا الدين، وسلوكهم الصراط المستقيم، وهذا لا يخفى على الدنيا بأسرها، فقد أنجز الله لهم وعده، وأظهرهم على بلاد المشرق والمغرب، وفرقوا ملك الأكاسرة والقياصرة، وصاروا إلى حال

يخافهم كل من عداهم، ولا يستطيع أحد أن ينال منهم، وإذا أردنا اليوم أن يتحقق لنا ذلك، فلا بد من سلوك نفس المنهج والطريق- عقيدة صحيحة، وعبادة سليمة مستقيمة، واتباع للهدي النبوي فحسب، وإن وقعت المخالفة لذلك، فالأمر كما قال الله في كتابه: « وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا » [النساء: ١١٥]، وكما يؤمن الله عز وجل عباده الصالحين ويمكن لهم في الأرض في الدنيا، يحصلون بعد ذلك على قمة النعيم والأمن التام في جوار الرحمن في الدار الآخرة، كما قال الله تعالى: «ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلۡأَمۡنُ وَهُم مُّهۡتَدُونَ » [الأنعام: ٨٢]، وقد ثبت في صحيح البخاري وغيره من حديث عبد الله ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر الشرك في هذه الآية بالظلم مستندًا إلى قول الله تعالى: «إن الشرك لظلم عظيم»، ويبين هذا أيضًا قول الله تعالى: « وَلَا تَدۡعُ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَۖ فَإِن فَعَلۡتَ فَإِنَّكَ إِذٗا مِّنَ ٱلظَّٰلِمِينَ » [يونس: ١٠٦].

ثانيًا: تطبيق الحدود الشرعية على من يستحقها، وعدم المحاباة والمجاملة والتهاون في ذلك، لأن من الناس من لا يردعه الإيمان والتقوى، فتنزع نفسه إلى ارتكاب الفواحش والمنكرات، أو الاعتداء على الحرمات، فشرع الله الحدود لردع تلك النفوس عن جرائمها، ولتحصيل أمن الأفراد والمجتمعات، وأصبح من الإيمان تطبيق هذه الأحكام، وقد طبقها صلى الله عليه وسلم على أتم وجه، ونهى عن الشفاعة فيها لإسقاطها وتعطيلها، وغضب صلى الله عليه وسلم على حِبه أسامة بن زيد حين تقدم للشفاعة في امرأة سرقت- كما في الصحيحين وغيرهما عن عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يكلم فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن يجترئ عليه إلا أسامة حب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه، وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها. [البخاري: ٦٧٨٨، ومسلم: ١٦٨٨].

وقد دل الحديث على أنه يجب على المجتمع أن يقيم الحدود المشروعة وأن يقطع الوساطة والشفاعة فيها، لأن ذلك من أسباب استتباب الأمن، وأن إسقاط الحدود وعدم إقامتها كان سببًا في هلاك بني إسرائيل، وقد ذكر ابن حجر رحمه الله فوائد عظيمة تؤخذ من هذه القصة منها: منع الشفاعة في الحدود، وترك المحاباة في إقامة الحد على من وجب عليه ولو كان ولدًا، أو قريبًا، أو كبير القدر والتشديد في ذلك والإنكار على من رخص فيه، أو تعرض للشفاعة فيمن وجب عليه. [فتح الباري ٢/ ٩٥، ٩٦].

ثالثًا: الاعتراف بنعم الله علينا، والتحدث بها وشكر الله عليها، وذلك يكون بطاعته والتزلف بين يديه والعمل على ما يرضيه، قال الله تعالى: « وَإِذۡ تَأَذَّنَ رَبُّكُمۡ لَئِن شَكَرۡتُمۡ لَأَزِيدَنَّكُمۡ وَلَئِن كَفَرۡتُمۡ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٞ » [إبراهيم: ٧]، ومفهوم الآية: أن من اشتغل بشكر نعم الله زاده الله من نعمه ومن ذلك نعمة الأمن، وقد جاءت هذه الآية بعد أن ذكر الله منته على قوم موسى بإنجائهم من فرعون وبطشه، وفي هذا ترغيب في شكر النعم

إن من أهم أسباب حصول الأمن: سلامة المعتقد والمنهج، واستقامة السلوك، والتحاكم إلى شريعة رب البرية، ثم الاعتراف بنعم الله علينا في هذا كله.

لاستمرارها وزيادتها. ولأهمية الأمن في دنيا الناس سلكت الشريعة الإسلامية مسالك متعددة لحصوله وتحقيقه في مجتمع البشر، وهذه منقبة عظيمة للدين الخاتم، ومن هذه المسالك: أن أمَّن الإسلام النفوس البشرية من الاعتداء عليها، وقد عظم الله- تبارك وتعالى- أمر الدماء بصورة عامة في كتابه، ويكفي أنه حمَّل ابن آدم الأول الذي سن القتل في البشرية وقرر أن أي نفس تقتل بغير حق، كما قال الله تعالى معقبًا على قتل أحد ابنَيْ آدم لأخيه: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢]، كما أمَّن الإسلام العقل الذي هو مناط التكليف، فحرم ما يؤدي إلى ضياعه أو فساده واختلاله، وشرع حدًا لمن يعتدي على العقل بشرب خمر ونحوه، وما ذاك إلا لأن العقل مناط التكليف، وخطاب الله تعالى لا يتوجه إلا للعقلاء، قال الله تعالى: «وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ» [العنكبوت: ٤٣]، والمعنى: أن الأمثال المضروبة لا يفهمها ويعلمها إلا أصحاب العقول، ومن هنا جاءت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم برفع التكليف عمن فقدوا مناط التكليف، كما في حديث علي وعمر- رضي الله عنهما- أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رُفع القلم: عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ، وعن النائم حتى يستيقظ، وعن الصبي حتى يحتلم». [صحيح الجامع: ٣٥١٢]، كما نهى الإسلام المسلم أن يصغي للأفكار المنحرفة الهدامة والآراء المضلة ليحفظ عقله ودينه من فساد المفسدين وضلال المضلين، قال الله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا۟ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ» [النساء: ١٤٠]، كما أمَّن الإسلام المال الذي جعله قيامًا لحياة بني الإنسان ومعيشتهم وحرَّم الاعتداء عليهم، أو التعامل فيه بالباطل، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا» [النساء: ٢٩]، كما أمَّن المجتمع من أسباب الفوضى والشقاق والنزاع، فأوجب طاعة ولاة الأمور في المعروف، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار المجتمع من أسباب الفوضى والشقاق والنزاع، فأوجب طاعة ولاة الأمور في الأمور في المعروف، وذلك لاستتباب الأمن واستقرار البلاد والعباد، قال الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ» [النساء: ٥٩]، إذ بالولاة- بفضل الله- تحقن الدماء وتصان الأعراض، كما أمَّن الإسلام المجتمع من المنكرات، فنهى عن إشاعة الفاحشة حتى تنطفئ ولا تظهر، قال الله تعالى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ» [النور: ١٩]، كما حذر المنافقين من الثرثرة بالكلام والإرجاف، فقال الله تعالى: «لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا» [الأحزاب: ٦٠]. أسأل الله تعالى أن يسلمنا وبلادنا من كل سوء ومكروه، وأن يبسط الأمن وينشره في البلاد والعباد، وأن يجنبنا الفتن والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

> ولأهمية الأمن في دنيا الناس سلكت الشريعة مسالك متعددة لتحقيق ذلك في المجتمع ، ومن هذا وجوب طاعة أولياء الأمور في المعروف ؛ فهم تُحقن الدماء وتُصان الأعراض.

افتتاحية العدد

وقفات مع خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في عرفات

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي منَّ علينا بنعمة الإيمان، وجعلنا من خير أمة أُخرجت للأنام، والصلاة والسلام على من بعثه ربه بالوسطية والاعتدال، وعلى آله وصحبه الطيبين الأخيار، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين. وبعدُ:

ففي يوم عظيم مبارك من أيام الله تعالى، اجتمع فيه شرف الزمان والمكان، وهو يوم عرفة خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم في جمعٍ من أصحابه- لم يجتمع مثله له قط- خطبة بليغة، عظم فيها حرمات الله وشعائره، وبيَّن فيها الحقوق والواجبات، ووضع مآثر الجاهلية تحت قدميه، وأوصى بالنساء خيرًا- صلوات الله وسلامه عليه-.

وقد تضمنت هذه الخطبة مضامين شريفة، وأشارت إلى قواعد شرعية عظيمة، أرى ضرورة أن يهتم المسلمون بها، وأن يفقهوا معناها، خاصة في مثل هذا الزمان الذي خفيت فيه كثير من السنن، وانتشرت فيه الأهواء والبدع.

ومن أهم ما اشتملت عليه هذه الخطبة العظيمة ما يلي:

أولاً: حرمة الدماء والأموال والأعراض:

وهذا واضح في قوله - عليه الصلاة والسلام-: «إِنَّ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ وَأَعْرَاضَكُمْ عَلَيْكُمْ» [صحيح مسلم ١٢١٨]، وبدأ النبي صلى الله عليه وسلم بتحريم الدماء لخطورة الخوض فيها، ووجود من يتجرأ على ذلك، وقد ربط صلى الله عليه وسلم حرمة الدماء بتعظيم الزمان والمكان، وحرمة مكة ويوم عرفة وشهر ذي الحجة؛ ليكون تعظيم الدماء أوقع في النفوس، وهذا واضح في قوله عليه الصلاة والسلام: «كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا فِي شَهْرِكُمْ هَذَا فِي بَلَدِكُمْ هَذَا». قال النووي رحمه الله في شرحه لهذه العبارة: «معناه أن الدماء متأكدة التحريم شديدته، وفي هذا دليل لضرب الأمثال وإلحاق النظير بالنظير قياسًا». [شرح النووي على مسلم ١٨٢/٧].

وقد كرر ذلك صلى الله عليه وسلم مرة أخرى في قوله: «وَدِمَاءُ الْجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعَةٌ، وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِنْ دِمَائِنَا دَمُ ابْنِ رَبِيعَةَ بْنِ الْحَارِثِ كَانَ مُسْتَرْضِعًا فِي بَنِي سَعْدٍ فَقَتَلَتْهُ هُذَيْلٌ». وقد وردت آيات كثيرة في القرآن الكريم ينهى الله تبارك وتعالى فيها عن قتل النفس التي حرّم قتلها إلا بالحق، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة: ٣٢]. ومعنى الآية: أنه بسبب الجرم والقتل الذي وقع في أحد ابني آدم ظلمًا وعدوانًا كتب الله ذلك على بني إسرائيل، والمقصود منه تعظيم قتل النفس والترهيب من الوقوع في ذلك، وما كتب على بني إسرائيل في ذلك يشمل هذه

الأمة، وقد قيل للحسن البصري: «أهي لنا يا أبا سعيد كما كانت لبني إسرائيل؟ فقال: إي والذي لا إله غيره كما كانت لبني إسرائيل، وما جعل دماء بني إسرائيل أكرم على الله من دمائنا؟!». [تفسير الطبري ٦/١٣١].

وقد ذكر ابن كثير عن الأعمش وغيره، عن أبي صالح، عن أبي هريرة قال: «دخلت على عثمان يوم الدار، فقلت: جئت لأنصرك وقد طاب الضرب يا أمير المؤمنين، فقال: يا أبا هريرة، أيسرك أن تقتل الناس جميعًا وإياي معهم؟ قلت: لا. قال: فإنك إن قتلت رجلاً واحدًا فكأنما قتلت الناس جميعًا، فانصرف مأذونًا لك، مأجورًا غير مأزور، قال: فانصرفت ولم أقاتل». قال الشيخ أحمد شاكر - رحمه الله- معلقًا على هذا الأثر: «هذا الخبر لم يبين الحافظ ابن كثير مخرّجه، وقد رواه ابن سعد في الطبقات، وإسناده صحيح جدًا». [عمدة التفسير ٤/١٣٠].

وقال الشيخ محمد رشيد رضا: «فالآية تعلمنا ما يجب من وحدة البشر، وحرص كل واحد منهم على حياة الجميع، واتقائه ضرر كل فرد ؛ لأن انتهاك حرمة الفرد، انتهاك لحرمة الجميع، والقيام بحق الفرد من حيث إنه عضو من النوع، وما قرر له من حقوق المساواة في الشرع، قيام بحق الجميع». [تفسير المنار ٦/٣٤٩].

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا » [الفرقان: ٦٨، ٦٩]، وشدد سبحانه وتعالى الوعيد في قتل المؤمن عمدًا فقال: « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا » [النساء: ٩٣]، وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن اقترف هذا الذنب العظيم الذي قرنه الله بالشرك في غير ما آية في القرآن الكريم.

ولشدة الوعيد الوارد في هذه الآية اختلف العلماء في قاتل المؤمن عمدًا، هل له من توبة أم لا؟ والراجح قبول توبته إن شاء الله تعالى. قال الشوكاني رحمه الله: «وقد اختلف العلماء هل لقاتل العمد من توبة أم لا توبة له؟ فروى البخاري عن سعيد بن جبير قال: اختلف فيها علماء الكوفة، فرحلت فيها إلى ابن عباس فسألته عنها فقال: نزلت هذه الآية: « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا » [النساء: ٩٣]، وهي آخر ما نزل وما نسخها شيء، وذهب الجمهور إلى أن التوبة منه مقبولة، واستدلوا بمثل قوله تعالى: « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » [هود: ١١٤]، وقوله سبحانه: « وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ » [الشورى: ٢٥]، وقوله جل وعلا: « وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » [النساء: ٤٨].

وقالوا أيضًا: والجمع ممكن بين آية النساء هذه وآية الفرقان، فيكون معناهما: فجزاؤه جهنم إلا من تاب، لا سيما وقد اتحد السبب وهو القتل، والموجب وهو الوعيد بالعقاب، والحق أن باب التوبة لم يُغلق دون كل عاص، بل هو مفتوح لكل من قصده ورام الدخول منه، وإذا كان الشرك وهو أعظم الذنوب وأشدها تمحوه التوبة إلى الله، ويقبل من صاحبه الخروج منه والدخول في باب التوبة، فكيف بما دونه من المعاصي...». [فتح القدير ١/٤٩٩].

إن من المتأكد حرمته في شرع الله: الدماء والأموال والأعراض، وأشدهم حرمة الدماء، فمن قتل نفساً فكأنما قتل الناس جميعاً .

قلت: والذي عليه جمهور أهل السنة أن كل ذنب دون الشرك بالله يغفره الله لمن يشاء من عباده ولو بدون توبة؛ لقوله تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ » [النساء: ٤٨].

وقد عظم النبي صلى الله عليه وسلم شأن الدماء في أحاديث أخرى كثيرة كقوله صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء» [البخاري: ٦٨٦٤]. وحديث أبي هريرة رضي الله عنه: «اجتنبوا السبع الموبقات». وذكر منها: «قتل النفس التي حرم الله إلا بالحق». [البخاري: ٢٧٦٦]، وعن ابن عمر رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا». [البخاري: ٦٨٦٢].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمارق من الدين التارك للجماعة» [البخاري: ٦٨٧٨].

وهذا غيض من فيض في حرمة الاعتداء على الأنفس سواء كان بالقتل أو الطعن، أو السب والإهانة، ويدخل فيه تحريم الثأر.

ولو تأمل المسلمون ذلك ما تعدى أحد على أحد، وما سُفكت الدماء، ولا أدري كيف يتجرأ أحد على مثل ذلك بعد هذه التحذيرات، ويا ليت الظلمة الذين يسفكون الدماء بغير حق، والذين وضعوا في قواميسهم ومناهجهم اغتيال وقتل مخالفيهم يرتدعون عن الدماء والولوج فيها بعد هذا الوعيد.

تحريم الاعتداء على أموال الآخرين:

وقد جاء في كلام النبي صلى الله عليه وسلم حرمة الاعتداء على الأموال بعد الدماء مباشرة؛ وذلك لأن الأموال سبيل للعمران والحياة الكريمة في ظل الإيمان، وقد حرم الله علينا أن يأكل بعضنا مال بعض سواء كان بالنهب أو السرقة، أو الغصب، أو الاحتيال. قال الله تعالى: « وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُواْ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُواْ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ» [البقرة: ١٨٨]، ومن شأن أكل أموال الناس بالباطل أن يغرس الحقد في القلوب، ويزرع التباغض في النفوس، وعندئذ ستنتشر الفوضى ويفسد النظام، وتختل جوانب الحياة بين الناس، وعلى المسلم أن يعلم أن المال المحرم لا يكاد يُنتفع به، وإن انتفع أحد به كان انتفاعه مشوبًا بالكوارث والفواجع، وما سيلقاه مستحلها عند ملاقاة ربه ومولاه أعظم وأشد، فالحذر الحذر يا أهل الإيمان.

أما تحذيره وتحريمه صلى الله عليه وسلم للاعتداء على الأعراض فيكتفى فيه بما جاء في كلام المعصوم صلى الله عليه وسلم في خطبته السالف ذكرها.

ثانيًا: القضاء على كل مظهر من مظاهر الجاهلية:

وهذا واضح في قوله صلى الله عليه وسلم في خطبته: «ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع» [صحيح مسلم ١٢١٨]. وفي هذا تحقير شديد لكل أمر من أمور الجاهلية، وعلى رأس الأمور التي كان عليها الجاهليون: الشرك في عبادة الله تعالى، وهو أعظم الذنوب على الإطلاق، والله لا يغفر لمشرك أبدًا بنص كتاب الله الكريم، قال الله تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ » [النساء: ٤٨]، وقد وقع - وللأسف الشديد- بعض الناس في مظاهر شركية، ولم يحذروا هذا الذنب العظيم، بل إن بعض الدعوات لم تهتم بقضية التوحيد، وتعبيد العبيد لرب العباد!!

> إن أكل أموال الناس بالباطل يغرس الحقد في القلوب، ويزرع التباغض في النفوس، وعندئذ ستنتشر الفوضى ويفسد النظام، وتختل جوانب الحياة بين الناس.

وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم في خطبته إلى بعض مظاهر الجاهلية بالموضوعة، ومنها دماء الجاهلية، وذكر منها دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعًا في بني سعد فقتلته هذيل، كما ذكر منها ربا الجاهلية، وأول ربا وضعه، ربا العباس بن عبد المطلب، والربا محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وهو من الكبائر، قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً » [آل عمران: ١٣٠]، قال ابن جرير رحمه الله في معنى الآية: «لا تأكلوا الربا في إسلامكم بعد أن هداكم كما كنتم تأكلونه في جاهليتكم، وكان أكلهم ذلك في جاهليتهم أن الرجل منهم كان يكون له على الرجل مال إلى أجل، فإذا حل الأجل طلبه من صاحبه، فيقول له الذي عليه المال: أخر عني دَينك وأزيدك على مالك، فيفعلان ذلك، فذلك هو الربا أضعافًا مضاعفة». [تفسير الطبري ٤/٥٩].

والتقييد بقوله تعالى: «أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً » [آل عمران: ١٣٠]، ليس المقصود منه النهي عن أكل الربا في حال المضاعفة خاصة وإباحته في غيرها، فالربا قليله وكثيره حرام، قال الله تعالى: «وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ » [البقرة: ٢٧٥]، وقال

الجصاص: «معلوم أن ربا الجاهلية إنما كان قرضًا مؤجلاً بزيادة مشروطة، فكانت الزيادة بدلاً من الأجل فأبطله الله تعالى وحرمه». [أحكام القرآن ج١/٤٦٧].

ومن باب الفائدة في معاملات الناس اليوم، وحتى يحذر العباد من الربا؛ أذكر هنا قرارات مجمع البحوث الإسلامية في مؤتمرها المنعقد في شهر المحرم ١٣٨٥هـ بالأزهر الشريف، وقد تضمنت ما يلي:

١- الفائدة على أنواع القروض ربا محرم، لا فرق في ذلك بين ما يسمى بالقرض الاستهلاكي، وما يسمى الإنتاجي؛ لأن نصوص الكتاب والسنة في مجموعها قاطعة بتحريم النوعين.

٢- كثير الربا وقليله محرم.

٣- الإقراض بالربا محرم لا تبيحه حاجة ولا ضرورة، والاقتراض بالربا محرم كذلك، ولا يرتفع إثمه إلا إذا دعت إليه الضرورة، وكل امرئ متروك لدينه في تقدير ضرورته.

٤- أعمال البنوك من الحسابات الجارية وصرف الشيكات وخطابات الاعتماد والكمبيالات الداخلية التي يقوم عليها العمل بين التجار والبنوك في الداخل، كل هذا من المعاملات المصرفية الجائزة، وما يؤخذ في نظير هذه الأعمال ليس من الربا.

> إنَّ مطابقة الأفعال للأقوال من أهم دعائم الإسلام ، فهي هدي النبي صلى الله عليه وسلم، فيا ليت أمة الإسلام تفهم هذا الخُلق في هذا الزمان.

ثالثًا: مطابقة أفعال النبي صلى الله عليه وسلم لأقواله:

وفي هذا المقطع من خطبته صلى الله عليه وسلم فائدة عظيمة، وهي: أنه عليه الصلاة والسلام كان على رأس القائمين بأمر الله، وكانت أفعاله تطابق أقواله، وهذا من الإنصاف، وهو نموذج يحتذى، ونفهم هذا من قوله: «وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة»، «وأول ربا أضع ربانا ربا العباس بن عبد المطلب».

فيا ليت أمة الإسلام تفهم هذا الخلق في هذا الزمان، وتقوم به بصدق وإخلاص لفاطر الأرض والسماء، وصدق الله في قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ» [الصف: ٢- ٣].

وقد ذكر النووي في شرحه للحديث: «إن الإمام وغيره، ممن يأمر بمعروف أو ينهى عن منكر ينبغي أن يبدأ بنفسه وأهله فهو أقرب إلى قبوله». [شرح النووي على مسلم ١٨٣/٨].

رابعًا: الوصية بالنساء خيرًا:

وهذا من عدل الإسلام ورحمته، وبنائه للأسرة بناءً سليمًا قويًا متماسكًا، تحفظ فيه الحقوق والواجبات، وقد رفع الإسلام من قدر المرأة، وأعلى من شأنها، ونهى أن تكون متاعًا يُورث، وأمر بمباشرتها بالمعروف، كما قال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ لِتَذۡهَبُواْ بِبَعۡضِ مَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ إِلَّآ أَن يَأۡتِينَ بِفَٰحِشَةٖ مُّبَيِّنَةٖۚ وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلۡمَعۡرُوفِ» [النساء: ١٩]، كما حفظ الإسلام للمرأة حقوقها المالية، قال الله تعالى: «وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ» [النساء: ٤]، وأبطل ما كان عليه أهل الجاهلية من عدم توريثهن، وذكر النبي صلى الله عليه وسلم لهن في هذا الموقف دليل على مكانتهن، ويكفي أنه أوصى بهن خيرًا، فقال: «فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله» [صحيح مسلم ١٢١٨].

خامسًا: الوصية بكتاب الله والاعتصام به:

قال صلى الله عليه وسلم: «وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به: كتاب الله» [صحيح مسلم]. والوصية بالكتاب والدعوة إلى الاعتصام دعوة إلى التمسك بسنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهذه كلها موضوعات تحتاج إلى بسط، لما اشتملت عليه من معان عظيمة، وقد أحببت أن أذكر برءوسها في هذا المقال.

أسأل الله أن ينفع بها، ويسدد خطانا إلى الحق والصواب، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

صراط واحد لأمة واحدة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي هدانا إلى صراط مستقيم، وجعلنا أتباع نبيه الأمين، صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فالعالم الذي نعيش فيه اليوم يقوم على التكتلات الكبيرة؛ رغبةً في السيطرة والقوة على عالم اليوم، وأمة الإسلام التي هي خير أمة أخرجت للناس أولى الأمم بالاجتماع والوحدة، وفي مطلع عام هجري جديد أتوجه إلى أمتي الإسلامية بدعوتهم إلى كلمة واحدة ومنهج واحد؛ كلمة التوحيد التي تقطع الشرك بكل صوره وأنواعه، وتوجب على الجميع التوجه إلى الله وحده دون سواه.

والمنهج الواحد؛ هو سلوك صراط الله المستقيم، وعدم الخروج على ما كان عليه نبينا صلى الله عليه وسلم وصحابته الأخيار ومن تبعهم بإحسان، والمسلمون اليوم أولى الناس بالاجتماع على الحق، ونبذ التفرق والشقاق، والمتتبع لآيات القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة يجد كمًا هائلاً من النصوص يدعو إلى الاجتماع وينهى عن التفرق والاختلاف، حتى أصبح الأمر من البدهيات المسلمة عند كل مسلم.

واليوم أجدد الدعوة إلى المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، وإلى جميع المؤسسات الإسلامية، والعاملين في حقل الدعوة الإسلامية بضرورة الاجتماع على كلمة سواء، وعلى الحق الذي جاء من عند الله وحده، وسأسوق هنا بعضًا مما يدل على ذلك؛ لعل الأمة- أفرادًا وجماعات- يستفيدون منه، ويتركون التحزب والاجتماع على غير الحق:

أولاً: بعض أدلة القرآن الكريم الداعية إلى الوحدة والجماعة:

قال الله تعالى: « وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ» [آل عمران: ١٠٣]، وهذه الآية من أصرح الأدلة وأوضحها في دعوة المسلمين إلى الاعتصام بحبل الله المتين، وقد تعددت الأقوال في المراد بالحبل، فقيل العهد، وقيل المراد به: الإسلام، وقيل: القرآن، ولا تعارض بينها، وقد ورد في صحيح مسلم وصف القرآن بأنه حبل الله، كما في حديث زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا وإني تارك فيكم ثقلين: أحدهما: كتاب الله عز وجل، فهو حبل الله، من اتبعه كان على الهدى، ومن تركه كان على ضلالة». [مسلم: ٢٤٠٨].

وقد ذكر الإمام الحافظ ابن كثير رحمه الله أن الآية أمرت بالجماعة ونهت عن الفُرقة، ثم قال: «وقد ضمنت لهم العصمة عند اتفاقهم من الخطأ، كما وردت بذلك الأحاديث المتعددة أيضًا، وخيف عليهم الافتراق والاختلاف، وقد وقع ذلك في هذه الأمة فافترقوا على ثلاث وسبعين فرقة، منها فرقة ناجية إلى الجنة ومُسلمة من عذاب النار، وهم الذين كانوا على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه». [تفسير ابن كثير: ١/٥٣٤].

ويظهر من هذا بوضوح: أن الذي يجمع بيننا ويوحد بين صفوفنا هو كتاب الله تبارك وتعالى، ومن اعتصم به كان آخذًا بالإسلام الذي بُعث به نبينا عليه الصلاة والسلام، فهو الحصن

الحصين لمن وفقه الله والتزم به، ويجب على كل مسلم أن يلبّي نداء الله تعالى بالاعتصام بحبله حتى يكون من أهل النجاة، وقد وعد الله من اعتصم به بالرحمة والجزاء الحسن، كما قال الله تعالى: «فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا» [النساء: ١٧٥]، والمعنى: يهديهم هداية خاصة توصلهم إلى الصراط المستقيم، ويبلغون بذلك الغاية بالسيادة والعزة في الدنيا، وأما في الآخرة فبالجنة والرضوان والنعيم المقيم.

وقد صدق الله للصادقين، فحقق لهم النصر والتمكين، وخاب وخسر من أعرض عن هذا الطريق من الآخرين، فلم يحدث لهم نصر ولا تمكين، وقد ذكر الإمام الحافظ ابن حجر رحمه الله أن المراد بقوله تعالى في الآية: «واعتصموا به» أي: بالقرآن، ثم ذكر أن من اعتصم به ستناله رحمة الله وجنته، وسيناله من الفضل ما نال أهل الإيمان الذين صدقوا بالرسول عليه الصلاة والسلام، وسيوفق لإصابة الفضل الذي تفضل الله به على أوليائه، ويسدد السلوك منهج من أنعم الله عليه من أهل طاعته، وهذا هو دين الإسلام الذي ارتضاه الله لعباده. [انظر: تفسير الطبري ٦/٢٧].

ويلزم من الاعتصام بحبل الله ضرورة أن يتحرر المسلم من التحزب والتعصب لآراء وأقوال المذاهب والأشخاص المخالفة للحق الذي جاء من عند الله وحده، وأن يقيّد نفسه بالدليل، فإن لاح له الدليل بادر بالانقياد له والتسليم لحكمه، وإن كان ذلك على خلاف المذهب الذي يعتنقه، أو قول الإمام الذي يتبعه، أو الجماعة أو الحزب الذي ينتمي إليه؛ لأنه ليس لأحد قول بعد كلام الله وكلام رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، والحق أن يُتبع، والله تبارك وتعالى تعبدنا بما جاء في كتابه وما صح به الخبر عن نبيه صلى الله عليه وسلم، وهذا أصل من أصول الدين، وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين من الأمر بالاعتصام بحبل الله لزوم جماعة المسلمين وعدم الخروج عليهم، وتبعهم على ذلك أئمة أهل السنة والجماعة، وهذا حبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما يقول لسماك الحنفي: يا حنفي الجماعة الجماعة، فإنما هلكت الأمم الخالية لتفرقها، أما سمعت الله عز وجل يقول: «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟» [آل عمران: ١٠٣].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في خطبته: «أيها الناس؛ عليكم بالطاعة والجماعة فإنها حبل الله الذي أمر به، وما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة». [تفسير الطبري ٤/٢٢].

وقال ابن شهاب: «بلغنا عن رجال من أهل العلم قالوا: الاعتصام بالسنة نجاة». [جامع بيان العلم ١/٥٩٢].

وقال الطحاوي رحمه الله: «ونرى الجماعة حقًا وصوابًا، والفُرقة زيغًا وضلالاً». [شرح الطحاوية ٢/٧٧٥].

وقال الإمام محمد بن الحسين الآجري رحمه الله: «علامة من أراد الله به خيرًا سلوك هذا الطريق، كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم ومن

إن السبيل الوحيد لاجتماع الأمة الواحدة على صراط واحد هو أن تلتف هذه الأمة حول مصدر عزتها وتشريعها وسعادتها في الدنيا والآخرة «كتاب الله تعالى وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم».

تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء». [الشريعة ١/٣٠١].

وصية من الرب الكريم:

ومن الآيات الآمرة بلزوم الجماعة والناهية عن الفرقة في موضع واحد، قول الله تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣]، وهذه الوصية من الرب الكريم تعني اتباع صراط الله المستقيم والعمل به والسير على منهاجه، وهو صراط واحد لا اعوجاج فيه، وهو دين الله الذي شرعه لعباده، وترك كل السبل الأخرى الباطلة؛ لأنها ضلالات متراكمة موهنة للصف، مفرقة للأمة، والفُرقة تقع في الأمة حينما تتعدد المنهاج والطرق، ولذلك بيَّن الله تعالى أن طريق الحق واحد، والسبيل إلى الاجتماع واحد، وهو السير على الصراط المستقيم لا غيرُ؛ لأن سلامة المعتقد ووحدة المنهج والسلوك يحقق للأمة الاجتماع على الحق، ولذلك نلحظ في الآية أن الله وحَّد الصراط وأضافه إلى نفسه، لأنه السبيل الوحيد الموصل إليه.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «وقد أفرد الصراط المستقيم وهو سبيل الله، وجمع السبل المخالفة له؛ لأن الحق واحد والباطل ما خالفه وهو كثير، فيشتمل الأديان الباطلة من مخترعة وسماوية محرفة ومنسوخة، والبدع والشبهات، وبها فسرها مجاهد هنا، وقد نهى عن التفرق في صراط الحق وسبيله، فإن التفرق في الدين الواحد هو جعله مذاهب يتشيع لكل منها شيعة وحزب ينصرونه ويتعصبون له، ويخطئون ما خالفه، ويرمون أتباعه بالجهل والضلال، أو الكفر أو الابتداع، ولما كان اتباع الصراط المستقيم وعدم التفرق فيه هو الحق الموحد لأهل الحق الجامع لكلمتهم، كان التفرق فيه بما ذكر سببًا لضعف المتفرقين وذلهم وضياع حقهم، وبهذا التفرق حل باتباع الأنبياء السابقين ما حل من التخاذل والتقاتل والضعف وضياع الحق، وقد اتبع المسلمون سننهم شبرًا بشبر وذراعًا بذراع، حتى حل بهم من الضعف والهوان ما يتألمون منه ويتململون». [تفسير القرآن الحكيم ٨/١٩٦].

ويكفي أن نعلم أن السبل المخالفة للحق المؤدية إلى التفرق والاختلاف يقف على رأس كل سبيل منها شيطان، كما ورد في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «خط رسول الله صلى الله عليه وسلم خطًا بيده، ثم قال الله: «هذه سبيل الله مستقيمًا»، وخط عن يمينه وشماله، ثم قال: «هذه السبل ليس منها سبيل إلا عليه شيطان يدعو إليه»، ثم قرأ: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ» [الأنعام: ١٥٣]. [رواه أحمد وغيره، وحسنه الشيخ الألباني في ظلال الجنة (١٧)].

وعن النواس بن سمعان رضي الله عنه عن رسول الله صلى

من دلائل توفيق الله تعالى لعبده وإكرامه له: اتباعه لكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، وسنة رسوله الكريم المؤيد بالدلائل الواضحات والمعجزات الباهرات.

الله عليه وسلم قال: «ضرب الله مثلاً صراطًا مستقيمًا، وعن جَنْبَيْ الصراط سوران فيهما أبواب مفتحة، وعلى الأبواب ستور مرخاة، وعلى باب الصراط داع يدعو: يا أيها الناس هلموا ادخلوا الصراط المستقيم جميعًا ولا تتفرقوا، وداع يدعو من جوف الصراط، فإذا أراد الإنسان أن يفتح شيئًا من تلك الأبواب قال: ويحك لا تفتحه، فإنك إن تفتحه تلجه، فالصراط الإسلام، والسوران حدود الله، والأبواب المفتحة محارم الله، وذلك الداعي على رأس الصراط كتاب الله، والداعي من فوق الصراط واعظ الله في قلب كل مسلم». رواه أحمد والترمذي وغيرهما، وصححه الألباني في صحيح الجامع (٣٨٨٧).

وقد فهم سلف هذه الأمة من ذلك ضرورة لزوم صراط الله المستقيم والسير عليه، وترك البدع والضلالات والسبل المنحرفة، لأنها كلها معارضة للصراط الواحد المستقيم، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «إنما وحد سبيله لأن الحق واحد، ولهذا جمع السبل لتفرقها وتشعبها». [تفسير ابن كثير ٢/٢٦٣].

وقال قتادة: «اعلموا أن السبيل سبيل واحد، جماعة الهدى ومصيره الجنة، وأن إبليس استبدع سبلاً متفرقة، جماعة الضلالة ومصيرها إلى النار».

روى علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في هذه الآية، وفي قوله: «أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلاَ تَتَفَرَّقُوا فِيهِ»، ونحو هذا في القرآن قال: أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله. [تفسير القاسمي ٦/٢٥٧١].

أعظم أسباب الاجتماع:

وقد ذكر الله في كتابه أن هذه الأمة أمة واحدة، تعبد إلهًا واحدًا، قال الله تعالى: « إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ » [الأنبياء: ٩٢] أي: أن ملة الإسلام ملة واحدة، وهو دين الله تبارك وتعالى الذي لا عوج فيه ولا اختلاف، والمعبود إله واحد- جل في علاه- ، وقد ذهب ابن عباس ومجاهد والحسن البصري وغيرهم: أن المراد بالأمة الواحدة: الدين الواحد، والسنة الموحدة، ومعنى ذلك: أن نجتمع تحت راية القرآن والسنة، وهما من أعظم أسباب الاجتماع، ونعبد ربًا واحدًا، ونتبع فقط نبينا صلى الله عليه وسلم.

كما يظهر من الآية أن سلامة المعتقد يؤدي إلى وحدة الجماعة، وصفاء ونقاء العبادة، فمتى كان المعتقد خالصًا صائبًا كانت الجماعة مجتمعة ملتئمة، وإذا وقع خلاف في العقيدة أتبعه تفرق في الجماعة،وختامًا فإني أدعو أهل ملة القرآن والسنة إلى الوحدة والجماعة، وأن نكون صفًا واحدًا متراصًا لله وفي الله، وأن ننبذ أسباب الخلاف والفرقة التي وقعت بيننا سواء كان خلافًا سياسيًا بين القادة والزعماء، أو مذهبيًا بين المشايخ والعلماء، ولنرجع جميعًا إلى الحق، المتمثل في منهج أهل السنة والجماعة، أسأل الله تبارك وتعالى أن يجمع شمل هذه الأمة، وأن يجنبنا الفتن ما ظهر منها وما بطن، وأن يقينا من شر الأشرار وكيد الفجار، والحمد لله رب العالمين.

نداء إلى أمة الإسلام: عليكم بالجماعة، وكونوا عباد الله إخواناً، تخلوا عن الخلافات وانبذوا الكراهية والشحناء، وكونوا كما قال الله تعالى: « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فأعبدون» وقال: «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم».

افتتاحية العدد

سعادة الأمة في الاعتصام بالكتاب والسنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وآله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد ذكرت في الحلقة السابقة بعض الأدلة القرآنية على ضرورة لزوم الصراط المستقيم، وأهمية جمع كلمة المسلمين على دين رب العالمين، وإتمامًا للفائدة أسوق هنا بعضًا من الأحاديث النبوية الشريفة الداعية إلى ذلك، وما فهمه منها أهل العلم، فاقول وبالله التوفيق:

جاءت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحث على الجماعة، وتأمر بلزومها، وتنهى عن التفرق، وتحذر من الخلاف، ومما جاء في ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاه الله أمركم». [مسلم: ١٧١٥].

وقد بيَّن هذا الحديث ثلاثة أمور مهمة رضيها الله تعالى لنا، وهي عبادته وحده لا شريك له، والاعتصام بحبله وعدم التفرق فيه، ومناصحة ولاة أمور المسلمين.

قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وأما الاعتصام بحبل الله، فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه.. وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «ولا تفرقوا» فهو أمر بلزوم جماعة المسلمين، وتآلف بعضهم ببعض، وهذه إحدى قواعد الإسلام». [شرح النووي على مسلم: ١١/١٢].

وكلام النووي في الجماعة دقيق ومفيد، حيث ذكر أن لزوم جماعة المسلمين قاعدة من قواعد الإسلام، وهذا يبين أهمية ذلك وضرورة الحرص عليه، خاصة في زمن الفتن، وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه وفيه: «كَانَ النَّاسُ يَسْأَلُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ الْخَيْرِ، وَكُنْتُ أَسْأَلُهُ عَنْ الشَّرِّ؛ مَخَافَةَ أَنْ يُدْرِكَنِي، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! إِنَّا كُنَّا فِي جَاهِلِيَّةٍ وَشَرٍّ فَجَاءَنَا اللَّهُ بِهَذَا الْخَيْرِ، فَهَلْ بَعْدَ هَذَا الْخَيْرِ شَرٌّ؟ قَالَ: نَعَمْ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الشَّرِّ مِنْ خَيْرٍ؟ قَالَ: نَعَمْ، وَفِيهِ دَخَنٌ. قُلْتُ: وَمَا دَخَنُهُ؟ قَالَ: قَوْمٌ يَسْتَنُّونَ بِغَيْرِ سُنَّتِي، وَيَهْدُونَ بِغَيْرِ هَدْيِي، تَعْرِفُ مِنْهُمْ وَتُنْكِرُ. فَقُلْتُ: هَلْ بَعْدَ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْ شَرٍّ؟ قَالَ: نَعَمْ؛ دُعَاةٌ عَلَى أَبْوَابِ جَهَنَّمَ مَنْ أَجَابَهُمْ إِلَيْهَا قَذَفُوهُ فِيهَا. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا. قَالَ: نَعَمْ، قَوْمٌ مِنْ جِلْدَتِنَا وَيَتَكَلَّمُونَ بِأَلْسِنَتِنَا. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ فَمَا تَرَى إِنْ أَدْرَكَنِي ذَلِكَ؟ قَالَ: تَلْزَمُ جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ وَإِمَامَهُمْ. فَقُلْتُ: فَإِنْ لَمْ تَكُنْ لَهُمْ جَمَاعَةٌ وَلَا إِمَامٌ؟ قَالَ: فَاعْتَزِلْ تِلْكَ الْفِرَقَ كُلَّهَا وَلَوْ أَنْ تَعَضَّ عَلَى أَصْلِ شَجَرَةٍ حَتَّى يُدْرِكَكَ الْمَوْتُ وَأَنْتَ عَلَى ذَلِكَ». [مسلم: ١٨٤٧].

وعنوان الباب الذي ورد تحته هذا الحديث يؤكد ما سبق أن أشرت إليه وهو لزوم الجماعة عند الفتنة بصورة خاصة،

وهذا نص العنوان: «باب وجوب ملازمة جماعة المسلمين عند ظهور الفتن وفي كل حال، وتحريم الخروج من الطاعة ومفارقة الجماعة». قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وفي حديث حذيفة هذا لزوم جماعة المسلمين وإمامهم ووجوب طاعته وإن فسق وعمل المعاصي من أخذ الأموال وغير ذلك، فتجب طاعته في غير معصية الله، وفيه معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وهي هذه الأمور التي أخبر بها، وقد وقعت كلها». [شرح النووي على مسلم ج٢٣٧/١٢].

وعن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «نَضَّرَ اللَّهُ امْرَأً سَمِعَ مِنَّا حَدِيثًا فَحَفِظَهُ حَتَّى يُبَلِّغَهُ غَيْرَهُ؛ فَإِنَّهُ رُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ لَيْسَ بِفَقِيهٍ، وَرُبَّ حَامِلِ فِقْهٍ إِلَى مَنْ هُوَ أَفْقَهُ مِنْهُ؛ ثَلَاثٌ خِصَالٍ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ أَبَدًا: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ وُلَاةِ الْأَمْرِ، وَلُزُومُ الْجَمَاعَةِ فَإِنَّ دَعْوَتَهُمْ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ». [مسند أحمد ١٨٣/٥، وصححه الألباني].

ففي هذا الحديث إلى جانب إخلاص العمل لله: الأمر بلزوم الجماعة، ومناصحة ولاة الأمور، وقد ذكر ابن رجب عن بعض أهل العلم معنى النصيحة فقال: «جماع تفسير النصيحة هي عناية القلب للمنصوح له كائنًا من كان، وأما النصح لأئمة المسلمين فحبّ صلاحهم ورشدهم وعدلهم، وحب اجتماع الأمة عليهم، وكراهية افتراق الأمة عليهم، والتدين بطاعتهم في طاعة الله عز وجل». [جامع العلوم والحكم ص٦٨].

الأمر بلزوم الجماعة:

وأما الأمر بلزوم الجماعة، فهو من أصل من أصول أهل السنة والجماعة، وقد وردت بذلك الأحاديث النبوية الصحيحة، ومنها: ما رواه ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يجمع أمتي- أو قال: أمة محمد صلى الله عليه وسلم- على ضلالة، ويد الله على الجماعة». [سنن الترمذي (٢١٦٧) وصححه الألباني].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات مات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمِّيَّة يغضب لعَصَبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتله جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد عهده فليس مني ولست منه». [مسلم: ١٨٤٨].

وعن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليهما السلام بخمس كلمات؛ أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، ثم قال صلى الله عليه وسلم: إن الله عز وجل أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهن وأمركم أن تعملوا بهن، ثم ذكرهن صلى الله عليه وسلم وعقب عليهن بقوله: «وأنا آمركم

إن من أهم قواعد الإسلام التي أمرنا بها: لزوم جماعة المسلمين، والتآلف فيما بينهم. ولا شك أنهما لن يتحققا إلا إذا اعتصم الناس بالكتاب والسنة.

بخمس الله أمرني بهن: الجماعة، والسمع والطاعة والهجرة، والجهاد في سبيل الله، فإنه من خرج من الجماعة قيد شبر، فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه إلا أن يرجع، ومن دعا بدعوى الجاهلية فهو من جُثَا جهنم، قالوا: يا رسول الله، وإن صام وإن صلى؟ قال: وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم، فادعوا المسلمين بأسمائهم بما سماهم الله عز وجل؛ المسلمين المؤمنين عباد الله عز وجل». [مسند أحمد ٤/١٣٠، ورواه الآجري في الشريعة، وقال محققه: إسناده صحيح، الشريعة ١/٢٨٦، وصححه الألباني في المشكاة ٣٦٢٢].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: خطبنا عمر بالجابية فقال: يا أيها الناس، إني قمت فيكم كمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فينا فقال: «أوصيكم بأصحابي، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب حتى يحلف الرجل ولا يُستحلف، ويشهد الشاهد ولا يُستشهد، ألا لا يخلون رجل بامرأة إلا كان ثالثهما الشيطان، عليكم بالجماعة وإياكم والفُرقة، فإن الشيطان مع الواحد، وهو من الاثنين أبعد، ومن أراد بحبوحة الجنة فليزم الجماعة، من سرته حسنته وساءته سيئته فذلكم المؤمن». [صحيح سنن الترمذي: ١٧٥٨].

خلاصة ما سبق

ويتبين من مجموع هذه الأحاديث وجوب ملازمة جماعة المسلمين، وأن اجتماعهم حق، وفيها بشرى هؤلاء المجتمعين بالجنة، والنجاة من النار، وقد فهم ذلك شراح هذه الأحاديث، فابن عبد البر رحمه الله بعد أن ساق شطرًا منها علق عليها بقوله: «الآثار المرفوعة في هذا الباب كلها تدل على أن مفارقة الجماعة وشق عصا المسلمين، والخلاف على السلطان المجتمع عليه، يريق الدم ويبيحه، ويوجب قتال من فعل ذلك، فإن قيل: كيف هذا وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها فقد عصموا دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله»، فمن قال: لا إله إلا الله حرم دمه؟ قيل لقائل ذلك: لو تدبرت قوله في الحديث: (إلا بحقها)، لعلمت أنه بخلاف ما ظننت، ألا ترى أن أبا بكر الصديق قد رد على عمر ما نزع به من هذا الحديث، وقال: من حقها الزكاة، ففهم عمر ذلك من قوله وانصرف إليه، وأجمع الصحابة عليه، فقاتلوا مانعي الزكاة كما قاتلوا أهل الردة، وسماهم بعضهم أهل ردة على الاتساع؛ لأنهم ارتدوا عن أداء الزكاة، ومعلوم مشهور عنهم أنهم ما قالوا: ما تركنا ديننا، ولكن شححنا على أموالنا، فكما جاز قتالهم عند جميع الصحابة على منعهم الزكاة، وكان ذلك عندهم في معنى قوله عليه السلام: (إلا بحقها)، فكذلك من شق عصا المسلمين وخالف إمام جماعتهم وفرّق كلمتهم؛ لأن الغرض الواجب اجتماع كلمة أهل دين المسلمين على من خالف دينهم من الكافرين، حتى تكون كلمتهم واحدة، وجماعتهم غير مفترقة، ومن الحقوق

لأن الدين النصيحة فلا يجوز لأحد من المسلمين أن يكتم النصيحة عن المسلمين إن كان قادراً عليها ، سواء كانوا أبراراً أو فجاراً .

المريقة للدماء، المبيحة للقتال: الفساد في الأرض، وقتل النفس، وانتهاب الأهل والمال، والبغي على السلطان، والامتناع من حكمه، هذا كله داخل تحت قوله: (إلا بحقها)، كما يدخل في ذلك الزاني المحصن، وقاتل النفس بغير حق، والمرتد عن دينه. [التمهيد ٢٨٢/٢١].

وبالطبع هذا كلام يحتاج إلى تفصيل فليرجع إليه في مظانه من كلام أهل العلم.

وقد عقد الآجري بابًا عنونه بقوله: باب ذكر أمر النبي صلى الله عليه وسلم بلزوم الجماعة وتحذيره إياهم من الفرقة، ثم ساق بعضًا من الأحاديث الدالة على ذلك، وختم الكلام بقوله: «علامة من أراد الله به خيرًا: سلوك هذا الطريق؛ كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنة أصحابه رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء». [الشريعة ٣٠١/١].

قلت: ومن أراد أن تشمله رحمة الله فعليه بلزوم الجماعة، قال قتادة رحمه الله: «أهل رحمة الله أهل الجماعة» وإن تفرقت ديارهم وأبدانهم، وأهل معصيته أهل فُرقة وإن اجتمعت ديارهم وأبدانهم». [تفسير ابن كثير ٦٢٧/٢].

ويفهم هذا أيضا من قول النبي صلى الله عليه وسلم كما سبق في بعض الأحاديث: «ولزوم جماعتهم فإن دعوتهم تحيط من ورائهم». قال الشيخ عبد المحسن البدر في شرحه لهذه الجملة: «ذكرت هذه الجملة بعد الخصلة الثالثة من الخصال الثلاث، وهي لزوم جماعة المسلمين، لبيان الفائدة التي يستفيدها الملازم للجماعة، وهي: أن يكون له حظ ونصيب من دعواتهم، والمعنى: أن دعوة المسلمين تحدق بهم وتحفهم من جميع جوانبهم، فمن لازم الجماعة كان له نصيب في دعوات المسلمين الصادرة من أفرادهم لعمومهم». [انظر رسائل الشيخ ٤٦٣/٣].

فعلى جميع المسلمين أن يتجردوا من كل هوًى وعصبية، وأن يكون منهجهم في العلم، والدعوة، والتربية والسلوك على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم، فهو الذي يجمع القلوب ويوحد الكلمة، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها، كما قال الإمام مالك بن أنس، والأمة اليوم أحوج ما تكون إلى الاجتماع وجمع الكلمة على المنهج الرباني المحمدي، وهو لزوم الكتاب والسنة والسير وفق منهاج النبوة، ومن خالف هذا الطريق فهو متوعد بعذاب الجحيم، قال تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا » [النساء: ١١٥].

نسأل الله أن يهدينا جميعًا إلى صراطه المستقيم، والحمد لله رب العالمين.

على المسلمين أن يتجردوا من كل هوى وعصبية ، وأن يكون منهجهم في العلم والدعوة والتربية والسلوك متفقاً على ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم؛ فهو الذي يجمع القلوب، ويوحد الكلمة ، ولا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها.

افتتاحية العدد

النهي الصريح عن الغلو في المديح

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على العابد لربه ومولاه نبينا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم.

وبعدُ:

ففي شهر ربيع الأول من كل عام يحتفل بعض الناس بما أسموه مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ناقشت سابقًا على صفحات مجلة التوحيد الغراء من يقومون بذلك، وأود في هذا اللقاء أن أبيّن بعضًا من المخالفات العقدية الصريحة التي تحدث في هذا المولد، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

يكثر المشاركون والمخططون لذلك من الغلو في المديح في رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقرءون أشعارًا وينطقون بكلمات لا يرضاها الله ولا رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك:

اعتقادهم أن الرسول صلى الله عليه وسلم هو أول الخلق، وأن خلقه كان قبل خلق العالم بأسره، وفي ذلك يقول ابن عربي: «بدأ العالم ومثاله الهباء والحقيقة المحمدية...، فلم يكن أقرب إليه تعالى- قبولاً من ذلك الهباء إلا حقيقة محمد صلى الله عليه وسلم- المسماة بالعقل، فكان سيد العالم بأسره، وأول ظاهر في الوجود». [الفتوحات المكية ج٢/٢٢٦].

وقد استدل هؤلاء على قولهم بأحاديث ضعيفة أو موضوعة لا تقوم بها حجة، كالحديث الموضوع: «أول ما خلق الله نور نبيك يا جابر». وقد ذكر العلماء أن هذا الحديث لا سند له. قال الألباني: «وفي الحديث إشارة إلى ما يتناقله الناس، حتى صار ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير منهم، وهو أن النور المحمدي هو أول ما خلق الله تبارك وتعالى، وليس لذلك أساس من الصحة، وحديث عبد الرزاق غير معروف إسناده». [السلسلة الصحيحة ج١/٢٠٧].

وللشيخ عبد الله الغماري رسالة بعنوان «مرشد الحيران لبيان حديث جابر» حكم عليه فيها بالوضع.

بطلان ادعاء أن النبي صلى الله عليه وسلم أول الخلق:

كما يستدلون بحديث ضعيف، وهو: «كنت أول النبيين في الخلق وآخرهم في البعث». وقد رواه أبو نعيم في دلائل النبوة، كما رواه غيره، والحديث من رواية قتادة السدوسي، ولم يصرح بالسماع من شيخه وهما مدلسان، وفيه سعيد بن بشير الأزدي متكلم فيه، وقد عدَّ الذهبي هذا الحديث من غرائبه. [ميزان الاعتدال (٢/٣٢٠)، وانظر السلسلة الضعيفة ج٢/١١٥].

كما استدلوا بأحاديث صحيحة لا تدل على مرادهم، وليس لهم فيها حجة؛ كحديث ميسرة قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم متى كنت نبيًا؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد»، ومنطوق الحديث يدل على أن الله تعالى كتب عند خلق آدم نبوة نبينا صلى الله عليه وسلم، وهذا من باب التشريف والتكريم له، وهذه الكتابة لا تنافي الكتابة الأولى في الأزل، وهذا هو المعنى الصحيح لهذا الحديث ولغيره مما صح في هذا الباب.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «ولهذا يغلط كثير من الناس

في قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي رواه ميسرة...، فيظنون أن ذاته ونبوته وُجدت حينئذ، وهذا جهل، فإن الله إنما أنبأه على رأس أربعين من عمره، وقد قال له: « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِن كُنتَ مِن قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ » [يوسف: ٣]، وقال: «وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَىٰ » [الضحى: ٧]، وفي الصحيحين أن الملك قال له حين جاءه: اقرأ، فقال: لست بقارئ ثلاث مرات.

ومما يؤكد بطلان ما ذهب إليه هؤلاء شرعًا أن آدم عليه السلام هو أول المخلوقات البشرية، وأن النبي صلى الله عليه وسلم من ذرية آدم، فكيف يتقدم الفرع على الأصل، أو اللاحق على السابق، كما أنه لم يرد شيء من ذلك -مع أهميته- في القرآن الكريم، أو صحيح السنة المطهرة. ولما سُئل النبي صلى الله عليه وسلم عن ذلك لم يشر إلا إلى خلق السماوات والأرض كما في حديث عمران بن حصين قال: دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وعقلت ناقتي بالباب، فأتاه ناس من بني تميم، قالوا: قد بشرتنا فأعطنا (مرتين)، ثم دخل عليه ناس من أهل اليمن فقال: «اقبلوا البشرى يا أهل اليمن إن لم يقبلها بنو تميم». قالوا: قد قبلنا يا رسول الله، قالوا: جئنا نسألك عن هذا الأمر. قال: كان الله ولم يكن شيء غيره، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق السماوات والأرض، فنادى مناد: ذهبت ناقتك يا ابن الحصين، فانطلقت فإذا هي يقطع دونها السراب، فوالله لوددت أني كنت تركتها». [البخاري: ٣١٩٢]. و(معنى يقطع دونها السراب: يقطع، بفتح أوله، أي: يحول بيني وبين رؤيتها السراب »(الفتح ٦: ٢٠٧))

هذا الحديث أصل في الكلام على بدء الخلق، وليس فيه ما يدل على البداية المطلقة، وليس فيه ما يدل على كلام المتصوفة في أول بدء المخلوقات، وأن النبي صلى الله عليه وسلم هو أولها، وقد تكلم القرآن الكريم أيضا عن خلق المخلوقات وخلق آدم وبني الإنسان والمراحل التي يمر بها، ولم يذكر في موضع واحد أن أول المخلوقات هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، وجهابذة السنة وعلماء الحديث عند تعرضهم للأحاديث الواردة في بدء الخلق لم يذكروا شيئًا مما ذهب إليه هؤلاء.

وأذكر هنا على سبيل المثال الحافظ ابن حجر رحمه الله فقال في شرحه لكتاب: «بدء الخلق» من صحيح البخاري، قال: «وفيه دلالة على أنه لم يكن شيء غيره، لا الماء ولا العرش ولا غيرهما، لأن كل ذلك غير الله تعالى، ويكون قوله: «وكان عرشه على الماء» معناه: أنه خلق الماء سابقا، ثم خلق العرش على الماء، وقد وقع في قصة نافع بن الحميري بلفظ: «كان عرشه على الماء»، ثم خلق القلم فقال: اكتب ما هو كائن، ثم خلق السماوات والأرض وما فيهن، فصرح بترتيب المخلوقات بعد الماء على العرش.

ثم ذكر حديث عبادة بن الصامت وهو صحيح، وفيه: «أول ما خلق الله القلم، ثم قال: اكتب، فجرى بما هو كائن إلى يوم القيامة». وجمع بين هذا الحديث والذي قبله فقال: «فيجمع بينه وبين ما قبله بأن أولية القلم بالنسبة إلى ما عدا الماء والعرش، أو

من الغلو الشنيع الذي ذهب إليه المبتدعة ويردده المشاركون في الموالد كثيرًا، قولهم: بأن الدنيا إنما خُلقت من أجل النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا كلام باطل ومن الغلو المذموم، وهو يناقض الوحي الإلهي الذي أخبر فيه أن الله خلق الدنيا والإنس والجن فيها لعبادته وحده دون سواه.

بالنسبة إلى ما منه صدر من الكتابة، أي أنه قيل له: اكتب أول ما خُلِقَ». [فتح الباري ٦/٢٨٩].

ويلاحظ من كلام ابن حجر أنه لم يشر مطلقًا إلى ما ذهب إليه القوم من أن النبي صلى الله عليه وسلم أول المخلوقات، وهذا يدل دلالة واضحة إلى بطلانه، وإلى أنه لم يذهب إليه أحد من العلماء المعتبرين؛ وذلك لأنه لا يوجد دليل واحد على صحة ما ذهبوا إليه.

غلو شنيع وباطل مردود:

ومن الغلو الشنيع الذي ذهبوا إليه، ويردده المشاركون في الموالد كثيرًا، قولهم: بأن الدنيا إنما خُلقت من أجل النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر البوصيري في بردته المشهورة والمعظمة جدًا عند الصوفية ذلك فقال:

وكيف تدعو إلى الدنيا ضرورة من
لولاه لم تخرج الدنيا من العدم

وقد فسَّر عبد العال الحمامصي هذا البيت، وأكَّد ما ذهب إليه البوصيري، فقال: «وفي هذا الذي يقول البوصيري، ترديد لما حفلت به كتب السيرة من أن الدنيا ذاتها من أجل محمد قد خلقها الله سبحانه وتعالى». [انظر البوصيري مادح الرسول الأعظم ص٢٦١].

وهذا كلام باطل ومن الغلو المذموم، وهو يناقض الوحي الإلهي الذي أخبر فيه أن الله خلق الدنيا والإنس والجن فيها لعبادته وحده دون سواه، كما قال تعالى في كتابه: « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦]، وقد رجّح الإمام الطبري أن المراد من الآية: أن الله خلق الخلق لعبادته، والتذلل لأمره، وقد أسند ذلك لابن عباس. [انظر تفسيره ج٢٧/٢٨].

وقال القاسمي بعد ذكره للآية: «أي: لهذه الحكمة، وهي عبادته تعالى بما أمر على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم؛ إذ لا يتم صلاح، ولا تُنال سعادة في الدارين إلا بها». [تفسير القاسمي ج١٥/٥٥٣٨].

وقد أمر الله في كتابه النبي صلى الله عليه وسلم في مواطن بعبادته، وذلك مثل قوله: « بَلِ ٱللَّهَ فَٱعْبُدْ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ» [الزمر: ٦٦]. وكقوله: « وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ» [الحجر: ٩٩]، والمراد باليقين هنا الموت، كما ذكر ذلك ابن كثير عن مجاهد، والحسن وقتادة وغيرهم، ثم قال: «والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: « قَالُوا۟ لَمْ نَكُ مِنَ ٱلْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ ٱلْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ ٱلْخَآئِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلْيَقِينُ» [المدثر: ٤٣- ٤٧]. (تفسير ابن كثير ٢/٧٥٧).

أشرف مقامات النبي صلى الله عليه وسلم:

النبي صلى الله عليه وسلم كان أول العابدين لله، وقد وصفه الله في مواطن كثيرة من كتابه بالعبودية، وهي أشرف مقاماته صلى الله عليه وسلم، فكيف يقال بعد ذلك بأن الدنيا ما خلقت إلا من أجله، والقرآن الكريم وحي رب العالمين يكذّب قولهم كما ذكرت آنفًا، وقد استدلوا من السنة كعادتهم بأحاديث باطلة ليؤيدوا باطلهم، ولا تقوم بها حجة، كحديث: «يا آدم لولا محمد ما خلقتك». وهو حديث موضوع. قال الذهبي رحمه الله: روى عبد الله بن مسلم، عن إسماعيل بن مسلمة عن عبد الرحمن بن زيد خبرًا باطلاً فيه: «يا آدم لولا محمد ما خلقتك». [انظر: ميزان الاعتدال ج٣/٢١٨].

وقال شيخنا العلامة محمد خليل هراس- رحمه الله-: «هذا الحديث باطل، والله لم يخلق آدم ولا غيره من أجل أحد، وإنما خلق الكل لعبادته، كما قال: « وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦]. (هامش الخصائص الكبرى للسيوطي ١/١٧].

وبعد أن ذكر هؤلاء أن النبي صلى الله عليه وسلم، هو أول المخلوقات، ذهبوا إلى أن كل شيء من نور النبي صلى الله عليه وسلم يقول الدباغ في ذلك: «اعلم أن أنوار المكنونات كلها من عرض وفرش وسماوات وأرضين وجنات وحجب، وما فوقها وما تحتها إذا جُمعت كلها، وجدت بعضًا من نور النبي صلى الله عليه وسلم، وأن مجموع نوره لو وُضع على العرش ذاب، ولو وضع على الحجب السبعين التي فوق العرش لتهافتت ولو جُمعت المخلوقات كلها ووُضع ذلك النور العظيم عليها لتهافتت وتساقطت». [الإبريز ج٢/٨٤].

ويقول الحلواني في قصيدة له مخاطبًا النبي صلى الله عليه وسلم، وتسمى هذه القصيدة بالمستجيرة:

أنشاك نورًا ساطعًا قبل الورى
فردا لفرد والبرية في العدم
ثم استمد جميع مخلوقاته
من نورك السامي فيا عظم الكرم

وهذا زور وباطل من القول يرده القرآن الكريم صراحة الذي أخبر الله فيه بخلق الإنسان، ومن أي شيء خُلق، وقد رد عليهم شيخنا العلامة عبد الرحمن الوكيل- رحمه الله- على هذه الفرية، فقال: «الله تعالى يقول: « وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴿١٢﴾ ثُمَّ جَعَلْنَٰهُ نُطْفَةً فِى قَرَارٍ مَّكِينٍ» [المؤمنون: ١٢- ١٣]، ومحمد صلى الله عليه وسلم إنسان، وإلا فليأتوا له بصفة أخرى، والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:

«خُلقت الملائكة من نور، وخُلق الجان من مارج، وخُلق آدم مما وصف لكم»، وتحدث الرسول صلى الله عليه وسلم عن النور، وعمن خُلق منه، فلم يذكر عن نفسه أنه خُلق من نور، كما ذكر عن الملائكة، وتحدث عن آدم الأب الأول للبشرية وعن خلقه، وأنه خُلق مما ذكر الله في القرآن، يعني من طين لازب، ومحمد صلى الله عليه وسلم ابن آدم. [هذه هي الصوفية ص٨٧، ص٨٨].

وقوع البوصيري في ألوان من الغلو:

وقع البوصيري في قصيدته البردة في ألوان من الغلو يجب على كل مسلم أن يحذره، كما يجب على العلماء أن ينبّهوا العامة على هذا البطلان، ومما ذهب إليه في قصيدته أن الأنبياء والرسل أخذوا علومهم من النبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك يقول:

وكلهم من رسول الله ملتمس
غرفا من البحر أو رشفا من الديم

وهو بهذا يذهب إلى معتقد ابن عربي الضال الموسوم بالزندقة الذي قال: بأن كل العلوم والمعارف مستمدة من النبي صلى الله عليه وسلم، ولم أجد قولاً لأحد من أهل العلم ذهب إلى مثل هذا، ومن المعلوم أن الله تبارك وتعالى هو الذي أرسل الأنبياء والمرسلين قبل النبي الأمين صلى الله عليه وسلم وأوحى إليهم وحيه الذي أنزله عليهم، والقرآن الكريم مليء بقصصهم، وتعلمنا منه أن الله اصطفاهم وعلمهم وزكّاهم، ثم ختم النبوة والرسالة بإمامهم صلى الله عليه وسلم وأمره في كتابه أن يلزم منهج إخوانه من الأنبياء السابقين عليه، فقال له بعد أن ذكر بعضهم: « أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ» [الأنعام: ٩٠]، ومعنى: اقتد أيها الرسول صلى الله عليه وسلم بمن هدى الله من الأنبياء السابقين، فكيف يقال بعد ذلك بأنهم استمدوا العلوم من خاتمهم صلى الله عليه وسلم، وقد أمره الله باتباعهم كما قال الله تعالى: «ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» [النحل: ١٢٣].

وفي قوله تعالى: «إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ» [النساء: ١٦٣] دليل صريح واضح على أن الرسل ينزل عليهم وحي الله تعالى، ولم تفض عليهم العلوم من نور الرسول صلى الله عليه وسلم، وإذا كان الرسول صلى الله عليه وسلم لم يعرف الكتاب ولا الإيمان قبل أن يوحى إليه، فمن باب أولى أن الرسل لم يأخذوا منه العلوم التي بلّغوها لأقوامهم. قال الله تعالى: «وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ» [الشورى: ٥٢].

والنبي صلى الله عليه وسلم لم يوجد أثره إلا بعد ولادته، وسطرت كتب السنة والسيرة تاريخه خلال هذه الفترة، وأما قبل ذلك فليس إلا الإخبار عنه بأنه نبي مكتوب ذلك في اللوح المحفوظ، وأما أن نوره وُجد قبل ذلك ومنه استمد الأنبياء علومهم، فهو مما لا يقوم عليه دليل، ولا يحل لمسلم أن يعتقده أو يتغنى به، كما يفعل ذلك أصحاب الموالد والطرقية.

بل أخطأ خطأ أكبر من ذلك بقوله:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به
سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي
فضلا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها
ومن علومك علم اللوح والقلم

يقول شيخنا العلامة بن باز رحمه الله معلقا على هذه الأبيات في فتواه(٦/٣٧٠، ٣٧١): جعل هذا المسكين لياذه في الآخرة بالرسول صلى الله عليه وسلم دون الله عز وجل، وذكر أنه هالك إن لم يأخذ بيده، ونسي الله سبحانه الذي بيده الضر والنفع والعطاء والمنع، وهو الذي ينجي أولياءه، وأهل طاعته، وجعل الرسول صلى الله عليه وسلم هو مالك الدنيا والآخرة، وأنها بعض جوده، وجعله يعلم الغيب، وأن من علومه علم ما في اللوح والقلم، وهذا غلو ليس فوقه غلو، نسأل الله العافية والسلامة، فالواجب على كل مسلم أن يحذر هذا الغلو، وألا يغتر بـ « البردة »، وصاحبها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله » ا.هـ بتصرف.

وأقوال العلماء أكثر من هذا، ويوجد من الأبيات ما فيه مجال للنقد، لكننا اخترنا بعضاً من ذلك، وهو كاف في بيان المقصود، وهو التحذير من هذه القصيدة، وأنها احتوت على غلو ظاهر

أهل السنة أولى الناس بالنبي صلى الله عليه وسلم:

وقد يظن ظانّ أننا بهذا الكلام لا نعرف قدر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا وهم من صاحبه، وإلا فأهل السنة جميعًا من أعرف الناس بقدر ومكانة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنهم لا يقعون في المحذور الذي وقع فيه غيرهم اتباعًا لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم الذي قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله». [البخاري: ٣٤٤٥].

والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

وسطية الأمة بين الغلو والجفاء

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن نهج نهجه واهتدى بهداه، وبعدُ:

فقد تحدثت في العدد السابق عن بعض المخالفات الشرعية في تجاوز الحد في المديح المتعلق بشخص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهي مسألة عقدية عليها أدلة شرعية، وحتى لا يفهم أحد أن في هذا تنقيصًا من مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ومكانته سأتحدث هنا عن الغلو والجفاء في شخص النبي المختار صلى الله عليه وسلم، وسأسوق- إن شاء الله- بعض الأدلة النبوية في ذلك.

وقبل هذا أقول: إن الاستهزاء بالنبي صلى الله عليه وسلم وعدم احترامه كفرٌ بالله العظيم، كما أخبر بذلك القرآن الكريم في قول الله تعالى: «وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ» [سورة: ٦٦]، وقد ذكر ابن حزم- رحمه الله- في كتابه الفصل: «أن كل ما فيه كفر بالباري تعالى، واستخفاف به، أو بنبي من أنبيائه، أو بملك من ملائكته، أو بآية من آياته عز وجل، لا يحل سماعه ولا النطق به، ولا يحل الجلوس حيث يُلفظ به، ثم ساق الآية». [الفصل في الملل ٢/١٣٩].

وجوب التمييز بين حقوق الله تعالى وحقوق غيره:

يجب أن يميز المسلم بين حقوق الله تعالى الواجبة له والخاصة به، والتي لا يجوز صرفها لغيره، كإثبات أنه الرب الخالق الرازق المدبر، له الأسماء الحسنى والصفات العلى، وأنه المعبود وحده بجميع ألوان العبادة دون سواه، وبين حقوق خلقه؛ كحق النبي صلى الله عليه وسلم الذي تجب محبته وطاعته وعدم الخروج على أمره صلى الله عليه وسلم، وقواعد الشريعة قد أحكمت هذا الباب، وقد ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم النهي عن الغلو في شخصه، كما ورد عنه النهي عن الجفاء في حقه صلى الله عليه وسلم، ولتوضيح هذا الأمر، وحتى نضع الأمور في نصابها الصحيح، ويظهر الحق لكل منصف سأذكر من كلام النبي صلى الله عليه وسلم ما سدَّ به ذرائع الغلو والجفاء في شخصه صلى الله عليه وسلم.

أولا: سدّ النبي صلى الله عليه وسلم ذرائع الغلو في شخصه الكريم:

لقد سدَّ النبي صلى الله عليه وسلم جميع الوسائل والأسباب المفضية إلى الشرك بالله تعالى، واتخاذ ندٍّ لله، حتى ولو كانوا من أشرف خلق الله، ولذلك نصَّ النبي صلى الله عليه وسلم على أنه عبدٌ لله تعالى، وقد ذكر ذلك في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي نهى فيه عن إطرائه صلى الله عليه وسلم فقال: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فإنما أنا عبدٌ، فقولوا: عبد الله ورسوله» [البخاري: ٣٤٤٥]، وهو بهذا يوافق ما وصفه الله به في كتابه من أنه عبدٌ لربه ومولاه صلوات الله وسلامه. قال الله تعالى: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ

عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا» [الكهف: ١]، وقال جل وعلا: «تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا» [الفرقان: ١]، والعبودية من النبي صلى الله عليه وسلم من أشرف مقامات رسول الله صلى الله عليه وسلم، يقول الحافظ ابن كثير رحمه الله: «هذه صفة مدح وثناء؛ لأنه أضافه إلى عبوديته، كما وصفه بها في أشرف أحواله، وهي ليلة الإسراء فقال: «سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا» [الإسراء: ١]، وكما وصفه بذلك في مقام الدعوة: «وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا۟ يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا» [الجن: ١٩]. (تفسير ابن كثير ٣/٤٢٤).

ومن صور سدِّ ذرائع الغلو في شخصه صلى الله عليه وسلم تحذيره من اتخاذ قبره عيدًا أو مسجدًا، كما روى مالك في الموطأ وابن أبي شيبة عن زيد بن أسلم مرسلاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللهم لا تجعل قبري وثنًا، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد». [والحديث أخرجه أحمد في المسند موصولا عن أبي هريرة ج٢/٢٤٦، وصححه الألباني في تحذير الساجد ص١٨].

وقد استجاب الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، كما قال ابن القيم في القصيدة النونية:

فأجاب رب العالمين دعاءه

وأحاطه بثلاثة الجدران

حتى غدت أرجاؤه بدعائه

في عزة وحماية وصيان

قال الشيخ خليل هراس رحمه الله: «فأجاب الله عز وجل دعاء نبيه صلى الله عليه وسلم فأحاط قبره بثلاثة جدران حتى لا يكون بارزًا في المسجد، فأصبحت أنحاء القبر ببركة دعائه في منعة وصيانة أن يُرتكب عندها شيء من أعمال الوثنية». [شرح النونية ٢/٢٢٩، ٢٣١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ؛ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم». [صحيح سنن أبي داود ١/٣٨٣].

قال ابن القيم رحمه الله في شرحه لسنن أبي داود: «العيد ما يُعتاد مجيئه وقصده من زمان ومكان»، وكان للمشركين أعياد زمانية ومكانية، فلما جاء الله بالإسلام أبطلها، وعوَّض الحنفاء منها عيد الفطر وعيد الأضحى، كما عوَّضهم عن أعياد المشركين المكانية بالكعبة ومنى ومزدلفة وسائر المشاعر. [عون المعبود ٦/٣٢].

وقال المناوي: «معناه النهي عن الاجتماع لزيارته اجتماعهم للعيد، إما لدفع المشقة، أو كراهية أن يتجاوزوا حدَّ التعظيم، وقيل: العيد ما يُعاد إليه، أي: لا تجعلوا قبري عيدًا تعودون إليه متى أردتم أن تصلوا عليَّ».

ويؤخذ منه أن اجتماع العامة في بعض أضرحة الأولياء

يجب أن يميز المسلم بين حقوق الله تعالى الواجبة له والخاصة به، والتي لا يجوز صرفها لغيره، وبين حقوق خلقه؛ كحق النبي صلى الله عليه وسلم الذي تجب محبته وطاعته وعدم الخروج على أمره صلى الله عليه وسلم، وقواعد الشريعة قد أحكمت هذا الباب.

في يوم، أو شهر مخصوص من السنة ويقولون هذا مولد الشيخ ويأكلون ويشربون وربما يرقصون فيه منهي عنه شرعًا، وعلى وليّ الشرع ردعهم على ذلك، وإنكاره عليهم وإبطاله». [المرجع السابق ٦/٣٢، ٣٣].

إنكار النبي صلى الله عليه وسلم على من غلا فيه:

ومن صور سدّ النبي صلى الله عليه وسلم ذرائع الغلو في شخصه إنكاره على الجارية التي كانت تغني يوم عرس وذكر كلمات لم يرضها رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يسكت عليها، كما في حديث الرُّبيع بنت معوذ قالت: «دخل عليَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة بُني عليَّ، فجلس على فراش كمجلسك مني، وجويريات يضربن بالدف يندبن من قتل من آبائهن يوم بدر، حتى قالت جارية: وفينا نبي يعلم ما في غد، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا تقولي هكذا، وقولي ما كنت تقولين» [صحيح البخاري ٤٠٠١].

ويلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم بادر بالإنكار؛ لأن ما قيل غلو يأباه الشرع ويخالف المعتقد الحق؛ لأن علم الغيب لله وحده، وهذا ما قرره رسول الله صلى الله عليه وسلم كما في حديث ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله: لا يعلم أحد ما يكون في غد، ولا يعلم أحد ما يكون في الأرحام، ولا تعلم نفس ماذا تكسب غدًا، وما تدري نفس بأي أرض تموت، وما يدري أحد متى يجيء المطر». [البخاري: ١٠٣٩].

وعن مسروق قال: «قلت لعائشة رضي الله عنها: يا أمتاه، هل رأى محمد صلى الله عليه وسلم ربه؟ فقالت: لقد قَفَّ شعري مما قلت: أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب؛ من حدثك أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد كذب، ثم قرأت: «لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ» [الأنعام: ١٠٣]، ومن حدثك أنه يعلم ما في غد فقد كذب، ثم قرأت: «وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا» [لقمان: ٣٤]، ومن حدثك أنه كتم فقد كذب ثم قرأت: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ» [المائدة: ٦٧]، ولكن رأى جبريل عليه السلام في صورته مرتين. [البخاري: ٤٨٥٥].

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم شديد وكثير التحذير من هذا الغلو، وكان يبادر إلى دفعه ورده، كما في حديث عبد الله بن أبي أوفى قال: قدم معاذ اليمن أو قال الشام فرأى النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فرأى في نفسه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أحق أن يُعظَّم، فلما قدم، قال: يا رسول الله، رأيت النصارى تسجد لبطارقتها وأساقفتها، فرأيت في نفسي أنك أحق أن تُعظَّم، فقال: «لو كنت آمرًا أحد أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها» [سنن ابن ماجه ١٨٥٣ وصححه الألباني].

وفي رواية أن معاذ بن جبل رضي الله عنه أتى الشام

كما حرص صلى الله عليه وسلم على عدم الغلو فيه، وسد كل الأبواب المفضية إلى ذلك، حذّر أمته من الوقوع في الجفاء في حقه صلى الله عليه وسلم؛ لأن كلا الأمرين خروج عن الصراط المستقيم، ومن مظاهر الجفاء في حقه عليه الصلاة والسلام: تقديم محبة غيره عليه، أو التقصير في هذه المحبة.

فرأى النصارى، فذكر معناه، إلا أنه قال: فقلت لأي شيء تصنعون هذا؟ قالوا: هذا كان تحية الأنبياء قبلنا، فقلت: نحن أحق أن نصنع هذا بنبينا، فقال نبي الله صلى الله عليه وسلم: إنهم كذبوا على أنبيائهم كما حرّفوا كتابهم، إن الله عز وجل أبدلنا خيرًا من ذلك السلام تحية أهل الجنة». [مسند أحمد ٣٨١/٤].

ثانيًا: سدّ النبي صلى الله عليه وسلم ذرائع الجفاء في حقه عليه الصلاة والسلام:

فكما حرص صلى الله عليه وسلم على عدم الغلو فيه، وسد كل الأبواب المفضية إلى ذلك، حذّر أمته من الوقوع في الجفاء في حقه صلى الله عليه وسلم؛ لأن كلا الأمرين خروج عن الصراط المستقيم، ومن مظاهر الجفاء في حقه عليه الصلاة والسلام: تقديم محبة غيره عليه، أو التقصير في هذه المحبة، ومحبة النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين». [صحيح البخاري: ١٥].

قال ابن حجر: «إذا تأمل العبد النفع الحاصل له من جهة الرسول صلى الله عليه وسلم الذي أخرجه من ظلمات الكفر إلى نور الإيمان، إما بالمباشرة وإما بالسبب علم أنه سبب بقاء نفسه البقاء الأبدي في النعيم السرمدي، وعلم أن نفعه بذلك أعظم من جميع وجوه الانتفاعات، فاستحق لذلك أن يكون حظه من محبته أوفر من غيره، لأن النفع الذي يثير المحبة حاصل منه أكثر من غيره، ولكن الناس يتفاوتون في ذلك بحسب استحضار ذلك والغفلة عنه، ولا شك أن حظ الصحابة رضي الله عنهم من هذا المعنى أتمّ؛ لأن هذا ثمرة المعرفة، وهم بها أعلم، والله الموفق». [فتح الباري: ٥٩/١، ٦٠].

وحقًا كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم في محبته أعلى وأكثر من غيرهم، كما في حديث عبد الله بن هشام قال: «كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: يا رسول الله لأنت أحب إليَّ من كل شيء إلا من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لا والذي نفسي بيده، حتى أكون أحب إليك من نفسك». فقال له عمر: فإنه الآن والله لأنت أحب إليَّ من نفسي، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الآن يا عمر». [البخاري: ٦٦٣٢].

قال الخطابي في معنى الحديث: «حب الإنسان نفسه طبع، وحب غيره اختيار بتوسط الأسباب، وإنما أراد عليه الصلاة والسلام حب الاختيار؛ إذ لا سبيل إلى قلب الطباع وتغييرها عما جُبلت عليه». قال ابن حجر معلقًا على هذا الكلام: «فعلى هذا فجواب عمر أولاً كان بحب الطباع، ثم تأمل فعرف بالاستدلال أن النبي صلى الله عليه وسلم أحب إليه من نفسه؛ لكونه السبب في نجاتها من المهلكات في الدنيا والأخرى، فأخبر بما اقتضاه الاختيار، ولذلك حصل الجواب

إن مقام النبي صلى الله عليه وسلم عظيم وشريف، فهو النبي المجتبى والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويجب على الأمة أن تعرف قدره وفضله وشرف منزلته، وهو لا يرضى بالغلو فيه، ولا نرضى بأي جفاء يلحقه صلى الله عليه وسلم، ودين الله وسط بين الجافي والغالي.

بقوله: الآن يا عمر». [فتح الباري ٥٢٨/١١].

وعليه أقول: يجب تقديم محبة النبي صلى الله عليه وسلم على النفس والمال والأهل والولد وغير ذلك من متاع الدنيا، حتى يشعر العبد بحلاوة الإيمان كما في حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». [البخاري: ١٦].

ومن أحب النبي صلى الله عليه وسلم فإنه يكون معه في الآخرة، ويا لها من منزلة عالية، وقد روى مسلم عن أنس أن رجلاً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: متى الساعة؟ قال: «وما أعددت لها؟ قال: حب الله ورسوله. قال: فإنك مع من أحببت. قال أنس رضي الله عنه: فأنا أحب الله ورسوله وأبا بكر وعمر رضي الله عنهما فأرجو أن أكون معهم، وإن لم أعمل بأعمالهم». [صحيح مسلم: ٢٦٣٩].

قال النووي رحمه الله: «فيه فضل حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والصالحين وأهل الخير الأحياء والأموات، ومن فضل محبة الله ورسوله امتثال أمرهما، واجتناب نهيهما، والتأدب بالآداب الشرعية، ولا يشترط في الانتفاع بمحبة الصالحين أن يعمل عملهم؛ إذ لو عمله لكان منهم ومثلهم». [شرح النووي ١٨٦/١٦].

وقد توعد الله عز وجل من أحب شيئًا أكثر من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فقال: « قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ » [التوبة: ٢٤]. قال القرطبي رحمه الله: «وفي الآية دليل على وجوب حب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولا خلاف في ذلك بين الأمة، وأن ذلك مقدم على كل محبوب». [انظر تفسيره ٢٩٣٤/٤].

قلت: هذه الآية فيها تهديد عظيم لمن خالفها، ومن خالف فعليه أن ينتظر عقاب الله الشديد ونكاله الأليم، ومن مظاهر الجفاء التي نهى عنها الشرع مع النبي صلى الله عليه وسلم: عدم المبالاة بالصلاة والسلام عليه، وقد أمر الله في كتابه بالصلاة والسلام عليه وذلك تعظيمًا لشأنه ورفعة لمكانته وقدره صلى الله عليه وسلم، فقال تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِىِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا » [الأحزاب: ٥٦]. قال ابن كثير: «المقصود من هذه الآية: أن الله أخبر عباده بمنزلة عبده ونبيه عنده في الملأ الأعلى، بأنه يثني عليه عند الملائكة المقربين، وأن الملائكة تصلي عليه، ثم أمر تعالى أهل العالم السفلي بالصلاة والتسليم عليه، ليجتمع الثناء عليه من أهل العالمين: العلوي والسفلي جميعًا». [تفسير ابن كثير: ٦٨٤/٣].

قال أبو العالية: صلاة الله ثناؤه عليه عند الملائكة، وصلاة الملائكة الدعاء، قال ابن عباس: يصلون يُبركُون، قال ابن حجر: أي يدعون له بالبركة. [فتح الباري: ٥٣٢/٨، ٥٣٣].

وقد علم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه كيفية الصلاة عليه، وقد وردت في ذلك أحاديث كثيرة منها حديث عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: «لقيني كعب بن عجرة فقال: ألا أهدي لك هدية؟ إن النبي صلى الله عليه وسلم خرج علينا فقلنا: يا رسول الله، قد علمنا كيف نسلم عليك فكيف نصلي عليك؟ قال: قولوا اللهم صل على محمد وعلى آل محمد كما صليت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللهم بارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل إبراهيم إنك حميد مجيد». [صحيح البخاري: ٦٣٥٧].

وهذه هي أفضل وأشرف كيفيات الصلاة عليه، كما ذكر ابن حجر ذلك في الفتح ١١٦/١١.

ومعنى التسليم عليه- عليه الصلاة والسلام-: السالم من النقائص، المليء بالخيرات والبركات، وتتأكد الصلاة عليه عند ذكر اسمه عليه الصلاة والسلام لحديث الترمذي: (البخيل من ذُكرت عنده فلم يصل عليَّ) [سنن الترمذي ٣٥٤٥ وصححه الألباني]. ولحديث أبي هريرة في الترمذي: «من ذكرت عنده فلم يصل عليَّ فمات فدخل النار فأبعده الله» [صحيح ابن حبان (١٨٨/٣، رقم ٩٠٧)].

وفي الختام أقول:

إن مقام النبي صلى الله عليه وسلم عظيم وشريف، فهو النبي المجتبى والرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم، ويجب على الأمة أن تعرف قدره وفضله وشرف منزلته، وهو لا يرضى بالغلو فيه، ولا نرضى بأي جفاء يلحقه صلى الله عليه وسلم، ودين الله وسط بين الجافي والغالي.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

ورحل إمام جهد

الحمد لله الحي القيوم، والصلاة والسلام على المبعوث بالهدى والنور، وعلى آله وصحبه وسلم.

ففي صباح الجمعة ٩/٣/١٤٣٥هـ اتصل بي أخي الشيخ أبو العطا عبد القادر، وأعلمني بخبر أزعجني وهز مشاعري، ألا وهو وفاة شيخنا الفقيه العالم الرباني/ أحمد فهمي أحمد رحمه الله تعالى، هذا العَلَم الذي تميز بمنهجه المعتدل الذي نشأ وتربى عليه بين إخوانه أهل السنة والجماعة، وقد قضى عمره في الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة مع البصيرة العالية في الدين.

كان رحمه الله يجوب ويتنقل بين فروع أنصار السنة ومساجدها، خطيبًا ومحاضرًا وناصحًا وموجهًا.

وكان- رحمه الله- يعاني الكثير في ذلك، فقد رأيته مرارًا يذهب إلى أماكن بعيدة عن القاهرة، ويتعذر رجوعه في نفس الليلة فيبيت في غرفة في المسجد، ويصلي الفجر مع إخوانه ويلقي كلمة، ثم يرحل في نهار اليوم التالي عائدًا إلى منزله، وكان لا يكل ولا يمل من هذا العمل، ويحرص على الذهاب والسفر إلى مختلف محافظات مصر، حتى مع مرضه رحمه الله تعالى.

وقد أخبرني أخونا الشيخ/ عبد العزيز عاشور أنه كان يحافظ على درس الأربعاء في مسجد التوحيد بالمركز العام أسبوعيًا، وكان إذا اشتد عليه المرض تعاطى جرعة كبيرة من الدواء ليتمكن من إلقاء درسه في شرح صحيح مسلم، مع التوجه إلى الله تعالى بطلب العون والتوفيق.

وكان يركز في دعوته على نقاء العقيدة وصفاء التوحيد، ونشر السنة وقمع البدعة، وقد عمل إلى جوار شيخنا الراحل- محمد علي عبد الرحيم- رحمه الله تعالى، وكان نائبًا له وقام بعمله خير قيام، وترأس فترة من الزمن رئاسة تحرير مجلة التوحيد، ونهض بها خلال هذه الفترة وحقق نجاحًا ملحوظًا، وكان خلال ترأسه للتحرير يكتب افتتاحية العدد في كلمة التحرير، وكانت كتاباته تتسم بالمنهجية في العرض والطرح مع رؤية ثاقبة وتحليل نافع لما يحتاج إليه المجتمع، وكان كثيرًا ما يوجه كلامه إلى الشباب والمسئولين،

ـبذ من أئمة السنة

ويواجه الطرقية ودعاة الحزبية وأهل الغلو والتفريط بما يتناسب مع كل فئة.

والشيخ- رحمه الله- مدرسة تربوية، فقد تعلم منه طلابه الكثير في ذلك، وكانت توجيهاته برفق وحلم ، وأذكر وأنا أدرس على يديه أن حدّثه بعض طلابه ووقع في بعض الخطأ، فصححه الشيخ له بعبارات لطيفة جدًا، فأثنى الشاب عليه وقبل منه، ولا يزال هذا الشاب من خلال هذا الموقف يدعو له، وقد رأيته وهو يدرس في الحرم المكي الشريف أثناء موسم الحج، وفي مخيمات الحجيج في منى وعرفات، وكان الناس يجتمعون عليه ويستفيدون منه، ويفتيهم فيما يسألون عنه، ولمكانته العلمية كان إخوانه من العلماء، وأهل الخير والفضل يعرفون قدره ومنزلته.

وقد شاهدت بنفسي بعضًا من كبار العلماء في الداخل والخارج يُجلّون الشيخ ويحترمونه ويقدّرونه، وكانت له وجاهة خاصة في المجتمع، ويظهر ذلك في تقدير كثير من المسئولين له، ومخاطبته بأحسن ما يكون الخطاب.

ولذلك أقول: إن المصاب فيه عظيم، والخطب جلل، وعزاؤنا أن الله تعالى كتب الموت على مخلوق، وقد مات حبيب رب العالمين صلوات الله وسلامه عليه، إلى جانب وفاته

إعداد/ الرئيس العام

ليلة الجمعة، وإني- والله- لأرجو أن يشمله هذا الحديث، وهو من علامات حُسن الخاتمة، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: «ما من مسلم يموت يوم الجمعة أو ليلة الجمعة، إلا وقاه الله فتنة القبر» [سنن الترمذي ١٠٧٤ وحسنه الألباني].

وقد وفقني الله تعالى فحضرت الصلاة عليه في مسجد أنصار السنة بعابدين، وقد حضر الصلاة عليه جمع غفير من إخوانه ومحبيه وذلك بعد صلاة الجمعة، وإني أوجه نداء إلى كل إخوانه ومحبيه بالدعاء له، وأهله المباركين- إن شاء الله- أولى الناس بذلك امتثالاً لقول نبينا- عليه الصلاة والسلام-: «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [صحيح مسلم ٦٤٥٧].

اللهم اغفر لعبدك أحمد فهمي، وارفع درجته في المهديين، واجعله مع الأنبياء والمكرمين، اللهم اجعل قبره روضة من رياض الجنة، واجمعنا به مع نبينا صلى الله عليه وسلم في أعلى مقام في الجنة، وأجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيرًا منها .

وإنا لله وإنا إليه راجعون.

افتتاحية العدد

تذكير الأخلاء بأهمية الدعاء

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإن شان الدعاء عظيم، وفضله كبير، ولا يستغني عنه العبد بحال، ولذلك أحببت أن أذكر نفسي وإخواني بأهمية الدعاء، خاصة في مثل هذه الأوقات التي تتطلب التوجه بصدق وإخلاص إلى من بيده الملك والملكوت، وهو الغني الحميد.

وحقيقة الدعاء: الرغبة إلى الله عز وجل وسؤاله والطلب، وفيه إظهار التوحيد والثناء على الله تبارك وتعالى. [انظر لسان العرب ج١٤/٢٥٧].

وفي الاصطلاح: «استدعاء العبد من ربه العناية، واستمداده منه المعونة، وحقيقته: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والقوة، وهو سمة العبودية، واستشعار الذلة البشرية، وفيه معنى الثناء على الله عز وجل وإضافة الجود والكرم إليه». [شأن الدعاء للخطابي ص٤].

ويفهم من هذا التعريف أن الدعاء يُظهر حاجة العبد لربه، وفقره لغناه وسلطانه، وقد أخبر سبحانه أن أهل سماواته وأرضه يسألونه كما قال تعالى: « يَسْـَٔلُهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ » [الرحمن: ٢٩]، قال ابن كثير: وهذا إخبار عن غناه عما سواه، وافتقار الخلائق إليه في جميع الآنات، وأنهم يسألونه بلسان حالهم ومقالهم، وأنه كل يوم هو في شأن، قال قتادة: لا يستغني عنه أهل السماوات والأرض، يُحيي حيًا، ويُميت ميتًا، ويُربي صغيرًا، ويفك أسيرًا، وهو منتهى حاجات الصالحين وصريخهم، ومنتهى شكواهم. [تفسير ابن كثير ٤/٣٥٥، ٣٥٦].

ولهذا أمر الله عباده بدعائه في كتابه فقال: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » [غافر: ٦٠]، وقد أفادت الآية أن الدعاء عبادة؛ لأنه أمر بالدعاء، ثم ذكر كلمة العبادة محلها ليدل على أن الدعاء عبادة، وقد دلت السنة على ذلك كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «الدعاء هو العبادة»، وقد رواه أحمد وأبو داود والترمذي وغيرهم، انظر صحيح الجامع (٣٤٠٧).

وهذا يدل على عِظم شأنه وجلالة أمره، وهو نظير قوله صلى الله عليه وسلم: «الحج عرفة».

الترغيب في الدعاء:

وقد تكاثرت النصوص النبوية على الترغيب في الدعاء، ومن ذلك ما رواه الترمذي وابن ماجه وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس شيء أكرم على الله من الدعاء». وسنده حسن، انظر صحيح الأدب المفرد (٥٤٩).

وهو دال على فضل الدعاء وأهميته في حياة المسلم، وما هذه المرتبة السامية، والمنزلة العالية- والله أعلم- إلا لأنه يجتمع فيه من أنواع التعبد ما لا تجتمع في غيره، فهو روح العبادة ولبّها، ويستدعي حضور القلب، وعبادة الله بالتوجه والقصد، والرجاء

والتوكل، والرغبة فيما عنده، والرهبة من عذابه، ويستدعي عبادة اللسان من اللهج بالتمجيد والتحميد، والتقديس والطلب والمسألة، ويستدعي عبادة البدن بالانكسار والاستكانة بين يدي الله تعالى والتذلل له، والتبرؤ من الحول والقوة إلا به مستغيثا به وحده دون سواه. [انظر تصحيح الدعاء للشيخ بكر أبو زيد ص١٧].

خطر ترك الدعاء وإهماله:

ومما يدل على فضل الدعاء ما رواه البخاري في الأدب المفرد والطبراني في الأوسط أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أعجز الناس من عجز عن الدعاء، وأبخل الناس من بخل بالسلام»، وقد ورد هنا الحديث موقوفا ومرفوعًا، وحسَّن الألباني الموقوف والمرفوع كما في الصحيحة (٦٠١).

وهذا يبين خطر ترك الدعاء وإهماله، ومن استكبر عنه، فهو متوعد بعذاب الجحيم، كما في التنزيل: «إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ» [غافر: ٦٠]، وفي حديث الترمذي وغيره عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من لم يسأل الله يغضب عليه». وحسنه الألباني في الصحيحة (٢٦٥٤).

وقال المناوي في شرحه للحديث: «لأنه إما قانط وإما متكبر، وكلا الأمرين موجب للغضب، فهو سبحانه يحب أن يُسأل وأن يلحّ عليه، ومن لم يسأله يبغضه، والمبغوض مغضوب عليه». قال ابن القيم: «هذا يدل على أن رضاه في مسألته وطاعته، وإذا رضي الرب تعالى فكل خير في رضاه، كما أن كل بلاء ومصيبة في غضبه، فهو تعالى يغضب على مَن لم يسأله، كما أن الآدمي يغضب على من يسأله، ورحم الله من قال:

الله يغضب إن تركته سؤاله
وبُنيُّ آدم حين يُسأل يغضب

[انظر: فيض القدير ج١٢/٣].

وقال المباركفوري: «لأن ترك السؤال تكبر واستغناء، وهذا لا يجوز للعبد، وقال الطيبي: وذلك لأن الله يحب أن يسأل من فضله، فمن لم يسأل الله يبغضه». [تحفة الأحوذي ٢١٣/١٢].

وملازمة الدعاء من أهم أسباب رفع البلاء، ورفع الشقاء، كما قال تعالى لخليله إبراهيم عليه السلام: «وَأَدْعُوا۟ رَبِّى عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّى شَقِيًّا» [مريم: ٤٨] أي: خائبًا ضائع السعي، وفيه تعريض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم، مع التواضع له بكلمة «عسى»، وما فيه من هضم النفس ومراعاة حسن الأدب، والتنبيه على الإجابة والإثابة بطريق التفضل منه تعالى. [انظر محسن التأويل ج٤١٤٩/١١].

ما أعظم شأن الدعاء والحاجة إليه!

وكم من بلية ومحنة رفعها الله بالدعاء وذنب ومعصية غفرها الله بالدعاء، وكم من فضل ورحمة ونعمة ظاهرة وباطنة استُجلبت بسبب الدعاء، فما أعظم شأن الدعاء والحاجة إليه، ومما ورد في فضل الدعاء ما رواه الإمام أحمد وابن ماجه وغيرهما عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يرد القدر إلا الدعاء». وحسنه الألباني في الصحيحة (١٥٤).

ومعناه: أن الله يدفع بالدعاء ما قد قضاه على العبد، وذلك أن

كم من بلية ومحنة رفعها الله بالدعاء! وكم من ذنب ومعصية غفرها الله بالدعاء! وكم من فضل ورحمة ونعمة ظاهرة وباطنة استُجلبت بسبب الدعاء! فما أعظم شأن الدعاء والحاجة إليه!!

الدعاء من قدَر الله تعالى، فهو سبحانه قد يقضي أمرًا على عبده، ويقضي بأنه سيدعوه، فيزول هذا الأمر بقدر الله، ولا تعارض بينهما- بحمد الله- وهو يدل على أن الدعاء من أعظم الأسباب التي يستجلب العبد بها فضل ربه ومولاه، ويدفع عن نفسه أي مكروه أذاه، فالدعاء له تأثير في حصول المطلوب، ودفع المرهوب بفضل الله تعالى، ومن ظن أنه مجرد عبادة محضة لا تأثير له فقد ضل عن سواء السبيل.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «.. أُمر الناس بالدعاء والاستعانة بالله وغير ذلك من الأسباب، ومن قال: أنا لا أدعو ولا أسأل اتكالاً على القدر كان مخطئًا أيضًا؛ لأن الله جعل الدعاء والسؤال من الأسباب التي ينال بها مغفرته ورحمته وهداه ونصره ورزقه، وإذا قدر للعبد خيرًا يناله بالدعاء لم يحصل بدون الدعاء، وما قدره الله وعلمه من أحوال العباد وعواقبهم فإنما قدَره الله بأسباب يسوق المقادير إلى المواقيت، فليس في الدنيا والآخرة شيء إلا بسبب، والله خالق الأسباب والمسببات، ولهذا قال بعضهم: الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد، ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع». [مجموع الفتاوى ج٨/٦٩، ٧٠].

وهذا كلام نفيس للغاية، وهو يبين منزلة الدعاء، وأنه من قدر الله، ومن الأسباب المشروعة، وبه ينال العبد الخير المقدر، ولابن القيم رحمه الله عبارات فائقة في هذا المقام يحسن إيرادها هنا ليعم النفع بها بفضل الله:

قال: «أسباب كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان فتوقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها وتتضرع إليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل إليه أن يحول بينك وبينها، وألا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك، وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك، فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد، فمفتاحه الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه، فمتى أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه، وما أتي من أتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه إلا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء، قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن هم الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه». [الفوائد ص٩٧].

ولله دره من كلام جميل يدفع إلى صدق اللجأ والتضرع إلى الله بالدعاء، مع الرغبة والرهبة، ومن كان كذلك استجاب الله دعاه وأعطاه ما يتمناه، كما وقع لنبي الله زكريا عليه السلام الذي بلغ من الكبر عتيًا، وكانت امرأته عاقرًا، ولما توجه إلى الله بالدعاء مع الصدق والرغبة والرهبة، والإقبال على الطاعة ولزوم الاستقامة أجاب الله سؤاله، ورزقه الولد، قال الله تعالى: «وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا

أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده، وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله إلى نفسك، وأن الخذلان هو أن يخلي بينك وبين نفسك.

﴿يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٩- ٩٠]، وهذا من فضل الله وعظمته ورحمته بعباده، حيث هيّأ لهم الأسباب ووفقهم إلى عمل الطاعات، وألهم الله زكريا الدعاء، ثم تفضل بالجواب، والآية أفادت أن الله استجاب دعاءه، وزوجه عاقر وهو كبير السن، بسبب المسارعة في فعل الطاعات والخيرات مع الإلحاح على الله بالدعاء المقارن للخوف والرغبة، وما أعظم من قام ذلك في قلبه. وقد ورد في تفسير هذه الآية أثر عن عبد الله بن حكيم قال: خطبنا أبو بكر رضي الله عنه ثم قال: أما بعدُ، فإني أوصيكم بتقوى الله، وأن تثنوا عليه بما هو له أهل، وتخلطوا الرغبة بالرهبة، وتجمعوا الإلحاف بالمسألة، فإن الله عز وجل أثنى على زكريا وأهل بيته فقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَـٰشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]. (تفسير ابن كثير ج٣/٢٦٧).

ولابن الجوزي رحمه الله كلمات حول هذا المعنى تحث على الطلب والدعاء، مع التوبة والإنابة، والاستمرار على ذلك، فيقول: «إذا وقعت في محنة يصعب الخلاص منها فليس لك إلا الدعاء واللجأ إلى الله بعد أن تقدم التوبة من الذنوب؛ فإن الزلل يوجب العقوبة، فإن أزال الزلل بالتوبة من الذنوب ارتفع السبب، فإذا تُبت ودعوت ولم تر للإجابة أثرًا فتفقد أمرك، فربما كانت التوبة ما صحت، فصححها، ثم ادع ولا تملّ من الدعاء، فربما كانت المصلحة في تأخير الإجابة، فأنت تثاب وتجاب إلى منافعك، ومن منافعك أن لا تُعطى ما طلبت، بل تعوض غيره.

فإذا جاءك الشيطان فقال: إلى متى تدعو ولا تجاب؟ فقل: أنا أتعبد بالدعاء، وأنا موقن أن الجواب حاصل، غير أنه ربما كان تأخيره لبعض المصالح مناسب، ولو لم يحصل التعبد والذل، فإياك أن تسأل شيئًا إلا وتقرنه بسؤال الخيرة، فرب مطلوب من الدنيا كان حصوله سببًا للهلاك، وإذا كنت قد أُمرت بالمشاورة في أمور الدنيا لجليسك ليبين لك في بعض الآراء ما يعجز رأيك، وترى أن ما وقع لك لا يصلح، فكيف لا تسأل الخير ربك وهو أعلم بالصالح؟! والاستخارة من جنس المشاورة». [صيد الخاطر ص٣٨٩، ٣٩٠].

والدعاء كما ينفع الأحياء، فهو كذلك للأموات الذين أفضوا إلى ربهم، بل هم من أحوج الناس إلى الدعاء بعد أن واراهم التراب، وانقطعت بهم الأسباب، وصلاة الجنازة دعاء من الحي للميت، وشفاعة له، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر فيها من الدعاء للأموات، يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد: «وأما بعد الممات- يعني الدعاء- فهو من الصلات التي يصل بها المسلمُ المسلمَ: «رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَـٰنِ» [الحشر: ١٠]، وفي الحديث الصحيح: «أو ولد صالح يدعو له» صحيح مسلم. وهو والصدقة يصلان إلى الميت بالإجماع. [تصحيح الدعاء ٢١].

ومن هنا فإني أذكر نفسي وإخواني بالدعاء للوالدين؛ لأن حقهما عظيم، والبر بهما واجب حتى بعد الممات، والدعاء والاستغفار- مع يسرهما- من أفضل أنواع البر بهما، وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الرجل لترفع درجته في الجنة، فيقول: أنّى لي هذا؟ فيقال: باستغفار ولدك لك». وهو حديث حسن. انظر الصحيحة (١٥٩٨).

والدعاء ينقسم إلى نوعين: دعاء مسألة، ودعاء عبادة، فدعاء المسألة: أن يطلب الداعي حاجته وما ينفعه ويكشف ضره من ربه كأن يقول: أعطني، ارزقني، ودعاء العبادة: أن تعبد الله بما شرع، من صلاة وزكاة، وبر، وصلة، وغير ذلك، والعبادة دعاء؛ لأن المتعبد لله طالب بلسان حاله ومقاله من ربه قبول تلك العبادة والإثابة عليها.

ومن أعظم ما يدخل فيها: ذكر الله وحمده والثناء عليه بما هو أهله، ولهذا لو سألت أي عابد مؤمن: ما قصدك بصلاتك وصيامك وحجك؟ لكان قلب المؤمن ناطقًا قبل أن يجيبك لسانه: قصدي رضا ربي ونيل ثوابه، والسلامة من عقابه.

يقول ابن تيمية: «ولفظ دعاء الله في القرآن يراد به دعاء العبادة، ودعاء المسألة، فدعاء العبادة يكون الله هو المراد به، ودعاء المسألة يكون العبد المراد منه» أي: من الله تعالى. [انظر النبوات ج١/٤٤١].

ويقول الشيخ السعدي: «وكل ما ورد في القرآن من الأمر بالدعاء، والنهي عن دعاء غير الله، والثناء على داعيه يتناول دعاء المسألة ودعاء العبادة، وهذه قاعدة نافعة، فإن أكثر الناس إنما يتبادر لهم من لفظ الدعاء- دعاء المسألة فقط-، ولا يظنون دخول جميع العبادات في الدعاء، وهذا خطأ جرهم إلى ما هو شر منه، فإن الآيات صريحة في شموله لدعاء المسألة ودعاء العبادة». [القواعد الحسان: ١٥٤، ١٥٥].

ونوعا الدعاء متلازمان، ذلك أن الله يُدعَى لجلب النفع ودفع الضر دعاء المسألة، ويُدعى خوفًا ورجاء دعاء العبادة، فكل دعاء عبادة مستلزم لدعاء المسألة، وكل دعاء مسألة متضمن لدعاء العبادة، أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العلى أن يوفقنا لكلا النوعين، وهو المجيب لمن دعاه، وصلى الله وسلم على حبيبه ومصطفاه.

افتتاحية العدد

تذكير الأخلاء بأهمية الدعاء

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مجيب من دعاه، ومعطي من طلب منه ورجاه، والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه، ومن سلك سبيله واقتفى أثره إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي لمحة يسيرة عن فضل الدعاء ومكانته، ورأيت أن الموضوع بحاجة إلى مزيد بسط وبيان في بعض المسائل المتعلقة بالدعاء، فأحببت أن أتعرض لها في هذا اللقاء؛ تتميمًا للفائدة، ورغبة أن أنال دعوة صادقة صالحة.

ومن هذه المسائل ما يلي:

الأولى: حاجة العبد إلى الدعاء:

جميع العباد فقراء إلى الغني الحميد سبحانه، فهو الذي بيده ملكوت كل شيء، وخزائن العالم بأسرها بيديه، والعبد لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا، ولو تُرك لنفسه لحظة لهلك وضاع، ولهذا فالعبد في كل لحظة بحاجة إلى ربه ومولاه، ومن هنا أمر الله عباده بدعائه فقال: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]، وهذا من عظيم كرم الله وإحسانه بعباده؛ حيث أمرهم بالدعاء، ووعدهم بالاستجابة، وهو سبحانه لا يرد مؤمنًا ناجاه وطلب منه ودعاه، كما في الحديث القدسي الذي يرويه أبو ذر- رضي الله عنه- عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه، وفيه أن الله تبارك وتعالى قال: «يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي: كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي: كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي: كلكم عارٍ إلا مَن كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي: إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا؛ فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي: لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر». قال مسلم: قال سعيد (وهو أحد رجال سلسلة إسناد الحديث): كان أبو إدريس الخولاني (التابعي الذي رواه عن أبي ذر) إذا حدّث بهذا الحديث جثا على ركبتيه. [مسلم: ٢٥٧٧].

ويظهر من هذا الحديث ضرورة افتقار العبد إلى ربه ومولاه، وأنه لولا الله لهلك جميع العباد، كما يدل الحديث على أن الله يحب من العباد أن يسألوه مصالح دينهم ودنياهم؛ من الطعام والشراب والكسوة، كما يسألونه المغفرة والرحمة والإعانة على الطاعة، وفيه كمال قدرة الله وغناه وعظمته، وأن خزائنه لا تنفد، ولو أعطى كل السائلين في وقت واحد سبحانه جل في علاه، ما أعظم شأنه، وقد صدق في قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، قال ابن كثير: «يخبر تعالى بغناه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: «يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله»، أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو تعالى الغني عنهم بالذات، ولهذا قال عز وجل: «والله هو الغني الحميد». أي: هو المتفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدّره ويشرعه». [تفسير ابن كثير ٣/٧٤٤].

فيا عباد الله: ارفعوا أكف الضراعة إلى الله، وأنزلوا حاجتكم

وأظهروا فقركم إلى الله جل في علاه، فالدعاء من أعظم مظاهر افتقار العبد إلى الله، وحاجته لربه ومولاه.

المسألة الثانية: أسباب إجابة الدعاء:

سبق القول بأن الله تبارك وتعالى يجيب من دعاه، ويحقق مقصود من طلبه ورجاه، غير أن هناك أسبابًا عظيمة يجب أن يراعيها الداعي كي يقبل الله دعاءه، نذكر منها:

١-إطابة المطعم: كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه يقول عليه الصلاة والسلام: «إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله تعالى أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين، فقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ) [المؤمنون: ٥١]، وقال تعالى: (يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ وَٱشۡكُرُواْ لِلَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ) [البقرة: ١٧٢]، ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء: يا رب يا رب، ومطعمه حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغُذي بالحرام، فانى يُستجاب لذلك». [مسلم: ١٠١٥].

فهذا الحديث العظيم قد اشتمل على سبب عظيم يجب أن يراعى في قبول الدعاء، إلى جانب ذكر موانعه، وأول أمر اشتمل عليه الحديث إطابة المطعم، وهو من الأسباب الرئيسة في قبول الدعاء.

٢- السفر: وكذلك السفر، فهو من موجبات قبول الدعاء، وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث دعوات مستجابات: دعوة المظلوم، ودعوة المسافر، ودعوة الوالد على ولده». [حسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ج٣/١٥٦].

وإذا طال السفر كان أقرب إلى إجابة الدعاء؛ لأنه مظنة انكسار النفس بسبب طول الغربة عن الأوطان، وتحمل المشاق.

٣- التذلل والتواضع بين يدي العزيز الغفار: وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم كذلك، وقد أجاب ابن عباس رضي الله عنهما من سأله عن استسقاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج متبذلاً متواضعًا متضرعًا، حتى أتى المصلى، فلم يخطب خطبتكم هذه، ولكن لم يزل في الدعاء والتضرع والتكبير، وصلى ركعتين كما كان يصلي في العيد». [حسنه الألباني، صحيح سنن الترمذي ١/١٧٣].

٤- رفع الأيدي إلى السماء: وقد جاء في الحديث: (يمد يديه..)، وفي حديث سلمان الفارسي عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله حيي كريم، يستحي إذا رفع الرجل إليه يديه أن يردهما صفرًا خائبتين». [صححه الألباني، المرجع السابق ٣/١٧٩].

قبول الدعاء متوقف على تحقيق شروطه وانتفاء موانعه:

ويجب أن يعلم الداعي أن قبول الدعاء متوقف على تحقيق شروطه وانتفاء موانعه، وبعض الناس يقول: دعوت كثيرًا دون إجابة؟

والجواب عن ذلك: أن الدعاء سببٌ مقتض لنَيل المطلوب، ونيل المطلوب له شروط وموانع، فإذا حصلت شرُوطه وانتفت موانعه تحقق المطلوب وإلا فلا، كما هو الشأن في جميع الأعمال الصالحة، لا تُقبل إلا إذا استوفى المسلم شروطها، وابتعد عن موانع قبولها، والدعاء كذلك. وللإمام ابن القيم رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا

الدعاء من أعظم مظاهر افتقار العبد إلى الله وحاجته لربه ومولاه؛ فارفعوا أكُفّ الضراعة إليه، وأظهروا فقركم إليه.

المعنى ذاكراً لبعض موانع إجابة الدعاء:

«إن الدعاء من أقوى الأسباب في دفع المكروه وحصول المطلوب، ولكن قد يتخلف عنه أثره، إما لضعف في نفسه؛ بأن يكون دعاءً لا يحبه الله لما فيه من العدوان، وإما لضعف القلب وعدم إقباله على الله وجمعيته عليه، وقت الدعاء، فيكون بمنزلة القوس الرخو جدًا، فإن السهم يخرج منه خروجًا ضعيفًا، وإما لحصول المانع من الإجابة من أكل الحرام والظلم ورَيْن الذنوب على القلوب، واستيلاء الغفلة والشهوات واللهو وغلبتها عليها، كما في مستدرك الحاكم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة، واعلموا أن الله لا يقبل دعاءً من قلب غافل لاهٍ». فهذا دواء نافع مزيل للداء، ولكن غفلة القلب عن الله تبطل قوته، وكذلك أكل الحرام يُبطل قوته ويُضعفها». [الجواب الكافي: ٩].

ومن الموانع أيضًا:

- **الاستعجال:** وقد دل عليه ما جاء في مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا يزال يستجاب للعبد ما لم يدعُ بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل». قيل: يا رسول الله، ما الاستعجال؟ قال: يقول: دعوت، وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء». [مسلم: ٢٧٣٥].

فاستعجال الإجابة آفة من الآفات التي تمنع ترتب أثر الدعاء عليه، وينتهي حال الداعي عندئذ إلى ترك الدعاء، وهذا معنى قوله في الحديث: «يستحسر».

- **الدعاء بإثم أو نحو ذلك:** ومن الآفات المانعة من قبول الدعاء دعاء الداعي بإثم أو معصية أو سوءٍ يلحقه أو يلحق غيره، وهذا من حكمة الله تعالى ولطفه بعباده، ولو أنه أجاب العبد في كل ما يريد لترتب على ذلك مفاسد عديدة تلحق بالداعي وغيره، وصدق الله في قوله: ﴿وَلَوْ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ ٱلشَّرَّ ٱسْتِعْجَالَهُم بِٱلْخَيْرِ لَقُضِىَ إِلَيْهِمْ أَجَلُهُمْ﴾ [يونس: ١١]، قال ابن كثير رحمه الله: «يخبر تعالى عن حلمه ولطفه بعباده، أنه لا يستجيب لهم إذا دعوا على أنفسهم وأموالهم وأولادهم في حال ضجرهم وغضبهم، وأنه يعلم فيهم عدم القصد بالشر إلى إرادة ذلك، فلهذا لا يستجيب لهم- والحالة هذه- لطفًا ورحمة، كما يستجيب لهم إذا دعوا لأنفسهم أو لأموالهم، أو لأولادهم بالخير والبركة والنماء». [تفسير ابن كثير ٢/٥٤].

وإذا تحققت الشروط وانتفت الموانع؛ وقع فضل الله على عبده بقبول الدعاء عاجلاً أو آجلاً، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها». قالوا: يا رسول الله، إذًا نُكثر؟ قال: الله أكثر. [مسند أحمد ٣/١٨].

وللحافظ ابن حجر رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا المعنى يقول فيها: «إن الإجابة تتنوع، فتارة يقع المطلوب بعينه على الفور، وتارة يقع ولكن بغير المطلوب؛ حيث لا يكون في المطلوب

إن قبول الدعاء متوقف على تحقق شروط وانتفاء موانع كسائر الأعمال، فإذا تحققت الشروط وانتفت الموانع وقع فضل الله على عبده.

مصلحة ناجزة، وفي الواقع مصلحة ناجزة أو أصلح منها». [فتح الباري ١١/٣٤٥].

وتتلخص شروط الاستجابة وموانعها في قول الله تعالى: (فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي)؛ فمن استجاب لله تعالى في أمره ونهيه، وصدق بوعده وآمن به فقد تحققت له شروط استجابة الدعاء وانتفت عنه موانع الإجابة، فلن يخلف الله تعالى وعده.

المسألة الثالثة: وجوب اتباع السنة في الدعاء:

من المعلوم- وهذا نؤكد عليه كثيرًا- أن الدعاء حق خالص لله، لا يجوز صرفه إلى غيره، ولا يجيب ويسمع الدعاء إلا الله، ومن قال: لا إله إلا الله، ثم دعا غير الله، فقد هدم إيمانه، وقضى على ما قاله ونفاه.

وكذلك يجب اتباع الهدي النبوي في الدعاء، فالدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «لا ريب أن الأذكار والدعوات من أفضل العبادات، والعبادات مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع، فالأدعية والأذكار النبوية هي أفضل ما يتحراه المتحري من الذكر والدعاء، وسالكها على سبيل أمان وسلامة...، وليس لأحد أن يَسُنَّ للناس نوعًا من الأذكار والأدعية غير المسنون، ويجعلها عبادة راتبة يواظب الناس عليها، كما يواظبون على الصلوات الخمس، بل هذا ابتداع دينٍ لم يأذن الله به، بخلاف ما يدعو به المرء أحيانًا من غير أن يجعله للناس سنة، وأما اتخاذ ورد غير شرعي واستنان ذكر غير شرعي، فهذا مما يُنْهَى عنه، ومع هذا ففي الأدعية الشرعية والأذكار الشرعية غاية المطالب الصحيحة، ونهاية المقاصد العلية، ولا يُعدل عنها إلى غيرها من الأذكار المحدثة المبتدعة إلا جاهل، أو مفرّط أو معتدٍ». [مجموع الفتاوى ٢٢/٥١٠، ٥١١].

ويستثنى من ذلك دعاء المرء لنفسه، فلا بأس أن يدعو المرء لنفسه بغير المأثور، بشرط ألا يجعل ذلك دينًا لغيره، فقد ورد من الأدلة العامة والخاصة من الكتاب والسنة ما يدل على جواز الدعاء بغير المأثور، وأنه موافق لأصول الشرع وقواعده ونصوصه وعموماته؛ طالما التزم الداعي فيه بآداب الدعاء الشرعية، وإن كان الالتزام بالمأثور أولى وأفضل، فهذا بخلاف الأذكار الشرعية التي هي دين وسنة نبوية.

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بتعليم أصحابه الذكر والدعاء، كما في حديث مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلمهم هذا الدعاء كما يعلمهم السورة من القرآن يقول: اللهم إنا نعوذ بك من عذاب جهنم، وأعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات». [مسلم: ٥٩٠].

وكان يصوب من يخطئ منهم ولو في لفظ واحد من ألفاظ الذكر والدعاء، كما في حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا أتيت مضجعك فتوضأ وضوءك للصلاة، ثم اضطجع على شقك الأيمن، وقل: اللهم أسلمت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجا منك إلا إليك، آمنت بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت، فإن مِت مُتَّ على الفطرة، واجعلهم آخر ما تقول، فقلت أستذكرهن: وبرسولك الذي أرسلت، قال: لا ونبيك الذي أرسلت». [البخاري: ٢٤٧، ومسلم: ٢٧١٠].

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وأولى ما قيل في رده صلى الله عليه وسلم على من قال الرسول بدل النبي أن ألفاظ الأذكار توقيفية». [فتح الباري ١١/١١٢].

وقد أحدث الناس في الدعاء بدعًا كثيرًا وأورادًا غير مشروعة، والخير كل الخير في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، وليحذر الداعي من استعمال آلات الطرب والغناء في الدعاء، فهو بدعة منكرة، يقول فيه الشيخ بكر أبو زيد- رحمه الله-: «وقد أجمع المسلمون على أن هذا من أسوأ أنواع الاعتداء في الذكر والدعاء، وأنه بدعة ضلالة، وعمل محرم قبيح لا يبيح التعبد به مسلم، وأنه من الفتون واتباع الهوى، وإفساد الدين، والصد عن الذكر والدعاء المشروع، ومشاقة لله فيما شرع لعباده، ومعصية لرسوله صلى الله عليه وسلم فيما بلّغ من وحيه، وخروج على شرعه المطهر». [تصحيح الدعاء: ص٧٦].

والقرآن الكريم مليء بجوامع الدعاء، وفي السنة النبوية ما يكفي ويشفي، فعلى العبد لزوم ما جاء في الكتاب والسنة، ولينتهِ عن الأذكار المحدثة المبتدعة، حتى لا يكون من المعتدين في الدعاء، والله تعالى يقول: (ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ) [الأعراف: ٥٥]، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وينبغي للخلق أن يدعو بالأدعية الشرعية التي جاء بها الكتاب والسنة، فإن ذلك لا ريب في فضله وحُسنه، وأنه الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين وحسن أولئك رفيقًا». [مجموع الفتاوى ١/٣٤٦].

أسأل الله تعالى أن يلهمنا الدعاء، وأن يوفقنا إليه، وأن يحقق الجواب، إن ربي على كل شيء قدير.

باب العقيدة

مقدمة لباب العقيدة

إعداد/ الرئيس العام

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وصحبه ومن والاه وبعد:

فلقد جرت عادة المصنفين من المتأخرين أن يدونوا مقدمة عن العلم وفضله وثمراته وما يتعلق به في صدر مصنفاتهم وذلك لفوائد منها:

أولا: أن يحصل طالب العلم تصوراً إجمالياً للموضوع قبل أن يدخل في تفاصيله فيعرف الوحدة الجامعة لمسائل هذا العلم فيأمن عندئذ من دخوله في مسائل ليست من مسائل العلم الذي قصد إليه .

ثانيا: أن يتحقق من فائدة العلم ونفعه لينشط في طلبه وتحصيله وليستعذب المشاق في سبيله.

هذا وقد استقر عمل المصنفين على ذكر مبادئ عشرة لكل علم تمثل مدخلا تعريفيا لطالب هذا العلم وقد جمعها بعضهم - كما فعل أبو العِرفان محمد بن علي الصبّان (ت:١٢٠٦هـ) - في قوله:

إن مبادِي كل فنٍّ عشرةْ
الحدُّ والموضوعُ ثم الثمرةْ
ونسبةٌ وفضلُهُ والواضعْ
والاسمُ لاستمدادُ حكمُ الشارعْ
مسائلٌ والبعضُ بالبعضِ اكتفى
ومَن درى الجميعَ حازَ الشرفا

وسيأتي بيانها في مقالات تالية لكننا سنقدم الفضل والثمرة على باقي المبادئ لما فيهما من شحذ للهمم ونفع أعم لجميع قراء مجلتنا الغراء .

أولا: فضل «علم التوحيد»:

(أ) فضله من جهة موضوعه:

يقصد بفضل علم التوحيد مزيته وقدره الزائد على غيره من العلوم، وما ثبت في منزلته من فضيلة، وإذا كانت العلوم الشرعية كلها فاضلة لتعلقها بالوحي المطهر؛ فإن علم التوحيد في الذروة من هذا الفضل العميم؛ حيث حاز الشرف الكامل دون غيره من العلوم.

فمن المعلوم أن المتعلَّق يشرف بشرف المتعلِّق؛ فالتوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال، ونعوت الكبرياء والعزة؛ لذا كان علم التوحيد أشرف العلوم موضوعًا ومعلومًا، وكيف لا يكون كذلك وموضوعه رب العالمين وصفوة خلق الله أجمعين - أي: الأنبياء والمرسلين - ومن موضوعات علم التوحيد مآل العباد إما إلى جحيم أو إلى نعيم، وهذا ما نعني به السمعيات؛ ولأجل هذا سماه بعض السلف بـ «الفقه الأكبر».

وتحقيق التوحيد هو أشرف الأعمال مطلقًا؛ ففي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفضل الأعمال عند الله إيمانٌ لا شك فيه» وسئل النبي صلى الله عليه وسلم: «أي العمل أفضل؟ قال: إيمان بالله ورسوله»، وهو موضوع رسل الله أجمعين.

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى -: وجميع الرسل إنما دعوا إلى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة: ٥]، فإنهم كلهم دعوا إلى توحيد الله وإخلاص عبادته من أولهم إلى آخرهم؛ فقال نوح (عليه السلام) لقومه: (لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ) [الأعراف: ٥٩]، وكذلك قال هود وصالح وشعيب وإبراهيم. فقال الله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦].

فأهم ما على العبد معرفته إذن هو التوحيد، وذلك قبل معرفة العبادات كلها حتى الصلاة؛ لأن التوحيد هو الأساس الذي تقوم عليه سائر أنواع وألوان العبادات، ولا يمكن أن يقوم الشيء إلا على أساسه؛ وبالتالي لابد من معرفة التوحيد أولا.

(ب) فضله من جهة معلومه:

إن معلوم علم التوحيد هو مراد الله الشرعي الدال عليه وحيه وكلامه الجامع للعقائد الحقة، كالأحكام الاعتقادية المتعلقة بالإيمان بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر والبعث بعد الموت.

ومعلوم علم التوحيد: هو الأحكام الاعتقادية المكتسبة من الأدلة المرضية من كتاب ناطق وسنة ماضية، وقطب رحى القرآن العظيم من فاتحته إلى خاتمته في تقرير معلوم التوحيد.

(ج) فضله من جهة الحاجة إليه:

أما فضل علم التوحيد باعتبار الحاجة إليه؛ فيظهر ذلك بالنظر إلى جملة أمور:

منها: أن الله تعالى طلبه، وأمر به كل مكلف، وأثنى على أهله، ومدح من توسل به إليه، ووعدهم أجرا عظيمًا، قال تعالى: (فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ) [محمد: ١٩]، وقال عز من قائل: (وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ) [البينة: ٥].

ومنها: أن عقيدة التوحيد هي الحق الذي أرسلت من أجله جميع الرسل، قال تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ) [النحل: ٣٦]. وقال سبحانه: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ

أخي الحبيب
قارئ مجلة التوحيد:

إيمانًا منا بأهمية العقيدة في حياة المسلمين، ورغبة في نشر العلم النافع، وحرصًا على سلامة المعتقد، نفسح المجال لباب جديد من أبواب المجلة عبر صفحات مجلات التوحيد ألا وهو باب العقيدة.

وإنني أشرف أن أسطر تلك المقدمة لباب العقيدة، وهو باب يكتبه مشكورًا فضيلة الرئيس العام، وصاحب فكرة كتابة مقدمة لهذا الباب هو الدكتور مرزوق عضو اللجنة العلمية بالمجلة.

وإنني أنتهز هذه الفرصة لأخبر القراء الأعزاء أني أحبكم في الله، داعيًا المولى سبحانه أن يجمعنا بين قلوبنا ويؤلف ذات بيننا على التوحيد الخالص.

وقد أشار شيخنا الدكتور عبد الله شاكر في الحلقة الأولى من باب العقيدة إلى فضل علم التوحيد، منوهًا بعظم قدره وعلوه على غيره من العلوم، ذاكرًا فضيلته ما ثبت في منزلته من فضل؛ إذ إن التوحيد يتعلق بأشرف ذات، وأكمل موصوف، بالله الحي القيوم، المتفرد بصفات الجلال والجمال والكمال والعظمة.

ثم عرَّج فضيلته على ثمرة هذا العلم، مبينًا أن التوحيد سبب في طيب العيش للإنسان، وانتظام أمر الحياة، بل إن قيام المدنية وازدهار الحضارة هو إحدى ثمرات التوحيد المباركة.

وأشار فضيلة الدكتور إلى أن ثمرة علم التوحيد تظهر من خلال معرفة الله مَعْرِفة يقينية، وأن انشراح الصدر، وطمأنينة القلب هي ثمرة حصول المعرفة الصحيحة بالله تعالى.

وإذا كنا عبر هذا الباب الجديد نحاول أن نضيف إليك أيها القارئ باستمرار أبوابًا جديدة ومتجددة حتى تكون مأدبة شهية، فمجلة التوحيد تهدف إلى نفع وإفادة كل نفس مؤمنة.

ندعو الله أن يحيينا على التوحيد، وأن يميتنا عليه. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

رئيس التحرير

﴿إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، وهي حق الله على عباده، كما في حديث معاذ (رضوان الله عليه): أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئًا» وهي ملة أبينا إبراهيم (عليه السلام) التي أمرنا الله باتباعها، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣]، وهي أيضا دعوته (عليه السلام)، قال تعالى على لسانه: ﴿وَإِذۡ قَالَ إِبۡرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجۡعَلۡ هَٰذَا ٱلۡبَلَدَ ءَامِنٗا وَٱجۡنُبۡنِي وَبَنِيَّ أَن نَّعۡبُدَ ٱلۡأَصۡنَامَ﴾ [إبراهيم: ٣٥].

ومن فضل علم التوحيد أيضًا أن الله تعالى جعل الإيمان شرطا لقبول العمل الصالح، وانتفاع العبد به في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿فَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَا كُفۡرَانَ لِسَعۡيِهِۦ وَإِنَّا لَهُۥ كَٰتِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٤]، وأي حاجة أكثر من حاجة العبد إلى العمل الصالح، وأن يؤمن برب العالمين وأن يلقى الله عز وجل على ذلك؟! وقال سبحانه: ﴿وَمَنۡ أَرَادَ ٱلۡأٓخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعۡيَهَا وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ كَانَ سَعۡيُهُم مَّشۡكُورٗا﴾ [الإسراء: ١٩].

فإذا جاء العبد بغير الإيمان، فقد خسر جميع عمله الصالح، قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ أُوحِيَ إِلَيۡكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكَ لَئِنۡ أَشۡرَكۡتَ لَيَحۡبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾ [الزمرة: ٦٥].

ومما يبين فضل التوحيد من جهة الحاجة إليه أن سعادة البشرية في الدنيا والآخرة متوقفة على علم التوحيد، فحاجة العبد إليه فوق كل حاجة، وضرورته إليه فوق كل ضرورة؛ فلا راحة ولا طمأنينة ولا سعادة إلا بأن يعرف العبد ربه بأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة صحيحة صادقة ناصحة، وهي جهة الوحي الرباني. يعني: ما ورد في كتاب اله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ثانيا: ثمرة «علم التوحيد»:

ثمرة علم التوحيد بالنسبة للمكلف:

بالنسبة لثمرة التوحيد للمكلف في الحياة الدنيا أن التوحيد سبب في طيب العيش للإنسان، وانتظام أمر الحياة؛ بل إن قيام المدنية وازدهار الحضارة هي من ثمرات التوحيد المباركة؛ قال رب العالمين: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦]، وقال تعالى: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، وقال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

إن الإيمان يثمر طمأنينة القلب وراحته وقناعته بما رزقه الله به، ويجعل العبد لا يتعلق بغير ربه ومولاه؛ وهذه هي الحياة الطيبة، فإن أصل الحياة الطيبة راحة القلب وطمأنينته، وعدم تشوشه مما يتشوش منه الفاقد للإيمان الصحيح، وفي (الصحيح): أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «عجبًا لأمر المؤمن؛ إن أمره كله خير؛ إن أصابته سرّاء شكر فكان خير له؛ وإن أصابته ضراء صبَر فكان خير له. وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن».

ولذلك قال بعض السلف: إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى - في قوله تعالى:

﴿يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗا فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ﴾ [الحديد: ١٣]، قال: «ما يصنع أعدائي به؟! أنا جنتي وبُستاني بصدري، أني رحت فهي معي لا تفارقني؛ إن حبسي خلوةٌ، وقتلي شهادة، وإخراجي في من بلدي سياحة».

ومظاهر الحياة الطيب التي خص الله بها عباده المؤمنين في الدنيا كثيرة:

فمنها: ولاية الله عز وجل.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوۡلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخۡرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٥٧].

ومنها: محبة الله عز وجل للمؤمنين، ومحبة الخلق لهم:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ﴾ [المائدة: ٥٤].

ومنها: مدافعة الله عن المؤمنين، وإنجاؤه لهم:

إن الله عز وجل تكفل بنصر أوليائه المؤمنين على أعدائهم، قال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدَٰفِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٖ كَفُورٍ﴾ [الحديد: ٣٨]، ولم يذكر ما يدفعه عنهم حتى يكون أفخم وأعظم وأعم وأتم، وقال سبحانه: ﴿فَٱسۡتَجَبۡنَا لَهُۥ وَنَجَّيۡنَٰهُ مِنَ ٱلۡغَمِّۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٨].

ومنها: حصول نور البصيرة التي تفرق بين الحق والباطل:

قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [الأنفال: ٢٩]، وهذا الفرقان فسره أهل العلم بالنور الذي يقذفه الله في قلب المؤمن، فيفرق

به بين الحق والباطل، والسنة والبدعة، قال تعالى: (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ) [الشورى: ٥٢].

ثمرات التوحيد العلمية:

وتظهر ثمرة علم التوحيد العلمية من خلال الأمور التالية:

أولًا: معرفة الله معرفة يقينية:

إن سلوك منهج أهل السنة في تعلم علم التوحيد يوصل العبد -ولابد- إلى غاية المطالب، وأشرف المقاصد، وأول الواجبات وهو: معرفة الله تعالى بالتوحيد، وإفراده تعالى بالعبادة، والبراءة من الشرك، وكلما ازداد العبد علمًا بالتوحيد؛ ازداد رقيًا في مدارج الإيمان ومعارج اليقين، وارتقى من الإيمان المجمل إلى الإيمان المفصّل، ومن حال التقليد إلى حال اليقين والإذعان، والتصديق عن حجة وبرهان؛ بحيث يكون اعتقاده في ربه اعتقادًا صحيحًا موافقًا للواقع عن دليل صحيح، وهذا أفضل ما اشتغل بعلمه الإنسان.

والعلم بالله تعالى وأسمائه وصفاته سبيل لرفع الدرجات وحصول البركات، قال تعالى: (يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ) [المجادلة: ١١]، وهذا العلم الصحيح هو الذي يحل عقدة الأسئلة الكبرى التي ضلت البشرية في الاهتداء إلى جوابها؛ فتاهت في ضروب الإلحاد وعبادة الشجر والحجر والتثليث، وعبادة الهوى من دون الله تعالى؛ ففي القلب خلة لا يسدّها إلا الاعتقاد الحق، وحاجة لا تنقضي إلا بمعرفة الرب.

ثانيًا: انشراح الصدر، وطمانينة القلب:

وهذا الأمر ثمرة حصول المعرفة الصحيحة بالله تعالى، والإجابة على أسئلة الفطرة حول الكون والحياة؛ فنفس لا إيمان فيها مضطربة قلقة تائهة خائفة؛ فأما اضطرابها، فلأنها كالسفينة تتقاذفها الأمواج العاتية، تتلقى عن كثيرين غير الله تعالى مناهجها وعقائدها؛ فتضطرب مرجعيتها ويختلف سبيلها وتتناقض مسيرتها، وأما النفس المؤمنة الموحِّدة فقد اتّحد مصدر ورودها وصدورها في كل أمر، فهي تتلقى من الله وعن الله، وهي تسير إلى الله تعالى، قال تعالى: (ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا رَّجُلًا فِيهِ شُرَكَآءُ مُتَشَٰكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا ۚ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ) [الزمر: ٢٩].

ثالثًا: حصول برد اليقين، واستقرار الفكر:

قال شيخ الإسلام: «والمقصود أن ما عند عوام المؤمنين وعلمائهم - أهل السنة والجماعة- من المعرفة واليقين والطمانينة والجزم الحق والقول الثابت والقطع بما هم عليه، أمر لا ينازع فيه إلا من سلبه الله العقل والدين».

ثمرات التوحيد العملية:

المراد بثمرات التوحيد العملية: القوة التي تحمل الإنسان على السير إلى الله تعالى، والاجتهاد في عبادته، والتقرب إليه بما يرضيه، واجتناب ما يسخطه.

وتظهر ثمرة علم التوحيد العملية من خلال الأمور التالية:

أولًا: تحقيق الإخلاص، وأعمال القلوب على الوجه الصحيح:

إن الإخلاص هو حقيقة الدين، ومفتاح دعوة رسل الله أجمعين، وهو روح التوحيد، ولب الرسالة.

والإخلاص يتوقف -في حصوله وكماله- على معرفة العبد لربه، وتعظيمه، وتاليهه، ومعرفة أسمائه تعالى، وصفاته، وإحصائها، والتعبد لله بمقتضاها؛ فمن كان بالله أعرف كان له أخلص، وفيما عند الله تعالى أرغب، ومن عقوبته أرهب.

ثانيًا: اشتغال الجوارح بالطاعات:

إذا عمر الإخلاص قلب العبد، وتحققت أعمال القلوب من محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم والتوكل على الله والصبر له، والخوف منه، والرجاء فيما عنده؛ انطلقت الجوارح -ولابد- في طاعة الله تعالى ولا يتخلف ذلك أبدًا، وفي الصحيح: «ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب»، فصلاح الظاهر تابع لصلاح الباطن في الأصل، والارتباط بينهما حاصل.

ثالثًا: الاجتماع، والوحدة، والائتلاف:

وهذا هو ما دعا رب العالمين عباده إليه؛ قال تعالى: (وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟) [آل عمران: ١٠٣]، وقال سبحانه: (وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ) [آل عمران: ١٠٥]، وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك الطاعة وفارق الجماعة، ثم مات؛ فقد مات ميتة جاهلية»، وقال صلى الله عليه وسلم: «الجماعة رحمة والفرقة عذاب».

وقد اقتفى السلف الصالح نصوص الكتاب والسنة؛ فكانوا مجتمعين على اعتقاد واحد وهو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وكان الواحد منهم ينقله إلى ما يأتي بعده، ولم يختلفوا في مسألة من مسائل الاعتقاد أبدًا.

هذا والله تعالى أسأل أن يرزقنا وإياكم الإخلاص والتوفيق إنه خير مسئول وأكرم مأمول والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

الخَضِرُ بين الوَهْم والحقيقة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، والصلاة والسلام على المبعوث لكافة الورى بالنور والهدى، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم واقتفى، وبعدُ:

فقد أحاط بعض الناس قصة الخضر الواردة في القرآن والسنة بكثير من الأوهام والخرافات، وترتب على ذلك بعض الاعتقادات الباطلة، فأردت أن أبيّن حقيقة أمره من خلال النصوص القرآنية والنبوية، فأقول وبالله التوفيق:

ورد الحديث عن الخضر في قول الله تعالى: « وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِيَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرًا وَلَآ أَعْصِى لَكَ أَمْرًا» [الكهف: ٦٠- ٦٩]، وتستمر آيات القرآن الكريم لتبين ما دار بينهما.

كما روت كتب السنة قصة الخضر مع موسى عليه السلام، وأذكر هنا شيئًا يسيرًا مما ورد في ذلك. أخرج البخاري بسنده عن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس: إن نوفًا البكالي يزعم أن موسى بني إسرائيل ليس بموسى الخضر، فقال: كذب عدو الله، حدثنا أبي بن كعب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: قام موسى خطيبًا في بني إسرائيل، فقيل له: أي الناس أعلم؟ قال: أنا، فعتب الله عليه إذ لم يرد العلم إليه، وأوحى إليه: بلى! عبدٌ من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك، قال: أي رب كيف السبيل إليه؟ قال: تأخذ حوتًا في مكتل، فحيثما فقدت الحوت فاتبعه، قال: فخرج موسى ومعه فتاه يوشع بن نون ومعهما الحوت، حتى انتهيا إلى الصخرة فنزلا عندها، قال فوضع موسى رأسه فنام، قال سفيان: وفي حديث غير عمرو قال: وفي أصل الصخرة عين يقال لها الحياة لا يصيب من مائها شيء إلا حيي، فأصاب الحوت من ماء تلك العين، قال: فتحرك وانسل من المكتل فدخل البحر، فلما استيقظ موسى قال لفتاه: آتنا غداءنا. الآية.

قال: ولم يجد النصب حتى إذا ما جاوزوا ما أمر به. قال له فتاه يوشع بن نون: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت... الآية، قال: فرجعا يقصان في آثارهما، فوجدا في البحر كالطاق ممر الحوت، فكان لفتاه عجبًا، وللحوت سربًا، قال: فلما انتهيا إلى الصخرة إذ هما برجل مسجى بثوب، فسلم عليه السلام، قال: وأنى بأرضك السلام؟ فقال: أنا موسى. قال موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلمني مما علمت رشدًا؟ قال له الخضر: يا موسى، إنك على علم من علم الله علمكه الله إياه لا أعلمه، وأنا على علم من علم علمنيه الله لا تعلمه. قال: بل أتبعك. قال: فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكرًا. [البخاري: ٤٧٢٧].

إيضاح بعض الأمور المتعلقة بالخضر عليه السلام:

وبعد سياق بعض ما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية أوضح الأمور التالية المتعلقة بالخضر:

أولاً: اسمه:

ذكر ابن قتيبة في كتابه المعارف أن اسم الخضر «بليان بن ملكان»، وقد نقل ابن كثير في تفسيره هذا عنه، كما ذكر بعض المؤرخين أسماء أخرى كثيرة له، ولم يرد في ذلك دليل صالح، وعليه أقول: إن العبرة في ذلك ليست بالأسماء، ولو كان في ذكرها فائدة لذكره القرآن، وقد وصفه الله تعالى بأنه عبدٌ من عباده سبحانه وتعالى، وفي حديث أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إنما سمي الخضر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تهتز من خلفه خضراء». [البخاري: ٣٤٠٢].

والمراد بالفروة هنا: الحشيش اليابس، وهو الهشيم من النبات. [تفسير ابن كثير ٣/ ١٤٠].

ثانيًا: هل الخضر نبي أم ولي؟

اختلف العلماء في ذلك إلى قولين: الأول: أنه نبي، واستدلوا على نبوته بأدلة منها: قول موسى عليه السلام له: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا» [الكهف:٦٦]، وهذا الخطاب من موسى للخضر يدل على أنه نبي، لأنه لو لم يكن نبيًا ما خاطبه موسى بذلك، إلى جانب أن موسى عليه السلام سأل صحبته حتى ينال ما عنده من العلم الذي اختصه الله به، ولو لم يكن نبيًا ما حرص موسى عليه السلام على ذلك، وهو كليم الله ويوحى إليه، بل إن موسى عليه السلام سار إليه وتواضع له في رحلة طويلة.

ومن الأدلة على نبوته: أن الخضر أقدم على قتل الغلام، ولا يمكن أن يقع ذلك منه إلا بوحي من الله تبارك وتعالى، وهذا دليل مستقل على نبوته، وبرهان ظاهر على عصمته؛ لأنه لا يجوز لكبار الأولياء الإقدام على قتل النفس بغير حق، وقد ذكر الخضر لموسى عليه السلام الدافع الذي دفعه لهذا الفعل، وهو أن الغلام إذا صار كبيرًا سيحمل أبويه على الكفر، ولا يمكن لأحد أن يعلم ذلك إلا عن طريق الوحي الإلهي، فدل ذلك على نبوته، وأنه مؤيَّد من الله بعصمته.

كما أن الخضر فسَّر تأويل ما فعله لموسى عليه السلام بقوله: «وما فعلته عن أمري» يعني ما فعلته من تلقاء نفسي، بل أمرت به وأُوحي إليَّ فيه.

قال ابن حجر رحمه الله: باب ما ورد في ذكر كونه نبيًا، قال الله تعالى في خبره عن موسى: «وما فعلته عن أمري»، وهذا ظاهر أنه فعله بأمر من الله، والأصل عدم الواسطة، ويحتمل أن يكون بواسطة نبي آخر لم يذكره وهو بعيد، ولا سبيل إلى القول بأنه إلهام؛ لأن ذلك لا يكون من غير النبي وحيًا حتى يعمل به ما عمل؛ من قتل النفس، وتعريض الأنفس للغرق.

فإن قلنا: إنه نبي؛ فلا إنكار في ذلك، وأيضًا كيف يكون غير النبي أعلم من النبي، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح أن الله تعالى قال لموسى: «بلى عبدنا خضر»، وأيضًا فكيف يكون النبي تابعًا لغير نبي.

استحباب الحرص على الازدياد من العلم والرحلة فيه، ولقاء المشايخ وتجشم المشاق في ذلك، والاستعانة في ذلك بالاتباع.

وقال الثعلبي: هو نبي في جميع الأقوال، وإنما قلت ذلك- أي ابن حجر- لأن غالب أخباره مع موسى هي الدالة على تصحيح قول من قال: إنه كان نبيًا، ثم اختلف من قال: إنه كان نبيًا، هل كان مرسلاً، فجاء عن ابن عباس ووهب بن منبه أنه كان نبيًا غير مرسل، وجاء عن إسماعيل بن أبي زياد ومحمد بن إسحاق وبعض أهل الكتاب أنه أرسل إلى قومه فاستجابوا له، ونصر هذا القول أبو الحسن الرماني، ثم ابن الجوزي. [الزاهر النضر في نبأ الخضر ص١٩٧، ١٩٨ ضمن مجموعة الرسائل المنبرية].

وقد ذكر الألوسي رحمه الله ثلاثة أقوال في تفسير قوله تعالى: «آتنا غداءنا»، وعقب عليها بقوله: «والجمهور على أنها الوحي والنبوة، وقد أطلعت على ذلك في مواضع من القرآن، وأخرج ذلك ابن أبي حاتم عن ابن عباس، وهو ما عليه الجمهور، وشواهده من الآيات والأخبار كثيرة بمجموعها يكاد يحصل اليقين». [روح المعاني ٥/٩٢].

وقال القرطبي: «هو نبي عند الجمهور، والآية تشهد بذلك؛ لأن النبي لا يتعلم ممن هو دونه، ولأنه الحكم بالباطن لا يطلع عليه إلا الأنبياء». [فتح الباري: ٦/٤٣٤].

القول الثاني: أن الخضر ولي وعالم مُلهَم؛ لأن الله ذكره بالعلم والعبودية، ولم يذكر معها أنه نبي أو رسول، وقد ذهب إلى هذا فريق من المتصوفة، قال أبو القاسم القشيري في رسالته القشيرية في باب إثبات كرامات الأولياء: «لم يكن الخضر نبيًا، وإنما كان وليًا». [الرسالة القشيرية ص١٦١].

وهذا القول مرجوح ترده أدلة وأقوال المحققين من أهل العلم، وقد أشرت إلى بعضهم.

ثالثًا: هل الخضر حي أم مات؟

وقع خلاف أيضًا في هذه المسألة غير أن الراجح أنه مات، والأدلة كثيرة على ذلك قال أبو حيان: «الجمهور على أن الخضر مات، ونقل عن أبي الخضر المرسي أنه قال: أما خضر موسى بن عمران فليس بحي، لأنه لو كان حيًا للزمه المجيء إلى النبي صلى الله عليه وسلم والإيمان به واتباعه». [البحر المحيط ٦/١٤٧].

وقد ذكر ابن حجر في الفتح الخلاف في ذلك، ثم قال: «والذي جزم به أنه غير موجود الآن البخاري وإبراهيم الحربي وأبو جعفر بن المنادى، وأبو يعلى بن الفراء، وأبو طاهر العبادي وأبو بكر بن العربي وطائفة، وعمدتهم الحديث المشهور عن ابن عمر وجابر وغيرهما أن النبي صلى الله عليه وسلم- صرح في آخر حياته بأنه لن يبقى على وجه الأرض بعد مائة سنة ممن هو عليها أحد» فعن عَبْد اللَّه بْن عُمَرَ قَالَ: صَلَّى بِنَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْعِشَاءَ فِي آخِرِ حَيَاتِهِ، فَلَمَّا سَلَّمَ قَامَ فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَيْلَتَكُمْ هَذِهِ؛ فَإِنَّ رَأْسَ مِائَةِ سَنَةٍ مِنْهَا لَا يَبْقَى مِمَّنْ هُوَ عَلَى ظَهْرِ الْأَرْضِ أَحَدٌ» [صحيح البخاري ١١٦].

قال ابن عمر: أراد بذلك انخرام قرنه، وأجاب من أثبت حياته بأنه كان حينئذ على وجه البحر، أو هو مخصوص من الحديث كما خُصَّ منه إبليس بالاتفاق.

ومن حجج من أنكر ذلك قوله تعالى: «وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد»، وحديث ابن عباس: «ما بعث الله نبيًا إلا أخذ عليه الميثاق لئن بعث محمد وهو حي ليؤمنن به ولينصرنه» أخرجه البخاري.

ولم يأت في خبر صحيح أنه جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا قاتل معه، وقد قال صلى الله عليه وسلم يوم بدر: «اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تُعبَد في الأرض». فلو كان الخضر موجودًا لم يصح هذا النفي، وقال صلى الله عليه وسلم: «رحم الله موسى لوددنا لو كان صبر حتى يقص علينا من خبرهما».

فلو كان الخضر موجودًا لما حسن هذا التمني ولأحضره بين يديه وأراه العجائب، وكان أدعى لإيمان الكفرة ولا سيما أهل الكتاب. [فتح الباري ٦/٤٣٤].

وقال ابن الجوزي: «واختلف العلماء هل هو باق إلى يومنا هذا؟ على قولين حكاهما الماوردي وكان الحسن يذهب إلى أنه قد مات، وكذلك كان ابن عباس من أصحابنا يقول، ويُقبِّح قول من يرى بقاءه، ويقول: لا يثبت حديث في بقائه، وروى أبو بكر النقاش أن محمد بن إسماعيل البخاري سئل عن الخضر وإلياس: هل هما في الأحياء؟ فقال: كيف يكون ذلك وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا يبقى على رأس مائة سنة ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد». [زاد المسير ٨/١٦٨].

وذكر ابن كثير أن النووي وابن الصلاح مالاَ إلى بقائه، وذكروا في ذلك حكايات وآثارًا عن السلف وغيرهم، وجاء ذكره في بعض الأحاديث، ولا يصح شيء من ذلك، ورجح آخرون من المحدثين وغيرهم خلاف- يعني أنه قد مات- واحتجوا بقوله تعالى: « وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ ٱلْخُلْدَ » [الأنبياء:٣٤]، وبأنه لم ينقل أنه جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا حضر عنده، ولا قاتل معه، ولو كان حيًا لكان من

أتباع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان مبعوثًا إلى جميع الثقلين: الجن والإنس، وقد قال صلى الله عليه وسلم: «لو كان موسى حيًا ما وسعه إلا اتباعي». وأخبر قبل موته بقليل: أنه لا يبقى ممن هو على وجه الأرض إلى مائة سنة من ليلته تلك عين تطرف. إلى غير ذلك من الدلائل. [تفسير ابن كثير ٣/١٤٠].

وقد ذكر صديق حسن خان رحمه الله بعد ذكره لبعض الأقوال في ذلك: «والحق ما ذكرناه عن البخاري وأضرابه في ذلك، ولا حجة في قول أحد كائنًا من كان إلا الله سبحانه ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولم يرد في ذلك نص مقطوع به ولا حديث مرفوع إليه صلى الله عليه وسلم، حتى يعتمد عليه ويصار إليه، وظاهر الكتاب والسنة نفي الخلد وطول التعمير لأحد من البشر وهما قاضيان على غيرهما، ولا يقضي غيرهما عليهما». [فتح البيان ٥/٤٩٢].

إلى جانب ذلك توجد أدلة عقلية تدفع القول بوجوده وحياته؛ منها: أنه لو كان موجودًا منذ ولد وحتى آخر الدهر، لكان هذا من أعظم الآيات والعجائب، وكان له ذكر في القرآن بذلك ولدلت السنة أيضًا عليه، وكل ما ورد في ذلك لا تقوم به حجة، والحكايات والأساطير التي يتناقلها بعض المتصوفة في ذلك ما هي إلا أوهام وخرافات، وبعضها قائم على الرؤى والأحلام، وبمن لا يُعتد بكلامهم، وقد ذكر ابن عربي أنه اجتمع بالخضر وأنه- أي الخضر- ألبسه خرقة الصوفية، وأن ذلك تم تجاه الحجر الأسود في مكة، وأنه أخذ عليه العهد بالتسليم لمقامات الشيوخ، وأنه كان مترددًا في لبس الخرقة من الخضر حتى أعلمه الخضر أنه لبسها على يد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة المشرفة منبع الفيض الأتم. [انظر كتابه: التذكاري ص٣٠٤].

وكل هذا من الضلال المبين، وقد ذكر كثير ممن يزعمون حياته الآن أساطير وخرافات حوله دفعت بعض الناس إلى اللجوء إليها من دون الله، ومع قولهم بأنه حي لم يمت بنوا له مقامًا ومشهدًا يُزَار فيه ويدعى من دون الله تبارك وتعالى!!

وقد التقى الأستاذ أحمد الحصين ببعض الزائرين ودارت بينه وبينهم محاورات، منها أن امرأة تريد أن تنجب، فذكر لها بعض الشيوخ أن تذهب لزيارة الخضر، وأن تتوسل إليه؛ كي ترزق بالبنين والبنات، وقد حملت معها حلوى نذرتها للخضر، كما ذكر عن آخر نذر خروفًا وذهب إلى الأثر المزعوم ليذبحه هناك تقربًا إلى الخضر وحتى يشفي ابنه المصاب بالشلل، ومن أراد الوقوف على مزيد من ذلك فليراجع كتاب «الخضر وآثاره بين الحقيقة والخرافة»، (ص٣٧- ٤٢).

وهذه كلها توسلات شركية وبدعية، ولا يجوز الذبح أو النذر إلا لله تبارك وتعالى، وقد وضع الوضاعون أحاديث مكذوبة ونسبوها إلى الخضر ليفسدوا بذلك عقائد المسلمين، وقد نبَّه علماء السنة إليها، كما فعل ابن الجوزي رحمه الله في كتاب الموضوعات، حيث ذكر بعضًا مما ورد في ذلك وبيَّن وضعه. [انظر الموضوعات ١/١٩٥- ١٩٩].

فوائد من قصة الخضر:

وفي نهاية هذا المقال أود أن أذكر بعضًا من الفوائد في قصة الخضر؛ لينتفع بها الصالحون عوضًا عن الخرافات والأساطير، ومن الفوائد:

استحباب الحرص على الازدياد من العلم والرحلة فيه، ولقاء المشايخ وتجشم المشاق في ذلك، والاستعانة في ذلك بالاتباع، وإطلاق الفتى على التابع، واستخدام الحر، وطواعية الخادم لمخدومه، وعذر الناس، وقبول الهبة من غير المسلم، وجواز دفع أغلظ الضررين بأخفهما، والإغفاء عن بعض المنكرات مخافة أن يتولد منه ما هو أشد.

ومن هذا مصالحة ولي اليتيم السلطان على بعض مال اليتيم خشية ذهابه بجميعه، وكل هذا صحيح إذا لم يعارض منصوص الشرع، وجواز الإخبار بالتعب ويلحق به الألم من مرض ونحوه، ومحل ذلك إذا كان على غير سخط من المقدور.

وفيه أن المتوجه إلى ربه يُعان فلا يسرع إليه النصب والجوع، وفيه جواز طلب القوت وطلب الضيافة، وفيه قيام العذر بالمرة الواحدة وقيام الحجة بالثانية.

قال ابن عطية: يشبه أن يكون هذا أصل مالك في ضرب الآجال في الأحكام إلى ثلاثة أيام، وفيه حسن الأدب مع الله تعالى، وألا يضاف إليه ما يستهجن لفظه، وإن كان الكل بتقديره وخلقه لقول الخضر عن السفينة: «فأردت أن أعيبها»، وعن الجدار: «فأراد ربك»، ومثل هذا قوله صلى الله عليه وسلم: «والخير بين يديك، والشر ليس إليك». [فتح الباري: ج١/٤٢٢].

أسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا للخير وأهله، وأن يبعد عنا الشر وأهله، وأن يجنبنا البدع والضلالات، والآثام والمنكرات، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

الدرس الأول

تعريفات أولية لمصطلحات العقيدة الإسلامية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

تعريف كلمة: العقيدة:

أولاً: العقيدة لغة:

مأخوذة من الفعل: عَقَدَ، يقال: «عقَدَ قلبَه على الشيء» أو «عقَدَ قلبُه الشيءَ» إذا لزمه.

ثانيًا: العقيدة اصطلاحًا:

تُطلق وتعرف بعدة تعريفات، منها:

(أ) التصديق الجازم فيما يجب لله عز وجل من الوحدانية والربوبية، والإفراد بالعبادة، والإيمان بأسمائه الحسنى، وصفاته العُلى.

(ب) تصميم القلب والاعتقاد الجازم الذي لا يخالطه شك في المطالب الإلهية والنبوات، وأمور المَعاد، وغيرها مما يجب الإيمان به. والمطالب الإلهية المقصود بها: الإيمان بالله في ربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته.

(جـ) ما عقَد الإنسانُ قلبَه عليه، ودان لله -سبحانه- به.

ومن المناسب أن نشير هنا إلى أن هذه الكلمة - العقيدة، أو الاعتقاد - أصبحت اسمَ علم على العلم الذي يدرس جوانب الإيمان والتوحيد - التي سبقت الإشارة إليها - ووجدنا كل مَن يكتب في هذا الجانب، يطلق على كتابه اسم العقيدة، فيقال مثلاً: عقيدة الطحاوي، أو العقائد العضدية... إلى آخره. وأصبحت هذه الكلمة مضافة إلى الإسلام عنوانًا على المادة الدراسية في المعاهد والكليات والمدارس، فيقال: مادة العقيدة الإسلامية.

ثالثًا: مؤلفات في العقيدة الإسلامية.

لا شك أن كل علم له رجاله الذين وضعوا فيه من المؤلفات والكتب الخاصة به. وفيما يلي أسماء بعض المؤلفات التي حملت اسم العقيدة الإسلامية، بدءًا بأقدمها وأسبقها.

الكتاب الأول: (شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة، وإجماع الصحابة، والتابعين من بعدهم) هذا الكتاب الكبير العظيم ألفه الإمام الحافظ هبة الله بن الحسن بن منصور اللالكائي، وقد يُعرف أحيانًا هذا الكتاب بكتاب «السنن» أو «شرح السنة» أو «أصول السنة». ويقع في ثمانية أجزاء مطبوعة، يشتمل على مقدمة ومجموعة كبيرة من الأبواب، في الحث على التمسك بالسنة، وبيان التوحيد، واعتقاد أهل السنة. كذلك يشمل أيضًا مباحث في الإيمان، وفي الرد على بعض الفِرَق، وعلامات الساعة، والفضائل. ولهذا نعتبر هذا الكتاب من أهم الكتب المصنفة في العقيدة، وقد استفاد منه مَن جاء بعده ونقل عنه.

الكتاب الثاني: (عقيدة السلف وأصحاب الحديث) للإمام أبي عثمان إسماعيل الصابوني، وهو مطبوع ضمن مجموعة (الرسائل المنيرية)، ثم طُبع مستقلاً في دولة الكويت، بتحقيق الشيخ بدر البدر.

الكتاب الثالث: (الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة) للإمام أبي بكر أحمد بن حسين البيهقي، وهو يشتمل على بيان ما يجب للمكلف اعتقاده، والاعتراف به، مع الإشارة إلى أطراف أدلته على طريق الاختصار، وما ينبغي أن يكون شعاره على سبيل الإيجاز، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة؛ في الهند، ومصر، وبيروت.

تعريف كلمة: «التوحيد»:

أولاً: التوحيد لغة: الإفراد.

ثانيًا: التوحيد اصطلاحًا:

أصل معنى التوحيد: اعتقاد أن الله واحد لا شريك له، وسُمي هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه، فهو من باب إطلاق الجزء وإرادة الكل، وهو إثبات الوحدة لله في الذات والفعل في خلقه الأكوان، وأنه وحده مرجع كل كون، ومنتهى كل قصد. وهذا المطلب في الحقيقة كان الغاية العظمى من بعثة النبي -صلى الله عليه وسلم- كما تشهد بذلك آيات القرآن الكريم.

ثالثًا: دَلالة كلمة التوحيد على العقيدة:

كلمة التوحيد - أي: شهادة أن لا إله إلا الله - تشير إلى كل جوانب العقيدة ومسائلها؛ لأنه إذا حصل الإيمان بمضمونها على وجه صحيح، استتبع ذلك - قطعًا - الإيمان بسائر العقائد من إلهيات ونبوات وسمعيات؛ فإن الوحدانية تتضمن الاعتراف بالله بأنه المعبود بحق، وهو اعتراف ضمني بأنه جامع لكل كمال، منزه عن كل نقص؛ إذ لا يستحق العبادة، وهي نهاية التعظيم وغاية المحبة والخشية، إلا مَن كان كذلك.

وإنما كانت العناية بذكر الوحدانية؛ لأنها كانت أهم مقاصد الرسل جميعًا لأنها هي وحدها العقيدة التي كَفَرَها أكثر الناس، وهجروها، فَهُم يعرفون الله تعالى بقدرته وعلمه وإرادته، وأنه خالق السموات والأرض، هذا يعرفه كثير من الناس.

وأيضًا كثير من الناس مع إيمانهم بذلك، يتخذون لله -سبحانه- الأنداد، ويشركون به، فيحبون أندادًا كحبهم لله، ويخشونهم كخشيته، وربما زاد بعضُهم في أَنْ أحبَّ معبودَه الذي يعبده دون الله أكثرَ من محبته لله - تبارك وتعالى.

ونحن نشاهد أن بعضًا من الناس، يتوجه إلى غير الله -سبحانه- بالدعاء، وطلب المدد، والاستغاثة، وغير ذلك.

رابعًا: مؤلفات في علم التوحيد:

هناك مؤلفات كُتبت في هذا العلم تحت مسمى علم التوحيد، نشير إلى بعضها:

الكتاب الأول: (كتاب التوحيد) لأبي العباس أحمد بن عمر بن سريج البغدادي.

الكتاب الثاني: (كتاب التوحيد وإثبات صفات الرب -سبحانه- التي وصف بها نفسه في تنزيله الذي أنزله على نبيه المصطفى -صلى الله عليه وسلم- وعلى لسان نبيه -صلى الله عليه وسلم- للإمام ابن خزيمة، وهو صاحب كتاب: (الصحيح). وقد بَحث في هذا الكتاب مباحث كثيرة في التوحيد، فتعرض لمسألة: القضاء السابق، والمقادير النافذة قبل حدوث أفعال العباد، كما تكلم وذكر وجوب الإيمان بجميع صفات الرحمن - جل في علاه-.

وهذا الكتاب كان مؤلفه - رحمه الله - يضع عنوانًا مطولاً للمسألة التي يبحثها، وكأنه ملخص لها، ثم يسوق الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الدالة عليها، ويسوق الأحاديث بإسنادها مع تعليق موجز على بعض النصوص، والرد على المخالفين من الجهمية والمعطلة والقدرية والمعتزلة.

الكتاب الثالث: (كتاب التوحيد ومعرفة أسماء الله -سبحانه- وصفاته على الاتفاق والتفرد) للإمام الحافظ أبي عبد الله محمد بن إسحاق بن مَنده (رحمه الله تبارك تعالى) وقد طبع هذا الكتاب بتحقيق الأستاذ الدكتور علي ناصر فقيهي في ثلاثة أجزاء، وقد قسَّم المؤلف فيه التوحيد إلى أربعة أقسام - تعود إلى ثلاثة -: توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية وهو تحقيق شهادة أن لا إله إلا الله، وتوحيد أسماء الله الحسنى، ثم أتْبَعها بالقسم الرابع عن الصفات، وأراد بذلك أن يوحد الله -سبحانه- في صفاته العلى.

ومن خصائص هذا الكتاب ومميزاته: الاستشهاد الكثير بالآيات القرآنية على أنواع التوحيد ومسائله، ولهذا فائدة مهمة، وهو أنه يربط القارئ بكتاب الله تعالى، فيستمد منه التوحيد مباشرة، وهذا الكتاب - في الحقيقة - كتاب جيد ونفيس، وقد اعتنَى مؤلفه فيه بذكر العقيدة الصحيحة المؤيدة بالدليل.

وهناك كتب أخرى كثيرة كتبها بعض المعاصرين عن التوحيد بأساليب متعددة، وبعضها أيضًا مفيد للغاية.

تعريف كلمة: «أصول الدين»:

أولاً: أصول الدين لغةً:

أصول الدين: مركّب إضافي، ولا يمكن التوصل إلى معنى المركّب إلا بتحليل أجزائه المركّب منها

أما كلمة الأصول: فمفردها أصل، ومعناه لغةً: أساس الشيء، أو ما يُبتنَى عليه غيره، كأساس المنزل، وأصل الشجرة، ونحو ذلك

أمّا الدِّين في اللغة: فمعناه الذل والخضوع، والمراد به: دين الإسلام، وطاعة الله - تبارك وتعالى -

وعبادته، وتوحيده، وامتثال المأمور واجتناب المحذور، وكل ما يُتعبّد الله -عز وجل- به.
فتكون أصول الدين على هذا: القواعد والأسس التي تصحّ بها العبادة، وتتحقق بها طاعة الله ورسوله -صلى الله عليه وسلم-، وذلك بامتثال المأمور واجتناب المحذور؛ لأن الاعتقاد هو الأصل الذي ينبني عليه قبول الأعمال وصحتها. فأصول الدين هي ما يقوم وينبني عليه الدين.
والدين الإسلامي يقوم على عقيدة التوحيد، ومن هنا سُمي علم التوحيد أو علم العقيدة بعلم أصول الدين؛ لأنه - كما ظهر لنا - هو الأصل والأساس الذي يقوم عليه غيره، فهو - حقًا - كالأساس للمنزل.

ثانيًا: أصول الدين اصطلاحًا:

كلمة أصول الدين عند الفقهاء والأصوليين يطلقونها على معان:
أحدها: الدليل، يقال: «الأصل في هذه المسألة: الكتاب والسنة».
وثانيها: القاعدة الكلية التي تشتمل على جزئيات موضوعها، كقاعدة: «لا ضَرر ولا ضِرار».
ثالثها: الراجح -أي: الأولى، والأحرَى-، يُقال: «الأصل في الكلام الحقيقة لا المجاز».
والأصول من حيث إنها مَبنًى وأساسٌ لفرعها سُميت «قواعد». ومن حيث إنها مسالك واضحة إليها سُمِّيت «مناهج». ومن حيث إنها علامات لها سُمِّيت «أعلامًا».

ثالثًا: مؤلفات في أصول الدين:

بعد أن أصبحت كلمة أصول الدين لَقَبًا لعلم العقيدة، وأصبحت هذه المادة تُدرّس تحت هذا العنوان، بل إن البعض توسع، فأدخل في الكليات الجامعية لأصول الدين كلمة «أصول الدين» على العقيدة، بل إن الكليات اليوم في الجامعات الإسلامية، تحمل هذا الاسم. فنقول مثلاً: كلية أصول الدين، أو كلية الدعوة وأصول الدين. وهكذا. ويقال: إن أول من استخدم هذا المصطلح لعلم العقيدة - وإن لم يشتهر وقتها - هو الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - حيث قال في مفتتح كتابه: (الفقه الأكبر): هذا كتاب ذكرنا فيه ظواهر المسائل في «أصول الدين» التي لا بد للمكلف من معرفتها، والوقوف عليها. فنجد هنا أن الإمام الشافعي - رحمه الله تعالى - ذكر هذه الكلمة وهو يتكلم عن الفقه الأكبر.
ولا شك أننا سنعرف - إن شاء الله - أن الفقه الأكبر هو علم التوحيد أو هو علم العقيدة.
ثم وصلتنا بعد ذلك كتبٌ تحمل هذا الاسم، وفيما يلي إشارة إلى بعضها:
الكتاب الأول: (الإبانة عن أصول الديانة) للإمام أبي الحسن الأشعري - رحمه الله تعالى- وهو كتاب متوسط الحجم، يتضمن أصول عقيدة أهل السنة والجماعة، ويرد فيه على الفرق المخالفة كالمعتزلة والجهمية والرافضة، وقد استدل فيه بأدلة قوية صحيحة ظاهرة من كتاب الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، كما استدل بأحاديث عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.
والمؤلف - رحمه الله تعالى - كان يستدل على ما يَذكر بأدلة صحيحة، وبأحاديث صحيحة عن النبي -صلى الله عليه وسلم- كما أن أهمية هذا الكتاب تظهر من جانب آخر، ألا وهو جانب مؤلف هذا الكتاب؛ فمؤلف هذا الكتاب هو الإمام الأشعري، وقد كان معتزليًا، ثم ترك الاعتزال عند بلوغه سن الأربعين، ومال إلى طريقة عبد الله بن سعيد بن كُلاب القطان الذي كان يثبت بعض الصفات وينفي بعضها، ثم بعد ذلك وبعد أن دخل بغداد والتقى بتلاميذ الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى - وأخذ عنهم المعتقد الصحيح لأهل السنة والجماعة، وقال بعقيدة السلف، ونص في مقدمة كتابه هذا: (الإبانة) على أنه يعتقد معتقد الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تعالى -.
الكتاب الثاني: (الشرح والإبانة عن أصول السنة والديانة) لأبي عبد الله عبيد الله بن محمد بن بطة العُكبري، وهذا الكتاب يعرف باسم (الإبانة الصغرى).

تعريف كلمة: «السنة»:

أولاً: السنة لغة:

هي الطريقة المسلوكة؛ محمودةً كانت أو مذمومةً. والسنة أيضًا: هي العادة. قال تعالى: «سُنَّةَ مَنْ قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنْ رُسُلِنَا وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلاً» [الإسراء: ٧٧]. أي: هكذا عادتنا في الذين كفروا برسلنا، وآذوهم بخروج الرسول من بين أظهرهم، يأتيهم العذاب.

ثانيًا: السنة اصطلاحًا:

السنة في الشرع تطلق على معان. منها: الشريعة، وبهذا المعنى جاء قولهم: «الأولى بالإمامة الأعلم بالسنة» أي: بأحكام الشرع.

وأيضًا من إطلاقاتها: الطريقة المسلوكة في الدين، فتنتظم المستحب والمباح، بل الواجب والفرض أيضًا.

وعرفًا عند الفقهاء: تقيد بأنها الطريقة المسلوكة في الدين من غير افتراض ولا وجوب، والمراد بالطريقة المسلوكة في الدين: ما سلكها رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وغيره ممن هم علم في الدين، كأصحابه لقوله -صلى الله عليه وسلم-: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ» [صححه الألباني بهذا اللفظ في العقيدة الطحاوية ص٤٣٠].

وكذلك يطلق لفظ السنة على ما عمل عليه الصحابة، سواء عثرنا عليه أو لم نعثر عليه فيها؛ لكونه اتباعًا لسنة ثبتت عندهم، وأخذًا وعملاً بالحديث السابق: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي» [سنن الترمذي ٢٦٧٦ وصححه الألباني]؛ وذلك ولا شك فيما لا يتعارض في شيء مما جاء عن النبي -صلى الله عليه وسلم-.

وتطلق السنة عند علماء أصول الفقه: على ما صدر عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير، وهي هنا تعتبر مصدرًا من مصادر التشريع كالقرآن الكريم.

أما علماء الحديث فيريدون بالسنة: ما نقل عن النبي -صلى الله عليه وسلم- من قول أو فعل أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة مطلقًا، وهي بهذا مرادفة لمعنى الحديث.

ثالثًا: المؤلفات في الاعتقاد تحت اسم «السنة»:

والمصنفات التي حملت اسم السنة كثيرة، وهي - في الحقيقة - مصنفات في مسائل العقيدة والتوحيد. العلماء - قديمًا - أطلقوا اسم السنة على الاعتقاد؛ لأنه يشيع بين الناس في مثل هذه الأزمان المتأخرة التعريف الفقهي للسنة: وهو أن السنة يُثاب فاعلها ولا يُعاقب تاركها، فإذا طبق أحد هذا التعريف على مسائل الاعتقاد، لا شك أنه يكون قد وقع في خطر عظيم:

الكتاب الأول: (السنةُ) لابنِ أبي شيبة، وهو أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (رحمه الله تبارك تعالى).

الكتاب الثاني: (كتاب السنة) للإمام أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، إمام أهل السنة والجماعة (رحمه الله تبارك تعالى).

الكتاب الثالث: (كتاب السنة) للأثرم، وهو أبو بكر أحمد بن محمد بن هانئ البغدادي، وهو تلميذ الإمام أحمد (رحمه الله تبارك تعالى) وغيرها كثير.

رابعًا: منهج المصنّفين في السنة:

إن المنهج الذي سلكه المصنّفون في السنة، يكاد يكون منهجًا متشابهًا، يتلخص في أنه يترجم للباب، ثم يسوق جملة من الأحاديث والآثار التي تتناسب معه، وقد يروي هذه الأحاديث من طرق متعددة، وقد يتكلم بعضهم على الروايات وينقدها، وغالبًا ما نجد العناوين وفيها إشارة إلى الرد على الفرق المخالفة، بل نجد ذلك صراحة أيضا وأثناء الرد والمناقشة، تتضح الفكرة التي عقد المصنف الباب من أجلها.

فالمؤلف حين يرد ويناقش، إنما هو في الحقيقة يريد أن يؤصل للعقيدة الصحيحة التي سيذكرها، ولم يكن فيما يبدو من منهجهم أن يتحروا جمع الأحاديث الصحيحة في المسألة، وإنما يجمعون الروايات التي وصلت إليهم في المسألة، ولهذا وقع في بعض هذه المصنفات أو في كثير منها بعض الأحاديث الضعيفة، ويمكن أن نقول أيضا: وقع فيها بعض الأحاديث الموضوعة.

وهذا في الحقيقة مأخذ على هؤلاء العلماء (رحمهم الله تبارك تعالى) وكان الأولى والأحرى أن لا يذكروا في كتبهم إلا ما صحت نسبته إلى النبي -صلى الله عليه وسلم- لأنها مسألة دين وعقيدة، يجب أن يعقد الإنسان عليها قلبه، وأن يعتقد وجه الحق فيها لله - تبارك وتعالى- وبعض أهل العلم يلتمس لهؤلاء الأئمة الأعلام بعض الأعذار في ذلك. فيقول: إن الأحاديث التي ذكروها، إنما هم في الحقيقة ذكروها بالإسناد، ويقولون: بأن من أسند فقد برئ من العهدة.

ومما هو جدير بالذكر أن أئمة أهل العلم المتعمقين في علم العقيدة، لا يقبلون مثل هذه النصوص التي لا تثبت، أو لا تصح نسبتها إلى النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الحمد لله الذي خلق الكون بقدرته، وصرَّف الأمر فيه بحكمته، والصلاة والسلام على من علَّمه ربه وفضله، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعدُ:

فلقد أكمل الله لنا الدين، وأتمَّ علينا النعمة ببعثة نبينا صلى الله عليه وسلم، وقد شهد له ربه بأنه بلَّغ البلاغ المبين، ولم يقبضه ربه إليه إلا بعد أن تركنا على المحجة البيضاء ليلها كنهارها، وقد ذكر ذلك عنه أبو الدرداء رضي الله عنه وعقَّب عليه بقوله: «صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم- تركنا والله على مثل البيضاء، ليلها ونهارها سواء» [صحيح سنن ابن ماجه ج١/٦].

١- رؤية النبي صلى الله عليه وسلم مناماً:

أما عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فلقد ورد فيها من الأدلة الصحيحة الصريحة ما يغني عن بسط القول فيها، ومن ذلك على سبيل المثال لا الحصر: ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « تسمَّوا باسمي ولا تكتنوا بكنيتي، ومن رآني في المنام فقد رآني، فإن الشيطان لا يتمثل في صورتي، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار» (البخاري:١١٠)

٢- رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة:

وأما عن رؤيته صلى الله عليه وسلم يقظة فهو بيت القصيد في مقالتنا؛ وذلك لأنه مع هذا الوضوح التام والمحجة البيضاء التي تركنا عليها حبيبنا صلى الله عليه وسلم ، إلا أن فريقًا من الناس يزعم أنه يلتقي بالرسول صلى الله عليه وسلم في اليقظة، ويتلقى عنه!! وهذا مخالف لنصوص الوحي، والقائلون بذلك يعتمدون على حكايات باطلة، ويسوقونها بأسانيد واهية، وقد بنوا على هذا المعتقد الحضرات التي يقيمونها بين الحين والآخر، وسمَّوها بذلك لزعمهم أن النبي صلى الله عليه وسلم يحضرها، وقد تنبَّه لذلك أئمة الإسلام من زمن، فهذا الحافظ ابن حجر رحمه الله يترجم لرجل من هؤلاء، ويبين ضلاله، ويحذِّر من ضلالاته، فيقول: «وزعم أنه يجتمع بالأنبياء كلهم في اليقظة، وأن الملائكة تخاطبه في اليقظة، وأنه عُرج به إلى السماوات، وكان يقول: أُعطي موسى مقام التكليم، وأعطي محمد صلى الله عليه وسلم مقام التكميل، وأنه هو أُعطي المقامين معًا، إلى غير ذلك، مما ذاع واشتهر، واشتدت الفتنة به». [لسان الميزان ٣٥٢/١].

وقد ترتب على ذلك ادعاء البعض رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، والأخذ عنه مباشرة وهم بهذا يضعون دينًا جديدًا بعيدًا عما تركنا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد تمكنوا من وراء ذلك أيضًا من إفساد عقائد المسلمين، وإضفاء الشرع على بدعهم وانحرافاتهم التي أدخلوها على الدين، ومن أشهر من وقع في ذلك ولبَّس على كثير من المسلمين «أحمد التيجاني» مؤسس الطريقة التيجانية، حيث زعم أنه التقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لقاءً حسيًا ماديًا، وأنه كلمه مشافهة، وتعلم منه صلاة الفاتح لما أغلق. [انظر جواهر المعاني وبلوغ الأماني ١٣٦/١].

ومن قبله قال أبو العباس المرسي: «لي أربعون سنة ما حُجبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولو حُجبت عنه طرفة عين ما عددت نفسي من جملة المسلمين». [ذكره صاحب جامع كرامات الأولياء ٥٢٠/١].

وهذا المعتقد الفاسد يفتح الباب على مصراعيه لهدم الشريعة؛ لأن بعضًا ممن يدَّعون ذلك عندما يحدثون مريديهم يحدثونهم على

افتتاحية العدد

تحقيق المقام في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

أنهم يتلقون العلوم مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وأنهم استفادوا منه مباشرة دون النظر فيما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، ومعنى ذلك هدم علم الإسناد، وأخذ العلم عن طريق الكشف والرؤى والإلهام على قاعدة: «حدثني قلبي عن ربي، وحدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم يقظة لا منامًا» ، بل إنهم ابتدعوا شرائع وأذكارًا ما أنزل الله بها من سلطان، واحتجوا بأنهم تلقوا ذلك مباشرة عن النبي صلى الله عليه وسلم، وبعضهم يعيب علم الإسناد، ويقول عن أهل الحديث والعاملين بهم: أخذتم دينكم من ميت عن ميت، ونحن أخذناه من الله مباشرة.

وهذه الأقوال كلها باطلة يردها الشرع والعقل وذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول:

أن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد موته لم يقل بها أحد من الصحابة، وهم خيار الأمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وفيهم أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وآل بيت النبي صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء جميعًا ثبتت تزكيتهم بيقين بشهادة القرآن الكريم وسنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، وكذلك لم يقل بها أحد من التابعين.

الوجه الثاني:

أن هناك أمورًا عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانوا في حاجة ماسة إلى وجوده بين أظهُرهم ولم يظهر لهم، فإذا ظهر لغيرهم- كما يزعم القوم- لكان- وحاشاه صلى الله عليه وسلم- مقصّرًا في حق أصحابه ووزرائه.

ومن هذه الأمور المهمة التي كانت تستوجب - خروجه لو كان سيخرج - الخلاف الذي وقع بين الصحابة بعد وفاته صلى الله عليه وسلم بسبب الخلافة، وكذلك الخلاف الذي وقع بين طلحة والزبير وعائشة من جهة، وعلي بن أبي طالب وأصحابه رضي الله عنهم من جهة أخرى، والذي أدّى إلى وقوع معركة الجمل، وقد قُتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين.

فلماذا لم يظهر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ويكلمهم، وهم في أمسّ الحاجة لذلك، وحتى تحقَن دماء المسلمين؟!، وهذا أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلالة قدره وعظمة شأنه كان يظهر الحزن على عدم معرفته لبعض المسائل الفقهية، فيقول كما في الصحيحين من حديث ابن عمر رضي الله عنهما: «ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفارقنا حتى يعهد إلينا عهدًا: الجد، والكلالة، وأبواب من أبواب الربا». [البخاري: ٥٥٨٨، ومسلم: ٣٠٣٢].

فلو كان يظهر لأحد بعد موته صلى الله عليه وسلم لظهر لعمر الفاروق وأخبر بما كان يريده عمر رضي الله عنه، قال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «صرح بعض العلماء المحققين بأن دعوى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته في اليقظة والأخذ عنه دعوى باطلة، واستدلوا على ذلك بأن أولى الناس بها-لو كانت مما يقع- ابنته سيدة النساء وخلفاؤه الراشدون وسائر أصحابه العلماء، وقد وقعوا في مشكلات وخلاف أفضى بعضه إلى المغاضبة، وبعضه إلى القتال، فلو كان صلى الله عليه وسلم يظهر لأحد ويعلمه ويرشده بعد موته؛ لظهر لابنته فاطمة عليها السلام وأخبرها بصدق خليفته أبي بكر رضي الله عنه فيما روى من أن الأنبياء لا يورثون، وكذا للأقرب والأحب إليه من آله وأصحابه، ثم لمن بعدهم من الأئمة الذين أخذ أكثر أمته دينهم عنهم، ولم يدَّع أحد منهم ذلك، وإنما ادعاه بعض غلاة الصوفية بعد خير

رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد موته لم يقل بها أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا أئمة الدين من العلماء الربانيين.

القرون وغيرهم من العلماء الذين تغلب عليهم تخيلات الصوفية، فمن العلماء من جزم بأن من ذلك ما هو كذب مفترى، وأن الصادق من أهل هذه الدعوى من خُيل إليه في حال غيبة، أو ما يسمى «بين النوم واليقظة» أنه رآه صلى الله عليه وسلم فخال أنه رآه حقيقة على قول الشاعر: «ومثلك من تخيل ثم خالا». والدليل على صحة القول بأن ما يدعونه كذب أو تخيل ما يروونه عنه صلى الله عليه وسلم في هذه الرؤية وبعض الرؤى المنامية، مما تختلف باختلاف معارفهم وأفكارهم ومشاربهم وعقائدهم، وكون بعضه مخالفًا لنص كتاب الله وما ثبت من سنته صلى الله عليه وسلم ثبوتًا قطعيًا. [فتاوى رشيد رضا ٢٣٨٥/٦].

الوجه الثالث:

أن الثابت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم يحيا في قبره حياة فضل ورحمة، ونعيم دائم من الله تعالى، لا حياة تكليف، وفيها تُعرض عليه صلاة من صلى عليه من أمته، ينقل ذلك له الملائكة، حين يرد الله تعالى روحه، كما وردت بذلك النصوص، وعليه فلا حاجة به لأن ينتقل إلى من هو دونه من الناس؛ إذ كان السلام يعرض عليه، ولو كان يخرج ويرتحل كما يزعمون، فلا ضرورة لأن يوكل الله تعالى له ملائكة تنقل إليه سلام الناس، وإلى جانب هذا أقول: إن حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره من أخبار الغيب التي لا يُقاس عليها، ولا يتعدى فيها ما صح منها عن المعصوم صلى الله عليه وسلم بإجماع علماء المسلمين.

الوجه الرابع:

أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر أنه لن يخرج من قبره ولن تنشق عنه الأرض إلى يوم القيامة، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تخيروني على موسى، فإن الناس يصعقون فأكون أول من يفيق، فإذا موسى باطش بجانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صُعق فأفاق قبلي، أم كان ممن استثنى الله». [البخاري: ٦٥١٧، ومسلم: ٢٣٧٣].

فائدة: قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «وأما قوله صلى الله عليه وسلم: «فلا أدري أفاق قبلي»، فيحتمل أنه صلى الله عليه وسلم قاله قبل أن يعلم أنه أول من تنشق عنه الأرض إن كان هذا اللفظ على ظاهره، وأن نبينا صلى الله عليه وسلم أول من تنشق عنه الأرض بإطلاق، ويجوز أن يكون معناه أنه من الزمرة الذين هم أول من تنشق عنهم الأرض». [شرح النووي على مسلم: ١٣١/١٥].

وقال ابن حزم في «مراتب الإجماع»(ص١٧٦): (واتفقوا أن محمداً عليه السلام وجميع أصحابه لا يرجعون إلى الدنيا إلا حين يُبعثون مع جميع الناس).

الوجه الخامس:

أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح في حديث الدجال أنه إن خرج الدجال وهو حي فسيكفيهم بمفرده إقامة الحجة عليه، وإلا فعلى من أدرك

إن الثابت في السنة أن النبي صلى الله عليه وسلم يحيا في قبره حياة فضل ورحمة، ونعيم دائم من الله تعالى، لا حياة تكليف.

فتنة الدجال أن يُعدَّ الحجج اللازمة لإبطال مزاعمه، والاستعانة بالله تعالى، وهذا يدل على أن النبي صلى الله عليه وسلم، وهو يدرك خطورة هذه الفتنة لا يظهر لأحد فيها، ويؤكد هذا ما جاء في حديث النواس بن سمعان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «غير الدجال أخوفني عليكم، إن يخرج وأنا فيكم فأنا حجيجه دونكم، وإن يخرج، ولست فيكم؛ فامرؤ حجيج نفسه، والله خليفتي على كل مسلم». [مسلم: ٢٩٣٧].

ومن المعلوم أن فتنة الدجال أعظم فتنة على الأرض، فإن كان غائبًا عنا مع شدة الحاجة إليه فغيبته عن غيرها آكد وأعظم.

الوجه السادس:

أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأمنية أن يرى إخوانه، وبيَّن أنهم قوم يأتون من بعده ولم يرهم، ثم عزى نفسه بلقائهم على الحوض يوم القيامة، وأنه سيعرفهم من بين الأمم بآثار الوضوء لا بغيرها، وقد أخرج ذلك البخاري ومسلم.

الوجه السابع:

يلزم من القول برؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة أن كل من رآه يُعد صحابيًا، وبناءً على ذلك فإن الصحبة لن تنقطع إلى يوم القيامة، وهذا باطل، وقد ذكر ابن حجر عن ابن أبي جمرة أن جماعة رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام، ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء، وعقب الحافظ على ذلك بقوله: «وهذا مشكل جدًا ولو حمل على ظاهره لكان هؤلاء صحابة، ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، ويعكر عليه أن جمعًا جمًا رأوه في المنام، ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة، وخبر الصادق لا يتخلف». [فتح الباري ١٢/٣٨٥].

وهناك أوجه أخرى تدفع القول برؤية النبي صلى الله عليه وسلم- يقظة- ، وفيما ذكرت كفاية.

٣- شبهة والرد عليها مختصرا

استدل قوم بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة» على إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة وللرد على هؤلاء نقول:

١- إن المواضع التي أخرجوا فيها هذا الحديث بلغت (٤٤) موضعاً ألفاظها مختلفة: «فقد رآني» أو «فقد رأى الحق» أو «فكأنما رآني في اليقظة» أو فسيراني في اليقظة أو فكأنما رآني في اليقظة» بالشك ، ومع كثرة هذه المواضع لم يرد في أي موضع لفظ «فسيراني في اليقظة» بالجزم إلا رواية واحدة من روايات ستة رواها البخاري نفسه عن أبي هريرة.

٢- إن كلا من مسلم (حديث رقم ٢٢٦٦)، وأبي داود (حديث رقم ٥٠٢٣)، وأحمد (٣٠٦/٥)، أخرجوا الحديث بإسناد البخاري الذي فيه اللفظ المذكور بلفظ الشك «فسيراني في اليقظة. أو لكأنما رآني في اليقظة» وهذا الشك من الراوي يدل على أن المحفوظ إنما هو لفظ «فكأنما رآني» أو «فقد رآني» لأن كلا منهما ورد في روايات كثيرة بالجزم وليس فيها شيء شك فيه الراوي، وعند الترجيح ينبغي تقديم رواية الجزم على رواية الشك.

٣- إن الحديث رواه اثنا عشر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أو يزيد، وإن ثمانية من أئمة الحديث المصنفين اهتموا بهذا الحديث فأخرجوه في كتبهم مما يؤكد اهتمامهم به وفهمهم لمدلوله، ومع ذلك لم يبوب له أحد منهم بقوله مثلاً: باب في إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بل ولا حتى البخاري الذي روى لفظة « فسيراني في اليقظة «، بل ولعل الحافظ ابن حجر رد على من ادعى هذا الفهم المخالف قائلا: (وشذ بعض الصالحين فزعم أنها تقع- يعني الرؤية- بعيني الرأس حقيقة).

٤- لو فرضنا أن هذا اللفظ «فسيراني» هو المحفوظ فإن العلماء المحققين لم يحملوه على المعنى الذي حمله عليه هؤلاء المدعون.

قال النووي في شرحه (٢٦/١٥): (فيه أقوال: أحدها: أن يراد به أهل عصره، ومعناه: أن من رآه في النوم ولم يكن قد هاجر يوفقه الله للهجرة ورؤيته صلى الله عليه وسلم في اليقظة عياناً.

وثانيها: أنه يرى تصديق تلك الرؤيا في اليقظة في الدار الآخرة؛ لأنه يراه في الآخرة جميع أمته.

وثالثها: أنه يراه في الآخرة رؤية خاصة في القرب منه وحصول شفاعته ونحو ذلك).

ولمزيد من الفائدة انظر كتاب «المصادر العامة للتلقي عند الصوفية عرضاً ونقداً» للشيخ صادق سليم صادق (ص٤٠٥- ٤٣٠) وكتاب «تقديس الأشخاص في الفكر الصوفي» للشيخ محمد أحمد لوح (٣٦/٢- ٥٢)، وكتاب «خصائص المصطفى بين الغلو والجفاء» للصادق ابن محمد بن إبراهيم.

وفي الختام نقول: وجب على كل موحد ذابّ عن حمى التوحيد أن يرد القول برؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة ما استطاع، لأنه باب يؤدي فتحه إلى فتح باب التشريع من جديد فيؤدي إلى ضلال عظيم، وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

افتتاحية العدد

آداب وتوجيهات للصائمين والصائمات

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله مقلب الليل والنهار، والصلاة والسلام على النبي المصطفى من بين الأنام، وعلى آله وصحبه الطيبين الأطهار.

وبعدُ:

فها هو شهر رمضان قد أقبل بخيره وبركاته، وقد شرع الله للأمة صيامه، وسنَّ النبي صلى الله عليه وسلم لها قيامه، ويُلاحظ أن كثيرًا من المسلمين والمسلمات يُمسكون عن المفطرات في رمضان من طعام وشراب وجماع -وهذا أمر ضروري وواجب- غير أن البعض قد يغفل عن أمور مهمة بها يستكمل الصائم صيامه، وينال من ربه أجره وثوابه، ولهذا فإني أحببت أن أذكر نفسي وإخواني بتوجيهات وآداب مهمة ينبغي أن تراعى في شهر الخيرات، وهي كما يلي:

أولاً: الإقبال على الطاعات والتنافس في فعل الخيرات:

فضَّل الله تبارك وتعالى شهر رمضان على غيره من الشهور، وخصَّ ليلةً فيه فكانت خيرًا من ألف شهر، وهو شهر تُفتح فيه أبواب الجنة كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جاء رمضان فُتحت أبواب الجنة». [البخاري: ١٨٩٨].

كما تفتح فيه أبواب السماء وتُغلق أبواب جهنم، وتُسلسل الشياطين كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا دخل شهر رمضان فتحت أبواب السماء، وغلقت أبواب جهنم، وسلسلت الشياطين». [البخاري: ١٨٩٩].

وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان صُفدت الشياطين ومردة الجن، وغُلقت أبواب النيران، فلم يفتح منها باب، وفُتحت أبواب الجنة فلم يُغلق منها باب، وينادي منادٍ: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة». [صحيح سنن الترمذي ٢٠٩/١].

فشهر هذا قدره وفضله يحتاج من المسلم الصادق أن يقبل على الطاعات وأن يستبق الخيرات، كما قال تعالى: « وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ » [البقرة:١٤٨]. والمراد: بادروا إلى فعل الطاعات.

قال الشوكاني رحمهُ الله: «أي: بادروا إلى ما أمركم الله من استقبال البيت الحرام كما يفيده السياق، وإن كان ظاهره الأمر بالاستباق إلى كل ما يصدق عليه أنه خير كما يفيده العموم المستفاد من تعريف الخيرات». [فتح القدير ١٥٦/١].

وقد ندب الله عباده إلى المبادرة إلى فعل الخيرات والمسارعة إلى نيل القربات، قال الله تعالى: «وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » [آل عمران:١٣٣].

والموفق حقًا من اغتنم مواسم الفضل والخير وتقرَّب إلى ربه ومولاه بألوان الطاعات في شهر الخيرات، فعسى أن تصيبه نفحة من رب العباد يسعد بها في دنياه وأخراه، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضوان الله تعالى عليهم أجمعين أكثر ما يكونون قوة وحيوية ومثابرة على الطاعة مضاعفة لها في شهر رمضان.

ثانيًا: الكفّ عن المعاصي والآثام:

إن ضرر الذنوب عظيم، وهي سموم فتاكة تؤثر وتفسد القلب والبدن، ورمضان فرصة عظيمة للإقلاع عن الفواحش والمنكرات؛ لأن الصائم إذا ترك الحلال المباح في نهار رمضان لأمر الله له بذلك، فمن باب أولى أن يترك ما حرَّمه الله عليه، والصيام يسدّ منافذ الشيطان التي يصل بها إلى العبد، فيدفعه ذلك إلى الاقتصار عن الشر والمعاصي، كما في الحديث: «ويا باغي الشر أقصر».

قال المباركفوري في شرحه لهذه الكلمة: «أي: يا مريد المعصية أمسك عن المعاصي وارجع إلى الله تعالى، فهذا أوان قبول التوبة، وزمان استعداد المغفرة، ولعل طاعة المطيعين وتوبة المذنبين ورجوع المقصرين في رمضان من أثر الندائَيْن- يعني: يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر- ونتيجة إقبال الله تعالى على الطالبين، ولهذا ترى أكثر المسلمين صائمين حتى الصغار والجواري، بل غالب الذين يتركون الصلاة يكونون حينئذ مصلين، مع أن الصوم أصعب من الصلاة، وهو يوجب ضعف البدن الذي يقتضي الكسل عن العبادة وكثرة النوم عادة، ومع ذلك ترى المساجد معمورة وبإحياء الليل مغمورة، والحمد لله ولا حول ولا قوة إلا بالله». [تحفة الأحوذي: ٣/٣٦١].

وأقول: الحمد لله أن شرع لنا عبادات في أزمان تقربنا من الكبير المتعال، وقد تدفعنا إلى ترك الذنوب والآثام، وعليه فليتب العبد إلى ربه، وليعقد العزم على ترك الذنوب والتخلي عنها، وربنا غفور كريم، يتجاوز عن السيئات، ويرحم من رجع إليه وأناب، قال الله تعالى: «قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ» [الزمر:٥٣].

ثالثًا: البعد عن الرفث والسخب (أو الصخب):

قال ابن منظور: الرفث: أصله قول الفحش، والفحش من القول، وكلام النساء في الجماع. [لسان العرب ٢/١٥٣]. وعليه فيجب الابتعاد عنه، بحفظ اللسان عن قبيح الكلام، والجوارح عن قبيح الأفعال، كما على المسلم أن يبتعد عن مقدمات الجماع. وقال ابن حجر: الرفث هو الكلام الفاحش. [فتح الباري ٤/١٠٣].

وقد نهى الله تبارك وتعالى الصائم عن الرفث، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه: «والصيام جنة، فإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث يومئذ ولا يسخب». [مسلم: ١١٥١].

وفي رواية البخاري: «فلا يرفث ولا يصخب». [البخاري: ١٩٠٤].

والروايتان تفيدان النهي عن الصخب أيضًا، والمراد به: الخصام والصياح، والسخب يقال بالسين والصاد. [انظر فتح الباري: ٤/١١٨].

وقد نهى الله تبارك وتعالى في كتابه عن رفع الصوت وأمر بغضّه، فقال: «وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ» [لقمان:١٩]. قال ابن كثير: أي: لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: «إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ ٱلْحَمِيرِ» [لقمان:١٩].

قال ابن كثير: «أي لا تبالغ في الكلام، ولا ترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: إن أنكر الأصوات لصوت الحمير». قال مجاهد وغير واحد: إن أقبح الأصوات لصوت الحمير، أي: غاية من رفع صوته أنه يشبه بالحمير في علوه ورفعه، ومع هذا هو بغيض إلى الله تعالى، وهذا التشبيه في هذا بالحمير يقتضي تحريمه وذمه غاية الذم؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ليس لنا مثل السوء، العائد في هبته كالكلب يقيء ثم يعود في قيئه». [تفسير ابن كثير ٣/٦٠٣] وأصل الحديث في صحيح البخاري ٢٥٨٩.

وتفيد الآية إلى أهمية التوسط والاعتدال في الأقوال والأفعال، قال الشيخ أبو بكر الجزائري: من هداية الآية: «حرمة التكبر والاختيال في المشي، ووجوب القصد في المشي والصوت، فلا يسرع ولا يرفع صوته إلا قدر الحاجة». [أيسر التفاسير ٤/٢٠٩].

ضرر الذنوب عظيم، وهي سموم فتاكة تؤثر وتفسد القلب والبدن، ورمضان فرصة عظيمة للإقلاع عن الفواحش والمنكرات؛ لأن الصائم إذا ترك الحلال المباح في نهار رمضان لأمر الله له بذلك، فمن باب أولى أن يترك ما حرَّمه الله عليه.

رابعًا: الصدق في القول والبعد عن شهادة الزور:

يجب على المسلم أن يتكلم بالحق وأن ينطق بالصدق، وأن يصون لسانه عن الكذب وقول الباطل والزور، وهذا لازم له على الدوام، ويتأكد ذلك في رمضان، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه». [البخاري: ١٩٠٣].

وقد ذكر ابن حجر في شرحه للحديث قال ابن العربي: مقتضى هذا الحديث أن من فعل ما ذكر لا يُثاب على صيامه، ومعناه: أن ثواب الصيام لا يقوم في الموازنة بإثم الزور وما ذكر معه.

وقال البيضاوي: ليس المقصود من شرعية الصوم نفس الجوع والعطش، بل ما يتبعه من كسر الشهوات، وتطويع النفس الأمارة للنفس المطمئنة، واستدل به على هذه الأفعال تنقص الصوم، وتعقب بأنها صغائر تكفر باجتناب الكبائر، وأجاب السبكي الكبير بأن في حديث الباب والذي مضى في أول الصوم دلالة قوية للأول؛ لأن الرفث والصخب وقول الزور والعمل به مما عُلم النهي عنه مطلقًا، والصوم مأمور به مطلقًا، فلو كانت هذه الأمور إذا حصلت فيه لم يتأثر بها لم يكن لذكر ما فيه مشروط فيه معنى يفهمه، فلما ذكرت في هذين الحديثين نبهتنا على أمرين: أحدهما: زيادة قبحها في الصوم على غيرها، والثاني: البحث على سلامة الصوم عنها، وأن سلامته منها صفة كمال فيه، وقوة الكلام تقتضي أن يقبح ذلك لأجل الصوم، فمقتضى ذلك أن الصوم يكمل بالسلامة عنها، قال: فإذا لم يسلم عنها نقص. [فتح الباري ١١٧/٤].

وقد كثر في الناس اليوم الكذب وشهادة الزور، وكلاهما بعيدان عن أخلاق أهل الإيمان، وقد وصف الله عباد الرحمن بأنهم لا يشهدون الزور، والحديث عنه يطول، غير أنني أحببت أن أشير هذه الإشارة لينتبه أهل الإيمان إلى ما يجب عليهم من أخلاق على الدوام وخاصة في رمضان.

خامسًا: الصبر على الأذى الواقع من الناس:

يتفاوت الناس في أخلاقهم، وقد تحدث مخاصمة أو مقاتلة، والمسلم يصبر في مواجهة الأخلاق البذيئة التي تصيبه، وخاصة في رمضان، وفي هذا توجيه نبوي كريم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «وإذا كان يوم صوم أحدكم فلا يرفث ولا يصخب، فإن سابه أحد أو قاتله فليقل إني امرؤ صائم». [البخاري: ١٩٠٤].

فيا أيها الصائم: إذا جهل عليك أحد فشتمك أو نال منك، فأعرض عنه، وقل: «إني صائم». ولا تخض مع الخائضين، وكف لسانك عن الوقوع في أعراض الناس، أو سبهم ليسلم لك صومك، وتنال الأجر من ربك.

قال ابن رجب رحمه الله: «واعلم أنه لا يتم التقرب إلى الله بترك هذه الشهوات المباحة في غير حالة الصيام إلا بعد التقرب إليه بترك ما حرم الله في كل حال من الكذب والظلم والعدوان على الناس في دمائهم والأموال وأعراضهم، وفي الحديث: «ليس الصيام من الطعام والشراب، إنما الصيام من اللغو والرفث». قال الحافظ أبو موسى المديني: هو على شرط مسلم، وقال بعض السلف: أهون الصيام ترك الطعام والشراب، وقال جابر: إذا صمت فليصم سمعك وبصرك ولسانك عن الكذب والمحارم، ودع أذى الجار، وليكن عليك سكينة ووقار يوم صومك، ولا تجعل يوم صومك ويوم فطرك سواء...».

يجب على المسلم أن يتكلم بالحق وأن ينطق بالصدق، وأن يصون لسانه عن الكذب وقول الباطل والزور، إذا جهل عليك أحد فشتمك أو نال منك، فأعرض عنه، وقل: «إني صائم». ولا تخض مع الخائضين.

وسر هذا: أن التقرب إلى الله تعالى بترك المباحات لا يكمل إلا بعد التقرب إليه بترك المحرمات، فمن ارتكب المحرمات ثم تقرب بترك المباحات كان بمثابة من يترك الفرائض، ويتقرب بالنوافل، وإن كان صومه مجزئًا عند الجمهور بحيث لا يؤمر بإعادته. [لطائف المعارف ص٢٢٤].

وكم هو جميل أن يتقرب العبد إلى ربه بامتثال أمره، ويترك خصمه وشأنه، ويذكره بصومه قائلاً: «إني امرؤ صائم».

سادسًا: الدعاء عند الإفطار:

يزداد العبد تقربًا من ربه ومولاه في هذه الأوقات الشريفة، والصوم عمل عظيم، وإذا كان في رمضان وقع في زمان فاضل، وهذا من أسباب القبول، ولذلك دعا النبي صلى الله عليه وسلم الصائم إلى الدعاء، وبيّن أن دعاءه لا يرد، كما في حديث أنس رضي الله عنه مرفوعًا: «ثلاث دعوات لا ترد: دعوة الوالد، ودعوة الصائم، ودعوة المسافر». [صححه الألباني في الصحيحة ٤/٤٠٦].

وفي الترمذي من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ثلاث لا يرد دعوتهم: الإمام العادل، والصائم حين يفطر، ودعوة المظلوم يرفعها فوق الغمام ويفتح لها أبواب السماء ويقول الرب تبارك وتعالى: وعزتي لأنصرنك ولو بعد حين». [صحيح سنن الترمذي ٢/٣١٠].

فهؤلاء ثلاثة رجال ورد ذكرهم في الحديث لا ترد دعوتهم: الإمام العادل، والثاني: الصائم حين يفطر، وقبول الدعاء هنا لأنه وقع بعد عبادة وحال تضرع ومسكنة، ومثلهما دعوة المظلوم.

سابعًا: الكرم والجود في رمضان:

إن الكرم والجود من الخصال الحميدة، وهي من الصفات المحمودة في الإنسان، ومن المستحب أن تظهر هذه الصفات أكثر في رمضان، وكان هذا من هدي النبي عليه الصلاة والسلام، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة». [البخاري: ٦، ومسلم: ٢٣٠٨].

ومعنى: «أجود الناس» يعني: أكثرهم جودًا وكرمًا، وهذا يدل على أنه- عليه الصلاة والسلام- أجود بني آدم على الإطلاق، وكان جوده يجمع أنواع الجود من بذل العلم والمال، وبذل نفسه لله في إظهار دينه وهداية عباده، وإيصال النفع إليهم بكل طريقة من إطعام جائعهم ووعظ جاهلهم وقضاء حوائجهم، ولم يزل صلى الله عليه وسلم على هذه الخصال منذ نشأ، ولهذا قالت له خديجة رضي الله عنها في أول مبعثه: «والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم، وتقري الضيف، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتعين على نوائب الحق»، ثم تزايد في هذه الخصال فيه بعد البعثة وتضاعفت أضعافًا كثيرة، وفي الصحيحين عن أنس قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس وأشجع الناس وأجود الناس». [البخاري: ٢٨٢٠، ومسلم: ٢٣٠٧].

وكان جوده صلى الله عليه وسلم كله لله، وفي ابتغاء مرضاته، فإنه كان يبذل المال إما لفقير، أو محتاج، أو ينفقه في سبيل الله، أو يتألف به على الإسلام من يقوى الإسلامُ بإسلامه، وكان يؤثر على نفسه وأهله وأولاده فيعطي عطاءً يعجز عنه الملوك مثل كسرى وقيصر، ويعيش في نفسه عيش الفقراء، فيأتي عليه الشهر والشهران لا يوقد في بيته نار، وقد ذكر ابن رجب فوائد مهمة في تضاعف جود النبي عليه الصلاة والسلام في رمضان، فليراجعها من شاء في لطائف المعارف. ص٢٣٩ وما بعدها.

عند الإفطار يزداد العبد تقربا من ربه ومولاه في هذه الأوقات الشريفة، والصوم عمل عظيم، وقد كثر في الناس اليوم الكذب وشهادة الزور، وكلاهما بعيدان عن أخلاق أهل الإيمان، وما يجب عليهم من أخلاق على الدوام وخاصة في رمضان.

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله كلامًا حسنًا في مدارسة القرآن في رمضان وجود النبي عليه الصلاة والسلام، فقال: «الحكمة في مدارسة القرآن تجدد العهد بمزيد غنى النفس، والغنى سبب الجود، والجود في الشرع: إعطاء ما ينبغي لمن ينبغي، وهو أعم من الصدقة، وأيضًا فرمضان موسم الخيرات؛ لأن نعم الله على عباده في زائدة على غيره، فكان النبي صلى الله عليه وسلم يؤثر متابعة سنة الله في عباده، فمجموع ما ذكر من الوقت والمنزلة به والنازل والمذاكرة حصل المزيد في الجود، والعلم عند الله تعالى. [فتح الباري ١/٣١].

فتشبهوا يا أهل الإيمان بنبيكم عليه الصلاة والسلام، فسارعوا بالصدقة والجود، وأطعموا الفقراء والمساكين والأيتام والمحتاجين، والزموا الذكر والاستغفار، وتلاوة القرآن، ومراعاة الأدب مع الله وخلقه.

تقبل الله منا ومنكم الصيام والقيام وصالح الأعمال، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

وجوب تعظيم الله تعالى والنهي عن سبه

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعد:

فإن تعظيم الله تعالى، ومعرفة قدره، والقيام بحقه من أوجب الواجبات على العباد، فهو الخالق البارئ المصور، مالك الملك جل في علاه، وجميع الكائنات بما أودع فيها رب العباد تشير إلى عظمته وتدل على ربوبيته ووحدانيته، ولو نظر العبد نظرة سريعة إلى عظيم صنع الله فيه لعرف الآيات البينات الدالة على ذلك، وصدق ربي- عز وجل- في قوله: « وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ » [الذاريات:٢١].

والعبد ينتقل من طور إلى آخر، ومن حال إلى حال، وقد رُكِّب من أعضاء وضع كل عضو منها في الموضع المفتقر إليه، إلى غير ذلك مما لا يمكن أن يحصيه قلم كاتب، أو يستوفي الكلام فيه لسان بليغ، ولهذا وجب على كل مخلوق معرفة عظمة ربه ومولاه، وما يستحقه من العبودية وحده دون سواه، ووصفه بما يليق به سبحانه، وقد نعى نوح على قومه تعظيمهم لربه، كما ذكر القرآن الكريم ذلك في قوله: « مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا » [نوح:١٣]، قال ابن عباس في الآية: «ما لكم لا تعظمون الله حق عظمته».

وعن مجاهد أنه قال: «لا تبالون عظمة ربكم». [انظر تفسير الطبري ج٢٩/٥٩].

وقال الحسن: «لا تعرفون لله حقًا ولا تشكرون له نعمة». وقال ابن كيسان: «ما لكم لا ترجون في عبادة الله أن يثيبكم على توقيركم لله». [معالم التنزيل للبغوي ج٤/٣٩٨].

كما نعى الله في كتابه على المنكرين لبعثة الأنبياء والمرسلين، واعتبر ذلك تنقيصًا لرب العالمين، قال تعالى: « وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦٓ إِذۡ قَالُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٖ مِّن شَيۡءٖۗ » [الأنعام:٩١]، والمعنى: ما عظموه حق تعظيمه، وما وصفوه حق صفته، وقد تتابعت كلمات أهل العلم والمصلحين في كل زمان ومكان على أهمية مراعاة حق الله تعالى، ووجوب تبجيله وتعظيمه، والنهي عن شتمه وسبّه سبحانه، غير أن فريقًا من الناس لم يعرف ذلك كالمكذبين للرسل، أو الظانين أن حرية التعبير عن الرأي تبيح لهم سبّ الله تعالى، ولهذا فإني سأذكر هنا بعضًا من الأدلة الناهية عن ذلك، مبينًا قبح وشناعة من يقع في شيء من ذلك، وأبدأ أولاً بذكر معنى السب، قال ابن منظور: «السَّبُّ: الشتم، وهو مصدر: سبَّه يسبُّه سبًا: شتمه، والتساب: التشاتم، وتسابوا: تشاتموا». [لسان العرب ١/٤٥٥، ٤٥٦].

وقال الراغب الأصفهاني: «السب: الشتم الوجيع،

قال سبحانه: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ »[الأنعام:١٠٨]، وسببهم له ليس على أنهم يسبونه صريحًا، ولكنهم يخوضون في ذكره، فيذكرونه بما لا يليق، ويتمادون في ذلك بالمجادلة فيزدادون في ذكره بما تنزه تعالى عنه. [المفردات: ص٢٢٥].

قلت: وهذا نوع من السب الواقع في حق الله تعالى، ويفهم من هذا أن الكلام الذي يقصد به الانتقاص والاستخفاف، أو الاستهزاء ونحوه كالإهانة، والقول الفاحش، والإشارة الفاحشة كل هذا يعد من السب، ولا ريب أن سبَّ الله تعالى من أقبح وأشنع الجرائم ولا ينفع فاعله ادعاؤه التوحيد والإيمان.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: «فمن اعتقد الوحدانية في الألوهية لله سبحانه وتعالى، والرسالة لعبده ورسوله صلى الله عليه وسلم، ثم لم يتبع هذا الاعتقاد موجبه من الإجلال والإكرام الذي هو حال في القلب يظهر أثره على الجوارح، بل قارنه الاستخفاف والتسفيه والازدراء بالقول أو الفعل، كان وجود هذا الاعتقاد كعدمه، وكان ذلك موجبًا لفساد الاعتقاد ومزيلاً لما فيه من المنفعة والصلاح، إذ الاعتقادات الإيمانية تزكي النفوس وتصلحها، فمتى لم توجب زكاة النفس ولا صلاحها، فما ذاك إلا لأنها لم ترسخ في القلب، ولم تصر صفة ونعتًا للنفس. [الصارم المسلول ١/ ٣٧٥].

والقرآن الكريم قد احتاط للذات الإلهية، غاية الاحتياط وذلك بكثرة ذكر صفات الجلال والكمال، وتنزيهه سبحانه عن صفات النقص، وكذلك نهيه سبحانه عن سب آلهة المشركين التي يعبدونها من دون الله، حتى لا يترتب على سبها سبُّ رب العالمين، قال الله تعالى: «وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ » [الأنعام:١٠٨]، قال ابن كثير في تفسيره: «يقول الله تعالى ناهيًا لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن سب آلهة المشركين، وإن كان فيه مصلحة، إلا أنه يترتب عليه مفسدة أعظم منها، وهي مقابلة المشركين بسب إله المؤمنين، وهو الله لا إله إلا هو كما قال علي بن أبي طالب عن ابن عباس في هذه الآية: قالوا: يا محمد، لتنهين عن سب آلهتنا، أو لنهجون ربك، فنهاهم الله أن يسبوا أوثانهم، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: كان المسلمون يسبون أصنام الكفار، فيسب الكفار الله عدوًا بغير علم، فأنزل الله الآية. [تفسير ابن كثير ٢/ ٢٢٤].

> ليس سب الله فقط أن يقع لفظاً صريحاً بل من سبّه: الخوض في ذكره بما لا يليق، والتمادي في ذلك بالمجادلة في ذكره بما تنزه عنه.

ومن هذا القبيل- وهو ترك المصلحة لمفسدة أرجح منها- ما جاء في البخاري وغيره عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل: وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه ويسب أمه». [خ: ٥٩٧٣].

وقد استبعد السائل في الحديث أن يسب الرجل والديه؛ لأن الطبع المستقيم يأبى ذلك، فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أنه وإن لم يتعاط السبَّ بنفسه في الأغلب الأكثر، لكن قد يقع منه التسبب فيه كما في هذه الحالة، قال ابن بطال: «هذا الحديث أصل في سد الذرائع،

ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل، وإن لم يقصد إلى ما يحرم، والأصل في هذا الحديث قوله تعالى: « وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ » [الأنعام:١٠٨]، واستنبط منه الماوردي منع بيع الثوب الحرير ممن يتحقق أنه يلبسه. [فتح الباري ١٠/٤٠٤].

ومثل هذا الكلام من هؤلاء الأئمة الأعلام يدل على الفقه في الدين- رحمهم الله- وما أرى التنبيه عليه في هذا المقام أن خصمك إذا تكلم معك بجهل وسفاهة لم يجز لك أن ترد عليه بمثل قوله؛ لأن هذا يفتح باب المشاتمة والسفاهة، وهذا مما يترفع عنه العقلاء، وقد لعن الله في كتابه من آذاه في الدنيا والآخرة والسب والاستهزاء من أعظم الأذية، قال الله تعالى: « إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا » [الأحزاب:٥٧]، واللعن هو الطرد والإبعاد من رحمة الله تعالى، وهو واقع على من فعل ذلك في الدنيا والآخرة بنص الآية، وهو بعدٌ لا رجاء للقرب معه؛ لأن المبعد في الدنيا يرجو القربة في الآخرة، فإذا أبعد أيضا في الآخرة فقد خاب وخسر، وينبغي أن يعلم أن أذية الله تعالى لا تضره سبحانه؛ لأن الأذى على نوعين: أذى يضر، وأذى لا يضر، والله تبارك وتعالى لا يضره شيء، كما جاء في الحديث القدسي: «يا عبادي، إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني». [مسلم: ٢٥٧٧].

وقد فضح الله المنافقين في كتابه لما استهزءوا بالله وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم كما قال تعالى: « يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِن نَّعْفُ عَن طَائِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ » [التوبة:٦٤- ٦٦].

وقد ذكر المفسرون في سبب نزول الآية أقوالا متعددة منها ما ذكره ابن كثير عن قتادة أنه قال: «بينما النبي صلى الله عليه وسلم في غزوة وركب من المنافقين يسيرون بين يديه، فقالوا: يظن هذا أن يفتح قصور الروم وحصونها، هيهات هيهات، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ما قالوا، فقال: «عليَّ بهؤلاء النفر». فدعاهم فقال: «قلتم كذا وكذا»، فحلفوا: ما كنا إلا نخوض ونلعب. [تفسير ابن كثير ٢/٥٧].

لعن الله تعالى في كتابه من آذاه في الدنيا والآخرة وذلك بطرده وإبعاده عن رحمة الله تعالى.

وأقول: تبًا لهؤلاء، حتى ولو كانوا خائضين لاعبين لم يجدوا إلا الرب العظيم وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم، وقد أفادت الآية أن الخوض واللعب إذا كان موضوعه صفات الله تعالى وأفعاله وشرعه وآياته المنزلة على عبده، وأفعال رسوله صلى الله عليه وسلم وأخلاقه وسيرته كان ذلك استهزاءً بجلال الله وكماله، ولا يقبل اعتذار فاعل ذلك بأنه هازل غير جاد.

يقول الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «والمعنى أن الله تعالى نبأ رسوله صلى الله عليه وسلم نبأ مؤكدًا بصيغة القسم أنه إن سألهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين، بل هازلين لاعبين، كما هو شأن الذين يخوضون في الأحاديث المختلفة للتسلي والتلهي، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول

لجهلهم أن اتخاذ أمور الدين لعبًا ولهوًا لا يكون إلا ممن اتخذه هزوًا، وهو كفر محض، ويغفل عن هذا كثير من الناس يخوضون في القرآن والوعد والوعيد، كما يفعلون إذ يخوضون في أباطيلهم وأمور دنياهم، وفي الرجال الذين يتفكهون بالتنادر عليهم والاستهزاء بهم». [تفسير المنار ١٠/٦١٣].

وقد تتابعت أقوال أهل العلم في التحذير من السخرية والاستهزاء برب البرية، أو بشيء مما أنزله، أو من آياته الكونية، وكذلك من أرسل من الأنبياء والمرسلين، ولذلك وجب- ولا بد- من تعظيم الله تعالى ومعرفة قدره، وما وقع المشركون في الشرك، وما عُبدت الأصنام إلا بسبب عدم معرفة قدر الكبير سبحانه، وقد أشار إلى ذلك القرآن الكريم في قوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ» [الحج:٧٣-٧٤].

كثرت أقوال أهل العلم في التحذير من السخرية والاستهزاء برب البرية أو بشيء مما أنزله أو بآياته الكونية أو أنبيائه ورسله.

قال ابن القيم- رحمه الله-: «ومن عرف الله أحبه على قدر معرفته به، وخافه ورجاه، وتوكل عليه، وأناب إليه، ولهج بذكره، واشتاق إلى لقائه، واستحيا منه، وأجله وعظمه على قدر معرفته به». [مدارج السالكين ٣/٣٥٥].

هذا وسب الله تعالى يقع على نوعين: الأول: سبّ مباشر، كلعنه والاستهزاء به، وتنقصه سبحانه، وهذا يقع من الكافرين والمنافقين، والثاني: سبّ غير مباشر، كسبّ ما يتصرف الله به من آياته أو مخلوقاته، وهذا يقع من بعض العوام وجهلة المسلمين، ولا يقصدون بذلك رب العالمين، ولكن يجب ألا يقع فيه المسلم؛ لأن هذا فيه إيذاء لله تعالى، كما في الصحيحين وغيرهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله عز وجل: يؤذيني ابن آدم يسب الدهر، وأنا الدهر، بيدي الأمر أقلب الليل والنهار». والمعنى أن ما يقع في الكون من مخلوقات الله تعالى وآياته بتدبر الله سبحانه، فالشمس والقمر، والليل والنهار مُسيرة بأمر الله، ولا تخرج عن إرادته وحده، وليس لها مشيئة أو اختيار، فسبُّها تعد على مُسيرها سبحانه، واعتراض على حكمته وإرادته، فكان سبها سبًا لله بطريق اللزوم.

قال الخطابي- رحمه الله- في معنى الحديث: «أنا صاحب الدهر ومدبر الأمور التي ينسبونها إلى الدهر، فمن سب الدهر من أجل أنه فاعل هذه الأمور فسبه إلى ربه الذي هو فاعلها». [فتح الباري: ٨/٥٧٥].

وفي ختام القول: أحذر غاية الحذر من تنقص الله تعالى وسبه، أو الاعتراض على أمره وحكمه، أو الاستهزاء بآياته الشرعية، كالقرآن الكريم، وذلك بالنيل منه، أو القول بأنه أساطير الأولين، أو كان لأمة سلفت وانتهت، كذلك لا يجوز الاستهزاء بشيء من شرائع الإسلام وشعائره؛ كالصلاة والصيام والحج وغير ذلك.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يرزقنا الأدب مع الله، وتعظيمه وتعظيم حرماته بما يليق بجلاله وكماله، والحمد لله رب العالمين.

مدخل إلى العقيدة الإسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وآله وصحبه أجمعين. وبعد:

فقد تكلمنا فيما سبق عن بعض التعريفات الأولية التي وضحت لنا مفهوم مصطلح «أهل السنة»، وسنناقش في هذا العدد أهمية الانتساب لأهل السنة وما يميزهم من سمات.

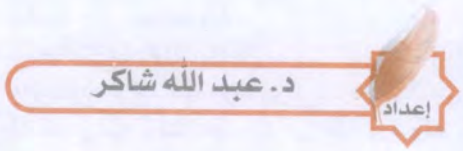

أهمية الانتساب إلى أهل السنة:

إن تحقيق انتساب الفرد والطائفة إلى أهل السنة والجماعة هو أعظم المهمات؛ فهو طريق النجاة والعصمة في الدنيا من الفرقة والبدعة، وذهاب الريح، وهو طريق النجاة في الآخرة من العذاب والتباب. قال تعالى «وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟» [آل عمران: ١٠٣] والتحقيق أنه طريق الإسلام المستقيم، وهو منهجه القويم، قال تعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ» [الأنعام: ١٥٣].

وقد فسر الصراط المستقيم بالسنة والجماعة، فالانتساب إلى أهل السنة والجماعة والسلف الصالح، يعني في حقيقة الأمر الانتساب إلى الإسلام الصافي عن شوائب البدع ومخالفة الفرق. ومن المعلوم: أن كل من رضي بالله ربا، وبالإسلام دينا، وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا ورسولا، يكون- لا شك- مقبلا على الالتزام بالإسلام جملة، وعلى تحكيم شريعته استسلامًا وانقيادًا، وبرئ بذلك من تبني أي مذهب بدعي، أو الانتساب إلى فرقة ضالة، أو الاعتماد على أصل كلي من أصول البدع.

ومن كان كذلك- أي: التزم هذا الالتزام، وصار على هذا النهج- فهو من أهل السنة والجماعة إجمالًا، وهذا يشمل عوام المسلمين الذين لم ينضووا تحت راية بدعية، ولم يكثروا سواد فرقة غير مرضية؛ فهذا القدر يحقق انتسابًا إجماليًا تصح به النسبة إلى أهل السنة والجماعة.

وتتجلى أهمية هذا الانتساب وتظهر ثمراته في أمور؛ منها: أن ضبط أصول أهل السنة والتمسك بها عصمة من الاضطراب والتخبط العلمي، وفي ذلك ما لا يخفى من حفظ الدين من أنواع التحريف كافة، ومواجهة التيارات البدعية المنحرفة القديمة منها أو المعاصرة، والانتماء السابق إلى هذه الطائفة المباركة، هو في حقيقته سبب وسبيل قاصد لوحدة العاملين في حقل الدعوة إلى الله تعالى في كل زمان ومكان؛

لأن الاجتماع على هذا الانتماء أنجح وأنفع من الاجتماع على راية حزبية أو دعوة إقليمية؛ لأنه اجتماع على منهج الحق والاتباع، وليس على حساب الحق والاتباع.

ثم إن شرف تجديد الدين الذي أخبر به خاتم الأنبياء والمرسلين صلى الله عليه وسلم لا يتأتى على وجهه الأكمل وصورته المثلى، إلا من الفرقة الناجية، والطائفة المنصورة، أهل السنة والجماعة. إذ فيهم الأئمة المتقون، ومنهم المجددون السلفيون المصلحون.

وبناء على ما تقدم؛ فإن السؤال الذي يطرح نفسه هو: بما يتحقق صدق الانتساب وتمامه؟ إذا تحقق أصله وأساسه. هل يتحقق ذلك بإثارة قضية أو قضايا ناقشها السلف وعالجوها في كتبهم ومقالاتهم في زمانهم فقط؟ أم يتأكد بإظهار محبتهم، والترضي عنهم، وتعطير المجالس بذكرهم فحسب أو لعل هذا الانتساب يكون بتبني كتبهم، والتوافر على قراءتها وتدريسها دون غيرها؟ أم أن الانتماء لهم يتحقق بمجرد التسمي باسم أهل السنة والجماعة، أو أهل الحديث، أو السلف الصالح، أو الفرقة الناجية؟ إلى غير ذلك من الإجابات المنقوصة من هذا السؤال المهم.

أهل السنة والجماعة أول ما يميزهم عن غيرهم هو منهاج التلقي لعلومهم، ومصدر الحق الذين ينهلون منه عقائدهم، وتصوراتهم، وعباداتهم ، ومعاملاتهم ، وسلوكهم، وأخلاقهم .

والحق: أن كمال الانتساب يكون بتبني جملة وأصول معالم مجتمعه، وبقدر ما يقع من الضعف في الأخذ بها جميعًا؛ بقدر ما يحصل من الوهن في هذه النسبة الشريفة، وبالتالي: على المسلم الذي يريد وجه الله، والدار الآخرة، أن يتبنى جملة وأصول معالم أهل السنة والجماعة، وأن يسير عليها.

كيف نشأت التسمية بـ «أهل السنة والجماعة»؟

أما عن بدأ التسمية بأهل السنة والجماعة أو أهل الحديث، فكانت له بداية؛ لأن الافتراق لما حصل وتعددت هذه الفرق، وكثرت البدع والانحرافات؛ كان لابد لأهل السنة أن يتميزوا عن غيرهم في اعتقادهم وفي منهجهم، وإن كانوا في الحقيقة امتداد طبعيًا لما كان عليه الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه، ولما كانوا كذلك، أطلق أهل الحديث وأهل السلف الصالح هذا اللقب عليهم- أعني: أهل السنة والجماعة- ليتميزوا به عن سائر الفرق الضالة المبتدعة.

الملامح العامة والصفات الأساسية التي تميز أهل السنة:

أ- منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة:

أهل السنة والجماعة أول ما يميزهم عن غيرهم هو منهاج التلقي لعلومهم، ومصدر الحق الذين ينهلون منه عقائدهم، وتصوراتهم، وعباداتهم، ومعاملاتهم، وسلوكهم، وأخلاقهم؛ فمصدر العلم والحق في سائر فروع المعرفة الشرعية عند أهل السنة والجماعة، هو كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فلا كلام لأحد قبل كلام الله، ولا هدي لأحد قبل هدي محمد صلى الله عليه وسلم.

يقول عنهم شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى الله- مبينًا ومبرزًا هذا المنهج الأصيل عند أهل السنة والجماعة وهم أهل الكتاب والسنة؛ لأنهم يؤثرون كلام الله على كلام غيره من كلام أصناف الناس، ويقدمون هدي محمد صلى الله عليه وسلم على هدي كل أحد، ويتبعون آثاره صلى الله عليه وسلم باطنًا وظاهرًا، ولا ينصبون مقالة ويجعلونها من أصول دينهم وجمل كلامهم إن لم تكن ثابتة فيما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم بل يجعلون ما بعث به الرسول صلى الله عليه وسلم من الكتاب والحكمة هو الأصل الذي يعتقدونه ويعتمدونه.

وما تنازع فيه الناس من مسائل الصفات، والقدر، والوعيد، والأسماء، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وغير ذلك يردونه إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ويفسرون الألفاظ المجملة التي تنازع فيها أهل التفرق والاختلاف، فما كان من

معانيها موافقًا للكتاب والسنة أثبتوه، وما كان منها مخالفًا للكتاب والسنة أبطلوه، ولا يتبعون الظن وما تهوى الأنفس، فإن إتباع الظن جهل، واتباع هوى النفس بغير هدى من الله ظلم.

وأهل السنة بهذا لا معصوم عندهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فالأئمة عندهم ليسوا بمعصومين، بل كل واحد منهم يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فمقالات أئمتهم تابعة لسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم وليست مقدمة عليها.

وفي ذلك يقول ابن تيمية- رحمه الله تعالى الله-: أهل الحق والسنة لا يكون متبوعهم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو الذي يجب تصديقه في كل ما أخبر، وطاعته في كل ما أمر، وليست هذه المنزلة لغيره من الأئمة، وأهل السنة أيضا يعتقدون أن أعلم الخلق بدين الله بعد النبي صلى الله عليه وسلم هم صحابته (رضوان الله عليهم) والسلف الصالح، فما أجمعوا عليه من أمر دينهم كان معصومًا لا يسع أحدًا أن يخرج عليه؛ فإجماعهم حجة شرعية ملزمة لمن بعدهم، وكل من التزم بإجماعهم؛ صار عضوًا في جماعتهم.

سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية، فقال: «هي الجماعة»، وفي رواية: «هي ما كان عليه أنا وأصحابي» فهم الممثلون للأمة المحمدية في صفاء عقائدها، ونقاء منهجها.

ب- أهل السنة هم أهل التوسط والاعتدال:

وهذه مسألة من أبرز معالم ومنهج أهل السنة والجماعة. فمن الصفات الأساسية التي تميز منهج أهل السنة والجماعة، هو التوسط والاعتدال. فالأمة المحمدية هي خير الأمم، كما قال تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠] وهي أيضا الأمة الوسط التي توسطت الأمم، فكان عندها من كل ما فيها خيره وأحسنه، كما قال سبحانه: «وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» [البقرة: ١٤٢].

فأمة النبي صلى الله عليه وسلم هي أفضل الأمم، وهي أعدل الأمم، وهي أخير الأمم بإطلاق، وأهل السنة والجماعة هم أعدل وأوسط وأفضل أمة محمد صلى الله عليه وسلم ووسطية الأمة المحمدية متضمنة لكونها على الحق؛ أو أن ما عندها منه أوفر من سائر الأمم، بل هي أسعد وأخص به منهم؛ مما جعلها حكمًا بين الرسل وأممهم، فهذه ميزة عظيمة لهذه الأمة المحمدية؛ أنها ملتزمة بالحق، قائمة به، سائرة عليه، ولهذا كانت مفضلة عند رب العالمين سبحانه، وحاكمة بين الرسل وأممهم، كما قال سبحانه: «وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ» [الحج: ٧٨].

وكونهم شهداء متضمن لتعديلها وقبول شهادتها على من سواها؛ ولذا فإن الذي يمثل الأمة المحمدية لابد وأن يكون وسطا، وأن يكون ما عنده من الحق هو الأكمل، ولا يكون كذلك إلا إذا تمسك بالكتاب والسنة، وجعلهما إمامًا له في كل شؤونه في باب الأصول- العقائد- وفي باب الفروع- الأحكام العملية- كما قال سبحانه: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» [النساء: ٦٥].

وأسعد الأمة المحمدية بهذا الأمر هم أهل السنة والجماعة، ولذا فهم بين فرق الأمم المحمدية كالأمة المحمدية نفسها بين الأمم، فهم الوسط بينهم؛ لأن منهجهم هو ما كان عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن الفرقة الناجية، فقال: «هي الجماعة»، وفي رواية: «هي ما كان عليه أنا وأصحابي» فهم الممثلون للأمة المحمدية في صفاء عقائدها، ونقاء منهجها، ومصداق هذه الوسطية تظهر بإيضاح معالمها، كما تظهر ببيان عناصرها، وذكر مظاهرها والتي

من أهمها ما يلي:

أولًا: الوسطية في آيات صفات الله سبحانه بين أهل التعطيل: الجهمية، وأهل التمثيل: المشبهة.

ثانيًا: الوسطية في باب أفعال العباد بين الجبرية والقدرية وغيرهم.

ثالثًا: الوسطية في باب الوعد والوعيد بين المرجئة والقدرية وغيرهم.

رابعًا: الوسطية في باب الدين والإيمان.

خامسًا: الوسطية في باب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بين الغالين فيهم من جهة، وبين المكفرين لبعضهم من جهة أخرى.

سادسًا: الوسطية في باب المعقول والمنقول بين الأشعرية والمعتزلة.

ولتجلية وسطية أهل السنة والجماعة، أرى أن أبين هنا ما تشتمل عليه عناصرها من معان تجليها وتظهرها.

وهي كما يلي:

أولًا: الوسطية في باب الصفات:

انقسم الناس في باب الصفات إلى قسمين:

القسم الأول: النفاة للصفات أو لبعضها.

القسم الثاني: المثبتون لها على نحو ما يتصف به المخلوق، وكلا هاتين الطائفتين على طرفي نقيض كما يظهر هذا ويتضح.

أما مذهب أهل السنة: فهو إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته، من غير تعطيل كتعطيل النفاة، ولا إثبات كإثبات الممثلة؛ اعتمادًا على دلالة قوله سبحانه «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» [الشورى: ١١] فقوله سبحانه «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ» رد على الممثلة، وإبطال لمذهبهم، وكذلك قوله: «وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ» رد على المعطلة وإبطال لمذهبهم.

ثانيًا: الوسطية في باب أفعال العباد:

وذلك أن القدرية- وهم نفاة القدر- يذهبون إلى أن الله لا يُقَدِّر أفعال العباد. وعليه فهي ليست مخلوقة له، وإنما العباد هم الخالقون لأفعالهم.

ويرى الجبرية: أن العبد لا تأثير لقدرته في إيجاد الفعل، وبناء على ذلك فإن جميع أفعال العباد في الحقيقة عندهم هي أفعال للرب؛ فهي موجودة من العباد قهرًا، ولا أثر لإرادتهم في فعلها أو تركها، فالقدرية النفاة جفوا في إثبات القدر، ونفوا قدرة الرب وخلقه لأفعال عباده. والجبرية غلوا في إثبات القدر، ونفوا مسئولية العبد عن أفعاله، فهو لا يريد فعلها، ولا يستطيع ولا يقدر عليه.

وتوسط أهل السنة والجماعة، فأثبتوا مسئولية العبد عن أفعاله، وبينوا أن العبد يثاب ويعاقب على أفعاله، وله إرادة ترجح له الفعل أو الترك، وإن كانوا يقولون: إن إرادته ليست مؤثرًا تامًا يوجب وجوب الفعل؛ لأن الله- تبارك وتعالى- خالق لأفعال العباد، كما هو الخالق للفاعلين.

> عقيدة أهل السنة والجماعة في باب الصفات إثبات ما أثبته الله لنفسه في كتابه وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل كالنفاة، ولا تمثيل وتشبيه كالممثلة الذين يشبهون الله بخلقه.

وهو سبحانه وتعالى لا يكون في ملكه إلا ما يريد كونًا وقدرًا، وقدرة رب العالمين سبحانه هي المؤثر التام في الوجود والعدم؛ ولذا فإن فعل العبد له علاقة بقدرته من حيث هي مؤثر ناقص في الوجود، وله علاقة بقدرة الرب من حيث هي المؤثر التام للوجود، وهم بذلك يجمعون بين النصوص ويؤلفون بينها؛ فالله تعالى قد نص على خلقه لأفعال عباده بقوله: « قَالَ أَتَعْبُدُونَ مَا تَنْحِتُونَ ﴿٩٥﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » [الصافات: ٩٥، ٩٦] ونص على أنه لا يكون في ملكه إلا ما يشاء، فقال سبحانه: « لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » [التكوير: ٢٨، ٢٩].

فأثبت للعبد مشيئة مؤثرة في فعله، وجعل وجود متعلقها خلقًا وإيجادًا تابعة لمشيئته سبحانه.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

من أول أصول الإيمان: توقير النبي العدنان صلى الله عليه وسلم

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن وجوب تعظيم الله تعالى، ورأيت من المناسب أن أتمم ذلك ببيان ما يجب للنبي صلى الله عليه وسلم من توقير وتقدير؛ ذلك أن العبد لا يدخل في الإسلام إلا إذا أتى بهاتين الشهادتين، وقد جمع الله تعالى بين اسمه جل جلاله واسم نبيه وخليله صلى الله عليه وسلم في مواطن.

كما أنني أود – مع ضعفي وتقصيري- أن أنال شرف الدفاع عن حبيب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وأرجو أن يكون ذلك ذخرًا لي يوم لقاء الله، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

وجوب توقير النبي صلى الله عليه وسلم:

إن الله تعالى في مواطن كثيرة من كتابه أوجب توقير الرسول صلى الله عليه وسلم واحترامه وحرم إيذاءه والنَّيْل منه صلى الله عليه وسلم ومن ذلك قوله تعالى: «لِّتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا» [الفتح :٩]، ومن ذلك قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا» [الأحزاب:٥٧]، وقد بدأت بذكر هذه الآية هنا لبيان عظيم حق النبي صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر ابن كثير عن ابن عباس رضي الله عنهما أن هذه الآية نزلت في الذين طعنوا على النبي صلى الله عليه وسلم في تزويجه صفية بنت حيي بن أخطب، ثم عقَّب على هذا قائلاً: «والظاهر أن الآية عامة في كل من آذاه بشيء، ومن آذاه فقد آذى الله، كما أن من أطاعه فقد أطاع الله عز وجل». [تفسير ابن كثير: ٣/ ٧٠٠].

وقد ذهب القاسمي رحمه الله إلى أن المقصود من الآية الرسول صلى الله عليه وسلم، وذكر الله إنما هو لتعظيمه ببيان قربه، وكونه حبيبه صلى الله عليه وسلم؛ حتى كأن ما يؤذيه يؤذيه، كما أن من يطيعه يطيع الله. [انظر تفسير القاسمي ١٣/ ٤٩٠٦].

وقال السعدي رحمه الله في تفسيره: لما أمر تعالى بتعظيم رسوله صلى الله عليه وسلم، والصلاة والسلام عليه، نهى عن أذيته، وتوعد عليها فقال: «إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ» وهذا يشمل كل أذية، قولية أو فعلية، من سب وشتم، أو تنقص له، أو لدينه، أو ما يعود إليه بالأذى. «لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا» أي: أبعدهم وطردهم، ومن لعنهم [في الدنيا] أنه يحتم قتل من شتم الرسول، وآذاه. «وَالْآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا مُهِينًا» جزاء له على أذاه، أن يؤذى بالعذاب الأليم، فأذية الرسول، ليست كأذية غيره، لأنه -صلى الله عليه وسلم- لا يؤمن العبد بالله، حتى يؤمن برسوله صلى الله عليه وسلم. وله من التعظيم، الذي هو من لوازم الإيمان، ما يقتضي ذلك، أن لا يكون مثل غيره. [تفسير الكريم الرحمن ٦/ ٢٤٦].

كما بيّن الله تعالى في كتابه أن من أقبح الأشياء وأعظمها إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا» [الأحزاب:٥٣]، وهذا نهي جامع عن إيذاء رسول الله صلى الله عليه وسلم بأي لون من ألوان الأذى، ومن ذلك تزوج زوجاته من بعده، وهذا من جملة ما يؤذيه؛ ولأن له صلى الله عليه وسلم مقام الرفعة والإكرام وتزوج نسائه من بعده مخل بهذا المقام، وقال الشوكاني في تفسيره للآية: أي ما صح لكم ولا استقام أن تؤذوه بشيء من الأشياء كائنا ما كان ومن جملة ذلك دخول بيوته بغير إذن منه واللبث فيها على غير الوجه الذي يريده وتكليم نسائه من دون حجاب «ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبدا» أي ولا كان لكم ذلك بعد وفاته لأنهن أمهات المؤمنين ولا يحل للأولاد نكاح الأمهات. [فتح القدير ٢٩٨/٤].

كما بين القرآن الكريم أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم من صفات المنافقين، قال تعالى عنهم: «وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٦١﴾ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ» [التوبة:٦١- ٦٣].

وهذا نوع من جهالات المنافقين وسفاهاتهم عندما عابوا النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وهو أنه يسمع لكل قائل، وغرضهم من ذلك أنه ليس بذكيّ صلى الله عليه وسلم، وقد أجاب القرآن عنه فقال: «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ» [التوبة:٦١]، ثم بيّن أوجه الخير في ذلك، فقال: «يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للذين آمنوا منكم»، فجعل تعالى هذه الثلاثة كالموجبة لكونه عليه الصلاة والسلام أذن خير، وكيفية اقتضاء هذه المعاني لتلك الخيرية تظهر فيما يلي:

أما الأول: وهو قوله تعالى: «يؤمن بالله»، فلأن كل من آمن بالله كان خائفًا من الله، والخائف من الله لا يقدم على الإيذاء بالباطل، **وأما الثاني** وهو قوله تعالى: «يؤمن للمؤمنين»، فالمعنى يسلم للمؤمنين قولهم ويصدقهم، ويُفهم منه أنه لا يصدق أهل النفاق والكفر بالله.

وأما الثالث: وهو قوله تعالى: «ورحمة للذين آمنوا منكم»، فهذا أيضًا يوجب الخيرية، لأنه يُجري أمركم على الظاهر، ولا يُبالغ في التفتيش عن بواطنكم، ولا يسعى في هتك أستاركم، فثبت أن كل واحد من هذه الأوصاف الثلاثة يوجب كونه أذن خير، ولما بيّن كونه سببًا للخير والرحمة بين أن كل من آذاه استوجب العذاب الأليم والخزي العظيم، وقد دلت الآيات أن من عاب النبي صلى الله عليه وسلم أو قال فيه قولاً باطلاً لا يليق بمكانته أنه من المحادين لله ورسوله، وفاعل ذلك متوعد بالخلود في نار جهنم والعياذ بالله، وقد ذكر القاسمي رحمه الله لطائف في الآية تدل على عظمة القرآن وبلاغته وهي: «في قوله تعالى: «قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ» أبلغ أسلوب في الرد عليهم، فإنه صدقهم في كونه أذنا، إلا أنه فسره بما هو مدح له، وثناء عليه.

قال الناصر: لا شيء أبلغ من الردّ عليهم بهذا الوجه، لأنه في الأول، إطماع لهم بالموافقة، ثم كرّ على طمعهم بالحسم، وأعقبهم في تنقصه باليأس منه.

ويضاهي هذا، من مستعملات الفقهاء، القول بالموجب، لأن في أوله إطماعاً للخصم بالتسليم، ثم

دلت الآيات أن من عاب النبي صلى الله عليه وسلم أو قال فيه قولاً باطلاً لا يليق بمكانته أنه من المحادين لله ورسوله.

بتّاً للطمع على قرب، ولا شيء أقطع من الإطماع ثم اليأس يتلوه ويعقبه. والله الموفق.

الثانية: اللام في قوله تعالى: «لِلْمُؤْمِنِينَ» مزيدة للتفرقة بين الإيمان المشهور، وبين الإيمان بمعنى جعلهم في أمان من التكذيب بتصديقه لهم، فاللام فيه مزيدة للتقوية.

الثالثة: قال أبو السعود: إسناد الإيمان إليهم بصيغة الفعل، بعد نسبته إلى المؤمنين بصيغة الفاعل المنبئة عن الرسوخ والاستمرار، للإيذان بأن إيمانهم أمر حادث ما له من قرار.

وقوله تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ» أي: بما نقل عنهم من قولهم: «هُوَ أُذُنٌ» ونحوه «لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي: بما يجترئون عليه من إيذائه.

قال أبو السعود: وهذا اعتراض مسوق من قبله عزَّ وجلَّ على نهج الوعيد، غير داخل تحت الخطاب.

وإيراده صلى الله عليه وسلم بعنوان الرسالة مضافاً إلى الاسم الجليل، لغاية التعظيم، التنبيه على أن أذيته راجعة إلى جنابه عزَّ وجلَّ، موجبة لكمال السخط والغضب. انتهى. [تفسير القاسمي ج٨/٣١٨٩].

كما بين القرآن الكريم نوعاً آخر من قبائح المنافقين، وهو طعنهم على النبي صلى الله عليه وسلم في تقسيم الصدقات، وذلك بسبب حبهم للدنيا ورغبتهم فيها، قال الله تعالى: « وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ » [التوبة:٥٨]، وقد دلت الآية على أن كل من لمز النبي صلى الله عليه وسلم أو عابه كان من المنافقين.

قال القرطبي رحمه الله: وصف الله قوماً من المنافقين بأنهم عابوا النبي صلى الله عليه وسلم في تفريق الصدقات، وزعموا أنهم فقراء ليعطيهم. قال أبو سعيد الخدري: بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يقسم مالا إذ جاءه حرقوص بن زهير أصل الخوارج، ويقال له ذو الخويصرة التميمي، فقال: اعدل يا رسول الله. فقال: (ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل؟) فنزلت الآية. حديث صحيح أخرجه مسلم بمعناه. [تفسير القرطبي ٥/٣٠٠٥].

وقال ابن تيمية في معنى الآية: «واللمز: العيب والطعن، قال مجاهد: «يتهمك ويزريك»، وذلك يدل على أن كل من لمزه أو آذاه كان منهم لأن «الذين» و«مَنْ» اسمان موصولان وهما من صيغ العموم والآية وإن كانت نزلت بسبب لمز قوم وإيذاء آخرين فحكمها عام كسائر الآيات اللواتي نزلن على أسباب وليس بين الناس خلاف نعلمه أنها تعم الشخص الذي نزلت بسببه ومن كان حاله كحاله ولكن إذا كان اللفظ أعم من ذلك السبب فقد قيل: أنه يقتصر على سببه، والذي عليه جماهير الناس أنه يجب الأخذ بعموم القول ما لم يقم دليل يوجب القصر على السبب كما هو مقرر في موضعه. وأيضا فإن هذا القول مناسب للنفاق فإن لمز النبي صلى الله عليه وسلم وأذاه لا يفعله من يعتقد أنه رسول الله حقا وأنه أولى به من نفسه وأنه لا يقول إلا الحق ولا يحكم إلا بالعدل وأن طاعته لله وأنه يجب على جميع الخلق تعزيره وتوقيره. [الصارم المسلول ص٣٣].

> لا يجوز للمسلم أن يطلب الدنيا بالدين ، ومن فعل ذلك آل أمره إلى النفاق، أعاذنا الله وإياكم منه.

وقد دلت الآية على أنه لا يجوز طلب الدنيا بالدين، وأن من طلب الدنيا آل أمره في الدين إلى النفاق، وأما من طلب الدنيا بقدر ما أذن الله فيه، وكان غرضه من الدنيا أن يتوصل إلى مصالح الدين، فهذا هو الطريق الحق.

كما يفهم من الآية أن أهل الإيمان يرضون بما أعطاهم الله وبقسمة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا من علامات الإيمان الصحيح، كما أن عيب رسول الله صلى الله عليه وسلم دالّ على فساد القلوب وعدم الإيمان، ولمقام رسول الله صلى

الله عليه وسلم ومكانته عند ربه نهى الله تبارك وتعالى عن رفع أي صوت على صوته، فقال: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرۡفَعُوٓاْ أَصۡوَٰتَكُمۡ فَوۡقَ صَوۡتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ كَجَهۡرِ بَعۡضِكُمۡ لِبَعۡضٍ أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ » [الحجرات:٢]. والآية صريحة في النهي عن رفع الصوت والجهر به أمام النبي صلى الله عليه وسلم كما يفعل الناس بعضهم مع بعض، وهذا لما ينبغي للنبي صلى الله عليه وسلم من التعزير والتوقير والتشريف والإجلال، وقد أفادت الآية أن رفع الصوت قد يفضي إلى حبوط العمل وصاحبه لا يشعر، فما بالنا بمن تعمد الأذى والاستخفاف بالنبي صلى الله عليه وسلم؟

وقوله: «أَن تَحۡبَطَ أَعۡمَٰلُكُمۡ» أي لا تفعلوا ذلك لئلا تحبط أعمالكم، أو ينهاكم عن ذلك كراهة أن تحبط أعمالكم «وَأَنتُمۡ لَا تَشۡعُرُونَ» أي لا تعلمون بذلك.

وما تضمنته هذه الآية الكريمة من لزوم توقير النبي صلى الله عليه وسلم، وتعظيمه واحترامه جاء مبينا في مواضع أخر كقوله تعالى: « لِّتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ » [الفتح:٩] على القول بأن الضمير في «تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ» للنبي صلى الله عليه وسلم وقوله تعالى: « لَّا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضًا » [النور:٦٣] كما تقدم وقوله تعالى: « فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ » [الأعراف:١٥٧]. وقوله هنا: «وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ» أي لا تنادوه باسمه: كيا محمد.

وقد دلت آيات من كتاب الله على أن الله تعالى لا يخاطبه في كتابه باسمه، وإنما يخاطبه بما يدل على التعظيم والتوقير، كقوله: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ » [الأنفال:٦٤]. « يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ » [المائدة:٤١]. « يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُزَّمِّلُ » [المزمل:١]. « يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ » [المدثر:١] مع أنه ينادي غيره من الأنبياء بأسمائهم كقوله: « وَقُلۡنَا يَٰٓـَٔادَمُ » [البقرة:٣٥].

أما النبي صلى الله عليه وسلم فلم يذكر اسمه في القرآن في خطاب، وإنما يذكر في غير ذلك كقوله: « وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ » [آل عمران:١٤٤]. وقوله: « وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٖ » [محمد:٢]. وقوله: « مُّحَمَّدٞ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ » [الفتح:٢٩].

وقد بين تعالى أن توقيره واحترامه صلى الله عليه وسلم بغض الصوت عنده لا يكون إلا من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى، أي أخلصها لها وأن لهم بذلك عند الله المغفرة والأجر العظيم، وذلك في قوله تعالى: « إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصۡوَٰتَهُمۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمۡتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡ لِلتَّقۡوَىٰۚ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٌ عَظِيمٌ » [الحجرات:٣].

وقال بعض العلماء في قوله: «وَلَا تَجۡهَرُواْ لَهُۥ بِٱلۡقَوۡلِ» أي لا ترفعوا عنده الصوت كرفع بعضكم صوته عند بعض.

ومعلوم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد وفاته كحرمته في أيام حياته، وبه تعلم أن ما جرت به العادة اليوم من اجتماع الناس قرب قبره صلى الله عليه وسلم وهم في صخب ولغط، وأصواتهم مرتفعة ارتفاعا مزعجا كله لا يجوز، ولا يليق، وإقرارهم عليه من المنكر. [أضواء البيان ٧/٦١٥- ٦١٧].

إن الله عز وجل قد أمر المؤمنين بمحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وتوعد المخالف لذلك بحبوط عمله.

وقد كفى الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم ودافع عنه في وجه المكذبين المستهزئين فقال: «إنا كفيناك المستهزئين»، والتاريخ شاهد على ذلك منذ بعثته صلى الله عليه وسلم، فقد أهلك الله المكذبين الأول في حياته صلى الله عليه وسلم؛ كأبي لهب، وأبي جهل، والوليد بن المغيرة، وغيرهم، وما يفعله أذنابهم اليوم لن يضر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهم الذين سينالون العذاب الشديد في الآخرة لظلمهم وبغيهم واعتدائهم، والله غالب على أمره، ويأبى الله إلا أن يتم نوره، والعاقبة للتقوى، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

باب العقيدة

مدخل إلى العقيدة الإسلامية

إعداد: د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

تناولنا في العدد الماضي أهمية الانتساب إلى أهل السنة، وبيان الملامح العامة والصفات الأساسية التي تميز أهل السنة، وذكرنا من ذلك منهج التلقي عند أهل السنة والجماعة، وأهل السنة هم أهل التوسط والاعتدال، وذكرنا من وسطيتهم الوسطية في باب الصفات، والوسطية في باب أفعال العباد، واستكمالاً لما سبق نقول والله الموفق:

ثالثًا: الوسطية في باب الوعد والوعيد:

وهي تظهر عندما نعلم أن الرجاء والخوف عبادتان جليلتان، والله هو الأحق بهما؛ لأنه سبحانه هو المعبود بحق دون ما سواه؛ ولهذا فقد وصف الله المؤمنين بهما، فقال: «إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ» [آل عمران: ١٧٥].

وقال (جل شأنه): «قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» [الكهف: ١١٠] وقال عن الملائكة: «يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ» [النحل: ٥٠].

والمؤمن من يجمع بينهم؛ لضمان التوازن في حياته كلها، فحياته بين الخوف من الله وبين الرجاء فيما عنده، فإن غلبه واحد منهما بحيث ينفرد في نفس العبد عن الآخر، يكون هذا من الأسباب الرئيسة في اختلاف التوازن في حياة هذا العبد، ومن هنا كان الحق اجتماعهما لا انفراد واحد منهما.

ومن هذا المنطلق، فإن أهل السنة والجماعة يوجبون الجمع بينهما؛ تمسكًا بكتاب الله، وقد انحرفت بعض طوائف الأمة عن هذا المسلك فغلب على بعضهم الخوف، فجعلوا العصاة في الدنيا كفارًا، وفي الآخرة خالدين في نار جهنم، ويطلق على هؤلاء الوعيدية. ويراد بهم المعتزلة والخوارج، وإن كانت المعتزلة ترى أن العاصي ليس بمؤمن ولا كافر، ولكنه فاسق، أو في منزلة بين المنزلتين.

وناقض هاتين الطائفتين طائفة أخرى، فقالت: إن العاصي يكون مؤمنًا كامل الإيمان، لا تضره المعصية؛ لأنه غير قابل للنقصان. وبناء على ذلك فلا تفاضل عندهم بين المؤمنين، بل هم في درجة واحدة، فجحدوا بعض الوعيد، وما فضل الله به الأبرار على الفجار، ويقال لهؤلاء: «أهل الوعد»، ويراد بهم المرجئة، وسموا بذلك؛ لأنهم أخروا العمل عن الإيمان، فلم يجعلوه من أركان الإيمان، ولا من لوازمه، بل عندهم الإيمان يكون كاملاً بدون العمل.

وتوسط أهل السنة والجماعة، فقالوا: هو مؤمن بإيمانه، فاسق بكبيرته، وأما في الآخرة فهو تحت مشيئة الله - تبارك وتعالى- إن شاء عذبه وإن شاء غفر له؛ وذلك لأن الله تعالى سمي مرتكب الكبيرة مؤمنًا، كما في قوله: « وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِن فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ » [الحجرات: ٩]. والله تعالى أيضًا علق مغفرة الذنوب- عدا الشرك- على مشيئته سبحانه، فإن شاء غفرها وإن شاء عذب صاحبها بقدر ذنبه، كما قال تعالى: « إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ » [النساء: ٤٨].

رابعًا: الوسطية في باب أسماء الدين والإيمان:

والمقصود بأسماء الدين والإيمان: الألفاظ التي رتب الله عليها وعدًا ووعيدًا كمؤمن ومسلم، وكافر وفاسق. وإذا أردنا أن نعرف وسطية أهل السنة في ذلك؛ ننظر إلى الوعيدية الذين سلبوا اسم الإيمان عن العاصي في الدنيا، وسموه إما كافرًا كالخوارج، وإما في منزلة بين المنزلتين كالمعتزلة.

وأما المرجئة والجهمية: فالعاصي عندهم مؤمن كامل الإيمان؛ لأن مسمى الإيمان عندهم هو المعرفة القلبية، ولازم قولهم: إن فرعون وإبليس مؤمنان قال تعالى: « وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ » [النمل: ١٤] فبينت الآية أن فرعون وقومه كانوا يعرفون رب العالمين ولكنهم جحدوا؛ استكبارًا وظلمًا، وبغيًا وعلوًا.

وتوسط أهل السنة والجماعة وقرروا في أصولهم: أنا لا نطلق الاسم ولا نرتب عليه من الوعد والوعيد إلا ما أطلقه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وعليه فالعاصي بكبيرة من الكبائر هو مؤمن من جهة، وفاسق من جهة أخرى، فله من الإيمان. الإيمان الناقص؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا يؤمن من لا يأمن جاره بوائقه» فنفى عنه الإيمان الكامل، وسماه مع ذلك مؤمنًا في قوله تعالى: « وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا » [الحجرات: ٩].

خامسًا: الوسطية في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم:

أهل السنة والجماعة توسطوا في أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم بين الخوارج، والرافضة؛ فالخوارج عادَوْا أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكفروه، والرافضة رفعوه إلى مرتبة الألوهية وغلوا فيه غلوًا شديدًا، وكفَّروا كثيرًا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

> أن الرجاء والخوف عبادتان جليلتان، والله تعالى هو الحق بهما لأنه سبحانه هو المعبود بحق، ومن هذا المنطلق كانت عقيدة أهل السنة والجماعة أن يجمع المؤمن بينهما.

وأهل السنة والجماعة وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء، فقالوا: بأننا نحب جميع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحب أيضًا جميع آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم ولكننا لا نغلو في واحد منهم، ولا نخوض فيما حصل بينهم من خلاف، قال الله تعالى: « تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ » [البقرة: ١٣٤] وهؤلاء على كل حال اجتهدوا، فمصيبهم له أجران، ومخطئهم له أجر واحد.

سادسًا: الوسطية في باب المنقول والمعقول:

اختلف الناس في هذه المسألة، وقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) هذا الخلاف، فقال: هذا الموضوع غلط فيه طائفتان من الناس، طائفة غلت في المعقولات حتى جعلت ما ليس معقولًا من المعقول، وقدمته على الحس ونصوص الرسول صلى الله عليه وسلم، وطائفة جفت عنه، فردت المعقولات الصريحة، وقدمت عليه ما ظنته من السمعيات والحسيات.

وتوسط أهل السنة والجماعة، فقالوا: إن ما علم بمعقول صريح لا يخالفه قط، لا خبر صحيح ولا حس صحيح. وكذلك ما علم بالسمع الصحيح لا يعارضه عقل ولا حس، فكل من أخبر بما يخالف صحيح المنقول أو صريح المعقول؛ يعلم أنه وقع له غلط، والأنبياء (صلوات الله عليهم وسلامه) معصومون لا يقولون على الله إلا الحق، ولا ينقلون عنه إلا الصدق،

فمن ادعى في أخبارهم ما يناقض صريح المعقول كان كاذبًا، بل لابد أن يكون ذلك المعقول ليس بصريح، أو ذلك المنقول ليس بصحيح.

فما علم يقينا أنهم أخبروا به؛ يمتنع أن يكون في إخبارهم ما يناقضه، بل الأنبياء (صلوات الله عليهم) قد يخبرونا بما يعجز العقل عن معرفته لا بما يعلم العقل بطلانه، فيخبرون بمحارة العقول لا بمحالاة العقول.

الخصائص الأخلاقية والسلوكية لأهل السنة والجماعة:

أهل السنة والجماعة -كما رأيناهم- حملة ميراث النبوة في جانبيها العلمي والعملي، ولا شك أن أبرز الجوانب العملية في الهدي النبوي هو الجانب الأخلاقي، ولذلك فإن أخلاق النبوة من الرحمة، ومحبة الخير للناس، واحتمال أذاهم، والصبر على دعوتهم، إلى آخر ذلك؛ هي المنبع الصافي الذي يستقي منه أهل السنة خصائصهم السلوكية والأخلاقية والتي لا تقل أهمية في منظور الحق عن ميراث العلم والهدى الذي اختص الله به هذه الفرقة الناجية بفضله ورحمته.

وفي هذا يقول ابن تيمية رحمه الله: «الرسول صلى الله عليه وسلم بعثه الله تعالى هدى ورحمة للعالمين، فإنه كما أرسله بالعلم والهدى والبراهين العقلية والسمعية، فإنه أرسله بالإحسان إلى الناس، والرحمة لهم بلا عوض، وبالصبر على أذاهم واحتماله، فبعثه بالعلم والكرم والحلم، فهو صلى الله عليه وسلم كان يتصف بهذه الصفات.

فكان يعلم ويهدي ويصلح القلوب، ويدلها على صلاحها في الدنيا والآخرة بلا عوض، وهذه كانت صفة جميع الأنبياء والمرسلين، ويجب أن تكون هذه الأخلاق هي سبيل من اتبع الأنبياء والمرسلين. ولهذا نجد أن الله تعالى نعت أمة محمد صلى الله عليه وسلم بقوله «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ» [آل عمران: ١١٠] قال أبو هريرة رضي الله عنه: كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في السلاسل حتى تدخلوهم الجنة، فيجاهدون لمنفعة الخلق وصلاحهم، وهم يكرهون أيضا جهل هؤلاء الناس».

وقال الإمام أحمد في خطبته: الحمد لله الذي جعل في كل زمان فترة من الرسل بقايا من أهل العلم، يدعون من ضل إلى الهدى، ويصبرون منهم على الأذى، يحيون بكتاب الله الموتى، ويبصرون بنور الله أهل العمى، فكم من قتيل لإبليس قد أحيوه؟! وكم من ضال تائه قد هدوه؟! فما أحسن أثرهم على الناس، وأقبح أثر الناس عليهم، إلى آخر كلامه في ذلك.

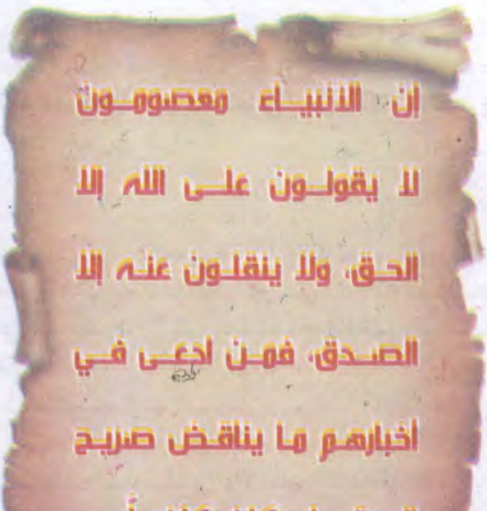

وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها (أي: رديئها وأدناها)، وهو يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حلول الشهوات. وقد قيل أيضا: وقد يحب الشجاعة ولو على قتل الحيات، ويحب السماحة ولو بكف من تمرات.

وأهل السنة والجماعة- في أخلاقهم وسلوكهم- يأتمون بالكتاب والسنة، فهم يأمرون بالصبر عند البلاء، والشكر عند الرخاء، والرضا بمر القضاء، ويدعون إلى مكارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال، ويعتقدون معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا» ويندبون إلى أن تصل من قطعك، وتعطي من حرمك، وتعفو عمن ظلمك. ويأمرون ببر الوالدين، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان إلى اليتامى والمساكين وابن السبيل، والرفق بالمملوك، وينهون عن الفخر والخيلاء، والبغي والاستطالة على الخلق بحق أو بغير حق، ويأمرون بمعالي الأخلاق، وينهون عن سفاسفها، وكل ما يكون لهم أو يفعلونه من هذا أو غيره، فإنما هم فيه متبعون للكتاب والسنة.

وللحديث بقية إن شاء الله،

والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

من أصول دعوتنا: الأمر بالرفق والنهي عن العنف

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الحكيم الخبير، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

فإن الإسلام دين الرحمة والعدل، والحق والخير، وقد علَّم النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه ذلك ورغبهم فيه، وقد وردت أحاديث كثيرة تبين ذلك، كما في حديث عبد الله بن مغفل رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله رفيق، يحب الرفق، ويعطي عليه ما لا يعطي على العنف». [صحيح سنن أبي داود ٣/٩١٣].

وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الرفق لا يكون في شيء إلا زانه، ولا نُزع من شيء إلا شانه» [صحيح مسلم ٢٥٩٤].

ظهور طائفة الخوارج:

ومع كل ذلك خرجت من بين المسلمين طوائف تدعو إلى العنف وتحث عليه وتمارسه، وقد وقع ذلك في الأمة الإسلامية مع ظهور طائفة الخوارج الذين كفَّروا المسلمين وحملوا السيف عليهم، وخرجوا على الأئمة وعلى رأسهم الخليفة الراشد علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وفي عصرنا الحاضر ابتُلينا بطوائف من هؤلاء مزَّقوا شمل الأمة وحملوا السيف عليها، وخاضوا في التكفير والدماء دون بينة أو برهان، وللأسف الشديد يتمسح هؤلاء بالإسلام، وهم بهذا يسيئون إليه، وقد أطلقوا على أنفسهم أسماء يزكون بها أنفسهم، وهم بهذا يفتنون الأمة ويُؤثِّرون بصورة خاصة على الشباب الذين تستهويهم مثل هذه الكلمات.

ولهذا فإني أحذر المسلمين عامة والشباب بصورة خاصة، من هذه الفتن المتلاحقة، ومن هؤلاء المارقين عن الحق، وقد حذرنا النبي صلى الله عليه وسلم منهم في أحاديث كثيرة؛ منها: ما رواه أبو سعيد رضي الله عنه في قصة الرجل الذي اعترض على النبي صلى الله عليه وسلم- وهو يتألف قلوب بعض أصحابه، فقال: يَا مُحَمَّدُ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ مَنْ يُطِعْ اللَّهَ إِذَا عَصَيْتُهُ؟ أَيَأْمَنُنِي عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ وَلَا تَأْمَنُونِي؟! فَسَأَلَ رَجُلٌ مِنْ الْقَوْمِ قَتْلَهُ- أحسبه خالد بن الوليد- فَمَنَعَهُ، فَلَمَّا وَلَّى قَالَ: «إِنَّ مِنْ ضِئْضِئِ- أو في عقب هذا- قَوْمًا يَخْرُجُونَ يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ حَنَاجِرَهُمْ يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنْ الرَّمِيَّةِ؛ يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدَعُونَ أَهْلَ الْأَوْثَانِ، لَئِنْ أَنَا أَدْرَكْتُهُمْ لَأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ عَادٍ». [البخاري: ٣٣٤٤].

وتأمل قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: «يقتلون أهل الإسلام، ويدَعون أهل الأوثان». وهو حال ينطبق على هؤلاء الخارجين الذين يقتلون أهل بلادهم وأصحاب الخير فيها، بل يفرحون بذلك كما علمت، وهذه الأفعال تقع منهم بسبب الغلو الذي وقعوا فيه وتكفيرهم للمسلمين، فكان هذا نتيجة حتمية لهذا الباطل.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- فيهم: «ولهم خاصتان مشهورتان فارقوا بهما جماعة المسلمين وأئمتهم:

أحدهما: خروجهم عن السنة، وجعلهم ما ليس بسيئة سيئة، أو ما ليس بحسنة حسنة، وهذا هو الذي أظهروه في وجه النبي صلى الله عليه وسلم، حيث قال له ذو الخويصرة التميمي: اعدل فإنك لم تعدل.. وثانيهما: أنهم يكفرون بالذنوب والسيئات، ويترتب على تكفيرهم بالذنوب استحلال دماء المسلمين وأموالهم، وأن دار الإسلام دار حرب، ودارهم هي دار الإيمان». [مجموع الفتاوى: ١٩/ ٧٢].

تعظيم شأن الدماء:

وقد عظّم الله شأن الدماء منذ أن خلق آدم عليه السلام، وقد ذكر الله في كتابه ما كان من أحد ابني آدم وقتله لأخيه، وما ترتب على ذلك من عقوبة، فقال: «مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا» [المائدة:٣٢]، ومعنى الآية: أن من قتل نفسًا بغير سبب ولا جناية، فكأنما قتل الناس جميعًا، لأنه لا فرق عنده بين نفس ونفس، ومن حرم قتلها، فقد سلم الناس كلهم منه، وقد ذكر ابن كثير عن سعيد بن جبير أنه قال في الآية: «من استحل دم مسلم فكأنما استحل دماء الناس جميعًا، ومن حرم دم مسلم فكأنما حرم دماء الناس جميعًا». [تفسير ابن كثير ٢/ ٦٨].

وقال الله تعالى عن كليمه موسى أنه قال للخضر عليهما السلام: «أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا» [الكهف:٧٤]، وهو يدل على تعظيم وشناعة قتل النفس الزاكية البريئة التي لم تأت بموجب القتل، وقد أنكر موسى عليه ذلك حتى أعلمه الخضر بحقيقة الأمر.

وقد أخذ الله الميثاق على بني إسرائيل ونهاهم أن يقتل بعضهم بعضًا، فقال: «وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ» [البقرة:٨٤]، ويلاحظ في الآية أنها جعلت دم كل فرد من أفراد الأمة كأنه دم الآخر عينه، وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة، كما قال عليه الصلاة والسلام: «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر». [مسلم: ٢٥٨٦].

وفي خطبة النبي صلى الله عليه وسلم في حجة الوداع أكد على حرمة الدماء والأموال والأعراض، وقد وقع منه ذلك في زمان شريف ومكان شريف، كما في حديث أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قعد على بعيره وأمسك إنسان بخطامه، أو بزمامه، ثم قال: «أي يوم هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه. قال: أليس يوم النحر؟ قلنا: بلى. قال: فأي شهر هذا؟ فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه، فقال: أليس بذي الحجة؟ قلنا: بلى، قال: فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم بينكم حرام كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا، ليبلغ الشاهد الغائب، فإن الشاهد عسى أن يبلغ من هو أوعى له منه». [البخاري: ٦٧، ومسلم: ١٦٧٩].

ويلاحظ في أسلوب النبي صلى الله عليه وسلم كلامه الشديد في حرمة الدماء والأموال والأعراض، قال القرطبي رحمه الله: «سؤاله صلى الله عليه وسلم عن الثلاثة وسكوته بعد كل سؤال منها كان لاستحضار مفهومهم، وليقبلوا عليه بكليتهم، وليستشعروا عظمة ما يخبرهم عنه، ولذلك قال بعد هذا: فإن دماءكم.. إلخ، مبالغة في بيان تحريم هذه الأشياء».

قال ابن حجر بعد ذكره للكلام السابق: «ومناط التشبيه في قوله: كحرمة يومكم وما بعده ظهوره عند السامعين؛ لأن تحريم البلد والشهر واليوم كان ثابتًا في نفوسهم مقررًا عندهم، بخلاف الأنفس والأموال والأعراض، فكانوا يستبيحونها، فطرأ

الشرع عليهم بأن تحريم دم المسلم وماله وعرضه أعظم من تحريم البلد والشهر واليوم». [فتح الباري ١/١٥٩].

وقال النووي رحمه الله: «هذا السؤال والسكوت والتفسير أراد به التفخيم والتقرير والتنبيه على عظم مرتبة هذا الشهر والبلد واليوم..، والمراد بهذا كله بيان توكيد غلظ تحريم الأموال والدماء والأعراض والتحذير من ذلك». [شرح النووي على مسلم: ١١/١٦٩].

وعن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فسحة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا». [البخاري: ٦٨٦٢].

وفي هذا الحديث إشعار بالوعيد الشديد على قتل المؤمن متعمدًا، قال ابن العربي: «الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفي بوزره». [فتح الباري ج١٢/١٨٨].

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس في الدماء». [البخاري: ٦٨٦٤، ومسلم ١٦٧٨].

والحديث فيه تعظيم أمر القتل، لأن الابتداء إنما يقع بالأهم، وفي صحيح البخاري أن جندب بن عبد الله رضي الله عنه- لما طلب منه بعض الصحابة أن يوصيهم قال: «إن أول ما يُنتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبًا فليفعل، ومن استطاع أن لا يُحال بينه وبين الجنة بملء كف من دم هراقه فليفعل». [البخاري: ٧١٥٢].

قال ابن حجر: «ووقع مرفوعًا عند الطبراني أيضًا من طريق إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب ولفظه: تعلمون أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا يحولن بين أحدكم وبين الجنة وهو يراها ملء كف دم من مسلم أهراقه بغير حله»، وهذا لو لم يرد مصرحًا برفعه لكان في حكم المرفوع؛ لأنه لا يُقال بالرأي، وهو وعيد شديد لقتل المسلم بغير حق. [فتح الباري ١٣/١٣٠].

تحريم قتل الذمي والمعاهد والمستأمن:

ومن عدل الإسلام وسماحته أنه حرم قتل الذمي والمعاهد والمستأمن، وقد وردت أحاديث صحيحة اشتملت على وعيد شديد لمن يرتكب ذلك، منها ما رواه عبد الله بن عمرو بن العاص- عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قتل معاهدًا لم يرح رائحة الجنة، وان ريحها توجد من مسيرة أربعين عامًا». [البخاري: ٣١٦٦].

والمراد بالمعاهَد: من له عهد مع المسلمين، سواء كان بعقد أو هدنة من سلطان، أو تأشيرة دخل بها البلاد، أو أمان من مسلم، وعن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من قتل معاهدًا في غير كنهه حرّم الله عليه الجنة». [صحيح سنن أبي داود ٢/٥٢٨].

انظر أيها المسلم احتياط الشرع للدماء، حتى دماء غير المسلمين، وتحريم قتلها بغير حق، فما بال الناس اليوم يقدمون بلا خوف ولا ورع على سفك الدماء الحرام!!

والمراد بالكنه: حقيقته، وقيل: وقته وقدره، وقيل: غايته، والمعنى: من قتله في غير وقته، أو غاية أمره الذي يجوز فيه قتله. [انظر النهاية في غريب الحديث ١/٢٠٦].

احتياط الشرع للدماء:

فانظر أيها المسلم احتياط الشرع للدماء، حتى دماء غير المسلمين، وتحريم قتلها بغير حق، فما بال الناس اليوم يقدمون بلا خوف ولا ورع على سفك الدماء الحرام!! وما تفعله الجماعات التي أطلقت على نفسها جهادية من المنكر الذي يجب صده والوقوف ضده.

ومن اتصف بهذا الوصف من المعاصرين - ومن قبلهم الخوارج على مدار التاريخ -لا يعرفون حرمة الدماء، بل خاضوا فيها بغير وجه حق، وقد اغتر بعض الشباب في الآونة الأخيرة بأصحاب هذه الدعوات وأحسنوا الظن بهم، حتى خرج بعض الشباب من بلادهم قاصدين ديار هؤلاء؛ زعمًا منهم أنهم يدافعون عن الدين، وما علم هؤلاء الشباب أن هؤلاء

لا يقومون بالدين ولا يجاهدون لنصرته، بل هم ينفذون مخططات أعداء الدين، وأول من يقتلون أهلَ الإسلام وأهل السنة منهم خاصة.

ولهذا فإني أنصح شباب الأمة الإسلامية أن لا ينخدعوا بهؤلاء، وألا يتركوا بلادهم باسم الجهاد؛ لأن هذا من الزور والبهتان، فالجهاد الحقيقي يجب أن يكون تحت راية، وبإذن الإمام الحاكم؛ اتباعًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم، فقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنما الإمام جُنَّة، يُقاتَل من ورائه ويُتَّقَى به، فإن أمر بتقوى الله تعالى وعدل كان له بذلك أجر، وإن قال بغيره فإن عليه مثله». [البخاري: ٢٩٥٧، ١٨٤١].

والحديث يدل صراحة على أن تجاوز ولي الأمر والخروج دون إذنه معصية لله تعالى، قال النووي رحمه الله: (الإمام جنة) أي كالستر لأنه يمنع العدو من أذى المسلمين، ويمنع الناس بعضهم من بعض، ويحمي بيضة الإسلام، ويتقيه الناس ويخافون سطوته، ومعنى (يقاتل من ورائه) أي يقاتل معه الكفار والبغاة والخوارج وسائر أهل الفساد والظلم مطلقا". [شرح النووي على مسلم: ١٢/٢٣٠].

وقد عقد الإمام مسلم في صحيحه بابًا عنون له بقوله: «باب وجوب لزوم جماعة المسلمين عند ظهور الفتن، وفي كل حال وتحريم الخروج على الطاعة ومفارقة الجماعة»، ثم ساق تحته أحاديث منها ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من خرج من الطاعة، وفارق الجماعة، فمات ميتة جاهلية، ومن قاتل تحت راية عُمية يغضب لعصبة، أو يدعو إلى عصبة، أو ينصر عصبة، فقتل، فقتلته جاهلية، ومن خرج على أمتي يضرب برها وفاجرها ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد بعهد، فليس مني ولست منه». [مسلم: ١٨٤٨]. ومعنى: «ومن قاتل تحت راية عُمية» أي: قاتل في الأمر الأعمى لا يستبين وجهه. كذا قاله أحمد بن حنبل والجمهور. [انظر شرح النووي ١٢/٢٣٨].

وقد اتفقت الأئمة على ما دلت عليه هذه الأحاديث، ونصوا في كتبهم على ذلك، يقول الإمام البربهاري- رحمه الله-: «والسمع والطاعة للأئمة فيما يحب الله ويرضى، ومن ولي الخلافة بإجماع الناس عليه ورضاهم به، فهو أمير المؤمنين، لا يحل لأحد أن يبيت ليلة ولا يرى أن ليس عليه إمام، برًا كان أو فاجرًا، والحج والغزو مع الإمام ماض، وصلاة الجمعة خلفهم جائزة». [شرح السنة ٢٨، ٢٩].

الجهاد الحقيقي يجب أن يكون تحت راية، وبإذن الإمام الحاكم؛ اتباعًا لسنة النبي صلى الله عليه وسلم.

وقال ابن قدامة المقدسي: «وأمر الجهاد موكول إلى الإمام واجتهاده، ويلزم الرعية طاعته فيما يراه من ذلك». [المغني ١٣/١٦].

وقال ابن تيمية: «ويرون إقامة الحج والجهاد والجمع والأعياد مع الأمراء أبرارًا كانوا أو فجارًا». [شرح العقيدة الواسطية للهراسي ص١٦٠].

وقال الشيخ محمد بن صالح بن عثيمين رحمه الله: «لا يجوز غزو الجيش إلا بإذن الإمام مهما كان الأمر؛ لأن المخاطَب بالغزو والجهاد هم ولاة الأمور، وليس أفراد الناس، فأفراد الناس تبع لأهل الحل والعقد». [الشرح الممتع ٨/٢٥].

وبناءً على ما تقدم أقول لشباب الأمة الإسلامية: اتقوا الله في أنفسكم وبلادكم، ولا تكونوا سببًا في إلصاق التهم الجائرة بالإسلام وأهله، وحافظوا على شعائر الدين، والزموا صراط الله المستقيم، واحذروا الغلو والتفريط، فكلاهما داء عظيم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب العقيدة

التوحيد هو الأصل في البشر.. فطرةً وتاريخًا

إعداد
د. عبد الله شاكر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وآله وصحبه ومن والاه، وبعدُ:

مسائل «علم التوحيد»:

إن مسائل علم التوحيد تتضمن معرفة الأحكام الشرعية العقدية كأحكام الألوهية، وعصمة الرسل، وقضايا اليوم الآخر، ونحو ذلك، وقد عنيت كتب العقائد به أعظم عناية، وكتبت في تحريره وتقريبه -على منهج السلف الصالح أهل السنة والجماعة- مطولات ومختصرات، ومنظومات ومنثورات من زمن السلف وإلى يوم الناس هذا.

وهذا يبين أن أهل السنة والجماعة، كانوا يهتمون بمسائل الاعتقاد غاية الاهتمام، وتكلموا عنها بعلم وفقه -رحمهم الله تبارك وتعالى-.

التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا وفطرة:

التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا:

توحيد الألوهية هو الأصل في خلق بني آدم؛ لأن الله خلقهم موحدين، وذلك أن أباهم آدم هو أول الموحدين. وبذا يعلم أن ما يدعيه بعض الناس من علماء الاجتماع وغيرهم -مسلمين أو كفارًا- من أن الإنسان الأول -كما يقولون- قد عبد الطوطم- والمراد بالطوطم: أصل القبيلة- وهذا لا شك خطأ محض، لا دليل عليه سوى التخرص، والحكم بالظن، والظن لا يغني من الحق شيئًا، بل إنه يخالف الأدلة القطعية أيضًا من الكتاب والسنة النبوية والفطرة.

ونحن الآن نقيم الدليل على أن الأصل في البشر هو التوحيد من الناحية التاريخية، يعني: أن التاريخ على مداره يدل ويشير ويرشد إلى أن الأصل في البشر هو التوحيد.

وما زال الناس في تاريخهم الطويل، من آدم إلى نوح (عليه السلام) والتي تقدَر بعشرة قرون -على التوحيد حتى حدث ما حدث في قوم نوح من عبادة الأصنام؛ بسبب الغلو في صالحيهم، وعنهم انتشر الشرك في الناس بعدهم، وهكذا ما زالت الرسالات تترى وتتوالى، وتعيد الناس إلى العهد الأول وهو التوحيد، حتى رفع عيسى (عليه السلام) وحرُفت شريعته، فانتشر الشرك في الأرض، بسبب تحريف الوحي وتبديله.

وأما الجزيرة العربية، فقد انقسم الناس فيها إلى أربع طوائف، انقسموا إلى:

١- يهود.

٢- نصارى.

٣- مشركين.

٤- حنفاء.

ففي المدينة النبوية قطن اليهود، وفي شمال الجزيرة سكن النصارى، وكذلك في جنوبها الغربي -أي: في اليمن وما قاربها- وفي مكة كان المشركون، وإنما حدث الشرك فيهم بعد أن كانوا على ملة إبراهيم موحدين، بسبب تلك الرؤيا التي أراها الشيطان عمرو بن لحي الخزاعي -والذي كان شيخ مكة، والمقدم عندهم، وكانوا لا يصدرون رأيًا ولا يوردونه إلا بمشورته -والتي أعلمهم فيها- أي: الشيطان أعلم عمرو بن لحي- بمواقع الأصنام التي طمرها الطوفان أي: طوفان قوم نوح (عليه السلام).

وقد كان في الجزيرة العربية ورقة بن نوفل الذي تنصر، وزيد بن عمر بن نفيل الذي هام على وجهه، وعبد الله على ملة إبراهيم، وكان هؤلاء على الملة الحنيفية ملة إبراهيم (عليه السلام) وقد أخبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن زيد بن عمرو بن نفيل أنه: «يبعث أمة وحده». ولم يزل حال الناس على ذلك إلى بعثة النبي محمد -صلى الله عليه وسلم-.

ومع هذا الوضوح من الناحية التاريخية، إلا أننا نجد شبهة أثارها بعض الناس، ومفادها: أن الأصل في الإنسان أنه مشرك، وأن التوحيد طارئ عليه، وقد زعم أصحاب هذه المقولة: أن الإنسان عرف الشرك، وتعدد الآلهة أولًا، ولم يعرف عقيدة التوحيد إلا بعد أن تطورت ومرت بعدة مراحل.

ويجب علينا أن نرد عليهم في هذا المقام، وأن نبين أن التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا.

وذلك بالأدلة التالية:

أولًا: إن الغاية من خلق آدم (عليه السلام) وذريته هي عبادة الله وحده، كما قال تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» [الذاريات: ٥٦].

ثانيًا: آدم (عليه السلام) أبو البشر، وحواء أمهم كانا على التوحيد، وحين أكلا من الشجرة، علما أن لهما ربًا يقبل التوبة عن عباده، ويعفو عن السيئات، فتضرعا إليه قائلين: «رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» [الأعراف: ٢٣].

ثالثًا: إن الله اصطفى آدم (عليه السلام) وشرّفه بذلك، قال تعالى: «إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ» [آل عمران: ٣٣]، ولا يكون الاصطفاء لمشرك أبدًا، وقد أمر ملائكته بالسجود له، كما قال (جل شأنه): «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» [البقرة: ٣٤].

رابعًا: إن الله عز وجل قد أخذ العهد والميثاق على بني آدم، وهم في صلب أبيهم آدم (عليه السلام) أنه ربهم، وأشهدهم على أنفسهم، كما قال ربنا سبحانه في كتابه: «وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا» [الأعراف: ١٧٢].

خامسًا: إن ذرية آدم (عليه السلام) من بعده كانوا يدينون بالتوحيد الخالص طيلة عشرة قرون؛ حتى حدث الشرك في قوم نوح (عليه السلام) وعند وقوعه بعث الله تعالى إليهم نوحًا (عليه السلام) يدعوهم إلى عبادة الله وحده؛ يقول تعالى: «لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ» [الأعراف: ٥٩].

سادسًا: كلما انحرفت البشرية عن التوحيد، أرسل الله الرسل تدعو إلى عبادته وحده، ونبذ ما يُعبد من دونه، كما قال تعالى مخاطبًا رسوله -صلى الله عليه وسلم-: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ» [الأنبياء: ٢٥].

ولهذه الأمور الستة أو الأدلة البينة الواضحة، نستطيع أن نقول: إن الدليل والبرهان يؤكد أن الأصل في البشر هو التوحيد، وذلك من الناحية التاريخية.

(ب) التوحيد هو الأصل في البشر فطرة:

المراد بالفطرة هنا: أصل الخلقة، وهي ما أوجد الله عليه الناس ابتداءً من الإيمان به عز وجل وتوحيده.

وكما كان التوحيد هو الأصل في البشر تاريخًا، فهو الأصل في البشر فطرة، للأدلة التالية:

أولًا: إن الله عز وجل منذ أوجد البشر فطرهم على التوحيد والإيمان به سبحانه خالقًا ومعبودًا،

وأخذ عليهم العهد والميثاق منذ كانوا في أصلاب آبائهم. وقد ذكرنا الدليل على ذلك آنفًا.

ثانيًا: إن الله عز وجل قد أمر رسوله -صلى الله عليه وسلم- وأمّته داخلة في الخطاب، أن يقيموا وجوههم، ويخلصوا دينهم له؛ لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطرهم رب العالمين عليها، قال تعالى: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » [الروم: ٣٠].

ثالثًا: قد أخبر مولانا عز وجل أنه خلق عباده حنفاء كلهم، موحدين، مسلمين، مستقيمين، منيبين لقبول الحق؛ لأن ذلك هو مقتضى الفطرة التي فطرهم عليها حين أخذ عليهم العهد في الذرّ. يقول الله عز وجل كما في الحديث القدسي الذي يرويه النبي -صلى الله عليه وسلم-: «واني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمت عليهم ما أحللت لهم، وأمرتهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا» فالعباد كلهم مفطورون على الإسلام، والإيمان الصحيح، ولكن للشياطين دور في مسخ الفطرة، وتشويهها، وجعلها تنحرف عن المسار السوي.

فإذا طرأ على الفطرة ما يصرفها عن الصواب والحق، فإنها تحتاج إلى ما يصحّح لها مسارها، ويردها عن الانحراف، وهذه مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام.

رابعًا: أخبر الرسول -صلى الله عليه وسلم- أن كل مولود يولد مهيئًا للإسلام، وذلك في قوله: «ما من مولود إلا يولد على الفطرة، فأبواه يهوّدانه وينصّرانه ويمجّسانه، كما تُنتَجُ البَهيمَةُ بَهيمَةً جَمْعَاءَ هَل تحسون فيها من جَدْعَاء؟» ثم يقول أبو هريرة راوي الحديث: واقرءوا إن شئتم: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا » [الروم: ٣٠].

خامسًا: إن الفطرة تدل على توحيد الألوهية؛ لأن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية؛ فمن أيقن أن الله ربه وخالقه، فلابد أن يصرف العبادة له وحده، كما قال تعالى: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ » [البقرة: ٢١].

فالإنسان إذا آمن بأن الله عز وجل هو الخالق، الرازق، المحيي، المميت، بيده الأمر كله، وإليه يرجع الأمر كله، فلا بد أن ينتهي به الأمر إلى أن المعبود بحقّ هو الله وحده دون سواه، لا شريك له؛ فيخضع قلبه له محبة، وإنابة، وذلًا، وخوفا، وخشية، وتوكلًا؛ إذ كيف يُعبد، أو يُخاف، أو يُحب محبة عبادة، أو يتوكل على مخلوق لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا؟!

ولعل الضوء الوحيد الذي يكشف لنا عن حال هذه الفترة هو ما جاء في قول الله (تبارك تعالى) من سورة البقرة: « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ ۚ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ ۗ وَاللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ » [البقرة: ٢١٣].

فالتوحيد هو الأصل، والشرك طارئ عليه، والناس كانوا أولًا على هدى قبل أن تنحرف بهم الأهواء وتزلهم الشياطين.

التأكيد على أن الشرك طارئ على بني آدم:

فسر النبي -صلى الله عليه وسلم- في سنته أن الظلم شرك عظيم. وقال الله تعالى: « إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » [لقمان: ١٣]، وقال -صلى الله عليه وسلم-: «ألا أخبركم بأكبر الكبائر، الشرك بالله» إلى آخر ما جاء في هذا الحديث.

وإذا كان الرسول -صلى الله عليه وسلم- قد خاف على أمته الشرك الأصغر، فخَوْفه عليهم من الشرك الأكبر أعظم؛ لأنه أخطر، والأحكام المترتبة عليه في الدنيا أكبر، وإذا ثبت كونه نوعًا من الانحراف، لم يكن أصلًا طالما أنه لون من ألوان الانحراف، لا يمكن أبدًا أن يكون أصلًا من الأصول أو أمرًا من الدين لا تاريخًا ولا فطرة؛ لأن الحكم عليه بالانحراف يدل على أنه ميل عن الحق الذي أراده الله لعباده، وقد أكّد هذا المعنى قوله -صلى الله عليه وسلم-: «من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار» وقال فيما يرويه عن ربه عز وجل: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه»، وهذه الأمور لا تترتب إلا على نوع من انحراف عظيم، بل هو أعظم انحراف وجد على هذه البسيطة

وللحديث بقية إن شاء الله.

افتتاحية العدد

البرهان على أن طاعة الرسول من طاعة الرحمن

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على من آتاه الله الكتاب ومثله معه، وعلى آله وأصحابه الهداة المهتدين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن أعداء الإسلام لما عجزوا عن إبطال القرآن الكريم والنَّيْل منه، فكروا في حيلة أخرى يهدمونه بها، وذلك من خلال الطعن في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد اجتمعوا على ذلك منذ القدم، فالخوارج- وهم من أقدم الفِرَق- لما كفَّروا بعض الصحابة لم يأخذوا بأحاديثهم نتيجة لذلك، وكذلك غلاة الشيعة أنكروا السنة ولم يحتجوا إلا بما ورد عن أئمتهم بزعمهم ثم كان الفكر الاعتزالي الذي أعلى من قيمة العقل ومكانته، حتى قدموه على النص، وكانت لهم وقفة عجيبة وجرأة عظيمة في رد النصوص وتكذيبها، كالذي وقع من عمرو بن عبيد المعتزلي في رده لحديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه- المعروف بحديث الصادق المصدوق-، واستمر الحال حتى يومنا هذا، وقد ظهر في أخريات القرن الهجري الماضي جماعة أطلق عليهم القرآنيون لزعمهم الاكتفاء بالقرآن عن الحديث، وأعملوا عقولهم في النصوص، حتى في القرآن ذاته، ولم يرفعوا رأسًا للسنن والآثار، واشتد هؤلاء- بعلم أو جهل- في هذه الأيام، وأصبحوا يرددون أقوال وشبهات السابقين، ونظرًا لخطورة هذا الأمر، ورغبة في إبداء النصح، ودفاعًا عن السنة والدين أبين ما يلي:

أولًا: أهمية طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم والتحذير من مخالفته:

طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم واجبة بنص القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع الأمة، قال الله تعالى: «مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ» [النساء:٨٠]، وقال سبحانه: «وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينًا» [الأحزاب:٣٦]، وقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ» [النساء:٥٩].

قال ابن القيم رحمه الله: «فأمر تعالى بطاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأعاد الفعل إعلامًا بأن طاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تجب استقلالًا من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقًا، سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه». [إعلام الموقعين ١/ ٤٨].

كما أوجب الله تبارك وتعالى النزول على حكمه في كل خلاف، فقال سبحانه: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ

فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » [النساء:٦٥ ، فقد أقسم الله تعالى في الآية بربوبيته للنبي صلى الله عليه وسلم، وفي ذلك تكريم للنبي صلى الله عليه وسلم، ثم أمر بتحكيمه في القضايا التي يقع فيها خصام، وعلى الجميع أن يرضى وينشرح صدره بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وألا يكون هناك ضيق أو شك في حكمه عليه الصلاة والسلام، مع ضرورة الانقياد والتسليم له صلى الله عليه وسلم، قال القاسمي رحمه الله في تفسيره للآية: "اعلم أن كل حديث صح عن رسول الله صَلّى الله عليه وسلّم، بأن رواه جامعو الصحاح، أو صححه من يرجع إليه في التصحيح من أئمة الحديث، فهو مما تشمله هذه الآية، أعني قوله تعالى: «مِمَّا قَضَيْتَ»؛ فحينئذ يتعين على كل مؤمن بالله ورسوله الأخذ به وقبوله ظاهراً وباطناً، وإلا بأن التمس مخارج لرده أو تأويله، بخلاف ظاهره، لتمذهب تقلّده وعصبية رُبِيَ عليها، كما هو شأن المقلدة أعداء الحديث وأهله" [محاسن التأويل: ٥/١٣٧٣ .

وقال الشنقيطي- رحمه الله- في الآية: «أقسم تعالى في هذه الآية الكريمة بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يحكّم رسوله صلى الله عليه وسلم في جميع الأمور، ثم ينقاد لما حكم به ظاهرًا وباطنًا، ويسلمه تسليمًا كليًا من غير ممانعة ولا مدافعة ولا منازعة». [أضواء البيان ١/ ٣٣٤ .

كما بيّن تعالى الله في كتابه بيانًا واضحًا أن من أطاع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد أطاع الله، قال الله تعالى: «مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ » [النساء:٨٠ ، ومعنى الآية: أن الرسول صلى الله عليه وسلم يُطاع، وطاعته طاعة الله، لأنه مبلّغ عن الله تبارك وتعالى، وهو حامل رسالة الرب إلى الخلق، فمن أطاعه فقد أطاع الله بذلك،

قال ابن كثير رحمه الله: يخبر تعالى عن عبده ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم بأن من أطاعه فقد أطاع الله ومن عصاه فقد عصى الله، وما ذاك إلا لأنه ما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى. قال ابن أبي حاتم: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا أبو معاوية عن الأعمش، عن أبي

صالح، عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن أطاع الأمير فقد أطاعني، ومن عصى الأمير فقد عصاني" وهذا الحديث ثابت في الصحيحين". [انظر تفسير ابن كثير ١/ ٧٢٦ .

وقد أعلمنا الله في كتابه أن من علامات المنافقين الإعراض عن تحكيم رسول الله صلى الله عليه وسلم في مواطن الخلاف، قال الله تعالى: « وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ ۚ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ ۚ بَلْ أُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ » [النور: ٤٧- ٥١ .

وقد بينت الآيات موقف المنافقين المعادي للنبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ورفضهم الانصياع لأمره والنزول على حكمه إلا إذا كانت لهم مصلحة في ذلك، بخلاف أهل الإيمان الذين إذا دُعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم قالوا سمعنا وأطعنا، وقد شهد الله لهم بالفلاح لذلك، والجنة التي

يعمل لها المؤمنون ويسعى إليها الساعون لن تكون وتتحقق إلا بطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: « تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » [النساء:١٣ ، وقد أكد ذلك النبي صلى الله عليه وسلم كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا مَن أبى». قالوا: يا رسول الله، ومَن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى». [البخاري: ٧٢٨٠ .

ومن كان صادقًا في حبه لله تعالى ورغب في حب الله له فعليه باتباع النبي صلى الله عليه وسلم وطاعته في كل ما جاء به، قال الله تعالى: « قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ » [آل عمران:٣١ ، قال ابن كثير في تفسيره للآية: هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَن ادعى محبة الله وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذب في دعواه في نفس الأمر حتى يتبع الشرع المحمدي، والدين النبوي في جميع أقواله وأفعاله وأحواله، كما ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أنه قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد"، وقال الحسن البصري وغيره من السلف: زعم قوم أنهم يحبون الله، فابتلاهم الله بهذه الآية، فقال «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ». [تفسير ابن كثير ١/ ٤٩٤ .

كما تعهد الله تعالى لمن أقام شرعه وأطاع ربه ونبيه صلى الله عليه وسلم بالرحمة، فقال تعالى: « وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » [التوبة:٧١ ، وطاعة الرسول صلى الله عليه وسلم تلحق العبد وتجعله مع المنعم عليهم من رب العالمين، وهم خير فقه في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَٰئِكَ رَفِيقًا »

[النساء:٦٩ .

وكما أمر الله في كتابه بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم حذر من مخالفته والخروج على أمره، كما قال تعالى: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » [النور:٦٣ ، وهذا فيه تحذير ووعيد شديد لمن خالف أمره عليه الصلاة والسلام، قال ابن كثير رحمه الله: وقوله «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» أي عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد" أي فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول باطنًا وظاهرًا. «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك. [تفسير ابن كثير ٣/ ٤٢٢ .

وقال الشنقيطي رحمه الله: وهذه الآية الكريمة قد استدل بها الأصوليون على أن الأمر المجرد عن القرائن يقتضي الوجوب؛ لأنه جل وعلا توعد المخالفين عن أمره بالفتنة أو

العذاب الأليم، وحذرهم من مخالفة الأمر. وكل ذلك يقتضي أن الأمر للوجوب، ما لم يصرف عنه صارف، لأن غير الواجب لا يستوجب تركه الوعيد الشديد والتحذير. [أضواء البيان ٦/٢٥٣].

قلت: وهذا يبين أهمية اتباع النبي صلى الله عليه وسلم وعدم الخروج عن سنته بحال، وقد ذكر الشاطبي رحمه الله أن الزبير بن بكار قال: سمعت مالك بن أنس وأتاه رجل فقال: يا أبا عبد الله من أين أحرم؟ قال: من ذي الحليفة، من حيث أحرم رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: إني أريد أن أحرم من المسجد. فقال: لا تفعل، قال: فإني أريد أن أحرم من المسجد من عند القبر، قال: لا تفعل; فإني أخشى عليك الفتنة، فقال: وأي فتنة هذه؟! إنما هي أميال أزيدها، قال: وأي فتنة أعظم من أن ترى أنك سبقت إلى فضيلة قصر عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم؟! إني سمعت الله يقول: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم».

ثم قال الشاطبي معقبًا على ذلك: «وهذه الفتنة التي ذكرها مالك رحمه الله في تفسير الآية: هي شأن أهل البدع وقاعدتهم التي يؤسسون عليها بنيانهم، فإنهم يرون أن ما ذكره الله في كتابه وما سنه رسول الله صلى الله عليه وسلم دون ما اهتدوا إليه بعقولهم». [الاعتصام: ١/١٣٢].

وقال الفضل بن زياد: سمعت أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: نظرت في المصحف فوجدت فيه طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثلاثة وثلاثين موضعًا ثم جعل يتلو: «فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ» [النور:٦٣]، قال ابن بطة رحمه الله معقبًا على هذا الأثر: «فالله إخواني، احذروا مجالسة من قد أصابته الفتنة فزاغ قلبه، وعشيت بصيرته، واستحكمت للباطل نصرته، فهو يخبط في عشواء ويعشو في ظلمة أن يصيبكم ما أصابهم». [الإبانة ١/٢٦٠].

وقد كتب الله الذلة والصغار على كل من حاد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وخالف ما أمر به من الاتباع، قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ يُحَادُّونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ» [المجادلة:٢٠]، وما ذاك إلا لأن الغلبة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى بعد الآية السابقة: «كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ» [المجادلة:٢١].

وأختم هذا المقال بذكر عقوبة وقعت في الدنيا فيها من الذلة والمهانة لرجل حادَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: كَانَ رَجُلٌ نَصْرَانِيًّا فَأَسْلَمَ، وَقَرَأَ الْبَقَرَةَ وَآلَ عِمْرَانَ، فَكَانَ يَكْتُبُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَادَ نَصْرَانِيًّا، فَكَانَ يَقُولُ: مَا يَدْرِي مُحَمَّدٌ إِلَّا مَا كَتَبْتُ لَهُ؟ فَأَمَاتَهُ اللَّهُ فَدَفَنُوهُ فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا فَأَلْقَوْهُ، فَحَفَرُوا لَهُ فَأَعْمَقُوا، فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ، فَقَالُوا: هَذَا فِعْلُ مُحَمَّدٍ وَأَصْحَابِهِ نَبَشُوا عَنْ صَاحِبِنَا لَمَّا هَرَبَ مِنْهُمْ، فَأَلْقَوْهُ فَحَفَرُوا لَهُ، وَأَعْمَقُوا لَهُ فِي الْأَرْضِ مَا اسْتَطَاعُوا فَأَصْبَحَ وَقَدْ لَفَظَتْهُ الْأَرْضُ فَعَلِمُوا أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ فَأَلْقَوْهُ". [البخاري: ٣٦١٧].

وهذا وعيد شديد لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد لكل من أنكر شيئًا، أو عاند رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما جاء به من عند ربه.

أسأل الله تعالى أن يثبتنا على الحق وعلى الهدي المحمدي الذي بعث به النبي صلى الله عليه وسلم، والحمد لله رب العالمين.

القرآن الكريم المصدر الأول للعقيدة والشريعة

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده:

القرآن الكريم: هو المصدر الأول للشريعة أصولها وفروعها، وكل أصل بعده فهو راجع إليه ومعتمد عليه، وهو أفضل الوحي المنزّل على وجه الإطلاق، وكل ما تضمنه فهو حق وصدق كما قال جل شأنه: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا» (النساء: ١٢٢)، وقال: «وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا» (النساء: ٨٧).

وقد تواتر نقله عن العدول الضابطين، وعامة ما ورد فيه من قضايا العقائد هي نص في معناها ودلالتها؛ إذ لا يتصور أن يترك الله (جل جلاله) أمر العقائد الدينية غير واضحة مع أنها أصل الدين ومبناه، وأول الواجبات على العباد، مع تفصيله وتبيينه لأحكام الفروع؛ إذ منزلة العقيدة من الدين منزلة الرأس من الجسد.

وقد نهج القرآن الكريم في إيضاح العقائد طريقين:

الطريق الأول: سياق الآيات القرآنية في مدلولاتها العقدية سياق الأخبار المسلمة التي بلغت من وضوح الدلالة ما لا يتصوّر معه إنكار أحد لها.

الطريق الثاني: سياق الآيات القرآنية جارية على موازين العقول الصحيحة كما في قوله تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ» (الأنبياء: ٢٢).

والمعنى: أنه لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدت السموات والأرض، لكنهما لم تفسدا؛ فالنتيجة ليس فيهما آلهة إلا الله.

وعلى هذا فقد جمع القرآن الكريم في دلالته على العقائد الإلهية بين الخبر وموازين العقل الصحيح، خلافًا لما يدّعيه بعض المتكلمين: من أن دلالة القرآن دلالة خبرية محضة خالصة. وليس أدلّ على بطلان هذا القول من مجيء نوعي الدلالة العقلية والخبرية في نصوص القرآن الكريم إلا أن الدلالة العقلية القرآنية أكمل وأتم من دلالة الأدلة العقلية المنطقية.

عناية القرآن الكريم بالعقيدة:

القرآن الكريم هو كلية الشريعة، وعمدة الملة، وينبوع الحكمة، وآية الرسالة، ونور البصائر والأبصار، فلا طريق إلى الله سواه، ولا نجاة بغيره، ولا تمسك بشيء يخالفه. وهذا كله معلوم من الدين علمًا ضروريًا لا يحتاج إلى استدلال عليه.

وقد أوفى القرآن الكريم على الغاية في بيان العقيدة وتصحيحها في النفوس على أتم وجه وأكمله، وبخاصة في السور المكية، إجمالًا وتفصيلًا. وكان أول ما أنزل وحيًا

على رسول الله -صلى الله عليه وسلم- هو سورة العلق: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ [العلق: ١، ٢ . وهي تتضمن أصول الدين والعقيدة من الأدلة العقلية والفطرية والشرعية على وجود الله تعالى وتوحيده، وصدق الرسول -صلى الله عليه وسلم- وإثبات البعث.

وفي سائر سور القرآن الكريم، نجد السورة الواحدة تجمع أركان العقيدة بأصول عامة تبين أركان الإيمان -وأعظمها الإيمان بالله تعالى- وما يتفرع عن هذه الأركان وينضم إليها، أو يكون من مقتضياتها ومستلزماتها، وتضع كذلك الإجابة الصحيحة الحاسمة على الأسئلة التي تفسر للإنسان أصل وجوده ونشأته وغايته التي يسعى إليها، والمصير الذي ينتهي إليه بعد رحلته في هذه الحياة، وتحدد علاقته بالله تعالى وبالكون وبالحياة والأحياء من حوله.

يقول الإمام الشاطبي -رحمه الله-: وغالب السور المكية تقرر ثلاثة معان، أصلها معنى واحد، وهو الدعاء إلى عبادة الله وتوحيده.

وبيان ذلك كما يلي:

المعنى الأول: تقرير الوحدانية لله الواحد الحق، غير أنه يأتي على وجوه؛ كنفي الشريك بإطلاق، أو نفيه بقيد ما ادّعاه الكفار في وقائع مختلفة، من كونه مقربًا إلى الله زلفى، أو كونه ولدًا، أو غير ذلك من أنواع الدعاوى الفاسدة.

المعنى الثاني: تقرير النبوة للنبي محمد -صلى الله عليه وسلم- وهذا هو المعنى الثاني الذي قررته آيات القرآن في العقيدة؛ قررت نبوة النبي -صلى الله عليه وسلم- وأنه رسول الله إليهم جميعًا، صادق فيما جاء به من عند الله، وهذا المعنى وارد على وجوه أيضًا؛ كإثبات كونه رسولًا -صلى الله عليه وسلم- حقًا، ونفى ما ادّعوه عليه من أنه كاذب، أو ساحر، أو مجنون، أو يعلمه بشر، أو ما أشبه ذلك من كفرهم وعنادهم.

المعنى الثالث: إثبات أمر البعث والدار الآخرة، وأنه حق لا ريب فيه بالأدلة الواضحة، والردّ على من أنكر ذلك بكل وجه يمكن الكافر إنكاره به، فردّ بكل وجه يلزم الحجة، ويبكت الخصم، ويوضح الأمر.

فهذه المعاني الثلاثة هي التي اشتمل عليها المنزل من القرآن بمكة في عامة الأمر، وما ظهر ببادي الرأي خروجه عنها، فراجع إليها في محصول الأمر. ويتبع ذلك: الترغيب والترهيب، والأمثال والقصص، وذكر الجنة والنار، ووصف يوم القيامة، وأشباه ذلك.

وإذا كانت العقيدة هي الموضوع الأساسي الرئيسي في السور المكية، فإنها كذلك موضوع رئيسي في السور المدنية التي تنزلت؛ لتعالج قضايا تشريعية تعرض من خلال هذه العقيدة و مقتضى الإيمان بالله تعالى.

ومن هنا، فإن الحديث عن العقيدة لم ينقطع في المدينة؛ لأنه ليس حديثًا يذكر في مبدأ الطريق ثم ينتقل منه إلى موضوع آخر، إنما يذكر في مبدأ الطريق، ثم ينتقل معه إلى كل موضوع آخر.

أساليب القرآن في الحديث عن الوحدانية والتوحيد:

جاءت أساليب القرآن في هذا الباب على غاية التفنن والإبداع؛ تلطفًا في استدعاء الناس إلى التوحيد، وتأليفًا لقلوبهم، ولفتًا لأسماعهم وأبصارهم، وإقامة للحجة عليهم بكل الأساليب.

ومن ذلك:

١- الأسلوب الأول: أسلوب الخبر المجرد؛ بيانًا للحق، وإعلامًا للخلق. كما قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (الفاتحة: ٢).

٢- الأسلوب الثاني: أسلوب الخبر المؤكد: والمؤكدات التي جاء بها القرآن في شأن الوحدانية والتوحيد كثيرة متنوعة. ومنها: التأكيد بـ «إن»، التأكيد باللام، التأكيد بالقسم. ومثالها جميعًا قول الله تعالى: ﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۝١ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۝٢ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۝٣ إِنَّ إِلَٰهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۝٤ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ﴾ (الصافات: ١-٥).

التأكيد أيضًا بأساليب القصر وهو من ألوان المؤكدات: كأسلوب النفي والاستثناء: كقول الله تعالى: ﴿إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤ .

وأسلوب القصر أيضًا بالتقديم والتأخير: كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥ فتقديم المفعول: «إيَّاكَ» أفاد قصر العبادة على الله تعالى وحده.

الأسلوب الثالث: أسلوب الأمثال، وهو باب في القرآن الكريم، يُقصد به تقرير المعاني في نفس السامع، وتصويرها في صورة محسوسة ملموسة عن طريق التشبيه، أو الاستعارة أو غيرهما من أساليب البيان، ومن ذلك: قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤١).

الأسلوب الرابع: أسلوب المحاورة، وهو الذي يورد فيه الحديث عن التوحيد من خلال حوار يجري بين طرفين أو أكثر، فيتقرر في النفس أكثر من الخبر

المجرد. قال تعالى: « وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٤١﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْئًا » [مريم: ٤١-٤٢].

الأسلوب الخامس: أسلوب القصة، وهو أسلوب من أوسع أساليب القرآن في التوحيد وغيره، وقد عنى القرآن الكريم بهذا الأسلوب وأكثر منه؛ لما للقصة من تأثير في النفوس، وسهولة في الحفظ، وانتشار وذيوع بين الناس، وأوضح مثال لذلك قصة إبراهيم (عليه السلام) مع قومه وأصنامهم وتحطيمه لها، وتقريره للتوحيد من خلال المشاهد المتتابعة التي جرت بينه وبين قومه كما قص الله علينا ذلك في عديد من سور القرآن الكريم.

ومن ذلك قول الله تعالى: « قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ » (الأنبياء ٦٦-٦٧).

أنواع الأدلة القرآنية في الدلالة على التوحيد:

النوع الأول: الأدلة الحسية:

والدليل الحسي: هو الذي يسوقه القرآن الكريم ويستخدم فيه الكائنات؛ للتدليل على وجود الله تعالى ووحدانيته، وسعة قدرته وعظيم حكمته. والقرآن الكريم يتخذ كل شيء في الكون دليلًا له، خاصة وجود الكون من العدم وانتظامه على قوانين مطردة، ونواميس محكمة، وقيامه على غاية التدبر، والتكامل بين أجزائه، والعناية بما فيه من عجائب الأشياء والأحياء. وفي كل هذا يتجه القرآن الكريم إلى الإنسان مخاطبًا قلبه وفكره، ومطالبًا أن يتأمل بحسه هذه الموجودات؛ لينتقل من ملاحظتها في أوضاعها المختلفة إلى ما وراءها، وليدرك من هذه المقدمات الحسية البَدَهِيَة نتائجها القاطعة، فيعلم أن لهذا الكون ربًا موجدًا، وإلهًا واحدًا، مطلق القدرة والإرادة، واسع العلم والحكمة.

النوع الثاني: الأدلة النفسية:

وهي التي تعتمد في انتزاع الدليل على الوحدانية من داخل الإنسان لا من خارجه، ومن أعماق شعوره الداخلي، ووجدانه الباطني، لا من مدركات حواسه المعروفة. وهذا الدليل بالغ الأهمية للإنسان، وفي قضية الإيمان بالذات؛ حتى يخاطبه -أي: الإنسان- من خارجه ومن داخله جميعًا، فتمتلئ نفسه يقينًا لا يتسرب إليه ريب ولا قلق. وكم من إنسان امتلأ عقله بالمعارف والأرقام، وفنون الإحصاء، وامتلأت حواسه بعجائب هذا الكون، ولكنه يمضي متبلد الإحساس بسبب أنه عطل وجدانه الداخلي، كما قال تعالى: « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » (الحج: ٤٦).

النوع الثالث: الأدلة العقلية:

وهي الأدلة التي تعتمد على عمليات نظرية فكرية: كترتيب المقدمات، واستخراج النتائج، وذلك على حسب ضوابط وقوانين وراء بداهة الحس، ومشاعر النفس، وإن كان الإدراك في الجميع راجعًا إلى العقل، والأدلة العقلية أوسع مدى من أشكال المنطق اليوناني وضروبه المنتجة.

وقد استخرج العلماء من القرآن الكريم أنواعًا كثيرة من الأدلة العقلية، منها:

الدليل البدهي:

وهو الذي يقوم على استخدام الحقائق المشهورة، والبديهيات المستقرة في ابتناء الدليل عليها، فيذعن الخصم للدليل إذعانًا إن كان منصفًا. ومن ذلك قوله تعالى: « بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ » (الأنعام: ١٠١).

دليل التمانع:

وهو مأخوذ من قوله تعالى: « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا » (الأنبياء: ٢٢). وتقرير هذا الدليل أن يقال: لو كان للعالم صانعان لكان تدبيرهما لا يجري على نظام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما. وذلك لأنه لو أراد أحدهم إحياء جسم وأراد الآخر إماتته، فحينئذ إما أن تنفذ إرادتهما معًا فيتناقض لاجتماع الضدين. وإما ألا تنفذ إرادتهما معًا فيؤدي إلى عجزهما، أولا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزًا، فبطل ما أدى إليه وهو افتراض التعدد، وثبت نقيضه وهو الوحدانية.

دليل التسليم:

وهو الذي يسلم فيه بوقوع المستحيل تسليمًا جدليًا، ثم يستدل على عدم فائدة هذا المحال على تقدير وقوعه. ومثاله قوله تعالى: « مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ » (المؤمنون: ٩١)

ومعنى الآية الكريمة: ليس معه تعالى من إله، ولو سلم -جدلًا- أن معه إلهًا؛ لزم من ذلك التسليم ذهاب كل إله من الاثنين بما خلق، واستعلاء بعضهم على بعض، فلا يتم في العالم أمر، ولا ينفذ حكم ولا تنتظم أحواله، والواقع المشاهد خلاف ذلك، ففرض إلهين فصاعدًا محال لما يلزم عليه من المحال.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

السنة ومكانتها من دين رب العالمين

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه إلى يوم الدين. وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن أهمية ووجوب طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشرت إلى الوعيد الشديد الواقع على من خالف أمره صلى الله عليه وسلم، وأواصل في هذا اللقاء الحديث حول السنة ومكانتها من دين رب العالمين، فأقول وبالله التوفيق:

١- السنة وحي من الله تعالى:

عصم الله عز وجل نبيه ومصطفاه صلى الله عليه وسلم عن الضلال والغواية، وأخبر أن ما نطق به وحي منه سبحانه، قال الله تعالى: « مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝١ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٢ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » (النجم: ٢- ٤).

فقد نفت عنه هذه الآيات الغواية والضلالة، ودللت على ذلك بأن ما بلّغه لأمته وحي أوحاه الله إليه، وعليه فهو لا ينطق عن الهوى، صلوات الله وسلامه عليه.

قال الشوكاني- رحمه الله- في تفسيره للآيات: «أي: ما يصدر نطقه عن الهوى لا بالقرآن ولا بغيره، وقال أبو عبيدة: إن «عن» بمعنى الباء: أي بالهوى، قال قتادة: أي ما ينطق بالقراءة عن هواه، «إن هو إلا وحي يوحى» أي ما هو الذي ينطق به إلا وحي من الله يوحيه إليه وقوله: «يوحى» صفة لوحي تفيد الاستمرار التجددي وتفيد نفي المجاز: أن هو وحي حقيقة لا لمجرد التسمية». (فتح القدير ٥/١٠٥).

وقد أخبرنا الله في كتابه أنه أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم السنة، كما أنزل الكتاب، وقرنهما معًا في آيات كثيرة منها قوله تعالى: «وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ » (البقرة:٢٣١)، وقال تعالى: «وَأَنزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا » (النساء:١١٣)، والمراد بالحكمة هنا: «السنة» لا غير، قال الإمام الشافعي- رحمه الله-: «فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعنا من أرضى من أهل العلم بالقرآن يقول: الحكمة: سُنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يشبه ما قاله- والله أعلم- لأن القرآن ذُكر واتبعته الحكمة، وذكر الله منّه على خلقه بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يجز- والله أعلم- أن يقال: الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحتّم على الناس اتباع أمره، فلا يجوز أن يقال لقول: فَرْض إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله صلى الله عليه وسلم، كما وصفنا من أن الله جعل الإيمان برسوله صلى الله عليه وسلم مقرونًا بالإيمان». (الرسالة: ٧٨، ٧٩).

وقد أمرنا الله في كتابه اتباع ما أنزله سبحانه، وهذا يشمل القرآن والسنة معًا، قال الله تعالى: « اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ » (الأعراف:٣).

قال القرطبي- رحمه الله- في تفسيره: «يعني الكتاب والسنة، قال الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟» (الحشر:٧). (تفسير القرطبي ١٤٢/٤).

وقال ابن كثير: «أي: اقتفوا آثار النبي الأمي الذي جاءكم بكتاب أنزل إليكم من رب كل شيء ومليكه». (تفسير ابن كثير ٢٧٧/٢).

وقال القاسمي رحمه الله: «خطاب منه تعالى لكافة المتكلمين بالأمر باتباع ما أنزل، وهو القرآن، والمراد «بما أنزل»: القرآن والسنة وقوفًا مع عمومه، لقوله سبحانه: «وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ» (النجم:٤). (تفسير القاسمي ٢٦١٠/٧).

وقد وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فيها أن الله تبارك وتعالى أتاه الكتاب والسنة، كما في حديث المقدام بن معد يكرب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه،... ألا يوشك رجل شبعان متكئًا على أريكته يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه، ألا لا يحل لكم لحمُ الحمار الأهلي، ولا كل ذي ناب من السَّبع، ولا لقطة معاهد، إلا أن يستغني عنها صاحبوه، ومن نزل بقوم فعليهم أن يقروه، فإن لم يقروه فله أن يعقبهم بمثل قِراه». (صحيح سنن أبي داود ٨٧٠/٣).

والحديث يدل على أن الله سبحانه وتعالى أعطى النبي صلى الله عليه وسلم الكتاب والسنة معًا، وقد ذكر البيهقي رحمه الله وجهين للحديث أحدهما: أنه أوتي الكتاب وحيًا يتلى، وأوتي مثله من البيان، أي: أذن له أن يبين ما في الكتاب فيعم ويخص، وأن يزيد عليه، فيشرع ما ليس في الكتاب له ذكر، فيكون ذلك في وجوب الحكم ولزوم العمل به كالظاهر المتلو من القرآن. (عون المعبود ٣٥٥/١٢).

وقال الخطابي رحمه الله: «يحذر بذلك مخالفة السنن التي سنّها رسول الله صلى الله عليه وسلم مما ليس له ذكر في القرآن على ما ذهب إليه الخوارج والروافض من الفرق الضالة، فإنهم تعلقوا بظاهر القرآن وتركوا السنن التي ضمنت بيان الكتاب فتحرروا وضلوا». (المرجع السابق نفس الجزء والصفحة).

وقد وصف النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث فاعل ذلك بصفات تنطبق حقًا على هؤلاء المنكرين منها: أنه رجل شبعان، وهذا كناية عن البلادة وسوء الفهم الناشئ عن الشبع، أو عن الحماقة اللازمة

> القرآن الكريم هو الأصل الأول للدين، والسنة هي الأصل الثاني، ومنزلة السنة من القرآن أنها مبينة وشارحة له، تُفصل مجمله، وتوضح مشكله، وتقيد مطلقه، وتخصص عامه.

للتنعم والغرور بالمال والجاه، ومنها: أنه جالس على أريكته، أي: سريره، وأراد بذلك: أصحاب الترفه والدعة للذين لزموا البيوت ولم يطلبوا العلم من مظانه، قال الشيخ محمد أبو شهبة رحمه الله: «وقد دلّ الحديث على معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم، فقد ظهرت فئة في القديم والحديث تدعو إلى هذه الدعوة الخبيثة، وهي الاكتفاء بالقرآن عن الأحاديث، وغرضهم هدم نصف الدين، أو إن شئت فقل: تقويض الدين كله؛ لأنه إذا أهملت الأحاديث والسنن، فسيؤدي ذلك- ولا ريب- إلى استعجام كثير- من القرآن على الأمة وعدم معرفة المراد منه، وإذا أهملت الأحاديث واستعجم القرآن فقل: على الإسلام العفاء». (دفاع عن السنة ص١٠٥).

٢- لا يمكن فهم القرآن واتباعه إلا بالرجوع إلى السنة:

أنزل الله تعالى كتابه من عنده، وأسند بيان ما فيه للنبي صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ» (النحل:٤٤)، وهذه الآية صريحة في أن بيان القرآن موكول إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا يقتضي أن تحفظ السنة حتى تبين القرآن، ولأنه يستحيل أن يحيل الله عز وجل بيان كتاب إلى أمر غير محفوظ، ومن هنا كانت جهود علماء السنة في تدوينها وخدمتها وتمييز صحيحها من سقيمها، وكان هذا في الواقع خدمة لكتاب الله، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره للآية السابقة: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ» (النحل:٤٤) يعني القرآن «لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ

مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» أي: من ربهم لعلمك بمعنى ما أنزل الله وحرصك عليه واتباعك له، ولعلمنا بأنك أفضل الخلائق وسيد ولد آدم، فتفصل لهم ما أجمل وتبين لهم ما أشكل.(تفسير ابن كثير ٧٧١/٢).

وقال البغوي رحمه الله: «وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ» (النحل:٤٤) أراد بالذكر الوحي، وكان النبي صلى الله عليه وسلم مبيّنًا للوحي، وبيان الكتاب يطلب من السنة. «معالم التنزيل» (٧٠/٣).

وقال الشيخ أبو بكر الجزائري- حفظه الله-: في هداية هذه الآية: «السنة لا غنى عنها، لأنها المبيّنة لمجمل القرآن والموضّحة لمعانيه». (أيسر التفاسير ١٢١/٣).

وقال الدكتور محمد أبو شهبة- رحمه الله-: «القرآن الكريم هو الأصل الأول للدين، والسنة هي الأصل الثاني، ومنزلة السنة من القرآن أنها مبيّنة وشارحة له، تفصل مُجمله، وتوضح مشكله، وتقيّد مطلقه، وتخصص عامه.. وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبين تارة بالقول، وتارة بالفعل، وتارة بهما». (دفاع عن السنة ص١١).

ومن هنا أقول: إن السنة متى ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم فهي تشريع وهداية، وواجبة الاتباع بدلالة القرآن الكريم على ذلك، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يرجعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أشكل عليهم فهمه، ويستفتونه فيما يقع لهم من حوادث، وكان يبين لهم ما أشكل عليهم، ويوضح ما يحتاجون إليه، وهذه بعض الأمثلة الدالة على أنه لا يمكن فهم القرآن ولا تطبيقه إلا بالرجوع إلى السنة، قال الله تعالى: «وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱرْكَعُوا۟ مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ» (البقرة:٤٣)، وهنا أسأل منكري السنة: كيف نصلي ونطبق هذا الأمر؟

أقول: لا يمكن فهمه ولا تطبيقه إلا بالسنة، فهي التي أوضحت كيف نصلي، ومتى نصلي، وعدد ركعات كل صلاة، كما بينت الركوع والسجود والتشهد والقيام، وماذا نقول في كل موطن، كما بينت لنا السنة أحكام صلاة الجمعة والجنائز والاستسقاء والعيدين وغير ذلك.

وكذلك الأمر في تطبيق الزكاة، وقد أوضحت السنة وقت الزكاة، ومقدار النصاب، ومتى تخرج؟ وممن تؤخذ؟ وأين تصرف؟ وكذا الأمر بالنسبة للصيام، وقد جاء الأمر به في القرآن، غير أن آيات

> لقد كان لسلف هذه الأمة مواقف محمودة في تعظيم السنة والدفاع عنها، وقد قال أحدهم: إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها أو ينكر شيئًا من أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فاتهمه على الإسلام فإنه رجل رديء المذهب والقول.

الصيام لم تبين لنا ما المباح لنا فيه، ولا المحظور علينا فعله، ولم تذكر حكم الأكل والشرب ناسيًا، وكذلك لم يذكر لنا في القرآن الأيام التي يستحب صيامها كيوم عرفة، وعاشوراء، والاثنين والخميس، كما ورد في السنة النهي عن صيام بعض الأيام كيوم الفطر والنحر، وما يقال في الصلاة والزكاة والصيام يقال في الحج، وفي كثير مما ورد الأمر به في القرآن، بل إن الحدود لا يمكن تطبيقها إلا بالسنة، قال الله تعالى: «وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (المائدة:٣٨)، لم تبين لنا الآية من أين نقطع اليد، وما المقدار الذي تقطع بسببه؟ وقد بينت السنة أن اليد تقطع في ربع دينار، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تقطع اليد في ربع دينار فصاعدًا». وقد بوّب البخاري لهذا الحديث بقوله: باب قول الله تعالى: «وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا»، وفي كم يقطع؟ وقطع عليٌّ من الكف. (فتح الباري ٩٦/١٢).

كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم آيات من القرآن الكريم، وكان لا يمكن فهمها أو تطبيقها إلا ببيانه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِۦٓ أَذًى مِّن رَّأْسِهِۦ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ» (البقرة:١٩٦)، ولا يمكن لأحد أن يعرف قدر الصيام الوارد في الآية، أو الصدقة، أو المراد بالنسك، إلا عن طريق السنة، وقد أخرج البخاري ومسلم عن عبد الله بن معقل قال: «جَلَسْتُ

إن السنة متى ثبتت عن النبي صلى الله عليه وسلم في تشريع وهداية، وواجبة الاتباع بدلالة القرآن الكريم على ذلك، وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يرجعون إلى النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما أشكل عليهم فهمه، ويستفتونه فيما يقع لهم من حوادث.

إِلَى كَعْبِ بْنِ عُجْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَسَأَلْتُهُ عَنْ الْفِدْيَةِ، فَقَالَ نَزَلَتْ فِيَّ خَاصَّةً، وَهِيَ لَكُمْ عَامَّةً حُمِلْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْقَمْلُ يَتَنَاثَرُ عَلَى وَجْهِي، فَقَالَ: مَا كُنْتُ أُرَى الْوَجَعَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى أَوْ مَا كُنْتُ أُرَى الْجَهْدَ بَلَغَ بِكَ مَا أَرَى تَجِدُ شَاةً فَقُلْتُ: لَا، فَقَالَ فَصُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ أَوْ أَطْعِمْ سِتَّةَ مَسَاكِينَ لِكُلِّ مِسْكِينٍ نِصْفَ صَاعٍ». (البخاري: ١٨١٦، ومسلم ١٢٠١).

كما فسر النبي صلى الله عليه وسلم الظلم الوارد في قول الله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢)، ومن المعلوم أن الظلم أنواعه كثيرة، وفيها الصغير والكبير، وهذه الآية لما نزلت شقت على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم فبين لهم المراد بالظلم، كما ورد في البخاري عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ﴾ (الأنعام:٨٢) قال أصحابه: وأينا لم يظلم؟ فنزلت: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣). (البخاري: ٤٦٢٩).

وقد ذكر الله في كتابه عدة الشهور، وعظم أربعة منها ولم يخبرنا القرآن الكريم عنها، وعرفناها من السنة، وقد جاء في حديث أبي بكرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الزَّمَانَ قَدْ اسْتَدَارَ كَهَيْئَتِهِ يَوْمَ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ؛ السَّنَةُ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ؛ ثَلَاثٌ مُتَوَالِيَاتٌ ذُو الْقَعْدَةِ وَذُو الْحِجَّةِ وَالْمُحَرَّمُ وَرَجَبُ مُضَرَ الَّذِي بَيْنَ جُمَادَى وَشَعْبَانَ». (البخاري: ٤٦٦٢).

٣- موقف أهل السنة ممن عارض السنة

لقد كان لسلف هذه الأمة مواقف محمودة في تعظيم السنة والدفاع عنها، والنماذج على ذلك كثيرة أكتفي بذكر بعضها. قال الإمام الشافعي رحمه الله: حدثني ابن أبي ذئب عن المقبري عن ابن شريح الكعبي أن النبي قال عام الفتح: " من قتل له قتيل فهو بخير النظرين: إن أحب أخذ العقل وإن أحب فله القود" قال أبو حنيفة: فقلت لابن أبي ذئب: أتأخذ بهذا يا أبا الحارث؟ فضرب صدري وصاح علي صياحا كثيرا ونال مني، وقال: أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقول تأخذ به!! نعم، آخذ به. وذلك الفرض علي وعلى من سمعه إن الله اختار محمدا من الناس فهداهم به وعلى يديه واختار لهم ما اختار له وعلى لسانه فعلى الخلق أن يتبعوه طائعين أو داخرين لا مخرج لمسلم من ذلك. قال: وما سكت حتى تمنيت أن يسكت. (الرسالة: ٤٥٠).

ومعنى داخرين: أذلاء صاغرين.

وقال الفضل بن زياد- صاحب الإمام أحمد بن حنبل- من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة. (طبقات الحنابلة ١٥/٢).

وقال الإمام البربهاري رحمه الله: " إذا سمعت الرجل يطعن على الآثار ولا يقبلها أو ينكر شيئا من أخبار رسول الله صلى الله عليه و سلم فاتهمه على الإسلام، فإنه رجل رديء المذهب والقول، ولا يطعن على رسول الله صلى الله عليه و سلم ولا على أصحابه؛ لأنا إنما عرفنا الله وعرفنا رسوله وعرفنا القرآن وعرفنا الخير والشر والدنيا والآخرة بالآثار، فإن القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن" (شرح السنة/٣٥).

وأختم هذا المقال بقول الصديق رضي الله عنه: "لست تاركًا شيئا كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يعمل به إلا عملت به، إني أخشى إن تركت شيئا من أمره أن أزيغ".

قال ابن بطة رحمه الله عقب نقله لهذا القول: هذا يا إخواني الصديق الأكبر يتخوف على نفسه الزيغ إن هو خالف شيئا من أمر نبيه - صلى الله عليه وسلم -، فماذا عسى أن يكون من زمان أضحى أهله يستهزئون بنبيهم وبأوامره، ويتباهون بمخالفته، ويسخرون بسنته، نسأل الله العصمة من الزلل والنجاة من سوء العمل. (الإبانة ٢٤٦/١).

والحمد لله رب العالمين.

السنة ودورها في مسائل الاعتقاد

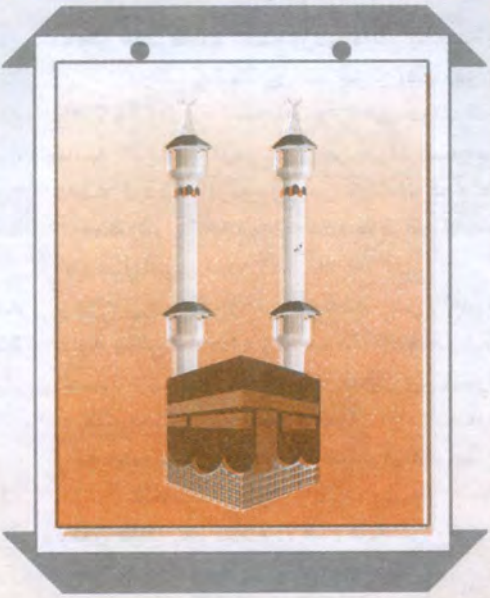

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد فقد ذكرنا في العدد الماضي أن القرآن الكريم هو المصدر الأول للعقيدة، ومنه ينهل المسلم ويتعلم أصول عقيدته، يليه السنة النبوية الصحيحة، التي تبيّن مجمله، وتفسّر مبهمه، وتوضح مشكله، وتخصص عامّه، وتقيّد مطلقه، وهي المنبع الثاني التي يستقي المسلم منها عقيدته الصافية.

وحيث إننا قد استفضنا في إيضاح مكانة السنة النبوية في افتتاحية هذا العدد، فإننا - منعًا للتكرار- نتناول في هذا العدد دور السنة النبوية في إيضاح مسائل العقيدة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أقسام الخبر باعتبار عدد رواته وما يفيده كل قسم:

ويشتمل على النقاط التالية:

أ- أقسام الخبر باعتبار عدد رواته:

ينقسم الخبر باعتبار عدد رواته إلى: متواتر وآحاد.

القسم الأول: الخبر المتواتر:

التواتر في اللغة: هو التتابع.

أما الخبر المتواتر في اصطلاح الأصوليين: فقد اختلفت عبارات الأصوليين في تعريف الخبر المتواتر، وإن كانت متفقة في المعنى، وهذه بعض تعريفاتهم:

يقول ابن الحاجب- رحمه الله- معرفًا الخبر المتواتر بأنه: «خبر جماعة مفيد بنفسه العلم بصدقه».

وقال الآمدي: «والحق أن المتواتر في اصطلاح المتشرعة عبارة عن خبر جماعة مفيد بنفسه العلم بمخبره».

فكل منهما قيده بكونه «خبر جماعة»؛ احترازًا من الخبر الواحد؛ وبكونه «مفيدًا بنفسه العلم»؛ احترازًا من خبر جماعة لا يفيد العلم بنفسه، وإنما أفاد العلم بغير نفسه، كالخبر المحتفي بالقرائن أو بغير القرائن.

الخبر المتواتر
ما يخبر به القوم الذين يبلغ عددهم حدًا، يعلم عند مشاهدتهم بمستقر العادة أن اتفاق الكذب منهم مُحال، وأن التواطؤ منهم في مقدار الوقت الذي انتشر الخبر عنهم فيه متعذر.

تعريف الخبر المتواتر عند أهل الحديث:

ذكر ابن الصلاح رحمه الله: أن أهل الحديث لا يذكرونه باسمه الخاص المشعر بمعناه الخاص، وإن كان

الحافظ الخطيب قد ذكره؛ ففي كلامه ما يشعر بأنه اتبع فيه غير أهل الحديث، ولعل ذلك لكونه لا تشمله صناعتهم، ولا يكاد يوجد في رواياتهم، فإنه عبارة عن الخبر الذي ينقله من يحصل العلم بصدقه ضرورة، ولابد في إسناده من استمرار هذا الشرط في رواته من أوله إلى منتهاه.

ولعل ما ذكره ابن الصلاح من عدم ذكر أهل الحديث لتعريفه خاص بالقدماء منهم؛ لأن متأخريهم يعرفونه بما يتفق مع تعريف أهل الأصول، وإن لم يفصلوا فيه القول مثل أهل الأصول.

وما أشار إليه من تعريف الحافظ الخطيب له، فهو قوله: «فأما الخبر المتواتر فهو: ما يخبر به القوم الذين يبلغ عددهم حدًا، يعلم عند مشاهدتهم بمستقر العادة أن اتفاق الكذب منهم محال، وأن التواطؤ منهم في مقدار الوقت الذي انتشر الخبر عنهم فيه متعذر، وأن ما أخبروا عنه لا يجوز دخول اللبس والشبهة في مثله، وأن أسباب القهر والغلبة والأمور الداعية إلى الكذب منتفية عنهم؛ فمتى تواتر الخبر عن قوم هذه سبيلهم قطع على صدقه، وأوجب وقوع العلم ضرورة».

القسم الثاني: خبر الآحاد:

الآحاد: جمع أحد، وهو بمعنى الواحد، وهمزة «أحد» مبدلة من واو، فأصلها «وحد»، وربما جاءت على الأصل كما في قول نابغة ذبيان:

كأن رحلي وقد زان النهار بنا
لذي الجليل على مستأنس وحد

ويجمع الواحد على «أحدان»، والأصل وحدان»، فقلبت الواو همزة لانضمامها.

وعرف خبر الآحاد بأنه: «الخبر الذي لم ينته إلى حد التواتر، ولم يقصر عن درجة الاحتجاج، وإن روته جماعة»؛ وعليه فالمشهور- أي الحديث المشهور- من خبر الآحاد؛ إذ لا واسطة بين المتواتر والآحاد.

ب- ما يفيده كل قسم:

أولًا: ما يفيده الخبر المتواتر:

ذكر أهل العلم أقوالًا في نوع العلم الحاصل من الخبر المتواتر:

القول الأول: أن الخبر المتواتر يفيد العلم النظري، وهو ما كان عن نظر واستدلال، وهذا منقول عن الكعبي وأبي الحسين البصري.

القول الثاني: أنه يفيد العلم الضروري، وهو الذي يضطر الإنسان إليه؛ بحيث لا يمكنه دفعه، وهذا هو المعتمد، وبه قال الجمهور، يعني: أن الجمهور ذهبوا إلى أن الخبر المتواتر يفيد العلم الضروري.

ثانيًا: ما يفيده الخبر الواحد:

ذهب الإمام أحمد- رحمه الله- في إحدى الروايتين عنه: إلى أن خبر الواحد العدل يفيد القطع إذا صح، واختار ذلك جماعة من أصحابه، منهم: ابن أبي موسى وغيره، ونصر ذلك القاضي في (الكفاية) واختار هذا القول الحارث المحاسبي، وهو قول جمهور أهل الظاهر، وجمهور أهل الحديث.

قال ابن حزم- رحمه الله-: وقد يضطر خبر الواحد إلى العلم بصحته، إلا أن اضطراره ليس بمضطرد ولا في كل وقت، ولكن على قدر ما يتهيأ، فهذا قسم. والقسم الثاني من الأخبار: ما نقله الواحد عن الواحد، فهذا اتصل برواية العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وجب العمل به، ووجب العلم بصحته أيضًا، وقال ابن القيم- رحمه الله- «فممن نص على أن خبر الواحد يفيد العلم: مالك والشافعي وأصحاب أبي حنيفة: وداود بن علي وأصحابه: كأبي محمد بن حزم، ونص عليه الحسين بن علي الكرابيسي، والحارث بن أسد المحاسبي».

قال ابن القيم- رحمه الله-: وصرحت الحنفية في كتبهم بأن الخبر المستفيض يوجب العلم، ومثلوه بقول النبي صلى الله عليه وسلم: «لا وصية لوارث» قالوا: ومع أنه إنما

خبر الآحاد هو الخبر الذي لم ينته إلى حد التواتر، ولم يقصر عن درجة الاحتجاج، وإن رَوته جماعة وعليه فالحديث المشهور من خبر الآحاد، إذ لا واسطة بين المتواتر والآحاد.

روى من طريق الآحاد، قالوا: ونحوه ابن مسعود في المتبايعين إذا اختلفا، إن القول قول البائع أو يترادان، قالوا: ونحوه حديث عبد الرحمن بن عوف في أخذ الجزية من المجوس، قالوا: وكذلك حديث المغيرة بن شعبة ومحمد بن مسلمة في إعطاء الجدة السدس.

وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة، والعمل بالصحيح فقط:

ويشتمل على النقاط التالية:

أ- وجوب الأخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة:

لما اختلف العلماء- رحمهم الله تبارك وتعالى- في إفادة خبر الواحد للعلم أو عدم إفادته العلم، كان لهذا الاختلاف أثر في: هل يؤخذ بأحاديث الآحاد في العقيدة والأحكام، أو يعمل بخبر الواحد في الأحكام فقط دون العقائد؟ فالذين قالوا: بأن خبر الواحد العدل إنما يفيد الظن، قالوا: يحتج به في الأحكام دون العقائد؛ لأن الآحاد لا تفيد اليقين، والعقائد لابد فيها من اليقين، وما ذكروه من التفريق بين ما يقبل فيه خبر الواحد وما لا يقبل فيه يعترض عليه بما يأتي.

الأول: أننا يمكننا أن نطالبهم بفرق صحيح بين ما يجوز إثباته بخبر الواحد العدل من الدين وبين ما لا يجوز إثباته.

الثاني: أن القائلين بإفادته للعلم والقائلين بإفادته للظن اتفقوا على نقل إجماع الصحابة والتابعين على العمل به، ولم يرد عن أحد منهم أن أحدًا من الصحابة منع الاستدلال بخبر الواحد في العقائد؛ لكونه لا يفيد إلا الظن، وأن العقائد لا يحتج فيها إلا بما يفيد القطع، بل الوارد عنهم قبول الخبر متى صح مطلقًا، وتخصيص ذلك بالأحكام دون العقائد يحتاج إلى دليل من كتاب أو سنة أو إجماع قطعي.

الثالث: ما تواتر من إرسال رسول الله صلى الله عليه وسلم رسله وسُعاته إلى الآفاق والملوك المجاورين لجزيرة العرب والقبائل كذلك؛ لتبليغ الرسالة وتعليم الأحكام، وحل العهود وتقريرها، وقبض الزكوات وفصل الخصومات ونحو ذلك، فمن ذلك: أنه صلى الله عليه وسلم بعث دحية بن خليفة الكلبي إلى هرقل عظيم بصرى، وبعث عبد الله بن حذافة السهمي بكتابه إلى كسرى، وعمرو بن أمية الضمري إلى الحبشة، وعثمان بن العاص إلى الطائف، وحاطب بن أبي بلتعة إلى المقوقس صاحب الإسكندرية، وشجاع بن وهب الأسدي إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بدمشق، وسليطة بن عمرو العامري إلى هوذة بن خليفة باليمامة.

ولم يبعث هؤلاء إلا ليقيم بهم الحجة على من بعثوا إليهم، ومن المعلوم: أن أهم ما بعث به هؤلاء هو الدعوة إلى التوحيد، وقد ثبت باتفاق أهل السير، انه صلى الله عليه وسلم كان يلزم من بعث إليهم رسله بقبول قول رسله وحكامه وسعاته، ولو احتاج في كل رسالة إلى إرسال عدد التواتر؛ لم يف بذلك جميع أصحابه، ولخلت دار هجرته صلى الله عليه وسلم من أنصاره، وتمكن منه أعداؤه، وفسد النظام والتدبير، وهذا أمر باطل لا شك في بطلانه؛ فتبين مما ذكر أن خبر الواحد حجة توجب العمل كخبر التواتر، فكما يجب العمل بخبر التواتر في كل ما دل عليه، سواء كان في الأحكام أم العقائد، فكذلك أيضًا ما دل عليه خبر الواحد العدل.

لقد اتفق أهل العلم على نقل إجماع الصحابه والتابعين على العمل بخبر الواحد متى صح عن رسول الله وذلك على السواء في العقائد والاحكام.

فإن قيل: إنما كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث رسله وسعاته لتعليم الأحكام وجباية الزكاة وتوزيعها فحسب، دون الدعوة إلى التوحيد أجيب عنه: بأنه ورد التصريح في كتبه صلى الله عليه وسلم إلى الملوك بالدعوة إلى التوحيد.

فمن ذلك: ما أخرجه البخاري عن ابن عباس: «أنه قال: لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى نحو أهل اليمن، قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك؛ فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات

في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا؛ فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم؛ فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم، وتوق كرائم أموال الناس».

وهذا الحديث نص في محل النزاع؛ لأنه يبين بوضوح أن النبي صلى الله عليه وسلم أمر معاذًا أن يبدأ أهل اليمن في دعوتهم إلى الله بتوحيد الله -تبارك وتعالى-.

الرابع: أن القائلين بأنه لا يحتج به في العقائد: ثبت عنه قبول ما ورد منه في عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ورؤية المؤمنين لله بالأبصار يوم القيامة، وما ورد في نعيم الجنة وعذاب النار، والحوض، والصراط، وغيرها.

وإليك بعض أقوال أهل الكلام الذين قالوا بأنه لا يحتج بحديث الآحاد في العقائد، وقد ذكروا مع قولهم هذا واستدلوا وآمنوا وصدقوا بما ورد في أحاديث الآحاد مما جاء في عذاب القبر وسؤال منكر ونكير وغير ذلك.

قال السرخسي- رحمه الله-: ثم قد ثبت بالآحاد من الأخبار ما يكون الحكم فيه العلم فقط، نحو عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ورؤية الله تعالى بالأبصار في الآخرة؛ فبهذا ونحوه يتبين أن خبر الواحد موجب للعلم، وذكر سعد الدين التفتازاني- رحمه الله-: أن خبر الواحد في أحكام الآخرة من عذاب القبر وتفاصيل الحشر والصراط والحساب والعقاب وغيرهم، مقبول بالإجماع.

وقال البزدوي- رحمه الله-: فأما الآحاد في أحكام الآخرة، فمن ذلك ما هو مشهور، ومن ذلك ما هو دونه، لكنه يوجب ضربًا من العلم على ما قلنا، وفيه ضرب من العمل أيضًا، وهو عقد القلب عليه، ثم اعترفوا به هنا من قبول ما ورد في أحكام الآخرة وغيرها، وهذا يلزمهم قبول ما ورد منها في العقائد؛ لأنه لا يخرج عن عقد القلب؛ ولذا اتفق السلف على نقل أخبار الصفات وليس فيها عمل، وإنما فائدتها وجوب تصديقها، واعتقاد ما فيها؛ ولأن اتفاق الأمة على قبولها إجماع منهم على صحتها، والإجماع حجة قاطعة.

قال الشوكاني- رحمه الله-: ولا نزاع في أن خبر الواحد إذا وقع الإجماع على العمل بمقتضاه؛ فإنه يفيد العلم؛ لأن الإجماع عليه قد صيره من المعلوم صدقه.

ب- وجوب الاقتصار على الحديث الصحيح دون الضعيف:

سنة النبي صلى الله عليه وسلم هي الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويندرج فيها الأحاديث الحسنة التي لم تبلغ رتبة الصحيح، ولذلك ينبغي التوثيق والتثبت من صحة الحديث، وقبوله عند الاستشهاد به، والاحتجاج في قضايا الاعتقاد؛ لأن العقيدة لا تبنى على الأحاديث الضعيفة، بل لا تقوم إلا بما صح به الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد يكون هذا الحديث الصحيح متواترًا قطعي الثبوت، وقد يكون حديثًا مشهورًا مستفيضًا يأخذ حكم المتواتر، وقد يكون حديث آحاد، وكلها في أصل الاحتجاج بها سواء عند صحتها، ينبغي الخضوع لها، وقبولها على الرأس والعين، دون تمحل ولا تكلف، ودون التماس الأعذار لردها، وعدم العمل بها؛ فإن جميع ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من الشرع والبيان كله حق.

وإنما ينبغي بعد ذلك النظر في المنهج الصحيح في الفهم والاستدلال، وإعمال قواعد الاستنباط وضوابط الترجيح عند التعارض مثلًا، أما الأخذ بالحديث الصحيح- وهذا هو الواجب- سواء كان متواترًا أم آحادًا بشرط أن يكون صحيحًا.

> سنة النبي صلى الله عليه وسلم هي الأحاديث الصحيحة الثابتة عن النبي صلى الله عليه وسلم ويندرج فيها الأحاديث الحسنة التي لم تبلغ رتبة الصحيح ولذلك ينبغي التوثيق والتثبت من صحة الحديث وقبوله عند الاستشهاد به والاحتجاج في قضايا الاعتقاد.

وأما الأحاديث الضعيفة والموضوعة المكذوبة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فلا يجوز الاحتجاج بها، ولا تجوز روايتها أصلًا، إلا لبيان حالها، وإنما ينبغي الإعراض عنها؛ لأن العقيدة لا تثبت بالأحاديث الضعيفة فضلًا عن الموضوعة.

وللحديث بقية إن شاء الله.

افتتاحية العدد

هداية البشرية في التسليم للنصوص الشرعية

بقلم / الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وبعدُ:

فإن أصل دين الإسلام يقوم على الاستسلام والانقياد لرب الأرض والسماوات، قال الله تعالى: « وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ » (الزمر:٥٤)، وحقيقة الاستسلام: تعظيم أمر الله تبارك وتعالى ونهيه، والوقوف عند حدود ما أنزله على نبيه صلى الله عليه وسلم وعدم تعدّيه بحال من الأحوال، قال الله تعالى: « ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقۡوَى ٱلۡقُلُوبِ » (الحج:٣٢)، ومن أراد تعظيم الله تبارك وتعالى فليعظّم النص الشرعي؛ لأن تعظيمه سبحانه مستلزم لتعظيم أحكامه ونصوص شرعه الواردة في الكتاب والسنة.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «إن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، وذلك لأن المؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه، وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتباعه وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن لأمر الله ونهيه دالاً على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والتصديق، وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر». (الوابل الصيب: ١٦).

من علامات الإيمان:

وذكر سبحانه أن من علامات الإيمان: التسليم الكامل المطلق للنص الشرعي، دون اختيار أو توقف، قال تعالى: «وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا » (الأحزاب:٣٦)، قال الحافظ ابن كثير رحمه الله: «فهذه الآية عامة في جميع الأمور، وذلك أنه إذا حكم الله ورسوله بشيء، فليس لأحد مخالفته ولا اختيار لأحد هاهنا، ولا رأي ولا قول، كما قال تبارك وتعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيۡنَهُمۡ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ حَرَجٗا مِّمَّا قَضَيۡتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا » (النساء:٦٥)». (تفسير ابن كثير: ٦٦٢/٣).

فمن عظّم الله تعالى طرح هواه، واتبع الكتاب والسنة، ونبذ ما سواهما، وهذه صفة أهل الإيمان واليقين، وقد وصف الله المؤمنين بأن شأنهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم السمع والطاعة والتسليم والانقياد، كما قال تعالى: «إِنَّمَا كَانَ قَوۡلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ أَن يَقُولُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ » (النور:٥١).

ويلاحظ أن الآية حصرت الفلاح فيهم، وهو ما يسعى إليه المؤمن الموحد؛ لأن الفلاح: هو الفوز بالمطلوب، والنجاة

من المكروه، ولا يكون إلا بطاعة الله والرسول صلى الله عليه وسلم، فلا بد من التسليم التام والخضوع الكامل للنصوص الشرعية، والتسليم: يعني خضوع القلب والانقياد للرب المتضمن لأعمال الجوارح، كما أن التسليم خلاص من شبهة تعارض الخبر، وشهوة تعارض الأمر، أو اعتراض يعارض القدر والشرع، وصاحب هذا التوجيه هو صاحب القلب السليم الذي لا ينجو يوم القيامة إلا من أتى الله به.

إن صفة التسليم للنصوص الشرعية من أهم صفات أهل الإيمان، وبها ينالون الدرجات العلى عند ربهم الرحمن؛ لأنه لا أحد أحسن دينًا وعاقبة ممن أسلم وجهه لله تعالى، كما قال سبحانه: « وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا » (النساء:١٢٥).

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم اعتصامهم بالكتاب والسنة، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان أنه لا يُقبل من أحد قط أن يعارض القرآن لا برأيه ولا ذوقه ولا معقوله ولا قياسه ولا وجده؛ فإنه قد ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول جاء بالهدى ودين الحق، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم». (مجموع الفتاوى: ١٣/ ٨٨).

وقد أخبر الله في كتابه أن الإعراض عن النص الشرعي، أو معارضته والتحاكم إلى غيره من الآراء والأهواء هو سبيل أهل النفاق، قال سبحانه: « وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَآ أُو۟لَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ » (النور: ٤٧- ٥١).

قال السعدي رحمه الله في تعليقه على هذه الآيات: «وفي هذه الآيات، دليل على أن الإيمان، ليس هو مجرد القول حتى يقترن به العمل، ولهذا نفى الإيمان عمن تولى عن الطاعة، ووجوب الانقياد لحكم الله ورسوله في كل حال، وأن مَن لم ينقد له دل على مرض في قلبه، وريب في إيمانه،

> إن صفة التسليم للنصوص الشرعية من أهم صفات أهل الإيمان، وبها ينالون الدرجات العلى عند ربهم الرحمن؛ لأنه لا أحد أحسن دينًا وعاقبة ممن أسلم وجهه لله تعالى.

وأنه يحرم إساءة الظن بأحكام الشريعة، وأن يظن بها خلاف العدل والحكمة». (تيسير الكريم الرحمن: ٥/ ٤٣٥).

(ما فرطنا في الكتاب من شيء)

وقد بَيَّن الله تبارك وتعالى في القرآن كل شيء، سواء كان في أصول الدين وفروعه، أو أحكام الدنيا والآخرة، فكل ما يحتاج إليه العباد، فهو مبيَّن في الكتاب أتم تبيين، كما قال الله سبحانه: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ » (النحل:٨٩).

قال ابن كثير: «قد بيَّن لنا في هذا القرآن كل علم، وكل شيء وقال مجاهد: كل حلال وحرام. فإن القرآن اشتمل على كل علم نافع من خبر ما سبق، وعلم ما سيأتي، وحكم كل حلال وحرام، وما الناس إليه محتاجون في أمر دنياهم ودينهم، ومعاشهم ومعادهم». (تفسير ابن كثير ٢/ ٧٨٥).

وقال تعالى: «مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ» (الأنعام:٣٨). قال القرطبي: «أي ما تركنا شيئًا من أمر الدين إلا وقد دلنا عليه في القرآن؛ إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب». (تفسير القرطبي ٦/ ٤٢٠).

وقال ابن الجوزي: «ومحال أن يقع في سياسة

الإله خلل يحتاج معه إلى سياسة الخلق

قال الله عز وجل: «ما فرطنا في الكتاب من شيء» وقال «لا مُعقِّب لحكمه» فمدّعي السياسة مدّعي الخلل في الشريعة». (تلبيس إبليس: ص١١٩).

حجة الله على العباد:

ولما كان القرآن الكريم تبيانًا لكل شيء، أصبح حجة الله على العباد كلهم، وانقطعت به حجة الظالمين، وانتفع به المسلمون، وكان لهم رحمة ينالون به خيري الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ» (المائدة: ١٥- ١٦).

لقد كان الناس جميعًا قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم في ظلام من الجهل، بأنبياء الله وشرعه، وبآيات الله في أنفسهم والكون، ومن الجهل بنعم الله عليهم في أنفسهم، فلما بعث الله نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم كان بقوله وفعله وسيرته معرفًا للخلق بما كانوا يجهلون، فكان نورًا سطع في ذلك الظلام الحالك بدعوته إلى الله تبارك وتعالى، وكما كانت تنبعث من أقواله وأفعاله وسيرته الأشعة الكاشفة للحقائق كان كذلك القرآن الكريم الذي أنزله ربه وحيًا إليه، يبين بسوره وآياته وكلماته تلك الحقائق أجلى وأوضح بيان.

هداية الدلالة وهداية التوفيق:

وقد دلَّ الله تبارك وتعالى الخلق برسوله وبكتابه على ما فيه حالهم وسعادتهم، ومرضاة خالقهم، وهذه هي هداية الدلالة، وهي من فضل الله العام للناس أجمعين، وبها وبما يجد كل عاقل في نفسه من التمكين والاختيار ما تقوم به حجة الله على العبد، ثم يسَّر مَن يشاء- بحكمته وعدله- إلى العمل بما دلَّ عليه من أسباب السعادة والكمال، وهذه هي دلالة التوفيق، وهي من فضل الله الخاص بمن قبلوا دلالته، وأقبلوا على ما آتاهم من عنده، فآمنوا برسوله والنور الذي أنزل

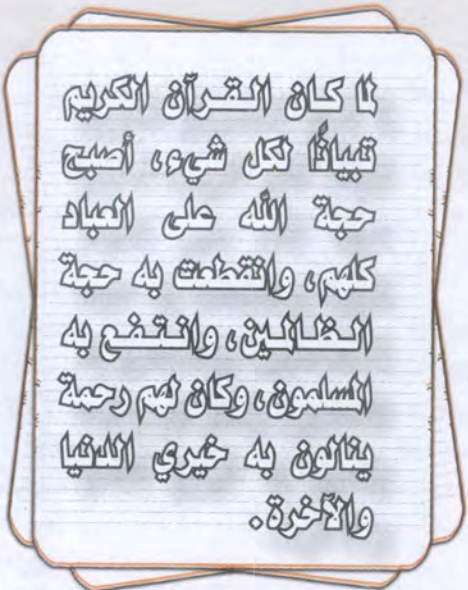

معه، كما قال الله تعالى: «وَٱلَّذِينَ ٱهۡتَدَوۡاْ زَادَهُمۡ هُدٗى وَءَاتَىٰهُمۡ تَقۡوَىٰهُمۡ» (محمد: ١٧).

أما الذين أعرضوا عن ذكره وزاغوا عما دلهم عليه، فأولئك يخذلهم ويحرمهم من ذلك التيسير، كما قال الله تعالى: «فَلَمَّا زَاغُوٓاْ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمۡۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ» (الصف: ٥)، فالمقبلون على الله المتمسكون لما آتاهم من عنده هُدُوا دلالة وتوفيقًا، والذين أعرضوا قامت عليهم الحجة بالدلالة والبيان، وحُرموا من التوفيق جزاء إعراضهم، وكما أنعم الله على عباده بالهداية إلى ما فيه كمالهم وسعادتهم، كذلك أنعم عليهم فبين لهم ما تكون به الهداية، حتى يكونوا على بينة فيما به يهتدون؛ إذ من طلب الهدى في غير ما جعله الله سبب الهدى كان على ضلال مبين، فلذا بيَّن الله تعالى أن هدايته لخلقه إنما تكون برسوله وكتابه، فيتمسك بهما من يريد الهدى، وهذه الهداية مع توفيق الله لعبده وتسديده تكون للذين اتبعوا ما جاء من عند الله، وقد ضمن الله لهؤلاء الهداية، ونفى عنهم الضلال والشقاء، قال الله تعالى: «فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدٗى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ» (طه: ١٢٣)، قال ابن كثير: «فَإِمَّا يَأۡتِيَنَّكُمۡ مِنِّي هُدٗى» قال أبو العالية: الأنبياء والرسل والبيان. «فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ» قال ابن عباس: لا يضل في

الدنيا، ولا يشقى في الآخرة. «وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي» أي: خالف أمري، وما أنزلته على رسولي صلى الله عليه وسلم، أعرض عنه وتناساه وأخذ من غيره هداه «فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا» أي: في الدنيا، فلا طمأنينة له، ولا انشراح لصدره، بل صدره ضيق حرج لضلاله، وإن تنعَّم ظاهره، ولبس ما شاء وأكل ما شاء، وسكن حيث شاء، فإن قلبه ما لم يخلص إلى اليقين والهدى، فهو في قلق وحيرة وشك، فلا يزال في ريبة يتردد، فهذا من ضنك المعيشة. (تفسير ابن كثير ٣/٢٣٣).

ولذلك فإني أقرر هنا: أن كل من ترك النظر والاستدلال بالكتاب والسنة فهو ضال، ولا يغني في النجاة أن يتمسك بأحدهما دون الآخرة، فقال قال النبي صلى الله عليه وسلم: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله». (رواه مالك في الموطأ ٢/٦٨٦، ووصله ابن عبد البر في التمهيد ٢٤/٣٣١).

وبهذا يظهر أن من أعظم الضلال الذي تقع به الفتنة والعذاب إهمال النصوص الشرعية المعصومة، والمصير إلى العقل القاصر، وتحكيم أهواء البشر في نصوص الكتاب والسنة، وما زاغ أهل الكلام قديمًا إلا لما سلكوا هذه الطرق الخاطئة، ثم تبعهم في هذه الأزمان أقوام كان جُلُّ حديثهم في تمجيد العقل وتعظيمه، حتى أعطوه السلطة المطلقة في الحكم على الوحي المنزل، تكذيبًا وتأويلاً، وردًّا وتحريفًا، وما أدرك هؤلاء أنهم يوقعون أنفسهم في الشقاوة، ويناؤون بها عن السعادة، ولقد كان نبينا صلى الله عليه وسلم من أشد الناس تعظيمًا للنص الشرعي، وكان صلى الله عليه وسلم يربي أصحابه رضي الله عنهم على التسليم لله تعالى وآياته وإجلال النصوص الشرعية وتعظيمها، وعندما كان في طريقه إلى المدينة أوصى بكتاب الله وبأهل بيته أيضًا، والحديث في مسلم (٢٤٠٨).

وعن العرباض بن سارية رضي الله عنه، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أُوصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ وَإِيَّاكُمْ وَمُحْدَثَاتِ الْأُمُورِ فَإِنَّ كُلَّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ». (صحيح سنن أبي داود ٣/٨٧١).

ولقد خشي النبي صلى الله عليه وسلم على أمته زيغ القلوب، وفساد العقول، وانحراف الفطرة، وتنكُّب الطريق، وتبديل الدين، ولذلك أمرهم بالاستقامة على ما جاء به. فعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَنَحْنُ نَذْكُرُ الْفَقْرَ وَنَتَخَوَّفُهُ، فَقَالَ: "أَلْفَقْرَ تَخَافُونَ؟ وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَتُصَبَّنَّ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا صَبًّا حَتَّى لَا يُزِيغَ قَلْبَ أَحَدِكُمْ إِزَاغَةً إِلَّا هِيَهْ، وَايْمُ اللَّهِ لَقَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ".

قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ: صَدَقَ وَاللَّهِ رَسُولُ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، تَرَكَنَا- وَاللَّهِ- عَلَى مِثْلِ الْبَيْضَاءِ، لَيْلُهَا وَنَهَارُهَا سَوَاءٌ. (سنن ابن ماجة: ٥، وحسنه الألباني).

فيا أهل الإسلام: الزموا المحجة البيضاء، والصراط المستقيم الذي تركتكم عليه النبي صلى الله عليه وسلم،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وجوب التزام عقيدة أهل السنة والجماعة وذم التفرق و الاختلاف

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فما يزال الحديث موصولاً في باب العقيدة، وفي هذا العدد نتناول موضوعًا غاية في الأهمية، ألا وهو لزوم جماعة المسلمين وذم التفرق والاختلاف، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

بعض أدلة القرآن الكريم في الحث على لزوم الجماعة:

لقد وردت في كتاب الله الكريم آيات تأمر المؤمنين وتحثهم على لزوم الجماعة والائتلاف، وتبين لهم أن الأمة الإسلامية أمة واحدة، وهي حقيقة جاء تأكيدها في أكثر من موضع في القرآن الكريم، ولكن لابد لهذا الأصل العظيم من شروط يجب تحقيقها، وضوابط يجب مراعاتها، ولا سبيل إلى تحقيق هذه الغاية الجليلة إلا باعتبار تلك الشروط والضوابط؛ لذلك جاءت آيات أخرى مبينة للشروط وموضحة للضوابط.

ومن أمثلة ذلك: الأمر بإقامة الدين كله، بتوحيد الله- تبارك وتعالى- واجتناب الشرك بكافة أنواعه وفروعه.

ومن ذلك أيضًا: الحث على الأخوة الإيمانية، والأمر بالتعاون على البر والتقوى، وقد استنبط العلماء- رحمهم الله- من هذه الآيات المقومات الصحيحة لاجتماع المسلمين وتآلفهم.

ومن أهم الأدلة من القرآن الكريم على وجوب لزوم الجماعة:

الدليل الأول: قال الله- تبارك وتعالى-: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا» (آل عمران: ١٠٢، ١٠٣)

هذه آية عظيمة، وهذا هو الدليل الأول، دعوة من رب العالمين إلى تقواه أولًا، وأن يموت العبد على الإسلام، وأن يعتصم بحبل الله، ويتمسك به، ثم تنهاه الآية عنه التفرق والاختلاف.

وقد ذكر الإمام ابن جرير- رحمه الله- بأسانيده عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال في قوله تعالى: «وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا» قال: «الجماعة». وذكر بأسانيده أقوالًا أخرى عن السلف في تفسير معنى «حبل الله»، منها: القرآن، والإخلاص لله وحده، والإسلام.

أما حقيقة الاعتصام بكتاب الله، فيوجزها الإمام ابن القيم- رحمه الله- فيقول «وهو تحكيمه دون آراء الرجال ومقاييسهم، ومعقولاتهم وأذواقهم، وكشوفاتهم، ومواجيدهم، فمن لم يكن كذلك فهو مُنْسَلٌ من هذا الاعتصام- أي: خارج منه- فالدين كله في الاعتصام به، وبحبله، علمًا وعملًا، وإخلاصًا واستعانة، ومتابعة واستمرارًا على ذلك إلى يوم القيامة».

الدليل الثاني: ما جاء في قول الحق- تبارك وتعالى-: «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ» (الحجرات: ١٠)

هذه الآية قد نصت على مبدأ عظيم من مبادئ دين الإسلام، ألا وهو التآخي في الله والتحابب فيه، وقد أولى الإسلام هذا الجانب عناية كبيرة، ويعتبر هذا الجانب من الدعائم

الرئيسية التي تقوم عليها وحدة المسلمين وائتلافهم واجتماعهم؛ لذلك نجد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان من أول الأعمال العظيمة التي قام بها بعد هجرته إلى المدينة النبوية، هو المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، وقد كان لهذا التآخي عظيم الأثر في وحدة المجتمع المسلم، وفي تماسكه وترابطه.

والأخوة في الله- كما أن فضلها عظيم- فهي من ركائز الإيمان التي ينبغي لكل مسلم أن يعني بها، والناظر في حياة المسلمين اليوم، يرى أن هذا المبدأ العظيم قد اعتراه الوهن والضعف؛ وذلك لتفريط المسلمين في حقه، وعدم اعتنائهم به أفرادًا وجماعات، فنجد على مستوى الأفراد أنهم لا يراعون حق الجوار، حتى إن الجار قد لا يعرف جاره وعلى مستوى الجماعات، تحصل بينهم القطيعة، ويحصل بينهم التنافر.

الدليل الثالث: ما جاء في قول الحق- تبارك وتعالى:- « وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ » (التوبة: ٧١)، هذه الآية تقرر مبدأ الولاء بين المؤمنين والمؤمنات، وهو مبدأ أوسع من المبدأ السابق الذي هو التآخي، وما التآخي إلا جزء من الولاء.

قال الشيخ محمد بن سعيد القحطاني في تعريف الولاء: الولاية، هي النصرة، والمحبة، والإكرام، والاحترام، والكون مع المحبوبين ظاهرًا وباطنًا، وإن كان رابط التآخي قد وهن بين المسلمين، فهذا الموضوع- وهو الولاء- قد وهن وضعف من باب أولى، وذلك لأسباب أهمها:

الأول: تفرق المسلمين إلى فرق وشيع وأحزاب؛ حيث أصبح مبدأ الولاء مرتبطا بالحزب والجماعة لا بالإسلام، وهذا غبش في التصور، يقول الشيخ بكر بن عبد الله أبو زيد- حفظه الله-: وإن الحزبية ذات المسارات والقوالب المستحدثة التي لم يعهدها السلف من أعظم العوائق عن العلم، والتفريق عن الجماعة، فكم أوهنت حبل الاتحاد الإسلامي، وغشيت المسلمين بسببها الغواشي.

الثاني: تكالب المسلمين على الدنيا، وتنافسهم عليها؛ مما سبب بينهم الأحقاد والحسد، فأصبحت أغلب علاقات الناس مبنية على أمور الدنيا ومصالحها الزائلة، وهذا انقلاب في المفاهيم.

بعض أدلة القرآن الكريم في ذم التفرق والتحذير منه:

ألفت نظر الباحث في كتاب الله عز وجل إلى أن الآيات التي جاءت في ذم الفرقة أكثر عددًا من الآيات التي جاءت في الحث على الجماعة، ولا غرابة في ذلك؛ لأن الجماعة هي الأصل، وملازمتها هو الواجب والمطلوب، أما مفارقة الجماعة فأمر طارئ وحادث، وهو مع ذلك أمر خطير وشنيع؛ فلذلك جاءت الآيات الكثيرة التي تحذر منه، وتحمل في ثناياها الوعيد الشديد لمن ترك الجماعة وفارقها.

وإليكم بعض هذه الأدلة:

الدليل الأول: قوله تعالى: « وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ » (آل عمران: ١٠٥-١٠٧).

قال ابن جرير- رحمه الله-: يعني بذلك- جل ثناؤه- ولا تكونوا يا معشر الذين آمنوا كالذين تفرقوا من أهل الكتاب واختلفوا في دين الله وأمره ونهيه، من بعد ما جاءهم البينات من حجج الله فيما اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه، فتعمدوا خلافه وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وميثاقه؛ جرأة على الله تعالى أما قوله تعالى: «يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ» فقد قال ابن كثير- رحمه الله- في تفسيرها: يعني: «يوم القيامة حين تبيض وجوه أهل السنة والجماعة، وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة». قاله ابن عباس.

الدليل الثاني: قول الحق- تبارك وتعالى: «وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ

فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

قال الإمام ابن جرير- رحمه الله-: يقول- تعالى ذكره-: وهذا الذي وصاكم به ربكم أيها الناس في هاتين الآيتين من قوله: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الأنعام: ١٥١) وأمركم بالوفاء به، هو صراطه، يعني: طريقه ودينه الذي ارتضاه لعباده، «مُسْتَقِيمًا» يعني: قويمًا لا اعوجاج به عن الحق، «فَاتَّبِعُوهُ» يقول: فاعلموا به واجعلوه لأنفسكم منهاجًا تسلكونه فاتبعوه، «وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ» يقول: ولا تسلكوا طريقًا سواه ولا تركبوا منهاجًا غيره، ولا تبغوا دينًا خلافه من اليهودية والنصرانية والمجوسية، وعبادة الأوثان وغير ذلك من الملل فإنها بدع وضلالات.

بعض أدلة السنة النبوية في الحث على لزوم الجماعة:

وردت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحث على لزوم جماعة المسلمين وتأمر بها، وبأن يلزمها أهل الإيمان.

الحديث الأول:

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرقوا، وأن تُناصحوا مَن ولاه الله أمركم»، وهذا الحديث العظيم الذي أخرجه الإمام مسلم في «صحيحه»، وأخرجه أيضًا الإمام أحمد في «مسنده»، حديثٌ عظيم.

يقول فيه الإمام النووي - رحمه الله تبارك وتعالى -:

وأما الاعتصام بحبل الله فهو التمسك بعهده، وهو اتباع كتابه العزيز وحدوده، والتأدب بأدبه.

ولقد اعتبر الإمام النووي - رحمه الله تبارك وتعالى - لزوم جماعة المسلمين، وتآلف المسلمين فيما بينهم إحدى قواعد الإسلام، وهذه القاعدة التي يُؤصِّلها النووي بناءً على ما جاء في الحديث الصحيح هي قول علماء السَّلف قاطبة.

الحديث الثاني:

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «نضر الله عبدًا سَمع مقالتي هذه فحملها؛ فربَّ حامل الفقه فيه غير فقيه، ورب حامل الفقه إلى مَنْ هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن صدرُ مسلم: إخلاص العمل لله عز وجل ومناصحة أولي الأمر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تُحيط مَن وراءهم».

الحديث الثالث:

وفيه أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خَطَبَ بالشام فقال: قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مقامي فيكم فقال: «استوصوا بأصحابي خيرًا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يَفْشُوا الكذب حتى يُعْجِل الرجل بالشهادة قبل أن يُسألها، وباليمين قبل أن يُسألها، فمن أراد بَحْبُوحَة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد، ومن الاثنين أبعد، فَمَنْ سَرته حسنته وساءته سيئته فهو مؤمنٌ».

هذا حديث عظيم للغاية، فيه الأمر بلزوم جماعة المسلمين، وعدم الخروج عليهم.

الحديث الرابع:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يجمع أمتي على ضلالة، ويدُ الله مع الجماعة، ومَن شذ شذ إلى النار».

الحديث الخامس:

عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يجمع الله هذه الأمة على ضلالة أبدًا، قال: يدُ الله على الجماعة، فاتبعوا السواد الأعظم، فإنه من شذ شذ في النار».

بعض أدلة السنة النبوية في ذم التفرق والاختلاف:

بعض الأدلة التي نهى فيها النبي صلى الله عليه وسلم عن التفرق والاختلاف وذم التفرق والاختلاف.

ومن الأحاديث الواردة في ذلك:

الحديث الأول:

الذي رواه ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من فَارَق الجماعة شبرًا فكأنما خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عنقه».

الحديث الثاني:

عن الحارث الأشعري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله أمرني بالجماعة، وأنه مَن خرج من الجماعة شبرًا، فقد خَلَعَ رِبْقَةَ الإسلام من عنقه».

الحديث الثالث:

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من فارق الجماعة فإنه يموت ميتَةً جاهلية»، والمقصود بمفارقة الجماعة هنا: الجماعة التي لها إمام مُنْتصب، فلا يجوز الخروجُ على هذا الإمام، ولا نَكْسُ بيعته، ويؤيد هذا أن هذه الأحاديث الثلاثة قد وَرَدَتْ بألفاظ أخرى متقاربة، وفيها: «من خرج من السلطان شبرًا»، و«من خرج من الجماعة شبرًا»، والحديث مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما وهو نفسه رضي الله عنه الذي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من كَرِهَ من أميره شيئًا فليصبر، فإنه من خرج من السلطان شبرًا مات ميتَةً جاهليةً»، وفي رواية عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه، فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية».

قال الإمام الحافظ ابن حجر - رحمه الله تبارك وتعالى - في شرحه لهذا الحديث وقوله: «شبرًا» بكسر المعجمة يعني: الشين، وسكون الموحدة يعني: الباء، وهي كناية عن معصيته السلطان ومحاربته. قال ابن أبي جمرة: المراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير، ولو بأدنى شيء، فكَنَّى عنها بمقدار الشبر؛ لأن الأخذ في ذلك يَؤُول إلى سَفك الدماء إلى غير حق إلى أن قال: والمراد بالميتة الجاهلية - وهي بكسر الميم - حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع؛ لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا؛ بل يموت عاصيًا.

الحديث الرابع:

عن عَرْفجة بن شريح الأشجعي رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إنه ستكون هَنَاتٌ وهَنَاتٌ، فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع، فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»، وفي رواية: «فاقتلوه»، وفي رواية أخرى: «من أتاكُمْ وأمركم جميع على رجل واحد يُريد أن يشق عصاكم، أو يفرق جماعتكم، فاقتلوه»، وفي رواية للنسائي عن أسامة بن شريك قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أيما رجل خرج يفرق بين أمتي، فاضربوا عُنُقَهُ».

هذه الأحاديث التي سقناها بهذه الروايات المتعددة تبين أنه لا ينبغي أن يخرج الإنسان على الجماعة، ولا أن يفرق أمر الأمة حتى ولو كان هناك أي لون من ألوان الضعف، وأن من خرج على الجماعة وعلى الإمام الذي اجتمعت عليه جماعة المسلمين، فحُق للمسلمين أن يقتلوه؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «فاضربوه بالسيف كائنًا من كان»، وفي رواية: «فاقتلوه»، ولذلك قال الإمام النووي - رحمه الله - في شرحه لحديث عرفجة السابق: فيه الأمر بقتال من خرج على الإمام، أو أراد تفريق كلمة المسلمين، ونحو ذلك، ويُنهى عن ذلك - يعني: من أراد أن يخرج - فإن لم ينته قُوتل، وإن لم يندفع شره إلا بقتله فقُتل كان هَدَرًا، يعني: لا دية له، مباح الدم؛ لأنه أراد أن يقتل في المسلمين، وأن يُوَهن ويُضعف أمر أهل الإسلام، فقوله صلى الله عليه وسلم: «فاضربوه بالسيف»، وفي الرواية الأخرى: «فاقتلوه» معناه إذا لم يندفع إلا بذلك يعني: إذا لم ينته ويَسْلَم المؤمنون من شره، ولا يُدفع إلا بالقتل، فليفعل أهل الإيمان فيه ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

هداية البشرية في التسليم للنصوص الشرعية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.

وبعدُ:

فقد بينت في العدد الماضي ضرورة التمسك بالنصوص الشرعية، وذكرت ما سمح به المقام من أدلة قرآنية ونبوية حول هذا الموضوع، وزيادة في البيان أقول:

إن الصحابة والتابعين- رضوان الله عليهم- تلقوا القرآن الكريم والسنة النبوية بالانقياد والتسليم، ولقد ضرب الصحابة رضوان الله عليهم أروع الأمثلة وأصدقها في المبادرة والمسارعة إلى امتثال نصوص الشرع، والوقوف عندها، والغضب عند مخالفتها وانتهاكها، وحرصهم وتعظيمهم للنص لم يكن مقصورًا على ما كان واجبًا فحسب، بل تعدى ذلك إلى المستحبات، وهذه بعض المواقف المؤيدة لذلك:

لما برَّأ الله أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها من خبر الإفك الذي اتهمها به المنافقون، قال أبو بكر رضي الله عنه- وكان ينفق على مسطح- أحد الذين خاضوا في هذا الأمر: «والله لا أنفق على مسطح شيئًا أبدًا بعد الذي قال لعائشة ما قال، فأنزل الله: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور:٢٢). قال أبو بكر: بلى والله، إني أحب أن يغفر الله لي، فرجع إلى النفقة التي كان ينفق عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبدًا. (البخاري: ٤٧٥٠).

فتأمل أيها المسلم هذا الموقف من الصدِّيق، وسرعة رجوعه من قوله استجابةً لما أنزل الله في كتابه، ولم يكن عمر الفاروق رضي الله عنه بأقل من أبي بكر في هذا، وكان وقَّافًا عند كتاب الله ولا يتجاوزه، قال ابن عباس رضي الله عنه: قدم عيينة بن حصين بن حذيفة فنزل على ابن أخيه الحرِّ بن قيس، وكان من النفر الذين يدينهم عمر، وكان القرَّاء أصحاب مجالس عمر ومشاورته كهولاً كانوا أو شبانًا، فقال عيينة لابن أخيه: يا ابن أخي، لك وجه عند هذا الأمير، فاستأذن لي عليه، قال: سأستأذن لك عليه، قال ابن عباس: فاستأذن الحرُّ لعيينة، فأذن له عمر، فلما دخل عليه قال: إيه يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب عمر حتى همَّ به، فقال له الحر: يا أمير المؤمنين، إن الله تعالى قال لنبيه صلى الله عليه وسلم: ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ﴾ (الأعراف:١٩٩)، وإن هذا من الجاهلين، والله ما جاوزها عمر حين تلاها، وكان وقَّافًا عند كتاب الله. (البخاري: ٤٦٤٢).

وكان الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين يمتثلون النص الشرعي حتى ولو لم يعلموا الحكمة التي شُرع من أجلها، والدليل على ذلك أن عمر رضي الله عنه جاء إلى الحجر الأسود فقبَّله، وقال: «إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يقبِّلك ما قبلتك». (البخاري: ١٥٩٧، ومسلم: ١٢٧٠).

وقد أراد عمر بقوله هذا أن يعلم الناس أن استلامه للحجر اتباعٌ لفعل النبي صلى الله عليه وسلم وليس تقديسًا للحجر؛ لأنه لا يضر ولا ينفع، قال ابن حجر رحمه الله: «وفي قول عمر هذا التسليم للشارع في أمور الدين، وحُسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفعله ولو لم يعلم الحكمة». (فتح الباري ٤٦٣/٣).

وعن أبي سعيد الخدري قال: صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم، فلما كان في بعض صلاته خلع نعليه فوضعهما عن يساره، فلما رأى الناس ذلك خلعوا نعالهم فلما قضى صلاته قال: ما بالكم ألقيتم نعالكم؟ قالوا: رأيناك ألقيت نعليك فألقينا نعالنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إن جبريل أتاني فأخبرني أن فيهما قذرًا أو قال أذى فألقيتهما، فإذا جاء أحدكم إلى المسجد فلينظر في نعليه، فإن رأى فيهما قذرا أو قال أذى فليمسحهما وليصل فيهما. (أخرجه أحمد في مسنده ٦٢/٣، والحاكم في المستدرك، وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي ٢٦١/١).

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى خاتمًا من ذهب في يد رجل فنزعه فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم إلى جمرة من نار فيجعلها في يده». فقيل للرجل بعد ما ذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا، والله لا آخذه أبدًا وقد طرحه رسول الله صلى الله عليه وسلم. (مسلم: ٢٠٩٠).

وفي قصة كعب بن مالك، ومُرارة بن ربيع العمري، وهلال بن أمية الواقفي، وهم الثلاثة الذين تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك، وفي قصتهم أصدق معاني الطاعة والاستجابة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقصتهم طويلة أكتفي هنا بذكر بعض مواقفها، ومن ذلك ما ذكره كعب رضي الله عنه: «ونهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كلامنا نحن الثلاثة من بَيْنِ مَنْ تَخَلَّفَ عَنْهُ، فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ وَتَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنَكَّرَتْ فِي نَفْسِي الْأَرْضُ فَمَا هِيَ الَّتِي أَعْرِفُ فَلَبِثْنَا عَلَى ذَلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً، فَأَمَّا صَاحِبَايَ فَاسْتَكَانَا وَقَعَدَا فِي بُيُوتِهِمَا يَبْكِيَانِ وَأَمَّا أَنَا فَكُنْتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنْتُ أَخْرُجُ فَأَشْهَدُ الصَّلَاةَ مَعَ الْمُسْلِمِينَ وَأَطُوفُ فِي الْأَسْوَاقِ، وَلَا يُكَلِّمُنِي أَحَدٌ وَآتِي رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأُسَلِّمُ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي مَجْلِسِهِ بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَأَقُولُ فِي نَفْسِي هَلْ حَرَّكَ شَفَتَيْهِ بِرَدِّ السَّلَامِ عَلَيَّ أَمْ لَا، ثُمَّ أُصَلِّي قَرِيبًا مِنْهُ فَأُسَارِقُهُ

النَّظَرَ، فَإِذَا أَقْبَلْتُ عَلَى صَلَاتِي أَقْبَلَ إِلَيَّ، وَإِذَا الْتَفَتُّ نَحْوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي.

حَتَّى إِذَا طَالَ عَلَيَّ ذَلِكَ مِنْ جَفْوَةِ النَّاسِ مَشَيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ جِدَارَ حَائِطِ أَبِي قَتَادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وَأَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَوَاللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلَامَ، فَقُلْتُ: يَا أَبَا قَتَادَةَ أَنْشُدُكَ بِاللَّهِ هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ؟ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَسَكَتَ فَعُدْتُ لَهُ فَنَشَدْتُهُ فَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرْتُ الْجِدَارَ.

قَالَ: فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي بِسُوقِ الْمَدِينَةِ إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ أَنْبَاطِ أَهْلِ الشَّأْمِ مِمَّنْ قَدِمَ بِالطَّعَامِ يَبِيعُهُ بِالْمَدِينَةِ يَقُولُ مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ حَتَّى إِذَا جَاءَنِي دَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ فَإِذَا فِيهِ: أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّهُ قَدْ بَلَغَنِي أَنَّ صَاحِبَكَ قَدْ جَفَاكَ، وَلَمْ يَجْعَلْكَ اللَّهُ بِدَارِ هَوَانٍ وَلَا مَضْيَعَةٍ فَالْحَقْ بِنَا نُوَاسِكَ، فَقُلْتُ لَمَّا قَرَأْتُهَا: وَهَذَا أَيْضًا مِنَ الْبَلَاءِ، فَتَيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّورَ فَسَجَرْتُهُ بِهَا.

حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً مِنَ الْخَمْسِينَ إِذَا رَسُولُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْتِينِي فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتَزِلَ امْرَأَتَكَ، فَقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا أَمْ مَاذَا أَفْعَلُ؟ قَالَ لَا بَلْ اعْتَزِلْهَا وَلَا تَقْرَبْهَا، وَأَرْسَلَ إِلَى صَاحِبَيَّ مِثْلَ ذَلِكَ فَقُلْتُ لِامْرَأَتِي الْحَقِي بِأَهْلِكِ فَتَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ فِي هَذَا الْأَمْرِ». (البخاري: ٤٤١٨).

وفي هذه القصة من المواقف العجيبة أيضًا في التسليم والانقياد للرسول صلى الله عليه وسلم، ومن

ذلك أن أبا قتادة وهو ابن عم كعب وأحب الناس إليه لم يرد عليه السلام ولم يكلمه، وما ذاك إلا لتنفيذ أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما يلاحظ أيضًا أن كعبًا رضي الله عنه حينما أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعتزل زوجته استجاب على الفور، بل وأبلغ من ذلك أنه سأل: أطلقها أم ماذا أفعل؟ ولعل في هذه المواقف عبرة لقوم لم يأبهوا بما جاء عن الله وعن رسوله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم.

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «عن أَنَس بْن مَالك قَالَ كُنْتُ سَاقِيَ الْقَوْم يَوْمَ حُرِّمَتْ الْخَمْرُ فِي بَيْت أَبِي طَلْحَةَ وَمَا شَرَابُهُمْ إِلَّا الْفَضِيخُ الْبُسْرُ وَالتَّمْرُ فَإِذَا مُنَاد يُنَادي فَقَالَ اخْرُجْ فَانْظُرْ فَخَرَجْتُ فَإِذَا مُنَاد يُنَادي أَلَا إِنَّ الْخَمْرَ قَدْ حُرِّمَتْ قَالَ فَجَرَتْ فِي سِكَكِ الْمَدِينَة، فَقَالَ لي أَبُو طَلْحَةَ: اخْرُجْ فَاهْرِقْهَا فَهَرَقْتُهَا، فَقَالُوا أَوْ قَالَ بَعْضُهُمْ قُتِلَ فُلَانٌ قُتِلَ فُلَانٌ وَهِيَ فِي بُطُونِهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ: «لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ»» (مسلم: ١٩٨٠).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم ومن بعدهم يشتد نكيرهم وغضبهم على كل من عارض النص الشرعي برأي، أو قياس، أو استحسان، أو قول أحد من الناس كائنًا من كان، ويهجرون من يفعل ذلك، ولا يسوغون غير الانقياد له والتسليم والتلقي بالسمع والطاعة، ولا يخطر على قلوبهم وعقولهم التوقف في قبوله، حتى يشهد له الفعل أو القياس، أو قول فلان وفلان ومواقفهم في ذلك كثيرة ومشهورة، ومن ذلك ما أخرجه مسلم في صحيحه: «عَنْ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَمْنَعُوا النِّسَاءَ مِنْ الْخُرُوجِ إِلَى الْمَسَاجِدِ بِاللَّيْلِ، فَقَالَ ابْنٌ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ لَا نَدَعُهُنَّ يَخْرُجْنَ فَيَتَّخِذْنَهُ دَغَلًا، قَالَ: فَزَبَرَهُ ابْنُ عُمَرَ، وَقَالَ: أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُ لَا نَدَعُهُنَّ؟!». (مسلم: ٤٤٢).

قال النووي رحمه الله: «فيه تعزير المعترض على السنة، والمعارض لها برأيه، وفيه تعزير الوالد لوده وإن كان كبيرًا». (شرح النووي على مسلم ٤/١٦٢).

وقد ساق ابن بطة بسنده عن الأعرج قال: سمعت أبا سعيد الخدري رضي الله عنه يقول لرجل: أتسمعني أحدث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لا تبيعوا الدينار بالدينار، والدرهم بالدرهم، إلا مثلاً بمثل، ولا تبيعوا منها عاجلاً بآجل، ثم أنت تفتي بما تفتي- يعني: بما يخالف ذلك-، والله لا يؤويني وإياك ما عشت إلا المسجد».

كما ساق بسنده عن سعيد بن جبير، عن عبد الله بن مغفل أنه قال: «نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الحذف، وقال: إنها لا تصطاد صيدًا، ولا تنكا عدوًا، ولكنها تفقأ العين وتكسر السن، فقال رجل لعبد الله بن مغفل: وما بأس بهذا؟ فقال: إني أحدثك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ونقول هذا، والله لا أكلمك أبدًا».

ثم علق ابن بطة على هذه الآثار بقوله: «فاعتبروا يا أولي الأبصار، فشتان بين هؤلاء العقلاء السادة الأبرار الأخيار الذين مُلئت قلوبهم بالغيرة على إيمانهم، والشح على أديانهم، وبين زمان أصبحنا فيه وناس نحن منهم وبين ظهرانيهم، هذا عبد الله بن مغفل صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيد من ساداتهم يقطع رحمه لله، ويهجر حميمه حين عارضه في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحلف أيضًا على قطيعته وهجرانه، وهو يعلم ما في صلة الأقربين وقطيعة الأهلين.. فيا ليت شعري، كيف حالنا عند الله عز وجل ونحن نلقى أهل الزيغ في صباحنا والمساء، يستهزؤون بآيات الله، ويعاندون سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم حائدين عنها وملحدين فيها، سلمنا الله وإياكم من الزيغ والزلل». (الإبانة ج١/٢٥٨).

قلت: رحم الله ابن بطة، وماذا كان يقول لو رأى زماننا اليوم وجهلة من سفهاء الناس يحيدون عن الحق، ويطعنون على السنة، ويسخرون من أهل السنة القابضين على دينهم، وكان الصحابة رضي الله عنهم

كان الصحابة رضي الله عنهم يشتد نكيرهم وغضبهم على كل من عارض النص الشرعي الشريف برأي أو قياس أو استحسان.

آية الحب الصحيح والإيمان الصادق: أن يُقدَّم بين يدي الله ورسوله، قول أحد ولا رأيه ولا عمله مهما كان، في أي زمان ومكان.

يدركون أهمية السنة ومكانتها، فكانوا يتناوبون على سماع الحديث من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفي هذا يقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: «كُنْتُ أَنَا وَجَارٌ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ فِي بَنِي أُمَيَّةَ بْنِ زَيْدٍ وَهِيَ مِنْ عَوَالِي الْمَدِينَةِ، وَكُنَّا نَتَنَاوَبُ النُّزُولَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنْزِلُ يَوْمًا، وَأَنْزِلُ يَوْمًا، فَإِذَا نَزَلْتُ جِئْتُهُ بِخَبَرِ ذَلِكَ الْيَوْمِ مِنَ الْوَحْيِ وَغَيْرِهِ وَإِذَا نَزَلَ فَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ». (البخاري: ٥١٩١، ومسلم: ١٤٧٩).

كما يقطعون الأميال الكثيرة، ويتحملون الصعاب في الحصول على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعملون به، كما في حديث عقبة بن الحارث رضي الله عنه: «أَنَّهُ تَزَوَّجَ ابْنَةً لِأَبِي إِهَابِ بْنِ عَزِيزٍ فَأَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي قَدْ أَرْضَعْتُ عُقْبَةَ وَالَّتِي تَزَوَّجَ، فَقَالَ لَهَا عُقْبَةُ: مَا أَعْلَمُ أَنَّكِ أَرْضَعْتِنِي وَلَا أَخْبَرْتِنِي، فَرَكِبَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَدِينَةِ فَسَأَلَهُ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كَيْفَ وَقَدْ قِيلَ؟ فَفَارَقَهَا عُقْبَةُ وَنَكَحَتْ زَوْجًا غَيْرَهُ». (البخاري: ٢٦٤٠).

ولقد سار أعلام الأمة وعلماؤها على منهج الصحابة الكرام في الاحتجاج بالنص الشرعي وقبوله وعدم معارضته، ومن ذلك ما ذكره الحاكم عن أبي بكر الصبغي أنه كان يخاطب كهلاً، فقال: حدثونا عن سليمان بن حرب، فقال الكهل: دعنا من حدثنا، إلى متى حدثنا وأخبرنا؟ فقال: يا هذا، لست أشم من كلامك رائحة الإيمان، ولا يحل لك أن تدخل هذه الدار، ثم هجره حتى مات. (سير أعلام النبلاء ١٥/٤٨٥).

وعَنْ خُرَزَاذَ العَابِد، قَالَ: حَدَّثَ أَبُو مُعَاوِيَةَ الرَّشِيْدَ بِحَدِيْث «احْتَجَّ آدَمُ وَمُوْسَى»، فَقَالَ رَجُل شَرِيْف: فَأَيْنَ لَقِيَهُ؟ فَغَضِبَ الرَّشِيْدُ، وَقَالَ: النِّطْعَ وَالسَّيْف، زَنْدِيقٌ يَطْعَنُ فِي الحَدِيْث. فَمَا زَالَ أَبُو مُعَاوِيَةَ يُسَكِّنُهُ وَيَقُوْلُ: بَادِرَةٌ مِنْهُ يَا أَمِيْرَ المُؤْمِنِيْنَ! حَتَّى سَكَنَ. (المرجع السابق ج٩/٢٨٨).

قال أبو إسماعيل الصابوني رحمه الله معلقًا على هذه القصة: «هكذا ينبغي للمرء أن يعظّم أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويقابلها بالقبول والتسليم والتصديق، وينكر أشد الإنكار على من يسلك فيها غير هذا الطريق الذي سلكه هارون الرشيد رحمه الله مع من اعترض على الخبر الصحيح، الذي سمعه بكيف، على طريق الإنكار له، والابتعاد عنه، ولم يتلقه بالقبول، كما يجب أن يتلقى جميع ما ورد من رسول الله صلى الله عليه وسلم». (عقيدة السلف وأصحاب الحديث ص١١٧).

وقال البربهاري - رحمه الله-: «وإذا سمعت الرجل يطعن على الآثار، ولا يقبلها أو ينكر شيئًا من أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم فاتهمه على الإسلام، فإنه رجل رديء المذهب والقول». (شرح السنة ص٣٥).

وهكذا تتابعت كلمة أهل العلم على مر العصور في تعظيم النصوص الشرعية والعمل بها، ولقد وفق الله جمعية أنصار السنة المحمدية، فتمسكت بالوحيين، ودعت الناس إليهما والعمل بهما، بل إن هذا الأمر يأتي على رأس اهتمامات الجمعية، ومن يراجع مجلتي الهدي النبوي والتوحيد يجد هذا الأمر ظاهرًا لكل ذي عينين.

وأختم هذا المقال بكلمات مباركات لأحد أعلام أنصار السنة والذي صار فيما بعد إمامًا في الحرم المكي الشريف، وهو الشيخ عبد الظاهر أبو السمح، يقول رحمه الله: «وإن آية الحب الصحيح والإيمان الصادق: أن لا يقدّم بين يدي قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة قول أحد ولا رأيه، ولا عمله، مهما كان، وفي أي زمان كان، وألا يجد لذة العلم، ومتعة البحث إلا في قول وسنة الرسول صلى الله عليه وسلم وهدي الصحابة، وأن يجد لغير ذلك في نفسه مرارة تؤذيه، وطعمًا يؤلمه». (العدد الأول من مجلة الهدي النبوي ص٨).

وانني من هذا المنبر الإعلامي أدعو الأمة إلى التصدي لأقوال الجاهلين وانتحال المبطلين، والمناوئين لسنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وجوب اتباع السلف الصالح ولزوم الجماعة وتجنب الفُرقة

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعدُ:

كراهية النبي صلى الله عليه وسلم للجدال المفضي للاختلاف والتفرق:

إن الله عز وجل بعث محمدًا صلى الله عليه وسلم بالحق، وأنزل عليه الكتاب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد بُعث إلى ذَوي أهواء متفرقة، وقلوب مشتتة، وآراء متباينة، فجمع الله عز وجل به الشمل، وألف به بين القلوب، وعصم به من كيد الشيطان، ثم إن الله عز وجل بين أن هذا الأصل - وهو الجماعة - عماد لدينه، فقال تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱبْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ ٱللَّهِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ» (آل عمران: ١٠٢ - ١٠٧).

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة».

فتأملوا - رحمكم الله تبارك وتعالى - كيف دعا الله إلى الجماعة، ونهى عن الفرقة، وقال في الآية الأخرى: «إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ» (الأنعام: ١٥٩) فبرأ نبيه صلى الله عليه وسلم من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، كما نهانا عن التفرق والاختلاف بقوله: «وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (آل عمران: ١٠٥).

وقد كره النبي صلى الله عليه وسلم من المجادلة ما يفضي إلى الاختلاف والتفرق، فخرج على قوم من أصحابه ذات يوم، وهم يختصمون في القدر، فكأنما يفقأ في وجهه حب الرمان من الغضب، فقال: «بهذا أمرتم أو لهذا خلقتم؟ تضربون القرآن بعضه ببعض. بهذا هلكت الأمم قبلكم».

قال: فقال عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما:

«ما غبطت نفسي بمجلس تخلفت فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما غبطت نفسي بذلك المجلس وتخلفي عنه».

وقد كان العلماء من الصحابة والتابعين ومن بعدهم إذا تنازعوا في الأمر اتبعوا أمر الله تعالى في قوله: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (النساء: ٥٩) وكانوا يتناظرون في المسألة مناظرة مشاورة ومناصحة، وربما اختلف قولهم في المسألة العلمية والعملية، مع بقاء الألفة وأخوة الدين، نعم، من خالف الكتاب المستبين والسنة المستفيضة وما أجمع عليه سلف الأمة خلافًا لا يُعذر فيه، فهذا يُعامل بما يعامل به أهل البدع، فعائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قد خالفت ابن عباس وغيره من الصحابة في أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى ربه، وقالت: «من زعم أن محمدًا صلى الله عليه وسلم رأى ربه فقد أعظم على الله تعالى الفرية»، وجمهور الأمة على قول ابن عباس، مع أنهم لا يبدعون المانعين، الذين وافقوا أم المؤمنين رضي الله عنها.

وأما الاختلاف في الأحكام فأكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلفا مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين مودة ولا أخوة، ولقد كان أبو بكر وعمر رضي الله عنهما سيدا المسلمين يتنازعان في أشياء، لا يقصدان إلا الخير.

والشاهد من كل ذلك أن النبي صلى الله عليه وسلم كره الجدال المفضي إلى التفرق والاختلاف، ونضم ذلك إلى ما ذكرناه من أحاديث عظيمة عن النبي صلى الله عليه وسلم تحث على لزوم الجماعة، وتأمر بها، وتبين أن يد الله مع الجماعة، وأن من شذ شذ في النار، إلى جانب الأحاديث الأخرى التي ذم النبي صلى الله عليه وسلم فيها التفرق والاختلاف، ونهى أمته عن ذلك. ولهذا وجب على عموم المؤمنين أن يلتزموا جماعة المسلمين، يلتزموا أهل السنة والجماعة، وأن يرجعوا إلى أئمتهم وعلمائهم في ذلك.

الاختلاف في الأحكام أكثر من أن ينضبط، ولو كان كلما اختلفا مسلمان في شيء تهاجرا لم يبقَ بين المسلمين مودة ولا أخوة.

وجوب اتباع السلف الصالح ولزوم مذهبهم:

(أ) الأدلة على وجوب اتباع السلف الصالح، ولزوم مذهبهم:

هناك أدلة كثيرة من القرآن والسنة ومن أقوال السلف الصالح توجب اتباع مذهب السلف، منها:

قال تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» (النساء: ١١٥).

أوجب علينا الحق- تبارك وتعالى- اتباع سبيل المؤمنين، وقوله تعالى: «وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ» (التوبة: ١٠٠)؛ فوعد تعالى من اتبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان؛ ويجب على عموم المسلمين أن يفهموا ذلك؛ أن الذي يتبع غير سبيل المؤمنين - وسلفنا الصالح على رأس المؤمنين - متوعَّد بعذاب الله - تبارك وتعالى.

ومن لزم مذهبهم وسار في ركابهم فالله عز وجل قد أثنى عليه في كتابه ووعده بالرضا والرضوان والجنة كما ذكرت الآيات.

كما تلزمنا السنة باتباع سلفنا الصالح: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته» فشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالخيرية والأفضلية لهؤلاء السلف؛ شهد لقرنه ولقرنين بعد قرنه، شهد لهم بالفضل والخير صلى الله عليه وسلم.

كما جاء في وصف الفرقة الناجية في حديث الافتراق

في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»؛ فمتبعهم إذن يكون من الفرقة الناجية؛ لأنه موعود بذلك، ومخالفهم يكون من أهل الوعيد.

وأما ما ورد من أقوال عن السلف الصالح في وجوب اتباع منهج السلف، ولزوم مذهبهم فكثير فعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «اتبعوا ولا تبتدعوا؛ فقد كُفيتم». وعنه أيضًا أنه قال: «إنا نقتدي ولا نبتدي، ونتبع ولا نبتدع؛ ولن نضل ما تمسكنا بالأثر».

وقال الأوزاعي - رحمه الله -: «اصبر نفسك على السنة؛ وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح فإنه يسعك ما وسعهم».

(ب) اهتمام العلماء بعقيدة السلف الصالح:

لقد كان لأئمة أهل السنة والجماعة عناية كبيرة واهتمام بالغ بعقيدة السلف الصالح، فألفوا الكتب الكثيرة في بيانها وإيضاحها من جهة، وفي الرد على أعدائها ومخالفيها من شتى الطوائف والفرق من جهة أخرى، ومذهب السلف وعقيدتهم إنما يُعرف بالنقل عنهم لا بمجرد الزعم والتخرص كما هو حال بعض أهل البدع.

والعلماء حينما دونوا عقيدة السلف إنما دونوها مسندةً، وذكروا ألفاظهم في ذلك بالأسانيد المعتبرة؛ يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تبارك وتعالى -: ومن المعلوم أن مذهب السلف إن كان يعرف بالنقل عنهم، فليرجع في ذلك إلى الآثار المنقولة عنهم، وإن كان يعرف بالاستدلال المحض، بأن يكون كل من رأى قولًا عنده هو الصواب قال: هذا هو قول السلف؛ لأن السلف لا يقولون إلا الصواب، وهذا هو الصواب؛ فهذا هو الذي يجرئ المبتدعة على أن يزعم كل منهم أنه على مذهب السلف؛ فقائل هذا القول قد عاب نفسه بنفسه؛ حيث انتحل مذهب السلف بلا نقل عنهم؛ بل بدعواه أن قوله هو الحق.

وأما أهل الحديث؛ فإنما يذكرون مذهب السلف بالنقول المتواترة، يَذْكُرون من نقل مذهبهم من علماء الإسلام، وتارةً يروون نفس قولهم في هذا الباب؛ كما سلكناه في جواب الاستفتاء؛ فإنا لما أردنا أن نبين مذهب السلف ذكرنا طريقين.

أحدهما: أنا ذكرنا ما يتيسر من ذكر ألفاظهم، ومن روى ذلك من أهل العلم بالأسانيد المعتبرة.

الثاني: أنا ذكرنا من نقل مذهب السلف من جميع طوائف المسلمين من طوائف الفقهاء الأربعة، ومن أهل الحديث والتصوف، وأهل الكلام كالأشعري وغيره، فصار مذهب السلف منقولًا بإجماع الطوائف وبالتواتر، لم نثبته لمجرد دعوى الإصابة لنا والخطأ لمخالفنا كما يفعل أهل البدع».

ونلاحظ أن تدوين العقيدة السلفية قد واكب تدوين السنة النبوية سواءً بسواء؛ ومن ثم فإن الذين عُنوا بالسنة وتدوينها هم أول من عنوا بالعقيدة وتدوينها، وقد لا ينتبه كثير من أتباع أئمة الفقهاء الأربعة أن لأئمتهم سبقًا في هذا المضمار، وأن ما نقل عن بعضهم من أقوال أو تأليفات يعتبر بدايةً لتدوين عقيدة أهل السنة والجماعة؛ لأن أصحاب المذاهب الأربعة - أي: الأئمة الأربعة - كانوا على عقيدة السلف الصالح.

فالإمام مالك - رحمه الله تبارك وتعالى - عقد بابين في كتاب الجامع من «موطئه» عن القدر، وأشار فيهما إلى الرد على القدرية، وللإمام أبي حنيفة - رحمه الله تبارك وتعالى - كتابان في العقيدة هما: (الفقه الأكبر) و(الوصية)، وقد نُقل عن الإمام الشافعي كلام كثير ينتصر فيه لعقيدة أهل السنة والجماعة ويرد به على أهل البدع والأهواء كأهل الكلام ونحوهم.

أما أبرز الأئمة الأربعة والذي كان لهم بَاعٌ في نصرة عقيدة أهل السنة والجماعة والدفاع عنها، وتحمل في سبيلها الأذى والمحن؛

> لقد كان لأئمة أهل السنة والجماعة عناية كبيرة واهتمام بالغ بعقيدة السلف الصالح، فألفوا الكتب الكثيرة في بيانها وإيضاحها من جهة، وفي الرد على أعدائها ومخالفيها.

فهو الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تبارك وتعالى - وله عدة كتب خاصة في العقيدة إلى جانب ما دوَّنه في «مسنده»، وأهم هذه الكتب: (السنة) و(الإيمان) و(الرد على الزنادقة والجهمية) و(فضائل الصحابة)؛ كما أن له مسائل في العقيدة دوَّنها تلاميذه.

ثم يأتي دور بقية أئمة الحديث الذين دونوا السنة النبوية وفي مقدمتهم: الإمام البخاري - رحمه الله تبارك وتعالى - الذي أفرد في «صحيحه» أبوابًا مهمةً في العقيدة، أهمها: (كتاب الإيمان)، و(كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة)، و(كتاب التوحيد)؛ كما أن له كتبًا أخرى مستقلة أفردها في بيان العقيدة الصحيحة والرد على مخالفيها، وأهم هذه الكتب كتاب: (الاعتصام بالكتاب والسنة) و(خَلْق أفعال العباد).

ثم يأتي بعد ذلك دور الإمام مسلم - رحمه الله - الذي خصص هو الآخر أبوابًا في «صحيحه» لتقرير العقيدة الصحيحة، والرد على مَن خالفها، ومن ذلك كتاب: (الإيمان)، وكتاب: (القدر)؛ وكذا فعل الإمام الترمذي.

أما الإمام ابن ماجه - رحمه الله - فقد افتتح «سننه» بمقدمة، ذكر فيها الرد على مَن خالف السنة وعقيدة السلف الصالح، وفعل مثله الإمام أبو داود، حيث جعل في آخر سننه كتابًا أسماه كتاب: (السنة) رد فيه على أهل البدع بمختلف طوائفهم وفرقهم، ولا يظن بأصحاب الحديث وأهل الفقه فيه كالبخاري ومسلم وأصحاب السنن الأربعة أن يكونوا على غير عقيدة أهل السنة والجماعة.

(ج) فضل علم السلف على علم الخلف:

لقد كانت عناية سلفنا الصالح بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم كبيرة جدًّا، وهم - مع هذا - كانوا يحافظون على صفاء ونقاء هذين المصدرين العظيمين؛ فلم يخلطوهما بغيرهما من الشوائب التي تكدر صفوهما، وكان أكبر اهتمامهم هو دراسة هذين المصدرين وتدبرهما، وتفهم معانيهما، واستنباط الأحكام منهما، ثم تطبيق ذلك في واقع حياتهم؛ ولذلك كان كلامهم في تفسير كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم وكانت مؤلفاتهم في علوم القرآن والسنة وخدمتهما.

وكانوا يكرهون الجدل والمراء والخصومات، ولا يتكلمون فيما ليس تحته عمل، وكان لهم موقف حازم من العلوم الحادثة - ونعني بها: الطارئة - التي أدخلها الفلاسفة والمتكلمون على الدين، ولم يختلف رأيهم في نبذها ومحاربتها وتحذير الناس منها؛ لذلك مَن أراد العلم النافع فليأخذه من كتب السلف الصالح ومصنفاتهم.

يقول ابن رجب - رحمه الله -: «فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، في معاني القرآن والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والرقائق والمعارف وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولًا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عَقَل وشُغل لَمْنْ بالعلم النافع عُني واشتَغَل، ومن وقف على هذا وأخلص القصد فيه لوجه الله عز وجل واستعان عليه أعانه وهداه ووفقه وسدده وفهمه وألهمه، وحينئذ يثمر هذا العلم ثماره الخاصة به، وهي خشية الله - تبارك وتعالى - كما قال عز وجل: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ » (فاطر: ٢٨).

وهذه كلمات جليلة عظيمة القدر من هذا الإمام العظيم الذي يعرف أهمية كتب السلف وقَدْرها، وقد حث - رحمه الله - على لزوم هذه الكتب والأخذ منها.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

لقد كانت عناية سلفنا الصالح بكتاب ربهم وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم كبيرة جدًا فاعتنوا بدراسة هذين المصدرين وتدبرهما، وتفهم معانيهما.

افتتاحية العدد

هداية البشرية في التسليم للنصوص الشرعية

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله منزل الكتاب، والصلاة والسلام على من بعثه ربه بالسنة المبينة للكتاب، وعلى آله وأصحابه، وبعدُ:

فبعد حديثي عن تعظيم النصوص الشرعية، وبيان أنها هي التي يُعتمد عليها في أصول الدين وفروعه، وهذا أصل عظيم من أصول الإسلام، ويأتي بعد هذا أمر لا يقل أهمية عن التسليم للنصوص، ألا وهو فهم النص الشرعي للعمل به وعدم الخروج عليه، ولذلك أقول:

فهم النصوص الشرعية ضرورة حتمية للعمل بها:

إن فهم النصوص الشرعية ضرورة حتمية للعمل بها، وهذا الفهم نرجع فيه إلى سلف هذه الأمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان ممن وقف على أقوالهم، وعرف مرادهم، وصحة استدلالهم من أهل السنة والجماعة، وللصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين- قدم السبق في هذا لما شرَّفهم الله به من صحبة النبي صلى الله عليه وسلم، وتعديل الله لهم في كتابه، قال الله تعالى: «وَالسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ» (التوبة:١٠٠).

وقال عبد الله بن مسعود: «من كان منكم متأسيًا فليتأسَّ بأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم؛ فإنهم كانوا أبر هذه الأمة قلوبا، وأعمقها علما، وأقلها تكلفا، وأقومها هديًا وأحسنها حالاً، قوما اختارهم الله لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم في آثارهم؛ فإنهم كانوا على الهدى المستقيم». (جامع بيان العلم وفضله ٢/٩٤٧).

العمل بفهم الصحابة والرجوع إليهم:

والصحابة- رضوان الله عليهم- عاصروا الوحي وشاهدوا التنزيل، فهم أعلم الناس بمراد الله سبحانه، ومراد رسوله صلى الله عليه وسلم، وكانوا أعظم الناس قيامًا بدين الله، وتطبيقه واقعًا عمليًا في حياتهم، قال سفيان الثوري والسدي في قول الله تعالى: « قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ» (النمل:٥٩). هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم. (تفسير ابن كثير: ٣/٥٠٣).

وذكر ابن جرير عن قتادة أنه قال في قول الله تعالى: « وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ» (سبأ:٦). «هم أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم». (تفسير الطبري ٢٢/٤٤).

وقال فيهم الإمام الشافعي رحمه الله في رسالته البغدادية التي رواها عنه الحسن بن محمد الزعفراني: «وقد أثنى الله تبارك وتعالى على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم في القرآن والتوراة والإنجيل، وسبق لهم على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم من الفضل ما ليس لأحد بعدهم، فرحمهم الله، وهنأهم بما أتاهم من ذلك ببلوغ أعلى منازل الصديقين والشهداء والصالحين، أدوا إلينا سنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وشاهدوه والوحي ينزل عليه، فعلموا ما أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم عامًا وخاصًا وعزمًا وإرشادًا، وعرفوا من سنته ما عرفنا وجهلنا، وهم فوقنا في كل علم واجتهاد وورع

وعقل». (إعلام الموقعين ١/ ٨٠).

وقال ابن حزم: «وقد أخبرنا الله عز وجل أنه علم ما في قلوبهم، ورضي عنهم، وأنزل السكينة عليهم، فلا يحل لأحد التوقف في أمرهم ولا الشك فيهم ألبتة، ولقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل النار أحد بايع تحت الشجرة». (الفصل ٤/ ١٤٨).

وقد ذكر الإمام الشاطبي أمورًا متعددة ترجح العمل بفهم الصحابة والرجوع إليهم، ومما ذكر في ذلك: ثناء الله عليهم، ومدحهم بالعدالة وما يرجع إليها كقوله تعالى: «كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ» (آل عمران:١١٠)، وقوله: «وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا» (البقرة:١٤٣)، ففي الأولى إثبات الأفضلية على سائر الأمم، وذلك يقتضي باستقامتهم في كل حال، وفي الثانية إثبات العدالة مطلقًا، ولا يقال: إن هذا عامّ في الأمة؛ فلا يختص بالصحابة دون غيرهم، فنقول على تسليم التعميم؛ بأن الصحابة أول داخل في شمول الخطاب؛ لأنهم أول من تلقى ذلك من الرسول صلى الله عليه وسلم، وهم المباشرون للوحي، ولذلك فهم أولى بالدخول من غيرهم؛ إذ الأوصاف التي وصفوا بها لم يتصف بها على الكمال إلا هم، فمطابقة الوصف للاتصاف شاهد على أنهم أحق من غيرهم بالمدح، فيصح أن يُطلق على الصحابة أنهم خير أمة بإطلاق، وأنهم وسط، أي: عدول بإطلاق، وإذا كان كذلك فقولهم معتبر، وعملهم مقتدى به، وقد جاء في الحديث الأمر باتباعهم، وأن سنتهم في طلب الاتباع كسنة النبي صلى الله عليه وسلم، كقوله: «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ». وقوله: «تفرق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، كلها في النار إلا واحدة». قالوا: ومن هم يا رسول الله؟ قال: «ما أنا عليه وأصحابي». (باختصار وتصرف من كتاب الموافقات ٤/ ٧٤- ٧٦).

من أصول دعوتنا المباركة: العودة إلى السلف الصالح:

ومن هنا كان من أصول دعوتنا المباركة العودة بالأمة إلى ما فهمه الصدر الأول من النصوص، لأنهم أعلى وأرفع وأفهم ممن جاء بعدهم، يقول ابن تيمية رحمه الله: «فمن اتبع السابقين الأولين كان منهم وهم خير الناس بعد الأنبياء؛ فإن أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس، وأولئك خير أمة محمد صلى الله عليه وسلم كما ثبت في الصحاح من غير وجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم».

ولهذا كان معرفة أقوالهم في العلم والدين وأعمالهم خيرا وأنفع من معرفة أقوال المتأخرين وأعمالهم في جميع علوم الدين وأعماله؛ كالتفسير وأصول الدين وفروعه، والزهد والعبادة، والأخلاق والجهاد، وغير ذلك؛ فإنهم أفضل ممن بعدهم، كما دل عليه الكتاب والسنة، فالاقتداء بهم خير من الاقتداء بمن بعدهم ومعرفة إجماعهم ونزاعهم في العلم والدين خير وأنفع من معرفة ما يذكر من إجماع غيرهم». (مجموع الفتاوى: ١٣/ ٢٤).

ويشير ابن القيم رحمه الله إلى ضرورة الأخذ بأقوال الصحابة لتقدمهم وفضلهم في العلم والدين، فيقول: «إذا وُجد في المسألة قول لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي عنهم الذين هم سادات الأمة وقدوة الأئمة، وأعلم الناس بكتاب ربهم تعالى وسنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، وقد شاهدوا التنزيل وعرفوا التأويل ونسبة من بعدهم في العلم إليهم كنسبتهم إليهم في الفضل والدين، كان الظن والحالة هذه بأن الصواب في جهتهم والحق في جانبهم من أقوى الظنون، وهو أقوى من الظن المستفاد من كثير من الأقيسة، هذا ما لا يمتري فيه عاقل منصف، وكان الرأي الذي يوافق رأيهم هو الرأي السداد الذي لا رأى سواه». (إعلام الموقعين ٤/ ١٤٦، ١٤٧).

ورحم الله الإمام ابن رجب الحنبلي الذي أشار بفهم الصحابة ومن تبعهم في أصول الدين وفروعه، وفي هذا كفاية لكل طالب حق ومريد رشد، يقول رحمه الله: فالعلم النافع من هذه العلوم كلها: ضبط نصوص الكتاب والسنة، وفهم معانيها، والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم، في معاني القرآن

إن فهم النصوص الشرعية ضرورة حتمية للعمل بها، وهذا الفهم نرجع فيه إلى سلف هذه الأمة الصالحين، ومن تبعهم بإحسان ممن وقف على أقوالهم، وعرف مرادهم، وصحة استدلالهم من أهل السنة والجماعة.

والحديث، وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد والرقائق، والمعارف، وغير ذلك، والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيمه أولا، ثم الاجتهاد على الوقوف على معانيه وتفهمه ثانيًا، وفي ذلك كفاية لمن عقل، وشغل لمن بالعلم النافع عني واشتغل. (فضل علم السلف على الخلف ص١٠).

العلم الفارق بين الحق والباطل:

والصحابة- رضوان الله عليهم- أعظم الناس عقلاً وفهمًا وأزكاهم نفسًا، وذلك لقوة الإيمان الذي يصحح الإدراك ويجعل لصاحبه فرقانًا يفرق به بين الحق والباطل، كما قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن تَتَّقُوا۟ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ » (الأنفال:٢٩). قال الشوكاني رحمه الله: «والفرقان ما يفرق به بين الحق والباطل، والمعنى: أنه يجعل لهم من ثبات القلوب، وثقوب البصائر، وحسن الهداية ما يفرقون به بينهما عند الالتباس». (فتح القدير ٣٠٢/٢).

وقد ذكر الشنقيطي رحمه الله الأقوال في المراد بالفرقان في الآية، ورجح أنه: العلم الفارق بين الحق والباطل، واستدل على ذلك بقول الله: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ » (الحديد:٢٨). لأن قوله هنا: «ويجعل لكم نورًا تمشون به». يعني: علمًا وهدى تفرقون به بين الحق والباطل. (انظر: أضواء البيان ٣٤٩/٢).

ولا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم هم خير من حققوا خصال التقوى والإيمان بتزكية القرآن لهم وثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، ولذلك عرفوا وفهموا من الدين ما لا يفهمه غيرهم، كما قال ابن تيمية رحمه الله: «ومن المستقر في أذهان المسلمين: أن ورثة الرسل وخلفاء الأنبياء هم الذين قاموا بالدين علمًا وعملاً، ودعوة إلى الله والرسول صلى الله عليه وسلم، فهؤلاء أتباع الرسل حقًا، وهم بمنزلة الطائفة الطيبة من الأرض التي زكت فقبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير،... وهؤلاء هم الذين جمعوا بين البصيرة في الدين والقوة على الدعوة، ولذلك كانوا ورثة الأنبياء الذين قال الله تعالى فيهم: « وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ » (ص:٤٥)، فالأيدي القوة في أمر الله، والأبصار البصائر في دين الله، فبالبصائر يدرك الحق ويعرف، وبالقوة يتمكن من تبليغه وتنفيذه والدعوة إليه. (مجموع الفتاوى ٩٢/٤، ٩٣).

> لا شك أن الصحابة رضوان الله عليهم هم خير من حققوا خصال التقوى والإيمان بتزكية القرآن لهم وثناء النبي صلى الله عليه وسلم عليهم، ولذلك عرفوا وفهموا من الدين ما لا يفهمه غيرهم.

وقال في أهل الحديث: ويدخل فيهم الصحابة وهؤلاء أولياء: «.. فهم أكمل الناس عقلاً، وأعدلهم قياسًا، وأصوبهم رأيًا، وأسدهم كلامًا، وأصحهم نظرًا، وأهداهم استدلالاً، وأقومهم جدلاً، وأتمهم فراسة، وأصدقهم إلهامًا وأحدهم بصرًا ومكاشفة، وأصوبهم كمًا ومخاطبة، وأعظمهم وأحسنهم وجدًا وذوقًا». (مجموع الفتاوى ٩/٤).

ولم لا يكونون كذلك، وقد ورد القرآن الكريم موافقًا لاجتهادات بعضهم، كما حصل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه غير مرة، منها ما رواه البخاري عن أنس قال: قال عمر: وَافَقْتُ اللهَ في ثَلاثٍ، أَوْ وَافَقَنِي رَبِّي في ثَلاثٍ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ لَوِ اتَّخَذْتَ مَقَامَ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، يَدْخُلُ عَلَيْكَ البَرُّ وَالفَاجِرُ، فَلَوْ أَمَرْتَ أُمَّهَاتِ المُؤْمِنِينَ بِالحِجَابِ، فَأَنْزَلَ اللهُ آيَةَ الحِجَابِ، قَالَ: وَبَلَغَنِي مُعَاتَبَةُ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَعْضَ نِسَائِهِ، فَدَخَلْتُ عَلَيْهِنَّ، قُلْتُ: إِنِ انْتَهَيْتُنَّ أَوْ لَيُبَدِّلَنَّ اللهُ رَسُولَهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَيْرًا مِنْكُنَّ، حَتَّى أَتَيْتُ إِحْدَى نِسَائِهِ، قَالَتْ: يَا عُمَرُ، أَمَا فِي رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا يَعِظُ نِسَاءَهُ، حَتَّى تَعِظَهُنَّ أَنْتَ؟ فَأَنْزَلَ اللهُ: (عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ مُسْلِمَاتٍ) الآيَةَ ». (البخاري: ٤٤٨٣).

ومن كان بهذه الصفة كان من أصح الناس فهمًا وبيانًا، ولذا قال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما- لما بعثه علي رضي الله عنه لمحاورة الخوارج، فقال لهم في أول ما قال: «جئت أحدثكم عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم عليهم نزل الوحي، وهم أعلم بتأويله». (مصنف عبد الرزاق: ١٨٦٧٨).

يتعين على كل مسلم حريص على دينه أن ينظر إلى ما فهمه من النصوص الشرعية (دالاً على اعتقاد أو عمل) أن يعرضه على فهم السلف الصالح، فإن اعتقدوه وعملوا به، فالحمد لله، وإلا، فليرجع إلى أقوالهم وفهمهم وعملهم.

بل إن الصحابة والتابعين وأتباع التابعين أكثر هذه الأمة علمًا وخيرًا وبركة، وذلك لقربهم وشدة اتباعهم للنبي صلى الله عليه وسلم ظاهرًا وباطنًا، وليس هذا مقصورًا على فهم الكتاب والسنة فحسب، بل في جميع مجالات الحياة، فقد فتح الله عليهم، وفتح بهم قلوب البلاد والعباد، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: «يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيَقُولُونَ: فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ، ثُمَّ يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ، فَيَغْزُو فِئَامٌ مِنَ النَّاسِ، فَيُقَالُ: هَلْ فِيكُمْ مَنْ صَاحَبَ مَنْ صَاحَبَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيُفْتَحُ لَهُمْ». (البخاري: ٣٦٤٩، ومسلم: ٢٥٣٢).

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث معجزات رسول الله صلى الله عليه وسلم وفضل الصحابة والتابعين وتابعيهم». (شرح النووي على مسلم: ٨٣/١٦).

وقد حرص الصحابة رضوان الله عليهم على تلقي العلم ومدارسته وفهمه من النبي صلى الله عليه وسلم، فهذا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه يقول: «والذي لا إله غيره ما أنزل الله سورة إلا أعلم أين أنزلت، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيمن أنزلت، ولو أعلم أحدًا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه». (البخاري: ٥٠٠٢). ويقول ابن أبي مليكة عن عائشة رضي الله عنها أنها كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه. (البخاري: ١٠٣).

وهذا يدل على حرصهم على فهم النصوص ومعانيها ومعرفة مراد الله منها ابتغاء وجه الله تعالى. قال الحسن البصري رحمه الله: «ما أنزل الله آية إلا وهو يحب أن يُعلم ما أراد بها». ذكره عنه ابن تيمية في درء التعارض ٢٠٨/١).

ولم يكن هذا قاصرًا على الصحابة فحسب، بل كان أتباعهم يحرصون على العلم وفهمه، فهذا مجاهد بن جبير يقول: «عرضت القرآن ثلاث عرضات على ابن عباس، أقفه عند كل آية، أسأله فيم نزلت، وكيف كانت». (سير أعلام النبلاء ٤٥٠/٤).

ومن هنا أقول: يتعين على كل مسلم حريص على دينه أن ينظر إلى ما فهمه من النصوص الشرعية دالاً على اعتقاد أو عمل أن يعرضه على فهم السلف الصالح، فإن اعتقدوه وعملوا به، فالحمد لله، وإلا، فليرجع إلى أقوالهم وفهمهم وعملهم، ويجب أن يعلم أن كل اعتقاد اعتقده الصحابة فمن بعدهم من أصحاب القرون المفضلة، فهو مبني على ما فهموه من نصوص الكتاب والسنة، وأن كل اعتقاد مخالف لاعتقادهم فهو مخالف لما فهموه من النصوص الشرعية، وعليه فليس مرادًا لله ولرسول صلى الله عليه وسلم، وكل عمل تعبدي موافق لما كان عليه الصحابة ومن بعدهم من السلف تقربًا إلى الله تعالى، فهو مبني على فهمهم للأدلة الشرعية التي تلقوها من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأن كل عمل تعبدي مخالف لما كانوا عليه، فليس من السنة ولا يجوز العمل به، وكل اعتقاد وعمل تعبدي تركه الصحابة ومن بعدهم من السلف مع وجود المقتضي، فليس من الدين، بل هو بدعة وضلالة، ومن المعلوم أن من أكبر أسباب الابتداع في الدين، والخروج على جماعة المسلمين، كان بسبب الانحراف في فهم النصوص، وما خرجت الخوارج إلا بسبب عدم فهمهم لنصوص الوعيد، وما ضلت المرجئة إلا لسوء فهمهم لآيات الوعد، والضابط لهذا الفهم هو فهم الصحابة- رضوان الله عليهم-، ثم أتباعهم من أصحاب القرون الخيرية المفضلة، وصدق الشاعر المتنبي في قوله:

وكم من عائب قولاً صحيحًا
وآفته من الفهم السقيم

أسأل الله- تبارك وتعالى- أن يجعلنا من أهل الفقه في الدين، السالكين للمنهج القويم، وصلى الله وسلم وبارك على ديننا محمد وآله وصحبه.

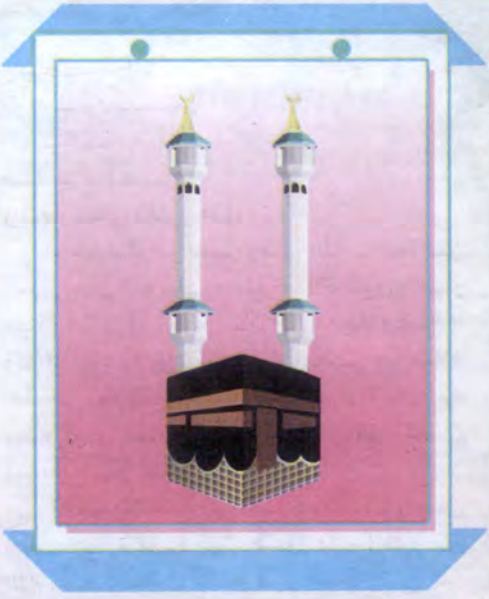

باب العقيدة

معنى البدع والابتداع وأدلة النهي عنها والتحذير منها

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ما يزال الحديث متصلاً عن أمور العقيدة، وفي هذا العدد نتناول مفهوم البدع، وأحكام بدع العقائد، فنقول وبالله تعالى التوفيق.

تعريف البدعة:

(أ) البدعة لغةً:

البدعة مصدر: بَدَعَ، وأصلُ استعمالها في لغة العرب أصلان:

أحدهما: ابتداء الأمر وصنعه لا عن مثال.

الآخر: الانقطاع والكَلال.

(ب) بيان معنى ودلالات لفظ البدعة وما اشتُقَّ منها:

البدعة: اسم يطلق على العمل المحدث ذاته والجمع بدع، ففي كتاب (العين): البدعة: «اسم ما ابتدع من الدين وغيره»، وفي (الصحاح): «البدعة الحدث في الدين بعد الإكمال».

(جـ) المعنى الاصطلاحي للبدعة إجمالًا:

اختلفت عبارات الناس سلفًا وخلفًا في تعريف البدعة الشرعية تبعًا لاختلاف تصورهم لماهية البدعة المنهي عنها، وتنوع مشاربهم؛ فالذي تلبس ببدعة عملية أو اعتقادية يحاول أن يصنع تعريفًا للبدعة يتلائم مع مسلكه، وهناك من التبس عليه فَهم بعض النصوص الواردة في السنة والبدعة، فوضَعَ تعريفًا أيضًا ملتبسًا؛ لأن الأمر قد التبس عليه في الفهم.

وهذا المعنى الاصطلاحي الذي نختاره كحدٍّ جامع مانع للبدعة المنهي عنها شرعًا، يلخص لنا ما ورد من نصوص شرعية، وأقوال مأثورة عن السلف في حوادث جزئية وحالات مفردة، أو بصيغ عامة وأقوال مطلقة مجملة أو مفصلة.

ومن هذه التعريفات الكلية الجامعة ما ذكره الإمام الشاطبي -رحمه الله- في كتاب (الاعتصام)؛ حيث بوب لتعريف البدعة بابًا مستقلًا، ذكر فيه معناها الاصطلاحي، وشرح التعريف وذكر محترزاته، وقد عرف البدعة بتعريفين.

بدايةً: عرفه - رحمه الله - على رأي مَن يقول بعدم دخول الابتداع في العادات والمعاملات، وإنما يخص هذا القائل البدعة بالعبادات فحسب؛ فبعض الناس يقول: إن العادات والمعاملات لا يدخل فيها الابتداع، والبعض يقول: إن العادات والمعاملات يدخل فيها الابتداع. وبناء على هذا الاختلاف عرَّف الشاطبي البدعة بتعريفين:

التعريف الأول: كان قائمًا على من يقول بأن البدعة تقع في العبادات فحسب.

وتعريف البدعة على ذلك قال فيها - رحمه الله -: «فالبدعة عبارة عن طريقة في الدين

مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه».

أما التعريف الثاني: فكان قائمًا على رأي من يقول بدخول الابتداع في الأمور العادية كدخوله في الأمور العبادية.

قال -رحمه الله-: «البدعة طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشرعية، يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية».

هنا قال: يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية. وفي تعريفه لمعنى البدعة - على رأي مَن يخص البدعة بالعبادات - قال: يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه.

شرح التعريف، وبيان محترزاته:

قوله: «طريقة» يقصد بها السبيل والسنة؛ فالطريقة هي السبيل والسنة، وكل ما رسم للسلوك عليه أو اتخذ للتعبد به، سواء كان في المسائل العلمية أو المسائل العملية؛ يعد طريقة.

أما قوله: «في الدين» فهذا تقييد للطريقة المسلوكة بأنها في الدين؛ لأنها فيه تخترع، وإليه تنسب، وبه يلصقها مخترعها؛ فلو كانت طريقة مخترعة في الدنيا على الخصوص لم تسمَّ بدعة.

أما قوله: «تضاهي الشرعية» يعني: أنها تشابه الطريقة الشرعية من غير أن تكون في الحقيقة كذلك، بل هي مضادة لها، يعني: مضادة للطريقة الشرعية؛ لأنها خارجة عليها وإن شابهتها، فإن صاحب البدعة إنما يخترعها - يعني: يأتي بها ويحدثها - يضاهي بها السنة، أو تكون هي مما تلتبس عليه بالسنة؛ ولذلك تجد المبتدع ينتصر لبدعته؛ لأنه يظن أو يتخيل أنها من السنة؛ بل إن كل خارج عن السنة بشيء من الابتداع لا بد له من تكلف الاستدلال بأدلة السنة على خصوص هذه المسألة المبتدعة، وإلا لكذَّب اطراحه للدليل صدق دعواه، ونَقَضَ تَرْكه للسنة ما يدعيه من الدخول فيها والكَوْن من أهلها.

وهذا في الحقيقة واقع؛ فالمبتدعة في كل زمان ومكان يحاولون أن يلصقوا بدعتهم بالسنة؛ بل إنهم يقولون: إنهم يلتمسون أقوالهم وأفعالهم وسائر ما أتَوْا به من سنة النبي صلى الله عليه وسلم!!

هذا التعريف الذي ذكرناه وشرحناه الآن عن الإمام الشاطبي - رحمه الله تبارك وتعالى - يتفق مع تعريف مَن خَص البدعة بالدخول على العبادات.

أما تعريف البدعة لمن لم يخصها بالعبادات وأدخل فيها العادات وجعل العادات داخلة في التعريف؛ فقال فيه: يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية.

أما التعريف على مَن يقصر البدعة بالعبادات فحسب، فقال فيه: يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله - تبارك وتعالى.

معنى قوله: «يقصد بالسلوك عليها»: أي: أن أصل الدخول فيها يحث على الانقطاع إلى العبادة ويرغب في ذلك، وربما يستدلون بقول الله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات: ٥٦)، فكأن المبتدع رأى أن المقصود هذا المعنى، ولم يتبين له أن ما وضعه الشارع فيه من القوانين والحدود كاف؛ يعني: ما جاءنا في الشرع بعد أن أكمل الله لنا الدين وأتم علينا النعمة يكفينا عن أن نبتدع أو نحدث في دين الله - تبارك وتعالى -.

أما في التعريف الثاني يدخل معها العادات، وقد قال في التعريف: «يقصد بالسلوك عليها ما يقصد بالطريقة الشرعية».

والإمام الشاطبي - رحمه الله - عند شرحه لهذه العبارة الواردة في تعريفه قال: ومعناه: أن الشريعة إنما جاءت لمصالح العباد في عاجلهم وآجلهم؛ لتأتيهم في الدارين على أكمل وجوهها؛ فهو الذي يقصده المبتدع ببدعته؛ فإن تعلقت بالعبادات فإنما أراد بها أن يأتي تعبُّده على أبلغ ما يكون في زعمه، ليفوز بأهم المراتب في الآخرة في ظنه، وإن تعلقت بالعادات فكذلك؛ لأنه إنما وضعها لتأتي أمور دنياه على تمام المصلحة فيها.

وقد رجح الشاطبي - رحمه الله تبارك وتعالى - هذا التعريف الذي يقول بدخول البدع في العادات والمعاملات، وهذا الترجيح - أي: أن البدع تدخل في العادات والمعاملات - هو الصحيح الموافق لأدلة الشريعة والمتفق مع

أصولها وقواعدها والمطابق لمقاصدها.
وقد لخص - رحمه الله تبارك وتعالى - رأيه في هذه المسألة، وبَيَّنَ معنى القيد السابق بصورة أوضح حين قال:
ثبت في الأصول الشرعية أنه لا بد في كل عاديٍّ من شائبة التعبد؛ لأن ما يُعقل معناه على التفصيل من المأمور به أو المنهي عنه فهو المراد بالتعبدي، وما عقل معناه وعرفت مصلحته أو مفسدته فهو المراد بالعادي؛ فالطهارات والصلوات والصيام والحج كلها تعبدية، والبيع والنكاح والشراء والطلاق والإجارات والجنايات كلها عادية؛ لأن أحكامها معقولة المعنى، ولا بد فيها من التعبد؛ إذ هي مقيدة بأمور شرعية لا خيرة للمكلف فيها...
إلى أن قال: فإن جاء الابتداع في الأمور العادية من ذلك الوجه صح دخوله في العاديات كالعبادات، وإلا فلا...
وهو يقصد بقوله: فإن جاء الابتداع في الأمور العادية من ذلك الوجه: يعني: وجه تقييد العاديات بالأمور المشروعة، أما إذا لم تقيد العاديات بالأمور المشروعة فهي مباحة.

أنواع البدع

(أ) ابتداع في العادات والمعاملات:

القسم الأول: ابتداع في العادات والمعاملات والأمور الدنيوية؛ كاختراع آلات النقل من طائرات وسيارات وقاطرات، وأجهزة الكهرباء وأدوات الطهي، والمكيفات التي تستعمل للتدفئة والتبريد، وآلات الحرب من قنابل وغواصات ودبابات، أو بناء المدارس والجامعات أو المباني العالية أو استعمال النظارات، كل هذا في العادات والمعاملات. وهذا مباح.
هذا من قسم المباح وإن سمي بالابتداع؛ لأن الأصل فيه الإباحة، وإذا تردد الأمر بين كونه عبادة أو عادة؛ فالأصل أنه عادة ولا يُنهى عنه حتى يقوم دليل على أنه عبادة، والأصل في المعاملات والأفعال والأعيان الإباحة والحل؛ حتى يقوم دليل على المنع، وذلك مثل رجل قال لصاحبه الذي نجا من هلكة: ما شاء الله، هنيئًا لك. فقال له الرجل: هذه بدعة. فهذا القول غير صحيح؛ لأن هذا من أمور العادة وليست العبادة، وكذلك التسابق والجري ولعب الرياضة؛ فلا يقول أحد بأن هذا بدعة؛ بل هي عادة ما لم يرتكب فيها محرم؛ فهو حرام، وليس بدعة.
أما الأمور العادية البعيدة والتي ليست مقيدة بالشرع؛ وذلك كأمور التعامل بين الناس ووضعهم وسَنِّهم لذلك قوانين تنظم معاملاتهم ولا تتعارض مع الشريعة الإسلامية؛ فهذا لا شيء فيه.
القسم الثاني: ابتداع في الدين، وهذا هو الذي نتحدث عنه ونحذر منه: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (الحجرات: ١)، وهذا الابتداع محرم؛ لأن الأصل في العبادات التوقف؛ فعن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد» متفق عليه.
وفي رواية لمسلم: «مَن عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». ومن كلامه صلى الله عليه وسلم في ذلك: «وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار»، وقد رَوَى هذا الحديث الترمذي وأبو داود وصححه، وقال صلى الله عليه وسلم: «من رغب عن سنتي فليس مني» متفق عليه.

(ب) وتنقسم البدع إلى نوعين:

النوع الأول: بدعة قولية اعتقادية:
كمقالات الجهمية والمعتزلة والرافضة والخوارج والقدرية والمرجئة والكرامية والصوفية، وسائر الفرق الضالة، واعتقاداتهم.
النوع الثاني: بدعة في العبادات:
كالتعبد لله - تبارك وتعالى - بعبادة لم يشرعها، وهي أقسام:

القسم الأول: ما يكون في أصل العبادة:

بأن يُحدث عبادة ليس لها أصل في الشرع؛ كأن يحدث صلاة غير مشروعة، أو صيامًا غير مشروع أصلًا، أو أعيادًا غير مشروعة كأعياد الموالد، ومثل الترهب والانقطاع للعبادة.

القسم الثاني: ما يكون من الزيادة في العبادة المشروعة:

بأن يؤديها على صفة غير مشروعة، وذلك كما لو زاد ركعة خامسة في صلاة الظهر أو العصر مثلًا؛ فصلاة الظهر والعصر مشروعة ولكنها تُصلي

أربعًا؛ فإذا صلاها المصلي خمسًا فيكون قد ابتدع وزاد في العبادة المشروعة.

القسم الثالث: ما يكون في صفة أداء العبادة المشروعة:

بأن يؤديها على صفة غير مشروعة، وذلك كأداء الأذكار المشروعة بأصوات جماعية مطربة، وكالتشديد على النفس في العبادات إلى حد يخرج به المتشدد عن سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فالذِّكْرُ مشروع والعبادة والنوافل والتقرب إلى الله - تبارك وتعالى - بها مشروعٌ؛ ولكن الإنسان إذا أتى بها على صفة غير مشروعة، كما يفعله المتصوفة اليوم عندما يأتون بالأذكار على هيئة معينة، يستمعون فيها، ويتمايلون عن اليمين وعن اليسار، وربما يصفقون، وربما يقولون أشعارًا وإنشادًا؛ فهذه كلها من البدع؛ لأنها دخلت على الأصل الصحيح: ألا وهو الذكر؛ ولكنهم زادوا في صفة هذه العبادة المشروعة.

القسم الرابع: ما يكون بتخصيص وقت للعبادة المشروعة لم يخصصه الشرع:

كتخصيص يوم النصف من شعبان وليلته بصيام وقيام؛ فإن الأصل في القيام والصيام مشروع، ولكن تخصيصه بوقت من الأوقات يحتاج إلى دليل.

٢-تقسيم آخر للبدع

البدعة الحقيقية والبدعة الإضافية:

وهناك تقسيم آخر للبدعة إلى: حقيقية وإضافية.

قال العلامة الشاطبي - رحمه الله تبارك وتعالى - ما معناه:

البدعة الحقيقية:

وهي التي ليس لها أصل من كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا من إجماع علماء المسلمين.

البدعة الإضافية:

وهي التي تكون ذات وجهين؛ فهي من وجه مشروعة في الجملة، ومن وجه آخر واقعٌ صاحبها في بدعة، وقعت منه من حيث الزمن أو الكيفية؛ فإذا نظرت إلى الوجه الأول تقول: هي مندوبة مشروعة؛ لأنها وقعت من وجه مشروع، وإذا نظرت إلى الوجه الثاني - يعني: الإضافة التي وقعت عليها، أو الزمن الذي ارتبطت به، أو الكيفية أو الحالة التي أتى بها المبتدع - ترى أنها بدعة، وهذه مسألة مهمة، ولأهميتها سنذكر هنا بعض **الأمثلة على البدعة الإضافية:**

المثال الأول: الصلاة على الرسول صلى الله عليه وسلم قبل الأذان بدعة حقيقية:

إذ ليس لها أصل من القرآن ولا من السنة ولا عند صحابة النبي صلى الله عليه وسلم، أما بعد الأذان فيُسن للمؤذن وللمستمع أن يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم، أما رَفْع صوت المؤذن للصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الأذان فهذا بدعة، ومن هنا أصبحت بدعة إضافية؛ لأننا إذا نظرنا إلى مشروعية الصلاة والسلام على الرسول صلى الله عليه وسلم وجدنا ذلك مشروعًا؛ بل مستحبًّا؛ حث عليه النبي صلى الله عليه وسلم وإذا نظرنا إلى الجهر بالصلاة والسلام عليه بعد الأذان فوق المنابر وغير ذلك، نجد أن ذلك بدعة، ومن هنا نقول بأن هذا من البدع الإضافية.

المثال الثاني:

السنن الرواتب سنن مؤكدة باتفاق المذاهب؛ ولكنها مشروعة أن تصلى بالانفراد؛ فإذا صليت جماعة أصبحت بدعة بالنظر إلى الكيفية. فلم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى هذه السنن جماعةً بالمسلمين ولا صلاها أحدٌ من أصحابه؛ وبالتالي فإذا صلاها الإنسان وحده أتى بالسنة، أما إذا صلاها جماعة فنقول: هذا من البدع الإضافية.

المثال الثالث:

قراءة القرآن تسن، وفيها من الأجر العظيم ما لا يخفى على أحد، ولكن قراءة القرآن في السجود والركوع بدعة، وكونها بدعة من حيث المحل - يعني: أن هذا ليس مكانها - لا من حيث المشروعية؛ فقراءة القرآن مشروعة؛ بل من أقرب القربات إلى الله - تبارك وتعالى-

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى،

افتتاحية العدد

هداية البشرية في التسليم للنصوص الشرعية

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين والمرسلين، وعلى آله وأصحابه وأتباعه إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد بينت في اللقاء السابق ضرورة فهم النصوص الشرعية، كما فهمها الأصحاب الأبرار ومن تبعهم وسلك مسلكهم، وأود في هذا اللقاء أن أسوق كلامًا للأئمة الأعلام في أهمية لزوم هذا المنهج والاقتصار على ما ورد عن السلف السابقين، وذلك لينشرح قلب المؤمن التقي ويطمئن على معتقده الذي يدين لله به، فيسير خلف السابقين، ويكتفي بفهمهم وعلمهم، ومن ذلك ما رواه الدارمي عن عثمان بن حاضر الأزدي قال: دخلت على ابن عباس فقلت: أوصني، فقال: «نعم، عليك بتقوى الله والاستقامة، اتبع ولا تبتدع». (سنن الدارمي ١/ ٦٥).

وعن أبي قلابة قال: قال ابن مسعود- رضي الله عنه-: «عليكم بالعلم قبل أن يُقبَض، وقبضه أن يُذهَب بأصحابه، عليكم بالعلم، فإن أحدكم لا يدري متى يفتقر إليه، أو يفتقر إلى ما عنده، إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والمبتدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق». (المرجع السابق ١/ ٦٦).

فهذان صحابيان جليلان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ يوصي الأول منهما- وهو حبر هذه الأمة- بعد تقوى الله والاستقامة، بالاتباع وترك الابتداع، وقصده من ذلك الاقتصار على ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم، وعدم الزيادة عليه.

أما ابن مسعود- رضي الله عنه- فيأمر بالحرص على العلم وتتبعه من أقوال رسول الله صلى الله عليه وسلم، وصحابته الأخيار، ثم حذَّر من قوم ظاهرهم الدعوة إلى كتاب الله، وحقيقة أمرهم أنهم أعرضوا عنه، كما حذر من المبتدع والتنطع، وأمر بعد ذلك بلزوم ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، وهو المراد «بالعتيق» في قوله.

وقد عقد البخاري (رحمه الله) بابًا في كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة عنونه بقوله: «باب الاقتداء بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقول الله تعالى: «وَٱجۡعَلۡنَا لِلۡمُتَّقِينَ إِمَامًا» (الفرقان:٧٤)، قال: أئمة نقتدي بمن قبلنا، ويقتدي بنا من بعدنا، وعن ابن عون: «ثلاث أحبهن لنفسي ولإخواني: هذه السُّنَّة أن يتعلموها ويسألوا عنها، والقرآن أن يتفهموه ويسألوا الناس عنه، ويدعوا الناس إلا من خير». ثم ساق تحت هذا الباب عدة أحاديث، منها ما رواه بسنده عن حذيفة رضي الله عنه قال: «يا معشر القراء، استقيموا، فقد سُبِقْتم سبقًا بعيدًا، فإن أخذتم يمينًا وشمالاً لقد ضللتم ضلالاً بعيدًا».

قال ابن حجر في شرحه: «والمراد بالقراء: العلماء بالقرآن والسنة والعُبَّاد، والمراد بقوله: «استقيموا» أي: اسلكوا طريق

الاستقامة، وهي كناية عن التمسك بأمر الله تعالى فعلاً وتركًا». (فتح الباري ١٣/ ٢٤٨- ٢٥٧).

ولأمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز- رحمه الله- كلمات مباركة، ووصية نافعة لمن سأله في شأن القدر جاء فيها: «أما بعد: أوصيك بتقوى الله، والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه صلى الله عليه وسلم، وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفُوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة فإنها لك بإذن الله عصمة، ثم اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة؛ إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها، أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنَّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل، والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى، فإن كان الهدى ما أنتم عليه لقد سبقتموهم إليه، ولئن قلتم: إنما حدث بعدهم ما أحدثه إلا من اتبع غير سبيلهم، ورغب بنفسه عنهم، فإنهم هم السابقون، فقد تكلموا فيه ما يكفي، ووصفوا منه ما يشفي، فما دونهم من مَقْصَر، وما فوقهم من مَحْسَر، وقد قصر قوم دونهم فجفَوا، وطمح عنهم أقوام فغلوا، وإنهم بين ذلك لعلى هدى مستقيم». (صحيح سنن أبي داود ٣/ ٨٧٣).

وقد اشتملت هذه الوصية على أربعة أمور هي: الأمر بتقوى الله- تبارك وتعالى- وهي أعلى وأعظم وصية لمن عقل؛ لأنها وصية الله للأولين والآخرين، كما قال رب العالمين: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ وَإِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا» (النساء:١٣١)، والوصية الثانية: أن يقتصد فيما أمر الله به، والمعنى: أن يتوسط بين الإفراط والتفريط، فلا يزيد ولا ينقص فيما أمر الله به، والوصية الثالثة: اتباع سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وهو أمارة على صدق محبة العبد لربه، كما قال الله تعالى: «قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ» (آل عمران:٣١).

والوصية الرابعة: ترك ما أحدثه المحدثون في دين رب العالمين، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يترك خيرًا إلا دلَّ الأمة عليه، ولا شرًا إلا حذرها منه، وقد مضى الصحابة- رضوان الله عليهم- على ذلك، وكان لهم في سلوك هذا الطريق العصمة

> إنكم ستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعونكم إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم، فعليكم بالعلم، وإياكم والبدع، وإياكم والتنطع، وإياكم والتعمق، وعليكم بالعتيق.

والنجاة، وقال الإمام الأوزاعي- رحمه الله-: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكف عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم». (حلية الأولياء ٦/ ١٤٣).

وقال أيضًا: «عليك بأثر من سلف وإن رفضك الناس، وإياك وآراء الرجال وإن زخرفوا لك بالقول». (الشريعة للآجري ١/ ٤٤٤).

وللإمام ابن أبي زيد القيراوني- رحمه الله- كلمات دقيقة يصور فيها مذهب أهل السنة والجماعة في طريقة التعامل مع النصوص والتسليم لها، ونسبها إلى الإمام مالك بن أنس رحمه الله، وفيها يقول: «والتسليم للسنن ألا تُعارض برأي ولا تُدافع بقياس، وما تأوله منها السلف تأولناه، وما عملوا به عملنا به، وما تركوه تركناه، ويسعنا أن نمسك عما أمسكوا، ونتبعهم فيما بينوا، ونقتدي بهم فيما استنبطوه ورأوه في الحوادث، ولا نخرج من جماعتهم فيما اختلفوا فيه أو في تأويله، وكل ما قدمنا ذكره فهو قول أهل السنة وأئمة الناس في الفقه والحديث على ما بيناه، وكله قول مالك فمنه ما هو منصوص من قول، ومنه ما هو معلوم من مذهبه». (الجامع في السنن والآداب والحكم ص١٣٧).

ومعلوم من سيرة الإمام مالك (رحمه الله) حرصه على اتباع السنة، وتعظيمه لمنهج السلف الصالح، ولأقوال الصحابة- رضوان الله عليهم-، وكان يرى أن

الخروج على هذا المنهج هو الفساد بعينه.

ولعباد بن عباد الشامي (رحمه الله) رسالة دقيقة جميلة تحمل هذا المعنى، وقد اشتملت على آداب جمة، وهي طويلة أنقل بعضها لنفاسة ما اشتملت عليه، يقول (رحمه الله):

«اعقلوا والعقل نعمة، فربَّ ذي عقل قد شغل قلبه بالتعمق فيما هو ضرر عليه عن الانتفاع بما يحتاج إليه، حتى صار عن ذلك ساهيًا، ومن فضل عقل المرء ترك النظر فيما لا نظر فيه حتى يكون فضل عقله وبالاً عليه في ترك مناقشة من هو دونه في الأعمال الصالحة، أو رجل شُغل قلبه ببدعة قلد فيها دينه رجالاً دون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو اكتفى برأيه فيما لا يرى الهدى إلا فيها، ولا يرى الضلالة إلا تركها بزعم أنه أخذها من القرآن، وهو يدعو إلى فراق القرآن، أفما كان القرآن حَمَلةَ قبله وقبل أصحابه يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه وكانوا منه على منار أوضح الطريق، وكان القرآن إمام رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إمامًا لأصحابه، وكان أصحابه أئمة لمن بعدهم رجال معروفون منسوبون في البلدان متفقون في الرد على أصحاب الأهواء.. اتقوا الله وما حدث في قرائكم وأهل مساجدكم من الغيبة والنميمة، والمشي بين الناس بوجهين ولسانين، وقد ذكر: أن من كان ذا وجهين في الدنيا كان ذا وجهين في النار... عليكم بالقرآن فأتموا به وأُمُّوا به، وعليكم بطلب أثر الماضين فيه، ولو أن الأحبار والرهبان لم يتقوا زوال مراتبهم، وفساد منزلتهم بإقامة الكتاب وتبيانه ما حرّفوه ولا كتموه، ولكنهم لما خالفوا الكتاب بأعمالهم التمسوا أن يخدعوا قومهم عما صنعوا مخافة أن تفسد منازلهم، وأن يتبين للناس فسادهم، فحرّفوا الكتاب بالتفسير، وما لم يستطيعوا تحريفه كتموه، فسكتوا عن صنع أنفسهم إبقاءً على منازلهم، وسكتوا عما صنع قومهم مصانعة لهم». (سنن الدارمي ١/١٦٦).

وقد اجتزأت بعضًا من هذه الرسالة مع طولها لنفاسة ما اشتملت عليه، فهي مع دعوة كاتبها ونصيحته بالاكتفاء بالقرآن والسنة بفهم ما كان عليه سلف الأئمة، أشار إلى طرف من أسباب البعد عن الحق والصواب، وهو الرغبة في المنزلة والمكانة بين الناس، وقد أصاب فيما ذكر- فرحمه الله تعالى-.

> اعلم أنه لم يبتدع الناس بدعة إلا قد مضى قبلها ما هو دليل عليها أو عبرة فيها، فإن السنة إنما سنّها من قد علم ما في خلافها من الخطأ والزلل والحمق والتعمق، فارض لنفسك ما رضي به القوم لأنفسهم، فإنهم على علم وقفوا، وببصر نافذ كفوا، وهم على كشف الأمور كانوا أقوى، وبفضل ما كانوا فيه أولى.

والإمام الأشعري- رحمه الله تعالى- في مقدمة كتاب الإبانة الذي ألفه بعد رجوعه إلى مذهب السلف، ذكر بعض الآيات المبينة لفضل ومكانة القرآن الكريم، وبعضًا من الأحاديث الموجبة لاتباع سنة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، ثم عقب على ذلك بقوله: «فنبذ كثير ممن غلبت عليهم شقوته، واستحوذ عليهم الشيطان سنن نبي الله- عليه الصلاة والسلام، وراء ظهورهم، ومالوا إلى أسلاف لهم قلدوهم دينهم، ودانوا بديانتهم، وأبطلوا سنن نبي الله عليه الصلاة والسلام، ودفعوها وأنكروها وجحودها افتراء منهم على الله».

ثم ذكر بعضًا من أقوال أهل الزيغ والضلال، ثم ذكر ما يجب أن يكون عليه المسلم وما يدين هو لله به بعد رحلة طويلة مع المبتدعة، فقال: «قولنا الذي نقول به، وديانتنا التي ندين بها: التمسك بكتاب ربنا عز وجل، وبسنة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وبما روي عن السادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث، ونحن بذلك معتصمون، وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل- نضر الله وجهه، ورفع درجته، وأجزل مثوبته- قائلون، ولما خالف قوله مخالفون». (الإبانة عن أصول الديانة ص١٢- ٢٠).

وبعد هذا النقل عن الإمام الأشعري أقول لأتباعه: هذا إمامكم يدين لله بما ورد في الكتاب

يا أيها الناصح لنفسه!! الزم هذا الطريق، واستمد من الله التوفيق، واصرف همتك إلى فهم القرآن والسنة، وليكن قصدك الوقوف على الحق، وموافقة الصواب، دون تعصب لمذهب، أو لفرقة من الفرق، أو لشيخ من الشيوخ، واستكثر يا عبد الله من القرآن والسنة، فهما الطريق لمن أراد سلوك أقوم طريق، وهما النجاة لمن طلب النجاة.

والسنة، وما روي عن الصحابة والتابعين وأئمة المحدثين، فالزموا طريقه واسلكوا منهجه بعد عودته إلى منهج السلف الصالح.

وقال الإمام أبو نصر السجزي- رحمه الله-: «أهل السنة هم الثابتون على اعتقاد ما نقله إليهم السلف الصالح- رحمهم الله- عن الرسول صلى الله عليه وسلم أو عن أصحابه رضي الله عنهم فيما لم يثبت فيه نص من الكتاب ولا عن الرسول صلى الله عليه وسلم، لأنهم -رضي الله عنهم- أئمة، وقد أُمرنا باقتداء آثارهم، واتباع سنتهم، وهذا أظهر مما يحتاج فيه إلى برهان». (رسالة السجزي، ص٩٩).

وقال الحافظ الذهبي- رحمه الله- بعد أن ساق بعضًا من الآيات المثبتة لعلو الله على خلقه: «فإن أحببت يا عبد الله الإنصاف، فقف مع نصوص القرآن والسنة، ثم انظر ما قاله الصحابة والتابعون وأئمة التفسير في هذه الآيات، وما حكوه من مذاهب السلف، فإما أن تنطق بعلم، وإما أن تسكت بحلم، ودع المراء والجدل». (مختصر العلو ص٨٠).

قُلْتُ: رحم الله الإمام الذهبي، فكأنه يتكلم لزماننا الذي خاض فيه الجاهلون ونطقوا بما لا يحسنون، وارتفعت أصواتهم بالباطل وهم لا يشعرون، فإنا لله وإنا إليه راجعون، وأحمد الله تبارك وتعالى أن نجانا من سلوك طريق المخالفين للكتاب والسنة، وسلف الأمة الصالحين من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان.

وقد قال أحد أئمتنا في أنصار السنة كلامًا يدل على هذا الطريق، وينسجم مع ما سبق من أقوال للعلماء الراسخين، وهو العلامة الشيخ عبد الرزاق عفيفي- رحمه الله- الذي قال: «وقد تبين من ذلك أن الفرقة الناجية أهل السنة والجماعة، وأن شعارها كتاب الله وهدي رسوله صلى الله عليه وسلم، وما كان عليه سلف الأمة الذين يؤمنون بمحكم النصوص ويعملون بها، ويردون إليها ما تشابه منها، وأما الفرق الضالة فشعارها مفارقة الكتاب والسنة وإجماع سلف الأمة، واتباع الأهواء وشرع ما لم يأذن به الله من البدع والآراء الزائفة، بناء على أصول وضعوها يوالون عليها ويعادون، فمن وافقهم عليها أثنوا عليه وقربوه، وكان في زعمهم من أهل السنة والجماعة، ومن خالفهم تبرءوا منه، ونبذوه وناصبوه العداوة والبغضاء، وربما رموه بالكفر والخروج من ملة الإسلام لمخالفته لأصولهم الفاسدة». (منزلة التوحيد ص١١٢).

فيا أيها الناصح لنفسه!! الزم هذا الطريق، واستمد من الله التوفيق، واصرف همتك إلى فهم القرآن والسنة، وليكن قصدك الوقوف على الحق، وموافقة الصواب، دون تعصب لمذهب، أو لفرقة من الفرق، أو لشيخ من الشيوخ، واستكثر يا عبد الله من القرآن والسنة، فهما الطريق لمن أراد سلوك أقوم طريق، وهما النجاة لمن طلب النجاة، ورحم الإمام الآجري في قوله: «علامة من أراد الله به خيرًا سلوك هذا الطريق؛ كتاب الله، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وسنن الصحابة، رضي الله عنهم، ومن تبعهم بإحسان، وما كان عليه أئمة المسلمين في كل بلد، إلى آخر ما كان من العلماء مثل: الأوزاعي، وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، وأحمد بن حنبل، والقاسم بن سلام، ومن كان على مثل طريقتهم، ومجانبة كل مذهب يذمه هؤلاء العلماء». (الشريعة ١/٣٠١).

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من التابعين للسابقين بإحسان، وأن يحشرنا مع النبي المختار، غير مبدلين ولا مغيرين، وأن يكفينا شر الأشرار، وكيد الفجار، سبحان ربك رب العزة عما يصفون، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

تأصيل المصلحة المرسلة عقديًا

العمل بالمصالح المرسلة ليس من الابتداع في الدين

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

يظن بعض الناس أن العمل بالمصالح المرسلة، والقول به، والأخذ به من البدعة، ولذلك عقدنا هذا الفصل لهذا الأمر، ويندرج تحته النقاط التالية:

إعداد/ د. عبد الله شاكر

أ- تعريف المصلحة:

حصل اضطراب شديد في معنى المصالح المرسلة، وفي مشروعيتها، وفي أدلتها، وأمثلتها، وحكم إعمالها وتطبيقها.

وسنتكلم عن بعض هذه الأمور مما يظن أن له علاقة بموضوع البدعة.

* المصلحة المرسلة:

اختلفت تعابير العلماء وإطلاقاتهم في هذه المسألة، فبعضهم يعبر عنها بالاستصلاح، وبعضهم يعبر بالاستدلال، وبعضهم يسميها المناسب المرسل، وتتداخل مع هذه التعابير بعض المصطلحات الأخرى التي قد تلتبس بها، وذلك مثل: العلة، والحكمة، والوصف المناسب.

وسنبين معنى المصلحة، والاستصلاح، ونكتفي بذلك.

فنقول: المصلحة: هي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم، وفق ترتيب معين فيما بينها. هذا معناها العام.

أما معناها الخاص بالمصلحة المرسلة: فيراد به الوصف الذي لم يثبت اعتباره ولا إلغاؤه من قِبل الشارع، أو هي: كل مصلحة داخلة في مقاصد الشارع، ولم يرد في الشرع نص على اعتبارها بعينها أو بنوعها، ولا على استبعادها.

هذا تعريف المصلحة، وتعريف المصالح المرسلة.

* تعريف الاستصلاح:

الاستصلاح لغةً: طلب المصلحة، وفي اصطلاح أهل الأصول: ترتيب الحكم الشرعي على

المصلحة المرسلة، بحيث يحققها على الوجه المطلوب، واسم الاستصلاح يُطلق على عمل المجتهد، وهو ما أداه إليه اجتهاده من ترتيب الحكم الشرعي وَفقَ المصلحة المرسلة، أو بعبارة أخرى: الحكم بمقتضي المصلحة التي لا يشهد لها دليل خاص بالإلغاء أو الإثبات، وتكون متفقة مع مقاصد الشريعة العامة.

(ب) شروط وضوابط المصلحة التي تُبنَى عليها الأحكام الشرعية:

لا بد من ذكر هذه الشروط والضوابط؛ حتى لا يظن إنسانٌ أن العمل بالمصلحة المرسلة من باب الهوى والبدع.

وهذه الشروط كما يلي:

*** الشرط الأول: عدم معارضة المصلحة لنصٍّ من الكتاب أو السنة:**

ولا يمكن حينئذٍ أن تسمَّى مصلحة إلا من باب التجوز من جهة نظر المجتهد لا في حقيقتها؛ لأنه لا يمكن أن تتعارض مصلحة معتبرة شرعًا مع الوحي؛ لأن ذلك يستلزم أن يعارض الدليل مدلوله، وهذا باطل، ثم إن النقل هو الشاهد على اعتبار المصلحة أو إلغائها، فكيف يقبل معارضتها له؟ فليس للمجتهد - وإن توهم المصلحة في حكم ما - أن يتبع تلك المصلحة إلا بعد عَرْضهاَ على الوحي، فإن كانت موافقة له أخذ بها، وإن كانت معارضة له وجب إطراحها.

والأدلة على هذا الشرط كثيرة وفيرة من الكتاب والسنة والآثار والإجماع والقياس والمعقول.

والمقصود بمعارضة المصلحة لنصوص الكتاب والسنة: معارضتها لمنطوق النص أو مفهومه، سواء كان النص قاطعًا أو ظاهرًا، جليًا أو غيرَ جليٍّ، وتسمى المصلحة في هذه الحالة «مصلحة موهومة». وسواء كان النص قطعي الثبوت كالقرآن، أو ظني الثبوت كخبر الآحاد، أو كان قطعي الدلالة أو ظنيها فيهما، فإنه لا يجوز تقديم المصلحة فيه.

فأما ظنية ثبوت خبر الآحاد: فإنها لا تنافي قطعية وجوب العمل به. وأما ظنية الدلالة: فهي بحسب نظر المجتهد، ولكن لا يعدوها إلى ما هو دونها كالمصالح والاستحسان، ونحوهما؛ لأولية النص منطوقًا ومفهومًا.

ويدخل في هذا الشرط قول الصحابي الذي له حُكم المرفوع، وفتواه التي اشتُهرت ولم تعارض، والتي لم تشتهر ولم يعلم لها مُعارض.

*** الشرط الثاني: عدم معارضة المصلحة للقياس:**

بين القياس والمصلحة أوجُه اتفاق وأوجه افتراق؛ إذ القياس إنما هو مراعاة مصلحة في فرع بناءً على مساواته في علة حكمه المنصوص عليها، ففي القياس مراعاةٌ لمطلق المصلحة بعلة اعتبرَهَا الشارع، فكل قياسٍ مراعاةٌ للمصلحة، وليس كل مراعاة للمصلحة قياسًا، إذ تنفرد المصلحة بأن أحد أقسامها - وهو الاستصلاح أو المصالح المرسلة - هي المصالح التي يراها المجتهد مما لا شاهد يؤيده من أصلٍ يُقاس عليه، ولا دليل يلغيه من الوحي، وإن كانت مستندة إلى دليل ما اعتبره الشارع، غير أنه دليل لا يتناول أعيان هذه المصلحة بخصوصها، وإنما يتناول الجنس البعيد لها، كجنس حفظ العقل والنسب والروح، وإنما يقال ذلك في دليل المصلحة المرسلة بأن هذا هو حالها حقيقةً، ولأن تجريدها من الدليل الشرعي الذي تستند عليه يجعلها من قبيل التشهي النفسي والهوى، لكن دليل المصلحة أقل من دليل القياس، إذ دليل المصلحة يتناول

المصلحة: هي المنفعة التي قصدها الشارع الحكيم لعباده من حفظ دينهم، ونفوسهم، وعقولهم، ونسلهم، وأموالهم، وفق ترتيب معين فيما بينها. هذا معناها العام.

الجنس البعيد للمصلحة، وتنضوي ضمن مقاصد الشريعة وكلياتها العامة.

أما دليل القياس فإنه يتناول عينَ الوصف المناسب، ويدل عليه صراحةً، كما في الوصف المؤثر، أو بواسطة جريان الشارع على فقه كما في الوصف الملائم، ومن أجل هذا الاختلاف في مرتبة كلٍ من القياس والمصالح المرسلة وجبَ تقديم القياس على المصالح المرسلة، وعدم اعتبارها إذا تعارضت مع القياس، مع ملاحظة أنه لا يوجد تعارض حقيقي بين ذات كلٍ من المصالح المرسلة والقياس، وإنما يوجد التعارض في نظر المجتهد كما تخيله وبَدَا لرأيه من كون هذا الأمر مصلحة مرسلة أو قياسًا، إذ لا يطلق على أي منهما كونه مصلحة مرسلة أو قياسًا في حقيقة الأمر، إلا إذا سلِمَ كلٌ منهما من عوارض الإبطال والإلغاء.

* الشرط الثالث: عدم تفويت المصلحة المرسلة لمصلحة أهم منها، أو مساوية لها:

من المعروف - عقلًا ونقلًا - أن المصالح تتفاوت في رُتبها من حيث أهميتها، وباعثها، ورجحان وقوعها وعدمه، ومقدار شمولها، وتيقن نتائجها وعدمه، فإذا تعارضت مصلحتان في محل واحد بحيث لا تُنال واحدة منهما إلا بتفويت الأخرى، وجب النظر إليها من خلال درجات التفاوت المذكورة؛ لأن الشرع جاء لتحصيل المصالح وتكميلها وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت مصلحتان وجب الأخذ بالأعلى منهما بالنظر إلى درجات التفاوت السالفة، وإن أدَّى ذلك إلى تفويت مصلحة أدنى.

* الشرط الرابع: النظر في السبب المحوج لهذه المصلحة:

وقد نص على ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - فقال: إن الناس لا يحدثون شيئًا إلا لأنهم يرونه مصلحة، إذ لو اعتقدوه مفسدة لم يحدثوه، فإنه لا يدعو إليه عقلٌ ولا دين، فما رآه الناس مصلحة نُظر في السبب المحوج إليه؛ فإن كان السبب المحوج إليه حدث بعد النبي صلى الله عليه وسلم، فهنا قد يجوز إحداث ما تدعو الحاجة إليه، وكذلك إن كان المقتضي لفعله قائمًا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم لكن تَرَكَه النبي صلى الله عليه وسلم لمعارض زال بموته.

أما ما لم يحدث، أو يكون هناك سبب يحوج إليه، أو كان السبب المحوج إليه بعض ذنوب العباد، فهنا لا يجوز الإحداث، فكل أمر يكون المقتضي لفعله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم موجودًا، لو كان مصلحة ولم يفعل علم بأنه ليس بمصلحة، وأما ما حدث المقتضي له بعد موته من غير معصية الخلق فقد يكون مصلحة.

جـ- الصلة بين البدع والمصالح المرسلة:

هناك خلط كبير بين البدعة والمصلحة المرسلة، لكن لمزيد بيان لذلك لا بد أن نبين بعض النقاط في هذا، فأقول:

إن البدعة والمصلحة المرسلة قد تشتركان في بعض المسائل، وقد تفترقان في مسائل أخرى، ولذلك لما كان هناك صلة بين البدع والمصالح المرسلة اختلط الأمر على بعض الناس، وحَسَّنَ بعض العلماء - ومَن ينتسب إلى العلم - بعض البدع، واستساغوها، محتجين بالأعمال والفتاوى التي انبنت على الاستصلاح في عهد الصحابة والتابعين ومَن بعدهم كالأئمة الأربعة، وقد ضربوا لذلك أمثلة للأقسام التي جعلوها للبدعة؛ لأنهم قسموا البدع إلى خمسة أقسام بحسب الأحكام الشرعية الخمسة، وضربوا لها أمثلة.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

لقد حدد العلماء شروطاً وضوابط للمصلحة المرسلة تبنى عليها الأحكام الشرعية فلابد من مراعاتها.

افتتاحية العدد

الاستغفار.. مسلك الصالحين الأبرار

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده، ولي الصالحين، وأشهد أن نبينا وحبيبنا محمدًا- صلى الله عليه وسلم- إمام المتقين، صلوات الله عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سلك طريقهم إلى يوم الدين.

وبعدُ:

فإن الفتن المتلاحقة، والابتلاءات المتكررة، وحظ النفس والهوى والشيطان قد تؤثر في العبد، فتدفعه إلى الوقوع في الزلات، وليس أمام العباد إلا الرب الكريم، صاحب الخير والفضل والإحسان، وقد شرع (سبحانه) الاستغفار لما يمكن أن يقع فيه الناس من ذنوب و خطايا وموبقات، وهذا من عظيم رحمة الله بعباده.

ومعنى الاستغفار: طلب الغفران وهو مأخوذ من مادة (غفر) التي تدل على التغطية والستر، يُقال: غفر الله ذنبك، أي: ستره. انظر: اللسان (٢٥/٥).

وقال الراغب: (والغفران والمغفرة من الله هو: أن يصون العبد من أن يمسه العذاب، والاستغفار: طلب ذلك بالمقال والفعال). المفردات: ص٣٦٢.

والعبد في طريقه إلى الله بحاجة ضرورية إلى التوبة والاستغفار، وطلب ذلك من العلي الغفار، وقد أمر الله به في كتابه في آيات كثيرة، منها قوله تعالى: «وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» (هود: ٣). وهذا أمر صريح من الرب لعموم الخلق بالاستغفار، والمراد: اطلبوا المغفرة من الله مما يقع منكم من الكفر والشرك، والمعاصي والآثام، ولكي يتحقق المطلوب لا بد من التوبة، ولذلك عطفها على الاستغفار، قال الرازي- رحمه الله-: (وهذا يدل على أنه لا سبيل إلى طلب المغفرة من عند الله إلا بإظهار التوبة، والأمر في الحقيقة كذلك لأن المذنب معرض عن طريق الحق، والمعرض المتمادي في التباعد ما لم يرجع عن ذلك الإعراض لا يمكنه التوجه إلى المقصود بالذات، فالمقصود بالذات هو التوجه إلى المطلوب، إلا أن ذلك لا يمكن إلا بالإعراض عما يضاده، فثبت أن الاستغفار مطلوب بالذات، وأن التوبة مطلوبة لكونها من متممات الاستغفار، وما كان آخرًا في الحصول كان أولًا في الطلب، فلهذا السبب قدم ذكر الاستغفار على التوبة). مفاتيح الغيب ٤٦٩/٨.

وقد أثنى الله- تبارك وتعالى- في كتابه على المستغفرين، فقال: «ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ» (آل عمران: ١٧)، وهذا مدح عظيم لمن اتصفوا بهذه الصفات وآخرها الاستغفار، قال ابن كثير رحمه الله: "دل على

فضيلة الاستغفار..." (تفسير ابن كثير ١/٤٨٨).

والحكمة في تخصيص الأسحار، كونه وقت غفلة الناس، والقيام فيه شاق، فمن قام صادقًا مخلصًا طامعًا في فضل ربه ومولاه، تم له المراد، ونال القرب من الله، ومن هنا كان الاستغفار من صفات المتقين، كما قال رب العالمين: «وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾ وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا۟ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا۟ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا۟ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (آل عمران" ١٣٣- ١٣٥). وقد دلت الآية على أن الذي يغفر الذنوب هو الله، وأنه هو وحده الذي يملك ذلك، وأن من استغفر بعد الذنب غفر الله له ورحمه، كما قال الله تعالى: «وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا» (النساء: ١١٠).

قال ابن جرير (رحمه الله) في معنى الآية: "يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يعمل ذنبًا وهو السوء، أو يظلم نفسه بإكسابه إياه ما يستحق به عقوبة الله، ثم يستغفر الله، يقول: ثم يتوب إلى الله بإنابته مما عمل من السوء وظلم نفسه، ومراجعته ما يحبه الله من الأعمال الصالحة التي تمحو ذنبه وتذهب جرمه يجد الله غفورًا رحيمًا". (تفسير الطبري ٥/١٧٥).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الاستغفار بعد الذنب يطهر القلب، كما جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن العبد إذا أذنب، كانت نكتة سوداء في قلبه، فإن تاب ونزع واستغفر، صُقل قلبه..". حسنه الألباني، وانظر: صحيح سنن ابن ماجة ٢/٤١٧.

قال ابن منظور: "الصَّقْل: الجلاء، صَقَل الشيء يصقل صقلاً وصقالاً، فهو مصقول وصقيل: جلاه". لسان العرب ١١/٣٨٠. والمعنى: أن القلب يعود طاهرًا نظيفًا صالحًا بعد الاستغفار، ولذلك لابد منه للعبد، وهو لا يسلم من الذنب، والله- جلت قدرته- حثَّ عباده على الاستغفار ليغفر لهم، كما في الحديث القدسي: "يا عبادي، إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا، يا عبادي، كلكم ضال إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل والنهار، وأنا أغفر الذنوب جميعًا، فاستغفروني أغفر لكم". (مسلم: ٢٥٥٧).

الحكمة في تخصيص الأسحار بالفضيلة كون هذا الوقت وقت غفلة الناس، والقيام فيه شاق، فمن قام صادقًا مخلصًا طامعًا في فضل ربه ومولاه، تم له المراد، ونال القرب من الله.

وقد فقه ذلك إخوة يوسف (عليه السلام)، فطلبوا الاستغفار بعد الذنب، قائلين: «يَٰٓأَبَانَا ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ إِنَّا كُنَّا خَٰطِـِٔينَ» (يوسف: ٩٧)، والاستغفار سبب من أسباب رحمة الله، ورفع العذاب عنهم، قال الله تعالى: «وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ» (الأنفال: ٣٣)، وقد طلب نبي الله صالح (عليه السلام) من قومه الاستغفار رجاء أن تنالهم رحمة الرحمن، كما ذكر عنه ذلك القرآن الكريم، قال الله تعالى: «قَالَ يَٰقَوْمِ لِمَ تَسْتَعْجِلُونَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ ۖ لَوْلَا تَسْتَغْفِرُونَ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ» (النمل: ٤٦)، والمعنى: هلا تستغفرون من له صفات الكمال والجلال والعظمة، وتطلبون منه غفران الذنوب رجاء أن يتداركك بفضله، ويتفضل عليكم من عظيم خيره، وقد وعد الله- عز وجل- عباده المستغفرين التائبين بالمتاع الحسن، وفي هذا راحة ونعيم وسعادة، قال الله تعالى: «وَأَنِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُم مَّتَٰعًا حَسَنًا إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ ۖ وَإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ كَبِيرٍ» (هود: ٣٠)، ومن المتاع الحسن: العزة والقوة، والغلبة والمنعة، قال الشنقيطي- رحمه الله-

: "هذه الآية الكريمة تدل على أن الاستغفار والتوبة إلى الله تعالى من الذنوب سبب لأن يمتع الله من فعل ذلك متاعًا حسنًا إلى أجل مسمى، لأنه رتب ذلك على الاستغفار والتوبة ترتيب الجزاء على شرطه، والظاهر أن المراد بالمتاع الحسن سعة الرزق ورغد العيش، والعافية في الدنيا، وأن المراد بالأجل المسمى الموت. (أضواء البيان ٩/٣).

وما ذكره رحمه الله حقيقة واقعة آثار إليها القرآن الكريم فيما ذكره عن نوح عليه السلام: «فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا» (نوح: ١٠- ١٢).

قال ابن كثير (رحمه الله) في معنى الآية: "إذا تبتم إلى الله واستغفرتموه، وأطعتموه، كثر الرزق عليكم وأسقاكم من بركات السماء، وأثبت لكم من بركات الأرض، وأنبت لكم الزرع، وأضر لكم الضرع، وأمدكم بأموال وبنين، أي: أعطاكم الأموال والأولاد، وجعل لكم جنات فيها أنواع الثمار، وخللها بالأنهار الجارية بينها". تفسير ابن كثير ٥٦٥/٤.

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن من أراد أن تجمع له الدنيا والآخرة، فعليه بطلب الغفران، كما في حديث سعد بن طارق عن أبيه، أنه سمع النبي (صلى الله عليه وسلم) وقد أتاه رجل فقال: يا رسول الله، كيف أقول حين أسأل ربي؟ قال: "قل اللهم واغفر لي وارحمني وعافني وارزقني"، وجمع أصابعه الأربع إلا الابهام، "فإن هؤلاء يجمعن لك دينك ودنياك". صحيح سنن ابن ماجة ٣٢٧/٢، والاستغفار من هدي الأنبياء والمرسلين، ويدل لذلك ما وقع من آدم (عليه السلام) عندما أكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، وتاركة حواء في الاستغفار، كما قال عنها: «قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (الأعراف: ٢٣)، ولما مات القبطي بوكزة موسى (عليه السلام) توجه إلى ربه بالاستغفار، قال: «قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (القصص: ١٦)، وهذا نبينا (صلى الله عليه وسلم) مع عظيم قدره، وعلو شأنه، وغفران الله له ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر، كان يلازم الاستغفار، ومن ذلك ما رواه الأغر المزني- وكانت له صحبة (رضي الله عنه) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "إنه ليغان على قلبي، واني

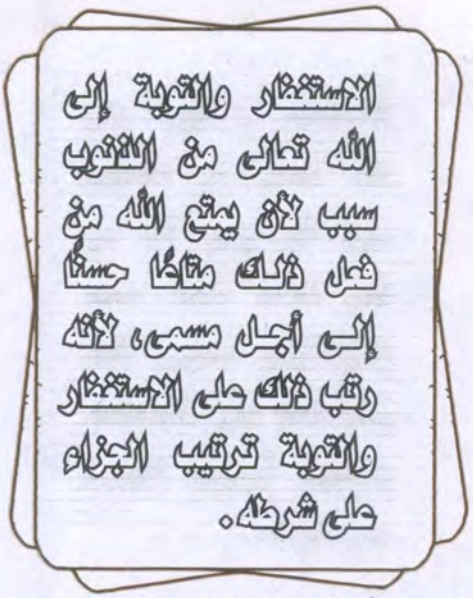

لأستغفر الله في اليوم مائة مرة". (مسلم: ٢٧٠٢).

قال النووي (رحمه الله) في شرحه: "والمراد هنا ما يتغشى القلب. قال القاضي: قيل: المراد الفترات والغفلات عن الذكر الذي كان من شأنه الدوام عليه، فإذا فتر عنه أو غفل عدّ ذلك ذنبًا واستغفر منه". (شرح النووي على مسلم ٢٣/١٧).

وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا عنون له بقوله: "باب استغفار النبي (صلى الله عليه وسلم) في اليوم والليلة". ثم ساق تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه: "سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة". (البخاري: ٦٣٠٧).

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: "كنا نعد لرسول الله صلى الله وسلم في المجلس الواحد مائة مرة: ربِّ اغفر لي وتب علي، إنك أنت التواب الرحيم". سنن أبي داود: ١٥١٦. وهذا يدل على أن النبي (صلى الله عليه وسلم) كان يكثر من الاستغفار ويحرص عليه، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يعرفون ذلك عنه، وقد أرشد أمته إلى أفضل صيغ الاستغفار ومكانتها، كما في حديث شداد بن أوس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم: "سيد الاستغفار أن يقول: اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت، أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليَّ، وأبوء لك بذنبي، اغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت،

قال: ومن قالها من النهار موقنًا بها فمات من يومه قبل أن يمسي فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها فمات قبل أن يصبح فهو من أهل الجنة". (البخاري: ٦٣٠٦).

ونقل ابن حجر عن الطيبي أنه قال في هذا الحديث: "لما كان هذا الدعاء جامعًا لمعاني التوبة كلها استُعير له اسم السيد، وهو في الأصل الرئيسي الذي يقصد في الحوائج، ويرجع إليه في الأمور"، وذكر ابن حجر أنه قال: "جمع النبي (صلى الله عليه وسلم) في هذا الحديث من بديع المعاني وحسن الألفاظ ما يحق له أن يسمى سيد الاستغفار، ففيه الإقرار لله وحده بالإلهية والعبودية، والاعتراف بأنه الخالق، والإقرار بالعهد الذي أخذه عليه، والرجاء بما وعد به، والاستعاذة من شر ما جنى العبد على نفسه، وإضافة النعماء إلى موجدها، وإضافة الذنب إلى نفسه، ورغبته في المغفرة، واعترافه بأنه لا يقدر أحد على ذلك إلا هو". فتح الباري ١١/٩٩، ١٠٠.

ويستحب الاستغفار بعد الأعمال الصالحة، كالاستغفار ثلاثًا بعد الخروج من الصلاة، والاستغفار بعد النزول من عرفات، قال الله تعالى: « ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ وَاسْتَغْفِرُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ » (البقرة: ١٩٩)، قال ابن كثير: "كثيرًا ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات، ولهذا ثبت في صحيح مسلم أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثًا، وفي الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثًا وثلاثين" (تفسير ابن كثير ١/٣٤٢).

وكان النبي (صلى الله وعليه وسلم) يختم مجالسه بالاستغفار، كما في حديث أبي برزة الأسلمي رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول بأخرة: إذا أراد أن يقوم من المجلس: "سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك". فقال رجل: يا رسول الله، إنك لتقول قولاً ما كنت تقوله فيما مضى، قال: "كفارة لما يكون في المجلس". (صحيح سنن أبي داود ٣/٩٢١).

وقد أمر الله نبيه وحبيبه (صلى الله عليه وسلم) في آخر حياته بالتسبيح والتحميد والاستغفار، كما قال الله تعالى: «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا» (سورة النصر)، وقد فهم عمر بن الخطاب وابن عباس رضي الله عنهما أن هذه السورة فيها إشارة إلى قرب أجل رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يكثر من الاستغفار بعد هذا الأمر، وقد روى الشعبي عن أم سلمة (رضي الله عنها) قالت: كان رسول الله (صلى الله عليه وسلم) في آخر أمره لا يقوم ولا يقعد، ولا يذهب ولا يجيء، إلا قال: "سبحان الله وبحمده". وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ٧/٤٤٧. وآخر الكلمات التي نطق بها النبي (صلى الله عليه وسلم) في حياته، طلب المغفرة من ربه- عز وجل- كما في حديث عبد الله بن الزبير عن عائشة رضي الله عنهما أنها سمعت النبي صلى الله عليه وسلم وأصغت إليه قبل أن يموت وهو مسند إليها ظهره يقول: "اللهم اغفر لي وارحمني، وألحقني بالرفيق الأعلى". (البخاري: ٤٤٤٠).

وهكذا ختم النبي (صلى الله عليه وسلم) حياته بالاستغفار، أسأل الله تبارك وتعالى أن يختم أعمالنا بالخير والبركة، وأن يعفو عن الزلات، ويغفر ما سلف وكان.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ظهور البدع في العقائد.. أسبابها وأضرارها

إعداد/ د/عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

وقت ظهور البدع ومكانها:

(أ) وقت ظهور البدع:

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تبارك وتعالى: «واعلم أن عامة البدع المتعلقة بالعلوم والعبادات إنما وقعت في الأمة في أواخر عهد الخلفاء الراشدين، كما أخبر به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال: «مَن يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين»، وأول بدعة ظهرت هي بدعة القدر، وبدعة الإرجاء، وبدعة التشيع والخوارج، ولما حدثت الفُرقة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ظهرت بدعة الحرورية، ثم في أواخر عصر الصحابة حدثت القدرية، وذلك في أواخر عصر ابن عباس وابن عمر وجابر وأمثالهم من الصحابة، وحدثت المرجئة قريبًا من ذلك.

وأما الجهمية: فحدثت في أواخر عصر التابعين، بعد موت عمر بن عبد العزيز، وقد روي أنه أنذر بهم، وكان ظهور جهم بخراسان في خلافة هشام بن عبد الملك، وهذه البدع ظهرت في القرن الثاني الهجري، وكان الصحابة رضي الله عنهم قد شاهدوا بعض هذه البدع كبدعة: الخوارج، والروافض، والقدرية، وكان الصحابة عند ظهور هذه البدع منكرين على أهلها، ثم لما ظهرت بدعة الاعتزال وحدثت الفتن بين المسلمين، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء، وظهرت بدعة التصوف، وبدعة البناء على القبور بعد القرون المفضلة؛ قام أيضًا أهلُ العلم بالرد وبيان بدع هؤلاء.

(ب) مكان ظهور البدع:

تختلف البُلدان الإسلامية في ظهور البدع فيها، وقد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الأمصار الكبار التي سكنها صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وخرج منها العلم والإيمان خمسةٌ: الحرمان، والعراقان، والشام. ومنها خرج القرآن، والحديث، والفقه، والعبادة، وما يتبع ذلك من أمور الإسلام، وخرج من هذه الأمصار بدعٌ أصولية غير المدينة النبوية، والكوفة خرج منها التشيع والإرجاء، وانتشر بعد ذلك في غيرها، والبصرة خرج منها القدر والاعتزال والنسك الفاسد، وانتشر بعد ذلك في غيرها، والشام كان بها النصب والقدر، وأما التجهم فظهر في ناحية خراسان، وهو شر البدع.

وكان ظهور البدع بحسب البُعد عن الدار النبوية، فلما حدثت الفرقة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه ظهرت بدعة الحرورية، وأما المدينة المنورة: فكانت سليمة من ظهور البدع، وإن كان بها من هو مُضمر لذلك؛ إذ كان بها قوم من القدرية وغيرهم، ولكنهم كانوا مقهورين أذلاء، وذلك بخلاف التشيع والإرجاء في الكوفة والاعتزال وبدع النساك في البصرة، والنصب بالشام، فإنه كان ظاهرًا.

أهم الأسباب التي أدت إلى ظهور البدع:

هناك أسباب متعددة أدت إلى ظهور البدع في المسلمين وهي مهمة، ولا بد من ذكر أهم الأسباب حتى ولو كانت كثيرة؛ ليحذر الناس هذه الأسباب حتى لا يقعوا

في البدع والضلالات.

السبب الأول: الجهل بأحكام الدين:

كلما بعد الناس عن آثار الرسالة، وكلما امتد الزمن قل العلم وفشا الجهل، كما أخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله: «من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا»، وقال صلى الله عليه وسلم: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يُبْقِ عالمًا اتخذ الناس رؤساء جهالًا، فسُئلوا فأفتوا بغير علم؛ فضلوا وأضلوا»، وقال صلى الله عليه وسلم: «يكون في آخر أمتي أناسٌ دجَّالُون كذَّابون، يحدثونكم بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم؛ فإياكم وإياهم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم».

السبب الثاني: الجهل بمصادر الأحكام، أو الجهل بوسائل فهمها من تلك المصادر:

إن مصادر الأحكام الشرعية - كما هو معلوم - كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وما أُلحِقَ بهما من الإجماع والقياس، بمعنى: أنه يؤخذ الحكم من كتاب الله تعالى وتليه السنة، ثم الإجماع والقياس، والقياسُ لا يُرجع إليه في أحكام العبادات؛ لأن من أركانه أن يكون الحكم في الأصل معلولًا بمعنى يوجد في غيره، ومبنى العبادة على التعبد المحض، وإذا كان القياس لا يدخل في العبادات فمن باب أولى لا يدخل في العقائد.

ومن أسباب الجهل بالأحكام: الجهل بأساليب اللغة العربية، والجهل بالسنة، والجهل بمرتبة القياس والجهل بمحل القياس.

السبب الثالث: اتباع الهوى في استنباط الأحكام:

اتباع الهوى في استنباط الأحكام يأتي من أن الناظر في الأدلة قد يكون مما تملكهم الأهواء؛ فتدفعه إلى تقرير الحكم الذي يحقق غرضه، ثم يأخذ في تلمس الدليل الذي يعتمد عليه ويجادل به، وهذا الواقع يجعل الهوى أصلًا تحمل عليه الأدلة، ويحكم بها عليه؛ مما يؤدي إلى قلب قضية التشريع، وإفساد لغرض الشارع من نصب الأدلة؛ لأن الأصل أن تؤخذ الأحكام من الأدلة لا أن تقرر الأحكام ثم تتصيد لها الأدلة، وهذا ما يفعله أهل الهوى والضلال.

ومتابعة الهوى هي أصل الزيغ عن الصراط المستقيم، وذلك مصداق قول الحق - تبارك وتعالى -: «فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ» (القصص: ٥٠).

السبب الرابع: تقديم العقل على النص:

إن إحسان الظن بالعقل وإعمال العقل في مسائل الدين أدى إلى وقوع البدع بين المسلمين، ورب العالمين سبحانه بعث الرسل مبشرين ومنذرين، وكان خاتمهم صلى الله عليه وسلم الذي بُعث ليبين للناس ما يُرضي خالقهم، ويضمن سعادتهم، ويجعل لهم حظًا وافرًا من خيري الدنيا والآخرة.

السبب الخامس: اتباع المتشابه ابتغاء الفتنة من العلماء علماء البدع، وابتغاء تأويله من الجهلة المتعالمين:

والأصل في بيان ذلك قول الحق تبارك وتعالى: «هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ ۖ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ ۗ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ» (آل عمران: ٧)، الذي يفيد أن الراسخين في العلم لا يعلمون تأويل هذه المتشابهات، وأن ذمَّ اتباع هذه المتشابهات عامٌّ يتناول الجاهل والعالم على السواء.

السبب السادس: انتشار الأحاديث الموضوعة والواهية:

الأحاديث الضعيفة والموضوعة التي روَّجها مَن انتسب إلى العلم أو الرواية، إما لقصد الإفساد في الدين كالزنادقة والملحدين، الرامين بذلك إلى الطعن في الدين، كما ذهبت الكرَّامية إلى تجويز الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم

ترغيبًا وترهيبًا، وغلاة الشيعة الذين وضعوا أحاديث في فضل آل بيت وفي علي وخلافته، واستحقاقه للنبوة، وتلقيه للوصية من النبي صلى الله عليه وسلم كما أن بعض المغفلين قصدوا الزيادة في التعبد في الدين، وذلك بأن وضعوا أحاديث في الرقائق ترغب الناس في مثل هذه المسائل.

والشاهد من كل ذلك: أن انتشار الأحاديث الضعيفة والباطلة والواهية والموضوعة كانت من الأسباب الرئيسة التي أدت إلى ظهور البدع في المسلمين.

السبب السابع: التعصب لآراء الرجال:

التعصب هو الإصرار على الرأي والتمسك به وتقديمه على النصوص الشرعية، وتمحل الأدلة وتكليفها لتأييده وإن كان على خلاف الحق والصواب، وهو في ذاته بدعة ذميمة، بل هو من أمر الجاهلية المنتنة، ومن شيم المغضوب عليهم والضالين.

وهذا التعصب يحول بين المرء واتباع الدليل ومعرفة الحق، قال تعالى: « وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ » (لقمان: ٢١)، وقال - جل جلاله -: «إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَىٰ » (النجم: ٢٧)، وهذا هو شأن المتعصبين اليوم من بعض أتباع المذاهب الذين سلكوا طرقًا منحرفة كالصوفية والقبوريين، فإنهم إذا دُعوا إلى اتباع الكتاب والسنة وما هم عليه مما يخالفهما، احتجوا بمذاهبهم ومشايخهم وآبائهم وأجدادهم.

السبب الثامن: التشبه بالكفار:

ومن أشد ما يوقع في البدع كما في حديث أبي واقد الليثي، قال: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى حُنين، ونحن حدثاء عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون عليها وعندها، وينوطون بها أسلحتهم، يقال لها: ذات أنواط، قال: فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «الله أكبر؛ إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: «وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ » (الأعراف: ١٣٨)، ثم قال: لتركبن سنن من قبلكم...» إلى آخر الحديث، وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سنن من كان قبلكم شبرًا بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جُحْرَ ضَبٍّ لتبعتموهم»، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟! قال: «فَمَنْ؟!».

السبب التاسع: التأثر بالأفكار والفلسفات الوافدة من بلاد الكفار على المسلمين:

وفي هذا تجد أن كل فرقة في الإسلام قد استحدثت بعض أصولها وأكثرها من الملل السابقة؛ فالرافضة أخذت عن اليهود والمجوس والجهمية، والمعتزلة أخذوا عن الصابئة، وفلاسفة اليونان والقدرية عن النصارى وهكذا، كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لتتبعن سَنَنَ مَن كَانَ قَبْلَكُم».

السبب العاشر: الغلو: وهو من أهم الأسباب، فلم تظهر الفرق المخالفة لأهل السنة والجماعة مثل الخوارج والصوفية إلا بسبب الغلو، فقد قال صلى الله عليه وسلم: «إياكم والغلو...». الحديث.

آثار انتشار البدع:

(أ) آثار انتشار البدع:

انتشار البدع له آثار عامة وآثار خاصة.

فمن الآثار العامة في انتشار البدع: زوال السنن وخفاؤها، وكثرة الخلاف والشقاق بين أفراد الأمة، وازدراء السنن وتنقيصها، وإلغاء حكم الشرع وتحكيم العقل، وتشويه معالم الدين.

هذه هي الآثار العامة التي كانت وراء انتشار البدع.

أما الآثار الخاصة - وهي أيضًا تأتي على صاحب البدعة وتضره -: أنَّ عَمَلَ المبتدع مردودٌ، وأن التوبة تُحجب عنه، وأنه لا يردَ حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه يدخل في عداد القائلين على الله بغير علم.

(ب) أضرار البدع:

أضرار البدع إجمالًا:

البدعة لا يقبل معها عبادة من صلاة ولا صيام ولا صدقة ولا غيرها من القُربات، فالذي يُجالس صاحب البدعة ينزع الله عزوجل منه العصمة، والماشي إليه - أي: إلى صاحب البدعة - وموقره مُعينٌ على هدم الإسلام، فما الظن بصاحب البدعة؟! فهي تجلب لعنة رب العالمين، وتزيد العبد من ربه بُعدًا، وهي مظنة إلقاء العداوة والبغضاء بين الناس، وتمنع من الشفاعة المحمدية، كما أنها ترفع السنن التي تقابلها؛ فما ظهرت بدعة إلا وأزالت مكانها سنة كانت قائمة، والمبتدع عليه إثم مَن عمل ببدعته، ويُبعد عن حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم.

أضرار البدع تفصيلا:

الضرر الأول:

إدعاء حق التشريع للبشر، واتخاذهم أربابًا من دون الله - تبارك وتعالى - قال تعالى: « اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » (التوبة: ٣١)، وقال سبحانه: « وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَٰذَا حَلَالٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ » (النحل: ١١٦)، وقال تعالى: « أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (الشورى: ٢١)، فمن قبل تشريعًا غير تشريع الله فقد أشرك بالله - تبارك وتعالى - وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات فهو بدعة، وكل بدعة ضلالة، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رَد».

الضرر الثاني:

الطعن في الدين، بالاعتقاد أن التشريع جاء ناقصًا، وأنه تكمله هذه البدعة، والله عز وجل قد أتم لنا الدين، وأكمل علينا نعمته، قال تعالى: «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا » (المائدة: ٣).

الضرر الثالث:

التعبد لله بما لم يشرع؛ فيقوم إبليس بالتلبيس على الناس، بحيث يعتقد الناس في الدين ما ليس من الدين، وذلك مثل الذي يَحْدُثُ في المساجد وغيرها من إدخال البدع فيها، حتى إن البعض يترك السنة فلا يلومه أحد، ويأتي بالبدعة فيتبعه كثير من الناس على بدعته، وكون الإنسان يلتبس عنده الحق بالباطل حتى يتعبد لله بما لم يشرعه الله، يكون بذلك قد وقع في خطر عظيم.

الضرر الرابع:

أن صاحب البدعة محروم من ثواب العمل الذي يعمله، وقد سبق أن ذكرنا حديث عائشة رضي الله عنها: «مَن أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه، فهو رد».

الضرر الخامس:

صاحب البدعة يحرم من الوُرود على حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم القيامة، ويدعو عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفي ذلك يقول النبي صلى الله عليه وسلم: «ألا ليذادن رجال عن حوضي كما يذاد البعير الضال، أناديهم: ألا هلم هَلُمَّ، فيقال: إنهم قد بدَّلوا بعدك؛ فأقول: فسحقًا فسحقًا فسحقًا».

الضرر السادس:

صاحب البدعة ملعون؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «مَن أحدث فيها أو آوى محدثًا؛ فعليه لعنة الله، والملائكة، والناس أجمعين».

الضرر السابع:

صاحب البدعة عليه إثم من قلده وعمل بالبدعة التي يعمل بها؛ لقوله تعالى: « لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ » (النحل: ٢٥). وقال صلى الله عليه وسلم: «ومن دعا إلى ضلالة كان عليه إثم من اتبعه، لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا».

وللحديث بقية إن شاء الله.

افتتاحية العدد

ضوابط الاستدلال بالنصوص عند أهل السنة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه وبعد:

فقد تناولنا في حلقات سابقة وجوب تعظيم النصوص الشرعية، وأهمية العمل بها وفق فهم الصحابة ومن تبعهم بإحسان، ورأيت بعد ذلك أن أتحدث عن منهج الاستدلال بالنصوص الشرعية عند أهل السنة والجماعة، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

الضابط الأول: وجوب الرجوع إلى الكتاب والسنة عند التنازع:

إن مما يميز أهل السنة والجماعة تسليمهم المطلق لنصوص الوحي، وعدم تعدِّيها أو الخروج عليها، وهذا منهج أصيل عندهم، وهم بهذا يستجيبون لقول الله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا» (النساء:٥٩).

وهذا أمرٌ صريح بالرد إلى الله وإلى الرسول صلى الله عليه وسلم عند التنازع، وذلك حتى يرتفع التنازع والخلاف، وتجتمع الكلمة، قال ابن كثير: «قال مجاهد وغير واحد من السلف، أي: إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وهذا أمر من الله عز وجل بأن كل شيء تنازع الناس فيه من أصول الدين وفروعه أن يُرد التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة، كما قال الله تعالى: «وَمَا ٱخۡتَلَفۡتُمۡ فِيهِ مِن شَيۡءٖ فَحُكۡمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ» (الشورى:١٠)، فما حكم به الكتاب والسنة وشهدا له بالصحة فهو الحق، وماذا بعد الحق إلا الضلال». (تفسير ابن كثير ١/٧١٣).

وفي قوله تعالى في الآية: «إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ» (النساء:٥٩)، دليل على أن هذا الرد متعين على المختلفين، وأنه شأن من يؤمن بالله واليوم الآخر، والاكتفاء بالكتاب والسنة عند التنازع والرجوع إليهما أمارة على صحة الإيمان، وأن ما ورد فيهما حق وصدق.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وأما خبر الله ورسوله فهو صدق، موافق لما الأمر عليه في نفسه، لا يجوز أن يكون شيء من أخباره باطلاً، ولا مخالفًا لما هو الأمر عليه في نفسه، ويُعلم من حيث الجملة أن كل من عارض شيئًا من أخباره وناقضه، فإنه باطل من جنس حجج السفسطائية، وإن كان العالمُ بذلك قد لا يعلم وجه بطلان تلك الحجج المعارضة لأخباره، وهذه حال المؤمنين للرسول صلى الله عليه وسلم الذين علموا أنه رسول الله الصادق فيما يخبر به». (درء التعارض ٥/٢٥٥).

وكان أهل العلم من السلف على هذا المسلك لا يقدِّمون على كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، ويقفون عند

الوارد فيهما، وقد ذكر ابن القيم رحمه الله ذلك عن الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله، وفي ذلك يقول: «فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه، ولا من خالفه كائنًا من كان، ولهذا لم يلتفت إلى خلاف عمر في المبتوتة لحديث فاطمة بنت قيس.. ولم يكن يقدّم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأيًا ولا قياسًا، ولا قول صاحب». (إعلام الموقعين ١/ ٢٩، ٣٠).

ومما يلحق بهذا الضابط: الاعتماد فقط على الصحيح والحسن من الأحاديث، خاصة في مسائل الاعتقاد التي دائمًا أركز عليها، وكان العلماء الراسخون في العلم على هذا، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وقد يروي كثير من الناس في الصفات، وسائر أبواب الاعتقاد وعامة أبواب الدين: أحاديث كثيرة مكذوبة، موضوعة على رسول الله صلى الله عليه وسلم...، والواجب أن يفرق بين الحديث الصحيح والحديث الكذب، فإن السنة هي الحق دون الباطل، وهي الأحاديث الصحيحة دون الموضوعة، فهذا أصل عظيم لأهل الإسلام عمومًا، ولمن يدّعي السنة خصوصًا». (مجموع الفتاوى ٣/ ٣٧٩، ٣٨٠).

ولذلك فإنه يجب الحذر عند رواية الحديث والاستدلال به، حتى لا يضل الإنسان بالاعتماد على ما لا يصح، والحديث الموضوع لا تجوز روايته إلا لبيان حاله، فكيف يؤخذ منه حكم شرعي؟ ومن المعلوم أن الأحكام الشرعية لا تكتب إلا بدليل شرعي.

يقول ابن تيمية: «وكذلك ما عليه العلماء من العمل بالحديث الضعيف في فضائل الأعمال: ليس معناه إثبات الاستحباب بالحديث الذي لا يحتج به، فإن الاستحباب حكم شرعي فلا يثبت إلا بدليل شرعي، ومن أخبر عن الله أنه يحب عملاً من الأعمال من غير دليل شرعي، فقد شرع من الدين ما لم يأذن به الله، كما لو أثبت الإيمان أو التحريم، ولهذا يختلف العلماء في الاستحباب كما يختلفون في غيره، بل هو أصل الدين المشروع، فإذا انضمت أحاديث الفضائل الضعيفة تقديرًا وتحديدًا، مثل صلاة وقت معين بقراءة معينة، أو على صفة معينة لم يجز ذلك، لأن استحباب هذا الوصف المعين لم يثبت بدليل شرعي». (مجموع الفتاوى ١٨/ ٦٥-٦٧).

الضابط الثاني: الأخذ بظواهر النصوص ورد التأويل المذموم:

من المسلَّم به عند أئمة السلف وجوب العمل بظواهر النصوص، وبفهم النص على مقتضى لغة العرب، وبالنصوص الأخرى الموضحة له من القرآن والسنة، ولا يجوز لنا أن نصرف النصوص عن ظواهرها بمعاني محتملة لا يدل عليها الكلام، والأصل في ذلك أن الألفاظ الواردة من المتكلم تدل على مراده، خاصة إذا كان المتكلم بها خالق الخلق أجمعين، أو رسول رب العالمين صلى الله عليه وسلم، المؤيد بالوحي من ربه، والمتكلم أعرف بمراده من غيره، ولهذا وجب الأخذ بظاهر كلامه، وإلا كان في التأويل إبطال بكلامه.

يقول ابن القيم رحمه الله: «كل تأويل يعود على أصل النص بالإبطال فهو باطل، كتأويل قوله صلى الله عليه وسلم: «أيما امرأة نكحت نفسها بغير إذن وليها فنكاحها باطل». بحمله على الأَمَة، فإن هذا التأويل مع شدة مخالفته لظاهر اللفظ يرجع إلى أصل النص بالإبطال، وهو قوله: «فإن دخل بها فلها المهر بما استحل من فرجها»، ومهر الأمة إنما هو للسيد». (الصواعق المرسلة ١/ ١٩٧، ١٩٨).

وكذلك العمل بالتأويل على خلاف الظاهر يوجب تعطيل المعنى الذي هو في غاية العلو والشرف، ويحطه إلى معنى دونه بمراتب كثيرة، ومثال ذلك

تأويل الجهمية قوله تعالى: «وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ» (الأنعام:١٨)، وقوله تعالى: «يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ» (النحل:٥٠) بأنها فوقية الشرف، كقولهم الدينار فوق الدرهم، وهذا تأويل باطل ينزل بالمعنى المراد عن رتبته، يقول ابن القيم: «فتأمل تعطيل المتأولين حقيقة الفوقية المطلقة التي هي من خصائص الربوبية، وهي المستلزمة لعظمة الرب جل جلاله، وحطها إلى كون قدره فوق قدر بني آدم وأنه أشرف منهم، وكذلك تأويلهم علوه بهذا المعنى وأنه كعلو الذهب على الفضة، وكذلك تأويلهم استواءه على عرشه بقدرته عليه، وأنه غالب له، فيا لله العجب هل ضلت العقول وتاهت الأحلام، وشكت العقلاء في كونه سبحانه غالبًا لعرشه، قادرًا عليه، حتى يخبر به سبحانه في سبعة مواضع من كتابه مطردة بلفظ واحد». (المرجع السابق ١/١٩٩، ٢٠٠).

ولهذا أكثر السلف على ضرورة الأخذ بظاهر النص، لأنه هو الذي عناه المتكلم بكلامه، إلا كان عبثًا لا فائدة منه، وفي هذا طعن على المتكلم به.

يقول ابن الوزير رحمه الله: «لا يصح سكوت الشرع عن النص على ما يحتاج إليه من مهمات الدين، وثبت أن الإسلام متبع لا مخترع، ولذلك كفر من أنكر شيئًا من أركانه، لأنها معلومة ضرورة فأولى وأحرى ألا يجيء الشرع بالباطل منطوقًا متكررًا من غير تنبيه على ذلك، لا سيما إذا كان الذي سموه باطلاً هو المعروف في جميع آيات كتاب الله وجميع كتب الله، ولم يأت ما يناقضه حتى ينبه على وجوب التأويل». (إيثار الحق على الخلق ص١٣٠، ١٣١).

وقد تلقى الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- الوحي عن الرسول صلى الله عليه وسلم وآمنوا وسلّموا بظواهر هذه النصوص جميعها، يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن علم حال خاصة النبي صلى الله عليه وسلم كأبي بكر وعمر وغيرهما من السابقين علم أنهم كانوا أعظم الناس تصديقًا لباطن أمر خبره ظاهر، وطاعتهم له في سرهم وعلانيتهم، ولم يكن أحد منهم يعتقد في خبره وأمره ما يناقض ظاهر ما بيّنه لهم ودلّهم عليه، وأرشدهم إليه، ولهذا لم يكن في الصحابة من تأول شيئًا من نصوصه على خلاف ما دل عليه، لا فيما

يجب أن يعتقد المسلم أن نصوص الوحيين الصحيحة والصريحة في دلالتها، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة، وأنه لا يوجد قط في الشريعة ما يرده العقل، بل العقل الصريح يسلم للنقل الصحيح.

أخبر به الله من أسمائه وصفاته، ولا فيما أخبر به عما بعد الموت». (مجموع الفتاوى ج/٢٥١، ٢٥٢).

والحافظ ابن حجر العسقلاني رحمه الله مع تأثره نوعًا ما بعلم الكلام، إلا أنه عابه، وبيّن أنه لم يكن من معهود السلف، وفي ذلك يقول: «وقد توسع من تأخر عن القرون الثلاثة الفاضلة في غالب الأمور التي أنكرها أئمة التابعين وأتباعهم، ولم يقتنعوا بذلك حتى مزجوا مسائل الديانة بكلام اليونان، وجعلوا كلام الفلاسفة أصلاً يردون إليه ما خالفه من الآثار بالتأويل ولو كان مستكرهًا، ثم لم يكتفوا بذلك حتى زعموا أن الذي رتبوه هو أشرف العلوم وأولاها بالتحصيل، وأن من لم يستعمل ما اصطلحوا عليه فهو عامي جاهل، فالسعيد من تمسك بما كان عليه السلف، واجتنب ما أحدثه الخلف». (فتح الباري ٣/٢٥٣).

الضابط الثالث: دفع التعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول:

من المقطوع به في شريعة الإسلام أنه لا تعارض بين منقول صحيح وبين معقول صريح، وعليه أقول: يجب أن يعتقد المسلم أن نصوص الوحيين الصحيحة والصريحة في دلالتها، لا يعارضها شيء من المعقولات الصريحة، وأنه لا يوجد قط في الشريعة ما يرده العقل، بل العقل الصريح يسلم للنقل الصحيح، وذلك لأن العقل من خلق الله، والنقل أمر الله، فلا يتعارضان أبدًا.

شأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة متحدة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما- أي دليل كان- عفوًا وأخذًا أوليًا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومما يجب أن يعرف أن دلالة الحق لا تتناقض، فلا يجوز إذا أخبر الله بشيء- سواء كان الخبر إثباتًا أو نفيًا- أن يكون في إخباره ما يناقض ذلك الخبر المعقول، فالأدلة المقتضية للعلم لا يجوز أن تتناقض، سواء كان الدليلان سمعيين أو عقليين، أو كان أحدهما سمعيًا والآخر عقليًا، ولكن التناقض قد يكون فيما يظنه بعض الناس دليلاً وليس بدليل، كمن يسمع خبرًا فيظنه صحيحًا ولا يكون كذلك، أو يفهم منه ما لا يدل عليه، أو تقوم عنده شبهة يظنها دليلاً عقليًا، وتكون باطلة التبس عليه فيها الحق بالباطل». (مجموع الفتاوى ٦/ ٥١٤).

وابن تيمية بكلامه السابق يقرر القاعدة التي أتحدث عنها هنا، وهي نفي التعارض بين العقل والنقل، وإذا ظهر ما يوهم التعارض فلا يخلو الأمر من احتمالين: إما أن يكون النقل غير صحيح، أو يكون العقل فاسدًا غير صحيح.

ويفصل هذه المسألة بوضوح الدكتور/ على حسن عثمان فيقول: «والمقصود هو بيان أنه إذا ظهر تعارض بين الدليل النقلي والدليل العقلي فلا بد من أحد ثلاثة احتمالات: الأول: أن يكون أحد الدليلين قطعيًا والآخر ظنيًا، فيجب تقديم القطعي نقليًا كان أم عقليًا، الثاني: أن يكون أحد الدليلين فاسدًا، فالواجب تقديم الدليل الصحيح على الفاسد سواء كان نقليًا أم عقليًا.

الثالث: أن يكون أحد الدليلين صريحًا والآخر ليس بذاك، فهنا يجب تقديم الدلالة الصريحة على الدلالة الخفية، لكن قد يخفى من وجوه الدلالات عند بعض الناس ما قد يكون بينًا واضحًا عند البعض الآخر، فلا تعارض في نفس الأمر عندئذ، أما أن يكون الدليلان قطعيين- سندًا ومتنًا- ثم يتعارضان، فهذا لا يكون أبدًا، لا بين نقليين، ولا بين عقليين، ولا بين نقلي وعقلي». (منهج الاستدلال على مسائل الاعتقاد ١/ ٣٦٦).

الضابط الرابع: جمع النصوص في الباب الواحد:

إن من أسباب انحراف فرق الضلال عن الحق بتر النصوص، والعمل ببعضها دون بعض، والشريعة جاءت كلية في أحكامها، ولذلك ينبغي الجمع بين الأدلة، وردُّ ما اشتبه منها إلى ما ظهر، وتقييد مطلقها بمقيدها، وتخصيص عامها بخاصها وهكذا، أما أن يؤخذ ببعض الأدلة، ويُطرح البعض الآخر، ومن هذا القبيل جمع روايات الحديث الواحد والنظر في أسانيدها ومتونها معًا.

يقول الإمام أحمد رحمه الله: «والحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضًا». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب ٢/ ٢١٢).

وقال الشاطبي رحمه الله: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها إلى بعض، فإن مآخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هي أن تُؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامّها المرتب على خاصّها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بمبينها، والشريعة لا يطلب منها الحكم على حقيقة الاستنباط إلا بجملتها، وشأن الراسخين تصور الشريعة صورة واحدة يخدم بعضها بعضًا، كأعضاء الإنسان إذا صورت صورة متحدة، وشأن متبعي المتشابهات أخذ دليل ما- أي دليل كان- عفوًا وأخذًا أوليًا، وإن كان ثم ما يعارضه من كلي أو جزئي». (الاعتصام ١/ ٣١٧، ٣١٨).

وللحديث صلة إن شاء الله وقدر، والحمد لله رب العالمين.

باب العقيدة

ظهور البدع في العقائد..

بدعة الخوارج والتحذير منها

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بدأنا في العدد الماضي بذكر مخاطر البدع العقدية، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأصول بعض الفرق المبتدعة، ونبدأ في هذا العدد بإيضاح بدعة الخوارج، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إعداد/ د. عبد الله شاكر

بدعة الخوارج:

التعريف بهم:

أطلقت كلمة خوارج على أولئك النفر الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه في سنة ستٍ وثلاثين من الهجرة النبوية بعد قبوله التحكيم عقب معركة «صفين»، إذ اعتبر هؤلاء التحكيم خطيئة تؤدي إلى الكفر، ومن ثم طلبوا من علي أن يتوب من هذا الذنب، وانتهى الأمر بأن خرجوا من معسكره، وقد أطلق على الخوارج أيضا اسم «الشُراة» وربما يكونون هم الذين وصفوا أنفسهم بذلك، كما ورد في قوله تعالى: (وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ) (سورة البقرة:٢٠٧)، وسمُوا أيضا بالحرورية لانحيازهم في أول أمرهم على قرية «حَروراء» بالقرب من الكوفة، كما سمُوا أيضا بالمُحكّمَة لرفعهم شعار «لا حكم إلا لله»، والتفافهم حوله. ومهما يكن من شيء، فإن اسم «الخوارج» في معناه الأول الذي يشير على الانشقاق ومفارقة الجماعة أصبح الاسم السائر على هذه الجماعة».

وخروجهم على سيدنا علي هو العلة في تسميتهم بهذا الاسم، فالخوارج هم أولئك النفر الذين خرجوا على عليّ بعد قبوله التحكيم في موقعة صفين ، وحتى أنهم قتلوا سيدنا عليًا فيما بعد، وهذا سمتهم في كل عصر يخرجون فيه فهم يدعون التحكيم إلى كتاب الله ويرفعون السيوف ويقتلون أفضل المسلمين وعلمائهم وأئمتهم وهذا ما عليه الخوارج في كل قرن من القرون.

وتفرعت منذ ذلك الحين فرق الخوارج واختلفوا فيما بينهم فمنهم الحرورية والأزارقة والنجدات والصفرية والعجاردة والإباضية، وعديد من فرق الخوارج المتباينة خرجت ولا

تزال تخرج حتى يخرج آخرهم مع المسيح الدجال كما ذكر رسول الله في الحديث الشريف:

عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينشأ نشء يقرءون القرآن لا يجاوز تراقيهم، كلما خرج قرن قطع»، قال ابن عمر: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: « كلما خرج قرن قطع « أكثر من عشرين مرة» حتى يخرج في عراضهم الدجال «.

ومن أهل العلم من يرجّح بداية نشأة الخوارج إلى زمن النبي ويجعل أول الخوارج ذو الخويصرة الذي اعترض على الرسول في قسمة ذهب كان قد بعث بها سيدنا علي من اليمن، ويتضح ذلك من الحديث النبوي الشريف الذي رواه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري.

عن أبي سعيد الخدري قال: بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسما أتاه ذو الخويصرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله اعدل.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: « اللهِ عَلَيْهِ السَّلامُ: وَيْلَكَ، وَمَنْ يَعْدِلُ إِذَا لَمْ أَعْدِلْ، قَدْ خِبْتَ وَخَسِرْتَ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ، قَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللهِ، ائْذَنْ لِي فِيهِ أَضْرِبْ عُنُقَهُ، قَالَ: دَعْهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يُحَقِّرُ أَحَدُكُمْ صَلاتَهُ مَعَ صَلاتِهِمْ وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الإِسْلامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصْلِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَضِيِّهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، وَهُوَ الْقِدْحُ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُذَذِهِ فَلا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، سَبَقَ الْفَرْثَ وَالدَّمَ، آيَتُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضُدَيْهِ مِثْلُ ثَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَدَرْدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى خَيْرِ فِرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ».

قال أبو سعيد: فأشهد أني سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشهد أن علي بن أبي طالب قاتلهم وأنا معه، فأمر بذلك الرجل فالتمس فأتي به حتى نظرت إليه على نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي نعته.

فذو الخويصرة أول خارجي خرج في الإسلام، وذلك لأنه رضي برأي نفسه ولم يرض بحكم الله ورسوله بل قال لنبي الله اعدل! أي احكم بالعدل فقال له النبي: ومن يعدل إن لم أعدل.

وكانت بدعتهم أنهم يكفّرون بالذنوب؛ ويحملون بعض الآيات التي نزلت في الكفار على المؤمنين أو على بعض عصاة الموحدين.

وبدعة هؤلاء في الحقيقة تتعلق بالعقيدة؛ لأنهم يكفّرون المسلمين بالذنوب ويخلدون العاصي في النار، ويخرجون المسلم بالمعصية من الإسلام، ويستحلون دم المسلم الذي أذنب، ويقاتلون المسلمين، وهذا ذنب كبير وبدعة شنيعة.

أنكر عليهم في ذلك أئمة السلف - رحمهم الله تبارك وتعالى - وهؤلاء أنكروا عفو الله عز وجل بقولهم هذا، وأنكروا تجاوز رب العالمين -سبحانه وتعالى- عن الذنوب، كما أنكروا أحاديث الشفاعة التي فيها: أن الله تعالى يغفر الذنوب ويتجاوز عن السيئات، ويقبل التائب ويعفو عن المسيء، وأنكروا شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنكروا شفاعة الملائكة الكرام في أهل التوحيد، وبهذا يكونون وقعوا في أمر عظيم فارقوا فيه

إن سمت الخوارج في كل عصر أنهم يدّعون التحاكم إلى كتاب الله؛ ثم يرفعون السيوف ويقتلون المسلمين.

العقيدة الصحيحة.
ومع كل ذلك؛ فقد وصف هؤلاء الناس في الأحاديث بكثرة الأعمال كما سبق أن ذكرنا في حديث ذو الخويصرة.
أما عن مناقشة أهم ما هم عليه باختصار فإننا نقول:

ذِكْر أهم مبادئهم:

المبدأ الأول:
صحة خلافة أبي بكر وعمر رضي الله عنهما وعثمان رضي الله عنه في أول ولايته، وكان يجب عزله عندما غير طريقة أبي بكر وعمر وقدم أقاربه!!

المبدأ الثاني:
صحة خلافة علي رضي الله عنه إلى وقت التحكيم؛ ولما أخطأ في التحكيم كفَّروه مع الحكمين، وطعنوا في أصحاب الجمل.

المبدأ الثالث:
الخلافة يجب أن تكون باختيار حُر بين المسلمين، وسواء كان المختار قرشيًا أو عبدًا حبشيًا، وليس من حق الإمام أن يتنازل أو يحكم لأحد؛ وإنما عليه أن يأخذ بما يجب عليه نصًا ظاهرًا واضحًا - هكذا قالوا - من الكتاب ومن السنة، وقالوا: يجب عليه أن يخضع خضوعًا تامًا لأوامر الدين وإلا وجب عزله.

المبدأ الرابع:
العمل بأوامر الدين، وأن هذه الأوامر جزء لا يتجزأ من الإيمان، وكل مَن عصى الله يكون كافرًا، والذنوب جميعها كبائر.

المبدأ الخامس:
وجوب الخروج على الإمام الجائر، ولا يقولون بالتقية كما تذهب إلى ذلك الشيعة.

شَرْحُ أهم أصولهم البدعية:

الأصل الأول: زَعْمُهم أن الإيمان شيءٌ واحد لا يتركب ولا يتجزأ؛ فالإيمان عندهم حقيقة واحدة لا تتبعض ولا تتجزأ؛ فمتى ذهب بعضه ذهب كله، فلم يبقَ منه شيء، وتفرَّع عن هذا الأصل البدعي بدع أخرى؛ قال ابن تيمية -رحمه الله-: وأصل نزاع هذه الفرق في الإيمان من الخوارج والمعتزلة والجهمية وغيرهم، أنهم جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، إذا زال بعضه زال جميعه؛ وإذا ثبت بعضه ثبت جميعه، والصواب: أن الإيمان له أصل وشُعب متعددة، تبدأ من الشهادتين، وتنتهي بإماطة الأذى عن الطريق، ومن هذه الشعب ما يزول الإيمان بزواله إجماعًا كقول القلب وهو الاعتقاد، وقول اللسان وهو الإقرار بالشهادتين لفظًا، ومنها ما لا يزول بزواله إجماعًا كترك رفع الأذى عن الطريق.

الأصل الثاني: تكفير صاحب الكبيرة، وتخليده في النار:
وهذا الأصل متفرع عن الأصل السابق؛ حيث قالت الخوارج: الطاعات كلها من الإيمان؛ فإذا ذهب بعضها ذهب بعض الإيمان، وبالتالي يذهب جميعه؛ لأنه شيء من الإيمان، ومن ثم حكموا بكفره وخلوده في النار.

الأصل الثالث: تكفيرهم لعثمان وعلي رضي الله عنهما:
إن من أشنع أصول الخوارج البدعية تكفيرهم لبعض الصحابة؛ حيث إنهم يكفرون عليًا وعثمان، ويكفرون الحكمين، ويكفرون أصحاب الجمل، وكلَّ مَن رضي بتحكيم الحكمين، قال ابن تيمية - رحمه الله -: والخوارج والمعتزلة يقولون: إن صاحب الكبيرة يخلد في النار، ثم إنهم يتوهمون في بعض الأخيار أنهم من أهل

> إن بدعة الخوارج في الحقيقة تتعلق بالعقيدة؛ لأنهم يكفِّرون المسلمين بالذنوب ويخلدون العاصي في النار، ويخرجون المسلم بالمعصية من الإسلام.

الكبائر، كما تتوهم الخوارج في عثمان وعلي رضي الله عنهما وأتباعهما أنهم مخلدون في النار، ويبنون مذاهبهم على باطلين:

أحدهما: أن فلانًا من أهل الكبائر.

الثاني: أن كل صاحب كبيرة يخلد في النار.

وصفوة القول في أصحاب نبينا عامة وفي العشرة المبشرين، والخلفاء الأربعة المهديين خاصة، هو ما قرره صاحب: (العقيدة الطحاوية) بقوله: «ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرِّط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دينٌ وإيمانٌ وإحسانٌ، وبغضهم كفرٌ ونفاقٌ وطغيانٌ».

الأصل الرابع: وجوب الخروج على الظَّلَمَة من الأئمة:

قالت الخوارج بوجوب الخروج على الأئمة الظلمة؛ بل قالوا بوجوب قتالهم، وكانوا هم أصحاب غارات وثورات، وتوسعوا في سفك دماء المسلمين وفرَّقوا كلمتهم، وشقُّوا عصا الطاعة بناءً على هذا المبدأ الفاسد، قال الأشعري عنهم: ولكنهم يرون إزالة أئمة الجور، ومَنْعهم من أن يكونوا أئمة بأي شيءٍ قدروا عليه بالسيف أو بغير السيف.

قال صاحب (الطحاوية) مبينًا عقيدة أهل السنة في ذلك: «ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة، وفي الحديث: «مَن رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر؛ فإنه مَن فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتةً جاهليةً»، وفي الصحيحين: «على المرء المسلم السمع والطاعة فيما أحب وكره، إلا أن يؤمر بمعصية؛ فإن أُمِر بمعصية فَلا سمعَ ولا طاعة».

الأصل الخامس: إنكارهم لحجية السنة:

لقد خالفت الخوارج ما عليه المسلمون من التمسك والاحتجاج التام بسنة الرسول صلى الله عليه وسلم ففي الوقت الذي أظهروا فيه التمسك الشديد بظاهر القرآن؛ أغفلوا التمسك بالحديث النبوي حتى المتواتر منه، وردوا ما خالف ظاهر القرآن عندهم.

قال ابن تيمية -رحمه الله-: الخوارج لا يتمسكون من السنة إلا بما فسر مجملها دون ما خالف ظاهر القرآن عندهم؛ فلا يرجمون الزاني ولا يرون للسرقة نصابًا. وقال أيضًا: وإذا عرف أصل البدع؛ فأصل قول الخوارج: أنه يكفرون بالذنب، ويعتقدون ذنبًا ما ليس بذنب، ويرون اتباع الكتاب دون السنة التي تخالف ظاهر القرآن وإن كانت متواترة، ويكفرون مَن خالفهم، ويستحلون منه - لارتداده عندهم - ما لا يستحلونه من الكافر الأصلي.

الأصل السادس: موقفهم من الصفات الإلهية:

يتفق موقف الخوارج في الصفات مع موقف المعتزلة إلى حدٍّ بعيد؛ فهم في الجملة من النفاة المعطلة، ينكرون رؤية الله تعالى في الآخرة، والقرآن لديهم مخلوق، يقول الأشعري - رحمه الله تعالى - عنهم: الخوارج يقولون جميعًا بخلق القرآن.

وللحديث بقية إن شاء الله عن بعض الفرق المبتدعة، ونسأل الله السلامة والعافية.

> قال الإمام الطحاوي: ولا نرى الخروج على أئمتنا وولاة أمورنا وإن جاروا، ولا ندعو عليهم ولا ننزع يدًا من طاعتهم، ونرى طاعتهم من طاعة الله عز وجل فريضة، ما لم يأمر بمعصية، وندعو لهم بالصلاح والمعافاة.

افتتاحية العدد

تذكير الأنام بفضل الصيام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين، وخاتم النبيين، ورحمة الله للعالمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وأصحابه الغر الميامين، ومن تبعهم بإحسان واقتفى إلى يوم الدين. وبعدُ؛

فإن الصيام- وهو ركن من أركان الإسلام- له مكانة عظيمة، ومنزلة رفيعة، ولله فيه منح جليلة، وعطايا كثيرة، تحتاج من العبد الحرص عليها، والتعرض لها، لعله يكون من الفائزين في هذا الشهر الكريم، وبمناسبة حلول شهر رمضان أحببت أن أجمع ما تيسر لي من الأحاديث النبوية التي فيها وعد من الكريم الرحيم بتكفير الذنوب والآثام، لمن صام لربه وقام؛ تذكرةً لنفسي ولإخواني الكرام، ولن يقتصر حديثي على صيام رمضان فحسب، بل سأذكر- إن شاء الله- كل فضل ورد في الصيام على مدار العام.

فأقول وبالله تعالى التوفيق:

إن من فضل الله وكرمه بعباده أن جعل صيام شهر رمضان مكفِّرًا للذنوب والآثام، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». (البخاري: ١٩٠١).

والمراد بقوله: «إيمانًا» يعني: الإيمان الجازم بفرضية صومه، وبالاحتساب: طلب الثواب من الله تعالى، قال الخطابي: «احتسابًا: أي: عزيمة، وهو أن يصومه على معنى الرغبة في ثوابه، طيبة نفسه بذلك غير مستثقل لصيامه، ولا مستطيل لأيامه». (فتح الباري ٤/ ١١٥).

وقد نص النبي صلى الله عليه وسلم على غفران ذنب من صام بالشروط الواردة في الحديث الشريف، كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن صيام رمضان مكفِّر للذنوب والآثام كالصلوات الخمس، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر». (مسلم: ٢٣٣).

وعن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «من صام رمضان، وصلى الصلاة، وحج البيت- لا أدري أذكر الزكاة أم لا- إلا كان حقًّا على الله أن يغفر له إن هاجر في سبيل الله أو مكث بأرضه التي وُلد بها». قال معاذ: ألا أخبر بها الناس؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ذر الناس يعملون، فإن في الجنة مائة درجة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض والفردوس أعلى الجنة وأوسطها وفوق ذلك عرش الرحمن، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس». (صحيح سنن

الترمذي ٢/٣١٢).

وقد أفاد الحديث أن من أتى بما ذكر فيه كان حقًا على الله- تفضلاً منه- أن يغفر ذنبه، وفي الحديث بشرى للقائمين بذلك ألا وهي الجنة، بل الفردوس الأعلى لمن شاء الله له ذلك، بعد مغفرة الذنب، والفردوس أعلى الجنان، وقول النبي صلى الله عليه وسلم: «فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس». تعليم لراغبي الآخرة بالسعي والعمل وطلب أعلى المنازل والدرجات، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا في كتاب الصوم، قال فيه: «باب الصوم كفارة»، ومعناه: باب تكفير الصوم للذنوب، ثم ساق تحته حديث حذيفة، وفيه: قال عمر رضي الله عنه: من يحفظ حديثًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ قال حذيفة: أنا سمعته يقول: فتنة الرجل في أهله وماله وجاره تكفّرها الصلاة والصيام والصدقة. (البخاري: ٤/١١٠).

والصيام حصن حصين من النار، ويمنع صاحبه من الوقوع في الخطايا والآثام، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصيام جُنة، فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤٌ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم، مرتين»، (البخاري: ١٨٩٤، ومسلم: ١١٥١).

وقال النووي: «الصيام جُنة». وهو بضم الجيم ومعناه: سترة ومانع من الرفث والآثام، ومانع أيضًا من النار. (شرح النووي على مسلم: ٨/٣٠).

وقد رغب النبي صلى الله عليه وسلم في صيام التطوع وبين ما له من فضل عظيم ، وإليك أيها القارئ الكريم الأيام التي يُستحب صيامها، وما ورد فيها من عظيم الأجر، وتكفير الذنب، ومن ذلك:

١- صيام الستة من شوال: لحديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستًا من شوال كان كصيام الدهر». (مسلم: ١١٦٤)، وإنما كان ذلك كصيام الدهر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها، وعلى هذا فرمضان بعشرة أشهر، والستة بشهرين.

٢- صيام العشر الأول من ذي الحجة: والمراد تسعة أيام، كما في الحديث عن بعض أزواج النبي

الصيام حصن حصين من النار؛ ويمنع صاحبه من الوقوع في الخطايا والآثام.

صلى الله عليه وسلم قالت: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم تسعة من ذي الحجة، ويوم عاشوراء، وثلاثة أيام من كل شهر: أول اثنين من الشهر وخميسين». (صحيح سنن أبي داود: ٢/٢٩). وجاء من وجوه أنها الأيام البيض.

وفي الصحيح عن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما العمل في أيام العشر أفضل من العمل في هذه. قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». (البخاري: ٩٦٩).

والصيام من العمل الصالح، فيدخل فيه.

٣- يتأكد صيام يوم عرفة لغير الحاج، كما في حديث أبي قتادة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «صيام يوم عرفة، أحتسب على الله أن يكفر السنة التي قبله والسنة التي بعده»، وفي رواية: «يكفر السنة الماضية والباقية». (مسلم: ١١٦٢).

وقد ذكر ابن حجر أن الجمهور على استحباب فطر هذا اليوم للحجاج. (انظر: فتح الباري ٤/٢٣٨).

٤- ومن الأيام التي يُستحب صيامها شهر الله المحرم: لحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل: أي الصلاة أفضل بعد المكتوبة؟ وأي الصيام

أفضل بعد شهر رمضان؟ فقال: «أفضل الصلاة بعد المكتوبة: الصلاة في جوف الليل، وأفضل الصيام بعد شهر رمضان صيام شهر الله المحرم». (مسلم: ١١٦٣).

٥- ويوم عاشوراء منه أفضل من غيره، لأنه يكفّر السنة التي قبله، كما في حديث أبي قتادة الأنصاري؛ سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن صيام يوم عاشوراء، فقال: «يكفر السنة الماضية». (مسلم: ١١٦٢)، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «ما رأيت النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صيام يوم فضله على غيره إلا هذا اليوم، يوم عاشوراء وهذا الشهر- يعني شهر رمضان». (البخاري: ٢٠٠٦).

٦- ويستحب صيام التاسع مع العاشر؛ لحديث ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين صام يوم عاشوراء وأمر بصيامه، قالوا: يا رسول الله، إنه يوم تعظمه اليهود والنصارى، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «فإذا كان العام المقبل- إن شاء الله- صمنا اليوم التاسع». قال: فلم يأت العام المقبل حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

قال الشافعي وأصحابه وأحمد وإسحاق وآخرون: يستحب صوم التاسع والعاشر جميعًا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم صام العاشر ونوى صيام التاسع. (انظر: شرح النووي على مسلم ج٨/١٢).

٧- كما يستحب صيام أكثر شهر شعبان؛ لفعل النبي صلى الله عليه وسلم لذلك، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم»، وهذا يدل على أنه كان يصوم تطوعًا في شعبان أكثر من غيره، ويحمل ما ورد عنه صلى الله عليه وسلم بأنه كان يصوم شعبان كله، أو أنه كان يصله برمضان على ذلك، أعني من كثرة الصيام في شعبان، ونقل الترمذي عن ابن المبارك أنه قال: جائز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقول: صام الشهر كله، ويقال: قام فلان ليلته أجمع، ولعله قد تعشى واشتغل ببعض أمره. (انظر: فتح الباري ٤/٢١٤).

ذكر ابن حجر أن الجمهور على استحباب فطر يوم عرفة للحجاج.

وقد دلّ حديث عائشة السابق على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصم شهراً كاملاً إلا رمضان؛ ويؤكد ذلك أيضًا حديث ابن عباس رضي الله عنهما: «ما صام النبي صلى الله عليه وسلم؛ شهرًا كاملاً قط غير رمضان». (البخاري: ١٩٧١).

والعلة في كثرة صيام النبي صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان، غفلة الناس عنه، وقد رجّح ذلك الحافظ ابن حجر، وذكر الحديث الذي أخرجه النسائي وأبو داود وصححه ابن خزيمة عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت: "يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يرفع عملي وأنا صائم. (فتح الباري ٤/٢١٥).

٨- كما رغّب النبي صلى الله عليه وسلم في صيام يومي الاثنين والخميس، قالت عائشة رضي الله عنها: كان النبي صلى الله عليه وسلم يتحرى صوم الاثنين والخميس. (أخرجه ابن ماجة والترمذي بسند صحيح، وانظر: صحيح الترمذي ١/٢٢٦).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس، فأحب أن يُعرض عملي وأنا

نقل الترمذي عن ابن المبارك أنه قال: جائز في كلام العرب إذا صام أكثر الشهر أن يقول: صام الشهر كله؛ ويقال: قام فلان ليله أجمع؛ ولعله قد نعس واشتغل ببعض أمره.

صائم». (المرجع السابق ١/٢٢٧).

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «تُعرض أعمال الناس في كل يوم جمعة مرتين، يوم الاثنين ويوم الخميس، فيُغفر لكل عبد مؤمن، إلا عبدًا بينه وبين أخيه شحناء، فيقال: اتركوا، أو اركوا هذين حتى يفيئا». (مسلم: ٢٥٦٥).

ومعنى: «اركوا» أي: أخروا. ومعنى: يفيئا. أي: يرجعا إلى الصلح والمودة. (شرح النووي على مسلم ١٦/١٢٢).

٩- كما يستحب صيام ثلاثة أيام من كل شهر، ورجح بعض الأئمة أنها الأيام البيض، وقد عقد البخاري رحمه الله بابًا قال فيه: باب صيام البيض ثلاث عشرة وأربع عشرة وخمس عشرة، ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه وفيه يقول: «أوصاني خليلي صلى الله عليه وسلم بثلاث: صيام ثلاثة أيام من كل شهر، وركعتي الضحى، وأن أوتر قبل أن أنام». (البخاري: ١٩٨١).

وسميت بالبيض؛ لابيضاض لياليها بالقمر، وللنسائي من حديث جرير مرفوعًا: «صيام ثلاثة أيام من كل شهر صيام الدهر: أيام البيض...». الحديث. قال ابن حجر: إسناده صحيح، وقد ورد في مسلم "صيام ثلاثة أيام من كل شهر" بإطلاقه كما في حديث عائشة برقم (١١٦٠)، ولا يعارض ما سبق، قال ابن حجر معلقًا على ذلك: «كل من رآه صلى الله عليه وسلم فعل نوعًا ذكره، وعائشة رأت جميع ذلك وغيره فأطلقت، والذي يظهر أن الذي أمر به وحث عليه ووصى به أولى من غيره، وأما هو فلعله كان يعرض له ما يشغله عن مراعاة ذلك، أو كان يفعل ذلك لبيان الجواز، وكل ذلك في حقه أفضل، وتترجح البيض بكونها وسط الشهر، ووسط الشيء أعدله». (فتح الباري ٤/٢٢٧).

١٠- ولأهمية الصيام في تكفير الآثام ورفع الدرجات فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان لا يخلي شهرًا من صوم، وقد عقد مسلم في صحيحه بابًا قال فيه: «باب صيام النبي صلى الله عليه وسلم في غير رمضان، واستحباب ألا يخلي شهرًا عن صوم». ثم ساق تحته أحاديث منها حديث عبد الله بن شفيق قال: قلت لعائشة رضي الله عنها: «أكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم شهرًا كله؟ قالت: ما علمته صام شهرًا كله إلا رمضان، ولا أفطره كله حتى يصوم منه حتى مضى لسبيله». (مسلم: ١١٥٦). قال النووي: «فيه استحباب ألا يخلي شهرًا من صيام». (شرح النووي على مسلم: ٨/٣٧).

وقال ابن القيم: «ولم يكن يخرج عنه شهر حتى يصوم منه». (زاد المعاد ٢/٥٣).

١١- وأحب الصيام إلى الله بإطلاق: صيام داود عليه السلام، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أحب الصيام إلى الله صيام داود، كان يصوم يومًا ويفطر يومًا». (البخاري: ٣٤٢٠)، وهو أعدل الصيام وأفضله كما في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «صم يومًا وأفطر يومًا، وذلك صيام داود عليه السلام، وهو أعدل الصيام». قال: قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا أفضل من ذلك». (مسلم: ١١٥٩).

نسأل الله أن يتقبل منا الصيام والقيام، وأن يحسن لنا الختام أجمعين،

والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

منهج المخالفين لأهل السنة في التعامل مع النصوص الشرعية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وخاتم المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سلك مسلكهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في لقاءات سابقة عن منهج أهل السنة والجماعة في التعامل مع النصوص الشرعية، وموقفهم منها، وإتمامًا للفائدة أذكر هنا منهج المخالفين لأهل السنة في التعامل مع النصوص الشرعية، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

لقد سلك المبتدعة مسلكًا غريبًا مع الوحي الإلهي الذي جاءنا من عند الله- تبارك وتعالى- ويتجلى ذلك في الأمور التالية:

أولاً: الجرأة في رد النصوص التي تخالف قواعدهم:

وضع المخالفون للحق قواعد لأنفسهم ساروا عليها وانطلقوا من خلالها، وبناءً على ذلك ردوا نصوص الوحي المخالفة لما قعّدوه ووضعوه من عند أنفسهم، ومن ذلك: الجرأة العجيبة في رد النصوص الثابتة، قرآنًا كانت أم سُنة، ومن ذلك ما وقع من عمرو بن عبيد المعتزلي الذي قال في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه الذي يقول فيه: «حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم- وهو الصادق المصدوق- قال: إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله ملكًا يؤمر بأربع كلمات ويقال له: اكتب عمله ورزقه وشقي أو سعيد..». والحديث في أعلى درجات الصحة، فقد أخرجه البخاري برقم (٣٢٠٨)، ومسلم برقم (٢٦٤٣)، كما أخرجه غيرهما، ومع هذا قال عمرو بن عبيد فيه: «لو سمعت الأعمش يقول هذا لكذّبته، ولو سمعته من زيد بن وهب لما صدقته، ولو سمعت ابن مسعود يقوله ما قبلته، ولو سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم- يقول هذا لرددته، ولو سمعت الله يقول هذا لقلت: ليس على هذا أخذت ميثاقنا»!! (ميزان الاعتدال ٤/١٩٨).

وهذا فيه تطاول على مقام رب العالمين جل وعلا ورسوله الأمين صلى الله عليه وسلم والصحب الكرام، ورواة السنة وحَمَلتها، والذي دفعه إلى ذلك معتقده الفاسد في القَدَر، وهو أن العبد يخلق فعل نفسه، وأن الرب الخالق لم يقدّر أعمال العباد، وقد اغترّ بعض الناس بما ورد في ترجمة عمرو هذا أنه كان زاهدًا عابدًا، حتى ذكر الذهبي رحمه الله أن المنصور رحمه الله كان يعظّمه، غير أن الحافظ الذهبي رحمه الله كان دقيقًا مدافعًا عن الحق، فقال عقب ذكره لذلك: «اغتر بزهده وإخلاصه وأغفل بدعته». (سير أعلام النبلاء ٦/١٠٥).

وشأن المبتدعة ترك النصوص والنفرة منها وعدم احترامها، يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في شأنهم: «وأهل العبادات البدعية يزين لهم الشيطان تلك العبادات، ويبغض إليهم السبل الشرعية، حتى يبغضهم في العلم والقرآن والحديث، فلا يحبون سماع القرآن والحديث ولا ذكره، وقد يبغض إليهم حتى الكتاب، فلا يحبون كتابًا ولا من معه كتاب، ولو كان مصحفًا أو حديثًا.. وكثير من هؤلاء ينفر ممن يذكر الشرع أو القرآن، أو يكون معه كتاب أو يكتب، وذلك أنهم استشعروا أن هذا الجنس فيه ما يخالف طريقهم». (مجموع الفتاوى ١٠/٤١١، ٤١٢).

ونظير هؤلاء في عصرنا الحاضر من يرى أن النصوص تراث قديم لا يؤبه له، ولا يجوز الأخذ منه، وأن زمانه قد مضى، فلا حاجة إليه، وهذا انحراف وبُعد عن الحق الذي أنزله الحق سبحانه وتعالى، ويجب أن نعلم أن ما نزل من عند الله له حق التقديس والاحترام، والوقوف عنده وعدم تجاوزه أو رده، أو الطعن عليه، والقرآن الكريم والسنة النبوية هما أصل الدين وأساسه، فلا يجوز شرعًا العدول عنهما، أو السخرية والاستهزاء بأحدهما.

وقد قال الشيخ صديق حسن خان- رحمه الله- في تفسير قوله تعالى: «وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ» (النساء:١٤٠): «وفي هذه الآية باعتبار عموم لفظها دون خصوص السبب دليل على اجتناب كل موقف يخوض فيه أهله بما يفيد التنقص والاستهزاء للأدلة الشرعية، كما يقع كثيرًا من أسَراء التقليد الذين استبدلوا آراء الرجال بالكتاب والسنة، ولم يبقَ في أيديهم سوى: قال إمام مذهبنا، وقال فلان من أتباعه بكذا، وإذا سمعوا من يستدل على تلك المسألة بآية قرآنية أو بحديث نبوي سخروا منه ولم يرفعوا لما قاله رأسًا». (نقله عنه صاحب المنار في تفسيره ٦/٤٦٤).

وبناءً على ما تقدم أقول: كل ما جاء به الشرع المطهر أو نهى عنه، فحقه التصديق والتسليم والقبول، مع الإجلال والتعظيم، قال الله تعالى: «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج:٣٢).

ومما ندين لله تعالى به أن كلام الله أصدق قيلاً وأحسن حديثًا، وأن نبيه المصطفى صلى الله عليه وسلم أعظم الناس علمًا وبيانًا، ولذلك فنقبل كل ما جاءنا عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولا نتوقف في شيء من ذلك، فضلاً عن أن نردّه أو أن نرتاب فيه، ونقول بقول الأوزاعي رحمه الله: «اصبر نفسك على السنة، وقف حيث وقف القوم، وقل بما قالوا، وكفّ عما كفوا، واسلك سبيل سلفك الصالح، فإنه يسعك ما وسعهم». (شرح أصول اعتقاد أهل السنة ١/١٥٤).

وفي عصرنا الحاضر بلغت الجرأة عند بعض الناس على النصوص مبلغًا عظيمًا، فردوها ولم يقبلوها، ورأوا أنها لا تناسب العصر ولا تصلح لهذا الزمان، وأرد عليهم بقول الله تعالى: «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ» (الملك:١٤).

ثانيًا: اتهام الرسل- صلوات الله وسلامه عليهم- بالتجهيل والكذب:

بلغت الجرأة بفريق من الناس أن يتهموا الأنبياء بالكذب على جمهورهم من باب مصلحتهم، وأن ما ذكروه عبارة عن خيالات وأمثال مضروبة لا حقيقة لها في واقع الأمر، وأنهم قصدوا به التخييل دون التحقيق، وقد تعرض ابن القيم رحمه الله إلى اختلاف هؤلاء الناس في نصوص الوحي إلى طوائف وذكر منهم ما يلي: «أصحاب التخييل، وهؤلاء هم الذين اعتقدوا أن الرسل لم تفصح للخلق بالحقائق، إذ ليس في قواهم فهمها وإدراكها، وإنما خُيلت لهم وأُبرزت المعقول في صورة المحسوس.. وحقيقة الأمر عند هذه الطائفة: أن الذي أخبرت به الرسل عن الله وصفاته وأفعاله وعن اليوم الآخر لا حقيقة له، ولا يطابق ما أخبروا به، ولكنه أمثال وتخييل وتفهيم بضرب الأمثال».

ثم ذكر صنفًا آخر من هؤلاء وأطلق عليهم: أصحاب التجهيل وهؤلاء قالوا: «إن نصوص الصفات ألفاظ لا تعقل معانيها ولا ندري ما أراد الله ورسوله منها». (انظر: الصواعق المرسلة ٢/٤١٨- ٤٢٢).

وهذا فيه تنقيص من قدر الأنبياء والمرسلين- صلوات الله وسلامه عليهم- الذين بينوا للخلق كل

ما أنزل إليهم بيانًا شافيًا، وهم أفصح الخلق بإطلاق، ونبينا صلى الله عليه وسلم أعلاهم في ذلك، ونحن في أنصار السنة المحمدية ندين لله ونشهد بأن النبي صلى الله عليه وسلم أوضح الطريق إلى الله غاية الوضوح، وأن الله تبارك وتعالى لم يقبضه إليه إلا بعد أن بلَّغ البلاغ المبين صلى الله عليه وسلم، وخاصة فيما يتعلق بالعقيدة التي هي أساس الدين، وتلقى ذلك منه الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، وأجمعوا عليه.

يقول ابن تيمية رحمه الله في ذلك: «أَمَّا الْقِسْمُ الْأَوَّلُ: فَكُلُّ مَا يَحْتَاجُ النَّاسُ إلَى مَعْرِفَتِهِ وَاعْتِقَادِهِ وَالتَّصْدِيقِ بِهِ مِنْ هَذِهِ الْمَسَائِلِ فَقَدْ بَيَّنَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ بَيَانًا شَافِيًا قَاطِعًا لِلْعُذْرِ. إذْ هَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا بَلَّغَهُ الرَّسُولُ الْبَلَاغَ الْمُبِينَ، وَبَيَّنَهُ لِلنَّاسِ وَهُوَ مِنْ أَعْظَمِ مَا أَقَامَ اللَّهُ بِهِ الْحُجَّةَ عَلَى عِبَادِهِ فِيهِ بِالرُّسُلِ الَّذِينَ بَيَّنُوهُ وَبَلَّغُوهُ. وَكِتَابُ اللَّهِ الَّذِي نَقَلَ الصَّحَابَةُ ثُمَّ التَّابِعُونَ عَنْ الرَّسُولِ لَفْظَهُ وَمَعَانِيَهُ، وَالْحِكْمَةُ الَّتِي هِيَ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ الَّتِي نَقَلُوهَا أَيْضًا عَنْ الرَّسُولِ مُشْتَمِلَةٌ مِنْ ذَلِكَ عَلَى غَايَةِ الْمُرَادِ وَتَمَامِ الْوَاجِبِ وَالْمُسْتَحَبِّ. وَالْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي بَعَثَ إلَيْنَا رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِنَا يَتْلُو عَلَيْنَا آيَاتِهِ وَيُزَكِّينَا وَيُعَلِّمُنَا الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ؛ الَّذِي أَكْمَلَ لَنَا الدِّينَ وَأَتَمَّ عَلَيْنَا النِّعْمَةَ وَرَضِيَ لَنَا الْإِسْلَامَ دِينًا ؛ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ تَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ «مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ». وَإِنَّمَا يَظُنُّ عَدَمَ اشْتِمَالِ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ عَلَى بَيَانِ ذَلِكَ مَنْ كَانَ نَاقِصًا فِي عَقْلِهِ وَسَمْعِهِ وَمَنْ لَهُ نَصِيبٌ مِنْ قَوْلِ أَهْلِ النَّارِ الَّذِينَ قَالُوا: «لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ»» (درء تعارض العقل والنقل ١/ ٢٧، ٢٨).

ثالثًا: الأخذ والعمل بالقرآن فقط دون السنة النبوية:

وهذا من العبث والتلاعب بالنصوص الشرعية الواردة من عند رب البرية؛ لأنه من المقطوع به في دين الإسلام أن السُّنَّة وحي من الله تعالى، والله في كتابه قد أمر باتباع ما جاءنا عن نبيه صلى الله عليه وسلم، قال الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟» (الحشر:٧).

ومجلة التوحيد الغراء قد تصدت للحملة الشرسة ضد السنة النبوية في الآونة الأخيرة، ولذلك فلن أقف هنا عند هذه المسألة، غير أنني أود أن أقرر أن هذا من مسلك المبتدعة في التعامل مع النصوص الشرعية، وفرق الضلال على مدار تاريخهم وقعوا في ذلك، ومن هؤلاء الخوارج. يقول ابن تيمية رحمه الله: «وَالْخَوَارِجُ جَوَّزُوا عَلَى الرَّسُولِ نَفْسِهِ أَنْ يَجُورَ وَيُضِلَّ فِي سُنَّتِهِ وَلَمْ يُوجِبُوا طَاعَتَهُ وَمُتَابَعَتَهُ وَإِنَّمَا صَدَّقُوهُ فِيمَا بَلَّغَهُ مِنْ الْقُرْآنِ دُونَ مَا شَرَعَهُ مِنْ السُّنَّةِ الَّتِي تُخَالِفُ - بِزَعْمِهِمْ - ظَاهِرَ الْقُرْآنِ. وَغَالِبُ أَهْلِ الْبِدَعِ غَيْرِ الْخَوَارِجِ يُتَابِعُونَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ عَلَى هَذَا» (مجموع الفتاوى ١٩/ ٧٣).

وفي القرن الماضي ظهرت طوائف أنكروا كثيرًا من السنة النبوية، وبعضهم أطلق على نفسه لقب: «القرآنيون» للدلالة على أخذهم بالقرآن فحسب، وهذا من الضلال المبين، وحقيقة حالهم رد القرآن والسنة معًا.

يقول البربهاري رحمه الله: «واذا سمعت الرجل تأتيه بالأثر فلا يريده، ويريد القرآن فلا تشك أنه رجل قد احتوى على الزندقة فقم من عنده ودعه». (شرح السنة ص٥٤).

وقد كان السلف يعملون بالسنة الصحيحة كما يعملون بالقرآن، يقول المعتمر بن سليمان: سمعت أبي يقول: «أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم عندنا كالتنزيل، قال أبو موسى: يعني في الاستعمال، يستعمل سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يستعمل كلام الله عز وجل». (ذم الكلام للهروي ٢/ ٧٠).

كما كانوا يذمون ويطرحون من يطعن على حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فعن محمد بن عبد الوهاب قال: قلت لعلي بن غنام: «رجل يقول ليس في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فقه، فقال: هذا فاجر، فأين الفقه وأين الخير إلا فيه». (المرجع السابق ٢/ ٧١).

رابعًا: الأخذ ببعض نصوص الوحي دون البعض:

من منهج أهل السنة والجماعة عند بحث مسألة أو نازلة: جمعُ النصوص الواردة فيها، ووضع كل

نص في موضعه وما يدل عليه، وهذا فيه- بفضل الله- سلامة من الزيغ والانحراف في فهم النصوص، أما المبتدعة فهم يأخذون نصًا ويتركون آخر ورد في الباب نفسه، وكان ذلك سببًا في وقوعهم في البدع والضلال، والانحراف عن الفهم الصحيح.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن هنا نتبين الضلالات المبتدعة في هذه الأمة، حيث هي من الإيمان ببعض ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم دون بعض، وإما ببعض صفات التكليم والرسالة والنبوة دون بعض». (مجموع الفتاوى ١٥/١٢).

ومن هنا أقول: إنه لا يجوز أن يُؤخذ نص ويُطرح نظيره في نفس الباب، أو أن تُعمل مجموعة من النصوص وتُهمل الأخرى، لأن هذا يؤدي إلى نتائج باطلة، وخروج عن الحق والصواب.

- قال الإمام أحمد رحمه الله: «الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تفهمه، والحديث يفسر بعضه بعضًا». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢١٢/٢).

وقال الشاطبي رحمه الله: «ومدار الغلط في هذا الفصل إنما هو على حرف واحد، وهو الجهل بمقاصد الشرع، وعدم ضم أطرافه بعضها لبعض؛ فإن مأخذ الأدلة عند الأئمة الراسخين إنما هو على أن تؤخذ الشريعة كالصورة الواحدة بحسب ما ثبت من كلياتها وجزئياتها المرتبة عليها، وعامها المرتب على خاصها، ومطلقها المحمول على مقيدها، ومجملها المفسر بمبينها» (الاعتصام ٢٤٤/١).

ومما يلتحق بهذا المعنى: جمع روايات الحديث الواحد، والنظر في أسانيده وألفاظه معًا، وقبول ما ثبت وطرح ما لم يثبت، وقد قيل: «الحديث إذا لم تجمع طرقه لم تتبين علله»، والفرق المخالفة للحق لمَّا أهملت ذلك وقعت في ضلال مبين، وذلك كالخوارج الذين أخذوا بنصوص الوعيد فحسب، وتركوا نصوص الوعد، فأداهم ذلك إلى تكفير المسلمين واستباحة دمائهم وأموالهم بغير حجة أو برهان، فهم أخذوا ووقفوا فقط عند قول الله تعالى: «وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ» (النساء:١٤)، وظنوا أن أدنى عصيان يقع به هذا الوعيد، ولم ينظروا إلى قول الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ» (النساء:٤٨). والآيتان في سورة واحدة من كتاب الله.

وقد ذكر ابن قتيبة رحمه الله موقفًا طريفًا بيَّن فيه جهل هؤلاء في هذه المسألة فقال: «حدثني إسحاق بن إبراهيم بن حبيب بن الشهيد قال: حدثنا قريش بن أنس قال: سمعت عمرو بن عبيد يقول: يؤتى بي يوم القيامة، فأقام بين يدي الله، فيقول لي: لم قلت: إن القاتل في النار؟ فأقول: أنت قلته، ثم تلا هذه الآية (وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا) (النساء: ٩٣)، قلت له وما في البيت أصغر مني: أرأيت إن قال لك: قد قلت: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ) من أين علمت أني لا أشاء أن أغفر. قال: فما استطاع أن يرد عليَّ شيئًا». (تأويل مختلف الحديث ص٥٧).

وقد قابل المرجئة الخوارج في هذه المسألة فاقتصروا على نصوص الوعد، وتركوا نصوص الوعيد، فوقعوا أيضًا في ضلال مبين؛ حيث لم يروا أي قيمة للعمل بالإسلام، وقالوا: لا يضرّ مع الإيمان معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة، وذهبوا إلى أن إيمان الناس كلهم سواء واستندوا في ذلك إلى أدلة منها حديث عثمان بن عفان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة» (مسلم: ٤٣).

وتركوا نصوص الوعيد الواردة أيضًا عن النبي صلى الله عليه وسلم في الزاني وشارب الخمر، وغير ذلك، وقد هدى الله أهل السنة إلى الحق ووُفقوا للصواب، فأخذوا بجميع النصوص الواردة، وألفوا بينها تأليفًا مستقيمًا يزيل كل إشكال، ويدفع أي وهم أو اضطراب، ولو نظر العاملون في الساحة الإسلامية اليوم إلى ما كان عليه أهل السنة من الهدى لتركوا الإفراط والتفريط، وتعاملوا بعلم وفقه مع جميع النصوص، ولو فعلوا ذلك لنجوا بأنفسهم وبالأمة من ألوان متعددة من الزيغ والضلال.

وأعوذ بالله من الخذلان، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

باب العقيدة

ظهور البدع في العقائد.. دراسة بدعة التشيع

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

بدأنا في العدد الماضي بذكر مخاطر البدع العقدية، وذكرنا بدعة الخوارج، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأهم أصول بعض الفرق المبتدعة الأخرى، ونبدأ في هذا العدد بإيضاح بدعة التشيع، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

بدعة التشيع:

(أ) التعريف بالشيعة:

ظهروا بمذهبهم في آخر عصر عثمان رضي الله عنه ونَمَا وترعرع في عهد علي رضي الله عنه ولِما لعليٍّ من المكانة السامية في الإسلام أخذوا ينشرون نحلتهم بين الناس؛ ولما جاء العصر الأموي، ووقعت بعض المظالم على العلويين آل البيت، ورأى الناس في علي وأولاده أنهم لقوا بعض الظلم؛ انتشر المذهب الشيعي بسبب ذلك وكثرت أنصاره.

وفرقة الشيعة تنقسم إلى غالية وغير غالية، فغير الغالية منهم فضلوا عليًّا على بقية الصحابة من غير تكفير لأحد، ولم يرفعوه إلى مرتبة النبوة؛ أما الشيعة الغالية فلم يكتفوا بتفضيله على الخلفاء وادعاء عصمته؛ بل رفعوه إلى مرتبة النبوة، ومنهم مَن ألَهه، ومنهم من زعم حلول الإله فيه، ومنهم من قال: كل روح إمام حلت فيه الألوهية تنتقل إلى الإمام الذي يليه.

وقد كان التشيع بهذه الأفكار المنحرفة مباءة خصبة لظهور الرجعة والحلول، والتناسخ والتجسيد، عدم خَتْم النبوة.

والحق الذي لا مرية فيه أن التشيع كان ملجأ لجأ إليه كل مَن يريد هدم الإسلام لعداوة أو حقد، ومن يريد إدخال تعاليم آبائه من يهودية ونصرانية ومجوسية... وغيرهم، كل هؤلاء كانوا يتخذون حب آل البيت ستارًا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم.

الحق الذي لا مرية فيه أن التشيع كان ملجأ لجأ إليه كل مَن يريد هدم الإسلام لعداوة أو حقد كانوا يتخذون حب آل البيت ستارًا يضعون وراءه كل ما شاءت أهواؤهم.

(ب) وأهم مبادئهم أربعة:

الأول: الإمامة ركن الدين.

الثاني: وجوب تعيين الإمام بالنص.

الثالث: عليٌّ أفضل الخلق في الدارين.

الرابع: الإمام يعلم الظاهر والباطن.

المبدأ الأول:

ذكروا فيه: بأن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز للنبي إغفالها؛ بل يجب عليه تعيينه لهم، ويكون الإمام عندهم معصومًا من الكبائر والصغائر.

المبدأ الثاني:

قالوا فيه: بأن النبي صلى الله عليه وسلم عين عليًا بنصوص لا تحتمل التأويل، وكانوا ينقلون هذه النصوص، ومن هنا نشأت فكرة الوصية عندهم، ولقب علي بالوصي؛ فهو إمام بالنص لا بالانتخاب، وقد أوصى علي لمن بعده، وهكذا كل إمام كان يوصي لمن يأتي بعده.

المبدأ الثالث:

قالوا فيه: إن عليًا هو أفضل الخلق في الدنيا والآخرة بعد الرسول صلى الله عليه وسلم فمن عاداه أو حاربه؛ فهو عدو الله إلا إذا ثبتت توبته ومات على حبه.

المبدأ الرابع:

الإمام عندهم يعلم الظاهر والباطن؛ ولذلك خرجت منهم فكرة المهدي المنتظر، ومهدي الرافضة ليس هو المهدي الذي يعتقده أهل السنة والجماعة، وهو الذي يكون في آخر الزمان؛ فمهدي الرافضة يزعمون أنه إمام غائب.

ومن مبادئهم أيضًا القول بالتقية والرجعة والوصية وغير ذلك.

(جـ) شرح أهم أصولهم البدعية:

هؤلاء الشيعة الرافضة لهم أصول بدعية كثيرة. فمن مبادئهم البدعية عقيدتهم في الإمامة، وهم يخالفون فيها أهل السنة والجماعة.

أولًا: تنصيب الإمام:

أهل السنة والجماعة: يرون أن الإمامة قضية مصلحية تناط لاختيار الأمة من أهل الحل والعقد، وينتصب الإمام بنصبهم، كما أنها تصح بعهد من الإمام السابق إذا أراد أن يختار للأمة رجلا حسنًا ولم يقصد بذلك هوًى؛ ولهذا فأهل السنة يرون وجوب نصب إمام يقيم شعائر الدين، وينصف المظلومين من الظالمين.

يقول الماوردي رحمه الله: «الإمامة موضوعة لخلافة النبوة في حراسة الدين وسياسة الدنيا، وعقدها لمن يقوم بها في الأمة واجب بالإجماع».

ويقول أبو المعالي الجويني رحمه الله: «اتفق المنتمون إلى الإسلام على تفرق المذاهب وتباين المطالب على ثبوت الإمامة».

هذا موقف المسلمين عمومًا من قضية الإمام؛ وأنها واجبة ليسوس الإمام الرعية، وكي يقيم العدل ويدفع الظلم... إلى غير ذلك من متطلبات الإمامة، والتي لا يمكن تحققها إلا بوجود إمام.

الشيعة الرافضة لهم أصول بدعية كثيرة. فمن مبادئهم البدعية عقيدتهم في الإمامة، وهم يخالفون فيها أهل السنة والجماعة.

أما أمْرُ الإمامة عند الشيعة الرافضة «الاثنا عشرية» فله شأن آخر ومعتقدٌ جديد يخالف عقائد المسلمين؛ فهي عندهم أصل من أصول الدين وركن من أركانه، ولا يتم إيمان المرء إلا بهذا الاعتقاد.

يقول الشيعي الرافضي محمد رضا المظفر: «نعتقد أن الإمامة أصل من أصول الدين، لا يتم الإيمان إلا باعتقادها، ولا يجوز فيها تقليد الآباء والأهل والمربين مهما عظموا وكبروا؛ بل يجب النظر فيها كما يجب النظر في التوحيد والنبوة».

وقال الرافضي ابن المطهر الحلي في مقدمة كتابه: (منهاج الكرامة): أما بعد؛ فهذه رسالة شريفة، ومقالة لطيفة، اشتملت على أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين: وهي مسألة الإمامة التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة، وهي أحد أركان الإيمان». تأمل العبارة عن الإمامة في قوله: «وهي أحد أركان الإيمان». وهذا في الحقيقة غلو شديد في مسألة الإمامة.

ثانيًا: عصمة الأئمة عند الشيعة:

وهي مسألة مهمة جدًّا تابعة لمعتقدهم في الإمامة:

عصمة الأئمة من أهم الأمور الدينية عند الشيعة، ولها صلة وثيقة بعقيدتهم، وقد اتفقوا على عصمتهم، وأنه لا تقع المعصية منهم؛ لأنهم جميعًا حجج الله، ولذلك فهم معصومون من الزلل، بل إن الأئمة عند الشيعة الرافضة ليسوا معصومين من الكبائر والصغائر فقط؛ بل من كل شيء حتى السهو والنسيان.

يقول ابن أبي الحديد: لا تجوز عليهم الكبائر ولا الصغائر لا عمدًا ولا خطأ ولا سهوًا، ولا على سبيل التأويل والشبهة، وذكر أن مَثَلهم في ذلك كمثل الأنبياء، ويقول محمد رضا المظفر: ونعتقد أن الإمام كالنبي يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش، ما ظهر منها وما بطن، من سنة الطفولة إلى الموت عمدًا وسهوًا.

وقد أجمع السابقون منهم واللاحقون على هذه العقيدة الباطلة، يقول الخميني: هذا المنصب لا يُتصور فيه السهو أو الغفلة، ونعتقد فيهم الإحاطة بكل ما فيه مصلحة المسلمين.

ثالثًا: عقيدة الشيعة الرافضة في القرآن الكريم:

أجمع المسلمون على أن كتاب الله عز وجل محفوظ بحفظ الله له؛ قال تعالى: « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» (الحجر: ٩)، وقال رب العالمين عن كتابه: « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» (فصلت: ٤٢)، ومن اعتقد - بعد هذا - أن في القرآن نقصًا أو تحريفًا فهو مرتد؛ لتكذيبه لنصوص القرآن الكريم.

وقد قال بعض الشيعة بهذا القول وأقروه، وقد نسب الأشعري ذلك لطائفة منهم، وذكر أنهم قالوا: إن القرآن قد نقص منه، وأما الزيادة فذلك غير جائز أن يكون قد كان، وكذلك لا يجوز أن يكون غُيِّر منه شيء على عما كان عليه.

كما أشار البغدادي - رحمه الله - إلى أن من الرافضة من زعم أن الصحابة غيَّروا بعض القرآن وحرفوا بعضه، واعتبر البغدادي ذلك من موجبات الحكم بكفرهم وخروجهم عن الإسلام.

أما ابن حزم - رحمه الله تبارك وتعالى - فقد نسب القول بالتحريف إلى الإمامية كلها، ولم يستثنِ من أعلام الإمامية إلا ثلاثة نَجَوْا من الوقوع في هذه الهاوية.

عصمة الأئمة من أهم الأمور الدينية عند الشيعة، ولها صلة وثيقة بعقيدتهم، وقد اتفقوا على عصمتهم، وأنه لا تقع المعصية منهم.

يقول أحد مشايخهم المدعو محمد بن محمد العكبري الملقب بالمفيد: إن الأخبار قد جاءت مستفيضة عن أئمة الهُدى من آل محمد صلى الله عليه وسلم باختلاف القرآن، وما أحدَثَ بعضُ الطاعنين فيه من الحذف والنقصان!! ويريد بقوله: «وما أحدث بعض الطاعنين فيه»: صحابة النبي الكريم صلى الله عليه وسلم.

كما أورد الكليني في كتابه (الكافي) روايات في تحريف القرآن - وهو من الكتب المعتبرة عندهم - ولذلك قال الفيض الكاشاني عنه: إنه كان يعتقد التحريف والنقصان في القرآن الكريم.

وفي القرن الثالث عشر الهجري ألَّف شيخهم حسين النوري الطبرسي - وهو يحظى بالتعظيم عندهم - مؤلفًا كبيرًا جمَع فيه أقوال المتقدمين منهم في تحريف القرآن الكريم وسماه: (فصل الخطاب في إثبات تحريف كتاب رب الأرباب).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

افتتاحية العدد

منهج المخالفين لأهل السنة في التعامل مع النصوص الشرعية

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعد:

فأواصل في هذا اللقاء بيان مسلك المبتدعة في التعامل مع النصوص الشرعية، وقد ذكرت سابقًا أربعة أمور حادوا فيها عن الطريق القويم، وأشرع الآن- بحول الكريم الرحمن- في ذكر ما وقفت عليه من مسالكهم الباطلة، فأقول وبالله التوفيق:

خامسًا: كتمان النصوص وتحريفها:

وهذا المسلك من سمات الأمم السابقة على أمة الإسلام. قال الله تعالى عن أهل الكتاب: « يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لِمَ تَلۡبِسُونَ ٱلۡحَقَّ بِٱلۡبَٰطِلِ وَتَكۡتُمُونَ ٱلۡحَقَّ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ » (آل عمران:٧١)، وهذه حقيقة يذكرها القرآن الكريم عنهم، فقد كتموا ما في التوراة والإنجيل من البشارة بنبوة الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد ذكر ابن جرير عن الربيع أنه قال: «يكتمون شأن محمد صلى الله عليه وسلم وهم يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر». (تفسير الطبري ٣/ ٢٢٠).

وقد حذا المبتدعة حذو أهل الكتاب في ذلك، فحاولوا كتمان النصوص الصريحة التي تخالف معتقداتهم الباطلة، وهذا دليل على ضعف الدين وتمكن الهوى من النفس. يقول ابن حزم رحمه الله: «ولا أرق دينًا ممن يوثق برواية إذا وافقت هواه، ويوهنها إذا خالفت هواه». (المحلى: ٤/ ١٨٠).

ويقول ابن تيمية رحمه الله: «ومن المعلوم أنك لا تجد أحدًا ممن يرد نصوص الكتاب والسنة بقوله إلا وهو يبغض ما خالف قوله، ويود أن تلك الآية لم تكن نزلت، وأن ذلك الحديث لم يرد، ولو أمكنه كشط ذلك من المصحف لفعله.. ولهذا تجد الواحد من هؤلاء لا يحب تبليغ النصوص النبوية، بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه خلافًا لما أمر الله به ورسوله من التبليغ عنه، كما قال: "ليبلغ الشاهد الغائب"، وقد ذمّ الله في كتابه الذين يكتمون ما أنزل الله من البينات والهدى، وهؤلاء يختارون كتمان ما أنزله الله؛ لأنه معارض لما يقولونه». (درء تعارض العقل والنقل ٥/ ٢١٧-٢١٩).

وقد ارتكب هؤلاء تجاه النصوص أمرًا آخر لا يقل في الضلال عن الكتمان بل هو أشد، ألا وهو تحريف النصوص ومحاولة العبث بها، وتحريف النصوص من ديدن اليهود أيضًا. قال الله فيهم: « أَفَتَطۡمَعُونَ أَن يُؤۡمِنُواْ لَكُمۡ وَقَدۡ كَانَ فَرِيقٞ مِّنۡهُمۡ يَسۡمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعۡدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ » (البقرة:٧٥). وقد وقع اليهود في ذلك، ونالوا منه حظًا وافرًا، وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا قال فيه: «باب وقولوا حطة»، ثم ساق تحته حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قيل لبني إسرائيل: «ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ»، فبدلوا، فَدَخَلُوا يَزْحَفُونَ عَلَى

أَسْتَاهِهِمْ وَقَالُوا: حَبَّة فِي شَعَرَة». (البخاري: ٤٦٤١).

قال ابن حجر في شرحه: «وَالْحَاصِل أَنَّهُمْ خَالَفُوا مَا أُمِرُوا بِهِ مِنْ الْفِعْل وَالْقَوْل فَإِنَّهُمْ أُمِرُوا بِالسُّجُود عِنْدَ انْتِهَائِهِمْ شُكْرًا لِلَّه تَعَالَى وَبِقَوْلِهِمْ حِطَّة، فَبَدَّلُوا السُّجُود بِالزَّحْف وَقَالُوا حِنْطَة بَدَل حِطَّة، أَوْ قَالُوا حِطَّة وَزَادُوا فِيهَا حَبَّة فِي شَعِيرَة. وَرَوَى الْحَاكِم مِنْ طَرِيق السُّدِّيِّ عَنْ مُرَّة عَنْ ابْن مَسْعُود قَالَ " قَالُوا هِطَى سِمْقَا " وَهِيَ بِالْعَرَبِيَّة حِنْطَة حَمْرَاء قَوِيَّة فِيهَا شَعِيرَة سَوْدَاء، وَيُسْتَنْبَط مِنْهُ أَنَّ الْأَقْوَال الْمَنْصُوصَة إِذَا تُعُبِّدَ بِلَفْظِهَا لَا يَجُوز تَغْيِيرهَا وَلَوْ وَافَقَ الْمَعْنَى» (فتح الباري ٨/٣٠٤).

وعلى مدار التاريخ حاول فريق من الناس تحريف ألفاظ القرآن الكريم فلم يتمكنوا؛ لحفظ الله له، ومن طريف ما يذكر في ذلك: أن بعض هؤلاء قال لأبي عمرو بن العلاء أحد أئمة القراء السبعة: أريد أن تقرأ: «وكلم الله موسى» بنصب الله، ليكون موسى هو المتكلم لا الله، فقال له أبو عمرو: هب أني قرأت هذه الآية هكذا، فكيف بقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ (الأعراف:١٤٣). فبُهت المعتزلي. (شرح الطحاوية ١/١٧٧).

وهؤلاء إن لم يتمكنوا مع تحريف لفظ القرآن، فقد استطاعوا تحريف المعنى مع بقاء اللفظ على ما هو عليه، وقد استطاعوا بذلك تحريف النصوص عن معانيها الحقيقية وما تدل عليه وفق ما تفهمه العرب من لغتها فضلوا وأضلوا، وحرفوا الناس عن الحق الذي أنزل الله تبارك وتعالى، وللإمام ابن القيم كلمات دقيقة في ذلك يقول فيها: «إذا تأمل المتأمل فساد العالم وما وقع فيه من التفرق والاختلاف وما دفع إليه أهل الإسلام وجده ناشئا من جهة التأويلات المختلفة المستعملة في آيات القرآن وأخبار الرسول التي تعلق بها المختلفون على اختلاف أصنافهم في أصول الدين وفروعه؛ فإنها أوجبت ما أوجبت من التباين والتحارب وتفرق الكلمة وتشتت الأهواء، وتصدع الشمل وانقطاع الحبل، وفساد ذات البين حتى صار يكفر ويلعن بعضهم بعضا، وترى طوائف منهم تسفك دماء الآخرين وتستحل منهم أنفسهم وحرمهم وأموالهم ما هو أعظم مما يرصدهم به أهل دار الحرب من المنابذين لهم، فالآفات التي جنتها ويجنيها كل وقت أصحابها على الملة والأمة من التأويلات الفاسدة أكثر من أن تحصى أو يبلغها وصف واصف، أو يحيط بها ذكر ذاكر، ولكنها في جملة القول أصل كل فساد وفتنة وأساس كل ضلال وبدعة». (الصواعق المرسلة ١/٣٤٨).

وأقول: صدق هذا الإمام في قوله، فما فسدت الدنيا والدين إلا بتحريف النصوص عن ظاهرها، وما قتل عثمان وعلي رضي الله عنهما إلا بالتأويل، وما ضلت الباطنية وأنكروا نصوص المعاد والجنة والنار، والصراط والميزان إلا بالتأويل، ومن ألوان التحريف الاستدلال بالنصوص في غير مواضعها تلبيسًا للعامة وصرفًا لهم عن معرفة الحق بالأدلة، وفي ذلك يقول الشاطبي رحمه الله: «يرد الدليل على مناط فيصرف عن ذلك المناط إلى أمر آخر موهما أن المناطين واحد وهو من خفيات تحريف الكلم عن مواضعه والعياذ بالله، ويغلب على الظن أن من أقر بالإسلام ويذم تحريف الكلم عن مواضعه لا يلجأ إليه صراحا إلا مع اشتباه يعرض له أو جهل يصده عن الحق». (الاعتصام ١/٢٤٩).

سادسًا: إهمال الأحاديث الصحيحة والاعتماد على الضعيف والموضوع:

من المقرر شرعًا أن السنة النبوية كالقرآن في وجوب العمل بها متى كان الحديث مقبولاً، ومن هنا اهتم أهل السنة وعلماء الحديث بالسنة النبوية واحتاطوا غاية الاحتياط في تمييز صحيحها من سقيمها، وكانوا يرون حرمة رواية الحديث الموضوع إلا للتحذير منه، ولم يستدلوا بالضعيف في مسائل الاعتقاد وأصول الشريعة، وذهب البعض إلى العمل به في فضائل الأعمال بشروط معلومة، أما أهل الأهواء والبدع فخالفوا هذا المنهج واعتمدوا في استدلالهم بالموضوع والضعيف، وقد ذكر الشاطبي رحمه الله أن هذا من مسالك الزائغين عن طريق الحق، وفي ذلك يقول عنهم: «اعتمادهم على الأحاديث الواهية الضعيفة والمكذوب فيها على رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والتي لا يقبلها أهل صناعة الحديث في البناء عليها كحديث الاكتحال يوم عاشوراء، وإكرام الديك الأبيض، وأكل الباذنجان، وأن النبي (صلى الله عليه وسلم)

تواجد واهتز عند السماع حتى سقط الرداء عن منكبيه وما أشبه ذلك؛ فإن أمثال هذه الأحاديث - على ما هو معلوم - لا يبنى عليها حكم، ولا تجعل أصلا في التشريع أبدًا، ومن جعلها كذلك فهو جاهل ومخطئ في نقل العلم... والأحاديث الضعيفة الإسناد لا يغلب على الظن أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قالها فلا يمكن أن يسند إليها حكم، فما ظنك بالأحاديث المعروفة الكذب؟ نعم الحامل على اعتمادها في الغالب إنما هو ما تقدم من الهوى المتبع» (الاعتصام ١/ ٢٢٤).

ويقول ابن قدامة رحمه الله: «أما الأحاديث الموضوعة التي وضعها الزنادقة ليلبسوا بها على أهل الإسلام، أو الأحاديث الضعيفة، إما لضعف رواتها، أو جهالتهم، أو لعلة فيها، فلا يجوز أن يُقال بها، ولا اعتقاد ما فيها، بل وجودها كعدمها». (ذم التأويل: ص٤٧).

وفريق من هؤلاء يأخذون من السنة ما يوافق قوله فقط، أما ما خالف هواه ومعتقده فلا يقبل منه شيئًا مع صحته وظهوره، ويتجاهل في رده ودفعه أو تأويله بتأويلات باطلة، وقد أشار إلى هؤلاء ابن القيم في قوله: «نظروا في السنة فما وافق أقوالهم منها قبلوه وما خالفها تحيلوا في رده أو رد دلالته وإذا جاء نظير ذلك أو أضعف منه سندا ودلالة وكان يوافق قولهم قبلوه ولم يستجيزوا رده، واعترضوا به على منازعيهم وأشاحوا وقرروا الاحتجاج بذلك السند ودلالته، فإذا جاء ذلك السند بعينه أو أقوى منه ودلالته كدلالة ذلك أو أقوى منه في خلاف قولهم دفعوه ولم يقبلوه» (إعلام الموقعين ١/ ٧٦).

ويقول ابن أبي العز: «كل فريق من أرباب البدع يعرض النصوص على بدعته، وما ظنه معقولا: فما وافقه قال: إنه محكم، وقبله واحتج به!! وما خالفه قال: إنه متشابه، ثم رده، وسمى رده تفويضا! أو حرفه، وسمى تحريفه تأويلا!!» (شرح الطحاوية ٢/ ٥٠٠).

سابعًا: عدم الأخذ بأحاديث الآحاد:

إن الناظر في تعامل المبتدعة مع النصوص يعجب من مسلكهم، فهم كما ذكرت قبل هذا يعتمدون على الضعيف والموضوع من الحديث، ثم هم في نفس الوقت لا يقبلون أحاديث الآحاد، وخاصة في مسائل الاعتقاد، حتى ولو كانت صحيحة وفي كتب السنة المعتبرة.

وحديث الآحاد: هو الخبر الذي لم ينته إلى حد التواتر، ولم يقصر عن درجة الاحتجاج به، وعرفه ابن حجر بقوله: «وخبر الآحاد بنقل عدل تام الضبط متصل مسند غير معلل ولا شاذ وهو الصحيح لذاته». (شرح نخبة الفكر ص٨).

وقد ذهب الجمهور إلى وجوب العمل به، واستدلوا على ذلك بأدلة، منها قول الله تعالى في كتابه: «يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ» (المائدة:٦٧). ففي هذه الآية الكريمة أمر الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم أن يبلّغ جميع ما أرسل به، وهو شخص واحد، ولو كان خبر الواحد غير مقبول لتعذر إبلاغ الشريعة، فدل ذلك على قبول خبر الواحد، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يبعث أمراءه إلى البلاد المفتوحة ليعلموا الناس القرآن والسنة ومسائل العقيدة والأحكام وأمور الدين فيهما، ولو كانت الحجة لا تقوم بخبر الواحد لما فعل ذلك النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أرسل معاذًا إلى اليمن وأمره أن يعلمهم العقيدة والشريعة، كما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لما بعث النبي صلى الله عليه وسلم معاذًا إلى أهل اليمن قال له: «إنك تقدم على قوم من أهل الكتاب، فليكن أول ما تدعوهم إلى أن يوحدوا الله تعالى، فإذا عرفوا ذلك فأخبرهم أن الله فرض عليهم خمس صلوات في يومهم وليلتهم، فإذا صلوا فأخبرهم أن الله افترض عليهم زكاة أموالهم تؤخذ من غنيهم فترد على فقيرهم، فإذا أقروا بذلك فخذ منهم وتوقّ كرائم أموالهم». (البخاري: ٧٣٧٢).

وفي حديث وفد عبد القيس أن النبي صلى الله عليه وسلم أمرهم بالإيمان بالله وحده، ثم قال لهم: «أَتَدْرُونَ مَا الْإِيمَانُ بِاللَّهِ وَحْدَهُ؟ قَالُوا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: شَهَادَةُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامُ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءُ الزَّكَاةِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ، وَأَنْ تُعْطُوا مِنَ الْمَغْنَمِ الْخُمُسَ» (البخاري: ٥٣).

فهذان حديثان دالان على وجوب قبول خبر الواحد والعمل به، وأنه تقوم به الحجة، وقد أرسل النبي صلى الله عليه وسلم دحية الكلبي رضي الله عنه إلى هرقل عظيم الروم، وبعث معه رسالة جاء

فيها: «بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ إِلَى هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلَامٌ عَلَى مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الْإِسْلَامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ، وَأَسْلِمْ يُؤْتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَيْنِ». والمراد بقوله: «أدعوك بدعاية الإسلام» يعني إلى كلمة التوحيد، وهي الكلمة الداعية إلى الإسلام. (انظر: شرح النووي على مسلم ١٢/١١٠).

وقد ذكر النووي رحمه الله أن في هذا الكتاب المرسل إلى هرقل جملاً من القواعد وأنواعاً من الفوائد، منها: وجوب العمل بخبر الواحد، وإلا فلم يكن في بعثه مع دحية فائدة، وهذا إجماع من يعتد به. (المرجع السابق ١٢/١٠٧).

وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «فإن قال قائل: اذكر الحجة في تثبيت خبر الواحد بنص خبر أو دلالة فيه أو إجماع.

فقلت له: أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال: " نَضَّرَ اللَّهُ عبدا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها فرب حامل فقه غير فقيه ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه. ثلاث لا يُغِلُّ عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم ".

فلما ندب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى استماع مقالته وحفظها وأدائها امرأ يؤديها والإمرؤ واحد- دل على أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة على من أدى إليه لأنه إنما يؤدى عنه حلال يؤتى وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ ويعطى، ونصيحة في دين ودنيا...» (الرسالة: ٤٠١-٤٠٣).

كما استدل أيضا بهذا الحديث على قبول خبر الواحد شيخي العلامة عبد المحسن العباد فقال: «أخبار الآحاد حجة يجب العمل بها، والأدلة على إثبات هذه الحقيقة في الكتاب والسنة لا تحصى، وقد كان صلى الله عليه وسلم يبعث رسله إلى الآفاق لتعليم الدين وتقوم الحجة على الذين أرسلوا إليهم بذلك، ومن الأدلة على ذلك حديث: نضَّر الله امرأ سمع مقالتي» (كتب ورسائل عبد المحسن العباد ٣/٤٨٢).

وقد كان التابعون ومن بعدهم من الفقهاء يقبلون خبر الواحد ويعملون به، وكفى بهذا دلالة على قبوله. قال الخطيب البغدادي رحمه الله: «وعلى العمل بخبر الواحد كان كافة التابعين ومن بعدهم من الفقهاء الخالفين في سائر أمصار المسلمين وقتنا هذا، ولم يبلغنا عن أحد منهم إنكار ذلك، ولا اعتراض عليه، فثبت أن من دين جميعهم وجوبه، إذ لو كان فيهم من كان لا يرى العمل به لنقل إلينا الخبر عنه بمذهبه فيه». (الكفاية في علم الرواية ص٧٢).

كما قد الإمام البخاري رحمه الله في جامعه الصحيح كتابًا قال فيه: «كتاب أخبار الآحاد»، ثم قال: باب ما جاء في إجازة خبر الواحد الصدوق في الآذان والصلاة والصوم والفرائض والأحكام، وقول الله تعالى: «فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ» (التوبة:١٢٢)، ويسمى الرجل طائفة لقوله تعالى: «وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا» (الحجرات:٩). (فتح الباري ١٣/٢١٣).

ثم ذكر البخاري عدة أحاديث تؤيد العمل بخبر الواحد، وقد فهم ابن حجر رحمه الله أن هذه الأحاديث تشمل العقائد والأحكام، ومن ذلك قوله: «وَاعْتُرِضَ بَعْضُ الْمُخَالِفِينَ بِأَنَّ إِرْسَالَهُمْ إِنَّمَا كَانَ لِقَبْضِ الزَّكَاةِ وَالْفُتْيَا وَنَحْوِ ذَلِكَ وَهِيَ مُكَابَرَةٌ، فَإِنَّ الْعِلْمَ حَاصِلٌ بِإِرْسَالِ الْأُمَرَاءِ لِأَعَمَّ مِنْ قَبْضِ الزَّكَاةِ وَإِبْلَاغِ الْأَحْكَامِ وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَلَوْ لَمْ يَشْتَهِرْ مِنْ ذَلِكَ إِلَّا تَأْمِيرُ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ وَأَمْرُهُ لَهُ وَقَوْلُهُ لَهُ " إِنَّكَ تَقْدَمُ عَلَى قَوْمٍ أَهْلِ كِتَابٍ فَأَعْلِمْهُمْ أَنَّ اللَّهَ فَرَضَ عَلَيْهِمْ " إِلَخْ، وَالْأَخْبَارُ طَافِحَةٌ بِأَنَّ أَهْلَ كُلِّ بَلَدٍ مِنْهُمْ كَانُوا يَتَحَاكَمُونَ إِلَى الَّذِي أُمِرَ عَلَيْهِمْ وَيَقْبَلُونَ خَبَرَهُ وَيَعْتَمِدُونَ عَلَيْهِ مِنْ غَيْرِ الْتِفَاتٍ إِلَى قَرِينَةٍ» (فتح الباري ١٣/٢٣٥).

والمقصود أن معاذا رضي الله عنه أُمِرَ أن يبلّغ العقيدة مع الأحكام، وقامت الحجة بخبره وهو واحد، فدل ذلك على قبول خبر الواحد في العقائد والأحكام معًا.

والله ولي التوفيق والسداد.

باب العقيدة

ظهور البدع في العقائد..

خطورة بدع الاعتزال والجبر والإرجاء

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ما يزال الحديث متصلاً عن مخاطر البدع العقدية، وذكرنا بدعتي الخوارج والتشيع، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأهم أصول بعض الفرق المبتدعة الأخرى، ونبدأ في العدد بإيضاح بدع الاعتزال والجبر والإرجاء، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

ثالثًا: بدعة المعتزلة:

(أ) التعريف بهم:

المعتزلة سُموا بهذا الاسم؛ لأن مؤسس هذه الفرقة هو واصل بن عطاء الذي اعتزل مجلس الحسن البصري بعد أن اختلف معه في حكم مرتكب الكبيرة، وذلك أن رجلًا دخل المسجد ذات يوم، وكان الإمام الحسن البصري - رحمه الله - يُدرِّس فيه، فسأل عن حكم مرتكب الكبيرة، وقبل أن يجيب الحسن البصري - رحمه الله - قال واصل - وكان من تلاميذ الحسن البصري -: إنه في منزلة بين المنزلتين، لا مؤمن ولا كافر، ثم بعد ذلك انحاز وجلس في ناحية من نواحي المسجد بعيدًا عن الحسن البصري؛ ليقرر ما ذهب إليه؛ فقيل له ولأتباعه معتزلة.

وتذكر بعض الروايات في التاريخ أن الحسن البصري قال: اعتزلنا واصل، اعتزلنا واصل؛ فسموا بالمعتزلة.

أهم أصولهم البدعية:

١- التوحيد.
٢- العدل.
٣- إنجاز الوعيد.
٤- المنزلة بين المنزلتين.
٥- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
٦- الغلو في شأن العقل.

(ب) شرح أهم أصولهم البدعية:

الأصل الأول: التوحيد:

قد يغتر مَن يسمع هذه الكلمة فيظن أنهم دعاة إلى توحيد الله عز وجل كما كان عليه السلف، ولكن المعتزلة عنوا بالتوحيد نفي الصفات عن الله - تبارك وتعالى - وقالوا: إن هذه الصفات ليست شيئًا غير الذات؛ لأنها لو شاركت الله في القِدم الذي هو أخص وصف لذاته عندهم لشاركته

في الإلهية، فلا قديم غير ذاته، إذ محال وجود قديمين، وقد بنوا على هذا الأصل معتقدات فاسدة؛ منها: نَفْيُ علو الله تعالى على خلقه، واستحالة رؤية الله تعالى بالأبصار، وأن كلام الله تعالى محدث في محل؛ لأنهم ينفون صفة الكلام عن الله عز وجل كما اتفقوا على نفي الإرادة والسمع والبصر، وعلى أنها ليست معاني قائمة بذاته، لكن اختلفوا في وجودها ومحامل معانيها؛ فقالوا: إن الله مريد بإرادة حادثة لا في محل، ونفوا السمع والبصر عنه سبحانه، واختلفوا في تأويلها على أقوال، فمنهم مَن حملها على الحياة، ومنهم مَن حملها على نفي الآفة، وحمَلها البغداديون منهم على العلم.

الأصل الثاني: العدل:

ومعنى العدل عند هؤلاء: تضمنه لتكذيب القدر، فهم قالوا: إن الله عدل وأنه عادل، وأرادوا بذلك نفي خلق الله لأفعال العباد، وأن يكون الله - تبارك وتعالى - أراد كل ما يقع في هذا الكون؛ لأنه في معتقد هؤلاء أن الله لا يخلق أفعال العباد، والعباد يفعلون ما أمروا به وينتهون عن ما نهوا عنه بالإرادة والقُدَر التي جعلها الله وركَّبها فيهم. وقد وقعوا في ذلك لخلطهم بين إرادة الله الكونية وإرادته الشرعية؛ فقالوا: إن الله منزَّه أن يضاف إليه شر وظلم، وفعل هو كفر ومعصية؛ لأنه لو خلق الظلم ثم حاسب عليه وعذَّب لكان ظالمًا، والله منزه عن ذلك. والعبد عندهم قادر خالق لأفعاله، خيرها وشرها.

الأصل الثالث: الوعيد:

وفي هذا يقولون: إنَّ وعد الله تعالى بالثواب واقع، ووعيده بالعقاب واقع، وأنه تعالى يفعل ما وعد به وما توعد عليه لا محالة، ولا يجوز الخلف، وبنوا على هذا الأصل الفاسد أن الفاسق إذا مات على غير توبة عن كبيرة ارتكبها؛ فإنه يدخل النار مخلدًا فيها؛ لأن الله توعَّده بذلك، ولا بد أن ينفذ وعيده، لكن عذابه يكون أخفَّ من عذاب الكافر الأصلي.

ويقولون أيضًا: إن مَن دخل النار من فُساق هذه الملة لا يخرج منها أبدًا لا بشفاعة ولا بغيرها؛ ولهذا فهم ينكرون الشفاعة في مرتكبي الكبائر.

الأصل الرابع: المنزلة بين المنزلتين:

ويعنون بذلك أن مرتكب الكبيرة ليس مؤمنًا ولا كافرًا، ولكنه في منزلة بين الإيمان والكفر، ولكنه إذا خرج من الدنيا من غير توبة فهو من أهل النار خالد فيها، ولكن تُخفف عنه النار فيخلد في غير طبقة الكفار الأصليين، ولا بأس من معاملة هذا الفاسق معاملة المسلمين في الدنيا؛ لأن التوبة مرجوة، وإن كان لا يسمى مؤمنًا؛ لأن المؤمن اسم مدح، والفاسق لا يستحق المدح، وليس بكافر أيضًا لإقراره بالشهادتين.

الأصل الخامس: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ويتضمن هذا الأصل عندهم جواز الخروج على الأئمة، وقتالهم بالسيف، وأيضًا كانوا يجوزون قتال المخالف لهم من عامة الناس إذا كان في مقدورهم ذلك.

قال الأشعري: قالت المعتزلة: إذا كنا جماعة وكان الغالب عندنا أنَّا نكفي مخالفينا؛

المعتزلة عنوا بالتوحيد نفي الصفات عن الله - تبارك وتعالى - وقالوا: إن هذه الصفات ليست شيئًا غير الذات.

عقدنا للإمام ونهضنا فقتلنا السلطان وأزلناه، وأخذنا الناس بالانقياد لقولنا، فإن دخلوا في قولنا الذي هو التوحيد، وفي قولنا بالقدر، وإلا قتلناهم.

وأوجبوا الخروج على السلطان على الإمكان والقدرة، ويظهر من كلامهم: أن الخروج على الأئمة وقتال المخالفين واجب، إذا ما وجدت الاستطاعة والقدرة فهو عندهم كالجهاد في سبيل الله.

الأصل السادس: الغلو في شأن العقل:

إن أبرز أسباب انحراف المعتزلة اعتمادهم على العقل اعتمادًا كليًا في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، فقاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد، وقالوا: ما يحسن من العباد يحسن منه، وما يقبح من العباد يقبح منه، وعندهم أن التوحيد والعدل من أصولهم العقلية التي لا يثبت صحة السمع إلا بعدها، والسنة الاستدلال بها اعتضادًا لا اعتمادًا. فهم بمنزلة من اتبع هواه واتفق أن الشرع جاء بما يهواه.

وكان من آثار غلوهم أيضًا في الاعتماد على العقل أنهم أخذوا يؤولون صفات الله - تبارك وتعالى - بما يلائم عقولهم القاصرة حتى نفوا جميع الصفات عن الله سبحانه.

ومن آثار ذلك أيضًا: طعنهم في كبار الصحابة، حتى زعم واصل بن عطاء أن إحدى الطائفتين من أصحاب الجمل وأصحاب صفين فاسقة، وكذلك قال في عثمان وقاتليه وخاذليه.

رابعًا: بدعة الجبرية

(أ) التعريف بهم:

يعتقد الجبرية أن العبد ليس له اختيار في أفعاله، وأنه مجبور على معاصيه، وأن الله إذا عاقب العاصي؛ فإنه ظالم، حيث إن الله تعالى هو الذي قصرهم وجبرهم وأوقعهم في الكفر، وأوقعهم في المعاصي وألزمهم بها، فإذا عذبهم على ذلك فقد عذبهم بغير ذنب وبغير جُرم يستحقونه، ويزعمون أن العبد مجبور ومقهور ومقصور على فعل الذنب وليس له اختيار، وهم يمثلونه بالشجرة التي تحركها الرياح ليس لها أي اختيار.

ويقولون: إنه مدفوع دفعه الله إلى الكفر وإلى المعصية دفعًا، وهو لا يقدر على الامتناع عن ذلك، وقد مثل قائلهم لهذا المعتقد بقول الشاعر:

ألقاه في البحر مكتوفًا وقال
إياك إياك أن تبتل بالماء

ويقولون: إن هذا البيت مثل تعذيب الله للعبد عندما يعذبه وقد جبره، وقصره على فعله، فمن ألقى إنسانًا مكتوفًا في البحر، وقال له: لا تبتل بالماء، أمر مستحيل لا يمكن أن يكون. وقد قالوا بناء على هذا: إن العبد مجبور؛ وبالتالي لا يعاقب، ولا ينبغي أن يعاقب، ولذلك أتوا بباطل عظيم للغاية، وجعلوا للعصاة عذرًا في اقتراف المعاصي، وأنهم معذورون بالذنوب التي يرتكبونها؛ لأنهم مجبورون، وليس لهم اختيار فيما يفعلون.

(ب) ذكر أهم مبادئهم:

المبدأ الأول:

أنهم قالوا: الإنسان مجبور في فعله، فلا يوصف بالاستطاعة، ولا قدرة له، ولا اختيار، ويخلق الله فيه الأفعال كما يخلقها في الجمادات.

إن أبرز أسباب انحراف المعتزلة اعتمادهم على العقل اعتمادًا كليًا في معرفة حقائق الأشياء وإدراك العقائد، فقاسوا أفعال الله تعالى على أفعال العباد.

المبدأ الثاني:

القول بخلق القرآن؛ لإنكارهم صفة الكلام.

المبدأ الثالث:

قالوا: إن الله لا يوصف بصفة يوصَفُ بها خلقُه، هكذا ذهبوا، وقالوا وزعموا؛ لأن هذا يقتضي التشبيه، ولهذا نفوا صفات المعاني عن الله - تبارك وتعالى - وغيرها من الصفات الخبرية الثابتة لرب البرية، وشاركوا بذلك الجهمية والمعتزلة.

المبدأ الرابع:

وجوب المعرفة بالعقل، والإيمان هو المعرفة، كما أنكروا رؤية الله - تبارك وتعالى - وزعموا أن الرؤية يستلزم منها تشبيه رب العالمين - سبحانه- بخلقه.

المبدأ الخامس:

القول بفناء الجنة والنار، بعد تلذذ أهل الجنة بنعيمها وتألم أهل النار بحميمها، وقد تأثر الحلولية والاتحادية من أمثال ابن عربي وغيرهم بفكر هؤلاء الناس، وقالوا بفناء الجنة والنار، وأنها تفنى ويبقى أهلها يتلذذون فيها.

خامسًا: بدعة المرجئة

(أ) تعريف بهؤلاء المرجئة، وبالإرجاء:

الإرجاء هو تغليب جانب الرجاء، وقد ذهب أصحاب هذه البدعة إلى أن الإنسان لا تضره المعاصي، وأن عليه أن يرجُوَ رحمة الله ولو أكثر من الذنوب، ويقولون: إن المعاصي تنمحي إذا كان الإنسان موحدًا؛ لأنها لا تضر الموحد، ويقولون: إنه لا يضر مع التوحيد ذنب كما لا ينفع مع الشرك عمل.

وهذه الطائفة المبتدعة قد فتحت الأبواب على مصراعيها للعصاة، وقالت لهم: افعلوا ما تشاءون، وما تقدرون عليه من الذنوب.

وقالوا: بأنه لا علاقة بين العمل وبين الإيمان. وبعضهم ذهب إلى أن الإيمان هو المعرفة القلبية لله فحسب، فمَن عرف ربه بقلبه حتى ولو لم ينطق بلسانه الشهادتين، فهو مؤمن كامل الإيمان.

كما زعموا أيضًا بأن الإيمان بناء على ذلك لا يزيد ولا ينقص، ولا يتفاضل، وأن إيمان الناس كلهم سواء، وهؤلاء قابلوا طائفة الوعيدية، وهم الخوارج، فالخوارج مع المرجئة طرفا نقيض؛ لأن الخوارج تكفر بالذنب، وتقول بخلود أصحاب الكبائر في النار، وهؤلاء يقولون للمذنبين: افعلوا ما شئتم من المعاصي والسيئات، فلن يضركم شيء من ذلك.

(ب) ذكر أهم مبادئهم:

من مبادئهم: أنهم قالوا: إن الإيمان تصديق ومعرفة، والعمل لا أثر له مطلقًا في الإيمان، وقالوا: لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة، كما زعموا: أن الإيمان اعتقاد بالقلب فقط وإن أعلن الكفر بلسانه وعبد الأصنام، أو لزم اليهودية أو النصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن، ولا شك أن مَن وصَل أمره إلى اعتقاد هذا كان خارجًا من الملة، كيف يمكن لإنسان أن يدين باليهودية والنصرانية، ويزعم أنه مؤمن طالما أنه عرف ربه سبحانه!!

الخوارج مع المرجئة طرفا نقيض: لأن الخوارج تكفر بالذنب، وتقول بخلود أصحاب الكبائر في النار، وهؤلاء يقولون للمذنبين: افعلوا ما شئتم من المعاصي والسيئات، فلن يضركم شيء من ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

افتتاحية العدد

الإعلام بفضائل البلد الحرام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي جعل البيت الحرام مثابة للناس وأمنًا، والصلاة والسلام على خير من طاف بالبيت ولبى، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان واقتفى.. وبعدُ:

فإن الله تعالى- جلت حكمته وعظمت قدرته- فضَّل بعض الأماكن والأزمنة والأشخاص على بعض، وهو سبحانه له الحكمة البالغة في ذلك، قال الله تعالى: «وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللَّهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ» (القصص:٦٨)، ومن ذلك تفضيل البلد الحرام على غيره من البقاع، وقد جعله الله حرمًا آمنًا ومكانًا مباركًا، واختار منها آخر رسول إلى أهل الأرض، وهي أحب بلاد الله إلى الله، كما قال عليه الصلاة والسلام: (والله إنك لخير أرض الله، وأحب أرض الله إلى الله، ولولا أني أخرجت منك ما خرجت). (انظر: صحيح سنن الترمذي ٣/ ٢٥٠).

والحديث صريح في تفضيل مكة على غيرها من البلاد، وأنها خير أرض وأحبها إليه، ولو أن أهل مكة أفسحوا المجال لدعوة الإسلام في بدايتها ما خرج منها رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال المباركفوري في شرحه للحديث: «فيه دلالة على أنه لا ينبغي للمؤمن أن يخرج من مكة إلا أن يُخرج منها حقيقة أو حكمًا، وهو الضرورة الدينية أو الدنيوية». (تحفة الأحوذي ١/ ٤٢٦).

وقد أوجب الله على المستطيعين من عباده قصد البلد الحرام والإتيان إليه بالحج والعمرة، وجعل هذا تكفيرًا للسيئات، ومحوًا للذنوب والآثام، بل لم يجعل لقاصده ثوابًا دون الجنة، كما في البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة». (البخاري: ١٧٧٣، ومسلم: ١٣٤٩).

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من أتى هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق، رجع كما ولدته أمه». (مسلم: ١٣٥٠). وقد أدرك المحبون المخلصون مكانة هذا البيت العتيق فأتوا إليه من كل فج عميق، يحدوهم الشوق إلى تعظيمه والطواف به والصلاة عنده، وقد أودع الله في قلوب خلقه الميل إليه، وحب العودة إليه بعد المرة، كما قال الله تعالى: «وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى» (البقرة:١٢٥)، وقد ذكر ابن جرير عن ابن عباس في معنى قوله تعالى: «مَثَابَةً لِلنَّاسِ» (البقرة:١٢٥) أنهم لا يقضون منه وطرًا، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم، ثم يعودون إليه، وذكر عن سعيد بن جبير أنه قال: «يحجون ثم يحجون ولا يقضون منه وطرًا». (تفسير الطبري ١/ ٤٢٠).

وقال الشيخ رشيد رضا- رحمه الله-: «ولما كان البيت معبدًا

وشعارًا عامًا كان الناس الذين يدينون بزيارته والقصد إليه للعبادة يشتاقون الرجوع إليه، فمن سهل أن يتوب إليه فعل، ومن لم يتمكن من الرجوع إليه بجثمانه رجع إليه بقلبه ووجدانه، وكونه مثابة للناس أمر معروف في الجاهلية والإسلام، وهو يصدق برجوع بعض زائريه إليه، وحنين غيرهم وتمنيهم له عند عجزهم عنه». (تفسير المنار ١/ ٤٦٠).

وقد خص الله البلد الحرام بخصائص ومميزات زادت من قدره، ورفعت من شأنه، ومن هذه الخصائص ما يلي:

١- أن مسجدها أول مسجد وُضع في الأرض، وعلى هذا فأول بيت عُبد فيه الرب سبحانه وتعالى كان في هذا الموضع من الأرض، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران:٩٦). قال الرازي رحمه الله: «واعلم أن دلالة الآية على الأولية في الفضل والشرف أمر لا بد منه؛ لأن المقصود الأصلي من ذكر هذه الآية بيان الفضيلة، لأن المقصود ترجيحه على بيت المقدس، وهذا إنما يتم بالأولية في الفضيلة والشرف». (التفسير الكبير ٤/ ٣٤٧).

وفي الصحيحين عن أبي ذر رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي مسجد وضع في الأرض أول؟ قال: «المسجد الحرام». قال: قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى». قلت: كم كان بينهما؟ قال: أربعون سنة، ثم أينما أدركتك الصلاة بَعْدُ فصلِّهْ، فإن الفضل فيه. (البخاري: ٣٣٦٦، ومسلم: ٩٢٠).

قال ابن حجر في شرحه: «الحديث يدل على أن المراد بالبيت بيت العبادة، لا مطلق البيوت، وقد ورد ذلك صريحًا على ما أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: «كانت البيوت قبله، ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله». (فتح الباري: ج/ ٤٠٨).

وقال النووي رحمه الله: «فيه جواز الصلاة في جميع المواضع إلا ما استثناه الشرع من الصلاة في المقابر وغيرها من المواضع التي فيها النجاسة كالمزبلة والمجزرة، وكذا ما نهى عنه لمعنى آخر فمن ذلك أعطان الإبل». (شرح النووي على مسلم ٢/٥).

وقد أشكل هذا الحديث على بعض الناس، وقالوا: إن إبراهيم بنى الكعبة وسليمان بنى بيت المقدس، وبينهما أكثر من ألف سنة، وجواب هذا الإشكال أن الحديث لم يقل إن إبراهيم عليه السلام أول من بنى الكعبة، ولا سليمان أول من بنى بيت المقدس، فعملهما إذاً كان تجديد الأصل موجود بينهما هذا القدر من الزمن، قال القرطبي رحمه الله: «إن الحديث لا يدل على أن إبراهيم وسليمان لما بنيا المسجدين ابتدآ وضعهما لهما، بل ذلك تجديد لما كان أسسه غيرهما». (فتح الباري ٦/ ٤٠٨، ٤٠٩).

وقال ابن القيم: «وقد أشكل هذا الحديث على من لم يعرف المراد به، فقال: معلوم أن سليمان بن داود هو الذي بنى المسجد الأقصى، وبينه وبين إبراهيم أكثر من ألف عام، وهذا من جهل هذا القائل، فإن سليمان إنما كان له من المسجد الأقصى تجديده، لا تأسيسه». (زاد المعاد ١/ ٢٨).

«وبكة» الوارد ذكرها في الآية السابقة: من أسماء مكة المشهورة، قيل: سميت بذلك لأنها تُبكُّ أعناق الظلمة والجبارة، بمعنى أنهم يذلون بها ويخضعون عندها، وقيل: لأن الناس يتباكون فيها، أي: يزدحمون. (انظر: تفسير ابن كثير ١/ ٥٢٦).

٢- أن الصلاة في المسجد الحرام لا تعدلها ولا تقرب منها صلاة في أي بقعة من بقاع الدنيا، وما ذاك إلا لأن الصلاة في المسجد الحرام بمائة ألف صلاة فيما سواه، وقد أخرج أحمد في المسند وابن حبان في صحيحه عن عبد الله بن الزبير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «صلاة في مسجدي هذا أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من صلاة في مسجدي هذا بمائة صلاة». قال الألباني: إسناده صحيح. انظر: صحيح الجامع (٣٨٤١)، وقال ابن عبد البر: «اختلف ابن الزين في رفعه ووقفه، ومن رفعه أحفظ وأثبت، ومثله لا يقال بالرأي». (فتح الباري ٣/ ٦٧).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «صلاة في مسجدي

أفضل من ألف صلاة فيما سواه، إلا المسجد الحرام، وصلاة في المسجد الحرام أفضل من ألف صلاة فيما سواه». رواه أحمد في المسند ٣٤٣/٣، وابن ماجه في سننه، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢٣٧/١، وقال ابن القيم: «وهذا صريح في أن المسجد الحرام أفضل بقاع الأرض على الإطلاق، ولذلك كان شد الرحال إليه فرضًا، ولغيره مما يستحب ولا يجب». (زاد المعاد ٢٧/١).

ومما يؤكد فضل المسجد الحرام ومكانته أن الله جعله قبلة لأهل الأرض قاطبة، ولا تقبل صلاة المصلي إلا إذا توجه إليه، ولذا حرم استقبالها أو استدبارها عند قضاء الحاجة، وهذا خاص بها دون سواها، ففي الصحيحين عن أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أتى أحدكم الغائط فلا يستقبل القبلة، ولا يولها ظهره، شرقوا أو غربوا». (البخاري: ١٤٤، ومسلم: ٢٦٤).

٣- أن الله تبارك وتعالى جعل البيت الحرام حرمًا آمنًا، وقد امتن الله بذلك على أهل مكة قائلاً: «أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ أَفَبِالْبَاطِلِ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ يَكْفُرُونَ» (العنكبوت:٦٧)، قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى ممتناً على قريش فيما أحلهم من حرمه الذي جعله للناس سواءً العاكف فيه والباد، ومن دخله كان آمناً فهم في أمن عظيم، والأعراب حوله ينهب بعضهم بعضاً، ويقتل بعضهم بعضاً، كما قال تعالى: «لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ (١) إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ (٢) فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ (٣) الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ (٤)» (قريش:١-٤). (تفسير ابن كثير ٥٧١/٣).

وقد تعدى الأمن فيه فشمل الحيوان والنبات والطير والزرع، كما في الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة: «إن هذا البلد حرّمه الله يوم خلق السماوات والأرض، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة: لا يُعْضَدُ شوكه، ولا ينفَّر صيده، ولا يلتقط لقطته إلا من عرفها، ولا يختلي خلاه». (البخاري: ٣١٨٩، ومسلم: ١٣٥٣).

وقد أفاد الحديث أن مكة حرم آمن، وأن القتال بها حرام، وأن حرمتها باقية بإذن الله إلى يوم القيامة، غير أن الخوارج ومن شاكلهم لا يفقهون ذلك حيث قام نفر منهم في مطلع هذا القرن الهجري فدخلوا البيت الحرام بالسلاح، وقتلوا عددًا من الجنود والزوار في حرم الله الآمن، وهذا من قبيح فعلهم- قاتلهم الله تعالى-، ولهذا أقول: يجب أن تتضافر الجهود لمواجهة هذا الفكر الضال المنحرف الذي يقتل ويفجر، وخاصة في أيامنا هذه، حيث استطاع المنحرفون نشر أفكارهم الخبيثة بين الشباب وأسسوا لهم جبهات آخرها ما يعرف اليوم بداعش، سلّم الله البلاد والعباد من شرهم، وحفظ بلاد المسلمين من بغيهم، ومن ذلك حرم الله الآمن الذي قال الله عنه في كتابه: «وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا» (آل عمران:٩٧). وسيبقى الحرم آمنًا- بإذن الله تعالى- إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٤- أن الله تعالى أقسم في كتابه مرتين بهذا البلد المبارك، قال الله تعالى: «لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ» (البلد:٢). وقال تعالى: «وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ (١) وَطُورِ سِينِينَ (٢) وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ» (التين: ١- ٣)، وهذا القسم يدل على فضل مكة، وأنها أفضل البلدان على الإطلاق، خاصة وقت حلول الرسول صلى الله عليه وسلم فيها، والله سبحانه وتعالى لا يقسم إلا بعظيم، قال الرازي: «لما أقسم بهذا البلد دل ذلك على غاية فضل هذا البلد». (التفسير الكبير ٤١٩/١٦).

٥- أنها أم القرى كما قال الله تعالى: «وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا» (الأنعام:٩٢). وهذا يعني: أنها أصل القرى وغيرها لها تبع، فيجب ألا يكون لها في القرى ندّ ولا عديل، قال الشيخ رشيد رضا في تفسير الآية الأولى: «وأم القرى مكة والمراد أهلها بالاتفاق، كُنّيت بهذه الكنية لأنها قبلة أهل القرى، أي البلاد التي يجتمع فيها الناس كبيرة كانت أو صغيرة، أو لأن فيها أول بيت وضع للناس، أو لأنها حجمهم ومجتمعهم أو لأنها أعظم القرى شأنًا في الدين، أو لأنهم يعظمونها كالأم». (تفسير المنار ٦٢١/٧).

ولا يظن ظان أن إرسال النبي صلى الله عليه وسلم مقصور على أهل مكة وما حولها من القرى

المجاورة لها، لأن ما حولها يشمل بلاد الدنيا كلها، وقد روى ابن جرير الطبري عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال في الآية: «يعني أم القرى مكة، ومن حولها من القرى إلى المشرق والمغرب». (تفسير الطبري ١٨٠/٧). وقد أوضح الله في آيات أخر أن إنذاره صلى الله عليه وسلم عام لجميع الثقلين، كما قال الله تعالى: «تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا» (الفرقان:١).

٦- أن الله حرَّم على أهل الشرك دخول هذه البلدة المباركة، فقال: «إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا» (التوبة:٢٨)، قال الشيخ السعدي- رحمه الله- في تفسيره: «وأي نجاسة أبلغ ممن كان يعبد مع الله آلهة لا تنفع ولا تضر، ولا تغني عنه شيئا؟ وأعمالهم ما بين محاربة لله، وصد عن سبيل الله ونصر للباطل، ورد للحق، وعمل بالفساد في الأرض لا في الصلاح، فعليكم أن تطهروا أشرف البيوت وأطهرها عنهم». (تفسير السعدي ٢١٧/٣، ٢١٨).

٧- أن الله حفظها والمدينة النبوية من الدجال، وهذا من خصائص هذين البلدين الكريمين مكة والمدينة، كما في حديث أنس بن مالك عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ليس من بلد إلا سيطؤه الدجال، إلا مكة والمدينة، ليس له من أنقابها نقب إلا عليه الملائكة صافين يحرسونها، ثم ترجف المدينة بأهلها ثلاث رجفات، فيخرج الله كل كافر ومنافق». (البخاري ١٨٨١، ومسلم: ٢٩٤٣).

٨- أن الله تبارك وتعالى- يعاقب من همَّ بالسيئة في البلد الحرام وإن لم يفعلها، قال الله تعالى: «وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ» (الحج:٢٥). وقد عدَّى فعل الإرادة هنا بالباء لتضمينه معنى الهم، قال ابن القيم رحمه الله: «فتأمل كيف عدَّى فعل الإرادة هاهنا بالباء، ولا يقال: أردت بكذا إلا لما ضُمِّن معنى فعل «هم»». (زاد المعاد ٢٩/١).

وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما في معنى الظلم الوارد في الآية: أن تستحل من الحرام ما حرم الله عليك من لسان أو قتل، فتظلم من لا يظلمك، أو تقتل من لا يقتلك، وذكر عن مجاهد أنه قال: يعمل فيه عملاً سيئًا، ثم عقب ابن كثير على هذه الأقوال بعد إيرادها فقال: «وهذا من خصوصية الحرم أن يعاقب البادي فيه الشر، إذا كان عازمًا عليه، وإن لم يوقعه، كما قال ابن أبي حاتم في تفسيره: حدثنا أحمد بن سنان، حدثنا يزيد بن هارون، أنبأنا شعبة، عن السدي: أنه سمع مُرَّة يحدث عن عبد الله- يعني ابن مسعود- في قوله: «ومن يرد فيه بإلحاد بظلم». قال: لو أن رجلاً أراد فيه بإلحاد بظلم، وهو بعدن، أذاقه الله من العذاب الأليم». (انظر: تفسير ابن كثير ٢٩٦/٣).

وقد ذكره ابن حجر في الفتح، وقال: وهذا سند صحيح. (فتح الباري ٢١٠/١٢). ولهذا فإني أذكر نفسي وإخواني الحجاج والزوار، وأهل البلد الحرام والمعتمرين بخطورة الهم والإرادة للمعاصي والذنوب في حرم الله المبارك، لأن الله رتب الوعيد الشديد على مجرد الهم والإرادة، وإن لم تقع، والعاقل يحذر أكثر من الوقوع فيما حرم الله تعالى في حرمه، لأن المعصية فيه ليست كالمعصية في غيره، فهي أشد وأعظم.

قال ابن القيم: «السيئة في حرم الله وبلده وعلى بساطه أكثر وأعظم منها في طرف من أطراف الأرض، ولهذا ليس من عصى المالك على بساط ملكه كمن عصاه في الموضع البعيد من داره وبساطه». (زاد المعاد ٢٩/١). وفي البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سنة الجاهلية، ومطَّلب دم امرئ بغير حق ليهريق دمه». (البخاري: ٦٨٨٢).

فيا أهل الإيمان الزموا الآداب الشرعية، وعظموا شعائر رب البرية، واحذروا من سوء الأدب مع الله ومع حرمه ومع عباده: «ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ» (الحج:٣٢).

أسأل الله تعالى أن يتقبل من الحجاج والمعتمرين، وأن يرزقنا حج بيته والصلاة في مسجد نبيه صلى الله عليه وسلم،

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

باب العقيدة

ظهور البدع في العقائد..

خطورة بدعتي الباطنية والصوفية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

ما يزال الحديث متصلاً عن مخاطر البدع العقدية، وذكرنا فيما مضى بدع الخوارج والتشيع والمرجئة والمعتزلة والجبرية، وتتمة لهذا الموضوع نعرض لأهم أصول بعض الفرق المبتدعة الأخرى، وفي العدد بإيضاح بدع الباطنية والصوفية، ونسأل الله الثبات على الحق، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

سادسًا: بدعة الباطنية:

(أ) التعريف بهم:

الباطنية فرق متعددة مناوئة للإسلام مثل الإسماعيلية والقرامطة والنصيرية والدروز والبابية والبهائية وغير ذلك، ويجمعهم القول بأن نصوص الدين لها ظاهر وباطن.

إن ضرر الباطنية على فرق المسلمين أعظم من ضرر اليهود والنصارى والمجوس عليهم، بل أعظم من مَضرة الدهرية وسائر أصناف الكَفَرة عليهم، بل أعظم من ضرر الدجال الذي يظهر في آخر الزمان؛ لأن الذين ضلوا عن الدين بدعوى الباطنية من وقت ظهور دعوتهم إلى يومنا أكثر من الذين يضلون بالدجال في وقت ظهوره؛ لأن فتنة الدجال لا تزيد مدته على أربعين يومًا، وفضائح الباطنية أكثر من عدد الرمل والقطر.

وقد حكى أصحاب المقالات: أن الذين أسسوا دعوى الباطنية جماعة منهم: ميمون بن ديصان - المعروف بالقداح - وكان مولى لجعفر بن محمد الصادق، وكان من الأهواز، ومنهم محمد بن الحسين - الملقب بدندان - اجتمعوا كلهم مع ميمون بن ديصان في سجن والي العراق، فأسسوا في ذلك السجن مذاهب الباطنية، ثم ظهرت دعوتهم بعد خلاصهم من السجن من جهة المعروف بدندان، ثم رحل ميمون بن ديصان إلى ناحية المغرب، وانتسب في تلك الناحية إلى عقيل بن أبي طالب، وزعم أنه من نسله، فلما دخل في دعوته قوم من غلاة الرفض والحلولية منهم؛ ادعى أنه من وَلد محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق؛ فقبل الأغبياء ذلك منه على جهل منهم؛ بأن محمد بن إسماعيل بن جعفر مات ولم يعقب عند علماء النسب.

ثم ظهر في دعوته إلى دين الباطنية رجل يقال له: حمدان قرمط؛ لُقب بذلك لقرمطة في خطوه، يعني: كان إذا مشى كان متقارب الخطى في المشي، وكان في ابتداء أمره أكَّارًا (يعمل في بستان) من أكرة سواد الكوفة، وإليه تنسب القرامطة.

ثم ظهر بعده في الدعوة إلى البدعة أبو سعيد الجنَّابي، وكان من مستجيبة حمدان، يعني: استجاب لحمدان قرمط، وتغلب على ناحية البحرين، ودخل في دعوته بنو سنبر، ثم لما تمادت الأيام بهم؛ ظهر المعروف منهم بسعيد بن الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون بن ديصان القداح، فغير اسم نفسه ونسبه، وقال لأتباعه: أنا عبيد الله بن الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق، ثم ظهرت فتنته بالمغرب وأولاده اليوم يستولون على أعمال مصر، ونعني بهم الفاطميين، وهذا الكلام قد ذكره البغدادي - رحمه الله - في عصره، ولكن هذا قد انتهى بحمد الله عن مصر، فابتعد عنها هؤلاء القوم الذين سموا أنفسهم بالفاطميين. وكانت نجاة مصر من يد هؤلاء على يد صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تبارك وتعالى.

وذكر أصحاب التاريخ أيضًا أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم، ولم يجسروا على إظهاره؛ خوفًا من سيوف المسلمين، فوضع الأغمار منهم أسسًا قَبلَهَا مَنْ قَبلَهَا منهم، وهؤلاء كانوا في الباطن يدينون ويفضلون دين المجوس، وتأولوا آيات من القرآن، وبعض أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وحاولوا أن يجمعوا بينها لتوافق ما أسسوه من باطل.

(ب) أغراض الباطنية:

إن المتكلمين قد اختلفوا في أغراض الباطنية، وفي دعوتها إلى بدعتها؛ فذهب أكثرهم إلى أن غرض الباطنية الدعوة إلى دين المجوس بالتأويلات التي يتأولون عليها القرآن والسنة، واستدلوا على ذلك بأن زعيمهم الأول ميمون بن ديصان كان مجوسيًا من سبي الأهواز، ودعا عبد الله بن ميمون الناس إلى دين أبيه، واستدلوا أيضًا بأن داعيهم المعروف بالبزدوي، قال في كتابه المعروف بـ(المحصول): إن المبدع الأول (الإله) أبدع النفس (المبدع الثاني)، ثم إن الأول والثاني مدبران للعالم بتدبير الكواكب السبعة والطبائع الأربع، وقولهم هذا: «إن الأول والثاني يدبران العالم» هو بعينه قول المجوس بإضافة الحوادث لصانعين: أحدهما: قديم، والآخر: محدث، إلا أن الباطنية عبرت عن الصانعين بالأول والثاني، وعبر المجوس عنهما بيزدان وأهرمن، فهذا هو الذي يدور في عقائد الباطنية.

ومنهم من نسب الباطنية إلى الصابئين الذين هم بحرَّان، واستدل على ذلك بأن حمدان قرمط - داعية الباطنية بعد ميمون بن ديصان - كان من الصابئة الحرانية، واستدل أيضًا بأن صابئة حرَّان يكتمون أديانهم، ولا يظهرونها إلا لمن كان منهم، والباطنية أيضًا لا يظهرون دينهم إلا من كان منهم بعد إحلافهم إياه على ألا يذكر أسرارهم لغيرهم.

ولذلك قال عبد القاهر البغدادي - رحمه الله تبارك وتعالى -: الذي يصح عندي من دين الباطنية: أنهم دهرية زنادقة، يقولون بقدم العالم، وينكرون الرسل والشرائع كلها؛ لميلها إلى استباحة كل ما يميل إليه الطبع.

ولهذا فهؤلاء الباطنية ملاحدة زنادقة كفار، أرادوا هدم الشريعة، ومحاربة دين النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسقطوا التكاليف عن أتباعهم.

سابعًا: بدعة الغلو في الصالحين والتعلق بهم والمتصوفة:

(أ) بدعة الغلو في الصالحين والتعلق بهم:

هناك أيضًا بدع أخرى في الحقيقة قد تكون مُوقعَة في الكفر ومخرجة من الملة، ولهذه البدعة مقدمات ترجع إلى القرون الوسطى أو المتأخرة - ونعني: بدعة الغلو في الصالحين والتعلق بهم - لأنه قد غلب الشيطان على بعض الناس من الجهلة، وزين لهم بدعة التعلق بالقبور، وأمرهم برفع القبور وتشييدها، والبناء عليها خلافًا للسنة، ثم زين لهم الشيطان أيضًا الصلاة

أن الذين وضعوا أساس دين الباطنية كانوا من أولاد المجوس، وكانوا مائلين إلى دين أسلافهم.

عندها، بل والذبح عليها، والنذر لها، والاعتكاف والإقامة عندها والاعتماد على أهلها، والاعتقاد بأن صاحب القبر ولي من الأولياء، وأنه ينفع ويشفع ويدفع.

وقد أدى بهم تعظيم هذه القبور وبعض المشاهد ونحوها إلى أن يقعوا في الشرك، واعتقدوا أنه أمر سائغ لا حرج فيه، ولا إثم؛ فكان ذلك من البدع المنكرة، ومنهم مَن له شبهات يتعلقون بها، ويسمون ذلك توسلًا أو تبركًا أو شفاعةً أو تقربًا؛ فشابهوا المشركين الأولين الذين قال الله تعالى فيهم: « أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ ۚ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ كَاذِبٌ كَفَّارٌ » (الزمر: ٣)، وقال فيهم: «هُنَالِكَ تَبْلُوا كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ» (يونس: ٣٠)، فشابهوا المشركين الأولين في العمل وإن لم يشابهوهم في القول، وهذه بدعة تمكنت في كثير من البلاد.

(ب) بدعة المتصوفة:

أما بدعة المتصوفة، فهي تتعلق أيضًا بالعقائد، وكان مبدؤها أن طائفة غلب عليها الزهد والتقشف، والتقلل من زينة الدنيا وشهواتها، ولبسوا الثياب الخشنة، وكانت في ذلك الوقت من الصوف الذي يُنسج من صوف الضأن فسماهم السلف صوفية؛ لأنهم يلبسون هذه الثياب، وقيل في تسميتهم غير ذلك.

ومن بدعهم: أنهم يستعملون الطرب الذي هو شيء من الرقص وتراهم يترنمون بنغمات هي كالغناء، فإذا سمعوها تواجدوا، وأظهروا الخشوع أكثر من خشوعهم إذا سمعوا كلام الله تعالى، وللأسف الشديد تجدهم يُكثرون ذلك في الحلَقات التي يسمونها «حلقات الذكر»، وإن كانوا في الحقيقة يرقصون فيها، ويتكلمون بكلمات هي غناء محض، ولا معنى لها في الغالب.

موقف السلف من أهل البدع:

(أ) موقف السلف من أهل البدع:

إن أهل الأهواء والبدع ليسوا سواءً، فمنهم الجاهل المقلد، ومنهم المعرض عن طلب الحق والهدى المنشغل بدنياه، ومنهم مَن تبين له الحق، ولكنه تركه تقليدًا وتعصبًا، أو بُغضًا له ومعاداةً لأصحابه، ومنهم الداعي إلى بدعته، ومنهم المستتر بها.

ولذلك فقد تنوعت وتعددت مواقف السلف مع أهل البدع، فمن ذلك:

أولًا: دعوتهم بالحكمة والموعظة الحسنة، والتلطف والترفق في ردهم إلى الجادة، وحظيرة السنة، وعلى هذا يتنزل موقف الإمام أحمد - رحمه الله - ممن ناظره من الرافضة تارةً، وممن ناظره من المرجئة تارةً أخرى.

ثانيًا: مناظرتهم وإقامة الحجة عليهم، وعلى هذا يُحمل فعل ابن عباس رضي الله عنهما مع الخوارج بأمر من أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

ثالثًا: النهي عن مناظرتهم، ومجالستهم، وهجرهم، وترك السماع منهم، حيث لم تكن في ذلك مصلحة، أو تحققت المضرة، وعليه يُحمل تحذير السلف من مجالسة أهل البدع والأهواء.

رابعًا: قطع شرهم ودَفْع باطلهم بكل ما يتحقق به من أنواع التعزير بالحبس والضرب والنفي، ونحو ذلك، وهذا للإمام خاصة - أي: أن نقطع شرهم، وأن ندفع باطلهم، فهذا يكون لإمام المسلمين - وعلى هذا يتنزل موقف أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه مع صَبيغ بن عسل.

(ب) أسبابُ تفاوتِ الموقف من أهل البدع:

لماذا يتفاوت الموقف من أهل البدع؟ لماذا نحبس بعضهم، ونضرب بعضهم، كما فعل أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه من صبيغ؟ ولماذا قُتل البعضُ الآخر؟ ما سبب هذا التفاوت؟

إن المواقف النظرية والعملية

يتفاوت الموقف من أهل البدع: ولاءً وبراءً، ومحبةً وبغضًا، بحسب ما فيهم من الخير والشر.

من أهل البدع تتفاوت تفاوتًا كبيرًا، بَدْءً من الدعوة والترفق في الرد، وانتهاءً بالقتل والقتال. وهذا يرجع في الجملة إلى ضوابط وقواعد أرساها أهل السنة في علاقتهم بأهل البدع. وهذا بيانها:

أولًا: تفاوت مراتب البدع:

وهذا التفاوت بناء على درجة المخالفة، فإن الطوائف المنتسبة إلى متبوعين في أصول الدين والكلام على درجات، منهم من يكون قد خالف السنة في أصول عظيمة، ومنهم مَن خالف السنة في أمور دقيقة - وقد سبق تقسيم البدع إلى: مغلظة ومخففة، اعتقادية وعملية، أو مكفرة ومفسقة - وعلى هذا فمن البدع ما لا خلاف على كفر أصحابها، ومنها ما لا خلاف على إسلام أصحابها، وَبَيْنَ ذلك مراتب.

وعلى هذا يتفاوت النكير على أهل البدع بحسب مرتبة البدعة تحريمًا أو كراهة، غلظة أو خفة، في العقائد أو الفروع، مكفرة أو مفسقة، من الكبائر أو دون ذلك.

ثانيًا: تفاوت مراتب أهل البدع:

إن مراتب أهل البدع تتفاوت، فقد سبق أن من أهل البدع مَن هو جاهل مقلد، لا يستطيع حيلة ولا يهتدي سبيلًا، ومنهم من هو مُعْرِض عن دينه، مقبل على دنياه، ومنهم معاند متعصب، ومنهم داعٍ إلى البدعة ورأس فيها، ومنهم مستتر لا يرفع بها رأسًا، وقد يجتمع أهل البدع وتكون لهم شوكة، ولذلك فإن منهج الإنصاف والعدل مع المخالف يقتضي أن يتفاوت الإنكار بحسب حال أهل البدع.

ولهذا قال الفقهاء: إن الداعية إلى البدعة المخالفة للكتاب والسنة، يعاقب بما لا يعاقب به الساكت، فإذا وُجد إنسانٌ يدعو إلى بدعته، وإنسان آخر على نفس البدعة ولكنه ساكت لا يدعو إليها، لا شك أنهم يتفاوتون. فأما مَن كان مستترًا بمعصية، أو مُسرًّا لبدعة غير مكفرة، فإن هذا لا يُهجر، وإنما يهجر الداعي إلى البدعة، ولهذا كان الإمام أحمد وأكثر مَن قَبْلَه وبعده من الأئمة كمالك وغيره، لا يقبلون رواية الداعي إلى بدعة، ولا يجالسونه، بخلاف الساكت.

وقد أخرج أصحاب (الصحيح) عن جماعات ممَّن رُمِيَ ببدعة من الساكتين، ولم يخرجوا عن الدعاة إلى البدع.

كما أنه يتفاوت الموقف من أهل البدع: ولاءً وبراءً، ومحبة وبغضًا، بحسب ما فيهم من الخير والشر، فيستحقون من الموالاة والمحبة بقدر ما فيهم من الخير، ويستحقون من المعاداة والبغض بقدر ما فيهم من الشر.

وهذا عين العدل والإنصاف، والخير والرحمة والحكمة عند أهل السنة والجماعة، فهُم مع ولائهم للحق وحده، إلا أنهم أيضًا لا يظلمون المخالف، ويعلمون ويعرفون أن الناس في بدعهم يتفاوتون، ولذلك يُعاملون كلًا بما يمكن أن يقوم به، وما لحق به، ويميزون بين الناس. وهذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافًا للخوارج والمعتزلة ومن وافقهم.

ثم إن أهل الأهواء والبدع يتفاوتون قربًا وبعدًا عن السنة، فالمعتزلة خير من الرافضة والخوارج في الجملة.

ولا بد أن يؤخذ في الاعتبار كذلك تفاوت الدوافع والأحوال والملابسات، التي أحاطت بالبدع وأهلها زمانًا ومكانًا، فعندما تكون الراية للسنة والدولة للإسلام، فلا حجة لمبتدع ولا عذر لسائغ، إذ الحجة ظاهرة والحق أبلج، أما عندما تكون الدولة للبدعة، والراية للأهواء، وحين تُكمم أصوات الربانيين من أهل العلم، ويُحارب أهل السنة وعلماؤهم، فهنا يُلتمس للمتأول والجاهل ما لا يلتمس مثله في واقع التمكين والاستخلاف، وتكون المعاملة مع المخالف إلى التأليف والمداراة أقرب منها من الهجر والمجافاة.

وللحديث بقية إن شاء الله.

أهل الأهواء والبدع يتفاوتون قربًا وبعدًا عن السنة، فالمعتزلة خير من الرافضة والخوارج في الجملة.

افتتاحية العدد

التذكير بخطورة التكفير

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فإنه بين الحين والآخر تخرج علينا طوائف من المبتدعة تؤجج نار الفتنة بين المسلمين، وتدفعهم إلى مزيد من التفرق والضياع، ومن هؤلاء من يجتهدون في إحياء ونشر فكر الخوارج بين المسلمين، وقد ظهرت تلك النابتة في هذا العصر، تحت ألقاب مختلفة وراياتٍ متنوعة، وقد كنت وإخواني في أنصار السنة نحذر من هذا الفكر ونرد على قائليه في كتب ومقالات، كان لها- بفضل الله وحده- كبير الأثر في إظهار الحق وبيانه، ومن باب التذكير، والبراءة إلى الله من دعاة التكفير، ودرءًا للفتنة عن ديار المسلمين، رأيت أن أحذر مرة أخرى من فتنة التكفير، صيانة لشباب المسلمين وعامتهم من الوقوع في التكفير، وذلك في نقاط محدودة كما يلي:

أولًا: كلمة في التحذير من الغلو:

نهى الإسلام عن الغلو بجميع صوره وأشكاله، سواء كان في المعتقد أو السلوك، وقد نهى الله في كتابه أهل الكتاب عنه، فقال: «يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّ» (النساء:١٧١)، وقد حذر النبي صلى الله عليه وسلم أمته من الوقوع فيما وقع فيه من قبلهم طلبًا للسلامة والنجاة، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم غداة العقبة وهو على ناقته: «القط لي حصى، فلقطت له سبع حصيات، وهن حصى الخَذف، فجعل يَنْفُضهن في كفه ويقول: أمثال هؤلاء فارموا، ثم قال: يا أيها الناس إياكم والغلو في الدين؛ فإنه أهلك من كان قبلكم الغلو في الدين». (صحيح سنن ابن ماجه ٢/١٧٧).

كما بيّن النبي صلى الله عليه وسلم عاقبة الغلاة وأن مصيرهم إلى الهلاك، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هلك المتنطعون، قالها ثلاثا». (مسلم: ٢٦٧٠).

قال النووي رحمه الله: «أي المتعمقون الغالون المجاوزون الحدود في أقوالهم وأفعالهم». (شرح النووي على مسلم ١٦/٢٢٠).

ثانيًا: من ثبت إسلامه بيقين لا يزول عنه إلا بيقين، وهذه قاعدة كبيرة من قواعد الشريعة الإسلامية، وقد قررها الفقهاء، وبنوا عليها كثيرًا من أحكام الشريعة، يقول عنها الإمام السيوطي رحمه الله: «اعلم: أن هذه القاعدة تدخل في جميع أبواب الفقه، والمسائل المخرجة عليها تبلغ ثلاثة أرباع الفقه أو أكثر». (الأشباه والنظائر/١١٥). وقد قرر علماء الاعتقاد في كتبهم، وكانت بفضل الله مانعة من إطلاق التكفير على من دخل الإسلام وأعلنه، طارحة الشك والارتياب في الأشخاص.

> ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «وليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة، وتبين له المحجة، ومن ثبت إسلامه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك، بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة». (مجموع الفتاوى: ٤٦٦/١٢).

وقال ابن نجيم رحمه الله: «ثم ما تيقن أنه ردة يحكم به، وما يشك أنه ردة لا يحكم به، إذ الإسلام الثابت باليقين لا يزول بالشك، وينبغي للعالم إذا رفع إليه هذا ألا يبادر بتكفير أهل الإسلام». (البحر الرائق ج٥/١٢٥).

فتأمل- أخي القارئ الكريم- تقرير هذين العلمين لهذه القاعدة، واتفاق كل منهما في أن اليقين الثابت لا يزول بالشك العارض، قال البغوي رحمه الله: وهو قول عامة أهل العلم». (شرح السنة ج١/٣٥٤).

وقد دل القرآن الكريم على هذه القاعدة كما في قوله تعالى: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُواْ وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا» (النساء:٩٤).

قال السعدي رحمه الله: «يأمر تعالى عباده المؤمنين إذا خرجوا جهادًا في سبيله وابتغاء مرضاته أن يتبينوا ويتثبتوا في جميع أمورهم المشتبهة. فإن الأمور قسمان: واضحة وغير واضحة. فالواضحة البيِّنة لا تحتاج إلى تثبت وتبين، لأن ذلك تحصيل حاصل. وأما الأمور المشكلة غير الواضحة فإن الإنسان يحتاج إلى التثبت فيها والتبين، ليعرف هل يقدم عليها أم لا؟

فإن التثبت في هذه الأمور يحصل فيه من الفوائد الكثيرة، والكف لشرور عظيمة، ما به يعرف دين العبد وعقله ورزانته، بخلاف المستعجل للأمور في بدايتها قبل أن يتبين له حكمها، فإن ذلك يؤدي إلى ما لا ينبغي». (تيسير الرحمن ١٣٢/٢).

كما دلت السنة النبوية على هذه القاعدة، كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: «بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْحُرَقَةِ فَصَبَّحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ فَلَمَّا غَشِينَاهُ قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ فَكَفَّ الْأَنْصَارِيُّ فَطَعَنْتُهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَتَلْتُهُ فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا أُسَامَةُ أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟ قُلْتُ: كَانَ مُتَعَوِّذًا ، فَمَا زَالَ يُكَرِّرُهَا حَتَّى تَمَنَّيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ». (البخاري: ٤٢٦٩، ومسلم: ٩٦). وقد قال الإمام الشافعي وابن القصار المالكي في معنى الحديث: أن من قال: لا إله إلا الله أصبح معصوم الدم ويحرم قتله. (انظر: شرح النووي على مسلم ١٠٦/٢).

ويلاحظ من الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم أنكر على أسامة فعله إنكارًا شديدًا لدرجة أن اسامة تمنى أن لم يكن قد أسلم وقتئذ، ويستفاد منه أنه لا يجوز اتهام الناس بالباطل وأخذهم بالظن والشك، وإطلاق الأحكام فيهم، وقد توعد الله من يؤذي المؤمنين والمؤمنات، فقال في كتابه الكريم: «وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُواْ فَقَدِ ٱحْتَمَلُواْ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا» (الأحزاب:٥٨)، وأختم الكلام حول هذه القاعدة بهذا الكلام النفيس للشوكاني رحمه الله: «اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام، ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا

ببرهان أوضح من شمس النهار». (السيل الجرار ٤/٥٧٨).

ثالثًا: الحكم على الناس بظاهر أحوالهم دون ما تخفيه سرائرهم:

إن الحكم على الناس في الدنيا يكون بحسب ما يظهر من أحوالهم، ونكل ما يضمرون في بواطنهم إلى علام الغيوب سبحانه، وعلى هذا فمن كان ظاهره الإيمان والاستقامة حُكِمَ له بذلك، ومن كان ظاهره عكس ذلك حكم عليه به، ولم يأمرنا الشرع الحنيف أن نفتش عن بواطن الناس، وقد صرَّح بذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، كما في الصحيح من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، (وهو طويل)، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقسم قسمة بين بعض أصحابه، فقال رجل من أصحابه: «كُنَّا نَحْنُ أَحَقَّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ قَالَ فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فَقَالَ أَلَا تَأْمَنُونِي وَأَنَا أَمِينُ مَنْ فِي السَّمَاءِ يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً قَالَ فَقَامَ رَجُل غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِزُ الْجَبْهَةِ، كَثُّ اللِّحْيَةِ، مَحْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: وَيْلَكَ أَوَلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ؟! قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُل، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي، فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ؟! قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنِّي لَمْ أُومَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشُقَّ بُطُونَهُمْ». (البخاري: ٤٣٥١).

> **إن الحكم على الناس في الدنيا يكون بحسب ما يظهر من أحوالهم، ونكل ما يضمرون في بواطنهم إلى علام الغيوب سبحانه.**

وفي بعض روايات حديث أسامة السابق في قتله للرجل الذي قال لا إله إلا الله، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له: «أفلا شققت عن قلبه حتى تعلم أقالها أم لا». (مسلم: ٩٦).

قال النووي في شرحه للحديث: «أفلا شققت عن قلبه، فيه دليل للقاعدة المعروفة في الفقه والأصول: أن الأحكام يعمل فيها بالظواهر، والله يتولى السرائر». (شرح النووي على مسلم ٢/١٠٧).

ومما يدل أيضًا أن الأحكام تجري على الظاهر حديث ابن عمر رضي الله عنهما وفيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام، وحسابهم على الله». (البخاري: ٢٥، ومسلم: ٢٢).

وقال ابن حجر في شرحه للحديث: «فيه دليل على قبول الأعمال الظاهرة، والحكم بما يقتضيه الظاهر، والاكتفاء في قبول الإيمان بالاعتقاد الجازم خلافًا لمن أوجب تعلم الأدلة». (فتح الباري ١/٧٧).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يعامل الناس بحسب ما يظهر له من حالهم، حتى ولو كانوا على خلاف ذلك في الباطن كحال المنافقين الذين أخبره الله تعالى بنفاقهم وقد تعلَّم منه أصحابه ذلك، وساروا عليه، كما جاء عن عبد الله بن عتبة أنه قال: «إِنَّ أُنَاسًا كَانُوا يُؤْخَذُونَ بِالْوَحْيِ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِنَّ الْوَحْيَ قَدْ انْقَطَعَ وَإِنَّمَا نَأْخُذُكُمُ الْآنَ بِمَا ظَهَرَ لَنَا مِنْ أَعْمَالِكُمْ فَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا خَيْرًا أَمِنَّاهُ وَقَرَّبْنَاهُ وَلَيْسَ إِلَيْنَا مِنْ سَرِيرَتِهِ شَيْءٌ اللَّهُ يُحَاسِبُهُ فِي سَرِيرَتِهِ وَمَنْ أَظْهَرَ لَنَا سُوءًا لَمْ نَأْمَنْهُ وَلَمْ نُصَدِّقْهُ وَإِنْ قَالَ إِنَّ سَرِيرَتَهُ حَسَنَةٌ». (البخاري: ٢٦٤١).

ولا شكَّ أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه فهم ذلك من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولهذا قال ابن حجر في شرحه: «هذا إخبار من عمر عما كان الناس عليه في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وعما صار بعده». (فتح الباري: ٥/٢٥٢).

ولا شك أيضًا أن عمر رضي الله عنه قال ذلك بمحضر من الصحابة ولم ينكر عليه أحد، وللإمام الشاطبي رحمه الله كلمات دقيقة حول هذا المعنى، ومما قال: «فإن أصل الحكم بالظاهر مقطوع به في الأحكام خصوصًا، وبالنسبة إلى الاعتقاد في الغير عمومًا أيضًا، فإن سيد البشر صلى الله عليه وسلم مع إعلامه بالوحي، يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه». (الموافقات ٢/٢٧١).

ومما تجدر الإشارة إليه هنا أن أهل السنة والجماعة لا يشهدون لمعين من أهل القبلة بالجنة أو النار، إلا إذا ورد نص في ذلك، وإن كانوا يرجون

للمحسنين الجنة، ويخافون على المسيئين من النار، قال الطحاوي رحمه الله: «ولا ننزل أحدًا منهم جنة ولا نارًا». قال الشارح: «يُريد: أنا لا نقول عَنْ أحد مُعيَّن من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار، إلا مَنْ أخبَرَ الصادقُ صلى الله عليه وسلم أنه من أهل الجنة، كالعشرة رضي الله عنهم. وإن كنا نقول: إنه لا بد أن يدخل النار من أهل الكبائر مَنْ شاء الله إدخاله النار، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين، ولكنا نقف في الشخص المعيَّن، فلا نشهد له بجنة ولا نار إلا عَنْ علم؛ لأن الحقيقة باطنة، وما مات عليه لا نحيط به، لكن نرجو للمحسن، ونخاف على المسيئ». (شرح الطحاوية لابن أبي العز ٢/٥٣٧).

وقال الطحاوي أيضا في هذا السياق: «ولا نشهد عليهم بكفر ولا بشرك ولا بنفاق، ما لم يظهر منهم شيء من ذلك، ونذر سرائرهم إلى الله تعالى». قال الشارح: «لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر، ونهينا عن الظن، واتباع ما ليس لنا به علم، قال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَسۡخَرۡ قَوۡمٞ مِّن قَوۡمٍ » (الحجرات:١١)، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞ » (الحجرات:١٢). (المرجع السابق ٢/٥٣٩).

رابعًا: أقسام الكفر:

عند الحديث عن التكفير لا بد من بيان أقسامه وذكر حكم كل قسم، وذلك لأن بعض الناس أطلق ألفاظ التكفير دون فقه لمرادها، وتفرقة بينها، ونصوص الشريعة تدل على أن الكفر قسمان: كفر أكبر مخرج من الملة، وهو خمسة أنواع، ذكرها ابن القيم رحمه الله، وعرَّف بكل قسم في كتابه. (مدارج السالكين ١/٣٦٦).

والنوع الثاني: الكفر الأصغر، وهو إطلاق لفظ الكفر على بعض المعاصي والذنوب، وهو كفر لا ينقل عن الملة، وصاحبه يدور في فلك الإسلام، ويطلق عليه كفر دون كفر، أو الكفر العملي تغليبًا، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا قال فيه: «باب كفران العشير وكفر دون كفر». ثم ساق حديث ابن عباس وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «أريت النار، فإذا أكثر أهلها النساء يكفرن، قيل: أيكفرن بالله؟ قال: يكفرن العشير، ويكفر الإحسان، لو أحسنت إلى إحداهن الدهر، ثم رأت منك شيئًا قالت: ما رأيت خيرًا قط». (البخاري: ٢٩).

> الطاعات كما تسمى إيمانًا، كذلك المعاصي تسمى كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة.

قال ابن حجر: «قال القاضي أبو بكر بن العربي في شرحه: مراد المصنف أن يبين أن الطاعات كما تسمى إيمانًا، كذلك المعاصي تسمى كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة». (فتح الباري ١/٨٣)، وقد ورد تقسيم الكفر من أعلام الصحابة والسلف كابن عباس، وطاووس، عطاء بن أبي رباح، وغيرهم. (انظر تفسير الطبري ٦/١٦٥، ١٦٦)، وقال الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام رحمه الله: «وأما الآثار المرويات بذكر الكفر والشرك ووجوبهما بالمعاصي، فإن معناها عندنا ليست تثبت على أهلها كفرًا ولا شركا يزيلان الإيمان عن صاحبه، وانما وجوهها أنها من الأخلاق والسنن التي عليها الكفار». (كتاب الإيمان/٤٣).

وما يقال في لفظ الكفر يقال في لفظ الشرك والظلم والنفاق، وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا قال فيه: «باب ظلم دون ظلم»، ثم ساق قول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ونصه: «لما نزلت الآية: « ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمۡ يَلۡبِسُوٓاْ إِيمَٰنَهُم بِظُلۡمٍ » (الأنعام:٨٢). قال أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم: أينا لم يظلم؟ فأنزل الله: « إِنَّ ٱلشِّرۡكَ لَظُلۡمٌ عَظِيمٞ » (لقمان:١٣)». (البخاري: ٣٢).

قال ابن حجر في شرحه: «باب ظلم دون ظلم» (دون) يحتمل أن تكون بمعنى غير، أي أنواع الظلم متغايرة، أو بمعنى الأدنى، أي: بعضها أخف من بعض، وهو أظهر في مقصود المصنف، وأن المعاصي لا تسمى شركا، وأن من لم يشرك بالله شيئًا فله الأمن وهو مهتد». (فتح الباري ١/٨٧-٨٩).

ثم إن الكفر الأكبر يكون كفر نوع لا ينزل على الأعيان إلا بقيام الشروط وانتفاء الموانع والتكفير حكم قضائي لا إفتائي لا يقوم به أحاد الناس ولكن يقوم به الراسخون في العلم من أهل الحل والعقد من اهل السنة والجماعة ، لاصغار طلبة العلم.

وفقنا الله لما يحبه ويرضاه.

حوار مع الرئيس العام لأنصار السنة المحمدية

الدكتور عبد الله شاكر الجنيدي

بشأن الأحداث الجارية

في مطلع عام هجري يهل علينا، ولا يعلم ما فيه إلاَّ علامُ الغيوب، ندعو الله العلي القدير أن يكون عام خير ووحدة ونصر وتمكين لمصرنا الغالية، ولأمتنا الإسلامية، التي تعيش فترة زمنية من أحلك فتراتها.

وكذلك تمر مصرنا الغالية بمنعطفات خطيرة، تجعل الإنسان منا يترقب ما حوله، متابعًا الأحداث والمنعطفات والتقلبات، فكان لزامًا علينا أن نستجلي الكثير من هذه الأمور في حوار يتسم بالشفافية، وذلك من خلال حديثنا عن الكثير مما يدور بخلد كل مسلم، أو من كان يتوق إلى التعرف على آراء ومواقف جمعية أنصار السنة، نستجلي الحقائق، ونتعرف على المواقف والآراء من خلال حوار مع المسئول الأول عن جمعية أنصار السنة المحمدية، الرئيس العام الدكتور عبد الله شاكر الجنيدي، حيث دار الحوار التالي:

إعداد: رئيس التحرير
جمال سعد حاتم

أنصار السنة جماعة دعوية ليس لها علاقة بالأمور السياسية

التوحيد: نعلم من خلال تصريحاتكم وكتاباتكم المختلفة أنكم دائمًا ترددون أنكم جمعية دعوية لا علاقة لها بالممارسات السياسية، فهل ما زلتم تتبنون هذا الاتجاه مع ما ترونه من متغيرات على الساحة؟

يقول الرئيس العام: إنَّ ما أعلناه وتفضلتم بذكره من بيان (أننا جماعة دعوية لا علاقة لنا بالممارسات السياسية) إنما هو منهج وأصل، عليه قامت دعوتنا المباركة، منذ نشأتها من قرابة المائة عام، وعليه فهذا الأصل بالنسبة لنا ثابت من الثوابت، لذا ظلت الجماعة على هذا المنهج لم تغيره منذ نشأتها مع مرور المجتمع من حولها بمتغيرات شتى، وليس أدل على ذلك ما حدث من حولنا من أحداث في الفترة الزمنية الماضية، والتي عشناها جميعًا، وتهافت الناس فيها على تعاطي السياسة وممارستها، وظللنا نحن على منهجنا الذي أعلناه مرارًا، لم نغيره، بل وأكدنا على هذا المنهج في هذه الفترة فأعلنا أننا لن نؤسس حزبًا، ولن ندعم أحزابا، فنحن جمعية دعوية، وهذا الوقت (كما تعلمون) كانت ممارسة السياسة كلاً للجميع، حتى سمعنا عن نوادر في أناس شاركوا فيها لم يخطر ببالنا أن لأمثالهم بها صلة.

إذن: فهذا الأصل نتبناه عن قناعة حتى نكاد نقول: إنه من ضرورات دعوتنا.

التحليل والتحريم حق خالص لله عز وجل

التوحيد: وهل بعدكم عن الممارسات السياسية، وإصراركم على هذا يعني أنكم تحرمونها؟

ويرد الدكتور عبد الله شاكر قائلاً: أولاً: لفظ (تحرمونها) يحتاج إلى تعديل، فيمكنك أن تقول سائلاً: (تفتون بتحريمها؟) فنحن لا نحرم ولا نحلل، ولا يحق لنا، ولا لغيرنا أن يفعل ذلك، فالتحليل والتحريم إنما هو تشريع وهو حق خالص لله عز وجل، أما الفتوى فهي مجرد إظهار لحكم الله عز وجل الذي حكم به،

أنصار السنة جماعة دعوية لا علاقة لها بالممارسات السياسية،
وهذا منهج قامت عليه الجماعة منذ ما يقرب من مائة عام.

لذا فإن هذا المفتي إنما هو عبد لله عز وجل، ينقل شرع الله للناس، لذا فله ضوابط وأصول يتحرك من خلالها، فلا يحل له أن يفتي في دين الله إلا بعلم، وبما يوافق أصول وضوابط الفتوى عند أهل العلم، فالمفتي الذي يبلغ الناس الحلال والحرام، إنما يبلغ عن الله عز وجل، لأجل هذا قد وسم الإمام ابن القيم من يقوم بهذه المهمة أنه يوقع عن الله في الأرض، فعنون لكتاب له بعنوان «إعلام الموقعين عن رب العالمين»، ومن هنا فإننا نناشد من يتعرضون للفتيا أن يراعوا تقوى الله عز وجل، وذلك لا شك بعد توفر شروط الفتوى فيمن يفتي، عن تحصيل علمي مؤهل بشروطها، وأسبابها، ومراعاة التخصص، وإجازة أهل العلم لهم بذلك.

ثانيا: ليس معنى أننا لا نمارس السياسة أننا نرى تحريمها أبدًا، ولكن باختصار شديد نحن دعاة إلى الله، والداعي لابد أن يكون على مسافة واحدة من الجميع، ليتمكن من إيصال الدعوة إليهم، ولا شك أن السياسة تحمل التباين والاختلاف في وجهات النظر، فضلاً عن أنها متغيرة، وبالتالي فإن الذي يمارس السياسة من الدعاة لا شك أنه سيخسر شريحة كبيرة من الناس تختلف معه في وجهة النظر السياسية، فتصعب عليه مهمة دعوتهم، والتي هى مهمته الأساسية، هذا فضلاً عن أننا لا نحسن السياسة، والذي لا يحسن الشيء أفضل له أن يبتعد عنه، حتى لا يضر نفسه ويضر غيره.

نرفض الإرهاب بشتى صوره
وندعو للاستقرار والمحافظة على الأمن

التوحيد: تذكرون أنكم لا علاقة لكم بالممارسات السياسية، ثم إننا نجد لكم من آن لآخر بعض البيانات التي تدينون فيها الإرهاب بشتى صوره، وأنكم لن تسمحوا بمحاولات هدم مصر، أليس هذا نوعًا من الممارسات السياسية؟

ويجيب الدكتور عبد الله: أولاً: أود أن أوضح العبارة التي تفضلتم بذكرها وهي قولنا: (لن نسمح بمحاولات هدم مصر) هي عبارة نشرت على لسان الأمين العام في بعض الجرائد، ولا يفهم من معناها أن لنا من السلطة التي بها نقاوم هذه الجماعات الإرهابية، ولكن معناها أننا سنقاومهم دعويًا ببيان الحق للناس، وأن الذي يستغل الدين استغلالاً خاطئًا لهدم البلد، وتقويض أمنها واستقرارها، هو في الحقيقة مخالف لدين الله مخالفة صريحة، معتد على حق الإنسان في أمنه، فكيف يتسنى للعبدَ أن يعبد الله عز وجل وهو غير آمن؟!

ثانيا: إن ديننا وشريعتنا الغراء جاءت لتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فأينما وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله، لذا جاءت الشريعة لتحافظ للناس على دينهم، وأنفسهم، وعقولهم، وأعراضهم، وأموالهم، فكل محارب لهذا مانع له، هو في الحقيقة محارب للدين.

ومما سبق يتبين أن إدانتنا للإرهاب بشتى صوره، ومواطنه، ودعوتنا للاستقرار، والمحافظة على الأمن بما يتناسب مع إمكانياتنا كدعاة، هي من صميم الدين الذي نتعبد به لربنا، والذي يحكم جميع مناحي الحياة، وهذا لا علاقة له بالممارسات السياسية من قريب ولا من بعيد.

ليس لنا مرشحون لمجلس الشعب

التوحيد: إذن: ومن قبيل منهجكم هذا في المحافظة على مصلحة البلد هل ستشاركون في

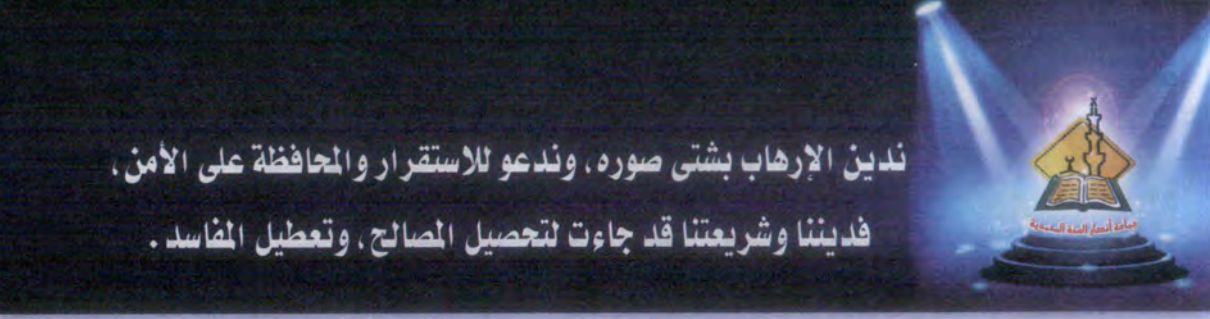

الانتخابات البرلمانية من خلال مرشحين من أنصار السنة؟

ويرد فضيلته بنبرة تخلو من الهدوء قائلاً قولاً واحدًا لا يحتمل التفكير والتأويل: لا ليس لنا مرشحون لمجلس الشعب، ولا نسمح بذلك، والسبب بسيط جدًا؛ هو أننا نرى أن هذه المشاركة هي ممارسة سياسية، تتعارض مع طريقنا الذي اخترناه، وهو الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والتي هي على مسافة واحدة من الجميع، وهذا لا يعني السلبية، فنحن سنشارك، ولكن سنشارك كمواطنين، لنا حق اختيار القوي الأمين، الذي نتوسم فيه العمل لتحقيق مصالح البلاد والعباد.

الممارسات السياسية تعطل الدعوة إلى الله عز وجل

التوحيد: ذكرتم أنكم لا مرشحين لكم، ولا تسمحون بذلك، ولكن الواقع قد يتعارض مع كلامكم، فقد سمعنا عن مرشح أو أكثر على المقاعد الفردية ممن ينتسبون لأنصار السنة فما تعليقكم؟

ويجيب الدكتور عبد الله: نحن جمعية دعوية تدعو إلى الكتاب والسنة، والدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والوصول إلى تحقيق الحكمة من الخلق من عبودية الإنسان لربه بأيسر الطرق، تأسيًا بالنبي صلى الله عليه وسلم، لذا فقد منَّ الله علينا واقتنع بمنهجنا كثير من الناس، بل وصاروا دعاة إلى الله بنفس هذا المنهج الذي اقتنعوا به، فصار انتسابهم لأنصار السنة من هذه الوجهة، ولكن مثلهم مثل أي مواطن قد يرى من نفسه القدرة على خدمة بلده في هذا المجال، ونحن في هذا لا نجرمه، ولكن ننصحه بالإعراض عن هذا؛ لأن ذلك يتعارض مع منهجنا الدعوي، فإن استجاب فبها ونعمت، وإلا كان عمله شخصيًا يتحمل مسئوليته وحده، ولا يعبر عن منهجنا، حتى لا ينسب إلى الجمعية أي ممارسات سياسية تعطل دعوتها إلى الله.

لتشابه الأحداث، نتكلم أحيانًا، ونسكت أخرى

التوحيد: بعض الناس يقولون أنكم تتكلمون وتخرجون ببيانات في بعض المواقف، ثم تسكتون عن مواقف أخرى ينتظرون كلامكم فيها، فينكرون عليكم هذا، فما تعليقكم؟

يقول الدكتور عبد الله: أولاً: نحن دعاة إلى الله، ومن مهام الداعية بيان صحيح الدين للناس تجاه ما يحدث حوله من أحداث، لكن ليست هذه هي كل مهام الداعية، بل هي جزء بسيط من مهامه، فمهمته الأولى هي كما ذكرت سالفًا، هي دعوة الناس العامة الشاملة للعمل بالكتاب الكريم وصحيح السنة النبوية المطهرة، بالحكمة والموعظة الحسنة، وسلوك أيسر الطرق لتحقيق ذلك، لذا فإننا ننشط أحيانًا في بعض المواقف، فنبين للناس موقف الإسلام تجاه بعض الأحداث، ثم ننصرف بعد ذلك إلى مهامنا الدعوية الأساسية، ولو أننا تتبعنا كل الأحداث ما استطعنا أن نمارس مهامنا الدعوية؛ لأنك كما تعلم وترى تجد أن الأحداث يومية ومتلاحقة، لكننا نحرص عندما نبين من آن لآخر أن يكون بياننا عامًا شاملاً صالحًا لما حدث، أو ما قد يحدث، على قدر استطاعتنا؛ لأن ما نتكلم به هو دين، والدين قواعده وأصوله ثابتة ولتشابه الأحداث ومراعاة باقي المهام نتكلم أحيانا ونسكت أخرى.

التوحيد: البعض يفسر سكوتكم هذا نوع من

أنصار السنة ليس لها مرشحون لمجلس الشعب، ولا ندعم أحدًا بعينه، ونحن نرى هذه المشاركة هي ممارسة سياسية تتعارض مع طريقنا الدعوي الذي اخترناه.

أنواع التخاذل، فما تعليقكم؟

نقول لهم: نحن نحبكم في الله، ونحمد غيرتكم على دينكم، لكن الغيرة والمشاعر التي لا تنضبط بشرع الله عز وجل، قد تنحرف بصاحبها إلى طريق لا يعلمه إلاَّ الله، فشرع الله بعيد عن الانفعالات الحماسية، والمشاعر غير المنضبطة، وما ضل من ضل من الفرق إلا بمثل هذا.

إذن.. نقول لهؤلاء الأفاضل: قلوبنا مفتوحة للجميع، واسمعوا منا، لا تسمعوا عنا، ونحن نرحب بكم في أي وقت، وشرع الله يسعنا جميعًا، والحمد لله، ونحن إذ ننصح لغيرنا فإننا نشكر ونرحب بمن يسدي إلينا النصح، أو يهدي لنا عيبًا، لكن شريطة أن يكون تحت مظلة الشرع.

التوحيد: تذكرون أنكم جمعية دعوية مهمتكم الدعوة إلى الله، ألا ترون أن هذه المهمة قد تعطلت بسيطرة الأوقاف على كل مساجد البلد ؟

يقول الدكتور عبد الله: بداية نحن نتحفظ على كلمة «سيطرة»؛ لأن الأوقاف لا تسيطر على بيوت الله، ولا يسيطر عليها أحد، ولكن وزارة الأوقاف تشرف على المساجد، وهذا دورها ووظيفتها، وهي الأمانة التي سيسألها الله عنها، ونحن كجمعية دعوية تحتسب دورها الدعوي إلى الله، نرى أننا مكملون لهم في دورهم، فهم الجهة المكلفة رسميًا بهذا الدور من قبل الدولة، ونحن الجهة الأهلية المتطوعة المصرح لها رسميًا من جهة الدولة، بالمعاونة والتعاون مع وزارة الأوقاف في القيام بهذا الدور للوصول في النهاية إلى تحقيق المصلحة الشرعية على أكمل وجه.

التعاون بين أنصار السنة وبين الأزهر والأوقاف قائم على مر العصور

التوحيد: ذكرتم أنكم مصرح لكم رسميًا من الدولة بمعاونة وزارة الأوقاف في مهمتها الدعوية، فكيف يتفق هذا مع ضوابط الوزارة وشروطها، فيمن يمارس مهام الدعوة إلى الله؟ ألا ترون فيها عائقًا لكم، وحائلاً دون تحقيق هذا التعاون؟

يقول الدكتور عبد الله: إن المطلع على تاريخ الجماعة منذ نشأتها يجد هذا التعاون والاتفاق والتسديد بين الجمعية وبين وزارة الأوقاف المعنيين بالدعوة إلى الله، بل وقبل ذلك مع شيوخ الأزهر الشريف وعلمائه، الذين هم شيوخ الأوقاف والدعاة إلى الله في جميع أنحاء بلدنا العامر، وليس أدل على ذلك في وقتنا الحاضر من تصريح وزارة الأوقاف، بل وترحيبها بفتح معاهد إعداد الدعاة الخاصة بالجمعية في جميع أنحاء الجمهورية تحت إشرافها ومساعدتها لنا.

التحذير من أصحاب الأفكار المنحرفة

التوحيد: انتقالاً من دوركم داخل البلد إلى دوركم الدعوي، وتاريخكم على المستوى الإسلامي عمومًا، ألا ترون أن إنكاركم للأفكار والعمليات الإرهابية في بياناتكم المختلفة والتي اطلعنا عليها لا يتناسب مع دوركم العلمي والدعوي على مستوى العالم الإسلامي؟

يقول الدكتور عبد الله شاكر: نحن كجمعية دعوية نشأت وترعرعت وكتب الله لها القبول والانتشار في رحم دولتنا المصرية، نرى أن من منهجها في الدعوة إلى الله أننا كما ندعو الناس إلى توحيد ربهم عز وجل، واتباع سنة نبيهم صلى الله عليه وسلم، فإننا ندعوهم

الغيرة والمشاعر التي لا تنضبط بشرع الله عز وجل، قد تنحرف بصاحبها الى طريق لا يعلمه إلا الله، فشرع الله بعيد عن الانفعالات الحماسية والمشاعر غير المضبطة.

للمحافظة على بلدهم، لذا كانت عنايتنا ببلدنا التي نحيا نحن عليها، وتحيا هي في قلوبنا، لكننا ومع هذا لا ننسى ولا نهمل- على قدر وسعنا- التحذير من مثل هذه الأعمال الإرهابية، والأفكار المنحرفة، التي قد تقع في أي قطر من الأقطار الإسلامية لأننا نرى أن إنكار مثل هذه الأفكار، والتحذير منها هو واجب شرعي، ومطلب ديني، ومن الثوابت المنهجية العقدية التي لا تتغير ولا ترتبط بقطر دون آخر، ومن أمثلة: ذلك ما كتبناه مرارًا عن هؤلاء الذين سموا أنفسهم بالدواعش، الذين أباحوا لأنفسهم قتل المسلمين وغيرهم، واستباحوا أموالهم، وأعراضهم، وديارهم، أي دين دعاهم إلى هذا، كما كتبنا وحذرنا مرارًا من الأفكار التكفيرية، والتي هي الأصل الذي أوصل مثل هؤلاء، ومن على شاكلتهم، إلى ما وصلوا إليه من انحراف وضلال، لكننا مع هذه الكتابات والصيحات التحذيرية نعترف بتقصيرنا وضعفنا، والله نسأل أن يعيننا على القيام بما يحبه ويرضاه.

علاقتنا بفروعنا تتسم بالترابط المبني على المحبة في الله ووحدة المنهج

التوحيد: ذكرتم أنكم اتفقتم مع وزارة الأوقاف على استمرار معاهدكم الدعوية في جميع فروعكم، وهل في ظل هذه المتغيرات لا زالت سيطرتكم على الفروع مستمرة؟

يقول الدكتور عبد الله شاكر: نحن لا زلنا نتحفظ على كلمة سيطرة، فنحن لا سيطرة لنا على أحد، ولكن يمكنك أن تقول: علاقتكم بالفروع تحافظون عليها؟ عندئذ أقول: علاقتنا بأبنائنا وإخواننا في الفروع هي علاقة تتسم بالترابط المبني على الحب في الله، وذلك لأنها مبنية على الاعتقاد، وعلى المنهج الواحد، المنبثق من الكتاب والسنة، ونحن في ظل هذه المتغيرات التي نجدها على الساحة لا نرى من علاقتنا بفروعنا إلا أنها تزداد ترابطًا يومًا بعد يوم، ذلك لشعورهم ولتأكدهم كل يوم من صحة المنهج الذي اعتقدوه، ودعوا إليه وليس أدل على ذلك من التواصل المستمر مع كل الفروع والمشورات التي تأتي من إخواننا وزياراتنا لهم أو زيارتهم لنا بين الحين والآخر، على قدر المستطاع.

مجلة التوحيد لسان حال أنصار السنة ومنبرها الدعوي والإعلامي

التوحيد: والآن وبخصوص مجلة التوحيد، يشاع أن الأعداد الشهرية التي تطبعونها تراجعت عما كانت عليه من قبل، وبعض الناس يرجع هذا التراجع إلى موقف وزارة الأوقاف مؤخرًا من المجلة، وبعضهم يرجعه إلى تقاعس بعض الفروع عن توزيع المجلة، فما تعليقكم على هذا؟

يقول د. عبد الله: أولاً: مجلة التوحيد هي لسان حال الجمعية، وهي من أهم منابر الدعوة إلى الله، التي منَّ الله علينا بها، والحمد لله الصحافة الإسلامية في أنصار السنة عمرها الآن يزيد على التسعين عامًا في بلدنا العامر، ومنهجها واضح، وهو منهج الجماعة الذي أشرنا إليه في غير ما موطن.

ثانيًا: هذه المجلة الرسمية نحرص على إيصالها إلى أغلب الجهات الرسمية في بلدنا (شهريًا) ساعد على ذلك ما نجده من ترحيب، وتشجيع، وثناء من هذه الجهات على مجلة التوحيد وعلى منهجها، إذن فدعوى أن لوزارة الأوقاف موقفًا، كان سببًا أو عائقًا أمام انتشار المجلة غير صحيح، ونجد من إخواننا في الوزارة كل ترحيب وثناء، فجزاهم الله خيرًا.

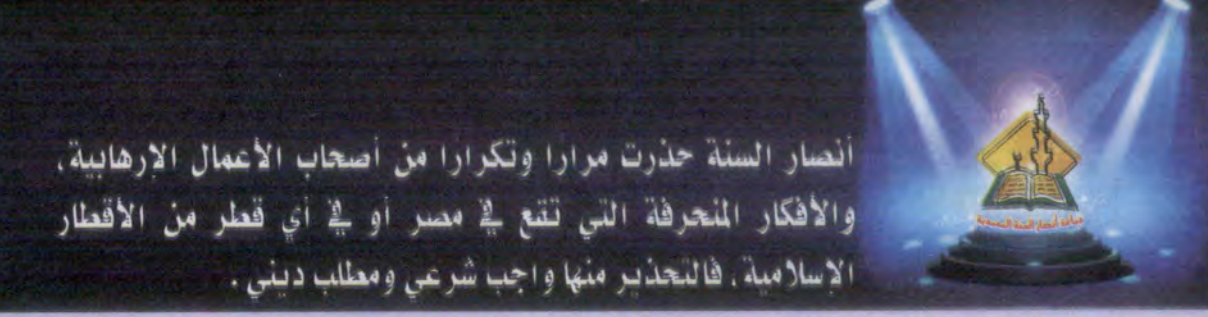

ثالثًا: إن مثل هذه الشائعات التي ذكرتموها في صدر سؤالكم، والتي تتردد على ألسنة البعض تجعلني أقول: إن المجتمع المصري كما أنه مجتمع مملوء بالنفوس الطيبة المحبة للخير والاستقرار، فقد تجد فيه بعض النفوس التي تحب وتسعى لنشر الشائعات، وما ذكرته أنت هو من قبيل ذلك، فالله نسأل لنا ولهم الهداية والرشاد.

رابعًا: أما فيما يخص الفروع، فإخواننا في الفروع بَشَرٌ، يعتريهم ما يعتري البشر، من النشاط أحيانًا، وعكسه أحيانًا أخرى، ولعلك تلحظ الأحداث المتسارعة والمستجدات على الساحة في المجتمع الذي نعيشه، فلعل هذا كان سببًا في تقاعس بعضهم عن نشاطهم الذي كانوا عليه من قبل، في توزيعهم لمجلتهم، لسان حالهم المعبرة عن منهجهم، ونحن إذ نذكر ذلك فإننا نذكر إخواننا وأبناءنا في الفروع بأهمية عودتهم إلى سابق نشاطهم، من نشر هذه المجلة الدعوية الهامة، التي تدعو إلى توحيد الله عز وجل، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، والدعوة إلى ذلك بالحكمة والموعظة الحسنة، واتباع أيسر الطرق لتحقيق ذلك، والتي هي- ولا شك- بمثابة الصدقة الجارية، نسأل الله العظيم أن يجعلها في ميزان حسناتنا جميعًا.

خامسًا (وأخيرًا): فبشأن تراجع الأعداد عمومًا، فهذا ليس في مجلة التوحيد فحسب، بل هي ظاهرة في الصحف المقروءة عمومًا، حيث إن كثيرًا من الصحف العالمية المشهورة قد توقفت، وأغلقت أبوابها في ظل تأثير عوامل كثيرة، وتقنيات حديثة، حدَّتْ كثيرًا من إقبال الناس على المطبوعات المقروءة، إضافة إلى الأحداث المتلاحقة في أنحاء العالم، والتي جعلت الناس يهتمون أكثر بالتقنيات الإعلامية الأخرى السريعة في نقل الأحداث، ولم يعد هناك وقت كاف للقراءة، بل أصبح العزوف سمة لكثير من النَّاس في العالم أجمع، إلا من رحم ربي، ومع هذا فإن استقراءنا للأحوال، وتتبعنا لهذه الظاهرة في الصحف عامة نجد أن مجلتنا هي من أفضل المجلات وأوسعها انتشارًا، ولا أتجرأ فأقول: أفضلها على الإطلاق، ومع هذا وذاك فإننا بحمد الله بصدد إعداد خطة قوية شاملة، لإعادة المجلة لسابق عهدها وأفضل إن شاء الله، ونسأل الله التوفيق للجميع لما يحبه ويرضاه.

نصيحة توجهونها إلى شعب مصر (عامة) وأنصار السنة (خاصة)

التوحيد: وأخيرًا: هل من نصيحة للشعب المصري (عامة) وأبنائكم في أنصار السنة (خاصة)؟

يقول الدكتور عبد الله: نصيحتنا للمسلمين (عمومًا) هي تقوى الله عز وجل، فهي وصية الله للأولين والآخرين، قال تعالى: «وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ» (النساء:١٣١).

وللشعب المصري (خاصة): المحافظة على بلدكم، واستقرارها، فمناخ الاستقرار هو مناخ لازم لعبادة الله عز وجل، وعمارة الأرض، ففضل بلدكم عليكم كبير.

وأخيرًا: لأبناء الجمعية: حافظوا على جمعيتكم الدعوية، التي منَّ الله عليكم بها، وعلى منهجها المبارك، الذي أسسها عليه علماؤها الأوائل، وعلى مجلتكم التي هي لسان حال أنصار السنة والناطقة باسمها.

نسأل الله العظيم رب العرش الكريم أن يرزقنا وإياكم البر والتقوى، وأن يحفظ بلادنا، وبلاد المسلمين من كل مكروه وسوء، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

باب العقيدة

ألقاب أهل السنة عند خصومهم من أهل البدع

الحلقة الأولى

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فمن الأساليب التي استعملها أهل البدع والضلال- في القديم والحديث- لجذب الناس إليهم، وتحبيبهم فيما هم عليه من البدع، وصرفهم وتنفيرهم عن معتقد أهل السنة والجماعة، هو وصفهم لأهل السنة بأشياء ينفر عنها كثير من الناس؛ لأنهم يريدون أن ينفِّروا الناس عن أهل السنة، فيأتون بألفاظ يشنعوا بها عليهم، ويتكلمون بحقهم فيها.

إعداد/ د. عبد الله شاكر

فالمبتدعة يُسيئون إلى أهل السنة في القديم والحديث:

يقول الإمام أحمد رحمه الله تبارك وتعالى: وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء شنيعة قبيحة يسمون بها أهل السنة، يريدون بذلك الطعن عليهم، والإزراء بهم عند السفهاء والجهال، فكل فرقة أو طائفة مخالفة لأهل السنة والجماعة، تذكرهم بلقب أو أكثر، وربما اتفقت طائفتان أو أكثر على نبز أهل السنة ببعض الألقاب، حتى أصبح من أبرز علامات أهل البدع وأظهر ما يميزهم، هو الوقيعة في أهل السنة. قال الإمام ابن أبي حاتم رحمه الله تبارك وتعالى: وعلامة أهل البدع الوقيعة في أهل الأثر.

وقد عد العلماء (كشيخ الإسلام ابن تيمية) وقوع هذا الأمر- ألا وهو نبز أهل البدع والأهواء لأهل السنة والجماعة بالألقاب الشنيعة- من علامات الإرث الصحيح، والمتابعة التامة، فإن مشركي مكة الذين كذبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعرضوا عن الهُدى والنور الذي جاء به، كانوا يسمون النبي صلى الله عليه وسلم بأسماء قبيحة، فتارة كانوا يسمونه مجنونًا، وتارة ساحرًا، وتارة شاعرًا، وتارة كاهنًا، وتارة مفتريًا، وهو بأبي وأمي صلى الله عليه وسلم كان بريئًا من هذه الأسماء والألقاب. (الفتوى الحموية).

ولم يسلم أتباعه صلى الله عليه وسلم من بعده من هذه المسبة والافتراء والبُهتان، فكل مَن سار على هديه واستن بسنته، نال نصيبًا من الرمي بالباطل، والاتهام بشتى التهم والألقاب الشنيعة من أتباع أهل الباطل والأهواء، ويصرف الله الأذى عن أتباع نبيه صلى الله عليه وسلم ويحميهم من كل تهمة باطلة، وافتراء جائر، ولقب قبيح، فأهل السنة ليس لهم إلا اسم واحدٌ، وهذه الأوصاف لا تنطبق عليهم، لا من قريب ولا من بعيد، وإنما هي أوصاف مخالفيهم من أهل الفُرقة والأهواء، وقديمًا قيل: «رَمتني بدائها وانسلت».

فَكُلُّ مَنْ نَبَزَ أَهْلَ السُّنَّةِ بِاسْمٍ أَوْ لَقَبٍ، وَكَانَ هَذَا اللَّقَبُ بَاطِلاً، فَهُوَ أَحَقُّ بِهِ وَأَوْلَى.

نبز أهل السنة بلقب مشبهة والرد عليهم:

هذا اللقب- لقب مشبهة- من أشنع الألقاب التي نبزهم بها مخالفوهم في باب الأسماء والصفات من الجهمية، والمعتزلة، والأشاعرة،

وذلك أن أهل السنة والأثر يصفون الله عز وجل بكل ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تعطيل، ولا تأويل، ولا تشبيه، ولا تمثيل.

فأما الجهمية: فإن من أهم وأقدم ما وصل إلينا من النصوص التي تُشير إلى نبزهم أهل السنة والأثر بلقب مشبهة، ما رواه الإمام اللالكائي عن إسحاق بن راهويه، قال: علامة جهم وأصحابه دعواهم على أهل الجماعة وما أولعوا به من الكذب، أنهم مشبهة. وما أورده الإمام أحمد بن حنبل في كتابه القيم: (الرد على الجهمية والزنادقة) عن الجهمي: أن الجهم زعَمَ أن مَن وصف الله بشيء مما وصف الله- تبارك وتعالى- به نفسه في كتابه، أو حَدَّث عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم كان كافرًا، وكان من المشبهة. وكذلك قول أبي حاتم: وعلامة الجهمية تسميتهم أهل السنة مشبهة.

وأما المعتزلة: فنجد أن المعتزلة هم ورثة الجهمية، ورثوا عنهم القول بنفي الصفات، ونبز مَن أثبتها بالتشبيه، فهذا أبو موسى المردار- والذي يعد من علماء المعتزلة، ومقدميهم- ينقل عنه الخياط: أنه كان يزعم أن من قال: إن الله يُرى بالأبصار على أي وجه قال، فمشبه لله بخلقه، والمشبه عنده كافر، ومعلوم: أن من أصول مذهب أهل السنة إثبات رؤية المؤمنين ربهم في الجنة.

والإمام الرازي-رحمه الله- يذكر أن جماعة من المعتزلة ينسبون التشبيه إلى الإمام أحمد بن حنبل، وإسحاق بن راهويه، ويحيى بن معين، قال: وهذا خطأ منهم، فإنهم منزَّهون في اعتقادهم عن التشبيه والتعطيل.

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيمية-رحمه الله- : أن جُلَّ المعتزلة تُدخل عامة الأئمة وذلك من أمثال مالك وأصحابه، والثوري وأصحابه، والأوزاعي وأصحابه، والشافعي وأحمد وأصحابه، وإسحاق بن راهويه، وأبي عبيد وغيرهم، في قسم المشبهة.

> أهل السنة والجماعة من أشد الناس مَقْتًا للمشبهة والتشبيه؛ بما قام في قلوبهم من جلال الخالق وعظمته، مع إثباتهم صفات الجلال والكمال التي ثبتت لله عز وجل.

وأما الأشاعرة: فإنهم لما كانوا لا يثبتون إلا بعض الصفات، ويؤولون البعض الآخر، فقد نبزوا من يثبت لله جميع ما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم بالتشبيه.

فقد أثبت الأشاعرة سبع صفات فقط سموها صفات المعاني- وهي الصفات التي دل عليها العقل والشرع كما قالوا- وذلك مثل: الحياة، والعلم، والقدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام. أما الصفات الخبرية التي لا مجال للعقل فيها، والتي دلنا عليها النقل الصحيح عن الله عز وجل أو عن رسوله صلى الله عليه وسلم فهم يؤولونها، وبالتالي لمَّا أوَّلوها وصرَفوها عن ظاهرها المراد واللائق بها لله عز وجل زعموا، أن من أطلقها في جانب رب العالمين (سبحانه)، يكون مشبهًا.

بعض أقوال الأشاعرة الذين وصفوا أهل السنة بهذا اللقب- ألا وهو مشبهة- يقول الجويني-رحمه الله-:

واعلموا أن مذهب أهل الحق: أن الرب سبحانه يتقدس عن شغل حيز، ويتنزه عن الاختصاص بجهة، هكذا قال. وذهب المشبهة: إلى أنه- تعالى عن قولهم- مختص بجهة فوق.

ومن خلال هذا العرض لهذه النماذج من أقوال الجهمية والمعتزلة والأشاعرة التي وصموا فيها أهل السنة بالتشبيه؛ يتضح لنا أن القوم يعدُّون إثبات الصفات التي وصف الله بها نفسه، أو وصفها بها رسوله صلى الله عليه وسلم تشبيهًا، وكل من أثبتها مشبهًا، والحق: أن أهل السنة لم يزيدوا في هذا الباب على أن قالوا كما قال ربهم وخالقهم عن نفسه: «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ » (الشورى: ١١). فأثبتوا لله تعالى على ضَوْء هذه الآية ما أثبت الله عز وجل لنفسه من الصفات، مع قطعهم بنفي المشابهة والمماثلة بين صفاته وبين صفات

المخلوقات، فهم يصفون الله بما وصف به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

والمشبهة هم الذين يمثلون صفاته بصفات خلقه، كما قال الإمام إسحاق بن راهويه-رحمه الله-: إنما يكون التشبيه لو قيل: يد كيد، وسمع كسمع، أما إذا قيل: يد وسمع تليق بعظمة الباري وجلاله من غير مشابهة أو مماثلة ليد وسمع المخلوق اللائق بعجزه وافتقاره، فلا يعد ذلك تشبيهًا.

وأهل السنة والجماعة من أشد الناس مَقْتًا للمشبهة والتشبيه؛ بما قام في قلوبهم من جلال الخالق وعظمته، مع إثباتهم صفات الجلال والكمال التي ثبتت لله عز وجل.

وقال إسحاق بن راهويه: مَن وصف الله فشبه صفاته بصفات أحد من خلق الله، فهو كافر بالله العظيم.

نبز أهل السنة بلقب مجبرة، والرد عليهم:

هذا اللقب- ألا وهو لقب مجبرة- نبزهم به المعتزلة والقدرية؛ وذلك لأن أهل السنة والأثر يقولون: كل شيء بقدر الله، وأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وهذا القول عند القدرية جبر؛ لأنهم يرون أن أفعال العباد هم المُحدثون لها، وليست مخلوقةً لله، وأن أفعال الشر من الكفر والمعاصي تقع من العبد، وهو المحدث لها من غير إرادة من الله، ولا تقدير لها، وكل من قال: إنها تقع بإرادة الله وقضائه وقدره، عَدُّوه جَبْريًّا.

وقد نقل الخياط المعتزلي عن أبي موسى المردار: أن مَن وصف الله بأنه يقضي المعاصي على عباده، ويقدِّرها، فَمُسَفِّهٌ لله في فعله، والمسفه لله كافرٌ به، والشاك في قول المشبهة والمجبر فلا يدري أحق قوله أم باطل؟ كافر بالله أيضًا!

تأملوا إلى أين وصل هذا الرجل، حيث عَدَّ الشك في قول المشبه كذلك كفرًا أيضًا، وأن الشاك كافر.

> أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء قبيحة شنيعة يسمون بها أهل السنة، يريدون بذلك الطعن عليهم، والإزراء بهم عند السفهاء والجهال.

نبز أهل السنة بألقاب: نقصانية، مخالفة، شُكَّاك:

هذه الألقاب الثلاثة أيضًا- المبتدعة- نبزوا بها أهل السنة والجماعة؛ وذلك لأن المرجئة- على اختلاف طوائفهم- يَرَوْنَ: أن الأعمال لا تدخل في مسمى الإيمان، إذ الإيمان عند بعضهم المعرفة فقط، وعند فريق آخر النطق باللسان فقط، وعند أمثلهم هو اعتقاد بالقلب ونطقٌ باللسان.

وقد قالوا: إن الإيمان لا يزيد ولا ينقص، ولا يجوز الاستثناء فيه، فليس للمرء أن يقول: أنا مؤمن إن شاء الله، أو مؤمن أرجو، وإنما يقطع بإيمانه، وعدوا مَن أدخل الأعمال في مسمى الإيمان، وقال بزيادته ونقصانه، وجوَّزَ الاستثناء فيه، مخالفًا، ومن ثم نبزوا أهل السنة والجماعة بالألقاب القبيحة، فقالوا: نقصانية؛ لقولهم: إن الإيمان يزيد وينقص.

تأمل كيف اشتقوا أسماء باطلة، وأطلقوها على أهل السنة والجماعة من معتقد صحيح عليه أهل السنة والجماعة، فأهل السنة لما قالوا: إن الإيمان يزيد وينقص سموهم نقصانية؛ لأنهم لا يقولون بزيادة الإيمان ولا نقصانه، وسموهم أيضًا مخالفة؛ لأنهم خالفوا مذهبهم، وقالوا عنهم أيضًا بأنهم شُكاك؛ لأنهم يستثنون في الإيمان.

وقد روى الإمام اللالكائي عن أبي حاتم، أنه قال: وعلامة المرجئة تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية.

وقال الإمام أحمد في كتاب (السنة): وقد أحدث أهل الأهواء والبدع والخلاف أسماء قبيحة شنيعة يسمون بها أهل السنة، يريدون بذلك الطعن عليهم، والإزراء بهم عند السفهاء والجُهال، فأما المرجئة فيسمون أهل السنة شُكاكًا.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

التذكير بخطورة التكفير

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي جعلنا خير أمة، والصلاة والسلام على من ختم الله به النبوة، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي طرفًا من المسائل المهمة التي تحصّن شباب الأمة من الدعوات التكفيرية المخالفة لمنهج أهل السنة، ووصلاً لما انقطع من حديث في اللقاء الماضي، أقول وبالله التوفيق:

خامسًا: قد يجتمع في الرجل شعب من الإيمان وأخرى من الكفر ولا يخرج بذلك من الإسلام، وهذه من المسلمات عند أهل السنة والجماعة خلافاً للخوارج الذين جعلوا الإيمان شيئًا واحدًا، وقالوا بأنه لا يتجزأ، وإذا ذهب بعضه ذهب كله، وهذا يصادم الأحاديث النبوية المقررة، لتفاضل أهل الإيمان في الأعمال، وقد أخرج البخاري ومسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يدخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، ثم يقول الله تعالى: أخرجوا من كان في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان، فيخرجون منها قد اسودوا فيلقون في نهر الحيا- أو الحياة- شك مالك، فينبتون كما تنبت الحبة في جانب السيل، ألم تروا أنها صفراء ملتوية». (البخاري: ٢٢، ومسلم: ١٨٤).

وهذا يدل على أن الإيمان لا يزول بزوال بعض الأعمال، لأنهم دخلوا النار ثم أخرجوا منها بما معهم من إيمان وأدخلوا الجنة، يقول ابن تيمية رحمه الله: «وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان، وشعبة من شعب النفاق، وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون الكفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال ابن عباس وغيره: كفر دون كفر. وهذا قول عامة السلف، وهو الذي نص عليه أحمد وغيره ممن قال في السارق، والشارب، ونحوهم ممن قال فيه النبي صلى الله عليه وسلم: « إنه ليس بمؤمن » أنه يقال لهم: مسلمون لا مؤمنون، واستدلوا بالقرآن والسنة على نفي اسم الإيمان مع إثبات اسم الإسلام، وبأن الرجل قد يكون مسلماً ومعه كفر لا ينقل عن الملة، بل كفر دون كفر، كما قال ابن عباس وأصحابه في قوله: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ » (المائدة: ٤٤) قالوا: كفر لا ينقل عن الملة، وكفر دون

كفر، وفسق دون فسق، وظلم دون ظلم». (مجموع الفتاوى ٧/ ٣٥٠، ٣٥١).

ويقرر ابن القيم رحمه الله هذا المعلم الواضح عند أهل السنة فيقول: «وكذلك الكفر ذو أصل وشعب، فكما أن شعب الإيمان إيمان، فشعب الكفر كفر، والحياء شعبة من شعب الإيمان، وقلة الحياء شعبة من شعب الكفر، والصدق شعبة من شعب الإيمان، والكذب شعبة من شعب الكفر، والصلاة والزكاة والحج والصيام من شعب الإيمان وتركها من شعب الكفر، والحكم بما أنزل الله من شعب الإيمان، والحكم بغير ما أنزل الله من شعب الكفر، والمعاصي كلها من شعب الكفر، كما أن الطاعات كلها من شعب الإيمان». (كتاب الصلاة وحكم تاركها ص٣٤).

وهذا يدل بوضوح على أن الشخص الواحد قد تجتمع فيه هذه الخصال غير أن المؤمن إذا قام به شيء من ذلك لا يخرج بهذه المعاصي عن الإيمان، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا في صحيحه، قال فيه: «باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، ثم ساق حديث أبي ذر رضي الله عنه وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له لما عيره بأمه: «أعيرته بأمه؟ إنك امرؤ فيك جاهلية». (البخاري: ٢٢)، قال ابن حجر في شرحه: «ذكرت قصة أبي ذر ليستدل بها على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج عن الإيمان بها، سواء كانت من الصغائر أم الكبائر». (فتح الباري ١/ ٨٥).

وعلى ما سبق أقول: إن من قامت به شعبة من شعب الكفر وهو مؤمن فلا يزول عنه الإسلام؛ لأن أصل الإيمان باقٍ عنده مع ما ارتكب من الموبقات، ويقرر ذلك ابنُ القيم فيقول رحمه الله: «وها هنا أصل آخر وهو أنه لا يلزم من قيام شعبة من شعب الإيمان بالعبد أن يسمى مؤمنا وإن كان ما قام به إيمانا، ولا من قيام شعبة من شعب الكفر به أن يسمى كافرا وإن كان ما قام به كفرا، كما أنه لا يلزم من قيام جزء من أجزاء العلم به أن يسمى عالما ولا من معرفة بعض مسائل الفقه

> **من المسلَّمات عند أهل السنة والجماعة أنه قد يجتمع في الرجل شُعَب من الإيمان وأخرى من الكفر.**

والطب أن يسمى فقيهاً ولا طبيبا، ولا يمنع ذلك أن تسمى شعبة الإيمان إيمانًا وشعبة النفاق نفاقا وشعبة الكفر كفرا. وقد يطلق عليه الفعل كقوله: «فمن تركها فقد كفر». «ومن حلف بغير الله فقد كفر»، وقوله: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر ومن حلف بغير الله فقد كفر». رواه الحاكم في صحيحه بهذا اللفظ.

فمن صدر منه خلة من خلال الكفر فلا يستحق اسم كافر على الإطلاق، وكذا يقال لمن ارتكب محرما إنه فعل فسوقا وإنه فسق بذلك المحرم ولا يلزمه اسم فاسق إلا بغلبة ذلك عليه». (الصلاة وحكم تاركها، ص٩٤).

وأختم هذه النقطة بكلام دقيق للإمام أبي عبد القاسم بن سلام رحمه الله، وهو يدفع كل شبهة ويزيل كل إشكال ذكره بعد سياقه لقول الله تعالى: «وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ» (المائدة:٤٤)، وقوله: «أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ» (المائدة:٥٠): «تأويله عند أهل التفسير أن مَن حكم بغير ما أنزل الله وهو على ملة الإسلام كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أن أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون.

وهكذا قوله: «ثلاثة من أمر الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء». مثله الحديث الذي يروى عن جرير وأبي البختري الطائي: «ثلاثة من سنة الجاهلية: النياحة، وصنعة الطعام، وأن تبيت المرأة في أهل الميت من غيرهم». ليس وجوه هذه الآثار كلها من الذنوب: أن راكبها يكون جاهلاً ولا كافراً ولا منافقاً وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤدٍ لفرائضه، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار محرمة منهيّ عنها في الكتاب وفي السنة ليتحاماها المسلمون ويتجنّبوها فلا يتشبهوا بشيء من أخلاقهم ولا شرائعهم. ولقد رُوي في بعض الحديث: «إن السواد خضاب الكفار».

فهل يكون لأحد أن يقول إنه يكفر من أجل الخضاب؟!

وكذلك حديثه في المرأة إذا استعطرت ثم مرت بقوم يُوجد ريحُها «أنها زانية» فهل يكون هذا على الزنا الذي تجب فيه الحدود؟ ومثله قوله: «المستبان شيطانان يتهاتران ويتكاذبان». فهل يُفهم أنه أراد الشيطانين الذين هم أولاد إبليس؟! إنما هذا كله على ما أعلمتك من الأفعال والأخلاق والسنن.

وكذلك كل ما كان فيه ذكر كفر أو شرك لأهل القبلة فهو عندنا على هذا، ولا يجب اسم الكفر والشرك الذي تزول به أحكام الإسلام ويلحق صاحبه بردة إلا بكلمة الكفر خاصة دون غيرها وبذلك جاءت الآثار مفسرة». (انظر: كتابه الإيمان ومعالمه وسننه واستكماله ودرجاته ص٩٥-٩٧ ضمن مجموع رسائل بتحقيق الشيخ الألباني).

> كما أن شُعب الإيمان إيمانٌ فشُعب الكفر كفرٌ فالحياء من شعب الإيمان وقلته من شُعب الكفر.

وبناءً على ما سبق تقريره، فقد ذهب أهل السنة إلى أن للإيمان أصولاً وفروعًا، وأن أصله لا يزول بزوال فرعه، وأنه مركب من شعب وأجزاء، وأن الناس يتفاوتون فيه ومراتبهم مختلفة، فمنهم السابقون والمقتصدون والظالمون لأنفسهم، ويصور ابن تيمية رحمه الله مذهبهم في ذلك فيقول: «وَقَالَ المُفَسِّرُونَ لِمَذْهَبِهِمْ: إنَّ لَهُ أُصُولاً وَفُرُوعًا وَهُوَ مُشْتَمِلٌ عَلَى أَرْكَانٍ وَوَاجِبَاتٍ - لَيْسَتْ بِأَرْكَانٍ - وَمُسْتَحَبَّاتٍ ؛ بِمَنْزِلَةِ اسْمِ الحَجِّ وَالصَّلاةِ وَغَيْرِهِمَا مِنَ العِبَادَاتِ ؛ فَإِنَّ اسْمَ الحَجِّ يَتَنَاوَلُ كُلَّ مَا يُشْرَعُ فِيهِ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ مِثْلِ الإِحْرَامِ وَتَرْكِ مَحْظُوراتِهِ، وَالوُقُوفِ بِعَرَفَةَ وَمُزْدَلِفَةَ وَمِنَى، وَالطَّوَافِ بِبَيْتِ اللَّهِ الحَرَامِ وَبَيْنَ الجَبَلَيْنِ المُكْتَنِفَيْنِ بِهِ وَهُمَا الصَّفَا وَالمَرْوَةُ. ثُمَّ الحَجُّ مَعَ هَذَا مُشْتَمِلٌ عَلَى أَرْكَانٍ مَتَى تُرِكَتْ لَمْ يَصِحَّ الحَجُّ كَالوُقُوفِ بِعَرَفَةَ. وَعَلَى تَرْكٍ مَحْظُورٍ مَتَى فَعَلَهُ فَسَدَ الحَجُّ وَهُوَ الوَطْءُ وَمُشْتَمِلٌ عَلَى وَاجِبَاتٍ: مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ يَأْثَمُ بِتَرْكِهَا عَمْدًا، وَيَجِبُ مَعَ تَرْكِهَا - لِعُذْرٍ أَوْ غَيْرِهِ - الجُبْرَانُ بِدَمٍ كَالإِحْرَامِ مِنَ المَوَاقِيتِ المَكَانِيَّةِ وَالجَمْعِ بَيْنَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ بِعَرَفَةَ وَكَرَمْيِ الجِمَارِ، وَنَحْوِ ذَلِكَ وَكَتَرْكِ اللِّبَاسِ المُعْتَادِ وَالتَّطَيُّبِ وَالصَّيْدِ وَغَيْرِ ذَلِكَ.

وَمُشْتَمِلٌ عَلَى مُسْتَحَبَّاتٍ مِنْ فِعْلٍ وَتَرْكٍ يَكْمُلُ الحَجُّ بِهَا ؛ فَلا يَأْثَمُ بِتَرْكِهَا وَلا يَجِبُ دَمٌ مِثْلِ رَفْعِ الصَّوْتِ بِالإِهْلالِ وَالإِكْثَارِ مِنْهُ.. لَكِنْ مَنْ أَتَى بِالمُسْتَحَبِّ فَهُوَ أَكْمَلُ مِنْهُ وَأَتَمُّ مِنْهُ حَجًّا وَهُوَ سَابِقٌ مُقَرَّبٌ وَمَنْ تَرَكَ المَأْمُورَ وَفَعَلَ المَحْظُورَ لَكِنَّهُ أَتَى بِرُكْنِهِ وَتَرَكَ مُفْسِدَهُ فَهُوَ حَاجٌّ حَجًّا نَاقِصًا يُثَابُ عَلَى مَا فَعَلَهُ مِنَ الحَجِّ وَيُعَاقَبُ عَلَى مَا تَرَكَهُ، وَقَدْ سَقَطَ عَنْهُ أَصْلُ الفَرْضِ بِذَلِكَ مَعَ عُقُوبَتِهِ عَلَى مَا تَرَكَهُ، وَمَنْ أَخَلَّ بِرُكْنِ الحَجِّ أَوْ فِعْلٍ مُفْسِدٍ فَحَجُّهُ فَاسِدٌ لا يَسْقُطُ بِهِ فَرْضُ؛ بَلْ عَلَيْهِ إِعَادَتُهُ... وَالفُقَهَاءُ يَقْسِمُونَ الوُضُوءَ وَالغُسْلَ إِلَى كَامِلٍ وَمُجْزِئٍ ؛ لَكِنْ يُرِيدُونَ بِالكَامِلِ مَا أَتَى بِمَفْرُوضِهِ وَمَسْنُونِهِ وَبِالمُجْزِئِ مَا اقْتَصَرَ عَلَى وَاجِبِهِ. فَهَذَا فِي « الأَعْمَالِ المَشْرُوعَةِ » . وَكَذَلِكَ فِي « الأَعْيَانِ المَشْهُودَةِ » فَإِنَّ الشَّجَرَةَ مَثَلاً اسْمٌ لِمَجْمُوعِ الجِذْعِ وَالوَرَقِ وَالأَغْصَانِ وَهِيَ بَعْدَ ذَهَابِ الوَرَقِ شَجَرَةٌ وَبَعْدَ ذَهَابِ الأَغْصَانِ شَجَرَةٌ ؛ لَكِنْ كَامِلَةٌ وَنَاقِصَةٌ فَلْيُفْعَلْ مِثْلُ ذَلِكَ فِي مُسَمَّى الإِيمَانِ وَالدِّينِ». (مجموع الفتاوى ١٢/٤٧٢- ٤٧٤).

سادسًا: التفريق بين التكفير المطلق وتكفير المعين:

التكفير المطلق: هو إطلاق لفظ الكفر على ما يناقض الإسلام ويناقضه، وإطلاق القول كذلك على فاعله، وأما التكفير المعين: فهو إنزال هذه الأحكام وإطلاقها على الفرد أو المجموعة التي قام بها شيء من نواقض الإسلام، ويجب أن يُعلم أن التكفير المطلق والذي يقال فيه مثلاً: من فعل كذا فهو كافر، أو ملعون، أو غير ذلك من ألفاظ عنه لا يستلزم حمله على المعين الذي قام به شيء من ذلك حتى تحقق فيه الشروط وتنتفي الموانع، لا فرق في ذلك بين الأصول والفروع. (مجموع الفتاوى ١٠/٣٧٢).

ومما يؤكد صحة هذا المنهج ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم في لعنه لشارب الخمر، ولما لعن شخص معين شارب الخمر أمامه نهى عن لعنه عليه الصلاة والسلام، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رجلاً كان على عهد النبي صلى الله عليه وسلم كان اسمه عبد الله، وكان يلقب حمارًا، وكان يُضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد جلده في الشراب، فأتي به يومًا فأمر به فجُلد، فقال رجل من القوم: اللهم العنه، ما أكثر ما يؤتى به، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تلعنوه، فوالله ما علمت أنه يحب الله ورسوله». وفي رواية أبي هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تكونوا عون الشيطان على

أخيكم». (البخاري: ٦٧٨٠، ٦٧٨١).

فالنبي صلى الله عليه وسلم نهى عن لعن هذا المعين مع شربه للخمر، مع إطلاقه لعن شارب الخمر، وما ذاك إلا لما قام به من محبة الله ورسوله، فدل ذلك على أن الإطلاق العام لا يستلزم الإطلاق الخاص، وهذا أمر مطرد في نصوص الوعيد عند أهل السنة والجماعة.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «إن التكفير العام كالوعيد العام يجب القول بائتلافه وعمومه، أما الحكم على المعين بأنه كافر، أو مشهود له بالنار، فهذا يقف على الدليل المعين، فإن الحكم يقف على ثبوت شروطه وانتفاء موانعه، ومما ينبغي أن يعلم في هذا الموضع أن الشريعة قد تأمرنا بإقامة الحد على شخص في الدنيا، إما بقتل أو جلد أو غير ذلك، ويكون في الآخرة غير معذب، مثل قتال البغاة والمتأولين مع بقائهم على العدالة، ومثل إقامة الحد على من تاب بعد القدرة عليه توبة صحيحة، فإنا نقيم الحد عليه مع ذلك، كما أقامه النبي صلى الله عليه وسلم على ماعز بن مالك وعلى الغامدية، مع قوله: «لقد تاب توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له»» (مجموع الفتاوى ٤٩٨/١٢).

ويقول ابن أبي العز: «إن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفي ما أثبته الرسول صلى الله عليه وسلم أو إثبات ما نفاه، أو الأمر بما نهى عنه، أو النهي عما أمر به، يقال فيها الحق، ويثبت لها الوعيد الذي دلت عليه النصوص.. وأما أعظم البغي أن يشهد على معين أن الله لا يغفر له ولا يرحمه بل يخلده في النار، فإن هذا حكم الكافر بعد الموت. ولهذا ذكر أبو داود في سننه في كتاب الأدب: « باب النهي عن البغي». وذكر فيه عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين، فكان أحدهما يذنب، والآخر مجتهد في العبادة، فكان لا يزال المجتهد يرى الآخر على الذنب، فيقول: أقصر، فوجده يومًا على ذنب، فقال له: أقصر. فقال: خلني وربي، أبعثت علي رقيبًا؟ فقال: والله لا يغفر الله لك، أو لا يدخلك (الله) الجنة، فقبض أرواحهما، فاجتمعا عند رب العالمين، فقال لهذا المجتهد: أكنت بي عالمًا؟ أو كنت على ما في يدي قادرًا؟ وقال للمذنب: اذهب فادخل الجنة برحمتي، وقال للآخر: اذهبوا به إلى النار. وقال أبو هريرة: (والذي نفسي بيده، لتكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته». (شرح الطحاوية ٤٣٦/٢).

> لم يكفر الإمام أحمد أعيان الجهمية مع ما لاقاه منهم من أذى وضرب وسجن، بل دعا لهم.

وقد طبق إمام السلف هذا المنهج، فالإمام أحمد رحمه الله أوذي من الجهمية المعطلة وضُرب وسُجن، وكان يطلق القول بتكفير الجهمية، ومع ذلك لم يكفر أعيانهم، بل دعا لهم وللأئمة الذين كانوا يحملونه على القول بخلق القرآن، وفي ذلك يقول ابن تيمية رحمه الله: «ومع أن أحمد لم يكفر أعيان الجهمية، ولا كل من قال «إنه جهمي كفر» ، ولا كل من وافق الجهمية في بعض بدعهم، بل صلى خلف الجهمية الذين دعوا إلى قولهم، وامتحنوا الناس وعاقبوا من لم يوافقهم بالعقوبات الغليظة، لم يكفرهم أحمد وأمثاله، بل كان يعتقد إيمانهم وإمامتهم ويدعو لهم، ويرى الائتمام بهم في الصلوات خلفهم، والحج والغزو معهم، والمنع من الخروج عليهم ما يراه لأمثالهم من الأئمة، وينكر ما أحدثوا من القول الباطل الذي هو كفر عظيم، وإن لم يعلموا أنه كفر، وكان ينكره ويجاهدهم على رده بحسب الإمكان، فيجمع بين طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم في إظهار السنة والدين، وإنكار بدع الجهمية الملحدين، وبين رعاية حقوق المؤمنين من الأئمة والأمة، وإن كانوا جهالا مبتدعين وظلمة فاسقين». (مجموع الفتاوى ٥٠٧، ٥٠٨).

قلت: رحم الله هؤلاء الأئمة الأعلام الذين علموا الحق وبه كانوا ينطقون ويعملون، ويا ليت سفهاء الأحلام اليوم يتعلمون منهم فيكفون عن إطلاق ألفاظ التكفير والتبديع دون بينة.

والله الموفق والمستعان ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

ألقاب أهل السنة عند خصومهم من أهل البدع

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد تناولنا في العدد الماضي بعض الألقاب التي أطلقها خصوم أهل السنة عليهم حقدًا وجهلاً، وفي هذا العدد نذكر باقي هذه الألقاب وكيف تعامل أهل السنة مع هذه الاتهامات المغرضة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

نبز أهل السنة بألقاب: ناصبة، وعامة، وجمهور، والرد عليهم:

هذه الألقاب أيضًا من الألقاب الشنيعة التي رماهم بها الرافضة، وهذه الألقاب يطلقونها - أي: لقب ناصبة بالذات - على كل مَن قَدَّم أبا بكر وعمر وعثمان على علي رضي الله عنهم في الخلافة والفضل.

وعند الرافضة: كل من لم يبغض أبا بكر وعمر رضي الله عنهما فقد أبغض عليًّا؛ لأنه لا ولاء لعلي إلا بالبراءة منهما، ثم جعلوا كل من أحب أبا بكر وعمر ناصبيًّا. ويبرز صاحب كتاب (الزينة): وجهًا آخر لإطلاق لقب ناصبي، فيقول: أوردت الشيعة في قراءتهم: أن جعفر بن محمد رضي الله عنه قرأ الآية التي في قوله: «أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ» (الشرح: ١) قرأ خاتمتها، بقوله: «فإذا فرغت فانصب» بكسر الصاد، وقالوا: إذا فرغت من إكمال الشريعة، فانصب لهم عليًّا إمامًا! فقالت الشيعة: لما أمر الله عز وجل بذلك نصب النبي صلى الله عليه وسلم عليًّا، وأشار إليه، وأهَّله للإمامة، وقال: «اللهم وال مَن والاه، وعاد من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله». فمن نازعه في الإمامة ودَعَا إلى مخالفته ونصب إمامًا بإزائه غيره، فقد ناصب رسول الله صلى الله عليه وسلم وآله العَداءَ؛ لأنه نصَّب عليًّا، وهذا نصب غيره، وخذل عليًّا وعاداه، وترك نصرته، وصار مع عدوه حربًا عليه، فهو مناصب؛ لأنه ناصب النبيَّ صلى الله عليه وسلم.

قال الإمام الطحاوي رحمه الله في «عقيدته»: ونحب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نفرِّط في حب أحد منهم، ولا نتبرأ من أحد منهم، ونبغض مَن يبغضهم،

وبغير الخير يذكرهم، ولا نذكرهم إلا بخير، وحبهم دين وإيمان وإحسان، وبغضهم كفر ونفاق وطغيانٌ.

فَقَوْمٌ هذا اعتقادهم في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بما فيهم آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم أيصح بعد ذلك أن يُرموا بالنصب ومعاداة آل البيت؟ هؤلاء الصحابة الكرام، وأئمة أهل السنة عمومًا الذين يحبون أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويثنون عليهم، ويترضون عليهم، ويعرفون لهم حقهم، ولا يقعون في واحد منهم بحال.

والرافضة هم الذين ناصبوا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم العداءَ، بل وقالوا بكفرهم وارتدادهم بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم عَدَا قلة منهم تُعد على الأصابع.

هؤلاء الرافضة كفروا سائر أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ولم ينج من تكفيرهم إلا النذر اليسير جدًا، فكيف بعد ذلك يقولون في قوم ترضَّوْا عن جميع الأصحاب، وأحبوا جميع الأصحاب، يقولون عنهم بأنهم نواصب أو ناصبة، أو يبغضون آل بيت النبي صلى الله عليه وسلم إن هذا والله لهو الباطل بعينه.

أيضًا من الألقاب: العامة والجمهور، والعامة خلاف الخاصة، وهذا اللقب فرض الرافضة إطلاقه على أهل السنة، فيجعلون أنفسهم الخاصة للمؤمنين، ويعدون أهل السنة عامة، لا خَلاقَ لهم، بل هم عندهم: كُفَّارٌ، ونَجَسٌ، لا تَحِلُّ ذبائحُهم، وتُستباحُ دماؤُهم، وأموالُهم.

وهذه بعض نصوص القوم من كتبهم، توضح في جلاء إطلاقهم لقب العامة على أهل السنة:

نقل الخنساري في كتاب: (روضات الجنات) عن صاحب: (معالم العلماء) أنه قال في ترجمة أبي نُعيم: الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهاني «عامي» إلا أنه له منقبة الطاهرين، ومرتبة الطيبين. كما نقل عن محمد حسين الخاتون أبادي قوله: وممن اطلعت على تشيعه من مشاهير علماء «العامة»، هو الحافظ أبو نعيم، وهو يريد بقوله: «عامي» و«عامة»: أنه من أهل السنة.

ويقول الدكتور الصباغ: ولو أردنا أن نناقش القائلين بهذه التسمية، ونسألهم عن مسوغات إطلاق مثل هذا اللقب على مَن كان متبعًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأعياهم الجواب، والحق: أن هذه التسمية بهم ألصق؛ لأن العامي هو الذي يُعطِّل عقله، ويصدق كل ما يقال له، ولو كان مما يصادم الحس كما تجد في أقوالهم التي يدعون بها العصمة لغير الأنبياء، وزعمهم أن هناك باطنًا للنصوص الدينية غير ظاهرها، وأن هذا الباطن لا يعرفه إلا أئمتهم، إن هذا وأمثاله من العقائد والسلوك هو الذي يجعل المتصف به جديرًا بأن يدعى عاميًا.

وأما لقب الجمهور، فقد ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -عن الرافضة: أنهم يسمون أهل السنة الجمهور، والجمهور في اللغة: الرمل الكثير المتراكم، وجمهور كل شيء: معظمه، وجمهور الناس: جلهم، والمراد به - أي: بإطلاق لقب الجمهور في اصطلاح الرافضة - عامة الناس، وهم غير الأعيان والمتميزين فيهم، فهو بمعنى العامة عندهم، ومرادف له، فالمراد أيضًا بلقب الجمهور تنقيص قَدْر أهل السنة والجماعة في ذلك، وأن جمهورهم كعامة الناس، ليس عندهم شيء من العلم أو الفقه أو غير ذلك.

إن أهل السنة والجماعة هُم أهلُ العلم والفضل والخير أينما حَلُّوا، وأينما كَانُوا، فنبزهم بالألقاب الشنيعة الباطلة كلفظ: «المشبهة» أو «المجسمة» - مثلًا - أو أنهم يقال عنهم: بأنهم «مجبرة» كما ذكرتْ ذلك القدرية والمعتزلة، أو «نقصانية» و«مخالفة» و«شُكاك» كما ورد ذلك عن المرجئة، أو «ناصبة» و«عامة» و«جمهور» كما ذكرت ذلك الرافضة، كُلُّ هَذَا كَلامٌ بَاطِلٌ.

وهذه الفرق المنحرفة المخالفة لأهل السنة والجماعة، هم أولى وأحق بهذه الألقاب، فهي تليق بهم؛ لأنهم لم ولن يصلوا إلى واحد فقط من أهل السنة والجماعة؛ لما هم عليه من حق وخير وفضل.

نبز أهل السنة بلقب: «حشوية» والرد عليهم:

هذا اللقب من أشنع الألقاب التي نبزهم بها مخالفوهم، وهو بسكون الشين، من الحشو، فيقال: حشوية، وهو أن يودع الشيء وعاءَ

باستقصاء، يقال: حشوته، أحشوه، حشوًا، ويقال: فلان من حشُوة بني فلان، أي: من رذالهم.
وهو في اصطلاح من أطلقه يراد به أحد المعاني الآتية:

الأول: يراد به العامة، الذين هم حشو الناس ورذالتهم وجمهورهم، وهم غير الأعيان والمتميزين، وهم عند الشيعة والروافض: السواد الأعظم من هذه الأمة، كما جاء في (فرق الشيعة) للنوبختي؛ حيث نبز كل من لم يقل بإمامة علي رضي الله عنه بعد النبي صلى الله عليه وسلم بأنه من أهل الحشو.
وفي ذلك يقول: فلما قُتل عليٌّ رضي الله عنه التقت الفرقة التي كانت معه والفرقة التي كانت مع طلحة والزبير وعائشة، رضي الله عنهم أجمعين، فصاروا فرقة واحدة مع معاوية بن أبي سفيان، إلا القليل منهم من شيعته ومن قال بإمامته بعد النبي صلى الله عليه وسلم، وهم السواد الأعظم وأهل الحشو وأتباع الملوك وأعوان كل من غلب، أعني: الذين التقوا مع معاوية.

الثاني: أن هذا اللقب يراد به رواة الأحاديث من غير تمييز لصحيحها من سقيمها. قال ابن الوزير: فإن الحشوية إنما سموا بذلك؛ لأنهم يحشون الأحاديث التي لا أصل لها في الأحاديث المروية عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أي: يدخلونها فيها وليست منها.
ونقل عن صاحب كتاب (ضياء العلوم) قوله: إن الحشوية سموا بذلك؛ لكثرة قبولهم الأخبار من غير إنكار.
وقد بين ابن الوزير براءة أهل الحديث والسنة من هذا اللقب، وهو الصواب حقًّا، أنهم برآء من ذلك؛ ولذلك قال ابن الوزير - رحمه الله -: أكثر عامة المسلمين لا يدرون من الحشوية، ولا يعرفون أن هذه النسبة غير مرضية، ومن كان له أدنى تمييز عرف أن نقاد الحديث وأئمة الأثر هم أعداء الحشوية وأكره الناس لهذه الطائفة الغوية.

الثالث: هو معنى التجسيم، كما نقل التهانوي عن السبكي، أنهم سموا بذلك؛ لأنهم مجسمة، أو هم هم، يعني: هم المجسمة، والجسم حشو.
ونسب ابن القيم رحمه الله لجهلة الجهمية أنهم لقبوا أهل السنة بذلك؛ لأنهم - بزعمهم - جعلوا ربهم حشو هذا الكون؛ بإثباتهم له صفة الفوقية والاستواء وأنه في السماء.
فهذه المعاني الثلاثة أو أحدها، هي المسوغات التي اعتبرها مخالفو أهل السنة وهم ينبزونهم بهذا اللقب الجائر.

نماذج لفرق نبزت أهل السنة بهذا اللقب - أي: لقب الحشوية - وذكر بعض الطوائف والفرق التي رمتهم بذلك:

ومن هذه الفرق المعتزلة: وأول مَن تولى كبر ذلك هم هؤلاء القوم، وقد عُرف عنهم أنهم أدخلوا عقولهم في مسائل الدين، وتكلموا على حسب ما تمليه أهواؤهم فيه، وأول من عُرف أنه تكلم في الإسلام بهذا اللفظ، عمرو بن عبيد.
وعمرو بن عبيد هذا هو رئيس المعتزلة وفقيههم وعابدهم، وقد ذكر كلامًا شديدًا عن الصحابي الجليل عبد الله بن عمر رضي الله عنهما وذلك لما ذُكِرَ له عن ابن عمر شيء يخالف قوله؛ قال: كان ابن عمر حشويًّا.
وقال ابن العماد في ترجمة عمرو بن عبيد هذا: وكانت له جرأة؛ فإنه قال عن ابن عمر: هو حشوي. قال: فانظر هذه الجرأة والافتراء، عامله الله بعدله.
وقد ظل المعتزلة يتوارثون نبز أهل السنة والحديث بلقب الحشوية في مؤلفاتهم ومقالاتهم، فها هو القاضي عبد الجبار، مؤلف أهم مصنفات المعتزلة التي وصلت إلينا بعد كتاب (الانتصار) للخياط، يصم أهل السنة بهذا اللقب كلما وجد فرصة مناسبة لذلك، وقد لقب الأشاعرةُ أيضًا أهل السنة بهذا اللقب؛ لأن الأشاعرة تلقوا هذه التركة عن المعتزلة، وهم يتابعونهم على ما درجوا عليه من نَبْز أهل السنة والأثر بهذا اللقب الجائر، وهذه ثلة من أقوالهم في ذلك:
يقول أبو المعالي الجويني - رحمه الله -: وذهبت الكرامية وبعض الحشوية، إلى أن الباري - تعالى عن قولهم - متحيز مختص بجهة فوق، وقصد بالحشوية: من أثبت الفوقية لله عز وجل وهم أهل السنة والحديث - كما أشار المحقق إلى ذلك في الحاشية - وإن كان أهل السنة والحديث لم ينطقوا بلفظ التحيز والجهة نفيًا ولا إثباتًا - كما هو منهجهم - وإنما أثبتوا لله - تبارك وتعالى - ما

أثبته لنفس من الفوقية.

وهذا الإمام الغزالي - رحمه الله - يجعل من أثبت رؤية الله عز وجل في جهة من الحشوية أيضًا، ولا شك أن رؤية المؤمنين لربهم في الدار الآخرة ثابتة بالقرآن الكريم وبسنة النبي صلى الله عليه وسلم فكيف ينبز من قال بهذه الصفة التي أثبتها رب العالمين سبحانه لنفسه؟!

أيضًا الخوارج لقبوا أهل السنة بهذا اللقب، وقد نسب ذلك إليهم الإمام أحمد بن حنبل - رحمه الله تبارك وتعالى - حيث قال في كتابه (السنة) في معرض حديثه عما أحدثه أهل الأهواء والبدع والخلاف من أسماء شنيعة قبيحة سموا بها أهل السنة، فقال: وأما الخوارج فيسمون أهل السنة نابتة وحشوية.

وللرد على هؤلاء جميعًا نقول:

أولًا: إن هذا اللقب - أي: لقب حشوية - لقب مبتدع ما أنزل الله به من سلطان؛ فليس هو في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا نطق به أحد من سلف الأمة وأئمتها نفيًا ولا إثباتًا؛ فالذم به ذم للناس بأسماء ما أنزل الله بها من سلطان، بل هو من قبيل التنابز بالألقاب المنهي عنه.

ثانيًا: إن الطائفة إنما تتميز باسم رجالها أو بنَعْت أحوالها؛ فالأول كما يقال مثلًا: الجهمية، هذه الجهمية طائفة تميزت باسم رجالها ورجل هذه الطائفة هو الجهم بن صفوان، وقد نسبت الجهمية إليه، والكلابية قيل لهم: «كلابية» نسبة لابن كلاب وهو عبد الله بن سعيد بن قطان بن كلاب. والثاني كما يقال ألا وهو نعت الأحوال الرافضة، يعني: أنهم سموا رافضة لرفضهم إمامة زيد بن علي رضي الله عنه وسميت القدرية قدرية لحالها الذي كانت عليه: ألا وهو قولهم بالقدر وأن الله - تبارك وتعالى - لم يخلق أفعال العباد، والمرجئة سموا مرجئة أيضًا للصفة أو الحالة التي كانوا عليها: ألا وهو قولهم بالإرجاء في الإيمان، أي: تأخير الأعمال وأنها لا تدخل في الإيمان، أما لفظ الحشوية؛ فليس فيه ما يدل على شخص معين ولا على مقالة معينة.

ثالثًا: أنتم نبزتم أهل السنة بهذا اللقب لأنهم - بزعمكم - يروون الأحاديث بلا تمييز ولا إنكار؛ وهذا خلاف الواقع، فإن أهل الحديث والسنة هم الذين اختصوا بالذب عن سنة النبي صلى الله عليه وسلم وهم الذين ميزوا صحيحها من سقيمها، ثم إنكم أيها المخالفون لهم أحق الناس بهذا اللقب؛ لأنكم تستشهدون لمذهبكم بما يؤيده من الأحاديث وإن كان ضعيفًا أو موضوعًا عند أهل الفن؛ ولأنكم تحشون أقوالكم ومصنفاتكم بالكلام الذي لا تعرف صحته بل يعرف بطلانه؛ لمخالفته لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم.

رابعًا: أما معنى التجسيم الذي لَبَّستم أهل السنة بالحشو لأجله؛ فإنه ليس في قول أهل السنة تجسيم؛ لأنهم إنما أثبتوا لله ما أثبته لنفسه، أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم من الصفات مع نفي المشابهة والمماثلة للمخلوقات، ثم إن لفظ التجسيم عندهم من الألفاظ المبتدعة فلم ينطقوا به نفيًا ولا إثباتًا؛ فهذا اللفظ من الألفاظ الحادثة، من الألفاظ التي لم تشرع؛ لأنها لم ترد في الكتاب والسنة، ولم يتكلم بها أحد من أئمة السلف؛ فكيف ينسب إليهم إذًا، أو ينسبون إلى قول أو صفة لم يذهبوا إليها ولم يقولوا بها؟!

خامسًا: ينبغي أن ينظر في الموسومين بهذا الاسم وفي الواسمين لهم به أيهما أحق؟! وهذه مسألة مهمة؛ لأن النظر بتمعن في ذلك نجد أن الواسمين لأهل السنة بهذا الاسم هم أحق الناس به، وقد علم أن هذا الاسم مما اشتهر عن النفاة ممن هم مظنة الزندقة، كما ذكر العلماء كأبي حاتم وغيره أن علامة الزنادقة: تسميتهم لأهل الحديث حشوية.

ويكفي أن نعرف أن أول الواسمين به هو عمرو بن عبيد، زعيم المعتزلة - كما تقدم - وأن أول الموسومين به هو عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه الصحابي الجليل، ثم أحمد بن حنبل إمام أهل السنة والجماعة - رحمة الله تعالى عليه - ونحن إذا عرفنا ذلك نعلم منزلة الواسم والموسوم إذًا.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

التذكير بخطورة التكفير

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه.. وبعدُ:

فقد تحدثت في المقالين السابقين عن ست مسائل تحذر من التكفير أو المسارعة إليه، وأواصل في هذا اللقاء الحديث عن هذا الموضوع، فأقول مستعينًا بالله تعالى سائلاً إياه التوفيق والسداد:

سابعًا: لا بد من تحقق الشروط وانتفاء الموانع لإجراء الأحكام على المخالفين:

لقد وفّق الله أهل السنة إلى التأني والتثبت عند إجراء الأحكام على المكلفين، ولهذا وضعوا هذا الضابط، وهو ضرورة تحقق الشروط وانتفاء الموانع، وكان المقصود من وراء ذلك؛ التحقق من أهلية المكلف، وصلاحيته الشرعية لإجراء الأحكام عليه، وأبدأ هنا بذكر الشروط المعتبرة في هذا الباب، وهي كما يلي:

١- قيام الحجة على الشخص المعين:

قرر أهل السنة والجماعة أن التكفير لا يكون إلا بعد قيام الحجة، فمن لم يبلغه حكم الله في مسألة من المسائل، فلا يترتب عليه حكم فيها؛ لأن التكليف لا يثبت في حق المكلف إلا بعد بلوغه له، وقد دلت نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية على ذلك، ومنه قول الله تعالى: « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (التوبة ١١٥). وقد ذكر الإمام البخاري هذه الآية في الصحيح تحت باب عَنْوَنه بقوله: «باب قتل الخوارج والملحدين بعد إقامة الحجة عليهم»، وقول الله تعالى: « وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًۢا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ » (التوبة ١١٥)، قال العيني رحمه الله في شرحه: «أشار البخاري بهذه الآية الكريمة إلى أن قتال الخوارج والملحدين لا يجب إلا بعد إقامة الحجة عليهم، وإظهار بطلان دلائلهم والدليل عليه هذه الآية، لأنها تدل على أن الله لا يؤاخذ عباده حتى يبين لهم ما يأتون وما يذرون». (عمدة القاري ١٩/٣٦٩).

وهذا ما فهمه أئمة التفسير من هذه الآية؛ فهذا ابن جرير رحمه الله يقول فيها: «يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَقْضِيَ عَلَيْكُمْ فِي

اسْتِغْفَارِكُمْ لِمَوْتَاكُمُ الْمُشْرِكِينَ بِالضَّلَالِ بَعْدَ إِذْ رَزَقَكُمُ الْهِدَايَةَ وَوَفَّقَكُمْ لِلإِيمَانِ بِهِ وَبِرَسُولِهِ، حَتَّى يَتَقَدَّمَ إِلَيْكُمْ بِالنَّهْيِ عَنْهُ فَتَتْرُكُونَ الانْتِهَاءَ عَنْهُ؛ فَأَمَّا قَبْلَ أَنْ يُبَيِّنَ لَكُمْ كَرَاهِيَةَ ذَلِكَ بِالنَّهْيِ عَنْهُ ثُمَّ تَتَعَدَّوا نَهْيَهُ إِلَى مَا نَهَاكُمْ عَنْهُ، فَإِنَّهُ لاَ يَحْكُمُ عَلَيْكُمْ بِالضَّلاَلِ». (تفسير الطبري ٣٨/١١).

> التكفير لا يكون إلا بعد قيام الحجة، فمن لم يبلغه حكم الله في مسألة من المسائل، فلا يترتب عليه حكم فيها؛ لأن التكليف لا يثبت في حق المكلف إلا بعد بلوغه له.

وقال الشيخ رشيد رضا رحمه الله: «أَيْ وَمَا كَانَ مِنْ شَأْنِ اللهِ تَعَالَى فِي حِلْمِهِ وَرَحْمَتِهِ وَلاَ مِنْ سُنَنِهِ فِي خَلْقِهِ الَّتِي هِيَ مَظْهَرُ عَدْلِهِ وَحِكْمَتِهِ أَنْ يَصِفَ قَوْمًا بِالضَّلاَلِ، وَيُجْرِيَ عَلَيْهِمْ أَحْكَامَهُ بِالذَّمِّ وَالْعِقَابِ، بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى الإِيمَانِ، وَشَرَحَ صُدُورَهُمْ بِالإِسْلاَمِ، بِمُجَرَّدِ قَوْلٍ أَوْ عَمَلٍ صَدَرَ عَنْهُمْ بِخَطَأِ الاجْتِهَادِ، حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ مِنَ الأَقْوَالِ وَالأَفْعَالِ، بَيَانًا جَلِيًّا وَاضِحًا لاَ شُبْهَةَ فِيهِ وَلاَ إِشْكَالَ». (تفسير المنار: ٦١/١).

وقال الله تعالى: « مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا » (الإسراء: ١٥)، وقد بينت الآية أن من سنن الله تعالى المبنية على الحكم البالغة ألا يعذب أحدًا إلا بعد إقامة الحجة الرسالية عليه.

قال ابن كثير: «إخبار عن عدله تعالى، وأنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه بإرسال الرسول إليه». (تفسير ابن كثير ٤٢/٣). ولقد أفاد وأجاد في تفسير هذه الآية العلامة محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله، ومما قال فيها: «ظاهرُ هذه الآية الكريمة: أنَّ الله جلَّ وعلا لا يُعذِّبُ أحدًا من خلقه لا في الدُّنيا ولا في الآخرة. حتَّى يبعثَ إليه رسولاً يُنذِرُه ويُحذِّرُه، فيُعصَى ذلك الرَّسولُ، ويستمرُّ على الكفر والمعصية بعد الإنذار والإعذار.

وقد أوضح جلَّ وعلا هذا المعنى في آيات كثيرة، كقوله تعالى: « رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ »(النساء:١٦٥)، فصرَّح في هذه الآية الكريمة بأنْ لا بُدَّ أنْ يقطعَ حُجَّةَ كلِّ أحد بإرسال الرُّسل، مُبشِّرين مَنْ أطاعهم بالجنَّة، ومُنذِرين مَنْ عصاهم النَّار.

وهذه الحُجَّة التي أوضح هنا قطعها بإرسال الرُّسل مُبشِّرين ومُنذِرين، بيَّنها في آخر سورة طه بقوله: (وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ) (طه: ١٣٤).

وأشار لها في سورة القصص بقوله: (وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ) (القصص: ٤٧)، وقوله جلَّ وعلا: (ذَٰلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَٰفِلُونَ) (الأنعام: ١٣١)، وقوله: (يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ) الآية (المائدة: ١٩)، وكقوله: (وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُوا۟ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ ۚ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ) الآية (الأنعام: ١٥٥- ١٥٧)، إلى غير ذلك من الآيات.

ويوضح ما دلت عليه هذه الآيات المذكورة وأمثالها في القرآن العظيم من أن الله جلَّ وعلا لا يعذب أحدًا إلا بعد الإنذار والإعذار على ألسنة الرسل عليهم الصلاة والسلام، تصريحه جلَّ وعلا في آيات كثيرة: " بأن لم يدخل أحدًا النار إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل، فمن ذلك قوله جلَّ وعلا: «كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ » (الملك: ٨-٩).

ومعلومٌ أنَّ قوله جلَّ وعلا: «كُلَّمَا أُلْقِيَ فيها فَوْجٌ يَعُمُّ جميعَ الأفواج المُلْقين في النَّار».

(أضواء البيان ٣/٤٧٢، ٤٧٣).

وقول الله تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا» (النساء ١١٥). ففي هذه الآية وعيد شديد لمن خالف ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم، غير أنها اشترطت أن تقع المخالفة بعد البيان، وأن يقف المخالف على الهداية من خلال الوحي الإلهي، وهذا ما فهمه منها أئمة التفسير. قال ابن كثير: «ومن سلك غير طريق الشريعة التي جاء بها الرسول صلى الله عليه وسلم، فصار في شق والشرع في شق، وذلك عن عَمْد منه بعدما ظهر له الحق وتبين له واتضح له». (تفسير ابن كثير ١/٧٦٢).

> قال الشافعي «لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحدًا قامت عليه الحجة ردُّها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالرواية والفكر».

وقال الشوكاني في تفسيرها: «المشاقة: المعاداة والمخالفة، وتبين الهدى ظهوره، بأن يعلم صحة الرسالة بالبراهين الدالة على ذلك ثم يفعل المخالفة». (فتح القدير ١/٥١٥).

وقد دلت السنة القولية والعملية على ما دَلَّ عليه القرآن، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هَذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ إِلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ». (مسلم: ١٥٣).

قال القرطبي: «وفيه دليل على أن من لم تبلغه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا أمره، لا عقاب عليه ولا مؤاخذة، وهذا كما قال الله تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا» (الإسراء ١٥)، ومن لم تبلغه دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم ولا معجزته فكأنه لم يبعث إليه رسول». (المفهم: ١/٣٦٨).

وقال النووي: «فيه نسخ المِلَل كلها برسالة نبينا صلى الله عليه وسلم، وفي مفهومه دلالة على أن من لم تبلغه دعوة الإسلام فهو معذور، وهذا جارٍ على ما تقدم في الأصول أنه لا حكم فيه قبل ورود الشرع على الصحيح، والله أعلم». (شرح النووي على مسلم ٢/١٨٨).

ومن السنة العملية الموضحة لذلك ما رواه البخاري عن الرُّبيِّع بنت معوِّذ قالت: «جَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَدَخَلَ حِينَ بُنِيَ عَلَيَّ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ لَنَا يَضْرِبْنَ بِالدُّفِّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ إِذْ قَالَتْ إِحْدَاهُنَّ وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي غَدٍ، فَقَالَ: «دَعِي هَذِهِ وَقُولِي بِالَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ». (البخاري: ٥١٤٧).

فهذه الجارية نسبت علم الغيب للنبي صلى الله عليه وسلم وهو صفة لله وحده، ومع هذا لم يحكم عليها بكفر أو غيره بسبب جهلها، واكتفى بنهيها عن ذلك.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: لَمَّا قَدِمَ مُعَاذٌ مِنَ الشَّامِ سَجَدَ لِلنَّبِيِّ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-. فَقَالَ: "مَا هَذَا يَا مُعَاذُ؟ " قَالَ: أَتَيْتُ الشَّامَ فَوَافَقْتُهُمْ يَسْجُدُونَ لأَسَاقِفَتِهِمْ وَبَطَارِقَتِهِمْ، فَوَدِدْتُ فِي نَفْسِي أَنْ نَفْعَلَ ذَلِكَ بِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ- صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: "فَلاَ تَفْعَلُوا، فَإِنِّي لَوْ كُنْتُ آمِرًا أَحَدًا أَنْ يَسْجُدَ لِغَيْرِ اللهِ، لأَمَرْتُ الْمَرْأَةَ أَنْ تَسْجُدَ لِزَوْجِهَا، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لاَ تُؤَدِّي الْمَرْأَةُ حَقَّ رَبِّهَا حَتَّى تُؤَدِّيَ حَقَّ زَوْجِهَا، وَلَوْ سَأَلَهَا نَفْسَهَا، وَهِيَ عَلَى قَتَبٍ، لَمْ تَمْنَعْهُ". (صحيح سنن ابن ماجه: ١/٣١٢).

فهذا معاذ بن جبل سجد للنبي صلى الله عليه وسلم والسجود لغير الله شرك، ومع هذا لم يحكم عليه بشرك أو كفر، وعلى هذا جرى المحققون من علماء أهل السنة، فلم يطلقوا ألفاظ التكفير قبل البيان وبلوغ الحجة وانتفاء الشبهة.

قال يونس بن عبد الأعلى: سمعت الشافعي يقول: قال الشافعي «لله تعالى أسماء وصفات لا يسع أحدًا قامت عليه الحجة ردُّها، فإن خالف بعد ثبوت الحجة عليه فهو كافر، فأما قبل ثبوت الحجة عليه فمعذور بالجهل؛ لأن علم ذلك لا يدرك بالعقل، ولا بالرواية والفكر». قال الألباني: ورواه الهكاري وغيره بإسناد كلهم ثقات. (مختصر

العلو: ١٧٧).

وكلام الشافعي رحمه الله صريح وواضح في اشتراط الحجة، وأن من لم تقم عليه فمعذور بالجهل، وقد قرر هذا أيضًا الإمام ابن تيمية رحمه الله، ونص على أنه لا يجوز تكفير المعين إلا بعد إقامة الحجة الرسالية عليه، وفي هذا يقول: «وإذا عرف هذا فتكفير " المعين " من هؤلاء الجهال وأمثالهم- بحيث يحكم عليه بأنه من الكفار- لا يجوز الإقدام عليه إلا بعد أن تقوم على أحدهم الحجة الرسالية التي يتبين بها أنهم مخالفون للرسل وإن كانت هذه المقالة لا ريب أنها كفر. وهكذا الكلام في تكفير جميع " المعينين " مع أن بعض هذه البدعة أشد من بعض وبعض المبتدعة يكون فيه من الإيمان ما ليس في بعض قال بن تيمية : فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تقام عليه الحجة وتبين له المحجة. ومن ثبت إيمانه بيقين لم يزل ذلك عنه بالشك ؛ بل لا يزول إلا بعد إقامة الحجة وإزالة الشبهة». (مجموع الفتاوى ١٢/ ٥٠٠، ٥٠١).

> قال ابن تيمية : فليس لأحد أن يكفر أحدًا من المسلمين وإن أخطأ وغلط حتى تُقام عليه الحجة وتبين له المحجة.

وبهذا يظهر أن التكليف لا يكون إلا بالشرع، وأنه لا يثبت في حق المكلف التكليف إلا بعد بلوغه له ووقوفه عليه، وهذا هو الراجح من أقوال أهل العلم. يقول ابن تيمية: «وأصل هذا: أن حكم الخطاب ؛هل يثبت في حق المكلف قبل أن يبلغه؟ فيه ثلاثة أقوال في مذهب أحمد وغيره. قيل: يثبت. وقيل: لا يثبت، وقيل: يثبت المبتدأ دون الناسخ. والأظهر أنه لا يجب قضاء شيء من ذلك، ولا يثبت الخطاب إلا بعد البلاغ، لقوله تعالى «لأنذركم به ومن بلغ» وقوله: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا» (الإسراء ١٥) ولقوله: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (النساء:١٦٥)، ومثل هذا في القرآن متعدد، بين سبحانه أنه لا يعاقب أحدًا حتى يبلغه ما جاء به الرسول. ومن علم أن محمدًا رسول الله فآمن بذلك، ولم يعلم كثيرًا مما جاء به لم يعذبه الله على ما لم يبلغه، فإنه إذا لم يعذبه على ترك الإيمان بعد البلوغ، فإنه لا يعذبه على بعض شرائطه إلا بعد البلاغ أولى وأحرى. وهذه سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم المستفيضة عنه في أمثال ذلك. فإنه قد ثبت في الصحاح أن «طائفة من أصحابه ظنوا أن قوله تعالى «الخيط الأبيض من الخيط الأسود» هو الحبل الأبيض من الحبل الأسود، فكان أحدهم يربط في رجله حبلا، ثم يأكل حتى يتبين هذا من هذا فبين النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد بياض النهار، وسواد الليل، ولم يأمرهم بالإعادة». (مجموع الفتاوى ٢٢/ ٤١، ٤٢).

وقد طبَّق ابن تيمية هذا المنهج الذي ذكره في كتبه، فكان من أبعد الناس عن تكفير المسلمين، بل كان يحذر من ذلك وينهى عنه، وفي ذلك يقول: «هذا مع أني دائمًا ومن جالسني يعلم ذلك مني: أني من أعظم الناس نهيًا عن أن يُنسَب معين إلى تكفير وتفسيق ومعصية، إلا إذا علم أنه قد قامت عليه الحجة الرسالية التي من خالفها كان كافرًا تارة وفاسقًا أخرى وعاصيًا أخرى، وإني أقرر أن الله قد غفر لهذه الأمة خطأها: وذلك يعم الخطأ في المسائل الخبرية القولية والمسائل العملية. وما زال السلف يتنازعون في كثير من هذه المسائل ولم يشهد أحد منهم على أحد لا بكفر ولا بفسق ولا معصية... وكنت أبين لهم أنما نقل لهم عن السلف والأئمة من إطلاق القول بتكفير من يقول كذا وكذا فهو أيضًا حق، لكن يجب التفريق بين الإطلاق والتعيين». (مجموع الفتاوى: ٣/ ٢٢٩، ٢٣٠).

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى.

باب العقيدة

وسطية أهل السنة في مسائل الاعتقاد

الحلقة الأولى

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

(أ) تسليم الصحابة للنصوص الواردة في القرآن والسنة، وفهم معانيها:

كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتلون آيات الله -عز وجل- ويتلقون عن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنته المطهرة، ونجزم أنهم كانوا يقرؤون القرآن قراءة تدبر، وأنهم كانوا يفهمون معاني ما يتلون ويقرؤون؛ فيحلون حلاله، ويحرمون حرامه، ويعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه.

وكذلك كان تلقيهم لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تلقي فهم وتدبر؛ لأنهم متعبَدون بالعمل بها كما هم متعبَدون بالقرآن الكريم.

وهذا هو الظن في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم لأنهم كانوا فقهاء علماء يفقهون ما يسمعون، وإذا سمعوا أمرًا قاموا باتباعه وأدوا ما طلب منهم (رضوان الله عليهم)، وإذا أشكل عليهم شيء مما جاء فيها أو خفي عليهم معناه، أو عزب عن أذهانهم فهم المراد منه -أي: من السنة- سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك، فيبين لهم ما نزل إليهم ويوضح ما خفي عليهم.

جاء في (الصحيح): أن عائشة زوج النبي صلى الله عليه وسلم، كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من نُوقش الحساب عذب»، وفي رواية: «مَن حُوسب عُذب». فقلت: أوليس يقول الله تعالى: «فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا» (الانشقاق: ٨).

قالت: فقال: «إنما ذلك العرض؛ ولكن من نوقش الحساب يهلك».

ومع ذلك لم يرد قط من طريق صحيح، ولا سقيم، عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم على اختلاف طبقاتهم وكثرة عددهم أنه سأل رسول الله«صلى الله

عليه وسلم»عن معنى شيء مما وصف الرب سبحانه به نفسه الكريمة في القرآن الكريم أو على لسان نبيه محمد صلى الله عليه وسلم بل كلهم فهموا معنى ذلك، وسكتوا عن الكلام في الصفات، وربما اختلفوا (رضي الله عنهم) في شيء من الأحكام وأمور الحلال والحرام؛ لكنهم لم يختلفوا في أسماء الله وصفاته وإثبات ما ورد منها.

(ب) بيان مذهب «جهم بن صفوان المعطل» في الصفات:

في الحقيقة لم يصل إلينا شيء من كتب الجهمية الأوائل؛ لأننا لم نقف على كتب لهم، وقد فتش كثير من أهل العلم المكتبات سابقًا في عصور متقدمة، وحتى في هذه الأزمان المتأخرة فلم يجدوا شيئًا تركه أصحاب هذا الفكر بأقلامهم؛ غير أننا نستطيع أن نقف على الكثير من أقوالهم، واعتقاداتهم من خلال ما دونه عنهم بعض الأئمة ومؤلفو كتب الفرق والمقالات، وما سجله بعض المؤرخين من مقالاتهم في ثنايا تراجمهم وأخبارهم.

ولا شك أن أهل العلم الصادقين كانوا يتحرون النقل بأمانة؛ فإذا كتبوا، كتبوا بصدق ووعي ودراية، ومما بلغنا من قولهم في ذلك ما ذكره الإمام أحمد بن حنبل (رحمه الله تبارك تعالى) في كتابه: (الرد على الجهمية والزنادقة) حيث قال: وزعم - أي: جهم- أن من وصف الله بشيء مما وصف به نفسه في كتابه، أو حدث عنه رسوله صلى الله عليه وسلم في سنته؛ كان كافرًا وكان من المشبهة، وإذا سألهم الناس عن قول الله: «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» (الشورى: ١١) يقولون: ليس كمثله شيء من الأشياء، وهو تحت الأراضين السبع كما هو على العرش، ولا يخلو منه مكان، ولا يكون في مكان دون مكان، ولم يتكلم ولا يتكلم، ولا ينظر أحد إليه في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة.

هذا ملخص ما ذكره الإمام أحمد عن جهم بن صفوان المعطل.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله تعالى-: ولهذا كان جهم وأمثاله يقولون: إن الله ليس بشيء، وروي أنه قال: لا يسمى باسم يسمى به الخلق؛ فلم يسمه إلا بالخالق القادر؛ لأنه كان جبريًا يرى أن العبد لا قدرة له.

(جـ) بيان مذهب المعتزلة في الأسماء والصفات:

أخذ المعتزلة عن الجهمية القول بنفي الصفات، والقول بخلق القرآن، ونفي رؤية الله «عز وجل» في الآخرة، وقد أشار الإمام أحمد- رحمه الله تعالى- إلى أن بعض أصحاب عمرو بن عبيد أحد رؤوس الاعتزال-كما هو معلوم- قد تبع جهم بن صفوان على مقالته وأخذ عنه، وكان بين جهم وواصل بن عطاء زعيم المعتزلة الأول مكاتبات، وقد أخذ بشر المريسي المعتزلي مقالة الجهم بن صفوان واحتج لها، وجرَّد القول بخلق القرآن وناظر عليه.

يقول ابن المرتضى المعتزلي في بيان ما أجمعت عليه المعتزلة:

وأما ما أجمعوا عليه، فقد أجمعت المعتزلة على أن للعالم محدثًا قديمًا قادرًا عالمًا حيًّا، لا لمعان، ليس بجسم ولا عرض ولا جوهر عينًا واحدًا لا يُدرَك بحاسة، وقوله: لا لمعان معناه: أنهم يثبتون كونه عز وجل قادرًا، عالمًا حيًّا، أسماء مجردة لا تدل على صفات، فهو قادر بلا قدرة، عالم بلا علم، حي بلا حياة.

ويوضح هذا قول الشهرستاني- رحمه الله تعالى-: والذي يعم طائفة المعتزلة من الاعتقاد القول بأن الله تعالى قديم، والقدم أخص وصف ذاته، ونفوا الصفات القديمة أصلاً فقالوا: هو عالم بذاته، حي بذاته، لا بعلم وقدرة وحياة؛ هي صفات قديمة ومعان قائمة به، لأنه لو شاركته الصفات في القدم الذي هو أخص الوصف لشاركته في الإلهية.

(د) بيان مذهب الأشاعرة:

الأشاعرة هم الذين أثبتوا الأسماء وبعض الصفات، ونفوا أو أولوا بعضها الآخر، وهؤلاء قد اتفقوا على إثبات بعض الصفات التي يسمونها صفات المعاني؛ وهي القدرة والإرادة والعلم والحياة والسمع والبصر والكلام، وقالوا: إن العقل والسمع دلا على هذه الصفات ولذلك أثبتناها. وفي ذلك يقول البغدادي- وهو من أئمة المذهب الأشعري-: أجمع أصحابنا على أن قدرة الله عز وجل وعلمه وحياته وإرادته وسمعه وكلامه صفات له أزلية. واتفقوا على وجوب تأويل بعض الصفات ونفيها عن الله عز وجل وذلك مثل صفة المحبة والرضا وغيرها من الصفات الاختيارية التي تقع بمشيئة الله وإرادته.

بيان أقوال أهل التشبيه والتعطيل

وهم الذين شبهوا الخالق بالمخلوق، وجعلوا ما ورد من صفات الله عز وجل مماثلاً ومشابهًا لصفات

المخلوقين، وهذا النوع من التشبيه يكثر في الروافض؛ بل هم أهله؛ فإن من أشهر من قال بهذا النوع من التشبيه منهم: هشام بن الحكم الرافضي، الذي شبه معبوده بالإنسان، وزعم أنه سبعة أشبار بشبر نفسه، وأنه جسم طويل عريض، وروي عنه: أنه كسبيكة الفضة؛ تعالى الله عز وجل عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

ومذهب الرافضة مذهب غريب عجيب؛ فهم كانوا في أول حالهم في الصفات مشبهة يشبهون الله عز وجل بخلقه، ويمثلون صفات رب العالمين بصفات المخلوقين، ثم بعد ذلك انقلبوا على الضد لما تتلمذوا على أيدي المعتزلة قالوا بقولهم وذهبوا إلى مذهبهم، في نفي الصفات عن الله وتأويل صفات رب العالمين تبارك وتعالى، جل في علاه.

ولا شك أن هذا من الانحراف الذي وقع فيه هؤلاء الناس بسبب تركهم للكتاب والسنة، وعدم اعتصامهم بما جاء به الخبر عن الله، وبما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وممن قال بالتشبيه من غير الرافضة: مقاتل بن سليمان المفسر؛ فهذا الإمام العظيم الذي كان إمامًا في التفسير ليس من طائفة الرافضة، ولكنه (رحمه الله تبارك تعالى) وقع في بعض ألوان التشبيه؛ ولهذا قال فيه الإمام أبو حنيفة (رحمه الله تبارك تعالى): أتانا من المشرق رأيان خبيثان جهم معطل، ومقاتل مشبه.

بيان قول أهل السنة والجماعة في أسماء الله وصفاته

أهل السنة والجماعة (رحمهم الله) هم أهل الوسط، هم أهل الاعتدال، وقفوا بين هؤلاء وهؤلاء؛ ولذلك كانوا على الحق والصراط المستقيم؛ ولذلك لابد من بيان مذهبهم في ذلك، والإشارة إلى ما كانوا عليه (رحمهم الله):

فأهل السنة والجماعة كان من أصولهم التي يدينون بها رب العالمين تبارك وتعالى: إثبات ما ورد في كتاب الله عز وجل أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم من أسماء الله وصفاته، لا يفرقون بين أسماء الله وصفاته، ولا بين بعض صفاته (جل في علاه) وبعض آخر؛ بل قولهم في الجميع واحد، لا ينفون ولا يؤولون شيئًا منها، ولا يكيفون أو يشبهون شيئًا منها بصفات المخلوقين.

ولذلك صور الإمام ابن عبد البر (رحمه الله تبارك تعالى): مذهب أهل السنة والحديث - وهم أهل سواء السبيل في صفات الله تبارك وتعالى- فقال: أهل السنة مجمعون على الإقرار بالصفات الواردة كلها في القرآن والسنة، والإيمان بها، وحملها على الحقيقة لا على المجاز؛ إلا أنهم لا يكيفون شيئًا من ذلك، ولا يحدون فيه صفة محصورة، وهذا حق؛ فأهل السنة يثبتون ولكنهم لا يشبهون ولا يكيفون.

وقد قرر شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله تبارك تعالى) قرر مذهبهم تقريرًا شافيًا واضحًا، وهو إمام عالم جليل عرف مذهب السلف ونشره وأذاعه رضي الله عنه وقد صور مذهبهم في ذلك فقال:

مذهب سلف الأمة وأئمتها: أن يوصف الله عز وجل بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف وتمثيل، يثبتون لله ما أثبته لنفسه من الصفات، وينفون عنه مماثلة المخلوقات، يثبتون له صفات الكمال، وينفون عنه ضروب الأمثال، ينزهونه عن النقص والتعطيل، وعن التشبيه والتمثيل، إثبات بلا تشبيه، وتنزيه بلا تعطيل «لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ» (الشورى: ١١) رد على الممثلة، «وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ» (الشورى: ١١) رد على المعطلة، فمذهبهم إذا بين التمثيل والتعطيل دائر على الإثبات والتنزيه.

قواعد أهل السنة في إثبات الأسماء والصفات:

إن أهل السنة والجماعة قعدوا قواعد ساروا عليها في إثبات أسماء الله العلي وصفاته تبارك وتعالى جل في علاه، وكانت هذه القواعد، بفضل الله، عز وجل المستمدة من القرآن وصحيح السنة فيها عصمة لهؤلاء القوم:

القاعدة الأولى:

وهي أعظمها: هو أنه لا يوصف الله عز وجل إلا بما وصف به نفسه، أو وصفه رسوله صلى الله عليه وسلم لا يتجاوز القرآن والحديث.

القاعدة الثانية:

القطع بأنه ليس فيما وصف الله به نفسه، أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم تشبيه لصفاته بصفات خلقه؛ كما تقدم قول نعيم بن حماد: (من شبه الله بخلقه كفر؛ ومن جحد شيئًا

مما وصف الله به نفسه كفر؛ وليس فيما وصف الله به نفسه أو وصفه به رسوله صلى الله عليه وسلم تشبيه أو تمثيل).

القاعدة الثالثة:

قطع الطمع عن إدراك كيفية صفات الله تبارك وتعالى وكل من حاول إدراك ذلك خرج إلى ضرب من التشبيه؛ فالواجب ألا يتطلع الإنسان إلى معرفة كنه الصفة وحقيقتها وما هو للرب تبارك وتعالى في حقيقة الأمر؛ بل عليه أن يفهم الصفة على مقتضى لغة العرب، وكما بينها النبي صلى الله عليه وسلم وكما فهمها الصحابة من النبي صلى الله عليه وسلم.

القاعدة الرابعة:

القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر، وهذا أصل مهم وعظيم من أصول أهل السنة والجماعة في إثباتهم للأسماء والصفات، وردوا بهذا الأصل على من أثبت بعض الصفات ونفى البعض الآخر، ومن نفى بعض الصفات وأثبت بعضها غفل عن هذا الأصل العظيم، وإننا نقول له بأن: القول في بعض الصفات كالقول في البعض الآخر؛ إذ لا فرق بين ما نفاه النافي وبين ما أثبته، لأن الكلام في الصفات كله من باب واحد، والقول فيها واحد، وكذلك القول في أسماء رب العالمين تبارك وتعالى.

القاعدة الخامسة:

الكلام في الصفات فرعٌ عن الكلام في الذات، يحتذى في ذلك حذوه ومثاله، وهذه قاعدة مهمة أيضًا ونرد بها على الجهمية الذين نفوا صفات رب العالمين تبارك وتعالى ويقولون بأننا نثبت وجود الله عز وجل ونحن نقول لهم: إثبات ذات الله- تبارك وتعالى- على ما يليق بجلاله وكماله يدفعنا إلى أن نثبت أيضًا صفات رب العالمين تبارك وتعالى على ما يليق بجلاله وكماله؛ فالجهمي إذا أثبت ذاتًا لا تشبه ذوات المخلوقين، نقول له أيضًا: أثبت لله صفات لا تشبه صفات المخلوقين؛ لأنه إذا كان معلومًا أن إثبات رب العالمين عز وجل إنما هو إثبات وجود لا إثبات كيفية؛ فكذلك أيضًا إثبات صفاته إنما هو إثبات وجود لا إثبات تحديد وتكييف.

القاعدة السادسة:

الاعتصام بالألفاظ الشرعية الواردة في هذا الباب نفيًا وإثباتًا، والتوقف في الألفاظ التي لم يرد نص بذكرها نفيًا ولا إثباتًا؛ كلفظ الجسم والحيز والجهة والمكان.. ونحو ذلك، والاستفصال عن مراد من أطلقها؛ فإن كان المعنى الذي أراده صحيحًا قبل وعبر عنه باللفظ الشرعي لا باللفظ البدعي الذي أتى به؛ وإن كان معنى باطلاً لم يقبل.

وسطية أهل السنة والجماعة في القدر:

أ- نشأة الكلام في القدر، ونزاع الناس فيه:

الحديث عن القدر والنزاع والمخاصمة فيه، والاحتجاج به؛ من الأمور التي صاحبت الإسلام منذ نشأته؛ بل إنا لا نعدو الحقيقة إذا قلنا: إن جذور الكلام والخوض فيه تمتد إلى ما قبل الإسلام، ويؤكد ذلك نصوص من كتاب الله عز وجل ومن سنة الرسول صلى الله عليه وسلم فقد جاء فيهما ما يدل على أن كفار قريش خاصموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر ونازعوه فيه واحتجوا به، يقول الصحابي الجليل أبو هريرة رضي الله عنه: جاء مشركو قريش يخاصمون رسول الله صلى الله عليه وسلم في القدر فنزلت: «يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ ﴿٤٨﴾ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ» (القمر: ٤٨، ٤٩).

قال الإمام ابن القيم- رحمه الله تعالى- في هذه الآية: والمخاصمون في القدر نوعان:

أحدهما: من يبطل أمر الله ونهيه بقضائه وقدره، كالذين قالوا: «لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا» (الأنعام: ١٤٨).

والثاني: من ينكر قضاءه وقدره السابق. والطائفتان خصماء الله عز وجل.

وأخبر عز وجل في آية أخرى أنّ المشركين كانوا يحتجون بالقدر ويتعللون بمشيئة الله، وينسبون ما وقع منهم من كفر وشرك وعصيان إلى إرادة الله ومشيئته تبارك وتعالى، منكرين إرادتهم واختيارهم، وذلك تنصلاً من مسئولية ما فعلوا وما اقترفوا من شرك وإثم، وفي ذلك يقول الحق تبارك وتعالى: «سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ» (الأنعام: ١٤٩).

وللحديث بقية إن شاء الله.

افتتاحية العدد

التذكير بخطورة التكفير

الحلقة الرابعة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن شرط من الشروط المعتبرة عند إجراء الأحكام على الناس، وهو إقامة الحجة، وأواصل في هذا اللقاء الكلام حول بقية الشروط، فأقول مستعينًا بعلام الغيوب:

٢- القصد والاختيار من الفاعل للفعل، والمراد بذلك: تحقيق الإرادة لوجود الفعل على وجه الرضا والاختيار؛ وذلك لأن القصد له دور في الحكم على الفعل والفاعل، ومما يدل على ذلك حديث أنس رضي الله عنه الذي يرويه عن النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه: «لَلَّهُ أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ حِينَ يَتُوبُ إِلَيْهِ مِنْ أَحَدِكُمْ كَانَ عَلَى رَاحِلَتِهِ بِأَرْضٍ فَلَاةٍ، فَانْفَلَتَتْ مِنْهُ وَعَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَأَيِسَ مِنْهَا فَأَتَى شَجَرَةً فَاضْطَجَعَ فِي ظِلِّهَا، قَدْ أَيِسَ مِنْ رَاحِلَتِهِ، فَبَيْنَا هُوَ كَذَلِكَ إِذَا هُوَ بِهَا قَائِمَةً عِنْدَهُ، فَأَخَذَ بِخِطَامِهَا ثُمَّ قَالَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ: اللَّهُمَّ أَنْتَ عَبْدِي وَأَنَا رَبُّكَ؛ أَخْطَأَ مِنْ شِدَّةِ الْفَرَحِ». (مسلم: ٢٧٤٧).

فهذا الرجل تكلم بكلام فيه كفر، ولكنه لما لم يقصد ما قال عذره الشارع في ذلك. قال القاضي عياض رحمه الله في شرحه: «وفيه أن ما قال الإنسان من مثل هذا من نهي وذهول غير مؤاخذ به إن شاء الله». (إكمال المعلم ٨/٢٤٥).

وقد قرر ابن القيم رحمه الله أن القصد في القول أو الفعل أمر معتبر في الشرع، وفي ذلك يقول: «ومن تدبر مصادر الشرع وموارده تبين له أن الشارع ألغى الألفاظ التي لم يقصد المتكلم بها معانيها، بل جرت على غير قصد منه، كالنائم والناسي والسكران والجاهل والمكره والمخطئ من شدة الفرح أو الغضب أو المرض ونحوهم، ولم يكفر من قال من شدة فرحه براحلته بعد يأسه منها «اللهم أنت عبدي وأنا ربك»، فكيف يعتبر الألفاظ التي يقطع بأن مراد قائلها خلافها، ولهذا المعنى رد شهادة المنافقين ووصفهم بالخداع والكذب والاستهزاء، وذمهم على أنهم يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، وأن بواطنهم تخالف ظواهرهم، وذمَّ تعالى من يقول ما لا يفعل، وأخبر أن ذلك من أكبر المقت عنده، ولعن اليهود إذ توسلوا بصورة عقد البيع على ما

حرمه عليهم إلى أكل ثمنه وجعل أكل ثمنه لما كان هو المقصود بمنزلة أكله في نفسه، وقد لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخمر عاصرها ومعتصرها، ومن المعلوم أن العاصر إنما عصر عنبًا، ولكن لما كانت إنما نيته هي تحصيل الخمر لم ينفعه ظاهر عصره، ولم يعصمه من اللعنة لباطن قصده ومراده. (إعلام الموقعين ١٠٧/٣).

وقد فرقت الشريعة بين قتل العمد وقتل الخطأ، وجعلت لكل حكمًا يخصه في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى في قتل العمد: « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا » (النساء:٩٣)، وقال في قتل الخطأ: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا » (النساء: ٩٢)، وهذا يدل على أن للقصد دورًا في الحكم على الفعل والفاعل، وقد أشار السبكي رحمه الله إلى ذلك، وهو يتحدث عن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لكن الأذى على قسمين؛ أحدهما : يكون فاعله قاصدًا لأذى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا شك أن هذا يقتضي القتل، وهذا كأذى عبد الله بن أبي في قصة الإفك.

والآخر: أن لا يكون فاعله قاصدًا لأذى النبي صلى الله عليه وسلم، مثل كلام مسطح وحمنة في الإفك، فهذا لا يقتضي قتلاً.. ومن الدليل على أن الأذى لا بد أن يكون مقصودًا قوله تعالى :(إن ذلكم كان يؤذي النبي) فهذه الآية في ناس صالحين من الصحابة لم يقتض ذلك الأذى كفرًا». (فتاوى السبكي ٥٩١/٢).

قُلْتُ: المراد بالأذى المذكور في الآية: هو التضييق على النبي صلى الله عليه وسلم وأهله في المنزل، وكان حياء النبي صلى الله عليه وسلم يمنعه من نهيهم عن ذلك، فأدَّبهم الله بهذا التوجيه، قال الزجاج: «كان النبي صلى الله عليه وسلم يحتمل إطالتهم كرمًا منه، فيصبر على الأذى في ذلك، فعلم الله من يحضره الأدب». (فتح القدير للشوكاني ٢٩١/٤).

ومما يلحق بشرط القصد والاختيار ما يعرف بلازم القول، والمراد بلازم القول: ما يرتبط به من المعاني الخارجة عن لفظه ارتباطًا قويًا، فلو نطق إنسان بلفظ يلزم منه الكفر لا يكفر إلا إذا بُيِّن له ذلك، والتزمه، وهو يعرف أيضًا بالتكفير بالمآل، والذي عليه المحققون: أن لازم المذهب ليس بمذهب إلا إذا استلزمه صاحب المذهب. يقول الشاطبي رحمه الله: «ولكن الذي كنا نسمعه من الشيوخ أن مذهب المحققين أصل الأصول: أن الكفر بالمآل، ليس بكفر في الحال، كيف والكافر ينكر المآل أشد الإنكار». (الاعتصام ٤١٣/٢).

ويقول ابن تيمية: «فلازم المذهب ليس بمذهب، إلا أن يستلزمه صاحب المذهب، فخلق كثير من الناس ينفون ألفاظًا أو يثبتونها، بل ينفون معان أو يثبتونها، ويكون ذلك مستلزمًا لأمور هي كفر، وهم لا يعلمون بالملازمة بل يتناقضون. وما أكثر تناقض الناس، لاسيما في هذا الباب، وليس التناقض كفرًا». (مجموع الفتاوى ٣٠٦/٥).

ونصَّ ابن الوزير رحمه الله فيما يخص التكفير بالإلزام على أن المحققين من أهل العلم أنكروه ولم يقبلوه، ومنهم: محمد بن منصور، والشيخ تقي الدين في شرح العمدة، والغزالي في التفرقة، ثم يقول: «إن التكفير بالإلزام ومآل المذهب رأي محض لم يرد به السمع، لا تواترًا، ولا آحادًا، ولا إجماعًا». (العواصم والقواصم ٣٦٧/٢، ٣٦٨).

وقد فصَّل الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله هذه المسألة تفصيلاً دقيقًا وذكر أن اللازم من قول الله تعالى وقول الرسول صلى الله عليه وسلم إذا صح أن يكون لازمًا فهو حق، وأما اللازم من قول أحد سوى قول الله ورسوله صلى الله عليه وسلم فله حالات ثلاث: الأولى: أن يُذكر للقائل اللازم فيلتزمه، فهو قول له، والثانية: أن يُذكر اللازم للقائل، فيمنع التلازم بينه وبين قوله فلا يُعد قولاً له، والثالثة: أن يكون مسكوتًا عنه فلا يذكر بالالتزام ولا يمنع، فحكمه في هذه الحالة ألا ينسب إلى القائل حكم حتى نستفصل منه، ثم قال رحمه الله: فإن قيل: إذا كان هذا اللازم لازمًا من قوله، لزم أن يكون قولاً له؛ لأن ذلك هو الأصل لا سيما مع قرب التلازم. قلنا: هذا مدفوع بأن الإنسان بشر، وله حالات نفسية وخارجية

توجب الذهول عند اللازم، فقد يغفل أو يسهو أو ينغلق فكره، أو يقول القول في مضايق المناظرات من غير تفكير في لوازمه ونحو ذلك». (القواعد المثلى ص١٤، ١٥).

وبهذا يظهر فساد من يقول بلازم المذهب بإطلاق، ومن يحملون كلام الناس ما لا يحتمل وما لا يقصد بغيًا منهم وعدوانًا، أو جهلاً بهذه الأحكام الشرعية المقررة عند أهل العلم النابهين، (انظر: لسان العرب ٥٣٥/١٣).

الإكراه شرط عند إجراء الأحكام على المكلفين، ويدل على ذلك قول الله تعالى: « مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ » (النحل: ١٠٦).

قال ابن كثير رحمه الله: «إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ» فهو استثناء ممن كفر بلسانه ووافق المشركين بلفظه مكرهاً لما ناله من ضرب وأذى، وقلبه يأبى ما يقول، وهو مطمئن بالإيمان بالله ورسوله.

(تفسير ابن كثير ٧٩٣/٢).

وقال أبو بكر بن العربي: «لما سمح الله تعالى في الكفر به، وهو أصل الشريعة عند الإكراه، ولم يؤاخذ به، حمل العلماء عليه فروع الشريعة، فإذا وقع الإكراه عليها لم يؤاخذ به، ولا يترتب عليه حكم، وعليه جاء الأثر المشهور عند الفقهاء: رُفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استُكرهوا عليه». (أحكام القرآن: ١١٨٠/٣، ١١٨١).

قُلتُ: الحديث الذي ذكره ابن العربي أخرجه ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه وأقره الذهبي، كما في المستدرك (١٩٨/٢)، وصححه الألباني في سنن ابن ماجه (٣٤٨/١)، وقال ابن قدامة: «ومن أكره على الكفر، فأتى بكلمة الكفر، لم يَصر كافرًا، وبهذا قال مالك، وأبو حنيفة، والشافعي». (المغني ٢٩٢/١٢).

وقال ابن تيمية: «أباح سبحانه عند الإكراه أن ينطق الرجل بالكفر بلسانه، إذا كان قلبه مطمئنًا بالإيمان، بخلاف من شرح بالكفر صدرًا، وأباح للمؤمنين أن يتقوا من الكافرين تقاة، مع نهيه لهم عن موالاتهم، وعن ابن عباس: إن التقية باللسان، ولهذا لم يكن عندنا نزاع في أن الأصول لا يثبت حكمها في حق المكرَه بغير حق، فلا يصح كفر المكره بغير حق، ولا إيمان المؤمن بغير حق». (الاستقامة ٣١٩/٢).

وللإكراه شروط أربعة متى تحققت كان الإكراه معتبرًا، وهي كما يلي: الشرط الأول: أن يكون فاعله قادرًا على إيقاع ما يُهدد به، الثاني: أن يغلب على ظنه أنه إذا امتنع أوقع به ذلك، الثالث: أن يكون ما هدده به فوريًا، فلو قال: إن لم تفعل كذا ضربتك غدًا، لا يُعد مكرهًا، ويستثنى ما إذا ذكر زمنًا قريبًا جدًا، أو جرت العادة أنه لا يُخلف. الرابع: ألا يظهر من المأمور ما يدل على اختياره، وذلك يكون فيمن أكره على أن يطلق مرة واحدة فطلق ثلاثًا». (فتح الباري ٣١١/١٢).

موانع تكفير المعين

ذكرت فيما مضى ضرورة مراعاة الشروط الواجبة قبل الحكم بالتكفير، وهنا أذكر الموانع التي تمنع من لحوق الوعيد الصادر بالكفر وغيره على المعينين، وهي كما يلي:

الجهل: والجهل نقيض العلم، فمن جهل الخطاب الشرعي الوارد من رب البرية في مسألة من المسائل، وخالف بسبب الجهل، فلا يحكم عليه حتى يعلَم، لأنه قد يكون الشخص المعين حديث عهد بإسلام ولم يتعلم أحكامه، وقد وقع هذا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم، كما في حديث أبي واقد الليثي: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج إلى حنين، مرَّ بشجرة للمشركين يقال لها: ذات أنواط، يعلقون عليها أسلحتهم، قالوا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «سبحان الله، قلتم كما قال قوم موسى: «اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة»، والذي نفسي بيده لتركبن سنن من كان قبلكم». (أخرجه الترمذي، وقال: حديث حسن صحيح، وصححه الألباني، وانظر: صحيح سنن أبي داود ٢٣/٢).

ويلاحظ هنا أن النبي صلى الله عليه وسلم حكم على طلبهم هذا بأنه شرك ومن فعل المشركين، وأنه ينافي إثبات الألوهية لرب العالمين، ومع ذلك عذرهم ولم يكفرهم، ولم يطلب منهم تجديد الإيمان لجهلهم وحداثة عهدهم بالإسلام.

يقول ابن تيمية رحمه الله: «لكن من الناس من يكون جاهلا ببعض هذه الأحكام جهلا يعذر به، فلا

يحكم بكفر أحد حتى تقوم عليه الحجة من جهة بلاغ الرسالة كما قال تعالى: «لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ» (النساء: ١٦٥)، وقال تعالى: «وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا» (الإسراء: ١٥) ولهذا لو أسلم رجل ولم يعلم أن الصلاة واجبة عليه، أو لم يعلم أن الخمر يحرم، لم يكفر بعدم اعتقاد إيجاب هذا وتحريم هذا، بل ولم يعاقب حتى تبلغه الحجة النبوية.. والصحيح الذي تدل عليه الأدلة الشرعية: أن الخطاب لا يثبت في حق أحد قبل التمكن من سماعه، فإن القضاء لا يجب عليه في الصور المذكورة ونظائرها مع اتفاقهم على انتفاء الإثم؛ لأن الله عفا لهذه الأمة عن الخطأ والنسيان، فإذا كان هذا في التأثيم فكيف في التكفير؟!

وكثير من الناس قد ينشأ في الأمكنة والأزمنة الذي يندرس فيها كثير من علوم النبوات، حتى لا يبقى من يبلغ ما بعث الله به رسوله من الكتاب والحكمة، فلا يعلم كثيرًا مما يبعث الله به رسوله ولا يكون هناك من يبلغه ذلك، ومثل هذا لا يكفر، ولهذا اتفق الأئمة على أن من نشأ ببادية بعيدة عن العلم والإيمان، وكان حديث العهد بالإسلام، فأنكر شيئًا من هذه الأحكام الظاهرة المتواترة فإنه لا يحكم بكفره حتى يعرف ما جاء به الرسول، ولهذا جاء في الحديث: « يأتي على الناس زمان لا يعرفون فيه صلاة ولا زكاة ولا صومًا ولا حجًا إلا الشيخ الكبير، والعجوز الكبيرة، يقول: أدركنا آباءنا وهم يقولون: لا إله إلا الله، وهم لا يدرون صلاة ولا زكاة ولا حجا، فقال: ولا صوم ينجيهم من النار».

وقد دل على هذا الأصل ما أخرجاه في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال رجل لم يعجل حسنة قط لأهله إذا مات فحرقوه، ثم أذروا نصفه في البر، ونصفه في البحر، فوالله لئن قدر الله عليه ليعذبنه عذابًا لا يعذبنه أحدًا من العالمين. فلما مات الرجل فعلوا ما أمرهم، فأمر الله البر فجمع ما فيه، وأمر البحر فجمع ما فيه،ثم قال: لم فعلت هذا؟ قال: من خشيتك يا رب، وأنت أعلم؛ فغفر الله له» (مجموع الفتاوى ١١/٤٠٦- ٤٠٩).

وقد بحث هذه المسألة السيوطي رحمه الله ومما قال: «كل من جهل تحريم شيء مما يشترك فيه غالب الناس لم يقبل، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة يخفى فيها مثل ذلك». (الأشباه والنظائر ص٢٠٠).

وقد علق ابن عبد البر رحمه الله على هذا الحديث تعليقًا علميًا دقيقًا جاء فيه: «وأما جهل هذا الرجل المذكور في هذا الحديث بصفة من صفات الله في علمه وقدره، فليس ذلك بمخرجه من الإيمان؛ ألا ترى أن عمر بن الخطاب وعمران بن حصين وجماعة من الصحابة سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القدر، ومعلوم أنهم إنما سألوه عن ذلك وهم جاهلون به، وغير جائز عند أحد من المسلمين أن يكونوا بسؤالهم عن ذلك كافرين، أو يكونوا في حين سؤالهم عنه غير مؤمنين». (التمهيد: ١٨/٤٦).

وقد عذر النبي صلى الله عليه وسلم من اعتقد الخمر بعد تحريمها لجهله بالتحريم، كما في حديث عبد الله بن وَعْلة السبئي- من أهل مصر- : أنه سَأَلَ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَبَّاسٍ عَمَّا يُعْصَرُ مِنْ الْعِنَبِ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: إِنَّ رَجُلاً أَهْدَى لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَاوِيَةَ خَمْرٍ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: هَلْ عَلِمْتَ أَنَّ اللَّهَ قَدْ حَرَّمَهَا؟ قَالَ: لاَ، فَسَارَّ إِنْسَانًا، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: بِمَ سَارَرْتَهُ؟ فَقَالَ: أَمَرْتُهُ بِبَيْعِهَا. فَقَالَ: إِنَّ الَّذِي حَرَّمَ شُرْبَهَا حَرَّمَ بَيْعَهَا. قَالَ: فَفَتَحَ الْمَزَادَةَ حَتَّى ذَهَبَ مَا فِيهَا. (مسلم: ١٥٧٩).

قال النووي في شرحه لقول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: «هل علمت أن الله قد حرمها؟ قال: لا»: «لعل السؤال كان ليعرف حاله فإن كان عالما بتحريمها أنكر عليه هديتها وإمساكها وحملها وعزره على ذلك فلما أخبره أنه كان جاهلا بذلك عذره والظاهر أن هذه القضية كانت على قرب تحريم الخمر قبل اشتهار ذلك وفي هذا أن من ارتكب معصية جاهلا تحريمها لا إثم عليه ولا تعزير» (شرح النووي على مسلم: ١١/٤).

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

وسطية أهل السنّة في مسائل الاعتقاد

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فقد بدأنا في العدد السابق بيان وسطية أهل السنة والجماعة في مسائل الاعتقاد فتكلمنا عن وسطية أهل السنة في الاسماء والصفات وبدأنا الكلام عن وسطية أهل السنة والجماعة في القدر فتكلمنا عن نشأة الكلام في القدر ونزاع الناس فيه ونكمل في هذا العدد فنقول وبالله تعالى التوفيق:

إبراز وسطية أهل السنة والجماعة في مسألة القدر:

أهل السنة والجماعة توسطوا (رحمهم الله تبارك وتعالى) في هذه المسألة؛ فأثبتوا مسئولية العبد عن أفعاله وقالوا بأن العبد يثاب ويعاقب على أفعاله، وله إرادة ترجح له الفعل أو الترك، وإن كانوا يقولون: إن هذه الإرادة ليست مؤثرًا كاملاً أو تامًّا يوجب وجود الفعل؛ فالله خالق أفعال العباد كما هو الخالق للفاعلين، وهو سبحانه لا يكون في ملكه إلا ما يريد كونًا وقدرًا، وقدرته هي المؤثر التام في الوجود والإعدام؛ لذا فإن العبد له علاقة بقدرته من حيث هي مؤثر ناقص في الوجود، وله علاقة بقدرة الرب من حيث هي المؤثر التام للوجود.

وهم بذلك -أهل السنة والجماعة- يجمعون بين النصوص ويؤلفون بينها فإنه-أي: رب العالمين سبحانه نص في كتابه على خلقه لأفعال عباده فقال: « وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ » (الصافات: ٩٦)، ونص على أنه لا يكون في ملكه إلا ما يشاء فقال سبحانه: « وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ » (التكوير: ٢٩)؛ فأثبت للعبد مشيئة مؤثرة في فعله، وجعل وجود متعلقها خلقًا وإيجادًا تابعًا لمشيئة الله- تبارك وتعالى- فالعبد له مشيئة وإرادة فيما يفعل، كما أثبتت الآية السابقة، إلا أن مشيئته وإرادته تدور في فلك المشيئة العامة المطلقة لرب العالمين سبحانه.

وبالتالي نقول: إن العبد له إرادة وله اختيار فيما يفعل، ولكنه لا يخرج عن إرادة رب العالمين سبحانه، وعن خلق الله عز وجل لأفعاله.

وسطية أهل السنة في نصوص الوعد والوعيد:

أهل السنة والجماعة أيضًا توسطوا في نصوص الوعد والوعيد بين الوعيدية- ونعني بهم الخوارج- والمرجئة الذين يؤخرون الأعمال عن الإيمان، وتفصيل ذلك وتوضيحه في النقاط التالية:

جاء في كتاب الله وعلى لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم كثير من الآيات والأحاديث التي تدل على وعد الله للمؤمنين والمطيعين بالثواب الجزيل، وأنه أعد لهم جنات تجري من تحتها الأنهار، ووعدهم بألوان من الأجر والجزاء، ووعدهم أيضًا بمغفرة الذنوب فيما دون الشرك، وتكفير السيئات، بل وعد رب العالمين عباده بإبدال السيئات حسنات إن قبلها رب العالمين منهم.

ومن هذه النصوص قوله- تبارك وتعالى-: «قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ» (الزمر: ٥٣)، وقال صلى الله عليه وسلم لأبي ذر الغفاري رضي الله عنه: «ما من عبدٍ قال: لا إله إلا الله، ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة». وهذه يقال لها: نصوص الوعد.

وجاء أيضًا كذلك في الكتاب والسنة آيات وأحاديث كثيرة، تتضمن الوعيد الشديد بالعذاب الأليم، والخلود في النار لأهل الفسق والمعاصي وأصحاب الكبائر، وقد وصفوا في بعض الآيات بالكفر والفسق والضلال ونحو ذلك، ومن هذه النصوص ما جاء في قول الله (جل ذكره): « وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا » (النساء: ٩٣)، وما جاء في قول النبي صلى الله عليه وسلم: «سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر»، وهذه تسمى نصوص الوعيد.

> أهل السنة والجماعة وسط بين المرجئة والوعيدية وهم يأخذون بنصوص الوعد والوعيد، فيجمعون بين الخوف والرجاء ولا يفرطون في نصوص الوعيد ولا يغلون غلو الخوارج والمعتزلة.

والناس قد افترقوا في هذه النصوص إلى طرفين، ووسط؛ فالمرجئة أخذوا بنصوص الوعد، وتركوا نصوص الوعيد، وقالوا: كل ذنب سوى الشرك فهو مغفور؛ فالإيمان لا تضر معه معصية، كما لا ينفع مع الكفر طاعة؛ وإنما ضلوا في هذا الباب بسبب عبادتهم الله- تبارك وتعالى- بالرجاء وحده، وإهمال جانب الخوف، وكما هو معلوم عن المرجئة أنهم لم يدخلوا الأعمال في الإيمان، وقالوا: بأن إيمان الناس كلهم سواء؛ فإيمان أبي بكر وعمر (رضوان الله عليهم) كإيمان آحاد الناس، وأن الناس لا يتفاضلون في الإيمان، وقالوا بأن المعاصي والذنوب لا تؤثر في الإيمان، لأن الأعمال لا تدخل فيه، وأخذوا بنصوص الوعد أو بنصوص الرجاء؛ هذا طرف.

قابل هذا الطرف طرف آخر: ألا وهم الوعيدية من الخوارج والمعتزلة، وهؤلاء أخذوا بنصوص الوعد والوعيد ولكنهم غلوا في نصوص الوعيد، وقالوا: لابد أن ينجز الله وعده ووعيده، ولا يصح أن يخلف أيًا منهما، وسبب ضلالهم في هذا الباب: عبادتهم الله بالخوف وحده، وإهمال جانب الرجاء.

أما أهل السنة والجماعة: فهم وسط في هذا الباب بين المرجئة والوعيدية من الخوارج والمعتزلة، وهم يأخذون بنصوص الوعد والوعيد، فيجمعون بين الخوف والرجاء ولا يفرطون في نصوص الوعيد كالمرجئة الخالصة الذين قالوا: لا يضر مع الإيمان ذنب. ولا يغلون غلو الخوارج والمعتزلة في نصوص الوعيد، ويقولون (أي أهل السنة) في الوعيد: يجوز أن يعفو الله عن المذنب،

وأن يخرج أهل الكبائر من النار؛ فلا يخلد فيها أحدًا من أهل التوحيد.

وسطية أهل السنة في باب الأسماء والأحكام:

مراد بالأسماء أسماء الدين: وهي تلك الألفاظ التي رتب الله -عز وجل- عليها وعدًا ووعيدًا مثل: مؤمن، ومسلم، وكافر، وفاسق، وأيضًا المراد بالأحكام: أحكام أصحاب هذه الأسماء في الدنيا والآخرة.

والناس في أحكام عصاة المسلمين وأسمائهم، قد انقسموا إلى طرفين: وعيدية، ومرجئة، وأيضًا وسط بين هؤلاء: وهم أهل السنة والجماعة.

فالوعيدية ونعني بهم الخوارج، ومن سار في ركابهم كالمعتزلة، سلبوا اسم الإيمان عن العاصي في الدنيا وسموه إما كافرًا كالخوارج، أو في منزلة بين المنزلتين -أي: بين الإيمان والكفر؛ كما هو عند المعتزلة- فمرتكب المعاصي عند المعتزلة يقولون عنه: بأنه ليس بمؤمن وليس بكافر؛ وانما هو في منزلة بين المنزلتين.

والمرجئة والجهمية زعموا أن العاصي مؤمن كامل الإيمان؛ لأن الإيمان عندهم مجرد ما في القلب أو المعرفة القلبية فحسب، وهؤلاء هم الذين قالوا: لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة.

أما أهل السنة والجماعة: فقد أطلقوا على مرتكب الكبيرة اسم مؤمن عاص، أو مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته؛ فلا يزيلون عنه اسم الإيمان بالكلية بذهاب بعضه، ولا يعطونه اسم الإيمان المطلق، والله عز وجل قد سمى المقتتلين مؤمنين فقال: « وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا » (الحجرات: ٩) وقال: « إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (الحجرات: ١٠)؛ فالله عز وجل لم يسلب اسم الإيمان على الذين ارتكبوا هذه المعاصي والآثام حتى ولو وقع بينهم شيء من القتال؛ فدل ذلك على أن المعاصي لا تزيل اسم الإيمان عن العبد.

> أهل السنة والجماعة وسط بين الغلاة والجفاة في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

أيضًا: انقسم هؤلاء الناس في أحكام مرتكبي الكبائر في الدار الآخرة؛ فالوعيدية حكموا بخلود أصحاب الكبائر في النار في الآخرة: مثلاً الخوارج قالوا: إن أهل الكبائر خالدون مخلدون في النار لا يخرجون منها أبدًا. والمعتزلة قالوا: يدخلون النار أيضًا ويخلدون فيها أبد الآباد.

وأهل السنة والجماعة توسطوا بين هؤلاء وهؤلاء وقالوا: إن حكم مرتكب الكبيرة في الآخرة أنه يخاف عليه العقاب، ويرجى له الرحمة؛ فمن لقي الله مصرًا غير تائب من الذنوب التي استوجب بها العقوبة؛ فأمره إلى الله عز وجل إن شاء عذبه، وإن شاء غفر له؛ فإن غفر له وأدخله الجنة دون عذاب ولا عقاب فبفضل الله ورحمته، وإن أدخله النار وعذبه بقدر ذنوبه، فبعدله، ثم إنه لا يخلد في النار كالكفار، وهم في ذلك ينطلقون من قول الحق تبارك تعالى: « إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ » (النساء: ٤٨).

وسطية أهل السنة في أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

أهل السنة والجماعة وسط بين الغلاة والجفاة في صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

تعريف لفظ الصحابي، والغلاة، والجفاة:

الصحابي هو: من لقي النبي صلى الله عليه وسلم مؤمنًا به، ومات على الإسلام.

الغلاة: الذين يقولون بألوهية أمير المؤمنين أبي السبطين علي بن أبي طالب رضي الله عنه أو يقولون بعصمته، أو يفضلونه على أبي بكر وعمر -رضي الله عن جميع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم.

الجفاة: فهم الذين جفوا الصحابة؛ حتى كفروهم، ولعنوهم، ورموهم بالعظائم، ولم ينج من تكفيرهم إلا النزر اليسير. وقد وقع هذا من الروافض كما وقع من الخوارج في حق أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه وبعض الصحابة، وكفعل المعتزلة في تفسيقهم لطوائف من الصحابة، وردهم لشهادتهم، وقلنا بأن الرافضة يسبون أيضًا كثيرًا من صحابة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتوسط أهل السنة بين هؤلاء وهؤلاء؛ فأحبوا جميع صحابة النبي صلى الله عليه وسلم وترضوا عنهم، واعتقدوا عدالتهم، وأنهم أفضل هذه الأمة بعد نبيها صلى الله عليه وسلم وأن الله- تبارك وتعالى- قد حفظ بهم دينه، وأقام بهم عقيدة الإيمان صافية نقية، ونحن لم نعرف -وكان لا يمكن لنا أن نعرف - هذا الدين إلا بعد اجتهاد صحابة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم، فهم الذين حملوا إلينا دين الله، وهم الذين جاهدوا مع النبي صلى الله عليه وسلم، فكيف يقع إنسان في تكفيرهم أو تفسيقهم، ومع قولنا ذلك أيضًا لا نقول بأنهم فوق الأنبياء والمرسلين؛ وإن كان فضلهم كبيرًا عظيمًا.

> **الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا فيما دار بينهم على رسم الاجتهاد قائمين، فهم مجتهدون (رحمهم الله) للمصيب منهم أجران وللمخطئ أجر واحد.**

ونعتقد أن الصحابة (رضوان الله عليهم) كانوا فيما دار بينهم على رسم الاجتهاد قائمين، فهم مجتهدون (رحمهم الله) للمصيب منهم أجران وللمخطئ أجر واحد؛ كما قال صلى الله عليه وسلم: «إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران؛ وإذا أخطأ فله أجر واحد» والصحابة (رضوان الله عليهم) لا يخرجون عن ذلك؛ فهم إما مصيبون مأجورون أو مخطئون معذورون، وهم (رضوان الله عليهم) بما لهم من السبق إلى الإسلام والعلم به والعمل والاستغفار والتوبة إلى الله، ما يعتبر ما وقعوا فيه أو ما حصل بينهم قطرة في بحر لجي؛ أنى لها أن تكدر صفوه أو تغير لونه؛ لاسيما وأن رب العالمين سبحانه قد رضي عنهم وأخبر بذلك عنهم في كتابه فقال: «وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ» (التوبة: ١٠٠)، ووصفهم رب العالمين سبحانه بعدم التبديل والتغيير في شيء من دينه وشرعه فقال: «مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا» (الأحزاب: ٢٣).

ومع حب الصحابة (رضوان الله عليهم) وحب أهل السنة لهم، إلا أنهم أيضًا لم يغلوا فيهم ولم يرفعوا واحدًا منهم إلى درجة النبوة أو إلى درجة الألوهية؛ بل كانوا يحذرون من الغلو في الدين بصورة عامة.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

موانع تكفير المُعَين

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على من علمه الله الحكمة والكتاب وعلى آله وصحبه.. وبعدُ:

فأواصل الحديث- في هذا اللقاء- عن موانع تكفير المعين، وقد ذكرت فيما مضى المانع الأول، وهو: الجهل، أما المانع الثاني: فهو الخطأ، وقد اعتبره علماء أهل السنة مانعًا من موانع إطلاق التكفير على المعين، والخطأ هو: ضد الصواب، وهو الأمر الذي لم يتعمده الفاعل.

وفي لسان العرب: «المخطئ من أراد الصواب فصار إلى غيره». (لسان العرب: ١/٦٦، ٦٧).

ومن نعمة الله على هذه الأمة أن عصمها من أن تجتمع على خطأ أو ضلالة، كما في حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله لا يجمع أمتي- أو قال: أمة محمد- على ضلالة، ويد الله على الجماعة». (صحيح سنن الترمذي ٢/٢٣٢).

ويفهم من الحديث أن آحاد الأمة غير معصومين من الخطأ، كما في حديث أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كل ابن آدم خطاء، وخير الخطائين التوابون». (وحسنه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٢/٣٠٥).

وقد وردت نصوص قرآنية ونبوية دلّت على رفع المؤاخذة عن المخطئ وإعذاره فيما وقع فيه ومن ذلك، قول الله تبارك وتعالى: «رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا» (البقرة:٢٨٦). وهذا دعاء من المؤمنين وتضرُّع لربهم حتى لا يؤاخذهم بالنسيان والخطأ، وقد استجاب الله دعاءهم، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما نزلت هذه الآية: «وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ» (البقرة:٢٨٤)، قال: دخل قلوبهم منها شيء، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «قولوا: سمعنا وأطعنا وسلمنا». قال: فألقى الله الإيمان في قلوبهم، فأنزل الله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا» (البقرة:٢٨٦)، قال: قد فعلت. (رواه مسلم: ١٢٦).

قال الشيخ أبو بكر الجزائري: «وفعلاً قد عفا عنهم في النسيان والخطأ، وخفف عنهم في

التشريع». (أيسر التفاسير ١/ ٢٨٠).

وقد فرقت النصوص القرآنية بين قتل العمد وقتل الخطأ، فقال تعالى في العمد: «وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا» (النساء:٩٣). وقال في الخطأ: «وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ أَن يَقْتُلَ مُؤْمِنًا إِلَّا خَطَـًٔا وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُوا» (النساء:٩٢)، ويلاحظ الفرق الكبير بين العمد والخطأ في الإثم والوعيد والأحكام المترتبة على كل، وسبب نزول الآية يدل على ذلك، وقد ذكر ابن كثير عن مجاهد وغيره أنها نزلت في عياش بن أبي ربيعة أخي أبي جهل لأمه، وذلك أنه قتل رجلاً كان يعذبه مع أخيه على الإسلام، وهو الحارث بن يزيد الغامدي، فأضمر له عياش السوء، فأسلم ذلك الرجل وهاجر وعياش لا يشعر، فلما كان يوم الفتح رآه، فظن أنه على دينه، فحمل عليه فقتله، فأنزل الله هذه الآية. (تفسير ابن كثير ١/ ٧٣٤).

وقال القاسمي: «أي: ما جاز ولا صح لمؤمن قتل أخيه المؤمن، فإن الإيمان زاجر عن ذلك، إلا على وجه الخطأ، فإنه ربما وقع لعدم دخول الاحتراز عنه بالكلية تحت الطاقة البشرية». (تفسير القاسمي ٥/ ١٤٤٢).

وفي حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه». (صحيح سنن ابن ماجه ١/ ٣٤٨).

وقد ذكر الإمام النووي هذا الحديث في الأربعين، وشرحه ابن رجب وذكر كلامًا نفيسًا حوله وضمنه بعض الأحكام التي يحسن ذكر بعضها هنا، منها قوله: «الخطأ: هو أن يقصد بفعله شيئًا فيصادف فعله غير ما قصده، مثل: أن يقصد قتل كافر فصادف قتله مسلمًا، والنسيان: أن يكون ذاكر الشيء فينساه عند الفعل، وكلاهما معفوٌّ عنه، يعني: لا إثم فيه، ولكن رفع الإثم لا ينافي أن يترتب على نسيانه حكم، كما أن من نسي الوضوء وصلى ظانًا أنه متطهر فلا إثم عليه بذلك، ثم إن تبين له أنه كان قد صلى بغير طهارة فإن عليه الإعادة». (جامع العلوم والحكم ص٥٥٨).

قلت: وهذا تمامًا ما ذكرته الآية السابقة في حكم قتل الخطأ، فإن الخطأ مع رفعه إلا أن الآية أوجبت كفارة على هذا الخطأ كما ذكر فيها، وقد عذر النبي صلى الله عليه وسلم الرجل الذي نطق بكلمة الكفر مخطئًا بسبب شدة فرحه، كما أخرج مسلم في صحيحه عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لله أشد فرحًا بتوبة أحدكم حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة، فانفلتت منه وعليها طعامه وشرابه، فأيس منها، فأتى شجرة يضجع في ظلها قد أيس من راحلته، فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده، وأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح: اللهم أنت عبدي وأنا ربك، أخطأ من شدة الفرح». (مسلم: ٢٧٤٧).

فهذا الرجل قال كلمة كبيرة عظيمة عندما نسب الربوبية لنفسه، والعبودية لربه، وهذا كفر صريح، ولكنه هنا لا يكفر لخطئه وعدم قصده. يقول ابن تيمية: «وقد اتفق أهل السنة والجماعة على أن علماء المسلمين لا يجوز تكفيرهم بمجرد الخطأ المحض، بل كل أحد يؤخذ من قوله ويترك إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وليس كل من يترك بعض كلامه لخطأ خطأه يكفر ولا يفسق، بل ولا يأثم، فإن الله تعالى قال في دعاء المؤمنين: «ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا». وفي الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم أن الله تعالى قال: قد فعلت». (مجموع الفتاوى ٣٥/ ١٠٠).

وأود التنبيه هنا إلى أمر مهم وهو: أنه يجب على العبد بذل الوسع والطاقة في اتباع القرآن والسنة مع حسن القصد وسلامة النية والحرص على الطاعة، فإن أخطأ بعد ذلك فهو معذور- إن شاء الله-. وفي ذلك يقول ابن تيمية: «فمن كان خطؤه لتفريطه فيما يجب عليه من اتباع القرآن والإيمان مثلاً، أو لتعديه حدود الله بسلوك السبل التي نهى عنها، أو لاتباع هواه بغير هدى من الله، فهو الظالم لنفسه، وهو من أهل الوعيد، بخلاف المجتهد في طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم باطنًا وظاهرًا الذي يطلب الحق باجتهاده كما أمره الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، فهذا مغفور له خطؤه». (مجموع الفتاوى ٣/ ٣١٧).

وقال ابن الوزير رحمه الله: «ولذلك أجمعت الأمة على العفو عن المجتهدين من أئمة العلم في معرفة أحكام الدماء والقتل في الحدود والقصاص في مسائل الفروع المختلف فيها المعمول فيها بأقوالهم كالخلاف في قتل تارك الصلاة وقتل الحر بالعبد ونحو ذلك، حيث لم يكن الهوى سبب اختلافهم وظهر منهم التحري في الصواب، وبذل الجهد في تعرفه وتوفية الاجتهاد حقه». (إيثار الحق على الخلق ص٤١٤).

ويمكن أن يستدل على ذلك بما جاء في قوله تعالى: « ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » (الأحزاب:٥)، فالآية بينت أن الله رفع الحرج والإثم عن المخطئ بخلاف المتعمد.

قال ابن كثير في تفسير قوله تعالى: «وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُم بِهِ» (الأحزاب:٥). أي: إذا نسبتم بعضهم إلى غير أبيه في الحقيقة خطأ، بعد الاجتهاد واستفراغ الوسع، فإن الله قد وضع الحرج في الخطأ ورفع إثمه. (تفسير ابن كثير ٦٣٣/٣).

وقد دلت السنة النبوية على أن العبد إذا قام بفعل مشروع نافع له، ولكنه وضعه في غير موضعه خطأ فإنه يؤجر ويثاب كما في صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «قَالَ رَجُلٌ لَأَتَصَدَّقَنَّ اللَّيْلَةَ بِصَدَقَةٍ فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ زَانِيَةٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ اللَّيْلَةَ عَلَى زَانِيَةٍ، قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ. لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ غَنِيٍّ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى غَنِيٍّ. قَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى غَنِيٍّ. لَأَتَصَدَّقَنَّ بِصَدَقَةٍ، فَخَرَجَ بِصَدَقَتِهِ فَوَضَعَهَا فِي يَدِ سَارِقٍ، فَأَصْبَحُوا يَتَحَدَّثُونَ: تُصُدِّقَ عَلَى سَارِقٍ. فَقَالَ: اللَّهُمَّ لَكَ الْحَمْدُ عَلَى زَانِيَةٍ، وَعَلَى غَنِيٍّ، وَعَلَى سَارِقٍ. فَأُتِيَ فَقِيلَ لَهُ: أَمَّا صَدَقَتُكَ فَقَدْ قُبِلَتْ، أَمَّا الزَّانِيَةُ فَلَعَلَّهَا تَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ زِنَاهَا، وَلَعَلَّ الْغَنِيَّ يَعْتَبِرُ فَيُنْفِقُ مِمَّا أَعْطَاهُ اللَّهُ، وَلَعَلَّ السَّارِقَ يَسْتَعِفُّ بِهَا عَنْ سَرِقَتِهِ». (مسلم: ١٠٢٢).

وقد بوّب لهذا الحديث بقوله: «باب ثبوت أجر المتصدق وإن وقعت الصدقة في يد فاسق ونحوه». قال النووي: «وفيه ثبوت الثواب في الصدقة وإن كان الآخذ فاسقًا». (شرح النووي على مسلم ١١٠/٧).

والحديث دليل صريح وواضح في أن المخطئ معذور مأجور على فعله بعد بذل الجهد في اتباع الحق وتحريه، وهذا لا يكون إلا لمن كانت أصولهم صحيحة وعلى منهج أهل السنة والجماعة، أما أهل الأهواء والبدع فلا عذر لهم ولا كرامة، وقد درج أئمة أهل العلم على ذلك، وللحافظ الذهبي رحمه الله كلام دقيق حول هذا المعنى ذكره في ترجمة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، وفيه يقول: «وكل أحد يؤخذ من قوله ويترك، والكمال للرسل، والحجة في الإجماع، فرحم الله امرأ تكلم في العلماء بعلم، أو صمت بحلم، وأمعن في مضايق أقاويلهم بتؤدة وفهم، ثم استغفر لهم ووسع نطاق المعذرة، وإلا فهو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري، وإن أنت عذرك كبار الأئمة في معضلاتهم، ولا تعذر ابن تيمية في مفرداته، فقد أقررت على نفسك بالهوى وعدم الإنصاف، بل مسائله المقررة يحتج لها بالقرآن أو بالحديث، أو بالقياس ويبرهنها ويناظر عليها، وينقل فيها الخلاف، ويطيل البحث أسوة بمن تقدمه من الأئمة، فإن كان قد أخطأ فيها فله أجر المجتهد من العلماء، وإن كان قد أصاب فله أجران، وإنما الذم والمقت لأحد رجلين: رجل أفتى في مسألة بالهوى ولم يُبد حجة، ورجل تكلم في مسألة بلا علم، ولا توسع في نقل، فنعوذ بالله من الهوى والجهل». (تاريخ الإسلام للحافظ للذهبي ٢٢٥/٥٣).

ويقرر الإمام ابن القيم ذلك بفقه ووضوح، فيقول: «ولا بد من أمرين أحدهما أعظم من الآخر: وهو النصيحة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم وكتابه ودينه، وتنزيهه عن الأقوال الباطلة المناقضة لما بعث الله به رسوله صلى الله عليه وسلم من الهدى والبيان.

والثاني: معرفة أئمة الإسلام ومقاديرهم وحقوقهم ومراتبهم، وأن فضلهم وعلمهم ونصحهم لله ورسوله صلى الله عليه وسلم لا يوجب قبول كل ما قالوه، وما وقع في فتاويهم من المسائل التي خفي عليهم فيها ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم فقالوا بمبلغ علمهم والحق في خلافها لا يوجب اطراح أقوالهم جملة، وتنقصهم والوقيعة فيهم.

فهذان طرفان جائران عن القصد، وقصدُ السبيل

بينهما، فلا نؤثم ولا نعصم، ومن له علم بالشرع والواقع يعلم قطعًا أن الرجل الجليل الذي له في الإسلام قدر صالح وآثار حسنة وهو من الإسلام وأهله بمكان قد تكون منه الهفوة والزلة هو فيها معذور، بل ومأجور باجتهاده، فلا يجوز أن يُتَّبع فيها، ولا يجوز أن تهدر مكانته وإمامته ومنزلته من قلوب المسلمين». (إعلام الموقعين ٣/٢٩٤، ٢٩٥).

ولعل القارئ الكريم يلحظ من كلام هؤلاء الأئمة الأعلام أن المخطئ لا يُتابع على خطئه، بل يجب أن يبين الحق له مع رعاية مكانته وقدره إن كان من أئمة المسلمين وعلمائهم.

وأختم حديثي هذا بقول العلامة صالح الفوزان- حفظه الله-: «نأخذ من أقوال العلماء والفقهاء ما وافق الدليل من كتاب وسنة، ونترك ما خالف الدليل، ونعتذر للعلماء في خطئهم ونعرفهم قدرهم ولا ننقصهم، قال صلى الله عليه وسلم: «إذا حكم الحاكم فاجتهد ثم أصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر واحد»، أما الجاهل أو المبتدئ في طلب العلم، فهذا ليس له اجتهاد، ولا يجوز له أن يجتهد، وهو آثم باجتهاده أخطأ أو أصاب، لأنه فعل ما ليس له فعله». (الأجوبة المفيدة عن أسئلة المناهج الجديدة ص٤٧، سؤال رقم: ٢٥).

المانع الثالث العجز:

الشريعة الإسلامية مبناها على اليسر ورفع الحرج والتكليف فيها مرتبط بالاستطاعة، كما قال: «لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا» (البقرة:٢٨٦)، وقال تعالى: «يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» (البقرة:١٨٥)، ومن هنا كانت الأحكام الشرعية في حالة الاضطرار مختلفة عن حالة السعة والاختيار، وهذا من حكمة أرحم الراحمين.

وعليه أقول: من عجز عن شيء من الأحكام ولم يتمكن من الإتيان به فهو معذور ولا يؤخذ بتركه، وقد فرّق القرآن الكريم بين المستطيع القادر، وغير المستطيع العاجز، كما قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا» (النساء:٩٧-٩٩). قال ابن كثير: «إلا المستضعفين» إلى آخر الآية: هذا عذر من الله لهؤلاء في ترك الهجرة، وذلك أنهم لا يقدرون على التخلص من أيدي المشركين، ولو قدروا ما عرفوا يسلكون الطريق، ولهذا قال: «لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً»، وقوله تعالى: «فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ» أي: يتجاوز الله عنهم بترك الهجرة، وعسى من الله موجبة. (تفسير ابن كثير: ١/٧٤٦).

وقال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وفي الآية الكريمة دليل على أن من عجز عن المأمور من واجب وغيره فإنه معذور، كما قال تعالى في العاجزين عن الجهاد: «ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج»، وقال في عموم الأوامر: «فاتقوا الله ما استطعتم»، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إذا أمرتكم بأمر، فأتوا منه ما استطعتم». ولكن لا يعذر الإنسان إلا إذا بذل جهده، وانسدت عليه أبواب الحيل. (تيسير الكريم الرحمن ٢/١٣٩).

ويقول ابن تيمية: «والحجة على العباد إنما تقوم بشيئين: بشرط التمكن من العلم بما أنزل الله والقدرة على العمل به، فأما العاجز عن العلم كالمجنون أو العاجز عن العمل فلا أمر عليه ولا نهي، وإذا انقطع العلم ببعض الدين، أو حصل العجز عن بعض، كان ذلك في حق العاجز عن العلم أو العمل بقوله، كمن انقطع عن العلم بجميع الدين، أو عجز عن جميعه كالمجنون مثلاً». (مجموع الفتاوى ٢٠/٥٩).

ويقول في موطن آخر: «فمن ترك بعض الإيمان الواجب لعجزه عنه؛ إما لعدم تمكنه من العلم، مثل ألا تبلغه الرسالة، أو لعدم تمكنه من العمل، لم يكن مأمورًا بما يعجز عنه، ولم يكن ذلك من الإيمان والدين الواجب في حقه، وإن كان من الدين والإيمان الواجب في الأصل، بمنزلة صلاة المريض، والخائف والمستحاضة وسائر أهل الأعذار الذين يعجزون عن إتمام الصلاة، فإن صلاتهم صحيحة بحسب ما قدروا عليه». (المرجع السابق: ص٤٧٨، ٤٧٩).

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فهذه كلمات يسيرات في قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق: خصائص منهج أهل السنة والجماعة في تقرير مسائل الاعتقاد:

امتاز أهل السنة والجماعة في مسائل الدين - أصوله وفروعه- بخصائص جعلتها أكثر موافقة للحق وإصابة له.

الخاصية الأولى: وحدة المصدر:

فوحدة المصدر من أميز مناهج أهل السنة والجماعة وخصائصهم، وهي: أن السلف الصالح (رضوان الله عليهم) كانوا لا يتلقون أمور دينهم إلا عن مشكاة النبوة، فلا يعتمدون على العقل أو الذوق أو الكشف، بل هذه الأمور إن صحت ووافقت الصحيح كانت معضدة لحجة السمع -ونعني بحجة السمع الكتاب والسنة- فكيف إذا عارضت هذه الأمور دلائل الكتاب والسنة، وكانت أكثرها جهالات وخيالات فاسدة.

قال الإمام الحافظ ابن عبد البر- رحمه الله تعالى-: ليس في الاعتقاد كله في صفات الله وأسمائه إلا ما جاء منصوصًا في كتابه الله، أو صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أجمعت عليه الأمة، وما جاء من أخبار الآحاد في ذلك كله أو نحوه يسلم له، ولا يناظر فيه. يعني: يتلقى كل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم بالقبول والتسليم.

الخاصية الثانية: المنهج توقيفي:

هو منهج يقوم على التسليم المطلق لنصوص الكتاب والسنة، لا يردون منها شيئًا، ولا يعارضونها بشيء، لا بعقل، ولا ذوق، ولا منام، ولا غير ذلك، بل يقفون حيث تقف بهم النصوص، ولا يتجاوزونها إلى إعمال رأي أو قياس أو عقل أو ذوق؛ لأن هذا هو معنى أن منهج أهل السنة منهج توقيفي. لماذا؟ لأن هذا المنهج التوقيفي يعني أنه موقوف على الوحي الرباني، وقد التزم أهل السنة والجماعة بهذا المنهج، واستندوا على ذلك بقول الله- تبارك

وتعالى-: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ» (الحجرات: ١)

الخاصية الثالثة: أنهم كانوا يتجنبون الجدل والخصومات في الدين:

وبناء على ذلك كان لهم موقف واضح وصريح في مسائل الاعتقاد، من الجدل والخصومات، حتى عدوا الكلام والتمحل فيها من البدع، التي شددوا النكير على مقترفيها، وقال مالك بن أنس رضي الله عنه: الكلام في الدين أكرهه، ولم يزل أهل بلدنا يكرهونه وينهون عنه، وذلك كالكلام في رأي جهم الذي قد حمل لواء إنكار صفات الله عز وجل وكذلك الكلام في القدر وكل ما أشبه ذلك، ولا أحب الكلام إلا فيما تحته عمل، فأما الكلام في دين الله وفي الله عز وجل فالسكوت أحب إلي؛ لأني رأيت أهل بلدنا ينهون عن الكلام في دين الله إلا فيما تحته عمل.

الخاصية الرابعة: الاتفاق في مسائل العقيدة:

لقد كان من ثمرة صحة المنهج وصدق قضاياه: أن يتفق أهل السنة على مسائل الاعتقاد مع اختلاف أعصارهم، وتباعد أمصارهم.

يقول الإمام الأصبهاني رحمه الله: ومما يدل على أن أهل الحديث هم أهل الحق، أنك لو طالعت جميع كتبهم المصنفة من أولهم إلى آخرهم، قديمهم وحديثهم، مع اختلاف بُلدانهم وزمانهم، وتباعد ما بينهم في الديار، وسكون كل واحد منهم قطرًا من الأقطار، وجدتهم في بيان الاعتقاد على وتيرة واحدة ونمط واحد، يجرون على طريقة لا يحيدون عنها، ولا يميلون فيها، قولهم في ذلك واحد، ونقلهم واحد، لا ترى فيهم اختلافًا ولا تفرقًا في شيء ما وإن قل، بل لو جمعت جميع ما جرى على ألسنتهم، ونقلوه عن سلفهم، وجدته كأنه جاء عن قلب واحد، وجرى على لسان واحد، وهل على الحق دليل أبين من هذا.

القاعدة الأولى من قواعد الاستدلال عند أهل السنة والجماعة: الإيمان بجميع نصوص الكتاب والسنة

(أ) فقه القاعدة:

إن أهل الإسلام جميعًا آمنوا أن الله تعالى ربهم ومليكهم، وأنه حكيم عليم، قدير رحمن رحيم، أرسل الرسل لهدايتهم، وأنزل معهم الكتاب والميزان؛ فما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن الله فالله أخبر به، وهو سبحانه إنما يخبر بعلمه، ويمتنع أن يخبر بنقيض علمه، وما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم فهو من حكم الله، والله أمر به، وهو العليم الحكيم. قال رب العالمين (تبارك تعالى): «لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا» (النساء: ١٦٦).

وهذا يقتضي أن ما بلغه الرسول صلى الله عليه وسلم حق من عند الله يوافق علم الله ومراده؛ فالواجب على كل أحد أن يقابل ما أخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم عن ربه بالتصديق الجازم والتسليم المؤكد، وأن يقابل ما أمر به أو نهى عنه بالطاعة والانقياد؛ فمن قَبِل عن الرسول صلى الله عليه وسلم ما أخبر بهَ، فعن الله قَبِل، ومن أطاع الرسول صلى الله عليه وسلم فيما أمر به فقد أطاع الله.

والإيمان بنصوص الكتاب والسنة على ضربين:

أحدهما: إيمان مجمل: وهذا من فروض الأعيان؛ يعني: أنه يجب على كل أحد ممن أسلم وجهه لله تعالى، ورضي بالإسلام دينًا، وبالرسول (صلى الله عليه وسلم- نبيًّا ورسولاً، الإيمان بنصوص الكتاب والسنة، سواء أظهرت له معانيها، ووضحت مدلولاتها أم لا، فهذا حظ العامة، ومن لا يفهم العربية ومن في معناهما ممن اشتبه عليه معنى آية أو حديث.

ثانيهما: الإيمان المفصل: وهذا من الفروض الكفائية وهو خاص بكل من قام عنده الدليل، وبان له المدلول، وظهر معناه فإذا حصل ذلك عنده صار الإيمان في حقه فرضًا متعينًا، وإلا فالأصل فيه أنه كفائي.

قال شارح (الطحاوية): ولا ريب أن معرفة ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم على التفصيل فرض على الكفاية؛ لكن من قدر عليه وجب عليه تحصيله، طلبًا لحماية الدين، وكفاية المسلمين بتعليمهم وتفهيمهم إياه، وهو بحر تتفاوت فيه همم الطالبين، وتتطاول عنده أعناق الراغبين، وبقدر المعرفة به تكمل المعرفة بالله وبدينه، قال الله تبارك تعالى: «يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ» (المجادلة: ١١).

(ب) أدلة هذه القاعدة:

أولاً: القرآن الكريم:

أ- قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (النساء: ٦٥)، فهذا قسم من الله تعالى بذاته الكريمة، مما يدل على عظم الأمر المقسم عليه وخطورته، مع تقدم «لا» على القسم وهي تدل على النفي وتظهر قوة هذا القسم، ثم أيضًا أنها كررت بعد القسم؛ زيادة في التأكيد على النفي: «فلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ» ثم قال بعد ذلك: «حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ» فنفى الله تعالى الإيمان عن كل أحد، وعلق حصوله ووقوعه على التحاكم للرسول صلى الله عليه وسلم وذلك في جميع الأمور الإخبارية والإنشائية وغير ذلك من الأدلة.

ثانيًا: السنة النبوية المطهرة:

أ- ما رواه الإمام أحمد في «مسنده» عن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، أنه قال: «لقد جلست أنا وأخي مجلسًا، ما أحب أن لي به حمر النعم، أقبلت أنا وأخي، وإذا مشيخة من صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم جلوس عند باب من أبوابه، فكرهنا أن نفرق بينهم، فجلسنا إذ ذكروا آية من القرآن، فتماروا فيها، حتى ارتفعت أصواتهم، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم مغضبًا، قد احمر وجهه، يرميهم بالتراب، ويقول: مهلاً يا قوم، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم، باختلافهم على أنبيائهم، وضربهم الكتب بعضها ببعض، إن القرآن لم ينزل يكذب بعضه بعضًا، بل يصدق بعضه بعضًا، فما عرفتم منه فاعملوا به، وما جهلتم منه فردوه إلى عالمه». وهذا الحديث يفيد: أن نؤمن ونسلم لجميع ما ورد عن الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ب- ما ذكره الإمام الترمذي- رحمه الله تعالى- في «سننه» عن أبي رافع وغيره، يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وفيه يقول: «لا ألفين أحدكم متكئًا على أريكته، يأتيه الأمر مما أمرت به، أو نهيت عنه؛ فيقول: لا أدري ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه» ففي هذا الحديث الإنكار الشديد على من آمن وصدق بالكتاب دون السنة، إذ هو تفريق بين الله ورسله، وإيمان ببعض وكفر ببعض، وعقد الإيمان يقتضي التصديق بجميع ما بلغه وأخبر به الرسول صلى الله عليه وسلم من آيات الله والحكمة.

(جـ) فوائد الالتزام بهذه القاعدة:

الفائدة الأولى: تحقيق معنى الإيمان بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم؛ لأن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يخبر ويأمر به شرط في تحصيل الإيمان، قال تعالى: « فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا » (النساء: ٦٥).

الفائدة الثانية: مجانبة مسالك الأمم الضالة، الذين ردوا على الرسل ما أخبروا به، واعترضوا عليهم بالاعتراضات الباطلة، كما قالت اليهود لموسى (عليه الصلاة والسلام): «لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى اللَّهَ جَهْرَةً» (البقرة: ٥٥)، فكل من أوقف الإيمان بالنصوص على شيء خارج منها كان فيه شبه من اليهود، وكذا ممن قال: «لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ» (الأنعام: ١٢٤).

الفائدة الثالثة: بطلان كون العقل وحده يستقل في تحصيل المعرفة الدينية، أو كونه شرطًا في تحصيلها، بحيث لا نؤمن بالنص حتى يوافقه العقل فيما دل عليه، ويقال هذا أيضًا في الكشف والذوق، فالعقل ليس شرطًا في أن يفهم ما جاء عن الله- تبارك وتعالى- ويدرك حقيقته، بل عليه أن يسلم، وأن يكل علمه إن اختلط عليه فهم شيء من ذلك إلى عالمه.

الفائدة الرابعة: من جعل الإيمان بالنصوص موقوفًا على موافقة العقل أو الذوق، لا فرق عنده بين وجود الرسول صلى الله عليه وسلم ووجود أخباره، وبين عدم وجوده وعدم وجود أخباره، وكان ما يذكر من القرآن والحديث والإجماع في هذا الباب عديم الأثر عنده، (والعياذ بالله تعالى) ومعنى ذلك: أن من لم يسلم للنصوص، ويوافق لها، ويشترط أن يقبل عقله هذا النص أو يجده في قلبه أو يميل إليه بذوقه أو غير ذلك، إذن هذا لم يسلم في الحقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم ولا فرق عنده بين إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم من عدمه؛ لأن إرسال الرسول صلى الله عليه وسلم عنده لم يستفد من ورائه شيئًا.

وللحديث بقية إن شاء الله

والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

موانع تكفير المعين

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي ثلاثة من موانع التكفير، وبقي نوع رابع وهو آخرها أتحدث عنه في هذا اللقاء، ألا وهو التأويل، فأقول وبالله التوفيق:

التأويل له معان صحيحة ومعان باطلة، فمن الصحيح أنه يأتي بمعنى التفسير، وهذا ما عناه الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله في كتاب له بعنوان: الرد على الجهمية والزنادقة فيما شكوا فيه من متشابه القرآن وتأولوه، أي: فسروه على غير تفسيره، وقد استعمل المفسرون كلمة التأويل بهذا المعنى، فهذا الإمام ابن جرير الطبري رحمه الله يستعمل كلمة التأويل ويعني بها التفسير والبيان، فيقول مثلاً عند سياق تفسيره للآية: القول في تأويل قول الله تعالى، ثم يذكر الآية، وكأن يقول: وتأويل الآية عندنا: ثم يشرع في تفسيرها، كما وردت كلمة التأويل في القرآن الكريم بمعنى الحقيقة التي يؤول إليها الكلام، قال الله تعالى: «وَلَقَدْ جِئْنَاهُم بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ ۚ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ» (الأعراف:٥٢-٥٣)، قال ابن جرير في معنى كلمة التأويل الواردة في الآية: «هل ينتظر هؤلاء المشركون الذين يكذبون بآيات الله ويجحدون لقاءه إلا تأويله، يقول: إلا ما يؤول إليه أمرهم من ورودهم على عذاب الله وصليهم جحيمه». ثم ذكر عن قتادة أنه قال: تأويله، يعني: عاقبته. (انظر: تفسير الطبري ١٤٥/٨).

وقال ابن القيم بعد سياقه للآية: «فمجيء تأويله مجيء نفس ما أخبرت به الرسل من اليوم الآخر والمعاد وتفاصيله والجنة والنار، ويسمى تعبير الرؤيا تأويلاً بالاعتبارين، فإنه تفسير لها وهو عاقبتها وما تؤول إليه». (الصواعق المرسلة ١٧٦/١).

وأما المعاني الباطلة للتأويل فهو مثل ما ذهب إليه الجهمية والمعتزلة وغيرهم من صرف النصوص عن ظاهرها المراد إلى معان أُخَر لا يدل اللفظ عليها، ومنه ما ذهبت إليه الباطنية بفرقها المختلفة، حيث أولوا الشريعة بتأويلات تؤدي إلى بطلان

الشريعة، ومن أراد الوقوف على شيء من ذلك فليراجع كتاب: بيان مذهب الباطنة وبطلانه لمحمد بن الحسن الديلمي.

وهذا التأويل يأثم صاحبه ولا يعذر، وهذا النوع من التأويل لا أقصده ولا أعنيه هنا، وإنما أعني التأويل الذي يعذر صاحبه عند الوقوع فيه، وهو الشخص المؤمن الصادق المسلم لنصوص الوحيين، ولكنه عرضت له شبهة في فهم النصوص فخالف بسببها الصواب والحق، ومن أمثلة ذلك ما جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، وفيه يقول: «جاء بلال إلى النبي صلى الله عليه وسلم بتمر برني- نوع من التمر- فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: «من أين هذا؟» قال بلال: كان عندي تمر رديء، فبعت منه صاعين بصاع لنطعم النبي صلى الله عليه وسلم، فقال النبي صلى الله عليه وسلم عند ذلك: أوّه أوّه، عين الربا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري، فبع التمر ببيع آخر، ثم اشتريه". (البخاري: ٢٣١٢).

فبلال رضي الله عنه ذهب إلى صحة هذا الفعل متأولاً، فعذره النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرتب حكمًا على فعله، وقد وقع في هذا الأمر غيره من الصحابة والتابعين، يقول ابن تيمية رحمه الله: «ثم إن الذين بلغهم قول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما الربا في النسيئة». فاستحلوا بيع الصاعين بالصاع يدًا بيد، مثل: ابن عباس رضي الله عنهما وأصحابه: أبي الشعثاء، وعطاء، وطاووس، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وغيرهم من أعيان المكيين الذين هم صفوة الأمة علمًا وعملاً، لا يحل المسلم أن يعتقد أن أحدًا منهم بعينه، أو من قلده بحيث يجوز تقليده تبلغهم لعنة آكل الربا، لأنهم فعلوا ذلك متأولين تأويلاً سائغًا في الجملة». (مجموع الفتاوى ٢٠/٢٦٣).

ومن الأدلة أيضًا على عذر من تأول تأويلاً سائغًا فأخطأ ما أخرجه البخاري عن سالم عن أبيه عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: «بعث النبي صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد إلى بني جذيمة فدعاهم إلى الإسلام فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا، فجعل خالد يقتل منهم ويأسر، ودفع إلى كل رجل منا أسيره، حتى إذا كان يومٌ أمر خالد أن يقتل كل رجل منا أسيره، فقلت: والله لا أقتل أسيري ولا يقتل رجل من أصحابي أسيره حتى قدمنا على النبي صلى الله عليه وسلم- فذكرناه، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد مرتين». (البخاري: ٤٣٣٩).

فقتل خالد للأسرى كان بسبب تأويل منه حيث لم يفهم من قولهم: صبأنا، أسلمنا، ويلاحظ أن النبي صلى الله عليه وسلم تبرأ من فعل خالد، ولم يتبرأ منه ذاته، لأنه كان متأولاً مجتهدًا، قال ابن حجر في معنى قول ابن عمر في الحديث: «فلم يحسنوا أن يقولوا: أسلمنا، فجعلوا يقولون: صبأنا، صبأنا».

هذا من ابن عمر راوي الحديث يدل على أنه فهم أنهم أرادوا الإسلام حقيقة، ويؤيده فهمه أن قريشًا كانوا يقولون لكل من أسلم صبأ، حتى اشتهرت هذه اللفظة وصاروا يطلقونها في مقام الذم، ومن ثم لما أسلم ثمامة بن أثال، وقدم مكة معتمرًا، قالوا له: صبأت؟ قال: لا، بل أسلمت، فلما اشتهرت هذه اللفظة بينهم في موضع أسلمت استعملها هؤلاء، وأما خالد فحمل هذه اللفظة على ظاهرها، لأن قولهم: صبأنا، أي: خرجنا من دين إلى دين، ولم يكتف خالد بذلك حتى يصرحوا بالإسلام، وقال الخطابي: يحتمل أن يكون خالد نقم عليهم العدول عن لفظ الإسلام، لأنه فهم عنهم أن ذلك وقع منهم على سبيل الأنفة ولم ينقادوا إلى الدين فقتلهم متأولاً. (فتح الباري: ٨/٥٧).

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله أمثلة كثيرة لهذا النوع وقعت في عهد النبي صلى الله عليه وسلم وبعضها في عهد الصحابة، وعذر النبي صلى الله عليه وسلم وصحبه الكرام من وقع في شيء من ذلك متأولاً، وفي هذا يقول: «.. ولهذا لم يعاقب النبي صلى الله عليه وسلم من أكل من أصحابه حتى يتبين له الخيط الأبيض من الخيط الأسود، لأنهم أخطؤوا في التأويل، ولم يعاقب أسامة بن زيد لما قتل الرجل الذي قال: لا إله إلا الله، لأنه ظن جواز قتله، لما اعتقد أنه قالها تعوذًا، وكذلك خالد بن الوليد لما قتل بني جذيمة لما قالوا صبأنا، لم يعاقبه لتأويله». (منهاج السنة ٦/٨٨، ٨٩).

كما ذكر ابن تيمية أن المبتدعة أطلقوا ألفاظ التكفير والتفسيق على المخطئين والمتأولين، وفي

ذلك يقول: «إن المتأول الذي قصده متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لا يكفر، بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ، وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية، وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفر المخطئين فيها، وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا عن أحد من أئمة المسلمين، وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع، الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم، كالخوارج والمعتزلة والجهمية، ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة، كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم». (المرجع السابق ٥/٢٣٩-٢٤٠).

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله أن الصحابة والتابعين أجمعوا على عدم تكفير أهل القبلة المتأويلين، ونص كلامه:

«إن المتأولين من أهل القبلة الذين ضلوا وأخطؤوا في فهم ما جاء في الكتاب والسنة، مع إيمانهم بالرسول واعتقادهم صدقه في كل ما قال، وأن ما قاله كان حقاً والتزموا ذلك، لكنهم أخطؤوا في بعض المسائل الخبرية أو العملية، فهؤلاء قد دل الكتاب والسنة على عدم خروجهم من الدين، وعدم الحكم لهم بأحكام الكافرين، وأجمع الصحابة رضي الله عنهم والتابعون ومن بعدهم من أئمة السلف على ذلك». (الإرشاد إلى معرفة الأحكام، ص٢٠٧).

وما سبق ذكره من تقريرات لا ينطبق إلا على التأويل السائغ الصادر من المؤمن المصدق المسلم للنصوص، من بني دينه على أصول فاسدة، وذهب ليطوع الحق بالرأي والتأويل ليكون تابعًا موافقًا لهواه، فهذا عين الضلال، ولا يدخلون معنا في هذا الباب، وهذا كمن يشتمل تأويله على تكذيب ما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم، أو جحود أصول لا يقوم الدين إلا بها، كتأويلات الباطنية والفلاسفة ودعاة الحلول والاتحاد ونحوهم، فهؤلاء لا عذر لهم؛ وذلك لأن هذه التأويلات تصادم صراحة المعلوم من الدين بالضرورة من دين الإسلام. وبعضها يؤدي إلى إنكار اليوم الآخر وما فيه من حشر الأجساد وقيام العباد لرب العالمين.

ومنها ما يفضي إلى تعطيل الأحكام العملية، كتأويل الفرائض والأحكام بما يخرجها عن حقيقتها الشرعية، وبما يستبيحون معه ترك الفرائض واستحلال المحرمات، والوقوع في الإباحية المطلقة، حيث ذهبوا إلى سقوط التكاليف عن بعضهم، وإباحة المحرمات لهم.

قال ملا علي القاري: «وأما من يؤول النصوص الواردة في حشر الأجساد وحدوث العالم، وعلم الباري بالجزئيات، فإنه كفر، لما علم قطعاً من الدين أنها على ظواهرها». (شرح الفقه الأكبر/٦٩).

وقال ابن الوزير: «وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم بالضرورة للجميع وتستر باسم التأويل فيما لا يمكن تأويله كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحسنى، بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار». (إيثار الحق على الخلق ص٣٧٧).

وقد ذكر محمد رشيد رضا رحمه الله أن أئمة الباطنية زنادقة، لأنهم تعمدوا هدم الإسلام بالشبهات والتأويلات المشككات. (انظر تفسيره ٦/٤٧١).

ويظهر مما سبق تقريره في الحلقات السابقة وما ذكرته هنا ضرورة الاحتياط والتأني عند إطلاق الأحكام على الخلق، وأن أهل السنة والجماعة لا يكفرون ولا يفسقون إلا بعد قيام الحجة، وذلك بتوفر العلم وانتفاء الجهل، والمقصود من ذلك التحقق من أهلية المكلف وصلاحيته الشرعية لإجراء الأحكام عليه، ويعبر أهل العلم عن ذلك بعبارة معلومة عندهم وهي: ضرورة تحقق الشروط وانتفاء الموانع قبل إجراء الأحكام على المكلفين.

وخلاصة مذهبهم في ذلك كما ذكره ابن تيمية: أن المقالة التي هي كفر بالكتاب والسنة والإجماع يقال عنها: هي كفر، ولا يجب أن يحكم في كل شخص قال ذلك بأنه كافر، حتى يثبت في حقه شروط التكفير وتنتفي موانعه. (انظر: مجموع الفتاوى ٣٥/١٦٥).

وقد أشبعت القول فيما مضى في بيان ذلك وتقريره، ثم إنه يجب أن يعلم أن التكفير حكم شرعي، فلا يجوز إطلاقه على مسلم إلا بدليل شرعي، ولا يجوز أن يتصدى لذلك إلا الراسخون في العلم من الأئمة الكبار الذين أوصى الله في كتابه بالرجوع إليهم، كما قال تعالى: «وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ إِلَّا رِجَالٗا نُّوحِيٓ إِلَيۡهِمۡۚ فَسۡـَٔلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلذِّكۡرِ إِن كُنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ» (النحل:٤٣)، وقال تعالى: «وَإِذَا جَآءَهُمۡ أَمۡرٞ مِّنَ ٱلۡأَمۡنِ أَوِ ٱلۡخَوۡفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوۡ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنۡهُمۡ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسۡتَنۢبِطُونَهُۥ مِنۡهُمۡۗ وَلَوۡلَا فَضۡلُ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَرَحۡمَتُهُۥ لَٱتَّبَعۡتُمُ ٱلشَّيۡطَٰنَ إِلَّا قَلِيلٗا» (النساء:٨٣)،

فقد أمر الله في الآيتين بالرجوع إلى أهل العلم وسؤالهم والاستفادة منهم.

يقول الإمام ابن القيم رحمه الله: «ولما كان التبليغ عن الله سبحانه يعتمد العلم بما يبلغ، والصدق فيه لم تصلح مرتبة التبليغ بالرواية والفتيا إلا لمن اتصف بالعلم والصدق، فيكون عالمًا بما يبلغ، صادقًا فيه، ويكون مع ذلك حسن الطريقة، مرضيَّ السيرة، عدلاً في أقواله وأفعاله، متشابه السر والعلانية في مدخله ومخرجه وأصوله، وإذا كان منصب التوقيع عن الملوك بالمحل الذي لا ينكر فضله، ولا يجهل قدره، وهو من أعلى المراتب السنيات، فكيف بمنصب التوقيع عن رب الأرض والسماوات». (إعلام الموقعين ١/١٠).

قلت: رحم الله هذا الإمام العلم، وأين المتعالمون الأصاغر منه، وقد تكلموا وخاضوا في دماء المسلمين وأعراضهم دون علم، وهذا من أمارات الساعة، وقد أخرج ابن المبارك في الزهد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن من أشراط الساعة أن يلتمس العلم عند الأصاغر». (وحسنه الألباني، وذكر ابن المبارك أنه قال: «الأصاغر: أهل البدع». السلسلة الصحيحة ٢/٣١٦).

ولهذا وجب على من لا علم عنده أن يلزم غرزه وأن يقف عند حده استجابة لقول الله تعالى: « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا » (الإسراء:٣٦). قال الشنقيطي رحمه الله في معنى هذه الآية: «نهى جل وعلا في هذه الآية الكريمة عن اتباع الإنسان ما ليس له به علم. ويشمل ذلك قوله: رأيت ولم ير، وسمعت ولم يسمع، وعلمت ولم يعلم. ويدخل فيه كل قول بلا علم. وأن يعمل الإنسان بما لا يعلم. وقد أشار جل وعلا إلى هذا المعنى في آيات أخر؛ كقوله: « إِنَّمَا يَأْمُرُكُم بِٱلسُّوٓءِ وَٱلْفَحْشَآءِ وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (البقرة: ١٦٩)، وقوله: « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ » (الأعراف: ٣٣)، وقوله: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ » (الحجرات: ١٢)». (أضواء البيان: ٣/٥٧٦، ٥٧٧).

وهذا الكلام ينطبق أول ما ينطبق على مسائل أصول الدين، ومنها قضية الإيمان والكفر التي يترتبت على من يخوض فيها أحكام كبيرة تلحق المحكوم عليه في الدنيا والآخرة، كاعتقاد ردته وخروجه من دين، وإباحة دمه، وعدم الصلاة عليه والدعاء له، وأما في الآخرة فالحكم عليه بأنه خالد مخلد في النيران، ولا تنفعه شفاعة الشافعين.

وقد لمسنا في الآونة الأخيرة آثار خطيرة ترتبت على تكفير الأفراد والمجتمعات على رأسها التفجيرات التي يقوم بها الآثمون هنا وهناك والتي أزهقت أرواح شيوخ ونساء وأطفال، وضيعت كثيرًا من الأموال، وأفسدت كثيرًا من المنشآت والمؤسسات العامة والخاصة، كما زعزعت أمن البلاد واستقرارها، وأثارت الرعب بين الكبير والصغير، كما نالت عددًا من غير المسلمين في بلادهم، وعددًا ممن لهم عهد وأمان من ولي أمر المسلمين، أو من أهل البلاد الأصليين في بلاد المسلمين، وهذه الأعمال التخريبية كانت سببًا في تشويه صورة الإسلام وأهله عند أعدائه، وصور هؤلاء الأعداء المسلمين على أنهم ذئاب بشرية سفاكون للدماء، وغير ذلك.

وكان لوسائل الإعلام الفاسدة دور كبير في الطعن على ثوابت الدين وسنة النبي صلى الله عليه وسلم، والإسلام بصورته الصحيحة بريء من هؤلاء ومن أعمالهم، وأرى أنه من الواجب عليَّ أن أوجه نداء لشباب الأمة الإسلامية بأن يبتعدوا عن هذه الأفكار التكفيرية المنحرفة وعن أصحابها، وأن يقاطعوا الكتب التي كانت سببًا في رواج هذه الأفكار، وأن يقبلوا على علماء أهل السنة والجماعة السائرين على منهاج الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وعلى الشباب وأولياء أمورهم الحذر واليقظة من التحاقهم بهذه التنظيمات التي تزعم أنها جهادية وحقيقة أمرها إنها تخريبية دموية خارجة عن السمع والطاعة مفسدة للبلاد والعباد والواقع المعاصرين يؤيد ذلك.

وإني في الختام أشكر الله على توفيقه وعونه في كتابة هذه المقالات، كما أشكر من راسلوني أو اتصلوا بي، وأسأل الله تعالى للجميع التوفيق والسداد، والهداية والصلاح، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات.

باب العقيدة

قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة

الحلقة الثانية

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فما يزال الحديث متصلاً عن قواعد وضوابط الاستدلال على مسائل الاعتقاد عند أهل السنة والجماعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

القاعدة الثانية: اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين

(أ) فقه القاعدة:

التقسيم الصحيح لمسائل الدين هو أن نقسمه إلى: خبر وطلب؛ لأن هذا هو الذي ينضبط، وكلا القسمين تدخل فيه الفروع والأصول، وما يكون دليله القطع أو الظن، وما يكفر جاحده أو لا يكفر، وكذا يستدل عليهما بالشرع وبالعقل، وليس العقل خاصًا بأحد القسمين دون الآخر.

قال الإمام ابن تيمية (رحمه الله تبارك تعالى): إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بين جميع الدين أصوله وفروعه، باطنه وظاهره، علمه وعمله، فإن هذا الأصل هو أصل أصول العلم والإيمان، وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل كان أولى بالحق علمًا وعملاً.

(ب) أدلة هذه القاعدة:

أي: أدلة «اشتمال الكتاب والسنة على أصول الدين»

أولاً: القرآن الكريم:

دل القرآن الكريم على هذه القاعدة من وجوه، نذكر طرفًا منها:

أ- بيان شمول الدين واتساعه لكل ما ينفع الناس إجمالاً وتفصيلاً، كما في قوله تعالى: «مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ» (الأنعام: ٣٨)، وقوله تعالى: «وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ» (النحل: ٨٩).

ب- أن الله عز وجل وصف القرآن الكريم بأنه الحق، وأن الهداية والنجاة معقودة على اتباعه والتزامه؛ تصديقًا

وتحكيمًا، قال تعالى: «وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ» (الأحزاب: ٤)، وقال تعالى: «إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ» (الإسراء: ٩)، وقال تعالى: «قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ» (المائدة: ١٥، ١٦)، وقال تعالى: «وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ» (التوبة: ١١٥).

فترك العباد من غير هداية وإرشاد يُنافي حكمة الله تعالى في محبّته لذلك؛ لأن الله عز وجل يحب الهداية والرشاد محبة دينية شرعية، وقد أنزل القرآن الكريم وهو يحب أن يلتزم الناس بأحكامه؛ فكيف لا يكون القرآن الكريم إذن مشتملاً على أصول الهداية؟!

ثانيا: السنة النبوية المطهرة:

هناك أكثر من دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم بين أصول الدين، وعلى أن الكتاب والسنة اشتملا على أصول الدين، نذكر منها:

أ- ما رواه ابن ماجه، عن أبي الدرداء رضي الله عنه أنّ النبي (عليه الصلاة والسلام) قال: «وايْمُ الله لقد تركتكم على مثل البيضاء، ليلُها ونهارها سواء» قال أبو الدرداء رضي الله عنه: «صدق والله رسول الله صلى الله عليه وسلم تركنا والله على مثل البيضاء ليلها ونهارها سواء».

ب- ما رواه الإمام أحمد في «مسنده»، عن أبي ذر رضي الله عنه أنه قال: «لقد تركنا محمد صلى الله عليه وسلم وما يحرّك طائر جناحيه في السماء إلا ذكر لنا منه علمًا».

(جـ) فوائد الالتزام بهذه القاعدة:

الفائدة الأولى: وجوب النظر إلى الشريعة بعين الكمال لا بعين النقصان، واعتبارها اعتبارًا كليًّا في العقائد والعبادات والمعاملات، وعدم الخروج عنها البتة؛ لأن الخروج عنها تيه وضلال، ورمي في عمايا. كيف وقد ثبت كمالها وتمامها؛ فالزائد والمنقص في جهتها هو المبتدع بإطلاق، المنحرف عن جادة الصواب، وهذا هو الذي أغفله المبتدعون، فدخل عليهم بسببه الاستدراك على الشرع.

الفائدة الثانية: وجوب النظر في نصوص الكتاب والسنة وكلام السلف لمعرفة مسائل الاعتقاد، وأدلّتها السمعية والعقلية، ومباشرة ذلك بالإيمان والتصديق والاستجابة، والبعد عن استحداث الأمور المبتدَعة وتكلّف الأدلة العقلية والذوقية لها، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وكل من كان أعظم اعتصامًا بهذا الأصل، كان أوْلى بالحق علمًا وعملاً.

الفائدة الثالثة: الاستغناء بالكتاب والسنة عن النظر في الكتب المتقدمة، كالتوراة والزبور، لما أصابها من التحريف والتبديل والزيادة والنقصان؛ فالقرآن الكريم كتاب مستقل بنفسه، ناسخ لما قبله، لم يُحوج الله تعالى أهله إلى كتاب آخر، كما هو حال أهل الزبور والإنجيل والتوراة والقرآن اشتمل على جميع ما في الكتب الأخرى من المحاسن، وعلى زيادات كثيرة لا توجد فيها، مع ضمان الحفظ، ونزاهة النص عن التحريف؛ ولهذا كان مصدِّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه، يقرر ما فيه من الحق، ويبطل ما حُرف منه، وينسخ ما نسخه الله تعالى.

القاعدة الثالثة: رد التنازع إلى الكتاب والسنة:

(أ) فقه القاعدة:

لقد وقع الاختلاف والتنازع في الدين بين هذه الأمة، وقع أسوة بالأمم قبلها من اليهود والنصارى في أصول الدين وفروعه، وذلك على ما أخبر به الوحي، كما في قوله تعالى: «وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ» (هود: ١١٨، ١١٩)، وقال تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ ۚ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ» (آل عمران: ١٠٥). وقال صلى الله عليه وسلم: «تفرّقت اليهود على إحدى وسبعين فرقة، أو اثنتين وسبعين فرقة، والنصارى مثل ذلك، وتفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة»، وفي رواية: «كلّهم في النار إلا ملّة واحدة، قالوا: ومن هي يا رسول الله؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي».

والاختلاف المذكور في القرآن الكريم قسمان:

القسم الأول: من جهة مدحه أو ذمه.

القسم الثاني: من جهة ذاته.

القسم الأول: الاختلاف من جهة مدحه أو ذمه:

ينقسم إلى نوعين:

الأول: أنه تعالى يذم الطائفتين المختلفتين جميعًا، كما في قوله تعالى: «ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ۗ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ» (البقرة: ١٧٦)،

وقال تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ» (الأنعام: ١٥٩).

الثاني: اختلاف حمد الله تعالى فيه إحدى الطائفتين وذمّ الأخرى، كما في قوله تعالى: «تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ» (البقرة: ٢٥٣). فقوله سبحانه: «وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ» (البقرة: ٢٥٣): حمدٌ لإحدى الطائفتين وهم المؤمنون، وذمّ للأخرى، والاختلاف الذي تُذم فيه جميع الطوائف المتنازعة يكون سببه تارة فساد النية بسبب البغي والحسد، وإرادة العلوّ في الأرض بالفساد ونحوه، كما قال تعالى: «وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ» (البقرة: ٢١٣)، وتارة يكون بسبب جهل المختلفين بحقيقة الأمر الذي يتنازعون فيه، أو الجهل بدليله أو دلالته.

القسم الثاني: الاختلاف من جهة ذاته:

ينقسم إلى نوعين:

الأول: اختلاف تنوع، وهو على وجوه:

أ- أن يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقًّا مشروعًا، كالاختلاف في القراءات التي اختلف فيها الصحابة، فزجرهم النبي صلى الله عليه وسلم عن الاختلاف، وقال: «كلاكما محسن»، ومن ذلك أيضًا الاختلاف في صفة الأذان والإقامة والتشهدات وصلاة الخوف، إلى غير ذلك مما شرع جميعه، وقد يقال: إن بعض أنواعه أفضل من بعض.

ب- أن يتّفق القولان في المعنى والحكم، ويختلفان في اللفظ والعبارة، كالاختلاف في الحدود -أي: التعريفات- والتعبير عن المسميات، وتقسيم الأحكام، وغير ذلك.

جـ- أن يكون المعنيان مختلفين لكنهما لا يتنافيان؛ فهذا قول صحيح وهذا قول صحيح، كاختلاف الصحابة في صلاة العصر أثناء سيرهم إلى بني قريظة.

الثاني: اختلاف تضادّ، وهو القولان المتنافيان؛ فالخطب فيه أشد، لتنافي القولين، وقد يكون مع أحد المتنازعين بعض الحق، أو دليل يقتضي حقه؛ فردّ ذلك من الباطل، كالاختلاف بين المشبِّهة والمعطِّلة في الصفات، فمع المشبِّهة بعض الحق وهو أصل الإثبات، ومع المعطلة بعض الحق وهو أصل التنزيه، والصواب والنجاة في ضم الحقين والجمع بينهما. وهذان النوعان -أي: اختلاف التنوع والتضاد- إنما يكون المخرج منهما بالرد إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم وبذلك يظهر لنا وللمختلفين ما خفي من الدليل أو الدلالة، ويرتفع التنازع، ويندفع البغي، ويتبيّن وجه الحق والصواب؛ ثم يطالب المبطل بالإذعان والانقياد.

ب- أدلة هذه القاعدة:

وهي قاعدة: رد التنازع إلى الله وإلى رسوله صلى الله عليه وسلم وأدلة هذه القاعدة أيضًا من القرآن والسنة وإجماع الأمة، وأقوال السلف والعلماء، والنظر الصحيح:

أولًا: القرآن الكريم:

وذلك من وجوه كثيرة، أذكر منها وجهين فقط:

الوجه الأول: وفيه بيان أنّ الوحي إنما نزل لرفع الخلاف، ودفع النزاع بين الناس، في أمر دينهم ومعتقداتهم، فمن ذلك: قوله تعالى: «وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ» (النحل: ٦٤)، فمن أعظم مقاصد الكتاب رفع الخلاف القائم بين الناس، الأمر الذي يوجب عليهم ردّ ما اختلفوا فيه إليه؛ فهو الفرقان والفيصل، وفيه الهدى والرحمة يجمع شتات القلوب، ويوحّد نوازع الآراء.

الوجه الثاني: أمَر الله تعالى المتنازعين أن يردّوا ما تنازعوا فيه إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما جاء في قوله تعالى: «فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا» (النساء: ٥٩). وقد فسّر مجاهد وغير واحد من السلف الردّ إلى الله بالرد إلى كتابه، والرد إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بالردّ إليه حال حياته، وإلى سنته بعد مماته، وقد حكى ابن القيم الإجماع في ذلك.

وللحديث بقية إن شاء الله، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

التكفير وخطره عند الشيعة الرافضة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد تحدثت في مقالات سابقة عن خطورة التكفير وحذرت شباب الأمة منه، وذكرت بعض القواعد المنهجية عند أهل السنة في ذلك تحصينًا للشباب من الوقوع فيه، أو متابعة دعاته والتأثر بهم.

وأرى أن أتكلم في هذا المقال عن التكفير وخطره أيضًا عند الشيعة الرافضة، لوجود أفراد منهم في مجموع الأمة، وللتشابه الغريب بينهم وبين عموم الخوارج، فالخوارج كفَّروا الأمة بلا ضوابط وقواعد، والرافضة كفَّروا سادات المؤمنين من خيار صحابة النبي الأمين صلى الله عليه وسلم كما كفَّروا كل من خالفهم في معتقداتهم الباطلة.

وقد اجتمعوا جميعًا على السيف والقتل والتخريب والتفجير، وأعمالهم اليوم شاهدة عليهم، وحتى لا يظن أحد أنني أفتري عليهم، أو أنسب إليهم ما ليس فيهم، فسأنقل هنا من كلامهم ما يدل على ذلك، إلى جانب ذكر بعض ما قاله أهل السنة فيهم.

معتقد الشيعة في الإمامة:

وأعظم مسألة دفعت الشيعة الرافضة إلى تكفير عموم المسلمين: الإمامة التي اعتبروها ركنًا من أركان الدين، وأن من لم يؤمن بها فليس من المسلمين.

يقول العاملي الملقب عندهم بالشهيد الثاني: «قد عرفت مما تقدم أن التصديق بإمامة الأئمة- عليه السلام- من أصول الإيمان عند الطائفة الإمامية، كما هو معلوم من مذهبهم ضرورة، وصرح بنقله المحقق الطوسي رحمه الله عنهم، ولا ريب أن الشيء يعدم بعدم أصله الذي هو جزؤه كما نحن فيه، فيلزم الحكم بكفر من لم يتحقق له التصديق المذكور، وإن أقر بالشهادتين». (حقائق الإيمان ص١٣١، ١٣٢).

ويلاحظ من كلامه أنه لا يعتبر من نطق بالشهادتين مسلمًا إلا إذا صدق بإمامة الأئمة، وما ذاك إلا لاعتبارها أهم مطالب الدين وأشرف مسائل المسلمين.

يقول ابن المطهر الحلي في مقدمة كتابه منهاج الكرامة: «أما بعد: فهذه رسالة شريفة، ومقالة

لطيفة، اشتملت على أهم المطالب في أحكام الدين، وأشرف مسائل المسلمين، وهي مسألة الإمامة، التي يحصل بسبب إدراكها نيل درجة الكرامة، وهي أحد أركان الإيمان المستحق بسبب الخلود في الجنان، والتخلص من غضب الرحمن». (نقله عنه ابن تيمية في منهاج السنة ١/٧٣).

ويرون أن الإمامة كالنبوة يختار الله لها من يشاء من عباده ويؤيده بالمعجزة كالنبي، يقول أحد أئمتهم محمد حسين آل كاشف: «إن الإمامة منصب إلهي كالنبوة، فكما أن الله سبحانه يختار من يشاء من عباده للنبوة والرسالة، ويؤيده بالمعجزة التي هي كنص من الله عليه... فكذلك يختار للإمامة من يشاء ويأمر نبيه بالنص عليه، وأن ينصبه للناس إمامًا من بعده». (أصل الشيعة وأصولها ص٥٨١).

فالإمامة عندهم لا تكون إلا بالنص، وذهبوا إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم نصَّ على خلافة علي وأولاده من بعده، وقد عقد الكليني- أحد أئمتهم- بابًا قال فيه: «باب ما نص الله ورسوله على الأئمة»، ثم ذكرهم. (انظر أصول الكافي ١/٢٨٦).

ولم يقف الرافضة في الإمامة عند هذا الحد، بل جعلوها أعظم أركان الإسلام، وقد روى الكليني بإسناده عن أبي جعفر قال: «بُني الإسلام على الصلاة والزكاة والصوم، والحج، والولاية، ولم يناد بشيء كما نودي بالولاية». (الكافي ٢/١٥).

ولعلك تلاحظ- أيها القارئ الكريم- أنهم أسقطوا الشهادتين من أركان الإسلام، ووضعوا مكانهما الولاية، وهما أعظم أركان الإسلام، وبهما بدأ النبي صلى الله عليه وسلم حديثه في تعريف الإسلام، وقد ترتب على نظرة الإمامة عند الشيعة تكفير غيرهم ممن لم يؤمن بأصولهم، وهذه نتيجة حتمية لمذهبهم الفاسد.

حقد الروافض على الشيخين أبي بكر وعمر:

وقد بدؤوا بتكفير أبي بكر وعمر وعثمان رضي الله عنهم، ظنًا منهم أنهم سلبوا الإمامة من علي رضي الله عنه، ولذلك يخصونهم بالنصيب الأوفى من اللعن والسب والتكفير، وكتبهم ورواياتهم طافحة بذلك، فهذا شيخهم المجلسي يعقد بابًا بعنوان: «باب كفر الثلاثة ونفاقهم وفضائحهم». (بحار الأنوار ٨/٢٠٨).

وشيخهم المعاصر أبو علي الأصفهاني يذكر ذلك، ويؤكد عدم إيمان أبي بكر وعمر، وقد عقد بابًا في كتابه فرحة الزهراء عنون له بقوله: «عدم إيمان أبي بكر وعمر». ثم يقول: «وأما مسألة كفرهما فهو من الأمور المسلَّمة المتضافرة في الروايات الكثيرة التي نذكر بعضًا منها تبركًا وتيمنًا». (انظر: كتابه ص٣٣).

فهو يعتقد أن اليمن والبركة تتحققان بذكر روايات باطلة عندهم في تكفير الشيخين- رضي الله عنهما-!!

وهم يقترفون الكذب ولا يستحون في ذلك، ومن هذا مثلاً ما ينسبونه إلى محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال: إن أباه في النار، وقد روى ذلك الكشي في كتابه المعروف: برجال الكشي ص٦٠.

ولهم كلام حول هذا في عمر وعثمان رضي الله عنهما، كما لهم أعمال منكرة تنبئ عن حقدهم على الخلفاء الثلاثة وزراء رسول الله صلى الله عليه وسلم من بعده، وقد مات وهو راض عنهم، وعن سائر أصحابه صلى الله عليه وسلم، ومن ذلك ما يفعلونه في يوم عاشوراء من صناعة ثلاثة تماثيل، ويملئون بطونها بالعسل، ويسمون الأول منهم بأبي بكر، والثاني بعمر، والثالث بعثمان، ثم يبقرون بطونهم بسكين، فيسيل منها العسل، فيصفقون فرحًا بأخذ الثأر لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه. (انظر تبرير الظلام وتنبيه النيام لإبراهيم الجبهان ص٢٧).

ولا ينتهي حقدهم على الشيخين عند هذا الحد، بل صرحوا بأن المهدي المزعوم عندهم عندما يخرج سيأتي إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وينبش قبري أبي بكر وعمر ويخرجهما، ثم يصلبهما.

وقد ذكر ذلك الحسن بن سليمان الحلي عن المجلسي أنه قال في بحار الأنوار: «قال المفضل: يا سيدي، ثم يسير المهدي إلى أين؟ قال إلى مدينة جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فإذا وردها كان له فيها مقام عجيب، يظهر فيه سرور للمؤمنين وخزي للكافرين، قال المفضل: يا سيدي، ما هو ذاك؟ قال: يرد إلى قبر جده صلى الله عليه وسلم، فيقول: يا معشر الخلائق، هذا قبر جدي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولون، نعم، يا

مهدي آل محمد، فيقول: ومن معه في القبر؟ فيقولون: صاحباه وضجيعاه أبو بكر وعمر، فيؤخر إخراجهما ثلاثة أيام، ثم ينتشر الخبر في الناس، ويحضر المهدي ويكشف الجدران عن القبر، ويقول للنقباء: ابحثوا عنهما، وانبشوهما، فيبحثون بأيديهم، حتى يصلوا إليهما، فيخرجان غضين طريين كصورتهما، فيكشف عنهما أكفانهما، ويأمر برفعهما على درجة يابسة نخرة، فيصلبهما عليها». (انظر: مختصر بصائر الدرجات ص١٨٦).

أقول معقبًا على ذلك: هل هذه الأفعال يمكن أن تصدر من محبّ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ألم يكن أبو بكر هو الخليفة الأول لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بايعه الصحابة على ذلك؟ ثم كان عمر هو الخليفة الثاني بإجماع الصحابة عليه، ثم إن عائشة بنت أبي بكر وحفصة بنت عمر كانتا من زوجات رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهل يمكن أن يتزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم من أعدائه؟ سبحانك هذا بهتان عظيم!! وهو في الحقيقة طعن على دين الإسلام في الجملة، وعلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

تكفير الشيعة للصحابة:

ولم يقتصر لعنهم وتكفيرهم على الخلفاء الثلاثة فحسب، بل تعدى ذلك إلى سائر الصحابة، ولم يسلم منهم إلا النزر اليسير، وقد نصوا في رواياتهم على فضلاء الصحابة، ومن ذلك ما ذكره القمي في تفسيره عن الصادق قال: «لما أقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غديرخم، كان بحذائه سبعة نفر من المنافقين وهم: أبو بكر، وعمر، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، وأبو عبيدة، وسالم مولى أبي حذيفة، والمغيرة بن شعبة- قال الثاني يعني عمر-: أما ترون عينه كأنما عين مجنون، يعني النبي، الساعة يقوم ويقول: قال لي ربي، فلما قام قال: أيها الناس، من أولى بكم من أنفسكم؟ قالوا: الله ورسوله، قال: اللهم فاشهد، ثم قال: ألا من كنت مولاه فعلي مولاه، وسلموا عليه بإمرة أمير المؤمنين، فنزل جبرائيل وأعلم رسول الله بمقالة القوم فدعاهم وسألهم فأنكروا وحلفوا فأنزل الله: « يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ » (التوبة:٧٤). (انظر: تفسير القمي ج١/ ٣٠١).

وهذا تكفير منهم صريح وطعن على خيار الناس بعد الأنبياء- صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وهم يتقربون إلى الله تعالى بعد كل صلاة بلعن الخلفاء الثلاثة وغيرهم من فضلاء الصحابة وبعض أمهات المؤمنين، وقد عقد العاملي بابًا بعنوان: «باب استحباب لعن أعداء الدين عقيب الصلاة بأسمائهم»، وذكر فيه ما روى الكليني عن ابن ثور والسراج قال: «سمعنا أبا عبد الله رضي الله عنه وهو يلعن في دبر كل مكتوبة أربعة من الرجال، وأربعًا من النساء، فلانًا وفلانًا وفلانًا- يعني الخلفاء الثلاثة- ويسميهم ومعاوية، وفلانة وفلانة- عائشة وحفصة- رضي الله عنهما، وهند وأم الحكم أخت معاوية». (فروع الكافي ٩٥/١).

سب الشيعة ولعنهم لأهل السنة:

وهذا الموقف منهم ليس مقصورًا على الخلفاء وسائر الصحابة فحسب، بل تجاوزهم إلى عموم الأمة والأئمة من أهل السنة، وانظر مثلاً ما ذكره نعمة الله الجزائري عن كل من الشاه عباس وجده إسماعيل الصفوي تجاه قبر الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى، وماذا فعلا في قبر هذا الإمام العَلَم صاحب المذهب المعروف، وفي ذلك يقول: «إن السلطان الأعظم شاه عباس الأول لما فتح بغداد أمر بأن يجعل قبر أبي حنيفة كنيفًا، وقد أوقف وقفًا شرعيًا، فوقف بغلتين وأمر بربطهما على رأس السوق حتى إن كل من يريد الغائط يركبهما، ويمضي إلى قبر أبي حنيفة لقضاء الحاجة». (انظر الأنوار النعمانية ٣٢٤/٢).

وليس هذا بغريب عليهم، لأنهم يعتبرون سب ولعن أهل السنة من أفضل الطاعات، بل وصفوهم بالكفر والشرك، وفي هذا يقول محمد حسن النجفي: «وعلى كل حال فالظاهر إلحاق المخالفين بالمشركين في ذلك لاتحاد الكفر والإيمان فيهم، بل لعل هجاءهم على رؤوس الأشهاد من أفضل عبادة العباد ما لم تمنع التقية، وأولى من ذلك غيبتهم التي جرت سيرة الشيعة عليها في جميع الأعصار والأمصار علمائهم وعوامهم، حتى ملؤا القراطيس منها، بل هي عندهم من أفضل الطاعات». (جواهر الكلام ٦٢/٢٢).

وقد صرح بعضهم بأن سائر المسلمين من غيرهم ليسوا إخوانًا لهم وأنه تجوز غيبتهم، وفي هذا يقول أبو القاسم الخوئي في قول الله تعالى: « وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ » (الحجرات:١٢): «إن المستفاد من الآية والروايات هو تحريم غيبة المؤمن، ومن البديهي أنه لا أخوة ولا عصمة بيننا وبين

المخالفين». (مصباح الفقاهة ص٣٢٤).

ثم هم بعد ذلك يرون بطلان عبادات أهل السنة ولا يثابون على أعمالهم لعدم إقرارهم بجميع أئمتهم، ويذكر المجلسي أن أئمة الشيعة مجمعون على ذلك، فيقول: «واعلم أن الإمامية أجمعوا على اشتراط صحة الأعمال وقبولها بالإيمان الذي من جملته الإقرار بولاية جميع الأئمة عليهم السلام وإمامتهم». (بحار الأنوار ١٦٦/١٧).

حقد الشيعة على بلاد الحرمين:

وبناءً على معتقدهم في الإمامة فقد حكموا على كثير من البلاد بالكفر، وخصوا في ذلك أشرف البقاع، ووسموا أهلها بالكفر الصريح، وقد جاء في أصول الكافي ما يلي: «أهل الشام شر من الروم- يعني شر من النصارى-، وأهل المدينة شر من أهل مكة، وأهل مكة يكفرون بالله جهرة». (أصول الكافي ٤٩/٢).

وفيه أيضا: «إن أهل مكة ليكفرون بالله جهرة، وإن أهل المدينة أخبث من أهل مكة، أخبث منهم سبعين ضعفًا». (المرجع السابق ٤١٠/٢).

وحقدهم اليوم على بلاد الحرمين أشد، وما ذاك إلا لانتشار التوحيد فيها، ورفعهم لراية السنة النبوية وتعظيمهم للوحيين، ولذلك فهم يرغبون في القضاء عليها ونقل ثورتهم إليها، وقد صرح بذلك الدكتور محمد مهدي صادق في احتفال رسمي أقيم في عبادان في ١٩٧٩/٣/١٧م تأييدًا للثورة الإيرانية، وقد ذكر فيه أن ثورتهم ستنتقل إلى القدس وإلى مكة المكرمة، وإلى أفغانستان، وإلى مختلف البلاد، ثم قال: «أصرح يا إخواني المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها أن مكة المكرمة حرم الله الآمن يحتلها شرذمة من اليهود». (انظر أصول مذهب الشيعة ١٤١٦/٣).

فتأمل أيها القارئ اللبيب كيف ينظرون إلى بلاد المسلمين وحكوماتهم اليوم؟ فهم لا يرون حكومة صحيحة إلا حكومتهم، حتى عهد النبي صلى الله عليه وسلم وخلفائه الراشدين، يقول أحمد الفهري: «إن الخميني أسس الجمهورية الإسلامية العظمى في إيران لأول مرة في تاريخ الإسلام، وحقق حلم الأنبياء والرسول الأعظم صلى الله عليه وسلم، والأئمة المعصومين عليهم السلام». (انظر تقديمه لكتاب سر الصلاة للخميني ص١٠).

وذهب أحد أئمتهم إلى أن حكومة الرسول صلى الله عليه وسلم وخلفائه لا تصل إلى مقام دولتهم، وفي ذلك يقول: «إننا نعتقد أن الجمهورية الإسلامية هي المؤهلة للحياة في هذا الزمان، ولم تكن مؤهلة للحياة في فجر الإسلام». (انظر: أصول مذهب الشيعة ١٤١٢/٣).

وهذه الأقوال التي ذكرتها عن المعاصرين منهم تدل على أن تكفير الشيعة لمخالفيهم ليس مقصورًا على المتقدمين منهم فحسب، بل هم على مدار تاريخهم يلعنون المسلمين من أهل السنة ويسبونهم ويكفرونهم.

وقد وقفت على نص للإمام الشوكاني (ت١٢٥٠هـ) يذكر فيه عن رجل اسمه (إسماعيل بن عز الدين النعمي) أنه كان رافضيا جلدًا وكان جاهلاً يسعى إلى تفريق كلمة المسلمين، وكان يقول: إن أكابر العلماء وأعيانهم ناصبة- يعني يبغضون عليًا رضي الله- كما ذكر عن رجل آخر اسمه (ضرغام)، كان يطلع على بعض كتب الرافضة، وصار يجلس في المسجد ويملي سب الصحابة على من هو أجهل منه. (انظر: البدر الطالع ٣٤٧/٢).

ومحمد باقر الصدر (ت١٩٨٢م) يصف الصديق رضي الله عنه بالخوف والجبن، وأنه كان يشتري ذمم الصحابة بالمال لتثبيت خلافته، وأن خلافته لم تباركها السماء، ولا رضي بها المسلمون. (انظر: كتاب فدك في التاريخ ص١٢٥-١٣٨).

والخميني مؤسس دولتهم المعاصرة يطعن طعنًا شديدًا في أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه-. (انظر كتاب كشف الأسرار ص١٧٣).

فرق مهم وجوهري بين الخوارج والروافض:

ويطول ذكر الكلام حول هؤلاء وبيان موقفهم من الصحابة والأئمة والأمة بصورة عامة، ولعلي بهذا أكون قد أبرزت موقف الشيعة من تكفير المخالفين لهم، ومشابهتهم للخوارج في التكفير، غير أنه يوجد فرق مهم وجوهري بين الخوارج والروافض، فالخوارج يُظهرون معتقدهم ولا يتحاشون من الخلق، ولذلك تصدى لهم أهل السنة، بل قاتلوهم على فساد معتقدهم، بخلاف الرافضة الذين يأخذون بمبدأ التقية، ويُظهرون ما لا يضمرون، ولذلك خفي أمرهم على البعض.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجنبنا شرورهم، وأن ينصر دينه وكتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم.

التوحيد عند أهل السنة والجماعة

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وبعد:

فمع مبحث جديد من مباحث العقيدة، ألا وهو مبحث التوحيد عند أهل السنة والجماعة، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أقسام التوحيد عند أهل السنة والجماعة:

التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أنواع، وهذه القسمة استقرائية، دلت عليها النصوص.

يقول الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي (رحمه الله): دلَّ استقراء القرآن العظيم على أن التوحيد ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توحيده في ربوبيته، وهذا النوع جُبلت عليه فِطَر العقلاء.

الثاني: توحيده (جل وعلا) في عبادته، وضابط هذا النوع من التوحيد هو تحقيق معنى لا إله إلا الله، وهي متركبة من نفي وإثبات.

الثالث: توحيده (جل وعلا) في أسمائه وصفاته.

توحيد الربوبية:

(أ) معنى الرب لغةً، وتعريف توحيد الربوبية شرعًا:

الرب لغة: يأتي لعدة معان، منها: المربي، والمالك. يقال: رب كل شيء يعني: مالكه، ومستحقه، أو صاحبه.

الربوبية شرعًا: هو الاعتقاد والاعتراف والإقرار الجازم بأن الله وحده رب كل شيء ومالكه، وخالق كل شيء ورازقه، وأنه سبحانه المحيي والمميت، والنافع والضار، المتفرد بإجابة الدعاء عند الاضطرار، الذي له الأمر كله، وبيده الخير كله، وإليه يرجع الأمر كله، ليس له سبحانه في ذلك شريك أبدًا.

(ب) بعض الأدلة الشرعية على توحيد الربوبية:

القرآن الكريم مليء بذكر الأدلة الشرعية على ربوبية الله عز وجل ومن ذلك قوله تعالى: «ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ» (الفاتحة: ١)، وقوله (جل ذكره): «إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ» (البقرة: ١٦٤).

(جـ) دلالة الفطرة على توحيد الربوبية:

هذا النوع من التوحيد -أي: توحيد الربوبية- جُبلت عليه فطر العقلاء؛ فالله عز وجل فطر خلقه على الإقرار بربوبيته، وأنه الخالق الرازق، المحيي المميت، قال رب العالمين سبحانه: « فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ » (الروم: ٣٠)، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم في سنته كما في «الصحيحين»، وغيرهما من رواية أبي هريرة رضي الله عنه: «كل مولود يولد على الفطرة» أي: الإيمان بوجود الله- تبارك وتعالى- ثم إذا كفر أو ألحد وخرج؛ فهذا بسبب البيئة التي غيرته؛ ولذلك قال عقب ذلك صلى الله عليه وسلم: «فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

وقد حكى الله عز وجل عن المشركين أنهم يقرون بهذا النوع من التوحيد فقال: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » (العنكبوت: ٦١)، وقال تعالى: « وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ » (الزخرف: ٨٧).

(د) موقف المشركين من توحيد الربوبية، وهل يكفي وحده في الدخول في الإسلام؟

هذا التوحيد كما أقرّ به المشركون الذين بُعث فيهم رسول الهدى والرحمة صلى الله عليه وسلم كذلك أقرت به سائر الأمم، إمَّا ظاهرًا وباطنًا، أو باطنًا فقط، وفرعون الذي أنكره ظاهرًا أقر به باطنًا، وقد ذكر ذلك رب العالمين عنه في كتابه فقال: «وَجَحَدُوا۟ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ » (النمل: ١٤)، أي: جحدوا بحقيقة واضحة وهي ربوبية رب العالمين سبحانه، ولكن قلوبهم متيقنة غاية اليقين بغير ذلك، متيقنة بأن الله ربهم وخالقهم ومالكهم ورازقهم.

ولهذا أقول: إن هذا التوحيد مع أنه فطري في النفوس والقلوب، وجبلت عليه كذلك، وقد أقر به المشركون، وسائر طوائف الأرض، ومن أنكره فقد أنكره في الظاهر فحسب. فنقول بعد ذلك: لا يكفي هذا التوحيد وحده في الدخول في الإسلام، وصاحبه -أي: من أقر بأن الله الخالق الرازق- ولكنه لم يعبد ربه ومولاه، ولم يصرف إليه أنواع العبادة لا يكون بذلك موحدًا، ولا يدخل بذلك في الإسلام.

وقد قاتل النبي صلى الله عليه وسلم المشركين، وقد سبق أن قررنا أنهم أقروا بربوبية الله- تبارك وتعالى- ولكنه قاتلهم في بدر وغيرها، وقطع رقابهم، ونعتهم بالمشركين؛ لأنهم صرفوا عبادتهم لغير الله تعالى مع قولهم: إن الله خالقهم ورازقهم، وما إلى ذلك، وهذا يبين لنا إذًا أهمية توحيد العبادة، ووجوب صرف العبادة لله وحده دون سواه.

توحيد الأسماء والصفات:

(أ) الأسس التي يقوم عليها هذا التوحيد:

يقوم هذا النوع من التوحيد على أسس ثلاثة:

الأول: أن أسماء الله عز وجل وصفاته كلها توقيفية لا يجوز إطلاق شيئ منها على الله في الإثبات أو في النفي إلا بإذن من الشرع، فلا نثبت لله سبحانه من الأسماء والصفات إلا ما أثبته هو لنفسه أو أثبته له رسوله صلى الله عليه وسلم ولا ننفي عنه كذلك من الأسماء والصفات إلا ما نفاه هو عن نفسه أو نفاه عنه رسوله صلى الله عليه وسلم وما لم يصرح الشرع بإثباته ولا بنفيه؛ يجب التوقف فيه حتى يُعلم ما يراد به، فإن أريد به معنى صحيحٌ موافقٌ لما جاء به النص؛ قبل وإلا وجب رده.

الثاني: أن الله عز وجل في كل ما ثبت له من الأسماء والصفات لا يماثل شيئًا من خلقه ولا يماثله شيء، بل كل ما ثبت له من صفات الكمال التي وردت بها النصوص الصريحة من الكتاب والسنة فهو مختص به، لا يشركه فيه أحد من خلقه، وليس معنى هذا أن ما يطلق على الرب أو على صفاته من أسماء لا يسمى به غيره، فقد يكون الاسم مشتركًا بينه وبين غيره أو بين صفته وصفة غيره، ولكن هذا الاشتراك في الاسم لا يوجب مماثلة المخلوقين له فيما دلت عليه هذه الأسماء.

ونضرب على ذلك مثالاً: تسمية الله- تبارك وتعالى-بأنه عالم وتسمية العبد أيضًا بأنه عالم، لا يوجب ذلك مماثلة علم الله لعلم العبد، وكذا تسميته تعالى مريدًا وحيًّا، وسميعًا وبصيرًا ومتكلمًا، إلى غير ذلك من الأسماء التي قد تطلق على المخلوقين، لا يوجب أن تكون إرادتهم كإرادته ولا حياتهم كحياته، فعلم الله مثلاً علم شامل واسع محيط: «وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا » (الأنعام: ٨٠)، أما علم الإنسان فهو

علم قاصر محدود.

الثالث: أن صفات الله سبحانه كلها كمال، فهو موصوف سبحانه بصفات الكمال التي لا غاية وراءها، بريء من سمات النقص والاحتياج والحدوث، والواجب أن يثبت له (تبارك وتعالى) أقصى ما يمكن من الأكملية؛ بحيث لا يكون هناك كمال عار عن النقص إلا وهو ثابت له يستحقه بكمال ذاته، ويتنزه عن الاتصاف بضده، وضابط ذلك: أن كل كمال ثبت للمخلوق وأمكن أن يتصف به الخالق؛ كان الخالق أولى به، وكل نقص تنزه عنه المخلوق؛ فالخالق أولى بالتنزه عنه.

(ب) الأدلة على ثبوت الصفات لله- تبارك وتعالى-:

إن هذه الأدلة التي استدل بها أهل السنة والجماعة، وسلف هذه الأمة على ثبوت الصفات لله عز وجل أدلة قوية للغاية. وبيانها كالتالي:

الأول- وهو الأقوى-: أن نصوص الكتاب والسنة كلها متضافرة على الإثبات، ولم يرد فيهما نص واحد يدل على النفي، يعرف ذلك كله من له إلمام بتلك النصوص المتعلقة بالصفات، والنصوص الواردة في النفي هي نفي ما لا يمكن أن يكون لله (تبارك وتعالى)، وهذا النفي يتضمن ثبوت كمال ضده؛ لأن النفي المحض لا خير فيه ولا بركة ولا يوجد في كتاب الله، ولا يوجد في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الثاني: أن القرون الثلاثة الأولى التي هي خير القرون، بشهادة رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مضت، وكلام السلف في الإثبات بلا تأويل، فلم يرد عن واحد منهم ما يدل لا نصًا ولا ظاهرًا على أنه أول آية من آيات الصفات، أو قال: إن ظاهر معناها مستحيل على الله، ولا شك أن هؤلاء السلف هم أكمل الأمة علمًا وإيمانًا، وإجماعهم حجة قاطعة؛ فإنه لا يجتمعون على ضلالة، وإذا اختلفوا فالحق لا يخرج عنهم.

توحيد الإلوهية:

(أ) تعريف كلمة «إله» وتعريف توحيد الإلوهية:

يجب أن يعلم أن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات، هما من جنس واحد، فتوحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات ليس عمليًا كتوحيد الإلوهية، فتوحيد الإلوهية توحيد عملي فيه أمر بفعل يصرف لله عز وجل أو فيه نهي عن فعل يترك لأجل الله- تبارك وتعالى- ولهذا فتوحيد الإلوهية من أعظم وأشرف أنواع التوحيد، ولما قصر المشركون عنه لم يثبت لهم إسلام، ولم يدخلوا في الإيمان.

تعريف كلمة «إله»: يقال في اللغة: أَلَهَ إلاهة وأُلوهَة والوهية أي: عبد عبادة، وتوحيد الإلوهية: أي: توحيد العبادة. والإله بمعنى مألوه أي: معبود، وأَلَهَهُ: اتخذه إلهًا، أي: معبودًا، وكل ما اتُخِذَ معبودًا فهو إله عند متخذيه.

تعريف توحيد الإلوهية:

عرَّف العلماء توحيد الإلوهية: بأنه إفراد الله تعالى بجميع العبادة الظاهرة والباطنة قولاً وعملاً، ونفي العبادة عن كل ما سوى الله- تبارك وتعالى- كائنًا ما كان.

(ب) منزلة توحيد الإلوهية بين أنواع التوحيد:

هذا التوحيد هو أول دعوة الرسل (عليهم الصلاة والسلام) فمن أجله أرسلت الرسل، كما قال تعالى: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ » (النحل: ٣٦).

وبهذا التوحيد أنزل الله الكتب كما قال تعالى: «وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » (الأنبياء: ٢٥)، وهذا التوحيد هو الفارق بين الموحدين والمشركين؛ وعليه يقع الثواب أو العقاب في الدارين.

فلو أن رجلاً من الناس مثلاً يؤمن بأن الله عز وجل هو الخالق المالك المدبر لجميع الأمور، وأنه عز وجل المستحق لما يستحقه من الأسماء والصفات، لكن يعبد مع الله غيره لن ينفعه إقراره بتوحيد الربوبية والأسماء والصفات، وكذا لو صرف شيئًا من العبادة لغير الله عز وجل لأن الله عز وجل يقول: «إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ » (المائدة: ٧٢).

(جـ) العلاقة بين توحيد الإلوهية وتوحيد الربوبية:

يكثر في كلام علماء أهل السنة (رحم الله أمواتهم وحفظ أحياءهم) ذكر علاقة الاستلزام والتضمن بين نوعي التوحيد هذين -أي: الإلوهية والربوبية- ومن كلامهم قول العلامة ابن القيم رحمه الله في قوله: والإلهيات التي دعت الرسل أممهم إلى توحيد الرب بها هي العبادة والتأليه، ومن لوازمها توحيد الربوبية الذي أقر به

المشركون؛ فاحتج الله عليهم به، فإنه يلزم من الإقرار به الإقرار بتوحيد الإلهية.

وهنا نص- رحمه الله تعالى- على أنه يلزم من توحيد الربوبية عبادة الله- تبارك وتعالى- وحده دون سواه.

فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلوهية، فمن أقر بالأول لزمه الثاني؛ أي: من عرف أن الله عز وجل ربه وخالقه ومدبر أموره، وقد دعاه هذا الخالق إلى عبادته وحده؛ وجب عليه أن يعبده وحده لا شريك له، فإذا كان هو الخالق الرازق النافع الضار وحده، لزم إفراده بالعبادة، والله عز وجل كثيرًا ما يستدل على المشركين المقرين بتوحيد الربوبية بهذا، يعني: أنه يلزمهم عبادة الله وحده؛ طالما أنهم أقروا بربوبية الله سبحانه.

ومن ذلك مثلاً ما جاء في قوله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ » (البقرة: ٢١، ٢٢)، وكما كان توحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلوهية، فإن توحيد الإلوهية يتضمن توحيد الربوبية.

وأعظم الغلط إنما حصل من جهة الانحراف في فهم مدلول كل من توحيد الربوبية وتوحيد الإلوهية؛ فليس أحدهما هو الآخر، والفروق بينهما كثيرة جدًا.

الفرق الأول: في الاشتقاق اللغوي: فالربوبية مشتقة من اسم الرب، والإلوهية مشتقة من لفظ الإله.

الفرق الثاني: في التعريف: فتوحيد الربوبية: إفراد الله بأفعاله من خلق ورزق وإحياء وإماتة، وإعطاء، ومنع، وضر، ونفع وغير ذلك، وتوحيد الإلوهية: إفراد الله بأفعال عباده من صلاة، وزكاة، وصيام، وخشية، ورجاء، ومحبة، وخوف، وتوكل.

الفرق الثالث: في الكفاية: فتوحيد الربوبية لا يكفي وحده في دخول الإسلام، أما توحيد الإلوهية فيكفي وحده؛ لأن من أتى بتوحيد الإلوهية فقد أتى ضمنًا بتوحيد الربوبية؛ لأنه يستحيل أن يعبد إنسان ربه ومولاه وهو لا يعتقد أن الله خالقه ورازقه؛ لذلك من قال: لا إله إلا الله؛ فقد أتى بجميع أنواع التوحيد.

الفرق الرابع: في الإقرار: فتوحيد الربوبية أقر به المشركون، وتوحيد الإلوهية رفضه المشركون ولم يؤمنوا به، وعبدوا آلهة أخرى، وقالوا: « مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ » (الزمر: ٣)، ولما طلب منهم أن يعبدوا الله وحده قالوا ما حكاه الله عنهم: « أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ » (ص: ٥).

الفرق الخامس: في اللزوم والتضمن: فتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الإلوهية، فمن أتى بتوحيد الربوبية؛ لزمه أن يأتي بتوحيد الإلوهية. أما توحيد الإلوهية فإنه متضمن لتوحيد الربوبية، فمن جاء بتوحيد الإلوهية فقد أتى ضمنًا بتوحيد الربوبية.

(د) أساليب القرآن الكريم في الدعوة إلى توحيد الإلوهية:

يسلك القرآن الكريم إلى هذا المطلب الأعظم أساليب متعددة؛ أهمها ما ذكرناه من آيات الربوبية الدالة على الخلق والتدبير، والحفظ والرعاية والإحسان والرحمة، وإلى غير ذلك مما جاء فيها من آيات ترشد وتشير إلى ربوبية رب العالمين سبحانه على خلقه من خلال ما ذكره سبحانه.

ومن أساليب القرآن في الدعوة إلى توحيد الإلوهية أيضًا: التنديد بما يتخذه الناس آلهة من دون الله، وإظهار حالها من العجز الشنيع، والفقر البالغ، والغفلة عمن يدعوها ويفزع إليها، كقوله: « أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ » (الأعراف: ١٩١-١٩٥).

فتوحيد الإلوهية أهم أنواع التوحيد، وعلى المسلم أن يفقهه، وأن يتعلمه، وأن لا يشرك مع الله أحدًا.

نسأل الله أن يرزقنا سلامة المعتقد حتى نلقاه على لا إله إلا الله محمد رسول الله، وإلى لقاء قريب، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

شهر شعبان وما أحدث الناس فيه

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي

www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أكمل لنا الدين، وأتم علينا النعمة، والصلاة والسلام على المبعوث من الله رحمة، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فشهر شعبان من الأشهر التي ورد في فضلها بعض الأحاديث عن النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عليه الصلاة والسلام يُكثر من الصيام فيه، وقد بَيَّن صلى الله عليه وسلم العلة في ذلك، كما في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما قال: قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم شهرًا من الشهور ما تصوم من شعبان؟ قال: "ذلك شهر يَغفُل الناس عنه بين رجب ورمضان، وهو شهر تُرفَع فيه الأعمال إلى رب العالمين، فأحب أن يُرفَع عملي وأنا صائم". (رواه أحمد في مسنده ٥/٢٠١، والنسائي في سننه ٤/١٧١، وحسنه الألباني في الصحيحة ٤/٥٢٢).

وهو يدل على استحباب الصيام في شهر شعبان، وقد عقد البخاري في كتاب الصوم من صحيحه بابًا قال فيه: «باب صوم شعبان». قال ابن حجر في شرحه: أي استحبابه، ثم ساق البخاري حديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصوم حتى نقول لا يفطر، ويفطر حتى نقول لا يصوم، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استكمل صيام شهر إلا رمضان، وما رأيته أكثر صيامًا منه في شعبان». (البخاري مع الفتح ٤/٢١٣).

وقد رجَّح ابن حجر أن العلة في كثرة صيام شهر شعبان ما ذكره أسامة بن زيد عن النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق. (المرجع السابق ٤/٢١٥).

وقد أحدث بعض الناس عبادات في هذا الشهر لم تثبت من فعل النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضوان الله عليهم أجمعين، ومن ذلك:

١- الاحتفال بليلة النصف من شعبان:

لا يوجد دليل شرعي صحيح يُعتمد عليه في الاحتفاء والاحتفال بليلة النصف من شعبان وتخصيصها بصلاة وصيام، ومن المعلوم أنه لا فضل لأيّ وقت على وقت آخر إلا ما فضَّله الشرع، وما ذكره القرطبي عن عكرمة أنه قال في تفسير قول الله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ

﴿ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ﴾ (الدخان: ٣- ٤). "إن هذه الليلة هي ليلة النصف من شعبان، يُبرَم فيها أمر السنة، وينسخ الأحياء من الأموات، ويكتب الحاج فلا يزاد فيهم أحد ولا ينقص منهم أحد"، لا يصح، وقد رده كثير من المفسرين، وبينوا بطلانه، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير الآيتين السابقتين: «يقول تعالى مخبرًا عن القرآن العظيم أنه أنزله في ليلة مباركة، وهي ليلة القدر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ (القدر:١). وكان ذلك في شهر رمضان، ومن قال: إنها ليلة النصف من شعبان فقد أبعد النجعة، فإن نص القرآن أنها في رمضان». (تفسير ابن كثير ١٧٦/٤)، كما ذكر الشوكاني رحمه الله أن الجمهور على القول بأنها ليلة القدر، لا ليلة النصف من شعبان. (انظر تفسير فتح القدير ٥٧٠/٤).

وقد ناقش الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رحمه الله القائلين بأن الليلة المباركة هي ليلة النصف من شعبان، وبيَّن بطلان قولهم، فقال: «وقد بيَّن الله تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان في قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ (البقرة:١٨٥)، فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا شك أنها دعوة باطلة لمخالفتها لنص القرآن الصريح، ولا شك أن كل ما خالف الحق فهو باطل.

والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها ليلة النصف من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي وغير واحد من المحققين، فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة». (أضواء البيان ٣١٩/٧).

وقد ذكر الحافظ ابن رجب أن بعض التابعين من أهل الشام هم الذين عظَّموا ليلة النصف من شعبان، واجتهدوا فيها في العبادة، ولم يثبت فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء ولا عن أصحابه الكرام، وفي ذلك يقول: «وليلة النصف من شعبان كان التابعون من أهل الشام كخالد بن معدان، ومكحول، ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد قيل: إنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية». (لطائف المعارف ص١٩٩).

ثم ذكر -رحمه الله- الخلاف الواقع بين التابعين في هذه المسألة، وأطال النَّفَس في ذلك، ثم قال: «ولا يُعرَف للإمام أحمد كلام في ليلة النصف من شعبان، ويخرج في استحباب قيامها عنه روايتان من الروايتين عنه في قيام ليلة العيد، فإنه في رواية لم يستحب قيامها جماعة؛ لأنه لم ينقل عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، واستحبها في رواية؛ لفعل عبد الرحمن بن يزيد بن الأسود لذلك وهو من التابعين، فكذلك قيام ليلة النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولا عن أصحابه، وثبت فيها عن طائفة من التابعين من أعيان فقهاء الشام». (المرجع السابق ص٢٠٠).

ولعل القارئ الكريم يلاحظ أن ابن رجب نصَّ على أنه لم يثبت فيها عن النبي صلى الله عليه وسلم شيء، ولا عن صحابته الكرام، وكفى بهذا حجة على عدم قيامها أو الاجتماع فيها؛ لأن كل شيء لم يثبت بالأدلة الشرعية لا يكون مشروعًا، وعليه فلا يجوز التعبد لله به؛ لعموم قوله عليه الصلاة والسلام: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد». (مسلم: ١٧١٨).

وقد ذهب كثير من المحدثين وأهل العلم إلى ما ذهب إليه ابن رجب من أن الأحاديث الواردة في فضلها لا تصح. قال أبو شامة: «قال أبو الخطاب ابن دحية: قال أهل التعديل والتجريح: ليس في فضل ليلة النصف من شعبان حديث صحيح». (الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٣٣).

والأحاديث التي استدل بها القائلون بقيامها وصومها لا تصح، كحديث: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها، وصوموا نهارها، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا فيقول: ألا من مستغفر فأغفر له، ألا من مسترزق فأرزقه، ألا من مبتلى فأعافيه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلع الفجر». وهذا الحديث رواه ابن ماجه عن علي كما في سننه (٤٤٤/١). قال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف لضعف ابن أبي سبرة، واسمه: أبو بكر بن عبد الله بن محمد بن أبي سبرة. قال فيه أحمد بن حنبل وابن معين: يضع

الحديث». (المرجع السابق).

وقال فيه الذهبي: «ضعفه البخاري وغيره، وروى عبد الله وصالح ابنا أحمد عن أبيهما قال: كان يضع الحديث، وقال النسائي: متروك». (ميزان الاعتدال في نقد الرجال ١٧٧/٦).

ومثله حديث أبي موسى الأشعري: «إن الله ليطلع على عباده في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن». (سنن ابن ماجه ٤٤٥/١).

قال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة، وتدليس الوليد بن مسلم». (المرجع السابق).

كما استدل البيهقي على فضلها بحديث عائشة رضي الله عنها، وفيه: قالت: «فقدت رسول الله صلى الله عليه وسلم ليلة فخرجت فإذا هو بالبقيع، فقال: أكنت تخافين أن يحيف الله عليك ورسوله؟ قلت: يا رسول الله، ظننت أنك أتيت بعض نسائك، فقال: إن الله تبارك وتعالى ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كَلْب». (رواه أحمد في مسند ٢٣٨/٦، والترمذي في سننه، وقال عقبه: حديث عائشة لا نعرفه إلا من هذا الوجه من حديث الحجاج، وسمعت محمدًا يُضَعِّفُ هذا الحديث، وقال يحيى بن أبي كثير: لم يسمع من عروة، قال محمد: والحجاج لم يسمع من يحيى بن أبي كثير. (تحفة الأحوذي: ٤٤١).

فالحديث إذن منقطع في موضعين: أحدهما: ما بين الحجاج ويحيى، وما بين يحيى وعروة، ومع هذا فالحديث لا يدل على فضل هذه الليلة دون غيرها من الليالي، لما ثبت في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له». (البخاري: ١١٤٥، ومسلم: ٧٥٨).

فهذا الحديث يدل على أن اطلاعه على خلقه وغفرانه لهم دائم في ليالي العام، وليس متوقفًا على ليلة معينة من السنة، وقد ذكر الشيخ علي محفوظ رحمه الله أن احتفال المسلمين بإحياء ليلة النصف من شعبان بالصلاة والدعاء لم يكن على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا عهد الصحابة رضي الله عنهم أجمعين، ثم قال: «وجملة القول: أن كل الأحاديث الواردة في ليلة النصف من شعبان دائرٌ أمرها بين الوضع والضعف وعدم الصحة، فقد نقل أبو شامة الشافعي عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه «العارضة»: ليس في ليلة النصف من شعبان حديث يساوي سماعه». (الإبداع في مضار الابتداع ص٢٨٧).

وقال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله في الاحتفال بليلة النصف من شعبان: «وهو من مواسم البدعة التي ينسبونها إلى الشرع وليست منه». (مجلة المنار: ٦٦٥/٣).

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله- بعد ذكره لكلام أهل العلم في الاحتفال بليلة النصف من شعبان-: «ومما تقدم من الآيات والأحاديث وكلام أهل العلم يتضح لطالب الحق أن الاحتفال بليلة النصف من شعبان بالصلاة أو غيرها، وتخصيص يومها بالصيام بدعة عند أكثر أهل العلم، وليس له أصل في الشرع المطهر، بل هو مما حدث في الإسلام بعد عصر الصحابة.

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: «لا تختصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليالي، ولا تخصوا يومها بصيام من بين الأيام؛ إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم»، فلو كان تخصيص شيء من الليالي بشيء من العبادات جائزًا، لكانت ليلة الجمعة أولى من غيرها؛ لأن يومها هو خير يوم طلعت عليه الشمس بنص الأحاديث الصحيحة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فلما حذر النبي صلى الله عليه وسلم من تخصيصها بالقيام من بين الليالي، دل ذلك على أن غيرها من الليالي من باب أولى لا يجوز تخصيص شيء منها بشيء من العبادة، إلا بدليل صحيح يدل على التخصيص. (التحذير من البدع ص١٥، ١٦).

ومن البدع التي يفعلها البعض في ليلة النصف من شعبان الدعاء المخترع ونصه: «اللهم يا ذا المن ولا يُمَنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطول والإنعام، لا إله إلا أنت، ظهر اللاجئين وجار المستجيرين، وأمان الخائفين، اللهم إن كنت كتبتني عندك في أم الكتاب شقيًا أو محرومًا، أو مطرودًا أو مقترًا عليَّ في الرزق، فامح اللهم بفضلك شقاوتي وحرماني، وطردي واقتار رزقي وأثبتني عندك في أم الكتاب سعيدًا مرزوقًا موفقًا للخيرات، فإنك قلت وقولك الحق في كتابك المنزل على لسان نبيك المرسل: «يمحو الله

ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»، إلهي بالتجلي الأعظم في ليلة النصف من شعبان المكرم، التي يفرق فيها كل أمر حكيم ويبرم؛ أسألك أن تكشف عنا البلاء ما نعلم وما لا نعلم، وما أنت به أعلم، إنك أنت الأعز الأكرم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وسلم».

وهذا الدعاء لا أصل له، ومثله لا تجوز نسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال الشيخ علي محفوظ: «وأما الدعاء الذي تجتمع له الناس في المساجد هذه الليلة فلم يثبت عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه، ولا عن أصحابه ولا عن السلف الصالح رضوان الله عليهم، وأصل هذه البدعة ما نُقل عن اليافعي أنه قال: إن أولى ما يدعى به في ليلة النصف من شعبان: اللهم يا ذا المن ولا يُمَنُّ عليه.. إلخ». (الإبداع ص٢٩٠).

وقال الشيخ محمد عبد السلام الشقيري بعد ما ذكر أنه دعاء لا أصل له ولا مستند: «فيا عباد الله! شيء لا هو في كتاب الله ولا في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا في عبادة خلفائه، ولا أصحابه، ولا أتباعه، كيف تتعبدون به؟! والصحابة يقولون: كل عبادة لا يتعبد بها أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فلا تعبدوها». (السنن والمبتدعات ص١٤٧).

٢- بدعة الصلاة الألفية:

هذه الصلاة المخترعة سُميت بالألفية لقراءة سورة الإخلاص فيها ألف مرة؛ لأنها مائة ركعة، ويقرأ المصلي فيها سورة الإخلاص عشر مرات في كل ركعة، فينتج هذا العدد، وأول من أحدث الصلاة الألفية في ليلة النصف من شعبان رجلٌ يعرف بابن أبي الحمراء من أهل نابلس، قدم على بيت المقدس سنة ٤٤٨هـ، وكان حسن التلاوة، فقام فصلى في المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان، فصلى خلفه رجل، ثم انضاف إليهما ثالث ورابع، ثم جاء في العام القابل فصلى معه خلقٌ كثير، وشاعت في المسجد، وانتشرت في المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم، ثم استقرت كأنها سُنَّة. (انظر: الحوادث والبدع للطرطوشي ص١٢١، ١٢٢).

وهذه الصلاة المبتدعة ليست من الهدي النبوي، بل هي مما اخترعه بعض الناس كما ذكرت آنفًا، والأحاديث الواردة في صفتها والأجر المترتب عليها غير صحيحة، بل نص أهل العلم على أنها موضوعة. قال ابن الجوزي: «هذا حديث لا نشك أنه موضوع، وجمهور رواته في الطرق الثلاثة مجاهيل وفيهم ضعفاء بمرة، والحديث محال قطعًا». (الموضوعات ٢/١٢٧).

وقال الشوكاني: «حديث: يا علي، من صلى مائة ركعة ليلة النصف من شعبان يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب، وقل هو الله أحد، عشر مرات قضى الله له كل حاجة"، هو موضوع، وفي ألفاظه المصرحة بما يناله فاعلها من الثواب ما لا يمتري إنسان له تمييز في وضعه، ورجاله مجهولون، وقد روي من طريق ثانية وثالثة كلها موضوعة، ورواتها مجاهيل». (الفوائد المجموعة حديث: ١٠٦).

وقد تتابعت كلمات أهل العلم على بدعيتها، قال ابن تيمية: «وكذلك ما قد أحدث في ليلة النصف من شعبان العام للصلاة الألفية في المساجد الجامعة، ومساجد الأحياء والدروب والأسواق، فإن هذا الاجتماع لصلاة نافلة مقيدة بزمان وعدد، وقدر من القراءة لم تشرع؛ مكروهٌ، فإن الحديث الوارد في الصلاة الألفية موضوعٌ باتفاق أهل العلم بالحديث». (اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٢٨).

وقال الشيخ علي محفوظ: «وأما الصلاة المخصوصة التي يفعلها بعض الناس في هذه الليلة فقد ذكر حديثها في الإحياء، وقوت القلوب، ولكن قد صرح جماعة من الحفاظ بأنه موضوع. وقال الحافظ العراقي: "حديث صلاة ليلة النصف موضوع على رسول الله صلى الله عليه وسلم"».

وقال الإمام النووي في كتابه المجموع: «الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب، وهي اثنتا عشرة ركعة بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة من رجب، وصلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة، هاتان الصلاتان بدعتان منكرتان، ولا نغتر بذكرهما في قوت القلوب، وإحياء علوم الدين، ولا بالحديث المذكور فيهما؛ فإن كل ذلك باطل». (الإبداع ص٢٨٨).

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لإحياء السنن وإماتة البدع، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه.

باب العقيدة

حقيقة انتساب الجماعات المعاصرة إلى أهل السنة والآثار الناجمة عن ذلك

إعداد/ د. عبد الله شاكر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد،

ففي ختام هذه المباحث العقدية نتناول في هذا العدد حقيقة انتساب الجماعات المعاصرة إلى أهل السنة، والآثار الناجمة عن ذلك، فنقول وبالله تعالى التوفيق:

أهم المستلزمات التي تترتب على الانتماء لأهل السنة والجماعة:

- أن يتعلم عقيدتهم، ويتشبع بها، ويكون ملمًا بأصولها في الجملة، وأن يطلب العلم الشرعي، ويتفقه في الدين على العلماء والمشايخ، ليدعو على بصيرة وهدى، وأن يوجه أتباعه إلى أخذ العلم الشرعي عن المشايخ، وهذه مسألة مهمة، وبعد ذلك لابد أن يدعو إليها ويبينها للناس ويذود عنها؛ لأنها الحق، يعني: يدعو إلى عقيدة أهل السنة بعد أن عرفها وتعلم العلم الشرعي، وأن يبينها للناس، وأن يدافع عنها.

- كما يتحتم على من انتمى لعقيدة أهل السنة والجماعة-وهو داعية-: أن يظهر أثرها على أفكاره وأهدافه، وأقواله وكتاباته، بل وعلى سلوكه وأعماله، بحيث يكون ملمًا بتفصيلاتها في العموم، وهذا العموم يشمل -أولا- الأصول الاعتقادية، كالايمان والتوحيد، والأسماء والصفات، والقدر، وحقوق الصحابة، وأن يكون متمسكًا بالسنن والأخلاق الفاضلة، والهدي النبوي، وعليه سمة السلف مخبرًا ومظهرًا، لابد من التمسك بهذا العلم، وبما عليه أهل السنة والجماعة في السمات والمظهر والخلق، وغير ذلك.

ويجب على الداعي أن يقتفي منهج أهل السنة في الدعوة، فيأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، وينصح لأئمة المسلمين وعامتهم.

وعلى الدعاة أن يتربوا تربية صحيحة قائمة على العلم الصحيح الشرعي، وأن يتفقهوا في هذه الدعوة في أصولها.

أمثلة لواقع الدعوات المعاصرة حيال عقيدة أهل السنة والجماعة

هل الجماعات المعاصرة التي هي على الساحة الآن، دعوتها تهتم وتلتزم وتسعى إلى تحقيق عقيدة أهل السنة والجماعة، ونشرها في

المجتمع؟ أم أنها تخالفها؟ ولذلك لابد من ذكر هذا بشيء من التفصيل دون أيضًا الإشارة إلى الأسماء، وغير ذلك.

إن المستلزمات التي ذكرناها الآن -أي: الأمور التي تلزم من انتمى إلى أهل السنة والجماعة- هذه الأمور تحتاج إلى تطبيق على الواقع؛ لنتبين المراد منها، ولابد من الإشارة أو ذكر بعض الأمثلة من كثير من الدعوات والحركات الموجودة اليوم، وأن نشير إلى المخالفات البينة الواضحة التي عليها بعض هذه الدعوات، وهي مخالفات لعقيدة أهل السنة والجماعة في الاعتقادات، والمنهج، والسلوك.

وسنكتفي بعرض شيء من الأخطاء دون ذكر للأسماء أو العناوين.

ولذلك نقول:

- كيف ينتمي لأهل السنة من يؤول صفات الله- تبارك وتعالى- ويقول على الله بغير علم مما هو معلوم، فبعض الناس أولوا صفات رب العالمين سبحانه وتعالى وخرجوا عن معتقد أهل السنة والجماعة في ذلك؛ وذلك عندما يقحمون بعض التأويلات على آيات الصفات؛ لأن إدخالهم للتأويل فيها قولٌ على الله بغير علم، ومن أين لهم أن الله عز وجل أراد ما أتى به من لفظ آخر؟ من أين لهم أن الله عز وجل لم يرد ظاهر اللفظ أو النص المذكور في القرآن الكريم؟!

وقد كان السلف (رضوان الله عليهم) يحذرون من تقديم العقل على كلام الله وكلام رسوله صلى الله عليه وسلم ويوجبون التسليم المطلق لكل ما ورد عن الله عز وجل.

وبعض الدعوات القائمة اليوم تقوم على أساس تأويل الصفات، ثم بعد ذلك تدعي أنها هي أهل السنة والجماعة.

- ثم بعد ذلك نقول: كيف ينتسب لأهل السنة من يرى أن الطرق الصوفية المبتدعة منهج سليم للدعوة إلى الله عز وجل؟ للأسف الشديد.

وسبق أن تحدثنا عن البدع التي أدخلها المتصوفة في دين الله، وذكرنا بعض ما يفعلون في الموالد، والابتداع في العبادات، وغير ذلك.

وهل يكون أيضا من أهل السنة من لم يكف لسانه ولا قلمه عن التعرض بالنقيصة واللمز أو السباب لبعض الصحابة والتابعين، وأئمة الهدى المعتبرين، وسلف الأمة الماضين، خاصة علماء السنة والحديث.

إن الناظر في وضع هذه الجماعات والمتأمل لها، يجد أنها قد خالفت منهج أهل السنة والجماعة، خالفت اعتقادهم، وبالتالي لا يصح ولا يمكن أبدًا أن نقول بأنها يمكن أن تنتسب إلى أهل السنة والجماعة.

- الجماعات التي تسعى إلى جمع كلمة المسلمين على غير كلمة سواء، ويهمهم فقط أن يجتمعوا حتى ولو كان بينهم الرافضي، والخرافي، والمبتدع، والصوفي، وقد يكون القادياني، وغير ذلك، هل هذا التجمع صحيح؟ لا شك أن جمع كلمة المسلمين هدف عظيم، بل هو من أعظم أصول الدين، ولا ينكره إلا ضال أو جاهل، لكن جمع المسلمين يجب أن يكون على الحق، وعلى الكتاب والسنة، وعلى الاعتصام بحبل الله، لا على مجرد الشعارات الإسلامية الفارغة من الاعتقاد الحق، لابد أن يكون الاعتقاد صحيحًا. وبعض الجماعات يهونون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويزعمون أن في الدين قشرًا ولبابًا. وبعض الجماعات تخرج على سائر المجتمعات، وتكفر أصحابها، وتكفر من فيها، وتدعو إلى الخروج على حكام المسلمين، وغير ذلك، وهذه كلها مسائل تخالف الاعتقاد الصحيح الذي عليه أهل السنة والجماعة.

والواجب: أن يرجع الجميع إلى كتاب الله وهدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وأن يترك التحزب والعصبية للأسماء، أو للأشخاص، أو للهيئات والأحزاب، وغير هذا.

بيان أن أهل السنة ليس لهم سمة ولا رسم سوى الإسلام.

أهل الإسلام ليس لهم سمة سوى الإسلام، ولا رسم سوى القرآن والسنة، وهذا أصل الملة الحنيفية التي دعا إليها شيخ الأنبياء إبراهيم (عليه السلام) ومن بعده من أنبياء الله ورسله، إلى خاتمهم نبينا ورسولنا محمد صلى الله عليه وسلم قال تعالى: «قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ» (الأنعام: ١٦١-١٦٣).

فيجب على العبد أن يموت على الإسلام، وألا يتخذ شعارًا له سوى الإسلام: «إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ» ثم تبين الآيات أن هؤلاء الأنبياء وسلالتهم (صلوات الله عليهم) كانوا يرضون بهذا الاسم، ويؤمنون بأنهم أسلموا نفوسهم ووجوههم

لله- تبارك وتعالى-.
والآيات في هذا عن أنبياء الله ورسله: إبراهيم، وابنه إسماعيل، وموسى، وعيسى، وغيرهم من أنبياء الله ورسله، كثيرة في القرآن الكريم، كلهم تحت لواء الإسلام، ولقب المسلمين، قال الله تعالى: «مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ» (البقرة: ٦٧).
ولهذا، فإن كلمة التوحيد وحدت الناس تحت شعار واحد، ألا وهو الإسلام؛ قال تعالى: « وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ » (الأنعام: ١١٥)، وقال تعالى: «أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ» (الزمر: ٢٢). فاسم المسلم وما في كفته من أسماء المدح مثل: المؤمن المتقي الصالح، هي أسماء المكلفين التي علق عليها الشارع المدح، وفي مقابلها ما علق عليه الذم، مثل: الكافر المنافق الفاسق، وعلى هذين المتقابلين مدار الجزاء؛ ثوابًا وعقابًا.
وعليه، فإن ما دون ذلك من ألقاب أحدثت في الشرع بالأمس، هي نظيرة الألقاب التي أحدثت اليوم، وكلها في المنع من باب واحد، في رسمها واسمها، فلا يسوغ للمسلم أن يتلقب بأنه: قدري، أو مرجئ، أو خارجي، أو أشعري، أو ماتريدي، أو معتزلي، كما أنه لا يسوغ له أن يضيف اليوم إلى نفسه وإلى اسمه: إخواني، أو صوفي، أو تبليغي.
وهكذا فالمنع من جهتين: أنه لقب لم يرد به شرع، أو لهذا؛ ولما فيه من مخالفات لنصوص الشرع في المادة والرسم، وعليه فلا يجوز إحداث واختراع شعارات وألقاب لم يرد بها الشرع، فإنها تكون في البداية كلمة، وفي النهاية مذهب ونحلة، «فلا تغتر بمثل هذا وإن زخرفه أهل الأهواء».
وأهل الإسلام ليس لهم رسم سوى الكتاب والسنة، والسير في الدعوة إليهما على مدارج النبوة، وهم كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: «من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي»، وهم الذين سماهم صلى الله عليه وسلم الجماعة، وجماعة المسلمين: الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين، وهم الطائفة المنصورة كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم الفرقة الناجية كما وصفهم النبي صلى الله عليه وسلم بذلك، وهم المنتسبون لسنته وطريقته صلى الله عليه وسلم الراغبون فيها دون ما سواها من الأهواء، وذلك لأن الأهواء تضعف العبد، وتخرجه عن الصراط المستقيم، وقال قال صلى الله عليه وسلم: «من رغب عن سنتي فليس مني» أخرجه مسلم في صحيحه.
ولما تشعبت بالأمة الأهواء، صاروا هم أهل السنة والجماعة دون من سواهم، وهم السلف الصالح، فمن تبع أثرهم، ومن هنا لما ظهرت البدع والأهواء المضلة، قيل لمعتقدهم: السلفي أو العقيدة السلفية، وهم الذين يمثلون الصراط المستقيم، سيرًا على منهاج النبوة، وسلفهم الصالح.
ولهذا فهم ليسوا بحاجة إلى التميز بلقب أو رسم، أو اسم أو شعار، لم يرد به النص. ولم يحصل تمام البروز والظهور لهذه الألقاب الشريفة لجماعة المسلمين إلا حين دبت في المسلمين الفُرْقَة، وتعددت على جنباتي الصراط الفرق، وتكاثرت الأهواء، وخلفت الخلوف، فبرزت هذه الألقاب الشريفة؛ للتمييز عن معالم الفرق الضالة، وهي مع ذلك ألقاب لا تختص برسم يخالف الكتاب والسنة زيادة أو نقصًا، وإنما يمثلون في الحقيقة والحال الامتداد الطبعي لما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه (رضي الله عنهم) في الشكل والمضمون، والمادة والصورة.
وعلى هذا نشأت الدعوات الإصلاحية في نواحي الأرض ليس لها اسم ولا رسم، لا يقتضيه منهج الشرع، وقد وجدت دعوات إصلاحية في الجزيرة، ومصر، والشام، والهند، والجزائر، وبغداد، وغيرها، وكلها تدعو إلى الكتاب والسنة، فعلى نورهما يدعون عباد الله إلى الله، إلى صفاء الاعتقاد، ونشر راية التوحيد، والحكم بما أنزل الله، والقيادة على منهاج النبوة، والخلافة الراشدة، ومناصحة الولاة، وتحطيم مظاهر الشرك والوثنية، والأهواء والبدع، وتصحيح مسار الناس إلى ربهم في أعمالهم وأقوالهم، وتخليصها من الآراء والأهواء المضلة تحت سلطان الكتاب والسنة.
وجماعة المسلمين واحدة، لا تتعدد فوق أي أرض، وتحت أي سماء، ليس لها رسم معين سوى النص الشرعي وموجبه، فهي الدعوة إلى الله بيسرها وسهولة تبليغها كما كانت في الصدر الأول.
وعليه أقول: إن أي فرقة أو حزب أو جماعة تعيش تحت مظلة الإسلام باسم معين أو رسم خاص، فهي من جماعة المسلمين وتقترب وتبتعد من الصراط

المستقيم الذي عليه جماعة المسلمين بقدر ما لديها من مناهج وخطط، وتصورات يقرها الإسلام أو ينفيها. أما التي يكون انتسابها إلى الإسلام تلبيسًا وظلمًا كالبابية، والبهائية، والقاديانية، فهذه فرق كافرة، لا دخل لها تحت سرادق بحثنا.

وختامًا:

فإن الحق واحد لا يتعدد، فالتزمه في الكتاب والسنة، والزم جماعة المسلمين، فهي بحق الجسم الذي لا يمكنه التجمع الإسلامي في العالم على صعيد واحد إلا على أساسه، والزم إمامهم وإن فعل وفعل ما لم تر كفرًا بواحًا عليه من الله برهان.

ولا يفوتنا هنا أن ننبه على خطأ كبير: بعض من كتبوا عن الجماعات والفرق الإسلامية المعاصرة، ووازنوا بينها ونقدوها، يذكرون من أقسامها أهل السنة والجماعة، وهذا خطأ كبير في الفهم والتصور، والبعد عن الحقيقة، فإن أهل السنة والجماعة، وأهل الحديث هم جماعة المسلمين، وليست هذه في شكلها ومضمونها إلا دعوة الإسلام بجميع ما تعنيه هذه الكلمة، بخلاف الجماعات الأخرى، فهي أحزاب وفرق، منها ما فيه دخن ومنها ما يدعو إلى شعبة من شعب الإسلام، دون الأخرى، ومعاذ الله أن يكون المسلمون جميعهم جماعات وأحزابًا، بل إن الطائفة المنصورة، والفرقة الناجية جماعة المسلمين الملتزمة بالكتاب والسنة والدعوة إليها، ما زالت ولن تزال باقية قائمة إلى أن يأتي أمر الله- تبارك وتعالى-.

الآثار الناجمة عن ضعف تمسك بعض الحركات بهدي السلف:

من نتائج تساهل بعض الحركات الإسلامية في أمر العقيدة، أو مجانبتها لعقيدة أهل السنة والجماعة، أنها وقعت في كثير من التجاوزات والأخطاء، ونقصد بها تلك الأخطاء العامة والشائعة بين الدعوات والدعاة على سبيل الإجمال والعموم.

وسنذكر منها ما يلي:

أولاً: من أعظم وأخطر الأخطاء التي تقع فيها الكثير من الدعوات والدعاة، إهمال جانب التوحيد، أو ضعف الاهتمام به علمًا واعتقادًا وعملاً، وبخاصة توحيد الإلوهية والعبادة، وهذا الجانب من التوحيد له من الأهمية في الكتاب والسنة وأصول الدين، ودعوة الأنبياء والمصلحين، ما يوجب كونه الهدف الأول والغاية الكبرى لأي داعية أو دعوة مهما كانت مبررات قيامها في أي زمان وأي مكان، وقد أشرنا سابقًا إلى منزلة دعوة التوحيد عمومًا، وتوحيد العبادة والإلوهية على الخصوص، ولا غرو فإن هذا التوحيد هو توحيد الإلوهية والعبادة، هو الغاية الأولى من خلق الخلق، قال الله تعالى: « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (الذاريات: ٥٦).

وهذا التوحيد هو أول ما يتوجه إليه أمر الله وقضاؤه. قال الله تعالى: « وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَٰلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ » (البينة: ٥)، والله تعالى ذكر أنه بعث جميع رسله بهذا التوحيد، فقال تعالى: «وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ» (النحل: ٣٦).

ويتفرع عن هذه المسألة أمر آخر جد خطير، وقد غفلت عنه أكثر الدعوات اليوم، ألا وهو وقوع كثير من المسلمين اليوم فيما يناقض هذا التوحيد، أو ينقصه ويخل به، فمما يناقضه من أعمال واعتقادات: دعاء غير الله، والاستعانة والاستغاثة بغير الله، والذبح والنذر لغير الله، وتصديق الكهان، وما يفعل عند القبور، وعند شيوخ الصوفية والطرق، وغير ذلك مما لا يخفى على الدعاة ولا غيرهم.

ومما ينقص التوحيد ويخدشه: شيوع البدع والخرافات، كالموالد والتمسح بالقبور والأشخاص والأحجار والأشجار، وغير ذلك، ومن الحلف بغير الله، كل هذا وغيره مما هو خلل في التوحيد من الأمراض المستشرية في جسم الأمة الإسلامية، ولابد من علاجه أولاً قبل غيره من الأمراض الخُلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والفكرية؛ لأن مرض الاعتقاد هو مرض القلوب، وهو الداء العضال، والمرض الأول الذي نتجت عنه جميع الأمراض والانحرافات الخلقية وغيرها، وهذا هو داء الأمم قديمًا وحديثًا، فهذا المرض على الرغم من خطره وانتشاره ووضوحه، لم يلق من كثير من الدعوات الإصلاحية ما يستحقه.

وها نحن نذكره أولاً، ونؤكد عليه، ونبين أن هذا من الآثار القبيحة جدًّا الناتجة عن ضعف تمسك بعض الحركات بهدي السلف أهل السنة والجماعة.

وهناك أمر يغفل عنه الكثيرون، ألا وهو أن صلاح أحوال الناس في معاشهم وأخلاقهم مرتبط بسلامة توحيدهم وعقيدتهم، قال الله تعالى:

«وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ» (الأعراف: ٩٦)، والإيمان والتقوى لا يتحققان إلا بصحة الاعتقاد وسلامة العبادة، إذ قبول الأعمال الصالحة المفروضة منها، والمسنونة: كالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والبر، والصدق، والعفاف، كل ذلك وغيره مرتبط بصحة الاعتقاد، وصحة الاتباع، والإخلاص لله وحده، وأن يكون العمل صوابًا على مقتضى أمر الله تعالى ورسوله صلى الله عليه وسلم.

ومما يؤسف له أن بعض الحركات لا تكتفي بالاستهانة بهذا الواجب العظيم والتخلي عنه، وهو تطهير عقائد المسلمين وعباداتهم، بل تلمز من يقوم بذلك، وترى أن هذا المنهج عقيم ناتج عن قصور التفكير وضيق الأفق، وأحيانًا تدعي أن ذلك اهتمام بالقشور، ويتمثل هذا في الذين يأخذون على الدعوات السنية كأنصار السنة والسلفيين وأهل الحديث اهتمامهم بتخليص الأمة من البدع والخرافات وعنايتهم بتصحيح العقائد، نعم قد يكون لدى هذه الجماعات شيء من القصور والأخطاء في الأساليب، أما اهتمامهم بالعقيدة والعبادة ومحاربتهم البدع، فهي منقبة كبرى تحمد لهم، ويمدحون بها.

ومن الأخطاء أيضًا التي كانت نتيجة ضعف بعض الدعوات والحركات المعاصرة، وبعدها عن التمسك بهدي السلف: التعصب والحزبية والغرور، وهذه السمة-مع الأسف- سمة غالبة في أكثر الجماعات والحركات الإسلامية الإصلاحية، «فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (المؤمنون: ٥٣). وكل فريق يرى أنه الجدير بالاتباع، والجدير بقيادة الأمة، وأنه الذي يملك القدرة على حل المشكلات، ومن الحركات من ينظر إلى غير منسوبي جماعته من عامة المسلمين، أو من الدعوات والدعاة الآخرين، على أنهم بدرجة أقل من الجدارة والتفكير، والإدراك للمصالح، وربما تدعي بعض الحركات أنها جماعة المسلمين، أو أنها الأجدر بهذا الوصف.

وقد أودى الغرور لدى بعض الحركات الإسلامية بأن جعلها تستهين بالعلوم الشرعية، وبالعلماء المتمكنين في علوم الشريعة الذين لا ينتمون إليها، ورمي بعضهم بالتغفيل، وقصور التفكير، وضيق الأفق، ونحو ذلك من الأخطاء الشنيعة.

ومن تلك الأخطاء التي ترتبت على الجهل بمنهج السلف: التفرق والاختلاف، وهذا-مع الأسف- من أبرز سمات الحركات الإسلامية القائمة، وهذه السمة قد ذمها الله تعالى، ونهى عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال تعالى: «وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُوا۟ وَٱخْتَلَفُوا۟ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ» (آل عمران: ١٠٥).

وقد بينا النتيجة الوخيمة للتفرق والاختلاف، كما بينا دعوة الإسلام إلى الاجتماع، وإلى التواصي بالحق، والتواصي بالصبر، ومع شدة نهي الإسلام عن التفرق والاختلاف وقعت بعض الحركات الإسلامية، على الرغم من إلحاح الحاجة إلى الاجتماع على الحق وعلى الكتاب والسنة، وقعوا في التفرق والاختلاف.

فالدعوات المعاصرة لا تزال متفرقة في مناهجها، وأهدافها، وأساليبها، وأعمالها، وتعلن الخلاف وتصعده، بل حتى تلك الدعوات المتشابهة في المنهج أو في بعضه، تنزع إلى الاستقلالية والتفرق، واصطناع الاختلاف في واقع أمرها، مما يدل على أن المشكلة في رؤوس الأشخاص أنفسهم وأهوائهم، والسبب الرئيس لذلك ضعف الصلة بالكتاب والسنة، والأثر، وبمنهج السلف الصالح لدى أغلبية هؤلاء الناس، والتعصب والحزبية والغرور، ثم عدم الالتزام بعقيدة أهل السنة والجماعة التي تقضي بوجوب الاجتماع على الحق، والاعتصام بحبل الله المتين.

ونحن لا نطلب من الحركات والدعوات أن يجتمعوا على ما هم عليه من مخالفات عقدية وسلوكيات لمنهج السلف، فهذا تلفيق نبرأ إلى الله منه، ولكننا ندعو إلى الاجتماع على الحق، والحق واضح من خلال كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم والتراث العظيم الذي خلَّفه لنا السلف الصالح (رضوان الله عليهم).

وبهذه الكلمات نختتم حديثنا في هذه المادة المباركة، والتي أسأل الله عز وجل أن ينفعنا بها، وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، وأن يجمع المسلمين على هذه العقيدة السلفية الصحيحة التي كان عليها نبي هذه الأمة، ودعا إليها صلى الله عليه وسلم.

افتتاحية العدد

رمضان وتلاوة القرآن

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجًا، والصلاة والسلام على من علمه الله الكتاب والحكمة، وعلى آله وأصحابه ومن اقتفى أثرهم، وسلك مسلكهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد شرَّف الله شهر رمضان على غيره من الشهور واختصه بإنزال القرآن فيه، كما قال تعالى: «شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ» (البقرة: ١٨٥)، كما فضلت الليلة التي نزل فيها القرآن على ليالي العام حتى صارت خيرًا من ألف شهر، فقال تعالى: «إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ» (القدر: ١-٣).

وهذا يدفعنا إلى أن ندرك عظمة القرآن الكريم، وأن نستشعر نعمة الله على هذه الأمة به، لأنه كلام ربنا حقًا وصدقًا، وهو خير الكلام وأزكاه، وآخر وحي نزل من عند الله جل في علاه، وهو المعجزة الباقية المشاهدَة إلى يوم الدين، فيه الهدى والنور، والشفاء لما في الصدور، كما قال رب العالمين: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَآءٌ لِّمَا فِى ٱلصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴿٥٧﴾ قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُوا۟ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ» (يونس: ٥٧- ٥٨).

وقد أدرك السابقون فضل هذه النعمة فأقبلوا على القرآن الكريم تدبرًا وعلمًا وعملاً اقتداءً بالنبي صلى الله عليه وسلم «الذي قال الله له: « ٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ » (العنكبوت:٤٥)»، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤه ويتلوه ويعلمه لأصحابه، كما فعل مع ابن مسعود رضي الله عنه، قال شقيق بن سلمة: «خطبنا عبد الله بن مسعود فقال: والله لقد أخذت من في (أي: فم) رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعًا وسبعين سورة، والله لقد علم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أني من أعلمهم بكتاب الله، وما أنا بخيرهم». (البخاري: ٥٠٠٠).

وقد رغَّب الله عباده، في كتابه وحثهم على تلاوة القرآن الكريم، ووعدهم على ذلك الأجر

العظيم، فقال جل وعلا: « إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّن تَبُورَ ﴿٢٩﴾ لِيُوَفِّيَهُمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ » (فاطر: ٢٩-٣٠)، وكان مطرف رحمه الله إذا قرأ هذه الآية يقول: هذه آية القراء. (انظر: تفسير ابن كثير ٣/٧٤٨).

وقد جاءت أحاديث كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم تبين فضل تلاوة القرآن الكريم، كما في حديث عبد الله بن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من قرأ حرفًا من كتاب الله فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: الم حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف». (صحيح سنن الترمذي ٩/٣).

وعن عبد الله بن عمرو عن النبي صلى الله عليه وسلم: «يقال لصاحب القرآن: اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها». (مسند أحمد ١٩٢/٢، والترمذي في أبواب فضائل القرآن، وانظر: صحيح سنن الترمذي ١٠/٣).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن السكينة تتنزل لقراءة القرآن الكريم، كما في حديث البراء رضي الله عنه قال: « كَانَ رَجُلٌ يَقْرَأُ سُورَةَ الكَهْفِ وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبُوطٌ بِشَطَنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَةٌ، فَجَعَلَتْ تَدُورُ وَتَدْنُو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَنْفِرُ مِنْهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتَى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، فَقَالَ: تِلْكَ السَّكِينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآنِ». (مسلم: ٧٩٥).

قال النووي رحمه الله: «وفي هذا الحديث جواز رؤية آحاد الأمة الملائكة، وفيه فضيلة القراءة، وأنها سبب نزول رحمة الله وحضور الملائكة، وفيه فضيلة استماع القرآن». (شرح النووي على مسلم ٨٢/٦).

وعن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه». وعنه أيضًا: «إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه». (البخاري ٥٠٢٧، ٥٠٢٨).

والحديث يدل على أن أفضل الناس على الإطلاق وأخيرهم من تعلم القرآن وعلمه، وهذا يدل على فضله ومكانته، وجلالة قدره وعظمته، وقد أدرك السلف رحمهم الله تعالى من خلال هذه النصوص فضل القرآن فأقبلوا عليه، واجتهدوا في الإكثار من تلاوته، حبًا لكلامه، وأنسًا بالعيش معه وتلاوته، وكان بعض الصحابة يكثرون من التلاوة؛ كعبد الله بن عمرو بن العاص الذي كان يختم في كل ليلة، وخفف عنه النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، وحديثه في الصحيحين وغيرهما.

وهذا أبو الدرداء عويمر بن مالك رضي الله عنه تعلم القرآن من النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يجلس في دمشق لتعليمه، فيجتمع عليه خلق كثير، يقول مسلم بن مشكم قال لي أبو الدرداء: «اعدد من في مجلسنا. قال: فجاؤوا ألفًا وستمائة ونيفًا. فكانوا يقرؤون ويتسابقون عشرة عشرة، فإذا صلى الصبح، انفتل وقرأ جزءًا؛ فيحدقون به يسمعون ألفاظه». (سير أعلام النبلاء ٣٤٦/٢).

ولما أقبل هؤلاء الرجال على القرآن رفعهم الله وأعزهم، وأعلى شأنهم، وكانت منزلهم تُعرَف بما لديهم من القرآن.

وفي صحيح مسلم أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى. قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: فاستخلفت عليهم مولى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض، قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا، ويضع به آخرين». (مسلم: ٨١٧).

ويستحب لقارئ القرآن الكريم أن يحسّن صوته بالتلاوة، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل كذلك؛ فعن البراء بن عازب رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «والتين والزيتون» في العشاء، وما سمعت أحدًا أحسن صوتًا منه أو قراءة. (البخاري: ٧٦٩).

وقد عقد البخاري في صحيحه بابًا عنْون له بقوله: «باب من لم يتغن بالقرآن»، ثم ساق حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه:

«قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لم يأذن الله لشيء ما أذن لنبي أن يتغنى بالقرآن». وقال صاحب له: يريد يجهر به. (البخاري: ٥٠٢٣).

وقد ذكر ابن حجر أربعة أقوال في المراد بـ «يتغنى»، وذكر منها: تحسين الصوت، ثم قال: «ولا شك أن النفوس تميل إلى سماع القرآن بالترنم أكثر من ميلها لمن لا يترنم؛ لأن للتطريب تأثيرًا في رقة القلب وإجراء الدمع». (فتح الباري: ٧٢/٩).

كما عقد في كتاب التوحيد من صحيحه بابًا قال فيه: باب قول النبي صلى الله عليه وسلم: «الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة، وزينوا القرآن بأصواتكم». قال ابن حجر: «أشار بأحاديث هذا الباب إلى أن الماهر بالقرآن هو الحافظ له مع حسن الصوت به والجهر به بصوت مطرب بحيث يلتذ سامعه». (فتح الباري ٥١٨/١٣، ٥١٩).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحب الصوت الحسن بالقرآن ويثني على صاحبه، كما قال لأبي موسى الأشعري: «لو رأيتني وأنا أسمع لقراءتك البارحة، لقد أوتيت مزمارًا من مزامير آل داود». (مسلم: ٧٩٣). والمراد بالمزمار هنا: الصوت الحسن، وكان داود صلى الله عليه وسلم حَسَن الصوت جدًا. (انظر: شرح النووي على مسلم ٨٠/٦).

وفي شهر رمضان يجب أن تزداد عناية المسلم وإقباله على القرآن الكريم، لأنه الشهر الذي نزل فيه، وقد سن النبي صلى الله عليه وسلم صلاة الليل للقيام بالقرآن وتلاوته في شهر رمضان.

ومن صور اهتمام النبي صلى الله عليه وسلم بالقرآن في رمضان ما ذكره ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس، وكان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، وكان يلقاه في كل ليلة من رمضان فيدارسه القرآن، فلرسول الله صلى الله عليه وسلم أجود بالخير من الريح المرسلة». (البخاري: ١٩٠٢).

قال ابن حجر: «كان جبريل يتعاهده في كل سنة، فيعارضه بما نزل عليه من رمضان إلى رمضان، فلما كان العام الذي توفي فيه عارضه به مرتين؛ كما ثبت في الصحيح عن فاطمة رضي الله عنها». (فتح الباري ٣١/١).

وقال ابن رجب: «وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يطيل القراءة في قيام رمضان بالليل أكثر من غيره، وقد صلى معه حذيفة ليلة في رمضان، قال: فقرأ بالبقرة ثم النساء، ثم بآل عمران، وكان عمر قد أمر أبي بن كعب وتميمًا الداري أن يقوما بالناس في شهر رمضان، فكان القارئ يقرأ بالمائتين في ركعة، حتى كانوا يعتمدون على العصي من طول القيام، وما كانوا ينصرفون إلا عند الفجر». (لطائف المعارف ٢٤٣، ٢٤٤).

فيا أهل القرآن!! أقبلوا على القرآن قراءةً وتدبرًا وعملاً على الدوام، وتنافسوا فيه أكثر في شهر رمضان، فهو من أجل القربات وأعظم الصالحات، وفيه تكون الغبطة والتنافس والمسارعة، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا حسد إلا في اثنتين: رجل آتاه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله مالاً فهو ينفقه آناء الليل وآناء النهار». (البخاري: ٧٥٢٩).

والعبد إذا أراد الراحة والسكينة ولذة المناجاة فعليه بالإقبال على القرآن الكريم، وليستكثر منه ما استطاع، ومن كان صادقًا مع الله فلا يمل من القرآن أبدًا، وهذه خاصية لكتاب الله يتميز بها على غيره من سائر الكلام.

يقول الإمام شهاب الدين النووي رحمه الله: «الوجه السابع: أي- من وجوه إعجازه- أن قارئه لا يمل قراءته، وسامعه لا تمجّه مسامعه، بل الإكباب على تلاوته وترديده يزيده حلاوة ومحبة، لا يزال غضًا طريًا وغيره من الكلام ولو بلغ ما عساه أن يبلغ من البلاغة والفصاحة يُمَلّ من الترديد ويُسأم إذا أعيد». (نهاية الأرب ٣٠٦/١٨).

ويقول السيوطي في ذلك: «إن قارئه لا يمل وسامعه لا يمجّه، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة، وترديده يوجب له محبة، وغيره من الكلام يُعادى إذا أعيد ويُمل مع الترديد». (الإتقان: ١٥٦/٢).

أسأل الله تعالى أن يوفقنا لصيام رمضان وقيامه وتدبر آياته وأن يتقبل منا صالح أعمالنا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

افتتاحية العدد

طوبى لمن استقام على الطاعة ولزم العبادة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فالله تبارك وتعالى خلق الخلق ليعبدوه وحده، كما قال الله تعالى: « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » (الذاريات:٥٦)، وقد شرع الله لهم من الطاعات ومواسم الخيرات ما يتقربون بها إليه، وقبل ساعات ودعنا شهر رمضان الذي أقبل فيه الكثيرون على الله، فصلوا وصاموا، وقاموا وتصدقوا، وغير ذلك من أعمال البر التي تقع في هذا الشهر، غير أن بعض الناس يتغير حاله بعد رمضان، وكأنه يعبد ربًا خاصًا بهذا الشهر، فإذا ما انتهى من صيامه وقيامه عاد إلى لهوه وعصيانه، ودأب الصالحين هو المحافظة على الطاعات، والمداومة والمسارعة في فعل الخيرات، والمداومة على الأعمال بالتوسط والاعتدال.

فهم وسط بين طرفين ذميمين؛ أحدهما: في جانب التفريط، وذلك يكون بالعجز والكسل، وترك القيام بالعمل، والثاني: في جانب الإفراط، ويكون ذلك بالمشقة على النفس، وبذل ما هو أكثر من طاقة الإنسان في العبادات، ومن هنا دعا الإسلام إلى المداومة على العمل ولو كان قليلاً، لتكون النفس على صلة بالله دائمة، وأنشط في الإقبال على الله جلَّ في علاه، والقليل الدائم خير من الكثير المنقطع، وأحب الأعمال إلى الله أدومها وإن قل، كما في حديث عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سُئل: أيُّ العمل أحب إلى الله؟ قال: «أدومه وإن قل». (مسند أحمد: ١٧٦/٦).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحافظ على الأعمال الصالحة ويداوم عليها ولا يتركها، ولنا فيه الأسوة الحسنة، قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «كان رسول الله إذا عمل عملاً أثبته، وكان إذا نام من الليل أو مرض، صلى من النهار ثنتي عشرة ركعة، وما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم قام

ليلة حتى الصباح، وما صام شهرًا متتابعًا إلا رمضان». (مسلم: ٧٤٦).

ومعنى أثبته: أي جعله ثابتًا غير متروك، وعن مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها عن عمل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: «كان يحب الدائم». قال النووي في شرحه: «فيه الحث على القصد في العبادة، وأنه ينبغي للإنسان ألا يحتمل من العبادة إلا ما يطيق الدوام عليه، ثم يحافظ عليه». (شرح النووي على صحيح مسلم٦/٢٣).

وقد عقد الإمام مسلم في صحيحه بابًا قال فيه: «باب فضيلة العمل الدائم من قيام الليل وغيره»، ثم ساق تحته حديث عائشة وفيه تقول: « عَنْ عَائِشَةَ أَنَّهَا قَالَتْ كَانَ لِرَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حَصِيرٌ، وَكَانَ يُحَجِّرُهُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُصَلِّي فِيهِ فَجَعَلَ النَّاسُ يُصَلُّونَ بِصَلاَتِهِ وَيَبْسُطُهُ بِالنَّهَارِ فَثَابُوا ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَقَالَ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلَيْكُمْ مِنَ الأَعْمَالِ مَا تُطِيقُونَ، فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يَمَلُّ حَتَّى تَمَلُّوا، وَإِنَّ أَحَبَّ الأَعْمَالِ إِلَى اللَّهِ مَا دُووِمَ عَلَيْهِ، وَإِنْ قَلَّ وَكَانَ آلُ مُحَمَّدٍ صلى الله عليه وسلم إِذَا عَمِلُوا عَمَلاً أَثْبَتُوهُ». (مسلم: ٧٨٢).

قال النووي في شرحه: «فيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خير من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص، والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة». (ج٦/٧١).

وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم العبد الملازم لطاعة من الطاعات إذا تركها لعذر أن يأتي بها في وقت آخر، وأخبر أن أجره ثابت لا ينقص، كما في حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من نام عن حزبه، أو عن شيء منه، فقرأه فيما بين صلاة الفجر وصلاة الظهر، كُتب له كأنما قرأه من الليل». (مسلم: ٧٤٧).

ومن فضل الله على عباده أن يكتب لهم أجر ما يداومون عليه من الأعمال إذا عجزوا لعارض كالمرض والسفر، قال أبو بردة: سمعت أبا موسى مرارًا يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا مرض العبد أو سافر كُتب له مثل ما كان يعمل مقيمًا صحيحًا». (البخاري: ٢٩٩٦).

قال الحافظ ابن حجر: «هو في حق من كان يعمل طاعة فمُنع منها، وكانت نيته لولا المانع أن يداوم عليها، كما ورد ذلك صريحًا عن أبي داود، ولأحمد من حديث أنس رفعه: إذا ابتلى الله العبد المسلم ببلاء في جسده قال الله: اكتب له صالح عمله الذي كان يعمله، فإن شفاه الله غسله وطهره، وإن قبضه غفر له ورحمه». (فتح الباري: ٦/١٣٦، ١٣٧).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يدعو ربه الثبات على الطاعة، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن عز وجل كقلب واحد يصرِّفه كيف يشاء». ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم مصرِّف القلوب اصرف قلوبنا إلى طاعتك». (مسند أحمد: ٢/١٦٨، وصححه الألباني في ظلال الجنة: ١/١٠٠).

وقد ذكر الله في كتابه أن من صفات عباده المفلحين المحافظة على الصلوات، قال الله تعالى: «وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ» (المعارج:٣٤)، قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في تفسير هذه الآية: «ذكر جلَّ وعلا في هذه الآية الكريمة: المؤمنين المفلحين الوارثين الفردوس: أنهم يحافظون على صلواتهم، والمحافظة عليها تشمل إتمام أركانها، وشروطها، وسننها، وفعلها في أوقاتها في الجماعات في المساجد، ولأجل أن ذلك من أسباب نيل الفردوس أمر تعالى بالمحافظة

عليها في قوله تعالى: «حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى»، وذم وتوعد من لم يحافظ عليها في قوله: « فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيّٗا» (مريم:٥٩). (أضواء البيان: ٦/٧٧٤).

والمداومة على الطاعة سبب لمحبة الله للعبد كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: إنَّ اللَّه قَالَ مَنْ عَادَى لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ نَفْسِ الْمُؤْمِنِ يَكْرَهُ الْمَوْتَ وَأَنَا أَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ». (البخاري: ٦٥٠٢).

قال ابن حجر: قال الفاكهاني: «معنى الحديث: أنه إذا أدى الفرائض وأتبعها بالنوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى». (فتح الباري: ١١/٣٤٣).

والله تبارك وتعالى لم يجعل للمؤمن أجلاً دون الموت، قال الله تعالى: « وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ » (الحجر:٩٩)، قال ابن كثير في تفسيره: «ويستدل من هذه الآية: أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقلُه ثابتًا، فيصلي بحسب حاله، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم على المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، والأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هنا الموت». (تفسير ابن كثير ٢/٧٥٧).

وعباد الله الصالحين لا يتغيرون ولا يتحولون، بل تجدهم في أعلى درجات الاستقامة على الطاعة والعبادة، كما قال الله فيهم: « مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ رِجَالٞ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيۡهِۖ فَمِنۡهُم مَّن قَضَىٰ نَحۡبَهُۥ وَمِنۡهُم مَّن يَنتَظِرُۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبۡدِيلٗا» (الأحزاب:٢٣). فيا أهل العقول السليمة والفطر المستقيمة حافظوا على ما عملتم في أيام رمضان من صيام وطاعة وقربة للرحمن، وما عملتم في لياليه من قيام وذكر وتلاوة للقرآن، ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثًا.

وإن العاقل ذا البصيرة يعلم أن قيمة وجوده في طاعة ربه، وسرعة الاستجابة لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم، كما قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡ» (الأنفال:٢٤)، والمؤمن لا يضيع وقتًا من حياته في غير طاعة، وهو يعلم أن طاعة ربه ومولاه جماع الخير كله، وفيها الطمأنينة والسكينة، وبها تزكوا النفس وتتطهر، وعليه أن يحاسب نفسه قبل أن يُحاسب، وأن يزن أعماله قبل أن تُوزن عليه، وليتذكر دائمًا قول الله تعالى: « إِنۡ أَحۡسَنتُمۡ أَحۡسَنتُمۡ لِأَنفُسِكُمۡۖ وَإِنۡ أَسَأۡتُمۡ فَلَهَاۚ» (الإسراء:٧).

وليحذر العبد أن يكون من أهل الغفلة الذين سيندمون على التفريط في الطاعة والعبادة يوم القيامة، قال الله تعالى: « أَن تَقُولَ نَفۡسٞ يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُّ فِي جَنۢبِ ٱللَّهِ وَإِن كُنتُ لَمِنَ ٱلسَّٰخِرِينَ» (الزمر:٥٦)، وقد سمى الله تعالى يوم القيامة بيوم الحسرة لكثرة النادمين فيه بعد فوات الأوان، « وَأَنذِرۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡحَسۡرَةِ إِذۡ قُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَهُمۡ فِي غَفۡلَةٖ وَهُمۡ لَا يُؤۡمِنُونَ» (مريم:٣٩)، فطوبى لمن استقام على الطاعة ولزم العبادة، وطرح الغفلة وراء ظهره، وندم على ما فرط، ولزم التوبة والاستغفار وسأل العزيز الغفار أن يغفر ذنبه، وأن يقبل عمله، وأن يعينه على الطاعة والعبادة والاستمرار عليها حتى الممات.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

افتتاحية العدد

قتل الأبرياء ليس من الإسلام

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه ومن تبعهم إلى يوم الدين.. وبعد:

فمما ابتُلي به الناسُ في هذه الأيام؛ ما نراه ونسمع عنه في أنحاء العالم من حوادث التفجيرات، والعمليات الانتحارية؛ التي يسميها البعض خطأً «الاستشهادية»، والتي تقتل -دون تمييز- الأبرياءَ ومعصومي الدم، وما يعقب ذلك من دمار في المرافق، والمساجد، والمنشآت العامة والخاصة، بدون تفريق.

يحدث هذا في بلاد الإسلام، وغيرها من بلدان العالم، مما أدى بكثيرٍ من المتعجلين والمتهورين أن يُلصقوا هذه الأعمالَ بالإسلام، وهو منها براءٌ، بل إن نبيَّ الإسلام تبرَّأ من مثل هذه الأعمال صراحةً بقوله صلى الله عليه وسلم: «مَن خرَج على أمتي (وفي رواية بسيفه) يضرب برَّها وفاجرها، ولا يتحاشى من مؤمنها، ولا يفي لذي عهد بعهده؛ فليستُ منه، وليس مني» (رواه مسلم ١٨٤٨).

ولم تسلم من مثل هذه الأعمال الإرهابية الإجرامية مقدساتُ الإسلام، حتى وصلت إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ففي يوم الاثنين التاسع والعشرين من شهر رمضان المبارك لهذا العام ١٤٣٧هـ، وقبل أذان المغرب فُجِعَ أهل المدينة النبوية ومن في مسجد رسول اللهَ صلى الله عليه وسلم بحَدَث عظيم ومصاب جلل؛ عندما فجر أحد الانتحاريين نفسه بجوار المسجد في مجموعة ممن يقومون على حفظ الأمن والنظام وخدمة زائري مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وما فعله يُعدُّ من الأعمال الإجرامية التي تتصادم مع العقل والدين، وقد هلك هذا الانتحاري بتفجير نفسه وراح ضحية ذلك عددٌ من الجنود الصائمين الموحدين.

وهذه الأعمال الانتحارية تتعارض مع الشريعة الإسلامية السمحة وتنافيها، وهذه بعض الأدلة على ذلك:

١- حرم الإسلام ترويع المؤمنين وإدخال الفزع عليهم، كما في حديث عبد الله بن أبي ليلى قال: حَدَّثَنَا أَصْحَابُ مُحَمَّد صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ كَانُوا يَسِيرُونَ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ،

فَنَامَ رَجُلٌ مِنْهُمْ فَانْطَلَقَ بَعْضُهُمْ إِلَى حَبْلٍ مَعَهُ فَأَخَذَهُ، فَفَزِعَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لاَ يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يُرَوِّعَ مُسْلِمًا". (أبو داود: ٣/٩٤٤).

والفزع هو الذعر والخوف، وكم من مسلم فزع وروِّع من هذا الحادث، وقد ذكر المناوي رحمه الله أن هذا لا يجوز ولو كان الفاعل هازلاً لما فيه من الإيذاء. (انظر: عون المعبود ١٣/٣٤٧).

فما بال من يفعل ذلك وهو قاصد متعمد، والإسلام بعالميته ورحمته يحرم مثل هذا الفعل حتى مع الحيوانات، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ فَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ، فَرَأَيْنَا حُمَّرَةً- طائر صغير كالعصفور- مَعَهَا فِرْخَانِ فَأَخَذْنَا فِرْخَيْهَا، فَجَاءَتِ الْحُمَّرَةُ فَجَعَلَتْ تَفْرُشُ، فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: "مَنْ فَجَعَ هَذِهِ بِوَلَدِهَا؟ رُدُّوا وَلَدَهَا إِلَيْهَا"، وَرَأَى قَرْيَةَ نَمْلٍ قَدْ حَرَّقْنَاهَا فَقَالَ: "مَنْ حَرَّقَ هَذِهِ؟ قُلْنَا نَحْنُ. قَالَ: "إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ يُعَذِّبَ بِالنَّارِ إِلاَّ رَبُّ النَّارِ". (رواه أبو داود وصححه الألباني في صحيح سنن أبي داود ٢/٥٠٨).

وقد ذكر أبو داود رحمه الله تحت باب بعنوان: «باب في كراهية حرق العدو بالنار»، فانظر أيها المسلم إلى رحمة الإسلام بالحيوانات والكفار، ثم انظر إلى فعل هؤلاء البغاة وقتلهم للمسلمين وتحريقهم لهم دون رحمة أو وازع من دين؟!

٢- نهى الإسلام عن حمل السلاح على المؤمنين كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حمل علينا السلاح فليس منا». (البخاري: ٧٠٧٠، ومسلم: ٩٨).

وهذا وعيد شديد لمن حمل السلاح، فما بالك بالقتل والتفجير والتدمير. قال ابن حجر في شرحه: «ففيه دلالة على تحريم قتال المسلمين والتشديد فيه. وقوله: "فليس منا" أي ليس على طريقتنا، أو ليس متبعا لطريقتنا؛ لأن من حق المسلم على المسلم أن ينصره ويقاتل دونه لا أن يرعبه بحمل السلاح عليه لإرادة قتاله أو قتله». (فتح الباري: ١٣/٢٤).

بل إن الإسلام حرَّم مجرد الإشارة بالسلاح كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يشير أحدكم على أخيه بالسلاح، فإنه لا يدري لعل الشيطان ينزع في يديه فيقع في حفرة من النار». (البخاري: ٧٠٧٢، ومسلم: ٦١٧).

قال ابن حجر: «وفي الحديث النهي عما يفضي إلى المحذور وإن يكن المحذور محققا سواء كان ذلك في جد أو هزل». (فتح الباري: ١٣/٢٥).

وفي رواية لمسلم: أن الملائكة تلعن من يشير إلى أخيه بحديدة. يقول أبو هريرة: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أشار إلى أخيه بحديدة فإن الملائكة تلعنه، حتى وإن كان أخاه لأبيه وأمه». (مسلم: ٢٦١٦).

قال النووي رحمه الله: «فيه تأكيد حرمة المسلم والنهي الشديد عن ترويعه وتخويفه والتعرض له بما قد يؤذيه، وقوله صلى الله عليه وسلم: «وإن كان أخاه لأبيه وأمه» مبالغة في عموم النهي في كل أحد سواء من يتهم فيه ومن لا يتهم، وسواء كان هذا هزلاً ولعبًا أم لا؛ لأن ترويع المسلم حرام على كل حال. (شرح النووي ١٦/١٧٠).

٣- حرَّم الإسلام قتل الأنفس المعصومة على العموم، قال الله تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا» (الإسراء:٣٣). قال ابن جرير في تفسيرها: «يقول جل ثناؤه: وقضى أيضا أن لا تقتلوا أيها الناس النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق وحقها أن لا تقتل إلا بكفر بعد إسلام، أو زنا بعد إحصان، أو قود بنفس». (جامع البيان ١٥/٥٨).

وقال تعالى في وصف عباد الرحمن: «وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا» (الفرقان: ٦٨، ٦٩).

وقد بيَّنت السُّنة النبوية أن دم المسلم حرام لا يحل إلا بإحدى ثلاث كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس، والثيب الزاني، والمفارق لدينه التارك للجماعة». (البخاري: ٦٨٧٨،

ومسلم: ١٠٩).

وقد عظَّم الإسلام قتل النفس بغير حق، كما في حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لن يزال المؤمن في فُسحَة من دينه ما لم يصب دمًا حرامًا». (البخاري: ٦٨٦٢). قال ابن العربي في معنى الحديث: «الفسحة في الدين سعة الأعمال الصالحة حتى إذا جاء القتل ضاقت لأنها لا تفنى بوزره». (فتح الباري: ١٢/١٨٨).

وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أول ما يُقضى بين الناس في الدماء». (البخاري: ٦٨٦٤). وقد دل الحديث على التشديد في الدماء وتعظيم قتل النفس؛ لأن الابتداء إنما يقع بالأهم.

٤- تحريم الإسلام قتل الإنسان لنفسه: حرم الإسلام على العبد قتل نفسه ورتب وعيدًا شديدًا على ذلك، قال تعالى: «وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَٰنًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرًا» (النساء: ٢٩، ٣٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من تردى من جبل فقتل نفسه فهو في نار جهنم يتردى فيها خالدًا مخلدًا فيها، ومن تحسى سُمًا فقتل نفسه فسمه في يده يتحساه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا». (البخاري: ٥٧٧٨). والحديث أخرجه مسلم في صحيحه تحت باب بعنوان: «باب غلظ تحريم قتل الإنسان نفسه وأن من قتل نفسه بشيء عُذب به في النار، وأنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة». والحديث في مسلم برقم (١٠٩).

وإني لأعجب بعد هذا من مباركة بعض العلماء لهذه الأعمال الانتحارية، كموقف الدكتور يوسف القرضاوي من البوعزيزي قاتل نفسه في تونس، والذي كان سببًا في قيام الثورة هناك، وقد انتقلت الثورات المشؤومة بعد فعله في بعض البلاد الإسلامية، ولأخينا الباحث عبد الحق التركماني رد علمي رصين على ما ذهب إليه الدكتور القرضاوي وأمثاله.

كلمة حول الحادث الأليم الذي وقع في مدينة النبي صلى الله عليه وسلم:

هذا الاعتداء المشين الذي وقع في نهاية رمضان قرب مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم عمل إجرامي لا يقره عقل سليم ولا دين قويم، وقد حرَّم النبي صلى الله عليه وسلم المدينة، كما في حديث عاصم قال: «قلت لأنس: أحرَّم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة؟ قال: نعم، ما بين كذا إلى كذا، لا يقطع شجرها، من أحدث فيها حدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين». (البخاري: ٧٣٠٦).

قال ابن حجر: عن ابن بطال: «خُصَّت المدينة بالذكر لشرفها؛ لكونها مهبط الوحي وموطن الرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها انتشر الدين في أقطار الأرض، فكان لها بذلك مزيد فضل على غيرها». (فتح الباري: ١٣/٢٨١).

وروى الطبراني عن عبادة بن الصامت مرفوعًا قال: «اللهم من ظلم أهل المدينة وأخافهم فأخفه، وعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يُقبل منه صرف ولا عدل». قال الألباني: إسناده صحيح. (السلسلة الصحيحة ١/٦٢٠).

فكيف بلعن الله لمن فَجَّر نفسه وظلم أهل المدينة وأخافهم بفعله؟!

وفي مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: «من أراد أهل هذه البلدة بسوء- يعني المدينة- أذابه الله كما يذوب الملح في الماء». (مسلم: ١٣٨٦).

وفي هذه الأحاديث بشرى لأهل المدينة، وأن الله يدافع عنهم، وإني لأرجو أن تكون نهاية هؤلاء المجرمين بهذا الحدث، فيذيبهم الله كما يذوب الملح في الماء.

وفي الختام أود أن أنبه إلى أمر مهم وهو: أن هذه الأعمال الفاسدة لا يجوز نسبتها إلى الإسلام وهو منها بريء، كما لا يجوز النيل من أهل الحق والدعوة إلى الله ممن يقومون بواجب تبليغ دعوة الإسلام إلى الناس بالحكمة والموعظة الحسنة، فهؤلاء طريقهم على منهاج النبوة وأولئك ضالون مفسدون.

نسأل الله أن يجنب بلاد المسلمين كل سوء ومكروه، وأن يحفظ علينا ديننا وأمننا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

افتتاحية العدد

العبادات جمعٌ للأمة، ووحدة للصف

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله عظيم الإحسان، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة لجميع الأنام، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان، وبعد:

فإن من الأسس العظيمة التي دعا إليها الإسلام: الوحدة والائتلاف، وجمع الكلمة، وتوحيد الصف على كلمة الإخلاص، وعبادة الله وحده دون سواه، كما قال تعالى: «إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ» (الأنبياء:٩٢).

وقد امتن الله على هذه الأمة منذ بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم بجمع قلوب الصحابة ووقوفهم صفًا واحدًا مع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقد أشار القرآن إلى ذلك بقوله: «وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (الأنفال: ٦٢- ٦٣).

فالأمة الإسلامية أمة واحدة منذ الصدر الأول، ومن مظاهر ذلك المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، ووقوف سلمان الفارسي وصهيب الرومي إلى جانب أبي بكر وعمر في التكاليف الشرعية، والتاريخ يشهد بذلك، فالأنصار قبل الإسلام كانت بينهم حروب وعداوات، ولما نوَّر الله قلوبهم بالإسلام أصبحوا كما قال تعالى: «وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا» (آل عمران:١٠٣)، وقد ذكر النبي صلى الله عليه وسلم الأنصار بهذه النعمة في غزوة حنين، وفي ذلك يقول: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهداكم الله بي؟ وكنتم متفرقين فألفكم الله بي؟ وعالة فأغناكم الله بي». (البخاري: ٤٣٣٠، ومسلم: ١٠٦١).

قال ابن حجر: «وقد رتب صلى الله عليه وسلم ما منَّ الله عليهم على يده من النعم ترتيبًا بالغًا فبدأ بنعمة الإيمان التي لا يوازيها شيء من أمر الدنيا، وثنَّى بنعمة الألفة وهي أعظم من نعمة المال؛ لأن الأموال تبذل في تحصيلها وقد لا تحصل، وقد كانت الأنصار قبل الهجرة في غاية التنافر والتقاطع لما وقع بينهم من حرب بعاث وغيرها، فزال ذلك كله بالإسلام». (فتح الباري ٨/ ٥٠).

والعبادات في الإسلام تعمِّق هذا المعنى وتؤصِّل هذا المفهوم، وهي كلها طريق إلى وحدة الأمة

وجمع الكلمة وتوحيد الصف:

فالصلاة تؤدَّى خمس مرات في اليوم والليلة في جماعة، حيث يقف المسلم إلى جانب أخيه، لا تفصل بينهم حواجز، أو عصبيات، أو مراكز ومقامات، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على أداء الصلاة جماعة في المسجد، وذكر لها من الفضل والحسنات الشيء الكثير؛ وذلك لأهمية تلاقي المسلمين واجتماعهم.

وعبادة الزكاة تدفع المجتمع دفعًا إلى الترابط والتماسك، وهي سبب كبير في إزالة الغل والحقد والحسد من النفوس، ولذلك أمر الله تبارك وتعالى بها القادرين وفرضها عليهم، كما قال الله تعالى: «وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ» (البينة:٥)، وقد نظمها الإسلام تنظيمًا دقيقًا، وأعلم الأغنياء أنها حق للفقراء، حتى لا يستعلي الغني على الفقير، وفي الوقت ذاته لا يشعر الفقير بلون من ألوان الامتهان، لأن ما يأخذه- من الغني حق له، وقد دل القرآن على ذلك في قوله تعالى: «وَفِيٓ أَمۡوَٰلِهِمۡ حَقّٞ لِّلسَّآئِلِ وَٱلۡمَحۡرُومِ» (الذاريات:١٩).

وفي الآية إشارة إلى أن المال الذي في يد الغني ليس كله ملكًا له يستأثر به، وإنما فيه حق للمحتاجين، ليس هبة منه وتفضلاً عليهم، وإنما هو حق فرضه رب للعباد لهم.

وفي الصيام تظهر معاني الأمة الواحدة المجتمعة على الصيام من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، فالأمة المسلمة في البلد الواحد يمسكون عن المفطرات في وقت واحد، ويقبلون على تناول الإفطار في وقت واحد وبهذا يتأصل في النفوس معنى الأخوة الإيمانية التي تجمع بين المسلمين في هذه العبادة العظيمة.

وإن نظرة واحدة إلى مظهر المسلمين في الحرمين الشريفين، وقد امتدت أمامهم موائد الطعام وهم جميعًا ممسكون عن تناول شيء منها، فإذا رفع أذان المغرب امتدت أياديهم جميعًا في وقت واحد لتناول طعام الإفطار لتوضح هذا المعنى وتجليه.

أما بالنسبة لفريضة الحج ففيها من إظهار قوة المسلمين ووحدتهم الشيء الكثير، حيث إن حجاج بيت الله الحرام يجتمعون من أصقاع الأرض وأرجاء المعمورة عند بيت الله الحرام، وقد اختلفت ألسنتهم وألوانهم، وتباينت بلدانهم، ليؤدوا عملاً واحدًا في زمان واحد، ومكان واحد، فجميعهم يطوف بالبيت العتيق، ويسعى بين الصفا والمروة، وهم جميعًا يقفون بعرفات، وينزلون إلى مزدلفة ومنى، لا تفرق بينهم حواجز أو حدود، فالغني والفقير، والقادر والعاجز، والقوي والضعيف معًا في عبادة واحدة ولحمة واحدة، فيها يتعارفون ويتعاونون ويتشاورون، وتنعقد بينهم الروابط والمصالح الدينية والدنيوية، وهذه بعض مظاهر وحدة المسلمين في الحج:

١- يعبدون إلهًا واحدًا:

قبل بعثة النبي صلى الله عليه وسلم كان العرب في الجاهلية يعكفون على عبادة الأصنام، ويتقربون إليها ويدعونها من دون الله، وقد كان حول الكعبة وحدها ثلاثمائة وستون صنمًا، ولما فتح الله مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم طاف حول الكعبة، وكان يضرب بيده الشريفة الأصنام التي حولها، ويقرأ قول الله تعالى: «وَقُلۡ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَزَهَقَ ٱلۡبَٰطِلُۚ إِنَّ ٱلۡبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقٗا» (الإسراء:٨١)، وطهر بذلك البيت من الأصنام؛ ليتوجه قاصدو البيت إلى الإله الواحد فيعبدوه، وما أمر الله ببناء البيت العتيق إلا لتحقيق التوحيد.

وقد أكد أبو بكر رضي الله عنه هذه الحقيقة في العام التاسع للهجرة عندما أمَّره النبي صلى الله عليه وسلم على الحج في هذا العام، فبعث أبا هريرة في رهط يؤذن في الناس: «أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان».

وقد ساق البخاري رحمه الله هذا الحديث تحت باب عنون له بقوله: «باب لا يطوف بالبيت عريان، ولا يحج مشرك». انظر البخاري مع الفتح (٣/٤٨٣).

فبيت الله الحرام لم يبن للشرك، ولا للخرافة والدجل، وإنما لعبادة الله وحده، وقد أمر الله تبارك وتعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يرفع بناء البيت على التوحيد، وأن يطهره من كل شرك، كما قال سبحانه: «وَإِذۡ بَوَّأۡنَا لِإِبۡرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلۡبَيۡتِ أَن لَّا تُشۡرِكۡ بِي شَيۡـٔٗا وَطَهِّرۡ بَيۡتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلۡقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ» (الحج:٢٦).

وقد نهى الله كل مشرك من دخول بيته

الحرام- أو الاقتراب منه، فقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُواْ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا » (التوبة:٢٨)، وقد حارب النبي صلى الله عليه وسلم الشرك، لأنه يتعارض مع الإيمان ويناقضه، ومن هنا أمر الله سبحانه بالكفر بالطاغوت، ليتحقق التوحيد، قال الله تعالى: « وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ » (النحل:٣٦).

٢- يلبسون لباسًا واحدًا:

في الحج يتجرد الرجال من ملابسهم المعتادة، ويلبسون زيًا واحدًا، ويظهرون جميعًا بمظهر واحد، لا فخر فيه ولا خيلاء، غنيهم وفقيرهم فيه سواء، ولا يستطيع الناظر فيه أن يميز بين صاحب المكانة والشرف في قومه، ولا بين فقير الحال والضعيف بين أهله، ولا بين من جاء من المشرق، ولا من أتى من المغرب، ولا بين العجمي ولا بين العربي فكلهم في لباسهم سواء، لا يتميز فيه واحد عن الآخر.

٣- يجتمعون على تلبية واحدة:

التلبية في الحج والعمرة سُنة، ويستحب للرجال رفع الصوت بها، ومعناها: أن الحاج والمعتمر يقول لربه: يا رب قد دعوتني لحج بيتك، وقد يسرت لي ذلك، فلبيك اللهم لبيك، يعني إجابة لك يا رب بعد إجابة، وصفة تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وقد تضمنت إثبات التوحيد والبراءة من الشرك، ونحن نشاهد الحجاج والمعتمرين يهتفون بهذه التلبية، وقد خلفوا وراء ظهورهم الهتافات الوطنية والشعارات القومية، ونكسوا كل الرايات العصبية، ورفعوا شعارًا واحدًا، وهو: لا إله إلا الله، محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم.

٤- يتوجهون إلى قبلة واحدة:

أول ما فُرضت الصلاة كان التوجه فيها إلى بيت المقدس، غير أن النبي صلى الله عليه وسلم كانت تتوق نفسه إلى التوجه إلى الكعبة المشرفة، وكان يسأل ربه ذلك، فأمره الله بالتحول إلى الكعبة، كما قال الله تعالى: « قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ » (البقرة:١٤٤).

وفي الآية أمر باستقبال الكعبة في الصلوات كلها فرضها ونفلها، والفائدة من ذلك الاجتماع دون الافتراق، والمسلمون في مشارق الأرض ومغاربها وهم يتوجهون إلى قبلة واحدة، يصلون أيضًا خلف إمام واحد في المكان الذي يوجدون فيه، ففي كل مسجد تقام فيه الصلاة يتقدم إمام ليؤم الناس، وعلى جميع من خلفه متابعته لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنما جُعل الإمام ليؤتم به، فإذا كبر فكبروا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا سجد فاسجدوا، وإن صلى قائمًا فصلوا قيامًا». (البخاري: ٣٧٨).

وكما يجتمع المسلمون خلف إمامهم في الصلاة ولا يخرجون عن فعله بتقديم أو تأخير، فيلزمهم أيضًا الاجتماع على إمامهم وقائدهم أيًا كان، ملكًا أو رئيسًا، أو غيره، وطاعته في المعروف، وهو أمر أوجبه الإسلام عليهم حرصًا على جماعتهم ووحدتهم، والأحاديث في ذلك كثيرة، منها أن ابن عمر رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من خلع يدًا من طاعة لقي الله يوم القيامة لا حُجَّة له، ومن مات وليس في عنقه بيعة، مات ميتة جاهلية». (مسلم: ١٨٥١).

وبهذا يظهر بوضوح أن الإسلام يوم شرع الحج للناس، أراد منهم أن يكونوا أمة واحدة، متعاونة متكاتفة، لا تفرق بينهم حدود أو حواجز لأنهم كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، والمسلمون اليوم وهم يشاهدون التكتلات التي تتم هنا وهناك يجب عليهم وهم يقومون بالتكاليف الشرعية أن يبتعدوا عن الأنانية والشحناء والكراهية، وأن يتعلموا العيش في الحياة بسلام ووئام، متعاونين على البر والتقوى، لا على الفساد والإفساد.

وإن أخوة الدين تفرض التناصر والتعاون بين المسلمين، وعلى الحجاج والمعتمرين قاصدي الحرمين الشريفين أن يذكروا أنفسهم بالأخوة فيما بينهم، فيحترم كل واحد منهم حق أخيه، ولا يعتدي عليه أو يظلمه، ليحققوا لأنفسهم أعلى الدرجات والقبول عند رب الأرض والسماوات، ويرجع الحاج وقد غُفر له ما تقدم من ذنبه.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ييسر للحاج حجهم، وأن ييسر لنا حج بيته الحرام، وأن يسلم ويحفظ الحجاج والمعتمرين، وأن يعودوا إلى بلادهم سالمين غانمين، وأن يحفظ بلاد الحرمين من كل سوء ومكروه.

وصلى الله وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

افتتاحية العدد

فضل العلم وشرف أهله

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله العليم الخبير، والصلاة والسلام على من علمه رب العالمين، وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين، ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن مكانة العلم في الدين سامية، ولأهله بين الأنام مراتب عالية، ولذلك أحببت مع مفتتح العام أن أذكر أمتي به، وأدعوهم إلى السعي في تحصيله لينالوا الكرامة في الدنيا والفوز في الآخرة، وقبل أن أتكلم عن فضله ومكانته أعرف أولاً به، فأقول وبالله التوفيق:

العلم في اللغة: مصدر مأخوذ من مادة علم، وهي تدل على أثر بالشيء يتميز به عن غيره، وهو نقيض الجهل. (انظر: معجم مقاييس اللغة، مادة علم).

أما في الاصطلاح فقد عرفه ابن حزم بقوله: «هو تيقن الشيء على ما هو عليه». (الإحكام في أصول الأحكام ١/ ٣٤). وذكر الشوكاني له تعريفات متعددة، ثم عقب عليها بقوله: «والأولى عندي أن يقال في تحديده: «هو صفة ينكشف بها المطلوب انكشافًا تامًا». (إرشاد الفحول ١/ ٦٤).

وقد وردت نصوص كثيرة في القرآن تشير إلى فضل العلم ومكانته، ومنها قوله تعالى: « أَمَّنْ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْءَاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ ۗ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ » (الزمر:٩)، وقد دلت الآية على التفرقة بين العالم وغيره وبيان أنهما لا يستويان، قال القاسمي في تفسيره: «في قوله تعالى: «هل يستوي..» الآية. مدح العلم ورفعة قدره، وذم الجهل وتنقصه، وفي الآية أيضًا إشعار بأن الذين يعلمون هم العاملون بعلمهم، إذ عبر عنهم أولاً.. ثم نفى المساواة بينه وبين غيره. قال القاشاني: وإنما كان المطيع هو العلم؛ لأن العلم هو الذي رسخ في القلب وتأصل بعروقه في النفس، بحيث لا يمكن صاحبه مخالفته». (تفسير القاسمي ١٤/ ١٣١).

وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا قِيلَ لَكُمْ تَفَسَّحُوا۟ فِى ٱلْمَجَٰلِسِ فَٱفْسَحُوا۟ يَفْسَحِ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَإِذَا قِيلَ ٱنشُزُوا۟ فَٱنشُزُوا۟ يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ » (المجادلة:١١)، والمتأمل في هذه الآية يدرك فضل العلم وشرف أهله. قال الحسن: قرأ ابن مسعود هذه الآية، وقال: «أيها الناس، افهموا هذه الآية، ولترغبنكم في العلم؛ فإن الله تعالى يقول: «يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ

وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ » (المجادلة:١١)، المؤمن العالم فوق الذي لا يعلم درجات». (تفسير البغوي ٤/٣٠٩).

ومما يدل على فضل العلم أن الله ذكر في كتابه أن أهل العلم هم الذين يعقلون كتابه ويفهمون أمثاله. قال تعالى: « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » (العنكبوت:٤٣)، قال ابن كثير: «أي: وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه. قال الإمام أحمد عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: عقلت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ألف مثل». وعلق ابن كثير على هذا بقوله: «وهذه منقبة عظيمة لعمرو بن العاص رضي الله عنه حيث يقول الله تعالى: « وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ » (العنكبوت:٤٣)». (تفسير ابن كثير: ٣/٥٦١).

ولو لم يكن للعلم قدر عظيم ما أمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأل المزيد منه، قال تعالى: «فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۗ وَلَا تَعْجَلْ بِٱلْقُرْءَانِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَىٰٓ إِلَيْكَ وَحْيُهُۥ ۖ وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا » (طه:١١٤).

وكان صلى الله عليه وسلم في دعائه إلى ربه العلم النافع والزيادة فيه، كما في سنن الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «اللهم انفعني بما علمتني، وعلمني ما ينفعني وزدني علمًا». (صحيح سنن الترمذي ٣/١٨٥). قال ابن عيينة: «ولم يزل صلى الله عليه وسلم في زيادة من العلم حتى توفاه الله عز وجل». (تفسير ابن كثير ٣/٢٣٠).

كما وردت آثار كثيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم على فضل العلم وأهله، منها ما رواه أبو موسى الأشعري رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا، فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا، وأصابت منها طائفة أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه ما بعثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به». (البخاري: ٧٩، ومسلم: ٢٢٨٢).

فهذا الحديث العظيم والمثل الحسن الجميل يظهر فضيلة العلم، ويكفي أن النبي صلى الله عليه وسلم

العلم يرفع الضعيف في أعين الناس إلى مقام الشرفاء والعظماء

العلم تركة الأنبياء وتراثهم وأهله عصبتهم ووارثهم

حسب العلم فضيلة أن يكون مادة حياة

جعله كالغيث النازل من السماء، ويحمل في طياته الخير والبركة لأهل الأرض فيحيي الله به الأرض بعد موتها، كذلك العلم يحيي الله به القلوب، وحسب العلم فضيلة أن يكون مادة حياة. قال القرطبي وغيره في معنى هذا الحديث: «ضرب النبي صلى الله عليه وسلم لما جاء به من الدين مثلاً بالغيث العام الذي يأتي الناس في حال حاجتهم إليه، وكذا حال الناس قبل مبعثه صلى الله عليه وسلم، فكما أن الغيث يحيي البلد الميت، فكذا علوم الدين تحيي القلب الميت، ثم شبَّه السامعين له بالأرض المختلفة التي ينزل بها الغيث، فمنهم العالم العامل المعلم، فهو بمنزلة الأرض الطيبة شربت فانتفعت في نفسها وأنبتت فنفعت غيرها، ومنهم الجامع للعلم المستغرق لزمانه فيه غير أنه لم يعمل بنوافله، أو لم يتفقه فيما جمع، لكنه أداه لغيره، فهو بمنزلة الأرض التي يستقر فيها الماء فينفع الناس به، وهو المشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: «نضر الله امرأ سمع مقالتي فأداها كما سمعها»، ومنهم من يسمع العلم فلا يحفظه ولا يعمل به ولا ينقله لغيره، فهو بمنزلة الأرض السبخة أو الملساء التي لا تقبل الماء أو تفسده على غيرها. (فتح الباري ١/١٧٧).

وقد جعل النبي صلى الله عليه وسلم العلم مساويًا في الفضل والأجر للمال الذي يتصدق به صاحبه فيجري له أجره دون انقطاع، والولد الذي يدعو لوالده، كما جاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث: إلا من صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له». (مسلم: ١٦٣١).

ومن أراد الله به خيرًا فقهه في دينه وعلمه، كما في البخاري عن معاوية رضي الله عنه أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين». (البخاري: ٧١).

قال ابن حجر: «وتفسير اللبن بالعلم لاشتراكهما في كثرة النفع بهما». (فتح الباري ١/١٨٠)، والعلم يرفع الضعيف في أعين الناس إلى مقام الشرفاء والعظماء، ويوضح ذلك ما رواه مسلم في صحيحه عن عامر بن واثلة، أن نافع بن عبد الحارث لقي عمر بعسفان، وكان عمر يستعمله على مكة، فقال: من استعملت على أهل الوادي؟ فقال: ابن أبزى، قال: ومن ابن أبزى؟ قال: مولى من موالينا. قال: أستخلفت عليهم مولًى؟ قال: إنه قارئ لكتاب الله عز وجل، وإنه عالم بالفرائض. قال عمر: أما إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله يرفع بهذا الكتاب أقوامًا ويضع به آخرين». (مسلم: ٨١٧).

وللفيروزآبادي كلمات رائقة في بيان فضل العلم وأهله، يقول: «فهو تركة الأنبياء وتراثهم، وأهله عصبتهم ووارثهم، وهو حياة القلوب ونور البصائر، وشفاء الصدور، ورياض العقول، ولذة الأرواح، وأنس المستوحشين، ودليل المتميزين، وهو الميزان الذي يوزن به الأقوال والأفعال والأصول، وهو العالم المفرق بين الشك واليقين، والغي وإرشاد الهدى والضلال، به يعرف الله ويعبد، ويذكر ويوحد.. والحاجة إليه أعظم من الحاجة إلى الطعام والشراب، لأن المرء يحتاج إليهما مرة أو مرتين في اليوم، وحاجته إلى العلم كعدد أنفاسه، وطلبه أفضل من صلاة النافلة، نص عليه الشافعي وأبو حنيفة، واستشهد الله عز وجل أهل العلم على أجل مشهود وهو التوحيد، وقرن شهادتهم بشهادته وشهادة ملائكته، وفي ضمن ذلك تعديلهم فإنه لا يستشهد بمجروح: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ (آل عمران:١٨)». (بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز ٤/٩٠، ٩١).

فيا أهل الإيمان: العلم طريقكم إلى الجنة، وهو ميراث النبوة فاحرصوا عليه، وولوا وجوهكم إليه، ويا فلاح من تعلم وانتفع!

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

افتتاحية العدد

من آداب طالب العلم

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء وسيد المرسلين وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي- بصورة موجزة- عن فضل العلم ومكانته، واستكمالاً لهذا الموضوع المهم الذي وافق بداية عام دراسي جديد أذكر هنا بعضًا من آداب طالب العلم الذي يجب تحققها فيه ليحصل له المراد، وهي كما يلي:

١- الإخلاص في الطلب:

الإخلاص شرط أساس في قبول الأعمال، وقد أمر به نبيه صلى الله عليه وسلم في كتابه فقال له: « فَٱعۡبُدِ ٱللَّهَ مُخۡلِصٗا لَّهُ ٱلدِّينَ » (الزمر:٢)، كما أمر به عموم عباده المؤمنين، فقال: « وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ » (البينة:٥).

والعلم عبادة من العبادات، فلا بد من توفره في طلب العلم، والمراد هنا: أن يطلب العلم لله، ولإزالة الجهل عنه، ليعبد ربه على بصيرة. قال ابن جماعة رحمه الله: «حسن النية في طلب العلم بأن يقصد به وجه الله تعالى والعمل به، وتنوير قلبه وتحلية باطنه، والقرب من الله تعالى يوم القيامة، والتعرض لما أعد لأهله من رضوانه، ولا يقصد به الأغراض الدنيوية من: تحصيل الرياسة والجاه والمال، ومباهاة الأقران، وتعظيم الناس له، وتصديره في المجالس ونحو ذلك». (تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص٦٩).

والإخلاص سبب في توفيق الله لصاحبه وعون له على تحقيق مراده. قال ابن القيم رحمه الله: «إن العبد إذا خلصت نيته لله تعالى، وكان قصده وهمه وعمله لوجهه سبحانه كان الله معه، فإنه سبحانه مع الذين اتقوا والذين هم محسنون، ورأس التقوى والإحسان خلوص النية لله في إقامة الحق، والله سبحانه لا غالب له، فمن كان معه فمن الذي يغلبه أو يناله بسوء؟ فإن كان الله مع العبد فمن يخاف؟ وإن لم يكن معه فمن يرجو؟ وبمن يثق؟ ومن ينصره من بعده؟» (إعلام الموقعين ٢/١٥٩).

فالإخلاص مهم وهو طريق النجاة من الشيطان الرجيم، فعدو الله إبليس لا سبيل له على المخلصين، وقد أقسم بعزة الله ليغوي بني آدم، واستثنى أهل الإخلاص، كما قال الله في كتابه: « قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ » (ص:٨٢، ٨٣)، وهؤلاء هم المقصودون في قول الله تعالى لإبليس: « إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ وَكَفَىٰ بِرَبِّكَ وَكِيلٗا »

(الإسراء:٦٥). (انظر: ابن كثير ٤/٥٧).

فيا طالب العلم جرِّد نيتك لله، وليكن طلبك العلم لله لتنال الأجر منه وحده دون سواه، وكن في ذلك كالسلف المتقدمين الذين قال فيهم الحافظ الذهبي رحمه الله: «فقد كان السلف يطلبون العلم لله فَنَبلوا، وصاروا أئمة يقتدى بهم، وطلبه قوم منهم أولاً لا لله، وحصلوه، ثم استقاموا، وحاسبوا أنفسهم، جرَّهم العلم إلى الإخلاص أثناء الطريق، كما قال مجاهد وغيره: «طلبنا هذا العلم وما لنا فيه كبير نية، ثم رزق الله النية بعدُ».

وبعضهم يقول: «طلبنا هذا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله»، فهذا أيضًا حَسَن، ثم نشروه بنية صالحة.

وقوم طلبوه بنية فاسدة لأجل الدنيا، ويُثنى عليهم، فلهم ما نووا: قال عليه السلام: «من غزا ينوي عقالاً فله ما نوى». وقوم نالوا العلم وولُوا به المناصب، فظلموا، وتركوا التقيد بالعلم، وركبوا الكبائر والفواحش، فتبًّا لهم، فما هؤلاء بعلماء، وبعضهم لم يتق الله في علمه، بل ركب الحِيَل، وأفتى بالرخص، وروى الشاذ من الأخبار، وبعضهم اجترأ على الله، ووضع الأحاديث، فهتكه الله وذهب علمه، وصار زاده إلى النار». (سير أعلام النبلاء ٧/١٥٢، ١٥٣).

واحذر يا طالب العلم من الرياء والشهرة، وحب الظهور، والترؤس في المجالس، فإن هذا وغيره مما يخالف الإخلاص يعرضك لغضب الله وعقابه، كما في الحديث الذي أخرجه مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه، وفيه يقول: «إن أول الناس يُقضى يوم القيامة عليه، رجل استشهد فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استُشهدت. قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريء، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل تعلم العلم وعلَّمه وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها. قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم وعلمته، وقرأت فيك القرآن. قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم، وقرأت القرآن ليقال قارئ، فقد قيل، ثم أمر بهَ فسحب على وجهه حتى ألقي في النار. ورجل وسَّع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تُحب أن ينفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسُحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسَّع الله عليه وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن يُنفق فيها إلا أنفقت فيها لك، قال: كذبت ولكنك فعلت ليقال هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار». (مسلم: ١٩٠٥).

قال النووي رحمه الله: «قوله صلى الله عليه وسلم في الغازي والعالم والجواد وعقابهم على فعلهم ذلك لغير الله وإدخالهم النار دليل على تغليظ تحريم الربا وشدة عقوبته، وعلى الحث على وجوب الإخلاص في الأعمال». (شرح النووي على مسلم ١٣/٥٠).

كما ورد وعيد شديد فيمن طلب العلم لغير الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم علمًا مما يُبتغى به وجه الله عز وجل، لا يتعلمه إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة». (صحيح سنن أبي داود ٢/٦٩٧).

ومعنى عَرف الجنة، أي: رائحة الجنة، وهذا محمول على أنه يستحق ألا يدخل أولاً، ثم أمره بعد ذلك إلى الله تعالى كأمر أصحاب الذنوب كلهم إذا مات الواحد منهم على الإيمان. (انظر: عون المعبود ١٠/٩٨).

وفي سنن ابن ماجه عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من تعلم العلم ليباهي به العلماء، ويجاري به السفهاء، ويصرف وجوه الناس إليه، أدخله الله جهنم». (صحيح سنن ابن ماجه ١/٤٨).

فاحرص يا طالب العلم على الإخلاص، ودع عنك الرياء والنفاق، حتى يسلم لك عملك وتلقى جزاءه عند ربك.

يقول الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله: «فإن فَقَدَ العلم إخلاص النية، انتقل من أفضل الطاعات إلى أحط المخالفات، ولا شيء يحطم العلم مثل: الرياء، والتسميع، بأن يقول مسمعًا: علمتُ وحفظتُ، وعليه فالتزم التخلص من كل ما يشوب نيتك في صدق الطلب، كحب الظهور، والتفوق على الأقران،

وجعله سُلمًا لأغراض وأعراض من جاه أو مال، أو تعظيم، أو سمعة، أو طلب محمدة أو صرف وجوه الناس إليك، فإن هذه وأمثالها إذا شابت النية أفسدتها وذهبت بركة العلم، ولهذا يتعين عليك أن تحمي نيتك من شوب الإرادة لغير الله تعالى». (حلية طالب العلم ص٦، ٧).

وأنصح طالب العلم أن يكثر من قراءة سِيَر الصالحين الصادقين، فهي تبعث- إن شاء الله- على الانتفاع بكلماتهم، والاعتبار بمواقفهم، ومنها شدة إخلاصهم في طلب العلم، ومن هؤلاء الإمام الحسين بن مسعود البغوي- رحمه الله- الذي صدق في طلب العلم، فبارك الله له، ونفع به خلق كثير، واستفاد الناس من علمه، وقد شهد له العلماء بذلك، يقول الحافظ الذهبي رحمه الله فيه: «بورك له في تصانيفه، ورُزق فيها القبول التام، لحسن قصده، وصدق نيته، وتنافس العلماء في تحصيلها». (سير أعلام النبلاء ١٩/٤٤١).

وقال الداوودي: «وقد بُورك له في تصانيفه ورُزق فيها القبول الحسن بنيته». (طبقات المفسرين ١/١٦١).

وعلى هذا المنوال كان ابن كثير رحمه الله الذي ربما لا يوجد بيت فيه طالب العلم إلا وكان عنده تفسيره، ومثل هؤلاء في الأزمنة السابقة كثير، نسأل الله أن يجعلنا من الصادقين في القول والعمل، وأن يحسن النية، ويبارك في القول والعمل.

٢- صدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم

ثم أرى وأنا أتكلم عن الإخلاص هنا؛ أن أذكر طالب العلم بأهمية صدق المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فهما قرينان لا يفترقان وبهما معًا يقبل الله الأعمال.

يقول ابن القيم رحمه الله: «فالمقبول ما كان لله خالصًا للسنة موافقًا، والمردود ما فقد منه الوصفان أو أحدهما، وذلك أن العمل المقبول هو ما أحبه الله ورضيه، وهو سبحانه إنما يحب ما أمر به وما عُمل لوجهه، وما عدا ذلك من الأعمال فإنه لا يحبها، بل يمقتها ويمقت أهلها، قال الله تعالى: «الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا» (الملك:٢)، قال الفضيل بن عياض: هو أخلص العمل وأصوبه، فسئل عن معنى ذلك فقال: إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يقبل حتى يكون خالصًا صوابًا، فالخالص أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله: «فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا» (الكهف:١١٠). (إعلام الموقعين ٢/١٦٢).

٣- الصدق:

والصدق مطابقة الكلام للواقع، وهو ضد الكذب، وهو مهم لطالب العلم، ويجب أن يكون قرينًا للإخلاص، وهكذا ورد في كتاب الله الكريم. قال تعالى: «فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» (الحج:٣١).

قال ابن تيمية رحمه الله عن الصدق: «إنه مقرون بالإخلاص الذي هو أصل الدين في الكتاب، وكلام العلماء والمشايخ. قال الله تعالى: «وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾ حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ» (الحج: ٣٠- ٣١)، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «عدلت شهادة الزور الإشراك بالله مرتين». وقرأ هذه الآية، وقال: «ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟ الإشراك بالله، وعقوق الوالدين». وكان متكئًا فجلس فقال: «ألا وقول الزور، ألا وشهادة الزور». فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت. (مجموع الفتاوى ٢٠/٧٦).

فيا طالب العلم: تعلم الصدق قبل أن تتعلم العلم، وقد ورد هذا عن الأوزاعي كما في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/٣٠٤، وإليك يا طالب العلم هذا التحذير من عالم نحرير: «احذر أن تمرق من الصدق إلى المعاريض فالكذب، وأسوأ مرامي هذا المروق: «الكذب في العلم» لداء منافسة الأقران، وطيران السمعة في الآفاق، ومن تطلع إلى سمعة فوق منزلته فليعلم أن في المرصاد رجالاً يحملون بصائر نافذة وأقلامًا ناقدة فيزنون السمعة بالأثر فتتم تعريتك عن ثلاثة معان: ١- فقد الثقة من القلوب، ٢- ذهاب علمك وانحسار القبول، ٣- ألا تُصدَّق ولو صدقتَ، وبالجملة فمن يحترف زخرف القول فهو أخو الساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى». (حلية طالب العلم ص٤٤).

فاصدق مع ربك ونفسك والناس، حتى لا تكون من الخاسرين، وترجع بالحسرة والندامة في يوم الدين.

أسأل الله سبحانه أن يجعلنا من المخلصين الصادقين، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

من آداب طلبة العلم

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن بعض آداب طلبة العلم، وأواصل في هذا اللقاء الكلام حول هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

٣- الأخلاق الحسنة:

إن التخلق بالآداب السامية، والتحلي بمحاسن الأخلاق العالية أمر لازم ومهم لطالب العلم، وهي أمارة على انتفاع طالب العلم به، كما أنها دليل على سلامة باطنه، وقد تنبه علماؤنا رحمهم الله إلى ذلك، فهذا ابن منظور رحمه الله يقول وهو يعرف الخلق: «وحقيقته: أنه صورة الإنسان الباطنة، وهي نفسه وأوصافها ومعانيها المختصة بها بمنزلة الخلق لصورته الظاهرة وأوصافها ومعانيها، ولها أوصاف حسنة وقبيحة، والثواب والعقاب يتعلقان بأوصاف الصورة الباطنة أكثر مما يتعلقان بأوصاف الصورة الظاهرة، ولهذا تكررت الأحاديث في مدح حُسن الخلق في غير موضع كقوله صلى الله عليه وسلم: «من أكثر ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق». (لسان العرب ١٠/٨٦، ٨٧).

وهذا الكلام في غاية الحسن والدقة، وهو يبين بوضوح الصلة الوثيقة بين الباطن والظاهر، وقد كان الرسول القدوة صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خُلقًا، ويكفي شهادة القرآن له بذلك في قول الله تعالى: « وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ » (القلم:٤)، كما وصفه خادمه أنس ابن مالك فقال كما في صحيح مسلم: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس، وكان أجود الناس، وكان أشجع الناس».

وأنس بن مالك خدم النبي صلى الله عليه وسلم عشر سنين فترة وجوده بالمدينة، وكان من ألصق الناس به، ويعرف مدخله ومخرجه، فكلامه عنه له اعتبار عند أهل العلم، قال النووي في شرحه للحديث: «فيه بيان ما أكرمه الله تعالى به من جميل الصفات، وأن هذه صفات كمال». (شرح النووي على مسلم: ١٥/٦٧).

فعلى طالب العلم أن يتحلى بالخُلق الحسن من الصبر والتواضع وحُسن السمت، وسلامة الباطن والظاهر، وملازمة الورع والأدب والسكينة والوقار، والابتعاد عن مجالس اللغو واللهو، ورحم الله الخطيب البغدادي الذي نصح طالب العلم بهذه الكلمات: «يجب على طالب

الحديث أن يتجنب اللعب والعبث، والتبذل في المجالس بالسخف والضحك والقهقهة وكثرة التنادر، وإدمان المزاح والإكثار منه، فإنما يستجاز من المزاح بيسيره ونادره وطريفه والذي لا يُخرج عن حد الأدب وطريقة العلم، فأما متصله وفاحشه وكثيره، وما أوغر منه الصدور وجلب الشر فإنه مذموم، وكثرة المزاح والضحك يضع من القدر، ويزيل المروءة». (الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ١/١٥٦).

ويحذر الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله طالب العلم من بعض مساوئ الأخلاق التي يجب عليه الترفع عنها فيقول: «لا تطأ بساط من يغشون في ناديهم المنكر، ويهتكون أستار الأدب، متغابيًا عن ذلك، فإن فعلت ذلك فإن جنايتك على العلم وأهله عظيمة». (حلية طالب العلم ص١٥).

وطالب العلم إن لم ينتفع بعلمه ويكون شامة بين الناس، فإن علمه سيصبح وبالاً عليه، وقد استعاذ النبي صلى الله عليه وسلم من علم لا ينفع، كما صح عن زيد بن أرقم أنه كان يقول في دعائه عليه الصلاة والسلام: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها». (مسلم: ٢٧٢٢).

قال الشيخ أبو بكر الجزائري معلقًا على هذا الحديث: «فتعوذه صلى الله عليه وسلم من العلم الذي لا ينفع دليل على أن طالب العلم إذا لم يأخذ نفسه بالأخلاق الفاضلة والآداب الرفيعة والشيم الطاهرة الطيبة أن أمره سيؤول إلى عدم انتفاعه بعلمه، وذلك هو الخسران المبين، كما أن تعوذه صلى الله عليه وسلم من نفس لا تشبع دليل على أنه لا ينبغي لطالب العلم أن يحرص على الدنيا ويتكالب عليها، حتى يؤدي به ذلك إلى الشَّرَه والطمع وأكل الحرام، فتذهب تقواه، ويسقط قدره، ويهبط شرفه- والعياذ بالله تعالى-». (انظر كتاب العلم والعلماء ص٣٢).

علامات حسن الخلق:

وللخلق الحسن علامات؛ من توفرت فيه كان من أصحاب الأخلاق المحمودة، وقد ذكرها يوسف ابن أسباط رحمه الله فقال: «علامة حسن الخلق عشرة أشياء: ١- قلة الخلاف، ٢- حسن الإنصاف، ٣- ترك تطلُّب العثرات، ٤- تحسين ما يبدو من السيئات، ٥- التماس المعذرة، ٦- احتمال الأذى، ٧- الرجوع بالملامة على نفسه، ٨- التفرد بعيوب نفسه دون عيوب غيره، ٩- طلاقة الوجه، ١٠- لين الكلام». (التنوير شرح الجامع الصغير للصنعاني ٥/٥٣٥).

٤- حسن الأدب مع أساتذته وشيوخه:

ومن الأخلاق الحسنة الفاضلة-وهي مهمة جدًا من طالب العلم- أن يتأدب مع أساتذته وشيوخه، وأن يعرف لهم قدرهم ومكانتهم، وينزلهم المنزلة اللائقة بهم، وقد أحسن الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في حديثه عن أدب الطالب مع شيخه، وذكره لبعض ما يجب على الطالب نحو شيخه، ومما قال: «فليكن شيخك محل إجلال منك وإكرام وتقدير وتلطف، فخذ بمجامع الآداب مع شيخك في جلوسك معه، والتحدث إليه، وحسن السؤال والاستماع، وحسن الأدب في تصفح الكتاب أمامه، وترك التطاول والمماراة أمامه، وعدم التقدم عليه بكلام أو مسير أو إكثار الكلام عنده، أو مداخلته في حديثه ودرسه بكلام منك، أو الإلحاح عليه في جواب، والتزم توقير المجلس، وإظهار السرور من الدرس والإفادة منه».

ثم ذكر رحمه الله بعد هذه الألوان من الأدب تنبيهًا مهما يتعلق بالتعامل مع الشيوخ، قال فيه: «أعيذك بالله من صنيع الأعاجم والطرقية، والمبتدعة الخلفية، من الخضوع الخارج عن آداب الشرع: لحس الأيدي، وتقبيل الأكتاف، والقبض على اليمين باليمين والشمال عند السلام كحال تودد الكبار للأطفال، والانحناء عند السلام، واستعمال الألفاظ الرخوة المتخاذلة، سيدي، مولاي، ونحوها من ألفاظ الخدم والعبيد». (حلية طالب العلم ٢٥/٢٦).

٥- الحذر من الحسد:

الحسد داء وبيل، ومرض فتاك خطير، وهو أول ذنب وقع في الدنيا، وذلك لما حسد إبليس اللعين أبانا آدم على ما فضله الله به، وعندما أمره ربه بالسجود لآدم أبى واستكبر، ودفع الأمر

بسبب الحسد فقال: «ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا» (الإسراء:٦١)، والحسد الذي أريد الحديث عنه هنا هو الحسد الواقع بين الأقران، وهو أمر قديم بين طلاب العلم، وعلى طلبة العلم الحذر من هذا المرض، حتى لا ينال أحدهم من عرض أخيه.

خطورة حسد الأقران:

وللأئمة الكبار كلمات مباركة نافعة في تحذير طلبة العلم مما يقال فيه: حسد الأقران، ومن هؤلاء الحافظ الذهبي رحمه الله الذي قال في ترجمة قتادة بن دعامة السدوسي رحمه الله: «ذُكر يحيى بن أبي كثير عند قتادة، فقال: متى كان العلم في السمّاكين؟ فذُكر قتادة عن يحيى، فقال: لا يزال أهلُ البصرة بشرٍ ما كان فيهم قتادة».

ثم عقب الذهبي على هذا بقوله: «قلت: كلام الأقران يُطوَى ولا يُروَى، فإن ذُكر تأمله المحدث، فإن وجد له متابعًا، وإلا أعرض عنه». (السير ٥/٢٧٥).

وقال الإمام البخاري رحمه الله: «قال إبراهيم بن المنذر عن محمد بن فليح: نهاني مالك عن شيخين من قريش، وقد أكثر عنهما في الموطأ، وهما ممن يُحتج بهما، ولم ينجُ كثير من الناس من كلام بعض الناس فيهم، نحو ما يذكر عن إبراهيم في كلامه عن الشعبي، وكلام الشعبي في عكرمة، وفيمن كان قبلهم، وتناول بعضهم في العِرض والنفس، ولم يلتفت أهل العلم في هذا النَحو إلا ببيان وحجة، ولم تسقط عدالتهم إلا ببرهان ثابت وحجة، والكلام في هذا كثير».

قال الحافظ الذهبي بعد نقله لهذا الكلام: «لسنا ندعي في أئمة الجرح والتعديل العصمة من الغلط النادر، ولا من الكلام بنفَس حادٍ فيما بينهم وبينه شحناء وإحنة، وقد عُلم أن كثيرًا من كلام الأقران بعضهم في بعض مهدر لا عبرة به، ولا سيما إذا وثّق الرجلَ جماعةٌ يلوح على قولهم الإنصاف». (السير ٧/٤٠).

وبناءً على ما سبق أقول لطالب العلم: يجب عليك أن تكون منصفًا مع إخوانك، وتذكر قول الله تعالى: «وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا» (الإسراء: ٣٦).

مفاسد التطاول في أعراض أهل العلم:

وعليك يا طالب العلم أن تصون لسانك عن التطاول في عرض إخوانك إلا ببينة وبرهان، وحجة واضحة للعيان، كما ذكر ذلك الإمامان البخاري والذهبي- رحمهما الله تعالى- فيما نقلته عنهما آنفًا، وعليك أن تجاهد نفسك في إزالة ما يمكن وقوعه في قلبك من الحسد لأقرانك ممن منَّ الله عليهم بالقبول، والله يتولى السرائر، والأولى بك أن تغبط أخاك فيما فضَّله الله به عليك، لا أن يقع في قلبك حسد له.

وقد ذكر الصنعاني رحمه الله الفرق بين الحسد والغبطة، فقال: «والحسد لا يكون إلا على نعمة، فإذا أنعم الله على أخيك نعمة فلك فيها حالتان: إحداهما: أن تكره تلك النعمة وتحب زوالها، وهذه الحالة تسمى حسدًا، الثانية: ألا تحب زوالها ولا تكره وجودها ودوامها له، ولكنك تريد لنفسك منها، فهذا يسمى غبطة.. وجه تحريم الحسد مع ما علم من الأحاديث: أنه تسخُّط لقدر الله تعالى وحكمته في تفضيل بعض عباده على بعض». (سبل السلام ٤/١٨١).

نصيحة ذهبية:

وأختم هذه المسألة بنصيحة تاج الدين السبكي رحمه الله التي قال فيها: «ينبغي لك أيها المسترشد أن تسلك سبيل الأدب مع الأئمة الماضية، وألا تنظر إلى كلام بعضهم في بعض إلا إذا أتى ببرهان واضح، ثم إن قدرت على التأويل وتحسين الظن فدونك، وإلا فاضرب صفحًا عما جرى بينهم، فإنك لم تُخلق لهذا، فاشتغل بما يعنيك ودع ما لا يعنيك، ولا يزال طالب العلم عندي نبيلاً حتى يخوض فيما جرى بين السلف الماضين، ويقضي لبعضهم على بعض». (طبقات الشافعية ٢/٢٧٨).

فاتق الله يا طالب العلم في أقرانك، وخذ بنصائح أهل العلم في ذلك، واسأل الله السلامة من الحسد، وإن وقع قرينك من أهل العلم والسنة في خطأ، فانصحه لله تعالى، وقم بالواجب عليك في ذلك بما يرضاه الله تعالى، دون افتراء أو كذب، أو فرح بالخطأ والزلل.

وفق الله المسلمين لما يحب ويرضى.

آداب طلبة العلم

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، والصلاة والسلام على خاتم النبيين وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فأواصل الحديث- بتوفيق الله تعالى- حول آداب طالب العلم، وقد ذكرت فيما مضى خمسة آداب مهمة، وبقي حديث حول ذلك لا يقل أهمية عما مضى، ومن ذلك:

٦- تحمُّل المشقة في طلب العلم:

العلم شيء كبير وعزيز، ولا بد من بذل الوسع والطاقة في تحصيله، والإقبال عليه بنَهَم، وترك الملذات والابتعاد عنها، وقد ضرب أكابر الصحابة المثل الأعلى في ذلك، حيث كانوا يتناوبون في الجلوس بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ حتى لا يفوتهم شيء من العلم، وقد عقد البخاري رحمه الله في الصحيح (تحت كتاب العلم) بابًا قال فيه: «باب التناوب في طلب العلم»، ثم ساق حديث ابن عباس عن عمر وفيه يقول: «كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد- وهي من عوالي المدينة- وكنا نتناوب النزول على رسول الله صلى الله عليه وسلم، ينزل يومًا، وأنزل يومًا، فإذا نزلتُ جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره، وإذا نزل فعل مثل ذلك». (البخاري: ٨٩).

قال ابن حجر في شرحه: «وفيه أن الطالب لا يغفل عن النظر في أمر معاشه؛ ليستعين على طلب العلم وغيره، مع أخذه بالحزم في السؤال عما يفوته يوم غيبته». (فتح الباري: ١/ ١٨٦).

وحبر هذه الأمة عبد الله بن عباس رضي الله عنهما ما بلغ هذه المرتبة في العلم إلا بالسعي الجادّ في التحصيل، وإليكم ما ذكره هو عن نفسه كما رواه الحاكم؛ قال ابن عباس: «لما قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا شابٌّ، قلت لشاب من الأنصار: هلمّ فلنسأل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ولنتعلم منهم، فإنهم اليوم كثيرٌ، فقال: يا عجبًا لك يا ابن عباس؟ أترى الناس يحتاجون إليك، وفي الناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مَن فيهم؟ قال: فترك ذاك، وأقبلت أنا على المسألة وتتبُّع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإن كنتُ لآتي الرجل في الحديث يبلغني أنه سمعه من

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجده قائلاً- أي: نائمًا في منتصف النهار- فأتوسدُ ردائي على بابه، تسفي الريح على وجهي التراب حتى يخرج، فإذا خرج قال: يا ابن عم رسول الله، ما جاء بك؟ هلاَّ أرسلت إلي فآتيك؟ فأقول: لا، أنا أحق أن آتيك، بلغني حديث عنك أنك تُحدثه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأحببت أن أسمعه منك، فكان الرجل بعد ذلك يراني واجتمع حولي الناس يسألوني، فيقول: هذا الفتى كان أعقل مني». قال الحاكم بعد سياقه: «هذا حديث صحيح على شرط البخاري، وهو أصل في طلب الحديث وتوقير المحدِّث». (المستدرك ١/١٠٦، ١٠٧).

وقال الحاكم أيضًا في طلبة العلم وأصحاب الحديث: «آثروا قطع المفاوز والقفار على التنعم في الدمن والأوطار، وتنعموا بالبؤس في الأسفار، مع مساكنة أهل العلم والأخبار.. فالشدائد مع وجود الأسانيد العالية عندهم رخاء، ووجود الرخاء مع فقد ما طلبوه عندهم بُؤس، فعقولهم بلذاذة السنة غامرة، وقلوبهم بالرضا في الأحوال عامرة، تعُلم السنن سرورهم، ومجالس العلم حُبُورهم، وأهل السنة قاطبة إخوانهم، وأهل الإلحاد والبدع بأسرهم أعداؤهم». (معرفة علوم الحديث ص٢، ٣).

وقد أفاد وأجاد الإمام مسلم بن الحجاج صاحب الصحيح رحمه الله عند ذكره لأثر ليس من حديث النبي صلى الله عليه وسلم، وإنما ذكره لبيان بذل الغالي والنفيس في تحصيل العلم، والأثر بإسناده كما رواه: «حدثنا يحيى بن يحيى التميمي، قال: أخبرنا عبد الله بن يحيى بن أبي كثير، قال: سمعت أبي يقول: لا يُستطاع العلم براحة الجسد». (مسلم: ٦١٢).

قال النووي رحمه الله في شرحه لهذا الأثر، ولماذا ساقه الإمام مسلم في صحيحه مع أنه ليس من كلام النبي صلى الله عليه وسلم: «جرت عادة الفضلاء بالسؤال عن إدخال مسلم هذه الحكاية عن يحيى مع أنه لا يذكر في كتابه إلا أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم محضة، مع أن هذه الحكاية لا تتعلق بأحاديث مواقيت الصلاة، فكيف أدخلها هنا؟ وحكى القاضي عياض رحمه الله تعالى عن بعض الأئمة أنه قال: سببه أن مسلمًا رحمه الله تعالى أعجبه حسن سياق هذه الطرق التي ذكرها لحديث عبد الله بن عمر، وكثرة فوائدها، وتلخيص مقاصدها، وما اشتملت عليه من الفوائد والأحكام وغيرها، ولا نعلم أحدًا شاركه فيها، فلما رأى ذلك أراد أن ينبّه مَن رغب في تحصيل الرتبة التي ينال بها معرفة مثل هذا فقال: طريقه أن يكثر اشتغاله وإتعابه جسمه في الاعتناء بتحصيل العلم». (شرح النووي على مسلم ٥/١١٣، ١١٤).

قلتُ: وفي هذا الأثر من الفوائد أيضًا: علوّ همم هؤلاء المتقدمين وحرصهم على طلب العلم، وفرحهم بما يتوصلون إليه من فرائد وفوائد، وتتبُّع مثل ذلك يطول، ولكني أختم هذه الفقرة بما ذكره أبو القاسم الطبراني عن نفسه حين سُئل عن كثرة حديثه فقال: «كنت أنام على البواري- أي الحصر- ثلاثين سنة». (تذكرة الحفاظ للذهبي ٣/٨٦).

ومما يدخل في تحمُّل المشاقّ في طلب العلم: ترك الأوطان، والتنقل والترحال في طلب الحديث، والتزود من العلم، وكان الأئمة السابقون رحمهم الله يعتبرون الرحلة في طلب العلم جزءًا أصيلاً من حياتهم العلمية، ومن لوازم طلب الحديث، وقد ألّف الخطيب البغدادي في ذلك كتابًا عنونه بقوله: «الرحلة في طلب الحديث»، وذكر فيه اهتمام المحدثين وسفرهم الليالي والأيام في طلب الحديث، حتى إن بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قد رحل إلى بعض الصحابة ليسمع حديثًا واحدًا لم يكن قد سمعه.

وقد عقد البخاري بابًا في كتاب العلم من صحيحه قال فيه: «باب الخروج في طلب العلم، ورحل جابر بن عبد الله مسيرة شهر إلى عبد

الله بن أنيس في حديث واحد».

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «قيل لأحمد: رجل يطلب العلم يلزم رجلاً عنده علم كثير أو يرحل؟ قال: يرحل، يكتب عن علماء الأمصار، فيشافه الناس ويتعلم منهم.

وفيه ما كان عليه الصحابة من الحرص على تحصيل السنن النبوية». (فتح الباري ١/ ١٧٥).

وقال ابن جماعة وهو يتحدث عن آداب المتعلم في نفسه: «الثالث: أن يبادر شبابَه وأوقات عمره إلى التحصيل، ولذلك استحبَّ السلف التغرُّب عن الأهل، والبعد عن الوطن؛ لأن الفكرة إذا توزعت قصرت عن دَرْك الحقائق وغموض الدقائق، ولذلك يقال: العلم لا يعطيك بعضه حتى تُعطيه كُلك». (تذكرة السامع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم ص٧٠).

وإليك- أيها القارئ الكريم- هذه الحكاية اللطيفة التي ما كانت إلا بسبب الرحلة في طلب العلم: «قال عبد الله بن فروُخ الفارسي: لما أتيت الكوفة وأكثر أمَلي السماع من الأعمش، فسألت عنه فقيل لي: غضب على أصحاب الحديث فحلف ألا يُسمعهم مُدة. فكنت أختلف إلى باب داره لعلي أصل إليه، فلم أقدر على ذلك، فجلست يوماً على بابه، وأنا متفكر في غُربتي وما حُرِمْته من السماع منه، إذ فتحت جارية بابه يوماً وخرجت منه، فقالت لي: ما بالك على بابنا؟ فقلت: أنا رجل غريب، وأعلمتها بخبري. قالت: وأين بلدكم؟ قلت: إفريقيا. فانشرحت إليّ وقالت: تعرف القيروان؟ قلت: أنا من أهلها. قالت: تعرف دار ابن فروخ؟ قلت: أنا هو. فتأملتني ثم قالت: عبد الله؟ قلت: نعم. وإذا هي جارية كانت لنا بعناها صَغيرة، فسارعت إلى الأعمش وقالت له: إن مولاي الذي كنت أخبرك بخبره بالباب، فأمرها بإدخاله، فدخلت وأسكنني بيتاً قبالة بيته، فسمعت منه وحدثني وقد حرم سائر الناس إلى أن قضيت أربي منه» (ترتيب المدارك للقاضي عياض ٣/ ١١٠).

وهذه نماذج يسيرة من أخبار علماء رحلوا واستفادوا، رحمهم الله تعالى.

وأختمها بالحافظ الرحالة أبي طاهر أحمد بن محمد الملقب بالسِّلفي رحمه الله وقد تجاوز عمره المائة.

قال أبو شامة: قال شيخنا علم الدين السخاوي: «سمعت يومًا أبا طاهر السلفي ينشد لنفسه ما قاله قديمًا:

أنا من أهل الحديث وهم خير فئة

جزت تسعين وأرجو أن أجوز المئة

قال: فقيل له: قد حقق الله رجاءك، فعلمت أنه قد جاز المئة، وذلك في سنة اثنتين وسبعين وخمس مائة.

قال الذهبي في ترجمته: «وارتحل، وله أقل من عشرين سنة، فدخل بغداد ولحق بها أبا الخطاب ابن البطر، وسمع منه نحوًا من عشرين جزءًا، كان يتفردُ بها، فتفرد هو بها عنه، وحجَّ فسمع بمكة من أبي شاكر العثماني، ثم ارتحل سنة خمسمائة، فسمع من محمد بن جعفر العسكري وطائفة بالبصرة، وبقي في الرحلة ثمانية عشر عامًا، يكتب الحديث والفقه والأدب والشعر، ثم استوطن ثغر الإسكندرية بضعًا وستين سنة، إلى أن مات ينشرُ العلم ويُحصِّل الكتب التي قل ما اجتمع لعالم مثلها في الدنيا، ولما دخل الإسكندرية رآه كُبراؤها وفضلاؤها، فاستحسنوا علمه وأخلاقه وآدابه، فأكرموه وخدموه. قال عبد القادر الحافظ: وكان أبو طاهر لا تبدو منه جفوةٌ لأحد، ويجلس للحديث فلا يشرب ماءً، ولا يبزق ولا يتورك، ولا تبدو له قدم، وقد جاوز المائة». (باختصار من سير أعلام النبلاء ٢١/ ٥- ٣٩).

قلتُ: هؤلاء هم أئمتنا الأعلام- رحمهم الله-، وهذه بعض جهودهم في العلم والتحصيل، وقد فتح الله عليهم وأنار بصيرتهم بالعلم، أسأل الله سبحانه أن يعطينا مما أعطاهم.

وللحديث بقية بإذن الله تعالى.

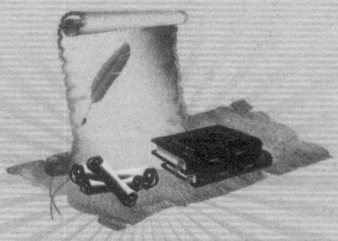

الاستراحة العلمية

آداب طلبة العلم

الحلقة الرابعة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله العلي الغفار، والصلاة والسلام على النبي المصطفى المختار، وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعد:

ففي اللقاء الماضي كنت أتحدث عن تحمُّل المشاق في طلب العلم، وبينت طرفًا من أخبار أئمتنا- رحمهم الله- وما قدّموه لذلك، وأواصل الحديث حول هذا فأقول:

إن الهمة العالية التي كانت لدى هؤلاء ينبغي لشباب الأمة الإسلامية أن يحذوا حذوها، وهي نماذج عالية رفيعة يجب أن تُقدَر وتُعرَف، لتكون نبراسًا اليوم لطالبي الخير والهدى، فيقبلون على طلب العلم، ومن استطاع أن يرحل فليلزم ذلك، وليكن لهم فيمن مضى عظة وعبرة، ورحم الله ابن الجوزي القائل: «كانت همم القدماء من العلماء عالية، تدل عليها تصانيفهم التي هي زبدة أعمارهم، إلا أن أكثر تصانيفهم دُثرت؛ لأن همم الطلاب ضعفت، فصاروا يطلبون المختصرات، ولا ينشطون للمطولات، ثم اقتصروا على ما يدرسون به من بعضها، فدثرت الكتب ولم تنسخ، فسبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تختلف من المصنفات، فليكثر من المطالعة، فإنه يرى من علوم القوم وعلومهم ما يشحذ خاطره، ويحرّك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سِيَر هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية، فيقتدي به المبتدئ، ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سِيَر السلف، ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، فالاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم، كما قال:

فاتني أن أرى الديار بطرفي
فلعلي أرى الديار بسمعي

وإني أُخبر عن حالي: ما أشبع من مطالعة الكتب، وإذا رأيت كتابًا لم أره، فكأنني وقعت على كنز». (صيد الخاطر ص٤٩٢).

قلتُ: إذا كان هذا حال طلبة العلم في زمن ابن الجوزي رحمه الله، حيث أقبلوا على المختصرات وتركوا المطولات، وقد عابهم على ذلك، وأخبر بضعف همتهم، وقلة ورعهم، واستعاذ بالله من سِيَرهم، فماذا يقول لو رأى حالنا اليوم؟

ولذلك أنصح نفسي وإخواني من طلبة العلم بالصبر والاجتهاد في طلب العلم؛ لأن نيل المقامات العالية الرفيعة لا تكون إلا بمشقة عالية عزيزة، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، فمن دأب واصطبر فاز وارتفع.

وإلى جانب ذلك، فإن العلم عبادة وقربة، وشرف وسيادة لصاحبه، وصدق ابن القيم في قوله: «سلطان العلم أعظم من سلطان اليد، ولهذا ينقاد الناس للحجة ما لا ينقادون لليد، فإن الحجة تنقاد لها القلوب، وأما اليد فإنما ينقاد لها البدن، فالحجة تأسر القلب وتقوده، بل سلطان الجاه إن لم يكن معه علم يُساسُ به، فهو بمنزلة سلطان السباع والأسود ونحوها، قدرة بلا علم ولا رحمة، بخلاف سلطان الحجة، فإنه قدرة بعلم ورحمة وحكمة، ومن لم يكن له اقتدار في علمه، فهو إما لضعف حجته وسلطانه، وإما لقهر سلطان اليد والسيف له، وإلا فالحجة ناصرة نفسها، ظاهرة على الباطل، قاهرة له». (مفتاح دار السعادة ص٦٤).

٧- العمل بالعلم:

العلم يثمر خشية الله تعالى وتقواه، ولذا يجب على طالب العلم أن يتحلى بخشية الله تعالى ودوام مراقبته، حتى لا يكون العلم وبالاً عليه وحجة، فقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يستعيذ بالله من علم لا ينفع، كما في حديث زيد بن أرقم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع». (مسلم: ٢٧٢٣).

والعبد إذا وقف بين يدي الله سيُسأل عن علمه ماذا عمل فيه، كما في حديث ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يُسأل عن خمس: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه، وماذا عمل فيما علم». (سنن الترمذي ٢٤١٧).

والعلماء من خلال ما تعلموه من أعرف الناس بالله، ودفعتهم هذه المعرفة إلى تعظيم أوامره والابتعاد عن نواهيه، وقد توعد الله في كتابه من يقول ولا يعمل، فقال: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفۡعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفۡعَلُونَ» (الصف: ٢- ٣)، والمقت: هو أشد البغض وأبلغه. (انظر تفسير القاسمي ج١٦/٥٧٨٢).

كما ذم سبحانه قومًا أوتوا علمًا ولم يعملوا به فقال: «مَثَلُ ٱلَّذِينَ حُمِّلُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ ثُمَّ لَمۡ يَحۡمِلُوهَا كَمَثَلِ ٱلۡحِمَارِ يَحۡمِلُ أَسۡفَارَۢاۚ بِئۡسَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِۚ وَٱللَّهُ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ» (الجمعة:٥)، وفي هذا المثل توبيخ شديد لمن تعلم ولم يعمل، وعلى رأس هؤلاء اليهود الذين أوتوا التوراة ولم يعملوا بها. قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله في هذه الآية: «هذا مثل ضربه الله ليهود وهو أنه شبَّههم بحمار، وشبَّه التوراة التي كُلفوا العمل بما فيها بأسفار، أي كتب جامعة للعلوم النافعة، وشبَّه تكليفهم بالتوراة بحمل ذلك الحمار لتلك الأسفار، فكما أن الحمار لا ينتفع بتلك العلوم النافعة التي في الكتب المحمولة على ظهره، فكذلك لم ينتفعوا بما في التوراة من العلوم النافعة، لأنهم كُلفوا باتباع محمد صلى الله عليه وسلم وإظهار صفاته للناس، فخانوا وحرَّفوا وبدَّلوا، فلم ينفعهم ما في كتابهم من العلوم».

ثم عقَّب تلميذه الشيخ عطية سالم رحمه الله على كلام شيخه السابق فقال: «بئس مثل القوم» أي: تشبيههم في هذا المثل بهذا الحيوان المعروف». (أضواء البيان ٨/١٩٥).

تعلُّم العلم للعمل به:

وهذا الذي دفع سلفنا الصالح إلى تعلم العلم للعمل به، وقد ألف الخطيب البغدادي رحمه الله كتابًا خاصًا بهذه الموضوع سماه: «اقتضاء العلم العمل»، وقد فطنوا رحمهم الله إلى أن ما ورد في فضل العلم لا يحصل إلا لمن عمل به. قال ابن جماعة رحمه الله: «واعلم أن جميع ما ذُكر في فضل العلم والعلماء إنما هو في حق العلماء العاملين الأبرار المتقين». (تذكرة

السامع والمتكلم ص١٣)، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «قولوا خيرًا تُعرفون به، واعملوا به تكونوا من أهله». (مصنف ابن أبي شيبة ١٣/٢٩٢).

وقد أفاد وأجاد الراغب الأصبهاني رحمه الله عند ذكره للحقوق الواجبة على طالب العلم ومعلم الناس الخير، فقال: «حق الواعظ أن يتعظ ثم يعظ، ويبصر ثم يبصِّر، ويهتدي ثم يهدي، ولا يكون كدفتر يفيد ولا يستفيد، وكمسنٍّ يشحذ ولا يقطع، بل يكون كالشمس التي تفيد القمر ولها أفضل مما تفيد، وكالنار التي تحمي الحديد ولها من الحمى أكثر مما تفيد، ويجب ألا يجرح مقاله بفعاله، ولا يكذب لسانه حاله، فيكون ممن وصفهم الله تعالى بقوله: « وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ» (البقر:٢٠٤، ٢٠٥)، ونحو ما قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «قصم ظهري رجلان: جاهل متنسك، وعالم متهتك، فالجاهل يغر الناس بنسكه، والعالم ينفرهم بتهتكه». (الذريعة إلى مكارم الشريعة ص١٨٤).

وينصح الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله طالب العلم بهذه الكلمات: «التحلي بعمارة الظاهر والباطن بخشية الله تعالى محافظًا على شعائر الإسلام، وإظهار السنة ونشرها بالعمل بها والدعوة إليها، دالاً على الله بعلمك وسمتك وعملك، متحليًا بالرجولة، والمساهلة والسمت الصالح، وملاك ذلك خشية الله تعالى، ولهذا قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «أصل العلم خشية الله تعالى»، فالزم خشية الله في السر والعلن، فإن خير البرية من يخشى الله تعالى». (حلية طالب ص٩).

ومن خشية الله تعالى ألا يتزيد طالب العلم بالكلام، ويدَّعي لنفسه الكمال، وألا يسلط لسانه على العباد، وقد أحسن الشيخ بكر أبو زيد رحمه الله في وصفه لهذا الصنف من الناس، فقال: «والمتطاول- كبت الله باطله- يسلّ لسانه على العباد فيتقيه المؤمنون، ويترفعون عن منازلته، فتكون العاقبة لهم، فيرتفع شأنهم عليه، ويكون قولهم الأعلى، أما هذا السليط المتسلط، فهو مبتلى- ويعلم الله- بأعظم بلية، وهي: موت القلب، ورؤيته القبيح حسنًا، وذهاب رصيده من القبول له في الأرض، ومن تعجيل العقوبة له: تخلفه عن أقرانه في القيمة الأدبية رغم تحرُّقه، وشدة تطلُّعه، أما في هذا الزمان، فقد ابتلي أهله بأناس جُهال، ادعوا العلم، وكافحوا عن دعواهم بالصَّلف واللسانة، والشغب والشراسة، وإذا لم يكن مع اللسان عقل يحجزه، دلَّ على عيب صاحبه، ولطرفة بن العبد:

وإن لسان المرء ما لم يكن له
حصاة على عوراته لدليل

(التعالم وأثره على الفكر والكتاب ص٦٩، ٧٠).

ثمرة العلم العمل به:

وفي الختام أقول لإخواني من طلبة العلم: إن ثمرة العلم العمل به، فالزم خشية الله تعالى وتقواه، وانتظم في سلك العلماء الربانيين الذين انتفعوا بالعلم، فصار سمتهم حسنًا، وسلوكهم حسنًا، مع سلامة الصدر وطهارة النفس، ومن كان من طلاب العلم كذلك دلَّ على الله بأفعاله وحسن أخلاقه، ونفع وانتفع، ورحم الله ابن تيمية في قوله عن العلم وطلابه: «وأما أهل العلم والدين الذين هم أهله، فهو مقصود عندهم لمنفعة لهم، وحاجتهم إليه في الدنيا والآخرة، كما قال معاذ بن جبل في صفة العلم: إن طلبه لله عباده ومذاكراته تسبيح، والبحث عنه جهاد، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة، به يُعرَف الله ويُعبد، ويُمجَّد الله ويُوحَّد». (منهاج السنة ٨/٢٠٩).

أسأل الله تبارك وتعالى أن يجعلنا من طلبة العلم العاملين به، وأعوذ بالله أن أذكر به وأنساه. والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

جهود أنصار السنة المحمدية في محاربة فكر الغلو والتطرف

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فإن جمعية أنصار السنة المحمدية جمعية دعوية قامت لدعوة الناس إلى الله تبارك وتعالى على منهاج النبوة، وليست حزبية أو سياسية، ومواقفها على مدار تاريخها واضحة للعيان، غير أن البعض اتهمها بما ليس فيها، وحمَّل مواقفها ما لا تحتمل؛ بغيًا وظلمًا، ولأجل ذلك أود أن ألقي الضوء بصورة سريعة عن هذه الجمعية في النقاط التالية:

أولاً: التعريف بها:

تأسست الجمعية على يد الشيخ محمد حامد الفقي، رحمه الله، عام ١٣٤٥هـ، وهو أحد علماء الأزهر، وقد وفَّقه الله تعالى للوقوف على كتب أئمة الإسلام من أمثال الدارمي، وابن خزيمة، وابن تيمية، وابن القيم، وقد تعلم منهم منهج أهل السنة ومعتقدهم الصحيح المستمَد من الوحي الرباني، وقابل ذلك بما شاهده ورآه من البدع والخرافات التي كانت سائدة آنذاك؛ كدعاء غير الله تعالى، والتمسح بالقبور، والذبح والنذر لأصحابها، فساءَه ذلك، ورأى أنه لا بد من الدعوة والعودة إلى الكتاب والسنة بفهم سلف الأمة، ونبذ البدع والخرافات التي دخلت على المسلمين من الفرق الضالة، وتحكيم الشرع في كل ذلك.

أهداف دعوة الشيخ حامد الفقي وغاياته السامية:

وقد حدَّد رحمه الله الأهداف النبيلة، والغايات السامية من وراء دعوته في نقاط محددة جاء فيها:

١- دعوة الناس إلى التوحيد الخالص المطهَّر من أرجاس الشرك وأدرانه وشوائبه، وإلى حب الله تعالى حبًّا صحيحًا صادقًا يتمثل في طاعته وتقواه، وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم حبًّا صحيحًا صادقًا يتمثل في الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة.

٢- الدعوة إلى أخذ الدين من نبعيه الصافيين؛ القرآن والسنة الصحيحة، ومجانبة البدع والخرافات ومحدثات الأمور.

٣- الدعوة إلى ربط الدنيا بالدين بأوثق رباط؛ عقيدةً وعملاً وخُلقًا.

٤- الدعوة إلى إقامة المجتمع المسلم، والحكم بما أنزل الله، فكل مشرِّع غيره في أي شأن من شئون الحياة معتدٍ عليه سبحانه، منازِع إياه في حقوقه.

اهتمام جمعية أنصار السنة بتوحيد الألوهية:

وقد ذكر الشيخ عبد الرزاق عفيفي رحمه الله الرئيس الثاني لجمعية أنصار السنة المحمدية أبرز ما تأسست من أجله أنصار السنة فقال: «ونحن إذا رجعنا إلى اليوم

الذي بدأ الله فيه بإرسال الرسل للناس لوجدنا أن دعوة أنصار السنة بأهدافها ومقاصدها- هي دعوة الرسل جميعًا من نوح إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فإن دعوة جميع الرسل والأنبياء لم تكن تحمل في أصولها وجوهرها أول الأمر الدعوة إلى تحريم تعاطي الخمر، أو لعب الميسر، أو اجتناب الفواحش مثلاً، وإنما كانت تحمل همّ الدعوة إلى توحيد الله تعالى عن طريق تحقيق كلمة التقوى (لا إله إلا الله)، وهي كلمة تأمر الناس بالكفر بالطواغيت والأصنام، وإخلاص العبادة لله وحده، وإفراده بالألوهية الخاصة.

والتوحيد مفتاح كل خير وباب كل هدى، فإن المسلم إذا عرف التوحيد حق المعرفة وأخلص العبادة لله، لا بد أن ذلك سيجعله في تقوى دائمة من الله، ومراقبة متصلة لمن يعبده». (جماعة أنصار السنة، نشأتها، أهدافها: د. أحمد الطاهر ص٦١، ٦٢).

اهتمام جمعية أنصار السنة بتوحيد الأسماء والصفات:

وكما اهتمت أنصار السنة بتقرير توحيد الألوهية والاهتمام به، اهتمت أيضًا بتوحيد الأسماء والصفات، وسلكت فيه مسلك السلف القويم، والناظر في كتابات الدكتور محمد خليل هراس في مجلة الهدي النبوي يلمس ذلك بوضوح ومن قوله في ذلك: «النوع الثالث من التوحيد، هو توحيد الأسماء والصفات، ولهذا النوع من التوحيد أهمية خاصة لكثرة ما يقع فيه من اللبس، ولطالما احتدم حوله الجدل، وثار النزاع بين الطوائف المختلفة، فهو بحق مدحضة العلماء ومزلة أقدامهم ومحك اختبارهم، كم ضلّ فيه من علماء أعلام، وتاه في تيهه كثير من أولي النهى والأحلام، ولا سبب لذلك طبعًا إلا الجري وراء الفلسفات الدخيلة والمذاهب الوثنية، وإحسان الظن بها، وتقديم ذلك على هدي الكتاب والسنة، وقد عالجت هذا الموضوع في كتابي المعروف بـ «ابن تيمية السلفي» عند الكلام على المذاهب المختلفة في الصفات، وفي شرحي للعقيدة الواسطية المعروف بـ «الثمار الشهية»». (انظر مجلة الهدي النبوي، العدد الرابع من المجلد ٢٦ ص١١).

اهتمام جمعية أنصار السنة بنشر السنن والآثار:

وإلى جانب اهتمام جمعية أنصار السنة بالتوحيد، فقد اهتمت بنشر السنن والآثار، والاتباع ونبذ البدع ومحدثات الأمور؛ عملاً بقول الله تعالى: «وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا» (الحشر:٧).

وقد صرح النبي صلى الله عليه وسلم بأن أيّ عمل يخالف هديه فهو مردود لا يُقبل، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا في صحيحه قال فيه: «باب إذا اجتهد العامل- أو الحاكم- فأخطأ خلاف الرسول صلى الله عليه وسلم من غير علم فحكمه مردود، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» (فتح الباري: ١٣/ ٣١٧).

تحذير أنصار السنة من البدع ومحدثات الأمور:

وكان الشيخ حامد ورفاقه رحمهم الله تعالى يحذرون في مقالاتهم وندواتهم من البدع ومحدثات الأمور، وفي ذلك يقول الشيخ أبو الوفاء درويش رحمه الله: «ومن أخص أهدافها: مكافحة البدع ومحدثات الأمور التي فُتِنَ بها كثيرٌ من الناس وخيَّل إلى بعضهم أنها تزيدهم تعبدًا لله وزلفى لدينه وصرفهم عن تدبر قوله تعالى: «ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» (المائدة:٣)، ولم يزل بهم يعدهم ويمنيهم ويزيدهم في الغي والضلال؛ حتى طغت البدع على السنن، وظن سواد الأمة أن الدعوة إلى محاربتها زندقة وإلحاد، ونظروا بعين العداوة والبغضاء إلى من يدعو إلى اعتناق السنة ومجانبة البدعة». (فاتحة السنة الثانية والعشرين لمجلة الهدي النبوي لعام ١٣٧٧هـ ص٤).

ويقرر ذلك الرئيس الثاني للجماعة العلامة عبد الرزاق عفيفي رحمه الله فيقول: «بدأت الجماعة تكافح الخرافات لا سيما ما كان متعلقًا منها بالعقائد، وترجع بأعضائها وكل من يشرفها إلى سنة النبي صلى الله عليه وسلم، وطريق السلف الصالح، وتنيرهم بالمعارف النبوية وتنشئهم على حب الكتاب والسنة وتمرنهم على النزول على حكمها من غير عصبية». (العدد الأول من مجلة الهدي النبوي عام هـ ص٩).

إصدار مجلة الهدي النبوي:

وقد قام الإمام المؤسس رحمه الله تعالى بإصدار مجلة الهدي النبوي لتكون اللسان المعبر عن دعوته في مصر وخارجها، وكان رحمه الله يتطلع إلى صدورها ويتمنى ظهورها، وفي ذلك يقول: «ولطالما تمنت نفسي أن أصدر صحيفة دينية علمية تضم صوتها إلى صوت المصلحين، وتدعو إلى الحق والرشاد والصلاح، ولقد حقق الله الأمنية

وهو المستعان، فلقد أخرجت جماعة أنصار السنة المحمدية مجلتها المباركة «الهدي النبوي» لتحقيق ما سبق ذكره من معالجة الأمراض والأدواء التي تنخر جسم المجتمع المسلم.. وإن من أوّل أغراض هذه المجلة أن تقدم ما تستطيعه من خدمة ونصح وإرشاد في الشئون الدينية والاجتماعية والأخلاقية». (افتتاحية مجلة الهدي النبوي في أول صدورها ص٣).

وقد فرح بصدور هذه المجلة من لهم قدم صدق في التوحيد والسنة وكتبوا فيها، وقد عبر أحدهم عن ذلك بقوله: «أبشروا أيها المؤمنون بظهور الهدي النبوي، وأيم الله إني لفرح مسرور مستبشر بظهور هذه المجلة التي نرجو من الله لها فتحًا جديدًا للإسلام، ونصرًا قريبًا، وعودة بأهله إلى عزهم ومجدهم القديم، ولطالما تحدثت نفسي بذلك وحنّت واشتاقت لظهور مجلة كهذه، وكم كنت أفكر في ذلك وأتمناه على الله سبحانه وتعالى، ولقد حقق الله أمنيتي-والحمد لله-، فأظهر مجلة الهدي النبوي على يد الأستاذ الجليل الداعي إلى السنة المحارب للبدعة الشيخ محمد حامد الفقي، صاحب مجلة الإصلاح الحجازية سابقًا، ورئيس جماعة أنصار السنة، وإني لأرجو الله سبحانه أن يجعل هذه المجلة زعيمة المجلات الإسلامية كلها بالقطر المصري وداعيتها إلى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم الصحيحة». (الهدي النبوي، ربيع الثاني، ١٣٥٦، ص١٩).

ولقد حققت مجلة الهدي النبوي نجاحًا كبيرًا في الأوساط العلمية، وانتشرت انتشارًا واسعًا في بلدان العالم الإسلامي، فوصلت إلى السودان والسعودية، وبلاد الشام والهند، والعراق والمغرب، وقد كتب فيها أئمة علماء مصر وغيرها، كالشيخ حامد الفقي، والشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد الرحمن الوكيل، والدكتور محمد خليل هراس، والشيخ حسن الباقوري، والشيخ حسن مأمون، كما كتب فيها الشيخ عبد الرحمن السعدي، والشيخ عبد العزيز بن باز، والدكتور محمد تقي الدين الهلالي، وغيرهم رحمهم الله جميعًا، وقد جُمعت وطُبعت في تسعة وعشرين مجلدًا مع الفهرس.

مجلة التوحيد امتداد للهدي النبوي:

ولما توقفت مجلة الهدي النبوي عن الظهور، وأُعيد إشهار جمعية أنصار السنة أنشأ المؤسس الثاني الشيخ محمد عبد المجيد الشافعي رحمه الله مجلة التوحيد؛ لتكون امتدادًا للهدي النبوي، وتقوم بالدور الذي كانت تقوم به، في الدعوة إلى التوحيد ونشر السنة، ومحاربة البدعة، وفي أوّل ظهورها كتب مؤسسها في افتتاحيتها مقالاً بعنوان: «لماذا التوحيد؟»، جاء فيه: «ويصدر بعون الله العدد الأول من مجلة التوحيد في زحمة الأحداث العاتية والظروف القاسية التي تكتنف العالم كله بصفة عامة والبلاد الإسلامية بصفة خاصة، ويمكن للقارئ الكريم أن يلمح من اسم المجلة الغاية النبيلة من إصدارها، والقصد الجليل من ظهورها، والهدف الأسمى الذي ترجو أن يتحقق بانتشارها، وهو إعلام الناس أن القرآن روح الإسلام، وأن التوحيد روح القرآن..، ومن ثم فإن جماعة أنصار السنة المحمدية تركز في دعوتها على التوحيد؛ لأن التوحيد يمنح المسلم مفتاح الحكمة، ويرقى به في معارج السمو، ويفتح له أبواب الكمال، فلا يتصرف إلا بهدي القرآن، ولا يسعى إلى بنوره، ولا يقتدي برسول الله عليه الصلاة والسلام». (العدد الأول من مجلة التوحيد عام ١٣٩٣هـ ص٤، ٥).

وإن من أوّل أغراض هذه المجلة أن تقدم ما تستطيعه من خدمة ونصح وإرشاد في الشؤون الدينية والاجتماعية والأخلاقية أخذت على نفسها موثقًا من الله أن تنصح فيما تقول، وأن تتحرى الحقّ، وأن لا تأخذ إلا ما ثبت بالدليل والحجة والبرهان الصحيح من كتاب الله تعالى وحديث رسوله عليه الصلاة والسلام.

ولا تزال المجلة، وستظل بإذن الله تعالى، تصدر حتى كتابة هذه السطور، ويكتب فيها جمع غفير من مصر وخارجها، وجميع أعدادها مجموعة ومطبوعة في مجلدات وصلت إلى خمسة وأربعين مجلدًا، وطلاب العلم اليوم بحاجة إلى هذا المنبر الإعلامي الذي يخرج إليهم في مطلع كل شهر هجري، لما تشتمل عليه من موضوعات في شتى علوم الإسلام.

أسأل الله تبارك وتعالى أن ينفع بها، وأن يأجر كُتّابها والعاملين عليها خيرًا، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه وسلم.

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

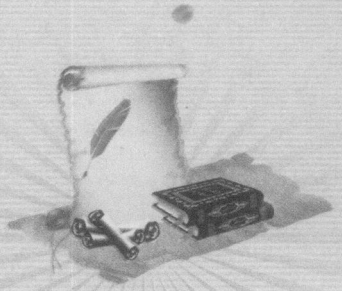

أضاءات العدد

جهود أنصار السنة في محاربة فكر الغلو والتطرف

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن نشأة أنصار السنة المحمدية، وذكرت أهم أهدافها، كما عرَّفت بمؤسِّسها والمجلات التي تصدرها، وفي هذا اللقاء أذكر طرفًا من تصدِّي أنصار السنة للغلو والتطرف، فأقول وبالله التوفيق:

تدور مادة هذه الكلمة- أعني: الغلو- على مجاوزة الحد والقَدْر فوق ما يستحقه الشيء، وعلى هذا تتابعت أقوال أهل اللغة.

قال ابن فارس: «وغلا في الدين والأمر يغلو غلوًا: جاوز حده، وفي التهذيب: غلوت في الأمر غلوًا وغلانية وغلانيًا: إذا جاوزت فيه الحد وأفرطت فيه». (لسان العرب: ١٠/١٣٢).

وقال النحاس: «الغلو: التجاوز، قال أبو عبيد: كما فعلت الخوارج؛ أخرجهم الغلو إلى أن كفَّروا أهل الذنوب، قال: ويبين لك هذا قول النبي صلى الله عليه وسلم فيهم: "يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"، والمروق: هو الغلو بعينه؛ لأن السهم يتجاوز الرمية». (معاني القرآن: ٢/٣٤٥).

قال ابن سعدي رحمه الله في تفسير قوله تعالى: «قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ» (المائدة: ٧٧). «أي: لا تتجاوزوا وتتعدوا الحق إلى الباطل». (تفسير الكريم الرحمن: ٢/٣٢٨).

وأما المراد بالتطرف فهو: البُعد عن الوسطية، ومجاوزة حد الاعتدال، جاء في المعجم الوسيط في معنى كلمة التطرف: «تجاوز حد الاعتدال ولم يتوسط». (المعجم الوسيط، مادة طرف). وبهذا يظهر أن الغلو والتطرف يتنافى مع قواعد الإسلام، ويصطدم مع يسره وسماحته، ولذلك قامت أنصار السنة بالتصدي له؛ حمايةً للدين الحق الذي جاء من عند الله تبارك وتعالى، واحتلّ ذلك مساحة كبيرة من أنشطة الجمعية.

وقد كان الغلو في تقديس الأشخاص وبناء المساجد على قبورهم، والتوجه بالدعاء إليهم والتماس البركة منهم، ونسبة علم الغيب إليهم من الأمور السائدة في المجتمع، في الوقت الذي أسست فيه الجمعية، وعندئذ قام علماؤها بالتصدي لهذه المخالفات العقدية، إلى

جانب مواجهة البدع المُحْدَثة التي لا صلة لها بالشرع، وتتناقض مع السنة النبوية المطهرة والوحي المنزل، ولما بدأ فِكْر الخوارج يتزايد وينتشر على يد بعض الجماعات الحزبية الغالية، والتي تزامنت مع إنشاء الجمعية، واجهت الجمعية ذلك بقوة، ولم تقف مكتوفة الأيدي أمام هذه الظاهرة، بل واجهتها بعلم وفقه وبصيرة.

ومن ذلك ما كتبه أحد علمائها وهو العلامة أحمد محمد شاكر، رحمه الله، في مقال نُشر في جريدة الأساس بتاريخ ١٩٤٩/١/١٢م، وقد ردَّ فيه على بعض الجماعات الغالية بعد حادثة اغتيال رئيس الوزراء محمود النقراشي رحمه الله.

وفي عهد الشيخ عبد الرحمن الوكيل، أصدرت الجمعية بيانًا بيَّنت فيه سماحة الإسلام وعدله، حتى مع أعدائه، واستنكرت بشدة الأعمال التي تقوم بها الجماعات الغالية، ومما جاء في هذا البيان:

«المؤمن لا بد أن يكون له من إيمانه ما يحجزه عما لا يليق بأحرار الرجال وعما نهاه الله عنه من الفتك والاغتيال والسعي في الأرض فسادًا، ولهذا حرصت الجمعية منذ أُسِّست على تقوى من الله واعتصام بالكتاب والسنة أن تدعو إلى الله بالحجة والبرهان، وهي بمنأى عن الحزبية العمياء والعصبية الحمقاء، ظاهرها كباطنها، وعلنها هو سرها، ليس لها ما تخفيه أو تخاف منه إلا غضب الله، دعوتها سلمية علنية، ولهذا فهي عن صدق وإيمان تستنكر بشدة هذه الأساليب التي لجأت إليها بعض الجماعات باسم الدين، فحمَّلت الإسلام وِزْر جنايتهم وإثم حماقتهم، وكادت بجريمتها البَشعة تقضي على كل ما حققناه من أمجاد وبنيناه من عماد». (مجلة الهدي النبوي، عدد جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ).

قُلتُ: رحم الله الشيخ عبد الرحمن الوكيل على هذا البيان الذي لخَّص فيه دعوة أنصار السنة، وأشار فيه إلى أنها قائمة على الكتاب والسنة، وهي دعوة سلمية وواضحة علنية، وهي تعمل في وضوح كالنهار، ظاهرها كباطنها، وليس عندها ما تخفيه، ولذلك ربَّت أجيالها على هذا الطريق الواضح والمنهج القويم.

ومن هنا نجد أن الجمعية بعلمائها على مدار تاريخهم واجهوا حوادث الغلو والعنف والقتل بعلم وفقه، وبينوا أن هذا المسلك ليس من منهج الإسلام في شيء، وكانت الجمعية ترصد هذه الأعمال في وقتها وتتحدث عنها وعن أسباب وقوعها والعلاج الذي تواجه به.

والحديث حول هذا يطول جدًّا، لذلك سأكتفي بذكر نماذج لما قامت به الجمعية في مواجهة الغلو والتطرف تجاه الأحداث التي كانت تقع من أصحابها، وكانت تفعل ذلك حفاظًا على أمن العباد واستقرار البلاد، ونصرة لمنهج أهل السنة والجماعة، ومن ذلك ما كتبه العالم الفذ الشيخ أحمد فهمي، رحمه الله، رئيس تحرير مجلة التوحيد ونائب الرئيس العام الأسبق للجمعية بعنوان: «التطرف، أسبابه وعلاجه»، وقد أشار فيه إلى بيان صادر من بعض العلماء المجتمعين في الأزهر، وقد وجَّهوا فيه كلمة إلى الشباب بخصوص هذا الموضوع، ثم عقَّب على ذلك بإبراز موقف أنصار السنة، فقال: «إننا نوافقهم على ما جاء في بيانهم، نوافقهم على أن الدعوة إلى الله لا بد أن يكون أساسها الحكمة والموعظة الحسنة، حيث أمر القرآن الكريم بذلك، ونؤكد ما صح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من النهي عن أن يكفِّر المسلم أخاه وإلا فقد باء بالكفر أحدهما، ونؤكد كذلك ما نفهمه من أن تغيير المنكر باليد واجب على ولي الأمر، وعلى كل إنسان في حدود ولايته». (مجلة التوحيد، عدد رجب، ١٤٠٩هـ).

قُلْتُ: أين الدواعش المارقون الذين خرجوا في هذا العصر من هذا الكلام، وقد زعموا أنهم يطبِّقون الحدود والأحكام بعيدًا عن حكام المسلمين وأئمتهم بعد أن حاربوهم وخرجوا عليهم، وهم نكرات لا يُعرَفون، وخلاصة أمرهم: أنهم مجموعة من الحدثاء ضلوا طريق الحق،

فنتج عنه تشويه الإسلام وصدّ الناس عنه بأفعالهم المنكرة الشنيعة.

وعندما قام نفر آخرون من هؤلاء الغلاة بإطلاق الرصاص على رئيس مصر الأسبق محمد أنور السادات، رحمه الله، أصدرت الجمعية بيانًا أنكرت فيه هذا العمل ودعت الحكام والمحكومين إلى التمسك بهدي القرآن والسنة.

ومما جاء فيه: «تستنكر جمعية أنصار السنة المحمدية أشد الاستنكار كل أشكال العنف، وتعلن أن ما ترتب على ذلك من اغتيال الرئيس الراحل السادات يمثل خروجًا على أحكام الدين؛ لأن الله سبحانه أوضح طريقة الدعوة إليه وأسلوبها في قوله تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥)، فالإسلام لا يعرف العنف في فرض الرأي، ولا يعرف النزول إلى لغة الرصاص، فليس لأحد أن يعنِّف أو يحمل السلاح على الآخر؛ لقوله صلى الله عليه وسلم: «لا ترجعوا بعدي كفارًا يضرب بعضكم رقاب بعض». (مجلة التوحيد، عدد محرم، ١٤٠٢هـ).

ولما وقع اعتداء بالقتل على بعض السياح من خارج البلاد في مدينة الأقصر عام ١٩٩٧م، استنكرت الجمعية هذا العمل الإجرامي في جمعيتها العمومية غير العادية بتاريخ ١٩٩٧/١١/٢٨م، وطالبت بتحكيم الشريعة في الجناة وفي كل مناحي الحياة، ليتحقق لمجتمعنا الأمن والاستقرار، ونشر هذا على صفحات جريدة الأهرام، بتاريخ ١٩٩٧/١٢/١م، وكتب بهذا الخصوص نائب الرئيس الأسبق للجمعية الشيخ صفوت الشواد رحمه الله في مقالاً في مجلة التوحيد عنونه بقوله: «مذبحة الأقصر وموقف أنصار السنة»، ومما جاء فيه:

«إن جماعة أنصار السنة المحمدية تقف ضد التطرف والغلو والإرهاب بجميع صوره وأشكاله، وانها لا تقبل بأيٍّ مبرر من المبررات قتل الأبرياء الآمنين من السائحين أو غيرهم، وذلك انطلاقًا من مبادئ الشريعة الإسلامية التي تضمن حرية الإقامة لمن يستظلون براية الإسلام، والتي تقرر أنه لا يجوز للمسلمين الاعتداء على من يخالفهم في الدين والرأي، فالإسلام يدعو إلى الحق والخير والعدل، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي وقتل النفس التي حرم الله قتلها إلا بالحق، كما أن الإسلام بريء من الإرهاب والتطرف والغلو، فهو دين الوسط والاعتدال واليسر والسماحة ورفع الحرج، والتخفيف من الله اللطيف الخبير، كما قال الله تعالى: ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨)، كما أننا ندعو رجال الشرطة والأمن إلى ضبط النفس والتدقيق في التحقيق، فإن الله يأجرهم ويثيبهم على العدل، ويعاقبهم على الظلم: ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ (فصلت: ٤٦). (مجلة التوحيد، عدد رمضان، ١٤١٨هـ).

ولما رأى علماء الجماعة أن ما يقوم به هؤلاء الشباب من قتل وتشريد، وتكفير وتفجير كان بسبب عدم فهمهم للجهاد في شريعة رب العباد، وسوء فهمهم لآيات الأحكام، كتب الشيخ محمد صفوت نور الدين، رحمه الله، الرئيس الأسبق للجمعية مقالاً بعنوان: «الجهاد وقتال الفتنة»، وقد بيَّن فيه رحمه الله المفهوم الصحيح للجهاد، وأنه يقع للقضاء على الفتنة، وليس لإحداث الفتنة، كما ذكر أن ما يقع من البعض باسم الجهاد، ليس جهادًا، وذلك كسرقة أموال بعض العصاة والكفار، أو حدوث الاغتيالات وترويع الآمنين بإلقاء المتفجرات، أو قتل السياح الوافدين إلى بلاد المسلمين، ومثله اختطاف الطائرات وقتل الأبرياء، كل ذلك أُلصقَ زورًا وبهتانًا بالإسلام، وهو فهمٌ غريب ومريب لدى هؤلاء.

ثم ذكر رحمه الله أن الله بعث نبيه صلى الله عليه وسلم بشرع يحفظ على الناس ضرورات خمسًا هي: الدينَ، النفس، العرض، المال، العقل، وأن كل ما هدَّد واحدة منها فهو مخالف للشرع محارب لله ولرسوله صلى الله عليه وسلم. (مجلة التوحيد، عدد ربيع الآخر ١٤١٦هـ).

وسأواصل الحديث حول هذا الموضوع في العدد القادم- إن شاء الله- وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

الحلقة الثانية

موقف أنصار السنة وعلمائها من أحداث العنف والغلو

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده، وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فاستكمالاً لما ذكرته في اللقاء الماضي عن جهود أنصار السنة في مواجهة الغلو، ووصلاً لحاضر الجماعة بماضيها ابين هنا موقف الجمعية وعلمائها من أحداث العنف والغلو، فأقول وبالله التوفيق:

إن الناظر في موقف الجماعة والمنتبع لها في العقدين الآخرين من القرن الهجري الحالي سيجد بوضوح ما قامت به من أعمال مشكورة في مواجهة رموز الفكر التكفيري ودعاته لتحجيم هذه الظاهرة، ومحاولة القضاء عليها، ومن ذلك المقال الذي نشرته في مجلتها بعنوان «الغلو والتطرف في الفرق الإسلامية» للدكتور سعيد مراد، وقد أشار فيه إلى وجوب وحدة الأمة واعتصامها بحبل الله المتين، وتصحيح العقائد الفاسدة، وأهمية الاستقامة على الأصول والقواعد الثابتة التي أرسى قواعدها نبينا محمد صلى الله عليه وسلم.

ثم قال: «ودعوة الإسلام تقوم على التوسط والاعتدال، وترفض المغالاة والتطرف، وقد خاطب المولى نبيه صلى الله عليه وسلم ومن تبعه من جماعة المسلمين بقوله: « فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ وَلَا تَطْغَوْا إِنَّهُۥ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١٢﴾ وَلَا تَرْكَنُوٓا۟ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ » **(هود:١١٢، ١١٣)، دعوة إلى الاستقامة والاعتدال وعدم الطغيان، وتحذير من الركون والانتناس إلى الظالمين من دعاة الانحراف والظلم والغلو والتطرف، ذلك أن الله مطّلع على معتقدات القلوب وأعمال الجوارح، وقد سلب المغالين نصره وتأييده، ولقد اعتصم الصحابة والتابعون من السلف الصالح بهذا المنهج، ولم تظهر الفرق الإسلامية من داخل المجتمع الإسلامي، وإنما نشأت وترعرعت على أيدي أعداء الإسلام». (مجلة التوحيد عدد ربيع الثاني ١٤١٦هـ).**

قلتُ: هذا كلام سديد موفّق، فالفِرَق الإسلامية على اختلاف مناهجها ووسائلها من صنع أعداء الملة، والملاحظ أن الله تعالى يخذل هؤلاء ويسلبهم نصره؛ كما ذكر الكاتب.

وتحت عنوان: «لا للإفساد في الأرض وترويع الآمنين» جاءت كلمة التحرير على غلاف المجلة الأول من الداخل، وفيه: «إن كان الذي فعل هذه الأحداث يراها جهادًا وقربة إلى الله، فإن الله تعالى قال: « وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ »

(البقرة:١٩٠)، وكل القتلى والجرحى في الحادث مسلمين وغير مسلمين لم يكونوا مقاتلين، فقد قاتل الجاني في غير ميدان، فهو بذلك من المعتدين، والله لا يحب المعتدين، ولن يتقبل منهم نداءهم، وإن كان الذي فعل ذلك انتقامًا وتشفيًا فقد ظلم الأبرياء، وقد حرَّم الله الظلم، والله لا يهدي القوم الظالمين، وكيف سيواجه ثأرهم يوم القيامة حينما يقول أحدهم: يا رب سل هذا فيم قتلني؟ وإن كان فعل ذلك إفسادًا؛ فإن الله لا يحب الفساد ولا يصلح عمل المفسدين، وإن كان الذي فعل ذلك من غير المسلمين لزعزعة استقرار بلادنا الآمنة، فالله ينبهنا بقوله: «يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذۡرَكُمۡ» (النساء:٧١)، حفظ الله مصرنا ووقاها الفتن ما ظهر منها وما بطن.. آمين. (مجلة التوحيد عدد ربيع الآخر ١٤٢٦هـ).

وفي السياق ذاته وفي نفس العدد كتب فضيلة الشيخ الدكتور عبد العظيم بدوي نائب الرئيس العام مقالاً بعنوان: «هذا بيان للناس»، ذكر فيه أن الأمن والأمان من أجلّ نعم الله تبارك وتعالى على العباد، ومن أجل المحافظة على هذه النعمة أمر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم بالصبر على ولاة الأمور وعدم الخروج عليهم، ثم أشار إلى هذه الحوادث التي وقعت في البلاد واستهدفت قتل السياح الأجانب، وبيَّن حفظه الله أن هذه الأعمال مخالفة للشريعة ولا يقرها الإسلام والمسلمون أبدًا، ثم ختم بيانه بقوله: «لكل هذا تستنكر أنصار السنة المحمدية هذه الحوادث، وتدعو شباب المسلمين إلى الإقبال على طلب العلم، الذي ينوِّر لهم الطريق، وأن يحرصوا على مجالسة العلماء الربانيين الذين يفقهونهم في الدين، ويعلمونهم الحلال والحرام، ويأمرونهم بالمعروف وينهونهم عن المنكر، وأخيرًا: نهمس في أذن كل شاب: إياك والحماسة، وإياك والاندفاع، كيف تقتل نفسك ترجو بذلك الجنة؟ والجنة حرام على من قتل نفسه، أو قتل نفسًا بغير حق».

ولما وقع تفجير ضخم ومروع في مدينة المنصورة أصدرت أنصار السنة بيانًا جاء فيه: «في حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل، وفي أول ساعات يوم الثلاثاء الموافق ٢٠١٣/١٢/٢٤م روَّع المواطنين بمدينة المنصورة انفجارٌ هائل استهدف مديرية أمن الدقهلية، ونتج عنه تلفيات هائلة، وإزهاق لأرواح عدد كبير من الأبرياء من المواطنين من رجال الشرطة وإخوانهم المدنيين، فضلاً عن إصابة ما جاوز المائة.

ولا يختلف اثنان في أن هذا الفعل الإجرامي يؤكد بلا ريب استهانة فاعله بالدماء متغافلاً عن وعيد الله عز وجل لمن أراقها؛ حيث جمع المولى سبحانه للقاتل خمس عقوبات لم تجتمع لمرتكب كبيرة سواها، يقول سبحانه: «وَمَن يَقۡتُلۡ مُؤۡمِنٗا مُّتَعَمِّدٗا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدٗا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمٗا» (الآية (٩٣) من سورة النساء).

ومن أراق هذه الدماء لا ريب أنه في غفلة عن هذا الوعيد، كما أنه في غفلة عن قول النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: «أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ فِي الدِّمَاءِ» (أخرجه البخاري (٦٨٦٤) من حديث عبد الله بن مسعود)، وهذا الحديث يبين تغليظ أمر الدماء، وأنها أول ما يُقضى فيه بين الناس يوم القيامة، وهذا لعظم أمرها وكثير خطرها.

والقاتل لا يُقبل منه التأويل الفاسد ليجني على غيره؛ لأن الأصل الذي لا يجوز أن يُحادَ عنه هو عصمة الدماء، وإن إراقتها من أشد المحرمات، ولا يجوز المساس بها إلا من قِبل ولي الأمر الذي أناط الله عز وجل به إقامة الحدود». (مجلة التوحيد، عدد ربيع أول ١٤٣٥هـ).

وفي نفس العدد كتب رئيس التحرير الأستاذ جمال سعد في كلمة التحرير مقالاً جاء فيه: «لقد أيقن الجميع مع اشتداد سلسلة التفجيرات التي انتقلت من سيناء لتضرب ربوع مصرنا الحبيبة في وسط الدلتا، من أجل استهداف الوطن وإشاعة الفوضى، بدعم وتخطيط من أعدائه، أن هناك محاولات دؤوبة تستهدف تمزيق البلاد، وتفتيت وحدتها، وتكدير أمنها، وتناسى هؤلاء أن الإسلام قد شدَّد أمر القتل وعظَّم إثمه، ولم يعصم دم المسلم فحسب، بل عصم دم المسلم ودم الكافر المستأمن، فحرَّم الاعتداء على من أمَّنه المسلمون؛ لأن المسلمين يدٌ على من سواهم يسعى بذمتهم

أدناهم، وكان عبد الله بن عمر رضي الله عنهما يقول: «إِنَّ مِنْ وَرَطَاتِ الأُمُورِ الَّتِي لاَ مَخْرَجَ لِمَنْ أَوْقَعَ نَفْسَهُ فِيهَا: سَفْكَ الدَّمِ الْحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ». (رواه البخاري ٦٨٦٣).

إن محاولة إسقاط مصر، وإغراقها في الفوضى لهو خيانة عظمى، وجريمة كبرى لا تقع من مسلم مخلص، أو وطني صادق، وإن أخطر ما يهدد أمننا القومي: غياب السِّلم المجتمعي، وانتشار روح الحقد والكراهية والانتقام».

وفي حوار أجراه رئيس التحرير مع الرئيس العام، سأل رئيس التحرير السؤال التالي: «ما قولكم في السلوك العدواني لبعض الناس تجاه مؤسسات الدولة؛ ظنًّا منهم أن هذه وسيلة تحقق لهم مطالبهم؟

فأجاب الرئيس العام: يجب أن يعلم الجميع أولاً أن الوسائل لها أحكام المقاصد، فالمقصد إن كان صحيحًا فالوسيلة المؤدية إليه لا بد أن تكون صحيحة سليمة من الناحية الشرعية، وأما ما يظن البعض من أن الغاية تبرِّر الوسيلة، فهو كلام باطل، ويؤدي إلى مفاسد عظيمة- نعوذ بالله منها-، وهل يمكن لعاقل فضلاً عن صاحب رأي ودين أن يقول هذا الكلام، أو يسلكه؟!

أما عن السلوك العدواني الذي سألتم عنه، فهو مرفوض شكلاً ومضمونًا، وليس من الإسلام في شيء، ونحن نحمد الله تبارك وتعالى أن عصمنا من الوقوع-على مدار تاريخ الجمعية- في شيء من ذلك، ونحن نحرص على سلامة الوطن ومؤسساته، وندافع عنها ونحميها، وكم حذرنا الشباب من الأعمال التخريبية أو الإجرامية!! وقلنا وكتبنا في ذلك الكثير.

وأذكر أنني كتبت في افتتاحية مجلة التوحيد في عدد ذي القعدة ١٤٣٠هـ مقالاً بعنوان: «يا شباب الإسلام متى كان التفجير من الإسلام؟»، وحذرت فيه من الفوضى والاعتداء، أو القتل والتفجير هنا وهناك، ونحن نرفض هذا المنهج والسلوكيات الخاطئة المنحرفة التي يقول بها البعض». (مجلة التوحيد، عدد ذي الحجة ١٤٣٤هـ).

ولم تقف جهود أنصار السنة في مواجهة الأفكار المنحرفة عند ذلك، بل كانت تطبع وتوزع الكتب التي تواجه الأفكار المنحرفة، وكان علماؤها يتناولون بيان ذلك في خطبهم ومحاضراتهم.

وأخيرًا أشير إلى الملف الخاص الذي أعدته الجماعة عبر مجلتها «التوحيد» عن براءة الإسلام من العنف والإرهاب، وقد اشتمل على سبعة مقالات، وختم ببيان للجماعة حول موقفها من الأحداث، ويمكن تلخيص ما اشتمل عليه هذا الملف في نقاط محدودة كما يلي:

- بيان مكانة الأمن في الإسلام، وحرص الشريعة عليه، وأمر الله-تبارك وتعالى بالحفاظ عليه، والتصدي لكل من تسوِّل له نفسه إشاعة الفوضى، وزعزعة أمن واستقرار البلاد.

- تحريم الانتحار، وأن فاعل ذلك قد ارتكب جرائم متعددة منها: قتل النفس، وقتل غيره من الأنفس المعصومة التي حرَّم الله قتلها إلا بالحق، وقد توعد الله فاعل ذلك بعقوبة في الدار الآخرة من جنس فعله.

- تحريم الاعتداء على النفس المعصومة- مسلمين ومعاهدين ومستأمنين- وبيان أن فاعل ذلك متوعَّد بعذاب الجحيم.

- التأكيد على أن دين الإسلام انتشر بسماحة أهله، ونبل أخلاقهم، وحسن تعاملهم مع غيرهم، وأن أهل الأديان الأخرى كانوا يفرحون بدخول الإسلام بلادهم، ويشعرون بالأمان على أنفسهم وأديانهم وأموالهم وأعراضهم.

- نهى الإسلام عن قتل النساء والولدان والشيوخ والرهبان، وكل من لا يشارك في الحرب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يوصي قادة الجيوش قائلاً: «انطلقوا باسم الله، لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً صغيرًا، ولا امرأة، ولا تغلوا، وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين».

هذه الأعمال تشوِّه جمال الإسلام، وتؤثر سلبًا على انتشاره، ويتخذها أعداؤه فرصة للطعن عليه، كما أنها تجعل الدول الإسلامية في حالة عداء دائم مع العالم.

وهناك أمور أخرى سوى ما ذكرت، ويمكن الرجوع إلى الملف ذاته في عدد ربيع الأول سنة ١٤٣٢هـ.

والله ولي التوفيق.

افتتاحية العدد

موقف جمعية أنصار السنة المحمدية من أحداث العنف والغلو

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في ثلاثة مقالات سابقة عن إبراز جهود أنصار السنة المحمدية في مواجهة أفكار الغلاة المتطرفين، وأقمت الأدلة على ذلك من خلال مواقف علمائها السابقين والمعاصرين، وفي هذا اللقاء أشير إلى موقف الجمعية من المظاهرات والخروج على الحكام فأقول وبالله التوفيق:

سلكت أنصار السنة المحمدية في هذا الموضوع مسلك السلف القويم المؤيد بالدليل، وهو عدم الخروج على أئمة المسلمين، والسمع والطاعة لهم في المعروف، وقد أجمع أهل السنة على ذلك.

يقول الإمام أحمد رحمه الله: «والجهاد ماضٍ قائم مع الأئمة بروا أو فجروا، لا يبطله جور جائر ولا عَدل عادل، والجمعة والعيدان والحج مع السلطان، وإن لم يكونوا بررة أتقياء، ودفع الصدقات والخراج والأعشار والفيء والغنائم إلى الأمراء، عدلوا فيها أم جاروا، والانقياد إلى من ولاه الله أمركم، لا تنزع يدًا من طاعته، ولا تخرج عليه بسيفك حتى يجعل الله لك فرجًا ومخرجًا». (رسالة السنة ص٧١).

وقد نصَّ الإمام الأشعري رحمه الله على إجماع أهل السنة على ذلك، فقال: «وأجمعوا على السمع والطاعة لأئمة المسلمين، وعلى أن كل من ولي شيئًا من أمورهم عن رضى أو غلبة وامتدت طاعته من بر وفاجر لا يلزم الخروج عليهم بالسيف جارَ أو عدل، وعلى أن يُغزَى معهم العدو، ويُحَجّ معهم البيت، وتُدفع إليهم الصدقات إذا طلبوا، ويُصلَّى خلفهم الجمع والأعياد». (رسالة إلى أهل الثغر ص٣١٠).

وقد التزمت أنصار السنة المحمدية بكلام الأئمة في ذلك، فلزموا السمع والطاعة لولاة الأمور بالمعروف، والنصح لهم بالرفق واللين دون الإنكار عليهم علانية باللسان أو السنان، لأنه أساس كل شرٍّ وفتنة، وكانت على مدار تاريخها تدعو إلى العلاقة الحسنة الطيبة بين الحاكم والمحكوم، وتبادل المحبة بين الراعي والرعية، وفي هذا كتب الشيخ محمد علي عبد الرحيم رحمه الله الرئيس الأسبق للجمعية مقالاً بعنوان: «تبادل المحبة بين الراعي والرعية والحاكم والمحكوم دليل على رشاد الأمة». ومما جاء فيه:

«ومن القواعد التي وضعها الإسلام لتكون الأمة صالحة رشيدة، أن يستتب فيها الأمن في ظل العدل الذي تطمئن

إليه النفوس، ويأنس إليه الضعيف، ويسكن إليه البريء، وإذا تبودلت المحبة بين الحاكم والمحكوم، والرئيس والمرؤوس ترتب على هذه المحبة خير عظيم؛ إذ تجتمع القلوب على ما ينفع الأمة، ويبعد عنها أسباب تمزق الوحدة، وإذا قامت العلاقة بين الراعي والرعية على المحبة، حرص كل منهم على مصلحة الآخر». (مجلة التوحيد، جمادى الآخرة، سنة ١٤٠٢هـ).

وفي حوار أجرته مجلة التوحيد مع الشيخ صفوت نور الدين رحمه الله، الرئيس الأسبق للجمعية رد فيه على التهم التي وُجِّهت للجمعية، ووصفها بالتخاذل والعمالة لأمن الدولة، ومما جاء فيه: «الحمد لله، نعرف منهجنا معرفة صحيحة ولا نخاف في الله لومة لائم، والذين يظنون هذا تخاذلاً، فهذا الأمر هو الذي ورَّط الناس في ضلالات الخوارج، فظنوا أن الوقوف في وجه السلاطين والحكام هي السبيل الموصلة، بل هي سبيل لا علاقة لها بدين الله، ودين الله يرفضها، إنما الدعوة إلى الله دعوة بالحكمة والموعظة الحسنة». (مجلة التوحيد، عدد ١٤١٦هـ).

وفي الجزء الثاني من الحوار قال الشيخ صفوت رحمه الله: «إن الدعاء للحاكم واجب على المسلمين، فالدعاء له ولو كان فاسقًا، والدعاء له ولو كان ظالمًا؛ لأن الذي يستطيع أن يصلحه هو الله، والذي يستطيع أن يرجعه عن غيِّه هو الله». (مجلة التوحيد عدد ذي القعدة ١٤١٦هـ).

وفي مقال للدكتور جمال المراكبي الرئيس السابق للجمعية تكلم فيه عن موقف الجماعة من العمل السياسي وولاة الأمور، ومما جاء فيه: «نحن لا نشارك في هذه السياسة إلا بالمناصحة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وطاعة ولاة الأمر في المعروف ما لم يأمروا بمعصية، فلا طاعة في المعصية، وهذا موقف قديم ومعلن منذ أن تأسست هذه الجماعة عام ١٩٢٦م فنحن جماعة دعوة ولسنا حزبًا سياسيًا نسعى للوصول إلى السلطة، وإنما نحن نسعى إلى التغيير في القاعدة العريضة من الشعب بدعوة الناس إلى منهج الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلى العمل بكتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإجماع الأمة- أعني سلف هذه الأمة- فلن تصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». (مجلة التوحيد، عدد شعبان ١٤٢٦هـ).

ومن هذا المنطلق ومن خلال هذا الفهم الواضح الذي أكدناه في أكثر من مناسبة تكلمت في أول جمعية عمومية للجمعية بعد الثورة، وقلت أمام الجميع: إننا جمعية دعوية، لا نعمل في السياسة، ولا نشارك في أحزاب، وقد نشرت مجلة التوحيد أننا لن نؤسس حزبًا، ولن نشارك في أحزاب، بل وجهنا نداء إلى العلماء وطلبة العلم أن يبتعدوا عن ذلك، ويتفرغوا للعمل الدعوي، ونحن ندين لله عز وجل أن المظاهرات ليست من طرق الإصلاح، ولا وسيلة شرعية للتغيير، ولم يستخدمها سلف الأمة الصالحون، وهي شعار للحزبيين وأهل التطرف والغلو، وفيها مخالفات شرعية كثيرة، منها: التضييق على المسلمين في طرقهم وأعمالهم، وإشاعة الفوضى بينهم، وقد تسيل فيها الدماء، ويرتكب فيها بعض المحرمات، ويختلط فيها الرجال بالنساء، وغير ذلك، ولما قامت الثورة في مصر، ووجدت بعض المنتسبين للعلم يوافق عليها، أو يرى المشاركة فيها، ناقشت بعضهم وكتبت مقالاً في مجلة التوحيد وجهته بصورة خاصة إلى الدعاة وعنونته: «يا دعاة الأمة الزموا السنة على منهاج النبوة»، ومما قلت فيه:

«وإذا أراد الدعاة اليوم أن يصلحوا ما اعوج، وأن يساهموا في نهضة الأمة واستقامتها، فلا بد من السير على منهاج النبوة، واتباع الكتاب والسنة، في الشكل والمضمون، والمادة والصورة؛ إذ حقيقة الإصلاح: إرجاع الشرع إلى حالة اعتداله، بإزالة ما طرأ عليه من فساد، وما علق به من شائبة الهوى والاختلاف، وهذا لا يكون إلا بالسير على منهاج النبوة لا غير، وقد أدرك ذلك مؤسسو وعلماء أنصار السنة المحمدية، فدعوا إلى الكتاب والسنة، ولم يعظموا أحدًا من المشايخ، أو يعتقدوا في واحد منهم العصمة، ولهذا نجدهم في كل مكان وزمان يدعون إلى صفاء الاعتقاد، ونشر راية السنة وتعظيمها، والحكم بما أنزل الله، وتحطيم مظاهر الشرك والوثنية والأهواء والبدع، ومناصحة الولاة، وتصحيح مسار الناس إلى ربهم في عباداتهم ومعاملاتهم وأقوالهم تحت سلطان الكتاب والسنة،

ونحن ندين الله - عز وجل - بأن الإسلام دين كامل لا يتجزأ، وأن أحكامه بعضها مترابط ببعض، فالزيادة فيه طعن في كماله وتمامه، والنقص منه جحد لأحكامه، وعليه فلا يجوز لمسلم أن يتنازل عن شيء منه، أو يغيّر شيئًا من أحكامه، وقد نعى الله على من آمن ببعض الكتاب وكفر بالبعض الآخر، فقال: «أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ» (البقرة:٨٥).

وإني أنصح الدعاة إلى الله عز وجل أن يبذلوا جهدهم في حراسة الدين والدفاع عنه أمام التيارات المنحرفة، والفِرَق الهدامة، والدعوات المسمومة، وعليهم أن يصلحوا مواطن الخلل في الأمة ويسدوا الثغرات التي يدخل منها أهل الباطل لحرب العقيدة والسنة، وتغيير مسار الدعوة كما يحب أهل التغريب والعلمنة، وعلى الفرق والأحزاب والهيئات والمؤسسات والجماعات أن تعرف أخطاءها، وأن تتجرد من شبهاتها، وأن ينضوي الجميع تحت راية الكتاب والسنة إخوة متحابين متناصحين متعاونين لله وفي الله، وهكذا يكون المسلم». (مجلة التوحيد رجب ١٤٣٢هـ).

وفي حوار أجراه رئيس التحرير الأستاذ جمال سعد حاتم معي بعد الثورة، وقد وجّه لي سؤالاً قال فيه: ما قولكم في التظاهرات التي يصر عليها البعض في هذه الأيام؟

فأجبته قائلاً: «هذه التظاهرات ننكرها ونحذر منها بشدة؛ لما يترتب عليها من مفاسد، فكم قطعت من طرق! وأضاعت من مصالح! وأدت إلى ألوان من الفساد! وقد نهينا القائمين بهذه المظاهرات عن ذلك، وحذرنا من عواقبها الوخيمة، ونحمد الله أن عصمنا فلم نشارك في شيء منها، مع كثرة الداعين إليها، بل إنني أصرح لك هنا، أن الذين قاموا بهذه المظاهرات اتهمونا بالعمالة تارة، وبالجبن والانهزامية أخرى، وكل ذلك لم يؤثر فينا بحمد الله، طالما أننا نسعى إلى الحق، وإلى إرضاء الرب- تبارك وتعالى-.

ونحن نرى أن هذه المظاهرات مخالفة للشرع، ولا دليل عليها، وليست من طرائق المسلمين في الإصلاح والتغيير؛ لما تشتمل عليه من مفاسد عديدة وأخطار جسيمة، وأنتهز هذه المناسبة لأوجّه رسالة إلى الشباب الذين مازالوا يخرجون في بعض الميادين والطرقات وأقول لهم: اتقوا الله تعالى، وكفى ما أوصلتم البلد إليه». (مجلة التوحيد ذي الحجة ١٤٣٤هـ).

وقد ألف أحد علماء أنصار السنة كتابًا، وهو الباحث الشيخ أحمد بن سليمان أيوب، بيّن فيه حكم المظاهرات، وناقش شبهات القائلين بها وأبطلها، وقد صدر هذا الكتاب قبل اندلاع المظاهرات في مصر وغيرها، وهذا يدل على المنهج الأصيل الذي تتبناه أنصار السنة وتقريرها للحق، وحرصها على الجماعة في كل وقت، وقد يقول قائل: إذا أغلقتم علينا طريق المظاهرات، فماذا نفعل مع من كان ظالمًا؟ أقول: أرشدنا الهادي البشير صلى الله عليه وسلم إلى ما يجب علينا في حديث ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر، فإن من فارق الجماعة شبرًا فمات إلا مات ميتة جاهلية». (البخاري: ٧٠٥٤، ومسلم: ٨٤٩).

والمراد بالمفارقة السعي في حل عقد البيعة التي حصلت لذلك الأمير ولو أراد حقًا النصيحة بالمعروف، كما في حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث لا يغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم». (انظر صحيح الترمذي ٢٦٥٨).

وبهذا أرشد النبي صلى الله عليه وسلم إلى نصيحة ولاة أمور المسلمين، ويجب أن تكون النصيحة خاصة لهم، وقد جاء في السنة ما يدل على كيفية نصحهم، وقد عقد ابن أبي عاصم في كتابه السنة، باب: كيفية نصيحة الرعية للولاة، وساق بإسناده حديث عياض بن غنم، وفيه: « مَنْ أَرَادَ أَنْ يَنْصَحَ لِسُلْطَانٍ بِأَمْرٍ فَلاَ يُبْدِ لَهُ عَلاَنِيَةً، وَلَكِنْ لِيَأْخُذْ بِيَدِهِ فَيَخْلُوَ بِهِ فَإِنْ قَبِلَ مِنْهُ فَذَاكَ، وَإِلاَّ كَانَ قَدْ أَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ لَهُ». (تخريج أحاديث السنة ٢/٥٢١).

ومن المناصحة لولي الأمر: تأليف القلوب عليه، وعدم الدعاء عليه، وكل ذلك له أصول في السنة النبوية.

أسأل الله تعالى أن يصلح أحوال المسلمين، والحمد لله رب العالمين.

وجوب إحسان الظن بالله تعالى وأهميته

بقلم: الرئيس العام
د. عبدالله ناصر السنيدي
www.sonna-banha.com

الحمد لله على فضله وإحسانه، والشكر له على توفيقه وامتنانه، والصلاة والسلام على النبي وأصحابه وآله، وعلى من تبعهم بإحسان واقتفى أثرهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فها هو شهر رمضان قد انصرمت أيامه، وانتهت لياليه، وقد فاز الراكعون، العابدون الخاشعون الصائمون، وفي هذا الشهر من كل عام يتنافس المتنافسون من أصحاب الهمم العالية، ومن وُفِّقوا للطاعة والعبادة، أسأل الله سبحانه وتعالى أن يتقبل من الجميع الصيام والقيام وصالح الأعمال.

والمؤمن الصادق في إيمانه يتطلع إلى قبول عمله، وينتظر عليه الأجر من ربه، ولهذا رأيت من المناسب أن أتكلم عن إحسان الظن بالله تعالى، فأقول وبالله التوفيق:

إحسان الظن بالله تعالى من الأعمال القلبية التي تعكس صدق التوحيد عند صاحبه، وسلامة معتقده في خالقه، وهو يرجع إلى تعلق القلب بالله، محبةً ورغبةً، وخوفًا ورهبة، مع التوكل على الله، وتفويض الأمور إليه بعد الأخذ بالأسباب الشرعية، وذلك أن مدار حُسْن الظن بالله تعالى قائم على معرفة الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى؛ لأن العبد إذا أيقنَ بسعة عفو الله ورحمته، وأنه سميع قريب أثمر ذلك في قلبه حسن ظنه بربه.

يقول ابن القيم: «والأسماء الحسنى والصفات العلا مقتضية لآثارها من العبودية والأمر اقتضاءها لآثارها من الخلق والتكوين، فعلم العبد بتفرد الرب تعالى بالضر والنفع، والعطاء والمنع، والخلق والرزق، والإحياء والإماتة؛ يثمر له عبودية التوكل عليه باطنًا، ولوازم التوكل وثمراته ظاهرًا». (مفتاح دار السعادة ٢/٤٤٢).

ويمكن أن يستدل على ذلك بفعل أم موسى بوليدها، فهي حينما خافت عليه أمرَها ربها بإلقائه في اليم، فاستجابت لذلك ثقةً في الله تعالى وحُسنَ ظنٍّ به، ولولا ذلك لم تفعل ذلك بطفل رضيع، ولذلك أقول: إن من قام بقلبه حقائق معاني أسماء الله وصفاته وفهمها على الوجه اللائق بها كان عنده من حسن الظن بالله ما ليس عند غيره؛ لأن هذا يحمله على إتقان العمل وصدق العبودية.

يقول الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: «يجب أن يظن

بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يوجب الظن الحسن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك فعليك أن تظن أن الله يقبل منك، ولا تسئ الظن بالله بأن تعتقد أن الله لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسان من الذنب فيحسن الظن بالله أنه يقبل منه، وأما إن كان الإنسان مفرطًا في الواجبات، فاعلاً للمحرمات، وظن بالله ظنًا حسنًا، فهذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سوء الظن بالله؛ إذ إن حكمته تأبى مثل ذلك». (القول المفيد ٢/٣٨٣).

وهذا كلام دقيق ونفيس، وقد تضمن أمرًا مهمًّا وهو: أن الظن الحسن بالله لا يكون ولا يتم إلا بالاجتهاد في الطاعة، وبذل أسباب السلامة، أما ترك العمل الصالح، أو التهاون فيه، فهو من الأماني الباطلة، وفرقٌ كبير بينهما، فالذي يحسن الظن بالله يسارع إلى طاعته، ويرجو رحمته، فيجتهد في الطاعة والعبادة، ويأخذ بأسباب النجاة والسلامة، ومن خاف من الله وطلب رضاه، حمَله ذلك على الإقبال على مولاه، كما في حديث أبي بن كعب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من خاف أدلج، ومن أدلج بلغ المنزل، ألا إن سلعة الله غالية، ألا إن سلعة الله الجنة». (أخرجه أبو نعيم، والحاكم، وصحح الألباني إسناده؛ كما في السلسلة الصحيحة ٢/٦٧٥).

أهمية حسن الظن بالله تعالى في القرآن الكريم:

وقد وردت آيات كثيرة في كتاب الله تعالى توجب حسن الظن بالله، وهذه بعضها: قال الله تعالى: «وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» (البقرة:٤٥، ٤٦)، ففي هاتين الآيتين مدح للمؤمنين الصادقين الذين أيقنوا بلقاء رب العالمين، وأحسنوا الظن بالله تعالى، وقد دفعهم ذلك وسهَّل عليهم الإقبال على الطاعات وترك المنكرات، متوقعين نيل الثواب من البر الرحيم، والخلاص من عقابه.

قال السعدي رحمه الله في تفسيره لقوله تعالى: «الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ» (البقرة:٤٦): فهذا الذي خفف عليهم العبادات وأوجب لهم التسلي في المصيبات، ونفَّس عنهم الكربات، وزجرهم عن فعل السيئات، فهؤلاء لهم النعيم المقيم في الغرفات العاليات. (تيسير الكريم الرحمن ١/٨٣).

ولما أظهر المنافقون ما تُكنُّه صدورهم من حقد وضغينة على أهل الإيمان في غزوة أحد أحسن المؤمنون ظنهم بربهم ولجؤوا إليه وحده؛ ثقةً منهم بربهم وتوكلاً عليه، فعادوا بالنعمة والفضل كما قال تعالى: «الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» (آل عمران: ١٧٣، ١٧٤).

وقد أفادت الآيتان صدق المؤمنين وقوة يقينهم بنصر الله ووعده، وكان ذلك في حمراء الأسد عقب غزوة أحد، ولذلك قالوا: «حسبنا الله ونعم الوكيل». قال ابن جرير: «وإنما وصف تعالى نفسه بذلك؛ لأن الوكيل في كلام العرب هو المسند إليه القيام بأمر من أسند إليه القيام بأمره، فلما كان القوم الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآيات قد كانوا فوَّضوا أمرهم إلى الله، ووثقوا به، وأسندوا ذلك إليه، وصف نفسه بقيامه لهم بذلك، وتفويضهم أمرهم إليه بالوكالة، فقال: ونعم الوكيل الله تعالى بهم». (تفسير ابن جرير ٤/١١٨، ١١٩).

ولما قام بقلوب القوم ذلك، وأسندوا أمورهم إلى الله رجعوا بعافية وفضل، ولم يصبهم قتل ولا جرح، بل كان أمرهم كما ذكر الله عنهم: «فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ» (آل عمران:١٧٤)، وفي هذا تزكية من الله لهم، وإخبار بأنهم رجعوا بخيري الدنيا والآخرة. (تفسير ابن جرير ٤/١٢٢، ١٢٣).

وقد تكرر في القرآن الكريم مثل هذا المدح

والثناء للصحابة الكرام بسبب إحسانهم الظن بالله، وتحقيق الإيمان والثقة بوعد الله؛ كما في قوله تعالى عنهم في غزوة الأحزاب: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ۝٢٢ مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا» (الأحزاب:٢٢، ٢٣).

فقد وصف الله المؤمنين هنا بحسن ظنهم بربهم عند تكالب الأعداء عليهم، وما زادهم اجتماع المشركين عليهم من كل جانب إلا تصديقًا بعهد الله وثقةً بنصره، وهذا لا يكون إلا من قلوب مؤمنة واثقة بنصر الله ووعده لهم بالظَّفر على أعدائهم، مع شدة الكرب والابتلاء، وهذا من حسن ظنهم بربهم ووفاءً بعهدهم الذي عاهدوا الله عليه، وإظهارًا لتصديقهم بوعد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

قال الشيخ أبو بكر الجزائري في تفسير قوله تعالى: «وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ» (الأحزاب:٢٢): أي: لما رأى المؤمنون الصادقون جيوش الأحزاب وقد أحاطت بهم، «قَالُوا هَٰذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ» (الأحزاب:٢٢) بخلاف ما قاله المنافقون حيث قالوا: «مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا» (الأحزاب:١٢)، وقوله: «ما زادهم» أي: رؤيتهم للأحزاب على كثرتهم، «إلا إيمانًا» بصادق وعد الله، «وتسليمًا» لقضائه وحكمه، وهذا ثناء عطر على المؤمنين الصادقين من ربهم عز وجل». (أيسر التفاسير ٤/٢٥٨).

المقام الرفيع في حسن الظن بالله والثقة به:

وقد بلغ النبي صلى الله عليه وسلم المقام الرفيع في حسن الظن بالله والثقة به، فكان من أفضل المتوكلين عليه، وسيرته في مواقف متعددة شاهدة على ذلك، ومنها ما جاء في حادثة هجرته من مكة المكرمة إلى المدينة الطيبة، وقد ذكر الله ذلك في قوله: «إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ» (التوبة:٤٠).

وفي هذه الآية تشريف وتكريم للنبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه؛ لأن الله بيَّن فيها لكل من تقاعس عن نصرة النبي صلى الله عليه وسلم أنه سبحانه ناصره ومؤيده وحافظه من أعدائه، وأنه بعظمته وقدرته التي لا تُقهر معه، ومن كان الله معه، فلا قدرة لأحد عليه، ولا يلحقه حزن ولا خوف، بل إن السكينة والثبات والطمأنينة تكون ملازمة له، كما قال الله تعالى: «فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ» (التوبة:٤٠).

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «وفي الآية فضيلة السكينة، وأنها من تمام نعمة الله على العبد في أوقات الشدائد والمخاوف، التي تطيش لها الأفئدة، وأنها تكون على حسب معرفة العبد بربه، وثقته بوعده الصادق، وبحسب إيمانه وشجاعته». (تفسير السعدي ٣/٢٣٩).

وجواب النبي صلى الله عليه وسلم على كلام أبي بكر يدل على قوة سكينته وثقته بربه؛ كما في الصحيحين عن أنس أن أبا بكر الصديق حدثه قال: «نظرت إلى أقدام المشركين على رؤوسنا ونحن في الغار، فقلتُ: يا رسول الله، لو أن أحدهم نظر إلى قدميه أبصرنا تحت قدميه، فقال: يا أبا بكر، ما ظنك باثنين الله ثالثهما». (البخاري: ٣٦٥٣، ومسلم: ٢٣٨١).

قلت: في هذه الآية وهذا الحديث بيان لفضل أبي بكر الصديق رضي الله عنه؛ لأنهما دلاَّ على أن الله كان معه، وكل من كان الله معه فهو من المتقين المحسنين، وقد ساق الفخر الرازي اثني عشر وجهًا من الآية تدل على فضل الصديق رضي الله عنه، فأطاب وأفاد.

وللحديث صلة وبيان بإذن الله تعالى.

والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

وجوب إحسان الظن بالله تعالى وأهميته

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا عبده ورسوله، اللهم صلِّ وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن حُسن الظن بالله تعالى، وذكرت بعض الآيات الدالة عليه، وفي هذا اللقاء أواصل الحديث حول هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

إن المتتبع لآيات الذكر الحكيم يجد فيه إشارات متعددة ترمي إلى إحسان الظن بالله تعالى، والتطلع إلى عفوه ومغفرته، ومن ذلك الآيات الكثيرة الدالة على سعة رحمة الله تعالى ومغفرته، وتفضله على عباده بمواسم الخيرات التي تفتح لهم باب الرجاء وتدفعهم إلى الإقبال على الله تعالى، ومن ذلك قوله تعالى: « إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا » (النساء:٣١).

قال القاسمي رحمه الله: «إن تجتنبوا». أي: تتركوا كبائر ما تُنْهَون عنه؛ أي: كبائر الذنوب التي نهاكم الشرع عنها، مما ذُكر هنا ومما لم يُذْكَر، «نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ» (النساء:٣١) أي: صغائر ذنوبكم ونَمْحُها عنكم، وندخلكم الجنة، كما قال الله تعالى: «وندخلكم» في الآخرة «مدخلاً كريمًا» أي: حسنًا، وهي الجنة. وفي الآية: دليل على أن الصغائر تُكَفَّر باجتناب الكبائر، وردٌّ على من قال: إن المعاصي كلها كبائر وأنه لا صغيرة. (محاسن التأويل ١٢٠٦/٥).

ونظير هذه الآية في حسن الظن بالله قوله تعالى: « قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ » (الزمر:٥٣).

قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة دعوة لجميع العصاة من الكفرة وغيرهم إلى التوبة والإنابة، وإخبار بأن الله تبارك وتعالى يغفر الذنوب جمعًا لمن تاب منها ورجع عنها، وإن كانت مهما كانت، وإن كثرت وكانت مثل زبد البحر، ولا يصح حمل هذه الآية على غير توبة؛ لأن الشرك لا يُغفر إلا لمن يتوب منه».

ثم ساق ابن كثير حديث البخاري عن ابن عباس

وفيه: «أن ناسًا من أهل الشرك كانوا قد قتلوا فأكثروا، وزنوا فأكثروا، فأتوا محمدًا صلى الله عليه وسلم فقالوا: إن الذي تقول وتدعو إليه لَحسن لو تخبرنا أن لما عملنا كفارة، فنزل: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ (الفرقان:٦٨)، ونزل: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ﴾ (الزمر:٥٣)». (تفسير ابن كثير ٤/٧٥).

وقد كان السلف رحمهم الله تعالى يفرحون ويستبشرون بالآيات الدالة على فضل الله وجوده ورحمته، وكانت تدفعهم إلى حسن الظن بالله تعالى، ومن ذلك ما أخرجه عبد الرزاق عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «خمس آيات في سورة النساء لهن أحب إليَّ من الدنيا جميعًا: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ (النساء:٣١)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ (النساء:٤٠)، وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ (النساء:٤٨)، وقوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١١٠)، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ (النساء:١٥٢)». (تفسير عبد الرزاق ١/٤٤٩، وأخرجه الحاكم في المستدرك ٢/٣٠٥).

وقد ذكر ابن جرير عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «ثمان آيات نزلت في سورة النساء هي خير لهذه الأمة مما طلعت عليه الشمس وغربت، أولاهن: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (النساء:٢٦)، والثانية: ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ (النساء:٢٧)، والثالثة: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء:٢٨)، ثم ذكر قول ابن مسعود سواء». (تفسير ابن جرير ٥/٣٠).

ومن الآيات التي يستدل بها على حُسن الظن بالله تعالى وكريم عفوه: ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (النور:٢٢)، ووجه دلالتها على ذلك: أنها أفادت أنَّ كبائر الذنوب لا تحبط الأعمال الصالحة، لأن مسطح رضي الله عنه الذي قذف أم المؤمنين عائشة كان من المهاجرين، وهجرته من الأعمال الصالحة، وقذفه لأم المؤمنين من الكبائر، وقد أثبت الله له الهجرة بعد قذفه لها، وذلك في قوله: ﴿وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ (النور:٢٢)، قال القرطبي: «في هذه الآية دليل على أن القذف وإن كان كبيرًا لا يُحبط الأعمال؛ لأن الله تعالى وصف مسطحًا بعد قوله بالهجرة والإيمان، وكذلك سائر الكبائر، ولا يحبط الأعمال غير الشرك بالله، قال الله تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ (الزمر:٦٥)». (تفسير القرطبي ٧/٤٦٠٠).

وقد ذكر القرطبي عن بعض العلماء أنهم قالوا: هذه أرجى آية في كتاب الله تعالى، من حيث لطف الله بالقَذَفَة العصاة بهذا اللفظ.

وقد تعرَّض العالم القرآني الشيخ محمد الأمين الشنقيطي لهذه الآية، وأشار إلى كلام القرطبي السابق، ثم قال كلامًا نفيسًا يشرح الصدر حول أرجى آية في كتاب الله، فقال: «من أرجى آيات القرآن العظيم قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾ (فاطر:٣٢-٣٤)، فقد بيَّن الله في هذه الآية الكريمة أن

إيراث هذه الأمة لهذا الكتاب دليل على أن الله اصطفاهم في قوله: « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا » (فاطر:٣٢)، وبين أنهم ثلاثة أقسام: الأول: الظالم لنفسه، وهو الذي يطيع الله، ولكنه يعصيه أيضًا فهو الذي قال الله فيه: « خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ » (التوبة:١٠٢)، والثاني: المقتصد، وهو الذي يطيع الله ولا يعصيه، ولكنه لا يتقرب بالنوافل من الطاعات، والثالث: السابق بالخيرات، وهو الذي يأتي بالواجبات ويجتنب المحرمات، ويتقرب إلى الله بالطاعات والقربات التي هي غير واجبة، وهذا على أصح الأقوال في تفسير الظالم لنفسه، والمقتصد والسابق.

ثم إنه تعالى بيَّن أن إيراثهم الكتاب هو الفضل الكبير منه عليهم، ثم وعد الجميع بجنات عدن، وهو لا يُخلف الميعاد في قوله: « جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا » (الرعد:٢٣)، إلى قوله: « وَلَا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ » (فاطر:٣٥)، والواو في «يدخلونها» شاملة للظالم، والمقتصد والسابق على التحقيق، ولذا قال بعض أهل العلم: "حُقَّ لهذه الواو أن تكتب بماء العينين"، فوعده الصادق بجنات عدن لجميع أقسام هذه الأمة، وأولهم الظالم لنفسه، وهذا يدل على أن هذه الآية من أرجى آيات القرآن، ولم يبق أحد من المسلمين خارج عن الأقسام الثلاثة، فالوعد الصادق بالجنة في الآية شامل لجميع المسلمين. (أضواء البيان ٦/١٦٤، ١٦٥).

وقد ذكر الحافظ ابن كثير قصة عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه تبين كيفية التعامل والنظر إلى العصاة وترغيبهم في عفو الله، وفيها يقول: «كان رجل من أهل الشام ذو بأس، وكان يَفِدُ إلى عمر بن الخطاب فَفَقَدَهُ عمر، فقال: ما فعل فلان بن فلان؟ فقالوا: يا أمير المؤمنين يتابع في الشراب، قال: فدعا عمر كاتبه، فقال: اكتب: من عمر بن الخطاب إلى فلان بن فلان، سلام عليك، أما بعدُ: فإني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو، غافر الذنب وقابل التوب، شديد العقاب ذي الطول، لا إله إلا هو إليه المصير». ثم قال: لأصحابه: ادعوا الله لأخيكم أن يُقبل بقلبه، وأن يتوب الله عليه، فلما بلغ الرجل كتاب عمر جعل يقرؤه ويردده، ويقول: غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب، قد حذرني عقوبته ووعدني أن يغفر لي». رواه الحافظ أبو نعيم، وزاد فيه: «فلم يزل يرددها على نفسه، ثم بكى، ثم نزع فأحسن النزع، فلما بلغ عمر رضي الله عنه خبره قال: هكذا فاصنعوا، إذا رأيتم أخًا لكم زلَّ زلة فسددوه ووفقوه، وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه». (تفسير ابن كثير ٤/٩١، ٩٢).

وقد اشتمل القصص الوارد في القرآن الكريم عن الأنبياء والمرسلين على بيان إهلاك الله للكافرين والمكذبين وإنجائه لأوليائه المؤمنين، وهذا يدفع إلى التوكل على الله وحسن الظن به، ويجعل المؤمن على يقين بأن النصر للمؤمنين والعاقبة للمتقين، قال الله تعالى: « وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ » (هود:١٢٠)، قال البغوي في معنى الآية: «وكل الذي تحتاج إليه من أنباء الرسل، أي: من أخبارهم وأخبار أممهم نقصُّها عليك لنثبت به فؤادك، لنزيدك يقينًا ونقوي قلبك». (معالم التنزيل: ٢/٤٠٧).

وقد أثنى الله على نفسه لإهلاكه الظالمين، وتأييده لعباده الصالحين، فقال رب العالمين: « فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ » (الأنعام:٤٥)، ولذلك أقول: يجب على المسلم إحسان الظن برب العالمين، والثناء عليه سبحانه لإهلاكه الكافرين، والحمد لله رب العالمين.

وللحديث صلة بإذن الله تعالى.

افتتاحية العدد

وجوب إحسان الظن بالله تعالى وأهميته

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء السابق عن بعض الآيات الواردة والداعية إلى إحسان الظن بالله تعالى، ويطول الكلام حول ذلك، ولهذا سأقتصر على ما أشرت إليه من آيات، لأذكر هنا بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بذلك، وأقوال بعض أهل العلم في هذه المسألة، فأقول وبالله التوفيق:

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، وَأَنَا مَعَهُ إِذَا ذَكَرَنِي؛ فَإِنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَإِنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُمْ، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ بِشِبْرٍ تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ ذِرَاعًا، وَإِنْ تَقَرَّبَ إِلَيَّ ذِرَاعًا تَقَرَّبْتُ إِلَيْهِ بَاعًا، وَإِنْ أَتَانِي يَمْشِي أَتَيْتُهُ هَرْوَلَةً». (البخاري: ٧٤٠٥).

ففي هذا الحديث دعوة إلى إحسان الظن بالله سبحانه، وتغليب الرجاء فيما عنده جل وعلا، وبيان أن الله تبارك وتعالى يحقق للعبد طلبه بعد بذل الأسباب المشروعة، والسعي إلى الطاعة والعبادة، وقد جاء في الحديث بعض مفردات العبادة كالذكر، وقد فقه علماؤنا ذلك من الحديث.

قال القرطبي رحمه الله: «معنى «ظن عبدي بي» ظن الإجابة عند الدعاء، وظن القبول عند التوبة، وظن المغفرة عند الاستغفار، وظن المجازاة عند فعل العبادة بشروطها تمسكًا بصادق وعده، ويؤيده قوله في الحديث الآخر: «ادعوا الله وأنتم موقنون بالإجابة»، ولذلك ينبغي للمرء أن يجتهد في القيام بما عليه موقنًا بأن الله يقبله ويغفر له، لأنه وعد بذلك وهو لا يخلف الميعاد». (فتح الباري ١٣/ ٣٨٦).

والنبي صلى الله عليه وسلم وهو أعلم الناس بالله ذكر عجبه لأمر المؤمن لكثرة نعمة الله عليه وتقلبه في جميع أحواله إذا التزم بشرعه في خيره وفضله، كما في حديث صهيب قال: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَّاءُ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَّاءُ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ». (مسلم: ٢٩٩٩).

كما رغب النبي صلى الله عليه وسلم المؤمن عند

موته بحسن ظنه بربه، كما في حديث جابر قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم قبل وفاته بثلاث يقول: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله». (مسلم: ٢٨٧٧).

وقد ذكر النووي رحمه الله أن بعض العلماء قال: «معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه». (شرح النووي على مسلم ١٧/ ٢١٠).

وأخرج الترمذي وغيره عن أنس رضي الله أنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «قَالَ اللَّه تَبَارَكَ وَتَعَالَى: يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ مَا دَعَوْتَنِي وَرَجَوْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ عَلَى مَا كَانَ فِيكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ بَلَغَتْ ذُنُوبُكَ عَنَانَ السَّمَاءِ ثُمَّ اسْتَغْفَرْتَنِي غَفَرْتُ لَكَ وَلاَ أُبَالِي، يَا ابْنَ آدَمَ إِنَّكَ لَوْ أَتَيْتَنِي بِقُرَابِ الأَرْضِ خَطَايَا ثُمَّ لَقِيتَنِي لاَ تُشْرِكُ بِي شَيْئًا لأَتَيْتُكَ بِقُرَابِهَا مَغْفِرَةً». وقد حسَّن الألباني إسناده كما في السلسلة الصحيحة (١/ ١٩٩).

والحديث يدل على وجوب إحسان الظن بالله تعالى، وأن أساس ذلك تحقيق التوحيد مع إخلاص الدعاء، والاستغفار، ولذلك أدرجه الإمام محمد بن عبد الوهاب في كتاب التوحيد تحت باب عنونه بقوله: «باب فضل التوحيد وما يكفر من الذنوب»، وقال ابن رجب: «من أسباب المغفرة: التوحيدُ، وهو السببُ الأعظم، فمن فقده، فَقَدَ المغفرة، ومن جاء به، فقد أتى بأعظم أسباب المغفرة، فمن جاء مع التوحيد بقُراب الأرض-وهو ملؤها أو ما يُقارب ملأها- خطايا، لقيه الله بقُرابها مغفرة، لكنَّ هذا مع مشيئة الله-عز وجل-، فإنْ شاء غَفَرَ له، وإنْ شاء آخذه بذنوبه، ثم كان عاقبته أنْ لا يُخلَّد في النار، بل يخرج منها، ثم يدخل الجنَّة.

قال بعضُهم: الموحِّد لا يُلقى في النار كما يُلقى الكفار، ولا يَلقى فيها ما يَلقى الكفار، ولا يبقى فيها كما يبقى الكفار، فإنْ كمُلَ توحيدُ العبد وإخلاصُه لله فيه، وقام بشروطه كلِّها بقلبه ولسانه وجوارحه، أو بقلبه ولسانه عندَ الموت، أوجبَ ذلك مغفرة ما سلف من الذنوب كلِّها، ومنعه من دخول النَّار بالكلية.

فمن تحقَّق بكلمة التوحيد قَلبُه، أخرجت منه كلَّ ما سوى الله محبةً وتعظيماً وإجلالاً ومهابةً، وخشيةً، ورجاءً وتوكُّلاً، وحينئذ تُحْرَقُ ذنوبه وخطاياه كلُّها ولو كانت مثلَ زبد البحر، وربما قلبتها حسناتٍ». (جامع العلوم والحكم ص٥٩٠).

قلتُ: هذا الكلام دقيق وفي غاية النفاسة، وهو يدل على بركة التوحيد وأن صاحبه له عند ربه من مغفرة الذنوب ما ليس لغيره، وهذا يدفع الموحد إلى حسن الظن بربه، وإذا ارتكب الموحد ذنبًا أو وقع في معصية فعليه التوبة الصادقة، والعودة إلى ربه، وليعلم أن الله يحب ذلك ويفرح به، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: «لَلَّه أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ عَبْدِه الْمُؤْمِنِ مِنْ رَجُلٍ فِي أَرْضٍ دَوِّيَّةٍ مَهْلَكَةٍ مَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَنَامَ فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ فَطَلَبَهَا حَتَّى أَدْرَكَهُ الْعَطَشُ، ثُمَّ قَالَ: أَرْجِعُ إِلَى مَكَانِيَ الَّذِي كُنْتُ فِيه فَأَنَامُ حَتَّى أَمُوتَ فَوَضَعَ رَأْسَهُ عَلَى سَاعِده لِيَمُوتَ فَاسْتَيْقَظَ وَعِنْدَهُ رَاحِلَتُهُ وَعَلَيْهَا زَادُهُ وَطَعَامُهُ وَشَرَابُهُ فَاللَّه أَشَدُّ فَرَحًا بِتَوْبَةِ الْعَبْدِ الْمُؤْمِنِ مِنْ هَذَا بِرَاحِلَتِه وَزَادِه». (مسلم: ٢٧٤٤).

وعن عبادة بن الصامت رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من أحبَّ لقاءَ الله أحبَّ الله لقاءه، ومن كَرِهَ لقاءَ الله كَرِهَ الله لقاءه»، زاد البخاري في رواية من طريق همام عن قتادة: فقالت عائشة- أو بعض أزواجه-: «إنَّا لنكرهُ الموتَ، قال: ليس ذلك، ولكن المؤمن إذا حَضَرَهُ الموتُ بُشِّرَ برضوان الله وكرامته، فليس شيء أحبَّ إليه مما أمامه، فأحبَّ لقاءَ الله، فأحبَّ الله لقاءه، وإن الكافر إذا حُضِر بُشِّر بعذاب الله وعُقُوبته، فليس شيء أكْرَهَ إليه مما أمامه، كَرِهَ لِقاءَ الله، وكَرِهَ الله لقاءه». (البخاري: ٦٥٠٧).

قال ابن عبد البر في شرحه للحديث: «وهذا الحديث معناه عند أهل العلم فيما يعانيه المرء عند حضور أجله، فإذا رأى ما يكره لم

يحب الخروج من الدنيا ولا لقاء الله؛ لسوء ما عاين مما يصير إليه، وإذا رأى ما يحب أحب لقاء الله والإسراع إلى رحمته؛ لحسن ما عاين وبُشِّر به وليس حب الموت ولا كراهيته والمرء في صحته من هذا المعنى في شيء، والله أعلم» (التمهيد: ١٨/ ٢٥).

وهذا الحديث يدل على وجوب حسن الظن بالله على الدوام، وإلى خروج الإنسان من الدنيا، ويتأكد ذلك عند نزول الموت بالعبد. قال النووي: «واتفق أصحابنا وغيرهم على أنه يستحب للمريض ومن حضرته أسباب الموت ومعاناته أن يكون حسن الظن بالله تعالى». (المجموع شرح المهذب ٥/ ١٠٨).

وقد كان الصحابة- رضوان الله عليهم- يحسن أحدهم الظن بأخيه، ويبشره بعفو الله ورحمته، خاصة عند الموت، كما في حديث ابن أبي مليكة أنه سمع ابن عباس يقول: «وُضِعَ عُمَرُ عَلَى سَرِيرِهِ فَتَكَنَّفَهُ النَّاسُ يَدْعُونَ وَيُصَلُّونَ قَبْلَ أَنْ يُرْفَعَ وَأَنَا فِيهِمْ فَلَمْ يَرُعْنِي إِلاَّ رَجُلٌ آخِذٌ مَنْكِبِي فَإِذَا عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، فَتَرَحَّمَ عَلَى عُمَرَ، وَقَالَ: مَا خَلَّفْتَ أَحَدًا أَحَبَّ إِلَيَّ أَنْ أَلْقَى اللَّهَ بِمِثْلِ عَمَلِهِ مِنْكَ، وَايْمُ اللَّهِ إِنْ كُنْتُ لَأَظُنُّ أَنْ يَجْعَلَكَ اللَّهُ مَعَ صَاحِبَيْكَ وَحَسِبْتُ إِنِّي كُنْتُ كَثِيرًا أَسْمَعُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: ذَهَبْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ، وَدَخَلْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ وَخَرَجْتُ أَنَا وَأَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ». (البخاري: ٣٦٨٥).

قال ابن حجر في شرح لقوله في الحديث: «أن يجعلك الله مع صاحبيك» يحتمل أن يريد ما وقع وهو دفنه عندهما، ويحتمل أن يريد بالمعية ما يؤول إليه الأمر بعد الموت من دخول الجنة ونحو ذلك». (فتح الباري ١/ ٤٩).

وقد أحسن بلال بن رباح ظنه بربه وهو يحتضر قال سعيد بن عبد العزيز: «لما احتُضر بلال قال: غدًا نلقى الأحبة محمدًا وحزبه، قال: تقول امرأته: وايلاه، فقال: وافرحاه». (سير أعلام النبلاء ١/ ٣٥٩).

والواجب على العبد المؤمن أن يحسن ظنه بربه على كل حال، وليعلم أنه على خير عظيم بذلك، قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «والذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئًا خيرًا من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره، لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنه؛ ذلك بأن الخير في يده». (حسن الظن لابن أبي الدنيا ص٩٦).

ولأهمية حسن الظن بالله تعالى ومنزلته من الدين أدخله بعض الأئمة في مسائل الاعتقاد، فهذا الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله يعقد بابًا في كتاب التوحيد عنونه بقوله: «باب قول الله تعالى: يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية»، وعلق الشيخ سليمان به عبد الله رحمه الله على هذا الباب تعليقًا جميلاً، ومما ذكر فيه: «أراد المصنف بهذه الترجمة التنبيه على وجوب حسن الظن بالله، لأن ذلك من واجبات التوحيد، ولذلك ذمَّ الله من أساء الظن بالله، لأن مبنى حسن الظن: على العلم برحمة الله وعزته، وإحسانه وقدرته وعلمه وحسن اختياره وقوة المتوكل عليه، فإذا تم العلم بذلك أثمر له حسن الظن بالله، وقد ينشأ حسن الظن من مشاهدة بعض هذه الصفات، وبالجملة فمن قام بقلبه معاني أسماء الله وصفاته، قام به من حسن الظن ما يناسب كل اسم وصفة». (تيسير العزيز الحميد ص٦٧١).

وأقول تعليقًا على هذا الكلام النفيس: إن حسن الظن بالله واجب سواء كان فيما يفعله في الكون ويقدره، لأن أفعاله لا تخرج عن الحكمة، أو فيما يتعلق بالعبد، فعليه أن يحسن الظن بربه ويعتقد قبوله عمله بشرط الإخلاص والمتابعة.

أسأل الله بأسمائه الحسنى وصفاته العليا أن يجعلنا من المحسنين الظن بالله، الطامعين في عفوه ورحمته، مع العمل الصالح الذي يرضيه، وللحديث صلة إن شاء الله.

وجوب إحسان الظن بالله تعالى

الحلقة الرابعة

بقلم: الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديه إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثنا في لقاءات سابقة عن وجوب إحسان الظن بالله تعالى، وبقيت بعض المسائل المتعلقة بهذا الموضوع، وذلك بحسب الحالة التي يكون عليها المسلم؛ من الصحة والمرض، أو الطاعة والمعصية، أو الفتور والنشاط، والعبد يتقلب في حياته بين هذه وتلك، ولذلك رأيت أن أفرد ذلك بالحديث من باب الفائدة، وحرصًا على أن يكون المسلم حسن الظن بربه على كل حال، وأن يلقى ربه وهو على يقين بعفوه وفضله، فأقول وبالله التوفيق:

أولاً: موقف المسلم من حُسن الظن بالله حال صحته ومرضه:

من المشاهد في حياة الناس أن الإنسان في حال الصحة قد يضعف عنده الخوف من الله، بخلاف حاله في المرض الذي يدعوه إلى التقرب إلى ربه ومولاه، ولذلك ذهب كثيرٌ من أهل العلم إلى التفريق بين الصحة والمرض، وأن على الصحيح أن يغلِّب جانب الخوف على الرجاء، وليستعن بذلك على تقوى الله تعالى، بخلاف المريض الذي دنت أمارات الموت منه.

قال النووي رحمه الله في شرحه لحديث: «لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله عز وجل»: «قال العلماء: معنى حسن الظن بالله تعالى أن يظن أنه يرحمه ويعفو عنه، قالوا: وفي حالة الصحة يكون خائفًا راجيًا، ويكونان سواءً، وقيل يكون الخوف أرجح، فإذا دنت أمارات الموت غَلَّبَ الرجاء أو محَّضَه؛ لأن مقصود الخوف الانكفاف عن المعاصي والقبائح والحرص على الإكثار من الطاعات والأعمال، وقد تعذر ذلك أو معظمه في هذا الحال فاستحب إحسان الظن المتضمن للافتقار إلى الله تعالى، والإذعان له، ويؤيده الحديث المذكور بعده «يُبعث كل عبد على ما مات عليه». (شرح النووي على مسلم ١٧/ ٢١٠).

وللإمام الصنعاني رحمه الله كلام لطيف حول هذا المعنى يقول فيه: «يحسن أن يُذَكَّرَ المريض بسعة

رحمة الله ولطفه وبره، فيحسن ظنه بربه، لما أخرجه مسلم من حديث جابر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قبل موته: "لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله". وفي الصحيحين مرفوعًا من حديث أبي هريرة قال: "قال الله: أنا عند ظن عبدي بي"، وروى ابن أبي الدنيا عن إبراهيم قال: "كانوا يستحبون أن يلقنوا العبد محاسن عمله عند موته؛ لكي يحسن ظنه بربه".

وقد قال بعض أئمة العلم: "إنه يحسن جمع أربعين حديثًا في الرجاء تقرأ على المريض فيشتد حسن ظنه بالله تعالى، فإنه تعالى عند ظن عبده به".

وإذا امتزج خوف العبد برجائه عند سياق الموت فهو محمود، أخرج الترمذي بإسناد جيد من حديث أنس: أنه صلى الله عليه وسلم دخل على شاب وهو في الموت فقال: كيف تجدك؟ قال: والله يا رسول الله إني أرجو الله وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجوه وآمنه مما يخاف». (سبل السلام ١١٩/٢).

قلتُ: ما ذكره الصنعاني رحمه الله أنه يحسن جمع أربعين حديثًا، لم أقف على أثر من السنة يفيد ذلك، ولم يذكر مَن مِنْ العلماء قال ذلك.

ثانيًا: حال المسلم من حسن الظن بالله تعالى عند الطاعة والمعصية:

أمر الله بعبادته بطاعته والخضوع لأوامره، كما نهاهم عن مخالفته والتعدي على حرماته، والمسلم مطالب بفعل الخيرات والانكفاف عن السيئات مع حسن ظنه بربه على كل حال؛ ففي حال الطاعة يرجو قبول عمله، والثواب عليه من ربه، ويجتهد في الطاعة والعبادة رجاء القبول، ويدل على ذلك قول الله تعالى: «وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ» (المؤمنون:٦٠)، والآية تفيد أن من حسن إيمانه بعمل الصالحات، وهو وَجِل خائف من ربه، وهذا يدفعه إلى إعطاء العبادة حقها، والابتعاد عن الإخلال والتقصير، قال ابن كثير في تفسير الآية: «يعطون العطاء وهم خائفون وَجِلون أن لا يتقبل منهم؛ لخوفهم أن يكونوا قد قصَّروا في القيام بشرط الإعطاء، وهذا من باب الإشفاق والاحتياط، كما قال الإمام أحمد: حدثنا يحيى بن آدم، حدثنا مالك بن مغول حدثنا عبد الرحمن بن سعيد بن وهب عن عائشة أنها قالت: يا رسول الله الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة هو الذي يسرق ويزني ويشرب الخمر وهو يخاف الله عز وجل؟ قال: "لا يا بنت الصديق، ولكنه الذي يصلي ويصوم ويتصدق وهو يخاف الله عز وجل" وهكذا رواه الترمذي وابن أبي حاتم من حديث مالك بن مغول بنحوه، وقال: "لا يا ابنة الصديق ولكنهم الذين يصلون ويصومون ويتصدقون وهم يخافون ألا يتقبل منهم». (تفسير ابن كثير ٣٤٢/٣).

وقد ذكر البغوي عن الحسن أنه قال في الآية: «عملوا لله بالطاعات واجتهدوا فيها، وخافوا أن تُرَدَّ عليهم». (تفسير البغوي ٣١١/٣).

وقد رغَّب النبي صلى الله عليه وسلم في أحاديث كثيرة المسلم إلى إتقان عمله، وأنه له الأجر على ذلك من ربه، وهذا يدفع إلى حُسن العمل وحسن الظن بالله، ومن ذلك حديث عمران بن أبان قال: «أَتَيْتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ بِطَهُورٍ وَهُوَ جَالِسٌ عَلَى الْمَقَاعِدِ فَتَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوَضَّأَ وَهُوَ فِي هَذَا الْمَجْلِسِ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ قَالَ: مَنْ تَوَضَّأَ مِثْلَ هَذَا الْوُضُوءِ ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَرَكَعَ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ. قَالَ: وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا تَغْتَرُّوا». (البخاري: ٦٤٣٣).

فانظر أخي الحبيب إلى هذا العمل اليسير، ثم تأمل الأجر عليه من الرب الكريم، وفي

قول النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث: «لا تغتروا» إشارة إلى أن رجاء الأجر من الله، لا يعني الاتكال على ذلك وترك العمل أو التهاون فيه؛ لأن هذا من الغرور، وفرق كبير بين حسن الظن وبين الغرور، وللإمام ابن القيم كلام دقيق في التفريق بينهما يقول فيه: «إن حسن الظن إن حمل على العمل، وحث عليه، وساق إليه، فهو صحيح، وإن دعا إلى البطالة والانهماك في المعاصي فهو غرور، وحسن الظن هو الرجاء، فمن كان رجاؤه هادياً له إلى الطاعة، زاجرًا له عن المعصية، فهو رجاء صحيح، ومن كانت بطالته رجاء، ورجاؤه بطالة وتفريطًا، فهو المغرور». (الجواب الكافي، ص٢٤).

وأما حسن الظن عند الوقوع في المعصية فيكون بالعودة إلى الله والتوبة وإصلاح العمل والإكثار من فعل الخير والندم على التفريط والإضاعة، وليتذكر هنا بعض الآيات التي تعينه على ذلك؛ كقول الله تعالى: « وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا » (النساء:١١٠)، وقوله جل وعلا: « وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ طَرَفَيِ ٱلنَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ ٱلَّيْلِ ۚ إِنَّ ٱلْحَسَنَٰتِ يُذْهِبْنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّٰكِرِينَ » (هود:١١٤)، وقوله سبحانه: «قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ» (الزمر:٥٣).

ثالثًا: حال المسلم عند الفتور والنشاط:

المسلمُ يعيش حياته بين الطاعة والمعصية، وأحيانًا يكون نشيطًا في الطاعة، مقبلاً على ربه، وأحيانًا ينتابه الضعف والكسل، وهو مُطالَب في كل حال بإحسان الظن بربه، ويكون حسن ظنه بربه حال نشاطه بالاقتصاد في العمل والاعتصام بالسنة، وترك الغلو والتشدد، حتى لا يعبث الشيطان به فيخرجه عن حد الاعتدال، يقول ابن القيم رحمه الله: «إن الشيطان يشُمُّ قلب العبد ويختبره، فإن رأى فيه داعية للبدعة وإعراضًا عن كمال الانقياد للسنة؛ أخرجه عن الاعتصام بها، وإن رأى فيه حرصًا على السنة وشدة طلب لها؛ لم يظفر به من باب اقتطاعه عنها، فأمره بالاجتهاد والجور على النفس ومجاوزة حد الاقتصاد فيها قائلاً له: إن هذا خير وطاعة والزيادة والاجتهاد فيها أكمل فلا تفتر مع أهل الفتور، ولا تنم مع أهل النوم، فلا يزال يحثه ويحرِّضه حتى يخرجه عن الاقتصاد فيها فيخرج عن حدها كما أن الأول خارج عن هذا الحد، فكذا هذا الآخر خارج عن الحد الآخر.

وهذا حال الخوارج الذين يحقر أهل الاستقامة صلاتهم مع صلاتهم، وصيامهم مع صيامهم، وقراءتهم مع قراءتهم؛ وكلا الأمرين خروجٌ عن السنة إلى البدعة، لكن هذا إلى بدعة التفريط والإضاعة، والآخر إلى بدعة المجاوزة والإسراف». (مدارج السالكين ١١٢/٢).

قلتُ: رحم الله ابن القيم الذي أشار فيه- بكلام دقيق- إلى النشاط والفتور، وواجب المسلم في كل حالة، وأود أن أنبه هنا إلى أهمية الاقتصاد في العبادة وعدم التشدد فيها، حتى لا يقع فتور بعد نشاط، وقد بوَّب الإمام البخاري في صحيحه بابًا قال فيه: «باب ما يكره من التشدد في العبادة»، ثم أورد تحته حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وفيه يقول: « دَخَلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ فَإِذَا حَبْلٌ مَمْدُودٌ بَيْنَ السَّارِيَتَيْنِ، فَقَالَ: مَا هَذَا الْحَبْلُ؟ قَالُوا: هَذَا حَبْلٌ لِزَيْنَبَ؛ فَإِذَا فَتَرَتْ تَعَلَّقَتْ. فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ: "لَا، حُلُّوهُ؛ لِيُصَلِّ أَحَدُكُمْ نَشَاطَهُ، فَإِذَا فَتَرَ فَلْيَقْعُدْ». (البخاري: ١١٥٠).

قال ابن بطال في شرحه: «إنما يكره ذلك خشية الهلاك المفضي إلى ترك العبادة». (فتح الباري ٣٦/٣).

ولذلك أقول لمن أصيب بالكسل والفتور: الزم السنة، وتمسك بالفرائض، ولا تتهاون في الواجبات، واسأل الله الثبات على الدين، واستعذ بالله من الشيطان الرجيم.

وللحديث صلة بإذن الله تعالى، والحمد لله رب العالمين.

التحذير من اليأس والقنوط

الحلقة الرابعة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي هدانا للإسلام، والصلاة والسلام على من بعثه برسالة الإسلام وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان، وبعدُ،

فقد تحدثت فيما مضى عن وجوب إحسان الظن بالله، وبينت مكانته وأهميته، والموضوع يتسع لأكثر من ذلك، خاصة في الأوقات التي يشتد الضيق فيها والبلاء، غير أني رأيت الاقتصار على ما مضى، وأرجو أن تكون فيه الإفادة لمن اتقى، وأحب في هذا اللقاء أن أعرّج على اليأس والقنوط من روح الله؛ لأنه يتنافى ويضادّ إحسان الظن بالله، فأقول وبالله تعالى التوفيق:

القنوط: هو اليأس الشديد من حصول الخير. (انظر: لسان العرب ٣٨٦/٧).

وجاء في فتح المجيد: القنوط: استبعاد الفَرَج واليأس منه، وهو يقابل الأمن من مكر الله، وكلاهما ذنب عظيم. (ص٣١٤).

وقد اعتبر أهل العلم اليأس والقنوط من رحمة الله تعالى من الكبائر. وهذا يبين أهمية الحديث عن هذا الموضوع. قال ابن حجر الهيثمي: «تنبيه: عدُّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه وهو ظاهر لما فيه من الوعيد الشديد». (الزواجر: ١٠٤).

وقال القرطبي في تفسيره: «إن القنوط من الكبائر وهو اليأس». (٣٤٨١/٥). وقد ورد عن عبد الله بن مسعود أنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله». (أخرجه عبد الرزاق في مصنفه ٤٥٩/١٠، وعزاه ابن حجر في الفتح للطبراني وقال: «إنه موقوف» ٦٨٣/١٢).

ومما يدل على خطورة اليأس والقنوط: أن الله تبارك وتعالى وصف بهما الكافرين، فقال في كتابه الكريم: ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَلِقَائِهِ أُولَئِكَ يَئِسُوا مِن رَّحْمَتِي وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (العنكبوت:٢٣).

وهذا النوع من اليأس لا يحصل للمؤمنين المصدقين بالله وبكتابه وبرسوله صلى الله عليه وسلم، وإن وقع بعضهم في شيء من اليأس فلا يصل إلى هؤلاء؛ لأن ما عندهم من الإيمان يدفعهم إلى عدم اليأس بالكلية من رحمة الله وعفوه، وقد أوضح ذلك

العلامة السعدي رحمه الله فقال: «يخبر تعالى من هم الذين زال عنهم الخير، وحصل لهم الشر، وأنهم الذين كفروا به وبرسله، وبما جاءوهم به، وكذبوا بلقاء الله، فليس عندهم إلا الدنيا، فلذلك أقدموا على ما أقدموا عليه من الشرك والمعاصي؛ لأنه ليس في قلوبهم ما يخوفهم من عاقبة ذلك...، والإياس من رحمة الله من أعظم المحاذير، وهو نوعان: إياس الكفار منها، وتركهم كل سبب يُقَرِّبُهُمْ منها، وإياس العصاة، بسبب كثرة جناياتهم». (تفسير السعدي ٦/٧٨).

وقد حذر القرآن الكريم في كثير من آياته من اليأس والقنوط، فقال تعالى: «وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ» (البقرة:١٩٥)، وقد صرَّح كثير من أهل العلم أن المراد بإلقاء اليد إلى التهلكة هو القنوط من رحمة الله.

قال محمد بن سيرين وعبيدة السلماني: «الإلقاء إلى التهلكة: هو القنوط من رحمة الله تعالى». (تفسير البغوي ١/١٦٥).

وذكر ابن كثير عن النعمان بن بشير، والحسن، وابن سيرين، وأبي قلابة أنهم قالوا: «إنها في الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يُغفَر له، فيلقي بيده إلى التهلكة، أي: يستكثر من الذنوب فيهلك». (تفسير ابن كثير ١/٣٢٤).

وقد أدرك يعقوب عليه السلام أن الفَرَج واليسر يأتي بعد العسر، لاسيما لمن حَسُنَ ظنه بالله، فقال لبنيه وهو يتألم لفراق ولديه: «يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ» (يوسف:٨٧).

قال ابن جرير رحمه الله في تفسير الآية: «يقول تعالى ذكره حين طمع يعقوب في العثور على يوسف قال لبنيه: يا بني اذهبوا إلى الموضع الذي جئتم منه وخلفتم أخويكم به، فتحسسوا من يوسف. يقول: التمسوا يوسف وتعرفوا من خبره، وأصل التحسس التفعل من الحسّ، وأخيه بنيامين، «وَلَا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ» (يوسف:٨٧)، يقول: ولا تقنطوا من أن يروِّح الله عنا ما نحن فيه من الحزن على يوسف وأخيه بفَرَج من عنده، فيرينهما، «إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ» (يوسف:٨٧)، يقول: لا يقنط من فَرَجه ورحمته ويقطع رجاءه منه إلا القوم الكافرون يعني القوم الذين يجحدون قدرته على ما شاء تكوينه». (تفسير الطبري ١٤/٣٢).

كما بين الله في آية أخرى من كتابه أن الضالين هم الذين يقنطون من رحمة رب العالمين، فقال في محكم التنزيل: «قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ ﴿٥٥﴾ قَالَ وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ» (الحجر: ٥٥-٥٦).

وفي الآية ثناءٌ على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام، وذلك عندما أخبر ملائكة ربه أنه ليس بقانط من رحمة الله لعلمه بعظيم رحمته جل في علاه، وقد وقع منه التصريح بها في هذا الموطن، وهذا شأن من وفَّقه الله وهداه، لأنه يعلم أن الله على كل شيء قدير، فيعيش راجيًا لفضل الله واحسانه، وبره وامتنانه، وهذا مما يمتاز به المؤمن على غيره، وقد استنبط الشيخ أبو بكر الجزائري من هذه الآية: حرمة القنوط واليأس من رحمة الله تعالى. (انظر: تفسيره ٣/٨٦).

وقد تتابعت آيات القرآن الكريم في الإشارة إلى سعة رحمة رب العالمين؛ ترغيبًا للمؤمن في فضل الله وكرمه، وتحذيرًا له من القنوط من عفوه وفضله، كما قال تعالى: «قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (الزمر:٥٣)، وقد صرحت الآية أن الله تبارك وتعالى لا يتعاظمه ذنب، وأنه يغفر الذنوب جميعًا لمن تاب وأناب إليه،

وقد وسعت رحمته كل شيء، وقد ذكر الرازي أن هذه الآية تدل على الرحمة من عشرة أوجه، وهي بأسرها دالة على كمال الرحمة والغفران. (انظر تفسيره ١٣/٤٥٦).

وللشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله كلمات عذبة رقيقة تضمنت معاني عظيمة نافعة فيما أنا بصدد الحديث عنه، يقول فيها: «يخبر تعالى عباده المسرفين، أي: المكثرين من الذنوب، بسعة كرمه ويحثهم على الإنابة، قبل أن لا يمكنهم ذلك، فقال: «قل» يا أيها الرسول ومن قام مقامه من الدعاة لدين الله، مخبرًا للعباد عن ربهم: «يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ» (الزمر:٥٣) باتباع ما تدعوهم إليه أنفسهم من الذنوب، والسعي في مساخط علام الغيوب، «لا تقنطوا من رحمة الله» أي: لا تيأسوا منها، فتلقوا بأيديكم إلى التهلكة، وتقولوا قد كثرت ذنوبنا، وتراكمت عيوبنا، فليس لها طريق يزيلها، ولا سبيل يصرفها، فتبقون بسبب ذلك مُصرِّين على العصيان، متزودين ما يغضب عليكم الرحمن، ولكن اعرفوا ربكم بأسمائه الدالة على كرمه وجوده، واعلموا «أن الله يغفر الذنوب جميعًا» من الشرك، والقتل، والزنا، والرياء، والظلم، وغير ذلك من الذنوب الكبار والصغار، «إنه هو الغفور الرحيم» أي: وصفه بالمغفرة والرحمة وصفان به لازمان ذاتيان، لا تنفك ذاته عنهما، ولم تزل آثارهما سارية في الوجود، ماثلة للموجود، تسح يداه من الخيرات آناء الليل والنهار، ويوالي النعم والفواضل على العباد في السر والجهار، والعطاء أحب إليه من المنع، والرحمة سبقت الغضب وغلبته». (تفسير السعدي ٦/٤٨٣).

ومن رحمة الله بعباده أنه يدفع عنهم أسباب القنوط في معاشهم، فينزل عليهم الغيث من السماء، وينشر رحمته، لتسكن قلوبهم وتهدأ نفوسهم، كما قال تعالى: «وَهُوَ ٱلَّذِي يُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ مِنۢ بَعۡدِ مَا قَنَطُواْ وَيَنشُرُ رَحۡمَتَهُۥۚ وَهُوَ ٱلۡوَلِيُّ ٱلۡحَمِيدُ» (الشورى:٢٨)، ولهذا أوجب على العباد حمده وشكره، والتطلع إلى فضله وكرمه، والتوبة والإنابة والاستغفار ليجود عليهم بالغفران، «وَمَن يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ» (آل عمران:١٣٥)، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يُعلِّم أصحابه إحسان الظن بالله، ويدفع عنهم اليأس والقنوط من فضل الله، حتى في أصعب الظروف والأوقات، كما في صحيح البخاري عن أبي بكر رضي الله عنه قال: كنت مع النبي صلى الله عليه وسلم في الغار، فرأيت آثار المشركين، فقلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: «ما ظنك باثنين الله ثالثهما». (البخاري: ٤٦٦٣).

كما كان يُثبتُ الخيرية للضعفاء من المؤمنين، حتى لا ييأسوا من رحمة رب العالمين، ففي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير». (مسلم: ٢٦٦٤).

وقد عجب النبي صلى الله عليه وسلم من المؤمن؛ لأن أحواله كلها إلى خير، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «عجبت للمؤمن إذا أصابه خير حمد الله وشكر، وإن أصابته مصيبة حمد الله وصبر، فالمؤمن يؤجر في كل أمر، حتى يؤجر في اللقمة يرفعها إلى في امرأته». (مسند أحمد ١/١٧٣).

فيا عبد الله: أحسن الظن بالله، ودع عنك اليأس والقنوط من رحمة الله، واعلم أن ربك غفور رحيم، كثير العفو والتجاوز، ومن توكل عليه كفاه ووقاه، وأعزه وأغناه، ودفع عنه شر الأشرار وكيد الفجار.

وفي الختام أتوجه إلى الله العزيز الغفار قائلاً: اللهم يا ربنا نشهدك بأننا أحسنَّا الظن بك، فلا تكلنا إلى سواك، وكن لنا عونًا ونصيرًا ومؤيدًا وظهيرًا، وصلِّ اللهم وسلم على نبينا محمد وآله وأصحابه.

افتتاحية العدد

من أسباب إنزال العذاب

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في حلقات سابقة عن وجوب إحسان الظن بالله تعالى، وحذرت من اليأس والقنوط من رحمة الله سبحانه، ولا يعني ذلك أن يأمن العبد من مكر الله، أو يترك العمل ويضيع الأمر والنهي ويتكل على العفو، لأن الله- تبارك وتعالى- كما أثبت لنفسه الرحمة والغفران، أثبت أن عذابه أليم، كما قال الله تعالى: «نَبِّئْ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ» (الحجر: ٤٩-٥٠)، كما جمع بينها في آية واحدة فقال: «غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِي ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ» (غافر:٣)، ولدفع التهاون والتفريط في حق الله تعالى رأيت أن أنبه هنا إلى أن عذاب الله واقع على أصناف من البشر، لارتكابهم ما حرم الله عليهم، واستحقاقهم لغضبه ولعنته لهم، ومن الأسباب الداعية لإنزال العذاب وغضب رب العباد ما يلي:

١- الكفر والشرك بالله تعالى:

الكفر يناقض الإيمان، وهو أن يجحد العبد شيئًا معلومًا من الدين بالضرورة، أو يكذبْ بما أنزل على نبيه صلى الله عليه وسلم، أو يأتي ناقضاً من نواقض الإسلام. والشرك: أن يتخذ العبد لله ندًا، سواء كان في ربوبيته، أو ألوهيته، أو أسمائه وصفاته، وقد توعد الله سبحانه الكافرين والمشركين بعذابي الدنيا والآخرة، فقال تعالى في محكم التنزيل: «إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ» (الأنفال:٣٦)، ومنطوق الآية صريح وواضح في أنهم سيقع الإنفاق منهم، وستكون عاقبته حسرتهم، لذهاب مالهم، وعدم حصول مقصودهم، وفي آخر الأمر يُغلَبون، ثم إلى جهنم يحشرون.

كما أخبر الله تعالى عن أن الكفر سبب لحبوط الأعمال؛ فقال: «ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ» (محمد:١)؛ قال ابن كثير: «يقول تعالى: «الذين كفروا» أي: بآيات الله، «وصدوا» غيرهم، «عن سبيل الله أضل أعمالهم» أي: أبطلها وأذهبها، ولم يجعل لها ثوابًا ولا جزاء، كقوله: «وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا» (الفرقان:٢٣).

(تفسير ابن كثير ١٠/٢٩٤).

كما أن الشرك محبط للأعمال، كما قال الله تعالى: «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ» (الزمر:٦٥)، وقد أفادت الآية أن الشرك محبط للأعمال، مفسد للأحوال في كل الشرائع، قال الشيخ عبد الرحمن السعدي رحمه الله: «ففي نبوة جميع الأنبياء أن الشرك محبط لجميع الأعمال، كما قال تعالى في سورة الأنعام لما عدَّ كثيرًا من أنبيائه ورسله، قال عنهم: «ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ» (الأنعام:٨٨)». (تفسير السعدي ٢/٣٢٨).

وفي الآخرة توعد الله الكافرين والمشركين بعذاب الجحيم مع الخلود- عياذًا بالله منها- قال الله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» (البينة:٦). يقول ابن كثير رحمه الله في بيان معنى هذه الآية: «يخبر تعالى عن هؤلاء الفجار من أهل الكتاب، والمشركين المخالفين لكتب الله المنزلة وأنبياء الله المرسلة أنهم يوم القيامة «فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا» (البينة:٦) أي: ماكثين، ولا يحولون عنها ولا يزولون. «أُولَٰئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ» (البينة:٦) أي: شر الخليقة التي برأها الله وذرأها». (تفسير ابن كثير ١٤/٤٢٥).

وللشيخ عطية سالم رحمه الله كلام دقيق حول هذه الآية يقول فيه: «وقد تضمنت هذه الآية مسألتين: الأولى منها: أن أولئك في نار جهنم خالدين فيها، والمسألة الثانية: أنهم شر البرية، ومن البرية الدواب والطيور، وهناك النص على عمومه، فافهم أن أولئك شر من الحيوانات والدواب، وقد جاء النص صريحًا في هذا المعنى في قوله تعالى: «إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ» (الأنفال:٢٢).

وقد بيَّن أن المراد بهم الكفار في قوله: «أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ» (محمد:٢٣)، وقال عنهم: «أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَن كَانَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ» (الزخرف:٤٠)؛ فهم لصممهم وعماهم في ضلال مبين، وقد ثبت أن الدواب ليست في ضلال مبين، لأنها تعلم وتؤمن بوحدانية الله، كما جاء في هدهد سليمان، أنكر على بلقيس وقومها سجودهم للشمس والقمر من دون الله». (تتمة أضواء البيان ٩/٤١٥).

وقد أخبر الله في كتابه أنه لا يغفر لمشرك مات على الشرك أبدًا، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ» (النساء:٤٨)، كما أن الجنة عليه حرام، فلا يدخلها أبدًا تصديقًا لقول الله تعالى: «إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ» (المائدة:٧٢)، وبهذا يظهر أن الكافرين والمشركين في عماية وشقاء، وجهالة جهلاء، وأنهم أقبح خلق الله، وقد استحقوا بكفرهم وشركهم غضب الله وعذابه، ومن باب النصيحة أقول: ارجعوا إلى ربكم وآمنوا به، واعبدوه وحده، ولا تشركوا معه أحدًا، واتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم فيما جاء به.

٢- ادعاء الربوبية والألوهية:

من المعلوم لدى أصحاب العقول السليمة والفطر المستقيمة أن الذي خلق الكون بما فيه هو الله، وأنه الإله الواحد الأحد، ومع كل ذلك ادعى بعض الناس الربوبية والألوهية، وقد زعمها فرعون المعروف بجبروته وطغيانه لنفسه، فقال لقومه كما ذكر القرآن الكريم عنه: «وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي» (القصص:٣٨)، وهذه دعوة منه قبيحة وافتراء عظيم، ولم يقتصر فرعون على ذلك، بل كان يهدد ويتوعد من لم يتخذه إلهًا، كما قال لموسى عليه السلام: «قَالَ لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ» (الشعراء:٢٩).

ومرة أخرى جمع قومه ونادى فيهم بأنه ربهم

الأعلى، كما ذكر القرآن عنه ذلك في قوله: «فَحَشَرَ فَنَادَىٰ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَىٰ» (النازعات: ٢٣-٢٤)، وهذه دعوى عارية عن الدليل، بل هي من البهتان العظيم.

ولا أعرف رجلاً سبقه إلى هذا الضلال بهذا التصريح، وإني أقرر هنا بأن الأدلة الدالة على وجود الله تعالى وتفرده بالخلق بعدد مخلوقاته، فكل ما خلق الله في السموات والأرض يدل بذاته على وجود الله تعالى وخلقه له، والكون بأسره كان عدمًا وُوجِدَ بإيجاد الله له، ومن المقرر لدى العقلاء أن من سبق بعدم، فلا بد له من مُوجِد يُخرجه من العدم إلى حيز الوجود، وليس ذلك إلا لرب العالمين سبحانه، وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة التي لا يماري فيها إلا مكابر، قال الله تعالى: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ» (الطور: ٣٥-٣٦).

وفي هاتين الآيتين حجة باهرة قوية، لا تملك العقول لها دفعًا، وهما تقرران ربوبية الله على خلقه، وضرورة الاعتراف بوجوده سبحانه، ولقد صاغ القرآن الكريم هذه الحجة بهذه الأسئلة الإنكارية ومعناها: هل وجدتم من غير شيء؟ وهذا ظاهر الفساد؛ لأن تعلق الخلق بخالق من ضرورة الأمر، فلا بد للمخلوق من خالق، وإذا أقروا بهذه الحقيقة، فهل خلقوا أنفسهم؟

وهذا أيضًا من الفساد بمكان، لأن ما لا وجود له، لا قدرة له، فكيف يخلق؟ فلم يبق إلا الاعتراف بالخالق الحكيم وحده سبحانه، وقد كان لهاتين الآيتين مكانة عظيمة عن الصحابة لما دلت عليه وقررته من حقائق، فقد أخرج البخاري عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه رضي الله عنه قال: سمعت النبي صلى الله عليه وسلم يقرأ في المغرب بالطور، فلما بلغ هذه الآية: «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَل لَّا يُوقِنُونَ ﴿٣٦﴾ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ» (الطور: ٣٥-٣٧) كاد قلبي أن يطير». (البخاري: ٤٨٥٤).

قال ابن حجر رحمه الله في شرح الحديث: «المعنى: أم خُلقوا من غير خالق؟ وذلك لا يجوز، فلا بد لهم من خالق، وإذا أنكروا الخالق فهم الخالقون لأنفسهم، وذلك في الفساد والبطلان أشد، لأن ما لا وجود له كيف يخلق؟ وإذا بطل الوجهان قامت الحجة عليهم بأن لهم خالقًا». (فتح الباري ٨/٦٠٣).

والحاصل أن إنكار الخالق سبحانه يتنافى مع الفطرة والعقل، وأنا لا أورد الحديث عن هذا هنا، ولكني أريد أن أبين أن جحود فرعون لرب البرية، وادعاء الربوبية والألوهية كان وبالاً عليه وقومه، فأصابهم عذاب الله ومقته، وكانت نهايته كما ذكر القرآن الكريم عنه: «وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ» (الذاريات: ٣٨-٤٠).

وفي الآيات إشارة إلى موسى عليه السلام الذي أتى فرعون بالآيات الواضحات، ولكنه استكبر وأنكر، وبغى وتكبر، ولذلك كان غضب الله عليه شديد، وأخذه له أليم، وقد ذكر رب العالمين في آيات كثيرة من كتابه نهاية فرعون الأليمة، ومن ذلك ما ساقه من قصته في سورة هود، وقوله بعدها: «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ» (هود: ١٠٢). وفي الصحيحين من حديث أبي موسى رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله ليملي للظالم حتى أخذه لم يفلته، ثم قرأ الآية «وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ»». (البخاري: ٤٦٨٦، ومسلم: ٥٨٣).

وقد عامل الله فرعون بنقيض قصده، حيث أراد أن يخرج موسى وقومه من مصر، فأهلكه الله، وجعل موسى مُمكنًا في أرض مصر ومعه قومه، كما قال الله تعالى: «فَأَرَادَ أَن يَسْتَفِزَّهُم مِّنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَن مَّعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾ وَقُلْنَا مِن بَعْدِهِ لِبَنِي إِسْرَائِيلَ اسْكُنُوا الْأَرْضَ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ جِئْنَا بِكُمْ لَفِيفًا» (الإسراء: ١٠٣-١٠٤)، وقد أورث الله أرض مصر وخيراتها لموسى ومن معه، كما قال الله تعالى: «كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ» (الشعراء: ٥٩).

وللحديث صلة بإذن رب العالمين.

من أسباب إنزال العذاب

الحلقة الثانية

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم واقتفى أثرهم إلى يوم الدين.. وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي طرفًا من أسباب غضب الله على عباده وإنزال العذاب عليهم، وفي هذا اللقاء نتابع القول في ذلك، ونذكر بعض أسباب ذلك، فأقول وبالله التوفيق:

٣- الذنوب والعصيان:

إن للذنوب والعصيان آثارًا قبيحة على الفرد والمجتمع، وضررها يفسد دنيا العبد وآخرته، وما من مصيبة تقع في الكون إلا بسبب ذنوب ارتُكبت، كما قال الله تعالى: «وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ» (الشورى:٣٠)، وقد أفرد الإمام ابن القيم رحمه الله مصنفًا عن آثار الذنوب وعواقبها الوخيمة، وقد أشار فيه إلى أنها تضر بالقلب والبدن، وتكون سببًا في حرمان العلم والرزق، ووقوع ألوان من الفساد في الأرض، ومن أعظم ما ذكر أن المعصية سببٌ لهَوَان العبد على ربه وسقوطه من عينه، قال الحسن البصري: "هانوا عليه فعصوه، ولو عزُّوا عليه لعصمهم"، وإذا هان العبد على الله لم يكرمه أحدٌ، كما قال الله تعالى: «وَمَن يُهِنِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِن مُّكْرِمٍ» (الحج:١٨). (الجواب الكافي ص٣٨).

من صور عقوبات المذنبين:

وقد ذكر القرآن الكريم ألوانًا من العقوبات التي عاقب بها رب العباد فريقًا من المذنبين، فقال تعالى: «فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ» (العنكبوت:٤٠)، والمعاصي إذا كثرت وعمَّت وقع الهلاك على أهل الأرض، كما في الصحيحين عن زينب بنت جحش رضي الله عنها قالت: استيقظ النبي صلى الله عليه وسلم من النوم محمرًا وجهه وهو يقول: «ويل للعرب من شر قد اقترب، فُتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه- وعقد سفيان تسعين أو مائة- قيل: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث». (البخاري: ٧٠٥٩، ومسلم: ٢٨٨٠).

قال ابن حجر في شرحه: «إنما خص العرب بالذكر؛ لأنهم أول من دخل في الإسلام، وللإنذار بأن الفتن إذا وقعت كان الهلاك أسرع إليهم». (فتح الباري ١١/١٣).

وقال النووي في شرحه لكلمة «الخبث»: «هو بفتح الخاء والباء، وفسره الجمهور بالفسوق والفجور، وقيل: المراد

الزنا خاصة، وقيل: أولاد الزنا، والظاهر أنه المعاصي مطلقًا، ومعنى الحديث: أن الخبث إذا كثُر فقد يحصل الهلاك العام وإن كان هناك صالحون». (شرح النووي على مسلم ١٨/٣).

وقد جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها الأنواع التي يقع بها هذا الهلاك، وأنه في آخر الزمان، كما في حديثها عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «يكون في آخر هذه الأمة خسف ومسخ وقذف». قالت: قلت: يا رسول الله، أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: «نعم إذا كثر الخبث». (صحيح سنن الترمذي ٢٣٧/٢).

ومع هذا فقد يعجِّل الله العقوبة على العصاة المسرفين، كما وقع لقوم لوط. قال الله تعالى: ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ ﴿٣١﴾ قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ ﴿٣٣﴾ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (الذاريات:٣١-٣٤).

وقد أبقى الله ديارهم من بعدهم لتكون عبرة للمعتبرين، كما قال رب العالمين في سياق حديثه عن إهلاكهم: ﴿وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ﴾ (الحجر:٧٦). قال الشنقيطي رحمه الله في معنى الآية: «بيَّن تعالى في هذه الآية الكريمة أن ديار قوم لوط وآثار تدمير الله لها بسبيل مقيم، أي: بطريق ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعدُ، يمر بها أهل الحجاز في ذهابهم إلى الشام، والمراد أن آثار تدمير الله لهم التي تشاهدونها في أسفاركم فيها لكم عبرة ومزدجر يوجب عليكم الحذر من أن تفعلوا كفعلهم؛ لئلا ينزل الله بكم مثل ما نزل بهم، وأوضح هذا المعنى في مواضع أُخَر من كتابه كقوله: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِاللَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (الصافات:١٣٨)». (أضواء البيان: ١٥٩/٣).

أقسام الذنوب:

وقد أطبقت كلمة أهل العلم على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر، وقد دل القرآن الكريم على ذلك، كما في قوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء:٣١)، قال ابن كثير في معنى الآية: «أي: إذا اجتنبتم كبائر الآثام التي نُهيتم عنها كفَّرنا عنكم صغائر الذنوب، وأدخلناكم الجنة، ولهذا قال: ﴿وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ (النساء:٣١)». (تفسير ابن كثير ٦٦٠/١).

وقد اختلف العلماء في تعريف الكبيرة والصغيرة، وأمثل هذه الأقوال: أن الكبيرة: كل ذنب خُتِمَ بلعنة، أو غضب، أو نار، فهو من الكبائر، وأما الصغيرة: فهي ما دون الحدين: حد الدنيا، وحد الآخرة. (انظر: مجموع الفتاوى ٦٥٠/١١).

وقد أمر النبي صلى الله عليه وسلم باجتناب كبائر الذنوب، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «اجتنبوا السبع الموبقات». قالوا: يا رسول الله، وما هن؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات الغافلات». (البخاري: ٢٦٨٥٧).

> أطبقت كلمة أهل العلم على أن الذنوب تنقسم إلى كبائر وصغائر.

وقد اقتصر النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الحديث على سبع موبقات فحسب، وإلا فهي أكثر من ذلك، ولكن ما ذكره أعظمها إثمًا وضررًا، وقد ألَّف ابن حجر الهيتمي رحمه الله كتابًا جمع فيه جملة من الكبائر وصل بها إلى سبع وستين وأربعمائة كبيرة.

ومما ذكره في كتابه: الشرك الأصغر، وهو الرياء، والغضب بالباطل، والحقد والحسد، والكبر والعجب والخيلاء، والإعراض عن الخلق؛ استكبارًا واحتقارًا لهم، والاشتغال بعيوب الخلق عن عيوب النفس، والمداهنة، وحب المدح بما لا يفعله، واتباع الهوى والإعراض عن الحق، والمكر والخداع، ومعاندة الحق، وسوء الظن بالمسلم، وكتم العلم، وعدم العمل به، وتعمُّد الكذب على الله تعالى، أو على رسوله صلى الله عليه وسلم، وملازمة الشر والفحش حتى يخشاه الناس اتقاء شره، وكسر عظم الميت، والجلوس على القبور واتخاذها مساجد، وتعليق التمائم، والمُثْلة بالحيوان، وإيذاء

الجار، واليمين الغموس، واليمين الكاذبة، والدلالة على عورات المسلمين، وشهادة الزور وقبولها، وكتم الشهادة بلا عذر، وغير ذلك مما ذكره رحمه الله، وعلى كل فالمعاصي كلها قبيحة، وهي متفاوتة في القبح.

قال ابن الجوزي رحمه الله: «كل المعاصي قبيحة، وبعضها أقبح من بعض، فإن الزنا من أقبح الذنوب، فإنه يُفسد الفراش ويُغيِّر الأنساب، وهو بالجارة أقبح، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، أي ذنب أعظم؟ قال: أن تجعل لله ندًا وهو خلقك». قلت: ثم أي؟ قال: «أن تقتل ولدك من أجل أن يطعم معك». قلت: ثم أي؟ قال: أن تزني بحليلة جارك»؛ وإنما كان هذا لأنه يضمُّ إلى معصية الله عز وجل انتهاك حق الجار. (صيد الخاطر ص٣٢٨).

ويلحق بهؤلاء في الجرم والقبح: اللوطية، وقد وسم الله في كتابه اللوطية بالخبث والنجاسة، قال الله تعالى: ﴿ وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَت تَّعْمَلُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ ۗ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمَ سَوْءٍ فَٰسِقِينَ ﴾ (الأنبياء:٧٤)، وقالت اللوطية: ﴿ أَخْرِجُوٓا۟ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ ۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ ﴾ (النمل:٥٦)، فأقروا على أنفسهم أنهم هم الأخباث الأنجاس، وأن لوطًا وآله مطهرون من ذلك باجتنابهم له. (انظر: إغاثة اللهفان ١/٦٦).

ولقد تجرأ بعض الناس على حرمات الله وانتهكوها، وهذا يوجب غضب الرب سبحانه وتعالى على أهل الأرض، ولذلك أقول لكل مسلم: حاسب نفسك قبل الوقوف بين يدي ربك، وكن ناصحًا صادقًا لنفسك التي بين جنبيك، وراقب فيها ربك المهيمن عليك، واعلم أن كل حركة تتحركها، أو كلمة تقولها، أو نظرة تأتي بها مسجلة عليك، وإن نسيتها فلم ينسها من أحاط بكل شيء علمًا، وأحصى كل شيء علمًا، وأحصى كل شيء عددًا، قال الله تعالى: ﴿ يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوٓا۟ ۖ أَحْصَىٰهُ ٱللَّهُ وَنَسُوهُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (المجادلة:٦).

ومما أرى التنويه عليه هنا: أن المرتكب للذنوب من أهل الإيمان، لا يخرج بارتكابه إياها عن الإسلام، وإن كان معرضًا لعذاب الله تبارك وتعالى، بخلاف ما ذهب إليه أهل الإرجاء، وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الإيمان من صحيحه بابًا قال فيه: «المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابه إلا الشرك، لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «إنك امرؤ فيك جاهلية»، وقول الله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ (النساء:١١٦)، وهذا يدل على فقه الإمام البخاري رحمه الله، قال ابن حجر في شرحه: «قال ابن بطال: غرض البخاري الرد على من يُكفِّر بالذنوب كالخوارج، ويقول: إن من مات على ذلك يُخلَّد في النار، والآية ترد عليهم لأن المراد بقوله: ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾ من مات على كل ذنب سوى الشرك» (فتح الباري ١/٨٥).

> على المسلمين التمسك بمبراثهم لحماية مقدساتهم.

وقد دلَّ هذا الباب أيضًا على أن من بقيت فيه خصلة من خصال الجاهلية سوى الشرك لا يخرج عن الإيمان بها، كما دلَّ على خطورة الشرك وجرمه، وقد ورد عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: «كل شيء عُصي الله به فهو كبيرة، فمن عمل شيئًا منها فليستغفر الله، فإن الله لا يُخلِّد في النار من هذه الأمة إلا راجعًا عن الإسلام، أو جاحدًا فريضة، أو مكذبًا بقدر». (معالم التنزيل ١/٤١٩).

أسأل الله تعالى أن يرزقنا خشيته وتقواه، وأن يجنبنا ما لا يحبه ويرضاه. وبينما المجلة ماثلة للطبع تنامى إلى أسماعنا ما أحاط بالمسجد الأقصى المبارك من تدبير من أولئك الظالمين الذين دأبوا على الظلم والبهتان والتعدي على المقدسات والأوطان، ثم بعد ذلك تزييف الحقائق والتاريخ؛ وهنا نؤكد أن المسجد الأقصى المبارك هو ميراث المؤمنين من لدن أبي الأنبياء إبراهيم، مرورًا بأنبيائه وعباده الصالحين، حتى وصل الميراث إلى أتباع خاتم أنبيائه ورسله محمد صلى الله عليه وسلم.

فيا أتباع رسول الله، حافظوا على ميراثكم بالتمسك بكتاب ربكم ونصرة نبيكم، يتحقق فيكم موعود ربكم: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴾ [المجادلة: ٢١].

من أسباب إنزال العذاب

الحلقة الثالثة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الواحد الأحد، الفرد الصمد، الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على من بعثه الله بالكتاب والسنة ليخرج الأمة من الظلمات إلى النور، اللهم صل وسلم وبارك عليه، وعلى آله وأصحابه، ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعد:

فقد ذكرت فيما مضى ثلاثة أسباب توجب إنزال العذاب من لدن رب العباد، وفي هذا اللقاء أواصل الحديث حول هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

٤- مخالفة أمر النبي صلى الله عليه وسلم:

أوجب الله على المسلمين اتباع النبي صلى الله عليه وسلم في كل ما جاء به من عند الله تعالى، كما قال تعالى: « وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ » (الحشر:٧)، كما أمر أهل الإيمان بالاستجابة له صلى الله عليه وسلم في كل ما يدعو إليه، قال الله تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » (الأنفال:٢٤)، وقد قرن الله طاعته بطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم في آيات كثيرة، مما يدل على أهمية ذلك ومكانته من الدين، قال الله تعالى: « وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ » (آل عمران:١٣٢)، ومن هنا كان عصيان أمره ومخالفته من أعظم ما يرتكبه المسلم، ومن فعل ذلك يكون قد عرض نفسه للوعيد الشديد، كما قال الله تعالى في كتابه: « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » (النور:٦٣)، قال ابن كثير: «وقوله « فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ » أي عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال والأعمال بأقواله وأعماله، فما وافق ذلك قبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائناً من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد» أي فليحذر وليخشَ من خالف شريعة الرسول باطناً وظاهراً. «أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ» أي في قلوبهم من كفر أو نفاق أو بدعة «أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ» أي في الدنيا بقتل أو حد أو حبس أو نحو ذلك». (تفسير ابن كثير ٣/٤٢١، ٤٢٢).

وقد أنكر ابن عباس رضي الله عنهما على مَن عارض قول النبي صلى الله عليه وسلم بقول غيره، وذلك لما قال: «تمتع النبي صلى الله عليه وسلم، فقال عروة بن الزبير: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة، فقال ابن عباس: ما يقول عروة، قال: يقول: نهى أبو بكر وعمر عن المتعة،

فقال ابن عباس: أراهم سيهلكون، أقول: قال النبي صلى الله عليه وسلم، ويقول: نهى أبو بكر وعمر». (مسند أحمد ١/٣٣٧).

وهذا الكلام من حبر الأمة يدل على خطورة الانصراف عن الهدي النبوي، وأنه من أسباب الهلاك، وقد يؤول الحال بصاحبه إلى أن يزيغ قلبه عن الحق، كما قال الإمام أحمد رحمه الله تعالى: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته ويذهبون إلى رأي سفيان، والله تعالى يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (النور:٦٣). أتدري ما الفتنة؟ الفتنة: الشرك. لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك. (فتح المجيد ص٥٣٠).

ولذلك أقول لكل مسلم: يجب أن تبني كلامك على الكتاب والسنة والآثار حتى توافق طريق النبوة، وألا تنتصر لقول أحد مطلقًا إلا لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وإذا بلغك الدليل من الكتاب والسنة فالزمه واعمل به، وإن خالفه من خالفه من الناس؛ لأنك لن تسأل يوم القيامة إلا عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، كما قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ (القصص:٦٥)، ولن يتمكن من الجواب الصحيح إلا من كان في دنياه متبعًا لرسول الله ومصطفاه صلى الله عليه وسلم، أما من كان متبعًا لرأيه وهواه، سائرًا وراء الدعوات الهدامة قديمًا وحديثًا، فقد ضل سواء السبيل.

٥- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم فرائض الدين، وبه مع الإيمان بالله تعالى نالت هذه الأمة الخيرية عن سائر الأمم، قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران:١١٠)، وإذا أهمل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عمَّ الفساد، وفشت الضلالة والجهالة، وهلك العباد بإنزال العقاب من الله تعالى، قال النووي: «اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضُيع من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جدًا، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه، وإذا كثر الخَبث عم العقاب الصالح والطالح، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمهم الله تعالى بعقابه، فينبغي لطالب الآخرة والساعي في تحصيل رضا الله عز وجل أن يعتني بهذا الباب». (شرح النووي على مسلم: ٢/٢٤).

وقد أخبر الله في كتابه أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيه أمنة من العقوبات الإلهية التي تنزل بالأمم التي استشرى فيها الفساد، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧)، فجعل قيامهم بواجب الإصلاح سببًا لدفع العذاب عنهم وعدم هلاكهم، كما بين أيضًا ذلك في قوله: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ (هود:١١٦).

قال ابن كثير رحمه الله: «يقول تعالى: فهلا وجد من القرون الماضية بقايا من أهل الخير ينهون عما كان يقع بينهم من الشرور والمنكرات والفساد في الأرض؟ وقوله: «إلا قليلاً» أي: قد وُجد منهم من هذا الضرب قليل، لم يكونوا بكثير، وهم الذين أنجاهم الله عند حلول غضبه، وفجأة نقمته، ولهذا أمر الله تعالى هذه الأمة الشريفة أن يكون فيهم من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، قال الله تعالى: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ (آل عمران:١٠٤). وفي الحديث: «إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب». (تفسير ابن كثير ٢/٦٢٦).

وفي حديث أبي بكر رضي الله عنه أنه قال: «يا أيها الناس، إنكم تقرؤون هذه الآية وتضعونها على غير موضعها: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة:١٠٥). وإنا سمعنا النبي صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب»، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا إلا يوشك أن يعمهم الله بعقاب». (صحيح سنن أبي داود ٣/٨١٨).

وقد لعن الله بني إسرائيل وطردهم من رحمته

بسبب عصيانهم وتركهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، كما قال الله تعالى: « لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ» (المائدة:٧٨، ٧٩)، وفي الآية التصريح بأن سبب اللعن والطرد من رحمة الله وقوعهم في العصيان مع تركهم النهي عنه.

يقول السعدي رحمه الله: «ومن معاصيهم التي أحلت بهم المثلات، وأوقعت بهم العقوبات أنهم: «كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ» أي: كانوا يفعلون المنكر، ولا ينهى بعضهم بعضا، فيشترك بذلك المباشر، وغيره الذي سكت عن النهي عن المنكر مع قدرته على ذلك.

وذلك يدل على تهاونهم بأمر الله، وأن معصيته خفيفة عليهم، فلو كان لديهم تعظيم لربهم لفاروا لمحارمه، ولغضبوا لغضبه، وإنما كان السكوت عن المنكر-مع القدرة- موجبا للعقوبة، لما فيه من المفاسد العظيمة». (تيسير الكريم الرحمن ٢/٣٢٩).

وقد وعد الله عباده بالتمكين في الأرض إن هم أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، كما قال الله تعالى: « ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ» (الحج:٤١).

٦- البغي:

من الأمور التي توجب إنزال العذاب البغي، وهو: الاستطالة على الناس، وقصد الظلم والفساد، يقال: فلان يبغي على الناس إذا ظلمهم وطلب أذاهم، وأصل البغي: مجاوزة الحد. (انظر: لسان العرب ١٤/٧٨).

وقد حرم الله البغي في كتابه، قال الله تعالى: « قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ» (الأعراف:٣٣). قال القاسمي رحمه الله: «البغي: أي الاستطالة على الناس وظلمهم، وإنما أفرده بالذكر مع دخوله فيما قبله، للمبالغة في الزجر عنه، وذلك لأن تخصيصه بالذكر يقتضي أنه تميز من بينها حتى عد نوعًا مستقلاً». (تفسير القاسمي ٧/٢٦٧٤).

وقد عدَّ العلماء الخروج على الإمام-ولو كان جائرًا- بلا تأويل، أو مع تأويل يقطع ببطلانه من البغي. (انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر لابن حجر الهيتمي ٢/١٠٣).

وقد أمر الله بقتال الفئة الباغية حتى ترجع إلى الحق وتسمع له وتطيعه، كما قال الله تعالى: « وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ» (الحجرات:٩).

وقد امتن الله تبارك وتعالى على قارون بكثرة المال فبغى على قومه، وتطاول عليهم، ولم يستجب لنصحهم، فأهلكه الله ببغيه أمام قومه، قال الله تعالى: « إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ مِنَ ٱلْكُنُوزِ مَآ إِنَّ مَفَاتِحَهُۥ لَتَنُوٓأُ بِٱلْعُصْبَةِ أُو۟لِى ٱلْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ» (القصص:٧٦).

قال ابن جرير: تجاوز حده في الكبر والتجبر عليهم، وكان بعضهم يقول: كان بغيه عليهم زيادة شبر أخذها في طول ثيابه. (انظر تفسير ابن جرير ٢٠/٦٨).

وكانت نهايته كما ذكر الله في قوله: « فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ» (القصص:٨١). قال ابن كثير: «لما ذكر تعالى اختيال قارون في بيته، وفخره على قومه وبغيه عليهم، عقب ذلك بأنه خسف به وبداره الأرض، كما ثبت في الصحيح عند البخاري من حديث الزهري بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بينما رجل يجر إزاره إذ خسف به، فهو يتجلجل في الأرض إلى يوم القيامة». (تفسير ابن كثير ٣/٥٤٣).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن البغي أحد الذنوب التي تكون سببًا في تعجيل العقوبة، كما في الترمذي بسند صحيح عن أبي بكرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما من ذنب أجدر أن يعجل الله لصاحبه العقوبة مع ما يدخر له في الآخرة من البغي وقطيعة الرحم». (انظر: السلسلة الصحيحة ٢/٦٢٣).

فكن يا عبد الله على حذر من هذه الآفات، واسأل الله العافية، والحمد لله رب العالمين.

من أسباب إنزال العذاب

الحلقة الرابعة

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الواحد الأحد، الذي لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، والصلاة والسلام على من بعثه ربه هاديًا وبشيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا..

وبعد:

فقد تحدثت في ثلاثة لقاءات سابقة عن أسباب الغضب الإلهي، وإنزال العذاب من لدن رب العباد، وفي هذا اللقاء أجمل القول في هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

٧- البطر:

مصدر مأخوذ من مادة «بطر». قال ابن منظور: البطر: الطغيان عن النعمة وطول الغنى، وفي الحديث: الكبر: بطر الحق، هو أن يجعل ما جعله الله حقًا من توحيده وعبادته باطلاً، وقيل: هو أن يتحير في الحق فلا يراه حقًا». (لسان العرب: ٦٩/٤).

وعليه فالبطر هو كفر النعمة، وكفرها إمَّا يكون بجحد المنعم، أو بعدم شكره واستخدامها في غير ما خُلقت لأجله والبطر عاقبته وخيمة، وهو من أسباب الهلاك والدمار وزوال النعمة، كما قال الله تعالى: « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ » (القصص:٥٨)، قال ابن كثير: «يقول تعالى مُعرِّضًا بأهل مكة في قوله تعالى: « وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا » (القصص:٥٨) أي: طغت وأشرت وكفرت نعمة الله، فيما أنعم به عليهم من الأرزاق، كما قال في الآية الأخرى: «وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ » (النحل:١١٢). (تفسير ابن كثير ٥٣٧/٣).

والاستثناء الوارد في قوله تعالى: «فَتِلْكَ مَسَٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ » (القصص:٥٨) يحتمل وجوهًا- منها ما قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لم يسكنها إلا المسافر وما زال الطريق يومًا أو ساعة». وقيل: يحتمل أن شؤم معاصي المهلكين بقي أثره في ديارهم، فكل من سكنها من أعقابهم لم يبق فيها إلا قليلاً وكنا نحن الوارثين لها بعد هلاك أهلها. (انظر: مفاتيح الغيب ٣٠٤/١٢).

وقد ذكر الله قصة سبأ في كتابه للاعتبار بحال الأمم التي لم تقابل نعم الله بشكره، فأهلكها وبدَّل

حالها، قال تعالى: «لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ» (سبأ:١٥-١٧)، فهؤلاء القوم قد يسَّر الله لهم أسباب الرزق بهاتين الجنتين، وتفضل عليهم بألوان من النعم، منها: الأمن والبلدة الطيبة، ولم يطلب منهم شيئًا كثيرًا، بل أمروا بالأكل من رزق الله وعبادته وحده دون سواه، ليقع منهم الشكر له سبحانه- جل في علاه-، ولما أعرضوا وتنكروا للمنعم كان من شأنهم ما ذكره الله عنهم.

قال السعدي: «فأعرضوا عن المنعم وعن عبادته، وبطروا النعمة وملوها، حتى إنهم طلبوا وتمنوا أن تتباعد أسفارهم بين تلك القرى التي كان السير فيها متيسرًا، وظلموا أنفسهم بكفرهم بالله وبنعمته، فعاقبهم الله تعالى بهذه النعمة التي أطغتهم، فأبارها عليهم، فأرسل عليهم سيل العرم، أي: السيل المتوعر الذي خرَّب سدَّهم، وأتلف جناتهم، وخرب بساتينهم، فتبدلت تلك الجنات ذات الحدائق المعجبة، والأشجار المثمرة، وصار بدلها أشجارًا لا نفع فيها». (تيسير الكريم الرحمن ٦/ ٢٧٠).

وقد نهى الله المؤمنين عن التشبه بالمشركين في البطر والرياء، فقال تعالى: «وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ» (الأنفال:٤٧)، وهذه الآية تصور ما كان عليه المشركون في غزوة بدر من المفاخرة والاستعلاء على المؤمنين، فكانت نهايتهم الهلاك، وقد ساق ابن حجر بسنده إلى عروة أنه قال: لما نجا أبو سفيان بعيره أرسل إلى المشركين أن ارجعوا، فقالوا: والله لا نرجع حتى ننزل بدرًا فنقيم فيه ثلاث ليال ويرانا من غشينا من أهل الحجاز، ففتح الله على رسوله، وأخزى أئمة الكفر، وشفى صدور المؤمنين منهم». (تفسير الطبري ١٠/ ١٢).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم من أبعد الناس من البطر، كما في حديث أبي عبد الرحمن الفهري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لبلال: «أسْرج لي الفرس، فأخرج سَرَجًا دفتاه من ليف ليس فيه أشر ولا بطر». (انظر: صحيح أبي داود ٣/ ٩٨٣).

وقد ورد عنه صلى الله عليه وسلم وعيد شديد لمن جرَّ إزاره بطرًا، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا ينظر الله يوم القيامة إلى من جرَّ إزاره بطرًا». (البخاري: ٥٧٨٨).

٨- الاستكبار:

الكبر والكبرياء: العظمة والتجبر، والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق معاندة وتكبرًا. (انظر: لسان العرب ٥/ ١٢٦- ١٢٩).

وقال الكفوي: «التكبر: هو أن يرى المرء نفسه أكبر من غيره، والاستكبار: طلب ذلك التشبع، وهو التزين بأكثر مما عنده». (الكليات: ص٢٨).

والكبر آفة عظيمة ويقع فيه كثير من الناس، وهو من الكبائر. قال القاسمي رحمه الله: «واعلم أن الكبر ينقسم إلى باطن وظاهر، فالباطن هو خلق في النفس، والظاهر: هو أعمال تصدر من الجوارح، وتلك الأعمال أكثر من أن تُحصى وآفته عظيمة وغائلته هائلة.. ومنشؤه استحقار الغير وازدراؤه واستصغاره، ولذلك شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم الكبر بهاتين الآفتين بقوله: «الكبر بطر الحق وغمط الخلق»، أي: ازدراؤهم واحتقارهم وهم عباد الله أمثاله أو خير منه». (موعظة المؤمنين ص٢٨٣).

والكبر كان سبب شقاء إبليس ولعنه وطرده من رحمة الله تعالى، كما قال سبحانه: «وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ» (البقرة:٣٤)، والآية أفادت أن الله أكرم آدم وأمر الملائكة بالسجود

له فاستجابت لذلك، وحسده عدو الله إبليس على هذه الكرامة فأبى واستكبر، فلعنه الله وطرده ووسمه بالكفر، وقد تعرَّض القاسمي رحمه الله لمعنى السجود الوارد في الآية، وذكر أقوالاً منها: أنه تكريم لآدم، ولم يكن عبادة لآدم، ثم نقل عن بعض أهل العلم أنهم قالوا: السجود كان لآدم بأمر الله وفرضه، وعلى هذا إجماع كل من يسمع قوله، فإن الله تعالى قال: «اسجدوا لآدم»، ولم يقل: إلى آدم، فسجود الملائكة لآدم عبادة لله وطاعة وقربة يتقربون بها إليه، وهو لآدم تشريف وتعظيم وتكريم، وسجود إخوة يوسف له تحية وسلام. (انظر: تفسير القاسمي ٢/١٠١، ١٠٢).

وقد أثنى الله في كتابه على الملائكة باستجابتهم وطاعتهم لله وعدم استكبارهم فقال: « إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ» (الأعراف:٢٠٦)، كما أخبر عنهم بحسن الطاعة ولزوم العبادة، فقال تعالى: « وَلَهُۥ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَنْ عِندَهُۥ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ﴿١٩﴾ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ » (الأنبياء: ١٩- ٢٠)، قال ابن كثير: «يعني الملائكة» لا يستكبرون عن عبادته» أي: لا يستنكفون عنها، وقوله: «ولا يستحسرون» أي: لا يتعبون ولا يملون، «يسبحون الليل والنهار لا يفترون»، فهم دائبون في العمل ليلاً ونهارًا، مطيعون قصدًا وعملاً، قادرون عليه». (تفسير ابن كثير ٣/٢٤٣).

والكبر سبب من أسباب الكفر بالحق وعدم قبوله كما وقع من اليهود، قال الله فيهم: «أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ» (البقرة:٨٧)، وهذه الآية تبين حقيقة اليهود، وتذمهم في مواجهتهم للأنبياء والمرسلين بالتكذيب والقتل اتباعًا لهوى النفس واستكبارًا في الأرض، قال الطبري رحمه الله: «قال أبو جعفر: يقول الله جل ثناؤه لهم: يا معشر يهود بني إسرائيل، لقد آتينا موسى التوراة، وتابعنا من بعده بالرسل إليكم، وآتينا عيسى ابن مريم البينات والحجج، إذ بعثناه إليكم، وقويناه بروح القدس، وأنتم كلما جاءكم رسول من رسلي بغير الذي تهواه نفوسكم استكبرتم عليهم- تجبُّرًا وبغيًا- استكبار إمامكم إبليس، فكذبتم بعضا منهم. وقتلتم بعضا. فهذا فعلكم أبدا برسلي». (تفسير الطبري ١/٣٢١).

والمستكبرون هم أعداء الرسل في كل ملة، ومن يتبع آيات القرآن يجد ذلك في غاية الوضوح اقرأ مثلاً قول الله تعالى عن قوم صالح: « قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلَ بِهِۦ مُؤْمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا بِٱلَّذِىٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ » (الأعراف:٧٥، ٧٦)، والله تبارك وتعالى عقوبة منه للمتكبرين يَصرف قلوبهم وعقولهم عن الحق، فلا يجد الخير طريقًا إليهم، كما جاء في القرآن الكريم: « سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ » (الأعراف:١٤٦)، ومآل هؤلاء المستكبرين النار، أعاذنا الله وإياكم منها، قال الله تعالى: « وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ» (الأحقاف:٢٠).

وأختم هنا بهذا الحديث المبارك الذي يبين فيه النبي صلى الله عليه وسلم صفات أهل الجنة وصفات أهل النار، كما في حديث حارثة ابن وهب أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ألا أخبركم بأهل الجنة؟ قالوا: بلى. قال: كل ضعيف متضعف لو أقسم على الله لأبره. ثم قال: ألا أخبركم بأهل النار؟ قالوا: بلى. قال: كل عتل جواظ مستكبر». (البخاري ٦٠٧١، ومسلم: ٢٨٥٣).

والعتل: هو الجافي الشديد الخصومة، والجواظ الجموع المنوع.

أسأل الله سبحانه أن يجعلنا من أهل جنته، وأن يصرف عنا عذابه، والحمد لله رب العالمين.

الكذب.. وسوء منقلب أهله

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله، والصلاة والسلام على من بعثه ربه بالدين القويم، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإنَّ الكذب خُلق ذميم، وصاحبه متوعَّد بعذاب الجحيم، وهو من قبائح الذنوب وكبائرها، وقد حرَّمه الله في كتابه، ونبينا صلى الله عليه وسلم في سُنته.

وقبل البدء في بيان شيء من ذلك، أُعرِّفه فأقول: الكذب عدم مطابقة الخبر للواقع، قال التهانوي: «الكذب: خلاف الصدق، قيل: هو قبيح لعينه، وقيل: لما يتعلق به من المضارّ الخاصة». (كشاف اصطلاحات الفنون ٣/١٢٤٣).

والكذب يكون بتزييف الحقائق، أو خلق وإحداث روايات وحكايات لا أصل لها.

وأفحش أنواع الكذب: الكذب على الله، والتكذيب بآياته، قال الله تعالى متوعدًا ومعنفًا الكافرين لتكذيبهم بآيات الله: «إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُم مِّنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَٰئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ ﴿١٠﴾ كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ» (آل عمران:١٠، ١١)، وقد أفادت الآيتان أن الكافرين لن تنفعهم أولادهم ولا أموالهم، وأن الله ناصر عباده المؤمنين عليهم، وذلك بسبب تكذيبهم بآيات الله وعدم تصديقهم بالمرسلين.

قال ابن كثير رحمه الله: «والمعنى في الآية: أن الكافرين لا تغني عنهم الأولاد ولا الأموال، بل يهلكون ويُعذَّبون، كما جرى لآل فرعون ومن قبلهم من المكذبين للرسل فيما جاؤوا به من آيات الله وحججه» (تفسير ابن كثير ١/٤٨٤).

ولا يوجد أظلم ممن افترى على الله الكذبَ؛ بأن أثبت شريكًا له، أو نسَب إليه البنين والبنات، أو أنكر كون القرآن كتابًا نازلاً من عنده، أو أنكر نبوة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ أُولَٰئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ الْكِتَابِ حَتَّىٰ إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ» (الأعراف:٣٧).

قال ابن جرير رحمه الله: «يقول تعالى ذكره: فمن أخطأ فعلاً وأجهل قولاً وأبعد ذهابًا عن الحق والصواب ممن افترى على الله كذبًا، يقول: ممن اختلق على الله

زورًا من القول، فقال إذا فعل فاحشة: إن الله أمرنا بها، أو كذَّب بآياته، يقول: أو كذَّب بأدلته وأعلامه الدالة على وحدانيته ونبوة أنبيائه، فجحد حقيقتها ودافع عن صحتها، أولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب، يقول: يصل إليهم حظهم مما كتب الله لهم في اللوح المحفوظ». (تفسير الطبري ٨/١٢٤).

وقد ذكر الله عن اليهود أنهم يتعمدون الكذب على الله، وذلك بتحريف الكلم عن مواضعه، ورجوعهم عن الاستقامة إلى الاعوجاج، وذلك بليِّ ألسنتهم بالكتاب، قال الله تعالى: «وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُم بِالْكِتَٰبِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَٰبِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَٰبِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (آل عمران:٧٨)، قال ابن كثير: «يخبر تعالى عن اليهود -عليهم لعائن الله- أن منهم فريقًا يحرِّفون الكلم عن مواضعه، ويبدِّلون كلام الله، ويزيلونه عن المراد به، ليوهموا الجهلة أنه في كتاب الله كذلك، وينسبونه إلى الله، وهو كذب على الله، وهم يعلمون من أنفسهم أنهم قد كذبوا وافتروا في ذلك كله، ولذا قال الله تعالى: «وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ» (آل عمران:٧٥)». اهـ تفسير ابن كثير (١/٥١٧).

كما أن نسبة الولد إلى الله من أقبح الكذب عليه، قال الله تعالى عن القرآن الكريم: «وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا ﴿٤﴾ مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا» (الكهف: ٤-٥)، والذين نسبوا الولد إلى الله ثلاث طوائف: كفار العرب الذين قالوا الملائكة بنات الله، والنصارى الذين قالوا المسيح ابن الله، واليهود الذين قالوا عزير ابن الله، وقد أنكر القرآن الكريم نسبة الولد إليه، وعدَّ ذلك من منكرات الأقوال وقبيح الفعال، قال الله تعالى: «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا» (مريم: ٨٨- ٩٢).

ولعلنا نلاحظ من الآيات شناعة هذه الدعوى القبيحة، وذلك لأن اتخاذه الولد يدل على احتياجه، وهو الغني الحميد، والولد من جنس والده، وربنا سبحانه لا شبيه ولا مثل له- تعالى الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

قال القاسمي رحمه الله: «وفي رد مقالتهم وتهويل أمرها بطريق الالتفات؛ إشعارٌ بشدة الغضب المفصح عن غاية التشنيع، والتسجيل عليهم بنهاية الوقاحة والجراءة والجهل. ثم وصف شدة شأن مقولهم بقوله سبحانه: «تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ» أي: يتشققن: «وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ» أي: لأن: «دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا»؛ وذلك لغيرتها على المقام الربانيّ الأحديّ أن ينسب له ما ينزه عنه ويشعر بحاجته ووجود كفء له وفنائه». (تفسير القاسمي ١٢/٤١٦٥).

كما أن الكذب على النبي صلى الله عليه وسلم من أعظم الذنوب، وقد حذَّر النبي صلى الله عليه وسلم منه، وتوعَّد فاعله بالنار، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا في صحيحه قال فيه: «باب إثم من كذب على النبي صلى الله عليه وسلم»، ثم ساق تحته حديث علي رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم، قال: «لا تكذبوا عليَّ؛ فإنه من كذب عليَّ فليلج النار».

قال ابن حجر في شرحه: «هُوَ عَامٌ فِي كُلّ كَاذِب، مُطْلَق فِي كُلّ نَوْع مِنْ الْكَذِب، وَمَعْنَاهُ لَا تَنْسِبُوا الْكَذِب إِلَيَّ. وَلَا مَفْهُوم لِقَوْلِهِ: «عَلَيَّ»؛ لِأَنَّهُ لَا يُتَصَوَّر أَنْ يُكْذَب لَهُ لِنَهْيِهِ عَنْ مُطْلَق الْكَذِب. وَقَدْ اغْتَرَّ قَوْم مِنْ الْجَهَلَة فَوَضَعُوا أَحَادِيث فِي التَّرْغِيب وَالتَّرْهِيب وَقَالُوا: نَحْنُ لَمْ نَكْذِب عَلَيْهِ بَلْ فَعَلْنَا ذَلِكَ لِتَأْيِيدِ شَرِيعَته، وَمَا دَرَوْا أَنَّ تَقْوِيله صَلَّى اللَّه عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا لَمْ يَقُلْ يَقْتَضِي الْكَذِب عَلَى اللَّه تَعَالَى؛ لِأَنَّهُ إِثْبَات حُكْم مِنْ الْأَحْكَام الشَّرْعِيَّة سَوَاء كَانَ فِي الْإِيجَاب أَوْ النَّدْب، وَكَذَا مُقَابِلهمَا وَهُوَ الْحَرَام وَالْمَكْرُوه». (فتح الباري: ١/١٩٩).

وفي مسلم عن أبي سعيد الخدري رضي الله

عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ومن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار». (مسلم: ٣٠٠٤).

كما أخرج حديث علي تحت باب عنونه بقوله: «باب تغليظ الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم»، وقال النووي في شرحه: «وأما متن الحديث فهو حديث عظيم في نهاية الصحة، وقيل: إنه متواتر، ذكر أبو بكر البزار في مسنده أنه رواه عن النبي صلى الله عليه وسلم نحوًا من أربعين نفسًا من الصحابة رضي الله عنهم». (شرح النووي على مسلم ١/ ٦٨).

وقد عدَّ العلماء الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر، وذكره ابن حجر الهيتمي في كتابه الكبائر، الكبيرة التاسعة والأربعون، وقال: «ولا ريب أن تعمد الكذب على الله ورسوله في تحليل حرام أو تحريم حلال كفر محض» (الزواجر عن اقتراف الكبائر ص٩٠).

وعليه أقول لطالب العلم: احذر من الكذب على رسول الله صلى الله عليه وسلم؛ لأن الشيطان قد يزين ذلك لبعض الجهلة، ولا تذكر الحديث الموضوع إلا ببيان حاله. قال الإمام النووي: «الموضوع: هو المختلق المصنوع، وشر الضعيف، وتحرم روايته مع العلم به في أي معنى كان إلا مبينًا» (تدريب الراوي ١/ ٢٧٤).

وافتراء الكذب على الناس دليل على خِسَّة النفس ودناءتها، وهو أمارة من أمارات نفاق العبد؛ لحديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا ائتمن خان». (البخاري: ٣٣، ومسلم: ٥٩).

وبوَّب له البخاري بقوله: «باب علامة المنافق». قال ابن حجر رحمه الله: «ووجه الاقتصار على هذه العلامات الثلاث أنها مبنية على ما عداها؛ إذ أصل الديانة منحصر في ثلاث: القول، والفعل، والنية، فنبَّه على فساد القول بالكذب، وعلى فساد الفعل بالخيانة، وعلى فساد النية بالخُلف». (فتح الباري ١/ ٩٠).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن الصدق يهدي إلى الجنة، وأن الكذب يهدي إلى الفجور، كما في حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا». (البخاري: ٦٠٩٤، ومسلم ٢٦٠٧).

وفي الحديث حثٌّ على الصدق الذي يهدي إلى البر، وتحذير من الكذب الذي يهدي إلى الفجور. قال النووي: «قال العلماء: هذا فيه حثٌّ على تحري الصدق وهو قصده والاعتناء به، وعلى التحذير من الكذب والتساهل فيه، فإنه إذا تساهل فيه كثر منه حتى يعرف به، وكتبه الله لمبالغته صديقًا إن اعتاده، أو كذابًا إن اعتاده». (شرح النووي على مسلم ١٦/ ١٦٠).

فعلى الصادق في إيمانه، وطالب السلامة لقلبه أن يحذر مغبة الكذب؛ لأن عواقبه وخيمة وتضر بالنفس والدين، ومن عقوبة الكذب أن صاحبه يؤول أمره إلى ما جاء في الحديث، كما يحرم من هداية الله وتوفيقه، قال الله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ» (غافر:٢٨).

كما يحرم الكذاب من نظر الله إليه يوم القيامة وتكليمه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا ينظر إليهم: رجل حلف على سلعة لقد أعطي بها أكثر مما أعطي وهو كاذب». (البخاري: ٢٣٦٩).

كما أن الكذب يكون سببًا في نقصان الرزق ومحق البركة، كما في حديث حكيم بن حزام أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «البيِّعان بالخيار ما لم يتفرقا، فإن صدقا وبيَّنا بُورِكَ لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا مُحِقَتْ بركة بيعهما». (البخاري: ٢٠٧٩).

قال ابن حجر: «وفي الحديث أن الدنيا لا يتم حصولها إلا بالعمل الصالح، وأن شؤم المعاصي يذهب بخير الدنيا والآخرة». (فتح الباري ٤/ ٣١١).

أسأل الله تعالى أن يرزقنا الصدق في القول والعمل، وأن يجنبنا الفحش في القول وسوء العمل، والحمد لله رب العالمين.

شهر شعبان بين الاتباع والابتداع

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورًا، والصلاة والسلام على من كان لله عبدًا شكورًا، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن شهر شعبان من الأشهر التي كان يكثر النبي صلى الله عليه وسلم فيه من الصيام، وقد أدخل بعض الناس فيه أعمالاً مخصوصة لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فإني رأيت أن أبيِّن في هذا المقال ما كان يفعله النبي صلى الله عليه وسلم في شهر شعبان، وما أحدثه الناس فيه، فأقول وبالله التوفيق:

ثبت في بعض الأحاديث الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يكثر الصيام في شهر شعبان، كما في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَصُومُ حَتَّى نَقُولَ لَا يُفْطِرُ، وَيُفْطِرُ حَتَّى نَقُولَ لَا يَصُومُ، وَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اسْتَكْمَلَ صِيَامَ شَهْرٍ قَطُّ إِلَّا رَمَضَانَ، وَمَا رَأَيْتُهُ فِي شَهْرٍ أَكْثَرَ صِيَامًا مِنْهُ فِي شَعْبَانَ». (البخاري: ١٩٦٩، ومسلم: ١١٥٦).

فهذا الحديث دلَّ على أمرين: الأول: أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يصم شهرًا كاملاً إلا رمضان، والثاني: أنه كان يكثر الصيام في شعبان، وقد ذكر العلماء أقوالاً كثيرة في إكثار النبي صلى الله عليه وسلم من الصيام في شعبان.

وقد رجح ابن حجر رحمه الله أن العلة في ذلك مذكورة في حديث أسامة بن زيد رضي الله عنها، وفيه يقول: قلت: يا رسول الله، لم أرك تصوم من شهر من الشهور ما تصوم من شعبان. قال: «ذلك شهر يغفل الناس عنه بين رجب ورمضان». وهذا الحديث أخرجه النسائي وأبو داود، وصححه ابن خزيمة، وانظر: فتح الباري (٤/٢١٥).

وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «أَفْضَلُ الصِّيَامِ بَعْدَ رَمَضَانَ شَهْرُ اللَّهِ الْمُحَرَّمُ». وهذا الحديث فيه تصريح بأن أفضل الشهور للصوم بعد رمضان شهر الله المحرم، فكيف أكثر النبي صلى الله عليه وسلم من الصيام في شهر شعبان؟

وقد أجاب النووي رحمه الله على ذلك بقوله: «لعله لم يعلم فضل المحرم إلا في آخر حياته قبل التمكن من صومه، أو لعله كان يعرض فيه أعذار تمنع من إكثار الصوم فيه، كسفر ومرض وغيرهما، والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم كثيرًا في شعبان، كما

هو واضح من الحديث، وهذا هو الثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم، ولكنه لم يصمه ولا غيره كاملاً، كما يفعل بعض الناس اليوم، وقد أشارت أم المؤمنين عائشة في حديثها السابق إلى ذلك، وقد وردت أحاديث أخرى لم تصح في شهر شعبان، وأرى أن أشير إلى بعضها هنا، كحديث: «رجب شهر الله، وشعبان شهري، ورمضان شهر أمتي»، وقد حكم عليه ابن حجر بالوضع، انظر «تبيين العجب بما ورد في فضل رجب» (ص١١٣)، وذكره ابن الجوزي في «الموضوعات» (٢٠٥/٢).

وكحديث: «من صلى ليلة النصف من شعبان ثنتي عشرة ركعة يقرأ في كل ركعة: «قل هو الله أحد» ثلاثين مرة، لم يخرج حتى يرى مقعده من الجنة»، وقد ذكره ابن الجوزي في الموضوعات (٢٩/٢)، والسيوطي في اللالئ المصنوعة (٥٩/٢)، وحكما عليه بالوضع.

وقد ذهب بعض العلماء إلى تفضيل ليلة النصف من شعبان على غيرها من ليالي الشهر، وذكروا أنها الليلة التي نزل فيها القرآن، وهو قول مرجوح، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله الخلاف في ذلك، ثم قال: «الصواب في ذلك قول من قال: عُنِيَ بها ليلة القدر». (تفسير الطبري ٦٤/٢٥).

ومن المعلوم أن ليلة القدر في رمضان، وقد بيَّن الشيخ الشنقيطي رحمه الله ذلك عند تفسير قوله تعالى: «إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ» (الدخان:٣)، فقال: «وقد بيَّن الله تعالى أن هذه الليلة المباركة هي ليلة القدر، التي أنزل فيها القرآن من شهر رمضان، فدعوى أنها ليلة النصف من شعبان كما روي عن عكرمة وغيره، لا شك أنها دعوة باطلة؛ لمخالفتها النص القرآني الصريح، ولا شك كل ما خالف الحق فهو باطل، والأحاديث التي يوردها بعضهم في أنها من شعبان المخالفة لصريح القرآن لا أساس لها، ولا يصح سند شيء منها، كما جزم به ابن العربي، وغير واحد من المحققين، فالعجب كل العجب من مسلم يخالف نص القرآن الصريح، بلا مستند كتاب ولا سنة صحيحة». (أضواء البيان: ٣١٩/٧).

أحاديث غير صحيحة في فضل شعبان:

وقد وردت أحاديث في فضل ليلة النصف من شعبان لم تثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم، وذلك كحديث: «إذا كانت ليلة النصف من شعبان، فقوموا ليلها، وصوموا نهارها، فإن الله ينزل فيها لغروب الشمس إلى سماء الدنيا، فيقول: ألا من مستغفر لي فأغفر له، ألا مسترزق فأرزقه، ألا مبتلى فأعافيه، ألا كذا ألا كذا، حتى يطلع الفجر». (رواه ابن ماجه حديث: ١٣٨٨، وقال البوصيري في الزوائد: «إسناده ضعيف؛ لضعف ابن أبي سبرة، قال فيه أحمد بن حنبل وابن معين: يضع الحديث». سنن ابن ماجه (٤٤٤/١).

وكحديث: «إن الله ليطلع في ليلة النصف من شعبان، فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن». رواه ابن ماجه (١٣٩٠)، وقال البوصيري في الزوائد: إسناد ضعيف لضعف عبد الله بن لهيعة وتدليس الوليد بن مسلم، انظر: سنن ابن ماجه (٤٤٥/١)، وقد حسَّن بعض أهل العلم هذا الحديث، وعلى فرض تحسينه؛ فليس فيه دليل على تخصيص ليلة النصف من شعبان على غيرها بسبب ذلك، لما جاء في الصحيحين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «يَنْزِلُ رَبُّنَا تَبَارَكَ وَتَعَالَى كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا حِينَ يَبْقَى ثُلُثُ اللَّيْلِ الْآخِرُ يَقُولُ مَنْ يَدْعُونِي فَأَسْتَجِيبَ لَهُ مَنْ يَسْأَلُنِي فَأُعْطِيَهُ مَنْ يَسْتَغْفِرُنِي فَأَغْفِرَ لَهُ». (البخاري: ١١٤٥، ومسلم: ٧٥٨)، فاطلاعه سبحانه على خلقه في كل ليلة، وليس متوقفًا على ليلة معينة لتخص بالفضل دون غيرها، وقد صرح بعض أهل العلم بعدم تفضيلها على غيرها.

قال أبو شامة: «قال الحافظ أبو الخطاب بن دحية في كتاب ما جاء في شهر رمضان- قال أهل التعديل والتجريح: ليس في فضل ليلة النصف من شعبان حديث صحيح». (الباعث على إنكار البدع والحوادث ص٣٣).

وذكر ابن رجب عن بعض أهل العلم أن قيام ليلة

النصف من شعبان لم يثبت فيها شيء عن النبي صلى الله عليه وسلم ولا عن أصحابه، وثبت فيها عن طائفة من التابعين من أعيان فقهاء الشام». (لطائف المعارف ص٢٠٠).

وقال الشيخ علي محفوظ: «ومن البدع الفاشية في الناس: احتفال المسلمين في المساجد بإحياء ليلة النصف من شعبان بالصلاة والدعاء عقب صلاة المغرب يقرؤونه بأصوات مرتفعة بتلقين الإمام؛ فإن إحياءها بذلك على الهيئة المعروفة لم يكن في عهد رسول الله -صلوات الله وسلامه عليه- ولا في عهد الصحابة -رضوان الله عليهم أجمعين-».

وقال أيضاً: "وجملة القول أن كل الأحاديث الواردة في ليلة النصف من شعبان دائر أمرها بين الوضع والضعف وعدم الصحة». (الإبداع ص٢٨٦، ٢٨٧).

وقال الشيخ عبد العزيز بن باز: «وقد ورد في فضلها أحاديث ضعيفة لا يجوز الاعتماد عليها، وأما ما ورد في فضل الصلاة فيها؛ فكله موضوع كما نبَّه على ذلك كثير من أهل العلم». (التحذير من البدع ص١١).

وقد ذكر ابن رجب رحمه الله أن بعض التابعين هم أحدثوا تعظيم ليلة النصف من شعبان، وقد أنكر عليهم غيرهم ذلك، وهذا نص كلامه: «وليلة النصف من شعبان كان التابعون من أهل الشام كخالد بن معدان ومكحول ولقمان بن عامر وغيرهم يعظمونها ويجتهدون فيها في العبادة، وعنهم أخذ الناس فضلها وتعظيمها، وقد قيل أنه بلغهم في ذلك آثار إسرائيلية فلما اشتهر ذلك عنهم في البلدان اختلف الناس في ذلك؛ فمنهم من قبله منهم وافقهم على تعظيمها منهم طائفة من عباد أهل البصرة وغيرهم، وأنكر ذلك أكثر علماء الحجاز، منهم عطاء وابن أبي مليكة، ونقله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن فقهاء أهل المدينة، وهو قول أصحاب مالك وغيرهم وقالوا: ذلك كله بدعة». (لطائف المعارف ص١٩٩، ٢٠٠).

وهذا النص الواضح الصريح يبين لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه لم يخصوا ليلة النصف من شعبان بصلاة ولا يومها بصيام، ومن المعلوم أن العبادات توقيفية على الوحي الإلهي من كتاب وسنة، ولم يرد شيء من ذلك، فلا يجوز تخصيصها بعبادة، وقد ذكر ابن رجب رحمه الله - كما سبقت الإشارة إلى ذلك- أن بعض التابعين هم الذين اجتهدوا فيها ورأوا فيها فضلاً، وأن غيرهم خالفهم فيها، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، ولو كان لها فضل على غيرها لأرشدنا إلى ذلك نبينا صلى الله عليه وسلم، وعليه أقول: إن ما يفعله بعض الناس في هذه الليلة من الاجتماع في المساجد، والدعاء الذي يؤدونه ليلتها، كل هذا من البدع، ولم يثبت شيء من ذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، ومما أحدث الناس من بدع منكرة في ليلة النصف من شعبان ما يعرف بالصلاة الألفية، وأول من أحدثها رجل يعرف بابن أبي الحمراء من أهل نابلس، قام وصلاها في المسجد الأقصى، وكان ذلك في القرن الخامس الهجري، وسميت بالألفية لقراءة سورة الإخلاص فيها ألف مرة، وذلك في مائة ركعة، يقرأ في كل ركعة سورة الإخلاص عشر مرات. (انظر الحوادث والبدع للطرطوشي ص١٢١).

وقد رويت صفة هذه الصلاة، والأجر المترتب على أدائها من طرق كلها موضوعة، قال ابن الجوزي بعد أن ذكر حديثها: «هذا حديث لا نشك أنه موضوع، وجمهور رواته في الطرق الثلاثة مجاهيل وفيهم ضعفاء بمرة، والحديث محال قطعًا». (الموضوعات ٢/١٢٧).

وقال النووي رحمه الله: «الصلاة المعروفة بصلاة الرغائب وهي ثنتا عشرة ركعة تصلى بين المغرب والعشاء ليلة أول جمعة في رجب، وصلاة ليلة النصف من شعبان مائة ركعة، وهاتان الصلاتان بدعتان ومنكران قبيحان، ولا يغتر بذكرها في كتاب قوت القلوب وإحياء علوم الدين». (المجموع شرح المهذب ٤/٥٦).

وقال ابن تيمية: «وكذلك ما قَدْ أحدث الناس في ليلة النصف من الاجتماع العام للصلاة الألفية، فإن الحديث الوارد في الصلاة الألفية موضوع باتفاق أهل الحديث». (اقتضاء الصراط المستقيم ٢/٦٢٨).

وبناءً على ما سبق ذكره من أدلة وأقوال أهل العلم أدعو عموم المسلمين إلى الاقتصار على المشروع وعدم الزيادة في دين رب العالمين، والحمد لله رب العالمين.

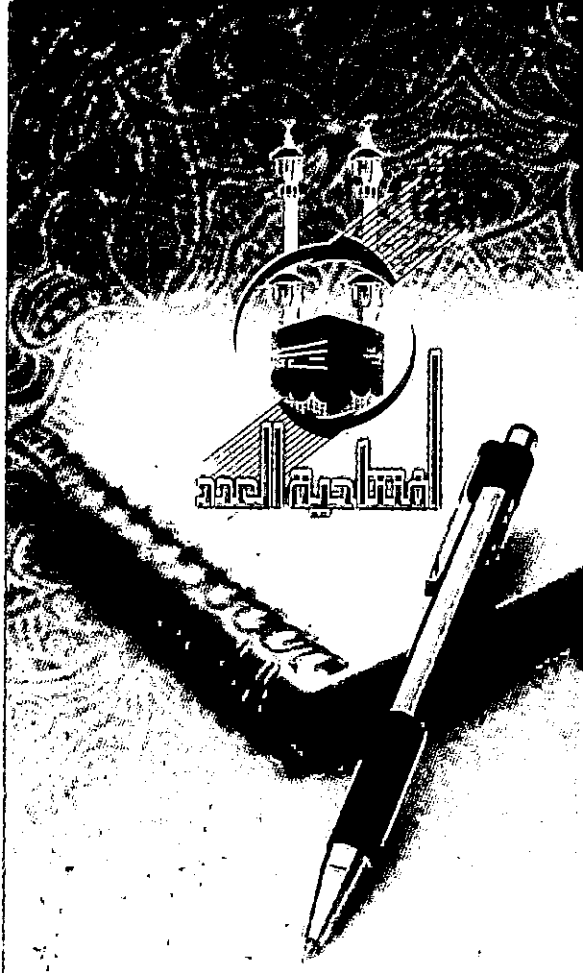

توجيه الأنظار إلى تزكية النفوس في رمضان

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعدُ: فإن الناظر في أحوال الناس اليوم يجد إقبالاً على الشهوات، بل إن البعض اعتادها وألفها، حتى ولو لم يجد لها لذة، ويأتي الصيام ليحرِّك الإيمان في القلوب، ويحجز صاحبه- بفضل الله- عن الانغماس في الشهوات، والإقبال على رب الأرض والسماوات، فتزكو نفسه وتتحقق التقوى، كما قال رب العالمين: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ » (البقرة: ١٨٣)، وبذلك تزكو النفس وتعلو، وتترفع عن المعاصي والذنوب التي تُدَنِّسُها، وهو أمرٌ مقصود من تشريع رب العالمين.

وقد أقسم الله بعدد من مخلوقاته الكبيرة الدالة على قدرته وعظمته في سورة الشمس، فقال سبحانه: «وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا» (الشمس: ١-٨)؛ ثم عقب على ذلك بذكر النفس المفلحة وغير المفلحة، فقال سبحانه: « قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا » (الشمس: ٩- ١٠)، وهذا خبرٌ من الله تعالى بفلاح مَن زكَّى نفسه واعتنى بها وسعى في إلزامها بالحق والسير عليه، قال ابن سعدي في قوله تعالى: «قد أفلح من زكاها»: «أي طهَّر نفسه من الذنوب، ونقَّاها من العيوب، ورقَّاها بطاعة الله، وعلَّاها بالعلم النافع والعمل الصالح». (تيسير الكريم الرحمن ٦٣٣/٧).

والعبد يحتاج إلى تزكية نفسه بطاعة الله تعالى والإقبال عليه، والترفع عما يسخطه- جل في علاه- يقول ابن تيمية رحمه الله: «فالقلب يحتاج أن يتربى فينمو ويزيد حتى يكمل ويصلح، كما يحتاج البدن إلى أن يربَّى بالأغذية المصلحة له، ولا بد مع ذلك من منع ما يضره، كذلك القلب لا يزكو فينمو ويتم صلاحه إلا بحصول ما ينفعه ودفع ما يضره». (مجموع الفتاوى ٩٦/١٠).

وقد كان الأنبياء والمرسلون يهتمون بتزكية النفوس وتطهيرها من أدران الشرك والذنوب، وقد أرسل الله موسى عليه السلام إلى فرعون ودعاه إلى تحقيق ذلك، فقال: «ٱذۡهَبۡ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ إِنَّهُۥ طَغَىٰ ۝١٧ فَقُلۡ هَل لَّكَ إِلَىٰٓ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهۡدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخۡشَىٰ» (النازعات: ١٧- ١٩)، والآيات تدل

على أن موسى عليه السلام طلب من فرعون أن يزكي نفسه، وذلك بترك الكفر الذي وقع فيه، والإقرار بالخالق المعبود. قال ابن جرير في معنى الآية: «هل لك إلى أن تتطهر من دَنَس الكفر وتؤمن بربك». ثم ساق بسنده إلى ابن زيد أنه قال: «هل لك إلى أن تُسلم»، والتزكي في القرآن كله: الإسلام، وقرأ قول الله تعالى: «وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُاْ مَن تَزَكَّىٰ » (طه:٧٦). قال: من أسلم. (انظر: تفسير الطبري ٣٠/٢٥).

وكانت تزكية النفوس من أولويات إنزال القرآن ودعوة النبي عليه الصلاة والسلام، وذلك بالحرص على تعليم الأمة القرآن وتربيتهم على العمل به، وهذا من أعظم منن الله على عباده، قال تعالى: «لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ » (آل عمران:١٦٤)، قال ابن كثير: «ويزكيهم» أي: يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر؛ لتزكو نفوسهم وتَطْهُرَ من الدنس والخبث الذي كانوا متلبسين به في حال شركهم وجاهليتهم، «ويعلمهم الكتاب والحكمة» يعني: القرآن والسنة، وإن كانوا من قبل، أي: من قبل هذا الرسول «لفي ضلال مبين» أي: لفي غيٍّ وجهل ظاهر. (تفسير ابن كثير ١/٥٨٢).

ويقول ابن القيم: «إن تزكية النفوس مُسَلَّم إلى الرسل، وإنما بعثهم الله لهذه التزكية وولاهم إياها، وجعلها على أيديهم، دعوةً وتعليمًا وبيانًا وإرشادًا، فهم المبعوثون لعلاج نفوس الأمم، فالرسل أطباء القلوب، فلا سبيل إلى تزكيتها وصلاحها إلا من طريقهم، وعلى أيديهم، وبمحض الانقياد والتسليم لهم». (مدارج السالكين ٢/٣٢٨).

وتزكية النفوس يكون بالعلم النافع والعمل الصالح، مع تحقيق التوحيد ومراقبة علام الغيوب.

قال ابن تيمية في قوله تعالى: «وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ۝٦ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ كَٰفِرُونَ » (فصلت:٦، ٧): «وهي التوحيد والإيمان الذي به يزكو القلب، فإنه يتضمن نفي إلهية ما سوى الحق من القلب، وهو حقيقة لا إله إلا الله، وهذا أصل ما تزكو به النفوس، والله تعالى بعث الرسل وأنزل الكتب ليقوم الناس بالقسط، وأعظم القسط عبادةُ الله وحده لا شريك له». (مجموع الفتاوى ١٠/٩٧).

ويذكر ابن القيم أن التوحيد وإثبات إلهية الله سبحانه أصل كل زكاة ونماء، والتزكية: جعل الشيء زكيًا، إما في ذاته، وإما في الاعتقاد والخبر عنه. (انظر إغاثة اللهفان ١/٥٦).

ويؤيد ذلك: حديث عَبْد اللَّه بْن مُعَاوِيَة الْغَاضِرِيّ- مِنْ غَاضِرَة قَيْس - قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم: «ثَلَاثٌ مَنْ فَعَلَهُنَّ فَقَدْ طَعِمَ طَعْمَ الإِيمَانِ: مَنْ عَبَدَ اللَّه وَحْدَهُ، وَأَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّه، وَأَعْطَى زَكَاةَ مَالِه طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ رَافِدَةً عَلَيْهِ كُلَّ عَامٍ». (انظر: صحيح سنن أبي داود ١/٢٩٨).

وزاد الطبراني في المعجم الصغير والبيهقي في السنن: «وزكى نفسه، فقال رجل: وما تزكية النفس؟ فقال: أن يعلم أن الله معه حيث كان». قال الألباني: «هذا إسناد صحيح، وأخرجه البخاري في تاريخه». (السلسلة الصحيحة ٣/٣٨)، وقد ذكر الجزء الأخير من الحديث الذهبيُّ في كتابه العلو للعلي الغفار، وعقّب عليه بقول محمد بن يحيى الذهلي: «يريد أن الله علمه محيط بكل مكان، والله على العرش». (انظر مختصر العلو ص٢٠١).

قلتُ: هذا من فقهه رحمه الله وعنايته بأمور العقيدة، حتى لا تلتبس على الأمة، وقد أثنى الله تبارك وتعالى على مَن سعى في تزكية نفسه وأشاد به، وذمَّ من استغنى عن الإيمان بالله، والتصديق بمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما ذكر القرآن عن ابن أم مكتوم في قوله: «عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝٣ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝٤ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝٥ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ» (عبس:١-٦)، والآيات في جملتها ثناء على عبد الله بن أم مكتوم لحرصه على إتيان النبي صلى الله عليه وسلم ليتلقى عنه

الإيمان، فتزكو نفسه وتتطهر، وهذا أمر واجب على كل مسلم، وقد أخبر القرآن الكريم أن العبد إذا زكى نفسه رجع ذلك عليه بالخير والنفع في الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: «وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَن تَزَكَّىٰ فَإِنَّمَا يَتَزَكَّىٰ لِنَفْسِهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ» (فاطر:١٨).

فاحرصوا عباد الله على نجاة أنفسكم بتزكيتها على الدوام، وخاصة في شهر رمضان، فهو شهر تزيد فيه الطاعات، وتتضاعف الحسنات، وتغفر الذنوب والسيئات، وها نحن نعيش أيامه ولياليه، وهو فرصة عظيمة لمن أراد تزكية نفسه، وقد تفضل الله فيه على عباده ففتح لهم أبواب الجنان، وأغلق أبواب النيران، وناداهم بالإقبال على الطاعة، وترك المعصية، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا كان أول ليلة من شهر رمضان، صُفِّدت الشياطين ومردة الجن، وغُلقت أبواب النيران فلم يُفتح منها باب، وفُتحت أبواب الجنة فلم يغلق منها باب، وينادي منادٍ يا باغي الخير أقبل، ويا باغي الشر أقصر، ولله عتقاء من النار، وذلك كل ليلة». (صحيح سنن الترمذي ١/٢٠٩).

وهذا الحديث يفتح أبواب الرجاء للطامعين في عفو رب العباد، وقد أعانهم الله على ذلك فحبَس عنهم عدوَّهم؛ لينشطوا في الخير، ويكفّوا عن الشر، فتزكو نفوسهم وتتطهر بألوان الطاعات والعبادات.

وسائل تزكية النفس في رمضان:

ووسائل تزكية النفس في رمضان كثيرة، وسأشير هنا إلى أهمها، وقد سبق أن قلت: إن على رأس الأمور المزكية للنفس: إفراد الله بالعبادة وتحقيق التوحيد، فليكن هذا الأمر منك على ذكر لأهميته.

ويأتي بعد التوحيد: المحافظة والمسارعة إلى الإتيان بالفرائض، مع الإكثار من النوافل، وقد طلب رب العباد ذلك من عباده، كما جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال: من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورِجْله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته». (البخاري: ٦٥٠٢).

وظاهر الحديث أن الفرائض أحب الأعمال إلى الله، والإتيان بها مع كثرة النوافل ينال العبد بهما محبة الله، قال الفاكهاني: «معنى الحديث أنه إذا أدى الفرائض وداوم على إتيان النوافل من صلاة وصيام وغيرهما أفضى به ذلك إلى محبة الله تعالى». (فتح الباري ١١/٣٤٣).

وتأتي على رأس الفرائض الصلاة، وهي خمس في الفعل وخمسون في الميزان- بفضل الله تعالى- وقد حثَّ النبي صلى الله عليه وسلم إلى النوافل، وهي كثيرة، منها: ما يُعرف بالسنن الراتبة، وهي تابعة لبعض الصلوات، وفي شهر رمضان يُسنُّ قيام الليل، وهو وإن كان مشروعًا على مدار العام إلا أنه يتأكد في رمضان، وله مزية واعتبار؛ لقول النبي صلى الله عليه وسلم: «من قام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفر له ما تقدم من ذنبه». (متفق عليه).

ونحن الآن في شهر رمضان وقد فرض الله صيامه بنص القرآن، ورتَّب على ذلك الأجر العظيم، كما في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من صام رمضان إيمانًا واحتسابًا غُفِرَ له ما تقدم من ذنبه».

والأعمال المشروعة في رمضان التي تتطهر بها النفس وتزكو كثيرة منها: قراءة القرآن وتدبره، والصدقة، والاعتكاف، ومخالفة النفس والهوى، ولزوم الاستغفار، والتحلي بالأخلاق الفاضلة.

وختامًا أقول: تضرعوا إلى الله بهذا الدعاء، وهو من الأدعية النبوية: «اللهم آتِ نفس تقواها، وزكها أنت خير من زكاها، أنت وليها ومولاها». (مسلم: ٢٧٢٢). أسأل الله تعالى أن يغفر لنا ما سلف وكان، وأن يرزقنا التقوى وزكاة النفس على الدوام.

والحمد لله رب العالمين.

أهمية المحافظة على الطاعات

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، كما يحب ربنا ويرضى، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبدُه ورسوله صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فها نحن نودِّع شهر رمضان المبارك الذي جعل الله صيامه أحدَ أركان الإسلام، وقيامه مكفرًا للذنوب والآثام، وقد أقبلت فيه القلوب على الله بالطاعة والعبادة، وهذه نعمة من الله على عباده أن هيَّأ لهم المناسبات الفاضلة التي تُحَرِّك في العبد إيمانه، فيزيد في الطاعة، ويقصر عن المعصية، وقد انتهى رمضان، وفيه قدَّم كلٌ منا لربه ما أعانه الله عليه ووفقه إليه، وهو شاهدٌ لنا أو علينا بما أودعناه فيه، ولذلك وجب على العبد أن يحاسب نفسه على ما قدم فيه، وهل كان للأعمال الصالحة التي قدَّمها أثرٌ على نفسه في القول والعمل والسلوك؟

وعلى كل حال: فالعبد مُطالَب بالأخذ بأسباب القبول على الدوام، والمحافظة والاستمرار على الطاعة بعد رمضان، ويسأل الله التوفيق والقبول، وليحرص كحرص الصحابة- رضوان الله عليهم أجمعين- على قبول العمل ويخشى ألا يتقبل الله منه، قال الله تبارك وتعالى فيهم: « وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَٰجِعُونَ ﴿٦٠﴾ أُوْلَٰٓئِكَ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَهُمْ لَهَا سَٰبِقُونَ » (المؤمنون: ٦٠، ٦١)، وقد بينت هاتان الآيتان أن الذين يسارعون في الخيرات يقومون بحق الله فيما أمرهم به، ومع ذلك يخافون من الخلل والتقصير فيها ألا تقبل.

وفي مسند أحمد وسنن الترمذي وغيرهما أن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: يا رسول الله، « وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ» (المؤمنون: ٦٠) هم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: لا، يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا تقبل منهم. وقد صححه الألباني لطرقه كما في الصحيحة (١/٢٥٥).

وقال في تعليقه على الحديث: «والسر في خوف المؤمنين ألا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم ألا يوفيهم الله أجورهم، فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله تعالى: « فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ » (النساء: ١٧٣)، بل إنه ليزيدهم عليها، كما

قال: «ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله»، والله تعالى «لا يُخلف وعده»، وإنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة كما أمر الله عز وجل، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون ألا تقبل منهم، فليتأمل المؤمن هذا؛ عسى أن يزداد حرصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها، واتباع نبيه صلى الله عليه وسلم في هديه. (المرجع السابق).

وعليه، فإني أذكر نفسي وإخواني بضرورة الإحسان في العبادة، والمحافظة على الأعمال الصالحة، لنحفظ بذلك نعم الله المتواصلة، ونداوم عليها، فإن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب المداومة على العمل، كما في البخاري من حديث مسروق قال: سألت عائشة رضي الله عنها: أي العمل كان أحب إلى النبي صلى الله عليه وسلم؟ قالت: «الدائم». قال ابن حجر: «وفي هذا الحديث الحثُّ على المداومة على العمل وإن قلَّ، وفيه الاقتصاد في العبادة وترك التعمق فيها؛ لأن ذلك أنشط، والقلب به أشد انشراحًا». (فتح الباري ٣/١٨).

وقد عقد الإمام البخاري في صحيحه بابًا قال فيه: «باب أحب الدين إلى الله أدومه»، ثم ساق حديث عائشة وفيه: «وكان أحب الدين إلى الله أدومه»، قال ابن حجر في شرحه: «مراد المصنف الاستدلال على أن الإيمان يُطلق على الأعمال؛ لأن المراد بالدين هنا العمل، والدين الحقيقي: هو الإسلام، والإسلام الحقيقي مرادف للإيمان، فيصح بهذا مقصوده». (فتح الباري ١/١٠١).

ونقل ابن حجر عن ابن الجوزي أنه قال: «إنما أحب الدائم لمعنيين؛ أحدهما: أن التارك للعمل بعد الدخول فيه كالمُعرِض بعد الوصول، فهو متعرض للذم، ولهذا ورد الوعيد في حق من حفظ آية ثم نسيها، وإن كان قبل حفظها لا يتعين عليه، ثانيها: أن مداوم الخير ملازم للخدمة، وليس من لازم الباب في كل يوم وقتًا ما، كمن لازم يومًا كاملاً ثم انقطع». (المرجع السابق ١/١٠٣).

وقال النووي رحمه الله: «وفيه الحث على المداومة على العمل، وأن قليله الدائم خيرٌ من كثير ينقطع، وإنما كان القليل الدائم خيرًا من الكثير المنقطع؛ لأن بدوام القليل تدوم الطاعة والذكر والمراقبة والنية والإخلاص، والإقبال على الخالق سبحانه وتعالى، ويثمر القليل الدائم بحيث يزيد على الكثير المنقطع أضعافًا كثيرة». (شرح النووي على صحيح مسلم ٦/٧١).

وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في كتابه التهجد من صحيحه بعض الأبواب الدالة على المداومة على العمل وفضل قيام الليل، وكأنه يشير إلى الذين تهجدوا في رمضان وقرؤوا القرآن في القيام أن يستمروا على ذلك طوال العام. انظر مثلاً: باب التهجد بالليل، وباب فضل قيام الليل، وباب قيام النبي صلى الله عليه وسلم بالليل حتى ترم قدماه، وباب ما يُكره من ترك قيام الليل لمن يقومه.

وعلى المؤمن أن يغتنم حياته ويسارع إلى رضوان ربه في ليله ونهاره، فلا يضيع وقتًا من غير طاعة، والله تبارك وتعالى لم يجعل لعمل المؤمن أجلاً دون الموت، قال الله تعالى: «وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ» (الحجر: ٩٩)، والمراد باليقين هنا: الموت، وهو ما ذهب إليه المحققون من أهل العلم، وقد ذكر البخاري عن سالم بن عبد الله أنه فسَّر اليقين هنا بالموت. (انظر: فتح الباري ٨/٣٨٣).

ونقله عنه ابن كثير وقال عقبه: «وهكذا قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وغيره، والدليل على ذلك قوله تعالى إخبارًا عن أهل النار أنهم قالوا: «وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٤٦ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ» (المدثر: ٤٦-٤٧)، وفي الصحيح عن أم العلاء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما دخل على عثمان بن مظعون وقد مات، قالت أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك

الله، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وما يدريك أن الله أكرمه؟» فقلت: بأبي وأمي يا رسول الله، فمن؟ فقال: «أما هو فقد جاءه اليقين، واني لأرجو له الخير».

ويستدل من هذه الآية الكريمة وهي: « وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ » (الحجر: ٩٩)، على أن العبادة كالصلاة ونحوها واجبة على الإنسان ما دام عقله ثابتًا فيصلي بحسب حاله، ويستدل بها على تخطئة من ذهب من الملاحدة إلى أن المراد باليقين المعرفة، فمتى وصل أحدهم إلى المعرفة سقط عنه التكليف عندهم، وهذا كفرٌ وضلال وجهل، فإن الأنبياء عليهم السلام كانوا هم وأصحابهم أعلم الناس بالله وأعرفهم بحقوقه وصفاته، وما يستحق من التعظيم، وكانوا مع هذا أعبد وأكثر الناس عبادة ومواظبة على فعل الخيرات إلى حين الوفاة، وإنما المراد باليقين هنا: الموت، كما قدمناه، ولله الحمد والمنة، والحمد لله على الهداية، وعليه الاستعانة والتوكل، وهو المسئول أن يتوفانا على أكمل الأحوال وأحسنها، فإنه جواد كريم». (تفسير ابن كثير ٧٥٧/٢).

وأقول: نعم، الحمد لله على الهداية في البداية والنهاية، ورحم الله الإمام الحافظ ابن كثير الذي أبان عن معنى هذه الآية، وردَّ على المبتدعة المحرفين للكلم عن موضعه، الزاعمين أن بعض العباد- بحجة الولاية- إذا وصلوا إلى المعرفة القلبية سقطت عنهم التكاليف؛ لأن ذلك اليقين هو غاية الأمر بالعبادة، وهذا ضلال مبين، وخروج على دين رب العالمين، وهذه الطائفة وُجِدَتْ قبل ابن كثير وكانت في زمنه، وما زالت حتى يوم الناس هذا، وقد ردَّ أئمتنا عليهم بكلام يطول، وأكتفي بكلام العلامة ابن كثير، لأنه متقدم وغير مُتَّهَم ببدعة، والجميع- إلا من زاغ عن الحق- يُسلِّم بإمامته وفقهه، وقد ردَّ على هؤلاء بما يكفي ويشفي- رحمه الله تعالى-.

وليحذر العبد من الغفلة والانتكاسة، فيترك الطاعة والعبادة، ويغير حاله من الطاعة إلى المعصية، ومن غَيَّر غُيِّرَ عليه، كما قال الله تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ» (الرعد: ١١)، وفي هذه الآية وعيدٌ شديدٌ لمن انحرف عن الدين، وخرج عن الاستقامة والطاعة بأن يبدل الله حاله، وينزل به بأسه، ويكون العبد بما قدمت يداه سببًا في ذلك.

قال القاسمي رحمه الله: «إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ» (الرعد: ١١) أي: من العافية والنعمة، «حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ» (الرعد: ١١)، أي: من الأعمال الصالحة أو ملكاتها، التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها». (تفسير القاسمي ٣٦٥٥/٩).

وقد ضرب الله مثلاً سيئًا لمن نقض عهده مع ربه وخالف أمره، فقال تعالى: « وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّتِي نَقَضَتۡ غَزۡلَهَا مِنۢ بَعۡدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيۡمَٰنَكُمۡ دَخَلَۢا بَيۡنَكُمۡ » (النحل: ٩٢)، قال البغوي رحمه الله: «هي امرأة خرقاء حمقاء كانت تغزل الغزل من الصوف والشعر والوبر، وتأمر جواريها بذلك، فكن يغزلن من الغداة إلى نصف النهار، فإذا انتصف النهار أمرتهن بنقض جميع ما غزلت، فهذا كان رأيها، ومعناه: أنها لم تكف عن العمل ولا حين عملت كفت عن النقض». (تفسير البغوي ٨٢/٣).

ولا شك أن الذي ينقض عهده ويخالف وعده ظالمٌ جاهل سفيه، ولحرص الإسلام على مواصلة الطاعة بمثلها ندَب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى صيام ستة أيام من شوال ورتب على ذلك الأجر العظيم، كما في حديث أبي أيوب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من صام رمضان، ثم أتبعه ستًا من شوال، كان كصيام الدهر». (مسلم: ١١٦٤).

والعبد مخيَّر في صيامها خلال الشهر، وأما ما اشتهر بين العامة بعيد الأبرار لمن صام الست من شوال، فلا أصل له، وقد أنكره جمعٌ من الأئمة. قال ابن تيمية: «أما ثامن شوال فليس عيدًا، لا للأبرار ولا للفجار، ولا يجوز لأحد أن يعتقده عيدًا، ولا يُحدث فيه شيئًا من شعائر الأعياد». (الاختيارات الفقهية ص١٨٨).

وختامًا أقول لأهل الإيمان: لا تبطلوا أعمالكم بما لا يرضي ربكم، وتنافسوا في الصالحات، وحافظوا على ما كسبتم وقدمتم من الطاعات. تقبل الله طاعتكم، والحمد لله رب العالمين.

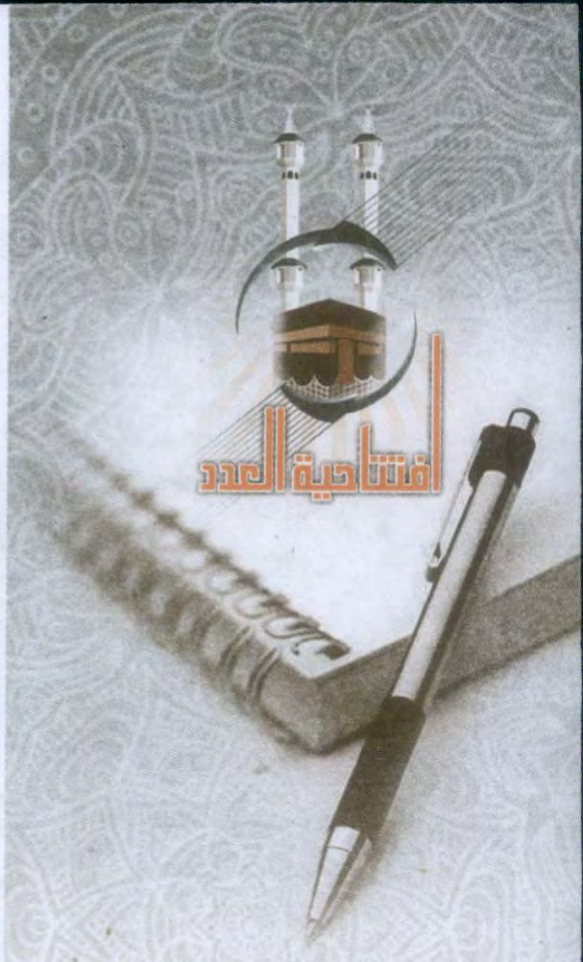

من مقاصد الحج ومنافعه

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي فرض على عباده حج بيته الحرام، وجعل قصده مكفرًا للذنوب والآثام، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، اللهم صل عليه وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد فرض الله الحج على عباده المؤمنين، وجعله موسمًا يتقربون فيه إلى ربهم، ويطلبون منه حاجاتهم، ويلجأون إليه في سائر أمورهم، وأخبر نبيه الأمين صلى الله عليه وسلم أنه من أحب الأعمال إلى الله، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: سُئل رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أي الأعمال أفضل؟ قال: إيمان بالله، قال: ثم ماذا؟ قال: الجهاد في سبيل الله، قال: ثم ماذا؟ قال: حج مبرور». (البخاري: ٢٦، ومسلم: ٨٣).

وهذه الشعيرة العظيمة التي يعظم المتلبس بها ربه ومولاه، تشتمل على فوائد عظيمة، ومقاصد جليلة، يجب على قاصدي البيت العتيق معرفتها، ليتحقق لهم ما أرادوه، ويرجعوا من حجهم بأجر وغنيمة، ومن مقاصد الحج ما يلي:

١- تحقيق التوحيد:

إنَّ التوحيد هو الأصل الذي من أجله شُرِعَتْ العبادات، وما بُنِيَ البيت العتيق إلا لتحقيق التوحيد، وما خلق الله الخلق إلا ليعبدوه وحده دون سواه، قال الله تعالى: «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ» (الذاريات:٥٦)، فهو الإله المعبود الذي لا ندَّ ولا شبيه ولا مثيل له، وهو الذي يعطي ويمنع، وينفع ويضر، ويقضي الحاجات ويستجيب الدعوات، وعندما هيَّأ الله لإبراهيم عليه السلام مكان البيت وأعلمه به نهاه عن الشرك، وأن يهيئه للعابدين القاصدين وجه الله، قال الله تعالى: «وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ» (الحج: ٢٦).

ومعنى الآية: لا تشرك بي شيئًا من الشركاء كائنًا ما كان، وقد ذكر ابن حجر بإسناده عن مجاهد في قوله تعالى: «وَطَهِّرْ بَيْتِيَ» (الحج:٢٦)، قال: من الشرك، كما ذكر عن عبيد بن عمير أنه قال: «من الأفات والريب». (انظر تفسيره: ١٠٦/١٧).

وقال ابن كثير: «هذا فيه تقريع وتوبيخ لمن عبَد غير

الله؛ وأشرك به من قريش، في البقعة التي أسست من أول يوم على توحيد الله وعبادته وحده لا شريك له، وقوله: «لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ » (الحج:٢٦)، أي: اجعله خالصًا لهؤلاء الذين يعبدون الله وحده لا شريك له، فالطائف به معروف، وهو أخص العبادات عند البيت، فإنه لا يفعل ببقعة من الأرض سواها». (تفسير ابن كثير ٣/٢٩٨).

وهو بهذا ينص على أنه يحرم الطواف بغير الكعبة، والله عز وجل لم يشرعه إلا عندها فحسب، وكان النبي صلى الله عليه وسلم يظهر التوحيد في الحج في أسمى معانيه ويعلمه لأصحابه، وصيغة التلبية تشعر بذلك: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك». (البخاري: ١٥٤٩، ومسلم: ٢٨١١).

ويلاحظ فيها نفي الشريك عن الله، وإثبات العبادات لرب الأرض والسماوات. قال الشيخ عبد المحسن العباد-حفظه الله-: «وقد اشتملت تلبية رسول الله صلى الله عليه وسلم على إثبات التوحيد والبراءة من الشرك، وهو مقتضى كلمة الإخلاص (لا إله إلا الله)، فإن قوله: «لبيك اللهم لبيك» بمعنى (إلا الله)، وقوله: «لا شريك لك» بمعنى (لا إله)، والحج كغيره من العبادات يجب أداؤه خالصًا لوجهه وأن يكون مطابقًا لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم والإخلاص والمتابعة شرطا قبول العمل، واشتملت التلبية أيضًا على تعظيم الله والثناء عليه، وأنه سبحانه وتعالى مالك الملك المتفضل بالنعم المستحق للحمد والثناء، وأما تلبية المشركين فهي مشتملة على نقض التوحيد بالشرك؛ إذ يقولون في تلبيتهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكًا هو لك»». (انظر: تبصير الناسك بأحكام المناسك: ص٩٠، ٩١.) وكان أكثر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم يوم عرفة: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»؛ كما في حديث طلحة بن عبيد الله بن كريز أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أفضل الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيون من قبلي لا إله إلا الله وحده لا شريك له». (أخرجه مالك في الموطأ/١٠٥).

وهذا يدل على أن دعاء الله بالتوحيد أكثر صوابًا، وأقرب إجابة وأنفع للعبد، قال ابن عبد البر: «وفيه تفضيل الدعاء بعضه على بعض، والأيام بعضها على بعض، وأن ذلك أفضل الذكر؛ لأنها كلمة الإسلام والتقوى، وقال آخرون: أفضله: الحمد لله رب العالمين، لأن فيه معنى الشكر، وفيه من الإخلاص ما في لا إله إلا الله». (شرح الزرقاني على الموطأ ٢/٣٨).

ولذلك فإن التوحيد يزيد رسوخًا في قلب الحاجّ، ويعلن براءته من الشرك الذي بُعِثَ لحربه النبي صلى الله عليه وسلم وغيره ممن تقدَّمه من الأنبياء والمرسلين، وعلى رأسهم خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام الذي قال الله فيه: « إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ » (النحل:١٢٠)، والحاج وهو ينتقل من منسك إلى آخر لا يعبد إلا الله وحده مع التسليم لله تعالى في كل ما يقوم به، فهو يرمي الجمرات ويقبل الحجر الأسود طاعة وعبودية لله، ويبيت بالمزدلفة ومنى استجابة وخضوعًا لله، وهذه من مظاهر العبودية التي يتقرب العبد بها إلى مولاه، ولا يجوز أن يقدمها لسواه.

ومن هنا أقول لكل من قصد البيت الحرام: يجب أن تكون جميع أعمالك خالصة لله، وأن تسلم من الرياء والسمعة لتنال القبول، واحذر مما ينافي التوحيد حتى لا تبطل عملك، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، مَن عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه». (مسلم: ٢٩٨٥).

والحديث يفيد أن عمل المرائي باطل ولا ثواب له فيه.

٢ - الحج يعمق في النفوس قاعدة: توحيد مصدر التلقي:

أهل السنة والجماعة يعظمون النصوص ويتقيدون بها ولا يخرجون عنها، وعندهم أن الدين كله مصدره الوحي الإلهي قرآنًا كان أو سنة صحيحة، وجميع ما تعبَّدنا الله به في هذين الأصلين، ولا يجوز للمسلم أن يخرج عنها، أو أن يتردد بين المذاهب المختلفة ويأخذ منها ما يراه، وإنما يلتزم بالشرع المنزَّه عن الأباطيل، وجميع أعمال الحج قائمة على التسليم فيها للخبر الوارد في الشرع، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وهو يحجّ بأصحابه يربيهم على ذلك، ومن ذلك قوله لهم كما في حديث جابر: «لتأخذوا مناسككم فإني لا أدري لعلي لا أحج بعد حجتي هذه». (مسلم: ١٢٩٧).

قال النووي رحمه الله: «هذه اللام لام الأمر، ومعناه: خذوا مناسككم، وهكذا وقع في رواية غير مسلم، وتقديره: هذه الأمور التي أتيت بها في حجتي من الأقوال والأفعال والهيئات هي أمور الحج وصفته، وهي مناسككم فخذوها عني واقبلوها واحفظوها، واعملوا بها وعلموها الناس، وهذا الحديث أصلٌ عظيم في مناسك الحج». (شرح النووي على مسلم: ٩/ ٤٥).

٣ - الحج ووحدة المسلمين:

إن من أبرز منافع الحج اجتماع المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها حول بيت الله الحرام؛ حيث يلتقي هناك الأبيض والأسود، والغني والفقير، والحاكم والمحكوم متجردين من كل زينة، وفي هذا مظهر عظيم من مظاهر اجتماع الأمة ووحدتها، وقوتها وتلاحمها، وهناك يزدادون تعارفًا وتآلفًا، ويؤكدون على ما بينهم من تراحم ومودة، وتزداد أواصر المحبة بينهم، ويتعاونون على البر والتقوى والمعروف والعمل الصالح، مستجيبين لقول ربهم: «وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ» (المائدة:٢)، ومعتبرين بقوله سبحانه: «وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ» (المؤمنون:٥٢)، ومن شاهد هذه المواقف يلمس بوضوح ما يكون بين الحجاج من أخوة ومحبة وتلاحم، ويلاحظ كيف يناقشون قضاياهم ويوحّدون كلمتهم ويلمّون شملهم، ولا توجد فريضة يجتمع فيها المسلمون بهذا العدد كفريضة الحج.

٤ - ربط حاضر الأمة بماضيها:

إن المسلم حين يأتي إلى البيت العتيق، ويذهب إلى منى وعرفات يتذكر مَن سبقه إلى هذه الأماكن، فيذكر بناء البيت، وخليل الرحمن الذي أذّن بأمر الله في الناس بالحج، يتذكر رجالاً دعوا إلى توحيد الله وإقامة شرعه من سائر الأنبياء والمرسلين، واتباع هذا النبي الأمين صلى الله عليه وسلم يتذكر كل ذلك، فيدفعه إلى السير في هذا الموكب الإيماني الذي يضرب بجذوره في أعماق التاريخ، ويحث على المحافظة على توحيد رب العالمين الذي هو في الأصل دعوة الأنبياء والمرسلين.

٥ - الحج يذكّر العبد باليوم الآخر:

إن الذي يتأمل أعمال الحج يجد أنها تربط العبد وتذكّره بالمصير الذي سيؤول إليه كل حي، فهو عندما يودّع أهله لسفر ويترك وطنه يتذكر رحيله من الدنيا بالكلية إلى الدار الآخرة، وعندما يخلع ملابسه الذي اعتادها وألفها ليلبس ملابس الإحرام يتذكر اليوم الذي سيجرّده فيه غيره من ملابسه ليكفّنه في قماش أبيض ليوضع بعد ذلك في قبره، وعندما يلتقي بجموع الحج حول الكعبة، وفي عرفة ومزدلفة ورمي الجمار يتذكر الموقف العصيب الذي يجمع فيه رب العالمين الأولين والآخرين لفصل القضاء والحساب، كل هذه المواقف يجب أن يتذكر بها العبد اليوم الذي سيرحل فيه ويلقى ربه، فيستقيم سلوكه ويستعد للقاء ربه.

أسأل الله تبارك وتعالى أن يتقبل من الحجاج حجهم، وأن يُسَلِّمهم في جميع أعمالهم، وأن يردهم إلى بلادهم سالمين غانمين، وأن يرزقنا الحج والعمرة والوفاة على الإيمان، وصلّ اللهم وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين.

أهمية صلاح القلب وسلامته

بقلم/ الرئيس العام
د/ عبدالله شاكر الجنيدي
www.sonna_banha.com

الحمد لله الذي حبَّب الإيمان، وزيَّنه في قلوب الصادقين، والصلاة والسلام على إمام المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن أصل الخير صلاح القلوب وحصول هدايتها وزكائها، ولذلك فإنه يجب على كل صادق في إيمانه أن يعتني بصلاح قلبه الذي هو ملك الأعضاء وأساس تصرفاتها، فمن استقام قلبه استقامت جوارحه، كما في حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما مرفوعاً قال: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ، وَبَيْنَهُمَا مُشَبَّهَاتٌ لَا يَعْلَمُهَا كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ، فَمَنْ اتَّقَى الْمُشَبَّهَاتِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ كَرَاعٍ يَرْعَى حَوْلَ الْحِمَى، يُوشِكُ أَنْ يُوَاقِعَهُ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ مَلِكٍ حِمًى أَلَا إِنَّ حِمَى اللَّهِ فِي أَرْضِهِ مَحَارِمُهُ، أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ». (البخاري: ٥٢، ومسلم: ١٥٩٩).

وقد أفاد الحديث أهمية صلاح القلب، وأن صلاح الجسد كله متوقف على صلاحه، ويفهم منه أيضا التأكيد على ضرورة السعي في إصلاح القلب، والعمل على حمايته من الفساد، وأن هذا من المهمات.

قال ابن حجر في شرحه للحديث: «وخصَّ القلب بذلك؛ لأنه أمير البدن، وبصلاح الأمير تصلح الرعية، وفيه تنبيهٌ على تعظيم قدر القلب، والحث على صلاحه، والإشارة إلى أن ليطيب الكسب أثرًا فيه... وقد عظَّم العلماء أمر هذا الحديث فعدُّوه رابع أربعة تدور عليها الأحكام، كما نقل عن أبي داود». (فتح الباري ١/١٢٨).

وعليه أقول: من أراد صلاح وقبول أعماله الظاهرة فعليه بإصلاح ما في باطنه وهو القلب، لأنه الأصل في ذلك. يقول ابن تيمية: «ثم القلب هو الأصل، فإذا كان فيه معرفة سرى ذلك إلى البدن بالضرورة، لا يمكن أن يتخلف البدن عما يريده القلب، وقال أبو هريرة: القلب ملك والأعضاء جنوده، فإذا طاب الملك طابت جنوده، وإذا خبث الملك خبثت جنوده، فإذا كان القلب صالحًا بما فيه من الإيمان علمًا وعملاً قلبيًا، لزم ضرورة صلاح الجسد بالقول الظاهر والعمل بالإيمان المطلق، كما قال أئمة أهل الحديث: قول وعمل، قول باطن وظاهر، وعمل باطن وظاهر، والظاهر

تابع للباطن لازم له، متى صلح الباطن صلح الظاهر، وإذا فسَد فسد». (مجموع الفتاوى ١٨٧/٧).

والعبد إذا وقف بين يدي ربه لن ينفعه إلا قلبه السليم، كما قال تعالى: «يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ» (الشعراء: ٨٨- ٨٩)، وقد ذكر ابن الجوزي أقوال العلماء في القلب السليم، ومنها: أنه سليم من الشرك وسليم من الشك، أو سليم بمعنى صحيح، وهو قلب المؤمن، لأن قلب الكافر والمنافق مريض، أو أنه سليم من البدعة، مطمئن على السنة. (انظر: زاد المسير ١٣٠/٦).

وللإمام ابن القيم كلام نفيس يحتاج كل مسلم إليه، يقول فيه: «والقلب السليم الذي ينجو من عذاب الله هو القلب الذي قد سلم من هذا وهذا؛ فهو القلب الذي قد سلم لربه وسلم لأمره، ولم تبق فيه منازعة لأمره ولا معارضة لخبره؛ فهو سليم مما سوى الله وأمره، لا يريد إلا الله، ولا يفعل إلا ما أمره الله؛ فالله وحده غايته، وأمره وشرعه وسيلته وطريقته، لا تعترضه شبهة تحول بينه وبين تصديق خبره، لكن لا تمر عليه إلا وهي مجتازة تعلم أنه لا قرار لها فيه، ولا شهوة تحول بينه وبين متابعة رضاه، ومتى كان القلب كذلك فهو سليم من الشرك، وسليم من البدع، وسليم من الغيّ، وسليم من الباطل، وكل الأقوال التي قيلت في تفسيره فذلك يتضمنها، وحقيقته أنه القلب الذي قد سلم لعبودية ربه حياءً وخوفًا وطمعًا ورجاءً». (مفتاح دار السعادة ٥٤/١).

وقد تضمن كلام ابن القيم ما يجب مراعاته في هذا المقام، وما الواجب على العبد تحقيقه لسلامة قلبه، وأهم المهمات في ذلك توحيد الله تعالى وإخلاص الدين له، وإقبال العبد على الله، مع سلوك طريق العلم النافع والعمل الصالح، والنظر في العواقب الحميدة لمن حقق ذلك، ومن أروع الأمثلة التي تدل على ذلك، ما وقع من ذي النون عليه السلام وهو في بطن الحوت، حيث دعا ربه قائلاً: «لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ» (الأنبياء:٨٧)، وهي كلمات تحمل قوة الإيمان وصدق اللجوء إلى الله، ولذلك قال الحي القيوم: «فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي الْمُؤْمِنِينَ» (الأنبياء:٨٨).

وقد بشّر النبي صلى الله عليه وسلم كل مسلم يدعو ربه بذلك أن يستجيب له، كما في حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دعوة ذي النون إذ دعا بها وهو في بطن الحوت: لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين، لم يدع بها رجل مسلم في شيء قط إلا استجاب الله له»، وهو في مسند أحمد والترمذي والنسائي وصححه الألباني في صحيح الجامع حديث (٣٣٨٣).

وهذا يدل على أن القلب المنشغل بهذا الأمر العظيم يُحبه الله تعالى، ويذهب عنه الكرب والغم، ويرزقه الطمأنينة والسعادة، وعلى النقيض من ذلك من تعلق قلبه بغير الله، فإنه يحصل له من الخذلان بقدر ما تعلق قلبه به، ويعامل بنقيض قصده، كما قال الله تعالى: «وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا» (مريم: ٨١- ٨٢)، قال ابن القيم: «فأعظم الناس خذلانًا مَن تعلق بغير الله؛ فإن ما فاته من مصالحه وسعادته وفلاحه أعظم مما حصل له ممن تعلق به وهو معرَّض للزوال والفوات، ومثل المتعلق بغير الله: كمَثَل المستظل من الحر والبرد ببيت العنكبوت؛ أوهن البيوت». (مدارج السالكين ٤٩٢/١).

أمور تساعد على صلاح القلب وسلامته

ومن الأمور التي تساعد على صلاح القلب وسلامته: ذكر الله تعالى، وهو حياة للقلب وطمأنينة له، قال الله تعالى: «الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ» (الرعد:٢٨)، ومعنى الآية: أن القلوب تسكن وترضى وتخشع اعتمادًا على الله عند ذكره- جل في علاه-، وقد ذكر ابن القيم رحمه

الله طرفًا من الأمور النافعة التي تزيد اليقين في القلب وتدفعه إلى حسن العمل، ومنها: أن يقوم بقلب العبد شاهد من حقارة الدنيا وقلة وفائها وسرعة انقضائها، وإذا تحقق في قلب العبد انصرف قلبه عن الدنيا وطلب الدار الآخرة التي هي دار القرار، فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انتقل إلى ذكر النار وبُعد قعرها وشدة حرها، فإذا قام بقلب العبد هذا الشاهد انخلع من الذنوب والمعاصي واتباع الشهوات، ولبس ثياب الخوف والحذر، ثم يقوم بعد ذلك شاهد من الجنة وما أعد الله لأهلها فيها، مما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فإذا انضم ذلك شاهد يوم المزيد، والنظر إلى وجه الله الكريم وهو أعلى النعيم، فهناك يسير القلب إلى ربه أسرع من سير الرياح في مهابها. (انظر: مدارج السالكين ٣/٢٦١- ٢٦٣).

وليحذر العبد من الفتن التي تعرض على القلوب فتسدها وتكون سببًا في انتكاسها، كما في حديث حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «تُعْرَضُ الْفِتَنُ عَلَى الْقُلُوبِ كَالْحَصِيرِ عُودًا عُودًا؛ فَأَيُّ قَلْبٍ أُشْرِبَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ سَوْدَاءُ، وَأَيُّ قَلْبٍ أَنْكَرَهَا نُكِتَ فِيهِ نُكْتَةٌ بَيْضَاءُ؛ حَتَّى تَصِيرَ عَلَى قَلْبَيْنِ عَلَى أَبْيَضَ مِثْلِ الصَّفَا فَلَا تَضُرُّهُ فِتْنَةٌ مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَالْآخَرُ أَسْوَدُ مُرْبَادًّا كَالْكُوزِ مُجَخِّيًا لَا يَعْرِفُ مَعْرُوفًا وَلَا يُنْكِرُ مُنْكَرًا إِلَّا مَا أُشْرِبَ مِنْ هَوَاهُ». (مسلم: ١٤٤).

فهذا الحديث العظيم قسم القلوب إلى قسمين: قلب إذا عرضت عليه الفتن أشربها، ودخلت واستقرت فيه، حتى نكتت فيه نكتًا سوداء، فأصبح كالكوز مجخيًا، فلا يكون فيه خير ولا حكمة، ويصاب بمرض آخر، وهو اشتباه المعروف عليه بالمنكر، وربما استحكم عليه هذا المرض، فيرى المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والحق باطلاً، والباطل حقًا.

ونقل النووي عن صاحب التحرير أنه قال: «معنى الحديث: أن الرجل إذا اتبع هواه وارتكب المعاصي دخل قلبه بكل معصية يتعاطاها ظلمة، وإذا صار كذلك افتتن وزال عنه نور الإسلام». (شرح النووي على مسلم ٢/١٧٣).

وأما القلب الآخر: فهو قلب سليم اطمأن بالإيمان وسلم من الخلل، فلا تؤثر فيه الفتن، كالحجر الأملس الذي لا يعلق به شيء، فهو أبيض مشرق بنور الإيمان، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يهتم بإصلاح القلب غاية الاهتمام.

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم في أدعية كثيرة التضرع إلى الله تعالى وطلب هداية القلب وسلامته وثباته على الحق، وهذا بعض ما ورد في ذلك: عن أنس رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكثر أن يقول: «يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَى دِينِكَ. فقالت أم سلمة: يَا رَسُولَ اللَّهِ آمَنَّا بِكَ وَبِمَا جِئْتَ بِهِ، فَهَلْ تَخَافُ عَلَيْنَا؟ قَالَ: نَعَمْ؛ إِنَّ الْقُلُوبَ بَيْنَ أُصْبُعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ اللَّهِ يُقَلِّبُهَا كَيْفَ يَشَاءُ». (أخرجه ابن ماجه والترمذي وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود ٢/٢٢٥).

وفي الصحيحين عن ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول في دعائه: «اللهم اجعل في قلبي نورًا». (البخاري: ٦٣١٦، ومسلم: ٧٦٣).

وعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها». (مسلم: ٢٧٢٢).

وفي الختام: فإني أذكر نفسي وإخواني بكلمة في هذا المقام فأقول: إن الواجب على كل مسلم أن يعتني بصلاح قلبه وتزكية نفسه، وأن يجتهد في ذلك غاية الاجتهاد، وإذا صلح قلب المسلم استقامت جوارحه وصلح ظاهره، ولا عبرة بصلاح الظاهر والاهتمام به وإظهار ذلك للناس، مع فساد الباطن، والله وحده المطلع على السرائر.

أسأل الله تعالى أن يصلح قلوبنا، وأن يشرح صدورنا، وأن ينور أبصارنا، وأن يرزقنا نفسًا مطمئنة تؤمن بلقاء الله وترضى بقضائه، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وآله وصحبه.

افتتاحية العدد

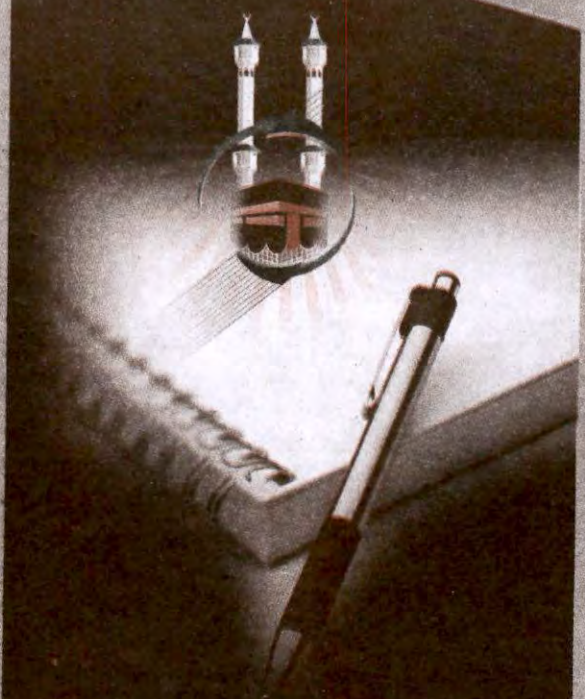

التوسُّل.. أقسامه وأحكامه

أ.د الرئيس العام

د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له؛ شهد لنفسه بالوحدانية، وشهد له بها ملائكته المقربون، وأهل العلم من المؤمنين، وأشهد أن نبينا محمدًا عبدُه ورسوله المبعوث بالهدى ودين الحق للعالمين، اللهم صل وسلم وبارك عليه وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم واتبع طريقهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد أحدث الناس في شهر ربيع الأول من كل عام بدعة الاحتفال بالمولد النبوي، على صاحبه أفضل الصلاة والسلام، وهي بدعة حادثة بعد القرون المفضلة التي شهدت أحرص الناس على اتِّباع السنة، وأشدهم محبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنصار السنة المحمدية على مدار تاريخها تبيِّن للناس وجه الحق في ذلك، وترشد إليه من باب النصيحة، وقد كتبت سابقًا على صفحات هذه المجلة الغرَّاء عن هذا الموضوع، وبيَّنت أن العبيديين الذين يسمون أنفسهم بالفاطميين هم الذين أحدثوا هذه البدعة، والملاحظ أنهم في احتفالاتهم يقعون في أمور تخدش العقيدة، وتؤثر في سلامة التوحيد.

وعلى رأس ذلك ما يقع من غُلُوّ في المديح وتوسُّل غير صحيح، ولذلك سأبين هنا- إن شاء الله- التوسل المشروع الذي يجب على المؤمنين سلوكه، وترك ما عداه ليسلم لهم معتقدهم، وأبدأ بتعريف التوسل في اللغة والاصطلاح، فأقول وبالله التوفيق:

التوسل في اللغة: التقرب. يقال: وسَّل فلان إلى الله وسيلة: إذا عمل عملاً تقرب

به إليه، وتوسل إليه بوسيلة: إذا تقرب إليه بعمل، وفي حديث الدعاء بعد الأذان: "اللهم آتِ محمدًا الوسيلة"، والمراد به في الحديث: القرب من الله تعالى، كما تطلق على المنزلة عند الملك، والدرجة. (انظر: لسان العرب ١١/٧٢٤).

الوسيلة في الاصطلاح: هي التقرب إلى الله بطاعته والعمل بما يرضيه، وقد ذكر ذلك ابن كثير عن ابن عباس ومجاهد وقتادة وغيرهم، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱبْتَغُوٓا۟ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ » (المائدة:٣٥)، وقال الشيخ الشنقيطي في تفسيره للآية: «اعلم أن جمهور العلماء على أن المراد بالوسيلة هنا: هو القربة إلى الله تعالى بامتثال أوامره، واجتناب نواهيه على وفق ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم بإخلاص في ذلك لله تعالى». (أضواء البيان ٢/٩٧).

أنواع التوسل:

التوسل ينقسم إلى قسمين: توسُّل جائز مشروع، وتوسُّل بِدْعِيّ ممنوع، والمشروع له صور هي كما يلي:

١- التوسل إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى وصفاته العلى، ودليل مشروعية هذا التوسل قول الله تعالى: « وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا » (الأعراف:١٨٠)، وقد ذكر البغوي في تفسيره أن رجلاً من المسلمين كان يصلي فدعا الله باسمه الرحمن، فقال بعض مشركي العرب: إن محمدًا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربًا واحدًا، فما بال هذا يدعو اثنين، فأنزل الله الآية. (انظر: معالم التنزيل ٢/٢١٧).

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتوسل إلى ربه بأسمائه الحسنى، ومن ذلك قوله: «اللهم بعلمك الغيب وقدرتك على الخلق أحيني ما علمت الحياة خيرًا لي .... الحديث، (مسند أحمد ٤/٢٦٤، وصححه الألباني، ومن الأدلة الصريحة الواضحة في ذلك ما رواه عبد الله بن مسعود أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما أصاب أحدًا قطّ هَمٌّ ولا حَزَنٌ فقال: اللهم إني عبدك ابن عبدك، ابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عَدَلٌ فيّ قضاؤك، أسألك بكلّ اسم هو لك، سَمَّيت به نفسك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو أنزلته في كتابك أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاء حزني، .... الحديث (أخرجه أحمد في مسنده ١/٣٩١، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة ١/٣٣٦).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: «كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسًا، يعني ورجل قائم يصلي، فلما ركع وسجد وتشهد دعا فقال في دعائه: اللهم إني أسألك بأن لك الحمد، لا إله إلا أنت المنَّان، بديع السماوات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، يا حي يا قيوم، إني أسألك... فقال النبي صلى الله عليه وسلم لأصحابه: «تدرون بما دعا؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «والذي نفسي بيده، لقد دعا الله باسمه العظيم الذي إذا دُعِيَ به أجاب وإذا سُئِلَ به أعطى». (صحيح سنن النسائي ١/٢٧٩).

وكان أنبياء الله ورسوله يتوسلون إلى الله تعالى بأسمائه الحسنى، ومن ذلك ما ذكره الله تعالى عن سليمان عليه السلام في دعائه: «قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ

في عبادك الصالحين» (النمل:١٩)، وقد دلت الآيات والأحاديث على مشروعية التوسل إلى الله -سبحانه وتعالى- بأسمائه وصفاته، وقد فعل ذلك الأنبياء والمرسلون، كما ورد في التنزيل، وفي الحديث عن النبي الأمين صلى الله عليه وسلم.

فائدة الأعمال الصالحة وجواز التوسل بها

٢- التوسل إلى الله بالأعمال الصالحة، وهو توسل نافع للعبد ومشروع، ويكون سببًا في قضاء حاجات العبد ورفع درجته، وذلك بأن يسأل العبد ربه بأفضل أعماله الصالحة وأرجاها لديه، ومن ذلك الصلاة والصيام، والحج والعمرة، وقراءة القرآن، والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وترك ما حرَّم الله، ونحو ذلك، ودليل مشروعية هذا التوسل ما أخرجه الشيخان عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «بَيْنَمَا ثَلَاثَةُ نَفَر مِمَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ يَمْشُونَ إِذْ أَصَابَهُمْ مَطَرٌ، فَأَوَوْا إِلَى غَارٍ فَانْطَبَقَ عَلَيْهِمْ فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ إِنَّهُ وَاللَّهِ يَا هَؤُلَاءِ لَا يُنْجِيكُمْ إِلَّا الصِّدْقُ، فَلْيَدْعُ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ بِمَا يَعْلَمُ أَنَّهُ قَدْ صَدَقَ فِيهِ. فَقَالَ وَاحِدٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَجِيرٌ عَمِلَ لِي عَلَى فَرَقٍ مِنْ أَرُزٍّ، فَذَهَبَ وَتَرَكَهُ وَأَنِّي عَمَدْتُ إِلَى ذَلِكَ الْفَرَقِ فَزَرَعْتُهُ، فَصَارَ مِنْ أَمْرِهِ أَنِّي اشْتَرَيْتُ مِنْهُ بَقَرًا، وَأَنَّهُ أَتَانِي يَطْلُبُ أَجْرَهُ فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَسُقْهَا. فَقَالَ لِي: إِنَّمَا لِي عِنْدَكَ فَرَقٌ مِنْ أَرُزٍّ؟ فَقُلْتُ لَهُ: اعْمِدْ إِلَى تِلْكَ الْبَقَرِ فَإِنَّهَا مِنْ ذَلِكَ الْفَرَقِ فَسَاقَهَا. فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ، فَكُنْتُ آتِيهِمَا كُلَّ لَيْلَةٍ بِلَبَنِ غَنَمٍ لِي، فَأَبْطَأْتُ عَلَيْهِمَا لَيْلَةً فَجِئْتُ وَقَدْ رَقَدَا، وَأَهْلِي وَعِيَالِي يَتَضَاغَوْنَ مِنَ الْجُوعِ، فَكُنْتُ لَا أَسْقِيهِمْ حَتَّى يَشْرَبَ أَبَوَايَ، فَكَرِهْتُ أَنْ أُوقِظَهُمَا وَكَرِهْتُ أَنْ أَدَعَهُمَا فَيَسْتَكِنَّا لِشَرْبَتِهِمَا فَلَمْ أَزَلْ أَنْتَظِرُ حَتَّى طَلَعَ الْفَجْرُ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ فَفَرِّجْ عَنَّا، فَانْسَاحَتْ عَنْهُمُ الصَّخْرَةُ حَتَّى نَظَرُوا إِلَى السَّمَاءِ.

فَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنَّهُ كَانَ لِي ابْنَةُ عَمٍّ مِنْ أَحَبِّ النَّاسِ إِلَيَّ، وَأَنِّي رَاوَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَبَتْ إِلَّا أَنْ آتِيَهَا بِمِائَةِ دِينَارٍ، فَطَلَبْتُهَا حَتَّى قَدَرْتُ فَأَتَيْتُهَا بِهَا فَدَفَعْتُهَا إِلَيْهَا، فَأَمْكَنَتْنِي مِنْ نَفْسِهَا، فَلَمَّا قَعَدْتُ بَيْنَ رِجْلَيْهَا، فَقَالَتْ: اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تَفُضَّ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَقُمْتُ وَتَرَكْتُ الْمِائَةَ دِينَارٍ، فَإِنْ كُنْتَ تَعْلَمُ أَنِّي فَعَلْتُ ذَلِكَ مِنْ خَشْيَتِكَ، فَفَرِّجْ عَنَّا، فَفَرَّجَ اللَّهُ عَنْهُمْ». (البخاري: ٢٤٦٥، ومسلم ٢٧٣٤).

فهذا الحديث يشير إلى ثلاثة رجال وقعوا في مهلكة عظيمة، وذلك حينما انطبقت عليهم سدَّت فم الغار الذي هم فيه، فلم يجدوا أمامهم إلا أن يتوسلوا إلى الله بأعمالهم الصالحة المذكورة في الحديث، وهي أعمال جليلة عظيمة، نفعهم الله بها وزاحت عنهم الصخرة التي لو بقيت لوقع بهم موت محقق، وهذا يدل على فائدة الأعمال الصالحة وجواز التوسل بها.

قال النووي رحمه الله: «استدل أصحابنا بهذا على أنه يستحب للإنسان أن يدعو في حال كربه، وفي دعاء الاستسقاء وغيره بصالح عمله، ويتوسل إلى الله تعالى به؛ لأن هؤلاء فعلوه فاستُجيبَ لهم، وذكره النبي صلى الله عليه وسلم في معرض الثناء وجميل فضائلهم». (شرح النووي على مسلم ١٧/٥٦).

وللحديث صلة بإذن الله.

افتتاحية العدد

التوسل.. أقسامه وأحكامه

الحلقة الثانية

الرئيس العام

د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم، مالك يوم الدين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيد ولد آدم أجمعين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى أن يقوم الناس لله رب العالمين، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء السابق صورتين من أنواع التوسل الجائز المشروع، وأواصل بحمد الله وتوفيقه الحديث حول هذا الموضوع فأقول:

٣- التوسل إلى الله تعالى، بالإيمان به والتسليم له تبارك وتعالى، في كل ما أمر به:

وقد جاء هذا التوسل صريحًا في القرآن الكريم، وكان معلومًا في الأمم السابقة، فالحواريون الذين آمنوا بعيسى ابن مريم وتابعوه على الإيمان بالله، توسلوا بهذا الإيمان إلى الله تعالى، كما قال الله عنهم في كتابه: «فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ» (آل عمران: ٥٢، ٥٣).

ومثله ما جاء في قوله تعالى عن المؤمنين الصادقين: «رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ» (آل عمران: ١٩٣، ١٩٤)، فهؤلاء المؤمنون تقرَّبوا وتوسَّلوا إلى الله تعالى بإيمانهم لما سمعوا الداعي إلى ذلك، ثم طلبوا من ربهم من خيري الدنيا والآخرة.

قال الشيخ أبو بكر الجزائري رحمه الله: «والمنادي هو القرآن الكريم والرسول صلى الله عليه وسلم، وتوسلوا بإيمانهم لربهم طالبين أشرف المطالب وأسماها: مغفرة ذنوبهم ووفاتهم مع الأبرار، كما سألوا ربهم أن يعطيهم ما وعدهم على ألسنة رسله من النصر والتمكين في الأرض، هذا في الدنيا، وألا يخزيهم يوم القيامة بتعذيبهم في النار».

(انظر: أيسر التفاسير ١/٤٢٧).

٤- التوسل إلى الله تعالى بدعاء المؤمن الصالح لأخيه:

وذلك بأن يقول الرجل لمن يظن صلاحه: "ادعُ الله لي"، وهو جائز مشروع بشرط أن يكون حيًا حاضرًا، ومن ذلك طلب أبناء يعقوب من أبيهم أن يستغفر لهم، كما جاء في قوله تعالى: «قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ ﴿٩٧﴾ قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ» (يوسف: ٩٧، ٩٨)، فهؤلاء ارتكبوا ذنبًا كبيرًا، وأخطؤوا في حق أبيهم وأخيهم، ولذلك طلبوا من أبيهم وهو النبي الرسول أن يدعوا الله لهم ليغفر لهم ذنوبهم.

قال ابن جرير رحمه الله: «قال وَلَدُ يعقوب الذين كانوا فرَّقوا بينه وبين يوسف: يا أبانا سَلْ لنا ربك يَعْفُ عنا ويستر علينا ذنوبنا التي أذنبناها فيك وفي يوسف، فلا يعاقبنا بها يوم القيامة؛ إنا كنا خاطئين فيما فعلنا به، فقد اعترفنا بذنوبنا، قال: سوف أستغفر لكم ربي». (تفسير الطبري ج١٣/٤٢).

وقد كان أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يأتونه ويطلبون منه أن يدعو الله لهم، فيدعو فتُقضَى حاجاتهم بسبب هذا الدعاء؛ لأنه وسيلة مشروعة، فكم مرة توسلوا بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم أن يُغيثهم، وكان يفعل فيستجيب الله تعالى وينزل عليهم المطر، كما في الصحيحين عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلاً دخل يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله أن يغيثنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: «اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا». قال أنس: والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة ولا شيئًا، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس، فلما توسطت السماء انتشرت، ثم أمطرت، قال: والله ما رأينا الشمس سبتًا، ثم دخل رجل من الباب في الجمعة المقبلة- ورسول الله قائم يخطب- فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال، وانقطعت السبل، فادع الله أن يمسكها. قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، ثم قال: اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب والأودية ومنابت الشجر. قال: فانقطعت وخرجنا نمشي في الشمس. قال شريك: فسألت أنسًا: أهو الرجل الأول؟ قال: لا أدري». (البخاري: ١٠١٣، ومسلم: ٨٩٧).

وقد ذكر ابن حجر رحمه الله فوائد كثيرة تضمَّنها هذا الحديث، ومنها: أن فيه علمًا من أعلام النبوة؛ في إجابة الله دعاء نبيه عليه الصلاة والسلام، وفيه الأدب في الدعاء حيث لم يدعُ برفع المطر مطلقًا لاحتمال الاحتياج إلى استمراره، فاحترز فيه بما يقتضي رفع الضرر وإبقاء النفع. (فتح الباري: ٢/٥٠٧).

وفي الصحيحين أن امرأة كانت تُصْرَع على عهد النبي صلى الله عليه وسلم، فأتت النبي صلى الله عليه وسلم، فقالت: إني أُصْرَع، وإني أتكشف، فادع الله لي، قال: إن شئت صبرتِ ولك الجنة، وإن شئت دعوتُ الله أن يعافيكِ، فقالت: أصبر، وقالت: إني أتكشف، فادع الله أن لا أتكشف، فدعا لها. (البخاري: ٥٦٥٢، ومسلم: ٢٥٧٦).

وما زال المسلمون يتوسلون بدعاء بعضهم بعضًا، ويدل على ذلك ما جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يقول: «دعوة المرء المسلم لأخيه بظهر الغيب مستجابة، عند رأسه ملك موكَّل، كلما دعا لأخيه بخير، قال الملك الموكَّل به: آمين، ولك بمثل». (مسلم: ٢٧٣٣).

وأنبِّه هنا: على أنه ينبغي الإخلاص لله في الدعاء، وأن يحرص الداعي على الأدعية القرآنية والنبوية؛ لأنها أقرب للإجابة لاشتمالها على الخير العظيم، ومن التزمها

سلم من الوقوع في المحذور.

ثانيًا: التوسل الممنوع:

هو الذي لم يَرِدْ في النصوص الشرعيَّة ما يدل على مشروعيتِه، ويمكن أن يقال: كل ما خرج عن الجائز المشروع فهو الممنوع، وقد سبق بالأدلة ذكر أنواع التوسل المشروع، ومن أمثلة الباطل الممنوع: التوسل إلى الله تعالى بذات نبيّ، أو عبد صالح، أو الاستغاثة به، كقول القائل: اللهم إني أسألك بذات آدم أن تغفر لي وترحمني، أو يا سيدي فلانًا خذ بيدي، أو أنا في حماك، ومن الممنوع التوسل بجاه الأنبياء والصالحين، أو بقبورهم، وهذا لا يدل على نقص مكانتهم، أو جاههم، فمكانتهم وجاههم عند الله عظيم، ولكن جاههم منزلة لهم خاصة بهم، وهم يشفعون في حياتهم في الدنيا، وفي الآخرة بأمر ربهم.

قال ابن تيمية رحمه الله: «التوسل إلى الله بالنبيين هو التوسل بالإيمان بهم وبطاعتهم، كالصلاة والسلام عليهم، ومحبتهم وموالاتهم، أو بدعائهم وشفاعتهم، وأما نفس ذواتهم فليس فيها ما يقتضي حصول مطلوب العبد، وإن كان لهم الجاه العظيم والمنزلة العالية بسبب إكرام الله لهم وإحسانه إليهم وفضله عليهم». (مجموع الفتاوى ٢٧/ ١٣٢، ١٣٣).

وقال أيضًا: «ومحمد صلى الله عليه وسلم أعظم جاهًا من جميع الأنبياء والمرسلين، لكن شفاعته ودعاءه إنما ينتفع به من شفع له الرسول صلى الله عليه وسلم ودعا له». (المصدر السابق ج١/ ١٤٣).

وقال الشيخ محمد عبد السلام الشقيري رحمه الله: «التوسل بحق النبي أو الولي أو بجاهه أو بركته، أو بحق قبره أو قبته مذموم منهي عنه بلا نزاع». (القول الجلي في حكم التوسل بالنبي والولي ص٥٥).

وقال الشيخ الألباني رحمه الله: «إن جريان عمل الصحابة على ترك التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم عند نزول الشدائد بهم، بعد أن كانوا لا يتوسلون بغيره صلى الله عليه وسلم في حياته، لَهُوَ من أكبر الأدلة الواضحة على أن التوسُّل بذاته صلى الله عليه وسلم غير مشروع، وإلا لنُقِلَ ذلك عنهم من طرق كثيرة في حوادث متعدِّدة». (التوسل أنواعه وأحكامه ص٧٤).

وقد اعتبر الشيخ عبد الرحمن الوكيل رحمه الله هذه التوسلات البدعية، مخالفة لعقيدة الإسلام، وناقش بعض المجيزين لها في مقالات متعددة، ومنها مقال بمجلة الهدي النبوي بعنوان: «لتتبعن سنن من كان قبلكم». وفيه يقول: «إن التوسل بالأولياء وقبورهم ليس من الإسلام، فـ«جولد زيهر» في كتابه «تطور العقيدة والشريعة»، و«ليون جوتييه» في كتابه «المدخل إلى الفلسفة»، و«غوستاف لبون» في كتابه «تطور الحضارة» أجمعوا على أن عقيدة التوحيد جلية تمام الجلاء في القرآن، وعلى أن تقديس الأولياء والتوسل بهم وبقبورهم مخالف لروح الإسلام، فما رأي فضيلة الأستاذ الشيخ حسن البنا، المرشد العام للإخوان المسلمين، الذي كتب في مذكراته عن الدعوة والداعية أن التوسل بالأولياء مسألة خلافية كقراءة الفاتحة أو عدمها بين الحنفية والشافعية، وأنها لا يجوز أن تفرق بين المسلم وأخيه..، ألا يرى فضيلته أن قوله هذا ونشره في جريدته السيارة يودي بكثير من عقائد الإخوان الذين يرون أن ما ينطق به الأستاذ لا ينطقه عن هوى». (انظر: مجلة الهدي النبوي، العدد العاشر من المجلد الثاني عشر عام ١٣٦٧هـ).

وبعد ذكري لأنواع التوسل المبتدع-باختصار- أقول للذين يذهبون إليه: لماذا تتركون التوسل المشروع الثابت في الكتاب والسنة، وأجمع عليه علماء الأمة، ولم يختلف فيه أحد؟ وتذهبون إلى توسلات بدعية ما أنزل الله بها من سلطان؟! إن الواجب على المسلم الذي يحب الله ورسوله أن يسير على منهج النبوة، وألا يخرج على الوارد في الكتاب والسنة.

وفقنا الله لهداه، وللحديث صلة بإذن الله.

شبهات استدل بها المبيحون للتوسل الممنوع

الرئيس العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعدُ:

فقد بيَّنت في مقالين سابقين أنواع التوسل المشروع والممنوع، ومن باب الفائدة أذكر في هذا اللقاء أهم الشُبَه التي استدل بها المبيحون للتوسل الممنوع، وأتناولها بالرد والبيان، فأقول -وأستمد من الله العون والتوفيق-:

الشبهة الأولى: حديث استسقاء عمر رضي الله عنه بالعباس بن عبد المطلب:

وهو حديث صحيح، وقبل أن أبيِّن ذلك أقول: إن المبيحين للتوسل الممنوع استدلوا على جوازه بأحاديث صحيحة كالحديث الذي معنا، ولكنْ لا حجةَ لهم فيه، بل هو حجةٌ عليهم، كما يتَّضح ذلك -إن شاء الله-، كما استدلوا بأحاديث موضوعة، وهذه يحرم إيرادها إلا مع بيان حكمها، أو بأحاديث ضعيفة، وهذه لا تقوم بها حُجَّة في مسائل الاعتقاد.

أما عن حديث استسقاء عمر بالعباس رضي الله عنه فهو حديث صحيح رواه البخاري في مواضع، وغيره عن أنس رضي الله عنه: «أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه كان إذا قَحَطُوا اسْتَسْقَى بالعَبَّاس بن عبدِ المُطَّلب، فقال: اللَّهُمَّ إنا كُنَّا نَتَوَسَّلُ إليكَ بنَبيِّنا صلى الله عليه وسلم فَتَسْقينا، وإنا نَتَوَسَّلُ إليكَ بعَمِّ نبيِّنا فاسْقِنا، قال: فَيُسْقَوْنَ». (رواه البخاري: ١٠١٠).

وهذا الحديث لا يدل على جواز التوسل بذوات الأنبياء أو بجاههم؛ لأنه لو كان جائزًا لما عدل عمر ومن معه من الصحابة رضوان الله عليهم عن التوسل بذات النبي صلى الله عليه وسلم، أو جاهه إلى العباس بن عبد المطلب؛ لأن جاه النبي صلى الله عليه وسلم أعظم، ولأن جاهه صلى الله عليه وسلم لا ينقص بعد موته، ولكن لما كان هذا غير ممكن بعد وفاته ذهبوا إلى العباس بن عبد المطلب.

وهذا يدل أيضًا على أنهم كانوا يتوسلون بدعائه عليه الصلاة والسلام، كما في حديث

أنس الذي ذكرته في الحلقة السابقة أن رجلاً دخل يوم الجمعة ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يخطب، فاستقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت المواشي، وانقطعت السبل، فادع الله أن يغيثنا، قال: فرفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه، فقال: «اللهم اسقنا، اللهم اسقنا، اللهم اسقنا»... (البخاري: ١٠١٣).

فدلَّ هذا على أنهم أرادوا من التوسل بالعباس التوسل بدعائه، وقد بيَّن الزبير بن بكار صفة ما دعا به العباس رضي الله عنه؛ فقد أخرج بإسناده أن العباس لما استسقى به عمر قال: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَمْ يُكْشَفْ إِلَّا بِتَوْبَةٍ، وَقَدْ تَوَجَّهَ الْقَوْمُ بِي إِلَيْكَ لِمَكَانِي مِنْ نَبِيِّكَ، وَهَذِهِ أَيْدِينَا إِلَيْكَ بِالذُّنُوبِ وَنَوَاصِينَا إِلَيْكَ بِالتَّوْبَةِ فَاسْقِنَا الْغَيْثَ. فَأَرْخَتِ السَّمَاءُ مِثْلَ الْجِبَالِ حَتَّى أَخْصَبَتِ الْأَرْضُ، وَعَاشَ النَّاسُ». (فتح الباري ٢/٤٩٧).

وعليه فيصبح معنى قول عمر رضي الله عنه يقول فيه: «فلو كان توسلهم بالنبي صلى الله عليه وسلم بعد مماته كتوسلهم به في حياته لقالوا: كيف نتوسل بمثل العباس ويزيد بن الأسود ونحوهما؟ ونعدل عن التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم الذي هو أفضل الخلائق وهو أفضل الوسائل وأعظمها عند الله؟ فلما لم يقل ذلك أحد منهم، وقد عُلِمَ أنهم في حياته توسلوا بدعائه وشفاعته، وبعد مماته توسلوا بدعاء غيره وشفاعة غيره، عُلِمَ أن المشروع عندهم التوسل بدعاء المتوسَّل به لا بذاته». (مجموع الفتاوى ١/٢٨٤).

وقال الشيخ الألباني رحمه الله: «لو كان توسل عمر إنما هو بذات العباس أو جاهه عند الله تعالى، لما ترك التوسل به صلى الله عليه وسلم- بهذا المعنى-؛ لأن هذا ممكن لو كان مشروعًا، فعدول عمر عن هذا إلى التوسل بدعاء العباس رضي الله عنه أكبر دليل على أن عمر والصحابة الذين كانوا معه كانوا لا يرون التوسل بذاته صلى الله عليه وسلم، وعلى هذا جرى عمل السلف من بعدهم». (التوسل وأنوعه وأحكامه ص٧٠).

الشبهة الثانية: حديث عثمان بن حنيف رضي الله عنه:

وفيه: أنَّ رجلًا ضريرًا أتى النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم، فقالَ: ادعُ الله لي أن يعافيَنيَ، قالَ: فإن شِئتَ أخَّرتُ ذلكَ فَهوَ خيرٌ لَكَ، وإن شئتَ دعوتُ الله، قالَ: فادعُهُ قالَ: فأمرَهُ أن يتوضَّأَ فيُحْسنَ الوضوءَ، ويصلِّيَ رَكْعتينِ ويدعوَ بِهَذا الدُّعاءِ: اللَّهمَّ إنِّي أسألُكَ وأتوجَّهُ إليكَ بنَبيِّكَ محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم نبيِّ الرَّحمةِ، يا محمَّدُ إنِّي أتوجَّهُ بكَ إلى ربِّي في حاجَتي هذه فتَقضيها لي، اللَّهمَّ شفِّعهُ فيَّ وشفِّعني في نَفسي». قال: فكان يقول هذا مرارًا، ثم قال بعد: أحسب أن فيها أن تشفعني فيه، قال: ففعل الرجل، فبرأ. (أخرجه أحمد في مسنده ٤/١٣٨، وصححه الألباني في صحيح سنن الترمذي ٣/١٨٢، كما رواه غيرهما).

وقد استدل بهذا الحديث المجوِّزُون للتوسل بالذات والجاه، ولا حُجَّةَ لهم فيه للأمور التالية:

أولاً: أن الأعمى إنما جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم طالبًا منه أن يدعو الله له، وذلك واضحٌ وصريحٌ في قوله: «ادعُ الله أن يعافيني»، فهو إذن توسُّل بدعاء النبي صلى الله عليه وسلم، لا بذاته ولو قصد التوسل بالذات لجلس في بيته وتوسل بالذات، والنبي صلى الله عليه وسلم خيَّره بين الصبر، أو الدعاء، فأصرَّ على الدعاء، وقد وعده صلى الله عليه وسلم بالدعاء مع توجيهه إلى عمل صالح، فأمره أن يتوضأ ويصلي ركعتين ثم يدعو لنفسه.

قال العلامة الجزائري الشيخ مبارك الميلي عند كلامه على هذا الحديث: «والتوجيه بالنبي صلى الله عليه وسلم معناه: التوجيه بدعائه، دلَّ على هذا المحذوف اختيار الأعمى لدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم بعد تخييره له بينه وبين الصبر، وأمره للأعمى بالدعاء بعد دعائه صلى الله عليه وسلم؛ نظير ما أخرجه

مسلم وغيره من قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأله مرافقته في الجنة: "أعني على نفسك بكثرة السجود"، فتصح لهم بعبادتي: الصلاة والدعاء، لمناسبتهما للمطلوب». (انظر كتابه الشرك، ص٢٠٥).

ثانيًا: أن في الدعاء الذي علَّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه أن يقول: «اللهم فشفعه فيَّ». وهذا لا يمكن حمله على التوسل بالذات؛ لأن معناه: اللهم اقبل شفاعته صلى الله عليه وسلم فيَّ، أي: اقبل دعاءه في أن ترد عليَّ بصري، والشفاعة تأتي في اللغة بمعنى: الدعاء، وقد ذكر ذلك ابن منظور عن المبرد وثعلب. انظر: لسان العرب ١٨٤/٨).

قال ابن تيمية: "وسؤال الأمة له الوسيلة هو دعاء له وهو معنى الشفاعة، ولهذا كان الجزاء من جنس العمل، فمن صلى عليه، صلَّى عليه الله، ومن سأل الله له الوسيلة المتضمنة لشفاعته شفع له صلى الله عليه وسلم كذلك الأعمى منه الشفاعة، فأمره أن يدعو الله بقبول هذه الشفاعة، وهو كالشفاعة في الشفاعة، فلهذا قال: اللهم فشفعه فيَّ وشفعني فيه، وذلك أن قبول دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في هذا هو من كرامة الرسول صلى الله عليه وسلم، ولهذا عُدَّ من آياته ودلائل نبوته». (مجموع الفتاوى ٢٧٦/١).

وأيضًا مما علَّمه النبي صلى الله عليه وسلم للأعمى أن يقول: «وشفعني فيه» أي: اقبل شفاعتي، أي: دعائي في أن تقبل شفاعته صلى الله عليه وسلم في أن ترد عليَّ بصري.

ثالثًا: هذا التوسل مركَّب من عدة أمور، وقد تعذَّر بعضها اليوم؛ لأن الرجل الأعمى أتى إلى النبي صلى الله عليه وسلم وطلب منه الدعاء والشفاعة، وهو حيٌّ حاضر، وعليه فلا يجوز اليوم لأحد أن يفعل ذلك؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد التحق بالرفيق الأعلى، ولا مانع من أن يتوسل العبد بطاعة وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم الآن، قال الشيخ أبو بكر الجزائري: «ولا بأس أن يفعل المسلم ما يمكنه فعله من هذه الوسيلة ويتوسل به إلى الله تعالى وهو: أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويصلي ركعتين، ويقول: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بإيماني وحبي لنبيك نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم أن تقضي حاجتي، ويسمِّي حاجته، فإنه يُرْجَى أن يَستجيب الله تعالى له». (عقيدة المؤمن ص٨٩).

الشبهة الثالثة: استدلوا بأحاديث ضعيفة لا تدل على المراد:

والأحاديث الضعيفة والموضوعة في هذا البابا كثيرة، ويطول الكلام حولها هنا، لذلك سأكتفي ببعض النماذج كحديث: «توسلوا بجاهي فإن جاهي عند الله عظيم». وهذا كلام باطل لا أصل في كتب السنة، مع أن جاه النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته عظيمة، إلا أن هذا ليس من المشروع ولم يفعله الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، مع معرفتهم بقدر نبيهم صلى الله عليه وسلم، قال ابن أبي العز الحنفي: «وتارة يقول الداعي: بجاه فلان عندك، ومراده: إن فلانًا عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة، فأجب دعاءنا، وهذا أيضًا محذوف، فإنه لو كان هذا التوسل الذي كان الصحابة يفعلون بعد موته، وإنما كانوا يتوسلون في حياته بدعائه. (شرح الطحاوية ٢٩٨/١).

كما استدلوا بحديث عمر بن الخطاب مرفوعًا: «لما اقترف آدم الخطيئة قال: يا رب أسألك بحق محمد لما غفرت لي»، وقد أخرجه الحاكم في المستدرك وقال: هذا حديث صحيح. وتعقبه الذهبي وقال: موضوع. انظر ٦١٥/٢.

وهو الصواب، وهذا الحديث يخالف أيضًا صريح القرآن الذي ذكر عن آدم أنه قال لربه: « قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » (الأعراف:٢٣)، كما جاء في كتاب الله أن الله تاب عليه، « فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ » (البقرة:٣٧).

والحمد لله رب العالمين.

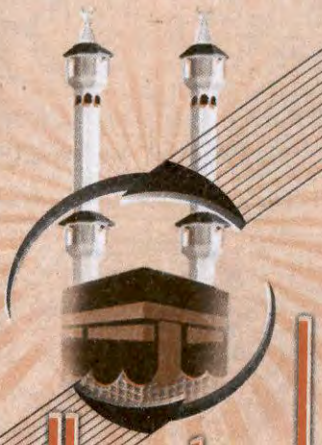

افتتاحية العدد

تحقيق الكلام في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة والمنام

رئيس التحرير

د. عبد الله شاكر

الحمد لله وحده، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده وعلى آله وصحبه، وبعدُ:

فقد ثبت في الأخبار رؤية النبي المختار صلى الله عليه وسلم في المنام، وقد روى أصحاب الصحاح والسنن كثيرًا من الأحاديث الدالة على ذلك، وعدَّها البيهقي رحمه الله من دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم، وقد عقد بابًا في كتابه «دلائل النبوة»، قال فيه: «باب ما جاء في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام»، وذكر تحته أحاديث كثيرة تدل على ذلك، انظر دلائل النبوة (٧/٤٥).

ومن الأحاديث الواردة في ذلك ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي». (خ٦٩٩٣)، (م٢٢٦٦). قال أبو عبد الله: قال ابن سيرين: إذا رآه في صورته. وعن أبي قتادة رضي الله عنه قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم: «من رآني فقد رأى الحق». البخاري (٦٩٩٦)، ومسلم (٢٢٦٧)، قال النووي رحمه الله في شرحه للحديث: «اختلف العلماء في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «فقد رآني»، فقال ابن الباقلاني معناه: أن رؤياه صحيحة ليست بأضغاث أحلام ولا من تشبيهات الشيطان، ويؤيد قوله رواية: «فقد رأى الحق»، أي: الرؤيا الصحيحة» شرح النووي على مسلم (١٥/٢٤)، وقد ذهب إلى وقوع رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في المنام جميع أهل السنة، وقالوا بما تضمنته الأحاديث الواردة في ذلك، والرؤية الصحيحة ما وافق فيه الرائي الصفة التي كان عليها النبي صلى الله عليه وسلم، قال ابن حجر: «كان محمد بن سيرين إذا قص عليه رجل أنه رأى النبي صلى الله عليه وسلم قال: صف الذي رأيته، فإن وصف له صفة لا يعرفها، قال: لم تره. وسنده صحيح، ووجدت له ما يؤيده، فقد أخرج الحاكم من طريق عاصم بن كليب: حدثني أبي قال: قلت لابن عباس رضي الله عنهما: رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في

المنام. قال: صفه لي، قال: ذكرت الحسن بن علي فشبهته به، قال: قد رأيته. وسنده جيد». (فتح الباري ١٢/ ٣٨٤).

ومما أرى التنبيه عليه وصفًا: أن الرائي لو رأى شيئًا يخالف الشرع فالحجة الشرع، وما رآه الرائي قد يكون من وسوسة الشيطان، أو من حديث النفس، ولا يكون دينًا ولا شرعًا، لأن الحجة قامت على العباد بالقرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، وقد جاء الأمر في القرآن باتباعهما، قال الله تعالى: «اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ» (الأعراف: ٣)، وقال سبحانه: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا» (س٢٢الحشر:٧)، وعليه أقول: إن علوم الشريعة كلها ليس لها مصدر سوى الوحي الإلهي قرآنًا كان أم سنة، ويجب أن نزن كل كلام بميزان الشرع، فما وافقه فهو صواب، وما خالفه فهو من الضلال، قال ابن حجر: «إن النائم لو رأى النبي صلى الله عليه وسلم يأمره بشيء، هل يجب امتثاله ولا بد، أو لا بد أن يعرضه على الشرع الظاهر؟ فالثاني: هو المعتمد». (فتح الباري: ١٢/ ٣٨٩). ومن المعلوم من دين الإسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم بلغ أمته البلاغ المبين عن رب العالمين، ولم يقبضه الله إليه إلا بعد تمام النعمة بإكمال الدين، والأمة بعده صلوات الله وسلامه عليه لا تحتاج إلى زيادة من غيره.

أما عن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، فقد ادعاها بعض غلاة الصوفية، ومنهم مؤسس الطريقة التيجانية أبو العباس أحمد التيجاني الذي زعم أنه التقى بالنبي صلى الله عليه وسلم لقاءً حسيًا ماديًا وأنه قد كلمه مشافهة، وأنه تعلم صلاة الفاتح لما أغلق من النبي صلى الله عليه وسلم، وأنه علمه أن المرة الواحدة منها تعدل قراءة القرآن ست مرات، وصيغة هذه الصلاة:

«اللهم صل على سيدنا محمد الفاتح لما أغلق، والخاتم لما سبق، ناصر الحق بالحق، الهادي إلى صراطك المستقيم، وعلى آله حق قدره ومقداره العظيم». (انظر كتابه جواهر المعاني وبلوغ الأماني: ١/ ١٣٦).

وقد تجاوزت فرقة البريلوية هذا القدر، حيث زعموا أن النبي صلى الله عليه وسلم حاضر وناظر لأفعال الخلق الآن في كل زمان ومكان. (انظر كتاب جاء الحق ١/ ١٦٠ لأحمد يارخان).

وهذه معتقدات باطلة تتعارض مع أصل الدين، وما جاء عن رب العالمين، وادعاء رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة يفتح الباب على مصراعيه لهدم الشريعة؛ لأن كثيرًا ممن يدَّعون ذلك يحدثون الناس أنهم يتلقون العلم مباشرة من النبي صلى الله عليه وسلم، بل ويصححون أحاديث ويضعفون بحجة أنهم سألوا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأجابهم، وهذا القول يرده الشرع والعقل، وبيان ذلك فيما يلي:

أولًا: من جهة الشرع:

لا يصح من عدة وجوه: أولها: أن رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد موته لم يقل بها أحد من الصحابة كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين ثبت تزكيتهم بيقين من القرآن الكريم وشهادة النبي صلى الله عليه وسلم، وهم أولياء الله بلا ريب، وأحب الخلق إلى الله تعالى، ولم يذهب واحد منهم إلى شيء من ذلك، وكذلك التابعين وأتباع التابعين وأئمة الإسلام المشهورين.

ثانيها: أن أموراً عظيمة وقعت لأصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أفضل الأمة بعد نبيها، وكانوا بحاجة ماسة إلى سؤاله عنها ولم يظهر لهم، ومن هذه الأمور: اختلافهم في مسألة الخلافة، والخلاف الشديد الذي وقع بين طلحة، والزبير، وعائشة من جهة، وعلي بن أبي طالب

وأصحابه رضي الله عنهم أجمعين من جهة أخرى، والذي أدى إلى وقوع معركة الجمل، وقد قتل فيها خلق كثير من الصحابة والتابعين، فلماذا لم يظهر لهم النبي صلى الله عليه وسلم ويقطع هذا الخلاف الذي وقع، حقنًا لدماء المسلمين، وأمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه على جلالة قدره وعظمة شأنه كان يظهر الحزن على عدم معرفته ببعض المسائل الفقهية، ويقول: «ثلاث وددت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفارقنا حتى يعهد إلينا: الجَدّ، والكلالة، وأبواب من الربا». والحديث في البخاري برقم (٥٥٨٨)، ومسلم (٣٠٣٢)، فلو كان صلى الله عليه وسلم يظهر لأحد بعد موته لظهر لعمر الفاروق رضي الله عنه وقال: «لا تحزن حكمها كذا وكذا».

قال الشيخ محمد رشيد رضا: «صرح بعض العلماء المحققين بأن دعوى رؤية النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته في اليقظة والأخذ عنه دعوى باطلة، واستدلوا على ذلك بأن أولى الناس بها لو كانت مما يقع ابنته سيدة النساء، وخلفاؤه الراشدون، وسائر أصحابه العلماء، وقد وقعوا في مشكلات وخلاف أفضى بعضه إلى المغاضبة وبعضه إلى القتال، فلو كان يظهر لأحد ويعلمه ويرشده بعد موته لظهر لبنته «فاطمة» عليها السلام وأخبرها بصدق خليفته أبي بكر رضي الله عنه فيما روى عنه من أن الأنبياء لا يورثون وكذا للأقرب والأحب إليه من آله وأصحابه، ثم لمن بعدهم من الأئمة الذين أخذ أكثر أمته دينهم عنهم ولم يدع أحد منهم ذلك، وإنما ادعاه بعض غلاة الصوفية بعد خير القرون وغيرهم من العلماء الذين تغلب عليهم تخيلات الصوفية، والدليل على صحة القول بأن ما يدعونه كذب، أو تخييل ما يروونه عنه صلى الله عليه وسلم في هذه الرؤية وبعض الرؤى المنامية مما تختلف باختلاف معارفهم وأفكارهم ومشاربهم وعقائدهم، وكون بعضه مخالفاً لنص كتاب الله وما ثبت من سنته ثبوتًا قطعيًا». (فتاوى رشيد رضا ٦/٢٣٨٥).

وثالثها: أنه قد ثبت في السنة النبوية أن النبي صلى الله عليه وسلم في خير المنازل، وأنه في أعلى عليين، وقد سأل ربه الرفيق الأعلى وهو في آخر لحظات حياته، كما قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «آخر كلمة تكلم بها النبي صلى الله عليه وسلم قوله: «اللهم الرفيق الأعلى». البخاري (٦٥٠٩)، وقد ثبت في السنة أيضًا أن النبي صلى الله عليه وسلم حي في قبره حياة برزخية تختلف عن هذه الحياة الدنيا، وحياته في قبره حياة فضل ورحمة، ونعيم دائم من الله تعالى، لا حياة تكليف، وفيها تعرض عليه صلاة من صلى عليه من أمته، ينقل ذلك له الملائكة حين يرد الله تعالى روحه، وعليه فلا حاجة به، لأن ينتقل إلى من هو دونه من الناس، وإذا كان يخرج ويرتحل كما يزعمون فلا ضرورة لأن يوكل الله تعالى له ملائكة تنقل إليه سلام الناس، وقد أخبر صلى الله عليه وسلم أنه لن يخرج من قبره ولن تنشق عنه الأرض إلا يوم القيامة، كما في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا تخيروا بين الأنبياء، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من تنشق عنه الأرض». (البخاري: ٢٤١٢).

ومن المعلوم أن أعظم فتنة على الأرض فتنة الدجال، ولن يخرج النبي صلى الله عليه وسلم لأمته عندها، فعدم خروجه عند غيرها من باب أولى، وقد حذر أمته ونصح كل واحد من أمته أن يُعد الحجج اللازمة لإبطال مزاعم الدجال، كما جاء في حديث النواس بن سمعان في مسلم برقم (٢٣٩٧).

أسأل الله تعالى أن يقينا فتنة الدجال وغيرها من الفتن، وللحديث صلة إن شاء الله.

افتتاحية العدد

رؤية خير الأنام في اليقظة والمنام

الحلقة الثانية

الرئيس العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، وأشهد أن نبينا محمدًا عبد الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، وبعدُ:

فقد ذكرت في اللقاء الماضي بعض الأوجه الدالة على عدم إمكانية رؤية النبي صلى الله عليه وسلم يقظة بعد مماته، وأواصل في هذا اللقاء الحديث عن هذا الموضوع، فأقول مستعينًا بالله تعالى:

الوجه الرابع: أن النبي صلى الله عليه وسلم صرح بأمنيته أن يرى إخوانه، وبيَّن أنهم قوم يأتون من بعده ولم يرهم، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتى المقبرة فقال: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا. قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ. فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟ قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ، وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ». (مسلم: ٢٤٩).

فهذا الحديث دليل على أن النبي صلى الله عليه وسلم لن يرى أحدًا من أمته بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى، وأنه سيلتقي بإخوانه عند الحوض، وهذه نعمة عظيمة وبشارة جليلة لمن مات على التوحيد والسُّنة، قال الهروي وغيره: «معناه: أنا أتقدمهم على الحوض، يقال: فرط القوم إذا تقدمهم ليرتاد لهم الماء ويهيئ لهم الدلاء والرشاء، وفي هذا الحديث بشارة لهذه الأمة زادها الله تعالى شرفًا، فهنيئًا لمن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فرطه». (شرح النووي على مسلم: ١٣٩/٣).

الوجه الخامس: أن النبي صلى الله عليه وسلم بيَّن لهم في خطبة الوداع وصاياه الجامعة، وأمرهم أن يحفظوها لعله لا يلقاهم بعد عامهم هذا، كما جاء في حديث محمد بن جبير

بن مطعم عن أبيه أنه شهد خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم عرفة في حجة الوداع، فقال: أيها الناس، إني والله لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد يومي هذا، بمكاني هذا، فرحم الله من سمع مقالتي اليوم فوعاها... الحديث أخرجه الدارمي في سننه تحت باب بعنوان: «باب الاقتداء بالعلماء». انظر ١/ ٨٣، ٨٦، ولم يذكر لهم صلى الله عليه وسلم وهو في آخر عهده بهم أن أحدًا من أمته سيراه ويلتقي به، وهذا ما دفع أهل العلم المحققين إلى تكذيب من زعم ذلك، كالربيع بن محمود المارديني، وقد ترجم له ابن حجر وقال فيه: «دجال مفتر، ادَّعى الصحبة والتعمير في سنة تسع وخمسين وخمسمائة». (انظر لسان الميزان ٢/ ٥٥٣).

كما كذَّب العلماء الحكاية المشهورة عن أحمد الرفاعي أنه ذهب إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم ليسلم عليه، فأخرج له يده، قال الأندلسي -رحمه الله-: «إن الدجالين الذين رووا هذه القصة المكذوبة ادعوا أن من كان حاضرًا هناك ورأوا اليد وسمعوا رد السلام نحو مائة ألف أو يزيدون! سبحانك هذا بهتان عظيم! كيف يمكن أن يكون هناك هذا العدد الكثير؟ وأي محل في المسجد يسعهم أو يسع عشر معشارهم؟! ثم إن القبر قد أحاطت به الجدران فمن أيّ شباك خرجت اليد؟!

ومن المعلوم إذا كان أمر عجيب وشيء غريب يتهاجم على رؤيته الراؤون فلا يمكن الرؤية إلا للقريب، وكذلك سماع رد السلام كيف أمكن للجميع؟ فانظر إلى هذه الأكذوبة التي لا تروج حتى على ضعفاء العقول، ومع ذلك فقد تمسك بها قوم سلب الله منهم الحياء، واتخذوها حبالة من حبائل مصائدهم، وأغراهم الله على مثل هذه الدعاوي الكاذبة ليفضحهم بها في الدنيا والآخرة». (انظر: غاية الأماني في الرد على النبهاني ١/ ٢٢٢).

الوجه السادس: أنه يلزم من هذا القول أن كل من رآه صلى الله عليه وسلم يكون صحابيًّا، فيلزم من ذلك أن مشايخكم الذين تدَّعُون أنهم التقوا بالنبي صلى الله عليه وسلم يقظة قد أصبحوا صحابة، وبناءً على ذلك فإن الصحبة لن تنقطع إلى يوم القيامة: قال ابن حجر: «نقل عن جماعة من الصالحين أنهم رأوا النبي صلى الله عليه وسلم في المنام ثم رأوه بعد ذلك في اليقظة وسألوه عن أشياء كانوا منها متخوفين، فأرشدهم إلى طريق تفريجها فجاء الأمر كذلك. قلت: وهذا مشكل جدًّا ولو حُمِلَ على ظاهره لكان هؤلاء صحابة ولأمكن بقاء الصحبة إلى يوم القيامة، ويعكِّر عليه أن جمعًا جمًّا رأوه في المنام ثم لم يذكر واحد منهم أنه رآه في اليقظة وخبر الصادق لا يتخلف، وقد اشتد إنكار القرطبي على مَن قال: من رآه في المنام فقد رأى حقيقته ثم يراها كذلك في اليقظة». (فتح الباري ١٢/ ٣٨٥).

هذه بعض الأوجه الشرعية في دفع من زعم رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، أما من ناحية العقل فأقول:

إن القول برؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة بعد موته فاسد؛ لما له من لوازم فاسدة، قال القرطبي: «وهذا قول يُدْرَك فساده بأوائل العقول، ويلزم عليه أن لا يراه أحد إلا على صورته التي مات عليها، وأن لا يراه رائيان في آنٍ واحد في مكانين، وأن يحيا الآن، ويخرج من قبره ويمشي في الأسواق ويخاطب الناس ويخاطبوه، ويلزم من ذلك أن يخلو قبره من جسده فلا يبقى في قبره منه شيء فيُزَار مجرد القبر ويسلم على غائب.. وهذه جهالات لا يلتزم بها من له أدنى مسكة من عقل» نقله عنه ابن حجر في الفتح ١٢/ ٣٨٤.

دحض شبهات الزاعمين لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة

وبعد إبطالي من الناحية الشرعية

والفعلية أردّ على بعض شبهات الزاعمين لرؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة، وأعظم شبهة عندهم الحديث الذي ذكرته في الحلقة السابقة ونصه: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، ولا يتمثل الشيطان بي». وهذا الحديث قد رواه اثنا عشر صحابيًا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على شيوعه واستفاضته، كما رواه ثمانية من أئمة الحديث وأخرجوه في كتبهم، ولم يفهموا منه رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة؛ بدليل أنه لم يُبَوِّب واحد منهم لهذا الحديث مثلاً بقوله: «باب في إمكان رؤية النبي صلى الله عليه وسلم في اليقظة»، وقد ذكر أهل العلم أقوالاً كثيرة في المراد بهذه اللفظة أهمها ما يلي: الأول قال ابن بطال في معنى قوله صلى الله عليه وسلم: «فسيراني في اليقظة»: يريد تصديق تلك الرؤيا في اليقظة وصحتها وخروجها على الحق. قال القاضي عياض رحمه الله: «يحتمل أن تكون رؤياه له في النوم على الصفة التي عرف بها ووصف عليها، موجبة لتكرمته في الآخرة، وأنه يراه رؤية خاصة من القرب منه والشفاعة له بعلو الدرجة ونحو ذلك من الخصوصيات، قال: ولا يبعد أن يعاقب الله بعض المذنبين في القيامة بمنع رؤية نبيه صلى الله عليه وسلم مدة. الثالث: أن هذا خرج مخرج التشبيه والتمثيل، ويدل على ذلك رواية: «من رآني في المنام فسيراني في اليقظة، أو لكأنما رآني في اليقظة لا يتمثل الشيطان بي». وقد أخرجها مسلم في صحيحه حديث رقم (٢٢٦٦).

قال النووي رحمه الله في معنى هذه الكلمة: «قال العلماء: إن كان الواقع في نفس الأمر، فكأنما رآني، فهو كقوله صلى الله عليه وسلم: فقد رآني، أو لقد رأى الحق». (شرح النووي على مسلم ١٥/٢٦، وانظر: فتح الباري ١٢/٣٨٥).

وقالت اللجنة الدائمة في ردّها على هذا المعتقد وما استدلوا به: «فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدما بلّغ الرسالة وأكمل الله به دينه، وأقام به الحجة على خلقه، وصلى عليه أصحابه رضي الله عنهم صلاة الجنازة، ودفنوه حيث مات في حجرة عائشة رضي الله عنها، وقام من بعده الخلفاء الراشدون، وقد جرى في أيامهم أحداث ووقائع فعالجوا ذلك باجتهادهم، ولم يرجعوا في شيء منها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فمن زعم بعد ذلك أنه رآه في اليقظة حيًا وكلمه أو سمع منه شيئًا قبل يوم البعث والنشور فزعمه باطل؛ لمخالفته النصوص والمشاهدة وسنة الله في خلقه، وليس في هذا الحديث دلالة على أنه سيرى ذاته في اليقظة في الحياة الدنيا؛ لأنه يحتمل أن المراد بأنه: فسيراني يوم القيامة، ويحتمل أن المراد: فسيرى تأويل رؤياه؛ لأن هذه الرؤيا صادقة بدليل ما جاء في الروايات الأخرى من قوله صلى الله عليه وسلم: " فقد رآني" الحديث، وقد يراه المؤمن في منامه رؤيا صادقة على صفته التي كان صلى الله عليه وسلم عليها أيام حياته الدنيوية». "فتاوى اللجنة الدائمة" (١/٤٨٦، ٤٨٧).

كما استدلوا على اجتماع النبي صلى الله عليه وسلم بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج، وعليه فيمكن رؤيته في اليقظة، والجواب عن هذه الشبهة: أن الإسراء والمعراج كانا معجزتين للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة به، وهي توقيفية ولا يدخلها القياس، ثم إن محل النزاع ليس في حياة النبي صلى الله عليه وسلم في قبره، ولا في اجتماعه بالأنبياء ليلة الإسراء والمعراج، ولا بالصلاة بهم إمامًا، فكل ذلك ثابت روايةً عن النبي صلى الله عليه وسلم، ويجب علينا جميعًا التصديق به، ولكنَّ النزاع في رؤيته يقظة لبعض الناس وأخذهم عنه مباشرة مما لم يثبت به خبر عن المعصوم صلى الله عليه وسلم.

والحمد لله رب العالمين.

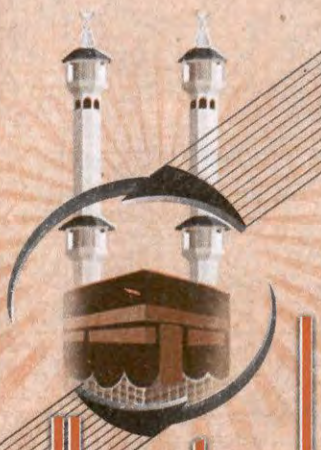

افتتاحية العدد

أهمية اتباع النبي صلى الله عليه وسلم

رئيس التحرير العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله القائل في محكم التنزيل: « هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ » (التوبة:٣٣)، والصلاة والسلام على من أرسله ربه بشيرًا ونذيرًا، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيرًا، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

ففي شهر شعبان من كل عام يقوم بعض الناس بعبادات فيه من صلاة، وقيام، وصيام، ودعاء، دون دليل شرعي صحيح ثابت عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك، وقد تناول العلماء والمحققون بيان ذلك، وسبق أن تحدثت عن ذلك على صفحات هذه المجلة الغراء، ومن باب النصح والتذكير سأتكلم في هذا اللقاء عن أهمية اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فأقول وبالله التوفيق:

إن الله تبارك وتعالى بعث نبيه صلى الله عليه وسلم رحمة للعالمين وحجة على الخلائق أجمعين، وافترض طاعته في كتابه كما جاء ذلك في مواضع متعددة، منها قوله تعالى: « قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ » (آل عمران:٣١)، قال ابن كثير رحمه الله: «هذه الآية الكريمة حاكمة على كل مَن ادَّعى محبة الله تعالى وليس هو على الطريقة المحمدية، فإنه كاذبٌ في دعواه في نفس الأمر، حتى يتَّبع الشرع المحمدي والدين النبوي في جميع أقواله، وأفعاله، وأحواله». (تفسير ابن كثير ١/٤٩٤).

وقد أفادت الآية أن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم والسير على منهاجه وهديه دليلٌ على صدق العبد في محبته لربِّه، كما أفادت أن اتباع النبي صلى الله عليه وسلم من أسباب محبة الله للعبد ومغفرة ذنوبه، كما قرن الله في كتابه بين طاعته ومحبته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم ومحبته في أكثر من موطن؛ قال الله تعالى: « قُلۡ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَۖ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡكَٰفِرِينَ » (آل عمران:٣٢)، وقال تعالى: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِى شَىۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا » (النساء:٥٩).

وأخبر الله في كتابه أن هداية العبد متوقفة

على طاعته وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ» (النور:٥٤).

وقد عظّم القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم وأمَر بالأخذ بكل ما جاء به، والانتهاء عما نهى عنه سبحانه وتعالى، قال سبحانه: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا» (الحشر:٧)، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن العمل بما جاء الرسول صلى الله عليه وسلم عملٌ بالقرآن.

قال القاسمي رحمه الله: «قال العلماء: وكل ما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم يصح أن يقال: إنه في القرآن؛ أخذًا من هذه الآية». (تفسير القاسمي ١٦/ ٥٧٣٩).

وللشيخ عطية سالم رحمه الله كلام دقيق وجميل حول هذه الآية يقول فيه: «الواقع أن العمل بهذه الآية الكريمة هو من لوازم نطق المسلم بالشهادتين؛ لأن قوله: أشهد أن لا إله إلا الله، اعترافٌ لله تعالى بالألوهية وبمستلزماتها، ومنها إرسال الرسل إلى خلقه، وإنزال كتبه، وقوله: أشهد أن محمداً رسول الله، اعترافٌ برسالة محمد صلى الله عليه وسلم من الله لخلقه، وهذا يستلزم الأخذ بكل ما جاء به هذا الرسول الكريم من الله سبحانه وتعالى، ولا يجوز أن يعبد الله إلا بما جاء به رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يحق له أن يعصي الله بما نهاه عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهي بحق مستلزمة للنطق بالشهادتين». (تتمة أضواء البيان ج٨/ص٦٧).

الرسول صلى الله عليه وسلم أفضل أسوة وقدوة

وقد أخبرنا ربنا في كتابه أن إمامنا وقدوتنا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال تعالى: «لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا» (الأحزاب:٢١).

وبناءً على هذه الآية أقول: إن الواجب على كل مؤمن بكتاب الله وبرسوله صلى الله عليه وسلم أن يجعل الرسول صلى الله عليه وسلم أسوته وقدوته، وألا يخرج بحال عن قوله وفعله وسائر ما جاء به، وأن ينشرح صدره بكل ما أخبر به صلى الله عليه وسلم ويرضى ويسلم لحكمه، كما قال: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا» (النساء:٦٥).

قال الشيخ محمد رشيد رضا رحمه الله: «أقسم تعالى بأن أولئك الذين رغبوا عن التحاكم إليه صلى الله عليه وسلم وأمثالهم، وهم من المنافقين الذين يزعمون الإيمان زعمًا كما تقدم لا يؤمنون إيمانًا صحيحًا حقيقيًّا، وهو إيمان الإذعان النفسي - إلا بثلاث؛ الأولى: أن يُحكِّموا الرسول صلى الله عليه وسلم فيما شجَر بينهم.. والثانية: قوله: «ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجًا مما قضيت». والمؤمن الكامل الإيمان ينشرح صدره لحكم الرسول صلى الله عليه وسلم من أول وهلة لعلمه أنه الحق، وأن الخير له فيه، والسعادة في الإذعان له. والثالثة: قوله تعالى: «ويسلموا تسليما» التسليم هنا: الانقياد بالفعل». (انظر: تفسير القرآن الحكيم ٥/ ٢٣٦).

وقد كان السلف رضوان الله عليهم يحثون الأمة ويوصونها باتباع السنة، فهذا عبد الله بن مسعود يقول: «اتَّبِعُوا ولا تبتدعوا فقد كُفيتُمْ». (رواه الدارمي في مقدمة سننه ١/ ٨٠).

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى رجل يسأله عن القدر: «أما بعد: أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمْره واتِّباع سُنَّة نبيِّه صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّم وَتَرْك مَا أَحْدَثَ الْمُحْدِثُونَ بَعْدَ مَا جَرَتْ به سُنَّتُهُ وكُفُوا مُؤْنَتَه؛ فَعَلَيْكَ بلُزُوم السُّنَّة فَإِنَّهَا لَكَ -بإذْن الله- عِصْمَةٌ، ثُمَّ اعْلَمْ أَنَّهُ لَمْ يَبْتَدِعْ النَّاسُ بِدْعَةً إلَّا قَدْ مَضَى قَبْلَهَا مَا هُوَ دَلِيل عَلَيْهَا أَوْ عِبْرَةٌ فيها؛ فَإِنَّ السُّنَّةَ إنَّمَا سَنَّهَا مَنْ قَدْ عَلِمَ مَا في خِلَافِهَا مِنْ الْخَطَأ وَالزَّلَل وَالْحُمْق وَالتَّعَمُّق؛ فَارْضَ لِنَفْسِكَ مَا رَضِيَ به الْقَوْمُ لأَنْفُسِهِمْ فَإِنَّهُمْ عَلَى عِلْمٍ وَقَفُوا، وَبِبَصَرٍ نَافِذٍ كَفُّوا، وَهُمْ عَلَى كَشْفِ الأُمُورِ كَانُوا أَقْوَى، وَبِفَضْلِ مَا كَانُوا

فيه أَوْلَى». (سنن أبي داود ١٩/٥).

وروى الإمام أحمد بسنده عن الحسن البصري أنه قال: "اعرفوا المهاجرين بفضلهم، واتبعوا آثارهم، وإياكم وما أحدث الناس في دينهم، فإنّ شر الأمور المحدثات". (انظر كتابه الزهد ص٣٣٤).

التحذير من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم

وقد حذّر الله تعالى في كتابه من مخالفة رسول الله صلى الله عليه وسلم واتباع غير سبيل المؤمنين، فقال تعالى: «وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا» (النساء:١١٥)، وهذه الآية فيها وعيد شديد كما هو ظاهر لمن شاقّ رسول الله صلى الله عليه وسلم واتّبع غير سبيل المؤمنين، وقال تعالى: «فَلۡيَحۡذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنۡ أَمۡرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمۡ فِتۡنَةٌ أَوۡ يُصِيبَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٌ» (النور:٦٣)، قال ابن كثير رحمه الله: «وقوله: «فليحذر الذين يخالفون عن أمره» أي: عن أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو سبيله ومنهاجه وطريقته وسنته وشريعته، فتوزن الأقوال بأقواله وأعماله؛ فما وافق ذلك قُبل، وما خالفه فهو مردود على قائله وفاعله كائنًا من كان، كما ثبت في الصحيحين وغيرهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رَدٌّ». أي: فليحذر وليخش من خالف شريعة الرسول ظاهرًا وباطنًا، «أن تصيبهم فتنة» أي: في قلوبهم، من كفر أو نفاق أو بدعة، «أو يصيبهم عذاب أليم» أي: في الدنيا، بقتل، أو حد، أو حبس، أو نحو ذلك». (تفسير ابن كثير ٤٢٢/٣).

وقد فهم الصحابة رضوان الله عليهم من هذه الآية ذلك، كما روى أحمد عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: تَمَتَّعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ (أي: تمتع بالعمرة إلى الحج)، فَقَالَ عُرْوَة بْن الزُّبَيْر: نَهَى أَبُو بَكْر وَعُمَر عَن الْمُتْعَة، فَقَالَ ابْن عَبَّاس: مَا يَقُول عُرَيَّة؟ قَالَ: يَقُول: نَهَى أَبُو بَكْر وَعُمَر عَن الْمُتْعَة، فَقَالَ ابْن عَبَّاس: أَرَاهُمْ سَيَهْلِكُونَ أَقُول: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّه عَلَيْه وَسَلَّمَ، وَيَقُول: نَهَى أَبُو بَكْر وَعُمَر؟». (المسند ٣٣٧/١، رواه الخطيب البغدادي).

وفيه أن عروة قال لابن عباس: هما والله كانا أعلم بسُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأتبع لها منك». وعلّق الخطيب على ذلك بقوله: قلت: قد كان أبو بكر، وعمر على ما وصفهما به عروة إلا أنه لا ينبغي أن يُقَلِّد أحدٌ في ترك ما ثبتت به سُنَّة رسول الله صلى الله عليه وسلم. (انظر كتابه الفقيه والمتفقه ص١٤٥).

وقال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: «أبو بكر، وعمر أفضل هذه الأمة، وأقربها إلى الصواب، قال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن يطيعوا أبا بكر وعمر يرشدوا». رواه مسلم، وقال صلى الله عليه وسلم: «عليكم بسُنَّتي وسُنَّة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ». ولم يُعرَف عن أبي بكر وعمر أنهما خالفا نصًّا برأيهما، فإذا كان قول أبي بكر وعمر إذا عارض الإنسان بقولهما قول الرسول صلى الله عليه وسلم فإنه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء، فما بالك بمن يعارض قوله صلى الله عليه وسلم ممن هو دون أبي بكر وعمر؟ وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشا إذا قيل له: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم... قال: لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا، فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه: «وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ» (القصص:٦٥)، ولم يقل: ماذا أجبتم فلانًا وفلانًا. (القول المفيد على كتاب التوحيد ١٥١/٢).

وبناءً على ما سبق أقول: إن أيّ خلاف يقع في الأحكام الشرعية، فإن مرده إلى الكتاب والسنة، فما وافقهما قُبل وما خالفهما رُدَّ، ولا يجوز الاحتجاج بخلاف الفقهاء في ترك العمل بالنصوص الشرعية، وأئمة الفقهاء-رحمهم الله تعالى- متفقون على أن النصوص هي الحاكمة على أقوالهم، وأن أقوالهم لا يُؤخذ بها إذا خالفت النصوص.

أسأل الله تعالى أن يرزقنا اتباع سنته والسير على منهاجه، والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

التيسير والتخفيف في شريعة الصيام

رئيس التحرير العام

د. عبد الله شاكر

الحمد لله الذي وسع كل شيء برحمته، والصلاة والسلام على الرحمة المهداة، والنعمة المسداة، وعلى آله وأصحابه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن لشهر رمضان منزلة عالية ومكانة سامية عند عموم المسلمين، وكثير منهم ينتظر قدومه ويفرح بهلاله، بل جاء عن السلف أنهم كانوا يدعون الله تبارك وتعالى أن يبلِّغهم رمضان؛ لما في الصيام من لذة الطاعة وصفاء النفوس.

وقد يرى البعض أن في الصيام مشقة على النفس وحرمانًا لها مما تحب، وهذا فَهْم قاصر يتنافى مع أحكام الإسلام وتشريعاته، ولذلك سأبيِّن لهؤلاء رحمة الله بعباده في تشريع الصيام، وقبل بيان شيء من ذلك نؤكد على أن الله تبارك وتعالى في أحكامه وتشريعاته لم يكلِّف عباده عنتًا، أو يوقع عليهم حرجًا، بل جعل التيسير والتخفيف قرين تلك الأحكام، وهذه حقيقة نطق بها القرآن، قال الله تعالى: «وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ» (الحج:٧٨)، وفي سياق الآيات المتحدثة عن فرضية الصيام يشير القرآن إلى شيء من ذلك، قال الله تعالى: «يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا۟ ٱلْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا۟ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَىٰكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ» (البقرة:١٨٥)، والتكليف في الإسلام عمومًا مرتبط بالاستطاعة، قال الله تعالى: «لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ» (البقرة:٢٨٦)، ويقول الإمام الشاطبي رحمه الله: «إن الأدلة على رفع الحرج عن هذه الأمة بلغت مبلغ القطع». (الموافقات ١/٢٧٩).

وبعد تقرير هذه الحقيقة أبيِّن هنا بعض أوجه التخفيف والتيسير في شريعة الصيام، فأقول وبالله التوفيق:

أولًا: التدرج في تشريع الصيام:

يعد التدرج في تشريع الأحكام من السمات البارزة في الإسلام، وقد وقع هذا في الصيام؛

حيث كان فرضه في السنة الثانية من الهجرة بعد أن تمكّن الإيمان في النفوس، يقول ابن القيم-رحمه الله-: «لما كان فطم النفوس عن مألوفاتها وشهواتها من أشق الأمور وأصعبها، تأخر فرضه إلى وسط الإسلام بعد الهجرة، لما توطنت النفوس على التوحيد والصلاة، وألفت أوامر القرآن، فنقلت إليه بالتدريج، وكان فرضه في السنة الثانية من الهجرة، فتوفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد صام تسع رمضانات، وفُرِضَ أولاً على وجه التخيير بينه وبين أن يطعم عن كل يوم مسكينًا، ثم نُقِلَ من ذلك التخيير إلى تحتم الصوم». (زاد المعاد ٢/٢٦).

ثانيًا: مدة الصيام ووقته:

من رحمة الله تعالى بعباده أن جعل الصيام في أيام محدودة كما قال تعالى: « أَيَّامًا مَّعْدُودَاتٍ » (البقرة:١٨٤)، وهي أيام شهر رمضان، وقد وصفت بأنها معدودة، وفي هذا تهوين على المكلفين، إذ لم يجعله شهورًا، وإنما شهر واحد على مدار العام، كما حدد القرآن الكريم الزمن الذي يصومه الصائم، فقال في ابتداء وقت الصوم: «وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ » (البقرة:١٨٧)، وقد بينت الآية أن ابتداء الصيام يكون بطلوع الفجر وانتهاؤه بإقبال الليل، قال القاسمي رحمه الله: «أباح تعالى الأكل والشرب-مع ما تقدم من إباحة الجماع- في أي الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل». (تفسير القاسمي ٣/٤٥٥).

وفي البخاري ومسلم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إذا أقبل الليل من هاهنا، وأدبر النهار من هاهنا، وغربت الشمس فقد أفطر الصائم». (البخاري: ١٩٥٤).

قال النووي رحمه الله في شرحه: «معناه: انقضى صومه وتم، ولا يوصف الآن بأنه صائم، فإن بغروب الشمس خرج النهار ودخل الليل، والليل ليس محلاً للصوم، وقوله صلى الله عليه وسلم: «أقبل الليل وأدبر النهار وغربت الشمس» قال العلماء: كل واحد من هذه الثلاثة يتضمن الآخَرَيْن ويلازمهما، وإنما جمع بينها؛ لأنه قد يكون في وادٍ ونحوه بحيث لا يشاهد غروب الشمس فيعتمد إقبال الظلام وإدبار الضياء، والله أعلم». (شرح النووي على مسلم: ٧/٢٠٩).

ثالثًا: النهي عن الوصال في الصوم:

ومعنى الوصال عند جمهور الفقهاء: أن يصوم يومين فأكثر لا فطر بينهما. (انظر: الموسوعة الفقهية ٤٣/١٦٠).

وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يواصل، ولكنه نهى عنه أصحابه، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصوم، فقال له رجل من المسلمين: إنك تواصل يا رسول الله. قال: وأيكم مثلي؟ إني أبيت يطعمني ربي ويسقين». فلما أبوا أن ينتهوا عن الوصال واصل بهم يومًا ثم يومًا، ثم رأوا الهلال، فقال: «لو تأخر لزدتكم، كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا»، (البخاري: ١٩٦٥). وبناءً على هذا الحديث كره جمهور العلماء الوصال في الصوم. قال ابن قدامة: «وهو مكروه في قول أكثر أهل العلم». (المغني ٣/١٧١).

وقال النووي: «اتفقت نصوص الشافعي والأصحاب على أن الوصال من خصائص رسول الله صلى الله عليه وسلم، فهو مكروه في حقنا». (المجموع ٦/٣٥٨).

ومعنى قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين». هو ما يغذيه الله به من معارفه، وما يفيض على قلبه من لذة مناجاته وقرّة عينه بقربه، ونعمه بحبّه، والشوق إليه، وتوابع ذلك من الأحوال التي هي غذاء القلوب. (انظر: زاد المعاد لابن القيم ٢/٢٧).

وقال ابن حجر: «قال الجمهور: قوله: «يطعمني ويسقين» مجاز عن لازم الطعام والشراب، فكأنه قال: يعطيني قوة الأكل

والشارب، ويفيض عليَّ ما يسد مدَّ الطعام والشراب ويقوي على أنواع الطاعة من غير ضعف في القوة ولا كلال في الإحساس». (فتح الباري ٤/٢٠٨).

وفي نهي النبي صلى الله عليه وسلم عن الوصال مظهر من مظاهر رحمة الله بعباده في تشريع الصيام، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله بابًا فيه: «باب الوصال، ومن قال: ليس في الليل صيام؛ لقوله عز وجل: «ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ» (البقرة:١٨٧)، ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عنه رحمة لهم وإبقاءً عليهم، وما يكره من التعمق». ثم ساق حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال رحمةً لهم». (انظر: فتح الباري ٤/٢٠٢).

رابعًا: إسقاط القضاء عمن أكل أو شرب ناسيًا:

من رحمة الله في تشريع الصيام أنه لم يطلب ممن نسي فأكل أو شرب القضاء، وفي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا نسي فأكل وشرب فليُتِمّ صومه؛ فإنما أطعمه الله وسقاه». (البخاري: ١٩٢٣).

قال ابن حجر: «وفي الحديث لطف الله بعباده والتيسير عليهم ورفع المشقة والحرج عنهم». (فتح الباري ٤/١٥٧).

وقال ابن القيم: «وكان من هديه صلى الله عليه وسلم إسقاط القضاء عمن أكل وشرب ناسيًا، وأن الله سبحانه هو الذي أطعمه وسقاه» (زاد المعاد ٢/٥٠).

خامسًا: مراعاة ظروف المكلفين:

من مظاهر رحمة الله تعالى في تشريع الصيام التخفيف عن أصحاب الأعذار حتى لا يشق عليهم، وأصحاب الأعذار أنواع، وهم كالتالي:

أولاً: المريض والمسافر:

فالمريض الذي يتضرر بالصيام، والمسافر الذي له القصر لهما الإفطار وعليهما القضاء؛ لقول الله تعالى: «فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ» (البقرة:١٨٥).

قال ابن كثير رحمه الله: «المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر؛ لما في ذلك من المشقة عليهما، بل يفطران ويقضيان من أيام أُخَر». (تفسير ابن كثير ١/٣٠٢).

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر، فرأى زحامًا ورجلاً قد ظُلِّل عليه، فقال: ما هذا؟ فقالوا: صائم، فقال: ليس من البر الصوم في السفر». (البخاري: ١٩٤٦).

وهذا فيمن يجد مشقة في الصيام وهو مسافر، أما من أطاقه ولم يشقّ عليه وصام؛ فصومه صحيح، قال أنس بن مالك رضي الله عنه: «وكنا نسافر مع النبي صلى الله عليه وسلم، فلم يعب الصائم على المفطر، ولا المفطر على الصائم». (البخاري: ١٤٧).

ثانيًا: الحامل والمرضع:

يجوز للحامل والمرضع أن تفطرا؛ وذلك لأن الحامل قد يشق عليها الصوم من أجل الحمل، لا سيما في الأشهر الأخيرة، وقد يؤثر على نمو الحمل، وكذلك المرضع إذا صامت يقل لبنها، ولهذا كان من رحمة الله أن رخص لهما في الفطر. (انظر: الشرح الممتع ٦/٣٥٩).

ثالثًا: الحائض والنفساء:

يجب عليهما الفطر وتقضيان الصيام؛ لقول عائشة رضي الله عنها: «كنا نؤمر بقضاء الصوم ولا نؤمر بقضاء الصلاة». (مسلم: ٣٣٥).

رابعًا: العاجز عن الصيام لكبر أو مرض لا يرجى برؤه، فهؤلاء لهما الفطر، وعليهما أن يطعما عن كل يوم مسكينًا، قال الله تعالى: «وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ» (البقرة:١٨٤).

ومما سبق يظهر بوضوح التيسير والتخفيف في شريعة الصيام. والحمد لله رب العالمين.

افتتاحية العدد

المؤمنون ومسؤولية أداء الأمانة

الرئيس العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهديهم إلى يوم الدين، وبعدُ:

فإن الأمانة خُلق رفيع من أخلاق الإسلام ومسؤولية عظيمة حملها الإنسان.

ومادة «أمنَ» في اللغة بمعنى: الأمان والأمانة، والأمن ضَد الخوف، والأمانة: ضد الخيانة. (انظر: لسان العرب ج١٣ص٢١).

وعرَّفها العلماء في الاصطلاح بتعريفات كثيرة منها: «خُلق ثابت في النفس يعف به الإنسان عما ليس له به حق، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس، ويؤدي به ما عليه أو لديه من حق لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند الناس». (الأخلاق الإسلامية وأسسها ج١/٦٤٦).

وخُلق الأمانة من أبرز أخلاق الأنبياء والمرسلين، فأول رسول أرسله الله إلى الأرض أخبر قومه بأنه أمين، كما جاء في قول الله تعالى: «كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٠٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ» (الشعراء:١٠٥-١٠٧)، ومثله قال هود، وصالح، ولوط، وشعيب، وقد ذكر الله ذلك في نفس السورة، ويأتي نبينا صلى الله عليه وسلم في مقدمة الأمناء.

قال القاضي عياض رحمه الله: «وأما عدله صلى الله عليه وسلم، وأمانته وعفته وصدق لهجته، فكان صلى الله عليه وسلم آمن الناس، وأعدل الناس، وأعف الناس، وأصدقهم لهجة منذ كان، اعترف له بذلك محادّوه، وكان يسمى قبل نبوته «الأمين»».

قال ابن إسحاق: كان يسمى الأمين بما جمع الله فيه من الأخلاق الفاضلة، وقال تعالى: «مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ» (التكوير:٢١). أكثر المفسرين على أنه محمد صلى الله عليه وسلم، ولما اختلفت قريش عند بناء الكعبة فيمن يضع الحجر حكّموا أول داخل عليهم؛ فإذا بالنبي صلى الله عليه وسلم داخل، وذلك قبل نبوته صلى الله عليه وسلم، فقالوا: هذا محمد،

هذا الأمين قد رضينا به». (الشفا بتعريف حقوق المصطفى ج١/١٣٩).

وقد أمر الله عموم المؤمنين بأداء الأمانات والقيام بها. قال تعالى: «إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا وَإِذَا حَكَمۡتُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحۡكُمُواْ بِٱلۡعَدۡلِۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعَۢا بَصِيرٗا» (النساء:٥٨)، ويلاحظ أن الأمانة في الآية وردت بصيغة الجمع مما يدل على أنها أمانات متعددة، وقد أشار إلى بعضها الحافظ ابن كثير رحمه الله في قوله: «يخبر تعالى أنه أمر بأداء الأمانات إلى أهلها، وفي حديث الحسن عن سمرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أدِّ الأمانة إلى من ائتمنك، ولا تخن من خانك». (رواه الإمام أحمد، وأهل السنن).

وهذا يعم جميع الأمانات الواجبة على الإنسان، من حقوق الله عز وجل على عباده من الصلوات والزكوات، والصيام والكفارات والنذور، وغير ذلك مما هو مؤتمن عليه، ولا يطلع عليه العباد، ومن حقوق العباد بعضهم على بعض كالودائع وغير ذلك مما يأتمنون به بعضهم على بعض من غير اطلاع بينة على ذلك، فأمر الله عز وجل بأدائها، فمن لم يفعل ذلك في الدنيا أخذ ذلك منه يوم القيامة، كما ثبت في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لتؤدن الحقوق إلى أهلها، حتى يُقتص للشاة الجمّاء من القَرناء». (تفسير ابن كثير ٧٠٨/١).

ويظهر من كلام الإمام ابن كثير رحمه الله أن الأمانات التي يجب أن تؤدى ليست هي الودائع وحدها، وإنما هي صور عديدة، مادية وأدبية، ومن الأمانات الواجب أداؤها أمانة تعليم الناس العلم، فالذي يتعلم علمًا قد أودع أمانة، وعليه أن يتحمل مسؤولية تعليم الناس وإرشادهم، وقد أخذ الله العهد على العلماء بعدم كتمان العلم، كما قال تعالى: «وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمۡ وَٱشۡتَرَوۡاْ بِهِۦ ثَمَنٗا قَلِيلٗاۖ فَبِئۡسَ مَا يَشۡتَرُونَ» (آل عمران:١٨٧)، ولذلك عُدَّ علماء أهل الكتاب خائنين؛ لكتمانهم صفات النبي صلى الله عليه وسلم المذكورة في التوراة والإنجيل، وعلى العلماء معرفة الوسائل الصحيحة التي يؤدون بها العلم، دون إفراط أو تفريط، وعليهم أن يدركوا قيمة الكلمة التي ينطقون بها، فيتحرون الحق وينفعون الخلق، ويكونون قدوة صالحة في العلم والعمل بين الناس.

قال الشيخ محمد بن عثيمين رحمه الله: «طالب العلم الشرعي عليه مسؤولية كبيرة؛ لأنه واسطة بين الخلق وبين الرسول صلى الله عليه وسلم؛ إذ إنه ينقل شريعة الرسول صلى الله عليه وسلم إلى أمته، ولهذا يجب أن يكون أسوة حسنة في عباداته وأخلاقه ومعاملاته؛ لأنه إذا كان أسوة في ذلك فقد أثمر العلم في حقه ثمراته الجليلة». (تفسير سورة غافر ص٩).

ومن الأمانة: حفظ الجوارح عن الوقوع فيما حرَّم الله، ومن أعظم الجوارح التي يجب العناية بها اللسان والفرج. قال الله تعالى: «وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا» (الإسراء:٣٦). وقد عقد الإمام البخاري في كتاب الرقاق من صحيحه بابًا قال: «باب حفظ اللسان، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرًا أو ليصمت». ثم ساق بسنده حديث سهل بن سعد رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «مَن يضمن لي ما بين لَحْييه وما بين رجليه أضمن له الجنة». (البخاري: ٦٤٧٤).

قال الحافظ ابن حجر في شرحه: «من يضمن من الضمان بمعنى الوفاء بترك المعصية، فأطلق الضمان وأراد لازمه وهو أداء الحق الذي عليه، فالمعنى: من أدى الحق الذي على لسانه من النطق بما يجب عليه، أو الصمت عما لا يعنيه، وأدى الحق الذي على فرجه من وضعه في الحلال وكفه عن الحرام». (فتح الباري ٣٠٩/١١).

ومن الأمانة حفظ العهد، وهي من أخص صفات أهل الإيمان الوارثين للفردوس المذكورين في أوائل سورة المؤمنون، قال

تعالى: « وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ » (المؤمنون:٨).

ومن الأمانة: العدل والحكم بين الناس به، وقد أفردته الآية بالذكر لأهمية العناية به، قال تعالى بعد أمره بأداء الأمانة: « وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا » (النساء:٥٨)، وختام الآية بذكر الاسمين الجليلين لله تعالى السميع، البصير، يثير في المؤمن الانتباه إلى أن الله تعالى شهيد ومطلع على أقواله وأفعاله، فيسمع ما يقول ويرى ما يفعل.

ولشأن الأمانة ومسؤوليتها العظيمة أشفقت بعض المخلوقات الكبيرة من حملها وحملها الإنسان كما قال تعالى: « إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا » (الأحزاب:٧٢)، قال الإمام ابن جرير رحمه الله في تفسيره لهذه الآية: «اختلف أهل التأويل في معنى ذلك، فقال بعضهم: معناه أن الله عرض طاعته وفرائضه على السماوات والأرض والجبال على أنها إن أحسنت أثيبت وجوزيت، وإن ضيعت عوقبت، فأبت حملها شفقًا منها أن لا تقوم بالواجب عليها». ثم ساق عن ابن عباس وسعيد بن جبير والضحاك ما يؤيد ذلك. (انظر تفسيره ٢٢/٣٨).

وللقاسمي رحمه الله ملحظ لغوي بليغ حول هذه الآية يقول فيه: وفي ختم السورة بهذه الآية من البدائع ما يسميه علماء البديع (ردُّ العجز على الصدر) ذلك لأن طليعة هذه السورة كانت في ذم المنافقين وقص مخازيهم ونواياهم السيئة، ضد الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في غزوة الأحزاب، فلما خانوا أماناتهم بالفرار والتعويق لإخوانهم والتثبيط لهم، وما كان من شنائعهم في تلك الغزوة، بيَّن الله تعالى في خاتمة السورة شأن الأمانة، وعظم خطرها، وأنها عند الله بمكان عظيم، وذلك لأن من أعطى من نفسه موثقًا عاهد الله عليه، فاطمأنت به النفوس ووثقت به وركنت إليه وأدرجته في عداد من يشد أزرها، فإذا هو غادر خائن كاذب متلاعب، يتخذ عهود الله هزؤًا ولعبًا، فيخذل من وثق به، ويمالئ العدو عليه ويثبط من يرجى منه نوع معونة، ويوقع الأراجيف ليوهي العزائم ويضعف الهمم، فتكثر القالة وترتبك العامة فما أسوأ ما يأتي به، وما أفظع ما ارتكب وما أعظم جريمته. (تفسير القاسمي: ١٣/٤٩٢٨).

وللشيخ محمد الأمين الشنقيطي توجيه كريم حول هذه الآية يقول فيه: «والظاهر أن المراد بالإنسان آدم عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام، وأن الضمير في قوله: «إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً» (الأحزاب: ٧٢) راجع للفظ الإنسان مجرداً عن إرادة المذكور منه الذي هو آدم. والمعنى: أنه أي الإنسان الذي لا يحفظ الأمانة كان ظلوماً جهولاً: أي كثير الظلم والجهل، والدليل على هذا أمران: أحدهما: قرينة قرآنية دالة على انقسام الإنسان في حمل الأمانة المذكورة إلى معذب ومرحوم في قوله تعالى بعده متصلاً به: « لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا » (الأحزاب: ٧٣)، فدل هذا على أن الظلوم الجهول من الإنسان، هو المعذب والعياذ بالله، وهم المنافقون، والمنافقات، والمشركون، والمشركات، دون المؤمنين والمؤمنات.

واللام في قوله: ليعذب: لام التعليل وهي متعلقة بقوله: وحملها الإنسان.

الأمر الثاني: أن الأسلوب المذكور الذي هو رجوع الضمير إلى مجرد اللفظ دون اعتبار المعنى التفصيلي معروف في اللغة التي نزل بها القرآن، وقد جاء فعلاً في آية من كتاب الله، وهي قوله تعالى: «وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ» (فاطر: ١١)، لأن الضمير في قوله: «ولا ينقص من عمره»: راجع إلى لفظ المعمر دون معناه التفصيلي». (أضواء البيان: ٦/٦٠٦).

وللحديث صلة إن شاء الله تعالى.

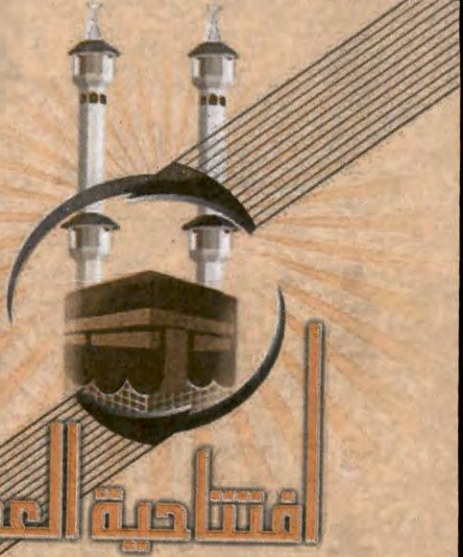

افتتاحية العدد

المؤمنون ومسؤولية أداء الأمانة

الحلقة الأخيرة

رئيس التحرير العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين، وبعدُ:

فقد تحدثت في اللقاء الماضي عن خُلُق الأمانة، وبيَّنت أنها من خصال الأنبياء والمرسلين، وعباد الله الصالحين، كما ذكرت بعض مجالاتها، وأواصل في هذا اللقاء الحديث حول هذا الموضوع، فأقول وبالله التوفيق:

إن الله تبارك وتعالى نهى أهل الإيمان عن خيانة الأمانة، فقال في كتابه الكريم: « يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ» (الأنفال:٢٧)، وقد ساق الحافظ ابن كثير روايات في سبب نزول هذه الآية، وعقَّب عليها بقوله: «والصحيح أن الآية عامة وإن صح أنها وردت على سبب خاص، فالأخذ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب عند جماهير العلماء، والخيانة: تعم الذنوب الصغار والكبار اللازمة والمتعدية». (تفسير ابن كثير ٢/٤١٢).

وذكر البغوي رحمه الله في تفسيره للآية عن ابن عباس أنه قال: «لا تخونوا الله بترك فرائضه، والرسول صلى الله عليه وسلم بترك سنته، وتخونوا أماناتكم». وذكر عن قتادة أنه قال: «واعلموا أن دين الله أمانة فأدوا إلى الله ما ائتمنكم عليه من فرائضه وحدوده، ومن كانت عليه أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها». (معالم التنزيل ٢/٢٤٣).

والله تبارك وتعالى يحب أهل الأمانة، ولا يحب أصحاب الخيانة، حتى مع المخالفين لك في الديانة، قال تعالى: « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوۡمٍ خِيَانَةٗ فَٱنۢبِذۡ إِلَيۡهِمۡ عَلَىٰ سَوَآءٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ» (الأنفال:٥٨)، قال ابن كثير: «أي: حتى ولو في حق الكفار لا يحبها أيضًا». (تفسير ابن كثير ٢/٤٣٨).

واعلم يا عبد الله أن الله لا يُوفّق الخائنين، كما قال الله تعالى: «وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ» (يوسف:٥٢)، قال الشوكاني: «أي: لا يثبته ويسدّده، أو لا يهديهم في كيدهم حتى يوقعوه على وجه يكون له تأثير يثبت به ويدوم». (فتح القدير: ٢/ ٣٤).

والخيانة أمارة على النفاق كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «آية المنافق ثلاث؛ إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان». (البخاري: ٣٣، ومسلم: ١٠٧).

قال ابن حجر في شرحه: «والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه الفعل والترك وتتفاوت مراتبه». (فتح الباري ١/ ٨٩).

وقال النووي في معنى الحديث: «هذا الحديث مما عدَّه جماعة من العلماء مشكلاً من حيث إن هذه الخصال توجد في المسلم المصدق الذي ليس فيه شك، وقد أجمع العلماء على أن من كان مصدقًا بقلبه ولسانه وفعل هذه الخصال لا يحكم عليه بكفر، ولا هو منافق يخلد في النار.. وهذا الحديث ليس فيه بحمد الله تعالى إشكال، ولكن اختلف العلماء في معناه؛ فالذي قاله المحققون والأكثرون- وهو الصحيح المختار-: أن معناه: أن هذه الخصال خصال نفاق، وصاحبها شبيه بالمنافقين في هذه الخصال، ومتخلق بأخلاقهم». (شرح النووي على مسلم ٢/ ٤٦).

وعن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أربع من كن فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها: إذا اؤتمن خان، وإذا حدَّث كذب، وإذا عاهد غدَر، وإذا خاصم فجر». (البخاري: ٣٤، ومسلم: ١٠٦).

وقد تضمن هذا الحديث الغدر في المعاهدة، وأنه من خصال المنافقين، وقد ورد وعيد شديد على هذه الخصلة من النبي صلى الله عليه وسلم لمخالفتها للأمانة، وقد عقد الإمام البخاري رحمه الله في صحيحه بابًا قال فيه: «باب إثم الغادر للبر والفاجر». ثم ساق حديث أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «لكل غادر لواء يوم القيامة يُعرَف به». (صحيح البخاري: ٣١٨٧). قال ابن حجر في شرحه: «قوله: باب إثم الغادر للبر والفاجر» أي: سواء كان من بَرّ لفاجر أو بَرّ، أو من فاجر لبر أو فاجر». (فتح الباري ٦/ ٢٨٤).

كما عقد الإمام مسلم بابًا في صحيحه قال فيه: «باب تحريم الغدر»، وساق تحته حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا جمع الله الأولين والآخرين يوم القيامة يرفع لكل غادر لواء، فقيل: هذه غدرة فلان بن فلان». (صحيح مسلم: ١٧٣٥).

كما ذكر النبي صلى الله عليه وسلم أن من خصال المنافقين الفجور في الخصومة، ومعنى الفجور في الخصومة: أنهم يميلون عن الحق ويقولون الباطل والكذب. (انظر: شرح النووي على مسلم ٢/ ٤٨).

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم: «أن أحوال الناس في نهاية الزمان ستتغير، حتى ينسب الأمين إلى الخيانة، ويؤتمن الخائن، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إنَّ اللَّهَ يبغضُ الفحشَ والتَّفحُّشَ والَّذي نَفسُ محمَّد بيده لا تقومُ السَّاعةُ حتَّى يُخوَّنَ الأمينُ، ويؤتَمنَ الخائنُ، حتَّى يَظهرَ الفُحشُ والتَّفحُّشُ، وقَطيعةُ الأرحام وسوءُ الجوار، والَّذي نفسُ محمَّد بيده إنَّ مثلَ المؤمنِ لَكمثلِ القطعةِ منَ الذَّهبِ

نفخَ عليها صاحبُها فلم تَغيَّرْ ولم تَنقُصْ، والَّذي نفسُ محمَّد بيده إنَّ مثلَ المؤمن لَكمثل النَّحلة أكلَتْ طيِّبًا ووضعت طيِّبًا ووقعتْ فلم تَكْسر ولم تُفسد، قالَ: وقالَ: ألا إنَّ لي حوضًا ما بينَ ناحيتيه كما بينَ أيلةَ إلى مَكَّةَ-أو قالَ صنعاءَ إلى المدينة- وإنَّ فيه منَ الأباريق مثلَ الكواكب هوَ أشدُّ بياضًا منَ اللَّبن وأحلى منَ العسَل مَن شربَ منهُ لم يظمأ بعدَها أبدًا». (أخرجه أحمد في مسنده، وقال الشيخ أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر ١١/ ٩٠).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «سَيَأْتِي عَلَى النَّاسِ سَنَوَاتٌ خَدَّاعَاتٌ؛ يُصَدَّقُ فِيهَا الْكَاذِبُ، وَيُكَذَّبُ فِيهَا الصَّادِقُ، وَيُؤْتَمَنُ فِيهَا الْخَائِنُ، وَيُخَوَّنُ فِيهَا الْأَمِينُ، وَيَنْطِقُ فِيهَا الرُّوَيْبِضَةُ. قِيلَ: وَمَا الرُّوَيْبِضَةُ؟ قَالَ: الرَّجُلُ التَّافِهُ فِي أَمْرِ الْعَامَّةِ». (أخرجه ابن ماجه في سننه، وقال الألباني: صحيح، انظر: صحيح سنن ابن ماجه ٢/ ٣٧٤).

والمراد بالسنوات الخداعات: هي التي تكثر فيها الأمطار ويقل الخصب، فذلك خداعها؛ لأنها تطمعهم في الخصب بالمطر، ثم تُخلف، وقيل: الخداعة: القليلة المطر، من خدع الرِّيق: إذا جف». انظر: النهاية في غريب الحديث ٢/ ١٤).

والرويبضة: تصغير رابضة، وهو الذي يرعى الغنم، وقيل: هو الذي عجز عن معالي الأمور وقعد عن طلبها. (انظر: لسان العرب ٧/ ١٥٣).

وضياع الأمانة والتفريط فيها مؤذن بقرب قيام الساعة، كما جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «بَيْنَمَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ فَقَالَ مَتَى السَّاعَةُ. فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحَدِّثُ، فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ: سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرِهَ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: أَيْنَ أُرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟ قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: فَإِذَا ضُيِّعَتِ الْأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ. قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا؟ قَالَ: إِذَا وُسِّدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ».

وقد أخرج الإمام البخاري هذا الحديث في موضعين من صحيحه أولهما: في كتاب العلم. قال ابن حجر في شرحه: «ومناسبة هذا المتن لكتاب العلم: أن إسناد الأمر إلى غير أهله، إنما يكون عند غلبة الجهل ورفع العلم، وذلك من جملة الأشراط، ومقتضاه: أن العلم ما دام قائمًا ففي الأمر فسحة، وكأن المصنف أشار إلى أن العلم إنما يُؤخَذ عن الأكابر، تلميحًا لما روي عن أبي أمية الجمحي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من أشراط الساعة أن يُلتَمس العلم عند الأصاغر». (فتح الباري: ١/ ١٤٣).

وعليه أقول: يا أهل الإيمان: احذروا من ضياع الأمانة، والزموا أمر الله تبارك وتعالى بالقيام بأدائها، وأختم هذا المقال بالأثر الوارد عن ابن مسعود رضي الله عنه، وهو يبين شأن الأمانة: «القتل في سبيل الله يكفّر الذنوب كلها إلا الأمانة، قال: يُؤتَى بالعبد يوم القيامة وإن قتل في سبيل الله، فيقال: أدِّ أمانتك، فيقول: أي: رب كيف وقد ذهبت الدنيا؟ قال: فيقال: انطلقوا به إلى الهاوية، فينطلق به إلى الهاوية، وتُمثَّل له أمانته كهيئتها يوم دُفِعَتْ إليه، فيراها فيعرفها، فيهوي في أثرها حتى يدركها، فيحملها على منكبيه، حتى إذا ظن أنه خارج زلَّت عن منكبيه، فهو يهوي في أثرها أبد الآبدين..». رواه البيهقي في الجامع لشعب الإيمان، وقال محققه: رجاله موثقون. (٨/ ٢٤٨).

أسأل الله تعالى أن يوفّقنا للقيام بأداء الأمانات التي أوجبها على العباد، كما أسأله العون على ذلك، والله المستعان.

ورحل العلامة الفقيه

عبد القادر ابن شيبة الحمد

إعداد د/ عبد الله شاكر

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ومصطفاه، وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهداه.

وبعدُ:

فقد كتب الله الفناء على كل حيّ، كما قال الله تعالى: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٢٦﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ» (الرحمن:٢٦-٢٧).

في ليلة الثلاثاء الثالث والعشرين من شهر رمضان المبارك، انتقل من هذه الدنيا الفانية المربي الفاضل والعالِم الجليل شيخنا عبد القادر بن شيبة الحمد بن يوسف بن شيبة الحمد.

وقد وُلِدَ الشيخ-رحمه الله- في مدينة كفر الزيات بجمهورية مصر العربية في العشرين من شهر جمادى الآخرة عام ١٣٣٩هـ الموافق للثامن والعشرين من شهر فبراير ١٩٢١م، وقد عُرف عن شيخنا الحرص على طلب العلم وهو في سنّ مبكرة، حيث التحق بكُتّاب القرية وهو في الخامسة من عمره، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ القرآن الكريم كاملاً وهو في سن مبكرة، وقد التحق بالمعهد الأزهري، وبعد حصوله على الثانوية الأزهرية التحق بكلية الشريعة، وكان أحد ثلاثة طلاب اجتازوا العالمية من بين ثلاثمائة طالب، وبعد تخرُّجه عمل مدرسًا لمدة عشر سنوات في بعض المدن والقرى المصرية، وفي هذه الأثناء تعرف على دعوة أنصار السنة والتقى بقيادتها، وأسند إليه الإشراف الدعوي على قطاع محافظة الشرقية، ثم رحل إلى المملكة العربية السعودية، وبعد وصوله عُيِّن مدرسًا بمعهد بريدة العلمي عام ١٣٧٦هـ، ودرَّس فيه لمدة ثلاث سنوات، ثم عُيِّن في عام ١٣٧٩هـ مدرسًا بكليتي الشريعة واللغة العربية بمدينة الرياض، وفي عام ١٣٨٢هـ بعد افتتاح الجامعة الإسلامية بالمدينة النبوية بعام واحد طلب سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز من سماحة العلامة محمد بن إبراهيم تكليف الشيخ عبد القادر بالتدريس في الجامعة الإسلامية، فعمل في كلياتها وفي قسم الدراسات العليا بها، وهناك تتلمذ وتخرج عليه آلاف الطلاب الذين انتشروا بعد ذلك دعاة في بلادهم وفي أنحاء العالم، وبقي يعمل في الجامعة الإسلامية إلى أن بلغ سن التقاعد عام ١٤٠٤هـ.

وكان الشيخ رحمه الله يلقي دروسًا علمية في المسجد النبوي على الكرسي الذي كان يجلس عليه سماحة الشيخ عبد العزيز بن باز، والشيخ عطية سالم، رحمهما الله، وكان درسه يؤمه طلاب العلم وزوار مسجد الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان يتناول قضايا عقدية وفقهية واجتماعية وأخلاقية من خلال تفسيره للقرآن الكريم، وقد أمَّ المصلين في محراب رسول الله صلى الله عليه وسلم لصلاة التهجد في المسجد النبوي في شهر رمضان عامي ١٤٠٦، ١٤٠٨هـ، وكان الشيخ يهتم بنشر العقيدة السلفية ويدافع عنها، وكان يزور أحيانًا شيخي العلامة حماد بن محمد الأنصاري رحمه الله في منزله.

وكان يحدث شيخنا في قضايا دعوية وعلمية، وكان يسمع أحيانًا قراءتي على شيخي حماد الأنصاري من كتاب موطأ الإمام مالك برواية يحيى بن يحيى الليثي عنه، حيث كان يجتمع بعض طلاب العلم، ومنهم أساتذة في الجامعة ليسمعوا القراءة على الشيخ، وكنت في كل زيارة أقوم بها للرياض أزور الشيخ في المسجد الذي يصلي فيه، وفي كل لقاء يطلب مني كلمة أقولها للمصلين، فأقوم منفذًا طلبه، وكان يستضيفني في منزله على طعام العشاء.

أسأل الله أن يغفر له ويرحمه ويجمعنا به في أعلى عليين.

افتتاحية العدد

فضائل عشر ذي الحجة والأعمال المستحبة فيها

الرئيس العام
د. عبد الله شاكر

الحمد لله رب العالمين، والعاقبة للمتقين، ولا عدوان إلا على الظالمين، والصلاة والسلام على إمام الأنبياء وسيد المرسلين، وعلى آله وصحبه ومن سلك سبيلهم إلى يوم الدين.

وبعدُ:

فإن الله تبارك وتعالى أكرم عباده المؤمنين بمواسم عظيمة للاستكثار من الصالحات والإقبال على الطاعات، وهي كثيرة بحمد الله ومنها عشر ذي الحجة التي هي على الأبواب، وقد أودع الله فيها كثيرًا من الخيرات، وقد ورد في فضلها وعظيم مكانتها أدلة من الكتاب والسنة، منها:

١- قول الله تعالى: «وَٱلْفَجْرِ ۝١ وَلَيَالٍ عَشْرٍ» (الفجر: ١، ٢)، والمراد بقوله: «وليال عشر»: العشر الأول من ذي الحجة، وقد ذكره ابن حجر عن ابن عباس، وعبد الله بن الزبير، ومسروق، وعكرمة، وغيرهم، وهو أرجح الأقوال فيها، قال ابن جريج: «والصواب من القول في ذلك عندنا أنها عشر الأضحى؛ لإجماع الحُجَّة من أهل التأويل». (جامع البيان ٩٠٨/٣٠).

٢- ومن فضائل عشر ذي الحجة: أنها الأيام المعلومات التي شرع الله ذكره فيها وأمر به، قال الله تعالى: «لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ ۖ فَكُلُوا۟ مِنْهَا وَأَطْعِمُوا۟ ٱلْبَآئِسَ ٱلْفَقِيرَ ۝٢٨ ثُمَّ لْيَقْضُوا۟ تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا۟ نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا۟ بِٱلْبَيْتِ ٱلْعَتِيقِ» (الحج: ٢٨-٢٩). قال ابن كثير رحمه الله عن ابن عباس رضى الله عنهما: إن الأيام المعلومات أيام العشر، وعلَّقه البخاري عنه بصيغة الجزم به. (انظر تفسير ابن كثير ٢٩٨/٣).

وقال ابن رجب رحمه الله: «وجمهور العلماء على أن هذه الأيام المعلومات هي عشر ذي الحجة». (لطائف المعارف ص٣٧٧).

كما أن هذه العشر تشتمل على يوم عرفة، وهو اليوم الذي يباهي ربنا فيه ملائكته

بعباده الواقفين فيه، كما أنه يشتمل على يوم النحر الذي هو يوم الحج الأكبر. قال ابن كثير: «وبالجملة، فهذه العشر قد قيل: إنها أفضل أيام السنة، وفضَّلها كثير على عشر رمضان الأخيرة؛ لأن هذا يُشرع فيه ما يُشرع في ذلك؛ من صلاة وصيام وصدقة وغير ذلك، ويمتاز هذا باختصاصه بأداء فرض الحج فيه، وقيل: ذلك أفضل لاشتماله على ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر، وتوسط آخرون فقالوا: أيام هذا أفضل، وليالي ذاك أفضل، وبهذا يجتمع شمل الأدلة، والله أعلم». (تفسير ابن كثير ٣/٢٩٩).

كما ورد في فضل عشر ذي الحجة أحاديث كثيرة منها: حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما العمل في أيام أفضل من العمل في هذه». قالوا: ولا الجهاد؟ قال: ولا الجهاد، إلا رجل خرج يخاطر بنفسه وماله فلم يرجع بشيء». (البخاري: ٢٩٦٩).

وأخرج أبو داود عن ابن عباس رضى الله عنهما بلفظ: «ما من أيام العمل الصالح فيها أحب إلى الله من هذه الأيام» - يعني أيام العشر- قالوا: يا رسول الله، ولا الجهاد في سبيل الله؟ قال: «ولا الجهاد في سبيل الله، إلا رجل خرج بنفسه وماله فلم يرجع من ذلك بشيء». (صحيح أبي داود ٢/٤٩٢).

قال ابن حجر رحمه الله: «والذي يظهر أن السبب في امتياز عشر ذي الحجة؛ لمكان اجتماع أمهات العبادة فيه، وهي الصلاة والصيام والصدقة والحج، ولا يناتي ذلك في غيره». (فتح الباري ٢/٤٦٠).

وقال ابن رجب رحمه الله: «يُختص عشر ذي الحجة في حق الحاج بأنه زمن سوقهم الهدي الذي به يكمل فضل الحج». (لطائف المعارف ص٣٧٨).

ويلاحظ من الأحاديث السابقة فضل العمل في أيام العشر، وأن العمل فيها أحب إلى الله تبارك وتعالى، ومن باب الفائدة والتذكير لنفسي ولإخواني سأذكر هنا- إن شاء الله بعض الأعمال التي يجب على كل مسلم ومسلمة العناية والاهتمام بها، ويأتي على رأسها ما يلي:

١- الإتيان بالفرائض كما أوجبها الله تعالى: إن قيام العبد بالفرائض والأركان علامةٌ على صدق الإيمان، وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن ربه أن أحب الأعمال إليه ما افترض على عباده، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، ولئن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته» (البخاري: ٦٥٠٢).

وقد أفاد الحديث أن أداء الفرائض أحب الأعمال إلى الله تعالى، قال ابن حجر رحمه الله: «قال الطوفي: الأمر بالفرائض جازم ويقع بتركها المعاقبة بخلاف النفل في الأمرين، وإن اشترك مع الفرائض في تحصيل الثواب، فكانت الفرائض أكمل، فلهذا كانت أحب إلى الله وأشد تقريباً، وأيضاً فالفرض كالأصل والأسّ والنفل كالفرع والبناء، وفي الإتيان بالفرائض على الوجه المأمور به امتثالُ الأمر واحترامُ الآمر وتعظيمه بالانقياد إليه وإظهار عظمة الربوبية وذل العبودية، فكان التقرب بذلك أعظم العمل». (فتح الباري ١١/٣٤٣).

ومن أعظم الأركان بعد الشهادتين التي يدخل العبد بها في الإسلام: الصلاة، وقد حث النبي صلى الله عليه وسلم على كثرة السجود، وهو ركنٌ من أركان الصلاة، كما في حديث ثوبان رضى الله عنه أن رسول الله

صلى الله عليه وسلم قال له: «عليك بكثرة السجود لله تعالى فإنك لا تسجد لله سجدة إلا رفعك بها درجة، وحطَّ عنك بها خطيئة» (مسلم: ٢٢٤).

٢- كثرة النوافل:

وحديث أبي هريرة رضى الله عنه السابق يدل على ذلك، ويبين أن الإتيان بالنوافل سببٌ لمحبة الله للعبد، وهذا شرف عظيم لمن يناله، ومن الأعمال الصالحة في هذه العشر والنوافل ما يلي:

أ- دعاء الله تعالى: إن الدعاء من أعظم أسباب تحقيق العبودية، وفيه من تعظيم الله الشيء الكثير، ثم فيه أيضًا: إظهار الذل والانقياد وتسليم الأمور إلى الله تعالى، وإظهار افتقار العبد لربه ومولاه، وقد أمر الله به في كتابه، فقال: « وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ » (غافر: ٦٠)، وعلى العبد أن يتحرى أوقات الإجابة؛ كجوف الليل الآخر، وبين الأذان والإقامة، وعند المطر، وإذا تعارَّ من الليل، ويتأكد ذلك في يوم عرفة، فهو يوم العتق من النار، ومغفرة الذنوب، وقد كان النبي صلى الله عليه وسلم يحرص على دعاء ربه فيه، كما ورد عن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال: «كنتُ رديفَ النبي صلى الله عليه وسلم بعرفات، فرفعَ يديْه يدعو فمالت بِه ناقتُهُ فسقطَ خطامُها، فتناولَ الخطامَ بإحدى يديْه، وَهوَ رافعٌ يدَهُ الأخرى» (صحيح النسائي ٣٠١١).

ب- الصيام لدخوله في الأعمال الصالحة، وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصوم التسع الأولى من ذي الحجة، وقد روى ذلك النسائي وأبو داود عن هنيدة بن خالد عن امرأته، عن بعض أزواج النبي صلى الله عليه وسلم أنَّ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم كانَ يَصومُ تسعًا منِ ذي الحِجَّة، ويومَ عاشوراءَ، وثلاثةَ أيّامٍ من كلِّ شَهْر» (صحيح النسائي ٢٤١٦).

ولا يعارض ذلك ما رواه مسلم عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: «ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم صائمًا في العشر قط».

وقد أجاب العلماء على ذلك بأجوبة منها: أنه متأول على أنها لم تره، ولا يلزم منه تركه في نفس الأمر؛ لأنه صلى الله عليه وسلم كان يكون عندها في يوم من تسعة أيام والباقي عند أمهات المؤمنين رضي الله عنهن، أو لعله صلى الله عليه وسلم كان يصوم بعضًا منها في بعض الأوقات، وكلها في بعض الأحيان، ويتركه في بعضها؛ لعارض سفر أو مرض، أو غيرها، وبهذا يُجمع بين الأحاديث. (المجموع للنووي ٣٨٧/٦).

ويتأكد تأكدًا شديدًا صيام يوم عرفة من التسع لغير الحاج، لما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لما سُئل عن صوم يوم عرفة، «يُكفر السنة الماضية والباقية» (مسلم: ١١٦٢).

ج- الإكثار من ذكر الله: ذكر الله تبارك وتعالى من أفضل الأعمال، ويكفي أن نقرأ قول الله تعالى: « ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ » (الرعد: ٢٢)، وقد قال ابن عباس في قوله تعالى: «وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِىٓ أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ » (الحج: ٢٨)، الأيام المعلومات هي أيام العشر، وذكره البخاري عنه، وقال: وكان ابن عمر وأبو هريرة رضى الله عنه يخرجان إلى السوق في أيام العشر يكبران ويكبّر الناس بتكبيرهما، وكبّر محمد بن علي خلف الناقة. (فتح الباري../٤٥٧).

وقال النووي رحمه الله: «واعلم أنه يستحب الإكثار من الأذكار في هذه العشر زيادة على غيره، ويستحب ذلك في يوم عرفة أكثر من باقي العشر». (الأذكار ص٣٨٩).

ويجتمع المسلمون في سائر أقطار الدنيا في اليوم العاشر وهو يوم العيد لصلاة العيد، وإظهار هذه الشعيرة ويكبرون الله تعالى، وهو يوم الحج الأكبر على الراجح من أقوال أهل العلم، والأعمال الصالحة لا تنتهي ولا تنقضي، فعلى المسلم الحرص على بذل الطاعة في هذه الأيام مع سؤال الله القبول.

وفق الله الجميع لما يحب ويرضى.